مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

وفيه

بيان مطامع الصهيونيين

ودلائل أطماعهم وما ورثوه في الأقطار، وكشف عداء اليهود وهجرة أهالي فلسطين

يا أهالي فلسطين! ويا أيها العرب والمسلمون! اقرؤوا هذه المحاضرات

على سورة يوسف، تعرفوا ما انطوى عليه الصهيونيون وما أضمروه من المطامع

بقلم

عبد الله العلمي

(الغزي الدمشقي)

أستاذ ومدرس وخطيب الأقران والتفسير والحديث في الجامع الأموي بدمشق سابقاً

دار الفكر

مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

وفيه

بيان طبائع الصهيونيين

وأن طبائع الآباء موروثة في الأبناء، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين

يا أهالي فلسطين! ويا أيها العرب والمسلمون! اقرؤوا هذه المحاضرات على سورة يوسف، تعرفوا ما انطوى عليه الصهيونيون مما ورثوه من أصولهم

بقلم كاتب سر المؤتمر

الأستاذ العلامة

الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي

أستاذ دروس التفسير في الجامع الأموي بدمشق سابقاً

تغمده الله برحمته ورضوانه

١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) - ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)

قدم له فضيلة الأستاذ العلامة

محمد بهجة البيطار الدمشقي

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

الطبعة الأولى : مطابع دار الفكر بدمشق

١٣٨١هـ - ١٩٦١م

مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

الجزء الأول

مطابع دار الفكر بدمشق

اهداء الكتاب

إلى ملوك الاسلام ورؤسائه وأمرائه وعلمائه

الأحياء منهم والذين عند ربهم يرزقون

« المؤلف »

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة سماحة المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

الحمد لله الذي نور قلوب المؤمنين بنور اليقين والإيمان، وشرفهم بكتابه العزيز فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين أشرف إنسان. وعلى آله وصحبه ما تعاقب الملوان.

أما بعد فلما كان أفضل ما يشتغل به المؤمن من العلوم علم الدين والقرآن، وكان ممن عني بتفسير سورة يوسف على شكل عجيب من البيان. الاستاذ العلامة النحرير الشيخ عبد الله العلمي الشهير. وقد التمس مني أن أدقق بهذا التفسير، فوجدته حوى من الفوائد ما فتح كل عسير. وهو حري بالنشر ليفوح منه طيب العبير. فأسأل الله تعالى أن يجزيه الثواب العظيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ولنا وله ولكل المسلمين آمين.

دمشق في ١٣٨١/١/٩ و ١٩٦١/٦/٢٢

المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

هذا التفسير

بقلم ابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي

لقد شغف والدي ـ تغمده الله برحمته ـ بكتاب ربه منذ نشأته العلمية والدينية وخاصة بعد تخرجه في الأزهر الشريف في عام ١٣٠٢ هـ ، فصرف كل وقتـــه وجهده في الدرس والتمحيص عن مكنونات القرآن الكريم ، والبحث والتنقيب عن دفائنه ، ولمـا اختمرت آراؤه ونضجت أفكاره ، شرع في عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) في تدوين تفسير آيات القرآن التي له فيها رأي وفهم خاصين ، فجاء فيما يقارب الـ ٤٠٠ صفحة مخطوطة من القطع المتوسط . ولما أتى على سورة يوسف عليه السلام ، رأى أن يضع لها تفسيراً جامعاً كاملاً من ألفها إلى يائها ، لما جاء في قصة يوسف من تصوير لشتى العواطف والنوازع الإنسانيـة ، فأحلام الشباب ، ونظام الأسرة ، وعلاقة الأخ بإخوته ، وطبيعة المرأة ، وأخلاق الملوك والأمراء والحـكام ، وسمو الأنبياء ، كل ذلك مصور فيها تصويراً فذاً رائعاً محكماً ، كما أن فيها دروساً نفسية تعالج كثيراً مما نعانيه اليوم في حياتنا الخلقية والاجتماعيـة من المشاكل ومن السيئات ، كما أن بطلي القصة ، الملك ويوسف يمثلان نوعـــين من الحضارة والثقافة أحدهما يمثل الثقافة والحضارة الفرعونية وثانيهما يمثل الثقـافة والحضارة العبرية .

والأقاصيص الأخرى ، كقصص موسى وفرعون ، وموسى وهرون ، وهود وعاد ، وصالح وثمود ، وابراهيم والـكلدانيين والفلسطينيين و ... الخ، لم تجمع من العظات والعجائب ، مثلما جمعته قصة يوسف (ع) ، ولم تتضمن قصة من

القصص ، من المبكي والمنكي،والمدهشات والمنعشات ، والتطورات والانقلابات، ونصب الأحابيل ، والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفراق، والرحلات والانتصارات ، واللذة والعبرة ، والمقدمات والنتائج ،والصبر والفرج ، والحكم والعبر،والفوائد النافعةفي الدين والدنيا ، كسير الملوك والمماليك، وحسن السياسة وتدبير الملك وإقامة العدل ، ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائعهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين ، لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصة يوسف (ع) .

(وعدا ذلك فالقصة تعطينا صورة طبق الأصل لدرس حياة الشعب الاسرائيلي وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء ، وحب واساءة واحسان ، وتعلمنا أن النتيجة أو الغاية عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت منحطة، وهوشأنهم من القديم ، وحال سلائلهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، وقد قص الله علينا مفاوضة الاخوة في قتل أخيهم يوسف : (اقْتُلُوا يوسُفَ أو اطْرَحوهُ أرضاً يَخْلُ لكم وجْهُ أبيكم) « يوسف ٩ » ليوقفنا على بعض طبائع الاسرائيليين التي منها اجماعهم على شر الشرور لكي نعتبر ونكون دائماً على حذر من سلائلهم-أبناء العم !! ـ الصهيونيين الذين كأنما قانون الوراثةقد ظهر فيهم بأجلى أمثلته ، وليعلمنا أن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء الأجداد ،هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية الذين يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب ، الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب موطنهم وأرضهم ، وتدمير اقتصادياتهم ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشهم ، كما أنهم يريدون طرح أبناء عمومتهم العرب أرضاً لكي يكونوا أكثرية في فلسطين فيشكلوا دولتهم

الصهيونية الخيالية !! ويكونوا من بعد هذا كله (قوماً صالحين) تصلح لهم أمور دولتهم،ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا محتطبي حطب ومستقي ماء لكل جماعة).[١]

وأما السورة فقد جعلها الله تعالى سبباً من الأسباب التي يظهر فيها حكمه ، ووسيلة من الوسائل التي يرشد الناس بها للعبرة والعظة ، والرجل العاقل لا يقرأ هذه السورة لما فيها من التاريخ فحسب ، بل لما حوته من العظات ، وما اشتملت عليه من الحكم ، وما تضمنته من الأمثال وعجيب التدبير الإلـهي،والمسائل الاجتماعية والعبر الربانية ...

وقد أطلق المؤلف ـ رحمه الله ـ على هذا التفسير اسم « مؤتمر تفسير سورة يوسف » لأنه ألفه على لسان مؤتمر[٢] مفترض عُقد في المسجد الأقصى من بيت المقدس ودُعي إليه عدد كبير من علماء المسلمين والمسلمات الاعلام، من شتى البلاد والأمصار ، ومن مختلف الأجناس والألوان والهيئات والاختصاصات ، للاشتراك في تفسير هذه السورة الكريمة . وافترض لأعضاء المؤتمر أسماء رمزية منسوبة إلى بلادهم أو اختصاصاتهم أو غير ذلك ، وجعل المؤلف نفسه سكرتيراً أو رئيساً للمؤتمر بحيث أنه يقرأ هو الآية على الأعضاء ، فيقوم أحدهم ويذكر لها تفسيراً ، وهذا التفسير اما أن يكون مذكوراً في كتب التفسير أو في غيرها فيُعزى عندئذ لصاحبه ، واما أن يكون غـير مذكور أو يكون من مفهوم ورأي الرئيس ـ المؤلف ـ فيرمز إليه بقوله :

« خذ ما آتيتك » أو « وإليك البيان وهو من مواهب الرحمن » أو « ونحن

---

(١) من اقوال المؤلف قبل ست وعشرين سنة

(٢) كما كان يقول المؤلف ذلك .

نقول » أو « فافهم ، فافهموا » وإذا اختلف أعضاء المؤتمر في تفسير آية ما ، فصل الرئيس في الموضوع ، إما بمشاطرة قائله ، أو بالتعليق عليه ، أو برده بالحجة والبرهان . هذا ولم يغمط المؤلف حق المرأة في هذا المؤتمر ، بل أشركها فيه لبيان رأيها في الآيات التي تخص بنات جنسها خاصة ، وكلي الجنسين عامة ، مراعياً بذلك مكانة المرأة المسلمة العالمة ، ومعيداً به ما كان يجري في عهد الرسول ﷺ ، وعهود خلفائه الراشدين رضي الله عنهم .

ولم يقتصر هذا المؤلّف على التفسير البحت لسورة يوسف (ع) بل تضمن مباحث تاريخية وأدبية ولغوية وأخلاقية واجتماعية ، وتضمن تحقيقات علمية ودينية وتفسيرية شتى ، وتضمن ردوداً على مفتريات دعاة النصرانية على الدين الاسلامي والقرآن الكريم .

فانظر إلى مقدمة التفسير ، تجده قد ذكر لك نبذة تاريخية عن حياة كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

وذكر فيما بعدها تحقيقات شتى عن الناسخ والمنسوخ والمتشابهات في القرآن ، ثم جمع القرآن ، لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ، ترجمة القرآن ، اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية ، مقابلة بين آيات قصة يوسف في القرآن وفي التوراة ، قصص التوراة ، الوحي ، ضرر تعدد الزوجات ، حال التاريخ قبل الإسلام وبعده غلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة ، الاسترقاق ، رد على زعم دعاة النصرانية بشأن تحرير الرقيق في الإسلام ، المرأة وفضليات النساء في التاريخ ، عقيدة الإيمان الكاملة بالله ، أركان الإيمان الستة ونصوص عقيدة التوحيد في الانجيل ، التثليث عند شتى الأمم ، فرق النصارى الشهيرة ، وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود القيامة ، الرد على النصارى في اعتقادهم بالوهية المسيح ، الدين والعلم أخوان ، التوسل ، الدين الإسلامي والسعي في الدنيا ، التصوف في

الإسلام ، التزهيد والبراءة من الدنيافي الشريعة المسيحية ، عقيدة الصلبوالفداء، قدر الله،من تاب غفر الله لهوالمغفرة في التلمود والانجيل ،أنواع الادعية فيالقرآن، الإسلام دين جميع الرسل ، الأصل في دعوى المسيح وموسى التوحيد المطلق ، الدين الإسلاميقام بالحجة لابالسيف والقوة، محمد (ص) مؤسس أمةوامبراطورية وديانة ، القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد وأصول الدين وكتب التوحيد والكتب السماوية الأصلية ،شواهد من التوراة الحالية على أن فيها زيادة وأنها كتبت بعد السبي .

وعلى ذلك فالكتاب والحالة هذه ، يعد أهم مرجع للعلماء والهداة والخطباء والوعاظ والمدرسين والأدباء والمرشدين،ويعد خير معلم لطلاب العلم والدينالمشتغلين في البحث والدرس لا سيما دروس الدين وأصول التفسير والجدل الديني .

وقد انتهى المؤلف ـ رحمه الله ـ من تأليفه هذا قبيل وفاته (عام ١٣٥٥ هـ و ١٩٣٦ م) بقليل ، أي قبل أربع وعشرين سنةونيّف ، ولم يكن من المتيسر لنا نشره آنذاك لأسباب عدة ، ولعل من توفيق الله أن تهيأ الفرصة الآن لنشرهفي هذه الفترة من الزمن ، التي تطورت فيها الروح العربية ، واتجه فيها تفكير المثقفين إلى المباحث الدينية على أسلوب علمي ، كان المؤلف رحمه الله ، يلتزمه في كل مباحثه ودراساته .

وأخيراً ها هو الكتاب الآن بين يديك ، ومنه تتعرف على المؤلّف ، إذ ليس من حقي أن أطري هذا الأثر الديني العلمي أكثر من ذلك ، لأنه من آثار أبي ، بل إني أقدمه للقراء وقد جاء فيه طابع مؤلفه ، وجاءت فيه قوة روحه وإيمانه ، وجاء فيه مبلغ كفاحه في إعلاء شأن كلمات ربه وكفى .

تقديم الكتاب

لفضيلة علامة الشام الأستاذ محمد بهجة البيطار الدمشقي
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عرفت فقيد الإسلام الكبير العلامة الجليل الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي الغزي ثم الدمشقي (رحمه الله تعالى) منذ حل ربوع دمشق في عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٨ م)، فعرفت من علومه ومعارفه ، ومن مزاياه وخصائصه ، ما كان به نسيج وحده . كان رحمه الله شيخ العلم والكرم ، فلم يتفق لي أن زرته مرة خلال هذه المدة الطويلة ، إلا ورأيت علمه وكرمه يتجاريان ، وإن أدري أيهما كان يسبق الآخر ، ولكنهما كانا فرسي رهان .

لفقيدنا العظيم مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ، ولكن أجلّ ما شرفني بالاطلاع عليه من مخطوطاته هو تفسيره الكبير لسورة يوسف عليه السلام ، فقد قرأت له نحواً من خمسين كراساً في تفسير هذه السورة ، كل واحد منها يبلغ نحو أربعين صفحة بالقطع المتوسط ، وهو لعمري آية من آيات إبداعه وشغفه بكتاب ربه ، وصرفه كل ما يملك من وقت وعلم في هذه السبيل ، وقد رتبه رحمه الله ترتيباً غريباً خالف فيه أسلوب المفسرين ؛ ذلك بأنه عقد ليوسف وأبيه واخوته عليهم السلام مؤتمراً في بيت المقدس من أرض فلسطين موطنهم وموطن المؤلف الأول ، ودعا إليه مئات العلماء من أقطار العرب والإسلام .

وطريقته في التفسير أنه يورد الآية ثم يعرضها على أعضاء المؤتمر في الجلسة المنعقدة لتفسيرها، وبعض ما يورده معروف في كتب التفسير، ومعزوّ إليها أو مشهور

فيها ، وبعضه مما استفاده المفسر من مطالعاته في غيرها ، ومنها ما هو من تحقيقاته وآرائه الخاصة ، فإذا اختلف مفسرو الأقطار الحاضرون في المؤتمر في تفسير آية كان للاستاذ رئيس المؤتمر القول الفصل في الموضوع ، فهو تارة ينصر بعض هذه الأقوال على بعض ، وتارة ينفرد عنهم بقول آخر ، وهو يوجه القول ويعززه بالدليل والبرهان .

ولما تكلم عن امرأة العزيز ونسوة المدينة، أخذ يردد أقوال مندوبات الأقطار، وهن يذكرن من أطوار النساء وأخلاقهن ما فيه العظة والعبرة .

ومن مباحثهن في تفسير الآيات المتعلقة بهن ما يعيد لك عهد المفسرات المحدثات في عصور الإسلام الذهبية، ولنورد مثالاً من هذا الحوار في معاني الآيات الكريمة، وهو يمثل لك هذا التفسير العجيب أصدق تمثيل ، ويغني عن الإطالة في وصفه :

(طلب ملك مصر ليوسف عليه السلام)

سورة يوسف الآية ٥٠ :

« وقالَ الملكُ ائتُوني بِهِ ، فلمّا جاءَهُ الرّسولُ ، قالَ : ارجعْ إلى رَبّك فاسألْهُ مابالُ النِّسْوةِ اللاّتِي قَطّعْنَ أيدِيَهُنّ ، إنّ ربي بكيْدِهِنّ عليمٌ »

افتتحت الجلسة، وتليت الآية الخمسون، فقامت السيدة إنصاف الدمشقية وقالت:

(القصر يطلب يوسف)

كان رئيس السقاة قد رجع من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا ، وهو يطوي الطريق طياً ، حتى حضر بين يدي الملك ، فاقتص الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكاها له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك ، وأحب يوسف « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة : مرحى !! اذهبوا

حالاً ، و (ائتوني به) أي بيوسف ، فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لا سيما في الشؤون الاقتصادية .

فآض رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك الذي اسمه « نبو » ، أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأنى يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب : إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب إليّ ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (إلى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) ياللعجب !! (ما بال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم ما دعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في نحورهن . »

« وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما مكث في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسيهما يقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ، فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، ففي الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » اهـ .

أكتفي بهذا القدر اليسير من تفسير هذه الآية الكريمة الذي استغرق صفحات وفيه من الفوائد الدينية والأخلاقية والأدبية والعلمية والتاريخية الشيء الكثير .

بهذا الأسلوب الشائق قد فسر رحمه الله سورة يوسف كلها ، وهو الأسلوب القصصي الذي جرى عليه ثلة من أرقى كتاب العصر ، وسبق إليه الكتاب العزيز

كما تراه فيما قص الله علينا من محاورات الرسل عليهم السلام مع أقوامهم ؛ وكتاب الله يمتاز بإيراده أحسن القصص وأصدقه وأعفه، ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾، ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ وباجتنابه القصص الخيالي والغرامي المفسدين للآداب والأخلاق الطيبة .

أنفق فقيد الإسلام الأستاذ العلمي رحمه الله في هذا التفسير شطراً كبيراً من وقته وعمره ، وأودعه خلاصة علمه وتحقيقه ، وكانت أوقاته معمورة بالتدريس والتأليف ، وقد استفادت المدارس من أفكاره الدينية وأخلاقه المحمدية ، ولا سيما مدارس الاناث ، كما استفاد الطلاب والطالبات بل المعلمون والمعلمات ، من دروسه الخاصة التي كان يلقيها في داره على الصنفين ـ كل على انفراد ـ إيماناً واحتساباً .

كان رحمه الله يأخذ على دمشق الشام اشتغالها بالحديث أكثر من التفسير ، ويقول : « إن كتاب الله هو الأصل الأصيل ، وإن أنظار الأمم وأفكارها متجهة إليه وحائمة حوله أكثر ، فلم لا نتوفر على دراسته والدعوة إليه ودفع المطاعن عنه ، ونجعل السنة ـ كما جعلها الله تعالى ـ مبينة له ، لا مستقلة عنه ، فندرسها دراسة تطبيق على كتاب الله تعالى . »

إن أفضل عمل نقوم به خدمة للكتاب العزيز ؛ ووفاء للراحل الكريم ، رحمه الله ، هو أمران : (الأول) أن يقوم رجال من ذوي الغيرة بطبع مؤلفاته المخطوطة ، (الثاني) أن نخصص عشرة من أبنائنا وعشراً من بناتنا (كل مستقل عن الآخر) لدراسة علم القرآن والحديث ، وما يحتاجان إليه من سائر العلوم العربية والشرعية وغيرها ، فيجددون لنا علم الدين ، وعهد أئمته السابقين ، ويحققون رجاء فقيد الأمة الشيخ العلمي في تفسيره ، فيصبح أقطاب مؤتمره التفسيري اليوسفي أعلاماً لمفسرين ومفسرات ، هم في عالم الحس والحقيقة ، بعد أن كانوا في عالم الغيب والخيال .

دمشق : محمد بهجة البيطار

بسم الله الرحمن الرحيم

AL MANAR

REVUE

14, Incha St. — Cairo

Tel. 43349

دار المنار

مجلة ومكتبة ومطبعة

شارع الانشا رقم ١٤ — مصر

رقم التليفون ٤٣٣٤٩

القاهرة في ١٥ صفر سنة ١٣٥١ الموافق سنة ١٩٣

حضرة الأخ في الله عز وجل الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله العلمي حفظه الله ونفع به

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد فإن أخي وأخاكم وصديقي وصديقكم الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار ما زال يحدثني المرة بعد المرة بما يسرني من أخباركم وتوفيقكم لخدمة كتاب الله تعالى وقد أثار شوقي للاطلاع على كتابتكم في تفسير سورة يوسف عليه السلام وما فتح الله عليكم فيه مما لم يسبقكم إليه أحد من المفسرين المعروفين، وإني لا أستكثر ذلك على روحانيتكم وسعة اطلاعكم على كتب اليهود والنصارى وغيرهم مما هو مادة واسعة للاستنباط. فعسى أن تمنوا علي بإرسال هذا التفسير كله أو ما تختارون منه لاطلاعي عليه واستفادتي منه ثم أخبركم برأيي فيه وما أراكم تكرهون ذلك فإنه قد يكون مذكرا بما لا يخلو من فائدة. وأخص بالذكر من هذا التفسير وجه نصيحة يعقوب عليه السلام لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة والعلم الذي خصه الله تعالى به في قوله (وإنه لذو علم لما علمناه) وكذا شعوره الروحاني الذي عبر عنه بقوله (إني لأجد ريح يوسف) ورأيكم في شدة حزنه على يوسف مع اعتقاده بوجوده ورجائه في لقائه الخ والسلام عليكم من أخيكم

[illegible]

« هذه الرسالة من الأستاذ الإمام السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أرسلها إلى صديقه الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي في ١٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ يطلب فيها منه أن يطلعه على كل أو بعض كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف ».

التعريف بمؤلف الكتاب

الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد علي عمار الدمشقي

الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي : هو الأستاذ الإمام ، المفسر الكبير لكتاب الله تعالى ، والمجتهد الخطير ، وصاحب الآراء الحرة السديدة ، والتآليف النافعة المفيدة ، الاخصائي الفريد في علم الجدل والمناظرة ، والمجدد لأفكار سلف الأمة الصالح ، ورابع المصلحين الذين ظهرت كواكبهم في سماء الاصلاح الديني ، وانبعث منهم روح النهضة الإسلامية في مصروالشام، وفي مقدمتهم الأستاذ العلامة الحكيم الشيخ جمال الدين الأفغاني ، ثم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ثم فضيلة عالم الشام الإمام الشيخ جمال الدين القاسمي ثم فضيلة أستاذنا المعرف به رحمه الله تعالى ؛ فهؤلاء بلا شك ، هم عظماء الأمة الإسلامية في القرن العشرين .

ولادته ونسبه : ولد رحمه الله في سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) في بلدة غزةهاشم من أعمال فلسطين ، في بيت من بيوتات المجد والشرف ، ومن أسرة مشهورة بالعلم والصلاح .

وأبوه محمد بن صلاح الدين بن مصطفى بن صلاح الدين بن مصطفى بن سعد الدين بن نور الدين من آل (العلمي) الكرام وهو نسب يرجع في الأصل إلى قبيلة عربية من قبائل المغرب منسوبة إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولذا يلقب (بالعلمي الحسني) .

نشأته ودراسته : بعد أن تعلم القراءة والكتابة ومبادىء اللغة والعلوم في مدارس غزة الابتدائية ، رغب في طلب العلم فشرع يقرأ على علمائها الأعلام .

كالشيخ سليم العلمي والشيخ عبد اللطيف الخازندار والشيخ عبد الوهاب العلمي وأخيه الشيخ حسن العلمي وشيخ مشايخ غزة الشيخ راشد المظلوم .

ولما بلغ السادسة عشرة من العمر سافر إلى مصر في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) والتحق بالأزهر الشريف ، ومكث فيه يتلقى العلم مدة سبع سنوات فاق فيها أقرانه حتى لقبوه (بالشيخ) ، قبل أن ينهي دراسته ، وجعلوه علماً عليه ، وهو تلميذ بعد . وقد روي عن أحد زملائه المعاصرين له خلال الدراسة في الأزهر ، وهو العالم الصوفي ، الأستاذ الشيخ عبد الخالق الشبراوي المصري المتوفى سنة ١٣٥٣هـ أنه قال : (كنا في كل عام قبل حلول موعد العطلة الصيفية الأزهر نتسابق إلى دعوة الشيخ العلمي ، حينما كان تلميذاً فيه ، إلى بلادنا خارج القاهرة للانتفاع من علمه) .

هذا وقد قرأ الاستاذ الفقيد في الأزهر على الشيخ شمس الدين الاشموني ، والشيخ شمس الدين الأنبابي (شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك)، والشيخ محمد البجيرمي، والشيخ شمس الدين البجيرمي ، والشيخ شهاب الدين أحمد الرفاعي ، والشيخ إبراهيم الظواهري ، والشيخ شمس الدين الجيزاوي (شيخ الجامع الأزهر آنئذ) .

وفي عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) رجع إلى بلده غزة فنال حظوة عظيمة من أهلها وعد من كبار العلماء فيها ، وبدأ يقوم بنهضة علمية فيها واسعة النطاق، فانهال عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب ، فكون أزهراً صغيراً في الجامع العمري الكبير في غزة ، وقرأ عليه كثيرون . وكانت دروسه أشبه بالمجالس النيابية إذ كان يطلب من كل تلميذ أن يبدي رأيه في الموضوع بحسب الشرع والعقل ، ثم يبين ويشرح للمصيب إصابته وللمخطىء خطأه بالدليل والبرهان ، فعود بذلك تلاميذه على التفكير والاستنباط في كل مسألة ، وبذا نبغ على يده علماء فطاحل ، كان

ولا يزال الحي منهم نبراس الهداية الإسلامية وركناً من أركان الهيئة الاجتماعية وأساساً للنهضة الفكرية التحررية ، وكل ذلك دون مقابل مادي، بل إيماناً واحتساباً لوجه الله تعالى مع فقره واحتياجه ، إذ كان ينفق عليه إذ ذاك والده السيد صلاح الدين رحمه الله ، إلى أن توفاه الله فالتجأ عندها الشيخ إلى العمل الحر والاشتغال بالتجارة حيث افتتح له « دكان عطارة » فاستن بذلك سنة طيبة لعلماء غزة ، وهي سنة العمل والاشتغال والكسب الحلال بعرق الجبين للترفع عن الصدقات والتبرعات والمساعدات .. واستغلال العلم للمادة .

تقلده المناصب : لقد اسندت الحكومة إليه في غزة عدة وظائف كان له فيها أثر ظاهر من التحسين والاصلاح والاخلاص ، ثم سافر إلى بيروت حيث عين فيها استاذاً للغة العربية في إحدى مدارسها ثم مدرساً لتفسير القرآن الكريم في جامع المجيدية فيها ، وكان يحرر باب التفسير في مجلة « الروضة » البيروتية لصاحبها السيد محمد علي القباني ؛ ثم عاد إلى بلده غزة حيث عين فيها في وظائف حكومية أخرى؛ وفي أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦ ﻫ (١٩١٨م) هاجر باسرته إلى دمشق قبيل احتلال الانكليز إلى بلده غزة ، فعينته الحكومة مدرساً للتفسير في جامع بني أمية ومدرساً للعلوم العربية والدينية في مدارس الاناث التابعة لوزارة المعارف إلى أن دخل في سن التقاعد ، واستمر هكذا يدرس التفسير الشريف في داره أو في مجالس العلم الأخرى إلى أن توفاه الله إلى رحمته تعالى .

أخلاقه ومزاياه العلمية : كان رحمه الله على جانب عظيم من الأخلاق العالية والصفات السامية ، يحترم أي شخص يجيء إليه ويكرمه غاية الاكرام ، وكان وفياً جداً لا يخلف وعداً ولا يؤخر موعداً ولا ينقض عهداً ولا موثقاً ، وكان

محباً للناس عموماً لا يفرق بين عظيم وحقيرولا بين صغير وكبير ، وكان متواضعاً حتى بين تلاميذه كأنه واحدمنهم لا فرق بينه وبينهم ، وكان بشوشاً جداًلاتفارقه الابتسامة عند لقاء أي انسان ، وكان رحمه الله حسن المعشر وحلو الحديث يسر بمجلسه العظماء ويستأنس به الفقراءويستفيد من مذاكراته العلماء وتتنبه بمعاشرته عقول الجهلاء .

كان رحمه الله يحث تلاميذه على البحث والاستقلال الفكري ليكون لديهم المراس الكافي للاستنباط والتفكير الصحيح ، كما كان رحمه الله متمسكاً بالاسلام الصحيح بعيداً عن البدع والأوهام ، مناهضاً للجمود بلسانه وقلمه وشعره ونثره وقد لقي من جراء ذلك العنت الكثير ممن لاخلاق لهم من مدعي العلم المتطفلين عليه. فكانوا يشاغبون عليه حينما كان يلقي دروس التفسير في الجامع الأموي ، بل كانوا يشتمونه ويلقبونه بشتى الألقاب والنعوت التي منها كلمة « وهابي » مثلاً .

كان بحاثا في كل شيء دؤوباً على المطالعة والدرس والتمحيص لا يكل ولا يمل قوي الذاكرة ،وكان إذا استفتاهأحد يجيب سائله بما يناسب استعدادهواستطاعته لا يتقيدبمذهب واحدتيسيراً على المسلمين إذ كانيقول : « نفتيهم بالأسهل منأقوال الأئمة لئلا يقعوا في الترك ، لأن النبي ﷺ هكذا كان يفعل » . وله رحمه الله آراء خاصة في التفسير خالف فيها جمهور المفسرين وله فيها دلائلوبراهين ضمها في طيات تفسيره الكبير الذي اشتغل فيه ما يربو على العشر سنين .

وقد تخصص رحمه الله في تفسير القرآن الكريم وفي مجادلة من يسمون « بالمبشرين » من الديانات الأخرى ، وقد درس لأجل ذلك التوراة والأنجيل وتفاسيرهما وشروحها على علماء اليهود والنصارى ، كما درس على المتخصصين من العلماء علوم الجغرافية والتاريخ والرياضة والفلك وعلوم المواليد الثلاثة والفلسفة

الطبيعية ليفهم القرآن حق الفهم وليفهمه للناس بلغة سهلة مسايرة للعقل والعلم والتاريخ وليبرزه أمام العالم أنه هو الكتاب الحق الواجب اتباعه .

كان رحمه الله مرجعاً للعام والخاص عند حل المشكلات ودفع الشبهات عن كتاب الله تعالى وعن سنة نبيه ﷺ ، وكان طيلة حياته ينشر العلم الصحيح ويحارب البدع ويستنبط من كتاب الله الكنوز الثمينة المدفونة من حين وفاة الرسول ﷺ ، كما كان الحصن الحصين لكتاب الله وسنة رسوله من شبـه « المبشرين » والملحدين ، وقد اعطاه الله صدراً واسعاً وحكمة بليغة ، ولساناً نطوقاً ، وافكاراً نيرة ، أعطاه الله هذه المواهب هبة خاصة له لم نرها في غيره من العلماء المعمرين ، وقد ترك من آثاره العلمية ردوداً مفعمة على « المبشرين » من رجال الاديان الاخرى ، وعلى الملحدين من غيرهم ، كما ترك تحقيقات وفوائـد على كثير من الآيات القرآنية مما خلد ذكره ، ويوجب على الامة الاسلامية ان تدعوا اليه بالرحمـة والمغفرة وان يجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، هذا عدا عما ترك لنا من العلماء الحقيقين في غزة وفلسطين ثم في سورية ، وحق علينا أن نعزي به المسلمين والاسلام أولاً وانفسنا ثانياً .

شعره : للاستاذ العلمي رحمه الله تعالى ، شعر رقيق ونظم رشيق يعـد في الطبقة الثانية ، وقد قال اكثره في العلوم والحكم والقضايا الاجتماعية والاخلاقية، فمن شعره قصيدته الاجتماعية المشهورة التي كان القاهـا في احدى محاضراته في المجمع العلمي العربي بدمشق والتي عنوانها « الطلاق ومساوئه » ،ومنه ايضاً قصيدته الاخلاقية التي عنوانها « تأوهات ابن العلمي »

مؤلفاته المطبوعة :

١ ـ رسالة (البصيرة على بيتي الجبيرة في مذهب الامام الشافعي) وهي

رسالة جامعة لجميع صور الجبيرة مع ما يتعلق بهـا من الاحكام ،طبعت في مصر سنة ١٣١٣ هـ .

٢ ـ رسالة (الالماع على بيتي الرضاع في مذهب الامام الشافعي«ر ض» ، وهي رسالة تشرح بيتي الرضاع للامام جلال الدين القونوي ، وقد تكفلت بذكر جميع الاشخاص التي يتعلق بها حرمة الرضاع من الاصول والفروع والحواشي والقواعد المتعلقه بذلك . طبعت في مصر سنة ١٣١٧ هـ .

٣ ـ رسالة (البرق الوامض في شرح متن الفرائض المشهور بالرحبية) طبعت في مصر سنة ١٣١٨ هـ

٤ ـ رسالة (الحديقة في مولد خير الخليقة) وهي قصةمنثورة للمولد النبوى. طبعت في القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٥ ـ رسالة (صبح الدجى في شواهد صور المحاسن الشبيهه بحروف الهجا) ، وهي مقطوعات شعرية غزلية طبعت في القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٦ ـ رسالة تشتمل على أربع منظومات : الاولى تسمى (زورق البحور فيعلم العروض المشهور) والثانية باقة الرياض الغزلية في مدح خير البرية ومدح الخلفاء الأربع والامام الحسين الأرفع) والثالثة (الكوثرية في مدح خير البرية) والرابعة (مدح العجوز بالقدح المرموز) وهي عبارة عن قصيدة منظومة في الدنيـــا على طريقة السادة الصوفية اشارة الى ان الدنيا تظهر صورها القبيحة في صور جميلة حتى خدعت ذويها وغرت محبيها . طبعت في مصر سنة ١٣١٧هـ .

٧ ـ رسالة (النور دجة في قصة المولد الأرجة) وهي قصة المولد النبوي معمولة على كيفية نظم المزدوجة بحيث جعل الناظم المصراع الثالث من كل تخميسة آية قرآنية بدون تغيير للفظها بحيث تناسب المقام ، وقد التزم ذلك من اول المولد

لآخره مع غاية المناسبة والانسجام بحيث يخيل للقاريء كأن الآية القرآنية سبقت ونزلت لافادة المعنى الذي حاوله الناظم بعد الاقتباس ، وهذا هو السحر الحلال ، ومثاله :

الحمـــد لله بليغ الحكمـــة جاد بمـــولد النبي نعمـــهْ
لكلِّ شيءٍ وهدىً ورحمة) يرحم عرب خلقـــه وعجمهْ
بيمن نور المصطفى من فهر

وقد طبعت في القاهرة في سنة ١٣٣٥ ه ثم اعيد طبعها في دمشق في سنة ١٣٥٠ه بعد ان أجرى المؤلف تنقيحاً بسيطاًفيها ثم غير اسمه باسم (المورد الندي في قصة المولد المحمدي) .

٨ ـ رسالة (الابهاج في قصتي الاسراء والمعراج) وهي نظم مخمس كل ثالث مصراع منه آية قرانية، كرسالة المولد السالفة الذكر ، ومثاله :

بسم الذي أسرى بطـه مكرمـا ثم عليـــه بالعروج أنعما
(واللهُ واسعٌ عليمٌ إنمـــا) دعاه عنـــده الى اعلا سمـــا
لأنه أدعى لمعنى الفخرِ

وقد طبعت في بيروت سنة ١٣٢٤ ه

٩ ـ كتاب (الحرية والمبعوثان من تعاليم القرآن) وهو كتاب يثبت مشروعية مجالس المبعوثين (مجالس النواب) في القرآن الكريم ، كما يبـــين ان المساواة والحرية من تعاليم الكتاب الحكيم ، وان الاسلام وجد وبجانبه سلطة مقيدة بالآيات القرآنية ، وذلك بمناسبة اعلان السلطان العثماني عبد الحميد ، دستور البلاد العثمانية إذ ذاك ، وتساؤل البعض عن شرعية مجلس المبعوثين الشوروي، وعن الحرية وهل هي موافقة للشرع ، ثم رداً على ما كان يقوله البعض الآخر بأن الحرية تنافي روح

القرآن وان الاسلام وجد وبجانبـــه سلطة مطلقة .. والخ طبع في بيروت في سنة ١٣٢٦ هـ.

مؤلفاته المخطوطة :

١ ـ رسالة (الوعظ والارشاد) وتتضمن الدروس الدينية والاخلاقيـة التي كان يلقيها المؤلف رحمه الله على المستمعين لدروسه في جامع بني امية بدمشق حينما كان أستاذ دروس التفسير فيه .

٢ ـ رسالة (مختارات العلمي من صحيح البخاري وصحيح مسلم « ر ض ») وتتضمن بضع مئات من الاحاديث النبوية التي اختارهـــا المؤلف من صحيحي البخاري ومسلم .

٣ ـ قصيدة (أذان المؤذن أو تأوهات ابن العلمي) وهي قصيدة تشخص الامراض الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والدينية والسياسية للمسلمين وتدعو حكامهم الى تطبيقها .

٤ ـ كتاب (الشيخ والقسيس) وهو كتاب جدل ديني يتضمن نقاشاً دينياً بين شيخ وقسيس يستندالشيخ في اقواله وردوده على ما جاء في التوراة والانجيل.

٥ ـ رسالة (تحقيقات في حوادث تاريخية ودينيـــة) تتضمن ذكر الوقائع التاريخية والدينية للاديان الثلاثة مع ذكر سنة وقوعها منذ آدم (ع) حتى القرن التاسع عشر .

٦ ـ كتاب (سوانح تفسيرية) لبعض آيات القرآن الكريم ويبحث في فهم المؤلف الشخصي ورأيه الخاصين في بعض آيات القرآن الكريم .

وفاته : توفي رحمه الله تعالى في يوم الأحد في التاسع من شهر جمادى الاولى

سنة ١٣٥٥ ه (٢٦ تموز سنة ١٩٣٦ م) اثر سكتة قلبية عن عمر يناهز السبعين والخمسة أعوام ودفن في مقبرة الأسرة بحي المهاجرين بدمشق .

هذا وقد اقامت له جمعية التمدن الاسلامي الدمشقية حفلة تأبين في قاعة محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق بمناسبة مرور اربعين يوماً على وفاته ، وقد القى في هذه الحفلة عدد غير قليل من العلماء والاساتذة كلمات عددوا فيها مآثره وفضله وعلمه ومزاياه ، رحم الله الفقيد رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته ورضوانه .

دمشق في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥

الموافق ٩ ايلول سنة ١٩٣٦

محمد علي عمار الدمشقي

ايضاح الرموز الواردة في التفسير

الرمز	ايضاحه
ق . هـ	قبل الهجرة
ق . ن	قبل نبينا محمد ﷺ سنة شمسية
ق . م	〃 المسيح عليه السلام
ب . م	بعد 〃 〃 〃
آ	آية قرآنية
ع	عدد آية قرآنية
٤ : ١١	هذان الرقمان أو أمثالهما عند استعمالهما لكلمات من القرآن يرمز الرقم الأول منهما الى عدد السورة منه ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من تلك السورة . وعند استعمالهما لكلمات من الإنجيل أو التوراة يرمز الرقم الأول منهما الى عدد الاصحاح ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من ذلك الاصحاح .
تك	سفر التكوين من التوراة
تث	〃 التثنية 〃 〃
٢ صم	〃 صموئيل الثاني من التوراة
مز	〃 المزامير من التوراة
أش	〃 أشعيا 〃 〃
مي	〃 ميخا 〃 〃
٢ مل	〃 الملوك الثاني من التوراة

الرمز	ايضاحه
١ مل	سفر الملوك الأول من التوراة
خر	〃 الخروج من التوراة
لا	〃 اللاويين 〃 〃
يش	〃 يشوع 〃 〃
إر	〃 ارميا 〃 〃
يون	〃 يونان 〃 〃
عد	〃 العدد 〃 〃
حز	〃 حزقيال 〃 〃
١ أي	〃 الايام الاول من التوراة
٢ أي	〃 〃 الثاني 〃 〃
جا	〃 الجامعة من التوراة
قض	〃 القضاة 〃 〃
صف	〃 صفنيا 〃 〃
مت	〃 متى من الانجيل
لو	〃 لوقا 〃 〃
أع	〃 أعمال الرسل من الإنجيل
يو	〃 يوحنا من الانجيل
مر	〃 مرقص 〃 〃
رو	〃 رومية 〃 〃
غل	〃 غلاطية 〃 〃

الرمز	ايضاحه
١ بط	سفر بطرس الأول من الأنجيل
٢ بط	〃 〃 الثاني 〃 〃
أف	〃 أفسس من الانجيل
كو	〃 كولوسي〃 〃
تي	〃 تيطس 〃 〃
رؤ	〃 رؤيا يوحنا من الإنجيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

وفيه مقدمة تحتوي على سبعة فصول

الفصل الأول

في دفع شبهة العجاردة على سورة يوسف عليه السلام

افتتحت الجلسة الأولى من جلسات مؤتمر التفسير فقام أول متكلم وهو الشيخ أمين البئر سبعي[1] وقال :

اسمحوا لي أيها السادة الأكارم أن أذكر كلمة عن شبهة وردت على هذه السورة الكريمة ، سورة يوسف ، قبل أن ندخل في تفسير آياتها :

كان قوم يسمون « العَجَارِدَة » ينسبون إلى « عبد الكريم بن عَجَرَد » كانوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة ، أنكروا أن سورة يوسف من القرآن الكريم !!! قالوا « لأنها قصة حب وغرام ، ولأنها من السوَر الطويلة التي الشأن فيها نزولاً نجوماً !! »

(١) بئر سبع بلدة في فلسطين

هذا هو التعبير الذي عبر به بعض المفسرين، وهو تعبير يوهم أن بعض العجاردة فرقة من الفرق الإسلامية ، وإن إنكار بعض سوَر القرآن كان مذهباً من مذاهب الإسلام ، مع أن كلمة « عجاردة » عبارة عن « حماد بن عجرد » واثنين آخرين معه ، وكانوا معروفين بالإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام (انظر بن خلكان والشهرستاني وغيرهما تزدد علماً). وجوابنا عن هذه الشبهة الواهية : ان الشق الأول من هذا الانتقاد منظور فيه لبداية حادثة الحب والغرام ، دون العاقبة والنتيجة ، ودون ما تخللها من الحكم والعبر والعظات ، وأما من نظر لمجموع ماوقع لامرأة العزيز والنسوة المصريات ، وما وقع على رؤوسهن ، أي من أحاط خُبْراً بمقدمات ذلك الحب ونتائجه علم أن الحب والغرام شؤم على صاحبه ، وأن الأفضل التباعد عن أسبابه ؛ وأما الجواب عن الشق الثاني فإن سورة «الأنعام» هي من السور الطويلة ، وانها (١٦٥) آية ، وهي مكية ، ونزلت على النبي ﷺ جملة واحدة على الصحيح ؛ وكذا سورة (الكهف) هي نظير سورة يوسف في أنها مكية و(١١١) آية ، ونازلة مرة واحدة ؛ وثالثاً سورة (التوبة) هي (١٣٠) آية نزلت كاملة مرة واحدة بالمدينة ؛ وهؤلاء « العجاردة » الجهلاء لم يقولوا في هذه السوَر الثلاث : « انها ليست من القرآن » وأيضاً فالذي سنقرره سبباً لنزولها يقتضي أن تنزل على النبي ﷺ مرة واحدة ، وإليك البيان ، وهو من مواهب الرحمن :

علم الله تعالى أن قريشاً ستكيد للنبي ﷺ وتناوئه ، وتعمل معه أعمال رؤساء الأسباط مع أخيهم « يوسف » ؛ فأنزل عليه « وهو بمكة » هذه السورة كاملة مرة واحدة ليحيط علمه بما سيقع له من قريش ، فكأن الله تعالى يقول لنبيه : « أيها النبي الكريم ، ها أنا ذا أنزلت عليك هذه السورة ، لتعلم ماذا صنع رؤساء الأسباط مع أخيهم يوسف ، فتقيس أحوال قريش على أحوال هؤلاء وتقيس شخصك على شخص أخيهم ، فيوسف الصديق هو كان يوسف إخوته

الأسباط ، وأنت اليوم يوسف قريش ، فكن يايوسف اليوم على حذر ، واعتبر ، فالتاريخ عبرة لمن اعتبر .

أقول : والمناسبة بين نبينا ﷺ مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته من وجوه ، وإليك البيان :

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
(١) ـ كريم ابن كريم ابن كريم كما في الحديث الصحيح .	(١) ـ خيار من خيار من خيار ، كما في الحديث الصحيح .
(٢) ـ اسم أبيه « اسرائيل » مركب تركيباً إضافياً ، وآخره « إيل » ومعناه الله .	(٢) ـ اسم أبيه « عبد الله » مركب تركيباً اضافياً ، وآخره « الله » مرادف « ايل » .
(٣) ـ أمه « راحيل » كانت غريبة وكان ابوها « لابان » وثنياً وماتت وهي مسافرة في طريق « بيت لحم » وهي من صميم العشيرة التي منها إبراهيم ، لأنها ناحورية .	(٣) ـ أمه « آمنة » كانت غريبة وكان أبوها « وهب » وثنياً ، وماتت وهي مسافرة بين مكة والمدينة ، وهي من صميم قريش لأنها زهرية .
(٤) ـ ماتت أمه وهو صغير ، فحضنته جاريتها « بلهه »	(٤) ـ ماتت أمه وهو صغير ، فحضنته جاريتها « بركة الحبشية » أم أيمن .
(٥) ـ رعى الغنم « تك ٣٧:٢ » أي غنم أهليه وذويه فقط	(٥) ـ رعى الغنم على قراريط لأهل مكة من أهليه وذويه فقط

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
(٦) – أول مابدىء بــــه من الوحي الرؤيا الصالحة التي جاءت كفلق الصبح وكما ثبت من القرآن الكريم .	(٦) – أول مابدىء بــــه من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، كما في البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح .
(٧) – حسده اخوتــه وتألبوا عليــــه .	(٧) – حسده أقرباؤه من قريش وتألبوا عليه
(٨) – بُشر بمستقبل باهر بلسان أبيه	(٨) – بشر بمستقبل باهر بلسان « ورقة بن نوفل » .
(٩) – تآمرت إخوته على قتله أو طرحه أرضاً أو إخراجــــه من فلسطين وكنعان	(٩) – تآمر أقرباؤه قريش وألصق الناس به من ذوي قرباه فمن مشير بقتله ومن قائل باثباته ومن قائل باخراجه .
(١٠) – اضطرته إخوته للمهاجرة من وطنــه ، فهــاجر مضطراً بسبب إخوته وتوفي غريباً في مهجره .	(١٠) – اضطره أقرباؤه قريش للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته قريش وتوفي غريبا في مهجره .
(١١) – اتهم زوراً بعشق امرأة عبد « العزيز » ثم برأه الله تعالى .	(١١) – اتهم زوراً بعشق امرأة عبد « زيد » ، ثم برأه الله تعالى .
(١٢) – لما سُجن دخل معه في	(١٢) – لما سَجَن نفسه في غار

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
سجنه فتيان ، تقي وشقي ، وهما الساقي والخباز .	« ثور » إلجاءً وقهراً دخل معه في غاره اثنان ، تقي موحد ، وهو أبو بكر ، وشقي مشرك ، وهو دليلهما الذي كانا استأجراه بالدراهم واسمه عبد الله بن أريقط .
(١٣) ـ أشاع أعداؤه أنه قتل بافتراس الذئب إياه ، ثم تبين كذب ذلك .	(١٣) ـ أشاع أعداؤه أنه قتل في غزوة أحد ، ثم تبين كذب تلك الاشاعة .
(١٤) ـ أُلقي في الجب بيد اخوته من الأسباط .	(١٤) ـ وقع في الحفرة في غزوة أحد التي حفرها له اقرباؤه من قريش
(١٥) ـ كانت إخوته تستهزىء به ، وتقول : « هذا صاحب الأحلام » سخرية منه .	(١٥) ـ كان يوجد جماعة يستهزؤن به كثيراً حتى سموا بالمستهزئين ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (١٥ : ٩٥)
(١٦) ـ المستهزؤن بيوسف كانوا ثمانية أنفار ، وهم : شمعون ، لاوي ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، يَساكَر ، زَبولون ، على عدد مواد الكيد المذكورة في هذه السورة . وأما رَأوبين ويهوذا وبنيامين فلم يكونوا كذلك .	(١٦) ـ المستهزؤن بالنبي كانوا ثمانية اشخاص ، وهم : أبو جهل ، أبو لهب عقبة بن أبي مُعَيط ، العاصي بن وائل السَّهْمي ، الأسود ابن المطلب الأسدي ، الوليد بن المغيرة ، النضر بن الحارث العَبْدَري .
(١٧) ـ « لَيئَة » امرأة أبيه	(١٧) ـ « أم جميل » امرأة عمه

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
وهي من ذوي رحمه ، لأنها خالته ـ كانت تكرهه وتحرض عليه .	أبي لهب ، « والعم أب » وهي من ذوي رحمه ، لأنها من قريش ـ كانت تكرهه وتحرض عليه .
(١٨) ـ لا تعرفه العرب نبياً تقليداً ليهود يثرب .	(١٨) ـ لم تعترف العرب بنبوته
(١٩) ـ أوتي النبوة والرسالة ورآسة بيت المال ، والاجتباء والحكم والعلم .	(١٩) ـ كذلك حرفاً بحرف .
(٢٠) ـ كانت عاقبة أمره الانتصار الباهر ، والعز بعد الذل والقوة عقيب الضعف .	(٢٠) ـ حاز في عقباه إكليل النصر ، وخلق الله له من ضعفه قوة ، وولّد له من ذله عزّاً .
(٢١) ـ أم أبيه يعقوب غريبة	(٢١) ـ أم ابيه عبد الله غريبة .
(٢٢) ـ اعترف اخوته له بالخطاء فغفر لهم .	(٢٢) ـ اعترف اقرباؤه قريش امامه بالخطاء فعفا عنهم .
(٢٣) ـ اضطهد وشرد عن وطنه فلسطين لمصر ، ثم رجع اليها معززاً مكرّماً ، ثم قفل راجعاً لمصر وبها توفي .	(٢٣) ـ اضطهد وشرد عن وطنه مكة للمدينة ، ثم قفل اليها متوجاً بتاج العز وإكليل النصر ، ثم عاد الى المدينة وبها توفي .
(٢٤) ـ أبوه يعقوب مات غريباً.	(٢٤) ـ أبوه عبد الله مات غريباً

[ايقاف النبي ﷺ على طبائع يهود المدينة]

إذا تقرر هذا فلننتقل بالقارىء العزيز من قريش مكة إلى يهود المدينة فنقول: علم الله تعالى أن النبي ﷺ سيبارح مكة للمدينة المنورة ويتخذها مهجراً له طيلة بقية عمره ، وبالتالي علم سبحانه أن النبي سيجاور اليهود الذين فيها ، ويكون بينه وبينهم تماس وتحاكك ، فأراد أن يوقفه على طبائع أسلافهم الأقدمين ، ليعرف طبائع المتأخرين لأنهم سلائلهم ، فهم طبعاً يمثلونهم ، كيف لا .... ودم هؤلاء من دم أولئك ، وغرائزهم موروثة من غرائزهم وأخلاقهم تمثل أخلاقهم ، فلذلك أراد الله تعالى أن يعلم نبيه أن الأكثرين في اليهود ظلمة ، مكرة ، ليسوا بأصحاب وفاء في العهود ، وليس عندهم شرف في الوعود ، بل هم أهل غدر وأصحاب خيانة ، لا يَرْقُبُون في مؤمن إلاَّ ولا ذمة ، ولا يصلح لهم من معاملة النبي إياهم إلا كمثل ما عمل معهم أخوهم يوسف ، لا يتقيد معهم بشيء إلا حسب ما تقتضيه المصلحة ، ويستدعيه الرأي ، وبالجملة فهذه السورة هي ظل حياة اليهود ، وصورة صادقة من أخلاقهم ، فمن أراد أن يقف على الكثير من ميولهم وشيمهم ! فليمعن في التدبر في مرامي هذه السورة اليوسفية وبعبارة أخرى : أراد سبحانه وتعالى أن يُعلم نبيه أن نسبة الصالح منهم لغير الصالح في أولاد الأنبياء الصُلْبيين إنما هي كنسبة اثنين لاثني عشر !!! فما بالك فيما إذا لم يكونوا من أصلاب الأنبياء ؟!!.... لعمري لا يسعك إلا أن تقول : إن الأكثرية الساحقة فيهم طغاة قساة ، بؤورة كذب ، ومنابع ختل واحتيال ، وأمثلة غدر بالوعود والعهود ، ويمثلوا الدعارة والخيانة ، و .. و .. لخ ألهم إلا قليلاً ، ويمكنك أن تفسر هذا القليل بأنه واحد في الألف!!! قلنا : أراد الله أن يطلع نبيه ﷺ على غوامض طبائعهم النجسة !... وخوافي

شمائلهم الدنيئة !... ليكون على بصيرة من الأمر ، وليعرفه أنه وإن تكن اليهود أبناء عم للعرب ، لكن يوجد بين الشعبين فرق كبير ، وكبير جداً ، أستغفر الله، بل يوجد بينهما فروق ، كما بين الثرى والثريا ، أو كما بين الظلمة والنور ، فلذلك قص عليه هذه القصة التي تمثل غرائز أسلافهم تمثيلاً ، وكأن الظروف الآتية هي من أمثلة فن الحفر على المعدن (زنكو غراف) ستخرج إلى الملأ صورة طبق الأصل عن تلك الخلائق « الحميدة » !... والشيم « الشريفة » !... التي من رآها علم صحة القول المأثور « خبث المؤمن في نسله » ، وصدّق كلام القائل : « نعم الجدود ،ولكن بئسما نسلوا » .

فكأن الله تعالى يقول : أنظر أيها النبي العظيم ، أنظر ماذا عمل رؤساء الأسباط من الكيد والختل والغدر مع يوسف ، فإن سلائلهم يهود يثرب سوف يعملون معك ما يقاربه ، ها أن يوسف الصديق هو يوسف الأسباط قديماً ، وأنت ستكون يوسف سلائلهم الجديد ، فيهود المدينة كما سبق أن أجدادهم عملوا تلك الفظائع مع يوسفهم العتيق ، فسوف يعملون نظيرها معك أنت يا يوسفهم الجديد ، وعليه وبالنتيجة ينبغي لك أن تعاملهم بدأً وغاية ، معاملة سلفك لأسلافهم بدأً وغاية .

أقول والمناسبة بين نبينا ﷺ مع اليهود ، وبين يوسف الصديق مع إخوته ظاهرة من شتى الوجوه ، وإليك البيان :

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » يهود يثرب
(١) ـ حسده إخوته ﴿ إذْ قالوا ليوسُفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ (٨)	(١) ـ حسده يهود يثرب كما قال تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناسَ على ما آتاهُمُ اللهُ من فضلِه ﴾(٤: ٥٣)

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » يهود يثرب
	قيل : الناس سيدنا محمد، وقيل :العرب، بسبب كون بعثته نبياً منهم .
(٢) ـ أنكر اليهود نبوته	(٢) ـ أنكر اليهود نبوته .
(٣) ـ باغترابه في أرض مصر تمكن فيها كما قال تعالى : ﴿ وكذلكَ مكنّا ليوسفَ في الأرض ، يتبوأُ منها حيثُ يشاء ﴾ (ع ٥٦)	(٣) ـ بذهابه للمدينة تمكن في أرضها وصارت الناس تدخل في دين الله أفواجاً .
(٤) ـ الذين عادوا يوسف عداء، شديداً كانوا ثمانية فقط، وهم : شَمْعون، لاوِي ، دان ، نَفتَالِي ، جاد، أشير، يسّاكر ، زَبولُون ، وأما رأُوبين ويهوذا فكان عداؤهما ليوسف ضعيفاً جداً ، أما بنيامين فأمره ظاهر .	(٤) ـ إن طوائف اليهود الذين هاجر النبي لجهتهم وتعرف إليهم وعادوه عداءً شديداً هم ثمانية أيضاً ، وهم : يهود تَيْما ، يهود فَدَك ، يهود وادي القرى، يهود خيبر، وبنو بهدل، هذه خمس ، وفي المدينة ثلاث قبائل وهم : بنو النضير ، بنو قينقاع ، بنو قريظة .
(٥) ـ إخوته تفاوضوا في شأن قتله .	(٥) ـ بنو النضير هموا بقتله بعد المفاوضة بينهم .
(٦) ـ قال إخوته : ﴿ وإنّا له لناصحون ﴾، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾، ﴿ لئِنْ أكلَهُ الذئبُ إنّا إذاً	(٦) ـ بنو قينقاع عقدوا عهداً مع النبي مقتضاه ترك محاربته وأذاه وأن لا يعينوا عليه أحداً ، ثم عند الظفر

يوسف يهود فلسطين	يوسف «محمد» يهود يثرب
الخاسرون ﴾، ثم ما عتموا أن أخلفوا الوعد ونقضوا العهد.	ببدر، نبذوا ماعاهدوا عليه المسلمين، وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم، فكانوا أول من غدر .. وكذا بنو النضير ـ كانوا عاهدوا النبي بمثل معاهدة بني قينقاع ثم نكثوا العهد باجتماع سيدهم «سلام بن مِشكم». واتحاده مع أبي سفيان، ثم إن عظيمهم كعب بن الأشرف، أخلف العهد أيضاً بكونه صار يحرض قريشاً على محاربة النبي ويهجوه بالشعر، ويثير الشقاق بين المسلمين، وهكذا أبو عفك كان في الشر ونبذ العهد، وكذا فعل بنو قريظة وغطفان من اليهود نقضوا العهد. واشتركوا مع الأحزاب في غزوة الخندق ..
(٧) ـ يهود فلسطين قالوا: ﴿ ونحنُ عُصبة ﴾ فكانوا أقوياء أشداء وكانوا يفتخرون بذلك ثم	(٧) ـ يهود بني قينقاع، كانوا أشد اليهود بأساً، ولذلك كانوا أول من غدر، وتصدوا لحرب النبي جهراً.

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » يهود يثرب
تصدوا لحرب يوسف جهراً بإيذائه وإلقائه في الجب وتشريده ، ثم عفا هو عنهم .	ثم عفا هو عنهم بتوسط « عبد الله بن أُبَيْ » .
(٨) ـ كانت عقباه انـــه ظفر بالانتصار عليهم والنفوذ والسطوة .	(٨) ـ كذلك حرفاً حرفاً .

إذا علمت هذا الذي قررناه عرفت وجه الحكمة الحكيمة في إنزال هذه السورة على النبي ﷺ جملة واحدة ، وفي مكة أيضاً قبل المهاجرة إلى المدينة ، ولعل هذا أحسن من كل ما قاله جميع المفسرين ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، ومع ذلك فتأمله ، فلعلك أثقب فهماً ، وأوسع علماً واطلاعاً ، فإن الخير مفرق بين العباد، هدانا الله وإياك لسبيل الرشاد .

أصوات من الجميع
(مرحى مرحى)

الفصل الثاني

قام العلامة سليم الخانيونسي (١) وقال :

في هل اخوة يوسف أنبياء

الذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنه قال بنبوتهم ، ولا يحفظ ذلك عن أحد من

(١) خان يونس بلدة في فلسطين

التابعين أيضاً ، وكذا أتباع التابعين إلا « ابن زيد » وتابعه شِرْذمة قليلة ، وأما الخلف فالمفسرون فِرَقٌ ، فمنهم من قال بقول « ابن زيد » كالبغوي ، ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي وابن كثير ، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ، ومنهم من لم يتعرض للمسألة ، ولكن ذكر مايشعر بعدم كونهم أنبياء ، كأبي الليث السمرقندي والواحدي ، وقد تمسك القائلون بنبوتهم بأدلة رأوها تشهد لهم ، وأهم تلك الأدلة أربع ، وإليك بيانها كما يلي :

(١) ـ استدلوا على نبوتهم برؤية يوسف لهم « كواكب » والكواكب يُهتدى بأنوارها ؛ ورُدّ بأن رؤيتهم كواكب يهتدى بأنوارها بمعزل عن أن يكون دليلاً على نبوتهم ، وإنما يكون دليلاً على أن يكون مصيرهم إلى كونهم هادين للناس ، وهو مما لا يلزمه النبوة ، ولو دلّت رؤيتهم كواكب على أن مصيرهم للنبوة لكانت رؤية أمّه قمراً أدل على ذلك ، ولا قائل به ، على أنـــه ليس كل الكواكب مضيئة ، كما أثبته علماء الهيئة ، وعلى أن نور الكواكب مستفاد من نور الشمس ، فأنوارهم ليست منهم حقيقة ولكنها من أبيهم الذي هو الشمس ، وعلى أن دلالة « الوحي » على النبوة أقوى من دلالة كلمة كواكب ، وقد قال تعالى: ﴿ وإذْ أوحَيْتُ إلى الحَوَارِيّينَ ﴾ (٥ : ١١٤) ، وقال تعالى ﴿ إذْ أوحينا إلى أُمّكَ ما يُوحَى ﴾ (٢٠ : ٣٨) ، وقال تعالى ﴿ وكذلِكَ جعلْنا لكلّ نَبِيٍ عَدُوّاً : شياطينَ الإنسِ والجنِ ، يوحي بعضُهُم إلى بعضٍ ﴾ (١١٢:٦) وقال تعالى ﴿ وأوْحَى ربُّكَ إلى النحلِ ﴾ (١٦ ٦٨) ، وقال تعالى ﴿ بِأَنّ رَبَّكَ أوْحَى لها ﴾ (٩٩:٥)، ولا قائل بأن الحواريين، أو يوحانذ ـ أم موسى ـ ، أو شياطين الإنس والجن ، أو النحل ، أو الأرض ، أنبياء ، فإذا لم تدل كلمة (الوحي) من الله على أن الموحى إليه نبيّ فبالأحرى كلمة « كوكب » لا تدل على النبوة ، فهذا الاستنتاج في غاية الضعف .

(٢) ـ استدلوا على نبوتهم بكلمة «الأسباط» في قوله تعالى: ﴿ قولوا آمنّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ الى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ «والأسباط» وما أوتِيَ موسى وعيسى وما أوتِيَ النبيُّونَ من ربِّهم، لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون ﴾ (٢ : ١٣٦)، قالوا: «فالأسباط» أولاد يعقوب، والانزال اليهم يدل على نبوتهم، ونحن نقول في مقابلة ذلك: الحمد لله رب العالمين حقاً إن هذه بشرى عظيمة لنا، لأن الإنزال الى الأسباط إذا كان يقتضي نبوتهم فنحن أمة محمد جميعاً أنبياء، بحكم قوله تعالى ﴿ وما أُنزِلَ إلينا ﴾ فلنا الفخر ولنا الفرح العظيم، وظاهر أن هذا واضح البطلان، فاذا لم تدل عبارة «وما أنزل إلينا» على نبوتنا فلا تدل عبارة الإنزال الى الأسباط على نبوتهم، وإنما معنى ﴿ أُنزِلَ الينا ﴾ أنزل فينا، لأن القرآن أُنزل فينا بسبب نبينا سيد الوجود (ﷺ) على أن لفظ «الأسباط» ليس معناه أولاد يعقوب لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم بنو إسرائيل، وكما يقال لسائر الناس بنو آدم، وقوله تعالى ﴿ وقَطَّعناهمُ اثنتَيْ عشرةَ أسباطاً أُمَماً ﴾ (٩ : ١٥٩)، صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سبط أمة، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، فحمل الأسباط في الآية على بنيه لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأً بيناً، ويكون قد أخطأ لغةً ايضاً، لأن السبط في اللغة ليس هو الابن الصلبي، بل هو ابن الابن أو ابن البنت، وأما ما قاله بعضهم من أنهم سموا أسباطاً بالنسبة لإسحاق، أي أنهم أسباط لإسحاق وأبناء يعقوب، فهذا مما لا ينبغي أن يلتفت اليه، إذ لم نسمع أحداً قط سماهم أسباط إسحاق، وإنما الناس دائماً يقولون: أسباط إسرائيل أو أسباط بني إسرائيل.

ونظير آية البقرة السابقة آية آل عمران وهي قوله تعالى ﴿ قل آمنّا بالله وما أُنزِلَ علينا وما أنزِلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتِيَ موسى وعيسى والنبيونَ من ربهمْ ، لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ، ونحنُ له مسلمون ﴾ (٣ : ٨٤) ، ونظيرهـا آية النساء وهي قوله تعالى ﴿ إنّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيينَ من بعدهِ ،وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ و « الأسباطِ » وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهرونَ وسليمانَ ، وآتينا داودَ زَبورا ﴾ (٤ : ١٦٢) ، ونقول : إن الله تعالى يريد بهذه الآيات الثلاث أن يحاجّ بني إسرائيل أعني يهود المدينة وسواهم ، وإنما يحاجهم بما هو معروف عندهم ، والمعروف عندهم أن كلمة « أسباط » هي إسم للقبائل الإثني عشر المتناسلين من أبنائه الإثني عشر الصلبيين ، هذا هو المعروف عند كافة اليهود ، خاصتهم وعامتهم ، المفسرين منهم والمؤرخين ، وعلماء الشريعة والفقه ، وسواهم ، وهذا أيضاً هو المعروف عند جميع علماء ومفسري النصارى بدون أدنى خلاف ؛ إذا تقرر ذلك فمعنى الوحي أو الإنزال للأسباط أو على الأسباط ، أن الله تعالى أوجد من بين هؤلاء الأسباط أنبياء أوحى إليهم كتباً ، وأنزل عليهم أسفاراً ، مثلاً ـ كان من سبط « اللاوِيين » موسى وهرون وفينحاس على قول وهو حفيد هرون و (عالي) على قول وإرْميا وزكريا ويحيى عليهم السلام ، وكان من سبط « اليهوذيين » إشَعْياء وصَفَنْيا وعُوبَدْيا ودانِيال وحَزْقِيال وعيسى المسيح وداود وسليمان وحَجّي عليهم السلام ، وكان من سبط « الجاديين » الياس المدعو في بعض الأسفار « إيليا » (١ مل ١٧ : ١) عليهم السلام ، وكان من سبط « الزّبوليّين » يونس المدعو في بعض الأسفار « يونان » (٢ مل ١٤ : ٢٥) ، وكان من سبط « أفرايم » بن يوسف (م) يشوع بن نون عليه السلام ، وكذا

(أُلْقانَة) على قول وهو أبو صموئيل ، وابنه صموئيل المعني بقوله تعالى : ﴿ إذ قالوا لِنَبِيٍ لهـم ابْعَثْ لنا مَلِكاً ﴾ (٢ : ٢٤٦) ، ولا بد لي من التنبيه على أنبياء آخرين هم من سلائل « الأسباط » ولكني لا أعلم طريق نسبة كل واحد إلى سبطه ، وذلك مثل « أختيا الشِّيلوني » و«ملاخِي » و « مِيخَا بن يَمْلَة » و« ميخا » المورشتي و«ناثان » و« ناحوم » و« عاموس » و« هوشَع » و« ياهو » و« يوئيل » و « عِدُّو » و « يَعَدو » و « عزرياهو » و« عُوديد » و« شَمَعْيا » و « حنَاني » و«حَبَقّوق » و « أوْرِيّا » وغيرهم وغيرهم ، فهؤلاء الأنبياء جميعهم من عُلِم منهم سبطه ومن لم يُعْلَم ، كُلهم داخلون في كلمة « أسباط » ولا يخفى أنه لو أريد ذكر أسمائهم جميعاً ، كل واحد بمفرده لطال الحال وكثر الكلام جداً ،فلذلك اقتصر كتاب الله تعالى على التصريح بأسماء المشهورين منهم ،واكتفى بالإشارة لغير المشهورين منهم، بكلمة« أسباط » .

ولنا أن نجيب بجواب ثان عن معنى الإنزال أو الوحي للأسباط أو عليهم ، بأن نقول : إن معنى ذلك أن الوحي أنزل لأجلهم ،أي لأجل منفعتهم، قال تعالى:﴿أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَماً ؟ وهو الذي أَنزَلَ إليكم الكتابَ مُفصلاً ﴾(٦:١١٤)،وهذا على إرادة القول ، أي قل أيها النبي : أفغيرَ اللهِ أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم أيها المشركون ، ويفصل الحق منا من المبطل ، ﴿ وهو الذي أنزَلَ إليكُم الكتابَ ﴾ ، أي أنزل لأجلكم القرآن (مُفَصلاً) أي مبيناً ، وفيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ، وقال تعالى : ﴿ وأنزَلْنا إليكَ الذِّكرَ لتُبَيِّنَ للناس مانُزِّلَ إليهم ﴾(١٦:٤٤)، وقال تعالى ﴿ إتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم مِن ربِّكم ، ولا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أولياءَ ،قليلاً ماتَذَكرون﴾ (٧:٢) ، وقال تعالى : ﴿ وقد نَزَّلَ عليكم في الكتابِ أن إذا سمعتم آياتِ اللهِ

يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها ، فلا تَقْعُدوا مَعَهُم ، حتى يَخُوضوا في حديثٍ غيرِه ، إنَّكم إذاً مثلُهُم ﴾ (٤:١٣٩)،وقال تعالى:﴿ يَسألُكَ أهلُ الكتاب أنْ تُنزِلَ عليهم كتاباً مِن السماء ﴾ (٤:١٥٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نَقرَأُهُ ﴾(١٧:٩٣)وقال تعالى ﴿ مايَوَدُّ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ ولاالمشركينَ أن يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُم ﴾ (٢:١٠٥) والخير هو الوحي ، وقال تعـــالى : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أن تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهُمْ بما في قلوبهم ﴾ (٩ : ٦٥) وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ، وما أَنزَلَ عليكم مِنَ الكتابِ والحِكمةِ ﴾ (٢ : ٢٣١) ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي لو أتينا بهـا لأطلنا على القارئين والسامعين .

(رجعنا لما كنا فيه) :

ونظير كلمة أسباط ههنا كلمة « بني إسرائيل » في نحو قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنعمتُ عليكم ﴾ (٢ : ٤٧) وقوله : ﴿ وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبدونَ إلاّ الله ﴾ (٢ : ٨٣) وقوله : ﴿ يا بني إسرائيلَ اعبدوا اللهَ ربي وربَّكم ﴾ (٥ : ٧٥) فكما أن كلمة «بني إسرائيل» يراد منها قبائل إسرائيل فكذلك كلمة « أسباط » يراد منها القبائل التي تناسلت من أبناءِ يعقوب ، ولم يقع في القرآن الكريم كلمة تعني أولاده الصلبيين إلا قوله: ﴿ أم كنتم شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يعقوب الموتُ إذْ قالَ لبنيه : ما تعبدونَ من بعدي ؟ ﴾ (٢ : ١٣٣) فهذا التعبير وأمثاله يراد منه في الدرجة الأولى الأبناء الصلبيون وقد يشمل مع ذلك أبناءهم أيضاً ، وأما لفظ « أسباط » فلا يشمل

الأبناء الصلبيين قطعياً ، لا لغة ولا شرعاً ، ولا عرفاً ، ولا في تعبير من عبارات اليهود ولا النصارى ولا الإسلام .

هذا ما اطلعت عليه نقلته إليك ، فتنبه له وإلا فالسلام عليك .

(٣) ـ استدلوا على نبوة إخوة يوسف بقوله تعالى : ﴿ ويُتِمُّ نِعمَتَه عليك وعلى آلِ يعقوبَ ، كما أتَمَّها على أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ ﴾ (ع ٦) قالوا : النعمة هي النبوة التي كانت في إبراهيم وإسحق ، وآل يعقوب ههنا هم أولاده الإثنى عشر ، وحينئذ فيجب أن يكونوا أنبياء .

ونحن نقول : لا دليل على أن إتمام النعمة هو بالنبوة خاصة ولادليل على أن المراد « بآل يعقوب » أبناؤه الصلبيون، والتشبيه في قوله : كما أتمها .. لخ لا يقتضي أن يكون المعنى الجامع بين طرفي التشبيه هو خصوص النبوة ، فهذا الدليل لا يثبت المدعى .

(٤) ـ استدل بعض الطلبة على نبوتهم بقوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ وأورَثْنا بني إسرائيلَ الكتابَ (٤٠ : ٥٣) ، وهو استدلال في غاية الضعف ، إذ لم يقل أحد من المفسرين أن المقصود من كلمة (بني إسرائيل) هنا أبناء يعقوب الصلبيون الإثني عشر ، بل المراد أن الكتاب كان في سلالة يعقوب ، وقد أجمع المفسرون والمحدثون والمؤرخون وغيرهم من المسلمين والنصارى واليهود أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على أبناء يعقوب الصلبيين ، حتى ولا على يوسف الذي هو نبي عندنا نحن المسلمين ، فهذه الآية لا تدل لمدعي هذا الطالب ، كيف وقد قال تعالى في سورة فاطر : ﴿ ثم أَورَثْنا الكتابَ الذين اصطَفَينا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مقتصدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ ، ذلكَ هو الفَضْلُ الكبيرُ ﴾ (٣٥ : ٣٢) ، فهؤلاء الذين أورثوا الكتاب هم أمة محمد ﷺ ورثوه بعد الأمتين

قبلهم ، اليهود والنصارى ، فهذه الآية ، في فاطر ، إذا لم تقتضي نبوة كل فرد من أفراد الأمة المحمدية ، فكذلك آية سورة المؤمن لا تقتضي ذلك البتة .

وأما الجمهور ، وبعبارة أصح ألأكثرية الساحقة من المسلمين فإنهم لا يعترفون بنبوة واحد من آباء الأسباط هؤلاء الأحد عشر ، ولهم على ذلك عشرة أدلة ، إليك بيانها :

١ — قوله تعالى : ﴿ إنَّ الشيطانَ للانسانِ عدوٌ مبينٌ ﴾ (٥٤) يفيد أن القوم كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، وأنه يفعل فيهم ويؤثر عليهم ، وهذا ينتج أنهم لم يكونوا أنبياء ، لأن الأنبياء وإن لم يكونوا معصومين من الوسوسة فهم معصومون من العمل بها ، ولكن اخوة يوسف عملوا بها ، فكادوا له كيداً ؟

٢ — القول بنبوتهم لم يحكه القرآن ولا ثبت في حديث ، ولا نقل عن أحد من الصحابة ، ولا روي من أحد من التابعين وكذا لم يقله أحد من تابعي التابعين إلا « ابن زيد » وتبعه البغوي وشرذمة قليلة ؛ وأما نحن فنقول : لا عبرة بألف عالم مثل ، ابن زيد والبغوي ، أثبتوا لشخص نبوة بدون برهان نقلي صريح من كتاب أو سنة أو على الأقل من تاريخ معتبر ، وإن إثبات نبوة أحد بدون دليل شرعي محظور شرعاً ، بحيث لا يقل في الافتيات على الله عن إنكار نبوة أحد ممن ثبتت نبوته ، فهذا محظور وهذا محظور على حد سواء .

٣ — كلمة « أسباط » التي اتخذوها دليلاً لهم على القول بنبوة هؤلاء هي بذاتها دليل لنا على عدم نبوتهم لأن لفظ سبط هو ابن الابن أو ابن البنت ، وليس هو الابن الصلبي ، فلو أراد تعالى النص على نبوة أبناء يعقوب لصلبه لقال : « آباء الأسباط » وقد سبق لنا بسط القول في هذه الكلمة ، وما بالعهد من قِدَم .

٤ — إن الله سبحانه لما أراد أن يذكر الأنبياء من سلالة إبراهيم قال : ﴿ وتلك حُجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ، نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ ، إنّ ربك حكيمٌ عليمٌ ، ووهبْنا له إسحقَ ويعقوبَ ، كُلّاً هدَينا ، ونوحاً هدينا من قبْلُ ، ومن ذريّته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرونَ وكذلكَ نجزي المُحسِنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياسَ ، كلٌّ من الصالحين ، وإسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين ﴾ (٦ : ٨٣—٨٦) فذكر يوسف ومن معه ، ولم يذكر واحداً من إخوته ولو كان إخوة يوسف قد نُبئوا كما نُبّيء لذكروا كما ذكر ، خصوصاً وإن المناسبة قوية جداً ، فلما لم يذكروا مع قوة المناسبة دل على أنهم ليسوا بأنبياء ، فتخصيص يوسف بالذكر دون إخوته يدل على عدم نبوتهم .

٥— إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبلها ، وأما هم فلم يذكر لهم شيئاً من هذا القبيل ، وجاء في الحديث : « أكرمُ الناس يوسفُ بن يعقوبَ بن إسحق بن إبراهيم ، نبيّ من نبيّ » فلو كانت إخوته أنبياء لكانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، ولذكروا في القرآن ولو بمحمدة واحدة ، وتقول الحكماء : « البدايات دليل النهايات » ويقول الشاعر :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدراً كاملاً

وتقول العامة : « الديك الفصيح من البيضة يصيح » ، وقد قالت خديجة (ض) لما فجأ الوحي النبي ﷺ وخاف من ذلك : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، وأرجوكم أن لا تنسوا « هرقل » واستدلاله بما استدل به في حديث أبي سفيان المشهور ، لما سأل عن صفات النبي ﷺ.

٦ــ ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر ، وهو أيضاً مات بها ، لكن أوصى بنقله إلى الشام ، فنقله موسى عليه السلام ، ولم يذكر في القرآن الكريم أن أهل مصر قد جاءهم نبيّ قبل موسى وهرون غير يوسف ، ولو كان منهم لذكر ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءَكُمْ يوسفُ من قبلُ بالبيِّناتِ ، فما زِلْتُم في شكٍ مِمّا جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتم : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ من بَعْدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠:٣٤) ، نحن نعلم أنه كان لإخوة يوسف حياتان ، الحياة الأولى حياة جرائم وكذب وختل وعقوق ، وهذه في فلسطين ، وإذن لم يكونوا أنبياء في فلسطين ، والحياة الثانية حياة استقامة وطاعة وتوبة وأوبة ، وهذه كانت في مصر وهم في مصر لم يكونوا أنبياء ، كما نتعلمه من القرآن الكريم ، ولم يثبت أنهم رجعوا من مهجرهم مصر إلى فلسطين حتى يتنبأوا فيها ، بل ثبت تاريخياً أنهم ماتوا بمصر ، فإذن لم يكونوا أنبياء أصلاً ، لا في فلسطين ولا في مصر ، وأما ما هو مشهور عند جهلة المسلمين من أنّ « رأوبين » مدفون حوالي « يافا » على شاطىء البحر ، وإن « شمعون » مدفون في محلة « الشاغور » من دمشق الشام وفي صيدا أيضاً ، فكل ذلك نتيجة الجهل بالتاريخ ، وكذا ما ذكره العلامة ابن طولون في كتابه « اللمعات البرقية » من ان « لاوي » مدفون في قرية يقال لها « قرية لاوي » و « بظهر الحمار » قرية بها قبر « بنيامين » « وبإربد » أربعة من أولاد يعقوب عليه السلام وهم : دان ، يساكر ، زبولون ، جاد ، وفي « رومة » قبر يهوذا بن يعقوب ، وفي « مدين » قبر إثنين من أولاده وهما أشير ونفتالي ، فكل هذا وهم لا أصل له .

٧ ــ كثرة ما نسب إليهم من حسدهم ليوسف وتضليل أبيهم (ع٨) ، ومن إرادتهم قتله أو طرحه أرضاً (ع ٩) ، ومن إجماعهم على إلقائه في غيابة الجب (ع١٠) ،

ومن ختلهم لأبيهم وحلفهم إنهم ناصحون وحافظون ، ثم خلف هذا الوعد قصداً من أول الأمر (ع١١–١٥) ، ومن بكائهم كذباً،وإخبارهم كذباً ، ومن سلبهم أخاهم قميصه واستعمالهم التشليح ،ومن تلطيخهم القميص بالدم كذباً (ع١٦-١٨) ومن أنهم شر مكاناً (ع٧٧)ومن الجهل الذي هو خلاف العلم أو خلاف الحلم ، ومن الوقوع في المعصية عمداً الذي هو معنى قولهم ﴿تالله إن كُنَّا لَخاطِئينَ ﴾ (ع٩١) ، الأمور المدهشة الحاوية للعقوق والجور والأقوال السافلة الى أحط دركات الخسة ، الأحوال التي يتنزه عنها مقام النبوة ﴿اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رِسالَتَه﴾ (١٢٤:٦) ، وقولهم ﴿ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا ﴾ (ع٩١) لأن الشرير لا يكون نبياً ، إنما الذي أوثر على غيره هو النبي دون الغير . هذا رأيي ،فما ترون ؟ صوت من الجميع « موافق موافق » .

الفصل الثالث

وهنا قلم للشيخ محمود الخليلي[1] وقال :

في شيء عن حياة ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام

قال تعالى: ﴿ واذكر عبادَنا إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ أولي الأيْدي والأبْصارِ ، إنّا أخلَصنَاهم بخالِصَةٍ ذِكرَى الدارِ ، وإنَّهم عِندَنا لَمِنَ المصطَفَيْنَ الأخيارِ ﴾ (٣٨ : ٤٥-٤٧) ، وعليه وبمناسبة ذكر هؤلاء

(١) الخليل : بلد في فلسطين

الأنبياء الكرام في هذه السورة ، ومناسبة كونهم آباء لبطل هذه القصة ، وموضوع هذه السورة ، وهو يوسف عليه السلام ـ يجدر بنا أن نأتي على شيء من تاريخ حياة هؤلاء الشيوخ الكبار الثلاثة عليهم الصلاة والسلام فنقول :

(في شيء عن حياة ابراهيم عليه السلام)

ولد إبراهيم سنة (٢٦٢٠) ق.هـ. وأبوه هو « آزر » المدعو في سفر التكوين بلفظ « تارَح » ، الذي معناه في اللغة العبرانية « متكاسل » قلت ولعله لأجل ذلك عدل القرآن الكريم عن هذا الاسم المشعر بالكسل إلى الاسم الأول، وابراهيم هو العاشر من نسل «سام» ولد في أور الكلدانيين[1] ، وقد كان نبياً ورسولاً من الله تعالى للكلدان، كما يعتقده كذلك سائر المسلمين ، وقد دعاه سفر التكوين نبياً (تك ٢٠ـــ٧) لكن أهل الكتاب رغماً عن هذا التصريح لا يعتقدون نبوته ، ولذلك فسروا « النبي » هنا بالناسك ؛ وقد امتحن بأن ألقي في النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً كما في القرآن الكريم ، ولكن أسفار العهد العتيق الذي بيد اليهود والنصارى اليوم لا تذكر شيئاً من هذه الحادثة العظيمة ولا تشير إليها ، وإنما بعض أهل التفسير عندهم مثل صاحب « مِدْراش رَبَّاه » تعرض لها وذكرها بصراحة، وكذلك ذكرت في التلمود، وعلى كل الأحوال فالقرآن الكريم الذي نزل مهيمناً على الكتب السابقة أخبرنا عن الله تعالى بهذه الحادثة ، وهو أصدق الكتب السماوية الذي لم يطرأ عليه أدنى تحريف ولا زيادة ولا نقصان ، واما أهل الكتاب فقد ﴿ نَسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به ﴾ (١٤:٥و١٥) ، ولذلك فيجب علينا في مثل هذه المسائل الرجوع لكلام الله المتين

(١) من اعمال العراق

وبعد حادثة إلقائه في النار ونجاته منها، إقتضت الظروف والحكمة الإلهية أن يهاجر من بلاد الكلدان، فأمره الله بالهجرة، فامتثل أمر ربه قائلاً ﴿ إني مُهاجرٌ إلى ربي ﴾ (٢٩:—٢٦)، فرحل من أور الكلدانيين إلى «حاران» وهي بلدة فيما بين النهرين (١)، ثم منها إلى فلسطين، فقد هاجر هجرتين، أو هجرة موزعة لموضعين، وربما لهذا يقال له «العبراني» الذي يمكن تأويله «بالسائح» أو «المهاجر» ولكن المشهور أن سبب تسميته بذلك عبوره نهر الفرات، ولقد روّى لنا التاريخ أن إبراهيم عليه السلام إجتاز سورية وفينيقية وبلاد العرب، وأنه أتى لدمشق وأقام فيها مدة نحو سبع سنوات، وأنه ذهب الى الحجاز ومصر، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه كان صديقاً نبياً، وأنه كان كريماً مطبوعاً على اكرام الضيوف يقدم لهم الحنيذ، أي اللحم المشوي بالرَضْف (٢) في الأخدود، ويختاره لهم من سمان الحيوان، وقد دعي في الحديث بأنه خليل الرحمن، وورد في القرآن ﴿ واتَّخَذَ الله ابراهيمَ خليلاً ﴾ (١٢٤:٤)، وقد هاجر مع ابراهيم زوجته «ساراي» بنت آزر أو تَارَح، فهي أخت ابراهيم انما من اخيه فقط فليست اذن بشقيقة له ولذلك جاز له ان يقترن بها عندهم، وكان معه ايضاً ابن اخيه «لوط» عليه السلام، ثم سكن لوط شرقي الأردن، الى ذلك السهل المخصب حيث كانت سدوم وعمورة، وبقي عمه ابراهيم غربي نهر الأردن، يتردد بين «شكيم» التي يقال لها اليوم «نابلس» و «بيت ايل» التي يقال لها اليوم «بَتّير»، و «قرية اربع» التي صارت يقال لها «حبرون»، ثم في العهد الإسلامي صارت يقال لها «خليل الرحمن»، «بئر شَبَع» التي يقال لها اليوم «بئر السبع»، و «جَرَار» التي

(١) دجلة والفرات

(٢) الرضف الحجارة المحماة

يقال لها اليوم « خربة أم جرار »، و « شور » و « قادش » على تخم مصر ، ومكة المكرمة والحجاز وما بين ذلك كله من البلاد المأهولة في ذلك العصر ، ونزلت عليه عشر صحف كما قال تعالى : ﴿ صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾ ، وكان محيط إبراهيم غارقاً في عبادة الأوثان ، سواء أكان في العراق أو شرقي الاردن أو « آرام » أي دمشق أو فلسطين أو مصر أو الحجاز ، ولكن الله تعالى آتاه رشده ، وعلم منه أحوالاً بديعة وصفات مرْضية منذ الصغر ، كما قال سبحانه ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه من قبلُ ، وكنّا به عالِمين ﴾ (٢١ : ٥١) ، وأما ماورد في سورة الأنعام في قوله ﴿ فلما جنّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفلَ ، قال لا أحِبُّ الآفلين ، فلما رأى القمر بازِغاً ، قال هذا ربي ، فلما أفلَ ، قال لئنْ لم يهدِني ربي لأكونَنّ من القومِ الضالين ، فلما رأى الشمسَ بازغةً ، قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلَتْ ، قال يا قوم إني بريءٌ مما تشرِكون ﴾ (٦ : ٧٦ - ٧٨) فإنما هو قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكي قوله كرجل غير متعصب لمذهبه ، وليس هو من قبيل النظر والاستدلال لنفسه، فقد قال عليه السلام ، أثناء ذلك الحوار : ﴿ لئن لم يَهدِني ربي ، لأكونَنّ مِنَ القومِ الضالّين ﴾ (٦ : ٧٧) ، وقال : ﴿ ياقوم إني بريءٌ مما تُشركون ﴾ (٦ : ٧٧) فاعترف وصرح بان له رباً ليس هو الكواكب ، ثم أعلن البراءَة من شرك قومه ، لا من شرك نفسه حاشاه ، فدل على أنه لم يكن فيه شرك، كيف وأن الأنبياء معصومون من مثل ذلك قبل النبوة كما بعدها ، وكان اسم إبراهيمَ منذ الصغر « أبْرام » كما سماه به أبوه ، ومعناه « أبٌ مرتفع » أو « أبو العلاء » ولكن الله فيما بعد سماه « إبراهيم » ، ومعناه « أبو جمهور عظيم » وكذلك كان اسم زوجته « ساراي » أي أميرتي فغيّره الله تعالى إلى « سارة» أي « أميرة»، وكانت

سارة عاقراً ، وكان لها أَمَة مصرية اسمها « هاَجر » فوهبتها لإبراهيم فدخل بها فرزق منها « باسماعيل » عليه السلام ، ثم لما صار عمره مئة سنة وعمر زوجته سارة تسعين سنة ولد منها « إسحق » وكان اسماعيل حين ولد إسحق ابن (١٤) سنة ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يأخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة ليسكنا هناك ، وماتت سارة ولها من العمر مئة وسبع وعشرون سنة ، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك (١٣٧) سنة فابتاع إبراهيم « مغارة المكفيلة » وهي ما يقال لها « الغار الشريف » من بني حثٍ لتكون مدفناً لزوجته ومن يموت بعدها ، ثم بعد موت سارة تزوج إبراهيم زوجة اسمها « قطورة » وهذه أيضاً كانت جارية له ، فولدت له ستة أولاد، وهم زِمْران ، يَقْشَان ، مَدان ، مَديان ، يَشْباق ، شُوحا ؛ وانتقل إبراهيم إلى رحمة الله وله من العمر (١٧٥) سنة ودفنه إسماعيل وإسحق في حبرون [1] ، في ذات المغارة التي دفنت فيها زوجته ساره ، وكانت أملاكه متسعة جـــداً وعديدة ، وكان زيادة على نبوته ورسالته أميراً في الأرض شجاعاً متفنناً في أساليب الحرب وحيلها ، وكان عنده عدد عديد من الحشم والعبيد ، وبينهم (٣١٨) عبداً من الذين يحملون السلاح ، وقبل الختام نقول : إن إبراهيم حصّل في غربتـه على اعتبار عظيم حيثما توجه ، واشتهر بدماثه أخلاقه حتى ورد في شأنـه قول الله ﴿ إنّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ منيبٌ ﴾ (١١ : ٥٥) ومـــا زال ولا يزال اسمه مقروناً بالاحترام عند أهل الملل سيما اليهود والنصارى والمسلمون ، فجميعهم يحبونه ويحترمونه ويذكرون اسمه مقروناً بالإكرام والإجلال ولذلك ورد عندنا « اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم » ، وأمرنا بتكرار هذه الصيغة الدعائية في صلواتنا دائماً ، حيث معنى هذه الجملة الدعائية : اللهم عظم محمداً في نفوس جميع

---

(١) اي خليل الرحمن اليوم

الطوائف وكل أصحاب الملل كما عظمت كذلك إبراهيم ، واجعل محمداً مباركاً في نظر كافة العالم كما أن إبراهيم هو مبارك في نظر العموم ، فكأننا ندعو لنبينا بأن يكون معظماً محبوباً مقبولاً عند كل أهل الملل كما كان إبراهيم كذلك ، وبالتالي كأننا نطلب من الله في صلواتنا أن يؤمن بنبينا جميع الناس ويصير الكل من أتباعه وعلى دينه ، هذا الذي نرجوه من الله تعالى في مستقبل الأيام ﴿ ليُظْهِرَهُ على الدينِ كُلِّهِ ﴾ (٩ : ٣٤) ، ﴿ سَنُرِيهِم آياتنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حتى يَتَبَيَّنَ لهمْ أَنَّهُ الحقُ ، أوَلَم يكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه على كل شيءٍ شهيد ؟ ﴾ (٤١ : ٥٣) وقد ذكر إبراهيم في هذه السورة مرتين ، مرة في مقام أن الله تعالى أتم نعمته عليه (ع ٦) ، ومرة في مقام بيان أن ملة إبراهيم هى التوحيد (ع ٣٨) والواقع أن إبراهيم هو رئيس مدرسة التوحيد ، وأن التوحيد الموجود في اليهودية والنصرانية والإسلام أصل منبعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وتابع الشيخ محمود الخليلي قوله :

في شيء عن حياة اسحق عليه السلام

إن معنى كلمة « إسحق » الحرفي « يَضْحَك » كما فهموه من الأصل العبراني ، وعليه فهو فعل مضارع ، أو معناها « إضْحاك » أي « ضَحِكٌ » كما سمعناه من أحد الحاخاميين ، وعليه فهو مصدر ، والسبب في تسميته بذلك هو أن المَلَك لما جاء بالبشارة به ، ضحكت « سارة » لأنها عجوز ، إذ كانت وقت البشارة به بنت (٩٠) سنة ، وكان زوجها ابن مئة ، وكانوا في ذلك الوقت يسمون بأسماء الحوادث تذكاراً لها فلذلك سمي « إسحاق » .

ولد إسحاق في مدينة من مدن فلسطين كان اسمها « جرار » واقعةالى الجنوب الشرقي من غزة ، وربما هي المكان المعروف اليوم بـ « خربة أم جرار » ، ومازال إسحق يرعى غنم أبيه في مراعي كنعان اليانعة الخضرة الى أن بلغ الأربعين ، وكان أبوه مهتماً بزواجه بواحدة من بنات عشيرته بين النهرين ، لأنه كان يفضلهن على بنات الكنعانيين ، ولذلك أرسل عبده « عازار » الدمشقي إلى ما بين النهرين ليختار له زوجة من هناك ، (وذلك بعد أن توفيت سارة) ، فسار العبد والعناية الإلـهية تصحبه حتى جاء إلى « حاران » « في فدان آرام » فوقـع اختياره على « رِفْقَة » بنت « بتوئيل » بن « ناحور » أخي إبراهيم ، فتكون بنت ابن شقيق إبراهيم ، فعاد بها إلى ابن سيده فاقترن بها ، ولما كان إسحاق ابن ستين سنة رزقه الله عيسو ويعقوب في بطن واحد ، وكانت سكنى إسحاق بعد وفاه أبيـه في « لَحَيْ رُئي » ويقال لها اليوم « عين مويلح » ، وتارة في « جرار » مولده . وحيناً في « مَمْرا »وهي غابة بقرب حبرون ، ثم توفي وله من العمر (١٨٠) سنة، وكانت وفاته بعد غيـاب حفيده يوسف بمصر باثنتي عشرة سنة ، ودفنه إبناه عيسو ويعقوب في الغار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه سارة ، وحيث دفنت رِفْقَة امرأة إسحق .

وكان إسحق حليماً محباً للسلام ، امتازبالرقة والأنس ، وأما وصف «الغيور» الذي يصفه به أهل فلسطين ، فلا يقتضي خلاف ما ذكرنا ، فقد وُصف الله تعالى في الحديث بالغيور وكذا نبينا ﷺ ، وقد كان النبي أحلم الحلماء وأرق من النسيم وكان إسحق نبياً ومرسلاً موحى إليه،قال تعالى : ﴿ قولوا : آمنّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ﴾ (٢ : ١٣٦) وقال تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحقَ نبياً من الصالحين ﴾ (٣٧ : ١١٢) ، وبارك الله على إسحق

في جوار « لَحَيّ رُئِي » وأكثر ماله ونمت فيه المعارف الآلهية ، قال تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ﴾ (٣٧ : ١١٣) ، وقد ذكر إسحق في هذه السورة اليوسفية مرتين ، مرة في مقام إتمام النعمة (ع ٦) ومرة في مقام التوحيد (ع ٣٨) .

هذه عقيدتنا في إسحق عليه السلام ، وأما أهل الكتاب فليس هو عندهم نبيّ ، مع أنه يوجد في أسفارهم ما يصرح بأن الرب ظهر له وكلمه وأمره ونهاه وأوصاه بوصايا وبشره ببشائر حسنة ، وأعطاه مواعيد جميلة (تك ٢٦: ٢ - ٦ و ٢٨ : ٣ و ٤) وكل هذا كان بدون واسطة فهو ونحوه يستدعي أنه نبيّ ، كما هو عندنا .

واستمر الشيخ الخليلي يقول :

في شيء عن حياة يعقوب عليه السلام

اشتق إسم « يعقوب » من الحادثة التي وقعت عند ولادته ، لأنه خرج من بطن أمه ويده قابضة بعقب أخيه « عِيسُو » لأنه توأمه الذي خرج بعده ، وقد كان يغلب أن يكون بين ولادة أحد التوأمين والآخر ساعة أو أكثر ، لكن يعقوب ولد على أثر عيسو بلا تأخر ، وهذا معنى أنه ولد ويده قابضة على عقب أخيه ، أي ولد كأنه ماسك بعقبه ، حتى لم يكن بين المولدين زمان يذكر ، فالعبارة من قبيل الكناية أو التمثيل ، وعلى كل سواء أكان هذا الكلام حقيقة أو تمثيلاً فمعنى الكلمة « يعقوب » يمسك العقب أو يَعْقُبُ أو يَتَعَقَّب أو عاقب أو متعقب كما أفاد ذلك كله صاحب « السنن القويم » .

ويعقوب هو أحد الآباء الثلاثة الكبار للعبرانيين ، وهو ابن إسحاق من زوجه « رِفْقة » ، وكان أبوه حين ولادته ساكناً عند بئر « لَحَيّ رُئي » التي يقال لها اليوم « عين مُوَيْلح » ، ولأسباب جرت من يعقوب على رأس أخيه عيسو خاف يعقوب من أخيه عيسو أن يقتله فرحل إلى « حاران » في « فدان آرام » عند خاله « لابان » أخي « رفقة » ، وهو ابن « ناحور » ، وقد أراه الله عند « بيت إيل » في نومه رؤيا مجيدة ، ووعده بأن يعطيه الأرض التي هي أرض الميعاد فتكون له ولنسله ما داموا مستقيمين ، وبيت إيل هذه هي التي تدعى اليوم « بيتين » بين القدس ونابلس ، وبعدما وصل إلى خاله « لابان » زوجه بنته الكبرى « لِيئَة » ثم أعطاه أختها الصغرى « راحيل » فاجتمعتا عنده معاً ، لأن هذا الجمع كان جائزاً في شريعتهم ، وخدم يعقوب خاله لابان عشرين سنة ، ثم رحل قافلاً إلى فلسطين ، فسكن في « شكيم » حيث اشترى أرضاً هناك ، ثم أتى بإلهام النهي إلى « بيت إيل » ، وهناك ظهر الملك وغير إسمه من يعقوب الى « إسرائيل » الذي معناه كما مر « أمير الله » أو « قوي الله » أو « مجاهد الله » ، ثم أتى « إفراتة » التي دعيت « بيت لحم » فولدت راحيل بنيامين ، وماتت هناك ، ثم ارتحل إلى حبرون حيث أبوه إسحاق فيها ، ثم إلى سيلون وفيها سكن إلى زمن حادثة ولده يوسف ، ثم رحل لمصر وبها توفي بعد (١٧) سنة ، ومن أغرب الصدف أن ابنه يوسف أقام عنده في فلسطين في صغره (١٧) سنة ، ثم بالمقابلة أقام أبوه يعقوب عنده بمصر (١٧) سنة ، ثم توفي عن (١٤٧) سنة ، وحنط أطباء مصر جثته وجاء بها يوسف وإخوته إلى حبرون ودفنوها في الغار الشريف ورجعوا لمصر حيث عيالهم ومعيشتهم .

وكما نعلم أن إسم « عدنان » أو « قريش » مثلاً يطلق على كامل القبيلة العدنانية

أو القرشية ، فكذا إسم يعقوب وإسرائيل كان يطلق على كامل أمته (تث ٣٣ : ١٠ ، ومز ١٤ : ٧ و ٢٢ : ٢٣ و ١٠٥ : ٦ و ١٣٥ : ٤ واش ١٤ : ١ و ٤٤ : ٢ ومي ٧ : ٢٠) وهلم جراً . ومن هذا القبيل ما في قوله تعالى ﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ إلاّ ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسِهِ مِن قبلِ أنْ تُنَزَّلَ التوراةُ ﴾ (٣ : ٩٣) ، فقوله « إلاّ ما حرم إسرائيل » يريد منه الشعب ، أي كانوا سبباً في التحريم كما قال تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حَرَّمْنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم ﴾ (٤ : ١٥٩) .

وقد كان المحيط والعصر الذي فيه يعقوب بل وأبوه إسحق وجده إبراهيم ـ محيطاً مملوءاً بالتوثن وعصراً من عصور الشرك في فلسطين وسورية ومصر والكلدان وأشور وغيرها رغم شدة اجتهاد هؤلاء الأنبياء الكرام في تخفيف وطأة التوثن وهداية الخلق للتوحيد ، ولهذا الذي قلنا يظهر لك سر قوله تعالى ﴿ أم كنتمْ شُهداءَ إذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ ـ قالوا : نعبد إلٰهكَ وإلٰهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ إلٰهاً واحداً ، ونحن له مسلمون ﴾ (٢ : ١٣٣) وهنا أتذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن مُتَرجَمَنا كما سمي يعقوب ثم إسرائيل ، فقد سمي أيضاً « هِبَة » و « نافِلَة » قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ نافِلةً ﴾ (٢١:٧٢) ، وإنما سمي هو وأبوه « هبَة » لأنهما جاءا بعد شيخوخة وهرم إبراهيم وسارة وعقرها ، إذ كان عمر إبراهيم (١٠٠) سنة وعمر سارة (٩٠) سنة ، وكل ما جاء على غير السنن المعتادة يقال له هبة ، كأنه بلا تعب أو بلا سبب ، وإنما سمي يعقوب نافلة ، لأنه عطية تطوع من الله بلا سابقة سؤال أو لأنه تابع في الهبة لأبيه الموهوب ، كالنافلة التي تكون

بعد الفريضة ، وقد عاش الموهوب الأول وهو إسحق مع أبيه إبراهيم (٧٥) سنة ، كما أن الموهوب الثاني وهو يعقوب عاش مع جده إبراهيم (١٥) سنة ، وبذلك ظهر جلياً وجه المنة على إبراهيم بهذه النافلة المباركة ، على أن وجه المنة لا تتوقف على شيء من ذلك ، فقد امتن الله على آدم بخلق نبينا ﷺ من سلالته ، ثم بهذا الذي قررناه هنا يظهر الجواب عن سؤال قرره مبشروا البروتستانت خلاصته : إن القرآن يقول : ﴿ وَوَهَبْنا له إسحقَ ويعقوبَ وكُلاً جَعَلْنا نَبِياً ﴾ (١٩:٤٩) ، ويقول: ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ وجعلنا في ذُريتِهِ النُّبُوَّةَ والكتابَ ﴾ (٢٩ : ٢٧) ، ويقول : ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ نافِلةً ﴾ (٢١ : ٧٢) ،فقد تعرض القرآن للابن الصلبي وابن الإبن وامتن بهما على إبراهيم ولم يذكر في هذا المقام ، مقام المنّة إسماعيل مع انه ابن صلبي ، فما ذاك إلا لكونه أحَطُ في المنزلة جداً من أخيه وابن أخيه ، أو لكونه ليس أهلاً في الفضل بحيث يمتن به على أبيه ، هذه هي خلاصة جهالة مبشري البروتستانت ، وأما جوابنا على ذلك فإن هذا السؤال ناشيء عن عدم الوقوف على سائر آيات القرآن الكريم ، وإلاّ فقد قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَوَهبْنا له إسحق ويعقوبَ ـ إلى أن قال ـ وإسماعيلَ ﴾ ، وقال إبراهيم في مقام الثناء على الله تعالى بهذه الهبة :﴿الحمدُ للهالذيوهَبَ ليعلىالكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ ، إنّ ربي لَسميعُ الدعاءِ ﴾ (١٤ : ٣٩) ، فاستدلال البروتستانت على أن إسحق بل ويعقوب في نظر القرآن أهم من إسماعيل إنما هو نتيجة جهل بآيات القرآن الكريم .

ويعقوب عندنا نبي ورسول بحكم الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، وليس هو كذلك عند أهل الكتاب ، مع أن أسفارهم تصرح بأن الرب ظهر له وكلمه وبشره ووعده بمواعيد جميلة (تك ٢٨ : ١٢ ـ ١٥) وكان هذا كله بدون

واسطة ، وهذا المقدار يدل على نبوته ، وقد ولد يعقوب سنة (٢٤٠٧ق.ن)[١] وتوفي سنة (٢٢٦٠ق.ن) فيكون عمره (١٤٧) سنة ، وهاجر لمصر هو وعائلته سنة (٢٢٧٦ ق.ن) .

الفصل الرابع

وقام تقي الدين المقدسي [٢] وقال :

في زوجات يعقوب عليه السلام

إن يعقوب رحل من « حبرون » الى « حاران » بين نهري العراق ليعيش عند خاله « لابان » وتزوج من هناك ، فوصل حاران وكان في طريقه على طرفها بئر وهناك ثلاثة قُطْعان غنم رابضة عند البئر ، لأنهم كانوا يسقون القطعان من تلك البئر التي في الحقل ، وكان على فم البئر حجر كبير فكانت جميع القطعان تجتمع هناك فيدحرجون الحجر عن فم البئر ويسقون غنمهم ، ثم يردون الحجر الى مكانه ، فقال يعقوب للرعاة : « يا إخوتي من أين أنتم ؟ » ـ قالوا : « نحن من حاران » ، ـ فقال لهم « هل تعرفون « لابان » بن « بتوئيل » بن « ناحور » ؟ » فقالوا : نعرفه ، ـ فقال لهم :« هل هو سالم بخير ؟ »ـ فقالوا : « هو سالم ، وهاهي « راحيل » ابنته آتية مع الغنم » ـ فقال : « لماذا لاتسقون غنمكم ؟ » ـ قالوا :

---

(١) ق . ن أي قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم سنة شمسية
(٢) نسبة الى بيت المقدس

« لا نقدر حتى تجتمع جميع رعاة القطعان ويدحرجوا الحجر عن فم البئر ، فمتى اجتمعوا رفعوا الحجر وسقى كل منهم قطيعه في نوبته » ـ وبينما هم يتحاورون أتت « راحيل » مع غنم أبيها « لابان » ، لأنها كانت ترعاها ، ولم تزل عادة العرب ونحوهم من أهل البر الى اليوم ، وكان لما أبصر يعقوب بنت خاله لابان ، وغنم خاله لابان ، أن تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم خاله لابان ، وأعلن يعقوب لراحيل أنه ابن عمتها « رفقه » وسلم عليها ، وسر سروراً عظيماً لما لقي من التوفيق بعد طول سفره وتعبه ، وأما راحيل فركضت وأخبرت أباها ، فما كان من لابان حينما سمع بخبر مجيء ابن أخته إلا أن ركض للقائه وعانقه وقبله وأتى به الى بيتـه ، فإنه كان تقضّى عليه (٧٠) سنة لم ير في يومنها أخته رفقه ، وحدث يعقوب خاله لابان بجميع أحوال الأسرة الإبراهيمية في كنعان ، وبكل ماجرى له وعليه ، فقال له خاله لابان : « لاتخف ، لقد نجوت ، إنما أنت عظمي ولحمي » ، فأقام عنده شهراً من الزمان ، ثم قال لابان لابن أخته يعقوب : « : ألأنك قريبي تخدمني مجاناً ؟! أخبرني ما أجرتك ؟ » ، تكلم لابان بذلك لأن يعقوب في مـدة ذلك الشهر كان يخدم خاله لابان خدمة نافعة ،فلم يرد أن يذهب تعبه باطلاً ،فاستعد أن يعطيه الأجرة التي يريدها ، وكان للابان ابنتان ، اسم الكبرى « ليئة » واسم الصغرى « راحيل » ، وكانت عينا ليئة ضعيفتين ، وأما راحيل فكانت حسنـة الصورة وحسنة المنظر ، وكان ضعف العينين في الشرق يُعدعيباً عظيماً،وجمال العيون وصحتها من أحسن أنواع الكمال الخِلْقي ، وأحب يعقوب راحيـــل ، فقال : « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » ، ـ فقال لابان : « لأن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، فأقم عندي على هذا الوجه » ، ـ فخدمه يعقوب براحيل سبـع سنين ، ثم قال يعقوب للابان : « أعطني امرأتي لأدخل بها ،

لأن أيامي المفروضة عليّ قد كملت » ، ـ فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة حسب السنة المألوفة من قديم ، وكان في المساء أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه ، وأعطاها جارية من عنده لتخدمها اسمها « زِلْفة » ، وعندماعرف يعقوب أن هذه الزوجة هي ليئة وليست راحيل ، قال للابان : « ما هذا الذي صنعت بي ؟ ! أليس براحيل خدمت عندك ، فلماذا خدعتني؟! » ـ فقال لابان : « لا يفعل هكذا في مكاننا ، أن تُعطى الصغيرة قبل البكر ، بل العادة أن تزوج الكبرى قبل الصغرى ، وإلا كان ذلك عاراً على الكبرى ، أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمةالتيتخدمني بهاأيضاً وهي سبع سنين أُخر » ـ سمع يعقوب هذا الجواب من خاله فعذره ومالت نفسه لموافقته ، لأنه كان أحب راحيل ، لأنهاأصغر وأجمل من أختها ، ولأنه كان رآها منذ أتى حاران ، قبل أن يرى أختها فحلت منه في المحل الأول .

ففعل يعقوب ما أشار عليه خاله ، فأكمل أسبوع ليئة ، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ؛ وأعطاها جاريته « بلْهة » جارية لها لتخدمها ، فدخل على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من ليئة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر ، وبذلكيكون يعقوب قد عدد الزوجات ، جرياً على طريقة جده إبراهيم الذي كان تزوج هاجر فسارة فقاطورة ، أو على سُنة عمه عيسو الذي كان تزوج باثنتين حثّيتين ، ثم بثالثة هي بنت عمه إسماعيل واسمها « محلَة » أو « بسمة » .

الفصل الخامس

وتابع المقدسي خطابه قائلاً :

في أبناء يعقوب

مما لا ريب فيه أن يعقوب لم يكن يحب «ليئة » بل كان يكرهها من حين تزوجه براحيل ولم يكن يحبها ، لكن الله تعالى أقام سبباً عادياً لمحبة زوجها لها بأن جعلها ولوداً ، وأما راحيل فكانت في مقابلة ذلك عاقراً ، فحبلت ليئة وولدت ابناً ودعت اسمه « رأوبين » ومعناه « هوذا ابن » أو «رَ ابناً » أي انظر ابناً ، تريد بذلك وترجو أن زوجها ينظر لابنها فيحبها ؛

ثانياً — حبلت أيضاً وولدت ابناً دعته « شَمْعون » ومعناه « المستمع » أو « سَمْعاً » أو « سمعان » قائلة إن الله سمع دعاءها .

ثالثاً — حبلت وولدت ابناً دعت اسمه « لاوِي » ومعناه « مُقْتَرِن » أو « اقتران » راجية أن زوجها سيقترن بها بسبب هذا الولد .

رابعاً — حبلت وولدت ابناً دعت اسمه « يَهُوذا » ومعناه « حَمْد » أو « أحمد الرب » ، وسمعت من بعض اليهود أن حقيقته العبرية الأصلية « يهودا » بالدال المهملة ، ومعناه « الرب مشكور » لأن « يهو » معناه رب و « دا » معناه مشكور ، قال ومنه اشتق الكلدانيون كلمة « يهود » على من كان في الأسر البابلي ؛ ثم توقفت ليئة عن الولادة وقتياً .

وأما راحيل فانها لما رأت نفسها عاقراً غارت من أختها فقالت ليعقوب : « هب لي بنين ، وإلاَّ فمن لا ابن له ميت ،ومن خلَّف ما مات »ـ فحمي غضب يعقوب على راحيل وقال : « ألَعَلِّي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن ؟ ! ! » وهاج جداً ، لأنه كان يحبها ، ويحب إرضاءها ، ولكنه ماذا يصنع وقد سألته مالا يستطيعه غير الله ؟ ، فقالت : « هذه جاريتي « بِلْهه » أدخل عليها. فتضع ابناً أضمه على ركبتي ، ويكون كأنه ابن لي » ، فأعطته بلهة جاريتها زوجة له ، فدخل عليها ، فحبلت وولدت له ابناً ، فقالت راحيل : « قد قضى لي الله وسمع صوتي وندائي وأعطاني ابناً من جاريتي » ، لذلك دعت اسمه « داناً » أي « قضاءً » أو « قاضٍ ». ثم حبلت بلهة أيضاً وولدت ابناً ثانياً ليعقوب ، فدعت اسمه « نفتالي » ومعناه « مُصارَعَتي » ، قائلة : إني صارعت أختي وغالبتها ».

ونعود بالكلام الى ليئة ، لما رأت ليئة نفسها أنها توقفت عن الولادة ورأت أختها راحيلَ ما ذا صنعت، أخذت جاريتها « زلفة » وأعطتها زوجة ليعقوب،فولدت ابناًسمته ليئة « جاداً » ومعناه« طالعَ حسَن »أو « جَدٌ » أو « توفيق » أو « إقبال». ثم ولدت زلفةُ ابناًثانياً ليعقوب،فدعته ليئة باسم «أشير» ومعناه« سعادة »أو «سعيد».

— استطراد —

أقول : ومن هذا نعلم انه وجد في أبناء يعقوب من جاريتيه أربعة بنين ، وهم دان ونفتالي من الجارية بِلهة ، وجاد وأشير من الجارية زِلفة ، وهؤلاء الأربعة هم من آباء الأسباط الإثني عشر،وكثيراً مانقرأ في كتب الجدل من أقلام المبشرين البروتستانت ، وكثيراً ما نسمع من أفواههم حين حوارهم معنا أنهم يقولون لنا : « أنتم معشر العرب الإسماعيليين من أبناء هاجر الجارية ، وأما معشر الإسرائيليين

فأبناء ساراي الحرة»؛ ولأذكر أنني مرة سمعت مبشراً كان يجادلني ويقول لي هذا القول:« إن أبناء الجارية أنزل وأحط من أبناء الحرة ، وبالتالي فسلالة يعقوب أعلى وأشرف من سلالة إسماعيل » فقلت له:« وهل الأسباط الأربعة أعني الدانيين والنفتاليين والجاديين والأشيريين إلا أولاد يعقوب من جاريتيه ؟ فكيف تكون هذه الأسباط الأربعة،وهم أولاد الجواري ، أعلى وأشرف من القبائل التي تفرعت عن إسماعيل؟ » ، على أن الله تعالى يقول : ﴿ إنَّ أكرَمَكم عندَ اللهِ أتقاكُم ﴾ (٤٩ : ١٣) ، فلما سمع جوابي انقطع وبهت كأنما ألقم حجراً .

— رجع وانعطاف —

قلنا : إن ليئه إنما انقطعت عن الولادة مؤقتاً ، ولم تكن قد بلغت زمن الإياس فكانت علتها غير العقم،ولذلك ولدت ولداً خامساً دعته « يَسَّاكر »وتفسيره«أجرة» أو«يأتي بأجرة»أو«توجد أجرة»،ثم ولدت ولداً سادساً دعته«زبولون»وتفسيره«منزل»وقال بعضهم:معناه «خَلاصُ الليل أوصَداقٌ حَسَنٌ »وقال آخر:معناه«صَداق ليلة أو مَهْر ليلة » وقال ثالث : معناه « مَسْكَن » وبهذا ظهر ان أولاد يعقوب من ليئة ستة ، ثم أن راحيل دعت ربها أن يرزقها بالذرية ، فسمع الله لها واستجاب دعاءها ، فولدت ابناً ، فدعت اسمه « يوسف » ومعناه « زيادة » أو سيزيد » ولد سنة (٢٣١٦ ق . ن) وتوفي سنة (٢٢٠٦ ق . ن) فيكون عمره (١١٠) سنين ، وكان منذ نعومة أظفاره محبوباً لأبيه ، وفي الحديث « قيل : يا رسول الله من أكرم الناس ؟ — قال أتقاهم — فقالوا : ليس عن هذا نسألك — قال فيوسف نبيّ الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله — قالوا : ليس عن هذا نسألك — قال: فعن معادن العرب تسألون ؟ — قالوا : نعم — قال : فخيارهم في الجاهلية،خيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا » ، رواه البخاري في صحيحه ، وروي أيضاً : (الكريم

ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ويوسف هو محور هذه الحكاية اللطيفة ومرجع القصة العجيبة ، وبطل هذه الرواية اللذيذة ، وموضوع الحديث .

التشاؤم والتفاؤل من اسم يوسف

قرىء « يُؤسَف » بالهمز وفتح السين المهملة ، وعليه فقد قيل: إنه منقول من الفعل المضارع المبني للمجهول بعد تخفيفه بحذف الهمزة منه ، أي يُؤسَفُ لأجله، وقريء « يُؤسِف » بالهمزة وكسر السين ، وعليه فقد قيل : إنه منقول من الفعل المضارع بعد حذف همزته تخفيفاً ، والعجب أن حالة يوسف كانت في بدآتها مؤسفة جداً ، فهذا غريب الاتفاق ، وهو انطباق الحادثة في الخارج على ما يشعر به الإسم ، كما في قول الشيخ عمر بن الوردي :

قد قلت لما مر بي مفرطق يحكي القمر
« هذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثأر عمر »

وقوله في صديق له صدّ عنه بعد توليته منصب الحكم :

« يامن تولى قاضياً هذا قضاء أم قدر »
« عذرك في هجراننا أن القضا يعمي البصر»

وبعد ؛ فالصحيح أن يوسف اسم أعجمي عبراني معناه « سيزيد » وليس بعربي حتى يصح القول بما سبق ، ولكننا على كل حال نقول : كثيراً ما يتشاءم الناس أو يتفاءلون بالأسماء ، فقد روي أن الحسين (ض) لما انتهى الى طرف الكوفة قال لبعض أصحابه : « ما تسمى هذه القرية ؟ » وأشار إلى العَقْر فقالوا له : « اسمها

العَقْر » — فقال الحسين : « نعوذ بالله من العَقْر » ثم قال : « فما اسم هذه الأرض التي نحن فيها ؟ » — قالوا : « كربلاء » — فقال : « أرض كرب وبلاء » ، وأراد الخروج منها فمنع ، كما هو مذكور في قصة مقتله رضي الله عنه حتى كان ما كان .
وقال الراوي في غزوة خيبر : إن الدليل انتهى برسول الله ﷺ الى موضع له طريق إلى خيبر ، فقال « يارسول الله إن لها طرقاً تؤتيَ منها كلها » — فقال ﷺ : « سمّها لي » ، وكان يحب الفأل والأسم الحسن ، ويكره الأسم القبيح ، — فقال الدليل : « لها طريق يقال له (حَزْن) ـ قال لا نسلكها » — « قال لها طريق يقال له (شاسٌ[1]) ـ قال لا نسلكها » ـ « قال لها طريق يقال له (حاطب[2]) ـ قال لا نسلكها » ـ قال بعض رفقائهم : مارأيت كالليلة أسماءً أقبح من أسماءٍ سميت لرسول الله ﷺ « فقال لها طريق واحدة ولم يبق غيرها يقال لها (مرحب) ـ فقال ﷺ نعم نسلكها » ـ فقال عمر (ض) ألا سميت هذه الطريق أول مرة؟»

ثم قام نعمة الله الجنيني[3] وقال :

التشاؤم والتفاؤل من الأسماء

بمناسبة ما ذكره أخونا تقي الدين المقدسي، نريد ههنا أن نذكر فلسفة في اسم (يوسف) وأبيه (يعقوب) وأمه (راحيل) وشقيقه (بنيامين) وبلده (حبرون)

(١) أي قليل
(٢) أصل الحطب القطع ، والأحطب الشديد الهزال أو المشؤوم
(٣) نسبة الى جنين من أعمال فلسطين

نستخرج من مجموعها فالأحسن ورجاءً مستملحاً لمستقبل يوسف، ولكن لا بد أن نقدم قبل ذلك نادرة عثرنا عليها في بطون التواريخ، عليها نبني كلامنا هنا فنقول : ذكر صاحب (الطرق الحُكْمية) قال مالك عن يحيى بن سعيد إن عمر بن الخطاب قال لرجل : « ما اسمك ؟ ـ قال جمرة ـ قال ابن من ؟ ـ قال ابن شهاب ـ قال ممّن ؟ ـ قال من الحُرْقَة ـ قال أين مسكنك ؟ ـ قال بحرّة النار ! ـ قال أيها ؟ ـ قال بذات لظى ؟ ! ! ! ـ فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا » فكان كما قال ، وقد قال الشاعر الحكيم :

وقلما أبصرت عيناك من رجلٍ
إلاّ ومعناه في اسم منه أو لقبه

وقيل : لكل اسم من مسماه نصيب ، وقال الشاعر [1] :

ألا قد هاجني فازددت وجداً
بُكاءُ حمامتين تَجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجميّ
على غصنين مِنْ غَرْب وبان [2]

إلى أن قال :

فكان (البان) أن بانت سليمى
وفي (الغَرْب) اغتراب غير داني

إذا تمهد هذا (فيوسف) اسم بطل هذه القصة لفظ عبراني معناه (سيزيد) أو (زيادة) ، و (يعقوب) اسم أبيه معناه (يمسك العقب أو (يَعْقُب) أو

---

(١) هو جحدر بن مالك
(٢) الغرب والبان نوعان من الشجر

(يتعقب) أو (عاقب) أو (متعقب) خلاف بين المترجمين ، و (راحيل) اسم أمه معناه (شاة) ، و (بنيامين) اسم شقيقه معناه (ابن القوة) ، و (حبرون) اسم بلده وبلد أسلافه لفظ عبراني معناه (معاهدة) أو (محالفة) ، وعلى هذا فلوفرض وقدر أن يوسف سئل عما ذكر وأراد أن يجيب بألفاظ عربية لكانت الأسئلة والأجوبة هكذا :

س ـ ما اسمك ؟

ج ـ سيزيد .

س ـ ما اسم أبيك ؟

ج ـ عاقب .

س ـ ما اسم امك ؟

ج ـ شاة (والغنم غنيمة) ؟

س ـ ما اسم شقيقك ؟

ج ـ ابن القوة .

س ـ ما اسم بلدك وبلد أسلافك ؟

ج ـ معاهدة أو محالفة

وعليه فيكون تعليقنا على هذه الأجوبة أن نقول له : « حقاً إن لك مستقبلاً باهراً ، فستزيد وتكون عاقباً كأبيك ، ونفّاعاً كأمك ، وذا قوة كأخيك ، وحليفاً لأولياء الأمور » والعجيب أن كل هذا قد صار ، بتقدير اللطيف الخبير .

ثم إن يعقوب بعد ما كان ساكناً عند خاله لابان فيما بين النهرين في حاران اشتاق إلى فلسطين وأهله فيها فقام من حاران بزوجاته وأولاده الأحدعشر ، وجاء

فلسطين بعد عشرين سنة أقامها فيما بين النهرين ، وكان رجوعه لفلسطين بأمر من الله تعالى ، ثم ولد له (بنيامين) من زوجه راحيل ، وكانت ولادته قرب « بيت لحم » ، ومعنى بنيامين (ابن اليمين) أو (إبن القوة) أو (ابن يميني) وكان لطيفاً مطيعاً ومحبوباً من أبيه ومُعَزّياً له في شيخوخته ولا سيما مدة غيبة أخيه يوسف وكل من قرأ قصة يوسف يرى محبته الغريبة لأخيه الصغير فإنه ألحّ على إخوته وهم لم يعرفوه بعد أن يحضره معهم إلى مصر فلما أحضروه ونظره بكى وقبّله باشتياق لا مزيد عليه ، وأما سبط بنيامين فكان من جملة نصيبه من أرض الميعاد أورشليم التي هي بيت المقدس .

وبعد فلم يحدثنا التاريخ ببنات ليعقوب سوى واحدة من زوجته ليئة سميت « دينة » ، الأمر الذي نعلم منه أن يعقوب عليه السلام كان « مذكاراً » ولم يكن « مئناثاً » .

الفصل السادس

وقال العلامة سليم الخانيونسي [1] وقال :

في تقليد المفسرين بعضهم لبعض

إن هذه السورة على الأكثر هي نبذة تاريخية ، ولذلك فأكثر ما كتب عليها هو من هذا القبيل ، وبناء عليه فكل من قرأ هذه السورة مع ما علق عليها من التفاسير يكون قد حشر في دماغه لسورة يوسف وإخوته صورة مركبة ومستنبطة

(١) نسبة الى بلدة خان يونس من اعمال فلسطين

من مصدرين ، الأول كتاب الله تعالى ، والثاني كلام المفسرين ، فأما الأول فلاشيء عليه ، لأنه وحي أوحي من لدن الحق جل جلاله . وأما الثاني فلنا عليه ملاحظة ، ذلك أننا نرى كل مفسر جديد يتبع في النقل المفسر الذي سبقه ، ويقتدي به في فهمه وثقافته وفيما ينقل عن غيره مما هبّ ودرج ، من غير أن يفتكر هو فيه بشيء !! ذلك لشدة ثقتنا العمياء ، وتقاليدنا للآباء والمشايخ ، بلا تمحيص للحقائق ، مع أن هؤلاء المفسرين قد يكونون قد كتبوا ما كتبوا تحت تأثير العاطفة ، أو التقليد البحت ، وهذا هو منبع السم الناقع لموت الحقائق ، ومصدر الجرائم القاتلة لروح التاريخ ، وعليه فانك ترانا نقدم الآن كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تفسير هذه السورة الكريمة ، فنقول : كثير ممن اشتغلوا بسيرة يوسف وإخوته كانت عواطفهم تتحكم في حوادثها تحكماً تضيع به الفائدة من دراسة هذه السيرة اليوسفية ، فإن عاطفة التقليد تجعل من ليس بنبيٍّ نبياً ، فتجتهد في تأويل كبائر حوادث هؤلاء بحمله على وجه ليس فيه غضاضة في شأنهم ، حتى ولو أدّى ذلك إلى مقاومة نصوص الكتاب الكريم ! ـ عاطفة التقليد تجعل الحسن سيئاً ، والسيء حسناً ، فأهل هذه العاطفة لا هم عقليون ، حتى يقولوا بالتحسين والتقبيح العقليين ، ولا هم نقليون حتى يقولوا بالتحسين والتقبيح النقليين ولكنهم يزيدون مذهباً ثالثاً ، هو التحسين والتقبيح التقليديين ، عاطفة التقليد تجعل الكبيرة صغيرة ، وتهون أمرها جداً متى كان من صدرت منه في وهم الناس عظيماً ، وتجعل الصغيرة كبيرة ، متى كان من صدرت منه في تقليد الناس حقيراً ، وربما لا تجد من جمهور المفسرين وجميع القصاص الذين فسروا لنا سورة يوسف ، وقصوا علينا أخباره مع إخوته ـ مَنْ محصوا الحقائق وعللوا الحوادث ، سوى نفر قليل جداً وجداً قليل ، بل ربما لا يكون هذا النفر موجوداً إلا في عالم الخيال ، فلابد لنا أن نجعل أمام أعيننا أننا سندرس قصة يوسف وإخوته وأبيه ، وعزيز مصر وزوجه

وشاهد يوسف ، ونسوة المدينة ، ومليك مصر ، والفتيين ، وما إلى ذلك بكل دقة وتمحيص ، مع تعليل حوادثهم وفلسفة ما صدر عنهم من الأقوال ، وما اتصفوا به من الأحوال ، بحيث يكون رائدنا العقل السليم ، وعضدنا النقل من أوثق المصادر ، غير حافلين بالعقائد التقليدية ، والمزاعم التي ليس عليها أثارة من علم ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل » .

(مرحى مرحى)

الفصل السابع

وقال الفهامة الريحاوي[1] :

في ابطال قصة يوسف

وان القصة صورة طبق الأصل لحياة الشعب الاسرائيلي

« هذه القصة التي في السورة تمثل لنا حياة يوسف ويعقوب وأولاده وميولهم وعواطفهم ، تمثل لنا (المرأة المصرية العتيقة) وأحوال الحكام المصريين ، تمثل حياة عقلية قوية ليوسف ، تمثل ما لإخوته من قسوة بربرية ومعاملة وحشية ، تمثل حياة أليمة محزنة بالنسبة ليعقوب ، تمثل خضوع المرأة المصرية العتيقة لسلطان شهوتها ، تمثل حياة رفق وأناة وعقل « لفو طيفار » عزيز مصر ، تمثل إنصاف

(١) نسبة الى بلدة أريحا في فلسطين

« الريان » ملك مصر في إسناده العمل لذي الجدارة ولو غريباً ، ثم على الإجمال إن هذه القصه تعطينا صورة لدرس حياة الشعب الإسرائيلي ، وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء وخِب ٍّ وإساءة وإحسان ، ومع أن السورة تكفلت ببيان جميع ما أشرنا إليه ، (فيوسف) فقط هو موضوع هذه القصة التاريخية ، أو هو موضوع هذه السورة الشريفة ، ولذلك سميت باسمه ، وأما عزيز مصر « فوطيفار »وامرأته « زليخا » ، والفتيان الخبّاز « ملحب » والساقي « نبو » ، والسيدات المصريات ، وحضرات أبيه المعظم ، وإخوته الأحد عشر ، ومليك الديار المصرية « الريان » ، وغير هؤلاء - فإنما ذكروا على حسابه ، فهو البطل الوحيد لهذه السيرة الجميلة اللذيذة . ولذلك فقد صرح باسمه في هذه السورة خمس وعشرين مرة ، ولم يصرح فيها بشيء من أسماء إخوته ولا مرة ، نعم ذكر فيها أسماء أصوله الذكور يعقوب وإسحاق وإبراهيم ، ولكن لا أولاً وبالذات، بل ثانياً وبالعَرَض، فافهموا أسرار القرآن وإلا فالسلام عليكم » .

الباب الثاني

الفصل الأول

في متعلق البسملة

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت البسملة فقام المحدث مأمون الكرمي[1] وقال :

إن المعنى الضمني في البسملة هو أن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ : إقرأ يا نبيُّ هـذه السورة على عبادي باسمي ، أي أقرأها على إنها مني ، لا منك ، فإني برحمتي بهم أنزلها عليك ، لتعلم أنت مضمونها ، وتهدي قومك بها إلى ما فيه خيرهم ، في الدنيا والآخرة .

والنبي عليـه الصلاة والسلام ، كان يقصـد من متعلق البسملة : « أنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي ، وعلى أنها منه لا مني ، فإنما أنا مبلـغ عنه عز وجل » ، قال تعالى : « وَأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المُسلِمينَ وأنْ أتْلُوَ القرآنَ » (٢٧ : ٩١و٩٢) ، وهـكذا الواحد منا اليوم إذا قرأ السورة بقصد أنه لا يقرأها باسمه ، أي باسم نفسه ، بل باسم ربه سبحانه وتعالى ، ومثل هذا التعبير

---

(١) نسبة الى طول كرم من بلاد فلسطين

بنحو هذا المعنى مألوف عند جميع الأمم ، ومنهم العرب ، إذا أراد الواحد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم يعلن أنه متجرد عن نسبة هذا العمل إليه ، ومنسلخ عنه فيقول : « أعمله باسم فلان » ويذكر اسم ذلك الأمير أو الحاكم ، أو الملك أو الرئيس ، ويقرب هـذا استعمال ما نراه في المحاكم النظـامية اليوم حيث يبتدؤون الأحكام قولاً وكتابـة باسم القانون الفلاني أو باسم الدستور الفلاني أو باسم الشعب الفلاني ، ثم ما نراه عندما يريدون أن يضعوا حجر الأساس في بنـاية مسجد أو قلعة أو مدرسة أو مستشفى ، يقول الذي يضع حجر الأساس : « باسم الملك أو الرئيس أو الأمير فلان أو باسم الشعب الفلاني » .

على أن كل شيء إنما يقرأ أو يقال أو يعمل ، بالاستناد إلى اسمه تعالى وحده ، أي بالارتكاز على إقداره تعالى وقوته « لأن العبد من دون الله ضعيف ، وعاجز جداً ، وهنا يجب أن نتذكر إنكار المسيح عليه السلام على القائلين له غلطاً منهم : « باسمك عملنا كذا » ، « باسمك قلنا كذا » ، كما ورد عنه أنه قال : « كثيرون سيقولون لي : يا رب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟؟ فحينئذ أصرح لهم أني لم أعرفكم قط ، إذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (مت ٧ : ٢٢ و ٢٣) فالمسيح يحارب فكرة إسناد الشيء لاسم غير اسم الله ، لأن من يزعم هـذا الإسناد ، هو غير فاعل إرادة الله ، أي غير ممتثل لأمر الله ، بل الأحرى به أن يكون آثماً ، بمخالفة أمره تعالى .

مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف
كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

آ(١) ﴿ الـر !!! تِلكَ آياتُ الـكتابِ المُبينِ ﴾

تليت الآية الأولى فقام الامام القلقيلي [1] وقال :

إن من يدقق في آيات سورة يوسف عليه السلام ، التي تعدمئة وإحدى عشرة آية ، يجد أن الآيات الثلاثة الأولى هي بمثابة مقدمة للشيء المقصود الذي انعقدت له السورة ، إذ أنها تذكر أن هذا الكتاب ، وهو القرآن ، « مبين » وأنه « بلسان عربي » رجاء أن يكون مفهوماً متعقلاً ، وأنه « أحسن القصص » .

ويجد أن الآية الرابعة من قوله :﴿ إذ قال يوسف لأبيه..﴾ إلى آخر الآية المتممة مئة وواحد هي الشيء المقصود ، الذي انعقدت له السورة اليوسفية ، وكذلك الآيات العشر الأخيرة من قوله :﴿ ذلك من أنباء الغيب ..﴾ إلى آخر السورة ، فقد ذكرت ذيلاً أو خاتمة أو نتيجة ، وهي في الحقيقة ، أهم ما في السورة لعلاقتها بأصول الدين. (جيد جداً)

(الـر)

- ١ -

وبعد أن ألقى الامام القلقيلي كلمته العابرة السابقة تابع قائلاً عن الـر:

كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

أما رأيي في (الـر) فيقال فيها ما قيل في تأويل سائر حروف الهجاء التي

(١) نسبة الى بلدة قلقيلية من فلسطين

افتتح بها بعض سور القرآن ، وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبيه العرب إلى أن القرآن إنما ألفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أي من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتي تتلقنها الصبية منذ نعومة أظفارهم وصغرهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة في حروفها ، مباينة للمألوف في مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وتقهقروا عن تركيب جمل كجمله .

هذا بعض ما قالوه ننقله بكل تحفظ ، والعهدة على القائل لا على الناقل .

(الـر)

- ٢ -

وقال الفاضل البيساني [١] :

نظائر لفظة الر في التوراة والانجيل

كنت سُئلت عن هذا وأمثاله ، فقلت للسائل : لا أقدر أن أجيبك عن هذا إلا بنصف العلم ، وهو «لا أعلم» ،لأن الصحاح والمصباح والقاموس والأساس والفائق والمخصص ولسان العرب وما إلى ذلك من سائر أسفار اللغة العربية كلها تقف هنا مكتوفة الأيدي ، خارسة الألسن ، ولم يرد في نحو ذلك نقل عن المعصوم ،فإذن ليس لنا إلا أن نقول : هذا من قبيل المخابرات السرية المسماة بالجفر أو الشفرة التي يراد منها أن لا يفهمها أحد سوى من أرسلت إليه ، ونظيره لفظة «هَلَّلويا» التي وردت كثيراً في صدر أو ختام المزامير ، كما وردت أيضاً أربع

(١) نسبة الى بلدة بيسان من فلسطين

مرات في (سفر الرؤيا)، فإن المعتمد عند مفسري اليهود والنصارى بعد احتمالات كثيرة أنها من قبيل الألغاز والأحاجي ، وقريب من هذا (سفر الرؤيا) عند النصارى ، خصوصاً منتصفة فإنه كما قال الدكتور جورج بوست « مظلم كدجى الليل ، وقال : إن هذا السفر مشحون بمسائل محيرة » وهكذا يوجد من قبيل الألغاز شيء كثيرة في سفري دانيال وحزقيال ، كما اعترف أهل الكتاب بذلك فمن اعترض علينا من متأخري المسيحيين بأن لا فائدة من فواتح السور هذه لأن معناها غير مفهوم ، أجبناه بما ذكرنا من قبيل ألفاظ وقعت عندهم ، بل بجمل غير مفهومة إلا لخواص عباده ، كالأنبياء الذين نزلت عليهم هذه الكلمات .

هذا ما أمكنني أن أذكره ههنا كمخابرة في « تلفون »

(أصوات من عدة جهات : بخٍ بخٍ)

(الـرّ)

ـ ٣ ـ

وقال المدقق الادي [١] :

الأساليب المبتكرة في القرآن

حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام ـ هي تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء ، فهي كأداة الإفتتاح « ألا » وكأداة التنبيه « ها » ، وكلفظة « آلو » التي يستعملها أهل اليوم عند بدء

(١) نسبة الى بلدة اللد من فلسطين

التكلم بالتلفون للانتباه والإصغاء ، إذ من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير أن ينبه المتكلمُ السامعَ إلى مهمات كلامه والمقاصد العليا منه ، ويحرص على أن يحيط علم المخاطب بما يريده هو منها ، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها ، لكيلا يفوته شيء منها .

قال بعض المتقدمين : إن الكفار لما قالوا : ﴿ لا تَسمَعُوا لهـذا القرآنِ والْغَوْا فيه لَعَلكم تَغلِبون ﴾ (٤١ : ٢٦) ، وتواصوا بالإعراض عنه جاء القرآن بهذه الحروف ، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : « اسمعوا إلى ما يجيء به محمد » ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم ، وطريقاً إلى انتفاعهم ، وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه مثل (لا) و (أما) و (ها) ، لأنها من الألفاظ التي تعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ، ليكون أبلغ في قرع سمعه ، وإننا لا نلتزم أن يكون كل استعمال في القرآن أو في كلام البلغاء معهوداً في كلام الناس من قبل لاستلزام ذلك نفي الابتكار ، وإن كل استعمال يجب أن يكون قديماً معروفاً في الجاهلية ، وذلك باطل بالبداهة ، فكم في القرآن والحديث من أبكار الأساليب الحسان ، وما من بليغ إلاّ وله مخترعات في البيان ، لم يسلك فجاجها من قبله إنسان ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك :

(١) ـ قوله تعالى : ﴿ ولِكُلٍّ جَعَلْنا مَوَالِيَ مما تَرَكَ : الوالِدانِ والأقرَبونَ والذين عَقَدتْ أيمانُكم ﴾ (٤ : ٣٣) فالمراد بقوله (والذين عقدت أيمانكم) الأزواج ، فإن كل واحد من الزوجين له حق الإرث بالعقد ،

فهذا استعمال للقرآن مبتكر ، إذ لم يعهد في كلامهم إضافة عقد النكاح لليمين ». ومأخذه أن المتعارف عند الناس في العقد أن يكون بالمصافحة باليمين .

(٢) ـ قوله ﷺ : (يا خَيلَ الله اركبي) .

(٣) ـ قوله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فإن هذه البسملة من ابتكار القرآن ، فإن العرب إنما كانوا يقولون : « باسمك اللهم » ، وقد ورد في القرآن الكريم في قصة سيدنا سليمان أن البسملة استعملها سيدنا سليمان في كتابه إلى بلقيس بقوله تعالى : ﴿ إنه مِنْ سُليمانَ وإنه بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ ، ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وائتُوني مُسْلِمينَ ﴾ (٢٧ : ٣١) .

(٤) ـ ما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو نوع من أنواع البديع التي ابتكرها القرآن، ومثله ﴿ رَبَّكَ فكَبِّرْ ﴾ (٧٤:٣) ، ﴿ كُلٌّ في فَلَكٍ ﴾ (٢١:٣٣).

(٥) ـ قوله تعالى : ﴿ ولكم في القِصاصِ حَياةٌ ﴾ (٢ : ١٧٩) فإن أحداً من العرب لم يستعمل هذا التركيب .

(٦) ـ ما في قوله تعالى : ﴿ فالصالحاتُ قانِتاتٌ حافظاتٌ لِلْغَيبِ ﴾ (٤:٣٣) فالغيب هنا هو ما يستحي من إظهاره ، أي حافظات لكل ما هو خاص بالزوجية حتى ما يدور بينهن وبين أزواجهن في الخلوة ، ولا سيما حديث الرفث ، فما بالك بحفظ العرض ؟! فهذه العبارة هي من دقائق كنايات النزاهة ، وهي من استعمالات القرآن المبتكرة .

وإن كثيراً من الألفاظ العربية خُلِق في العصر الإسلامي ، قال ابن جني في الخصائص : « إن العربي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يُسْبَق إليه ، فقد حُكي عن رُؤْبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبِقا إليها » ، هذا ما رأيته نقلته ، وهل أنا إلا من غُزَيّة .

« آيات »

- ١ -

قال الأستاذ الدمشقي البابسريجي (١) :

معنى آيات القرآن

ترد كلمة « آيات » في القرآن لستة معان :

الأول ـ بمعنى الجمل المنزلة على النبي ﷺ المقروءة باللسان ، ويقال لها في غير القرآن فواصل وسجعات وفِقَر ، وفيه قولهم مثلاً : « سورة يوسف مئة وإحدى عشرة آية » ، والفاتحة مثلاً « سبع آيات » وهكذا .

الثاني ـ بمعنى العلامات ، قال النابغة الذبياني :

توهمتُ آياتٍ لها فعرفتُها
لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

ومنه العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق الدلالة على وحدانيته وكماله وتنزيهه .

الثالث ـ المعجزات الخارقة للعادة ، التي أجراها الله على أيدي رسله ، ولعله قيل لها آية ، لأنها علامة .

الرابع ـ بمعنى العِبَر والذِكرَ والحِكَمَ والعِظات ، التي تؤخذ مما ينزله الله على نبيه ﷺ وسيأتي في هذا المعنى قوله : ﴿ لقد كانَ في يوسفَ وإخوته آياتٌ

(١) نسبة الى حي باب سريجة في دمشق

للسائلين ﴾ (ع ٧) فالآية فيه بمعنى العبرة ، كما سيأتي له يقول : ﴿ لقد كانَ في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأُولِي الألبابِ ﴾ (ع ١١١) .

الخامس ـ بمعنى جماعة الحروف ، قال أبو عمرو : « خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم » ولعل هذا يرجع للأول .

السادس ـ بمعنى العجيبة ، لأنها عجب من العجائب ، ولعل هذا يرجع للثالث.

وأما الكلمة (آيات) فيما نحن بصدد المحاضرة عليه فيمكن أنه من النوع الأول، ويمكن أن يكون من النوع الثالث ، والله تعالى أعلم .

(الكتاب)

- ١ -

وقال المحقق الشهاب الرملي [١] :

اسماء القرآن

ما هو المراد من كلمة « كتاب » ؟

غير خاف على أحد أن الأمة العربية قبل الإسلام ، كانت أمة أمية ، يقل فيها وجود من يعرف القراءة والكتابة ، معرفة جيدة ، وكان جل اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأشعارهم وغيرها ، على حفظهم لها في صدورهم ، ولم يعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب ، في أي موضوع كان ،وغاية ما كانوا يفهمونه

(١) نسبة الى الرملة من بلاد فلسطين

من لفظ « كتاب » أنه صحيفة مكتوب عليها،من نحو الجلود أو العظام أوالحجارة أو الجريد ، والصالح للكتابة من كل من هذه الأشياء ـ كان لديهم قليلاً ، ولذلك لم يستغنوا بنوع واحد منها عن باقيها، ولم يكن عندهم « الورق » الذي نعرفهالآن، بل هذه الكلمة « ورق » ما كانت تطلق عندهم إلا على ورق الشجر ، وعلى رقاع من الجلود رقيقة ، والإطلاق الأخير مستعار من الأول .

هذا .. وإن ما ورد في كلامهم من لفظ « كتاب » كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ « خطاب » أو جواب أورقيم أو تحرير أو مكتوب،ومنه قول سليمان عليه السلام : ﴿ إذهبْ بكتابي هذا ، فألقهِ إليهم ﴾ (٢٧ : ٢٨)، ومنه كُتُبُ النبي ﷺ إلى الملوك،يدعوهم إلى الإسلام . ومثل الكتاب ـالسفر والزبور والدفتر والسجل، كما قال تعالى:﴿ يومَ نَطوِي السماءَ كطيِّ السِّجِلِّ للكُتُب » (٢١ : ١٠٤) أي كطي الدفتر للمكتوبات فيه ، فمعاني هذه الألفاظ كلها متقاربة ، ولكن ما كانوا يفهمونها ، كما نفهمهاالآن ، ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي ﷺ ، اختلفت الصحابةفيماذا يسمونـه به وتوقفوا ،لأنهم لميعهدوا مثله من قبل ، ثم استقر رأيهم أخيراً على تسميته « بالمصحف » تبعاً لأهل الحبشـة ، في تسمية مجموعاتهم بذلك ، والمصحف الكتاب ، بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الاطلاق ، لأنه مأخوذ من أصْحَفَ : أي جمع ، وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ أنزَلَ الكتابَ الذي جاء به موسى؟﴾ (١٦ : ٩١) ، وقوله . ﴿ ذلك الكتابُ ، لا رَيْبَ فيـه ﴾ (٢ : ٢) وقوله : ﴿ كتابٌ أُنزِلَ إليكَ ﴾ ، فالمراد « بالكتاب » في جميع هـذه الآيات : الوحي المكتوب بقطع النظر عن كيفية كتابته ووضعه ، والقرآن حين نزول هذه الآيات لم يكن تاماً ولا مجموعاً ، وإنما المراد ما كان يوحَى في ذلك الوقت ، فيكتب ،

ولذلك ، فسور القرآن كل منها ، ككتاب قائم بذاته ، كما قال تعالى : ﴿ رسولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرةً ، فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (٩٨ : ٢) أي ان تلك الصحائف تحتوي على خطابات أو تحارير ، أو مكاتب قيمة ، فلفظ « الكتاب» هنا يراد به السورة ، أو القطعة التي أنزلت على النبي ﷺ ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما أنزل عليه .

فلفظ الكتاب كلفظ القرآن ، قد يطلق ويراد به بعضه ، كما في قوله :﴿شهرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ ﴾ (٢: ١٨٥) أي بعضه أو جزء منه ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما في المصحف الشريف .

وكذلك« أهل الكتاب » من العرب ، لم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة من التوراة والانجيل ، مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود ، أو نحوها ، ولذا وصفهم القرآن الشريف بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين أوتُوا نصيباً مِنَ الكتاب ﴾ (٣ : ٢٣) وخاطبهم بقوله : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءَكم رسولُنا يُبَيِّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفُونَ مِنَ الكتابِ ﴾ (٥ : ١٥) وقال فيهم: ﴿ ونَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكِّروا به ﴾ (٥ : ١٣) ، وقال لهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى نوراً وهدىً للناسِ ، تَجعلونَهُ قَراطِيسَ تُبدُونَها وتُخفُونَ كثيراً ؟ ﴾ أي صحفاً متفرقَة (٦ : ٩١) ولكن لم تكن من الورق المعروف ، لأنه لم يكن حادثاً ، بل كانت من الجلود أو نحوها ، وقال أيضاً ﴿ فويلٌ للذينَ يَكتُبونَ الكتابَ بأيْديهم ، ثم يقولون : هذا مِن عندِ اللهِ ، ليشْتَروا به ثمناً قليلًا ، فويلٌ لهم مِمّا كَتَبَتْ أيديهم ﴾ (٢ : ٧٩) ، فهذا كله ، يدل على أن كتبهم المقدسة، ما كانت تامة و لا محصورة بين دفتين ، بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان ، وإنما كانت مبعثرة في رقاع منثورة ، وإن بعض صحفهم كان حقاً

والبعض الآخر كان باطلاً ، أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ وكيف يُحَكِّمونَكَ ، وعندهم التوراةُ فيها حُكْمُ اللهِ ؟ ﴾ (٥ : ٣٢) فمعناه : أن عندهم أجزاء من التوراة ، كسفر اللاويين أو التثنية ، فيها حكم الله ، في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ ، فهذا كما يطلق لفظ القرآن ويراد به أجزاء منه، أو جزء واحد ، كما تقدم (كذا حققه الدكتور توفيق صدقي) .

ومن أسماء القرآن المذكورة فيه « القرآنُ » كما في : ﴿ فلا أقْسِمُ بمواقِعِ النجومِ ـ وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيمٌ ـ إنه لقرآنٌ كريمٌ ﴾ (٥٦ : ٧٥ - ٧٧) وهذا أشهرها .

ومنها «الفُرقان» كما في ﴿ تباركَ الذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عَبْدِهِ ليكونَ للعالَمينَ نذيراً ﴾ (٢٥ : ١)

ومنها « رُوح » كما في : ﴿ وكذلكَ أوحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ﴾ (٤٢ : ٥٢)

ومنها « الذِّكرْ » كما في : ﴿ إنَّا نحنُ نَزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحافِظُون ﴾ (١٥ : ٣)

ومنها « النور » كما في : ﴿ فآمِنوا باللهِ ورسولِهِ والنورِ الذي أنزَلنا ، واللهُ بما تعملون خبيرٌ ﴾ (٦٤ : ٨)

ومنها « أحسن القصص » كما في ، ﴿ نحنُ نَقُصُّ عليكَ أحْسَنَ القَصَصِ ﴾ (١٢ : ٢)

ومنها « الحكمة » كما في قوله تعالى ﴿ ذلكَ مِمَّا أوحَى إليكَ ربُّكَ من الحِكْمَةِ ﴾ (١٧ : ٣٩)

(المبين)

- ١ -

قال المؤرخ البيساني :

بيان القرآن وسهولته

امتاز كتاب الله تعالى على سائر الكتب السماوية والوضعية بالبيان والظهور وسهولة فهمه وشدة إبانته لمانيه ومراميه ، فكانت العرب لا تتوقف في فهم مفرداته ، وجمله ، وأما أهل اليوم فإنهم لبعدهم عن العربية وإهمالهم لها تراهم يعسر عليهم بعض مفردات تعد على الأصابع ليس بينهم وبين الوقوف على معانيها سوى مراجعة قاموس لغة أو سؤآل عالم من العلماء . وأما الكتب عند أهل الكتاب فليست كلها مُبينة ولنضرب مثلا لذلك « كتاب دانيال » الموجود بين أيديهم اليوم فإنه ليس « مُبيناً » بل هو كالألغاز والرموز لا يفهم إلا بعناء ، وهكذا « سفر حزقيال » و « سفر الرؤيا » خصوصاً منتصفه ، ففي ذلك كله غوامض ومشكلات وقع الاشتباه فيها وأوقعت مفسريها في حيرة شديدة ، والذي نراه في شأن ما يسمونه « بالعهد الجديد » أن حواري المسيح أنفسهم ما كانوا يفهمون كل ما يخاطبهم به من المواعظ والأمثال ، ولكن لم ينقل الينا أن صحابة رسول الله ﷺ عُمّيَ عليهم شيء من آيات القرآن الكريم فلم يفهموها ، فالقرآن ، يمتاز على سائر الكتب بأنه هو « الكتاب المبين » ، ولكن المسلمين المتأخرين لم يرضوا بأن يمتاز القرآن بالبيان الذي ليس بعده بيان ، فحاولوا تغميضه والتسليم بأنه غامض قالوا إلا أفراداً من الناس أوتوا علماً جماً ، وفاقوا سائر البشر بعقولهم وأفهامهم ،

كما فاقوهم ، بعلومهم ومعارفهم ، ثم زعموا أن هؤلاء الأفراد كانوا في بعض القرون الأولى ، كمثل من يسمونهم « بالمجتهدين » مثلاً ، وأنهم قد انقرضوا ، ولم يأت بعدهم ولن يأتي من يسهل عليه أن يفهم آيات هذا الكتاب « المبين » !!! وتجد هذا القول المناقض للقرآن الكريم والناقض له مسلماً بين جماهير المسلمين ، حتى الذين يدعون بأنهم « علماء الدين » !!!

أصوات من الجميع (مرحى مرحى)

« المبين »

- ٢ -

وقال الاستاذ البصري :

الناسخ والمنسوخ في القرآن

يقول الله تعالى : ﴿ الكتاب المبين ﴾ ، وسيأتي في آخر السورة أن يقول : ﴿ وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ، وهذا النص وأمثاله الكثيرة جداً في القرآن ، يعلمنا أن القول بوجود النسخ في القرآن ، ضعيف جداً ، وأن يكن هو مذهب الجمهور ، والقول القوي إنه لا نسخ فيه ، كما هو مذهب أُبَيّ (ض) ، الذي ورد في حقه : انه أقرأ الصحابة ؛ ومذهب أبي مسلم الخراساني ؛ ولعمري إن القول بأنه يوجد في القرآن ناسخ ومنسوخ ، وإن الناسخ قد يكون مكتوباً قبل المنسوخ ، كآية العدة في سورة البقرة (آ . ٢٤) : قالوا هي منسوخة بما في (آ ١٣٤) مع أن ذلك ينافي حسن ترتيب الآيات في سورها ، وإن القول بأن

هذه منسوخة وهذه ناسخة ، مع عدم تمييز هذه من هذه ، وإن القول بأن الله يترك عباده يتخبطون في أمور دينهم ، حتى سهل على هذا المفسر أن يقول : « إن الآية الفلانية منسوخة » ذلك لما تراءى أنهـا معارضة بآية أخرى ، ثم يأتي مفسر آخر ، فيقول ليستمنسوخة ، بل نفس المفسر الأول ، متى ظهر له عدم معارضتها لآية أخرى تراه فوراً ، يرجع عن قوله بالنسخ ـ كل هذا ينافي ما ورد من أن القرآن « كتاب مبين » ، « وأنه تفصيل لـكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين » ، لأنه إذا كان مذهب النسخ صحيحاً ، أفليس من الابهام وعدم البيان ، أن يكون القرآن خالياً من التنبيه على ما نسخ ، وعلى ما لم ينسخ ؟ أوليس من أعجب العجب أن لا يوجد عند القائلين به ، حديث واحد ، متفق عليه ، عن رسول الله ﷺ ، يعتبر نصاً قاطعاً صريحاً على أن الآية أو الآيات الفلانية ، نسخت بالآيات الفلانية ؛ وما بالهم لم يتفقوا على عدد مخصص للآيات المنسوخة ؟ ولِمَ يتركون دعواهم النسخ في آية ، متى تحققوا أن لا تعارض بينها وبين غيرها ؟ وكل ما روي في النسخ ، هو من قبيل روايات الآحاد ، وكما أن القرآن لا يثبت بروايات الآحاد ، فكذلك النسخ لا يثبت بروايات الآحاد .

(هذا ما حققه الدكتور توفيق صدقي رحمه الله)

« المبين »

ـ ٣ ـ

وقال المحقق المنفلوطي

المتشابهات في القرآن

لقد ذكروا سؤالاً في صدد كلمة « مبين » صورته : قـد وجـد

في القرآن متشابهات ، أي وجد فيه آيات تشابهت وجوه دلالتها على معانيها القريبة والبعيدة ، حتى أنه ليتسنى لأصحاب الزيغ تأويلها بالباطل وصرفها إلى غير الصواب فكيف مع هذا يكون القرآن مبيناً ؟ والجواب : هذا المقدار أمر لامندوحه عنه، لأنه ضروري في حد ذاته ، وذلك أن أهم ما يجيء به الوحي هو العلم بالله تعالى ، وبعالم الغيب ، ومن المعلوم أن الناس ، وضعوا ألفاظ اللغات ، لما يعرفون من المعاني في هذا العالم ، فيتعين على من يريد إخبارهم بشيء . مما لايعرفون ، أن يستعير بعض ألفاظهم الموضوعة لما يعرفون ، وينصب القرائن لمنع الاشتباه ، ولا شك أن أفهام الناس ، تختلف في فهم القرائن ، وأن الذي يريد الفتنة ، يسهل عليه أن يتبع ما تشابه من القول ، لأن له معنى يدل على وضع له في الأصل ، ومعنى آخر تناوله بالكناية أو بالاستعارة وغيرها من ضروب التجوز ، وهو المراد ، فيحمله على غير المراد ، ويضل به الناس .

مثلا : فرضاً وتقديراً إذا أطلق نبي من الأنبياء على الله تعالى لفظ « الأب »في مقام بيان الرحمة ، وعنايته بخلقه ، حمله أهل الزيغ على الأبوة الحقيقيه ، وقالوا إنه أبوه الذي ولده ، ويصرفون من يفتنونهم عن القرائن العقلية التي تحيل الأبوة الحقيقية على الله تعالى ، كما يصرفونهم عن القرائن القولية التي تطلق لفظ « الأب » على كبار أهل الدين ، كما يقولون عن البطريرك مثلاً « أبونا » . تنقل النصارى أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قال « إني ذاهب إلى أبي وأبيكم » فسوّى بينه وبين حواريه ، في أبوة الله له ولهم ، فذاك قرينة على أن هذه الأبوة مجازية ، وعلى انهاليست خاصة بالمسيح ، وكذلك يقال في لفظ «الابن» إذا أطلقه نبيّ على نفسه، فإن أهل الزيغ يحملونه على البنوة الحقيقية مع قيام القرائن الفعلية واللفظية على إحالة

ذلك ، ومن ذلك إطلاق لفظ « الأبن » على صانع السلام ،فيماينقلونه عن المسيح عليه السلام : « طوبى لصانعي السلام ، لأنهم أبناءُ الله يُدْعَون » (مت ٥ : ٩)

والخلاصة إنه لعدم اقتدار اللغة عن تعيين المراد من نحو صفات الله وعلم الغيب فلا مندوحة عن أن نستعمل فيها الالفاظ التي لها معنى مراد ، ومعنى غير مراد،ومن هنا كانت تلك الألفاظ متشابهة غامضة ، ولكنها لما كانت محفوفة بالقرينة التي تبين المعنى المراد ، كانت مبينة لذلك المعنى ، موضحة له ، وبذلك خرجت عن كونها غامضة ، وأن كل كتاب سماوي ، لا يخلو عن أمثال لذلك ، فمن أمثلة من نظر في متشابه الإنجيل ، وغفل عن القرائن الدالة على المعنى الصواب ـ فِرَقُ المثلثة ، ومن أمثلة من نظر في متشابهه ، ولكن حكم القرائن العقلية واللفظية ، فاهتدى إلى صوابه ـ فرقة الأريوسيين الموحدة،وكذا من أمثلةمن نظرفي متشابه القرآن ، وعرف القرينة الصارفة عن الباطل الباطل ، المُعَيِّنة للمعنى الصحيح ـ فرق أهل السنة والجماعة والسلف الصالح ، ومن أمثلة من نظروا في متشابهه ، وغفلوا عن القرينة الهادية للمعنى الصواب ـ الباطنية والمجسمة والحلولية ، وما الى ذلك . (مرحى)

نزول القرآن

آ(٢) ﴿ إنَّا أَنْزَلناهُ قُرآناً عَرَبياً لعلكم تَعْقِلون ﴾

(أنزلناه)

– ١ –

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية فقام الفهامة الريحاوي [١] وقال :
(أنزلناه) أي باللفظ والمعنى على قلبك يا محمد ـ لأن الضمير يعود على القرآن،

(١) نسبة الى أريحا من بلاد فلسطين

وهو اسم للفظ والمعنى ، كما أن «القول» هو كذلك في آية ﴿ إنَّهُ لَقولُ رسولٍ كريمٍ ،ذِي قوةٍ عندَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ ،مُطَاعٍ ثَمَّ أمينٍ ﴾(٨١:١٥-١٨) ودليلنا أن القرآن بنصه ومعناه نازل على قلب الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿ قلْ مَنْ كانَ عَدواً لجبريلَ ، فإنَّه نَزَّلهُ على قلبِكَ بإذنِ اللهِ ، مُصدِّقاً لِمَا بينَ يديهِ ، وهُدىً وبُشرى للمؤمنين ﴾ (٢ : ٩٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وإنَّه لَتَنزِيلُ رَبِّ العالَمينَ ، نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ ، على قلبِكَ لِتكونَ من المُنذِرينَ ، بلسانٍ عربيٍ مُبينٍ ﴾ (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٥) ، فيؤخذ من هاتين الآيتين أن الوحي بالقرآن الكريم هو أن يُلقِيَ روحُ الله الأمينُ في روحِ الرسول ﷺ ما شاء من الآيات والسور ، فالعبارات القرآنية بنصها وفصها المألوف اليوم كانت تلقى في قلبه دون كسب ولا اختيار ، ولكن وحياً يوحى ، ودون ان يكون النبي ﷺ هو الناسج لبردتها ، والمبدع لسبكها ، بل هو إلهام رباني يودع في عقله دون أن يكون لمقدرة النبي وفصاحته دخل في صياغتها، وتعمّل في ترتيبها، وإنما هو يخبرنا بنفس اللفظ والمعنى الذي تنزل على قلبه ، دون تفسير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ، ولا استعمال قريحة ، ولا استخدام لباقة، قال تعالى ﴿ وما يَنطِقُ عن الهَوَى، إنْ هُوَ إلاّ وحيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَديدُ القُوَى ﴾ (٥٣ : ٣ - ٥) هذا ما رأيته في كلام بعض المصريين العصريين ، فتأمله فلعلك أحسن منه خُبراً .

(أنزلناه)

- ٢ -

قال الإمام القلقيلي[1] :

مامعنى انزال القرآن الكريم

« أنزلناه » أوحينا إليك به ، وإنما عبر عن الوحي بذلك للاشعار بعلو مرتبة الموحي على الموحَى إليه ، أو للاشعار بعلو مرتبة ذلك الشيء الموحَى ، ويصح التعبيربالإنزال عن كل عطاء منه تعالى ، كما قال ﴿ وأنزَلَ لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواجٍ ﴾ (٣٩ : ٦) ومارؤي البعير والبقر والشاء نازلاً من السماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام ، فلانزالها معنى يليق بها ، هو إعطاؤها فضلاً ومنة منه تعالى ، وقال جل شأنه : ﴿ وأنزلنا الحديدَ ﴾ (٥٧ : ٢٥) ، ومعلوم أن الحديد لم ينزل من السماء ، بل صعد من بطن الأرض ، ولكنه لما كان عطاءً من الله تعالى عبر عنه بالإنزال .

ولما سمع الأستاذ الخبير البرقاوي [2] هذا الخطاب ، استأذن من الرئيس وصعد على منبر الخطابة وقال :

أيها السادة ، سمعتم ما قاله الأخ الإمام القلقيلي حفظه الله ، وإني أضم صوتي إلى صوته ، لكني أريد أن أزيد على كلامه كلمة صالحة تزيده فهماً ووضوحاً :

كلمة (نزل) وما اشتق منها لم تستعمل في كلام العرب إلا فيما يأتي من الفوق

---

(١) نسبة الى قلقيلية من اعمال فلسطين
(٢) نسبة الى برقة من اعمال ليبية

إلى التحت ، قال تعالى : ﴿ يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ ومايَخرُجُ منها ومايَنزِلُ من السماءِ وما يَعرُجُ فيها ﴾ (٣٤ : ٢) ، فالذي ينزل من السماء الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير ، وقال تعالى : ﴿ يابَني آدمَ قد أنزَلنا عليكم لباساً يُواري سَوْآتِكُم ورِيشاً ﴾(٧ : ٢٥) لأن اللباس من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود ـ كل ذلك ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون ، وكذا القطن والكتان هما منزلان من عَلُ ، وهكذا « الريش » والرياش وهو لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، كالحرير ونحوه فهذا كله نازل من فوق ، لأن الحرير أصله من الدود ، وغذاء الدود من الشجر كالتوت ونحوه ، وقال تعالى :﴿ وأنزَلَ الذينَ ظاهَروهُم مِنْ أهلِ الكتابِ مِنْ صَياصِيهِم ﴾ (٣٣ : ٢٦) ،فالصياصي الحصون وهي مرتفعة ، وقال تعالى: ﴿ وأنزَلَ لكم مِنَ الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ ﴾ (٣٩ : ٦) ، والأنعام تنزل من أصلاب آبائها إلى بطون أمهاتها ثم تنزل من بطون أمهاتها إلى الأرض ، وقال تعالى عن موسى : ﴿ ثم تولىَّ إلى الظِّلِّ فقال : رَبِّ إني لِما أنزَلتَ إليَّ مِنْ خَيرٍ فَقيرٌ فجاءَته أحداهما ﴾ (٢٨ : ٢٤ و ٢٥) ، فذلك الخير الذي أنزله الله إليه هو بنتا نبي الله شعيب ، لأنهما نزلتامن والدهما،وكان موسى عزباً ولم يلبث أن استجاب الله له فوراً ولذلك قال : فجاءته إحداهما .. الخ، وقال تعالى : ﴿ وأنزَلنا عليكم المَنَّ والسَّلوى ﴾ (٢ : ٥٧) ، والمن ينزل عن الشجر والسلوى تنزل من الهواء ، وقال تعالى : ﴿ وأنزَلنا الحديدَ ﴾ (٥٧: ٢٥) وهو يكون في الجبال . والضيافة سميت « نُزُلاً » لأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل في مكان يؤتى إليه فيه بضيافة فسميت نزلاً لأجل نزوله ، ويقال : نزل ببني فلان ضيف ، ولهذا قال نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ أنزِلني مُنزَلاً مُباركاً وأنتَ خَيرُ المُنزِلينَ ﴾ (٢٣ ٢٩) لأنه سينزل في السفينة

أو سينزل منها ، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون « منازل » لأنهم يكونون ركباناً فينزلون ، ومنه قولهم « نُزُلاً » للمحل الذي ينزل فيه الغرباء المسافرون وحين ينزلون عن دوابهم أو سفنهم أو سياراتهم أو طياراتهم ، وعليه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهار خالدينَ فيها نُزُلاً مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ (٣ : ١٩٨) ، وأما قوله تعالى : ﴿ إنّا أعْتَدنا جَهنمَ للكافرينَ نُزُلاً ﴾ (١٨ : ١٠٣) فهو تهكم ، ونحوه ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ ﴾ (٣ : ٢١)، وقول الضَّبّي :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافَنا
جعلنا القَنَا والمرهفات له نُزُلا

فقد تبين أن ليس في القرآن الكريم لفظ « نزول » إلا وفيه معنى النزول المعروف ، هذا هو اللائق بالقرآن الذي نزل بلغة العرب ، فكلام الله تعالى لما كان نازلاً من السماء على قلب النبي ﷺ قيل فيه ﴿ إنّا أنزلناهُ ﴾ والله اعلم.

(أنزلناه)

– ٣ –

قال السيد السمرقندي[1] :

زمن بدء نزول القرآن

كان ابتداء نزول القرآن الكريم في (١٧) خلت من رمضان من السنة الأولى

---

(١) نسبة الى سمرقند من بلاد التركستان

من النبوة ، كما أشار الله تعالى إليه في قوله : ﴿ إنْ كنتم آمَنْتُم بالله وماأنزَلْنا على عَبدِنا يومَ الفُرقانِ ، يومَ التقى الجَمْعانِ ﴾ (٨ : ٤١) فالمراد بيوم التقاء الجمين ، يوم بدر ، وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ، في (١٧) رمضان من السنة المذكورة ، وقد جعل الله « يوم الفرقان » عَلَماً لأول يوم نزل فيه القرآن ، وليلة نزول القرآن هي التي قال الله عنها : ﴿ إنّا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ ، إنّا كنا مُنذِرينَ ، فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم ، أمراً مِنْ عندِنا إنّا كنّا مُرسِلينَ ، رَحمةً مِنْ رَبِكَ ، إنه هو السميعُ العليمُ ﴾ (٤٤ : ٣ ـ ٦)وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهرُ رمضان بالصوم ، لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ بغـــار حراء (جبل النور) ، ونزل عليه كلام الله فيه لأول مرة ، كما قال تعالى : ﴿ شهر رمضانَ الذي أُنزِل فيه القرآنُ ،ُهدىً للناس وبَيّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرقان ﴾ (٢ : ١٨٥) وجعلت نهايته عيداً ، تذكاراً لذلك اليوم العظيم ، ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم ، وهي المسماة بصدقة الفطر ، فلذى أنزل الله على عبده هو القرآن ـ أي ابتداء نزوله ـ ويوم الفرقان ، هو يوم (١٧) من رمضان من أول سني النبوة ، وسمي « يوم الفرقان » لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، باختياره عبده « محمداً » لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته ، وهذا اليوم هو يوم التقى الجمان في واقعة « بدر » ولكن ليس هو هو بالشخص ، وإنما هو هو بالنوع ، فهذا اليوم وهو يوم (١٧) خلت من رمضان ، كان محلاً لنزول الفرقان أول مره ، ومحلا لالتقاء الجمين ببدر وان يكن يوم الفرقان كان يوم ١٧ خلت من رمضان للسنة الأولى من النبوةويوم التقى الجمان هو يوم (١٧) رمضان من السنة الثانية للهجرة ، فلذلك قلنا إن « يوم الفرقان » هو « يوم التقى الجمان » بالنوع ، كما أنه مثلا هو يوم وفاة علي كرم الله وجهه ، ولكن بالنوع لا بالشخص ، لأن وفاته كانت في (١٧)رمضان

من سنة (٤٠) هجرية ، وقد جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم المعين عدده محلًّا لكثير من الوقائع ، مع انه ليس من سنة واحدة . كما يقولون « يوم عاشوراء» فيه هبط آدم ، وفيه نجت سفينة نوح ، وفيه نجا موسى من الغرق ، وليس هذا كله من سنة واحدة بالضرورة ، وكذلك ههنا ليس « يوم الفرقان » و«يوم التقى الجمعان» و « يوم توفي علي ابن أبي طالب » (ر ض) من سنة واحدة ، هذا ما استفدناه من كلام مصري عصري ، فتأمله فلعلك أدق نظراً وأكثر تحقيقا .

(أنزلناه)

- ٤ -

قال أبو الفضل الحانوني (١)

(جمع القرآن)

نزل القرآن منجماً على رسول الله ﷺ في نحو ثلاث وعشرين سنة، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال، بالآية والآيات والسورة الكاملة كما في سورتنا هذه التي نفسرها الآن ، ولم يجمع القرآن في عهد النبي في مصحف ، بل كان في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي ، وفي صدور الحفاظ من الصحابة ، ثم في عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد بل جمت الصحف

(١) نسبة الى بيت حانون من فلسطين

المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره ، وكتب معها ما كان في صدور الرجال ، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر ، وقد تولى جمعه هذا « زيد بن ثابت » ، ثم انتقلت من أبي بكر إلى عمر ، ثم إلى حفصة بنت عمر ،حتى إذا تولى عثمان أخذ الصحف من حفصة ، وعهد إلى جمع من الصحابة منهم «زيد بن ثابت » ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ،بجمعها في مصحف واحد ،وكتب منه نسخاً كثيرة ،وزعت على الامصار .

(قرآناً عربياً)

- ١ -

قال الفهامة الخرطومي [١]

لغات كلام القرآن

إن من كلام القرآن ما هو عربي أصالة ، بدون أن يكون ترجمة عن لغة أخرى ، وذلك كالكلام المسند في هذه السورة لله تعالى ابتكاراً ، وليس محكياً عن الأعاجم ، ومنه ما هو تعريب للألفاظ العبرانية ، وذلك كالمحاورات المنقولةعن لسان يعقوب وأولاده ، ومنه ما هو تحوير من اللغة العربية العمليقية الهكسوسية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالكلام المحكي عن مليك مصر ، « الريان بن الوليد » لأن اللغة الهكسوسية قريبة جداً من اللغة العربية أو هي العربية محرفة ،

(١) نسبة الى بلدة الخرطوم في السودان

ومنه ماهو ترجمة عن اللغةالقبطيـة المصرية ، وذلك كالـكلام المعزوّ إلىالنسوة في المدينة المصرية ، والـكلام المعزوّ إلى « عزيز مصر » وامرأته ، وإلى « الشاهد » من أهلها ، على أن اللغة المصرية موافقة للعربيـــة في الألوف من مفرداتها ، كما اكتشف ذلك من العاديات المصرية ، فكأن أهل اللغتين واحد ، ومنه ما هوتحوير من اللغة المديانية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالـكلام المنقول عن « وارد السيارة » التي جاءت فارسلته للجب ؛ ويظهر مما تقدم ذكره أن الأقوال المحكية في هذه السورة إنما هي معبرة عن المعاني ، وشارحة للحقائق ، وليست نقلاً لنفس الألفاظ التي صدرت من أصحابها ، فإن بعض أولئك المحـكي عنهم أعاجم ؛ ومنهم قريبون للعرب أو عرب ، ولم تكن لغـــة العربي منهم كلغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها ، كما أن الحال كذلك في أكثر ما نقل في القرآن عن الأنبياء السابقين ، والملوك والحـكماء المتقدمين . (استحسان من الجميع)

(قرآناً عربياً)

– ٢ –

وقال السيد ابو الحسن النجفي [١]:

لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية

بفضل كون القرآن عربياً ، اصبحت اللغة العربية بعد الإسلام ، لغة الدين والدولة والعلم ، وما يتفرع عن هذه الأصول الثلاثة ، من فروع جمة ، كالأدب والتجارة والفن .

وقد رجح الإمام الشافعي في « الأُم » وجوبَ تعميم اللغة العربية ، ووجوب

---

(١) نسبة الى بلدة النجف الاشرف في العراق

تعلمها على كل مسلم ، ليفهم القرآن الكريم ، الذي هو أصل الدين ، ولقد كان الصحابة الكرام ، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين ، يلقنون الناس الدين ؛ على وجه يبعثهم على تعلم العربية من أنفسهم ، ولذلك لم يمض على انتشار الإسلام ، في بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا وغربي أوربا ، زمن يسير ، حتى علت اللغة العربية ، على لغات هذه الأمم ، بل نسختها كما تنسخ آية النهار آية الليل ، من غير مدارس ولا معلمين ، ينصرفون إلى تعليم اللغة ، وما كان انتشار اللغة بهذه السرعة، إلا بوازع نفسي يفعل ما لا تفعل السياسة والمدارس ، وما أوقف هذا السير ، إلا ضعف الدول العربية ، ووثوب الأعاجم على عروشها ، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن وأذكار الصلاة ـ باللغات الأعجمية..

ومن المسائل المفيدة في هذا المقام ، إن ما يكون به الإنسان مسلماً في الجملة ، شيء سهل بسيط ، يمكن إيصاله إلى كل عربي وعجمي في وقت قصير ، ولكن نمو الإسلام في القلب ، وفهم ما جاء به من الحكم والمعارف ، التي ترقي النوع البشري ، يتوقف على معرفة العربية حق المعرفة .

ولقد جاء الإسلام ، لإصلاح اجتماعي ، وهو السعي في وحدة أمم الأرض باتفاقهم في اللغة والدين ، وهذا هو الذي توجهت إليه أخيراً أنظار فلاسفة أوربا ودولها القوية . ولذلك ترى كل واحدة منها ، تبذل كل مرتخص وغال ، لأجل تعميم لغتها بواسطة الفتح والاستعمار والانتداب ، ولأجل انتشار دينها من طرف خفي ، بواسطة المدارس والمستشفيات والمبشرين .

أنزل الله القرآن بلسان العرب ، وخاطبهم فيه بما يعرفون وبما يفهمون، فهو وحي الله إليهم مباشرة ، وإلى العالمين بواسطتهم ، وجميع ما فيه مفهوم لهم ، بدون احتياج إلى تفسير مفسر أو تأويل مؤول ، أما الأمم الأخرى التي تأخذ القرآن

عن العرب ، فلا بد لهم من معرفة اللغة العربية تدريجياً ، وكـذا معرفة أحوال العرب وعاداتهم وتاريخهم واصطلاحاتهم ، حتى يتيسر لهم فهم القرآن على حقيقته ، وبعد ذلك فهم غير محتاجين لشيء آخر .

أنزل القرآن بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، في أشرف بقاع الأرض ، مكة والمدينة ، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة ـ وهو رمضان ـ فكمل من كل الوجوه، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وكذا العقيلي ، ووضع السيوطي بجانبه في الجامع الصغير علامة الصحة .

(قرآناً عربياً)

ـ ٣ ـ

بعث محمد ﷺ العربي للأمم كافة

وتابع السيد أبو الحسن الندوي كلامه قائلاً :

إن جملة ﴿ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ لا تشير إلى أن النبي لم يبعث لغير العرب .. لا .. حاشا وكلا .. ولكن المراد أن العرب هم الأصل ، وهم متى عقلوا القرآن وفهموه أمكنهم أن يفهموه لغيرهم من الأمم ، ﴿ هو الذي بَعَثَ في الأميّين رَسولاً منهم، يَتلو عليهم آياتِهِ ، وَيُزَكّيهِمْ ، وَيُعَلّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمَة ، وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ (٦٢ : ٢) ، ﴿ كما أرْسَلْنا فيكم رَسُولاً مِنكُمْ ، يتلُو عليكم آياتِنا ، وَيزَكيكُمَ ، ويُعَلّمُكُمُ

الكتابَ ، والحِكمةَ ، ويُعلِّمُكم ما لم تكونوا تعلمونَ ﴾(٢ : ١٥١)، فالنبي يعلم قومه العرب ويزكيهم بالقرآن ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته ، ويبثون حكمته في الأمم ، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم الأمم والشعوب ، من حال إلى حال ، أعلى وأرقى ، ينقلونهم من الوثنية والعبودية والذلة والظلم ، وفساد الأخلاق والآداب والجهل ، إلى التوحيد والحرية والعزة والعدل والآداب والفضائل والعلم وثمراته .

إذاً ، فالصحابة ـ وأكثرهم عرب ـ هم رسل محمد ﷺ إلى الأمم والشعوب ، التي لم تجتمع بالنبي ﷺ وأكثرهم عجم ، وهذا يذكرنا بما كان من رسل المسيح عيسى عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ واضربْ لهم مثلاً أصحابَ القريةِ إذْ جاءَها المُرْسَلون ، إذْ أرسَلْنا إليهم اثنينِ ، فكذَّبُوهما ، فعزَّزْنا بثالثٍ ، فقالوا : إنَّا إليكم مُرسَلونُ .. لخ ﴾ (٣٦ : ١٣ و ١٤) ويرى بعض علماء اللغات أن كلمة « الحواريين » في القرآن ، هي معربة عن الحبشية ، ومعناها فيها « الرسل أو المرسلون » ، سماهم القرآن بذلك ، إما بحسب العرف الجاري في ذلك الزمن بين نصارى العرب ، كما نسمي الآن دعاة النصرانية « بالمبشرين » ، وإما لأن المسيح أرسلهم في حياته لدعوة اليهود إلى المسيحية ، كما في الأناجيل .(راجع مت ١٠ : ١ ـ ١٥ ، لو ٩ : ١ ـ ٦ ، لو ١٠ : ١ ـ ١٢ والحكمة في اختيار القرآن هذه الكلمة الحبشية دون مرادفها في العربية ،هي منع الالتباس ،لتكون علماً خاصاً بهؤلاء التلاميذ المتازين من أصحاب عيسى عليه السلام .

(الله أكبر)

(قرآناً عربياً)

- ٤ -

وقال الفضيل النجدي [١] :

ترجمة القرآن

إن مقاصد الإسلام العلمية ، جمع البشر على دين واحد ، ولغة واحدة ، لتكمل وحدتهم ، وتتحقق إخوتهم ، ولذلك منعت ترجمة القرآن الكريم ، على تقدير حسبان الترجمة قرآناً ، فيحتم بقاؤه عربياً ، ويجب شروع كل مؤمن في تعلم اللغة العربية ، كما كان الحال كذلك ، أيام صاحب الرسالة ، والخلفاء الراشدين ، بل وفي أيام دولة الأمويين والعباسيين، ولولا الصدمات السياسية التي صدمت الإسلام ، لظل أهل فارس ومن يجاورهم إلى هذا الزمن ، ينطقون بالعربية « كما كانوا في القرون الأولى للاسلام ، بل لكانت بلاد الهند والأفغان والترك وجزء عظيم من بلاد الصين ، يحسنون التفاهم باللغة العربية ، كبلاد سوريا ومصر لهذا العهد ، ولكان في ذلك للاسلام ، سياج من الوحدة لا يخرق .

وهنا مسألتان ، إحداهما ترجمة القرآن إلى لغة أعجمية ، أي التعبير عن معانيه بألفاظ أعجمية، يفهمها الأعجمي دون العربي ، والثانية كتابة القرآن العربي ، بحروف غير عربية ، وكلا المسألتين غير جائز ، نعم إن المنع فيما إذا ترجم القرآن، وحسبت الترجمة قرآناً ، وأما إذا ترجم بقصد جعله وسيلة للدعوة إلى الإسلام ، أو بقصد إفهام من لم يمكنه تعلم اللغة العربية ، فلا بأس بذلك .

---

(١) نسبة الى مقاطعة نجد من بلاد المملكة العربية السعودية

قال ابن تيمية في كتابه « العقل والنقل » : (وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ، فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم : فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه ، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة ، لأن أباها كان من المهاجرين إليها ، فقال لها : « يا أمَّ خالد هذا سنا » والسنا بلسان الحبشة الحسن ، لأنها كانت من أهل هذه اللغة ، ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأمن اليهود عليه) انتهى .

قرآناً عربياً

– ٥ –

وقال مولاي أحمد الهندي :

اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية

يحسن أن تكون اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في العلاقات التي بين الدول المسلمة،أسوة بالقاعدة المتبعة بين دول أوروبا في استعمال اللغة الإفرنسية في المسائل السياسية ، لأن هذا يكون من أعظم دعائم الإصلاح الإسلامي الديني والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي ، إن جميع شعوب المسلمين من مراكش غرباً إلى بكين شرقاً ، لا تخلو من علاقات مشتركة بينها ، إما دينية محضة ، أو دينية واقتصادية ، وإما علاقات سياسية فيما إذا كانت هذه الدول الإسلامية مستقلة ،وإن

هذا يكون بالمفاوضة فيما بينها ، لأن لغة شطر القارة الافريقية الشمالي من الغرب إلى الشرق ، وشطر آسيا الشرقي من البحر الاحمر إلى خليج العرب — هي اللغة العربية ، وفي هذه البلاد مهد الاسلام ومهبط وحيه ، ومهوى أفئدة أهله ، وقبلة صلاتهم ، ومشاعر نسكهم ، ومثابتهم التي يؤمها مئات الألوف من جميع شعوبهم على اختلاف أقطارهم في كل عام ، وهذه اللغة هي التي يتعبد بها جميع المسلمين ويتلقون دينهم في جميع الاقطار ، هذا هو برهان العقل .

وأما برهان الدين ، فهو أن العربية هي لغة الدين الإسلامي ، إذ لا يمكن أن نعلمه علماً صحيحاً ، ولا أن نعمل به عملاً صحيحاً ، بإقامة أعظم عباداته ، إلا بهذه اللغة ، فيتعين أن تكون هي اللغة الوحيدة للتعاون بين الشعوب الإسلامية ، وتفاهمهم في أمورهم المعاشية .

قرآناً عربياً

- ٦ -

وقال ابو الفضل الفاشودي[1]:

فلسفة لغة القرآن

« قرآناً عربياً » نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب العرب في كلامهم ، فألفاظه عربية ، إلا ألفاظاً قليلة عُرِّبَت أخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتها

(١) نسبة الى فاشودة من بلاد السودان

العرب ، وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها ، ففيه الحقيقة اللغوية ، والحقيقة العرفية والاصطلاحية ، وفيه المجاز بالاستعارة والمجاز المرسل ، وفيه المجاز اللغوي والمجاز العقلي ، وفيه الكناية وفيه التمثيل ، الى غير ذلك ، فهو على نمط العرب في كل استعمالاتهم .

(تأييد من أكثرية الاصوات) .

لعلكم تعقلون

- ١ -

قال الأديب الفالوجي[1] :

تعقل القرآن وفهمه

الألفاظ وحدها إنما هي هيكل عظمي ، وأما المعنى فهو اللحم والدم ، وأما فهمه فهو أكله المقصود بالذات ، فالحكمة من إنزاله لا تتم إلا بتعقل معناه ، ولا أحسبك إلا مسلّماً لي في هـذا الاعتقاد على طول الخط ، ﴿ فإنَّما يَسَّرناهُ بِلِسَانِكَ لعلَّهُم يَتَذَكَّرون ﴾ (٤٤ : ٥٨) ، ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذِّكر ، فهل مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ ﴾ (٥٤ : ١٧ و ٣٢ و ٤٠) ، ﴿ إنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تَعقِلون ﴾ (٤٣ : ٣) ، ﴿ وما أرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لهم ﴾ (١٤ : ٤) ﴿ وكذلِكَ أنزلناهُ قرآناً عربياً وصَرَّفنا فيه من الوعيد ، لَعلَّهم يتَّقُون أو يُحْدِثُ لَهم ذِكْراً ﴾ (٢٠ : ١١٣) ﴿ وكذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكُمُ الآيات ، لعلكم تَعقِلونَ ﴾ (٢٤ : ٦١) ﴿ كذلك

(١) نسبة الى الفالوجة من اعمال فلسطين

يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ (٢:٢٦٦)﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ (٢٤ : ١) ، ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ (٦ : ٦٥) فنرى في هذه الآيات أن خطاب الشريعة موجه إلى العقلاء ، فلهذا يجب على كل مسلم مؤمن أن يكون عاقلاً عالماً بأسرار أحكام الله لكي يستفيد منها حق الاستفادة ، وفي الحديث « أفضل الناس أعقل الناس » وفيه : « إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلفى على قدر عقولهم » إلى غير ذلك من النصوص التي تفيد أن الثمرة المقصودة من الكتاب هي فهمه ، وقد ذم الله تعالى من لا يفهم أولا يريد أن يفهم كتابه فقال : ﴿وقالوا قلوبنا غلف ، — بل لعنهم الله بكفرهم ! فقليلاً مايؤمنون﴾ (٢ : ٨٨) ، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون﴾ (٥١ : ٥) ، ﴿أفلا يتدبرون القرآن ، أما على قلوب أقفالها !!!؟﴾ (٤٧ : ٢٤) ، ﴿وقال الرسول : يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ (٣٥ : ٣٠) ،والهجر هجران : هجر التركيب وهجر المعنى ، ومن لم يتدبر معناه فقد هجره هجراً معنوياً ، وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ،ما كنا في أصحاب السعير﴾ (٦٧:١٠) ومدح ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾(٢٥:٧٣)، فتح الله قلوبنا وأنار بصائرنا لفهم كتابه العزيز .

لعلكم تعقلون

- ٢ -

وقال الفهامة الريحاوي[١] :

تعقل القرآن وفهمه من صفات المؤمنين

إني أضم صوتي إلى صوت رفيقي الأديب الفالوجي قائلاً : لا يزال كتاب الله تعالى يحث مخاطبيه على التعقل ، ويدفعهم الى التفكر ، لاجل تمحيص الحقائق ، وهكذا إن شاء الله لا سير لنا في هذه النبذة التاريخية على غير العقل والحقيقة ، خلافاً لمن تعودوا أن يقبلوا ما سطره مَنْ قَبلهم دون أن يمنوا النظر فيه ، فتراهم ينقل ويقتبس بعضهم من بعض دون أن يحكموا العقل فيما ينقلون ويقتبسون! ، وغني عن البيان أنه إنما أنزل الكتاب الكريم ليعمل بما تضمنه من الحِكم والاحكام ، وإن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على هذا العمل ، ومعلوم أنه لا يمكن هذا العمل إلا إذا فهم الكتاب حق الفهم ، وتعقل التعقل الصحيح ، من هذا تعرف أن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على فهم القرآن وتعقله ، فليجعل المكلف كل همه في فهم ما يشير ربه إليه ، ثم يعمل به ، فإنه لا حياة إلا بالعلم والعمل ، وبطن الأرض خير من ظهرها لمن فقد أحدهما ! ! !

تفهم معاني الكتاب وتعقله صفة من صفات المؤمنين ، كما أن عدم ذلك من سيما سواهم ، قال تعالى : ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينَكَ وبينَ الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ، وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أنْ يفقهوه ، وفي آذانهم وَقْراً ﴾

---

(١) نسبة الى أريحا من اعمال فلسطين

(١٧ : ٤٥ و ٤٦) ، الحجاب هو معاصيهم وكفرهم وكبرياؤهم ، وكلما كان المرء أكثر عصياناً وكفراً كان أبعد عن فهم كلامه تعالى ، وهذا الجَمَل المذكور تكويني ، هذا مارأيناه في هذا المقام ، فهل من مريد أن يضم صوته لصوتنا إن كنا على صواب ؟ إنا لذلك منتظرون　　(تأييد من جميع الأصوات)

لعلكم تعقلون

- ٣ -

وتلاه على هذه النغمة اللطيفة أبو الفضل الحانوني (١) فقال :

مزية الانسان بالعقل والادراك

إن الإنسان إنما امتاز عن سائر المبروءات بالعقل، لأنه في تركيبه الفسيولوجي (الغريزي أو النفسي) مشارك للحيوان ، وفي تركيبه الكيماوي مشارك للنبات والجماد ، فمزيته قائمة بالإدراك ، منحصرة في العقل ، فمن كان من الناس أقوى من غيره في هذا الفارق الأعظم وأظهر من سواه في ذلك المائز الأكبر ، كان الأجدر بأن يعد فيهم عظيماً ، لأنه أبعد أبناء نوعه عن الحيوانات ، ومن ثمة فهو أشرفهم وأعلاهم ، ﴿ أمْ تحْسَبُ أنَّ أكثرَهُم يَسْمَعُون َأوْ يَعْقِلون َ؟ إنْ هُمْ إلاّ كالأنعامِ ، بل هُم أضَلُّ سبيلاً ﴾ (٢٥ : ٤٤) .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان
(مرحى)

(١) نسبة الى بلدة بيت حانون من فلسطين

لعلكم تعقلون

- ٤ -

وقال ناصر السنة التل أبيي [١] :

استعمال اكثر المسلمين القرآن الكريم في غير ماهو له

مهما قلبت بصرك لا تجد القرآن « في الغالب » مستعملاً فيما وضع له ، فهو عند الخاصة موضوع مناقشات لفظية ، وصناعة وفصاحة كلامية ، ومجال براعة في اختراع وجوه ، وتأويل مناحي ، وبعد عن مقاصد ، وأما عند العامة فهو دفتر لتعاويذ ورقى ، و كتاب ترتيل ، وعلى رأيهم هو كلام يقال لكي لا يفهم ، حتى قال بعض الأدباء : فات هؤلاء المسلمين أن يفهموه للأحياء فاستدركوا بأن صاروا يسمعونه للموتى في القبور ! ! !

إن في القرآن العظيم (٦٢٣٦) آية وآيات الفقه فيه (١٥٠) آية ، والآيات الكونية (٧٥٠) آية ، والباقي تاريخ وجدل وإلهيات وبراهين توحيد وأدلة قيامة وحجج نبوة وآيات أخلاق وأدب وغير ذلك ، فهل لأجل مئة وخمسين آية، لا يجوز أن ننظر في باقي الآيات القرآنية ؟ اللهم إن هذا حكم جائر لا يقبله ذو دين .

إن البشر ليسوا حيوانات تساق إلى حيث يريد من يسوقهم ، الناس ليسوا بقراً تساق إلى المذبح ، الناس ليسوا تماثيل لا حس فيها ولا عقل ولا إدراك ، تنقاد لهذا أو ذاك بدون فهم مقصده وغايته ، الناس كلهم من نوع الإنسان، والإنسان حيوان ناطق ، ونطقه هو فكره وعقله ، فإذا لم يستعمل عقله ، كان كأنه بلا عقل ، فكان كأنه ليس إنساناً .

(١) نسبة الى بلدة تل أبيب من فلسطين

إن الجحدة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك علم الماديات ، فإنهم برعوا في ذلك كما هو مشاهد ، وهم عن الآخرة هم غافلون،ولذلك فهم في الروحيات ضعفاء جد الضعف ، فنحن أهل الإيمان ، إذا أهملنا الروحيات التي أهمها تفهم القرآن ، — وبالطبع نحن ضعفاء في الماديات — كنا لا دنيا ولا دين ! فاللهم سلم سلم .

لعلكم تعقلون

- ٥ -

وتلاه أبو الاقبال البربراوي[١] فقال :

القرآن يمدح المتعقلين بآياته ويذم الغافلين عنها

يوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تمدح المتعقلين، وآيات كثيرة تذم الساهين الغافلين ، منها :

أولاً — ﴿ سأصْرِفُ عَنْ آياتي الذين يتَكبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقْ﴾ (٧ : ١٤٥) .

ثانياً — ﴿ لهم قلوبٌ لا يفقَهونَ بها ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بها ، ولهم آذانٌ لا يَسمَعون بها ، أولئكَ كالأنعامِ ، بل هُمْ أضَلُّ ، أولئك هُمُ الغافِلونَ ﴾ (٧ : ١٧٨) .

(١) نسبة الى بلدة بربرة من فلسطين

ثالثاً ـ ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا « سَمِعْنا » وهم لا يَسمَعُونَ ، إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللهِ الصُمُّ البُكْمُ الذين لا يَعقِلونَ ﴾ (٨ : ٢١ و ٢٢)

رابعاً ـ ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ ، نظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ : « هل يراكم مِنْ أحدٍ ؟ » . ثم انصَرَفوا ، صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُمْ ، بأنهم قومٌ لا يفقهون ﴾ (٩ : ١٢٨) .

خامساً ـ ﴿ ومَنْ أعرَضَ عَنْ ذِكْرِي ، فإنَّ له مَعيشَةً ضَنْكاً ، ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى ﴾ (٢٠ : ٢٤)

سادساً ـ ﴿ وقال الرسولُ : يارَبِّ إنَّ قومي اتَّخَذوا هذا القرآنَ مهجوراً ﴾ (٢٥ : ٣٠)

سابعاً ـ ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهِم لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً ﴾ (٢٥ : ٧٣) .

ثامناً ـ ﴿ وقالوا : لو كُنّا نسمعُ أو نعقلُ ما كنّا في أصحابِ السّعير ﴾ (٦٧ : ١٠)

تاسعاً ـ ﴿ كتابٌ أنزَلناهُ إليك مبارك ، لِيدَّبَّروا آياتِهِ وليَتَذَكَّرَ أولو الألبابِ ﴾ (٣٨ : ٢٩)

عاشراً ـ ﴿ فطُبِعَ على قلوبهم ، فهم لا يَفقَهون ﴾ (٦٣ : ٣)

حادي عشر ـ ﴿ فإنّها لا تَعمَى الأبصارُ ، ولكنْ تَعمَى القلوبُ التي في الصُّدُورِ ﴾ (٢٢ : ٤٦) .

ثاني عشر ـ ﴿ الذين كانت أعيُنُهم في غِطاءٍ عن ذِكْرِي ، وكانوا لا يستطيعونَ سَمْعاً ﴾ (١٨ : ١٠٢)

ثالث عشر ـ ﴿ وقالوا : قلوبُنا في أكِنَّةٍ مِمّا تدعونا اليه ، وفي آذانِنا وقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجابٌ ﴾ (٤١ : ٥) .

وبناء على ما تقدم فالأصل في مشروعية تلاوة القرآن الاهتداء والاعتبار ، ولا يكون ذلك إلا بالتدبر والتفهم ، نعم قد يثاب التالي للقرآن بغير فهم ، إذا كان يتلوه لغرض شرعي آخر ، كتجويد التلاوة والحفظ ، فإنّ توجه الذهن إلى ضبط الألفاظ ، وإتقان مخارج الحروف مثلاً ، يشغل عن تدبر المعاني ، ولكن مثل هذا يكون غرضاً عارضاً ، لا دائماً .

لعلكم تعقلون

- ٦ -

وقال الشيخ محمد العدني [١] :

تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه

معنى « تعقلون » تفهمون وتفقهون ، كما في الحديث : « من يُرد اللهُ به خيراً يفقهه في الدين » فالفقه في هذا الحديث ، إنما هو بمعنى فهم مرامي الكتاب العزيز ، والسنة النبوية ، ولا يصح حمل كلمة « يفقهه » في هذا الحديث ونحوه ، على المعنى الاصطلاحي للفقه ، وهو علم ظواهر الأحكام العملية ، لأن هذا لم يُسم « فقهاً » إلاّ بعد الصدر الأول من الإسلام ، ولم تُسم حملته « فقهاء » إلا بعد العصر الأول ، والفقه بالمعنى الاصطلاحي الجديد ، هو أقل ما في الدين ، ولذلك لم يحتفل به القرآن ، ولم يرد

(١) نسبة الى عدن من بلاد مقاطعة عدن في جنوب المملكة اليمنية

منه في السنة الصحيحة أيضاً ، إلا القليل ، ولكنهم اعتنوا بجمعه فكثر ، وإنما عماد الدين وقوامه ، هو الاعتقاد الصحيح ، ومعرفة مكارم الأخلاق ، والتحلي بمحاسن الآداب ، وتطهير العقول من لوث الخرافات والأوهام ، وكل هذا يكون بالوقوف على مرامي كتاب الله ، فهذا هو الفقه ، بالمعنى المعروف في عصر النبوة والخلافة .

لعلكم تعقلون

- ٧ -

وقال الشيخ الطنطاوي

الحكمة من انزال القرآن

ليست الحكمة في إنزال القرآن الحكيم ، التعبد بتلاوته من غير فهم معناه أو لنجعله « حانوتاً » نبيع منه « عدية يس » ولا لنجعله « صيدلية » نكتب آياته في آنية ونمحوها بالماء ، ونتعاطاها لنشفى من داء كذا ، ولا .. ولا .. الخ ، بل الحكمة من انزال القرآن مبينة في نفس القرآن ، وها كم بيان بعضها :

أولاً ـ الهداية ، كما قال : ﴿ الم ، ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيه ، هُدىً للمتَّقينَ ﴾ (٢ : ١) .

ثانياً ـ التعقل ، كما قال : ﴿ إنّا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تَعقِلون ﴾ (١٢ : ٢) .

ثالثاً ـ الخروج من الظلمة إلى النور ، كما قال : ﴿ الر ، كتابٌ أنزلناهُ إليكَ

لتُخرِجَ الناسَ من الظلُماتِ إلى النورِ ، بإذنِ ربّهم ، إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾ (١٤ : ١) .

رابعاً ـ البشارة والنذارة ، كما قال : ﴿ الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ، ولم يجعلْ له عِوَجاً ، قيِّماً ، ليُنذِرَ بأساً شديداً من لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ المؤمنينَ الذين يعملون الصالحاتِ ، أنَّ لهم أجراً حَسَناً ، ماكِثينَ فيه أبداً ﴾ (١٨ : ١ ـ ٣) .

خامساً ـ التذكير ، كما قال : ﴿ طـه ما أنزلنا عليك القرآنَ لتَشقى ، إلاّ تذكِرَةً لِمَنْ يَخشى ﴾ (٢٠ : ١ ـ ٣)

سادساً ـ التدبر كما قال : ﴿ أفلا يَتَدَبّرون القرآنَ ، أمْ على قلوبٍ أقفالُها ؟ ﴾ (٤٧ : ٢٤)

سابعاً وثامناً وتاسعاً ـ التثبيت والعظة والذكرى ، كما قال : ﴿ وكُلاً نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُسُلِ ، ما نُثبِّتُ به فؤادَكَ ، وجاءَكَ في هذه الحقُّ وَمَوْعِظةٌ وذِكْرَى للمؤمنين ﴾ (١١ : ١٢٠) .

عاشراً ـ الاعتبار ، كما قال : ﴿ لقد كان في قَصَصِهِم عبرةٌ لأولي الألباب ﴾ (١٢ : ١١١)

الحادي عشر ـ قانون عدلية أو مجلة أحكام ، كما قال : ﴿ وكذلكَ أنزلناهُ حُكْماً عربياً ﴾ (١٣ : ٣٩)

الثاني عشر ـ التفكر كما قال : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للناسِ ، لعلّهم يَتَفكرونَ ﴾ (٥٩ : ٢١)

الثالث عشر ـ شفاء ما في صدور الناس ، من أمراض الجهل بالله ، وبما له على عباده من الحقوق ، وما لبعضهم من ذلك على بعض ، وأمراض الأخلاق السيئة ، والعادات الضارة ، كما قال : ﴿ يا أيها الناسُ قد جاءَكم مَوعِظةٌ مِنْ ربِّكم وشِفاءٌ لما في الصدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ (١٠ : ٥٧)

إلى غير ذلك مما يزيد على ضعفه

الفصل الثاني

القرآن وعلم التاريخ

آ (٣) ﴿ نحنُ نقُصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَصِ ، بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ ! وإنْ كنتَ مِنْ قَبلِهِ لَمِنَ الغافِلين ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة فقام الشيخ أمين البئرسبعي[1] وقال:

(نحن نقص عليك) يامحمد (أحسن القصص) أي الاقتصاص أو المقصوص (بما أوحينا اليك هذا القرآن) بحيث يطير به كل ما عشش من الأباطيل في الكتب المحرفة (وإنْ) هي المخففة من الثقيلة (كنت من قبله) من قبل ما أوحينا (لمن الغافلين) الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ، ولا طرق سمعك منه طرف ؛

(١) نسبة الى بئر السبع من بلاد فلسطين

نتعلم من هذه الآية الكريمة وأخواتها الكثيرة في القرآن أن علم التاريخ هو علم يهم كل إنسان الإطلاع عليه ودرسه وتعلمه، خصوصاً التاريخ الديني وإليك بعض الآيات التي تتعلم منها ذلك: ﴿تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عليكَ من أنبائِها﴾ (٧ : ١٠٠)، ﴿وكُلاًّ نقصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ﴾ (١١ : ١٢٠)، ﴿كذلك نقصُّ عليكَ من أنباءِ ما قد سَبَقَ﴾ (٢٠ : ٩٩)، ﴿لقد كانَ في قَصَصِهِم عبرةٌ لأولِي الألباب﴾ (١٢ : ١١١)، ﴿واذكُرْ في الكتابِ مريمَ إذْ انْتَبَذَتْ من أهْلِها مكاناً شرقياً﴾ الخ (١٩ : ١٥ - ٣٤)، ﴿واذكُرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صِدِّيقاً نبياً﴾ الخ (١٩ : ٤١ - ٥٠)، ﴿اصْبِرْ على ما يقولون واذكُرْ عبدَنا داودَ ذا الأيْدِ إنه أوّابٌ﴾ الخ (٣٨: ١٧-٤٠) أعني مجموع قصتي داود وابنه سليمان. ﴿واذكُرْ أخا عادٍ إذْ أنْذَرَ قومَه بالأحقاف﴾ الخ (٤٦ : ٢١ - ٢٦)، ﴿كهيعص، ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عَبدَهُ زكريا﴾ الخ (١٩ : ١ -١٤)، ﴿أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيم﴾ الخ (١٨ : ٩ - ٢٦)، ﴿وإذْ قال موسى لفتاه﴾ الخ (١٨ : ٦١ - ٨٣)، ﴿ويسألونكَ عن ذي القَرْنين﴾ الخ (١٨ : ٨٤ - ١٠٠)، ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتِنا أنْ أخْرِجْ قومَكَ مِنَ الظلماتِ إلى النور وذَكِّرهُم بأيامِ الله﴾ الخ (١٤ : ٥) ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدم بالحق﴾ الخ (٥: ٣٠ - ٣٤) ﴿إئتوني بكتابٍ من قَبْلِ هذا أو أثَارَةٍ من عِلْمٍ﴾ الخ (٤٦ : ٤) وهذه الأثارة هي بقية من بقايا علم الأولين وما ذلك الا علم التاريخ

سور القرآن التي سميت بأسماء حوادث تاريخية

وأنتم أيها السادة تعلمون أنه يوجد في القرآن الكريم سور كثيرة سميت بأسماء حوادث تاريخية اشتملت تلك السور عليها ، بل وعلى غيرها من الأنباء الهامة ، أنباء الأنبياء وأقوامهم والملوك ورعاياهم ، والصلحاء والأشقياء ، والأمم الدائرة ، والممالك الغابرة ، والرجال والنساء وما إلى هذا القبيل ، وإليك بعض الأمثلة :

سورة البقرة، آل عمران ، المائدة ، يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم،الحجر، الكهف ، مريم، الأنبياء ، النمل ، القصص ، الروم ، لقمان ، الأحزاب ، سبأ ، المؤمن ، الأحقاف ، الفتح ، الحجرات ، المجادلة ، الحشر ، المنافقون، نوح ،الجن، الأعمى ، الفيل ، قريش ، أبي لهب ـ فهذه ثلاثون سورة سميت بأسماء حوادث تاريخية ذكرت فيها ، عناية بتلك الحوادث ، وإعلاءً من شأنها ، وتشويقاً للقارئين في تفهمها،وأنت إذا أمعنت النظر ، ودققت في تتبع القرآن الكريم ، وجدت في كل سورة من سوره المئة والأربعة عشر نموذجاً من التاريخ الانساني أو الحيواني أو النباتي أو الجمادى ـ الطبيعي أو السياسي أو الاجتماعي ـ الخاص أو العام ـ أو الديني أو الدنيوي ، وهكذا تجده محتوياً على تاريخ اليهود والمصريين والعراقين وأهالي جزيرة العرب واليمن والنصارى ، وما إلى ذلك مما يعثر عليه المنقبون ، ويقف عليه العارفون ، والحقّ والحقّ أقول ، أنه لو حذف التاريخ من القرآن لما بقي منه نحو عشره وبحسب التاريخ فخراً إن معظم كتاب الله من نوعه ، ولله المثل الأعلى: ﴿ أفلا يَتَدبّرون القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالُها ؟ ﴾ (٤٧ : ٣٤) .

صراخ من الجميع أصبت . أصبت

(نقص)

- ٢ -

وقال الحاج احمد الغزي[١] :

الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن

لو قال قائل : « إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بها عن الوحي ، فلماذا كثر سرد الأخبار التاريخية في القرآن ، وكانت في التوراة أكثر ؟ » فالجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو تاريخ وأخبار وقصص ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع ولذلك لم تـذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها في القرآن ، سوى قصة يوسف ، فإنها نزلت مرة واحدة مرتبة مفصلة ، لما ذكرناه في تفسير (ع ١) ، وكل ما ترى في هذه التوراة التي عند القوم من القصص المسهبة والتاريخ المتصل من ذكر آدم وما بعدها ، فهي مما أُلحق بالتوراة ، بعد موسى بقرون ، بل إن أكثر تواريخ العهد القديم ، إنما كتب بعد السبي ورجوع بني إسرائيل من بابل .

صراخ من الجميع حسن حسن!

(١) نسبة الى غزة من اعمال فلسطين.

نحن نقص

– ٢ –

وقال السيد محمود الجاوي [١] :

جبريل (ع) هو واسطة نقل كلام الله الى النبي

أي يقصه عليك جبريل نقلا عنا ، قال تعالى : ﴿ وما كان لبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ الله إلاّ وَحْياً ، أو من وراءِ حجابٍ ، أو يُرسِلَ رسولاً ، فيوحِيَ بإذنِهِ ما يشاءُ ﴾(٤٢:٥١) ، فالله تعالى إذا أرسل رسولاً من الملائكة أو من البشر برسالة ، كان مكلماً لعباده بواسطة رسوله ، بما أرسل به رسوله، وكان مبيناً لهم ذلك ، كما قال النبي للمنافقين : ﴿ قد نَبَّأنَا اللهُ مِنْ أخبارِكم ﴾ (٩ : ٩٥) أي بواسطة جبريل ، وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتَّبِع قُرآنَه ﴾ (٧٥ : ١٨) وقال : ﴿ نَتْلو عليكَ مِن نَبَأ موسى وفِرعونَ بالحقِّ ﴾ (٢٨ : ٣) وقد كانت القراءة والتلاوة بواسطة جبريل ، فكذا القصص هنا فانه سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله ، فيوحي بإذنه ما يشاء ، ولهذا جاء بلفظ الجمع ، فان ما فعله المطاع بجنده ، يقال فيه : نحن نفعل كذا ، والملائكة رسل الله فيما يفعله ويأمر به ،فما فعله وأمر به بواسطة رسله من الملائكة ، قال فيه : نحن فعلناه ، ومن هذا القبيل مافي الحديث « فإذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ،فقولوا: ربنا ولك الحمد » فان الله قال على لسان نبيه : « سمع الله لمن حمده » ، معناه :ان الله

---

(١) نسبة الى جزيره جاوة الواقعة في جنوب الهند

بلغكم هذا الكلام على لسان رسوله ، وأخبركم أنه سمع دعاء من حمده ، فأحمدوه أنتم وقولوا له ربنا ولك الحمد ، حتى يسمع دعاءكم ، فإن الحمد قبل الدعاء سبب لاستجابة الدعاء ، كذا قاله في « منهاج السنة » والله أعلم .

جيد

أحسن القصص

- ١ -

وقال المهتدي للاسلام السيد اسماعيل الملقب سابقاً بصموئيل :

لماذا عبر بأن قصص القرآن هو أحسن القصص

إنما قال (أحسن القصص) إشارة إلى أنه يوجد في قصص يوسف وإخوته في سفر التكوين (من التوراة) ما هو ليس بالحسن ، والمراد بأحسنه ، أثبته وأحقه كما قال بعد ما ذكر شيئاً من تاريخ المسيح عليه السلام : ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ القصصُ الحقُّ ﴾ (٣ : ٦٢) إشارة إلى ما وقع في تاريخه من الباطل، وكما قالت « زليخا » امرأة العزيز : ﴿ آلآنَ حَصْحَصَ الحقّ ﴾ (آ : ٥١) إشارة إلى أن ما قالته فيه سابقاً باطل ، وقال تعالى : ﴿ واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بالحقّ ﴾ (٥ : ٣٠) إشارة إلى ما كان يزيده بعض الناس في قصتها من الباطل ، وقال : ﴿ نحن نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُم بالحقّ ﴾ (١٨ : ٣١) إشارة إلى أن ما كتبه النصارى في تاريخ أهل الكهف ليس من الحق .

وبعد فها كم مقابلة بين الآيات الواردة في سورة يوسف في القرآن الكريم

والواردة في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين من التوراة ، وهي خير شاهد لكم على أن ما ورد في القرآن هو أحسن القصص وأثبته وأحقه :

القرآن الكريم	التوراة
١ ـ لايوجد شيء في مقابلة ذلك.	١ ــ (وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم) (تك ٣٧ : ٢)
٢ ـ ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ (١٢ : ٨) أعني إنهم ذكروا بنيامين في مقام الغيرة من أكثرية الحب .	٢ ــ (فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه) (تك ٣٧ : ٤)فلم يذكر بنيامين وغيرتهم منه).
٣ ـ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (١٢ : ٨)	٣ ــ لايوجد شيء في مقابلة ذلك.
٤ ـ لا يوجد شيء في مقابلة ذلك	٤ ــ (وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له ، فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فها نحن حازمون حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت ، فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ، فقال له إخوته : ألعلك تملك علينا ملكاً ؟ أم تتسلط علينا تسلطاً ؟ وازدادوا أيضاً بغضاً له ، من أجل أحلامه

في القرآن الكريم	في التوراة
	أحلامه ومن أجل كلامه) (تك ٣٧ : ٧ و ٨)
٥ ـ في القرآن أن حلمه الثاني لم يقصه على إخوته بل على أبيه فقط ، وأبوه حذره أن يذكره لإخوته : ﴿ قال : يا بني ، لا تقصص رؤياك .. إلخ ﴾ (١٢ : ٥)	٥ — في التوراة إن يوسف قص حلمه الثاني على كل من أبيه وإخوته في آن واحد إذ قالت : (فقصه على أبيه وإخوته) (تك ٣٧ : ١٠)
٦ ـ في القرآن أن أباه بعد ما سمع منه حلمه الثاني قبله منه بكل فرح وعطف عليه أن بشره ببشائر تتلاءم مع هذا المنام (١٢ : ٦)	٦ — في التوراة ان أباه بعد ما سمع حلمه الثاني انتهره وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ؟ (تك ٣٧ : ١٠)
٧ ـ ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته .. الخ ﴾ (١٢ : ٧)	٧ — لا يوجد له مقابل
٨ ـ إخوته تآمروا على قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في الجب وقر قرارهم أخيراً على هذا الرأي الأخير وهذا كان قبل ذهابهم لأبيهم ليطلبوه منه ، ثم ذهبوا لأبيهم واحتالوا عليه بأخذه ، وبعد أخذ ورد سمح لهم فيه (١٢ : ٨ - ١٤)	٨— لم يذكر في التوراة أنهم تفاوضوا في شيء عنه قبلاً ولكن صادف أن يوسف مضى إليهم في مراعهم حيث أرسله أبوه إليهم ، لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيه الخبر ، فذهب إليهم ، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه (تك ٣٧: ١٢ — ٢٠) فهم

في القرآن الكريم	في التوراة
	لم يذهبوا لأبيهم ليطلبوه منه ويعملوا عليه تلك الحيلة .
٩ ـ مؤآمرة إخوته في شأنه كانت ثلاثية بين قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب (١٢:٩و١٠)	٩ ــ إنما ذكروا أولاً قتله ثم طرحه بعد القتل في إحدى الآبار ، فسمع راوبين وقال لا نقتله ، بل اطرحوه في البئر التي في البرية (تك ٣٧ : ٢٠ ــ ٢٢)
١٠ ـ الذي أشار بإلقائه في الجب هو الذي قال يلتقطه بعض السيارة (١٢ : ١٠)	١٠ ــ أشار رأوبين بطرحه في البئر لا لكي يلتقطه بعض السيارة بل لينقذه من أيديهم ويرده فيما بعد لأبيه (تك ٣٧ : ٢٣)
١١ ـ ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ـ إلى قوله ـ لخاسرون ﴾ (١٢ : ١١ ـ ١٤)	١١ ــ لا يوجد في مقابلته شيء لأن التوراة إنما تذكر أن يوسف ذهب لاخوته في المرعى بأمر أبيه بدون أن يكون لإخوته شعور بذلك (تك ٣٧ : ١٢ ــ ٢٠)
١٢ ـ لا يوجد شيء في مقابلته	١٢ ــ خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء وبعد ما طرحوه فيها

في القرآن الكريم	في التوراة
	جلسوا ليأكلوا طعاماً (تك ٣٧ : ٢٣ — ٢٥)
١٣ ـ إخوة يوسف أنفسهم جاءوا إلى أبيهم عشاء يبكون (١٢ : ١٦)	١٣ — هم لم يجيئوا لأبيهم بل أرسلوا القميص الملون المغموس بالدم وأحضروه لأبيهم بواسطة الرسول الذى أرسلوه (تك ٣٧ : ٣١ و ٣٢)
١٤ ـ لم يكن من يعقوب بعد ما أخبر بافتراس الذئب لابنه ورأى على قميصه الدم ـ لم يكن منه إلا أنه قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل (١٢ : ١٧ و ١٨)	١٤ — فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه ، وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى ، وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه (تك ٣٧ : ٣٤ و ٣٥)
١٥ ـ ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة .. الخ ﴾ (١٢ : ١٩) هذا هو نص القرآن فليس فيه ان الذين أخرجوه من البئر هم إخوته وليس فيه ان إخوته باعوه للسيارة، بل السيارة أخرجته وأخذته مجاناً	١٥ — جاءت قافلة فسحبه إخوته من البئر وباعوه للقافلة (تك ٣٧ : ٢٦ — ٢٨)
١٦ ـ لا شيء في مقابلته .	١٦ — فيها أن راوبين لم يكن

في القرآن الكريم	في التوراة
	معهم حينما باعوه فرجع إلى البئر ولم يجد أخاه فيها فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ، (تك ٣٧ : ٢٨و٢٩)
١٧ ـ لا يوجد شيء في مقابلته ، وكأنه والله أعلم لهذا قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يشير إلى أنه لم يذكر هذه الحكاية المدرجة في التوراة أثناء قصة يوسف لأنها من أقبح القصص فلذلك تنزه عنها القرآن الكريم أن يذكرها .	١٧ ـ تذكر التوراة هنا في وسط سيرة يوسف ذكراً اقتضابياً لا يتطلبه ما قبله ولا ما بعده ما ملخصه . أن يهوذا أحد الأسباط زنى بثامار كنته التي مات عنها زوجاها ، ابنه عير ثم ابنه أونان ، فقعدت مترملة في بيت أبيها ، ثم كانت جلست في الطريق التي يمر منها يهوذا ، وكانت قد غطت وجهها ، فلم يعرفها أنها كنته فزنى بها بأجرة هي جدي من غنمه ، يرسله إليها ، فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله ، فأعطاها خاتمه وعكازته وعمامته ، ولما كان نحو ثلاثة أشهر ، أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثامار كنتك، وها هي حبلى أيضاً من الزنى، فقال يهوذا : أخرجوها فتحرق ، أما

في القرآن الكريم	في التوراة
	هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها يهوذا قائلة : أنا حبلى من الرجل الذي هذه الأشياء له وهي هذه العصابة والعصا والخاتم ، فقال يهوذا : هي أبرّ مني (تك ٣٨ : ١ — ٢٦)
١٨ ـ ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً .. إلى قوله ولنعلمه من تأويل الأحاديث .. الخ (١٢ : ٢١)	١٨ — لا يوجد في مقابلته شيء
١٩ ـ ﴿ ولما بلغ أشده .. الخ الآية ﴾ (١٢ : ٢٢)	١٩ — لا يوجد في مقابلته شيء
٢٠ ـ ﴿ وراودته التي هو في بيتها .. ﴾ الخ الآية (١٢ : ٢٣)	٢٠ — في التوراة أن امرأة العزيز قبلما دخل يوسف بيتها الخاص بها كانت رفعت عينيها إليه وقالت : اضطجع معي (تك ٣٩ : ٧ و ٨) فهذه مراودة أولى سابقة على المراودة التي وقعت منها وقتما دخل قصرها ليقوم بما كان عليه من الاعمال باعتبار أنه وكيل البيت .

في القرآن الكريم	في التوراة
٢١ — ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ (١٢ : ٢٣)	١١ — لا يوجد شيء في مقابلته
٢٢ — ﴿ ولقد همت به وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه — إلى قوله — إنك كنت من الخاطئين ﴾ (١٢ : ٢٤-٢٨)	٢٢ — لا يوجد لذلك ذكر ما إلا أنه ذكر بدل ﴿ واستبقا الباب ﴾ أن يوسف هرب وحده وهي لم تلحقه وذكر بدل: ﴿ وقدت قميصه .. الخ ﴾ أنها أمسكته بثوبه ، فترك ثوبه في يدها وهرب ، ولكن هي لم تلحقه ، وإنما قعدت ووضعت ثوبه بجانبها، حتى جاء سيده إلى بيته ، فكلمته في هذا الموضوع (تك ٣٩ : ١١ — ٢٠)
٢٣ - ﴿ قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ (١٢:٢٨و٢٩)	٢٣ - فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي (تك ٣٩ : ١٥)
٢٤ - ﴿ وقال نسوة في المدينة - إلى قوله - السميع العليم ﴾ (١٢ : ٣٠ - ٣٤) .	٢٤ — لا يوجد لذلك ذكر ما
٢٥ - ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ (١٢ : ٣٦) .	٢٥ — فأخذ يوسفَ سيدُه ووضعه في بيت السجن .. وحدث بعد

في القرآن الكريم	في التوراة
	هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر ، فسخط فرعون على خصيبه ، رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط ، في بيت السجن، المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه (تك ٣٩ و ٤٠) فهذا يفيد أن الفتيين لم يدخلا السجن مع دخول يوسف ولكن بعد حين ، فيكون يوسف سبقهما إليه وهما لحقاه .
٣٦ ـ ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ـ إلى قوله ـ من المحسنين ﴾ (١٢ : ٣٦) يفيد أنه هما اللذان بدآه بالسؤال وأنهما كانا أحسا منه المقدرة على التعبير .	٣٦ ــ (وحلما كلاهما حلماً ... فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمان، فسأل .. لماذا وجها كما مكمدان اليوم ؟ فقالا له حلمنا حلماً ، وليس من يعبره ، فقال لهما يوسف ، أليست لله التعابير ؟ قصّا عليّ) (تك ٤٠ : ٥ ــ ٨) يفيد أن يوسف هو الذي بدأهما بالكلام وطلب إليهما أن يقصا عليه ، وأنهما لم يحسا سابقاً بمقدرته على التعبير .

في القرآن الكريم	في التوراة
٢٧ ـ ﴿ قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه ـ إلى قوله ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ : ٣٧ ـ ٤٠)	٢٧ ـ لا يقابله شيء
٢٨ ـ ﴿ أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ (١٢ : ٤١) .	٢٨ ـ (في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ، ويردك إلى مقامك فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه) (تك ٤٠ : ١٣)
٢٩ ـ ﴿ وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ (١٢:٤١)	٢٩ ـ (يرفع فرعون رأسك عنك ، ويعلقك على خشبة ، وتأكل الطيور لحمك عنك) (تك ٤٠:١٩)
٣٠ ـ ﴿ وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما ؛ اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ (١٢:٤٢)	٣٠ ـ (وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلي إحساناً وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ : ١٤)
٣١ ـ ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ، وقال الملك: إني أرى ﴾ .. إلخ (١٢:٤٢ و ٤٣)	٣١ ـ (وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً ..الخ) (تك ٤١ : ١)
٣٢ ـ ﴿ وقال الملك إني أرى ﴾ (آ:٤٢)	٣٢ ـ كبير مصر الذي كان

في القرآن الكريم	في التوراة
﴿ وقال الملك إئتوني به ﴾ (آ ٥٠ و ٥٤) ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ (آ : ٧٢) ﴿ في دين الملك ﴾ (آ : ٧٦) فلاحظ أنه يذكر دائماً كلمة « ملك » ولا يذكر كلمة « فرعون » لأن كلمة فرعون لقب لمن مَلَكَ مصر من الحكام الأقباط الوطنيين الأصليين إذ ذاك ، وأما الرعاة الهكسوس فليسوا من الوطنيين ، فلم يلقبوا بلقب فرعون .	من الرعاة الهكسوس دعي في التوارة (فرعون) كما قال : (فسخط فرعون على خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين) (تك ٤٠ : ٢) وقال (فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده) (تك ٤٠ : ٤) وقال : (في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك) (تك ٤٠ : ٣) وقال : (وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ : ٥) وقال : (وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون) (تك ٤٠ : ١٧) إلى غير ذلك من المواضع .
٣٣ ـ دعي يوسف في القرآن « بالصديق » (آ : ٤٦) وبالعزيز (آ : ٨٨) .	٣٣ ـــ دعي يوسف في التوراة (صفنات فعنيح) (تك ٤١ : ٤٤) أي « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » .
٣٤ ـ في القرآن أن الملك أرسل رئيس السقاة إلى يوسف ليقص عليه الحلم فذهب إليه رئيس السقاة ، وقص عليه الحلم ، وهو في السجن ، فعبره له	٣٤ ـــ في التوراة أن فرعون أرسل فأخرج يوسف من السجن ، فلما صار بين يديه ، قص عليه حلمه ، فعبره له (تك ٤١ : ١٤ ـــ ٣١)

في القرآن الكريم	في التوراة
ثم رجع فأخبر الملك ، فطلب الملك الإتيان به إليه فامتنع يوسف من خروجه من السجن إلا بعد التحقيق عن الشيء ، فأجري التحقيق عن ذلك وظهرت براءته جلياً ، فلما تأكد الملك ذلك زاد فيه حباً فطلبه ثانياً فحضر بين يديه (آ: ٤٥ ـ ٥٤)	
٣٥ ـ ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (آ: ٥٥) ففيه أن يوسف هو الذي طلب من الملك جعله على خزائن الأرض .	٢٥ — (فقال فرعون لعبيده ، هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبّل جميع شعبي ، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ، ثم قال فرعون ليوسف : انظر قد جعلتك على كل أرض مصر) (تك ٤١ : ٣٨ — ٤١) ففيه أن فرعون هو الذي جعل يوسف على كل الأرض بدون أن يكون من يوسف طلب لذلك .
٣٦ ـ لا يوجد في مقابلته شيء .	٣٦ — (وأعطاه أسنات بنت

في القرآن الكريم	في التوراة
	فوطى فارع كاهن أون زوجة له ... وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع ، ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون ، ودعى يوسف اسم البكر منسى ، قائلاً لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي ، ودعا اسم الثاني أفرايم قائلًا لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتي) (تك ٤١ : ٤٥ــ٥١)
٣٧ ـ نعلم من القرآن أن يوسف كان على خزائن الأرض وكان عزيزاً بمصر (آ : ٥٥ و ٨٨)	٣٧ ــ نعلم من التوراة أن يوسف صار ثاني الملك بمصر ، أي كرئيس وزراء أو كصدر أعظم أو كوكيل عن الملك ، وأن الملك سلمه خاتمه (تك ٤١ : ٤٠ ــ ٤٤)
٣٨ ـ ﴿ وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم ، وهم له منكرون ﴾ (آ : ٥٨) .	٣٨ ــ يذكر في التوراة أن إخوة يوسف لما أتوا إليه في السفرة الأولى يمتارون سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، (تك ٤٢ : ٦)
٣٩ ـ ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ، قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ،	٣٩ ــ وأما في التوراة فإن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيهم مسلك إزعاج وإعنات حيث

في القرآن الكريم	في التوراة
فإن لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾(آ : ٥٩ و ٦٠)ويفهم منه أن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيه مسلك ترغيب وتشويق، لا مسلك إزعاج وإرهاب .	(تكلم معهم بجفاء وقال لهم جواسيس أنتم ، لتروا عورة الأرض جئتم بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا ، أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيكم ، وأنتم تحبسون فيمتحن كلامكم ، هل عندكم صدق ، وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس ، فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ، ثم قال لهم يوسف في اليوم الثالث ، افعلوا هذا واحيوا ، أنا خائف الله إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم ، وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم، وأحضروا أخاكم الصغير إليّ ، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ، ففعلوا هكذا .. وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم) (تك ٤٢ ٧-٢٤)
٤٠ - ﴿ ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت	٤٠ — (وإذ كانوا يفرغون عدالهم إذا صرة فضة كل واحد في عدله فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوهم

في القرآن الكريم	في التوراة
إلينا ﴾ (١٢:٦٥) فيه أنهم لم يتخوفوا من رؤيتهم الفضة مردودة في عدالهم، بل استبشروا بذلك وجرؤوا أن يكلموا أباهم ثانياً في إرسال أخيهم معهم.	خافوا) (تك ٤٢ : ٣٥) لظنهم أن ذلك وسيلة إلى تخطئتهم وسجنهم هناك متى رجعوا إلى مصر بأخيهم بنيامين. (السنن القويم)
٤١ ـ ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون ... ـ إلى قوله ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١٢:٦٦-٦٨)	٤١ ــ لا يوجد في مقابلته شيء ما
٤٢ ـ لا يوجد في مقابلته شيء	٤٢ ــ (فقال لهم إسرائيل أبوهم، إن كان هكذا فافعلوا هـذا : خذوا من أفخر جني الأرض في أوعيتكم ، وأنزلوا للرجل هدية، قليلاً من البيلسان وقليلاً من العسل وكثيراء ولاذناً وفستقاً ولوزاً) (تك ٤٣ : ١١)
٤٣ ـ لا يوجد شيء ما حيث القرآن لم يذكر الرؤيا الأولى فلم يذكر تأويلها .	٤٣ ــ في التوراة أن إخوة يوسف الأحد عشر عندما جاءوا له في سفرتهم الثانية، خروا وسجدوا(تك٤٣:٢٨)، وهذا كان تمام الحلم الأول وهو أن حزمهم الاحدى عشرة سجدت لحزمته. (السنن القويم)
٤٤ ـ ﴿ ولما دخلوا على يوسف	٤٤ ــ (فرفع عينيه ونظر بنيامين.

في القرآن الكريم	في التوراة
آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ (١٢: ٦٩) وعلى هذا يكون يوسف تعارف مع بنيامين ، ويكون طبعاً تواطأ معه على وضع الطاس في عدله، وهذا أقبل للعقل.	أخاه ابن أمه ، وقال : أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ؟ ثم قال :الله ينعم عليك يا ابني) (تك ٤٣ : ٢٩) وعلى هـــذا يكون بنيامين لم يعرف يوسف وطبعاً يكون قد وضع الطاس في عدله بدون تواطؤ بينهما وهـذا ما يستبعده العقل .
٤٥ — ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ، جعل السقاية — إلى قوله — والله أعلم بما تصفون ﴾ (١٢ : ٧٠ — ٧٧)	٤٥ — لا شيء في مقابلته .
٤٦ — ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، إنا إذاً لظالمون ﴾ (١٢ : ٧٨ و٧٩)	٤٦ — تذكر التوراة هذا عن لسان يهوذا حيث يقول ليوسف (فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ، ويصعد الغلام مع إخوته ، لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي ، لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي) (تك ٤٤ : ٣٣ و ٣٤)
٤٧ ـ ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ـ إلى قوله ـ سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١٢: ٨٠-٩٨)	٤٧ ـ لا يوجد في مقابلته شيء
٤٨ ـ يوجد في القرآن الكريم ان إخوة يوسف سافروا إليه ثلاث	٤٨ ـ المذكور في التوراة ان إخوة يوسف إنما سافروا إليه سفرتين

في القرآن الكريم	في التوراة
سفرات وأنه إنما أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثالثة وبعدأن كانوا رجعوا إلى الشام لأبيهم وأخبروه بسرقة بنيامين ، وقبل الختام نقول على حسب القرآن الكريم تكون سفراتهم لمصر أربع مرات.	فقط وأنه أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثانية على أثر تسريق أخيه بنيامين ، وعليه فهم لم يرجعوا إلى أبيهم للشام إلا وهم مخبروه بظهور يوسف وانكشافه لهم ، وقبل الختام نقول على حسب التوراة تكون سفراتهم لمصر ثلاث فقط .
٤٩ ـ ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ـ إلى أن قال ـ ورفع أبويه على العرش ﴾(١٢:٩٩و١٠٠)	٤٩ ـ لا يوجد في مقابلته شيء
٥٠ ـ ﴿ وخروا له سجداً ﴾ (١٢ : ١٠٠) ففيه أن خرورهم له سجداً كان على أثر دخولهم مصر ، وطبعاً كان قبل موت أبيهم ، وفيه أن الخارين له سجداً ، ليس الاخوة فقط، بل هم وأبواه ، إن أرجع ضمير الفاعل للاخوة والأبوين ، وأما إن أرجع للاخوة فقط دون الأبوين كما هو ظاهر الآية الكريمة لم يكن هناك تخالف من هذه الجهة الثانية .	٥٠ ـ قال بعد قصة موت يعقوب ودفنه : (وأتى إخوته أيضاً ووقعوا أمامه) (تك ٥٠ : ١٨) ففيه أن هذا السجود من إخوته له كان بعد موت أبيهم ودفنه ، وفيه أن الساجدين هم الاخوة فقط ، دون الأبوين طبعاً.

في القرآن الكريم	في التوراة
٥١ - ﴿ وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل — إلى قوله — إنه هو العليم الحكيم ﴾ (١٢ : ١٠٠)	٥١ - لا يقابله شيء
٥٢ - ﴿ وتوفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ (١٢ : ١٠١)	٥٢ - (وقال يوسف لإخوته : أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب؛ واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً : الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا ، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين ، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر) (تك ٥٠ : ٢٥ و ٢٦) (هتاف وتصفيق حاد من الجميع)

أحسن القصص

- ٢ -

قال الشيخ محمود الخليلي [١] :

قصص التوراة

أحسنه أكثره فوائد وعبرة وذكرى وعظة ، وأصدقه وأشده موافقة للعقل والشرف والدين ، بخلاف الكتب التي بين أيدي اليهود مثلاً فإن فيها ما لا يوافق

(١) نسبة الى بلدة خليل الرحمن من فلسطين

العقل ولا النقل ، وليس فيها شيء من الفائدة التي تعود على القارىء بتطهير الروح وامتلاءالقلب من مخافة الله ، وإنني مع حرصي ـ والله ـ على عدم مساس إحساس إخوانناأهل الكتاب بجرح عواطفهم ـ ذاكراً قليلاً من الشيء الكثير الذيعثرت عليه فيما يسمونه (بالتوراة) ، فإليك البيان :

(غلط التوراة في قولها إنه يوجد ليل ونهار قبل ما طالت الشمس)

(١) قال في سفر التكوين : « وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهاراً ، والظلمة ليلاً ، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً » (تك ١ : ٣ ـ ٥) ثم قال : « وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات واوقات وأيام وسنين ، وتكون انواراً في جلد السماء لتنير على الارض ، وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين ، النور الاكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الارض ، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً » (تك ١ : ١٤ ـ ١٩) فهذا النص يفهم منه ان الشمس خلقت في اليوم الرابع ، ولكنه ذكر قبل خلقها انه كان نهار وليل وأيام ، ومن المعلوم لكل إنسان أن لا نهار بلا شمس ، لأن النهار هو الوقت الذي بين طلوع الشمس وبين غروبها ، بدليل قوله في أول ذلك الإصحاح : (ودعا الله النور نهاراً والظلمة ليلاً) فذكره وجود النهار والليل قبل خلق الشمس غلط ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى الينا هذا القرآن .

مخالفة التوراة لعلم النشوء والترقي

(٢) ـ قال في سفر التكوين : « فأوقع الرب الإله سُباتاً على آدم ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً ، وبنى الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها الى آدم ، فقال آدم : هذة الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرئٍ خلقت » (تك ٢ : ٢١ ـ ٢٣) وفيه تصريح ونص بأن حواء خلقت من جسد آدم ، وهو مخالف للعلم الحديث ، (علم النشوء والترقي) ، ونحن المسلمون لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه الى موسى عليه السلام ، فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وأنه بقي كما جاء به موسى ، ولا نحتج على ما وراء مدركات الحس والعقل إلا بالوحي الذى جاء به نبينا ، وإننا نقف عند هذا الوحي ، لا نزيد ولا ننقص ، كما أنا لا نتأكد ولا نجزم بصحة (علم النشوء والترقي) ولكن إذا ثبت هذا العلم كان غير معارض لكتابنا كما يعارض كتاب اليهود ، نحن لا نقول إن القرآن ينفي الاعتقاد المنصوص في التوراة وإنما نقول إنه لا يثبته إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ، وعليه فإذا صح ما تقوله التوراة وبطل ما يقوله علم النشوء والترقي وبطل ما تقوله التوراة أمكن أيضاً حمل القرآن عليه ، قال تعالى: ﴿ وخَلَقَ منها زوجَها ﴾ (٤ : ١) فمعناه كما قاله أبو مسلم خلقه من جنسها فكان مثلها ، فهو كقوله تعالى : ﴿ ومن آياتِه أنْ خَلَقَ لكم من أنفُسِكُم أزواجاً لتسكنوا إليها وجَعَلَ بينكم مَوَدَّةً ورحمةً ﴾ (١٦ : ٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ فاطِرُ السمواتِ والارضِ جَعَلَ لكم من أنفُسِكم أزواجاً ﴾ (٤٢ : ١١) ، وقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم ﴾ (٩ : ١٢٨) ، وقوله تعالى ﴿ لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذْ بَعثَ فيهم رسولاً من أنفُسِهم ﴾ (٣ : ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى الينا هذا القرآن.

قول التوراة بأن الله ينهى عن العلم وأسبابه

(٣) قال في سفر التكوين « وأوصى الرب الإلهُ آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكُلُ أكلاً،وأما شجرةُ معرفةالخير والشر فلا تأكل منها ،لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٦ و ١٧) ـ الى أن يقول ـ (فقالت الحيةُ للمرأةِ لن تموتا ، بل اللهُ عالمٌ أنه يومَ تأكلان منه تنفتح أعينُكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأةُ أن الشجرةَ جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهيةٌ للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجَها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان » (تك ٣ : ٤ ـ ٧) الى ان يقول ـ « من أعلمك إنك عريان ؟ ، هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأةُ التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت ، ـ فقال الرب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلتِ ؟ ـ فقالت المرأةُ : الحيةُ غرتني فأكلتُ ، فقال الرب الإله للحية : لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعَين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضعُ عداوة بينكِ وبينَ المرأةِ وبين نسلِكِ ونسلِها ، هو يسحقُ رأسَك ، وأنتِ تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حَبَلَكِ ، بالوجع تلدينَ أولاداً ، وإلى رجُلِكِ يكون اشتياقُكِ ، وهو يسود عليكِ ، وقال لآدم : لأنك سمعتَ لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها،ملعونة الأرض بسببك،بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك،وشوكاً وحسكاً تنبت لك،وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذْتَ منها لأنك تراب ، وإلى تراب تعود) (تك ٣ : ١١ ـ ١٩) ، فهذا النص يصرح بأن الله تعالى ينهى

عن العلم وعن أسبابه ، ولا يريد للانسان أن يعرف الخير من الشر، ولا أن يفرق بينهما ، بل يجب أن يبقى جاهلاً ، ونعلم من هذا الكلام أيضاً أن الحية كانت على العكس من هذا الذي أراد الله للانسان ، فهي أرادت للانسان ، أن يعرف الخير والشر ، وأن يأخذ في أسباب الفرق بينهما ، وأن يكون له بصيرة نيرة ، وهكذا المرأة تبعت الحية في هذه الفكرة وهذا العمل ، ومع الأسف نرى الله ـ حاشاه ـ عاقب كلاً من آدم وحواءوالحية على مساعيهم للعلم وأسبابه ، وخروج الإنسان من دائرة الجهل والغباوة ، نرى كل هذا في سفر التكوين ، ولكن القرآن الكريم لم يقل أن هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر ، كيف وأنه في مواضع كثيرة يحُثّ على العلم وأسبابه، ويحض على معرفة الخير والشر، وعلى كل الأسباب التي توصّل لذلك ، ولكن الشجرة التي نُهي عنها في القرآن لا شك إنها شجرة خبيثة من شأنها ضياع العلم والإدراك وتهتك الإنسان وتكشفه « وربما كانت هي شجرة الخشخاش أو الحشيش ونحو ذلك كما ارتآه بعض إخواننا العصريين المصريين ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن الكريم .

غلط التوراة بقولها إن الحية تغتذي بالتراب

(٤) ـ قال في سفر التكوين خطابا للحية (وتراباً تأكلين كل أيام حياتك) (تك ٣ : ١٤) ، وقد ثبت عند علماء الحيوان أن الحية لا تأكل التراب ، ولكنها فيما تأكل كباقي الحيوانات من حشرات الأرض أو من الطيور وغيرها ، والقرآن الكريم لم يتعرض لهذه القصة التي تنافي الفن ، والواقع ، فسبحان من قصص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن العظيم .

نسبة التوراة السكر لنوح وانه لعن من لم يسيء

(٥) ـ قال في سفر التكوين (وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب من الخمر فسكر ، وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجاً ـ إلى أن يقول فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) (تك : ١٠ ـ ٢٥) فيه نسبة شرب الخمر والسكر لنوح عليه السلام ، وفيه لعن من لم يسيء وهو كنعان ، والسكوت عن المسيء وهو حام ، ولكن القرآن الكريم يذكر نوحاً بالنبوة والرسالة والهدى ، ويقول ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

نسبة التوراة الدياثة لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك

(٦) ـ قال في سفر التكوين (وحدث جوع في الأرض ، فانحدر أبرام إلى مصر ، ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً ، وحدَث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت إنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته ، فيقتلوني ويستبقونك ، قولي : إنكِ أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك ، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ، ورآها رؤساء فرعون ، ومدحوها لدى فرعون ، فأُخِذَت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجمال ، فضرب

الرب فرعون وبيته ضرباتٍ عظيمةً ، بسبب ساراي امرأة أبرام ، فدعى فرعونُ أبرام ، وقال : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هي أختي ؟ حتى أخذتُها لي لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب. فأوصى فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له ، فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له » (تك ١٢ : ١٠ ـ ٢٠) ولنا أدلة على ضعف وركاكة هذه القصة :

الدليل الاول : ـ انه قد ذكر شارح التوراة في شرحه المسمى (السنن القويم) أن السيدة سارة كانت حينئذ ابنة أكثر من ستين سنة ، فطبعاً كانت في سن الشيخوخة ، فليس فيها ما يجذب فؤاد المصريين وفرعون مصر .

الدليل الثاني : ـ هذا القصص يفيد أن سيدنا إبراهيم ـ حاشاه ـ جعل زوجته حُبالة يصيد بها أموال الناس بالباطل ، ويخدع بها قلوبهم ، كما يعلمنا أن سيدنا ابراهيم سمح أن ينام هو في إحدى الخانات مثلاً وزوجه في قصر فرعون مختلياً بها ، وكل هذا منتهى الانحطاط ، ومن أعظم أمثلة السقوط ، وكل ذلك لا يجوز في شأن الأنبياء الذين منهم سيدنا إبراهيم عليه السلام بالإجماع من طوائف المسلمين ، وأيضاً قوله « انها أختي » . ـ ولو مع إرادة أنها أخته في الدين أو أخته من أبيه لا من أمه ـ لا يخرج الكلام عن دائرة الكذب ، لأنه بمنزلة نص صريح على أنها ليست بزوجة له مطلقاً ، فالقول بأنه تعريض لهو في غاية الضعف .

الدليل الثالث : ـ تروي لنا التوراة أنه كان لإبراهيم عليه السلام أتباع وعشيرة وعبيد ، حتى إنه كان عنده من الغلمان المتمرنين وِلْدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر (تك ١٤ : ١٤) ، فاذا كان كذلك يبعد كل البعد أن يذهب سيدنا

إبراهيم بنفسه لجلب الطعام من مصر ، إذا كان يمكنه أن يرسل من أتباعه وغلمانه من يريد .

الدليل الرابع : إذا أمكننا نفهم أن ابراهيم عليه السلام رحل بنفسه الى مصر أيام الجوع لأجل جلب الطعام ـ فلا يمكننا أن نفهم حكمة سفر زوجه معه ، إذ كان يمكنه أن يبقيها في قبتها محاطة بعبيده وعشيرته وابن أخيه لوط عليه السلام ، فقصة أخذه في سفرته هذه زوجته ساراي ركيكة وضعيفة جداً .

الدليل الخامس : ـ هذه القصة تعلمنا تفضيل فرعون الوثني على سيدنا إبراهيم ـ والعياذ بالله ـ في كراهة الكذب والخداع والغش والتغرير والحيلة ـ في الخوف من الله تعالى ومراقبته ـ في المروءة والحمية والنخوة ، وتبرهن لنا هذه القصة أن فرعون مصيب وبار أكثر من سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ حاشاه ـ وأنه يخاف الله أكثر ، وكل هذا باطل ، فالقصة إذاً باطلة من أصلها ، على أنه ماذا كان إثم فرعون وقد أخذ ساراي برضى سيدنا إبراهيم ـ على زعمهم ـ حسب ما ظهر له وأنه أحسن مهرها ، ولقد كان يعتقد أنها أخت إبراهيم لا امرأته ، فلماذا يضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب أخذه ساراي ؟

(٧) ـ قال في سفر التكوين (وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادش وشور ، وتغرب في جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته : هي أختي ، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة ، فجاء الله الى أبيمالك في حلم الليل ، وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل ، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها ، فقال : يا سيد ، أأمة بارة تقتل ؟ ألم يقل هو لي : إنهـــا أختي ، وهي أيضاً نفسها قالت : هو أخي ؟ ، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هـذا ـ فقال له الله في الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت

هـذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطىء إليّ ، لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبيّ ، فيصلي لأجلك فتحيا ، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت ، أنت وكل من لك ، فبكر أبيمالك في الغد ، ودعا جميع عبيده ، وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم ، فخاف الرجال جداً ، ثم دعا إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ وبماذا أخطأت اليك ؟ حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ، أعمالاً لا تُعمَل عملتَ ، وقال أبيمالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملتَ الشيء؟! فقال إبراهيم : إني قلت : ليس في هذا الموضع خوف الله فيقتلونني لأجل امرأتي ، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة ، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها : هذا معروفك الذي تصنعين إليّ ، في كل مكان تأتي اليه قولي عني : هو أخي ، فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم ، وردّ اليه سارة امرأته » (تك ٢٠ : ١ – ٤) فالتوراة التي بين أيدي اليهود تصور إبراهيم عليه السلام بصورة رجل عديم مروءة اتخذ زوجته حبالة يتصيد بها أموال الناس بالباطل ، الأمر الذي لا يرضاه لنفسه أخس الناس وأحقر بل أسفل العالم ، وكل عاقل لا يرتاب أن ليس لهذه الحادثة مع أبيمالك ، ولا لتالك الحادثة مع فرعون مصر نصيب من الصحة ، إلا اذا كان مصاباً في عقله وشرفه .

نسبة التوراة السكر لابراهيم حاشاه

(٨) — نعلم من سفر التكوين أن إبراهيم بينما كان راجعاً من شرقي الأردن إلى فلسطين مرّ بغلمانه على أورشليم ، فخرج له ملكها « مَلْكِي صادق » وأخرج له خبزاً وخمراً ، لإنعاشه وإنعاش جنوده الذين معه (انظر تك ١٤ : ١٨) ولكن القرآن الكريم يقول عن الخمر في سورة البقرة : ﴿ يسألونَكَ عن الخمرِ

والمَيْسِرِ ، قلْ : فيهما إثمٌ كبيرٌ ، ومنافعُ للناس ، وإثمُهُما أكبرُ من نفعِهما ﴾ (٢ : ٢١٩) ، ويقول في سورة المائـدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنمـا الخمرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشيطانِ ، فاجتَنبُوهُ لعلـكم تفلِحون ، وإنّما يُريدُ الشيطانُ أن يُوقِـعَ بينـكم العداوةَ والبَغضاءَ في الخمرِ والمَيْسِرِ ويَصُدَّكم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصلاةِ ، فهل أنتم مُنتَهون ؟ ﴾ (٥ : ٩٣ و ٩٤) ، فقصص التوراة التي بين أيدي اليهود هو من أقبح القَصَص بالنسبة للخمر ، ولكن قصص القرآن الكريم فيها كغيرها، هو أحسن القصص .

غلط التوراة بقولها أن الملائكة يأكلون

(٩) ــ قال في سفر التكوين عن إبراهيم لما جاءته الملائكة بالبشرى : (ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ، ووضعها قدامهم ، وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا) (تك ١٨ : ٨) ، وقال أيضاً (فجاء الملاكان إلى سـدوم مساءً ، وكان لوط جالساً في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجـد بوجهه إلى الأرض ، وقال : يا سيديّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، ــ فقالا له: بل في الساحة نبيت ، ــ فألحّ عليهما جداً ، فمالا إليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة، وخبزاً فطيراً ، فأكلا) (تك ١٩: ١ ــ ٣) ، نعلم من هذين النصين أن الملائكة أكلت عند إبراهيم ولوط عليهما السلام وهو خلاف ما أجمعت عليه أصحاب الملل والنحل من أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وهو الذي نتعلمه من القرآن الكريم الذي يقص أحسن القصص ،وهو أيضاً الذي نتعلمه من سفر القضاة ، حيث قال : (فقال منوح لملاك الرب : دعنـا نعوّقك ، ونعمل لك جَدْيَ معْزَى ، فقال الرب منوح : ولو عوقتني لا آكل من خبزك، وإن عملتَ محرَقَةً فللرب أصعدها ، لأن منوح لم يعلم أنه ملاك الرب) (قضى ١٣ : ١٥ و ١٦) .

نسبة التوراة السكر والزنى الى لوط حاشاه

(١٠) ـ قال في سفر التكوين: (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه ، فنُحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمراً الليلة ، فادخلي اضطجعي معه ، فنُحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه،ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (موآب) وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه (بَنْ عمّي) وهو أبو بني عمّون إلى اليوم)(تك ١٩ : ٣٠ ـ ٣٨)ولسنا نريد أن نقول إن هذه القصة باطلة لأنها تنافي عصمة لوط النبي، فإننا نعلم ان أهل الكتاب لا يقولون بنبوة لوط ، ولكننا ننتقد على هذه القصة بأنها تعلم قراءها من رجال ونساء الرذيلة وأعمال الفحش ، وتثبت فيهم روح الدعارة وانحطاط الأخلاق ، الأمر المضاد لما هو المقصود من الوحي السماوي ، وليس من فائدة لقراء هذه القصة سوى فساد الأخلاق ، فتبارك الله الكريم الذي يقول ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

دعوى التوراة أن إسحاق ديوث كأبيه حاشاهما

(١١) ـ قال في سفر التكوين. (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم ، فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جَرار إلى ان يقول فأقام إسحق في جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته ، فقال : هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي ، لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملِك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته، فدعاأبيمالك إسحق ، وقال : إنما هي امرأتك ، فكيف قلت : هي أختي ؟! ـ فقال له إسحق: لأني قلت : لعلّي أموت بسببها ، ـ فقال أبيمالك : ما هذا الذي صنعتَ بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحَدُ الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً ، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا : الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت) (تك ٢٦ : ١-١١) قال في شرح التوراة المسمى بالسنن القويم : (جرى إسحق في هذا على سنن أبيه (ص ٢٠) ، وكانت علته علة أبيه عينها ، ولكن ملك جَرار لم يأخذ هنا رفقة ، كما أخذ الذي قبله سارة ، ولم يُعطِ هذا إسحَق ، كما أعطى ذاك إبراهيم وعرف هذا بعد ذلك . أن رفقة إمرأة إسحق، وأخيراً طرده من أرضه فبعد عنه ـ ثم قال ـ في هذه الآيات دليل قاطع على حسن أخلاق أبيمالك وعظيم مروءته ، وبيان أن علة كذب إسحاق كانت كعلة كذب إبراهيم أبيه) هذا كلام الشارح بالحرف، وأما نحن فنقول : لعل هذا التعليم الفاسد هو الذي أفسد أخلاق اليهود وجعلهم يفادون بنسائهم وبناتهم في سبيل الحصول على سلامة الحياة والمنفعة المادية ، ولا يبالون بهذا الأمر البتة ، كما هو معروف في يهود بلاد الشام والعراق وفلسطين ونحوهم .

تعليم التوراة الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد

(١٢) ـ قال في سفر التكوين : « وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر ، وقال له : يا ابني ـ فقال له : ها أنا ذا ـ فقال : إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي ، فالآن خذ عُدّتك ، جعبتك وقوسك ، واخرج إلى البرية ، وتصيد بها جيداً ، واصنع لي أطعمة كما أحب ، وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسي ، قبل أن أموت ؛ وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ، ليأتي به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا آمرك به ، اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعزى فاصنعها أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها إلى أبيك ليأكل ، حتى يباركك قبل وفاته ، ـ فقال يعقوب لرفقة أمّه : هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون ، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة ـ فقالت له أمه : لعنتك عليّ يا ابني ، اسمع لقولي فقط ، واذهب وخذ لي ، فذهب وأخذ وأحضر لأمه ، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت ، وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جَدْيَي المعزى ، وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها ، فدخل إلى أبيه وقال : يا أبي ـ فقال : ها أنا ذا ، من أنت يا ابني ؟ ـ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد فعلتُ كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدي ، لكي تباركني نفسك ـ فقال إسحق لابنه : ما هذا الذي أسرعت لتجدَ يا ابني ؟ ـ فقال : إن الرب إلهك قد يسّر لي ـ فقال إسحق

ليعقوب : تقدم لأجسّك يا ابني ، أأنت هو ابني عيسو أم لا ، فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه ، فجسّه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو أخيه فباركه وقال : هل أنت هو ابني عيسو ؟ ـ فقال أنا هو ـ فقال قدّم لي لآكل من صيد ابني ، حتى تباركك نفسي ، فقدم له فأكل ، وأحضر له خمراً فشرب ، فقال له إسحق أبوه : تقدم وقبّلني يا ابني »،فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر رائحة ابني كرائحة حقل ، قد باركه الرب ، فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ، وكثرةَ حنطة وخمر ، لِيُستَعبَد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمّك ، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين » وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده ، فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه ، وقال لأبيه: «ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك » ـ فقال له إسحق أبوه : مَنْ أنت ؟ ـ قال « أنا ابنك بكرك عيسو » ، فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً ، وقال : فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ ؟ فأكلت من الكلّ قبل أن تجيء وباركته ، نعم ويكون مباركاً » فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرّة جداً، وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي » ـ فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك » ـ فقال : «ألا إن اسمه دعي يعقوب ، فقد تعقبني الآن مرتين ، أخذ بكوريتي ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتي » ، ثم قال : « أما أبقيتَ لي بركة ؟ » ـ فأجاب إسحق وقل لعيسو : إني قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر فماذا أصنع إليك يا ابني ؟ » ـ فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبي ؟ ، باركني أنا أيضاً يا أبي » ، ورفع عيسو صوته وبكى ، فأجاب إسحق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك

تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك!!!»
(تك ٢٧ : ١ - ٤٠).

فهذا القصص يعلم الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد ، كما يعلم أن الله قد تخفى عليه سرائر القلوب لأنه لا ينظر إلا إلى الألفاظ ، دون النوايا ، كما يعلم أن الأب يحب ابنه المادي دون ابنه الروحي ، وهذا كله بخلاف ما في كتاب الله العزيز ، فأما الكذب فقد حرّمه في مثل قوله تعالى : ﴿ إنّما يَفترِي الكَذِبَ الذين لا يُؤمِنون بآياتِ الله ﴾ (١٦ : ١٠٥) وقوله تعالى : ﴿ ولهم عَذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ﴾ (٢ : ١٠).

وأما المكر فقد ذمه الله تعالى في قوله : ﴿ ولا يَحيقُ المكْرُ السّيىء إلاّ بأهْلِهِ ﴾ (٣٥ : ٤٣) وقوله : ﴿ سَيُصيبُ الذين أجْرَموا صَغارٌ عندَ اللهِ وعَذابٌ شديدٌ بما كانوا يَمكُرون ﴾ (٦ : ١٢٤).

وأما الخمرة فقد قال الله تعالى : ﴿ إنّما الخمرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجتَنِبوهُ لعلكم تُفلحون ﴾ (٥ : ٩٣).

وأما حب الذات فقد ذمه الله تعالى ومدح نقيضه في قوله ﴿ ويُؤثِرونَ على أنفُسِهِم ولو كان بهم خَصاصَةٌ ﴾ (٥٩ : ٩).

وأما الحسدُ فقد ذمه الله تعالى في قوله ﴿ ومِنْ شرّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ ﴾ (١١٣ : ٥) وأنكره في قوله : ﴿ أمْ يَحسُدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ مِنْ فضلِهِ ﴾ (٤ : ٥٣).

وأما أن الله لا يخفى عليه شيء من طوايا القلوب ، فقد قال تعالى : ﴿ يَعلَمُ خائِنَةَ الأعيُن وما تُخفِي الصدور ﴾ (٤٠ : ١٩) وقال تعالى : ﴿ فإنّهُ يَعلَمُ السّرّ وأخفَى ﴾ (٢٠ : ٧) فسبحان من قال : ﴿ نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا اليكَ هذا القرآنَ ﴾.

وما أن انتهى الشيخ الخليلي من كلامه حتى قام الفاضل المجدلي [١] ثم صعد على المنبر وقال :

إنني مسرور جداً بما استشهد به أخونا الشيخ الخليلي من الاثني عشر موضعاً التي نقلها من توراة اليهود الموجودة اليوم بين أيديهم ، وبما أن هناك في الكتاب المذكور شواهد كثيرة أخرى ، فإني أريد أن آتي باثني عشر شاهداً أيضاً ، يستدل منها القارىء أن قصص القرآن الكريم هو أحسن القصص ، فأقول عطفاً على ما سبق للأخ المحترم .

تعليم التوراة الخداع وخلف الوعد والزنا

(١) ـ قال في سفر التكوين : « وأحب يعقوب راحيل ، فقال : أخدِمُكَ سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى ـ فقال لابان : أنْ أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، أقم عندي ـ فخدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها ثم قال يعقوب للابان : أعطني امرأتي ، لأن أيامي قد كملت ، فأدخل عليها ، فجمع لابان جميع أهل المكان ، وصنع وليمة ، وكان في المساء أنه أخذ « ليئة » ابنته ، وأتى بهـا اليه ، وأعطى لابان « زلفة » جاريته لليئة ابنته جاريةً ،وفي الصباح إذا هي ليئة ، فقال للابان : ما هذا الذي صنعتَ بي؟ أليس براحيل خدمتُ عندك ، فلماذا خدعتني ؟ ـ فقال لابان : لا يُفعَل هكذا في مكاننا أن تُعطَى الصغيرةُ قبل البكر » (تك ٢٩ : ١٨ ـ ٢٦) ، فهذا القصص يعلم الخداع حتى فيما يتعلق بالعرض ، ويعلم نكث العهد وخلف الوعد ، كما يفيدنا أن سيدنا يعقوب اضطجع أول ليلة مع ليئة بالزنا ـ حاشاه ـ لأنها ليست هي المخطوبة له ، وليئة هذه هي جدّة المسيح كما في شرح التوراة المسمى بالسنن القويم ،ولكن

(١) نسبة الى المجدل من بلدان فلسطين .

القرآن الكريم يقول في المخادعين : ﴿ يُخادِعونَ اللهَ والذينَ آمَنُوا ، وما يَخْدَعونَ إلاّ أنفُسَهم وما يَشعُرون ﴾ (٢:٩) ويقول في العهد : ﴿ وأوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتم ﴾ (١٦ : ١٩) ويجعل خلف الوعد من شأن الشيطان فيقول عن لسانه : ﴿ وَوَعَدْتُكم فأخْلَفْتُكُم ﴾ (١٤ : ٢٢) ويقول : ﴿ فمن نَكَثَ فإنما يَنكُثُ على نفسِه ﴾ (٤٧ : ١٠) ويقول في الزنا : ﴿ والذين لا يَدْعون مع اللهِ إلٰهاً آخَرَ ولا يَقْتُلون النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلا بالحقِ ولا يَزْنون ، ومن يَفعلْ ذلك يلْقَ أثاماً يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيٰمةِ ويَخلُدْ فيه مُهاناً ﴾ (٢٥ : ٦٨ و ٦٩)، ويقول : ﴿ ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ﴾ (٦٠ : ١٢) ويقول : « ولا تقربوا الزِّنَى إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلا »(١٧ : ٢٢) فسبحان من قص على نبينا أحسن القصص بما أوحى اليه هذا القرآن .

تعليم التوراة ان الانسان قد يكون اقوى من الملك

(٢) ـ قال في سفر التكوين « فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رآى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه ، فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر ـ فقال : لا أطلقك إن لم تباركني ـ فقال له : ما اسمك ؟ ـ فقال : يعقوب ـ فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدتَ مع الله والناسِ وقدرت وسأل يعقوبُ وقال : أخبرني باسمك ـ فقال : لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك ، فدعى يعقوب اسم المكان « فَنيئِيل » ، قائلا : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسي » (تك ٣٢ : ٢٤ ـ ٣٠) واسرائيل : معناه الأمير مع الله ، أو المجاهد مع الله ، أو أمير الله ، أو قوي مع الله ، وفنيئيل : معناه وجه الله ، فهذه القصة تعلم

القارىء أن الآدمي أقوى من المَلَك ، إن قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو مَلَك ، ولكن لا ريب أن الملائكة أقوى من الآدميين بكثير ، فانْ قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو الله كما هو مرمى الكلام . كان الأمر أدهى وأمر ،لاسيما وأن الله يقول « لاتُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ ، وهو اللطيفُ الخبيرُ » (٦ : ١٣) ، فسبحان من قال نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن .

غلطة تاريخية في التوراة

(٣) ـ قال في سفر التكوين : (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم ، قبلما مَلَكَ مَلِكٌ لبني إسرائيل ، لا يصلح أن يكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو كاتب سفر التكوين ، لأن ملوك بني إسرائيل إنما كانوا بعد مدة القضاة الذين وجدوا بعد موسى . وكانت مدة القضاة (٤٥٠) سنة على ما في قاموس بوست ، فهذه الجملة مزيدة على التوراة من قلم بعض علماء اليهود ، فَجلَّ الله تعالى الذي ليس في قصص كتابه الكريم زيادة من أحد علماء الاسلام ، ولهذا قال :« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » كان أحسن القصص لنزاهته عن زيادات الزائدين .

تعليم التوراة الزنا والمحاباة

(٤) ـ قال في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف، ولا ندري ما هي المناسبة؟: (وحَدَثَ في ذلك الزمان أن يهوذا نزل من عند إخوته ، ومال إلى رجل عَدْلامّيّ اسمه « حِيرة » ، ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه « شُوع » ، فأخذها

ودخل عليها ، فحبلت وولدت ابناً ، ودعا اسمه « عِيراً » ، ثم حبلت أيضاً وولدت ابناً ودعت اسمه « أونان » ، ثم عادت فولدت أيضاً ابناً ودعت اسمه « شيلة » ، وكان في كزيب حين ولدته ، وأخذ يهوذا زوجة « لِعير » بكره ، اسمها « ثامار » ، وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب ، فأماته الرب ،فقال يهوذا لأونان : ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها ، وأقِم نسلاً لأخيك ـ فعلم أونان أن النسل لا يكون له ، فكان إذ دخل على امرأة أخيه إنـــه أفسد على الأرض ، لكيلا يعطي نسلاً لأخيه ، فقبح في عيني الرب ما فعله ، فأماته أيضاً ، فقال يهوذا لثامار كنّتِه : اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني ، لأنه قال : لعله يموت هو أيضاً كأخويه ، فمضت ثامار وقعدت في بيت أبيها ، ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا ، فصعد إلى جزّار غنمه إلى « تِمْنَة » هو وحِيرة العَدُلاّمي ، فاخبرت ثامار وقيل لها : هو ذا حموكِ صاعد إلى تِمنة ليجزّ غنمه ـ فخلعت عنها ثياب ترملها ، وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل «عينايم» التي على طريق تِمنة ، لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تُعطَ له زوجة ،فنظرها وحسبها زانية ، لأنها كانت قد غطت وجهها ، فمال إليها على الطريق وقال : هاتي أدخل عليك ـ لأنه لم يعلم أنها كنّته ، ـ فقالت : ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ ـ فقال : إني أرسل جدي معزى من الغنم ، ـ فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ ـ فقال : ما الرهن الذي أعطيك ؟ ـ فقالت : خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك ، فأعطاها ودخل عليها ، فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ، ولبست ثياب ترملها ، فأرسل يهوذا جدي المعزى بيد صاحبه العدلامي ، ليأخذ الرهن من يد المرأة ، فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلاً : أين الزانية التي كانت في عينايم على الطريق ؟ ـ فقالوا : لم تكن هنا زانية ، ـ فقال يهوذا : لتأخذلنفسها لئلا تصير إهانة ، إني قد أرسلت هذا الجدي وأنت لم تجدها ، ولما كان نحو ثلاثة

أشهر أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثامار كنّتك ، وها هي حبلى أيضاً من الزنا ـ فقال يهوذا : أخرجوها فتحرق ، أما هي فلما أخرِجَتْ أرسلَت إلى حميها قائلة : مِنَ الرجلِ الذي هذه له أنا حبلى ، وقالت : حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ، فتحققها يهوذا ، وقال : هي أبرّ منّي ، لأني لم أعطِها لشيلة ابني ، فلم يعد يعرفها أيضاً ، وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان ، وكان في ولادتها أنّ أحدهما أخرج يداً ، فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزاً قائلة : هذا خرج أولاً ، ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج ، فقالت : لماذا اقتحمت ؟ عليك اقتحام ، فدعى اسمه « فارص » ، وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز ، فدعى اسمه « زارح ») (تك ٣٨ : ١ ـ ٣٠) فهذه السيرة تعلّم الجرأة على الزنا وعلى المحاباة وتفيد أنّ فارص ابن زنا ، وهو جدّ للمسيح من جهة أمه مريم ، كما هو جدّ له من جهة يوسف النجار رجل مريم إن جاز أن يعد يوسف أباً للمسيح كما تخيله بعض النصارى ، فهذا القصص من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله إنما يقص علينا حرمة الزنا ودناءته وهذا سر قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

تعليم التوراة اغتصاب الأموال

(٥) ـ قال في سفر الخروج (فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين ، بل تطلب كلُ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) (خر ٣ : ٢١ و ٢٢) ، ثم قال في خطاب الله لموسى : (تكلّمْ في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبتها أمتعةَ فضة وأمتعةَ ذهب) (خر ١١ : ٢) ، ثم قال : (وأعطى الرب نعمةً للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) (خر١٢:٣٦)، فهذا

التعليم هو جرثومة اغتصاب أموال الناس ، ومنبع نهبها وسلبها ، ومصدر سرقتها ، إلى آخر ما في القواميس من الألفاظ التي ترمي لمعنى التعدي على الأموال بالباطل وهو مصداق قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذين هادُوا حَرَّمْنا عليهم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لهم ، وبِصَدِّهِمْ عن سبيلِ الله كثيراً ، وأخْذِهِم الرِّبا وقد نُهُوا عنه وأكْلِهِم أموالَ الناسِ بالباطل ﴾ (٤ : ١٦٠) ، وقوله تعالى : ﴿وترى كثيراً منهم يُسارِعون في الإثمِ والعُدوانِ وأكْلِهِم السُّحْتَ ، لَبِئْسَ ما كانوا يعملون ﴾ (٥ : ٦٥) وأمـا قول شارح التوراة : (إن هذا قضاء الله ، فإن له كل ما كان للمصريين ، فأخذ بعضَ ماله منهم وأعطاه لشعبه) فهو قول باطل ، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، وأكل أموال الناس بغير حق من أفحش الفواحش ، وليس هذا مما تختلف فيـه الشرائع ، لأنه من الكليات الخمس التي اتفقت عليها الأديان جميعها ، وليس يعتريها نسخ ولا تبديل ، والله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالَكُمْ بينكم بالباطل ﴾ (٣ : ٢٨) وأمـا قوله : ﴿ ولكِنـا حُمِّلنا أوزاراً مِنْ زِينةِ القومِ فقَذَفناها ﴾ (٢٠ : ٨٧) فله تأويل حسن نقله الرازي عن الراغب فانظره ؟ وبهذا تعلم سر قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . ﴾

تعليم التوراة تقديم القربان للشيطان وتسييب السوائب

(٦) قال في سفر اللاويين (ومن جماعة بني إسرائيل يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية .. ويأخـذ التيسين ويوقفهما أمام الرب ، لدى باب خيمة الاجتماع ، ويُلقي هرون على التيسين قرعتين ، قرعـة للرب ، وقرعة لعزازيل ، ويقرب هرونُ التيسَ الذي خرجت عليـه القرعة للرب ، ويعمل ذبيحة خطية ، وأما التيس الذي خرجت عليـه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ، ليُكَفِّر

عنـه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية ... ثم يذبح تيس الخطيئـة الذي للشعب ... فيكفّر عن نفسه وعن بيته وعن كل جماعة إسرائيل ... ومتى فرغ من التكفير يُقَدِم التيسَ الحيّ ، ويضع هرون يديه على رأس التيس الحيّ ويُقرّ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ، ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية ، ليحمل التيسُ عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة ،فيطلق التيس إلى البرية) (لا ١٦ : ٥ ـ ١٠) .

وهذا الذي يُعمل فيـه هذا العمل هو يوم صوم واتضاع ، وكان يقـع في العاشر من شهر تِشْرِي . وهو يوم «عاشوراء» عندنا ونعلم من مجموع كلام التوراة وقاموس جورج بوست للكتاب المقدس وتلخيص صاحب شرح التوراة المسمى بالسنن القويم أنه يوجد عند اليهود شريعة تقديم قربان الخطية للشيطان الذي هو عزازيل ، غير أنهم لا يذبحونه ، بل يجعلونه سائبة حسبما نتعلّمه من قول التوراة (ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية) كما نتعلمـه من كلام الشارح ، وهو حرام في شريعة كتاب الله الذي ما جعَل من سائبة ، وهذا سرّ من أسرار قوله جلّ من قائل (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

تعليم التوراة استئصال الشيوخ والأطفال والنساء في الحرب

(٧) ـ قال في التوراة (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخٍ) (يش٦ : ٢١) والمحرّم والمحروم عندهم هو المسلّم للهلاك الممنوع فداؤه ، وعليه ففي هذا القصص تشريع استئصال الشيوخ والأطفال والنساء قتلاً وحرقـاً !!! وفي التوراة أيضاً (فـكان جميـع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفاً جميع أهل عاي) (يش ٨ : ٢٥) .هـذا قليل جداً

من كثير مما تقصه علينا التوراة ، ولكن الشريعة الإسلامية تقص علينا أحسن من هذا القصص ، فتنهي عن قتل جميع مَن ذكر ، كما يعلم من مراجعة سيرة الغزوات الإسلامية أيام النبي (ص) والخلفاء الراشدين عملاً بروح القرآن الكريم .

تعليم التوراة قتل غير المسيء

(٨) ـ قالت التوراة في شأن « عَخَانَ » الذي ثبت عليه بإقراره أنه عمل خيانة بأخذه بعض أمتعة من الغنيمة :

(فأخذ يشوعُ عَخَانَ بن زارح والفضةَ والرِّداءَ ولسانَ الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكلَّ ماله ، وجميع إسرائيل معه ، وصعدوا بهم إلى وادي « عخور » فقال يشوع : « كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم » فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة ، وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة ، وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم) (يش ٧ : ٢٤ ـ ٢٦) فالتوراة تقص علينا أقبح القصص ، وهو إن المذنب هو عخان وحده ، ولكن يشوع أحرق عخان وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه !!

والقرآن يقول : ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ (١٧ : ١٥) فتبارك الله الذي قال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

تعليم التوراة اللهو واللعب

(٩) قال في التوراة (وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب) (٢ صم ٦ : ١٤) فيه تعليم الناس الرقص ، وهو من اللهو واللعب المنهي عنها شرعاً كما يقول الكتاب : ﴿ قل ما عِندَ اللهِ خيرٌ مِنَ اللَّهْوِ ﴾ (٦٢ : ١١) ويقول ﴿ وَذَرِ الذين اتَّخَذُوا دِينَهم لَعِباً وَلَهْواً ﴾ (٦ : ٧٠) فهذا الفرق العظيم هو سر من أسرار قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص .. الخ ﴾ .

التوراة تنسب الزنا لداود حاشاه

(١٠) قال في التوراة (وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميعَ إسرائيل فأخربوا بني عَمّون ، وحاصروا « رَبّةَ » ، وأما داود فأقام في أورشليم ، وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحِمّ ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه « بَثْشَبَع » بنت أليعام امرأة أُورِيّا الحِثّي ؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها ، وهي مُطَهّرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلى ، فأرسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إليّ أوريّا الحِثّي ، فأرسل يوآب أوريّا إلى داود ، فأتى أوريّا إليه ، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريّا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك ، فخرج أوريّا من بيت الملك ، وخرجت وراءه

حِصّةٌ من عند الملك ، ونام أوريّا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريّا إلى بيته فقال داود لأوريّا : أما جئت من السفر ، فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ ـ فقال أوريّا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع إمرأتي ! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ـ فقال داود لأوريّا : أقم عندنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك ـ فأقام أوريّا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود ، فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده ، وإلى بيته لم ينزل ، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريّا ، وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريّا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيُضرَب ويموت ـ وكان في محاصرة يوآب المدينة أن جعل أوريّا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة ، وحاربوا يوآب ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أوريّا الحثي أيضاً ، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب ، وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ، أما علمتم أنهم يرمون من على السور ، مَنْ قَتَلَ أبيمالك بن يَرُبُّوشت ، ألم تَرْمِهِ امرأة بقطعة رحى من على السور ، فمات في «تاباص» ، لماذا دنوتم من السور ؟ ـ فقل له : قد مات عبدك أوريّا الحثي أيضاً .

فذهب الرسول فدخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب ، وقال الرسول لداود : قد تجبَّر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل ، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماةُ عبيدَك مِن على السور ، فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريّا الحثي أيضاً ، ـ فقال داود للرسول : هكذا تقول ليوآب :لا يَسُؤْ

في عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدّد قتالك على المدينة ، واخربها وشدّدْه ، فلما سمعت امرأة أوريّا أنه قد مات أوريّا رجلُها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة ، أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة،وولدت له ابناً،واما الأمر الذي فعله داود فقبح في عينى الرب) (٢ صم ١١ : ١ - ٢٧) .

وقال أيضاً في التوراة (فأرسل الربُ ناثانَ إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان في مدينة واحدة ، واحد منها غنيّ ، والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربّاها ، وكبرت معه ومع بنيه جميعاً ، تأكل من لقمته ، وتشرب من كأسه ، وتنام في حضنه ، وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغنيّ فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء للضيف الذي جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير ، وهيّأ للرجل الذي جاء إليه ـ فحمي غضب داود على الرجل جداً،وقال لناثان: حيّ هو الرب إنه يُقتَل الرجلُ الفاعلُ ذلك ، ويردُّ النعجة أربعةَ أضعاف ، لأنه فعل هذا الأمر ، ولأنه لم يشفق ـ فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل ، هكذا قال الرب إله إسرائيل، أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتكَ بيت سيدك ، ونساء سيدك في حضنك ،وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا وإن كان ذلك قليلاً كنت أزيد لك كذا وكذا ، ـ لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلتَ أوريّا الحثي بالسيف، وأخذت امرأته لك امرأة وإياهُ قتلتَ بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارقُ السيفُ بيتكَ إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريّا الحِثي لتكون لك امرأة ، هكذاقال الرب : ها أنا ذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس،فقال داود لناثان : قد أخطأت إلى الرب فقال ناثان لداود : الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت ، غيرَ أنه من

أجل أنك قد جعلتَ بهـذا الأمر أعداءَ الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت، وذهب ناثان إلى بيته :

وضرب الربُّ الولدَ الذي ولدته امرأة أوريّا لداود فثقل، فسأل داود اللهَ من أجل الصبي، وصام داود صوماً، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ، ولم يأكل معهم خبزاً، وكان في اليوم السابع أن الولد مات، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات، لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حيّاً كلمناه فلم يسمع لصوتنا، فكيف نقول له : قد مات الولد ؟ يعمل أشرّ، ـ ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن الولد قد مات، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ ـ فقالوا : مات، فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدّل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد، ثم جاء إلى بيته وطلب، فوضعوا له خبزاً فأكل، فقال له عبيده : ما هذا الأمرُ الذي فعلتَ ؟ لما كان الولد حياً صمتَ وبكيتَ، ولما مات الولد قمتَ وأكلت خبزاً ـ فقال : لما كان الولد حياً صمتُ وبكيتُ لأني قلت : مَنْ يَعلَمُ ؟ ربما يرحمني الرب ويحيا الولد، والآن قد مات فلماذا أصوم، هل أقدر أن أردّه بعد ؟ أنا ذاهب إليه، وأما هو فلا يرجع إليّ.

وعزّى داود بثشبعَ امرأته ودخل إليها واضطجع معها، فولدت ابناً فدعا اسمه « سليمان »، والرب أحبه، وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه « يديديّا » من أجل الرب)(٢ صم ١٢ : ١ ـ ٢٥).

في هـذا شغف داود بالمرأة الأجنبية شغفاً حمله على مضاجعتها أولاً بالزنى حتى حبلت منـه، ثم فيه الاحتيال على زوجها أوريّا الذي هو أحد الضباط في الجيش، فوضعه موضع الخطر في الحرب وهكذا أماته، ثم استمر على محبتها فتزوجها وهو يعلم أنها زانية، وفيه موت الولد بجناية أبيه، وفيه ولادة سليمان من تلك الزانية. وفيه أن الله سمى سليمان ابن تلك المرأة « يديديّا » الذي

معناه « محبوب يَهْوَهْ » وفيه أن داود أراد ستر جنايته بتخييل أن الحمل كان من أوريّا ، ولكنه لم يتوفق ، وفيه أن داود تُشرَب الخمرْ على مائدته ويسكر الناس وفيه أن الله توعد داود على زناه وعاقبه بزنا نسائه جميعهن ، وفيه أن عقاب خطية داود نزل على ولده من الزنا ، وفيه أن داود إنما كان يصوم لغير الآخرة ، وفيه مما لا يخفى ويطول شرحه من قبيح القصص الذي لا ثمرة فيه ، وبعد فلا يخفى ان سليمان ابن هذه الزانية كان هو وريث ملك أبيه بجهود ومساع كثيرة من أبيه ، هذا قصص التوراة ، وإننا نبرأ منه إلى الله ، كيف والقرآن الكريم يقص علينا الثناء العظيم على داود عليه السلام فيقول : ﴿ واذْكُرْ عَبْدَنا داودَ ذا الأيْدِ إنه أوابٌ ، إنّا سَخّرنا الجبالَ مَعَه يُسَبِّحْنَ بالعَشِيّ والإشراقِ ، والطيرَ محشورةً ، كلٌّ له أوابٌ ، وشَدَدْنا مُلْكهُ وآتيناه الحكمةَ وفَصْلَ الخِطاب ﴾ (٣٨ : ١٧ - ٢٠) ويقول : ﴿ وإنّ له عِندَنا لَزُلفَى وحُسْنَ مَآب ﴾ (٣٨ : ٢٥) ، ويقول : ﴿ وقتل داودُ جالوتَ ، وآتاهُ اللهُ المُلكَ والحكمة وعَلّمهُ مما يشاء ﴾ (٢ : ٢٥١) ويقول ﴿ ومِنْ ذُرّيتهِ داودَ وسليمان وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرون ، وكذلك نَجزِي المُحسنين ﴾ (٦ : ٨٤) فترى كتاب الله يصف داود بأنه ذو قوة في الدين ، وأنه أواب ، وأن الله سخر الجبال والطير حين يسبّح معه ، وأنه أوتي الحكمة ، وأن له عند ربه زلفى وحسن مآب ، وأنه علمه مما يشاء وأنه من المحسنين ، وهذا كله بخلاف التوراة التي تنعته بضد هذه النعوت ، وتتعلّم من نص التوراة المتقدم أن الولد مات بجناية أبيه ، ولكن القرآن يقول : ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أخرى ﴾ (٦ . ١٦٤) والنصوص الاسلامية تمنع أن يتزوج نبيّ من الأنبياء إلا بالمرأة العفيفة الحصان ، وتمنع أن يكون نبيّ متولداً من غير عفيفة حصان ، فلهذه الأمور وأشباهها يقول الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

التوراة تنسب القساوة والبربرية الى داود

(١١) ـ قال في التوراة يحكي عن أعمال داود الحربية مع اهالي « ربّة » بني عمّون : (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديـــد ، وفؤوس حديد ، وأمَرَّهم في أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون ، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم) (٢ صم ١٢ : ٣١ و ١١ ي ٢٠ : ٣) هذا قصص التوراة عن الأعمال الحربية التي عملها داود ، ولكن القرآن يقول عن داود عليه السلام ، إنه كان من المحسنين وإن له عند ربه زلفى وحسن مآب وإنه أواب وإنه أوتي الحكمـة ، وكل هـذه النصوص القرآنية تمنع أن نعتقد أن داود يعمل تلك الأعمال التي تحكيها عنه التوراة ، لأنها تنافي الإحسان وتغاير الحكمة ، ولا تصدر عن أقسى برابرة العالم ، ولهذا وأمثاله يقول الله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾

التوراة تجازي على الزنا بالزنا

(١٢) ـ قال في التوراة خطاباً لداود : (لماذا احتقرت كلام الرب ، لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أوريّا الحثّي بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة.واياه قتلت بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذتَ امرأة أوريّا الحثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب : ها أنا ذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينك ، وأعطيهن لقريبك ، فيضطجع مع نسائك ، في عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر ،وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل ، وقدام الشمس) (٢ صم ١٢ : ١٩ - ١٢) ، وهذا الذي توعده

الله به قد وقع فعلاً (على ذمة التوراة) ،فقد حكي في التوراة أن أبشالوم بن داود بعدما حارب أباه وكسره ودخل عاصمة ملكه أورشليم . اضطجع مع سراري أبيه بمرأى من الشعب ، حيث قالت التوراة هكذا : (وقال أبشالوم لأخيتوفل : اعطوا مشورة ماذا نفعل ؟ ـ فقال أخيتوفل لأبشالوم : أدخل الي سراري أبيك اللواتي تركهن لحفظ البيت ، فيسمع كل اسرائيل انك قـد صرت مكروهاً من أبيك فتشدد أيدي جميع الذين معك ـ فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم الى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل) (٢صم ١٦: ٢٠ - ٢١) قال علماء اهل الكتاب : « والإثم في هذا مضاعف لكون السراري أقرباءه ، ولكونهن نساء لرجل آخر ، ولم يكن ذلك زيجة محرمه ، بل كان زنا ، لحياة أبيه والسراري غير مطلقات » ، فنتعلم من هذه النصوص التوراتية أن الله تعالى يعلن زنا الزاني في واحدة سراً ، بأن يزني قريبه بجمع من نسائه جهراً ، وأنه يجازى على الزنا بزنـا ». وهذا من أقبح القصص ، والقرآن الكريم لايجعل جزاء الزاني بامرأة الغير أن يزني ولده بنسائه ، بل يجعل جزاءه الجلد كما قال تعالى : ﴿ الزانيـةُ والزاني فاجلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مئةَ جلدةٍ ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دينِ اللهِ إنْ كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخرِ ، وليَشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾ (٢٤ : ٢) وقد أمر بحضور جمع من المسلمين حين جلد الزاني ، وكل هذا معقول. وأما التواراة فتقول : ان الله توعد داود بأن يزني قريبه بنسائه حال حضور بني إسرائيل ومشاهدتهم لهذا الفعل الشنيع ! ، وهو أمر غير معقول ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

ولما أتم الفاضل الجدلي خطابه عاد الى مكانه فقام على الأثر الهمام اليافي وسار نحو منبر الخطابة وشرع يقول :

ايها السادة إني على ما بي من قصر الاطلاع على كتب القوم أريد أن أذكر لكم

اثني عشر موضعاً من التوراة هي من أقبح القصص أيضاً ، نظير ما فعل أخواي الخليلي والجدلي عاطفاً ما سأذكره على ما ذكراه فأقول :

التوراة تقص أقاصيص الزنا

(١) ـ قال في التوراة (وجرى بعد ذلك انه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة ، اسمها « ثامار » فأحبها « أمنون » بن داود ، وأُحْصِرَ أمنون للسقم من أجل ثامار أخته ، لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً ، وكان لأمنون صاحب اسمه « يوناداب » ابن شِمعَى أخي داود ، وكان يوناداب رجلا حكيماً جداً ، فقال له : لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح الى صباح ، أما تخبرني ؟ فقال له أمنون : إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي ـ فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها ، ـ فاضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك ، دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكل من يدها ، ـ فأرسل داود الى ثامار الى البيت قائلا : اذهبي الى بيت أمنون أخيكِ واعملي له طعاماً ، فذهبت ثامار الى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت وعملت كعكا أمامه وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه ، فأبى أن يأكل وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عني ، فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : إيتي بالطعام الى المخدع فآكل من يدك ، فأخذت ثامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخاها الى المخدع ، وقدّمت له ليأكل ، فأمسكها وقال لها : تعالي اضطجعي معي يا أختي ، ـ فقالت له : لا يا أخي لا تذلني ، لأنه لا يُفعَل هكذا في إسرائيل ، لا تعمل هذه القباحة ، أما أنا فأين أذهب بعاري ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل ، والآن

كلم الملك لأنه لا يمنعني منك ، ـ فلم يشأ أن يسمع لصوتها ، بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها (٣ صم ١٣ : ١ ـ ١٤) ، في هذا النص حكاية زنا أمنون بأخته ثامار ، ولا ندري ماهي العبرة أو الذكرى في هـذا القصص القبيح ، سيما وانه يشير الى شيء غير حقيقي ، وهـو تزوج الأخ بأخته من أبيه ، فانه حرام على كل حال ، كما قـال في التوراة : (عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها) (لا ١٨ : ٦) وقال : (وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ، ورآى عورتها ورآت هي عورته فذلك عار ، يقطعان أمام أعين بني شعبها ، قد كشف عورة أخته يحمل ذنبه) (لا ٢٠:١٧)، والقرآن الكريم يقول : ﴿ حُرِّمَت عليكم أُمهاتُكم وبناتُكم وأخَواتُكم ﴾ (٤ : ٢٢) .

التوراة تنسب الشرك لسليمان وانه تزوج بالوثنيات حاشاه

(٢) ـ قـال في التوراة : (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميّـات وصيدونيّات وحثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون اليهم ولا يدخلون اليكم ، لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتكم ، ـ فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمـائة من السراري ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب آلهه كقلب داود أبيـــه ، فذهب سليمان وراء « عشتورث » إلـهة الصيدونيين ، و « ملكوم » رجس العمّونيين وعمل سليمان الشر في عـين الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة « لـكموش » رجس الموآبين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، و « لمولك » رجس بني عمّون ، وهـكذا فعـل لجميع نسائه

الغريبات اللواتي كن يوقدنَ ويذبحنَ لآلهتهن" ، فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إلـه إسرائيل الذي تراءى له مرتين ، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب ، فقال الرب لسليمان : من اجل ان ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بهـا فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك ، إلا إني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزّقها ، على اني لا أمزق منـك المملكة كلها ، بل أعطي سبطاً واحداً لابنك ، لأجل داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها) (٢ مل ١١: ١ ـ ١٣) وفي هذا القول ما فيه من تزوج سليمان بالوثنيـات ، مع إن ذلك محرم عليه في شريعته كما هو محرم في شريعتنا ، وفيه إمـالتهن قلبه للشرك ، وإنه زاغ عن عبادة الله وحده الى عبـادة الأوثان التي هي الآلهة الأربعة المذكورة ، وهي من آلهة الوثنيين ، وفيه مجازاة الله له على ذلك بتمزيق الملك عنه ، لكن ليس في زمنه ، بل في زمن ابنه « يربعام » ، فالجرم صدر من شخص ، والعقـاب انصب على رأس شخص آخر ، وكل هذا من أقبح القصص ، ولـكن كتاب الله تعـالى يقص علينا أحسن القصص في شأن سليمان ، قال تعالى : ﴿ ومـا كَـفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كَـفَروا ﴾ (٢ : ١٠٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولقـــد آتينـا داودَ وسليمانَ عِلْماً ، وقالا الحمدُ لله الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ مِـن عبـــادِهِ المؤمنـين ، ووَرِث سليمانُ داودَ وقال : يا أيها الناسُ ، عُلِّـمنا مَنطِقَ الطيرِ وأُوتينـا مِنْ كلِ شيءٍ ، إنَّ هذا لَـهُوَ الفضلُ المبينُ (٢٧: ١٥و١٦) وذكر في القرآن الكريم في قصة سليمان مع ملكة سبأ انها كانت وثنية من عبّاد الشمس وإن سليمان لذلك أرسل إليها يدعوهـا للتوحيد ، وانها تزلفت إليه بالهدايا المادية وهو لم يقنع بذلك ، لأنه لا يريد الماديات ، بل هو داع روحاني لا يرضى منها بسوى الإسلام ، وإنها أخيراً أسلمت ، (انظر سورة النمل ٢٧ : ٢٣ ـ ٤٥)

وذكر في سورة الأنعام (ع ٨٤) إنه كان من المحسنين ، وقال تعالى : ﴿ ووهبنا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العبدُ إنه أوّابٌ ﴾ (٣٨ : ٣٠) ثم قال ﴿ وإنَّ له عندنا لَزُلفى وحُسْنَ مآبٍ ﴾ (٣٨ : ٤٠) ، فهذا من بعض وجوه ونكات قول الله جلّ جلاله : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إلى هذا القرآن) .

التوراة تنسب لبعض الانبياء للكذب في البلاغ

(٣) ـ ذكر في التوراة ان نبياً من أنبياء يهوذا امره الرب ان يسافر الى يربعام ملك إسرائيل لإنذاره وتخويفه بسبب شركه ، وأمر الرب أمر ذلك النبي أن يرجع بعد إبلاغ رسالته ، وأن لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماء داخل حدود مملكة إسرائيل ، وأنه جاءه نبي آخر فقال له : سر معي الى البيت ، وكلْ خبزاً ـ فقال لا أقدر ان ارجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزاً ، ولا أشرب معك ماء في هذا الموضع ، لأنه قيل لي بكلام الرب : لا تأكل خبزاً ولا تشرب هناك ماء ـ فقال له : أنا أيضاً نبي مثلك ، وقد كلمني ملاك بكلام الرب قائلاً : ارجع به إلى بيتك فيأكل خبزاً ويشرب ماءً ، ـ كذب عليه فرجع معه وأكل خبزاً في بيته وشرب ماء (امل ١٣ : ١ ـ ١٩) ، وذكر في التوراة (أن ملك إسرائيل جمع نحو أربعمائة نبي قد أخبروه بالكذب بسبب أن الرب قال : مَن يغوي آخاب ؟ فخرج الروح ووقف أمام الرب وقال : أنا أغويه ! ـ فقال له الرب : بماذا ؟ ـ قال أخرجُ وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه ! ـ فقال : إنك تغويه وتقدر ، فأخرج وافعل هكذا ، والآن هو ذا قد جعل الرب روحَ كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء !) (امل ٢٢ : ٦ ـ ٢٣) ، وردد في التوراة أيضاً هكذا : (صار في الارض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبأون بالكذب ،والكهنةُ

تحكم على أيديهم ، وشعبي هكذا أحب ، وماذا تعملون في آخرتها ؟) (أره : ٣٠ و ٣١) وفي سفر إرميا أيضاً قال : (فقال إرميا النبي لحَنَنْيا النبي ـ اسمع يا حننيا إن الرب لم يرسلك ـ أي في خصوص هذه المسألة وإلا فهو عندهم نبي ورسول ـ وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب ، لذلك هكذا قال الرب : ها أنذا طاردتك عن وجه الأرض ، هذه السنة تموت ، لأنك تكلمتَ بعصيان على الرب ، فمات حَنَنيا النبي في تلك السنة) (أر ٢٨ : ١٥ ـ ١٧) واقرأ الاصحاح المذكور جميعه تتضح لك الحقيقة تمام الوضوح وتعلم منها أن حننيا النبي كذب في البلاغ عن الله فالتوراة التي بين أيدي اليهود تجوز الكذب من الأنبياء جوازاً وقوعياً حتى في البلاغ ، ولكن القرآن الكريم يقول عن الوحي : ﴿ قولُه الحقُّ ﴾ (٦ : ٧٣) ، ويقول : ﴿ ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بالحقِّ ﴾ (١٥ : ٨) ويقول : : ﴿ قل إنَّ ربي يَقذِفُ بالحقِ ﴾ (٣٤:٤٨) ويقول ﴿ هذا ما وعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المُرسَلون ﴾ (٣٦ : ٥٢) ويقول : ﴿ إنما يَفتَري الكَذِبَ الذين لا يُؤمنون ﴾ (١٦ : ١٠٥) ويقول : ﴿ ما كان حديثاً يُفترَى ﴾ (١٢ : ١١١) ويقول ﴿ إنَّ الذين يَفترون على الله الكَذِبَ لا يُفلحون ، متاعٌ قليلٌ ، ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ (١٦ : ١١٦ و ١١٧) فسبحان من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت ان الوحي ينزل بسبب آلات الطرب

(٤) ـ قال في التوراه (وأفرَزَ داودُ ورؤساءُ الجيش للخدمة بني آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج) (١أي ٢٥ : ١) ففيه ان الأنبياء كانوا يتنبئون بضربهم على آلات الطرب ، وفي التوراة ايضاً « والآن فأتوني بعوّاد » ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب ، فقال : هكذا قال

الرب اجعلوا هذا الوادي جباباً جباباً الخ ما في (٢ مل ٣ : ١٥ و ١٦، صرّح في التوراه إن هذا الكلام قاله النبي اليشع عليه السلام حينما رغب اليه « يهورام »ملك اسرائيل واستشاره في محاربة ملك موآب » وطلب منه أن يخبره بحسب الوحي ، وهذا من أقبح القصص ، لأنه يُعلم القُراءَ استعمال الآلات المطربة ، والألحان الموسيقية وقت العبادات ويصرح بأن الضرب على العود يسبب نزول وحي الله من السماء على أنبيائه ، والحال إن الأنبياء عند نزول الوحى عليهم يتجردون عن الدنيا وأسبابها ، وعن كل المـاديات الأرضية ، وتنحصر قواهم وحواسهم في السماء ، ويغيبون عن كل شيء عدا العالم السماوي ، كما ورد في كيفية نزول الوحي الشريف على نبينا (ص) ، فالحمد لله إذ لم نكن من « الذين اتخذُوا دينَهم لَهْواً ولَعِباً » (٧ : ٥٠) والحمد لله الذي قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت لله التعب

(٥) ـ قال في سفر التكوين عن الله (فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) (تك ٢ : ٢) وقال في سفر الخروج (وفي اليوم السابع استراح وتنفس) (خر ٣١ : ١٧) ، فالاستراحة لا تكون إلا بعد تعب ، والله تعالى منزه عن ذلك ، ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد خَلَقنا السموات والأرضَ وما بينهما في سِتةِ أيامٍ ، وما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ ﴾(٥٠:٣٨)واللغوب الإعياء والتعب ، فسبحان من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت حياة أخنوخ

(٦) ـ قال في سفر التكوين (وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه (تك ٥ : ٢٤) قالوا نقله حياً الى السماء لكيلا يرى الموت ، ولكن القرآن يقول : ﴿ كلُّ مَنْ عليها فانٍ ويَبقَى وجهُ رَبّك ذُوا الجلالِ والإكرامِ ﴾ (٥٥ : ٢٥ و ٢٦) وبناء على هذا التفسير يتوجه الاعتراض على التوراة .

التوراة تعلل القصاص بالموت

(٧) ـ قال في سفر التكوين (سَافِكْ دمِ الإنسان يُسفَك دمُهُ ، لأن الله على صورته عمل الإنسان) تك ٩ : ٦) ولكنه في القرآن علل القصاص بحفظ الحياة قال تعالى : ﴿ ولكم في القِصاصِ حياةٌ ﴾ (٢ : ١٧٩) وغير خاف أن العلة المذكورة في القرآن أحسن من العلة المذكورة في التوراة فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

التوراة تثبت أن الأصل في الإنسان الشر

(٨) ـ قال في سفر التكوين (لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته) (تك ٨ : ٢١) فالتوراة تعلمنا إن الأصل في الإنسان الشر ، وليس الأمر هكذا عند علماء الطبيعة ، بل قالوا : الأصل في الإنسان الخير بدليل أحوال الأولاد الأطفال ، وعليه قوله تعالى : ﴿ فأقِمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً ، فِطْرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها ، لا تَبديلَ لخلقِ اللهِ ، ذلك الدينُ القَيّمُ ، ولكنَ أكثرَ

الناس لا يعلمون ﴾ (٣٠ : ٣٠) فقلب الإنسان خير منذ حداثته ، ولكن أهل الشر يعلمونه الشر تدريجاً ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

غلط التوراة في التاريخ

(٩) ـ قال في سفر التكوين (فقال لإبرام أعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُستَعبَدون لهم ، فيذلونهم أربعمئة سنة ثم الأمة التي يُستَعبَدون لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة) (تك ١٥ : ١٣ و ١٤) وقال في سفر الخروج (وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمئة وثلاثين سنة) (خر ١٢ : ٤٠) وظاهر أن العبادتين متناقضتان ، على أن كلا منهما ليس بصحيح ، والذي صححه علماء التاريخ حتى النصارى أن مدة غربتهم بمصر إنما كانت (٢١٥) سنه فقط (أنظر قطف الزهور ليوحنا أبكاريوس)

تكرار ذكر حوادث الزنا في التوراة

(١٠) ـ قال في سفر التكوين (وخرجت دينَة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض ، فرآها شكيم ابن حمّور الحوّي رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها) (تك ٣٤ : ١ و ٢) قال في السنن القويم : جاء في التقاليد اليهودية إن « دينة » المذكورة حبلت من شكيم المذكور فولدت ابناً اسمه « شاؤل » وقال أيضاً (وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل) (تك ٣٥ : ٢٢) فما هي الفائدة يا ترى من ذكر التوراة لزنا شكيم ببنت يعقوب ؟ وما الفائدة من ذكر أن رأوبين زنا بامرأة أبيه وأم أخويه دان ونفتالي ، فهل من ثمرة لذلك سوى فضيحة دينة

وبلهة، لأن الإكراه الحقيقي على الفعل الشنيع لا يتصور أبداً، إذ يمكن كلا منهما أن تدافع عن نفسها، فذكر الزنا بهما يرمي إلى أن لهما إرادة فيه، ويا لها من فضيحة !!! خصوصاً إذا تصورنا إن «دينة» بنت نبيّ، وبلهة زوجة نبيّ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

التوراة تقول بجزاء خارج عن المعقول

(١١) قال في سفر اللاويين (وأخذ ابنا هرون «ناداب» و«أبيهو» كل منهما بمجمرته، وجعلا فيها ناراً، ووضعا عليها بخوراً وقرّبا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها، فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما، فماتا أمامَ الرب، فقال موسى لهرون، هذا ما تكلم به الرب قائلاً: في القريبين مني أتقدس، وأمام جميع الشعب أتمجد، فصمت هرون) (لا ١٠ : ١ - ٣) فيه إن الله قتل بالنار ولدَيْ هرون الأكبرين، وكل ذنبهما أنهما وضعا البخور على نار غريبة غير نار المذبح، فعند ذلك سقطت السماء على الأرض، وأحاط بهما أشد عقاب الله، وذلك لكي يظهر الله مجده بعقاب أوليائه، ولعمري إن هذا الحكم لا يصدر عن أظلم الحكام الظالمين، الذين فقدوا الحكمة والعدالة، حتى لا يمكن صدوره عن الجزّار ولا عن هيرودس ولا عن نيرون وأمثالهم من الملوك الظلمة.

التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة

(١٢) - قال في سفر اللاويين (وكلم الرب موسى قائلاً: أوصِ بني إسرائيل أن يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقياً، للضوء لإيقاد السرج دائماً، خارج

حجاب الشهادة في خيمة الاجتماع يرتبها هرون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائماً، فريضة دهرية في أجيالكم) (لا ٢٤ : ١ - ٣) ، فيه إن الله يأمر بإيقاد السرج كل ليلة من أول الليل لآخره بين القدس وقدس الأقداس من غير أن ينتفع به أحد من الناس ، ولا ريب أن هذا من أقبح القصص ، لأنه تضييع مال بلا فائدة ، وهو أصل البدعة الشائعة اليوم في مثل سورية ومصر من شعل الشموع أو الزيت في أضرحة الصالحين فهذه البدعة القبيحة سرت لجهلة المسلمين من مثل هكذا عبارات زائفة ؛

وأخيراً هذا ما وعدت بتبيانه وكل ما ذكرته أنا وغيري هو في الحقيقة نغبة[1] من دأماء ومن أراد أن يطلع على الفضائح الغريبة فليرجع إلى أسفار العهد العتيق والسلام عليكم ورحمة الله .

(أحسن القصص)

- ٣ -

قال تقي الدين المقدسي :

مميزات قصة يوسف عن القصص الأخرى

لم تجمع قصة موسى وفرعون ، ولا قصة موسى وهرون ، ولا قصة هود وعاد ، وصالح وثمود ، وإبراهيم مع الكلدانيين والفلسطينيين ، ولوط مع أهالي سدوم وعمورة ، وشعيب مع مدين ، وداود مع شاؤل حميه ثم مع أولاده ، وسليمان مع

(١) نغبة : حسوة طائر ، دأماء : بحر .

معاصريه من الملوك ، ويونس وأهالي نينوى ، ويحيى والمسيح مع اليهود ؛ ولاقصة أصحاب الكهف ، ولا قصة ذي القرنين ـ كورش ملك ليديا وفارس ـ وسطوته ـ لم تجمع هذه الأقاصيص من العظات والعجائب ما جمعته قصة يوسف ، ولم تتضمن قصة من القصص من المبكي والمنكي،والمدهشات والمنعشات والتطوراتوالانقلابات ونصب الأحابيل والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ،والتلاقي والفراق ، والرحلات والانتصارات ، واللذةوالعبرة ، والمقدمات والنتائج،والصبر والفرج ، والحِكَم والعِبَر ، والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والمماليك وحسن السياسة ، وتدبير المُلك وإقامة العدل ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائعهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين .

نعم لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصه يوسف ، وأكبرشاهد على ما نقول أنك ترى القراء يقرؤونها والسامعين يستمعونها باندفاع وشوق ولذة، في المساجد والتكايا والأسواق ، والنوادي والطرقات ، حتى أن بعض الناس نظموها شعراً وصاروا ينشدونه في الطرقات ، وكثير رتبوها « رواية » وصاروا يمثلونها في مسارح التمثيل .

(أوحينا)

- ١ -

قال الإمام القلقيلي [١] :

الوحي الاصطلاحي

إن إعلام الله أنبياءه المختارين ، وهو الوحي الاصطلاحي المختص بهم في عرفه

(١) نسبة إلى بلدة قلقيلية من فلسطين

الشرع ، فهو معنى تضيق العبارة العلمية عن تحديد كنهه ، وغاية ما يمكن الإنسان، هو أن يحوم حوله مستعيناً بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ، ليقتطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني .

(أوحينا)

- ٢ -

وقال الشيخ البيساني [١] : -

الفرق بين الوحي والالهام

وحي الله إلى أنبيائه هو ما يلقيه إليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كالملك ، أو بغير واسطة ، ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يُطلَبُ على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

(أوحينا)

- ٣ -

وقال المدقق اللدي [٢] :

الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني

الوحي نوع من أنواع الكلام الذي لا يعلم معناه على التفصيل إلا هو سبحانه

(١) نسبة إلى بلدة بيسان من فلسطين
(٢) نسبة الى بلدة اللد في فلسطين

وتعالى ، فقد كان البشر منذ البدء لا يعلمون من طرق التعبير عن الكلام النفسي سوى النطق باللسان ، ثم لما قُدِّر أن خرس بعض الناس صاروا يعبرون عن كلامهم النفسي بالإشارات اليدوية مع استعانتها بالحاجب والعين والشفة ، ثم تعلم الناس طريقاً ثالثاً للتعبير عما في النفس وهو الكتابة بالقلم ، ثم بالبرق (التلغراف) ثم بالحاكي (الفونوغراف) ثم بالهاتف (التلفون) ثم بالراديو فهذه سبعة طرق بها يقدر الإنسان أن يعبر عما يختلج في ضميره من المعاني وكلها طرق معروفة ، ولكن طريقة كلام الوحي هي من باب الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

(هذا القرآن)

- ١ -

وتابع المدقق الذي كلامه قائلاً :

سبب ايحاء القرآن

لقد أوحى الله الى نبيه (ص) هذا القرآن لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق ، من إقامة العدل ، والحث على التعاون ، والأمر بالاتحاد ، والدعوة الى أمهات الفضائل ، كالصدق وعلو الهمة ، وترك الكذب والغش والتدليس ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والأمر بالإحسان الى الفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل ، والأمر ببر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى حقه ، وإكرام الجار والضيف ، الى غير ذلك مما لا تتم الإنسانية بدونه ، كذلك ما فيه من الدعوة الى تكوين أمة قوية معبأة للسيادة على الأرض تعبئة عامة اقتصادية وحربية وعقلية ، كذلك ما فيه من التشريع الحكيم الذي روعيت فيه مصالح الشعب وكان موجهاً الى إقامة العدل وتقرير المساواة وتطهير المجتمع من الرذائل .

(لمن الفائلين)

- ١ -

وقال الوحيد البُرَيْري (١) :

محمد ﷺ في طفولته وشبابه

كان النبي (ص) أمياً لم يتعلم شيئاً من الكتب قط ، ولم يعن في طفولته ولا في شبابه ، بشيء مما كان يسمى علماً عند الأميين ، كالشعر والنسب وأيام العرب ، ولم يترب على يد عالم ولا حكيم ولا سياسي ، وكان وهو في سن التعليم وتكون الأخلاق والملكات ـ يرعى الغنم نهاراً ، وينام من أول الليل ، فلا يحضر سمّار قومه ، وهي مواضع السمر في الليل ، ولا يجتمع بهم في معاهد لهوهم ، واتجر قليلاً في شبابه ، مع قومه من أبناء الجاهلية وأترابه ، فهو لم يصادف من التربة المنزلية والتأديب الاجتماعي في أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذي تصدى له في كهولته ، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية ولكنه مع ذلك قام بهذه التربية أكمل قيام .

وأتى من علم الحقوق والجزاء والتاريخ ما يعجز عن مثله أكبر رجل دارس في الجامعات العالية ، فكان هذا حجة كبرى على صحة نبوته ، وبرهاناً عظيماً على عناية الله به ، وتأييده إياه بوحيه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إليكَ ، ما كنتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قومُكَ مِنْ قبلِ هذا ﴾ (١١ : ٤٩) ، ومن الغريب أنه يوجد في هذا العصر ، عصر النور والأفكار الحرة المطلقة ، من لا يفكر في إتيان الأُمّي الناشيء بين الأميين بخلاصة أخبار أشهر الرسل مع أهليهم وأقوامهم .

---

(١) نسبة الى بلدة برير من اعمال فلسطين .

رجل أمّي يتيم فقير في بيئة منحلة ، وفي وسط جاهل ، لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ، بل كان من « الغافلين » في غير عقيدته ، ومع كل ذلك أتى من العلوم مالم يأته قبله نبيٌّ ولا حكيم .

كفاك بالعلم في الأمّي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

(لمن الغافلين)

- ٢ -

قال الشهاب الرملي (١) :

القرآن معلم النبي (ﷺ)

لأن الإنسان أي إنسان كان لا يعلم ما لم يعلم ، قال تعالى : ﴿ وكذلكَ أوحينا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرِنا ، ما كنتَ تدرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكنْ جعلناهُ نوراً نَهْدي به مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا ، وإنك لتَهْدي الى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ (٤٢ : ٥٢) وقال تعالى : ﴿ وأنْزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ ، وعلَّمكَ ما لم تكنْ تعلمُ ، وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً ﴾ (٤ : ١١٢) وقال تعالى : ﴿ ووَجَدَكَ ضالاً فهَدَى ﴾ (٩٣ : ٧) ، هذه نصوص القرآن الكريم ، وهي ظاهرة المعنى ، فلا نعلق عليها بشيء ، سوى أن نقول كلمة واحدة : تبارك الله ، والله لو كان هذا القرآن من عند (محمد) لما وردت فيه هذه الآيات الكريمة (انظر تفسير آية ١٠٩) .

(١) نسبة الى الرملة من اعمال فلسطين

(لمن الغافلين)

- ٣ -

وقال الأديب الفالوجي[1] :

غفلة النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به

الغفلة قسمان ، غفلة يذم بهـــا الانسان ، وهي فيما إذا كان قد بُلـِّـغَ شيئاً وعُلـِّمَهُ ثم غفل عنه ، وغفلة يعذر بها الانسان ، وليست مذمومة قط ، وهي فيما إذا غفل عن شيء لم يُبَلـَّغْهُ ولم يُعَلـَّمـْهُ ، فقوله هنا ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، لا يقصد منه الذم والعتـاب ، ولكن يقصد منه بيان الواقع ، لأن الغفلة هنا قريبة من معنى الجهل الذي هو ضد العلم ، قال تعالى في الفقراء المتعففين: ﴿ يَحْسَبُهُم الجاهلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفف ﴾ (٢ : ٢٧٣) فوصف الجهل هنـا ليس فيه ذم ، لأنه توصيف لبيان الواقع ، هذا وان عدم علمه ﷺ بالكتابة كان من أركان آياته ، وعـدم علمه بالشعر من أدلة الوحي وبينـاته ، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الالـهي لا تكون غفلة الرسول عنه قبل نزوله عليه عيبـاً يذم به إذ لا يذم الانسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه ، وقد أمر الله تعـالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم ، وكان يزيده كل يوم علماً وكمالاً ، بتنزيل القرآن وبفهمه ، وبغير ذلك من العلم والحكمة ، وهذا لا يقتضي الذم قبل هذه الزيادة ، هذا ماظهر لي هنا ، والسلام عليكم ورحمة الله .

---

(١) نسبة الى الفالوجة من بلاد فلسطين

الفصل الثالث

بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة

آ(٤) ﴿ إِذْ قالَ يوسُفُ لِأبيهِ : « ياأبَتِ ، إنّي رأيتُ أَحَدَ عَشَرَ كوكَباً والشمسَ والقمَرَ » ـ رأَيتُهُم لي ساجِدِينَ !!! » ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة، فقام أبو الفضل الحانوني(١) وقال:

من هذه الآية يبدأ الأمر المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف ، كما بين ذلك أخونا الامام اللغوي القلقيلي حينما تكلم عن الآية الأولى ، وبانتهاء الآية المتممة مئة وواحد ينتهي هذا المقصود .

وأما بيان مجمل تفسير الآية التي نحن بصددها فهو :

(إذ قال يوسف) الابن الحادي عشر من ابناء يعقوب ، الذي رزقه من زوجه « راحيل » في العراق ، (لأبيه) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بلسان الإخبار أو بلسان الاستفهام عن المآل ، (ياأبت ، إني رأيت) في منامي (أحد عشر كوكباً) نجماً وهي إخوته (والشمس) أبوه (والقمر) مربيته بلهة ، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت (رأيتهم لي ساجدين) خاضعين ، ويحتمل أن أباه لم يأول له هذه الرؤيا ، لأن يوسف يعلمه من قبل ، وإنما قصها عليه ليخبره ويسره

(١) نسبة الى بيت حانون من فلسطين .

بذلك ؛ والأقرب أنه أولها له ، ولكن القرآن الكريم حذف ذلك اختصاراً .

منذ شرع الناس يؤلون الأحلام ، عرفوا أن في الحلم رموزاً ، ومنذ شرع الإنسان يؤلف اللغات اعتمد على الرموز في تأليف اللفظ ، فعرف المجاز والاستعارة، وهما من الرموز ، وهما قوام اللغات كلها ، فلذلك فإنه يمكننا أن نفسر الرموز التي نجدها في الاحلام برموز اللغات ، أي بمجازاتها واستعاراتها ، ولذلك فسرنا الشمس بيعقوب ، والقمر بيلهة ، والكواكب بإخوته الأحد عشر .

(يا أبَتِ)

- ١ -

قال العلامة الصفدي [١] :

استعطاف الأبوة والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم لأبيه

كأن هذه الكلمة ﴿ يا أبَتِ ﴾ من الابن الى الأب استعطاف واسترحام ، وتذكير بالأبوة وواجباتها ، نحو الشفقة والعناية بالأبناء . وما بين الابن والأب من الحقوق التي تجب مراعاتها ، والقيام على الوفاء بها من الطرفين ، ونظيره قول جد يوسف الأعلى وهو سيدنا إبراهيم لأبيه : ﴿ إذْ قالَ لأبيه : يا أبَتِ ، إنّي قد جاءَني مِنَ العِلْمِ ما لَمْ يأتِكَ ، فاتَّبِعْني أهْدِكَ صِراطاً سوياً ، يا أبَتِ لا تَعبُدِ الشيطانَ ، إنّ الشيطانَ كانَ للرحمنِ عَصِيّاً ، يا أبَتِ ، إنّي أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ من الرحمنِ ، فتكونَ للشيطانِ ولِيّاً ﴾ (١٩:٤٢-٤٥) ،

---

(١) نسبة الى صفد من بلاد فلسطين

ولكن يوجد فروق كثيرة بين الخطابين ، فالخطاب الأول ، وهو خطاب يوسف لأبيه ، خطاب متعلم لمعلم ، بخلاف الخطاب الثاني ، وهو خطاب إبراهيم لأبيه ، فهو بالعكس خطاب معلّم لمتعلم .

ثانياً — الخطاب الأول خطاب مؤمنٍ لمؤمنٍ ، بخلاف الخطاب الثاني فمن مؤمن لكافر .

ثالثاً — الخطاب الأول كان بين المتخاطبين وهما في فلسطين ، بخلاف الخطاب الثاني ، فإنه كان بين المتخاطبين وهما في الكلدان (العراق) .

رابعاً — الخطاب الأول كان من قبيل أخذ الرأي ، بخلاف الخطاب الثاني فكان من قبيل إعطاء الرأي .

خامساً — مضمون الخطاب الأول كان مما يرفع الرأس ويوجب الفخار بخلاف مضمون الخطاب الثاني ، فكان مما ينكس الرأس ويوجب الخجل بالنسبة للمخاطَب.

سادساً — الخطاب الأول كان من باب التحلية ، بخلاف الخطاب الثاني كان من نوع التخلية .

(ياأبت)

— ٢ —

وقال السيد جميل الناصري [١] :

إعراب يا أبت

لي هنا كلمة موجزة في إعراب (يا أبت) فأقول : (أبَ) منادى مضاف

---

(١) نسبة الى الناصرة من اعمال فلسطين .

منصوب بالفتحة الظاهرة على الباء الموحـدة ، وأبَ مضاف والتاء (التي هي تاء التأنيث ، والتي هي عوض عن ياء المتكلم) مضاف إليه ، مبني على الكسر في محل جر بالإضافة ، ولكون المنادى هنا مضافاً لياء المتكلم أي للتاءالتيهي نائبة عنها ، أُعربَ بالحركات ، ولم يُعربْ بالحروف ، إذ شرط إعراب الأسماء الخمسة بالحروف أن تكون مفردة مكبرة مضافة لغير ياء المتكلم .

(يا أبت)

– ٣ –

قال الامام الدمشقي القيمري (١) :

أدب الخطاب

هـذه صورة خطاب يوسف لوالده ، وسيأتي لإخوته أن يقولوا ﴿ يا أبانا ما لَكَ لا تأمَنَّا على يوسفَ ﴾ ، وسيأتي قول يوسف لرئيس السقاة والخبازين : ﴿ يا صاحِبَيِ السجنِ ﴾ وقول الملك الريان : ﴿ يا أيها الملأُ ، أفتُوني في رُؤيايَ ﴾ وقول رئيس السقاة : ﴿ يوسف أيها الصِّـدِّيقُ ﴾ ، وقول إخوة يوسف : ﴿ يا أيها العزيزُ إنّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾ ، ﴿ يا أيها العزيزُ مَسَّنـا وأهلَنَا الضُّرُ ﴾ وقول يعقوب لأولاده التسعة : ﴿ يا بَنيَّ اذهبوا فتَحسَّسُوا من يوسف وأخيه ﴾ ولا يخفى ما في كل هذه النداآت من التشريف والتكريم للمنادى ، وتعليم الأدب للقارئين ، ولذلك لم يرد في القرآن المجيد نداء النبي ﷺ باسمه فحسب ، ولكن بصيغة ﴿ يا أيها الرسولُ ﴾ ، ﴿ يا أيهـا النبيُ ﴾ ، وشريعة

(١) نسبة الى حي القيمرية في دمشق (سورية)

الأدب هذه عند الخطاب نتعلمها من هـذه السورة كسائر القرآن المجيد ، علـّمَنا الله إياها بالفعل وبالأمثلة ، كما علـّمنا إياها بالقول في آية ﴿لا تجعَلوا دُعاءَالرسولِ بَينَكُم كدُعاءِ بَعْضِكُم بعضاً﴾ (٢٤ : ٦٣) على قول ، ولذلك حرموا نداء النبي ﷺ باسمه إلا إذا اقترن بكلمـة تعظيم كـَ (يا محمد النبي) أو (يا محمد المختار) ومثله ﴿ يوسفُ أيها الصـّدّيق ﴾ فيجوز حينئذ .

(رأيت)

- ١ -

وقال الفهامة الدمشقي الميداني [١] :

يوسف في رؤياه

نامت الطبيعة في خدر الليل الحريري ، لا حركة ولا نَبْئَة ، وأرسل الله نعمـة السبات على عباده ، وأراحهم من مشقات النهار ونصبه ، وكان يوسف مضطجعاً بين طيات الظلام وثنايا العتمة، فحكم عليه سلطان الكرى ، وبدأ يستولي على رأسه ، فنام بملء جفونه ، وأطلق لجسمه العنان في الرقاد ، غير أن قلبه كان في يقظة ، رغم نوم جميع جوارحـه وحواسه ، وما هي إلا نومة هادئة ، وإذا بكواكب أحد عشر تنزلت من علوها ، ومعها النيران العظيمان ، الشمس والقمر ، وانتصبت أمامه بانتظام ، سمع صوتاً عظيما يقصف كالرعد قائلاً : (لتسجد هـذه الكواكب السماوية ليوسف ، وتخر لوجوهها أمامـه بخشوع واحترام) فجثت

(١) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

وخرت ساجدة أمامه ، فأدهشه هذا المنظر الرهيب ، وبغته وهاله ، وهاله جداً ، ثم فتح عينيه فإذا هو مضطجع في مرقده ، وقد بدأت خيوط الليل تنقشع عن عن وجه الصباح ، ففرك جبينه وقال : (إنه لحلم عجيب) .

(رأيتُ)

- ٢ -

وقال الأستاذ العكاري [١] :

يوسف يقص رؤياه على أبيه

شاءت العناية الإلهية أن تبتدىء يوسف بالمبشرات التي تبين مجمل حاله ، وتكشف عن مستقبله ، فرأى وهو وليد ، لم يسلخ السابعة عشر من عمره ـ رأى ذات ليلة من الليالي رؤيا غريبة التوى عليه تأويلها ، فقام وانتجع أباه ، فدخل عليه في خيمته صباحاً ، وقد كان له عليه دالة ، ووقف قبالة أبيه بكل أدب وتعظيم فقال له أبوه : (مَهْيَمْ ؟)ـ فقال : (ألا أعرِضْ على مسمعك ما رأيته الليلة في نومي؟)ـ قال : (هات) !ـقال:(يا أبتاه ، حقاً وصدقاً لقد رأيت الليلة فيما يرى النائم، رؤيا هالتني جداً : وهي من الغرابة بمكان ، رأيت أحد عشر نجماً سماوياً والشمس والقمر ، خرت من عليائها واصطفت وسجدت أمامي ، معفرة وجوهها بين يدي، فما رأيك وما هو قولك ؟)ـ فدهش يعقوب لهذا المنام ، وكان مما أدهشه بنوع

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

خاص ، سجود الشمس والقمر لولده ، وعلم أن هذا المنام ذو بال ، فقال له أبوه : (كل المنى دون هذا يا ولدي)وصار وكأن لسان حاله يردد في نفسه هذين البيتين :

وكمْ للنجمِ قد سَجَدتْ أناسٌ
لما قد شِمْتَــه حَسَناً مَزِينا
ولكن فلذةُ الكبد المفدّى
تخرله الكواكبُ ساجدينا(١)

دهش يعقوب جداً لهذه الرؤيا وصار يقول في نفسه : (فهمنا ، أن الأحد عشر كوكباً هي إخوة يوسف الأحد عشر ، ولكن هل تأتي إخوته لتسجدله إلى الأرض ؟ ولئن سلمنا ذلك فهل يأتي أبوه وأمـه أيضاً ليسجـدا له . أو على الأقل ليحضرا هذا المشهد ، مشهـد السجود ؟ لا مانـع ، إن الله على كل شيء قدير) .

وهنا صفق أعضاء المؤتمر كثيراً وقالوا بأعلى صوتهم : « انتعش أيها الأستاذ » .

(رأيتُ)

ـ ٣ ـ

وقال الحاج سعدي العكي :

الرؤيا والشرع

من الواضح الذي نستحي أن نعزوه إلى كتاب ، أو نقيم عليـه شاهداً ، أن

(١) الشعر للمؤلف

الرؤى المنامية معتبرة شرعاً ومسطورة في كثير من الكتب السماوية ، بل معتبرة فناً أيضاً ، فإن علماء الطبيعة ، وعلماء النفس ، أثبتوها ، قال تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (١٧ : ٦٠) وقال تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال : يابني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ ـ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ؛ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، ـ فلما أسلما وتله للجبين ـ إلى أن يقول ـ وناديناه : أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٣٧:١٠٢ـ١١٧) وقال تعالى: ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ، إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٤٨ : ٢٦) ، وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الرؤيا الصالحة من الله ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحب ، فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى أحدكم ما يكره ، فليتفل عن يساره ثلاثاً ؛ وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها ، فإنها لن تضره) ؛ وعن أبي رزين العقيلي قال : قال رسول الله ﷺ :(رؤيا المؤمن جزء من أربعين ،ـوفي رواية جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ... قال : وأحسبه قال : ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً) ، أخرجه الترمذي ، لأبي داود ونحوه . ووجه كونها جزءاً من ستة واربعين جزءٍ من النبوة ـ أنه (صلى الله عليه وسلم) بقي حسبما أشارت عائشة (رضي الله عنها) ستة أشهر يرى الوحي مناماً ، ثم جاءه الملك يقظة ،وستة أشهر بالنسبة الى ثلاث وعشرين سنة جزء من ست وأربعين جزءاً ، ولا تنس أن كون الرؤيا الصادقة جزءاً مما ذكر إنما هو باعتبار صدقها لا غير ، وإلا لساغ لصاحبها ،

أن يسمى نبياً ، وليس كذلك ، هكذا أفادنا الحافظ العسقلاني رحمه الله ؛ وعليه فلا تكون الرؤيا مبدأ للنبوة ، ولكن تعد من مقدماتها ، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هي من قبيل الإرهاصات التي تكون قبل النبوة ، أي قبل الزمن الذي يتأهل فيه النبي لقبول الوحي في اليقظه ، وأما رؤياهم في المنام بعد النبوة بالفعل فهي وحي صريح كما تعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية في شأن ولده الذبيح ؛ والخلاصة أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحي ، ورؤياهم قبل نبوتهم هي كسائر رؤى أهل الصلاح والخير ، تعد من نوع المبشرات لا من قبيل الوحي ، قال تعالى : ﴿ ألا إنّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنونَ ، الذينَ آمنوا وكانوا يتّقون ، لهم البُشْرَى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ؛ لا تَبديلَ لكلماتِ اللهِ ؛ ذلك الفوزُ العظيم ﴾ (١٠ : ٦٢ - ٦٤)وقد ورد في الحديث ان البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له .

(رأيتُ)

- ٤ -

وقال بدر الدين الحيفاوي[١] : لي هاهنا ثلاث كلمات :

رؤيا الأنبياء ورؤيا الناس

الكلمة الأولى : - إن الرؤيا المنامية معتبرة ، خصوصاً إذا كانت للأنبياء ، لأنها لهم وحي إذا كانت بعد النبوة ، أو إرهاص إذا كانت قبلها ، وهنا ربما

(١) نسبة الى حيفا من اعمال فلسطين

ينتقدنا بعضهم بأن قوله تعالى: ﴿ وإذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في منامِكَ قليلاً ، ولو أراكَهُمْ كثيراً لَفَشِلْتُم ﴾ (٨ : ٤٤) يفيد أن الرؤيا المنامية للأنبياء قد تكون غير موافقة للواقع لبعض الأسباب اللازمة ، كما ترى من هذه الآية ، فإن المشركين في بدر كانوا كثيرين ، وقد أراهم الله لنبيه (ﷺ) في منامه قليلين ، فأخبر بذلك أصحابه ، فاعتقدوهم كذلك ، ولكن بعد اللقاء في الهيجاء رآهم النبي وأصحابه كثيرين ، أي ألفاً ، وكان المسلمون (٣١٣) نفراً ، فكيف مع هذا يقال : إن الرؤيا حق ، وإن رؤيا الأنبياء وحي صادق موافق للواقع ؟

وجوابنا عن هذا السؤال ، ان الله تعالى قد يوحي الى أنبيائه ورسله في المنام ما هو في حُلَل المجازات والاستعارات والتمثيلات ، ونظائره كثيرة ، وشواهده متوفرة ، منها ما جاء في حديث أنس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : « رأيت ذات ليلة فيما يراه النائم كأنا في دار عُقْبة بن رافع ؛ فأُتِينا برطب من رطب ابن طاب ؛ فأولت أن الرفعة لنا في الدنيا ، والعاقبة في الآخرة ، وأن ديننا قد طاب » ، وعليه فالعلة هنا مجاز عن ضعف المعنويات ، أي قلة الكم مجاز عن قلة الكيف ، كما يرى الإنسان في منامه حية وهي كناية عن العدوّ ، ويرى أن فلاناً مات ، وهو كناية عن قلة دينه ، وهلم جرا ، ولو تتبعنا كتب تفسير الأحلام لوجدنا جميع المنامات التي يراها الناس هي من هذا القبيل ، نعم وربما وقعت الرؤيا للأنبياء صريحة وربما وقعت لهم من باب التمثيل ، والخلاصة أن مدار انتقاد المنتقد السابق على تحتم أن تكون رؤيا الأنبياء صريحة دائماً ، ومدار جوابنا على جواز أن تكون رؤياهم في بعض الأحيان من قبيل التمثيل ، وعلى كل حال ، ففرق عظيم بين رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورؤيا غيرهم من الناس ، ومن لم يفرق بين الرؤييين ، فهو كمن لم يفرق بين التُوم والثُوم [1] .

---

(١) (التوم جمع تومة وهي اللؤلؤة والثوم معروف) قاموس .

الرؤيا عند النصارى

الكلمة الثانية : ـ أحوج الناس الى اعتبار المرائي المنامية وتصديقها هم النصارى، وذلك لأنهم يقولون: إن يوسف النجار خطيب السيدة مريم اتهمها لما رآها حبلى وأراد تخليتها سراً، ولكنه عدل عن ذلك بما رآه في النوم من الرؤيا المنامية التي نفت عنها الفاحشة والتهمة الكاذبة، فهذه الرؤيا التي رآها في نومه هي التكأة الكبرى والدعامة الوحيدة التي استند اليها يوسف النجار في براءة السيدة مريم مما اتهمها به، مع أن يوسف عندهم ليس بنبي يوحى اليه، وغايته أنه رجل صالح من صالحي بني إسرائيل، وهذه الحكاية عندهم مسطورة في سفر متى هكذا : (لما كانت مريم أُمّهُ مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس، فيوسف رجلُها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو مفتكر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً : يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس) (مت ١ : ١٨ ـ ٢٠) فهذا المنام الذي دفع التهمة عن السيدة مريم معتبر عند النصارى، وبناء عليه فجميع المرائي المنامية يجب أن تكون عندهم في محل الاعتبار، وأما قول شراح الإنجيل وغيرهم من المسيحيين : لم يبق بعد المسيح لزوم لإعلان الله إرادته للناس في النوم وليس من احتياج لذلك، فهو دعوى مجردة عن البرهان ولا يؤيدها العقل، بل إن صدق ألوف الألوف من المرائي المنامية التي رآها ويراها الناس بعد المسيح يناقض هذه الدعوى .

الرؤيا المنامية لا تحرم حلالا ولا تحل حراماً

الكلمة الثالثة ـ الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقاً ، فهي لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً ولا يترتب عليها حكم شرعي ، وقد حكي أن رجلا صالحاً فقيراً رأى رؤيا أن النبي ﷺ جاءه في نومه وقال له : (إن في موضع كذا ركازاً ، احضر وخذه ، ولا تؤد خمسه) فقام من نومه صباحاً ، وأخذ ما يقتضي لحفر الأرض ، فاطلع على الركاز ، فذهب إلى الشيخ عزالدين بن عبدالسلام يستفتيه في عدم إعطاء خمسه لبيت المال، حسب ما قال له النبي مناماً ، فقال له الشيخ عزالدين: يجب عليك أن تؤدي خمسه لبيت المال ، كما أفتانا النبي ﷺ يقظة ، وفتواه في اليقظة ، مقدمة على فتواه في المنام ، نعم إن رؤيا النبي حق ، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تماماً ، فلعله قال لك : (وأد خمسه لبيت المال) وأنت سمعته يقول (ولا تؤد خمسه) وهكذا قال الفقهاء : لو اختلف المسلمون في آخر يوم من شعبان ، هل غداً من رمضان أم لا ، ثم رأى رجل النبيّ في نومه ، وسمعه يقول له (إن غداً أول يوم من رمضان ، فصمه وأمر الناس بصيامه) ، لا يجب عليه صيامه ، ذلك لأن الرؤيا التي في المنام ، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية ، ولو كانت حقاً وصحيحة ، هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم ، وأما رؤى الأنبياء أنفسهم ، فهي وحي ، كما في اليقظة ، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف .

سمعني مرة القسيس الدكتور ستارلنغ المبشر البروتستانتي في بلدة غزة أقول نحو هذا الكلام فقال لي : (ومن هذا القبيل ما رويناه في سفر أعمال الرسل أن القديس بطرس رأى رؤيا وهو يصلي على السطح ، رأى أنه جاع كثيراً واشتهى

أن يأكل ، وبينما هم يهيئون له ، وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة ، ورأى ملحفة نازلة عليه، عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ، ومدلاة على الأرض مرسلة بحبال منوطة بأطرافها ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش ، والزحافات وطيور السماء ، وصار إليه صوت : (قم يا بطرس اذبح وكل) ـ فقال بطرس : (كلا يا رب ، لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً) فصار إليه أيضاً صوت ثانية : (ما طهره الله لا تدنسه أنت) ، قال القسيس المبشر : وبهذا ألغي التمييز بين الطاهر والنجس من المأكولات الحيوانية ، المذكورة في التوراة ، وكانت هذه الرؤيا في مدينة يافا ، (راجع أ ع ١٠ و ١١) تجد صحة ما قلت لك) .

فقلت للمبشر: (إن الرؤيا التي يترتب عليها حكم التحليل والتحريم ، إنما هي رؤيا الأنبياء المعصومين ، لأنها وحي ، وأما القديس بطرس فلا هو نبي ولا هو معصوم عندنا) ـ فأجابني : (لكن هو عندنا رسول من رسل المسيح ، ومعصوم لأنه لا يتكلم إلا بإلهام الروح القدس) ـ فقلت له : (لو كان معصوماً ولا يتكلم إلا بإلهام الروح القدس ، لما خاصمه في ذلك ونحوه قسم من النصارى ، ولكن المخاصمة وقعت كما ذكره في (أ ع ١١ ـ ٢) ، وتجد مخاصمات كثيرة بين التلاميذ في أحكام كثيرة ، تعسر الإحاطة بها ، ولكن أنت تعلمها من ملحقات الإنجيل) .

(رأيتُ)

ـ ٥ ـ

قال العلامة المصري :

لماذا لم ير يوسف (ع) رؤيا تدل على ما سيصيبه من شر

كانت قُدِّرت أشياء على يوسف لا بد منها ، وذلك مثل امتحانه بمراودة

امرأة العزيز إياه ، ثم نسبة المراودة إليه زوراً ، ثم اختباره ثانياً بالنسوة المصريات ثم سجنه ظلماً ، ولم ينذر بشيء من هذه الأشياء ، ولم يَرَ عنها في منامه ، ولكنه قُدرت له أشياء أخرى ، وذلك مثل سجود إخوته له ، واجتباء ربه إياه،وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه ، وهذا النوع قد بشر ببعضه مناماً،وبشر ببعضه الآخر بلسان أبيه يقظة ، ولماذا هذه التفرقة يا ترى ؟ أعني أنه لم ينذر بما سيصب عليه ، ولكنه بُشر بما سيصير له ، وجوابنا على ذلك أن الأفضل فيما كان من قبيل الخير أن يبشّر به الإنسان ويوعد به قبل حصوله له بالفعل ، وذلك لكي يتلذذ بالأمل بحصوله قبل أن يحصل له بالفعل ، وأما ما كان من قبيل الشر فالأوفق أن لا يشعر به أولاً لئلا يتنغص به قبل وقوعه ، وقد قيل : (الوقوع في الشر ولا انتظاره) .

(رأيت)

- ٦ -

قال عبد الملك الكردي [١]

رؤيا يوسف الحزم الأحد عشر

كان يوسف قبل ذلك رأى حلماً وهو ابن سبع سنين ، رآى نفسه واخوته في حقل وقد حزموا حزُماً ، وإذا حزمته قامت وانتصبت فاحاطتها حزُمهم، فكانت حزُمهم حوالي حزْمته كأعضاء مجلس حوالي رئيسهم ، أو كالدارة

---

(١) نسبة الى قوم الاكراد

حول الشمس أو الهالة حول القمر ، وحينئذ سجدت حزمتهم لحزمته ، وقد كان يوسف قص هذه الرؤيا على إخوته ، فلما سمعوها منه أحسوا كأنه صب ماء غالياً على ظهورهم وقالوا له : (ألعلك تَملك علينا ملكاً ، أم تتسلط علينا تسلطاً ؟) (تك ٣٧ : ٨) وازدادوا بغضاً له من أجل حُلمه ومن أجل كلامه .

(أحد عشر كوكباً)

- ١ -

قال الحاج أحمد اللاذقاني[٢] :

علو الرؤيا بعلو النفس

إن للنفوس الانسانية خصائص تتجلى في أعمال الإنسان وأقواله وقلمه ودرسه وأحلامه ، وحركاته وسكناته ، فلكل إنسان رؤيا تناسبه ، وأحلام توافقه ، وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على أخلاق الرائين ، فلذلك ولكون يوسف مُرّ النفس كبير المقام عالي التصور ، رأى النجوم وجمالها وسجودها له وخضوعها ؛ ثم لذلك ولكون (الريان بن الوليد مليك مصر) كان مهتماً بالشعب والرعية محباً لخير الأمة المصرية ، رأى في نومه البقر التي يكون عليها الحرث ويكون منها الدر ، ورأى سنابل الزرع التي يتوقف عليها نظام الحياة ، إذاً فالنفس ليست تتصور في المنام إلا ما تهتم به في اليقظة . ومن هنا قيل العلة الأصلية للأحلام هي همّ قديم أو حديث ، ومعظم الأحلام تتعلق بالهموم الحاضرة التي يفكر فيها صاحبها بالنهار ،

(٢) نسبة الى اللاذقية من بلاد الشام .

أو التي يمتنع عن التفكير فيها ، لأنه يكره عواقب الفكرة بها ، وقبل الختام فان كلمة (أحد عشر) لم تنزل في كتاب الله إلا مرة واحدة ، وهي التي ذكرت في مقام السجود ليوسف ، إكراماً له ، عليه الصلاة والسلام

(أحد عشر)

- ٢ -

قال العلامة البيروتي[1] :

قداسة عدد ١٢

وبيوسف تكون أولاد يعقوب اثني عشر ولداً ، وهذا العدد من الأعداد المقدسة ، التي تكررت في الأمور المهمة مراراً ، واليك بعض الشواهد :

١ - كون رسل المسيح عليه السلام الذين عينهم كانوا اثني عشر رسولاً وهم : بُطْرُس ، أنْدَراوُس أخوه ، يعقوب الكبير بن زَبَدِي ، أخوه يوحنا الانجيلي ابن زبدي ، فيلبّس ، بَرْثُولماوس ، توما ، متّى العَشّار ، يعقوب الصغير بن حِلْفِي ، أخوه لبّاوس ، سمعان الغيور ، يَهُوذا الأسْخَرْيُوطي الذي كفر بسيده فارتدّ ومات مرتداً ، كما في (مت ١٠ : ٢ - ٤) وخلفه متّيامس .

٢ - كون أولاد اسماعيل اثني عشر وهم : نَبايُوت ، قَيْدار ، أدَبْئيل ، مِبْسام ، مِشْماع ، دُوْمَة ، مَسّا ، حـداد ، تَيْما ، يطّور ، نافيش ، وقَدْمة (تك ٢٥ : ١٣ - ١٥) وكما صارت أولاد يعقوب اثني عشر سبطاً فكذا صار هؤلاء اثنتي عشر قبيلة .

---

(١) نسبة الى بيروت من بلاد الشام (لبنان)

٣ ـ كون كتبة الوحي القرآني ، اثني عشر وهم : عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، خالد بن سعيد ، أبان بن سعيد ، العلاءبن الحضرمي ، أُبَيّ بن كعب ، زيد بن ثابت ، مُعاذ بن جبل ، معاوية بن أبي سفيان ، حنظلة الأُسَيدي ، عبدالله ابن الأرقم وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وهذا الثاني عشر ارتد كما ارتد حواري عيسى الثاني عشر ، ولكن ابن أبي سرح عاد للاسلام وأما الحواري فبقي على ردته حتى مات .

٤ ـ كون عدد النقباء الذين ارسلهم موسى من قادش ليتجسّسُوا أرض كنعان ، وهي فلسطين ـ اثني عشر كما قال تعالى ﴿ وبعثنا منهم اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ (٥ : ١٣) ، وهم : شمُّوع ، شافاط ، كالُب بن يَفُنَّه : يَجْآل ، هُوشَع بن نون ، فلْطي ، جَدّيئيل ، جَدّي ، عَمّيئيل ، ستور ، نَحْبِي وجأوئيل (عد ١٣ : ٤ ـ ١٥)

٥ ـ كون أئمة آل البيت على رأي الشيعية الامامية اثني عشر ، وهم : محمد المهدي الحجة ، بن الحسن العسكري ، بن علي الهادي ، بن محمد الجواد ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن زين العابدين ابن السبط الحسين ، ثم أخوه السبط الحسن ، ثم أبوهما علي بن أبي طالب زوج الزهراء رضى الله عنهم .

٦ ـ كون البروج اثني عشر وهي : الحَمَل ، الثور ، الجوزاء ، السَّرَطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو والحوت .

٧ ـ كون أشهر السنة اثني عشر كما قال تعالى : ﴿ إنّ عِدّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثنا عشَر شَهراً في كتابِ اللهِ ﴾ (٩ : ٣٧) وهي : المحرم ، صفر ، ربيع الاول ربيع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة وذو الحجة .

٨ ـ كون العيون التي تفجرت لموسى والأسباط اثنتي عشرة عيناً ،ليكون لكل سبط عين يشرب منها : وذلك بضرب موسى الحجر حينما كانوا في قادش (عد ص ٣٠) .

٩ ـ كون عدد الاحجار التي حملها الاثنا عشر رجلاً من الاسباط الإسرائيلية ـ اثني عشر حجراً ، حملوها على أكتافهم من وسط نهر الأردن علامة على أن هذا النهر قد انفلق لهم ، وهم تحت قيادة يشوع بن نون ، كما انفلق لهم البحر بمصر وهم تحت قيادة موسى عليه السلام (راجع يش ٤ : ١ ـ ٩) .

١٠ ـ كون أقل عدد تصح به الجمعة عند مالك بن أنس (ض) هو اثني عشر رجلاً .

١١ ـ كون ولادة النبي (ﷺ) كانت ليلة اثني عشر من ربيع الأول ، حسبما هو مشهور .

١٢ ـ كون عدد الرجال الذين اجتمع معهم النبي (ﷺ) في العقبة لأول مرة فأسلموا ، وأرسلهم ليبلغوا أهل المدينة ـ كانوا اثني عشر رجلاً، وذلك في ابتداء سنة اثنتي عشرة من النبوة ، ثم كون عدد النقباء في الاجتماع عند العقبة لثاني مرة ـ اثني عشر نقيباً أيضاً ، وكان هذا آخر سنة اثنتي عشرة من النبوة !!!

١٣ ـ كون الإسراء والمعراج كان بعد النبوة باثنتي عشرة سنة، لأنه (ﷺ) نبيء وعمره أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ـ على ما حققه عصرينا الاستاذ الخضري في محاضراته ـ وكان الإسراء والمعراج حين بلغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ونصفاً .

١٤ ـ كونه (ﷺ) خرج في هجرته من قباء الى المدينة المنورة يوم ١٢ خلت من ربيع الأول سنة ٦٣٢ ب . م

١٥ ـ كون نقباء الدعوة العباسية أيام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ـ اثني عشر نقيباً ، وهم : سليمان بن كثير الخزاعي ، مالك بن الهيثم الخزاعي ، طلحة بن زريق الخزاعي ، عمر بن أعين الخزاعي ، عيسى بن أعين الخزاعي ، قحطبة بن شبيب الطائي ، لاهز بن قريظ التميمي ، موسى بن كعب التميمي ، القاسم بن مجاشع التميمي ، أبو داود خالد الشيباني ، أبو علي الهروي الحنفي ، وعمران بن إسماعيل المعيطي ، كما في محاضرات عصرينا الخضري .

١٦ ـ كذلك الذين بقوا ثابتين مع النبي (ﷺ) في غزوة أحد ، كانوا (١٢) رجلاً،وقد فر من عداهم من المسلمين.

١٧ ـ كذلك لم يبق مع النبي (ﷺ) حال خطبة يوم الجمعة حين جاء العير من الشام سوى (١٢) رجلاً .

١٨ ـ كانت مدة مرض المرأة التي استغاثت بالمسيح بنزف الدم ـ اثني عشرة سنة ، (وذلك أن المسيح عليه السلام بينما كان ماراً في الطريق إذا امرأة نازفة دم منذ اثنتي عشرة سنة ، قد جاءت من ورائه ومست هُدب ثوبه ، لأنها قالت في نفسها : إن مسست ثوبه فقط شُفيتُ ، فالتفت المسيح وأبصرها فقال : ثِقِي يا ابنة ، إيمانك قد شفاكِ ، فشفيت المرأة من تلك الساعة) (مت ٩ : ٢٠ ـ ٢٢) وكانت قد أنفقت كل مالها على الأطباء فلم تستفد شيئاً ، بل زادت مرضاً .

١٩ ـ كون ساعات النهار اثنتي عشرة ساعة ، هكذا أخذ اليهود قسمة النهار إلى اثني عشر جزءاً عن البابليين أيام سبيهم إياهم إلى بابل ، وظلوا على ذلك إلى يومنا هذا .

٢٠ ـ لما جاء الإسلام المدينة المنورة كان الذين يكتبون من الأوس والخزرج اثني عشر رجلاً فقط كما ذكره في فتوح البلدان .

٢١ ـ أتى القرآن الكريم على ذكر النخيل اثنتي عشرة مرة كما يعلم ذلك بالمراجعة .

٢٢ ـ سورة يوسف نفسها هي السور الثانية عشرة في ترتيب المصحف الشريف وهي السورة المذكورة فيها قصة الإخوة الاثني عشر .

٢٣ ـ كون الخلفاء في الإسلام اثني عشر خليفة ، ففي الصحيحين عن جابر ابن سمرة أن النبي ﷺ قال : (لا يزال هذا الأمر عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ولفظ البخاري اثني عشر أميراً ، وفي لفظ (لا يزال أمر الناس ماضياً ، ولهم اثنا عشر رجلاً)، وفي لفظ (لا يزال الإسلام عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ، وهكذا كان ، فكان الخلفاء هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ، ثم تولى من اجتمع الناس عليه ، وصار عز ومنعة ، وهو معاوية ، ثم عبدالملك وأولاده الأربعة ، وبينهم عمر بن عبدالعزيز ، فهولاء هم الإثنا عشر خليفة ، على ما فهمه جمع من العلماء ، وبعض العلماء لم يعد السبط الحسن (ص) لأن مدته كانت قليلة جداً ، لا تزيد عن ستة أشهر ، وكانت في اضطراب شديد ، ولم تكن له ولاية عامة ، وعد بدله (المهدي) من العباسيين ، الذي كان تتبع أهل البدع والزنادقة بقتلهم ، حتى اندفع بذلك شر كبير ، وكان فيه من تعظيم العلم والجهاد، ما كانت به دولته أحسن دولة العباسيين من جهة الدين ، حتى إن بعض العلماء حمل حديث المهدي ـ لو صح ـ عليه ، والله أعلم .

قال بعضهم وهؤلاء الاثنا عشرة خليفة هم المذكورون في التوراة حيث قال في بشارته بإسماعيل : (وسيلد اثني عشر عظيما).

أصوات من المستمعين

(مرحى) لله درك من واسع الاطلاع يا علامة بيروت !

(كوكباً)

-١-

قال ترجمان الحق الحموي (١) لي هاهنا كلمتان :

لماذا عبر عن اخوة يوسف بالكواكب

الكلمة الأولى ـ تقدم للأخ العلامة سليم الخانيونسي في الفصل الثاني من المقدمة أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وأنه أخذ موافقة جميع الأصوات على ذلك ، وعليه فإنما عُبر هنا عنهم (بالكواكب) ١ ـ لأنهم صاروا رؤساء الأسباط ، حيث صار كل سبط ينتسب إلى جده ، فيقال : سبط رأوبين ، سبط شمعون ، وهكذا إلخ ، ويقولون : الرأوبيون ، الشمعونيون ، اللاويون ، الخ فبذلك حصل لهم شهرة صاروا بها كالكواكب .

٢ ـ لأنهم في آخرة أمرهم اعترفوا بذنوبهم وتابوا إلى أخيهم وأبيهم وإلى الله فقُبلت توبتهم وصاروا من الصالحين حتى استأهلوا أن يكنى عنهم بالكواكب .

٣ ـ ليس كل كوكب مضيئاً كما بينه علماء الهيئة وأشار إليه أبو العلاء المعري بقوله :

وعلى الرجال معالِم ومجاهِل ومن النجوم غوامض ودراري

٤ ـ لو قلنا إنهم شبهوا بالكواكب المضيئة لجاز لنا أن نقول إن ضوءهم إنما هو مكتسب من

(١) نسبة الى حماه من بلاد الشام

نسبتهم لأبيهم الشمس ومن أخيهم يوسف المسجود له من الشمس ، كما إن نور النجوم مستفـاد من نور الشمس ، هذا ما يجب أن يقال في هذا المقام ، لا أقل ولا أكثر .

ولو كان التعبير بالكواكب يقتضي النبوة لكانت راحيل أم يوسف نبيـة حيث عُبر عنها بالقمر ، فالاستدلال على نبوتهم بمثل هذه اللفظـة هو من قبيل التشيع للمذاهب والآراء، فالإنسان إذا خامره التشيع لرأي أو نحلة ، استدل عليه بما لا يفيـد إلا العناء ، وتعلق بحبال الهوى أو الهواء .

الكلمة الثانية ـ إنه يغلب على ظننا أن هذه الكواكب كانت (سيارة) ، وهكذا كان حال إخوة يوسف الأحد عشر ، فإنهم سيارون ، كانوا ساروا مع أبيهم من العراق إلى سورية ، ثم إلى فلسطين، ثم للديار المصرية ، رحلوا إليها اربع رحلات ، هذا ما ظهر لي الآن والسلام عليكم .

(والشمس والقمر)

- ١ -

قال شيخنا العلامة الحلي (١) :

التعبير عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر

الشمس أبوه ، والقمر أمه ، كذا أولوه ، وعندي إنه وجيه من وجوه :

١ ـ إن القمر مقتطع ومقتبس من الشمس ، بواسطة اقتطاعه من الأرض

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق

المقتطعة من الشمس ، كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَروا أنّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ﴾ (٢١ : ٣٠) وقال تعالى : ﴿ وانشَقّ القمرُ ﴾ (٥٤ : ١) أي من الأرض ، فالآية ترمز لهذا المعنى ، زيادة عن المعنى الأصلي ، وهو انشقاقه معجزة لخاتم الأنبياء ﷺ ، فهذا الوجه يناسب ما شاع من أن المرأة الأولى مخلوقة من الإنسان الأول .

٢ ـ ثبت فناً أن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما أن عيشة المرأة وقوام حياتها عائدة عليها من سعي الرجل وإنفاقه .

٣ ـ إن كلمة (قمر) تشعر بالمقامرة ، وهي الملاعبة والتحيل والمراوغة ، وهذه هي أخص صفات المرأة . وأما كلمة شمس فهي تشعر بالشموس وهو المنع والقوة ، يقال شمس الفرس يَشْمُسُ ، فهو شموس ، ورجل شموس أي صعب الخلق وهذه المعاني تناسب الرجل .

٤ ـ سلطان القمر بالليل ، وسلطان الشمس بالنهار ، وذلك في مقابلة أن سلطان المرأة يكون ليلاً ... وسلطان الرجل يكون نهاراً بالأتعاب والعمل وتحصيل الفوائد .

٥ ـ من أسباب تأويل الشمس بيعقوب أنه رئيس العائلة التي تحف به وتعتمد عليه ، كما أن الشمس هي مركز النظام الشمسي ، وأن السيارات السابحة في سمواتها ومداراتها تحتف بالشمس وتدور حولها من كل جانب ، ومن جملة تلك السيارات القمر نفسه ، فهو معتمد على الشمس ، كما من أسباب تأويل القمر بالمرأة أن المرأة تعتمد في قوام حياتها وأسباب معيشتها وراحتها على رجلها بما فضله الله به ، وبما ينفقه عليها من أتعابه وعرق جبينه .

٦ ـ إن القمر أضعف نوراً من الشمس ، كما إن المرأة أضعف من الرجل ، وإشارة إلى هذا الضعف فيها وتلك القوة في الرجل يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ القمرَ فيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشمسَ سِراجاً ﴾ (٧١ : ١٦) ، عبر عن الشمس بالسراج ، ولفظ السراج يحضر في النفس شعاعه المتقد ، فكأنه نور منبعث من نار ، وأيضاً فإن القمر نور محض يكاد أن يكون بارداً ، بخلاف الشمس فإنها تجمع إلى النور الحرارة ، فلهذا عبر عن الرجل بالشمس ، وعن المرأة بالقمر .

٧ ـ إن بعض الأمم العتيقة كانت تعتقد أن الشمس ذكر والقمر أنثى والنجوم تولدت من زواجهما .　　بخ ، بخ

(والشمس والقمر)

ـ ٢ ـ

قال الامام الزقازيقي [1] :

من هو المقصود بالقمر في رؤيا يوسف

قيل إن هذا القمر هي أمه الحقيقية راحيل ، وإنها كانت حية بدليل ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ (ع٩٩) ﴿ ورَفَعَ أبَوَيهِ على العرشِ ﴾ (ع ١٠٠) واللفظ متى أطلق انصرف لمعناه الحقيقي ، واستدرك عليه بأن التاريخ يثبت صريحاً أن أمه راحيل كانت ماتت وعمره عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ، وقد أجمع أهل التاريخ على أن والدته راحيل لم تسافر لمصر ولم تسجد له ، بل

(١) نسبة الى الزقازيق من بلاد القطر المصري

اتفقوا على انها لم تكن موجودة حينما رآى يوسف هذه الرؤيا ، فلذلك يجب تأويل « القمر » بخالته « ليئة » شقيقة أمه ، واستدرك عليه بأن خالته ليئة ماتت ودفنت في مغارة المكفيلة (تك ٤٩ : ٣١) أى الغار الشريف في حبرون قبلما رحلوا لمصر وهذا أيضاً مجمع عليه بين المؤرخين ، فلذلك قيل : إن القمر أمه المجازية التي هي « بلهة » جارية والدته وهي أيضاً كافلته ومربيته بعد موت أمّه ، حيث انتقل لخيمتها وصار هو وأخوه بنيامين ينامان فيها تحت نظر تلك الجارية ، وكانت تعطف عليه وعلى أخيه بنيامين عطف الأم الرؤوم على ولدها ، وهذا القول الثالث هو المنصور ، وقد سمى النبي (ﷺ) حاضنته « بركة الحبشية » أماً ، إذ قال يوماً للصحابة : « هذه أمي بعد أمي » ؛ وأما القول الأول فهو في غاية الضعف ، والدليل على ذلك زيادة عما قاله المؤرخون أنها لم تذكر في تضاعيف القصة ، ولعمري لو كانت حية لذكرت في بعض المواضع ، لا سيما عند استئذانهم أباهم في أخذه معهم ليرتع ويلعب ، أو عند نعيهم يوسف لأبيهم ، أو عند طلبهم لإرسال بنيامين لمصر ، أو عند رجوعهم من مصر وقولهم لأبيهم : ﴿ إنَّ ابنَكَ سَرَقَ ﴾ (ع ٨١) — ولعمري لو كانت حية لكان يوسف اجتهد على مجيئها لمصر أكثر جداً من اجتهاده على مجيء بنيامين ، ولكان يوسف يقول : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأمه ؟ ، لأنها تتأثر أكثر مما يتأثر ابنها بنيامين ، وأخيراً لعمري لو كانت حية بقيد الحياة لنقل عنها أنها قالت : « يا ألف أسفاً على يوسف » ، ولكانت أرسلت بدل الدمع دماً ، حقاً إن عدم ذكر أمه في هذه المواضع وأشباهها لهو دليل ناصع على موتها قبل هذه الحوادث .

هذه هي كلماتي الهاتفية في هذا الموضوع . (مرحى)

(والشمس والقمر)

- ٣ -

قال الحاج سميح المكي :

هل سجد أبوا يوسف له

يجوز أن تكون الواو عاطفة في « والشمس والقمر »، وعليه فالشمس والقمر من جملة الساجدين ، وهذا هو المشهور المتبادر ، ويجوز أن تكون بمعنى « مع » وهي واو المعية ، فهو منصوب على إنه مفعول معه ، وعليه فالشمس والقمر لم يكونا ساجدين ، بل كانا مصاحبين للمسجود له أو للساجدين ، حين السجود ، أي كانا حاضرين وقت سجود الأحد عشر كوكباً ، والمعنى : « كنت مصاحباً للشمس والقمر وقت رؤياي الأحد عشر كوكباً ساجدة لي ، أو كانت الكواكب الأحد عشر مصاحبة للشمس والقمر حين سجودها لي » .

ونظيره قولك : أبصرت ثلاثة فرسانٍ والجبَلَ مسرعينَ في العَدْوِ ، فليس الجبل مشاركاً للفرسان في العدو ، وإنما هو مصاحب لها حين عَدْوها .

وقد ينتصر هذا الاحتمال الثاني بأن مقام الأبوة كالأمومة أرفع من أن يناط به السجود للابن ، لأن الشرائع جميعها ترفع شأن الأب لدرجة سامية جداً ، بحيث تكاد أن تساويه بالله تعالى ، الذي يجل عن المساوي والمداني ، انظروا قوله تعالى: ﴿ أنِ اشكُرْ لي ولوالِدَيْكَ ﴾ (٣١ : ١٤) وقوله تعالى: ﴿ وقَضَى ربكَ أنْ لا تَعبُدوا إلاّ إيّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحساناً ﴾ (١٧ : ١٦) ،

﴿ واعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالديْن إحساناً ﴾ (٤ : ٣٥)، ﴿ واخفِضْ لهما جَناحَ الذلِّ ﴾ (١٧ : ٢٤) .

وفي سفر اللاويين (من جدَّف على اسم الرب فانه يُقتل) (لا ٢٤ : ١٦) و (كل إنسان سب أباه أو أمّه فإنه يقتل) (لا ٢٠ : ٩) .

ثم إنه في آخر القصة يفيد أن أبويه لم يسجدا له ، قال تعالى : ﴿ورفَعَ أبويه على العَرْشِ وخَرّوا له سُجَّداً ﴾ (ع ١٠٠) فهكذايكاد يكون صريحاً في أن الساجدين هم الإخوة فقط ، وأما أبواه فعوضاً عن أن يسجدا له رُفِعا على العرش.

ثم إن يوسف في رؤياه الأولى وهي سجود الحزم الأحد عشر التي نقلها المفسرون والمؤرخون عن وهب بن منبّه ، وهي مذكورة بالصراحة في سفر التكوين (تك ٣٧ : ٥ ـ ٨) ، ـ هذه الحادثة لم يذكر فيها سجود أبويه ،ولكن إخوته فقط ، والأصل اتحاد مضمون الرؤيين، كما اتحد مضمون رؤيي ملك مصر وهي البقرات والسنابل ، فإن مآلهما واحد ، لاتزيد رؤيا عن رؤيا شيئاً ، ولذلك لما ورد في سفر التكوين أن الإخوة الأحد عشر سجدوا ليوسف مرتين (تك ٤٣ : ٢٦ و ٤٤ : ١٤) لم يذكر سجود أبويه معهم ، لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية .

والحاصل أن رؤيا يوسف الأولى تأولت حين لم يكن أبوهم وأمهم حاضرين معهم ، فلذلك لم يذكرا ، وأما رؤيا يوسف الثانيةفتأولت وقد كان أبواه حاضرين مع الإخوة فلذلك ذكرا ، هذا هو تحقيق المقام .

(تصفيق حاد متواصل) •

(رأيتهم لي ساجدين)

- ١ -

قال الاستاذ المدني[١] :

التطرية في القرآن

قوله « رأيت » في أول الآية و « رأيتهم » في آخرها أعيد على سبيل التطرية، للطول بالمفاعيل ، وهذه الطريقة معهودة ومألوفة في كلام العرب ، وفي كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

(١) ـ ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الذينَ مِنْ بعْدِهِم، مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ ، ولكن اخْتَلَفُوا ، فمنهم مَنْ آمَنَ ، ومنهم مَنْ كفَرَ ـ ولَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا ، ولكنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ ﴾ (٢ : ١٥٣) .

(٢) ـ ما في قوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحُونَ بما أَتَوْا ، ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدوا بما لمْ يَفْعَلوا ـ فلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ ﴾ (٣ : ١٨٨) .

(٣) ـ ما في قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أنتَ وأخوكَ بآياتي ولا تَنِيا في ذِكْرِي ـ اذْهَبا الى فرعونَ إنه طَغَى ﴾ (٢٠ : ٤٢ و ٤٣) .

(٤) ـ ما في قوله تعالى : ﴿ أيَعِدُكُم أنَّكُم إذا مِتّمْ وكنتم تُراباً وعظاماً ـ أنكم مُخْرَجُون ؟ ﴾ (٢٣ : ٣٥) .

---

(١) نسبة الى بلدة المدينة المنوره

(٥) ـ ما في قوله تعالى: ﴿ قُلنا اهبِطوا بَعضُكُم لبعضٍ عَدُوٌّ، ولكم في الأرضِ مُستَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حين، فتلقى آدمُ من ربِّه كَلِماتٍ فتابَ عليه إنه هُوَ التوابُ الرحيمُ ـ قُلنا اهبِطوا منها جميعاً، فإمّا يأتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدىً، فمن تَبِعَ هُدايَ .. الخ ﴾ (٢ : ٣٦ ـ ٦٨) .

(٦) ـ ما في قوله تعالى: ﴿ أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرضِ، هُمْ يُنشِرون؟ لو كان فيهما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا، فسبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عما يَصِفُون، لا يُسألُ عمّا يَفعَلُ وهمْ يُسألون، ـ أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهةً؟ قلْ: هاتُوا بُرهانَكم، هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وذِكْرُ مَنْ قَبلِي، بَلْ أكثَرُهُم لا يَعلَمونَ الحقَّ، فَهُمْ مُعرِضونَ ﴾ (٢١ : ٢١ ـ ٢٤) .

(٧) ـ ما في قوله: ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ، ولا على الأعرجِ حَرَجٌ، ولا على المريضِ حرجٌ، ولا على أنفُسِكُم أنْ تأكُلوا مِنْ بيوتِكُم، أو بيوتِ آبائِكم، أو بيوتِ أمَّهاتِكم، أو بيوتِ إخوانِكم، أو بيوتِ أخَواتِكم، أو بيوتِ أعمامِكم أو بيوت عماتِكم، أو بيوتِ أخوالِكم، أو بيوتِ خالاتِكم، أو ما ملَكْتُم مَفاتِحَهُ، أو صَديقِكم ـ ليس عليكم جُناحٌ أنْ تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ (٢٤ : ٦١).

الى غير ذلك من الشواهد القرآنية التي تربو على خمسة عشر موضعاً فيما يراه العبد الحقير، وقد نبه على بعضها صاحبا الكشاف والانتصاف .

وبعد فأختم هذا المقال بالإعراب عن أسمى احتراماتي للاخوان الحاضرين، وتقديمي لهم تحياتي والسلام .

(ورأيتهم لي ساجدين)

- ٢ -

وقال الشيخ محمد بن صالح من علماء الطائف :

اعتراض ثم تسليم

سمع أبوه ذلك منه ، فأعظم هذه الرؤيا مبدئياً ، وأكبر هذا المنام ، فانتهره وقال له : (ماهذا الحُلم الذى حَلُمتَ ، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك نسجد لك الى الأرض ؟) (تك ٣٧ : ١٠) ، ما أنت وذاك ياغلام ! ثم سكت هنيهة يفتكر ، فثاب الى صوابه ورأى أن لامانع من ذلك : ﴿ قُل اللهمَّ مالِكَ المُلكِ ، تُؤتِي المُلكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تشاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ ، بيَدِكَ الخيرُ ، إنك على كلِ شيءٍ قديرٌ ﴾ (٣ : ٢٦) ﴿ ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم ﴾ (٥ : ٥٧) فاعتقد صدق كلام ولده وإمكانه ، وتنسّم فيه الخير وسلمّ له ، وتهلل وجهه سروراً ، لا يتهلل به إلا وجه أب لابنه حينما يسمع منه ما يعود على ولده بالخير فحَفِظَ الأمرَ حِفظَ تسليم وإذعان ، وصار له مِنَ المنتظرين .

(ورأيتهم لي ساجدين)

- ٣ -

وقال الشيخ ابن نصيف من علماء جدة :

معنى السجود

السجود التطامن ، وكل شيء ذل فقد سجد ، وسجد البعير : خفض رأسه

عند ركوعه ، وسجد الرجل وضع جبهته بالأرض ، وسجدانتصب في لغة طيىء، لأن انتصاب رجل أمام آخر خضوع له منه ، وكل هذه المعاني لغوية يجوز حمل الكلمة الشريفة ههنا على أي منها ، وأما السجود في الشرع فهو عبارة عن هيئة مخصوصة ، هذا مانتعلمه من معاجم اللغة .

لا تقص الرؤيا على العدو

آ(٥) ﴿ قالَ : يا بُنَيَّ ، لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخْوَتِكَ فَيَكيدُوا لَكَ كَيْداً ، إنَّ الشَّيْطانَ لِلانْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة فقام عبدالعظيم التركيوقال :

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً عالياً ، وكان يعلم كراهة إخوته العشرة له؛ فخاف عليه حسدهم وبغيهم ، فلذلك نصحه و (قال) له بلسان النصيحة ممزوجاً بالفرح والسرور ﴿يا بني لا تقصص رؤياك﴾ هذه ﴿ على ﴾ أحد من ﴿ إخوتك ﴾ العشرة ﴿ فيكيدوا ﴾ ـ منصوب بإضمار ﴿ إن ﴾ والمعنى إن قصصتها عليهم نصبوا ـ ﴿ لك كيداً ﴾ أي مكراً ، بسبب تسويل الشيطان لهم ، وإن واحداً من إخوتك أعرفه جيداً لهو شديد العداء لك فلا يحتاج في كيدك إلى أكثر من دعابة شيطان صغير من تلاميذ إبليس المبتدئين في صنعة الفساد ﴿ إن الشيطان ﴾ من قديم الزمان ﴿ للانسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة ، لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله : ﴿ لأقعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المستقيم ﴾ (٧ : ١٥) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ، ليورط

من يحمله ـ ولا يؤمن أن يحملهم ـ على مثله ، ومن هذه الوصية نعلم أن يوسف لم يكن ابناً فقط ليعقوب بل وتلميذاً أيضاً .

(قال: يا بُني ...) الخ

- ١ -

وقال سيدي أبو العباس من طرابلس الغرب :

نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه على اخوته

كان يوسف رأى قبلاً في منامه الحِزَم العشرة فقصها على إخوته ، فحسدوه، واغتاظوا منه ، وهو لو يعلم إنهم يغتاظون منه ما حكاها لهم ، ولكنه لصغر سنه، إذ كان ابن (١٢) سنة قصها عليهم ، والسذاجة الفطرية ظاهرة في وجهه ، وسلامة النيــة وطهارة القلب باديتان على لسانه ، وقد أصاب المصورون إذ شبهوا الأطفال بالملائكة ، فإنهم مثال الطهارة ، وعنوان صدق اللهجة ، ومرآة سلامة الضمير ، فهم لا يخفون عواطفهم ، ولا يكتمون ما في نفوسهم ، ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم ، حتى لقد اعتبر بعض الفقهاء شهادة الصبيان كقرينة على صدق الدعوى ، وإمارة على صحتها .

لذلك لما سمع يعقوب هذه الرؤيا ما عتّم أن نصحه قائلاً : (يا بابوس ، ليست رؤياك هذه مما لا يؤبه له ، بل هي ذات شأن ذي بال ، وأن الأمر جلل ، وأنا شيخ عركني الدهر وعركته ، وعلمتني التجارب)، ثم ظهرت على وجهه علامات الاهتمام يمازجها التكتم فقال بصوت منخفض : (أذكر يا بابوس إنك كنت رأيت الرؤيا الأولى ، فقصصتها على إخوتك ببساطة وسلامـــة قلب ، فحقدوا عليك

وحسدوك من حيث لا تشعر ، وكأني بك لفضاضة فتوتك ، وحداثة سنك ، لم تعلم من حسد إخوتك ما علمته هذه الشيبة ، ولم تعرف من حقدهم عليك ماعرفه أبوك الشيخ ، فالمرة الأولى انقضت ، وقد سبق السيف العذل ، فأما في هذه المرة وقد بلغت سن (١٧) سنة ،وحيث أن المؤمن لا ينبغي أن يجعل مجالاً لأن يلدغ من جحر مرتين ، فأرغب إليك أن لا تكاشف إخوتك بهذه الرؤيا ، بل ولا لغيرهم ، فإن السر متى تجاوز الاثنين شاع ، فلاتجعل هذا السر يتجاوز شفتيك هاتين بل اجعله تحت طي الكتمان) :

تحرز من صديقك كل يوم وبالأسرار لاتركن اليه

سلمتُ من العدو فما دهاني سوى من كان معتمدي عليه

(يا بابوس ، رؤياك هذه خير من حُمْر النَّعَم ، فاستعن على تحقيقها بكتمانها ، لاسيما عن إخوتك ، لأني لست آمن عليك من سَورتهم ، ومبادرتهم إياك بسوء إذ أبدت الحوادث السابقة ، وعلمت التجارب السالفه ، أنهم لايريدون لك الخير ، فهم ولاريب يعملون الحيلة ، ويدبرون المكيدة ، ويستنبطون الخدعة ، ويقدمون على الايقاع بك ، ويسرعون في بوارك ، هذه وصيتي اليك فلا تُغفِلْها ، أقول ذلك والأسف ملء فوادي ، لأنه كان يجب أن لا يكون بين الإخوة أدنى عداء ، ولكن هكذا اقتضت الظروف ، لأمر يعلمه الله تعالى ، وإنه والله ليعزّ عليّ تحذيرك من إخوتك ، لولا أن الخوف منهم أمر واقع ، ولولا إن حسدهم لك أمر محسوس ، يكاد يلمس باليد ، ولولا أنه يجب على العاقل الاحتراس والأخذ في أسباب الحيطة والتوقي من المكروه ، ما كنت لفظت أمامك من هذا القبيل ببنت شفة).

هذا مرمى كلام يعقوب لولده ، وههنا نتذكر قول أبي العلاء المعري :

خَفْ من تودّ كما تخاف معاديا وتمارَ فيمن ليس فيه تماري
فالرّزءُ يبعثه القريبُ ومادرى مُضَرٌ بما تجني يدا أنمار [1]

« مرحى »

(يابُنَيَّ)

- ٢ -

قال العلامة الحلبي [2] :

التصغير في اللغة وأنواعه

من سنن العرب تصغير الشيء على وجوه : فمنها تصغير تحقير كقولهم : رُجَيْل ودُوَيْره ، ومنها تصغير تكبير كقول الأنصاري : أنا جُذَيلُها المُحكّك ، وعُذَيقُها المُرَجّب ، ومنها تصغير تنقيص كقولهم : لم يبق من بني فلان إلا بُيَيْت ، ومنها تصغير تقريب كقولك : جاءني فلان قُبَيْل الظهر ، ومنها تصغير استعذاب كما قال :

ما قلتُ حُبَيّبي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

ومنها تصغير إكرام ورحمة كقولهم : يا أُخيّ ويا أُخيّة ، ويابُنَيَّ ويابُنَيّة ، ومافي الآية من هذا القبيل ، ربما يقال صغره هنا ليبين له أنه صغير فمن جهة يستحق أن يشفق عليه ويرحم ومن جهة أخرى ينبغي له أن يسمع ما سيلقى عليه من الوصية الأبوية الصادرة من فم شيخ مجرّب مُحَنّك .

---

(١) أنمار فقأ عين أخيه مضر وهرب

(٢) نسبة الى بلدة حلب من بلاد الشام (سوريا)

(يابني)

- ٣ -

قال الفاضل المقدسي [١] :

الحكم المقتبسة من الآية

نتعلم من هذه الآية الأمور الآتية :

١ ـ انه ينبغي للأب أن يدلي بالنصح لابنه ، ويحذره ممن يظن أنهم ربما يؤذونه ولو كانوا أقاربه .

٢ ـ انه يجب لذوي الفضل ان لا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد شراً .

٣ ـ ان الاخوة ربما اتفقوا كلهم على إيذاء أخ واحد من بينهم فيجب للانسان أن يكون على حذر من كل الناس .

٤ ـ ان للشيطان سلطة على كل الناس حتى أولاد الأنبياء ، حاشا الأنبياء أنفسهم .

٥ ـ إن تعدد الزوجات ربما أثار عداءً ينتشر من الضرائر الى أولادهن .

٦ ـ ان أهل الفضل والنبل مُحَسَّدون من قديم الزمان .

٧ ـ ان الحسد قد يقع ممن هم في سن الشيوخ لمن هو في سن الفتيان الصغار ، لأن سن رأوبين مثلاً كان عند هذه الحادثة على أقل تقدير (٣٦) سنة ، وهكذا يقال في شمعون ولاوي ويهوذا وسواهم بما هو المناسب ، ولكن يوسف كان عمره على أكثر الروايات (١٧) سنة .

---

(١) نسبة الى بيت المقدس في فلسطين

(يابني)

- ٤ -

قال المحقق البلبيسي [١] :

خطاب الاستعطاف بين الأقرباء

خاطب يعقوب يوسف بذلك تحريكاً لسلسلة النسب وتذكيراً برابطة البنوة وإرشاداً لما على الابن من وجوب سماع نصيحة الأب ، ونظيره ما في قول لقمان لابنه : ﴿ يابُنيَّ لاتُشْرِكْ باللهِ ، إنَّ الشِركَ لَظُلْمٌ عظيمٌ ـ الى أن يقول ـ يابُنيَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبةٍ من خردلٍ فتكُنْ في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها اللهُ ، إنَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ، يابُني أقِمْ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر ، واصبِرْ على ماأصابَكَ ، إنذلكَ من عزمِ الأمور ﴾ (٣١ : ١٣ - ١٧)

ثم مافي قول ابراهيم لولده الذبيح اسماعيل : ﴿ يابُنيَّ إني أرَى في المنامِ أني أذبَحُكَ ، فانظُرْ ماذا تَرى ؟ قال يا أبَتِ افعَل ما تُؤْمر ، ستَجِدُني إن شاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ (٣٧ : ١٠٢)

ثم مافي قول يعقوب لأولاده وهو في شرقية مصر إذحضرته الوفاة: ﴿ يابُنيَّ إنَّ اللهَ اصطفى لكم الدِّينَ ، فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمونَ ﴾ (٢ : ١٣٢)

ثم مافي قول إبراهيم لوالده آزَرَ : ﴿ يا أبتِ ، لِمَ تعبُدُ مالايَسمعُ ولايُبصِرُ ولايُغني عنكَ شيئاً الخ ﴾ (١٩ : ٤٥) وبالعكس ماصدر من

---

(١) نسبة الى بلبيس من بلاد مصر

آزرَ لابنـه إذ ﴿ قال : أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم ؟! لئِنْ لمْ تَنتَهِ لأرجُمَنّكَ .. واهجرني مليّاً ﴾ (١٩ : ٤٦) .

ثم ما في قول هرون وهو يخاطب أخاه ويستعطفه إذ ﴿ قال : أبنَ أمَّ ، إنَّ القومَ استَضْعَفُوني وكادوا يقتلونني،فلا تُشمِتْ بِيَ الأعداءَ ، ولا تجعلْني من القومِ الظالمين ﴾ (٧ : ١٤٩) وبعكسه خطاب أخيـه موسى له إذ ﴿ قال يا هرونُ ما منَعكَ إذْ رأيتَهُم ضلّوا ألاّ تَتّبِعَنِ ، أفعصَيْتَ أمْري ؟ ﴾ (٢٠ : ٩٢ و ٩٣) ، فموسى خاطب أخاه باسمه الشخصي ، ولم يرد أن يخاطبه باسم « الأخ » مع إن هرون أكبر منه بأربع سنين ، لأنه متكدر منه أيمّا كدر ، وأما هرون فخاطب موسى بابنَ أمه ، ليذكره برابطة الأخوة ، ويحرك منه سلسلة انتسابه اليه ، كي يتحنن ويعطف عليه .

(لا تقصص)

– ١ –

قال الشمس التبريزي :[1]

بعض العداءات التاريخية التي تشبه عداء اخوة يوسف له

كأني بسيدنا يعقوب كان في تلك الساعة يمشط لحيته الشريفة بأصابعـه ، ويفتكر في مصداق هذه الرؤيا وفخامتها وقد صار بـين عاملين ، الأول ترك تحذير يوسف لئلا يكون ذلك حاملاً له على كرههم ، في الوقت الذي هو فيه خالي الذهن

(١) نسبة الى تبريز من بلاد فارس (ايران)

من كل كراهة ، والعامل الثاني الرمز اليه بعداء إخوته له ليحذرهم ، ويتحفظ من غوائلهم ، والنصيحة من الإيمان ، وبعد التفكير العميق فضّل الجري مع العامل الثاني ، لا سيما وقد يكون يوسف عرف شيئاً من حسد إخوته له من قبل، فإن أباه كان أحبه أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصاً ملوناً ، فلما رآى إخوته أن أباه أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، لا سيما وقد حَلِم حلماً وأخبر به إخوته ، فازدادوا بغضاً له ، وصاروا ينظرون اليه نظرات الحقد الموجدة ، ويسمونه مرة « الولد المغرور » ويدعونه مرة « صاحب الأحلام » يذكرون ذلك استهانة به على سبيل التهكم ، وكانوا يرقبونه ليوقعوا به ، وكم كان حكى معهم أبوهم ووعظهم بأنه فتى صغير لا ينبغي لإخوة مثلهم كبار أن يجمعوا كيدهم ، ويتفقوا على إغاظته ، ولكن ـ مع الأسف ـ لم ينجع فيهم كلامه ووعظه ، ولم يقع في نفوسهم :

إنما تنجع المقالة في المر ... ء إذا صادفت هوى في الفؤاد
وإذا الحلم لم يكن في طباع ... لم يُحَلِّمْ تقدمُ الميلاد

(ابو العلاء المعري)

وهذا ما حدا بأبيه أن ينصح له بجعل هذا المنام الثاني تحت طي الكتمان

ثم نحن نعلم من التاريخ :

١ ـ حادثة قابين[1] وهابيل ولدي آدم من حواء ، فهما رغماً عن كونهما أخوين شقيقين ، ابنى أول نبي على وجه الأرض ، (فيما هو المشهور وعلى رأي الجمهور) ، فقد قتل أولهما ثانيهما .

٢ ـ نعلم العداء والخلاف الذي ظهر من ابن نوح ومن امرأة نوح له عليه السلام ، فابنه كان عملاً غير صالح ، ولم يحفظ لأبيه حق الأبوة ، وامرأته كانت

---

(١) ويسميه البعض بقابيل

منافقة خائنة ، كما أن زوجة لوط كتالك نفاقاً وخيـــانة (٦٦ : ١٠) ولم يحفظا لزوجيهما حق الزوجية .

٣ ـ نعلم إن آزر كان العدو الألد لولده إبراهيم عليه السلام .

٤ ـ نعلم من التاريخ ما حدث من غيرة ساراي من هاجر وولدهـا إسماعيل حتى الجأت إبراهيم عليه السلام لنقلهما الى جزيرة الحجاز .

٥ ـ نعلم من التاريخ ماذا صار من عيسو مع أخيه يعقوب من العداء الشديد ، حتى هرب يعقوب من وجهه للعراق ، فهذه الحوادث وأشباهها تجعل عداء اخوة يوسف له ليس بالأمر الغريب .

والخلاصة ، إننا نعلم يقيناً ان يعقوب ويوسف عليهما السلام كتما أمر هـــذه الرؤيا بتاتاً ، وبعد ذلك فهل بلغ خبرهـــا مسامع إخوته أم لا ؟ لنـــا أن نقول يحتمل أنه لم يبلغهم خبرهـا بالمرة ، وإنمـــا كرهوه واجتووه وألقوه في غيابة الجب ، لداعي الحسد والغيرة من جراء محبة أبيه له أكثر منهم ، ويجوز أن يكون بلغهم خبر هذه الرؤيا من بعض الخدم الذين سمعوا المحاورة التي جرت بين وأبيه حينما قص عليه رؤياه ، سمعوا ذلك ، ولم يكن يعقوب ولا يوسف يشعران بوجود أحـد من الخدم ، فحمل هذا الخادم خبر رؤيا يوسف لإخوته ، فزادوا له بغضاً على بغض .

(لا تقصص .. الخ)

– ٢ –

قال استاذنا سعيد الدمشقي العماري[1] :

وجوب اطاعة الابن للاب ـ الوصايا العشر في التوراة والقرآن

لجأ يوسف لأبيه ورجع اليه ليستطلع فكره ، ويعمل بما سيشير اليه ، فأوصاه

(١) نسبة الى حي العمارة في دمشق (سورية)

أن لا يطلع إخوته على رؤياه ، فصدع بأمر أبيه وعمل على إطاعته ، لأن إطاعة الابن للأب من أوكد الفرائض المقرونة بفرائض الله تعالى ، وقد جعلت من الوصايا العشر التي جاءت في التوراة وهي : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما ، مما في السماء من فوق ، وما في الارض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب آلهك اله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني وأصنع إحساناً الى ألوف من محبيّ وحافظي وصاياي، لا تنطق باسم الرب آلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً، احفظ يوم السبت لتقدسه.. أكرم أباك وأمك، كما أوصاك الرب الهك لكي تطول أيامك ، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب الهك، لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك) (تث٥: ٧-٢١) وقريب منه ما في (خر ٢٠: ٣-١٧) ونظيره عندنا الوصايا العشر المدرجة في قوله تعالى : ﴿ واعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً ، وبالوالدينِ إحساناً ، وبذي القُربى واليتامى والمساكينِ ، والجارِ ذي القُربى والجارِ الجُنُبِ (١) والصاحبِ بالجَنْبِ ، وابنِ السبيلِ ، وما ملكت أيمانُكم ، إنّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كان مختالاً فخوراً ﴾ (٤ : ٣٥) والوصايا العشر المنتظمة في قوله تعالى: ﴿ وإذْ قال لقمانُ لابنِه (وهو يَعِظُه): يابُنيَّ ، لا تُشرِكْ باللهِ، إنّ الشِّركَ لَظُلمٌ عظيم ، ووصّينا الإنسانَ بوالِدَيهِ ، حَمَلَتْه أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ ، وفِصالُهُ في عامَيْن : أنْ اشكُرْ لي ولوالِدَيْكَ ، اليَّ المصيرُ ، وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشرِكَ بي ، ما ليسَ لكَ به عِلمٌ ، فلا تُطِعْهُما ،

---

(١) وهو الجار الذي جاورك من قوم آخرين ، ليس من اهل الدار ولا من اهل النسب (اساس)

وصاحِبْهُما في الدّنيا معروفاً ، واتّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ اليّ ، ثم اليّ مَرجِعُكُم فأُنَبِّئُكُم بما كنتم تعملون ، يا بُنَيّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبّةٍ مِنْ خردلٍ ، فتكنْ في صخرةٍ ، أو في السموات ، أو في الأرضِ ، يأتِ بها اللهُ ، إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ، يا بُنيّ : أقِمَ الصلاةَ وأمُرْ بالمعروفِ ، وانْهَ عنِ المُنكَرِ ، واصبِرْ على ما أصابَكَ ، إنّ ذلك مِنَ عَزْمِ الأمورِ ، ولا تُصَعِّرْ خدّكَ للناسِ ، ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحاً ، إنّ اللهَ لا يُحِبّ كلّ مختالٍ فخورٍ ، واقصِدْ في مَشيِكَ ، واغْضُضْ من صوتِك ، إنّ أنكَرَ الأصواتِ لَصوتُ الحميرِ ﴾ ((٣١ : ١٣ ـ ١٩ .

(اخوتك)

ـ ١ ـ

قال الشهاب احمد من علماء سنغافورة [١] :

المناوئون ليوسف من اخوته ـ التنافس بينهم

لو قال قائل : أراد من كلمة « اخوتك » الاخوة المناوئين له المتألبين عليه الذين كان يرأسهم شمعون ، فليس منهم بنيامين قطعاً كما هو واضح ، بل ولا رأوبين ولا يهوذا على الراجح ، ولكن يظهر انه أراد عموم الإخوة العشرة إجمالاً ، سداً لبــــاب الفساد بالمرة ، وطرداً للكلام على وتيرة واحدة ، لأن الوقت ليس وقت تفصيل ولا تشريح .

هذا واننا نعلم من التاريخ ، ومن قرائن الأحوال انه كان يوجد شيء من

(١) سنغافورة احدى مدن شبه جزيرة مالاقا في الهند الصينية .

التنافس والتناظر بين إخوة يوسف العشرة الكبار ، وانـه لم يكن بعضهم مخلصا لبعض ، كيف وليسوا كلهم من أم واحدة ، بل كان رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويسّاكر وزبولون من أمّ وهي « ليئة » وكان دان ونفتالى من أمّ اخرى هي « بلهة » وكان جاد واشير من أم ثالثة هي « زلفة » كما كان يوسف وبنيامين من أم هي « راحيل » ، فالعشرة الأولى الكبار لم يكونوا من أم واحـــدة ، ولم تكن ميولهم وعواطفهم واحدة ، وبالتالي لم يكونوا متفقي الكلمة ، ولم يكونوا يداً واحدة ، ولا على قلب واحد ، ولكن جرت العادة أن الأعداء يتصالحون إذا أصيبوا جميعـــاً بمصيبة نزلت على رؤوسهم ، وهؤلاء الإخوة العشرة اجتمعوا في مصيبة واحدة ، هي أن أباهم قد جعلهم في حبه إياهم في الدرجة الثانية ، وأحب يوسف وبنيامين في الدرجة الأولى ، فهذا ما جمع كلمتهم ، وألف نوعاً بينهم ، وجعلهم يشعرون بلزوم مصافاة بعضهم لبعض ، وذلك طبيعي في جسم العمران ، فالناس لا يزالون في خصام ونفار ، أو في تنافس وتناظر ، حتى يصيبهم سوء على السواء ، ويقعوا جميعاً تحت ردم واحد ، فتراهم قد تآلفت قلوبهم ، وأغضوا عن السوابق .

(فيكيدوا لك كيداً)

- ١ -

قال الشيخ مضيوف الحانوني (١) :

تعريف الكيد

أي يتكلمون معك بكلام حسن ، وهم في طيه يضمرون لك السوء ، ويفعلون

(١) نسبة الى بيت حانون من أعمال فلسطين .

ظاهراً الفعل الجميل ، وهم يرصدون لك الانتقام ، وهم أحرياء بذلك كله وأكثر:

فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت مخافة أن تكادا

« والكيد » بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدوّ له قويّ لا يقدر على مصارحته بالبطش ، ولا مصارعته بالانتقام ، فيظهر له رفقاً ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب له حبائل الشر حتى يرتطم فيها ، وربما استعمل « الكيد » في الضرر والإيذاء ولو علناً ظاهراً .

وبالحقيقة إن عمل اخوته معه كان بحسب مبدئه سرياً تحت طي الكتمان ، ولكنه بحسب غايته صار جهرياً ، فوق رؤوس الأشهاد .

و « الكيد » في اللغة يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، قال تعالى : ﴿ وأنّ اللهَ لا يَهْدي كَيْدَ الخائنينَ ﴾ (ع ٥٢) ،فخص الخائنين تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ، وقال تعالى : ﴿ أمْ يُريدونَ كَيْداً ، فالذين كفروا هُمُ المَكيدُونَ ﴾ (٥٢ : ٤٢) وسميت الحرب كيداً ، لما فيها من الاحتيال والاجتهاد ، ومنه حديث ابن عمر : «ان رسول الله (ﷺ) غزا غزوة كذا ، فرجع ولم يلق كيداً » أي حرباً ، سميت بذلك لما فيها من الختل والخديعة ، قال أبو العلاء المعري:

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله أقرب

(ان الشيطان .. الخ)

- ١ -

قال الدراكة الدمشقي[١] :

الشيطان عالم غيبي ضار بالانسان

عداوة الشيطان للانسان قديمة العهد ، فقد كانت منذ الانسان الأول ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُلنا يا آدمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ولِزَوجِكَ ﴾ (٢٠ : ١١٧) فلا يألوا الشيطان جهداً في مناصبته للانسان . وحمله على ما لا خير له فيه ، بل على ما فيه ضرر الانسان ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .

وقد ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خَلْقاً اسمه«الشيطان» أرغمَ اللهُ أنْفَهُ ، لا تدركه حواسنا ، له أثر في أنفسنا ، فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي « وِسواساً ونَزْغاً ومسّاً وتجربةً » ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وما أشبه هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم الخفية المادية — المسماة بالجراثيم (الميكروبات) — في الأجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا ربّ العالمين ، والناس يجهلون هذه النسم الخفية ، ويجهلون فعلها ، لعجز الأبصار عن إدراكها بنفسها ، وعن رؤية فعلها ، لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر ، الى أن اخترعت في هذا العصر المجاهر والنظارات المكبرة التي تريك الجسم أضعاف أضعاف جرمه ، فيها رؤيت ، وعُلم ما

---

(١) نسبة الى دمشق من بلاد الشام (سورية) .

يحدث بسببها ـ في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة ـ من التحول والتغير، كالاختمار والفساد وغيرهما، ومن الأمراض المُعْدية في الانسان والحيوان.

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسيم الأمراض بأجسادنا ـ أنْ نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج، وخروج الصحة عن الاعتدال، فنبادر الى علاجه، فمتى فطنّا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بالالتجاء الى الله سبحانه وتعالى.

(ان الشيطان .. الخ)

- ٢ -

قال السيد البصري [١] :

اطلاق لفظ الشيطان على العدو وبعض الاشخاص والجن والانس

المتبادر ان «الشيطان» ههنا بالمعنى المشهور المعروف، وهو إبليس وأعوانه، وقد يكون لفظ «الشيطان» ههنا عبارة عن أحد الأعداء، وإطلاق الشيطان على العدو معهود وكثير في كتب الدين وإليك بعض الشواهد:

(١) ـ قال تعالى: ﴿ وكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شياطِينَ الإنْس والجِنِّ ﴾ (٦ : ١١٢).

(٢) قال تعالى: ﴿ وإذْ زَيَّنَ لهُم الشيطانُ أعْمالَهمْ، وقال: لاغالِبَ لكم

(١) نسبة الى بلدة البصرة من القطر العراقي

اليومَ مِنَ الناسِ ، وإنيّ جارٌ لكم ، فلما تراءت الفئتانِ نكَصَ على عقبَيْهِ ، وقال : إنيّ بريءٌ منكُمْ ، إني أرى ما لا ترَوْنَ ، إني أخافُ اللهَ ، واللهُ شديدُ العقاب ﴾ (٨ : ٤٩) فالشيطان ههنا قال فريق إنه « سُراقَة » بن مالك الكناني الذي كان من أشرافهم .

(٣) ـ قال تعالى: ﴿ وإذا لَقُوا الذينَ آمنوا قالوا : آمنّا ، وإذا خَلَوْا الى شياطينِهم قالوا : إنّا معَكم ، إنما نحن مُستَهزِئون﴾ (٢ : ١٤) فشياطينهم هم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم من رؤساء العرب وكبرائهم .

(٤) قال تعالى : ﴿ ويُريد الشيطانُ أنْ يُضِلَّهم ضَلالاً بعيداً ﴾ (٤ : ٥٩) قيل هو « كعب » بن الأشرف ، كما اطلق عليه طاغوت في قوله تعالى: ﴿ ألَمْ ترَ الى الذينَ يزعُمون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ اليك ، وما أُنزِلَ مِنْ قبلِكَ ، يُريدون أنْ يتحاكموا الى الطاغوتِ ، وقد أُمِروا أنْ يَكْفُروا به!!﴾ (٤ : ٥٩) ، قيل إن هذا الطاغوت هو كعب بن الاشرف .

(٥) قال تعالى :﴿ الذي يُوَسْوِسُ في صدورِ الناسِ ، من الجِنَّةِ والناس﴾ (١١٤ ـ ٥ و ٦) فقوله من ﴿ الجِنَّةِ والناسِ ﴾ بيان للذي يوسوس ، أو بيان للوسواس الخناس ، فالموسوس قسمان : قسم الجن وقسم الناس ، ولا ريب إنه يطلق على كل منهما إذا وسوسا« شيطانٌ » .

(٦) قوله ﷺ: « المسافرُ شيطانٌ والمسافران شيطانان ، والثلاثة ركبٌ ».

(٧) قال (ﷺ) : « إنَّ الابلَ مخلوقةٌ من الشياطين » [1] هذا ما تيسر

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه بلفظ : « خلقت » وبزيادة : « وان وراء كل بعير شيطاناً » وهو ضعيف كما رمز له السيوطي لانه من رواية خالد بن معدان مرفوعاً فهو منقطع مرسل لان خالداً هذا تابعي .

للعبد الحقير أن يمليه على أسماعكم – ايهـــا السادة – فتأملوه فإني مستعد لإصلاح ما عسى أن يكون فيه . وسلفاً أشكركم .

(ان الشيطان . الخ)

– ٣ –

وقال العلامة الخليلي [١] :

الشيطان قوة غضبية او قوة ذميمة في الانسان

لقد ذهب « الغزالي » الى أن الشيطان القوة الغضبيـة التي في الإنسان ، وقال الراغب :« كل قوة ذميمة للانسان شيطان » ، ومنه قولهم :« ركب شيطانَه » إذا غضب ، « ونَزَعَ شيطانَه » أي كِبْرَه ، أو الشيطان كما قاله الجمهور : « هو من العوامل الخفية ، التي لا تحس » فعلى مـا قاله الغزالي والراغب ، هو من قبيـــل الداعية الداخليـة ، وعلى ما قاله الجمهور ، يكون الشيطان داعية خارجيـــة ، وهو الظاهر .

وقد ورد النهي عن خروج الصبيان في الليل ، لأنه وقت انتشار الشياطين ، فالشياطين هنا الأشرار من الناس ،الخبيثون من أهل الوسواس، وذلك كشياطين الأزبكية بمصر ، وشياطين شارع بغداد في دمشق وشياطين شـارع الرشيد في بغداد .. الخ ، فهؤلاء ينتشرون من بعـد الغروب وقبيل الغروب ، يفسد بعضهم بعضاً ، فنحث من يهمهم تربيـة أولادهم ، على منعهم من الخروج ، لئلا يفسدهم هؤلاء الشياطين .

---

(١) نسبة الى خليل الرحمن من بلاد فلسطين .

وأما عداء الشيطان المبين للانسان ، فلا يتعدى الإغراء والوسوسة ، وليس للشيطان من سلطان ، على الانسان بغير ذلك ، وتوضيح المقام يحتاج الى بسط في الكلام ، فمن كان له أذنان للسمع فليسمع :

أتى الاسلام ، والناس جميعاً ، واهمون في مسألة تأثير الشياطين ، ورسخ في عقول الامم كافة ، أن الأرواح الخبيثة ، مسلطة على الانسان بالاذى ، فإذا رأو مفلوجاً أو مشلولا أو مجنوناً أو أبكم أو أصم ، أو مصاباً بأي مرض آخر — نسبوا ذلك للشياطين ، فلذلك امتلأت قلوبهم رعباً منها ، وخافوا من الاماكن القديمة ، أو الخالية ، أو المظلمة ، أو من كب شيء على الأرض ، أو من دخول محال التفوط ، الى غير ذلك من الأوهام ، التي لا يزال أثرها في النساء ، خصوصاً نساء أهل مصر الى اليوم ، ويا ليت الأمر كان قاصراً على ما ذكر ، بل ظهرت نتيجة ذلك في أعمالهم ، وكانت سبباً في ضررهم ، ضرراً بليغاً ، فاذا أصيب أحدهم بمرض ما ، تداووا بالطلاسم ، وإيقاد البخور ، أو زيارة بعض القبور ، أو تعليق أوراق ، أو الاستنجاد براقٍ ، حتى يتمكن الداء وتستفحل العلة ، فلا يقوى الطبيب على استئصالها ، أو ايقاف سيرها ، ويموت الشخص ضحية الجهل والوهم ، هذا كان شأن الأمم ، في هذه المسألة ، وهذه كانت أفكارهم ، وكانت الأديان تأتيهم ، ولا تزيل عنهم هذه الخزعبلات ، المميتة للنفوس والأجسام بل ينسب الى رجال بعض الأديان ، أنهم اعترفوا بها ، وأيدوها تأييداً ، وأنهم نصوا على صحتها صريحاً ، فتجد أن كل صحيفة من كتبهم ، التي كتبوها كما يشاؤون وحسبما هو شائع في تلك العصور ، تدل على ان الشياطين ، هي علة هذه الأمراض ، كالصرع وأنواع الشلل ، والبكم والصمم ، وأنواع الجنون والمتاهة ، وغير ذلك ، مما عرفت أسباب أكثره العلوم الطبية الحديثة ، وما لم تعرفه قاسته على غيره ،

لوجود التشابه العظيم بينها ، ولشفاء بعضه باستعمال الملاجات المادية المحضة ، كالمواد الكيماوية ونحوها ،

أتى الإسلام والناس على تلك الحالة التوهمية ، فلم يشأ أن يتركهم وشأنهم ، يخبطون خبط العشواء ، في الليلة الدهناء ، بل أصلح هذه المسألة، كما أصلح غيرها، مما يميت النفس والجسم معـــاً ، صغيراً كان أو كبيراً ، وذلك بالإفصاح أن ليس للشيطان ، سبيل على الانسان ، إلا بالإغراء والوسوسة فقط ، قال تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ وما كانَ لي عليكم مِنْ سلطانٍ ، إلا أنْ دعوتكُمْ ، فاستجبتُم لي ، فلا تلوموني ، ولوموا أنفسَكم ﴾ (١٤ : ٢٢) وقال تعالى في خطابه للشيطان: ﴿ إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ ، إلا مَن اتبعكَ مِنَ الغاوين ﴾ (١٥ : ٤٢) الى غير ذلك من الآيات القرآنية ، التي تحصر سلطته في الوسوسة ، وتنفي عنه كل ما عداها ، وأما ماورد من قوله تعالى في حق المرابين: ﴿ لا يقومون الا كما يقومُ الذي يتخبطُهُ الشيطانُ منَ المَسِّ ﴾ (٢:٢٧٥) فهو على سبيل التمثيل والتشنيع ، الذي ورد مثله في كل لغة ، مهما كان اعتقاد قائله ، فهو على حد قوله تعالى في مقام آخر : ﴿ طلعُها كأنّه رؤوسُ الشياطينِ ﴾ (٣٧ : ٣٥) ، وتلك عبارة واحدة ، لم يَرد غيرها ، فليطالع القارىء « العهد العتيق » بل ليطالع « العهد الجديد » ، ليعلم الفرق بين ذينك الكتابين ، وبين القرآن المجيد .

بمثل هذه الحقائق التي قررها القرآن ، صار المسلم الحق ، لا يعبأ بالشيطان ، ولا يخشى منه أذى أو ضرراً ، إلا ما كان دعوة لشهوة أو نحوها ، مما يجب عليه فيه الاحتراس ، فلذلك إذا أصابه مرض ما ، لا يستشفي بقديس أو قسيس ، كما يفعل غيره ، بل يطلب الطب والدواء ، ويأتي البيوتَ من أبوابها ، فأعظِمْ بدين

الاسلام من دين ، لم يذكر مما يُعتَقَدُ الا أرجحه ، وأكبر بالقرآن من كتاب ، لم يهمل شيئاً فاسداً إلا أصلحه :

الله أكبر إن دين محمـــد
وكتـابـه أقوى وأقوم قيـــلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده
طلـــع الصباح فأطفأ القنديلا

وهنا أتذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن المبشر موسى القبطي ، قال لي : إنـه ورد عن نبيكم في بعض الأحاديث الصحيحة مامعناه : « أن ليس للشيطان على المسيح من سبيل ، حتى ولا بالنخس » ـ فقلت له : هذا صحيح ، ولكنه ورد لاجل الرد على من يقول منكم : إن الشيطان كان له سلطة على المسيح أن يُصعِدَهُ الى البرية ليُجرّب ، ثم يأخذه الى المدينة المقدسة ، ويوقِفَهُ على جناح الهيكل ، ثم يأخذه الى جبل عال (مت ٤ : ١ ـ ١٢) . فلاجل المحاماة عن شرف السيد المسيح ، عليه السلام ، ورد في حقه ذلك القول ، على انه لاخصوصية للسيد المسيح في ذلك ، فقد ورد مثله في حق بعض صحابة نبينا ﷺ ، وذلك مارواه الطبراني في الكبير وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «ان الشيطان لم يلق عمر منذ اسلم الا خرلوجهه» « وعن سعد بن ابي وقاص (رض) قال رسول الله ﷺ لعمر : والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك »[١] .

---

(١) من سيرة عمر بن الخطاب (رض) لابن الجوزي

(ان الشيطان ... الخ)

- ٤ -

قال الشيخ الموصلي :

معاهدة سيلان

نعلم من هذا ان للشيطان سلطاناً على هؤلاء الإخوة ، وبالتالي والنتيجة نعلم منه انهم ليسوا بأنبياء ، وقد قص الله تعالى علينا صورة « معاهدة سيلان » عاصمة آدم التي أجريت فيها تلك المعاهدة العتيقة بين المندوب السامي عن الله تعالى وهو بعضُ ملائكته من جهة ، وبين إبليس أرغم الله أنفه ، من جهة أخرى ، وهي كما يلي :

المادة الاولى ـ إعطاء إبليس سلطة واسعة وكبيرة جداً ، وهي سلطانه العظيم على جمهور الناس ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى: ﴿ قال : أرأيتَكَ هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ ؟ لإن أخَّرتَنِ الى يومِ القيمةِ لأحتَنِكنَّ ذُريتَهُ إلاّ قليلا، ـ قالَ: اذهب فمن تَبِعكَ منهم فانَّ جهنمَ جَزاؤُكم جزاءً موفوراً، واستَفْزِزْ مَنْ استَطعتَ منهم بِصوْتِكَ ، وأجْلِبْ عليهمْ بخَيْلِكَ ورَجلِك، وشارِكْهمْ في الأموالِ والأولادِ وعِدْهم ، وما يَعِدُهُمْ الشيطانُ إلاّ غُروراً ﴾ (١٧ : ٦٢ - ٦٤)

المادة الثانية ـ عدم سلطة إبليس على عباد الله الصالحين ، أي عدم نفاذها لقلوبهم وعدم تأثيرها فيهم، والدليل على هذه المادة قوله تعالى: ﴿ كذلك لنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفَحشاءَ إنَّه مِنْ عبادِنا المُخلَصين ﴾ (١٢ : ٢٤) وقوله: ﴿ إلاّ

عبادَكَ منهم المُخلَصِينَ ، قال هذا صِراطٌ عليَّ مُستَقيمٌ ، إنَّ عبادِي ليس لكَ عليهمْ سلطانٌ ، إلاّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ ﴾ (١٥ : ٤٠ - ٤٢) وقوله : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ ، وكفى بِربِّكَ وكيلا ﴾ (١٧ : ٦٥)

المادة الثالثة ـ إجابة طلب إبليس الإنظار الى يوم القيامة، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ قالَ :ربِّ فأنظِرْني الى يَوْمِ يُبْعَثونَ ، ـ قالَ فإنَّك مِنَ المُنظَرِينَ الى يومِ الوقتِ المعلومِ ﴾ (١٥ : ٣٦ - ٣٨) و (٣٨:٧٩ - ٨١)

المادة الرابعة ـ أن يبقى إبليس ملعوناً الى يوم القيمة ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى :﴿ وإن عليك اللعنةَ الى يومِ الدِّين ﴾ (١٥ : ٣٥) وفي آية اخرى: ﴿ وإنَّ عليكَ لَعنَتي الى يوم الدين ﴾ (٣٨ : ٧٨)

المادة الخامسة ـ هذه المعاهدة معمول بها وموضوعة موضع الإجراء الى آخر الدوران .

المادة السادسة ـ تسمية هذه المعاهدة « معاهدة سيلان » لأن في « سيلان » عاصمة آدم ، جرى هذا الاتفاق .

توقيع الفريق الأول	توقيع الفريق الثاني
« المَلَك »	« إبليس »

(رجع وانعطاف

سلطان الشيطان على اخوة يوسف

فلهذا ولكون إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما حققه أخونا العلامة سليم الخانيونسي في الفصل الثاني من المقدمة ـ كان للشيطان عليهم سلطان وتأثير ،

فصدر منهم الحسد والحيلة والخدعة وخلف الوعد والكذب والهم بقتل أخيهم أو طرحه أرضاً ، ثم إعطاء القرار النهائي بإلقائه في غياهب الجب كي يلتقطه بعض التجار المسافرين ، فيكون بعيداً عن وجه أبيه ، وأضف الى ذلك قطع الرحم وعقوق الوالد وظلم الأخ البريء بلا موجب من جانبه ، وكل هذه المنكرات منهي عنها نهياً جازماً ، محظورة مخالفة للشريعة .

نعم لا ننسى أن الله تعالى قال: ﴿ لكلٍ جعلنا منكم شِرعَة ً ومِنهاجاً ﴾ (٥ : ٥١) . وليس كل ممنوع في الشريعة المحمدية يجب أن يكون ممنوعاً في الشرائع السالفة ، لكن هذه المحظورات هي ممنوعة ومحرمة في كل شريعة وملة ، عند سائر أهل الأديان ، من لدن آدم الى خاتم الأنبياء ، فهي من الشرائع العامة التي أجمعت عليها الكتب والرسل ، هي من الشرائع الكلية التي لا يعتريها نسخ ولا تبديل ولا تحوير ، ولا هَوَادة ، لأن النسخ إنما يكون في الأعمال الفرعية ، أما الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة فلا يعتريها نسخ ما ، كالعقائد الأصولية ، والأقاصيص التاريخية فلا يدخل شيئاً من ذلك نسخ ولا تحوير ، فالأخلاق المذمومة محرمة في كل دين، كما أن الأخلاق الفاضلة والأدبيات واجبة في كل ملة .

سعادة الدين تكون باقامته

وبالنتيجة: فلتلك الأعمال السيئة على اختلاف أنواعها التي عملتها إخوة يوسف الصديق- لم يستأهلوا أن يكونوا أنبياء ﴿ الله أعلمُ حيثُ يجعَلُ رسالتَه ﴾ (٦: ١٢٤) بل ولا نقدر أن نقول : إنهم كانوا قبل توبتهم أتقياء ، مع أن البيت بيت نبوة فأخوهم نبي، وأبوهم نبي وجدهم الأقرب نبي وأخوه نبي وجدهم الأعلى نبي، وابن أخيه نبي ، ولكن هم لم يكونوا أنبياء ، لأنهم بأعمالهم ومسلكهم وأخلاقهم لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الجليلة

العظمى ، بل الأمر أعظم من ذلك ، وهو أن سعادة الدين لا تحصل إلا باقامته ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخَذْنا ميثاقَ بني إسرائيلَ : لا تعبُدون إلا اللهَ ، وبالوالدين إحساناً ، وذي القُربى واليتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسْناً ، وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ، ثم تولَّيتُمْ الا قليلاً منكم ، وأنتم مُعرِضون ، واذْ أخذنا ميثاقكم ، لا تَسفِكُون دماءَكم ، ولا تُخرِجون أنفسَكم من ديارِكم، ثمَّ أقررْتُم وأنتم تَشهَدون ، ثم أنتم هؤلاءِ تَقتُلون أنفُسَكُم ،وتُخرِجون فريقاً منكم من ديارِهم ، تَظاهَرون عليهم بالإثمِ والعُدوانِ ـ وإنْ يأتوكم أُسارى تُفادوهم ـ وهو مُحرَّمٌ عليكم إخراجُهم ، أفتؤمِنُون ببعضِ الكتابِ وتكفُرون ببعضٍ ، فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدنيا ، ويومَ القيامةِ يُرَدُّونَ الى أشدِ العذاب ، وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون ، اولئك الذين اشترَوْا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فلا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢ : ٨٣ – ٨٦) ، فاخوة يوسف لم يعملوا مع أبيهم إحساناً ، ولا مع ذي قرباهم وهو أخوهم ، ولا مع اليتيم من الأم ، ولم يقولوا لأخيهم حسناً ، ثم تفاوضوا في قتله وأخيراً أخرجوه من دياره ، وتظاهروا عليه بالإثم والعدوان ، وهو محرم عليهم إخراجه .. فانّا .. وانّا .. ولا .. ولا .

سعادة الدين يا هذا إنما تحصل باقامته ، فإذا لم يقمه الإنسان لم يكن سعيداً به، فكيف يجوز للذي لم يقمه أن يكون نبياً ؟!! ولعمري لولا أن إخوة يوسف قد لطف الله بهم بأن وفقوا للتوبة لكانت عاقبتهم من أردأ العواقب ، ولكن الله سلم ، هذا ما تيسر لنا ههنا والسلام عليكم .

أصوات من الجميع : لا فض فوك ، لا فض فوك .

غير أن استاذاً واحداً من أعضاء المؤتمر ، وهو الشيخ البغدادي[١] ، قام وصعد على المنبر وقال :

انتقاد عقد معاهدة سيلان والرد عليه

إخواني : إني انتقد على الأخ الشيخ الموصلي ، حفظه الله أموراً :

أولها — تصوره انعقاد معاهدة بين إبليس وبين المَلَك المندوب عن الله ، لأن محصل هذا وخلاصته أن معاهدة عقدت بين إبليس وبين الله ، ولا يخفى مافي هذا من توقير لإبليس وعدم احترام لجانب الله تعالى .

ثانيها — تعبيره « بالمندوب » الذي لم يرد استعماله في لسان الشرع ، دون التعبير الوارد في اللسان الشرعي ؟ وهو كلمة « رسول » بدلاً من مندوب .

ثالثها — قول الأخ الموصلي إن الله أعطى إبليس سلطة واسعة وسلطاناً عظيماً على جمهور الناس ، وأما أنا فلا أظن شيئاً من ذلك سوى أن الله ترك إبليس وشأنه يعمل ما يشاء مع غير عباد الله المخلَصين ، فحكمه كحكم باقي المخلوقات ، الذين أعطاهم الله جزءاً اختيارياً ، وحرية في العمل ضمن نفوذ مشيئة الله تعالى ، هذا ما عرض لي أن ألاحظ به على الأخ .

قال ذلك ونزل عن المنبر ، فعاد اليه الشيخ الموصلي يدافع عن نفسه قائلاً :

سادتي : أرى أخي وصديقي الشيخ البغدادي ، لاحظ عليّ ثلاثة أمور ، وإني أريد أن أجيب عنها واحداً بعد واحد :

فأما الجواب عن الانتقاد الأول : فهو أن الله تعالى عمل معاهدة مع اليهود

---

(١) نسبة الى بغداد عاصمة العراق .

كما جاء في القرآن الكريم على لسانهم : ﴿ إنَّ اللهَ عَهِدَ الينا : أنْ لا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتى يأتِيَنا بقُربانٍ تأكلُهُ النارُ الخ ﴾ (٣ : ١٨٢) والنبي (ﷺ) عاهد اليهود وعاهدوه ، كما قال الله في كتابه العزيز : ﴿ أوَ كلّما عاهَدوا عَهْداً نَبَذَهُ فريقٌ منهم ؟ بل أكثرهُمْ لا يؤمنون ﴾ (٢ : ١٠٠) ، ووقعت المعاهدة بين النبي (ﷺ) والمشركين كما نتعلمه من قوله : ﴿ إلاَّ الذينَ عاهدتُمْ مِنَ المُشرِكِينَ ﴾ (٩ : ٥) ، ولا ريب أن مآل المعاهدة بين النبي واليهود وبين اليهود والمشركين أن تكون هذه المعاهدة بين من ذكروا وبين الله تعالى ، ذلك لأن النبي سفير عن الله ، كما أن المَلَك الذي سميناه «مندوباً» هو سفير عن الله فكما جاز هذا التعبير فليجز تعبيرنا .

وأما الجواب عن الانتقاد الثاني : فلسان الشرع لا يمنع تسمية الملَك المرسل من قبل الله ، « مندوباً سامياً » لأن العلماء لم ينصوا على أن اسماء الملائكة توقيفية وإنما التوقيفية هي أسماء الله تعالى وصفاته ، والذي حدا بي الى هذا التعبير بهذا الاسم ، هو سرعة فهم المراد منه عند القراء من أهل العصر الحاضر .

وأما الجواب عن الانتقاد الثالث : فهو أن الله تعالى ذكر تلك المحاورة في عدة مواضع من كتابه الكريم ، فمنها آية: ﴿ قال ربِّ فَأَنْظِرْني الى يوم يُبْعَثونَ ، ـ قال فَإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين ، الى يومِ الوقتِ المعلومِ ، ـ قال ربِّ بما أغويْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ، ولأُغوِيَنَّهُمْ أجمعينَ ، إلا عبادَكَ مِنهم المُخلَصين ، ـ قال هذا صِراطٌ عليّ مستقيمٌ : إنَّ عبادِي ليسَ لكَ عليهِم سلطانٌ ، إلاَّ مَن اتبَعَكَ مِنَ الغاوين ، وإنَّ جهنَّمَ لمَوْعِدُهُمْ أجمعينَ ﴾ (١٥ : ٣٧ — ٤٣) .

فأثبت هنا أن لإبليس سلطاناً على الغاوين ، كما قال في آية اخرى : ﴿ إنه ليسَ له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهمْ يتوكلون ، إنما سلطانُهُ على الذين يتولَّوْنَهُ ،

والذينَ هم بهِمُشرِكون ﴾ (١٦ : ٩٩ و ١٠٠) ، ومنها آية﴿قال ربِ فأنظِرني الى يوم يُبعَثون ، ــ قال فإنكَ من المُنْظَرين ، إلى يوم الوقتِ المعلومِ ــ قال فَبِعِزّتِكَ لأُغوِيَنَّهم أجمعينَ ، إلاّ عبادَك منهم المُخلَصين ، ــ قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ لأمْلأنَّ جهنمَ منكَ وممّنْ تبعكَ منهم أجمعين ﴾ (٣٨ : ٧٩ ــ ٨٥) وغيرخافٍ أن هذه الآيات الكريمة تفيد أن الله تعالى سلط إبليس علىالناس، قال في القاموس : والتسليط التغليب وإطلاق القهر والقدرة . وهذا المقدار ، جائز على الله ومن الله كما قال تعالى : ﴿ ولو شاءَ اللهُ ، لسَلّطَهم عليكم فلقَاتلوكم ﴾ (٤ : ٤٩) أي لو أراد الله تعالى لسلط هؤلاء القومالمشركين على المؤمنين ، فاذا كان يجوز على الله ومن الله ، أن يسلط بعض المشركين على المؤمنين ليقاتلوهم ، جاز عليه ان يسلط ابليس على الناس ، والله تعالى اعلم .

آمال يعقوب في يوسف

آ(٦) « وكذلكَ يَجْتَبِيكَ ربُّكَ ، ويُعلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ، ويُتِمُّ نِعمتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ ، كما أتمَّها على أبويْكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ ، إنَّ ربّكَ عليمٌ حكيمٌ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة فقام السيد النجفي [1] وقال :

(وكذلك) أي ومثل ذلك الاجتباء (يجتبيك ربك) يعني كما اجتباك لمثل

(١) نسبة الى النجف الاشرف من بلاد العراق .

هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وعلو شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام ، والاجتباء الاصطفاء ، من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجبيت الماء في الحوض ، جمعته ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وهي الرؤى ، لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان ، وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها ، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها على الله ورسله ، فيقال قال الله وقال الرسول كذا وكذا، ألا ترى الى قوله تعالى: ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمنون﴾ (٧ : ١٨٤) وقوله : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديث ﴾ (٣٩ : ٢٣) فلفظ « أحاديث » مرن ، يسمك أن تضيقه وأن توسعه ، وهو اسم جمع للحديث ،(ويتم نعمته عليك)بالترقي في الدرجات الدنيوية ، كمصيره وزير مالية وعزيزاً بمصر ووكيلاً عن مليكها الريان وإحرازه لقب صديق ، وفي أمور الآخرة كمصيره نبياً ورسولاً (وعلى آل) ذرية (يعقوب) وسلالته بأن جعل منهم أنبياء وملوكاً (كما أتمها على أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ) فكان إبراهيم نبياً ورسولاً وخليلاً وأميراً ، وكان ولده إسحق نبياً ورسولاً ، (إن ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

هذا ما أظهره لك ودع ما أضمره والله على كل شيء قدير .

وكذلك . . الخ

- ١ -

قال السيد الكربلائي :

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة

أخذ يعقوب يعد ولده ويبشره بالسعادة الكبرى المستقبلة فقال ما معناه الروحي:

إن الأمر لأعظم مما تفيده رؤياك ياولدي ، فإني على مثل اليقين أنك لا تلبث إلا قليلا ، حتى ترى في مستقبلك ثلاثة أمور عظمى : الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة، فانتظر ما سيجيء به الغد ، ورؤياك التي ذكرتها لي هي عربون من الله على صحة وتحقيق ما قلته لك ، وبشرتك به الآن ، وإني أرى مستقبلك أمامي رأي العين ، فلا بد أن يقع ذلك ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، وليست المسألة مسألة تعيين لك مني ، أو من غيري من المخلوقين ، ولكنها مسألة انتخاب لك من رب العالمين ، انتخبك الله لهذه الأمور الثلاث ، من بين إخوتك وسائر أنسبائك .

★ ★ ★

إن تصورات يعقوب في أحوال يوسف المستقبلة هي من نوع أو قريبة من رؤيا يوسف نفسه ، نعم إن مرمى بشارة يوسف المنامية مختلف بالشخص مع مرمى بشارة يعقوب اليقظية ، ولكن النوع واحد ، وهو الحصول على رقي تام وامتيازات تامه ، وبالنتيجة فبشارتاهما ترميان لشيء واحد هو علو مكانة يوسف فيما يأتي من الزمان ، فكأن يعقوب سكب قلبه في قلب يوسف ، حتى استحالا الى قلب واحد ،

يشعر بشعور واحد، ويحس بإحساس واحد، ويفتكر فكراً واحداً فكأنهما روحان حلا في بدن، أو بدنان بروح واحدة ، هذا ما ينشف عنه اللفظ شفوف الكأس الصافية عن الشراب، وقد يؤلمنا وايم الحق ما كتبه المفسرون ههنا مما يخالف هذا الذي قررناه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

صراخ من الجميع
« لله أنت »

« وكذلك »

- ٢ -

قال الشيخ امين البئر سبعي[1] :

فرح يوسف ببشارة ابيه له ووقوعها حرفا بحرف

بما أن يوسف نفض لأبيه جملة ما أوحي اليه مناماً ، رأى أبوه من المناسب أن ينفض لابنه جملة ما أوحي اليه بشأنه يقظة ، فأبدى له تلك البشرى المثلثة، وما كان أعظم فرح يوسف عندما سمع هذه البشرى من أبيه ؟ وانك لو سبرت غور قلبه وقتئذ لرأيته يكاد يطير من شدة السرور والغبطة ، كأن الله تعالى بشر يوسف في المنام بواسطة مَلَك من ملائكته ـ وهو جبريل ـ بسجود الكواكب له مع الشمس والقمر ، والآن يبشره في اليقظة بواسطة نبيّ من أنبيائه ـ وهو يعقوب ـ باجتباء الله له ، وتعليمه من تأويل الأحاديث ، وإتمام نعمته عليه ، ويمكن أن نقول إن البشرى الثانية أتت ليعقوب من التفرس في مستقبل ابنه ، لأنه كان إذا رآه ،

(١) نسبة الى بئر السبع وهي بلدة في فلسطين

يتوسم مناقبه مصورة في محياه . وفي حديث ابن عمر (ض) « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله عز وجل » ، رواه البخاري في تاريخه ، وعلى كل فغني عن البيان أن البشارة الثانية أعلى جداً ، وجداً أعلى من البشارة الأولى ، ولذلك فلا نرتاب في أن يوسف كما كان طرب واندهش من مرمى رؤياه المنامية ، فقد طرب ودهش أكثر وأكثر من بشارة أبيه اليقظية ، وقد وقع كل ما أخبر به يعقوب ولده ، حرفاً بحرف ، كأن الغيب كتاب مفتوح بين يديه ، يقرأ منه ما يشاء وعلى الأقل كأنه كان يقرأ ذلك في وجه ولده السعيد ، فلذلك وعـده أبوه ومنّـاه ، كأنما هو عن وحي وإلهام .

(يجتبيك . .)

- ١ -

قال العلامة الدمشقي السوقساروجي [١] :

الاجتباء في اللغة واجتباء الله ليوسف والانبياء والاسلام

يقال : جباه الله واجتباه ، جمعه اليه وأدناه منه واختاره دون سواه ، فهو مجتبي ، منخول ، مختار ، مصطفى : متقاربة ، والجابية تجمع الماء وجمعها جوابي ، قال تعالى : ﴿ وجِفانٍ كالجوابِ ﴾ (٣٤ : ١٣) وقال سبحانه : ﴿ أوَ لَمْ نُمَكّنْ لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليهِ ثَمَراتُ كلِّ شيءٍ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ، أي يجمع ، وجَبَى الخراج يجبي جباية ، جمعه : وكلمة (جبى) تشارك (جابَ) الثلاثية في حرفين ، فهما متقاربان في المعنى ، جاب بمعنى قطع ، وفيه قوله تعالى : ﴿ جابُوا

---

(١) نسبة الى حي سوق ساروجة في بلدة دمشق

الصَّخْرَ بالوادِ ﴾ (٨٩ : ٩) أي قطعوه ، وجاب البلاد ، قطعها بالاسفار ، واجتبيتها : قطعتها ، ووجه المقاربة بينها في المعنى أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه ، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها .

فمعنى (يجتبيك) في الآية ، يختارك ويصطفيك ويدنيك منه ، ويجمعك اليه ، ويقتطعك من دون العالم الى حضرته ، تبارك المعطي الوهاب ، فالله اجتبى يوسف ، وملك مصر استخلصه لنفسه ، وما الثانية الا مظهراً من مظاهر الأولى ، فذرة من ذرات الاجتباء السماوي تجعل العبد مجتبى لجميع من يعقل من أهل الأرض .

الله اجتبى يوسف وانتخله على اخوته ، واختاره على عموم من سواهم من الأسرة ، واصطفاه على سائر أهل عصره ، ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرهما ، لأنه أصفاهم جوهراً ، وأروضهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع (يجتبيك) باعتبار ماسيكون ليوسف آنذاك ، في القريب العاجل ، وكل آت قريب ، وما أبعد المسافات ؟ وما أقرب ماهو آت ؟ فيوسف اجتبي كآدم الذي بعد توبته ﴿ اجْتَبَاه رَبهُ فتابَ عليه وهَدَى ﴾ (٢٠ : ١٢٢) وكجده إبراهيم الذي : ﴿ اجْتَبَاهُ وهَدَاه الى صِراطٍ مستقيم ﴾ (١٦ : ١٢) ، وكعموم الخمسة وعشرين نبياً الذين :﴿ اجْتَبَيْناهُم وهَدَيناهُم الى صِراطٍ مستقيم ﴾ (٦ : ٨٧) نعم ، قال الله تعالى في كل العالم الاسلامي : ﴿ هُو اجتباكم ﴾ (٢٢ : ٧٨) ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتبائين ، فاجتباء الله لأهل الاسلام هو بمعنى أعم وأحط من اجتبائه تعالى ليوسف وسائر إخوانه الأنبياء ، فهو أخص وأعلى من الأول .

(لتعش يا أستاذ)

(يجتبيك . . الخ)

- ٢ -

قال الاستاذ الباب مريجي [١]

نبوة يوسف والانبياء قبله وبعده

اجتبى الله يوسف وأتم نعمته عليه بالنبوة والرسالة للمصريين ، كما قال مؤمن آل فرعون خطاباً للمصريين : ﴿ وَلَقَدْ جاءَكم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيناتِ ، فمازلتُم في شكٍ ممَّا جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يَبعثَ اللهُ من بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) وقبله أرسل أبوه يعقوب ـ لأهل فلسطين ، وإسماعيل للعرب ، وأخوه إسحاق ـ للفلسطينيين ، وإبراهيم ـ للكلدان ، ولوط ـ اشرقي الأردن والمؤتفكات ، وهي (قريات الملح) الخمس ، وصالح لثمود الذين في الحجرْ بين الشام والحجاز الى وادي القرى ، أو بين معان والعقبة ، وذلك هو (بترا) ، وهود ـ لعاد ، مابين عُمان وحضرموت .

وأما بعد يوسف فقد أرسل الله شعيباً ـ الى مَدْيَن ، وهي تمتد من العقبة الى طور سينـــاء ، أو من شبه جزيرة سينا الى الفرات كما أرسله الله أيضاً الى أصحاب الأيكة ، كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الأحمر الى مَديَن ، وأيوب ـ الى أهالي نجد على القول بأنه نجدي ، أو الى حوران على القول بأنه حوراني ، وموسى وأخوه هارون ـ الى القبط وبني اسرائيل بمصر ، وداودوابنه سليمان ـ الى بني اسرائيل بفلسطين ، وهكذا زكريا وابنه يحيى ، وأما يونس فالى

---

(١) نسبة الى حي باب سريجة في دمشق .

نينوى عاصمة الآشوريين ـ قرب الموصل ـ

وما أن نزل الأستاذ الدمشقي الباب سريجي عن منبر الخطابة حتى نهض على أثره الأستاذ البرامكي[1] وقال :

سمعتم أيها السادة ماتفضل به صديقنا المحترم ، والآن تذييلاً لما ذكره أذكركم بالنبي (صموئيل بن ألقانه) المرموز اليه في القرآن بقوله تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ الى الملأ مِن بني إسرائيلَ مِن بعدِ موسى إذ قالوا لنبيٍ لهم ـ وهو صموئيل ـ ابعَثْ لنا مَلِكاً نقاتلْ في سبيلِ اللهِ ؟ ـ قال : هل عَسَيتُم إن كُتِبَ عليكُمُ القتالُ أن لا تقاتلوا ؟ ـ قالوا : وما لنا أن نقاتلَ في سبيل اللهِ وقدأخرِجْنا مِن ديارِنا وأبنائِنا ؟ فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تولّوا إلاّ قليلاً منهم ، واللهُ عليمٌ بالظالمين ـ وقال لهم نبيُّهُمْ : إن اللهَ قد بعثَ لكم طالوتَ مَلِكاً ، ـ قالوا : أنى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالملكِ منه ، ولم يُؤتَ سَعَةً من المال ؟ ـ قالَ إنّ اللهَ اصطفاهُ عليكم ، وزادَه بَسْطةً في العِلمِ والجسمِ ، والله يؤتِي مُلكَهُ من يشاء ، والله واسعٌ عليمٌ ـ وقال لهم نبيُّهم : إن آية مُلكِه ، أن يأتِيَكم التابوتُ فيه سكينةٌ مِن ربّكم ، وبقيةٌ مما ترَكَ آلُ موسى وآلُ هرونَ ، تَحمِلُه الملائكةُ ، إنّ في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾(٢ : ٢٤٦-٢٤٨) فهذا النبي هو (صموئيل) الذي يسميه مؤرخو العرب على سبيل التعريب : (صمويل أو شمويل) وهذا النبي الكريم هو آخر قضاة بني اسرائيل الخمسة عشر ، مكث قاضياً عليهم مدة « ١٢ » سنة ، وكانت مدة حكم هؤلاء القضاة نحو « ٤٥٠ » سنة من موت يشوع بن نون ، فتى موسى ، الى أيام النبي صموئيل المذكور ، وبهذه المناسبة نتذكر النبي (يشوع) المرموز له في قوله تعالى : ﴿ وإذقالَ موسى لفتاه :

---

(١) نسبة الى حي البرامكة في دمشق (سورية)

لا أبرَحُ حتى أبلغَ مَجمعَ البحرين أو أمْضِيَ حُقُباً ﴾ (١٨ : ٦١) فهذا الفتى هو يشوع بن نون تلميذ موسى الذى صار نبياً بعده وخليفة عنه على بني اسرائيل والقائد الأعظم في حربهم مع الفلسطينيين ، وهو أحد الاثني عشر رجلاً الذين أرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، كما هو أحد الرجلين الاثنين في قوله تعالى : ﴿ قال رجلانِ مِنَ الذينَ يخافونَ ، أنعَمَ اللهُ عليهما : ادخُلوا عليهِمُ البابَ ، فاذا دخلتُموهُ فإنكم غالبونَ ﴾ (٥ : ٢٥) والرجل الثالث هو كالب ابن يَضُنّة ، والخلاصة إن من الأنبياء هذين الكريمين وهما : صموئيل ويشوع ، ويهمنا معرفتهما بصورة خاصة ، لأنهما مذكوران في القرآن الكريم ، ولذلك اقتصرت في خطابي على ذكرهما فقط . (جيد)

(ويُعلمك ...)

– ١ –

قال الفاضل اسماعيل من علماء غزة :

تعليم يوسف

(ويعلمك) كما علم قبلك الملائكة حتى قالوا : ﴿سبحانَكَ لاعلْمَ لنا إلاّ ما علّمْتَنا ﴾ (٢ : ٣٢) وكما ﴿علّمَ آدمَ الأسماءَ كلّها ﴾ (٢ : ٣١) وقال في أبيك يعقوب : ﴿ وإنّه لَذو علمٍ لِمَا علّمناهُ ﴾ (آ : ٦٨) وقال عن الخضر : ﴿ وعلّمناهُ من لَدُنّا عِلْماً ﴾ (٨٨ : ٦٦) كانت هذه البشارة ليوسف من أبيه كما كانت رؤياه المنامية وهو في (سيلون) من أعمال فلسطين ، وقد تحقق مضمونها وهو في (صوعن) عاصمة مصر ، أي عاصمة المملكة الهكسوسية

في ذلك العصر ـ وكما تسمى صوعن فتسمى (تانيس) و (طانس) و (صان) ، وتسمى اليوم (صان الحجر) ـ ، وقد كان الزمن بين البشرى النامية وبين تحقيق مضمونها نحو « ٢٢ » سنة ، فعلى العاقل إذا وعد بشيء أن ينتظر ولا يستبطىء ما وعد به ، فقد دعا موسى وهرون على فرعون وملائه ، فالباري تعالى قال : ﴿ قد أجيبَتْ دَعوتُكُما فاستَقيما ولا تَتَّبِعانِّ سبيلَ الذينَ لا يَعلَمون ﴾ (١٠ : ٨٩) قيل مكث موسى بعد الدعاء قريباً من أربعين سنة .

(تأويل الاحاديث)

ـ ٣ ـ

قال الشيخ مضيوف اليافي [١] :

مقومات الحديث وتأويله

لكل حديث معنى افرادي ، ومعنى تركيبي ، وغاية ينتهي اليها ، وإن شئت قلت : مصداق يقع فيكون هو خُبْرَ الخَبَر .

فأما القسم الأول ، وهو المعنى الإفرادي ، فهو ما يذكر في كتب الصرف واللغة كالبناء والمقصود والأمثلة والقاموس والأساس والمصباح والصحاح واللسان والفائق ومفردات الراغب وغيرها من كل المعاجم التي تبين الألفاظ المفردة .

وأما القسم الثاني وهو المعنى التركيبي ، فهو ما يذكر في كتب النحو والمعاني

(١) نسبة الى يافا من بلاد فلسطين

والبيان ، من معنى الجملة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي ، والفهم في هذين الضربين قاصر محدود لا يتسع عقل صاحبه للتدبر كثيراً ، وإنه ليَستوي فيه كل إنسان عاقل لبيب ، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ، مؤمناً أو كافراً ، وهو أمر كسبي يتحصل عليه الإنسان بكسبه وجدّه ، ولا يتفاوت إلا بتفاوت العقل والإدراك.

وأما القسم الثالث وهو الغاية التي ينتهي اليها الحديث وان شئت قلت : مصداق الحديث الذي يقع فيكون هو خُبْرَ الخَبَر - فهذا لا يكون بكسب وجدّ ولا يستوي فيه سائر الناس ، ولا يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بذكائه وحدة فهمه ولا يمكن أن يستقل به المرء ، ولكنه مَوهبة من الله تعالى ، وإلهام يلهمه عباده الصالحين ، من أنبيائه وأوليائه وعلمائه ، وهذه الغاية التي تنتهي إليها الأحاديث - وبعبارة أخرى - هذا المصداق الذي هو ذاتُ ما أخبِرَ به هي التي يعبر عنها تارة بالمصائر وحيناً بالعواقب والمراجع وطوراً بالمصاديق وأخيراً وبتعبير مختصر : إذا قلنا : « تأويل الأحاديث » نعني المحكي عنه في تلك الحكاية التي هي الحديث ، فالحديث حكاية ، وتأويله هو المحكي عنه ، فالتأويل تفعيل من آلَ إذا رجع، وهو ما يؤول اليه الشيء ، وبالمثال يتضح المعنى وتظهر صحة المقال :

١ - قال تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه الى اللهِ والرسول ، إنْ كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ (٤ ٥٨) أي عاقبةً ، كما في الكشاف ، فهو تأويل فعلي .

٢ - قال تعالى :﴿ ولا تَقْربوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يَبلغَ أشدَّه ، وأوْفُوا بالعهدِ ، إن العهدَ كان مسئولاً ، وأوْفُوا الكيلَ إذا كِلتم ، وزِنوا بالقِسطاسِ المستقيمِ : ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾(١٧ : ٣٤ و ٣٥)أي أحسن عاقبةً ، كما في الكشاف ، فهو تأويل فعلي .

٣ ـ قال تعالى :﴿ ولَقَدْ جئناهم بكتابٍ فصَّلناهُ على علمٍ ، هُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ، هل ينظرونَ إلا تأويلَهُ ؟ يومَ يأتي تأويلُهُ ، يقولُ الذين نَسُوهُ منْ قبلُ : قد جاءتْ رسُلُ ربِنّا بالحق ، فهل لنا مِن شُفَعاءَ فيَشْفَعوا لنا ، أو نُرَدُّ فنعمَلَ غيرَ الذي كنا نَعْملُ ؟ ، قد خَسِروا أنفسَهُم ، وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْترون ﴾ (٧ : ٥٢) فتأويله هنا عاقبةُ أمره ومايؤول اليه من تبين صدقه وظهور صحة مانطق به من الوعد والوعيد (كشاف) فهو تأويل فعلي .

فليس المراد هنا من تأويل الكتاب تفسيره وبيانه ، لأنه جاءهم مفصلاً على علم وهدى ورحمة ، فلا يحتاج الى التفسير والبيان ، ولكن أولئك الخاسرين ينتظرون تحقق ماجاء به من شؤون الآخرة كالجنة والنار وعذاب القبر والحساب وهلم جرا، وذلك واضح لاغبار عليه ، وهل يفهم غير هذا من قوله تعالى:﴿يومَ يأتي تأويلُهُ يقولُ الذينَ نَسُوهُ مِنْ قبلُ : قد جاءت رُسُلُ ربِنّا بالحق . . الخ ﴾ فالتأويل هنا مصائر وعواقب أخبار الكتاب الغيبية ، ولا جرم أنه لا يعلم حقائق شؤون الآخرة مثلاً ، ولا كيف تقع ، ولا متى تكون سوى السميع العليم، فالمؤمنون يؤمنون بما ورد من ذلك في الكتاب وإن لم يعلموه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة ، فان ذلك من موسوعات علم الله وحده ، دون سواه إلا من ارتضى من رسول ، وأما الذين كفروا ، فيكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .

٤ ـ قال تعالى :﴿ بل كذَّبوا بما لمْ يُحيطوا بعلمِهِ ولمّا يأتِهِمْ تأويلُهُ ﴾ (١٠ : ٣٩) أي مصيره ومصداقه وذات ما أخبرَ به مما سينزل بهم من عقاب الدنيا والآخرة ، وسائر نذره وبشائره ، فهو تأويل فعلي . وذلك كإخبار القرآن بالجنة والنار والملائكة والجن ونعيم الجنة وعذاب النار والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط وعذاب القبر ونعيمه والسؤال فيه ، والكلام عن الله

وذاته وصفاته والساعة وأشراطها وشؤون الآخرة والوعدوالوعيد ، وكيف يقع ومتى يقع ، فكل هذه الاشياء ومآلها لا يعلمها إلا الله ولكنه ربما علّم شيئاً منها لبعض عباده ممن ارتضى من رسول ، ومن كان على قدمه من الصالحين ، وكل هذه الأشياء ونحوها كذبوا بها لأنهم لم يحيطوا بعلمها ولما يروا ويشاهدوا تأويلها أي مصائرها وذاتها ، فالتأويل هو كل مايعد به الكتاب السماوي من المثوبة والعقوبة أي مايؤول اليه الأمر في الوعد والوعيد والاخبار .

٥ ـ في حديث عائشة (ض) كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : (سبحانك اللهم وبحمدك) يتأول القرآن ، تعني إنه مأخوذ من قوله تعالى :﴿ فسبحْ بحمدِ ربِّكَ واستغفِرهُ ﴾ (١١٠ : ٣) أي تعني أن النبي يرجع بذلك الى القرآن ويصير الى هذه الآية ، فهو تأويل فعلي .

٦ ـ روي عن رسول الله (ﷺ) أنه تلا آية ﴿ قلْ هو القادرُ على أنْ يَبْعَثَ عليكم عذاباً مِن فوقِكم أو من تحتِ أرجلِكُم أو يَلْبِسَكُم شِيَعاً ويُذيقَ بَعضَكُم بأسَ بعضٍ ﴾ (٦ : ٦٥) فقال : (إنها كائنة ، ولمّا يأتِ تأويلها بعدُ) فالتأويل ههنا أيضاً فعلي بمعنى تحقق وجود الخبر .

ولا بد لنا قبل الختام من كلمة لها علاقتها الكبيرة بهذا المقام وهي أن لكلمة (تأويل) ثلاث معان :

١ ـ التأويل بمعنى مصير الشيء وعاقبته ، وهذا تأويل ليس بالقول ولكنه تأويل بالفعل ، ومنه الشواهد السبعة التي تلوناها على أسماعكم ، بل منه أيضاً مافي قول يوسف الصديق (يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ) أي هـذا الفعل مصداقها ومصيرها ، فهو تأويل فعلي .

٢ ـ التأويل بمعنى تفسير المتشابه ، وهذا تأويل قوليّ عمليّ ، وله أمثلة في القرآن والحديث كثيرة، ليس هذا موضع بيانها .

٣ ـ التأويل بمعنى بيان السبب والعلة ، كما في قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي آتاه الله علماً إذ يقول لموسى ﴿ سأنَبّئُكَ بتأويل مالمْ تَستَطعْ عليه صبراً ، أما السفينة . . الخ ﴾ (١٨ : ٨٠)

(الاحاديث)

- ١ -

قال استاذنا الحضرموتي [١] :

الحديث لغة واصطلاحاً

الأحاديث اسم جمع لحديث ، على ماظن الزمخشري في كشافه ، أو جمع تكسير له على غير قياس ، على ماظن الزمخشري أيضاً ، في (المفصل) ، كما قالوا باطل وأباطيل وإذا كانوا يقولون في عباديد إنه جمع تكسير ولم يلفظوا له بمفرد ، فكيف لايكون أحاديث وأباطيل جمع تكسير وقد لفظوا بمفرده ؟ هـذا ويطلق لفظ (الحديث) على أربعة أمور :

١ ـ على القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعدَه يُؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٤ و ٧٧ : ١٥) وقال تعالى: ﴿ فلْيأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين﴾ (٥٢ : ٣٤) .

(١) نسبة الى حضرموت احدى البلاد العربية في جنوبي جزيرة العرب

٢ ـ على كلام النبي (ﷺ) كقولهم (حديث النبي وأحاديث النبي) أي ما كان النبي (ﷺ) يحدثهم به ومنه أحاديث البخاري ، أحاديث مسلم ، احاديث الموطأ وهكذا .

٣ ـ على الأقاصيص التاريخية ومنه ﴿ هل أتاكَ حديثُ موسى ﴾(١٥:٧٩)، ﴿ وجعلناهُم أحاديثَ ، فبُعداً لقومٍ لايُؤمِنُون ﴾ (٢٣ : ٤٤) ، ﴿ فجعلناهم أحاديث ، ومَزَّقناهُم كلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (٣٣ : ١٩) غير أنه وقع الاصطلاح على أن الأحاديث التي يتحدث بها الناس على وجه الذكرى والاستفادة هي اسم جمع لحديث ، وذلك كما في المثال الأول، وأما الاحاديث التي يتحدث بهـا الناس تلهياً وتعجباً ، فهو عندهم جمع أحدوثة مثل أضحوكة وألعوبة وأعجوبة ، وذلك كما في المثالين الأخيرين .

٤ ـ على أحاديث النفس يقظة أو مناماً ، ثم أحاديث النفس في اليقظة هي درجة بين الخواطر والهموم ، وأما أحاديث المنام ، فإن كانت من الله قيل لها (رؤيا)، وان كانت من الشيطان قيل لها (حُلمْ) .

وكل هذه المعاني الأربعة وما ألحق بها داخل تحت عموم كلمـة (أحاديث) فالمعنى أن يعقوب يبشر ولده النجيب بأن الله تعالى سيوجد فيه أهلية وقدرة على تفهم مرامي ومصائر الكتب السماوية وأحاديث النفس وإلهام الملك في المنـام وغير ذلك من كتب العلم والتاريخ وكلام الناس وأسفار الحكمة والآداب ، وعلى العموم بتعلم مقاصد الكتب السماوية ، والشرائع الوضعية ، والقوانين والنظامات الحكومية ، والأسفار الاجتماعيـة ، ومرامي أحاديث الناس ، وما يقرأ ومايسمع ، وما يقول وما الى ذلك ، فيكون صاحب رأي في عاقبة كل هذه المذكورات ، وذا بصيرة في مرجع كل ما يقوله ويقال له .

هذا ما ألهمنيه الملك العلام ، في هذا المقام ، نفضته اليكم والسلام عليكم .

(لا يفضض الله فاك)

(ويتم نعمته .. الخ)

- ١ -

قال العلامة الهندي :

اتمام النعمة على يوسف

يعني يتم نعمتـه عليك بإسباغ نوافل خيراته ، ونوامي بركاته ، وقد فعل ، و (يتم) في مستقبل الأيام (نعمته عليك) بصورة خاصة لا تَعْدوكَ (وعلى آل يعقوب) بصورة عامة شاملة تسع الجميع منهم (كما) كان فيما مضى من الزمان قد (أتمها على أبويك) يتم نعمته عليك كما تحب ، وعلى آل يعقوب كما يحبون .

يتم نعمته عليك سلبياً وإيجابياً ،بالتخليةوبالتحلية ، بالسلامة من الشرو حصول الخير ، بالإنجاء من المهالك ، والترقي والعز والسؤدد .

فقد أتم الله نعمته على يوسف بنجاته من الموت بيـــد إخوته ، ثم بنجاته من الجب سالماً ، ثم بظهور سلامة عرضه ، ثم بخروجه من السجن بصورة تكفل شرفه وناموسه ، ثم بجلوسه على عرش مصر عزيزاً ، كما أتمها بأفضل من ذلك كله وهو النبوة والرسالة وإيتاء الحكم والعلم .

ومن إتمام نعمته تعالى على يوسف أيضاًانتصاره على الأضداد:

١ - انتصر على الشيطان والهوى والميول النفسانية (ع ٢٣ و ٢٤)

٢ - انتصر علىزليخا امرأة العزيز بظهور براءته مماتهمته به (ع ٢٦ - ٣٢) و (ع ٥١ - ٥٣)

٣ ـ انتصر على عزيز مصر فوطيفار ، الذي سجنه سجناً إدارياً ظلماً ، فخرج من سجنه وجلس محله على العرش ، وصار (عزيزاً لمصر) بدلاً منه(ع٥٤-٥٦)

٤ ـ انتصر على إخوته العشرة برجوعهم اليـه ثالث سفرة ، وخضوعهم بين يديه واعترافهم بخطئهم، وسكناهم وأهلهم بمعيته وتحت نظره (ع ٨٨ ـ ٩١)

(آل يعقوب)

- ١ -

قال صدر الدين الدمشقي الباب سريجي[1] :

من هم آل يعقوب

(آل يعقوب) : أسباطه ، والسبط ولد الولد ، والفريق من اليهود ، ويقال للعرب قبائل ولليهود أسباط كما في المصباح .

وكلمة (آل) لفظ من خمسة ألفاظ وردت في كتاب الله تعالى بمعنى واحد ، والثاني بنو إسرائيل كما في : ﴿ وجاوَزْنا ببني إسرائيلَ البحرَ ﴾ (١٠ : ٩٠) والثالث ذرية إسرائيل كما في : ﴿ وَمِنْ ذريةِ إبراهـيمَ وإسرائيلَ ... ﴾ (١٩ : ٥٨) والرابع والخامس الأسباط والأمم كما في : ﴿ وقَطَّعناهم اثْنَتَيْ عَشْرةَ أسباطاً أمَماً ﴾ (٩ : ١٥٩)

ويطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون الى اسمه ، ويطلق على جميع أتباع الرجل ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فالتَقَطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدُوّاً وحَزَناً ﴾ (٢٨ : ٨) إذا قلنـا إن الملتقط هو شخص من أفراد الاسرة المالكة ، فإن قلنا أن الملتقط هو إحدى الجواري أو الخادمات كان من

(١) نسبة الى حي باب السريجة في دمشق (سورية)

قبيل إطلاقه على الأتباع كما في : ﴿ وأغرقنا آلَ فرعونَ ﴾ (٢ : ٥٠) ، ومن أمثلة إطلاقه على الذرية مافي قوله سبحانه : ﴿ إنّ اللهَ اصطفى آلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمينَ ، ذريّةً بعضُها مِنْ بعضٍ واللهُ سميعٌ عليم ﴾ (٣: ٣٣ و ٣٤) ، فالمراد من آل إبراهيم هنا ذريته وسلائله من اسماعيل بن (هاجر) وإسحاق بن (ساراي) وأبنائه الستة من زوجه (قطورة) ، وهم زِمْران ويَقْشان ومَدّان ومِديان ويَشْباق وشُوحا (تك ٢٥ : ١ و ٢) ، فأولاد إبراهيم لصلبه ثمانية من ثلاث زوجات ، ثنتان عربيتان وواحدة عبرانية ، وكان من المديانيين (شعيب) عليه السلام ، كما كان من اسحاق جميع أنبياء بني اسرائيل ، وكما كان من اسماعيل خاتم الأنبياء (ﷺ) و (عمران) ههنا تعريب (عمرام) ، ومعنى عمرام (شعب عالي) وهو المدعو في الانجيل (هالي) أي عالي ، لأنهم يبادلون بين العين والهاء ، متصرف فيه بحذف صدره والاكتفاء بعجزه ، وهو أبو مريم أم المسيح (فآل عمران) إذن عبارة عن المسيح فقط ، وبهذا التحقيق الذي ذكرناه بالمناسبة يندفع اعتراض البروتستانت على القرآن المجيد بأن أبا مريم لا يدعى (عمران) ، كما يقول القرآن ، ولكن يدعى (هالي) كما يقول الانجيل ، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

(شكراً وحمداً يااستاذ)

(آل يعقوب)

– ٢ –

قال غلام الدين الدمشقي العماري [١] :

النعم التي اتمها الله على آل يعقوب

لم يكتب المفسرون على هذه الكلمة ما يجب أن يكتبوه ، وأنا الحقير مع عجزي وقلة بضاعتي لا أضعف أن ألقي على هذه الكلمة مايشاء الله أن ألقيه ، فاستمعوا لما يُلقى :

أيها السادة :

أتم الله نعمته على آل يعقوب ، وسلالته ولو بَعُدوا ، وهم بنو إسرائيل ، أعني القبائل الاسرائيلية ، بنجاتهم من عبودية مصر وسخرتهم فيها ، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، ثم بنجاتهم من الوثنية التي اعتنقوها بمصر أيام الفراعنة لمدة نحو مئتي سنه تقريباً ، والإيذاء الذي كانوا يلاقونه من الفراعنة من قبل أن يأتيهم موسى ، وعلى أثر مجيئه ، فخلصوا من كل ذلك ، وخرجوا من مصر منصورين تحت قيادة موسى وظللوا بالغمام وانزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر ، وأغرق فيه عدوهم ، وانفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً ، ثم ملكوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، وأقاموا فيها قضاة وحكاماً لهم ، ثم شكلوا فيها مملكة ، ولا تنس أن الله جعل فيهم النبوة والكتاب وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين .

فإن قلتَ ، إن هذه النعم التي عددتها لآل يعقوب أي سلالته إنما صارت بعد

---

(١) نسبة الى حي العمارة في دمشق (سورية)

عهد طويل أى بعد ٤٣٠ سنة ، تغربوا فيها بمصر ، على كلام التوراة ، أو بعد ٢١٥ سنة أقاموها بمصر على ما حققه العلماء من مؤرخي النصارى والمسلمين ، وإنه ليبعد أن يكون يعقوب أراد من بشارته تلك النعم ، التي ما حصلت لآله المعاصرين له ، ولكنها إنما حصلت لآله البعيدين عنه ، الى ما بعد تلك المدة الطويلة ، سيما وقد سبق هذه النعم ما ذكرته من اضطهادهم بالسخرة والعبودية بمصر ، وإذلالهم وتذبيح أبنائهم واستحياء نساءهم، وإيذائهم بأنواع الأذى ، لمدة ٤٣٠ سنة أو لمدة ٢١٥ سنة ، فيبعد أن يكون يعقوب أراد البشارة بتلك النعم التي لم تقع إلا بعد أكثر من جيلين.

قلتُ : أما ماذكرتَ من سبق تلك النعم باضطهادهم بالسخره والعبوديه بمصر وتذبيح الذكور واستحياء النساء ، فلا يضر في جوهر البشارة ، فهذا يوسف لم يحصل له ماحصل مما بُشّر به من اتمام النعمة عليه إلا بعد أن أهين من جانب إخوته ، والقي في الجب ثم استرق وشرد عن وطنه ، وبيع عبداً لعزيز مصر ، وخدم في بيته أحدى عشرة سنة ، وقذف بالفحشاء وسجن مع المجرمين ولبث في السجن بضع سنين ، فكما أن هذه الأمور لم تمنع أباه أن يبشره بإتمام النعمة عليه بما سيجد له في مصر من صيرورته بها « عزيزاً » وناظر ماليه ونبياً ورسولاً، فكذلك تلك المصائب التي كانت نزلت فوق رؤوس بني اسرائيل بمصر ، لا تمنع يعقوب أن يبشرهم باتمام النعمة عليهم فيما بعد ، لأن العبرة بالخواتيم .

وأما ما ذكرت من طول المدة ، وأن بنى إسرائيل لم يحصلوا على تلك النعم إلا بعد جيلين ، فقريب من حالهم حال يوسف ، فانه لم يحصل على إتمام النعمة عليه إلا بعد أن صار عمره قريباً من أربعين سنة أي بعد ٢٣ سنة من بشارة أبيه له .

وأخيراً نقول : إن الرجل ليس كالنملة التي لا تنظر إلا ّ ما بين عينيها ، بل الرجل ينظر إلى الأمد البعيد جداً ، سيما إذا كان من الأنبياء الملهمين ، كسيدنا

يعقوب عليه السلام ، وإنا نسمع عن الساسة الانكليز وغيرهم أنهم ينظرون الى ما سيجد بعـــد أجيال ، ويخبرون عنه ويقع حسبما أخبروا ، فكيف بالأنبياء الذين يتكلمون عن الله تعالى ، وكما ان الله يقول: ﴿ وإنّ يوماً عندَ ربّكَ كألفِ سنةٍ مما تَعُدّون ﴾ (٢٢ : ٤٧) ، ﴿ وأنتهم يرَوْنه بعيـــداً ونراهُ قريباً ﴾ (٧٠ : ٦ و ٧) ، فكذلك الأنبياء الذين يتكلمون عن ربهم ، يخبرون بالاشياء التي سوف تحدث بعد حين مهما طال زمنه .

هذا كلامنا عن اتمام النعمة على آل يعقوب مجملاً ، وأما تفصيلاً فكان من سبط (لاوي) موسى وهرون وزكريا ويحيى ومريم أخت موسى ، وكان هذا السبط هو المتعين للخدمة في الهيكل ، وأما سبط (شمعون) فقد ألحق — باللاويين في مهنه التعليم (كما في قاموس بوست)

وأما سبط (يهوذا) فكان بيده صولجان الملك وكان من سلالة الأنبياء الكرام مثل : اشعياء وصَفَنْيَا ودانيال وحِزْقيال وعيسى وداود وسليمان وحجّي ويوحنا بن اختيار ومريم أم المسيح والمسيح عليهم السلام ، كما أن من سلالتـه ملوك يهوذا التسعة عشر ، والقاضي « عثنيئل » والقاضي « عالي » وجميع الكهنة ، وكل من كانوا يمارسون الأعمال الدينية في هيكل بيت المقدس .

وأما سبط (دان) فكان منه جنود أصحاب شأن ، وخرج منه القاضي «شمشون» الشهير .

وأما سبط (نفتالي) فكان منه القاضي (باراق) الشهير .

وأما سبط (جاد) فكان منه ذلك النبي الشهاب (إيليا) ، وهو « اليـاس » عليه السلام .

وأما سبط (أشير) فكان وجد منه امرأة اسمها (حنّه) وهي من المتعبدات الصالحات الصائمات المصليات حتى اعتبرت في نظر المسيحيين الأقدمين كنبيّة .

وأما سبط (يسّا كر) فقد كان منه القاضي (تُولَعْ) الذي حكم بني اسرائيل ثم كان منه اثنان من ملوك اسرائيل وهما (بِعْشَا) و (أيْلَه) .

وأما سبط (زبولون) فكان منه قاضيان حكما بني اسرائيل وهما (أبصان) و (أيلون) وكان منه (يونس بن متى) عليه السلام .

وأما سبط (يوسف) فكان قد انقسم إلى قسمين ، القسم الأول (مِنَسّى) الولد البكر ليوسف ، وكان منه ثلاثة قضاة حكموا بني إسرائيل ، وهم(جدعون) و (يائير) و (يفتاح) ، والقسم الثاني (أفرايِمْ) ثاني ولدي يوسف ، وكان منه (يشوع) بن نون عليه السلام ، والقاضي (عبدون) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم النبي (صموئيل) ، كأكثر ملوك إسرائيل في المملكة الشمالية التي عاصمتها (نابلس) . ومن إتمام النعمة على فخذ (أفرايم) أن التابوت كان في إحدى مدنه وهي (سيلون) ، فقد بقيت فيها الخيمة (٣٠٠) سنه .

وأما سبط (بنيامين) فكان منهم القاضي (أهُود) الذى حكم بني إسرائيل، ثم كان منهم طالوت (شاؤل) أول ملك لبني اسرائيل .

وكل ما ذكرته لكم حكم مقتبس من (العهد العتيق)و (السنن القويم)وقاموس (بوست) و (معجم البلدان) .

وقبل أن أختم مقالي هذا أرجوكم أن تسمحوا لي بكلمتين خطرتا على فكري الآن فوق هذا المنبر :

أما الكلمة الأولى فهي أنه يتبين مما قدمنا أن نعمة الله تمت على شخص يوسف

وعلى سلالته المنسّيين والأفراميين وأما إخوته الأحد عشر فالنعمة إنما تمت على سلائلهم ، لا على أشخاصهم ، وهـذه هي الحكمة فيما يظهر لنا في أن يعقوب قال ليوسف : ﴿ ويُتمُّ نعمَتَـهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ ﴾ . فالنعمة تمت على شخص يوسف ثم تمت على سلائل يعقوب ومنهم سلالتا يوسف .

والكلمة الثانية — هي أنه لم يقل : (وعلى يعقوب) بل أقحم لفظ (آل) ، مع أن الله تعالى كما أتم نعمته على شخص ابراهيم وإسحاق فقد أتمها كذلك على شخص يعقوب ، نعم أتمها عليه بالنبوة والرسالة والبركة والسيرة الحسنة — لكنه لم يقل ذلك تنزلاً وتواضعاً وهضماً لشخصه ، وتَقَصِّياً عن تزكية النفس بالقول ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تُزَكُّوا أنفسَكُم ، هو أعلمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ (٥٣ : ٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّون أنفسَهُمْ ؟ . . . بلْ الله يُزَكِّي مَنْ يشاء ، ولا يُظلمونَ فتيلا ﴾ (٤ : ٤٨) هـذا ما أردت أن أختم به خطابي ، والله أعلم . (مرحى)

(كما اتمها . . . الخ)

- ١ -

قال الفاضل النابلسي :

النعم التي أتمها الله على ابراهيم واسحاق

تعلمون أن الله أتم نعمته على « ابراهيم » بنجاته من نار الكلدانيين ،وخروجه من دائرة الذل والاضطهاد أرض العراق،الى بلاد الشام بلادالعزوالحريةوالاحترام . — الى آخر مالاقاه في سوريا وفلسطين من الراحة والاطمئنان هذا كله بعد أن

كان نبياً ورسولاً وخليلاً للرحمن ، وبـــذلك صار مقـــدساً بلسان البوذيين والزردشتيين ووثني العرب وطبعاً عند اليهود فالنصارى فالاسلام ، لا يذكر عند كل هؤلاء الا ويشكر ، وأكثر الأنبياء من سلالته ، وبذلك صار مباركاً عليه في العالمين : حتى صرنا نقول — نحن الاسلام — ولا نزال نقول « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد » نكرر هذه الصلاة الابراهيمية في صلواتنا في اليوم والليلة ربما أكثر من أربعين مرة ، يكررها كذلك نحو أربعمائة مليون مسلم بكل ضراعة وحرارة .

وتعلمون أن الله أتم نعمته على (إسحاق) بكونه ابن ساراي السيدة المحبوبة ، ثم بالنبوة والرسالة ، وكفى .

فيعقوب كان يتوقع لابنه يوسف مستقبلا ذا شأن ، وكان على بينة من أنـــه سيرتقى رقياً محسوساً باهراً ، وأن التاريخ سيسجل ليوسف الصديق ولآل يعقوب ذكراً حسناً ، كما سجل ذلك لإبراهيم واسحاق ، وان اسمـــه سيكون جليلا ، وسيحفظ له التاريخ ذكريات فخمة عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام .

(ان ربك عليم حكيم)

- ١ -

وقال العلامة الدوماني [١] :

علم الله وحكمته

إن الله سبحانه وتعالى « عليم » بذات الصدور ، وبمن هو أهل لإتمام النعمة

(١) نسبة الى بلدة دوما قصبة قرب دمشق (سورية).

عليه ، كما هو عليم بكل شيء وكل دقيق وجليل ، حتى لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة فإنها تثقلها وتميلها حقيقة ، والله يعلم ذلك تماماً ، وإن لم تدرك ذلك مشاعرنا ، فسبحان من يعلم ويسمع دبيب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، ويرحم الله الإمام الزمخشري حيث يقول :

يامن يرى من البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخّ في تلك العظام النُحَّلِ (١)
امنن عليّ بتوبة تمحو بها
ما كان مني في الزمان الأول

وإنه تعالى « حكيم » يضع كل شيء في موضعه ، وإن دائرة فضله مرنة تسع كل من أهّل نفسه للفضيلة .

الفصل الرابع

الحكم والعبر في قصة يوسف

آ (٧) ﴿ لقدْ كانَ في يُوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة فقام مولانا الناصر التونسي وقال:

يقول الله : بذاتي حلفت (لقد كان في يوسف) عليه السلام وهو الحزب

(١) البهيم الأليل : الشديد السواد ، المناط : المربط ، النحر : الرقبة ، النحل : الضعيفة .

الراقي ، (وإخوته) أصلحهم الله ، وهم الحزب المعارض ، أي لقد كان لمن تتبع حوادثهم معه ، وحوادثه معهم ، مع التأمل في أسبابها ونتائجها ، (آيات) أي حِكم وعظات وعجائب وعبر ، كما سيقول « لقد كانَ في قَصَصِهِمْ عِبرةٌ لأولي الألباب » (ع : ١١١) وذلك من حين أن رآى أحلامه فحسدوه ، الى أن سكنوا في شرقية مصر تحت رعايته ، وما تخلل ما بين هذين الطرفين من الماجريات النادرة المثال ، والمراد من لفظ (إخوته) عموم الاخوة المناوئين له المتألبين عليه، والمحبين له الذابين عنه .

وفي الحقيقة إن الآيات كانت في يوسف وإخوته وأبيه والسيارة وعزيز مصر وامرأة العزيز ، وفي الشاهد من أهلها ، والسيدات المصريات ، والفتيين الساقي والخباز ، ومليك مصر الريان ، والملأ الذين استفتاهم فلم يفتوه ، وفي أحفاد يعقوب، وفي خدمة يوسف لأرباب الحكومة في تلك العصور ، و ... و ... الخ ، ولكن الله سبحانه اقتصر على « يوسف وإخوته » لأنهم موضوع القصة ، ومحور السيرة، وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعرض ، فقصة يوسف كتاب مفتوح ، ذو أبواب وفصول وذيول وحواش، ولكن اهم ما في هذا الكتاب «يوسف واخوته».

جعل الله سبحانه هذه السورة الشريفة علة من العلل ، التي يُظهِر فيها حِكَمه ووسيلة من الوسائل ، التي يرشد الناس بها للعبرة والعِظة فعلى الرجل الرشيد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب بل لما حوته من العظات والعبر ، وما اشتملت عليه من الحكمة والأدب .

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها ، أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها ، ويتعلم رموز الحكم التي رُميزت فيها ، والغاية التي أراد الله تعالى

من سرد مواضيعها ، ولعمري إن القاريء لهذه السورة إذا لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يجتنى منها ، ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة ، وإنه إن كانت غايته من هذه السورة التلذذ بقراءتها والبلوغ الى آخرها ، دون تفهم ما يقرأ منها ، وبلا تفكر في عِبرها وحِكَمها ، فلاريب أنه لا يعود عليه شيء يرجع اليه نفعه في تأديبه وتكميله ، ووقوفه على عجائب التدابير والألطاف الإلهية ، وباهر الحكم الربانية ويكون مثله كمثل رجل قدّم له لوز صحيح فلا بد أن يكسره ويستخرج ما فيه ، لكي ينتفع منه النفع العظيم ، وإلاّ لم ينتفع إلا بالتمتع برؤية قشره الذي هو ظرف لبّه .

ينبغي لقاريء هذه السورة الكريمة أن لا تكون غايته معرفة معاني المفردات فقط ، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب ، ولا استفادة النكت التي تذكر في علم البلاغة فقد ، فإن هذه الأمور وإن كانت مهمة في ذاتها ، لكن هناك ما هو أهم منها جداً ، وذلك كما قلنا هو الإشراف على ماتضمنته هذه السورة من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الإجتماعية ، والعِبَر الربانيـــة ، فيقف القارىء عند كل مثل وجملة وكلمة وحرف من حروف المعاني ، ومقدمــــة ونتيجة ، وتأصيل وتفريع ، وقاعدة كونية ، وتطور مدهش ، وانقلاب سريع .

يجب على قاريء هذه السورة الكريمة أو سامعها أن يلتمس جواهر معانيها ، ويلتمس درر مراميها ومغازيها ، ولا يظن أن نتيجتها هي الإخبار عن حيلة إخوة يوسف حتى أخذوه ، أو مغازلة السيدات المصريات ليوسف وجماله ، أو محاورة الجنود المصريين لإخوته حين اتهموا بأخذ الصواع ، أو بغير ذلك ، فينصرف بهذا عن الغرض المقصود ويكون مثله مثَلَ الغواص في البحر الذي كان يلتقط الجواهر ذات القيمة ، فرأى في عقيق الماء سمكة ، فترك الصدف الذي فيه الدر الثمين ،

وقذف نفسه في اللجة التي فيها السمكة ، فاشتغل بصيدها عن التقاط الجواهر ، كأنه نسيها أو تناساها أو جهل أنها تساوي أموالاً كثيرة، وكذلك الأغرار الذين يجمدون عند الفاظ هذه السورة وظواهرها ويغفلون أمر التفكير فيما شملته من الحِكم والعِبَر وما تضمنته من الاجتماعيات وتطور الحوادث،وأسرارذلكوأسبابه.

(حسن)

(لقد كان ... الخ)

– ٢ –

قال اخونا التقي البخاري [١] :

التفكر والاعتبار حال قراءة القرآن

وهكذا سائر قصص الأنبياء التي اقتصها علينا القرآن الكريم كسائر ما فيه من حوادث الصالحين والطالحين ، والمصلحين والمفسدين ، والجبابرةوالمستكبرين ، وما الى ذلك مما أملاه الله علينا في كتابه المجيد ، فكم في ذلك من عبر وذِكرَ ، وكم فيها من فوائد وعوائد ، ولقد كنا فيما مضى نأسف جد الأسف للجمهور من أهل الاسلام الذين كانوا لا يعنون بالتفكير والاعتبار ، حال قراءة القرآن ، ولا يتأملون في مراميه ومواعظه ، حتى يقيسوا حاضرهم على ماضي غيرهم ، ولكننا اليوم نرى – والحمد لله – أنه قد نفخت روح جديـــدة في جمهور العصريين ، فطفقوا يقرأون كتاب الله بتدبر وإمعان ، جديرين بالثناء والشكران ، مما يبشرنا بحسن مستقبل الاسلام ، وسَيْرهم الى الأمام .

(١) نسبة الى بخارى من بلاد التركستان

وإذا كان في المسلمين اليوم قوم لا يعبأون بالتفكر والتدبر حال قراءة القرآن الكريم ، وقوم يعنون بذلك ويهتمون له كثيراً — فليس ذلك إلا لأن فينا رجالاً قد اهتدوا الى سواء الصراط ،وآخرين لم يظفروا من ذلك الا بحظ قليل.وانتشار العلم الصحيح في أهل الاسلام في هذا العصر ، وازدياد انتشاره من يوم لآخر ، واتجاه الجهود الفردية والجماعية الى التنور والتفكير — كل ذلك سيقضي غداًأو بعد غدٍ بأن يكون المستقبل للقرآن وأهل القرآن ، وما ذلك على الله بعزيز .

(اطال الله بقاءك)

(واخوتهِ ...)

- ١ -

قال الفاضل الاستانبولي [١] :

القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية

لي ههنا كلمة وهي ربما يقول قائل : إنا نرى كتب اليهود التي يسمون مجموعتها « العهد العتيق » تذكر أسماء الرجال والنساء والزوجات والصبيان والبنات ، وتأتي على أسماء المواضع التي حدثت فيها الحوادث ، وربما تعرضت لذكر زمانها ،فما بالنا نرى القرآن الكريم لا يأتي على مثل هذه التفصيلات أو على ما يقرب منها ؟ هذا سؤال طالما شغف بذكره دعاة النصرانية في الانتقاد على كتابنا الحكيم .

وأما نحن فنجيب عنه بجوابين :

الجواب الأول — إن حوادث الأسباط الأقدمين ، وما جريات الآباء الأولين

(١) نسبة الى استامبول من بلاد الترك

– إنما تهم بالدرجة الأولى سلائلهم اليهود ، فلذلك عني في توراتهم بذكر كل جزئية من جزئيات أخبارهم ، فذلك يهمهم كثيراً ، ويلذ لهم جداً ، ويشتاقون اليه أيما اشتياق ، بخلاف العرب وما إليهم من العناصر ممن لم يكونوا يهوداً ، فلا يهمهم من هذه الحوادث إلا ما كان جوهرياً منها ، هو الروح،وهومحل الاستشهاد وأما ما عدا ذلك فلا لزوم للتطويل بذكره ، سيما وقد طال عليه الأمد ، وانهم من عنصر غير عنصر العرب ، فالتوراة تضع تواريخ الآباء ليقرأها أبناؤهم اليهود ، وهؤلاء الأبناء متشوفون متشوقون الى سيرة أسلافهم ، حتى لمعرفة أسمائهم وأسماء أولادهم ، فهذا النوع من البيان ربما كان فيه شيء من الأهمية بالنسبة لليهود،ولكنه بالنسبة للعرب وباقي العناصر فليس مهما ، إنما المهم الوقوف على ما فيه من الجوهر والروح ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم .

الجواب الثاني – إنالسفر الذي بيد اليهود اليوم المدعو«توراة» أو«عهداً عتيقاً» هو تاريخ كباقي تواريخ العالم يجمع الغث ، والسمين ، ويذكر المهم وغير المهم ، ويأتي على ما فيه فائدة روحية وعلى ماليس فيه ذلك ، بل يذكر مايعود بالضرر على القاريء – على شرفه ودينه ومروءتهوعرضه – حتى أنه ليذكر حوادث زنا الأنبياء (حاشاهم) وزنا أبناء الأنبياء وبناتهم – على قوله – وحتى انه ليذكر سكرهم وكذبهم وختلهم ، وحتى انه ليذكر ، انهم قوادون على نسائهم الى آخر ما تقشعر منه الجلود ، وتتبرأ منه الانسانية!!! كأنها تفعل هذا كباقي المؤرخين الذين يذكرون في أسفارهم كل ما هب ودرج ، ومن كل مـــا بين السماء والماء ، وأما القرآن المجيد فليس تاريخاً ينبغي أن يذكر فيه جميع أسماء الأزمنة والأمكنة والأشخاص الذين لهم تعلق بالسيرة التاريخية ، أعني أن القرآن إذا ذكر نبذة من التاريخ فلا يذكرها على أنها تاريخ حتى يجب عليه أن يلتزم ذكر هذه الأشياء

تفصيلا ، وإنما يذكر ذلك لأجل العبرة والقياس كما سيأتي قوله : « لقد كانَ في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأولي الألباب » (ع : ١١١) ، أو بيان سنن الاجتماع كما قال: ﴿ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم سُنَنٌ ، فَسيرُوا في الأرضِ ،فانظروا كيف كان عاقِبَةُ المكذّبين ﴾ (٣ : ١٣٧) ، أو للهداية والعظة كما قال : ﴿ هــذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتقين ﴾ (٣ : ١٣٨) ، أو للتذكر كما قال : ﴿ إنْ هو إلاّ ذِكرَى للذاكرين ﴾ (٦ : ٩٠) ، الى غير ذلك من المقاصد الدينية ، فالقرآن لا يذكر شيئاً من التاريخ إلا لذلك ونحوه ، فلا يذكر قصة لبيان حدوثها ولا لأجل التفكه بها ، أو الإحاطة بتفاصيلها وجزئياتها ، وربما اكتفى القرآن بموضع العبرة ومحل الذكرى ، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها التي لا تزيد في العبرة ، بل ربما تشغل عنها .

وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الأزمنة الى الاقتداء بهذه الطريقة فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون من الاحكام الاجتماعية ، وهي الأمور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات ، لما يقع فيها منه الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولما في قراءتها من الاسراف في الزمن ، والاضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلا .

إن محاولة جعل قَصَص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على انه بيان لها — هي مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصده وحكمته، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونُعْمِل أفكارنا في استخراج العِبَر منـــه ونَزِعَ نفوسنا عما ذمّه وقبّحه ، ونحملها على التحلّي بما استحسنه ومدحه .

وجملة القول ان طريقة القرآن في قَصَص الذين خَلَوْا هي منتهى الحكمة التي اهتدى اليها المؤرخون الراقون ، وما كان لمحمد الأمي الناشيء في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي اليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ، ولكن ذلك وحي يوحى ، وتعليم من الله يُقتَفى . (مرحى)

(واخوته ...)

– ٢ –

قال السيد البصري :

سلامة قلب الاناث وبعدهن عن حسد أقاربهن

نعلم من التاريخ أنه كان ليعقوب بنت اسمها « دينه » من زوجته « ليئة » ولدت بعد إخوتها الأشقاء الستة ، فهي أخت يوسف لأبيه ، ولكن ليس لهذه الأخت مشاركة في حسد يوسف والكيد له ، ولم يذكر عنها أقل انتقاد على أبيها من هذا القبيل .

ونعلم أيضاً من التاريخ أن ليعقوب من الحفدة الإناث « سارَح » وهي بنت ابن « أشير » ولكن هذه أيضاً لم يخبرنا التاريخ أن لها دخلًا في الانتقاد على جدها مع أحفاده الذكور حينما قالوا له : « تاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القديم » — الأمر الذي نستنتج منه سلامة قلب الإناث مطلقاً من أخوات وبنات أخ ، وشدة بعدهن عن حسد وعداء أقاربهن على كل حال ، شأن النساء عموماً في ميلهن للطف والحب ورقة العاطفة ، هذه كلمتي المختصرة والسلام عليكم .

(آيات)

— ١ —

قال مولانا النجفي (١) :

العبر المتضمنة قصة يوسف

في قصة يوسف وإخوته عِبَرٌ وعِظاتٌ تقطع أعناق الإبل للوقوف عليها ، وإليكم بعضها :

١ ـ إنه قد يقع بين الإخوة من العداء مثل مايقع بين الأجانب بل أشدوأشد.

٢ ـ تمدد الزوجات قد يفضي للنزاع والتحاسد بين الضرّات فتسري عدوى ذلك لأبنائهم .

٣ ـ إنه قد تجتمع الجماعة الجمّاء الغفيرة ولو أقارب على الحاق الضرر والكيد لذي قرباهم ولو أخاً صغيراً !!

٤ ـ إن الحسد قـــد يكون على مجرد الحب ، وهو غريب (حتى على الحب لا أخلو من الحسد) فكيف لو كان مشفوعاً بمساعدات مادية وتخصيصات مالية ؟!

٥ ـ إن الأب مهما احتاط في حفظ ولده من الحسدة فمن الممكن مع الاحتياط أن يغتاله الحاسدون ويضره الضارون .

٦ ـ إنه كما تقع العداوات والأضرار بين أولاد غير الأنبياء فكذا تقع بين أولاد الأنبياء وسلائل الأولياء وذراري ذوي البيوتات المجدة .

---

(١) نسبة إلى النجف الاشرف من بلاد العراق .

٧ ـ إن المحسود وإن لحقه في البدء ضرر وأذى فربما ستكون العاقبة في مصلحته وإنه سوف ينتصر على أعدائه ومقاوميه .

٨ ـ إنه ينبغي للمحسود أن يعفو عند المقدرة ، وليس هذا فقط بل يحسن منه أن يقابل السيئة بالحسنة ، والحرمان بالعطاء .

٩ ـ إنه لا بأس للمكيد إذا قوي أن يشذب شوكة كائديه خوفاً من إعادة الكرة ثاني مرة .

١٠ ـ إن من اتقى ارتقى، ولو خاصمه كل أهل الشقاء ، كما قيل: (كنْ معَ اللهِ ولا تبالي) .

١١ ـ إنه متى تقاربت طباع جماعة أنس بعضهم ببعض وتحابوا ، وكانوا حزباً وحرباً على من ليس من مسلكهم ، فهؤلاء الأخوة العشرة لما اتفقوا في الصفات اتفقوا على كراهة يوسف الذي هو (أمّة وحده) فضلاً ولطفاً وأدباً وكمالاً .

١٢ ـ إن الفاضل الخبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء كما جرى على يعقوب من أولاده !

١٣ ـ إن الإخوة قد تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذى ينتسبون إليه واتحاد الخؤولة والبيئة البيتية والوطنية .

أبوك أبي والأصل لا شك واحدٌ

ولكننا صنوان ورد وخروع

فيوسف وإخوته كانوا كما قال أبو الطيب :

تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه النّجار (١)

(١) النجار الاصل .

١٤ ـ الانسان الكامل مهما اعتورته الفتن وأحاطت به المشتهيات فلا بد أن يتغلب عليها بكماله وعفافه كما وقع ليوسف الصديق مع امرأة العزيز ثم النسوة المصريات.

١٥ ـ إنه متى كان الله مع الإنسان، ارتفع من عقر البئر إلى رأس المأذنة وصعد من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك طفرة وخرقاً للعادة.

١٦ ـ إن أعمال يوسف تصدق القول بأن يوسف نبيّ، وأعمال إخوته تصدق القول بعدم نبوتهم، خلافاً للعوام.

١٧ ـ إنه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً، بل ولا يقتضي أن يكون ابن التقي تقياً، ولكنه قد يتفق اتفاقاً.

١٨ ـ إن العبرة بالأواخر، ولذلك سمّي إخوة يوسف « كواكب » — مع العلم بما سيقع منهم — نظراً لعاقبة أمرهم وتوبتهم أخيراً وصلاحهم آخر أيامهم.

١٩ ـ عاقبة التقوى والصبر الفرج: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢: ٩٠).

٢٠ ـ كان مآل إخوة يوسف فترة بعد شرة، وأناة بعد طيش، وحلماً بعد نزق، وفناء جماعة في فرد هو « يوسف ».

(آيات)

ـ ٣ ـ

قال الشيخ الموصلي (١):

العبرة بعاقبة يوسف واخوته

لا أحد يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد، وما دبروا من ختل وحيلة،

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق.

وكيف نصبوا له الحبـائل ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، وسولت لهم أنفسهم أمراً ، وألقوه في غيـابة الجب ، فما كان عاقبته ألا أنه تربى في مصر ، وترعرع وبلغ أشده ، ثم كان لإخوته من المحسنين .

هذه كانت قصة يوسف ، وذلك نبأ إخوته ، كانمنهمالإساءة ومنه الاحسان ومنهم الشر ومنـه الخير ، وكان أول أمره عنـــاء وآخره هناء ، ومبدأه ذل ، ونهايته عز ، وعلى العكس كان حال إخوته ، كان مبدأهم الاستقـــلال وأخيراً صاروا تحت سيطرته ، ذلك عبرة للمعتبرين ، وفيه آيات للسائلين .

تنبئك قصة يوسف مع إخوته بما يلاقيه ذوو الفضل من تعدى الجاهلين ، فما في الأرض من فاضل إلا ّ كان في أول أمره مطارداً منبوذاً من الأعداء ، تسطوا عليه الأقرباء ، وتحط من قدره الأصدقاء ، وتهينه الأوليـــاء ، استغراباً لقوله ، واستهجاناً لعمله ، وحطاً من شأنه ، وحسداً على ما آتاه الله من فضله ، وإحباطاً لأمـله ، وتشنيعاً عليه ، واستهزاءً بما لديه ، فان صبر فاز ، وإن جزع باد ، تعجب كيف كانت حال يوسف الصديق ، بيع للمصريين ، وترعرع في بيت العزيز ، ثم حافت به الفتنة ، وصبر على الظلم والسجن ، ولم يدر ظالمـوه أن السعد سيخدمه ، وأن راية العز ستخفق فوق رأسه ، وأنه سيقبض على ناصية البـــلاد ، وتدين له العباد ، ويساعده الزمان ، وينسج على ما قاساه عنا كب النسيان .

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفـة ، فليُبشر اولئك الذين صدقت نياتهم ، وحسنت أعمالهم ، وأخلصوا لأمتهم ، فسوف يُبدل شقـــاؤهم راحة ، وذلهم عزاً وسعادة ، هذا هو ناموس الوجود ، لم يشذ منـه نبي مرسل ، ولا عالم فاضل ، وكانت العاقبة للمتقين ، ولقد كان لنا في رسول‌الله (ﷺ) أسوةحسنة فلقد أوذي كما أوذي يوسف‌الصديق ، وما آذاه إلا أقرباؤه‌الأدنَون ، وما تألب عليه سوى قريش ، ثم نصره الله كما نصر يوسف ، وآوى اليـه من كان يؤذيه

كأبي سفيـان وزوجه هند ، وغيرهما من عِلْيَةِ القوم وسراتهم وعظمائهم ، فأصبحوا له خاضعين ، كما خرّ إخوة يوسف له ساجدين ، آمنـا بناموس الله وكتابه الكريم .

(للسائلين)

- ١ -

قال الاستاذ الحلبي :

تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها

للسائلين — أي لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها، ويُعنى بغرائب الأعمال ونتائجها .

للسائلين — الذين يستحثون الأخبـار ، ويستطلعون الوقائع ، ويتطلبون الوقوف على الحوادث .

للسائلين - الذين يسألون الرواة ، وأهل الذِكْر ، ويسألون التاريخ الذي سجّل سيرتهم ، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم .

للسائلين — الذين يهمهم الوقوف على العِبَر والعظات ، وتهمهم الاستفادة من القَصَص والمَثُلات .

للسائلين — الذين يتأملون في أسباب حوادثهم ونتائجها ، والوقوف على القواعد الاجتماعية ، والفوائد التاريخية .

للسائلين — الذين يحرصون على العلم والتعلم ويبحثون عما يجهلونه حباً منهم في العلم والمعرفة ، فهم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها

وأما الذين لايسألون عما يجهلون ، ولا يجتهدون أن يقفوا على ما يجب الوقوف عليه، بل يستوي عندهم العلم بالشيء وجهله ، من كسلهم انهم إن جاءهم شيء عرفوه ، وإن لم يسمعوا شيئاً لم يسألوا عنه ، ولم يأبهوا به ، فالعلم بالشيء والجهل به سيان عندهم ،فهؤلاء الكسالى لا يعتبرون بما يسمعون من الحوادث ، ولا يحفلون بالآيات التي يجب أن يستفيدوها من التاريخ وحوادث الدهر ، فلهذا كلـه خص استفادة الآيات « بالسائلين » عنها ، دون سواهم .

مقدمة المؤامرة

آ(٨) ﴿ إِذْ قالوا : لَيُوسُفُ وأخوهُ أحَبُّ الى أبِينا مِنّا ، ونحنُ عُصْبَةٌ !!! ، إنَّ أبانا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ !! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة فقام الأستاذ الحمصي وقال :

(إذ قالوا)قولاًمبطناًبالزراية بأخويها والنقد على أبيها(ليوسف) بالتأكيد(وأخوه) بنيامين ، وهما اثنان صغيران ، (أحب الى أبينا منا) فانه يحبها من أخمص قدمه الى فرع رأسه (و) الحال اننا (نحن عصبة) جماعة ، عشرة رجال ، فنحن أحق بزيادة المحبة منها ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليها (إن أبانا) يعقوب الشيخ الهرم (لفي ضلال مبين) أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك ، وحقاً إننا نحتج عليه بهذا العمل ، وصدق من قال (الحب أعمى) (وحبك الشيء يعمي ويصم) .

فمنشأ هـذا الحسد هو تفضيل يعقوب يوسف وأخاه في الحب ولكن لايجوز أن ننسى أن للامهات الضرائر ههنا دخلاً في هذا الحسد وهذه الحركات ، فانهن مثار حركات أولادهن .

(إذ قالوا . . الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ الصيداوي :

مفاوضة الاخوة في شأن يوسف

لقد تم الكلام أيها السادة على يوسف وحلمه ، ويعقوب وبشارته لابنه ، والآن نشرع في المفاوضة التي تبودلت بين إخوة يوسف في شأنه :

اجتمع إخوة يوسف العشرة ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الاهتمام يمازجها الانتقاد المر على أبيهم الكريم ، تذاكروا في حال والدهم مع عموم أولاده واضطراب جو معاملته لهم ، وعدم مساواته بينهم في التوجه والمِقَة ، فاستشاطوا غيظاً ، وأضْغَنَ بعضهم بعضاً على أبيهم ، عقدوا مجلساً تآمروا فيه وتشاوروا متذمرين من أبيهم ، محرقين أسنانهم ، قائلين لنتحدث هنا بهدوء وسكينة عن هذا العطف الأبوي لأخوينا الصغيرين خاصة ، إن يوسف وبنيامين أقرب الى قلب أبينا منا ، وأفضل عنده من جميعنا ، فلا نرى فيه شيئاً من روح المساواة بين الأولاد ، نقول ذلك ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه يجب على كل أب أن يساوي بين أولاده في المحبة ، في الأعمال ، في التوجه ، في الالتفات ، في التمليك ، في التعليم ، في الراحة ، وفي كل موجبات السرور ، فأبونا ـ مع احترامنا لشخصه ـ هو «غلطان» ، ولذلك لم يبق لنا صبر على السكوت عن هذا الأمر الإدّ ، كيف وهو يحمل بين جنبيه قلباً خلواً من الانصاف والعدالة التي تنبغي للأولاد من والديهم . قالوا ذلك

على طريق المسارّة بصوت منخفض ، لئـــلا يسمعهم أحد من الرعاة الذين كانوا معهم ، وههنا نتذكر قول أبي الأسود الدؤلي :

حسدوا الفتى إذْ لم ينالوا سعيه　　فالكل أعداء لـــه وخصوم
وترى اللبيب مُحَسَّداً لم يجترم　　شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذلك من عظمت عليه نعمة　　حُسّاده سيف عليـــه صروم

(إذ قالوا . . الخ)

- ٢ -

وقال الفاضل الطرابلسي :

سبب عداء اخوة يوسف له ولأخيه بنيامين

كان يوسف تعزية ليعقوب في أواخر أيامه ، سيمابعدموت راحيل ، سيماوأبوه يعلم أنه سيصير له مستقبل ذو شأن ، وكان بنيامين صغيراً لطيماً ابن عشر سنين ، فبالطبع كان محبوباً جداً لأبيه ، ولهذا كان يوسف أيضاً يحبه حباً جماً ، فكان يعقوب يحب يوسف حباً زائداً لهذا الوجه أيضاً كما قيل (حبيب الى قلبي حبيب حبيبي) ، فكنت لو فتشت قلب يعقوب لم تجد فيه بعـــد خالقه سوى يوسف ، فكان آثر عنده من إخوته ، وكان يظهر من أبيه أنه هو موضع الآمال ووجهـة الأماني ، وانه أنيس وحشته ، وسمير وحدته ، وعمـاد حياته ، وانه هو كل أمله ورجائه في هذا العالم ، وأنه الزهرة اليانعة في روض أولاده ، والابتسامة اللامعة في ثغر آماله ، والفجر المشرق في سمـاء عيشته ، وكانت أعمـال يعقوب وأقواله مظهراً لذلك كله ، هذا هو حب يعقوب ليوسف ، وليس هو مجرد أنه كان يضمه

ويشمه ، كما اقتصر بعض المفسرين ، فما أضعف الحب اذا كان كله عبارة عن مجرد الضم والشم ، كما أنه ليس هو مجرد أن يعقوب عمل لابنه قميصاً ملوناً ، كما اقتصر عليه آخرون ، ولكن حب يعقوب لابنه حباً كثيراً لامزيد عليه ظهر في مظاهر عديدة مما أتينا عليه ونحوه ، وأما حب يعقوب لبنيامين فلأنه أصغر أبنائه جميعاً ولأنه ابن زوجه راحيل المحبوبة ، فلذلك كان يوسف وبنيامين تحت جناح أبيهما وكانا كريمين عليه ، ولذا هاج اخوتهما عليهما وماجوا ، وقالوا : ماهو المبرر لهذا الانعطاف الخصوصي نحو هذين الولدين ؟ فهل هذا انصاف وعدالة بين الأولاد ؟ وهل هو جار مجرى المساواة المطلوبة ؟ . . اللهم كلا . . فاذاً ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ لأنه فضل المفضول علينا نحن الفاضلين على الأقوياء ، وخص بعطفه الاثنين دون الجماعة . هذا مرمى مقالتهم ، وهكذا نحتوا أثلة أبيهم ، ولعمرى لقد أصبحوا بهذا الحكم الجائر في ضلال أبين من مبين ، وأظهر من الشمس في رائعة النهار.

ولقد كنا نتوقع من هؤلاء الاخوة أن ينسجوا على منوال أبيهم في شدة المحبه منهم لأخويهم ، اقتداء بذلك الوالد الكريم ، الذي ماعمل إلا ما يرضي الله والضمير ، ولكنا رأينا منهم عكس ذلك ، وكنا نتوقع أن يكون بين هؤلاء الاخوة وفاق ، يكون من ورائه راحة عيشه لأبيهم ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء الاخوة العشرة أن يربأوا بأنفسهم عن حسد يوسف وأخيه لأنهما صغيران ، وهم كبار السن ، ربما كان للواحد منهم في ذاك الوقت ، ولد أكبر من يوسف أو بنيامين فكان ينبغي أن يكون حالهم أرفع من هذا الحال ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء « العصبة » أن يكونوا متواضعين وديعين ، وإذا افتخروا ولا بد افتخروا بآدابهم وكمالهم ، لا بالقوة والشدة . ورحم الله أبا نواس حيث يقول :

عجبت للانسان في كبره وهو غداً في قبره يقبر

مابال من أوله نطفـــة وجيفـــة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

ولله في ذلك حكمة ، وله في خلقه شؤون : ﴿ وكذلكَ فَتَنَّا بعضَهم بِبَعْضٍ ، ليقولوا : أهولاءِ مَنَّ اللهُ عليهم مِنْ بَيْنِنَا ؟ ، أليسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرين ؟ ﴾ (٦ : ٥٣) .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٣ —

وقال الشيخ محمود الخليلي (١) :

اسباب عداء الاخوة المهمة ليوسف

كانت إخوة يوسف على جانب عظيم من بغضه والنفرة منه وعدائه ، ويرجع ذلك لأسباب شتى نجملها فيما يلي :

١ ـ زيادة محبة أبيه له وتفضيله إياه .

٢ ـ كونه ابن راحيل الجميلة المحبوبة الحظية عند زوجها .

٣ ـ اختلاف الطباع بينهم وبين أخيهم ، فيوسف كان روحياً ميالاً للمعنويات، وهم كانوا جـدبين ميالين للماديات ، فلم تأتلف طبيعة الطرفين بل كانت مختلفـة أيمـا اختلاف .

---

(١) نسبة إلى الخليل من فلسطين .

٤ ـ إنه كان لا يكلف عملاً ما ، بخلافهم فقد كانوا يعانون رعى الأغنام .

٥ ـ العداء الذي كان بين ليئة وضرتها أختها راحيل ، فكانت الأولى مغلوبة مكسورة الجناح لمرض في عينيها ، بخلاف الثانيه فكانت منتصرة عليها لجمالها ولأنها الصغرى ولأنها هي التي أول ما لحظها سيدنا يعقوب عليه السلام عند البئر .

أتى حبها من قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ولأنها هي التي كان يعقوب خطبها أولاً من أبيها ، ولكنه أدخله على ليئة بدلاً منها ـ على ذمة التوراة ـ فالخلاصة إنه لأسباب نسائية انعقدت العداوة بين الأختين الضرتين ، فانتقلت بطريق السراية والعدوى إلى الأولاد .

٦ ـ كانوا يتخيلون إن يوسف يترفع عليهم ، فكانوا يظنون إنه استمد هذه القوة من محبة أبيه إياه .

٧ ـ أحلام يوسف التي كانت تزعجهم وتذيب لفائف قلوبهم ، إذ كان يوسف رأى رؤياه الأولى فذكرها لإخوته ، فقال له إخوته : « ألـَعَلـّكَ تصير علينا ملكاً ، أو على الأقل يكون لك علينا سلطة » وازدادو بغضاً له من أجل حلمه هذا ومن أجل كلامه ، ثم رأى رؤياه الثانية التي هي أبلغ من أختها . فذكرها لأبيه فقط ، ولكن الرؤيا فيما بعد بلغت أسماعهم ، ثم لا بد أيضاً أن يكون قد نُمِيَ اليهم ماقاله أبوهم لأخيهم من البشائر المستقبلة ، فلهذا مع ما كان يبدو من إمارات ظاهرة ودلائل ناطقة ، على كثرة حبه له ، تفاقم الأمر لديهم ،واستشرى عداؤهم ليوسف ، وبلغ السيل الزُبى واعتقدوا أن اباهم التَهَم حقوقهم البنوية ، فقالوا عن يوسف وسَوْغِه : إنهذينالولدين لايزالان عثرةفيطريقناالى اكتساب

توجه أبينا الينا ، وبنوع خاص يوسف ، فانه هو العلة الوحيدة لرغبة أبينا عنا ، فحقا إن يوسف هو الجدير بالمجازاة ، لأنه السبب الوحيد في ذلك ، وهو أيضاً الذي لا يزال يكاثرنا باحلامه ، ويباهينا بأوهامه .

وتابع الشيخ الخليلي كلامه قائلا :

تفنيد عداء اخوة يوسف له

هذه هي أهم الأسباب التي حدت بهم الى كره أخيهم ، ثم انتقاد أبيهم ، ولعمري إنهم يخطئون في ذلك ، لأن أخاهم كان في سن لا ينبغي معها توجيه الكراهة اليه ، ولأن أباهم في الحقيقة لم يحب شخص يوسف فقط لأنه يوسف ولأنه مركب من لحم وعظم ، ولكنه أحب من ستسجد له الكواكب الأحدعشر والشمس والقمر ، أحب من سجدت الحزُم الأحد عشر لحزُمته في الحقل ، أحب الذي سيجتبيه ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أحب من سيتم الله نعمته عليه ، كما أتمها على ابراهيم وإسحق ، ، فيعقوب أحب هذه المعاني السامية والمواعيد المجيدة ، التي سيكون يوسف مَظْهَراً لها ، فحبه إنما هو ليوسف في تلك المواعيد ، أو لتلك المواعيد في يوسف . نعم . نعم يوجد في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما يوجد بين الغرباء ، ويشتد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارهما من نيلها ، أو تشابهت أسبابها إليها ، ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة ، فإخوة يوسف ههنا وقع التحاسد والتزاحم بينهم على نعمة هي اكتساب توجيه أبيهم ، وكل منهم يعتقد أنه قادر على نيل هذه النعمة ، لأن السبب الذي حصل عليه يوسف (فيما يعتقدون) حاصل عندهم أيضاً وما هذا السبب في اعتقادهم سوى النبوة ، بل هم يظنون أنهم حاصلون على شيء آخر يقوي هذا السبب ويدعمه ،

وهو أنهم رجال أكفاء أهل عمل ودفاع ، ولذلك تخيلوا أن أباهم غالط في أنه كان أشد احتفاظاً بيوسف ، حتى كان أكرم ولده عليه ، كأنه واحد أبيه ، ليس له ولد غيره ، وإن هذا الأمر يقضي بالعجب العجاب . هذه شبهتهم التي اتكأوا عليها ،وما دروا ان ماتصوره ليس هو السبب التام بل السبب التام هو المزايا والخصائص التي كانت في شخص يوسف ، فهم غالطون أو مغالطون في قياس أنفسهم على أخيهم فهو قياس مع الفارق أو مع الفوارق ، هذا ما يحضرني الآن ، فتأملوه يرحمكم الله ، والسلام عليكم .

(اذ قالوا ليوسف واخوه .. الخ)

– ٤ –

قال تقي الدين المقدسي :

ضرر تعدد الزوجات

من أعظم أسباب عداء إخوة يوسف العشرة ليوسف وبنيامين اختلاف الأمهات (كما سبق أن أشار اليه بعض المحاضرين الأفاضل)مع ضميمة ان سيدنا يعقوب كان يحب راحيل أكثر من كل من سواها ، مع ضميمة أنه قد كان يوجد بين راحيل وبين ضرائرها الثلاثة لا سيما ليئة الحُرّة من الحسد والغيرة ما هو معهود اليوم بين سائر الضرات ، والتاريخ يعيد نفسه وليس تحت الشمس من جديد وما أشبه الليلة بالبارحة ، فلذلك انتقل العداء الذي بين راحيل وسواها ، وسرى للأبناء طبعاً ، وهذا المرض هو بعض مايقاسيه الرجل الذي يتزوج أكثر من واحدةٍ ، وهذا من بعض اسرار قوله تعالى : ﴿ فإنْ خِفتُم أنْ لا تَعدِلوا

فَوَاحِدَةً ﴾ (٤ : ٣) ، ثم قال : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (٤ : ١٢٨) فالبيت الذي فيه زوجتان مثلاً لزوج واحد لا تستقيم له حال ، ولا يقوم فيه نظام ، وقد ينتقل الضرر من كل ضرة الى ولدها ـ الى والده ـ الى سائر أقاربه ، فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء الى مالا نهاية له ولعبد العزيز الديريني :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي	وقد حاز البلى زوج اثنتين
فقلت أعيشُ بينهما خروفاً	أنَعّمُ بينَ أكرمِ نعجتين
فجاء الأمر عكس الحال دوماً	عذاباً دائماً ببليتين
رضا هذي يحرك سخط هذي	فما أخلو من احدى السخطتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى	نقار دائم في الليلتين
إذا ما شئتَ أن تحيا سعيداً	من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا فإن لم تستطعه	فواحدة تكفي عسكرين

وبعد فلا بد ـ كما أشار اليه أخونا الشيخ محمود الخليلي فيما مر ـ أن يكون لتعدد الزوجات دخل في هذا الحسد ، فقد كان يوجد كره بين « راحيل » أمّ يوسف الصديق ، وبين شقيقتها « ليئة » حيث الاولى كانت جميله وصغيرة ومحبوبة أكثر ، فكانت الثانية حاسدة لها حاقدة عليها ـ الامر الذي أوقد نار الحقد والعداء في صدر الأختين ، فاستطارت منها شرارة الى صدر أبنائها ، وبعبارة أصح استطارت شرارة من صدر « ليئة » الى صدور أبنائها الستة ، ثم بالتبعية من صدر جاريتها « زلفة » لصدر ولديها .

سبحان الله ! أزواج يتخاصمن على التافه ، ويكبرن من شأن الشيء الحقير ،

وأبناء تزرع فيهم أمهاتهم بغض الإخوة ، وربما وشيئاً من كراهة الآباء ،وكل هذا من نتائج تعدد الزوجات لغير حاجة .

نعم ، وإن ديننا ينص على جواز تعدد الزوجات ولكنه نص محوط بالقيود والأغلال ، نعم ، أباحت لنا شريعتنا التعدد المحدود ، لكن الله تعالى قال لنا في أثر ذلك : ﴿ فإنْ خِفتُم أنْ لا تَعدِلوا فَوَاحِدَةً ﴾ (٤ :٣) ، غير اننا نحن ما تقيدنا بهذا القيد المتين ، بل أهملناه فانفسح لنا مجال الإجرام ، فاللوم ليس على شريعتنا ، بل علينا نحن ليس إلا .

لم يسند الله الحسد لجماعة معينين إلا لليهود

قلت لكم : إن ما قاله إخوة يوسف ناشيء عن الحسد الذي ملأ صدورهم ، وإن تعجبوا ، فعجب أن الله تعالى لم يسند الحسد لجماعة مُعيّنين إلا لليهود وذلك في موضعين الأول قوله تعالى : ﴿ أم يَحسُدونَ الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فَضْلِه ﴾ (٤ ٥٣) والثاني قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الكتابِ لوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إيمانِكم كُفّاراً ، حَسَداً مِن عِندِ أنفُسِهم ﴾ (٢ : ١٠٩) فليعلم ذلك أهالي فلسطين خاصة والعرب عامة وليأخذوا حذرهم من الصهيونيين ...

الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن

وهنا أمور مدهشه تستلفت الأنظار ، كلا ، بل هي من الغرابة بمكان :

١ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف أبناء يعقوب العشرة بأنهم حسدوا

أخاهم، وضللوا أباهم، وتفاوضوا في قتل يوسف أو طرحه أرضاً، ثم رجعوا للعمل على إلقائه في غيابة الجب ليلتقطه بعض التجار، ثم توصلاً لذلك احتالوا على أبيهم بأنهم ناصحون لأخيهم، والحال انهم غاشون، ثم وعدوه إن أرسله معهم أن يحفظوه، ثم أخلفوا وعدهم، بل كانوا منذ إعطاء الوعد مصممين على عدم الوفاء به، ثم كانت النتيجة أن ذهبوا به وأهانوه وألقوه في غيابة الجب، فقطعوا بذلك الرحم وعقّوا أباهم وآذوه ثم رجعوا لأبيهم داعين بالويل والثبور وعظائم الأمور، عجب عاجب وأمر غريب !!!

٢ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يحكي عن «قابين[1]» أنه حسد أخاه «هابيل» فقتله، فأصبح من الخاسرين (٥ : ٣٠ ـ ٣٣) فالعبرة في هذا القصص أن حادثة ابن آدم هي أقدم قصة يدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، من اجتماع العشيرة في الدار ـ إلى اجتماع القبيلة ـ إلى اجتماع الأمة والدولة ـ فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين، وهو لم يتعرض لمثلها لينالها، فينبغي على أخيه ولو بما فيه شقاء الأبد.

٣ ـ نقرأ في كتاب الله فنجده يحكي أن ابن نوح عليه السلام أبى أن يدخل في سفينته فكان من المغرقين، وأنه كان عملاً غير صالح، حتى أنه لعدم صلاحه خرج من عمود النسب (١١ : ٤٢ ـ ٤٧).

٤ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول: ﴿ضَرَبَ اللهُ مثلاً لِلذينَ كَفَروا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ، كانتا تحت عبدَيْنِ مِنْ عبادِنا صالِحَيْنِ فخانتاهما فلم يُغْنيا عنهما مِنَ اللهِ شيئاً، وقيلَ: ادخلا النارَ مع الداخلين﴾ (٦٦ : ١٠).

٤ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف آزر أبا سيدنا إبراهيم بأنه كان

---

(١) ويسميه بعضهم قابيل

من عبدة الأوثان ، ولياً للشيطان ، (١٩ : ٤٢ - ٤٦) وأنه كان عدواً لله (٩ : ١١٤) .

٦ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن قارون (قورح) بغى على موسى ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين (٢٨ : ٧٦ و ٨١) مع أن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه « قارون بن يَصْهار بن قَهَات » ، وأما موسى فهو « موسى بن عمران (عمرام) بن قَهَات » ، فلم تنفعه القرابة القربى .

٧ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول ﴿ ولقدْ فَتَنَّا سليمانُ ، وألقينا على كرسيِّهِ جَسَداً ﴾ الخ (٣٨ : ٣٤ - ٤٠) وذلك حينما كان سليمان وليّ عهد أبيه ، فتعدى عليه أخوه « أدونيّا » واغتصب منه الملك : وكان هذا في حال شيخوخة أبيهما داود ، ولما سمع داود أمَرَ بمسح ابنه سليمان ملكاً بالفعل ، فهبّت ريح سليمان بمُلْك عظيم ، إلى آخر ما هو مذكور في القرآن والتاريخ ، وهذه الحركة كانت من ابن نبيّ على ابن نبيّ في حالة حياة أبيهما .

٨ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن « أبا لهب » وامرأته « أم جميل » من التّابين ، ومن صالِي النار ، مع أن أبا لهب جار النبيّ اللصيق ، وعمه القريب ، وكان قد أعتق « ثويْبَه » حينما بشرته بولادته ، وكان أبو لهب وزوجه من سنام قريش وواسطة العقد ودرة تاج العرب في ذلك العصر .

نعم . نعم . إننا نقرأ كل هذه الحوادث في القرآن ، ونروي حوادث أخرى من هذا القبيل في الأحاديث ، ونرى أمثلة كثيرة من هذه الحوادث في الأسفار التاريخية العتيقة ، فما هي الحكمة والفائدة من ذكر هذه الأخبار والأقاصيص في القرآن المجيد ونحوه يا ترى ؟

هذا سؤال كان وجهه علينا بعض طلبة العلم ، وقد أجبناه عنه في ذلك الحين بما خلاصته :

إن الحكمة والفائدة من ذكر هذه الحوادث وأشباهها هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله ، وما هو لرسله ، تصويراً لحالة الرسل الحقيقية ، وهي أنهم لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون من أحبوا ، ولا يغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إليهم في النسب ، والمعاملة الدنيوية .

وأما قاعدة وثنية العرب ، ونحوهم فهي اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده ، في شؤون الأشقاء والإسعاد ، والسلب والإمداد جعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم فجاء القرآن بذكر هذه الحوادث ، حوادث أقارب الأنبياء هادماً لتلك القاعدة الوثنية ، معلماً الناس أن مدار النجاة على الإيمان والأعمال ، ولا تأثير للأقربين والبنين . (مرحى) .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٥ —

قال المدقق اللدي :

الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين

لي هٰهنا كلمة أقولها تمهيداً للدفاع عن سيدنا يعقوب عليه السلام في حبه لولديه يوسف وبنيامين وإليكموها :

لمحبة الولد طوران : « طور الصغر » ، وهو حب ذاتي لهم ، لا علة له ولا

فكرة فيه ولا تدبير ، بل هو أمر طبيعي فطري داخل في عموم الرحمة الربانية العامة لجميع الحيوانات ، لا فرق فيها بين الإنسان والهرة ، و « الطور الثاني » حب معلول ، معه فكر ، وهو حب الأمل والرجاء بالولد، ودرجات هذا النوع من الحب على قدر درجات الأمل.

إذا تقرر هذا فحب يعقوب الزائد لولده (بنيامين) كان من قبيل النوع الأول لأنه كان إذ ذاك ابن سبع سنين ، وأما حبه الزائد لولده يوسف فكان تقريباً من قبيل النوعين ، لأنه كان صغيراً ابن سبع عشرة سنة أو أقل « وكان لأبيه فيه الأمل والرجاء العظيمان ، لما كان يتفرس فيه من إمارات النجابة ، ولما سمعه من رؤييه المناميتين ولما أوحي إليه فيه من الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ، وأنتم تعلمون أن وجوه المحبة إذا تعددت غذى بعضها بعضاً ، وعلى هذا فيعقوب معذور طبعاً وشرعاً على هذين النوعين مع الزيادة والتفضيل ، فانتقاد أبنائه العشرة عليه في ذلك في غير محله ، والسلام عليكم ورحمة الله . (حياك الله)

(إذ قالوا .. الخ)

— ٦ —

قال الوحيد الاسكندري :

اسناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً

أضاف القول إلى الإخوة العشرة جميعاً في قوله : « إذ قالوا » مع أنه لا بد أن يكون القائل هو البعض فقط ، والباقي ساكت مستمع ، وإنما صح ذلك لأن الجماعة متكافلة في الأمور العامة ، ولذلك وجب على الأمـــة

الإنكار على قائل أو فاعل المنكر من أفرادهـا ، لئلا يفشوا فيها . فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة من عاداتها،فتستحق عقوبته في الدنيا كالذل وسوءالسمعة كما تستحق عقوبته في الآخرة بمـــا دنّس نفوسها ، ولذلك لعن الله تعالى الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا وكانوا يعتدون ، وبين سبب ذلك بقوله : ﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مُنكَرٍ فعلوه﴾ (٦ : ٨٢) ، ذلك بأنمن أقر قائل أو فاعل المنكر ، فلم ينهه ولم يسخط عليه ، تكون نفسه مشاكلة لنفسه ، تأنس بما تأنس به ، ثم لا يلبث أن يقول أو يفعل المنكر ولو بعد حين ، إذا لم يعجز عن ذلك بسبب من الأسباب الحسية .

الساكت عن المنكر يكون شريكا في الاثم لفاعله

وثم وجه آخر يجعل إسناد المنكر إلى قائله والراضي بـــه إسناداً قريباً من الحقيقة ، وهو ان عدم النهي عن المنكر هو السبب في انتشاره وشيوعه ، لأن المائلين إلى المنكر لو علموا أن باقي الجماعة يمقتونهم ويؤاخذونهم عليه لما فعلوه ، إلا ما يكون من الخلس الخفية ، ولذلك كان الساكت على المنكر شريكاً في الإثم للفاعل .

ومثل هؤلاء مثل راكب مع جماعة في سفينة ، ذهب ينقر فيها ، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا معهم ، وإلا هلك وهلكوا جميعاً،ففشوّ المنكرات مهلكة للأمة: ﴿ واتّقوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا منكم خاصةً ﴾ (٨ : ٢٥) فلابد المرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش ، فهـــذا ليس من فروض الكفاية التي يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة . إذ لا يجب على كل من علم

أن هنا ميتاً أن ينتظر غسله ليصلي عليه ، بل يكفي أن يعلم أنه يوجد من يصلي عليه ولكنه إذا رآى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره .

(أحسنت أحسنت)

(ونحن عصبة ..)

— ١ —

قال الاستاذ الجزائري [١] :

وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه والرد عليه

يقول إخوة يوسف العشرة إن أبانا يفضل علينا في المحبة يوسف وسوغه [٢]، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، بل لا في العير ولا في النفير ،وأما نحن فرجال عشرة كفاة ، ملتفون حول أبينا نقوم بمرافقه من رعي الغنم وغيرها ، أولُوا قوة وأُولُوا بأس شديد ، لا نُستَذَلّ ولا نُستَقَلّ ، فما لأبينا يعبث بنا ويستصغر أمرنا ؟ هما ولدان صغيران ، لا يرجيان لدفع أو نفع ، ولا يؤمل منهما عائدة ، فما هي هذه المحبة الزائدة ؟ ولماذا يُعوّل أبونا على غُصنَين غَضَّين ،ويترك الجذوع القوية ؟ وهل يلتقط الخردل دون الجندل ؟ وأين الحسام من المنجل ؟

هذه خلاصة شبهتهم التي تمسكوا بها للانتقاد على أبيهم ، ذكرها الله تعالى ولم يذكر الجواب عنها ، لأنها شبهة ضعيفة واهية ، والجواب عنهـــا ظاهر لائح ،

---

(١) نسبة إلى الجزائر من بلاد المغرب العربي في شمال افريقية .

(٢) هذا سوغ هذا وسوغته كلاهما في الذكر والانثى ولد بعده ولم يولد بينهما (القاموس).

وخلاصته إن صغر بنيامين ويتمه من أمه ، هو الذي أوجب تفضيل أبيه له في المحبة كما هو معروف في كل عصر ومصر ، وأما يوسف فإن صغر سنه ، وعدم المنفعة الجسمانية منه ، لا يصح أن يكون أقل منهم فضلاً ، بل هو أفضل منهم ، لأنه أحيا قلباً ، وأذكى فؤاداً ، وفضل الإنسان في حياة قلبه ، وذكاء لبه ، وحسن مستقبله ، ونفع يوسف — بحسب ما علم أبوه فيه — أعلى وأجل وأبقى ، وأما القوة البدنية ، والخدمة الجسمانية ، فعاريّة تغدو وترتحل ، وتقر عيناً ثم تنتقل :

تقول أنا الكبـــير فعظموني　　ألا هبلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً　　فما فضل الكبير على الصغير

يوسف إنسان بنفسه ، حي بطبعه ، دائم الحياة بعقله وفضله ، وهؤلاء معدومون بذواتهم إذا كانوا منفردين ، موجودون إذا كانوا مجتمعين ، مفتخرون بطولهم (وبُطُولتهم) وعرضهم (وعراضتهم) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ﴾ (٤٩ : ١١) فلا ينبغي للانسان أن يعجب بالكثرة فإنها لا تغني من المعنويات شيئاً ، وليست الفضيلة بقوة الأجساد ولكن بالعقل والفؤاد .

العصبة في اللغة

واسمحوا لي قبل أن أغادر هذا المنبر أيها السادة بقص النادرة التالية : (قيل لأبي عبد الملك عنّاق : بأي شيء تزعمون أن « أبا علي الأسواري » أفضل من « سلام أبي المنذر ؟ » — قال : لأنه لما مات « سلام أبو المنذر » مشى « أبو علي » في جنازته ، فلما مات « أبو علي » لم يمش « سلام » في جنازته !) وما أشبه حال إخوة

يوسف بهذه الحكاية ؟ فإنهم ادعوا أنهم أحق بالأحبية من يوسف وأخيه ،ولماذا يا ترى ؟ .. لأنهم عصبة ـ والعصبة العشرة فصاعداً كما في (الكشاف) أو الجماعة المتعصبة المتعاضدة ، كما في (مفردات الراغب) أو من العشرة إلى الأربعين ، كما في (النهاية لابن الأثير) ، وأما الإثنان فلا يستحقان (اسم العصبة) ، لكونهما اثنين فقط ـ فكأنهم قالوا : نحن أحق بالأحبية لأننا عشرة بخلاف أخوينا الإثنين ، لأنهما ليسا بعشرة ، فهذه القضية شبيهة بتلك ، كمشابهة الليلة بالبارحة .

(إِنَّ أبانا لفي ضلال مبين)

— ١ —

قال أبو الفضل المدني (١) :

تضليل اخوة يوسف لأبيهم جهلا منهم وسفاهة

ضللوا أباهم ، لأنهم لم يكونوا يعلمون علمه ، ولكن أبوهم سيأتي يقول لهم: « وأعلَمُ مِنَ اللهِ مالا تعلَمون » ، كيف لا ؟ وقد تأكد صحة منامي ولده ، وعلم فيه من الله ما علم ، من اجتبائه وتعليمه وإتمام نعمته عليه ، وشيء من هذالم يصل مضمونه عند إخوته إلى درجة العلم :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت أجهل ماتقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

(١) نسبة إلى المدينة المنورة في الحجاز .

قيل : « العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان قبل علمه جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم، إذ لم يكن قبل جهله عالماً » ، ولرئيس المؤتمر :

واحْذَرْ الناسَ أنْ يروْكَ :مُحِبّاً أو حبيباً واذكرْ بني يعقوبا
ضلـّلوا مَنْ أحبَّ وهو أبوهم !! ثم ظلمّاً قد شرّدوا المحبوبا !!

(إن أبانا لفي ضلال ... الخ).

— ٢ —

قال الاستاذ العكاري :

شرح كلمة الضلال

لقد اختصر المفسرون في شرح كلة « الضلال » اختصاراً ، ولكني أنا الحقير لن أقف عند هذا الاختصار ، لأني لم أقف عنده فيما بيني وبين نفسي ، بلجاوزته، وأريد أن أجاوزه مع القراء الكرام ، إلى ما يقتضيه المقـــام ، من بسط في الكلام ، فأقول :

الضلال في الشيء فقدان الهدى فيه ، سواء أ كان كثيراً أم يسيراً ، وسواء أكان عمداً ، أم سهواً ، أم تأويلاً ، وسواء أ كان في الأمور الدنيوية ، أم في الأمور الدينية ، وسواء أكان في الفروع أم في الأصول ، ولذلك وصف بـــه الكفار تارة ووصف به كبراء أهل الإيمان تارة أخرى ، فمن الضلال الذي هو فقدان الفروع الشرعية التفصيلية ، أو فقدانأفضل طريق لإرشاد البشر — قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ (٩٣ : ٧) ، أي رآك ضالاً عن فروع

الشريعة التفصيلية فهداك إليها بالوحي ، أو رآك ضالاً عن الطريقة المثلى التي تنبغي لإرشاد الناس ، فهداك إليها بالرسالة .

ومن الضلال الناشيء عن السهو والخطأ دون العمد ما في قول موسى : ﴿ فَعَلْتُها إذنْ وأنا مِن الضالّين ﴾ (٢٦ : ٢٠) ومن إطلاقه على النسيان : ﴿ أنْ تَضِلَّ إحداهُما فتُذَكِّرَ إحداهُما الأخرى ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ومن الضلال بمعنى الوقوع في الغلط عن تأويل دون تعمد الغلط : ﴿ ولا الضَّالّينَ ﴾ (١ : ٧) قيل هم النصارى لأنهم لم يتعمدوا الكفر ، بل وقعوا فيه بسبب الجهل والتأويل ، بخلاف المغضوب عليهم اليهود فإن رؤساءهم وقعوا في الكفر عن عمد ، ومن الضلال في الأمور الدنيوية ما هو في آيتنا التي نحن بصدد التعليق عليها ، لأن الضلال الذي نسبوه لأبيهم إنما هو في معاملة أولاده ، ومثله ما في قول أحفاده : ﴿ تاللهِ إنكَ لَفِي ضَلالِكَ القديمِ ﴾ (آ : ٩٥) وقول النسوة المدنيات : ﴿ إنّا لَنَراها في ضلالٍ مبينٍ ﴾ (آ : ٣٠) .

وبعد فهذه الأنواع من الضلال هي أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمداً ، لا عن تأويل ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَويْلٌ للكافرينَ مِنْ عذابٍ شديدٍ ، الذينَ يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدنْيا على الآخرةِ ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ، ويبْغُونَها عِوَجاً ، أولئكَ في ضلالٍ بعيد ﴾ (١٤ : ٣) وقوله تعالى : ﴿ فكَذَّبْنا وقلنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شيءٍ ، إنْ أنتمْ إلاّ في ضلالٍ كبيرٍ ﴾ (٦٧ : ٩) ، وقوله تعالى : ﴿ لقدمنَّ اللهُ على المؤمنينَ ، إذْ بَعَثَ فيها رَسُولاً مِنْ أنفُسِهم ، يتلو عليهم آياتِهِ ويُزَكّيهِمْ ، ويُعَلِّمُهُم الكتابَ والحِكمَةَ ، وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾ (٣ : ١٦٤) ، فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي ، الذي ليس شيء أكبر منه ، وعلامته أن يوصف

بوصف بعيد أو كبير أو مبين ، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر .
وإنما وصف أبناء يعقوب ضلال أبيهم بأنه (مبين)تشدداً في البذاءة ، وغلواً في السفاهة على جناب والدهم عليه السلام .

انتقاد اخوة يوسف على تضليلهم ابيهم

أمر عجيب والله ، جماعة ليسوا بأولاد صغار ، ولكنهم رجال كبار ، وجماعة ليسوا عبارة عن ثلاثة أو أربعة ، ولكنهم عشرة ، كلهم يتفقون على حسد ولدين صغيرين لطيمين ، يتفقون على حسدهما ليس على شيءجوهري مهم ، ولكن على القبلة والبسمة والجلسة على الركبة ، يتفقون على انتقاد أبيهم وهم يعلمون أنه نبي معصوم، لا يحب إلا ما يحب الله ولا يكرم إلا من أكرمه الله ولا يخالف في حبه وكرهه شريعة الله ، كلهم يتفقون على الحكم عليه بأنه في ضلال ، ويا ليتهم اقتصروا على كلمة « ضلال » التي يوصف بها (بمجردها) كل من وقع في غلط مطلقاً ،بل وصفواهذا الضلال بأنه « مبين » ، والضلال المبين أو الكبير أو البعيد ، لا يوصف به إلا الكافر المتعمد الكفر كما قدمنا ، ثم بعد هذا كله يأتي بعض المفسرين ويوجه عليهم لقب « النبوة » ، كأنه هو الذي يملك هذه الرتب ، وكأن بيده تصريف هذه الألقاب ، فيتفضل بإعطاء النبوة لأناس ، لم يقل الله أنهم أنبياء . ولا قال ذلك رسوله ، ولا روي ذلك عن الخلفاء الراشدين ، ولا عن الأئمة المجتهدين ، وباللهماذا يعمل من يقول بذلك في الآية (٨)؟ هل يسقط هذا العدد من السورة ؟ فبعد ما كانت أعدادها (١١١) تصير أعدادها (١١٠) ؟ وهل يقدر أن يجتمع بجبرائيل أمين الوحي ليرجع اليه هذه الآية الثامنة ، بل الآيات الكثيرة من الثامنة الى الثامنة عشر ، وأضف الى ذلك الآية (٧٧) فهل يمكننا أن نطمسها من المصحف ، حتى

يمكننا أن نقول إن هؤلاء القوم أنبياء ؟ أو هل النبوة رتبة رسمية توجه لمن هو أهل لها ومن ليس لها بأهل ؟

الدخول الجَدّي في المؤامرة

آ(٩) ﴿ اقتُلُو يُوسفَ ، أو اطرَحُوهُ أرْضاً ، يَخْلُ لكُم وَجْهُ أبيكُمْ !!! وتكونوا مِنْ بعدِه قَوْماً صالحِينَ !﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآيه التاسعة فقام الحاج سعدي العكي [1] وقال :

﴿اقتلو يوسف﴾، كأنهم أطبقوا على ذلك ، إلا من قال :«لا تقتلوا يوسف» وقيل الآمر بالقتل شمعون ، والباقون كانوا راضين فجُعلوا آمرين﴿ او اطرحوه أرضاً ﴾منكورة مجهولة بعيدة من العمران﴿يخل لكم وجه أبيكم ﴾يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد من الوجه الذات كما قال تعالى:﴿ ويَبْقَى وَجْهُ ربّكَ ﴾ (٥٥ : ٢٧) وقيل يخل لكم : يفرغ لكم من الشغل بيوسف. ﴿وتكونوا من بعده﴾ من بعد يوسف ، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ـ أو يرجع الضمير الى مصدر « اقتلوا أو اطرحوا » ـ ،﴿قوماً صالحين﴾تائبين الى الله مما جنيتم عليه ، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه ، أو تصلح دنياكم

(١) نسبة الى عكا من أعمال فلسطين .

وتنتظم أموركم بعده ، بجلو وجه أبيكم ، وبعد فما ذنب أخيهم حتى يقتل أو يطرح أرضاً ، والجرم —على رأيهم — هوأبوهم ؟ ولكن صدق من قال :

لكل داء دواء يستطب به　　　إلا الحماقة أعيت من يداويها

وإنا لنعجب من هؤلاء الأذكياء المنصفين !! ، يريدون أن يخلقوا الفضيلة ، فضيلة توجه أبيهم عليهم ، من جريمة هي من أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى !!!...

(اقتلوا يوسف ... الخ)

- ١ -

ثم تابع الحاج سعدي العكي كلامه قائلا : ـ

الاقتراح بقتل يوسف أو ابعاده

كان الاخوة قد نقموا على أبيهم ، في تفضيله يوسف عليهم في الحب، وضللوه بسبب ذلك ، ولم ينقموا على يوسف شيئاً ما . فما بالهم الآن يأتمرون على قتله وسفك دمه المحرم بلا جريمة ولا جريرة ؟ .. إنّ هذا إلا أمر عجاب .

أصبح يوسف شغلهم الشاغل ، وصاروا يتقلبون منه على جمر الغضا،فاجتمعوا واقترحوا إهلاكه ! فيا للجريمة ! يا للفظاعة ! من يسمع هذا الحديث ولا يسخط على هذه الطريقة الشنعاء التي يريدون أن يستخدموها بقتله أو إبعاده أو اسقاطه في غياهب الجباب ؟ .. ثم ما الحيلة وما العمل ؟ والنافذ القوي لم يكن غير هؤلاء الإخوة الذين استبد بهم الحسد استبداداً . وأما يعقوب فكان شيخاً وحيداً ، ليس له بأولاده قوة ، بل هم قوة عليه ولم يكن له ركن شديد من عشيرته سوى أولئك المقاوبين :

لو بغير المـــاء حلقي شرقٌ كنت كالغَصّان بالماء اعتصاري

هم اتفقوا على حسد يوسف ، لسبب تفضيل أبيه له عليهم في المحبـة ، ذلك التفضيل الذي حجب أباهم عنهم ، وشغله بيوسف ، فلهذا اتفقوا على إزالته من الوسط ،ولم يختلفوا في ذلك ابداً ـ اللهم إلا رأوبين ويهوذا ـ نعم اختلفوا في شكل إزالتـه من وسطهم ، هل يقتلونه او يبعدونه ؟ كما هو راي الأكثرية الساحقة مبدئياً ، او يلقونه في غيابة الجب ، الذي تمر عليه التجار السائرون ، فيأخذوه معهم ، كما هو رأي يهوذا ، وقد تابعته الأكثرية الساحقة أخيراً ، فصار إجماعاً من الجميع ، وكأنهم تصوروا أن لهم حَلْقاً لا يعيشون إلا به ، وهذا الحلْق هو محبة يعقوب إياهم ، وتوجه أنظاره عليهم ، وتفرغه لهم ، وكأنَّ يوسف حسكة في ذلك الحلق فعزموا على إزالته والإيقاع به ، ويجب أن لا ننسى ما نقله المفسرون عن « وهبـة ابن منبه » ، ونقله صاحب (السنن القويم) عن مفسري التوراة أن الساعي في قتل يوسف هو « شمعون » ، فهو زعيم الثورة الذي يحمل على رأسه تاج العداء ليوسف.

مؤامرة قريش على قتل أو ابعاد أو حبس النبي (ﷺ)

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة !! وما أشبه هـذه المفاوضة بالمفاوضة التي صارت في دار الندوة من قريش ، في شأن النبي (ﷺ) ، فقريش أقرباء النبي كانوا بمنزلة إخوة يوسف ، ولكن ليس في كل شيء ، لأن إخوة يوسف مؤمنون وأما قريش فكافرون ، وإنما هو مثلهم في التـــألب على الأخيار ، وعقد جلسة المؤامرة على الناس الطيبين ، إذ كان النبي (ﷺ) هو موضوع مؤامرة قريش، ويوسف موضوع مؤامرة إخوته ، وكذلك إخوة يوسف تمنوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وبذلك تصلح شؤونهم ، وقريش تمنـوا أن يخلو لهم الجوّ في مكة فتصلح بذلك أمورهم ، وكان الحـــال في مؤامرة قريش على النبي (ﷺ) دائراً بين

حبسه في بيت وإبعاده من بين أظهرهم ، وقتله ، وأخيراً قرّ رأيهم على قتله ، قال تعالى :﴿وإذْ يَمْكُرُ بكَ الذينَ كفروا ليُثْبِتوكَ ،أو يقتلوكَ،أو يُخْرِجوكَ﴾ (٨ : ٣٠) وهكذا كانت مؤامرة إخوة يوسف عليه ، وأخيراً قر رأيهم على حبسه في الجب ، هذا ما حضرني الآن فتأملوه رحمكم الله .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً)

- ٢ -

وقال الحاج أسعد اللاذقاني :

الطرح أرضاً كالقتل

أوعز لهم شمعون بقتل يوسف أو إبعاده ، فتابعه جمهورهم على ذلك ، فهم أرادوا (بطرحه أرضاً) التغريب ، فإن الغربة كربة ، يقال : طرحت الشيء أبعدته ، ومنه قول الشاعر :

ومن يك مثلي ذا عيال ومُقْتِراً
من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد قُرن الابعاد عن الديار بقتل النفس في قوله تعالى:﴿وَلَوْ أنَّا كَتَبْنا عليهمْ أنِ اقتلوا أنفسَكُمْ ، أوِ اخرُجوا مِنْ ديارِكم ما فَعَلُوه إلاّ قليلٌ منهم﴾ (٤ : ٦٥) ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا : وَمَا لَنا أنْ لا نُقاتِل في سبيلِ اللهِ ؟ وقد أُخرِجْنا مِنْ ديارِنا وأبنائِنا﴾ (٢ ٢٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الذينَ لم يقاتِلُوكُمْ في الدينِ ، ولم يُخْرِجُوكم مِنْ دِيارِكم﴾ (٦٠ : ٨) وقوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكون

دِماءَكم ، ولا تُخرِجُون أنفُسَكُم مِنْ دِيارِكم ﴾ (٢ : ٨٤) ، وهـذه شريعة عامة في كل ملة ، ورغماً عن ذلك فنجد هؤلاء الأشبال العشرة الكرام !! قد تفـاوضوا في إبعاد أخيهم عن فلسطين ، عن أبيه وسوغه وجـده إسحق وباقي أسرته !!.

الفوائد المستنبطة من الآية

نعلم من هـذه المفاوضة أن الانسان قد يضعف عن احتمال سلطـان الحسد وسيطرته عليه ، فيقدم على المخاطر المهلكة ، وهو لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاوراتها ، حتى يتردى في مهواتها .

ونعلم أن الأفراد التي تشكل جماعة قد يتواطؤون على عظائم الامور القبيحة.

ونعلم انه ينبغي للانسان أن يحترس ويتحفظ من النـاس حتى من أقاربه وانه لا يبعد أن يجتمعوا على ضرره . ونعـلم ، وهو المدهش ، انه ربمـا يوجد أخوة كهول وشيوخ ، يغارون من أخ لهم صغير في سن الحُلُم ربمـا يكون لهم أولاد أكبر منه ، لا يترفعون عن حسدهم له وغيرتهم منه !!..

تعليل الاخوة الايقاع بيوسف

عللوا الإيقاع بيوسف بخلوّ وجه أبيهم لهم ، يريدون أن وجـود يوسف في الوسط ، مانع من تفرغ أبيهم اليهم ، وتوجهه عليهم ، وأنهم حريصون على ذلك ، ويهمهم كثيراً ، فتوصلاً لهذا الغرض الهام ، لا مَندُحَة لهم من أن يزيلوا هـذه العقبة ، التي تحول بينهم وبين أبيهم ، هـذا ما تظاهروا به ، وهذا ما تمركزوا عليه ، توصلاً للايقاع بأخيهم ، وهو علة مخالفة للعقل والمنطق والواقع ، وإنمـا

العلة الحقيقية الحسد والبغضاء والعداء الناجم من مجموعة أشياء ، هي : مزايا يوسف وفضائله ، أخلاقه العالية ، كونه ابن (راحيل) الحظية عند والدهم ، التي كانت مترفعة جداً عن ضرتها (ليئة) ، وبالطبع عن (بلهة) و (زلفة) الجاريتين ، فهؤلاء كنّ حزباً ، وهي كانت وحدها حزباً آخر ، فلا بد أن يكون عداء هذا الفريق الأول قد سرى من النساء لأولادهن ، ولا تنس مرائيه المنامية وبشائر أبيه اليه ، التي بلغتهم فاستاؤا منها .

لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامرتهم

وبعد فإنا لم نرهم حين المفاوضة أدخلوا في دائرة القتل أو الإبعاد (بنيامين) مع أنهم كانوا أظهروا التذمر من الأخوين معاً . فلماذا هذا ياترى ؟ والجواب إن تذمرهم أولاً وبالذات إنما هو من يوسف ، وأما من بنيامين فثانياً وبالعرَض ، ولهذا سمعناهم يقولون « ليوسف وأخوه » فلم يذكروه باسمه ، إشعاراً بأن محبة يعقوب له إنما هي لأجل عيون يوسف ، وأيضاً إنما كان بنيامين وقت هذه المفاوضة ابن سبع سنين ، فالدواعي للتعرض له بالضرر غير متوفرة ، بخلاف يوسف فإنه كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان هو الشغل الشاغل لقلب أبيه فلذلك اقتصروا في مفاوضتهم على الإيقاع بيوسف فحسب .

(اقتلوا يوسف..الخ)

- ٣ -

وقال السيد جميل الناصري (١) :

أيها السادة : لي هاهنا أربع كلمات :

من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف او ابعاده

الكلمة الاولى — ربما كان البادىء باقتراح قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً منهم هو (شمعون) على ما قاله مفسرو اليهود ، أو اثنين هما (شمعون ولاوي) على ما أظن أنا العبد الحقير ، لأنني أقرأ في التاريخ فأرى طبيعة الاثنين واحدة ، وأنهما متشابهان في الحركات القاسية (تك ٣٤ : ٢٥ و ٤٩ : ٥ - ٧) والباقي ردد هذا الصوت ترديداً ، أو قلد هذه الحركة تقليداً ، أو سكت عليها سكوت إقرار ورضى ، أو ضم صوته الى صوت المقترح مؤيداً له ، ولذلك نسب هذا الاقتراح الى مجموع الاخوة ، لأنهم متكافلون متضامنون ، فمها وقع من بعضهم وسكت عليه الباقي فهو منسوب لجميعهم ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخذتُمْ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتم ظالِمون ﴾ (٢ : ٥١) وقوله جل ثناؤه : ﴿ وإذْ قلتم : ياموسى لنْ نُؤمِنَ لَكَ حتى نرى اللهَ جَهْرَةً ، فأخَذَتكُمُ الصاعقةُ وأنتم تنظُرون ، ثم بعثناكم مِنْ بعدِ موتِكمْ لعلكم تَشكُرُون ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قلتم يا موسى لنْ نَصبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ : ٦١) وقوله سبحانه : ﴿ وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارأتُم •

---

(١) نسبة الى الناصرة من بلاد فلسطين .

فيها ، والله ُ مخرج ٌ ما كنتم تكتمون ﴾ (٢ : ٧٢) وقال تعالى : ﴿ فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ (٩١ : ١٤ و ٥) وما إلى ذلك مما لا يحصى في الكتاب الكريم ، والأحاديث النبوية والأشعار العربية .

الحسد هو الدافع الحقيقي لاخوة يوسف على ارادة قتله

الكلمة الثانية — ترتيب القتل على مجرد كون يوسف أحب لأبيهم منهم مما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، وعليه فلا مندحة لنا من أن نلاحظ ان الدافع الحقيقي لهم على إرادة قتله إنما هو الحسد الشخصي — والحاسد غضبان على من لا ذنب له — مع العداء العائلي الموروث عن الأمهات الضرائر ، والذي سهل عليهم هذه الفكرة القاعدة الاجتماعية ، وهي ان الجماعة أقل مبالاة من الفرد ، لانحلال المسؤولية بكثرة التكافل ، ونحن إذا لم نحمل كلامهم على ذلك كان منال النجم أقرب من تطبيق حالهم على قاعدة من قواعد العقل .

انواع الأمزجة المبدنية وتطبيقها على اخوة يوسف

الكلمة الثالثة — صدق من قال : (الأقارب أعداء الحياة ، أحباب ساعة قبل الوفاة) ، فهؤلاء الاخوة حسدوا يوسف ، فصارت نفوسهم تنازعهم الى الايقاع به ، وجعلوا يتفاوضون ويتساندون في كيفية إهلاكه ، ويظهر أنهم كانوا من أصحاب المزاج العصبي ، فإنهم لا يصبرون على ضيم ، ولا يستطيعون الكظم ، فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة ، حتى يخرجوا عن الصواب ، فربما بدرت من أحدهم كلمة يقولها عن غير روية وتثبت ، بخلاف أصحاب المزاج الدموي الذين لا تستحوذ عليهم الحدة ، ونظن أن كلاً من رأوبين ويهوذا من أهل هذا المزاج ،

وبعبارة اخرى — يوجد أناس يخرجهم الغضب عن طور التعقل فاذا غضبوا ظهرت أمارات الغضب في عيونهم وجباههم وألسنتهم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره ، وهؤلاء هم أهل الأمزجة العصبية ، ولعل إخوة يوسف الذين أشاروا بقتله هم من هذا القبيل . ويوجد نوع هم من أقدر الناس على الكظم وكتمان ما تكنه ضمائرهم . فهم لذلك يصبرون على الضيم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل ، وذلك يساعدهم على كتمان عواطفهم ، فهؤلاء هم الذين غلب عليهم المزاج الدموي ، وربما كان كل من رأوبين ويهوذا من هذا النوع .

غرابة مشايعة دان ونفتالي لاخوتهم في المؤامرة

الكلمة الرابعة — إنا لا نعجب من هؤلاء الاخوة عَجَبَنا من أخويه ولدي (بلهة) جارية أمه ، وهما (دان) و (نفتالي) ، فيوسف بعدما ماتت أمه راحيل ، وقد كان عمره تسع سنين ، انتقل هو وشقيقه بنيامين إلى خيمة جارية أمها هذه وهي (بلهة) وحضنته وأخاه المذكور ، فتربيا عندها مع ولديها المزبورين ، فكان مقتضى العادة والواجب أن لا يتفق أخواه هذان مع باقي إخوته على قتله أو طرحه أرضاً ، مع ان ظاهر الكتاب الكريم انهما ممن شايع وبايع مع الجميع على يوسف ، وهو أمر من الغرابة بمكان !

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه . . الخ)

— ٤ —

وقال العلامة البيروتي :

نظائر اعمال ابناء يعقوب العشرة في التاريخ

رب سائل يسأل : كيف جاز لهؤلاء الاخوة أن يفتكروا في حسد يوسف وطريده في العمر ، ويبغضوه ويتفاوضوا في قتله أو ابعاده في بيداء مَجْهل ، ثم أخيرا تتفق كلتهم على القائه في غيهب الغيابة ، لكي تكون النتيجة بعده عن محبّيه ومُعاديه لوطن آخر يعيش فيه غريباً مشرّداً ؟ — كيف جاز أن يقع هذا مع انهم أبناء نبيّ مرسل ، بل من بيت نبوات ، فكان يجب أن تكون الأخلاق عالية ، والضمائر حساسة ، والقلوب رقيقة غير متحجرة ، لأن الانسان ابن التربية أو ابن أبيه ، والعرق دسّاس ، فإن نظرنا لنسبهم ، فالأب نخل كريم ، والبيت عريق في المجد وكرم الغرائز ، وإن نظرنا لتربيتهم فكان يجب أن تكون قد أثرت عليهم التربية البيتية أو الأبوية فنراهم رُحَمَاء ودُعَاء متسامحين حساسين ، ذوي عطف وحنان ووجدان طاهر .

فكيف نقدر أن نجمع في أدمغتنا ما حكاه القرآن الكريم من نبوة يعقوب ورسالته وهدايته للبشر وإرشاده للناس قريبهم وبعيدهم من الاعتقاد بهذا الذي حكاه القرآن عنهم من هذه الأقوال والأعمال التي لا تصدر إلا عن عديمي الأخلاق فاسدي الطباع ، ناقصي التربية ، خبيثي النوايا ؟

وإذا كان يعقوب (ع) قد ثقّف عقول أمته وهذبها ، وأصلح طباع قومه وقومها ، وجب بالأولى أن يكون لأولاده من ذلك الحظ الأوفر ؟

وإذا لاحظنا أن جدهم إسحاق(ع) كان إذ ذاك موجوداً بين أظهرهم ـ لأنه عاش نحو عشر سنين بعد غياب يوسف ـ وكانوا قريبي العهد بسيرة الجد الأعلى إبراهيم (ع) زاد الإشكال وزادت الحيرة والاعتلال .

هذه صورة ما عسى أن يوجه إلينا من السؤال والاستشكال ، وأما الجواب عنه فنقول : إن كلا من الأصالة والتربية قد لا يفيد شيئاً إذا كان العبد لم يُمَدّ بالألطاف الإلـٰهية ، والتوفيقات الربانية ، والدين لا ينظر إلى هـذه الأشياء التي تنظر إليها الناس ، ولكنه يقول في الكتاب الكريم : ﴿ إنّ أكرمَكُمْ عندَ اللهِ أتقاكم ﴾ (٤٩ : ١٣) ويقول في الحديث الشريف « اليومَ أرفعُ نَسَبي وأضَعُ أنسابَكُم ، أينَ المتَّقُونَ ؟ » ، ويقول الشاعر :

لعمرك ما الإنسان إلاّ بدينه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام (سلمان) فارس
كما وضع الكفرُ الشريفَ (أبا لهب)

فما نرى من أبناء يعقوب ليس ببدع في التاريخ بل له نظائر وشواهد تدانيه وتقاربه وإننا نجتزىء بالبعض منها فنقول :

١ ـ انظر لآدم (ع) مع كونه نبياً ورسولاً لم يؤثر على ولده (قابين) ، فكان شريداً فاسداً ، حتى قتل شقيقه (هابيل) ! ولماذا يا ترى ؟ لا لشيء سوى أن (هابيل) رجل صالح تقي قد تقبل الله منه تقدمته ، وان (قابين) رجل عاص طاغ ، فلم يتقبل الله منه التقدمة ، قال تعالى : ﴿ واتْلُ عليهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ

بالحق ، إذ قربا قرباناً ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك ، — قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت يدك إلي لتقتلني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، — فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ﴾ (٥ : ٣٠ - ٣٣) .

٢ — انظر إلى نوح (ع) فهو مع كونه نبياً مرسلاً ، لم يؤثر على ابنه كنعان ، ولا على امرأته أم أولاده ، فكانا كافرين به ، مخالفين له ، كامرأة لوط (ع) قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا — امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٣ — انظر إلى ابراهيم (ع) نبي الله ورسوله وخليله ، لم يؤثر على أبيه آزر (تارح) فكان عدواً لله (٥ : ١١٥) .

٤ — انظر لاسحق (ع) نبي الله ورسوله ، لم يؤثر على ولده (عيسو) الذي كان حقد على أخيه يعقوب (ع) وسخط وغضب عليه ، ونوى متى توفي أبوه إسحاق أن يقتله ، كما يعلم هذا كله من التاريخ ، ونعلم منه أيضاً أن المقاومة والمناوأة كانت على أشدها بينه وبين شقيقه يعقوب ، فكان عدواً له ، مخالفاً له في المسلك والأخلاق ومنحطاً جداً أمام ارتقاء أخيه ، ولذلك لم تقع بــه البشارة في قوله تعالى : ﴿ فبشرناها باسحق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ (١١ : ٧١) ، ولم يمتن الله بهبته لأبيه في قوله : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلاً جعلنا صالحين ﴾ (٢١ : ٧٢) .

٥ ـ انظر إلى يعقوب (ع) لم يؤثر على خاله (لابان) إذ بقي في وثنيته رغماً عن كونه خاله وحماه ، ورغماً عن انه قد صحبه نحو (٢٠) سنة .

٦ ـ انظر إلى داود نبي الله ورسوله والخليفة في الأرض بعد حميه الملك (طالوت) فهو لم يؤثر على ولده (أمنون) الذي ذكر التاريخ انه اغتصب أخته (ثامار)ـ والعهدة في ذلك على مؤرخي التوراةـ وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) الذي قيل أنه أَمَرَ غلمانه بقتل أخيه (أمنون) في وليمة دعاه إليها ، انتقاماً منه لشقيقته (ثامار) فقتلوه ، وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) أيضاً في حادثة أخرى ، وهي أنه كان أفسد الشعب على أبيه ، ليكون بدله في المُلْك ، حسداً لأخيه (سليمان) إذ كان أبوه يميل إليه ، وكان حق الملك بحسب السن إلى (أبشالوم) ، لأنه كبير إخوته حينئذ ، فقام على أبيه وتملك في حياته ، وحارب أباه حتى دخل عاصمة ملكه (أورشليم) ، وألجأ أباه للهرب منها ، وفيما بعد قتل (أبشالوم) في ميدان الحرب ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

٧ ـ انظر إلى سليمان (ع) وهو نبي مرسل ، وملك قوي ، وكان ابنه (رَحُبْعَام) تربى بين يديه ، وتحت نظره ، ثم تولى الملك بعده ، فأثار روح الغضب في الشعب بسوء إدارته ، فسبب انقسام المملكة لاثنتين ، إذ خرج عليه عشرة أسباط وشكلوا المملكة الشمالية ، ولم يبق معه سوى سبطين ، هما يهوذا وبنيامين ، الأمر الذي سبب الضعف والانحلال والمحاربات الداخلية والخارجية ، حتى فنيت المملكتان ، ولم نر أن تربية سليمان لولده رحُبْعام أثر في حسن حاله واستقامة إدارته شيئاً .

٨ـقد تخاصم أخَوَانِ من بني إسرائيل وتحاكما إلى نبي اللهداود (ع)وليس على أمر ذي بال ، ولكن على نعجة من الغنم كما قال تعالى : ﴿ وهل أتاكَ نَبَأُ

الخَصْم إذْ تَسَوَّروا المحراب ، إذْ دخلوا على داودَ ، فَفَزِعَ منهم : قالوا : لا تَخَفْ ، خصمانِ بَغَى بعضُنَا على بعضٍ ، فاحكمْ بيننا بالحقِ ولا تُشْطِطْ ، واهْدِنَا إلى سواءِ الصّراط ، إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نَعْجةً ، ولِيَ نعجةٌ واحدةٌ ، فقال أكْفِلْنيها وعَزَّني في الخِطَابِ ، — قال : لقد ظَلَمَكَ بسؤال نعجتِكَ إلى نِعَاجِه ، وإنَّ كثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بعضُهُم على بعضٍ ، إلاّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ ، وقليلٌ ما هُمْ ﴾ (٣٨ : ٢١ - ٢٤) فهذان الأَخَوَانِ هما مِنَ الشعب الإسرائيلي من رعايا داود بصفته ملكاً ، ومن مريديه بصفته خليفة ، ومن أمته بصفته نبياً ورسولاً ، ومع ذلك فلم تؤثر تربيته لهما على المتعدي منهما أن لا يكون قد تعدى على أخيه الفقير المسكين .

٩ ـ قد تعدى (أدُونيّا) بن داود (ع) من زوجته (حجّيث) ، على أخيه (سليمان) بن داود من زوجته (بثشبع) فجلس (أدونيا) المغتصب على عرش مملكة أورشليم المعهود به من داود لسليمان ، والمبايع عليه من الشعب ، ثم رجعت المياه لمجاريها ، ورُدَّ المُلْك المُغْتَصب لصاحبه الشرعي ، كما قال تعالى : ﴿ولقد فَتَنَّا سليمانَ ، وألقَيْنَا على كرسِيّه جَسَداً ، ثم أنابَ ، قال : ربِّ اغفرْ لي ، وهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي ، إنكَ أنتَ الوهابُ ﴾ (٣٨ : ٣٤ و ٣٥).

١٠ ـ وهذا أبو العباس السفاح قتل نحو (٩٠) رجلاً من بني أميّة ، كانوا جلوساً على مائدته يأكلون ، فأمَرَ بهم ، فضُربوا بالعُمُد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، كما في ابن الأثير .

وتتبع بنو العباس من كان بالشام من أولاد الأمويين الخلفاء وغيرهم فأخذوهم

وقتلوهم ، ولم يفلت منهم أحد ، سوى رضيع أو من هرب منهم إلى الأندلس ، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى قبور بني أميـة فنبشوها ، توصلاً لمحو آثارهم ، وأخرجوا جثة هشام فضربوها بالسياط وصلبوها ، وحرقوها وذروها في الهواء.

١١ ـ وهذا أبو جعفر المنصور أمر بقتل بضعة عشر رجلاً من آل الحسن رضي‌الله عنه فقتلوا جميعاً بعد نقلهم من المدينة الى العراق.

١٢ ـ وهؤلاء هم سلاطين آل عثمان فمنهم من قتل أولاده ومنهم من قتل اخوته ومنهم من حارب أباه ومنهم من قتل نساء أبيه .

١٣ ـ وأخيراً هذا أبو لهب عم النبي ﷺ وهذه زوجه (أم جميل) القرشية كانا على أشد العداء والمقاومة للنبي ﷺ ، رجل يفسد عليـه الرجال ، وامرأة تفسد عليه النساء .

وعلى الجملة فإيذاء الأقارب بعضهم لبعض معهود في التاريخ ، تمشياً مع قاعدة (الأقارب كالعقارب) و (الأقارب لا تقارب) ، و (امرأة الأب نقمة من الرب، لا تحِبُّ ولا تُحَبُّ) و (العم عمى ، والخال خالٍ من المنفعة) و (صِلـُوا قراباتِكُم ولا تجاوروهم ، فإن الجوار يورث بينكم الضغائن) ، و (رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك).

إن كل ما ذكرناه من الأمثلة التاريخية لا يشابه ولا يداني حادثه هؤلاء آباء الأسباط الكرام !! لأن تلك الحوادث جرائم فردية لا أهمية لها باعتبار أنها صدرت من فرد سقط في هوة الغلط ، واما أنَّ إخوة عشرة كبـــار ، كهول وشيوخ أزمعوا على قتل أخ لهم هو أصغرهم فهي جريمة صدرت من جمع ، وهي من الأهمية والغرابة بمكان !! لا سيا إذا تصورنا أنهم أبناء نبي ورسول ، ثم لا سيا إذا تصورنا أن حاله تشبه حالة من قال : « غيري جنى وأنا المعذب فيكم » ، ثم لا سيا إذا تصورنا

أنهم أخذوه من أبيه تحت العهود والأيمان أن يحفظوه ويكلأوه ، ثم وأخيراً إذا تصورنا أنهم بذاك العمل يكونون قد أغضبوا أباهم عليهم وأحزنوه ومرّروا عيشته !!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا نقول في شأن هؤلاءالناس آباء الصيونيين إلاّ ما يرضى الشريعة ، فاللهم أدم ضرب الزلة والمسكنة عليهم إلى يوم الدين .

أصوات من المستمعين:

(آ ... مين)

(اقتلوا يوسف . الخ)

— ٥ —

وقال الامام الدمشقي القيمري[1] :

لي ههنا على هذه الآية الكريمة الكلمات التالية:

التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية

الكلمة الأولى — في تلك الجلسة المشؤومة،جلسة المؤامرة القاسية علىيوسف أبدوا هذا الرأي الوخيم ، إصغاء لنداء الحسد والغيرة والأثرة ، ومع الأسف لم يصغوا لنداء ضمائرهم ، وإلاّ لما افتكروا هذا الفكر الرديء .

ورغماً عن أن قلوبهم كانت تناجيهم بأن هذا الفكر سيء ، فقد تعاهدواعليه وتواثقوا ، وصمموا على إبرازه من حيز القول لحيز العمل ! ، — لولا أن قال قائل منهم بغير مقالتهم ، ورأى رأيا غير رأيهم — وقد احتجوا على الإقدام على هـذا العمل الخطير بدفع تشويش معيشتهم مع أبيهم ، وتفرغه لهم .

---

(١) نسبة الى حي القيمرية بدمشق (سورية)

وما أشبه هذه المؤآمرة بالمؤامرة التي صارت بين « البرك » بن عبد الله التميمي و « عمرو » بن بكر التميمي ، و « عبد الرحمن بن ملجم » المرادي ، لأجل قتل الأول « لمعاوية » بن أبي سفيان ، وقتل الثاني « لعمرو بن العاص » وقتل الثالث « لعلي » بن أبي طالب رضي الله عنه ، تذاكروا واتفقوا على قتلهم ، دفعاً للفتنة وإراحة المسلمين منهم — في زعمهم — ، هذه شبهتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت ، كما أن شبهة إخوة يوسف أضعف من لعاب الشمس ، ومع ذلك فيوجد فرق كبير ، أو فروق كبيرة ، بين هذه الحادثة وتلك الحادثة الأخرى .

وا عجباه لعمري إن هذا شيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم ، هاجت فيهم عوامل الغيرة ، ولا ذنب ليوسف سوى أنه وجد في طريقهم لأبيهم عُرْضاً وهو لا يعلم ولا يقصد ، وما أقدر المنشيء لهذه الفكرة ؟ فقد تلطف وتعلل بهذه العلة الدينية ، علة أن أباهم لم يزدهم حباً عن يوسف لأنهم انفع منه ، بل لم يساو بينه وبينهم في الحب كما هو الواجب ، عللوا بذلك — وهم يعلمون فساده — توصلا للقضاء على أخيهم ! كمنوا وراء أكمة الدين ، ليُصْمُوا إنساناً هو من أهل الدين باسم الدين، يتسترون بذلك تغفيلاً للجاهلين ، وفي الحقيقة إن الدافع لهم لهذا العمل إنما هو العداء والنزق ، وثورة القوة ونشوتها .

عجباً لهؤلاء الإخوة الأكارم أجداد الصهيونين الرحماء !! أشاروا بهاته المشورة السوءى، وألبسوها لباساً دينيا ، ليستمروها ويستخدموها لغرضهم الشخصي النفساني فوا أسفاه !

نحمدُ الله تعالى على أنهم لم يكونوا قضاة إذ لو كانوا كذلك لحكموا بالموت على كل إنسان أجمل منهم أو أعلم أو أثرى أو أكمل ، ولماذا ! لأنه يشغل الناس عنهم، ولكانوا حكموا على كل من كان أفضل منهم بالموت ، فتأملوا واعجبوا .

الحسد والغيرة والعداء هي أصل كل شر

الكلمة الثانية — نرى من قولهم : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ انهم لم يأتوا على ذكر القتل أو الإبعاد ، إلا مشفوعاً بذكر خلوّ أبيهم إليهم ، فالنتيجة التي توخوها من الإيقاع بأخيهم صالحة وحسنة جدا ، ولكن مقدمتها ثقيلة جداً ، وغير جائزة ، فهم كمن يريد أن يسرق المال ، ليتصدق منه أو الماء ليتوضأ به ، على مذهب من يقول : (النتيجة تبرر الواسطة)وهو غلط فاحش ولذلك نراهم أخيراً عدلوا عن هذه المقدمة الى مقدمة اخرى ، هي وان تكن ايضاً غير جائزة ، لكنها أخف من سابقتها ، « وبعض الشر أهون من بعض »فالايقاع بأخيهم ايس عندهم مقصوداً لذاته ، بل هو يراد كواسطة للوصول الي أمر مطلوب لذاته ، هو توجه أبيهم اليهم ، وحنانه وعطفه عليهم ، وكذريعة لحصولهم على خلوة يجدونها في قلب أبيهم يسكنون فيها ، ولكن هذا كله بحسب ظاهر كلامهم ، والحقيقة أن العامل الوحيد الذي دفعهم لذلك هو الحسد ، لا غير .

إن كانت محبة الأب لأولاده ، وتوجه نظره إليهم ، لا تكون الا بقتل ابنه المحبوب الوديع ، فرحمة الله على الفضيلة ، وليبك الباكون عليها ، وعلى مصيرها المحزن الأليم ، عجباً لهولاء الأبناء الأذكياء !! الذين يريدون أن يحبهم أبوهم ، ويخلص لهم ، على حساب ظلم ابنه المحبوب وقتله !

ومع ذلك ، فغني عن البيان أن عملهم هذا الذي افتكروا فيه مبدئياً ، يزيد الطين بلة ، وانقلب علة ، ويوجب زيادة عدم عناية أبيهم بهم ، فيؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة لهم ، ولكن عوامل الغيرة ، وبواعث الحسد والعداء هوّنت عليهم هذا الأمر العسير ، وصورت لهم المحال ممكناً وجعلتهم يتخيلون

المانع سبباً موجباً ، حتى أقاموا على أخيهم حرباً أهلية ، وتآمروا على ضره بحجة ما أنزل الله بها من سلطان

النتيجة عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت منحطة

الكلمة الثالثة — قالوا : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم .. الخ ﴾ فتمنوا أن تكون حالهم بحيث يصدق عليها قول القائل :

يالكِ مِن قُنْبُرَةٍ بمَعْمَرِ خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفِري
ونقّري ما شئت أن تنقري[1]

مَنَّوا أنفسهم بهذه الأمنية التي هي بعيدة عنهم بعد السماء عن الأرض ، ووعدوا أطماعهم بما هو ضرب من المحال ، لأنهم بالاقدام على هذا الحوب الكبير يثيرون حفيظة أبيهم عليهم بعكس ماتخيلوا .

وأما قولهم﴿وتكونوا مِنْ بعده قَوماً صالحين﴾ فشبكة أرسلوها ليصيدوا بها ثلاثة أشياء : « ١ ـ صالحين أي تائبين الى ربكم مما جنيتم على أخيكم ، ٢ ـ صالحين أي يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه له ، ٣ ـ صالحين : أي تصلح دنيا كم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم لكم ، وتصيروا مسرورين فرحين ، فهذه ثلاثة معان ، صيرت برمية واحدة ، وهذا هو شأن اليهود من القديم ، وهذا هو حال سلالتهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، النتيجة تبرر الواسطة ، فها كانت منحطة وسافلة !!! .

---

(١) المعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء او هو اسم لموضع بعينه
نقر (بتشديد وفتح القاف) : في الموضع تنقيراً سهله ليبيض فيه · ونقر (بتشديد القاف) صوت (بتشديد الواو)

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

الكلمة الرابعة ـــ يتبين من إرادتهم قتل أخيهم ظلماً أنه ليس يكفي الانسان حتى يكف عن الأذى الوخيم أن يكون ابن نبي الله،أومن سلالة بيت كريم بل يجب قبل كل شيء أن يكون ابن تربية كاملة ، صاحب أخلاق فاضلة ، ونفس كريمة ، تمنعه من ارتكاب ما لا يجوز في ملة من الملل ، ولعمري إنه كان يكفيهم أن يتفاهموا مع أبيهم في تفضيله يوسف في الحب عليهم ، قبل أن يفتكروا في قتله ، والكي لا يكون إلا آخر الدواء.

بعض طبائع الاسرائيليين

الكلمه الخامسة ـــ قص الله تعالى مفاوضة هؤلاء الاخوة في قتل أخيهم ليوقفنا على بعض طبائع الإسرائيليين التي منها أنهم قد يجتمعون على شر الشرور،ولا يخجل بعضهم من بعض ولا يبالي بضميره ، وإذا وجد فيهم واحد هو أحسن منهم،أشار عليهم بأخف الشرين ، ذلك لكي نعتبر ، ونكون دائماً على حذر ، من سلائلهم اليهود (أبناء العم) المحترمين !! خاصة الصهيونيين ، الذين كأنما « قانون الوراثة » قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته .

ما هي افكار الصهيونيين اليوم مع ابناء اسماعيل

الكلمة السادسة ـــ يظهر من مذكراتهم في موضوع القتل ، أنه كان قسم منهم من ذوي العزم والشرس ، وكان في قسم آخر نزق الشباب ، فغَلت في قلوبهم مراجل العِداء والتهبت في صدورهم نار البغضاء فلفظوا بهذا القول ، وقد أخذ

الحماس منهم مأخذاً عظيماً، هذه أفكارهم مع أبناء جلدتهم فماعسى تكون أفكارهم مع ابناء اسماعيل؟ وماهو الفكر اليوم عند سلائلهم الصهيونيين! هل يقولون إلا كما قالت أجدادهم في الجزيرة : « لَيسَ علينا في الأميِّينَ سَبيل !»(٣:٧٥)

الطرح أرضاً في اللغة

الكلمة السابقة ــ قولهم ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ : يقال بلد طروح ومكان سحيق ، ومحلة نازحة ، والمعنى أبْعِدُوه لغير أرض ، أبعدوه لأرض منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ، اجتهدوا في ذلك ، فإن لهذا العمل ما بعده ، أتيهوه في بَيْداء مَجْهَل ، وعلى الدنيا السلام .

كلمة اطرحوه في القرآن

الكلمة الثامنة ــ راجعنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد لفظة ـ اطرحوه ـ قد بدرت من فم جبار من الجبابرة ، أو ظالم من الظلمة ، ولكن إنما رأيناها تلوح كالزهرة اليانعة على فم هؤلاء الأشبال الكرام !! في أخيهم المغدور ، فلا .. ولا .. وإنّا .. وإنّا ..

الصلاح وأقسامه

الكلمة التاسعة ــ قالوا (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) يطلق الصلاح على الصلاح الدنيوي ، وعلى الصلاح الديني ، والآية التي ههنا تحتمل الوجهين ، كما احتملها ما في قوله تعالى : ﴿ وأنكِحُوا الأيامى منكم والصالحين مِنْ عبادِكم وإمَائِكم ﴾ (٢٤ : ٣٢) أي من كان تقياً غير مفسد، أو أريد بالصلاح القيام بحقوق

النساء ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبور من بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادِيَ الصالحون ﴾ (٢١ : ١٠٥) أي المتقون ، أو الذين فيهم أهلية لخدمتها وعمرانها وحراستها والمحافظة عليها وإقامة العدل فيها ، ومن اطلاقه على الصلاح الدنيوي خاصة ما في قوله تعالى : ﴿ وأصْلحْنا له زَوجَهُ ﴾ (٢١ : ٩٠) أي جعلناها صالحة للولادة بعد عُقرها ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ويُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ (٤٧ : ٥) أي يحسن أحوالهم الدنيوية ، وأما شواهد إطلاقه على الصلاح الديني خاصة ، فهي في كتاب الله أكثر من أن تحصر .

الحسد والغبطة والمنافسة

الكلمة العاشرة — تعلمون أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير ، بأن يتمنى الإنسان أن يغرق مالُ فلان أو يُحرَق،أو أن تزول عنه الأرباح في تجارته أو تتبدل محبة الناس له بكراهتهم إياه ، وعلى الأقل تزول تلك المحبة ، أو أن تتحول عافيته إلى مرض ، أو يموت أولاده ، أو يعزل في منصبه،وهكذالا فرق في ذلك بين الحسد على الأمور المادية ، والأحوال المعنوية ، كما لا فرق بين أن يتمنى تحول هذه النعمة إليه أو إلى غيره ، ولا فرق في هذا التمني بين أن يكون تمنياً قلبياً فقط بحيث لا يتعدى الفكر ، أو تمنياً يترتب عليه السعي بالمكر ، بأن يسعى لإزالة الربح أو الحب عن المحسود ، وأن يبذل جهده في إحباط عمل المحسود ، وعدم معاملة الناس له أو عدم إسناد المنصب لعهدته ، إلى غير ذلك ، وهذا النوع حرام ممقوت يمقته الله وملائكته ، وأهل المرؤة من الناس ، وهو معدود من الكبائر ، وهو يشف عن سوء النيه ، وخبث الطوية .

وأما تمني مثل نعمة الغير من غير أن تزول عنه تلك النعمة فهو حسد محمود ،

ويسمى بالحقيقة « غبطة » ولا يسمى حسداً إلا مجازاً ،وصورة ذلك أن يجاري الرجل غيره ويسابقه مسابقة ، ويجتهد اجتهاده ويحصل الأسباب التي اقتضت ثروة غيره مثلاً ، ويسلك المسلك الذي سلكه غيره من الناس المحبوبين حتى يصير محبوباً مثله .

وهذا النوع من الحسد ، وبعبارة أصح من الغبطة ، إنما وجد في الإنسان اطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، وليسابق الإنسانُ غيرَه في المفاخر والفضائل والمجد والثروة ، فتربو المساعي ، وتكثر الأعمال ، ويزداد العمران ، ويترقى نوع الإنسان ، وهذا النوع من الحسد ، كما يسمى (غبطة) فهو حقيق أيضاً بأن يسمى (منافسة) .

واعلم أن الحسد لا يكون إلا بين المتشاركين في حال ، كالجار والصهر والقريب ، وكالمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو امارة أو علم أو سن ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع أو بلد ، وأكثر ما يكون الحسد بين الجيران والأقارب ، مع المعاصرة في الزمن ، والمقاربة في السن ، والمشاركة في المسلك ، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت ، ويزاد الحسد كلما ازداد الصيت وحَسُنَ الذِكْر ، وكلما زادت ثروة المحسود ، وكثرت عمّالُه وأعماله .

عمل اخوة يوسف مع يوسف من الحسد الممقوت المشؤوم

إذا تقرر هذا فعمل إخوة يوسف مع يوسف ، هو ليس من قبيل الحسد المحمود ، الذي هو حسد الغبطة أو المنافسة ، لأنهم لو أرادوا هذا المعنى لبحثوا عن الأسباب التي اقتضت زيادة محبة أبيه إليه ، وأنصفوا بها وسلكوا المسلك الذي

يسلكه يوسف ، لكي يتحصلوا على مثل تلك الدرجة من الحب ، فكان يجب عليهم ، بدلاً من أن يفتكروا في الإيقاع بيوسف أن يجتمعوا ويتفاوضوا فيما يعود عليهم بمحبة أبيهم إليهم ، وعطفه عليهم بمثل درجة محبته وميوله ليوسف ، ثم ليس هو من قبيل الحسد الممقوت فقط ، لأنهم لم يتمنوا زوال نعمة الحب فحسب ، بل تمنوا وافتكروا في إزالة شخص أخيهم من الوجود ، أو على الأقل من فلسطين وهذا النوع من الحسد نادر المثيل ، وهو أرذل وأخش أنواع الحسد المشؤومة .

سبب اقتصار الاخوة الحكم على يوسف وحده

الكلمة الحادية عشرة — تعلمون أنهم كانوا أولاً ذكروا يوسف وأخاه بنيامين ولكنا نراهم الآن لم يتفاوضوا إلا على يوسف فقط ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب لائح وهو أن يوسف في نظرهم هو علة العلل ، هو العلة الوحيدة ، هو أساس كل علة هو العدو الأزرق ، هو العقبة الكؤود التي إذا زالت زالت كل أتعابهم ، وأما بنيامين فليس مهماً كثيراً في نظرهم ، لأنهم لم يسمعوا منه يوماً أن الكواكب خرت من السماء وسجدت بين رجليه،فلم يكن قد أخذ من قلب أبيه عشر معشار ما أخذه يوسف .

ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين

الكلمه الثانية عشرة — أنتم تسمعون الآن أن هؤلاء الأشبال يقولون : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ وأما نحن فنعلق عليه بأن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء

الأجداد هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية وما أشبه الليلة بالبارحة ، فالصهيونيين اليوم ـ حيث طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب!!! الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب أراضيهم ، والهجوم على اقتصادياتهم ، ومرافق حياتهم، وكل أسباب عيشهم من مناصب حكومة ، إلى فلاحة إلى تجارة ، إلى كل منابع العز والثروة كما أنهم بالتالي والنتيجة يريدون طرح إخوانهم العرب أرضاً ، بإلجائهم للبعد عن فلسطين ، والتغرب لتناول القوت في شتى البلاد ، وقسرهم لذلك قسراً وذلك حرصاً منهم على أن يكونوا أكثرية في فلسطين، بل أن لا يكون غيرهم فيها، فيشكلوا تلك الدولة الصهيونية الخيالية بهمة زعمائهم !! ويكونوا من بعد هذا كله ﴿قوماً صالحين﴾ (ع ٩) تصلح لهم أمور دولتهم ، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا «محتطبي حطب ومستقي ماء لكل جماعة» (يش ٩ : ٢١) فيا أيها العرب والمسلمون : إن موعد اليقظة والحذر قد اقترب ، فاحتاطوا لأنفسكم ، قبل أن يحاط بكم ، وإياكم أن تستبعدوا ما أقول ، لأنه إذا كان أجدادهم أبناء الأسباط افتكروا هذه الفكرة في حق بعضهم، فهل من البعيد أن يفتكروا نفس هذه الفكرة أو أسوأ منها في بني عمهم العرب ؟ هذا وليس صهيونيو اليوم بأفضل من آبائهم ، كما أن عرب اليوم ليسوا بأحسن من يوسف [1] .

شواهد من التوراة على صلابة اليهود وقساوتهم ووحشيتهم

حقاً إن اليهود حجر عثرة، وعظمة يابسة في حلق كل العالم الذي على وجه المسكونة

(١) لقد كتب المؤلف هذا الكلام قبل سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

وعيناً إنهم سبب كل اضطراب ، وعلة كل تشويش وجد ويوجد فوق الكرة الأرضية ، فقديماً أتعبوا يعقوب وأحزنوه ، كما تراه في هذه السورة ، وأتعبوا موسى وآذوه ، حتى قيل في شأنهم : « وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم » (خر ٣٢ ٩ و ١٠) وعن النبي حزقيال : « وقال لي : يا ابن آدم ، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل ، إلى أمة متمردة ، قد تمرّدت عليّ ، هم وآباؤهم عصوا عليّ إلى ذات هذا اليوم ، والبنون القُساة الوجوه والصُّلابُ القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب، وهم إنْ سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرد ، فإنهم يعلمون أن نبياً كان منهم ، أما أنت يا ابن آدم . فلا تخف منهم ومن كلامهم لاتخف، لأنهم قُريس وسُلاّء لديك ،وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لاتخف ، ومن وجوههم لا ترتعب ، لأنهم بيت متمرد ، وتتكلم معهم بكلامي ، إن سمعوا وإن امتنعوا ، لأنهم متمردون » (حز ٢ : ٣ - ٧) ، وقال الرب : « لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك ، لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي ، لأن كل بيت إسرائيل صلاب الوجوه وقساة القلوب » (حز ٣ : ٧)، وقال الرب . « فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم ، كأقفية آبائهم » (٢ مل ١٧ : ١٤) وقال :«صلبوا وجوههم أكثر من الصخر » (إر ٥ : ٣) وقال : « فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنهم ، بل صلبوا رقابهم ، أساءوا أكثر من آبائهم » (إر ٧ : ٢٦) وهكذا هم لم يزالوا على هذا الحال إلى أيام مملكتي الكلدان والآشوريين ثم أيام مملكتي اليونان والرومان ، فأزعجوا الكل وأتعبوا الجميع ثم في الأيام الأخيرة أخرجهم الروس والألمان من بلادهم ، واليوم بعد الحرب العالمية انصب أذاهم فوق رؤوس العرب في بلاد فلسطين ، نسأل الله السلامة من كيدهم آمين .

يهود اليوم متخرجون على مدرسة اليهود القدماء

الكلمة الثالثة عشر — إنْ كان من الممكن فهم نظرية إخوة يوسف السابقة وهي قولهم إن أباهم لم يساو بين الاخوة في المحبة ، فليس من الممكن مطلقاً فهم النظرية الحاضرة ، وهي معاقبة من لم يذنب معهم شيئاً ، وياليت هذه المعاقبة لطيفة، لا .. ولكنها تدور بين إزهاق الروح والنفي من الوطن ، وعلى كل فإن هـــذه الأفكار السامية !! لا تصدر إلاّ من المتخرجين على (المدارس القديمة) ، بل لا تصدر إلا من قوم لم يتذوقوا طعم الانتساب لأي مدرسة ، ولو ابتدائية ، مع أنهم تحت نظر معلم يصلح أن يكون استاذاً من الدرجة الأولى . في أكبر مدرسة أخلاقية دينية ، بل هم لم يكونوا تحت نظر استاذ واحد فقط ، ولكنهم كانوا تلاميذ لمعلمين اثنين كبيرين ، هما يعقوب وإسحاق ، إنما تأثير الإنسان ، أي إنسان كان، مع تلك الظروف والبيئات ، وفي ذلك المحيط المنحط — على كل حال ضعيف :

﴿ إنّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ ، ولكنْ اللهَ يَهدي مَنْ يشاءُ ﴾(٢٨ :٥٦)

و ﴿ ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ ﴾ (٣ : ١٢٨) آمنت بالرب الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كما آمنت انه لا إلٰه إلا هو ..

غيري جنى وأنا المعذب فيكم

الكلمة الرابعة عشر والأخيرة — قلنا إن المذنب ـ في نظر الاخوة ـ أبوهم يعقوب ـ حاشاه عليه الصلاة والسلام ـ وأما أخوهم ، فمـــا ذنبه يا ترى ؟! حتى يستحق هذا العقاب !! ، إنه والحق يقال ينطبق عليهم قول القائل : « غيري جنى وأنا المعذب فيكم !! » ، وغني عن البيان أن فعلهم هذا إنما يوجب اغبرار أبيهم

وانكماشه عنهم ، دون توجه إليهم ، فما وجه هذا الاستنتاج الذي استنتجوه ؟..
الجواب هو أن ضغط الحسد والغيرة أثر على أعصابهم ، فصاروا في حالة غير اعتيادية فقالوا ما قالوا ، ثم فعلوا ما فعلوا ، مما كان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم .

(صدقت ، صدقت ، ولا فض فوك)

تعديل الحكم

آ(١٠) ﴿ قالَ قائِلٌ منهم : لا تَقْتُلوا يُوسُفَ ، وأَلْقُوهُ في غَيابَةِ الجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بعضُ السَّيارَةِ ، إنْ كُنتمْ فاعِلينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية العاشرة ، فقام العلامة المصري وقال :

﴿ قال قائل ﴾ منهم وهو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ فالقتل عظيم ، ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ ـ وهي ما غاب منه عن عين الناظر وكان في ناحية منه ـ ﴿ يلتقطه ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ، فإن الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع ﴿ بعض السيارة ﴾ أي بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي ان كنتم عازمين على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأي .

(قال قائل منهم .. الخ)

— ١ —

ثم تابع العلامة المصري كلامه قائلاً :

طلب تعديل الحكم على يوسف

نعم أيها السادة كأني بهذا القائل وهو يهوذا قد أفاق من غفلته ورجع إلى نفسه ثم وقف على مرتفع وأخذ يخطب في إخوته قائلاً : يا إخوتي ، إن أخاكم إنما يرفع أمام أعينكم عصا والده ، وإنما يحاربكم بسيف أبيه ، وهو لا يترفع عليكم إلا باستناده لوليّ نعمته ، هذا إذا سلمت لكم أنه يوجدمنه ما يمسك عليه ،والواقع أنه لم يصدر منه شيء ما ، وإنما المسئول عن هذه الحالة ومغبتها هو أبوكم ،فيوسف لا لوم عليه ، ولكن اللوم كل اللوم على أبيكم ، أنتم تنقمون عليه حب أبيه له بكثرة ، وهذا ليس من فعله ، بل من فعل والده ، فهو لم يعمل عملاً قط يستحق عليه القتل ، حتى ولا أقل من ذلك .

يا إخوتي ، إن ما ذكرتم من كون يوسف أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة يهمني جداً كما يهمكم ، ويسوءني تماماً كما يسوؤكم،إنما يمكن مداواة هذاالمرض بدواء ألطف مما ذكرتم .

يا إخوتي ، لا تفعلوا ، لا تذهبوا شرفكم ضحية عواطفكم ، لا تستحوذ عليكم ميولكم ، أنا أرى أن لا تفعلوا مع أخيكم شيئاً ما ، لأنه هو لم يعمل معكم شيئاً قط ، ولم يرتكب جرماً ، افتكروا ملياً في هذا الموضوع ، فقد قال العلماء : « أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد » .

يا إخوتي ، لا تطلقوا لعواطفكم العنان ، لئلا تزيدوا الخرق اتساعاً ، بحيث نكون في شر فنقع في شر أعظم منه ؛

يا إخوتي ، يجب أن نحسب لقتله ألف حساب ، أولها وأكبرها حساب «الإلوه»[1] وثانيها حساب الوجدان الطاهر ، والضمير الحيّ ، وثالثها حساب الكدر الشديد من والدنا علينا ، ورابعها حساب سوء سمعتنا وانحطاط منزلتنا عند من يعرف ذلك من الناس ؛

يا إخوتي ، إن قلبي لم يطاوعني على قتله ، وإن عقلي لم يساعدني على إزهاق روحه ، فإنني أستكبر قتل نفس بريئة بدون سبب ما .

يا إخوتي ، أنتم تريدون أن تفعلوا به أكثر مما يستحق ، فإن كنتم فاعلين شيئاً ولا بد ، فيكفيكم أن تلقوه في الجب ليأخذه بعض المارة من المسافرين إلى حيث لا لقاء ، إنه لا يستحق أكثر من هذا ، بل إنه في نظر العدالة لا يستحق أيضاً شيئاً من ذلك ، وإن أبيتم إلاّ عمل شيء معه ، فعليكم بأخف الأمرين ، وأهون الضررين ، وهو إلقاؤه في الجب ، كما قلت لكم ؛

يا إخوتي ، إني لأكبر ما أسمع منكم ، وأخشى إن قتلتموه أن لا تحمدوا غِبّ رأيكم ، وشر الأعمال أسوأها مَغَبّة ، على أني لا أرى علاقة بين ما تقولون من أنّ والدكم يحب أخاكم أكثر منكم ، وأنه في ضلال من هذا القبيل ، وبين ما تطلبونه وتريدون أن تفعلوه بأخيكم ، بينوا لي ما هي العلاقة بين انتقادكم على شخص وإراقتكم دم شخص آخر ، فإن قلتم أنه يستحق القتل لإنه استأثر بمحبة والده ، فإني أقول لكم : إنه هو لم يستأثر ، لأن الفعل ليس منه ، ولكن الذي اختصه بأكثرية المحبة هو والدكم ، فإن قلتم إن أخانا هو العقبة الوحيدة ، الحائلة بيننا وبين قلب أبينا فنحن نريد إزالة تلك العقبة ؛ فقد أقول إن الوصول إلى قلب

---

(١) لفظة عبرية معناها الإلـه .

أبيكم لا يتوقف على خصوص إهلاك أخيكم ، بل يمكن التوصل لذلك بعمل طريقة لإبعاده من فلسطين ، كما قلت لكم ، هذا هو الرأي القصد الذي أراه لكم الآن ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . بخٍ ، بخٍ

(قال قائل منهم .. الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ المنصوري [1] :

لي ههنا ثماني كلمات ، كل كلمة مستقلة بنفسها منفردة عن إخوتها :

من هو « القائل » بتعديل الحكم على يوسف

الكلمة الأولى — آنفاً كان الإخوة قالوا ما قالوا ، وفي صوتهم غنّة استفهام كأنهم يستفهم بعضهم بعضاً ، أنفعل ذلك ؟ أنقدم عليه ؟ ماذا ترون ؟ أشيروا علينا ، ليبين كل منكم رأيه .

وعليه فانتدب « يهوذا » نفسه لنصيحة إخوته بالعدول عن قتل يوسف ، وشرح لهم مضارّ هذا العمل وسيئاته ، وهكذا صار ، أنّ خلاف شخص حور المؤامرة وعدّلها ، وأثر في المسألة أثراً جديداً ، وما أحسن هذا الخلاف ؟ ولعمري إذا كان الاختلاف « رحمة » كما يقولون ، فهذا الاختلاف من مظاهر هذه الرحمة ، لأن الإلقاء في غيابة الجب ، وإن كان في نفسه نقمة ، لكنه رحمة بالنسبة الى إزهاق الروح والقضاء على الحياة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » .

---

(١) نسبة إلى المنصورة من البلاد المصرية .

فلذلك وعلى كل حال نحن لا يسمنا إلا شكر هذا « القائل » ، ولعمري إنه حقيق بأن يمنح « نوط » الشرف الإسرائيلي من الدرجة الثانية ، لأنه قدر أن يؤثر على هؤلاء المتآمرين ، ويخفف شيئاً من ويل أخيه ؛

وههنا سؤال يذكره بعض المفسرين ، وهو لِمَ لَمْ يُذكر هذا « القائل » باسمه يا تُرى ؟ وجوابنا عن ذلك أنه لأجل أن يكون كل واحد منهم محتملاً أن يكون هو قائل هذا القول ، كما أنه في صدد المؤآمرة بالقتل أو الطرح أرضاً لم يصرح باسم المؤآمر الأول رئيس الحركة ستراً عليه ، ولا يقال إنه على هذا التوجيه ، لا ينبغي أن يعين أحدٌ منهم باسمه ، تأسياً بالكتاب ، لأن ذلك مقام تفسير أو مقام تاريخ وهو فيه أمر مطلوب ، ولهذا ولكون سفر التكوين تاريخاً محضاً ، تراه يذكر الأسماء بكل دقة ، وأما القرآن الكريم فإنه إنما يقصد منه العبرة والذكرى والعظة ، وشيء من ذلك لا يتوقف على تعيين القائل ، سواء أكان مشيراً بخير أو بشر .

وعلى ذلك وحيث نحن الآن نلقي هذه المحاضرات كمفسرين أو كمؤرخين ينبغي لنا أن نبحث عن هذا « القائل » من هو يا ترى ؟ .

إن سفر التكوين حكى أن هذا « القائل » هو « رأوبين » (تك ٣٧ : ٢١) ونقله مفسرونا عن « قتادة » ويقول السفر المذكور : إنّ « يهوذا » تبعه أخيراً على هذا الرأي ، (تك ٣٧ : ٢٦) ، وكلا القولين قريب من الصواب ، لأن النزعة الحزبية ضد يوسف كانت في هذين الأخوين ضعيفة جداً ، فهما لم يكونا حاقدين عليه تمام الحقد كغيرهما ، سيما وأن كلاً منهما كان في ذلك الوقت متزوجاً وذا أولاد ، فقياساً على نفسيهما يسهل عليهما تصور عواطف والدهما يعقوب على يوسف ، وكيف تكون الشفقة على الصغير ، لأن الحنو لا ينضج ولا يبلغ أشده

إلا في قلب الوالد ، والوالد لا يقتصر حنوه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى يحن الى كل ولد ، وزد على ذلك ان « رأوبين » كان أكبرهم لأنه البكر ، فلا بد أن يكون إذ ذاك قد اكتهل وتجاوز سن الشباب والنزق ، ولا تنس أن « يهوذا » كان كبيراً أيضاً ، لأنه رابع أولاد أبيه، وكان عاقلاً محنكاً وخطيباً مفوّها ، هذه هي الاحوال التي تقرب صوابية القول بأن هذا « القائل » هو رأوبين أو يهوذا ، بحيث كان كفرسي رهان في الحرص على تلطيف المصيبة التي يراد انزالها على رأس أخيهما يوسف .

وأما لبيان الأرجح من هـذين النقلين ، فقد قلت لكم أيها السادة : إن سفر التكوين يقول : إن هذا « القـائل » ابتداءً هو « رأوبين » ، وأما « يهوذا » فإنه هو في الآخر انعطف وضم صوته لأخيه رأوبين ، وعندي أن تفسير هذا « القائل » بيهوذا هـو الأرجح ، بدليـل أنه المتكلم الوحيد بين إخوته ، والخطيب البليغ ، وصاحب القول الثـاقب ، كما ذكر ذلك المؤرخون ، فلذلك وحيث عُبِّر عنه بعنوان « القائل » كان هو يهوذا ، لأنه هو القوال الخطيب المفوّه ، وأما « رأوبين » فإنما يُعبّر عنه بالكبير ، كما سيأتي في قول الكتاب الكريم : ﴿ قال كبيرهم ﴾ (ع : ٨٠) والواقع أنه كان أكبرهم سناً ، فاختلاف العنوان دليـل على اختلاف المَعْنُون عنه ، فان القرآن بمكان من الدقة التي لا يليق بالبليغ أن يَغفُل عنها عند كل كلمة .

القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة

الكلمة الثانية ــ هم كانوا قالوا : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ ، ولكن هذا « القائل » الآن إنما نراه ينهاهم عن الجملة الأولى ، إذ يقول ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾

ولم يصرح بنهيه عن الخصلة الثـــانية ، وهي طرحه أرضاً ، ولماذا هذا يا ترى ؟ وجوابنا عن ذلك بأن مآل الخصلة الأخرى هـو الموت أيضاً ، لأنه من ألقي في أرض بعيدة عن العمران مجهولة للنـاس كان مآله الموت ، إما جوعاً أو عطشاً أو من البرد أو بافتراس أحد السباع ، أو نحـو ذلك مما يعرض للانسان الوحيد ، في البر البعيد ؟ ونظير قولهم هنا « اقتلوا يوسفَ أو اطـْرحُوهُ أرضاً » قول مواطنيهم أهل العراق في جده سيدنا إبراهيم ﴿ اقتـلوه أو حَرِّقـُوه ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فما كانَ جوابَ قومِهِ إلاّ أنْ قالوا : اقتُلوهُ أو حَرِّقـُوهُ ، فأنجاهُ الله من النـــارِ ﴾ (٢٩ : ٢٤) ، فكما أن مآل قتل إبراهيم وتحريقه واحداً ، وإنْ اختلف شكل الإزهاق ، فكذا هنا مآل قتـل يوسف أو طرحه أرضاً واحد ، وإن اختلف شكل الإزهاق ، وكما أن إبراهيم عقب ذلك هاجر ، فلقي في مهجره راحة وعزاً ، فكذلك يوسف عقب ذلك هاجر ، فلقي في مهجره راحة وعزاً ، وقريب منه أيضاً مافي قوله تعالى ﴿ قـُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُم الفِرارُ إنْ فَرَرْتُم مِنَ الموتِ أو القَتْلِ ﴾ (٣٣ : ١٦) فطرحـه أرضاً هو الموت حتف الأنف المذكور هنـا .

ابتعاد يهوذا عن الانتساب ليوسف دفاعاً عن مصلحة اخوته

الكلمة الثالثة ـ إن سأل سائل : لماذا قال يهوذا: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾؟ فعبَّر عنه بعبارة ترمي الى أن يوسف كأنه أجنبي عن أخيه يهوذا ، ولم يقل : لا تقتلوا أخانا ، فالجواب عن ذلك أن يهوذا بهـذا التعبير يفهم إخوته أنه لا يريد الالتصاق بيوسف ولا الانتساب اليه ، لأنه مغبون منه ، ولا يدافع عن شخصه لأنه أخوهم ولكنه بما قال يدافع عن مصلحة إخوته ، متناسياً من جهة يوسف كل نسب وأخوة.

غيابة البئر

الكلمة الرابعة ـ قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان : غيابة البئر شبه لحف أو طاق فوق ماء البئر ؛ وقال الهروى : الغيابة في الجب شبه كهف أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون (آلوسي) ، وقال ابن جرير في تفسيره : غيابة الجب بعض نواحيها ، وفي صحيح البخاري في تفسيره : كل شيء غيّب عنك شيئاً فهو غيابة .

الجب وهل هو جب معهود

الكلمة الخامسة ـ الجب : البئر التي لم تطو ، لأن الأرض تجب جباً لا غير ، وكما تسمى جباً تسمى « قليباً » ، كانوا ولا يزالون في فلسطين يأتون للأرض الصخرية ويجبونها بالفؤوس والمعاول ، وكلما نزلوا في الأرض توسعوا ، فيصير الجب أرضه وحوائطه الأربع وسقفه قطعة واحدة من الصخر ، ومما يقرب في الهيئة من الجباب الدحال ، جمع دحل ، وهو ثقب فمه ضيق وأسفله واسع ، وأقرب شيء يمثل الجب للقارئ هو الخيمة التي تكون من اسفل واسعة جداً ، مع كون أعلاها ضيقاً جداً ؛ كانوا يجبون هذه الجباب في البراري ، كالبرية المحيطة بوادي دوثان ، وكانت تجف في بعض أيام الصيف ، ولا يبقى فيها ماء ، إلا في وهدة في وسط الجب على أسفله ، تحاذي بابه من اعلاه ، تبقى فيها بقايا الماء ، فتكون دوائر أرض الجب عديمة الماء في بعض أيام الصيف ، إلاّ في الجورة التي في وسطه ، وهذه الجباب هي لجمع ماء المطر وادّخاره الى حين الحاجة ، ينزل فيها ماء المطر بواسطة قنوات على سطح الأرض مسلطة على تلك الجباب . وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن هذا « القائل » أشار عليهم بإلقائه في موضع بناحية الجب

في إحدى أطرافه السفلى ، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهُوّة ، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره ، فهذه المشورة خطة ثالثة ، هي غير القتل وغير الطرح أرضاً ، فلا بد أن تكون هذه الخطة الثالثة تحتوي سلامة يوسف ، وتضمن حياته ، وتكفل بقاءه ، وذلك لا يكون إلا بما قلنا وصوّرنا ، فالمراد أن يلقوه في ناحية من نواحيه ، لا في وسطه ، ذلك لكي يكون يوسف بعيداً (نوعاً) عن البقية الباقية من الماء في قعره ووسطه ، إن كان قد بقي فيه وَشَلٌ من آثار الماء ، بل قال المؤرخون إن هذه البئر كانت نزحاً ليس فيها ماء ، ذلك لأنهم اتفقوا أخيراً على عدم إهلاكه ، وهذا لا يتحقق إلا بهذه الصورة ، وأما لو كانوا يريدون القاءه في جب مملوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه ، وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً ، وأما القول بأن الجب كان ملآنا ماء فهو قول هُراء يناقض روح الكلام الذي اتفقوا عليه أخيراً ، هذا تحقيق القول هنا ، وإن لم تصدقوني فتأملوا جيداً في الآية الكريمة وما ترمي اليه ثم سلموا معي على طول الخط بنظريتي

وبعد فيظهر أنه أراد من قوله « غيابة الجب » جباً معيناً معهوداً معروفاً لهم في دوثان ، وإنما عيّن ذلك الجب للعلة التي ذكرها ، وهي قوله ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ ، لأن ذاك الجب كان معروفاً في دوثان ، وكانوا يردون عليه كثيراً ، وكان ذلك « القائل » يعلم أنه إذا طرح فيه أخوه ، يكون الى السلامة أقرب ، أي يكون سالماً في المئة تسعة وتسعين ، لأن السيارة تجوز دائماً وترد على هذا الجب ، ومتى وردت اليه التقت بذلك الغلام ، فتخرجه وتذهب به الى حيث تريد من البلاد القاصية كمصر مثلاً ، حسبما هو مألوف ومعروف في تلك العصور من التقاط بعض الأولاد واغتصاب بعض البنات واسترقاقهم ظلماً ، كما هو معمول به في تلك العصور المظلمة ، وبالتالي وبالنتيجة يكون القاؤه في غيابة الجب أبعد عن الهلاك .

التحقيق في تفسير الغيابة

هذا وأما تفسير « الغيابة » بما غاب عن النظر في قعر البئر وأسفله ، فهو بعيد والأقرب ما نقلناه من أن الغيابة هي شبه كهف أو طاق في البئر ، ودليلنا على ذلك قراءة « غيابات » بالجمع ، لأن الأسفل واحد ، وأما الكهوف والطاقات التي في الجباب فيمكن أن تتعدد ، والمراد « ألقوه في إحدى غيابات الجب » ، ويدل على ذلك أيضاً قول الشاعر :

فإنْ أنا يوماً غيّبَتْني غَيابتي

فسيروا بسيري في العشيرة والأهلِ

أراد بغيابته لحده ، ومعلوم أن اللحد كهف في جانب القبر عند أسفله .

هذا ما أراه في هذا المقام . وهذا ما يظهر ، ولا أعلم هل أُرضي الجامدين فيما قلت لكم أيها السادة أو أغضبهم وإنما أعلم أني قد أرضيت ضميري وخاطري ، وأرضيتكم أيضاً أيها الإخوان ، وحسبي ذلك وكفى .

اخوة يوسف لم يبيعوا يوسف

الكلمة السادسة — قوله : ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ دل على أن إخوته لم يبيعوه للسيارة ، بل إن السيارة التقطته فهو دليل على أن ضمير الجمع في (شروه) فيما سيأتي يعود على السيارة ، لأن السيارة بمعنى القوم والرهط ، وأنْ (شروه) بمعنى باعوه ، كما هـــو المعنى اللغوي الكثير ، ولذلك قال على أثره : ﴿وقال الذي اشتراه﴾ أي ابتاعه ، أقول قولي هذا مخالفاً لجمهور المفسرين الذين قالوا بأن إخوته باعوه للسيارة ، وسبب هذا القول منهم — مع أن فهمه من الآية الآتية بعيـــد

جداً — أنه هو المذكور في التوراة ، فجمهور المفسرين وفي مقدمتهم ابن عباس (فيما يدّعون) قلّدوا التوراة وقالوا بذلك ، وأما نحن فلا يهمنا سوى متابعة ما يتبادر من كلام الله تعالى في كتابه القرآن الكريم (وتمامه في المحاضرة على الآية العشرين) .

لماذا لم يبت « القائل » برأيه

الكلمة السابعة وهي الأخيرة — قوله : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي عازمين ومصرين على أن تفعلوا به ما يفرّق بينه وبين أبيه ، فهو لم يبت القول لهم ، بل عرض عليهم ذلك عرضاً ، تأليفاً لقلوبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيه ، وحذراً من سوء ظنهم به ، ثم وبعد ذلك كله لا بد أن يكون هذا الرأي الذي رآه (يهوذا) قد سرّ (رأوبين) كثيراً ، وأساء (شمعون) كثيراً ، وكان الباقي من الإخوه على شيء من الرضى بهذا الرأي الأخير المذكور، لأنهم لم يكونوا في الحب ليوسف كيهوذا ورأوبين ، كما لم يكونوا في عدائه كشمعون ، فكانت حالتهم معه وسطي أو كانوا للغيرة والكره أميل ، والله تعالى وحده بالحقائق أعلم ، وإنا لنعجب لهذه الاختلافات في العواطف ، مع إن الدم واحد ، رأوبين وشمعون ويهوذا هم أولاد يعقوب من ليئة ، ويوسف هو ابن يعقوب من راحيل ، والأمّان أختان ، أبوهما (لابان) خال يعقوب ، فالجرثومة واحدة ، ولكن الفروع مختلفون في العواطف ، ولله تعالى في خلقه شؤون :

قالوا بقانون الوراثة وهو في … نظري مقال ما عليه دليل
ماأنجبَ النجباءُ قطُّ فإن تجد … ولداً نجيباً منهمُ فقليلُ

ضَلْعُ « القائل » مع يوسف

الكلمة الثامنة ــ لا بد أنه كان لهذا « القائل » مع يوسف ضِلعٌ (نوعاً) وحسبنا دليلاً على ذلك أنه أقنعهم برجوعهم لأخف الضررين ، وانه قال :﴿ إن كنتم فاعلين﴾ إذ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، فإن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وإنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبوا بمثلِ ما عُوقِبتُم به ﴾ (١٦ : ١٢٦) يعني الأفضل أن لا تعاقبوا .

وبعد فكل ما فتح به الرحمن في هذا المكان ، قد سقته إليك ، فإن لم تقنع به فالباقي عليك . (مرحى)

تدبير الحيلة لتنفيذ المؤآمرة

آ(١١) ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالَكَ لا تَأْمَنَّا على يُوسفَ ؟ وإنّا لَهُ لَناصِحونَ ! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية عشرة فقام سيدي حسام آغا الفيومي (١) وقال :

دخل إخوة يوسف العشرة على أبيهم في خيمته و قالوا له ﴿ يا أبانا ﴾ المحترم ﴿ مالك لا تأمنا على ﴾ أخينا ﴿يوسف﴾ المحبوب ! ، أي لِمَ تخافنا عليه ﴿وإنا له لناصحون ﴾؟ أي ونحن نريد له الخير ، ونحبه ونشفق عليه ، وما وجدنا في بابه

(١) نسبة الى بلد الفيوم في القطر المصري .

ما يدل على خلاف النصيحة والمقة — وهذه السياسة تدعى سياسة «جس النبض» إذ أرادوا بذلك ، لما عرفوا على كيد يوسف ، استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم ، وفيه دليل على انه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه — .

(قالوا يا أبانا ... الخ)

— ١ —

وتابع السيدالفيومي كلامه قائلاً —

التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف

كان الاخوة قضوا ساعة ; بعض الساعة في تدبير المؤامرة المشئومة السابقة ، ثم اتفقت كلتهم على رأي أخيهم (يهوذا) واستحسنوه ، فأرادوا انتهاج طريقة تسني لهم الجري على مقتضاه ، فشرعوا يمهدون الأسباب الموصلة لذلك ، وابتدأوا يذللون العقبات التي تحول بينهم وبين أخيهم ، لم يدخروا وسعاً في استنباط العلل لأخذه ، فلم يجدوا لذلك سبيلاً إلا التزلف لأبيهم وتعليل أخذهم له بما يحبه أبوه له ، رتبوا برنامج الحيلة والدسيسة ، بأن يطلبوه من والده ، بعلة التنزه والرياضة ، وترويح النفس ، فيأخذوه للأرض التي هم فيها ، يرعون حواليهم أغنامهم في «دوثان» ونظراً لما يعلمونه من حال أبيهم بالنسبة لأخيهم - من قرب محبة ومحبة قرب - لم يكونوا يرجون أخذه بسهولة ، ورأوا أن الأمر يحتاج الى سعي وروية لأنه صعب ومشكل ، كما أنهم لم يكونوا قانطين من أخذه حيث لا يعدمون وسيلة لحل هذه الصعوبة ، فرتبوا فيما بينهم ما رتبوا من أخذ وردّ ، وسلب وجلب ، وانبعثوا من

مكانهم فولوا وجوههم شطر فسطاط أبيهم في «سيلون» وذهبوا حثيثاً ، وما عتموا أن دخلوا عليه ، وهم مقنعوا رؤوسهم ، وخافضوا أصواتهم ، احتراماً لمقام الأبوة!!، وجلال السن والرئاسة الدينيـــة ، ليمجموا عوده ، ويغمزوا قناته ، يواربونه ويماذقونه ، وعيونهم تميل بلفتاتها الى الجانبين ؛ رآهم أبوهم فعجب لهم ، إذ كانوا مجتمعين حين دخولهم عليه ، فقال لهم : «مَهْيَم» ما حالكم وما شأنـكم ؟ اذكروا حاجتـكم ، — فقالوا : يا أبانا المحترم ، إنا نتقدم اليك بسؤال نرجوا أن لا يثقل عليك ، سؤال بسيط نعرضه على وجه الاستفهام ، — قال : هاتوا — قالوا : إنا نعجب ولا نعلم الأسباب ، مالك لا تأمنا على أخينا المحبوب يوسف ؟ وماذا تنقم منا في معاملتنا معه ؟ يا أبانا ، نحن لا نستطيع أن ننكر عليك شدة محبتك له ، وفضل رأفتك به ، وحنوك عليه ، لأنك تحمل بين جنبيك قلب الأب العطوف على ولده الصغير ، ذلك القلب الذي يخفق بالرحمة والحنان ، ولكن الذي نعجب منه ونعتب فيه أشد العتب هو خوفك منا عليه ، وعدم ثقتك بنا في كلاءته ، ونقسم بالرب (إيلْ شَدّايْ) إنّا لمخلصون له قولاً وفعلاً ، وإنّا لنعجب من هذه المعاملة ، كما إنّا لنقول هذا القول ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه لا يليق بالوالد أن يكون في حال تحفظ من أولاده الكبار ، بالنسبة لأخ لهم صغير ، يغارون عليه من ظله ، ويخشون عليه من مس الريحان —

هذا وقد خاطبوه بعنوان « الأب » تحريكا لسلسلة النسب ، وتذكيراً برابطة الاخوة التي سببتها الابوة ، كي ينزلوه عن رأيه في حفظه منهم — أيْ أيّ شيء تشتبه منه لا تجعلنا بسببه أمناء على يوسف ؟ مع إنك أبونا وهو أخونا ، بل وابن خالتنا ولماذا تشفق وتهيب ؟ ولماذا لا تسكن الينا ؟

وقد حضرتني الآن عدة فوائد ، أريد أن أعرضها على اسماع الاخوان الحاضرين ، ليروا فيها رأيهم .—

الاخوة بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من ابيهم

الفائدة الاولى — قالوا هذا القول لأبيهم وهم بين عاملين ، عامل الخوف من أن يجيبهم بالسلب ، فتحبط تدابيرهم ، وعامل الرجاء أن يلبي طلبهم ، فيفوزوا بمصيدهم، وقد تصوروا عند ذلك أن حياة وموت يوسف بين شفتي يعقوب وهو لا يشعر.

طريقة طلب الاخوة ليوسف من ابيهم تدل على سوء نيتهم

الفائدة الثانية — كان يعقوب يخاف على يوسف من إخوته ومن كيدهم له ، وكانت تظهر منه أمارات على ذلك في أعماله وأقواله ، فلذلك خاطبوه بهذا الخطاب.

دفع ونفع

الفائدة الثالثة — إنما قالوا له :﴿ وإنا له لناصحون ﴾ لأنهم كانوا متهمين عند والدهم بكره أخيهم ، ولأنهم كانوا يعلمون أن أباهم يرغب كل الرغبة في النصح لولده يوسف ، ويحرص جد الحرص على صحة جسمه ونموه ورياضته، ويعني أعظم العناية بحفظه وكلاءته ، فدخلوا عليه من هذا الباب ، ولا يقدرون أن يدخلوا عليه من باب آخر سواه ، فكانت هذه الجملة منهم « لدفع ونفع ».

وثيقة الاعتماد

الفائدة الرابعة — هم قالوا الآن :﴿ وإنا له لناصحون ﴾ وسيأتي على الأثر قولهم أيضاً : ﴿وإن له لحافظون﴾ ، فوالدهم يعقوب اعتبر هذين الكلامين كوثيقة اعتمد عليها ، فسمح بذهاب ابنه يوسف معهم .

النصح لغة ومعنى

الفائدة الخامسة — قولهم :﴿ وإنا له لناصحون ﴾ هو من : نصحتُ لهالود : أخلصته ، وناصح العسل : خالصه ،ونظيره في القرآن الكريم:﴿ إذا نَصَحُوا للهِ ورسولِهِ ﴾(٩٢:٩)﴿ونَصَحْتُ لكمْ﴾ (٧٨:٧) ﴿وهمْ لهناصحون ﴾ (٢٨: ١٢) ومنه حديث البخاري : (الدينُ النصيحةُ للهِ ورسولِهِ) وفيه عن جرير : (بايَعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) على شهـــادةِ أنّ لا إلـه إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسولُ اللهِ ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ والسمعِ والطاعةِ ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مسلمٍ) ومنه مافي قول أبي العلاء المعري :

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده بنصح فإنّا منهـــمُ بُرَآءُ

فكل هذه بمعنى الإخلاص وخلوص الفعل والقول من شائبة الفساد ، ففرق في المعنى بين نصحته ونصحت له ، لأن معنى نصحتـه : تحريت أن أقول له ما فيه صلاحه ، ومعنى نصحت له : أخلصت له العمـل أو القول ، ونصحه ضد غشه ، وأما نصح له فهو ضد خلط .

لسان اخوة يوسف هو ترجمان اهوائهم

الفائدة السادسة — عهدنا باللسان انه ترجمـــان الجَنان ، ولكننا نراه الآن ترجمـان الأهواء ، لأن هؤلاء الإخوة يتكلمون بمـا لا ينطوون عليه ، وغنيّ عن البيان أن الوفاء بالوعد من مهمات الدين ، ومن الأخلاق الاجتماعيـة الفاضلة ، ومع هذا فاننـــا نرى هؤلاء المتكلمين مع أبيهم لم يفوا بالوعد ، ولم يقفوا عند حدود هـــذا العهد .

المتكلم يطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة

الفائدة السابعة ــ سأل سائل : هل تكلم جمهم جميعاً مع أبيهم ، أو كان المتكلم واحـــداً منهم عنهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا عقدوا اجتماعاً سرياً تداولوا فيه عماذا يصنعون في أخيهم ، ثم قر رأيهم على أخـذه من والدهم ، فالقائه في غيابة القليب ، وأحالوا بتنفيذ هذا القرار على واحـد منهم يتكلم مع والده باسم جميعهم بحضورهم بحيث يترجم عن أفكارهم ، ويحكي مقاصدهم .

واحتمال آخر وهو أنهم توا كلوا الكلام ، ثم تكلم أحدهم بلسان الجميع .

السم في الدسم

آ (١٢) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية عشرة فقام عبد الملك الكردي وقال:

﴿أرسله معنا غداً ﴾ من « سيلون » الى « دوثان » ، ﴿ يرتع ﴾ يتسع في أكل الفواكه وغيرها ، (ويلعب) يستبق وينتضل ، كانوا يفعـــلون ذلك ليُضَرُّوا أنفسهم بما يُحتاج اليه لقتال العدو ، لا للهو ، بدليل قولهم ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ ، وإنما سموه لعبـاً لأنه في صورته ، هم وعدوه بذلك ، ولكن وعدهم راح أدراج الرياح ، فإن « الرتع » كان بعيداً عن فمه ، و « اللعب » كان نائيـــاً عن رجليه ، وأما « الحفظ » فلم يكن إلا لقميصه ، فلم يرجعـوا إلاّ به ، كما لم يرجع حُنين إلا بخفيه ، ... وبعبارة أخرى :

هم يقولون : « لناصحون » «يرتع»« يلعب » ، « لحافظون » ونحن نقول هذه وعود ساحرة ، خلابة ، مختلفة ، منقوضة من حين التكلم !!..

(يرتع ويلعب ..)

— ١ —

وقال الملا صديق الاربيلي (١) :

اخوة يوسف يضربون على الوتر الذي يحبه ابوهم لأخيهم يوسف

لقد رأى إخوة يوسف الأكارم !! بثاقب رأيهم وواسع تفكيرهم !! أن يضربوا على الوتر الحساس الذي يحبه أبوهم لابنه المحبوب يوسف في هذه السن ، سن الصبا وشرخ الشباب فيطلبوه منه ليذهب معهم ليسرح ويمرح ويأكل ويلعب فيدخل السرور إلى قلبه والانشراح والنشاط الى صدره وبدنه ، فتوجهوا اليه قائلين له : (ياأبانا غيرّ أنشودة الخوف بأنشودة الأمن ، وبدل نغمة هذا التحفظ بنغمة الثقة ، ولا تكن كمحافظ عتيق !! ، أنفذه معنا غداً باسم التنزه والتريض وتبديل المناخ ، واستنشاق الهواء النقي ، يتأمل في مناظر الطبيعة البسيطة ، الخالية عن تصنع المتصنعين ، الدالة على وحدانية رب العالمين ، وإذا أعوزه شيء من أمور هذا العالم المادية (رَتَعَ) وتبسّط في الأكل والشرب و وإذا أعوزه اللهو تشاغل و (لعِبَ) بالقفز والجري والركوب والسباق ، وما الى ذلك ، (فيرتع) بمعنى يكثر في الأكل ويتنعم ويتوسع ، و (يلعب) بمعنى يشتغل بالرمي والثقاف (الخصام الجلاد) والصراع والكر والفر ويتأثر طرائد الصيد في مسارحها ومساربها ،

---

(١) نسبة إلى إربيل من بلاد العراق .

(يلعب) في ذلك المرج المخصب كثير الكلأ بين تلك الآجام فينشرح صدره ، ويستقبل أشعة الشمس ، ويتمتع بمناظر الطبيعة ويبسط نفسه ، ويرى حظه ، ويبكر صبيحة كل يوم تبكير الطير ليتمتع بمناظر الطبيعة ، ويمتع نظره فيما أوجد الله فيها من بهاء وجمال ، ويعمل رياضة جسمية ، ويتنسم رائحة الهواء البليل العليل ، هواء البر الصافي الطلق ، فيميناً لو يعلم أخونا ما في البادية من طهارة الهواء ، وطيب المناخ ، لخرج إليها ولو حبواً » .

معنى الرتع واللعب

هذا مغزى كلامهم الروحي ، ولعلكم وقفتم من هذا التقرير على معنى الرتع واللعب ، ومع ذلك فإني أشرح كل لفظ منها على حدة بشيء من التوضيح فأقول : (الرَّتْعُ) في الأصل الاتساع في الخِصب ، ثم أريد منه الاتساع في الأكل ، ومنه حديث أمّ زرع : (في شِبَعٍ ورِيٍّ ورَتْعٍ) أي تنعم ، وحديث عمر : (إني والله أُرْتِعُ فأُشْبِعُ) يريد حسن رعايته للرعية ، وأنه يَدَعُهُم حتى يَشبعوا في المرْتَع ، وفي حديث الغضبان الشيباني : (قال له الحجاج : سَمِنْتَ — قال : أسمنني القَيْدُ والرَّتَعَـة) أي الاتساع في الأكل ، قال الزمخشري : (وأصل الرتعة : الخِصب والسعة ، ولكن المقصود التوسع في أكل الفواكه وغيرها) ، وقال في القاموس (رَتَعَ : أكَلَ وشرب ما شاء في خصب وسعة ، أو هو الأكل والشرب رغداً في الريف أو بِشَرَهٍ) .

هذا وقد أخروا لفظ اللعب عن الرتع في قولهم لأبيهم ، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية هو وقت الصباح ، بعد تناول لقيمات يسيرة ، وفي المساء وقت البرد بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء ، وفي كلام الناس :

« تَمَشَّ وتَمَشَّ ولو خطوتين » .

(يرتع ويلعب....)

— ٢ —

قال نادر الزمان الافغاني :

فوائد اللعب

١ — يفهم من مضمون الآية الكريمة ان يوسف كان على الأغلب ملازماً لجلوسه بجانب أبيه ، وربما لا يبرح سحابة نهاره ، فهو لا حركة ولا عمل ، ولذلك فاللعب الرياضي يناسبه كثيراً ، فإخوته إنما تكلموا مع أبيهم بتعقل وإظهار نصح ، ولكن النية منهم لم تكن صالحة..

٢ — من المقرر أن الأوفق في الأعمال الرياضية أن تكون في الساحات الفسيحة الطلقة ، حيث الهواء نقي طهور ، والماء رقراق ، ولذلك رغبوا أن يخرج معهم الى البر .

٣ — قال علماء الصحة : إن الرياضة البدنية وعمل العضلات يدعوان الى دوران الدم وسيره في سائر الأعضاء ، فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنة ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم ، وإن عدم الانتظام في سير الدم يوقع الجسم في الأمراض ، ويضعف أعضاء التحليل ، وبذلك يجد الانسان من نفسه ميلاً الى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة .

٤ — إن الرياضة البدنية تهيء الأجهزة المختلفة لإفراز الفضلات ، عرقاً أو بولاً أو مع زفير الرئتين ، وتقوي العضلات والمفاصل ، وتحفظ الدورة الدموية في حالة صحية ، فللعب الجسماني مكانة كبرى وأهمية عظمى ، فلذلك وحيث أن أباهم يعقوب يرتاح لكل ما يعود على ولده المحبوب بالفائدة انتحلوا لسفره معهم هذا السبب .

اللعب عند العرب

٥ — كان العرب كثيري الرياضة والألعاب ، دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والذود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وسرعة إجابة المستغيث،وما إلى ذلك،وإنّا لنرى في كلام أولاد يعقوب(ع) ما يشير إلى أن فيهم شيئاً من ذلك .

انواع اللعب عند العرب

٦ — من يعود إلى قانون الشيخ الرئيس (ابن سينا) ، يرى بحثاً مسهباً في الرياضة البدنية ، والألعاب الجسمانية يدل على أن العرب كانوا يعرفون من أنواعها ما لا يقل عن معرفة أبناء اليوم لها ، فقد عرفوا منها المنازعة ، والجري والقفز ورمي الحديد ، والصيد ، وتسنم الجبال ، وحمل الاثقال والرمي إلى الهدف ، ولعب الكرة ، والسباحة ، وأعمال الفلاحة والصناعة ، وحركات الجباز ، والملاكزة ، وسرعة المشي ، والرمي عن القوس ، والقفز إلى شيء ليتعلق بـه ، والحجل على إحدى الرجلين ، والمثاقفة بالسيف والرمح . وركوب الخيل والسباق عليها ، والخفق باليدين ، وركوب الجمال ، والطفر ، واللعب بالصولجان ، واللعب بالطبطاب ، والمصارعة ، وإشالة الحجر .

لعب النبي ﷺ والصحابة

٧ — هذا النوع من اللعب ، اعني الرياضة البدنية بأقسامها ليس بمعيب ولا مستهجن ولا مكروه ، فقد كان ﷺ يتسابق مع عائشة (ض) فمرةً غلبته ، وذلك لما كانت خفيفة اللحم ، ومرةً ثانية غلبها ، وهذا حينما صارت بدينة ، وقد

ورد أن النبي ﷺ تصارع مع غيره، فكان النبي غالباً وأسلم المغلوب وكان مشركاً ووورد أن النبي ﷺ كان يسابق على ناقته العَضْباء، وكانت إذا سوبق بها لم تُسْبَق، فعظمت في صدور المتسابقين، ولكن مرة سُبقت، فقال ﷺ: «ما رفع العبادُ من شيء إلاّ وضع الله منه»، وكان عليّ كرم الله وجهه «تِلْعابةً» أي كثير اللعب، كقولهم (تِلِقّامة) لكثير اللّقم، كذا في فائق الزمخشري، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصطادون ويتسابقون على الخيل والإبل، ولا تنسوا ما قاله ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري لما تزوج ثيباً: «هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك»، وقالوا: «لا بأس بملاعبة الرجل لفرسه وترسه وعرسه»، وروى ابن عدي في الكامل عن ابن عمر «أحبُّ اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي» وهما السباق والرمي عن القوس، وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ: قد ندب الشرع إلى تعليم الصبيان الرميَ والثِّقافَ (الخصام والجلاد) والصِراع وسائر ما يدربهم على حمل السلاح والضرب والكرّ والفرّ وتصلية أعضائهم وتعليمهم البطش والحميّة والأنَفَة من العار والفرار (قاله في الطرق الحُكْمية).

جواز اللعب للكبار كما للصغار

وكان هرون الرشيد هو ووزيره جعفر البرمكي وسائر وزرائه ـ يلعبون بالكُرة والصولجان، فالصولجان عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف، وأما (الكرة) فهي كتلة مستديرة من الجلد ونحوه، فإذا ضربت الكرة لا يلبث الفارس أن يلتقطها من الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى تطير في الهواء، فيستحث الآخرون أفراسهم في إثرها يبغون ملاقاتها بصوالجتهم [1]؛ وكم سمعنا

(١) وهي لعبة تشبه اللعبة المسماة اليوم بلعبة «البولو».

ونسمع وسنسمع إن الكثير من الرجال الكبار يتبارون في العدو والقفز ،وهكذا الجنود في الثكنات العسكرية ، والأهالي في الحقول ، والتلاميذ في المدارس ، بلا نكير ودون استهجان ؛

إذا تقرر ذلك فلا مانع عندنا أن يراد (باللعب) المذكور في هذه الآية أيّ قسم من أقسام الرياضة المذكورة ، وليس يصعب على ذي الطبع السليم إسناداللعب بالمعنى المذكور ليوسف ، لا سيما إذا لاحظنا أنه لم يكن في ذلك الوقت داخلاً في عداد الرجال ، بل في عداد الغلمان الذين لا بأس لهم بذلك ؛

« إذا ذكر المحاضرون فحيهلاً بالأخ نادر الزمان الأفغاني »

(لحافظون)

— ١ —

قال عبد العظيم التركي :

خديعة اخوة يوسف لأبيهم

يقول إخوة يوسف لأبيهم : والله لأن نسره ، أحب إلينا من أن نضره ، إنه سيكون تحت جناحنا ، ذاهباً ومقيماً وآيباً ، كل واحد منا هو (شُرطي) عليه ، نحفظه من كل ما يسوؤه ، وندفع عنه عاديات الدهر ، بما أوتينا من قوة وعقل ، نموت بموته ـ لا سمح الله ـ ونحيا بحياته ، إن شاء الله ، فلا يلبث أن يعود إليك بالصحة والعافيه ، ونرجو أن تذكرنا بالرضا والدعاء في خلوتك وجلوتك ، كمانحن سنذكرك في (دوثان) وصحرائها ، بالشكر والارتياح ، لحسن صنيعك معنا .

نعم ، نعم ، يميناً بالرب « أ'لُو ِهيم ْ » إنه سيكون في خفارتنا وحمايتنا نَـذ ُب ّ

عنه ونَذُود ، ونمنع عنه بأنفسنا وأرواحنا ، فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ،بل نقوم بحفظه من أن يُستَطار أو يُغتال، أو يُفتَرس أو يتيه ، أو أن لا يَرجع ، إلى نحو ذلك ، فهو العظم واللحم ، ونحن الجُنَّة والرِّداء .

قالوا ذلك ، وجعلوا يرفرفون بأجفانهم ، ويرددون أبصارهم ، وينظرون الى وجه أبيهم خلسة ، ليتبينوا عواطفه ، شأن كل من كان يتكلم بما ليس في قلبه ، ﴿ أقسَموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهمْ ﴾ على هذا كله،وهم قد دخلوا على أبيهم بالخديعة، وهم قد خرجوا بها ؛ هم يقولون : (يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) الفـاظ ثلاثة صدرت منهم ثم ذهبت قبض الريح ولم تلبث أن أقامت إلا بمقدار ما خرجت من شفاههم ثم تلقفها الهواء فاندمجت في طياتـه ، وإلاّ فقل لي : أين الرتع ؟ وأين اللعب ؟ وأين الحفظ ؟

الجواب عند علام الغيوب !... فهذه وعود خرجت من لسان لم يتصل بقلب، وأماني لم تنبعث من أقصى النفس وإنما من الحنجرة فقط ...

ولنا ههنا ملحوظة وهي أنّ هذه المعاهدة والمواعدة تذكرنا اليوم بمعاهدات دول الاستعمار مع أهالي الأقطار التي تضع نصب أعينها ، الاستيلاء عليها ، فإن تلك المعاهدات في الغالب مَحَاطّ استراحة بين الحملة والحملة ، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لاغير ، بحيث لدى توفر القوة لا تَعْدَم عذراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية إلاّ على نية النقض ؛

فإخوة يوسف هنا عندمادخلوا على أبيهم تبدلوا بجلود النمور أصواف النعاج ، ثم لما أخذوا يوسف قلبوا المجن ونكثوا ماقالوا ، فهم استعملوا الأيمان والعهود وسيلة لا ستنزال أبيهم ورضاه بما طلبوا ، ثم غدروا به ؛ الأمر الذي لا يليق بذوي البيوتات المحترمة ؛

وهذا يذكرنا بما كان « المنصور العباسي » يفعله ، يحلف كاذباً ، ويعاهد ويخالف ، ويواثق ويغدر ، كما فعل مع « ابن هبيرة » بعد أن أعطاه الأمان ، فإخوة يوسف هنا وعدوا وتلطفوا ولكن حادثة القائه في غيهب القليب شهدت عليهم انهم لم يبروا بوعدهم المرقوبي :

إحذرْ الأقرباءَ ما استَطعتَ وانظرْ ... فِعلَ إخوانِ يوسفَ المحسودِ
وَعدوه بالنُّصْحِ والحفظِ لكنْ ... لم يَريبُوا أن أخلَفوا بالوعودِ(١)

ورحم الله من قال :

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعمل
إن كان ينجع شيء في ثباتهم ... على العهود فسبقُ السيف للعذل

وقد اعتد الناس على « عبد الملك بن مروان » فَعْلَتَه التي فعلها مع « سعيد بن العاص » ، حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياتـه ، وقالوا إنها أول غدرة في الإسلام ، وقد اتفق أن سأل عبد الملك أَحَدَ كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد ، فقال : ﴿ حسَنٌ لو قَتَلْتَهُ وحَيِيتَ ﴾ — فقال عبدالملك : « أولَستُ بحيّ ؟ » — فقال الشيخ العربي : « حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد » ! .

« رجماً وانعطافاً » :

خلف الوعد والوفاء به

وخلف الوعد طبيعة الشيطان كما ورد : ﴿ وقال الشيطان لما قُضي الأمرُ : إنْ اللهَ وَعَدكُمْ وَعْدَ الحَقّ ... وَوَعَدْتكُمْ فأخْلَفْتُكُمْ ﴾ (١٤:

---

(١) النظم لرئيس المؤتمر .

٢٢) وهو قنطرة النفاق كما قال تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللهَ :لَئِنْ آتانا مِنْ فضلِهِ لنَصَّدَّقَنّ ، ولَنَكُونَنّ مِنَ الصالحين ، فلمّا آتاهُمْ مِنْ فضلِهِ بَخِلوا به وتَوَلّوا وهم مُعرِضون ، فأعقَبَهُمْ نِفاقاً في قلوبِهم الى يوم يَلْقَوْنَه ،بما أخلَفوا اللهَ ما وَعَدُوهُ ، وبما كانوا يَكذِبُون ﴾ (٩: ٧٦ - ٧٨) .

قال

خذا الوعدَ لكنْ مِنْ يميني فأعفني   فلستُ أُرَى يوماً كذوباً فأحْلِفا

ولا تتخيّلْ أنّني لــك مُخْلِفٌ   فلستُ بأهلِ للنفاقِ فأخْلِفا (١)

والوفاء بالعهد من سماء المؤمنين إيماناً كاملاً وهولهم عنوان شرفهم ، وملاك مروءتهم ، قال تعالى : ﴿ والذين هم لأَماناتِهم وَعَهْدهم راعُون ﴾ (٢٣ : ٨) .

وقال تعالى : ﴿ وأَوْفُوا بالعَهْدِ ، إنّ العهدَ كان مَسْؤلاً ﴾ (١٧ : ٢٤)

فلا يوجد شيء أشرف من تقيد الإنسان بقوله ، «والوعد أملك ، عليك أم لك» .

تخوف يعقوب من طلب اولاده

آ(١٣) قالَ إِنِي لَيحزُنُنِي أنْ تَذهَبُوا بِهِ ، وأخَافُ أنْ يَأكُلَهُ الذِّئبُ ، وأنتم عنه غافِلون .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة عشرة فقام السيد البعلبكي(٢) وقال :

(قال) لهم أبوهم معتذراً اليهم بشيئين،الأول مافيقوله ﴿ اني ليحزنني أن

(١) النظم لرئيس المؤتمر .

(٢) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (لبنان) .

تذهبوا به ﴾ ومفارقتي إياه ، لأني ما تعودت الصبر عنه ، (و) الثاني إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ أخاف عليه من عـدوة الذئب الموجود بكثرة في « دوثان » ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ برعيكم ولعبـــكم ، أو إذا قلّ به اهتمامكم ولم تصدق بحفظه عنايتكم .

نعم أيها السادة ، لقد سمع يعقوب مقالة أولاده ، فتبسم تبسماً يمازجه القلق ، وأخذ يعجب لهذا الاحتفاء غير الإعتيادي ، قائلاً في نفسه : إن المركب خشن ، وأشد الحزن ما يحزن الرجال .

سكت هنيهة وهو يمشط لحيته الشريفة باصابعه ، كأنه يفتكر بماذا يجيب أولاده على اقتراحهم ، لأنه قد خامره منهم ريبة فقال : أواه ... لعمري إن هم الفراق ، ولوعة النوىٰ ، ولو قليلا ليملآن قلبي .

افتكر يعقوب في حال أولاده مع يوسف ، وأنهم يحسدونه ، وأنهم له بالمرصاد، فقال في ضميره : إن سباحة الغزال في الماء مع التماسيح تغرير ، ومن سمح أن تظفر به الأسود عند غاباتها لم يأمن من وثباتها .

رابه أسلوب كلامهم ، وهالته طريقتهم في خطابهم ، فتخوفهم قائلاً بينه وبين نفسه : لعمري إن هذه الكلمة الصادرة منكم التي تطن الآن على أذني لهي أدَلّ على ما يتخوف منه من اسم المحلّ على بضاعته ، سمع أبوهم كلمتهم وفيها غنّة المكر ، فوقع في نفسه من الذعر مالا يعلمه إلا الله وهو ، وأوجس خيفة من هذا الطلب، وغلب عليه الانقباض ، وحدثته نفسه بخطر قريب ، وحصر صدره مما قالوا ، وأحسّ بمكرٍ منهم بحاسة الإشعاع السماوي المودعة في قلبه .

طلبوا هذا الطلب من أبيهم ، ولبثوا منتظرين جوابه بكل حرارة ، كأنهم على

مقالي الجمر ، فقال أبوهم : لا أخفي عليكم إنكم طلبتم أمراً صعب المرام، بعيد المتناول أنا لا أريد أن أركب الغرر ، ولا يهون عليّ مفارقة هذا القمر ، إني أحب أن يكون يوسف مني دائماً بمرأى ومسمع ، وإنه ليشجيني أن تبعدوا به عني ويؤلم قلبي أن تفرقوا بينه وبيني ، ويقض مضجعي أن تحرموني رؤيته ، لأن ذلك يجعلني خائرَ النفس ، ضائق الصدر ، بكل ما تحت هذه الكلمة من المعاني .

استغرب أبوهم ما تجدد فيهم من محبة أخيهم ، وعهده بهم ـ وما بالعهد من قدم ـ أنهم لا يحرصون على مسرته ، لما عندهم له من الحسد والضغينة فقال : إني أنا الآن بين خطرين عظيمين الحزن على فراقه ، والخوف على حياته ، ولئن سلمت من أحدهما لا أسلم من الآخر .

سمع أبوهم كلامهم فرابه منه ما يريب (راعيَ الشاة) من ابتسامة « الذئب » فاعتراه امتعاض وابتئاس ، فقال : (إني ليحزنني أن) وسكت ، ـ فقالوا : (أن ماذا) ؟ ـ قال : (أن تذهبوا به) ، فإني أتخيل أنّ قلبي يذوب يومَ بعد ولدي عني . وأتصور أن لبي يطير شعاعاً عند فراقه لي .

هـذه مرامي جواب أبيهم لهم ، وأنتم ترون أن هـذا الكلام ليّن والعبارة لطيفة ، ولكن المعنى جارح ، ولذلك نرى أولاده ـ رغماً عن أنهم في مقام الرجاء أجابوه بجواب ملؤه الشدة والصراحه كما سيأتي .

وبعدُ ،ومع كل ذلك فنحن نضم صوتنا لصوت يعقوب (ع) ، ونشاطره في هذا الحزن وذاك الخوف ، كما صدقه الواقع وليس في الواقع من حيلة .

(ليحزنني أن تذهبوا به)

— ١ —

قال عبدالعظيم الشركسي :

عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات

يحتمل أن المعنى : يحزنني ذهاب يوسف عني ومفارقته إياي ، أي يحزنني ذهابه عني ، ومفارقته إياي مطلقاً ، إما وحده وإما مع غيره كائناً من كان ، ويحتمل أن المعنى يحزنني ذهابكم أنتم أيها الحسدة البغضة ، لا سواكم من ذوي الحب والرفق والإخلاص ، فعلة الحزن هي كون أولاده هم مناط الذهاب بيوسف أي إنه يحزن لكونهم هم الذاهبين به ، لا غيرهم من ذوي الود والمقة ، فمجرد الذهاب بيوسف لا يحزن أباه ، وإنما الذي يحزنه هو كون الذاهبين به إخوته الذين يكرهونه ، ويناوئونه دائماً ، هذا ما ظهر لي فتأملوه ، فربما أكون واهماً مخدوعاً ، وإذا صح هذا المعنى يكون أبوهم رمى حجراً فأصاب اثنين فجعل ذهابه عنه مطلقاً من أسباب حزنه ، كما جعل ذهابهم هم به خصيصاً كذلك ، بل عندنا أن الكلام يحتمل معنى ثالثاً ، وهو هكذا : يحزنني أن تفوزوا - أيها البغضة - بأخذه ، وتستبدوا - أيها الحسدة - باستصحابه معكم - لأنه وإن يكن أصل معنى هذا التركيب - تستصحبونه وتمضون به معكم ، فقد يكون لهذا التركيب في بعض المواضع معنى زائداً على المعنى الأصلي ، وهو الفوز بالشيء ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ﴾ (٢٣ : ٩٢) ،

أي لفاز به واستبد بأخذه ، دون الآلهة الأخرى ، وقوله تعالى : ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ (٤ : ١٨)، أي لتفوزوا بشيء من المهر (الراغب) وعليه فأصل المعنى ههنا ، مع رعاية المعنى الأصلي ، يحزنني أن تفوزوا وتظفروا به من بين يديّ ، سيما وأني أعرف عداءكم له ومناوأتكم إياه . « مرحى »

(وأخاف أن يأكله الذئب الخ ..)

— ١ —

قال مولاي برهان الدين من علماء كراتشي في الهند :

خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب

يقول يعقوب لأولاده العشرة : « إن الصحراء التي أنتم فيها « مَسْبَعَة » أو « مَذْأَبَة » فلا أريد أن يكون ابني الصغير عرضة لافتراس « أبي جعدة »[1] الموجود العدد الكثير منه ، في تلك المفازة التي ترعون فيها أغنامكم ، ، فإني خبير بوَعث تلك الاصقاع وخوفها ، سيما وأن الذئاب فيها عادية ضارية ، فلا تكونوا سبباً في الوقوع فيما أفرقُ ويطير قلبي شعاعاً منه ، لا تكونوا سبباً في حرماني ولدي ، والتفريق بيني وبينه ، فانكم إن فعلتم أتعبتموني وبرحتم بي ، وملأتم حياتي هماً وكمداً»

قال لهم أبوهم ذلك علماً بسماع كل منهم ، ثم قال في نفسه سراً : « وإنني لست أخاف من الموت على شخصه فقط ، بل أخاف على تلك الآمال التي آملها فيه أن تموت بموته ، أخاف على مَرْجُوّاتي فيه المستقبلة أن تدفن معه ، فإن لي في هذا الصبي آمالاً كباراً ، فلي فيه رجاء أن سيكون له مستقبل باهر ، وأترقب أن

---

(١) أبو جعدة هو الذئب .

سيصير له شأن ذو بال ، فتخو في ليس على ضياع شخصه فقط ، بل على ضياع تلك الآمال الجيدة » .

هذا هو المعنى الروحي لكلام يعقوب (ع) فكأن قلبه دلّه على ما قال ، ولا غرو فقلب المؤمن دليله ، وقد روي : « استفتِ قلبك ولو أفتاك المفتون » ، وهذا النوع من كل ما يحكى فيقع تسميه العرب « ألْمَعِيّة » قال أوس :

والألْمعِيُّ الذي يظن بك الظن ـــ كأنْ قد رآى وقد سمعـــا

ويقـال له إذا صدر من الرجل الصالح « فِراسة » كما قيل : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومن الرجل الأصلح « تحديثاً » كما ورد عنه (ﷺ) « إنْ يكن في أمتي مُحدَّثون فمنهم عمر » أي تُحدِّثهم الملائكة بما تلهمهم إياه .

أو يقال إن يعقوب (ع) كان يتخيل ان « ذئباً » سيغتال ابنه ، فكان لهذا الخيال يحتاط في صونه ، ثم إن الحادث الذي وقع فسّر هذا الذئب بأنه ذئب خيالي اخترعته أفكار أولاده ، وقلما ترى حادثاً فظيعاً لم تتقدمه الهواجس والخيالات التي تحوم حوله ، وتشير الى وقوعه ، وهذا سر من أسرار الكون التي لم يوقف لهـا حتى اليوم على سبب ، نعم ، إننـــا نرى بعض المحبين لا يكاد يطمئن باله على من يحب ، حتى إذا جاء أحـد يطلبه ، فلا يتبـــادر الى ذهنه إلا الاحتمال السيء ، ولذلك قال بعضهم :

من سر أسرار الغرام شعورُ مَنْ　يهوى المـــلاحَ بكل شرٍ قادم

وههنا دقيقة تلميحية لا بأس من الإشارة اليها ، وهي أن كلمة « ذئب » لم تذكر قط في القرآن الكريم إلا في هذه السورة ثلاث مرات ، كأنه لما كان « موضوع» هذه القصة هو « يوسف الغزال » ناسب أن يذكر في مقابله « الذئب » .

(وأخاف أن يأكله الذئب)

— ٢ —

وقال فخر الدين الخوارزمي [(١)]:

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف

سأل سائل : كيف يقع هذا التخوف من يعقوب ، مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى اليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. الخ ﴾ ولا ريب أن هذا لم يكن منه على وجه التكهن والتفرس أو الألمعية أو حسن الرجاء ، بل كان على وجه أنه أوحي اليه به لأنه نبيّ : ﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوىٰ ، إنْ هُوَ إلاّ وحيٌ يُوحىٰ ﴾ (٣:٥٣ و ٤) ، ولذلك رأيناه بعد حادثة الذئب (المزعومة) لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته ، كيف لا وقد قال: ﴿بل سَوَّلَتْ لكم أنفسُكُم أمراً﴾ (ع٨٣) ثم قال : ﴿عسى اللهُ أنْ يأتِيَنِي بهم جميعاً ﴾ (ع٨٣)، ثم قال: ﴿واعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ثم قال : ﴿اذهبوا فتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسفَ وأخيه، ولا تيأسُوا مِن رَوْحِ اللهِ، إنَّهُ لا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون ﴾ (ع ٨٧) ، ثم قال : ﴿إنِّي لأجِدُ رِيحَ يوسفَ ﴾ (ع ٩٤) فمجموع هذه الأقوال الخمسة يرشدنا الى أنه كان على اليقين من أن ولده موجود بقيد الحياة ، وما ذلك إلا استناداً على الوحي الذي أوحِيَ به ليوسف في رؤياه المجيدة ، وعلى الوحي الذي أُوحِيَ به إليه نفسه

---

(١) نسبة الى خوارزم احدى المدن التركستانية .

حتى أخبر ولده بمستقبل له باهر، كمن ينظر الى الغيب ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة.

فإذا تقرر هذا فكيف سوغ لنفسه التخوف على ولده من «الذئب»؟.

ونحن نجيب عن هذا السؤال بما يلي:

خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري

١ — إن الخوف من شيء ما هو أمر طبيعي، يطرأ على الانسان قسراً، مع اعتقاده بعدم وقوع مضمونه، وعدم حصول ما يخافه، انظر الى «يوكابد» أم موسى (ع)، فقد خافت على ولدها موسى بعد أن ألقته في اليم، حسبما نفهمه من قوله تعالى: ﴿ وأصْبَحَ فؤادُ أُمِّ موسى فارغاً، إنْ كادَتْ لَتُبْدِي به، لولا أنْ رَبَطْنا على قلبها، لتكونَ مِنَ المؤمنين ﴾ (٢٨ : ١٠) كان هذا منها بعد أن طمأنها الله تعالى وقال لها: ﴿ فألقِيهِ في اليمِّ ولا تخافي ولا تَحْزني، إنّا رادّوهُ اليكِ وجاعلوهُ مِنَ المُرسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى: ﴿فرَجَعْناكَ الى أمّكَ كيْ تَقرَّ عينُها ولا تَحزَنَ ﴾ (٢٠ : ٤٠)، فنرى من أن أم موسى بعدما نهاها الله عن الخوف والحزن، وطمأنها بكلامه، خافت وحزنت، وذلك لأن كلاًّ من الخوف والحزن أمر طبيعي يطرأ على الانسان قسراً، من حيث لا يشعر، ولا يكون له فيه اختيار — وقال تعالى: ﴿ ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحمْدِهِ والملائكةُ مِن خِيفَتِهِ ﴾ (١٣ : ١٤) فالملائكة عباد مكرمون: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهُمْ، ويَفْعلونَ ما يُؤمَرونَ ﴾ (٦٦ : ٦) وهم معصومون. ومن العذاب قطعاً آمنون، لدخولهم دخولاً أولياً في قوله تعالى: ﴿ الذينَ آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ أولئكَ لهم الأمْنُ ﴾ (٦ : ٨٢)

ومع كل هذا فهم ﴿ يخافون رَبَّهم مِنْ فوقِهم ﴾ (١٦ : ٥٠) — وقال تعالى : ﴿ وألْقِ عصاكَ ، فلما رآها تَهْتَزُّ كأنَّها جَانٌّ ، وَلَّى مُدبراً ولمْ يُعَقِّبْ يا موسى : لا تَخَفْ ، إنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلونَ ﴾ (٢٧ : ١٠) ، فموسى بعد أن رآى عصاه قد قلبت حية خاف ، وهو بحضرة الله ، وإنما ألقاها بأمر الله ، فهرب ممتلئاً ذعراً ، فهذا الخوف أمر طبيعي يعتري المخلوق مع اعتقاده بعدم تأثير ما يخافه ، فالاعتقاد شيء ، وطبع المخلوق شيء آخر ، وقال لموسى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ ونجعلُ لكما سُلْطاناً ، فلا يَصِلُونَ اليكما بآياتنا ، أنتُما ومَنْ اتَّبَعَكُما الغَالبونَ ﴾ (٢٨ : ٣٥) ، ثم قال عن السحرة لما قالوا : ﴿ إمَّا أنْ تُلقِيَ وإمَّا أنْ نَكونَ أوَّلَ مَنْ ألْقى — الى قوله — فأوجَسَ في نفسِهِ خِيفَةً موسى ، قلنا : لا تَخَفْ إنَّكَ أنتَ الأعْلَى ﴾ (٢٠ : ٦٥)) فهذا موسى رسول الله وكليمه ، كان قد أخبره الله عز وجل بأن فرعون وملأه لا يصلون اليها ، وأنه هو الغالب ، وبعد ذلك فهو قد أوجس في نفسه خيفة ؛ وقال تعالى خطاباً للنبي (ﷺ) : ﴿ ولا تحزَنْ عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرون ﴾ (١٦ : ١٢٧) وقال : ﴿ فلا يحزُنْكَ قَولُهُمْ ﴾ (٣٦:٧٦) وقال: ﴿ فلا تذهَبْ نفسُكَ عليهم حَسَرات ﴾ (٣٥ : ٨) ، ثم سمعناه تعالى يقول : ﴿ قدْ نَعلَمُ إنَّهُ لَيَحزُنُكَ الذي يقولون ﴾ (٦ : ٣٣) ونهاه عن ذلك ، فما هذا إلا لكون الحزن أمراً طبيعياً وكذلك الخوف في قوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ (ع ١٣) .

جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده ينافي خوفه عليه

٢ — يجوز أن لا يكون عند يعقوب اعتقاد جازم في ولده ينافي خوفه عليه

من افتراس « الخَوْلَع (١) » إياه ، وأما رؤيا يوسف فيجوز ليعقوب أن يحملها على رؤية الهِمّة فلا يكون لها تعبير ، وكذلك قوله له : « وكذلك يجتبيك ربك الخ » يجوز أن يكون قاله لا عن وحي ، بل عن تفرس ورجاء وعليه فلا يكون خوفه على حياة ولده مستغرباً .

جواز عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرباه

٣ – لعل يعقوب (ع) لا يقطع بأن هذه الرؤيا التي رآها ولده يوسف ، هي لشخص يوسف نفسه ، بل لغيره من ذوي قرباه ، لأن الرؤيا التي يراها الانسان في منامه ، قد تكون لبعض أقاربه أو أصدقائه ، كما هو مذكور في كتب تعبير الرؤيا (راجع ابن سيرين وابن شاهين ، وتعطير الأنام في تفسير المنام للنابلسي ، تجد الأمر كما نقول) ، وفي حديث : « بينا أنا نائم ، أتيت بمفاتيح خزائن الأرض ، فوضعت في يدي » ، قال أبو هريرة ، « فذهب رسول الله (ﷺ) ، وأنتم تنتثلونها » فلا شك أن المراد من يد النبي يد أتباعه ، من الخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين وما اليهم .

جواز قصد يعقوب بالذئب وأكله اضرار شمعون بيوسف

٤ – لعله لم يعن بالذئب وأكله سوى إضرار (شمعون) له ، وهذا الجواب الرابع وجيه وقويّ جداً ، ولكن ليس هذا موضع توضيحه ، بل موضعه المحاضرة الآتية على آية (١٧) فانتظر .

---

(١) الخولع احد اسماء الذئب .

هذا ما ظهر لي الآن ، في الجواب عن سؤال السائل فتأمله فإني لست بالقائل :

ولا تقف صوتاً غير صوتي فانني
أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدي

ولكني أقول : ربما أكون واهماً مخدوعاً ، فان أصاب جوابي المحز فذاك ، وإلا فدعه ، ولا تتبعه ، فكلنا يصيب ويخطىء ، ويسرع ويبطىء .

(هتاف من الجميع : نت مصيب يا أستاذ)

(وأنتم عنه غافلون)

— ١ —

قال الحاج اسماعيل السيامي (١) :

يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيبون

يريد يعقوب أن يقول : إن ولدي نحيل ضعيف العضل ، لم يجرب الكفاح ، ولم يحمل بعد السلاح ، فأخشى عليه عادية « العَمَلَّس » (٢) حال انشغالكم عنه ببعض الأشغال وربما تهاونتم في حفظه ، وفرطتم في الدفاع عنه وإنما يُضَنّ بالضنين ، ولا أكتم عنكم انني قد تشاءمت من قولكم : (مالَكَ لا تأمنا) ، والمكتوب يعرف من عنوانه ، وإن صوت قلبي هو أصدق من تلك التأمينات التي تُمَنّوني بها . ويا الله !! ما أحوج يعقوب ليوسف ؟ لما يعلمه فيه ، وما أحوج يوسف ليعقوب لأنه غلام صغير .

---

(١) نسبة الى سيام احدى مدن الهند الصينية .

(٢) العملس احد اسماء الذئب .

هذا مرمى جواب يعقوب لأولاده ، وقد كانوا قبلها دخلوا على أبيهم تصوروا أن الأمر بالنسبة إليه جَلَلٌ ، وأنه يشق عليه فراق ولده المحبوب ، لاسيما إذا كان قد ذهب معهم ، وإن ذلك الأمر يحزنه كثيراً ، وكانوا أضمروا أنهم بعد أن يأخذوه ويسقطوه في الجب ، يرجعون له بدونه ، متعللين بأن « الحَوْلَم » أكله ، حال غفلتهم عنه ، — فكانت هذه المعاني حاضرة في ذهنهم ، وكانت هذه الصور مرسومة في مخيلتهم ، فحينما دخلوا على والدهم انكشف له ما في قلوبهم من تلك الصور ، وقرأ أفكارهم ، وما أصدق ما قيل : (من القلب الى القلب دليل) فنطق بما يختلج في قلوب أولاده ، فكأنه ناب عنهم أو تكلم بلسانهم ، أو عبر عما في ضمائرهم واحساساتهم ، ليسمع ماذا يقولون في جوابهم ؟

يعقوب يصف غفلة ابنائه عن حفظ يوسف بأنها امر ثابت لهم في نفسه

لقد قال يعقوب : (وأنتم عنه غافلون) ولم يقل : (وأنتم غافلين عنه) إذ يوجد فرق كبير في المعنى بين الجملتين ، فالجملة الأولى (وأنتم عنه غافلون) حال جملة ، ومعناها إن غفلتهم عن حفظ يوسف وصف ثابت لهم في نفس أبيهم يعقوب ، إذ ربما أكله الذئب في حال تلبسهم بتلك الغفلة ، ثم هم غافلون عن حفظه أيضاً قبل هذا الحال وبعده .

وأما إذا قال (وأنتم غافلين عنه) فتكون حال مفردة ، ويكون معناها ، إن الغفلة إنما تكون وصفاً لهم حال أكل الذئب إياه ، فالغفلة تابعة لأكل الذئب ، مقدرة بقدره ، وهكذا يقال في أمثاله مما سيأتي .

جواب الخاتلة والمكر

آ (١٤)﴿ قالوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذئبُ ، ونحنُ عُصْبَةٌ ، إنّا إذاً لخَاسِرونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الرابعة عشرة فقام الشيخ مضيوف السنغافوري[1] وقال :

(قالوا) بلسان الرد والانكار ، (لئن أكله) أي عدا عليه (الذئب) السبع (و) الحال أننا (نحن عصبة) جماعة متعصبة متعاضدة ، (إنّا اذاً لـ) قوم (خاسرون) أي لمستحقون أن نخسر ونهلك ، أو معناه : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرناها .

حلفوا لأبيهم لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم ، وحالهم انهم عشرة رجال انهم خاسرون ، ولما رأوا أن أباهم قد تشاءم ، طلبوا منه سحب تشاؤمه ، مبينين له سبب التفاؤل ، وهم كونهم عصبة ، فإن قلت قد اعتذر لهم بعذرين ، فأجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت إن العذر الذي حذفوه وتغافلوا عنه هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرّين ، فأعاروه آذاناً صماء ، ولم يعبأوا به وأيضاً كان أشغل العذرين لقلبه هو الثاني وهو خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه ، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً اليه عما قليل فأمر سهل فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه .

---

(١) سنغافورة بلد في الهند الصينية .

(قالوا لئن أكله الذئب .. الخ)

— ١ —

وقال السيد محي الدين الحضرمي[1] :

اصرار الابناء على اخذ يوسف من ابيه

لم يلب والدهم طلبهم ، ولما كان : (أحب شيء الى الانسان ما منعا) ولما رددوا في ذاكرتهم ما كانوا قد آنسوه من كثرة مقته به ، ولما راجعوا صورة المنام الذي كان قد رآه ، لما اجتمعت عندهم كل هذه الأشياء ـ ازدادوا شعوراً بلزوم أخذهم أخاهم مهما كلفهم الأمر ، فراجعوا والدهم ثانياً ، وقالوا له ـ وهم يتظاهرون بالدهشة والاستغراب ـ أيّ الذئاب تعني ... تبّاً علينا ، هل يقدر أن يفترسه « العَمَلَّس » ؟ إنه لأضعف من أن يقدم على هذا الأمر ونحن حوالي أخينا ، وإن كبد السماء أقرب الى « العملّس » من أن يصل الى أخينا ، هب ان صحراء دوقان مسبعة كما تقول ، وان كثيراً ما افترس فيها ولدان صغار كما تسمع ولكن كيف يمكن « لأبي جَعْدَة » أن يفترس أخانا المحبوب ، ونحن حواليه نحوطه ، ونقوم بالمحافظة عليه ؟ بل كيف يمكن ذلك وهو ابن سبع عشرة سنة ؟ ما هذه الظنون أيها الوالد العظيم ؟ تالله لئن أكله « الخولع » ـ لا سمح الله ـ ونحن جمع شديد ، بمثلنا تُعصب الأمور وتلقى الخطوب ، إنا إذاً لهالكون ، ضعفاً وخَوَراً وعجزاً ، ـ أو على الأقل ـ لمستحقون أن نهلك ، لأنا نكون لا غناء عندنا ولا جدوى في حياتنا ، نكون لسنا بشيء ، لسنا رجالاً ، لا نستحق الحياة، ليس لنا قِطٌ من البطولة ، حتى لسنا بأهل لأن نكون رعاة أغنام !! حقاً إنه ليسوؤنا ألا يكون لنا نصيب من الثقة بنا ، حتى ولا في نفس والدنا ! فنشدناك

---

(١) نسبة الى حضرموت من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

اللهَ يا والدنا أن لا تكسر معنوياتنا بمثل هذا الجواب ، ولا تتخوف عليه ، فإننا مع احترامنا لشخصك الكريم ، لا نرى محلاً لهذا الخوف والحذر ، وإنّا نستغرب ما تقول من (الحزن) جدّ الاستغراب ، ونعجب له جد العجب .

يا أبانا تأكد تماماً أن هـذا الذي تقول لا يكون دون أن يَبْيَضّ القار ، ويجتمع الليل والنهار ! يا أبانا لا تنس أننا عصبة أولوا صهيل وصليل ، يشد بعضنا أزر بعض ، لا نستذل ولا نستقل ، وإن صح ما تظن ، خسرنا حسن سمعتنا بين الرجال بالفتوة والمنعة ، وشاع انه ليس لنا حمية ولا قوة دفاع ، يا أبانا ، أفضل أعمالنا في غنمنا ، وعمدة شرفنا ذود السباع عنها ، فاذا كنا نزود السباع عن غنمنا أفلا نذودها عن أخينا الصفي !

هذا هـو المعنى الروحي الذي يؤول اليه كلامهم في جوابهم لأبيهم ، وسببه أنهم لما سمعوا جواب أبيهم السلبي ، ثارت فيهم الحمية ، وأوغلوا في إشارات الاستغراب ، وقد تلونت وجوههم بلون التعجب ، وتذمروا من جواب أبيهم واستهجنوه ، واستنكروه واستكبروه واستعظموه ، فاستنصروا جَلَدهم وقوتهم ، ذاهبين الى أن : (السكوت عند رد الجواب بدعة) مقيمين على فكرتهم ، مصرّين على مخالفة أبيهم ، متغلبين على ذهنه ، متسلطين على إرادته ، وهكذا ما زالوا يحتالون عليه بكلام يثقب الخردل ، ويحط الجندل ، وما برحوا يجادلونه جدال هجوم ، وأبوهم يجادلهم جدال مدافعة ، حتى وقع قولهم في نفسه ، وغلب أخيراً على أمره ، تغلبوا عليه ، وهو واحد ، وقد قيل : « ضعيفان يغلبان قوياً » ، فكيف إذا كانوا جماعة أقوياء ؟ فلذلك ولكونهم أمنوه ووعدوه — كانت النتيجة أن سمح لهم بأخذه ، ورضي بذهابه معهم ، وسلم لهم تسليماً ، وإن كاد يكون تسليماً اغتصابياً .

وبعد هذا كله ، فلنا ثلاث كلمات:

تهربهم من الاجابة على حزن ابيهم ومغالطتهم الجدلية له

١ ــ لنا على جوابهم لأبيهم ملاحظتين : فالملاحظة الأولى أن قولهم﴿ لئن أكله الذئب .. الخ﴾ إنما هو جواب عن الشق الثاني من المعذرة التي اعتذر بها أبوهم لهم ، وهو قوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب ﴾،وأما الشق الأول من المعذرة وهو قوله :﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ فقد ثقل على طبعهم سماعه ، فضاقوا به ذرعاً ، ومروا عنه مرور الكرام ، وجعلوه دَبْرَ آذانهم ، ولماذا ؟.. لأنه سبب حسدهم له ، وهو الذي كان يغيظهم ، فأعاروه آذاناً صماء ولم يعبأوا به ، بل سكتوا عنه كأنهم لم يسمعوه وهذا السكوت يسمى بلسان رجال الحكومات اليوم « التهرب السياسي » .

والملاحظه الثانية ــ أبوهم إنما قال﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾، وفي هذه الحال يمكن « للذئب » أن يأكله ولو كانوا مئة عصبة وعصبة ، إذ ربما الجيش الغفير بتمامه في حال الغفلة لا يدفع عادية الهاجمين ، كما أنه بالعكس في حال اليقظة والحيطة ربما إنسان واحد يقدر أن يدفع ذلك ، هكذا أراد أبوهم ، وهكذا يقتضي المنطق والعقل ، ولكن أولاده أدخلوا عليه « المغالطة الجدلية » في جوابهم .

القوة الجسمانية لا تكفي وحدها لحفظ يوسف

٢ ــ لا نزال نرى هؤلاء الإخوة العشرة يقولون : « نحن عصبة » سمعناها منهم أولاً وثانياً ، فهم يفتخرون بقواهم الجسمانية ، ويتكلون على جميتهم ، كأنهم نسوا أن لكثير من الحيوانات العجم في هذه القَدَر حظاً أكمل من حظ الإنسان والقوة وحدها لا تكفي لحفظ يوسف ، ولكن القوة مع المحبة والاخلاص .

اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية

٣ — مما يجب التنبيه عليه انه يوجد في هـــذه السورة اليوسفية ما لا يتفق مع ما هو مذكور في هذه القصة المندرجة في سفر التكوين المتـداول بين أيدي اليهود ، فالسورة ههنا تحكي ان إخوة يوسف دخلوا على والدهم ورغبوا اليه أن يرسل أخاهم معهم ، وانّ حواراً دار بينهم وبين والدهم ، انتهى بانتصارهم عليه حتى سلمهم إيّاه ، ولكن سفر التكوين لا يحكي شيئاً من هذا القبيل ، إنما يذكر ان إخوته مضوا ليرعوا غنم أبيهم قريباً من نابلس ، وفي غيبتهم قال له أبوه : (إن إخوتك يرعون غنمهم عند نابلس فاذهب اليهم لتنظر سلامتهم وسلامة الغنم، وترجع اليّ بالتطمين) فسمع لأبيه فأرسله من شمـــالي (حبرون) أو من (سيلون) الى نابلس ، فوجدهم قد ارتحلوا منها الى (دوثان) ، وهي مدينة شمالي نابلس على غاية اثني عشر ميلاً ، فذهب ورائهم فوجدهم في (دوثان) ؛ هذا هو الذي يؤخذ من سفر التكوين وشروحه ، ولكن نحن علينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه خاتم الأنبياء (ﷺ) ونقل الينا بالتواترالصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق وما خالفه هو الباطل ، وناقـــله مخطىء أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه .

حال التاريخ قبل الإسلام وبعده

إن حـالة التاريـخ قبل الاسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالـكة الظلام ، فلا رواية يوثق بهـا للمعرفة التامة بسيرة رجال سندهـا ، ولا تواتر يعتدّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم من حال الى حال بعد نزول القرآن ومجيء نبيّ الإسلام ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم —لو أنصفوا— أن يؤرخوا بهأجمين،

فما كان من شؤون الأمم وسير العالم بعد الإسلام لم ينطمس ولم تذهب الثقة به ولم ينقطع سند رواته ، كما كان الحال هكذا في الأمم السالفة .

عناية المسلمين في اول الاسلام بالرواية والرواة

وبيان ذلك بالإجمال — أن القرآن قد جاء البشر بهداية جديدة كاملة ، كانوا قد استعدوا للاهتداء بها بالتدريج ، الذي هو سنة الله تعالى فيهم ، فكان من عمل المسلمين في حفظ العلم والتاريخ العنايةُ التامةُ بالرواية ، ما يقبل منها وما لا يُقبل، ولذلك ألفوا الكتب في تاريخ الرواة ، لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلفة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ، وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينه وبين ما يشتهر من روايات الآحاد ، فبهذه العناية لم ينقطع سند لنوع من أنواع العلم ، التي وجدت في المسلمين ، على أن العناية بعلوم الدين أصولهاوفروعها كانت أتم ، ثم كان شأن من قفّى على آثارهم فيالعلوم والمعارف بعد ضعف حضارتهم على نحو شأنهم في التصنيف ، وإن كان دونهم في ضبط الرواية ونقدها ، والأمانة فيها ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التي جرت في العالم بعد الإسلام ، وما اختلف الرواة والمصنفون في جزئياته من تاريخ الإسلام وغيره ، يسهل تصفيته وأخذ الصفيّ منه ، لأجل الاعتبار به ، وعرفان سنن الاجتماع منه، جرياً على هدي القرآن فيه .

خلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة

وقد علم وتحقق أن اليهود خلطوا في تاريخهم ، وأن أكثره لا يعرف كاتبه ،

ومن ذلك (التوراة) التي منها (سفر التكوين) المسطور فيه قصة يوسف ، فقد قيل : إن كاتبها موسى ، وقيل وهو الأصح عندهم عزرا الكاهن ، المسمى عند العرب (بالعزيز) ولذلك يسمى أيضاً عندهم (عزرا الكاتب) ، وقيل غير ذلك مما هو مذكور في تفاسيرهم ، وتواريخهم الدينية ، ويكفينا شاهداً على أن الأسفار الخمسة (التوراة) كتبت بيد غير يد موسى ، أولاً ذكر وفاة موسى فيها (تث ٣٤ : ١ — ١٢) ، ثانيــاً قول سفر التكوين « قَبْلَ مَا مَلَكَ مَلِكٌ لبني إسرائيل » (تك ٣٧ : ٣١) ، فهذه العبارة لا يمكن أن تكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو الكاتب لسفر التكوين ، لأن ملوك بني اسرائيل إنما كانوا بعد موسى بنحو (٤٥٠) سنة ، على ما في قاموس بوست وشروح التوراة وتواريخ اليهود والنصارى جميعاً ، الى غير ذلك من الدلائل التي ترشدنا الى الجزم بأن (سفر التكوين) كباقي الأسفار الخمسة قد وقع فيه من الزيادة والنقصان ومخالفة الواقع ما لا يحصى ، وليس الوقت وقت بيان هذه الأدلة .

وكافات بني إسرائيل تحرير الوقائع بالحوادث فقد فاتهم ما فيها من العبر والحكم فأين ما يذكره (سفر التكوين) في قصة يوسف مما تجده في عبارة القرآن من صنوف العبرة والموعظة ، ثم بالنتيجة والعطف على ما سبق فالحق ما قاله الله تعالى من مجيء إخوة يوسف لأبيهم ، وطلبهم منــــه أن يرسل معهم أخاهم ، ولا يعتبر ما خالفه من أقوال سائر الكتب معارضاً له ، فيحتاج الى التوفيق او الجواب ، والله وليّ المتقين .

الفصل الخامس

تنفيذ المؤامرة

آ (١٥) ﴿ فلمَّا ذَهَبوا بِهِ ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلوهُ فيغَيَابَةِ الجُبِّ ... ، وَأَوْحَيْنَا إليهِ : لَتُنَبِّئَنَّهمْ بأمْرِهِمْ هذا ، وهُمْ لا يَشْعُرونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة عشرة فقام أستاذنا سعيد الحوراني [1] وقال :

أذن يعقوب لابنائه أن يأخذوا أخاهم يوسف (فلما ذهبوا به) أي بأخيهم من « سيلون » الى « دوثان » ، وأبوهم واضع يده على قلبه (وأجمعوا) أزمعوا (أن يجعلوه في غيابة الجب) بدوثان ، فعلوا معه ما تقصر عنه العبارة ، أو تشمئز منه المسامع ، وتهتز منه الركب ، أي ألقوه في غيابة الجب ، قائلين له : « خذها يا صاحب الأحلام ، انزل فيما تضيع فيه آمالك ، وتطيش أحلامك ، فنحن إنما فعلنا بك هذا ، لتعلم أن أحلامك دخان من غير نار » ، (و) عند ذلك (أوحينا اليه) أي ألهمناه أو قلنا له بواسطة المَلَك ، (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أي لتخبرن إخوتك بما فعلوا بك وأنت بمصر وهم ماثلون أمامك ، (وهم لا يشعرون) أنك

(١) نسبة الى اقليم حوران في سورية

يوسف لعلو شأنك ، ولطول العهد المبدل للهيئآت والأشكال ، وذلك قول يوسف لهم في السفرة الثالثة :﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾، فلا تحزن منهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، فلما أوحى الله اليه ذلك اطمأن قلبه وسكن روعه وهدأ باله .

ولكنه لا ندحة من أنه كان يعجب من عمل إخوته جد العجب ، فيردد في ضميره معنى قول القائل :

ألا إن اخواني الذين عهدتهم
أفاعي رمال لا تقصر عن لسعي
ظننت بهم خيراً فلما بلوتهم
نزلت بواد منهم غير ذي زرعِ

ولا ندحة انه دهمه من الحزن ما دهمه ، وانه كان يحيط به جو من الاستسلام والصبر .

(فلما ذهبوا به . . الخ)

— ١ —

وقال السيد أبو يَعْلَى العدني [١] :

الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب

لم يزالوا يراجعون أباهم ، ولم يألوا جهداً في استنزاله على إرادتهم ، حتى أحرجوه فانصاع اليهم ، وانساق لمشيئتهم ، ونزل على حكمهم ، ظناً منه ان ظواهرهم مرآة لبواطنهم ، فاسترسل اليهم استرسالاً ، وأرسل يوسف معهم إرسالاً .

(١) نسبة الى عدن من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

جرت حيلتهم هذه عليه مع فضله وعلمه ، كما جرت حيلة « عمرو بن العاص » على « أبي موسى الأشعري » في التحكيم ، مع أن أبا موسى عليم بدهاء عمرو ، ولكن إذا وقع القدر عمي البصر .

مشت حيلتهم على أبيهم ، وجاز عليه كذبهم ، لأن الأنبياء ليسوا معصومين من تصديق الكاذبين ، فتصديق الكاذب لا يعد ذنباً وقد ثبت أن النبيّ (ﷺ) كان يصدق بعض ما يفتريه المنافقون ، حتى يخبره الله بما كان من المصلحة إخباره به منه ، كما وقع في غزوة تبوك وغيرها ، وصدّق بعض أزواجه في القصة المشار اليها في سورة التحريم حتى أخبره الله تعالى به وبأن من أسر اليها الحديث أفشته ، وتردد في حديث أهل الإفك ، وضاق صدره به زمناً ، حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . وفي صحيح البخاري : « إنكم تختصمون اليّ ولعل بعضكم أنْ يكون ألحنَ بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحوٍ مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له من النار » .

نعم الأنبياء معصومون من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة ، على أن هذا القول الذي صدر من أبناء يعقوب ليس هو من قبيل الإخبار المحض ، حتى يوصف بالكذب ، وإنما هو من قبيل الوعد لأبيهم بالنصح لأخيهم وحفظه ، وعداً مبنياً على الرجاء والأمل ، واذاً فلا يوصف بالكذب ، ولكن بخلف الوعد فقط ، هذا ما حضرني الآن قلته تقدمة للدخول على آية (١٥) فتأمله .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

— ٢ —

وقال مولانا مظفر احمد خان الهندي :

يوسف مع اخوته في طريقهم الى دوثان

ما فتيء الإخوة يلحفون على أبيهم ، ويفتلونه في الذروة والغارب، حتى آنس منهم الإخلاص ، وارتاح الى مواعيدهم ، وبعد اللتَيا والتي أطلبَهم طِلْبتهم ، وقال لهم : « حسناً فليكن كما تريدون » فقاموا فرحين بقناعة أبيهم بعد أن كان رضاه ضرباً من المحال ، فأعدوا معدات السفر ، ورحلوا توا ، وهم لا يلوون على شيء، ساروا مدة صامتين ، لا يفوه أحد الطرفين للآخر بكلمة ، وكان كل من الطرفين مملوء بالغبطة والسرور ، فيوسف مملوء سروراً ، لأنه خارج للنزهة ، وإخوته مملوؤون غبطة، لأنهم فازوا بمصيدهم ، ثم يوسف يفكر في أمر نشاطه في هذه السياحة ونزهته وفرحه في هذه السفرة ، وأما إخوته فيفكرون في إلقائه في الجب . ساروا وأوغلوا في البرية ، وهم على ما ذكرنا من الأفكار المتناقضة ، كأنما هم في واد وأخوهم في واد :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ذهبوا به وهو خالي الذهن ساذج ، لا يظن في إخوته إلا خيراً ، لصغر سنه من جهة ، وحسن ظنه بهم من جهة أخرى ، وأما هم فقد كانوا مملوئين من الخِب والختل . ذهب يوسف معهم بوجه مشرق ، قد تجلت فيه الطهارة وسلامة القلب ، لا يعرف من الدنيا غير أسباب المسرات ، ولا يفتكر حال هذه الرحلة بغير أسباب الفرح ، رغماً عما كان سمعه من إخوته يوم ما قص عليهم رؤياه الأولى،

ورغماً عما كان سمعه من أبيه من الاشارة الى أنهم له بالمرصاد لكيده ، فنسي هذا كله وأغفله ، وذهب معهم قرير العين مشروح الصدر ، يتوخى من وراء ذلك أسباب البسط والهناء ولم يكن يفتكر قطعاً ان إخوته يريدون به غائلة من الغوائل، وعظيمة من العظائم ، يريدون أن يفعلوها معه وقد فعلوها ،وفي طهارة الصبيان والأطفال رونق للناظر ، وهيبة للمتأمل وعظة للعاقل ، ... فيستدل علماء الأخلاق من ذلك على ما فطر عليه الإنسان من الميل الى الخير ، وانه إنما يساق الى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع ، أو يمارسه من اختلاف المشارب ، وإذا أتى شراً فإنما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله ، وقد يظهر في بعض الأحوال انه مهاجم متعد ، ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه ، فالاطفال والصبيان مثال الفطرة البشرية الساذجة ، لا يعرفون الكذب أو التملق أو الخداع ، يقولون ما يعتقدون ، لا يخافون ولا يحاذرون ، ولا سيما إذا رُبّوا كما رُبّي يوسف على يدي يعقوب ، وقد تعلم من أبيه ما يسمح به سنه أن يتعلمه ، سيما طهارة القلب وسلامة النية والاتكال على الله تعالى .

هذا هو الجواب عن يوسف وتسليمه بذهابه مع إخوته مع ما سبق أنه رأى وسمع منهم .

كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاخوته رغم تخوفه عليه منهم

وهنا قدم إلى بعضهم سؤالاً مبنياً على سماح يعقوب بذهاب ولده المحبوب معهم، فقال : إذا كان يعقوب يظن الظنون بأولاده ويتخوف منهم على يوسف ، وإذا كان يعلم أن يوسف لما قص على إخوته رؤياه الأولى ، وهي (رؤيا الحزم) ازدادوا بغضاً له قائلين : « ألَعَلَّكَ تملك علينا ملكاً ، أم تتسلط علينا تسلطاً » (تك ٣٧ : ٨) ، وإذا كان قد نهاه عن قص رؤياه الثانية عليهم ، لئلا يكيدوا له كيداً

وإذا كان يعرف أن أولاده قد احتملوا على أبيهم ضِغْناً بمحبته ليوسف أكثر منهم ، وإذا كان قد استروح من قولهم : (مالك لا تأمنا على يوسف) انهم قد احتملوا مكراً وضِغناً على أخيهم ، وإذا كان أعلن حزنه بسبب ذهاب إخوته به إذ قال : (إني ليحزنني أن تذهبوا به) ، — إذا كان قد وقع كل هــــذا فليس يعقوب بخليق أن يعجل في الاسترسال إلى أولاده والثقة بهم ، والائتمان لهم ، ويسمح بأخذهم إياه ، دون شرط ولا قيد . هذا سؤاله سمعته فأجبته بقولي :

المؤمن إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدّق ، وقد تكلم أولاده معه وأمنوه عليه ، ووعدوه خيراً ، إذ قالوا : (وإنّا له لناصحونَ ، وإنّا له لحافظونَ) ، وقد قيل . « ومن خدعنا في الله انخدعنا له » ، فلذلك استرسل معهم أبوهم وسلمه إليهم ؛ ولا تنس ان المواعيد التي وعِدها يوسف في رؤييه ، ثم ما أوحي لأبيه فيه ، كل ذلك سهل على أبيه استسلامه لأولاده ، إذ هو بحكم ما سمع من المواعيد الإلهية في شخص ولده يوسف ، كأنما قد أخذ من ربه تأميناً على حياة هـــذا الابن الحبيب ؛ وأنت إذا لم تقبل مني هذا الجواب الدقيق ، خشيت عليك أن تهوي بك ريح الضلال في مكان سحيق .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

– ٣ –

وقال السيد الحضرمي :

إن عندي على هذه الآية البحوث التالية :

حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه

البحث الأول ـ إن جواب «لمّا» في قوله: (ولمّا ذهبوا به) محذوف، ومعناه فعلوا به

ما فعلوا ، مما لا تحيط به العبارة ، ولا تكفي فيه الاشارة ، فعلوا به ما فعلوا مما لو لفظ به ، لثقل على السامعين واضطربت له قلوبهم ، فعلوا ما فعلوا مما لا يليق ذكره بنسب هؤلاء المحترمين !! آباء الأسباط !! ، فعلوا ما فعلوا مما يذرف العيون ويدمي القلوب . ويسيء نبأه السامع والقارىء ، ولذلك حسن منا أن لا نصرح له به ، بل وكلناه لفهمه ، وذوقه الخ الخ ...

ولقد رأينا بعض المفسرين ههنا كتب ما لا يليق بتركيب الآية الكريمة قائلاً: إنّ جواب « لمّا » هو قوله « وأوحينا » بتقدير زيادة الواو ، وهذا ما لا يقوله عاقل يحترم كتاب الله ويقدره قدره ، ولا يجيزه عالم بأسرار كتاب ربه الكريم، ولا أخفي عنكم أيها السادة اني لما نظرت هذا القول أصابتني نوبة ذهول شديدة صدعتني أكثر من ساعة ، ولذلك كان حقاً علينا أن نذكر بعض المواضيع التي حذف فيها جواب الشرط للعلة السابقة فنقول :

١ ــ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الذينَ ظَلَمُوا ــ إذْ يرونَ العذابَ ــ أنّ القوةَ للهِ جميعاً ، وأَنّ اللهَ شديدُ العذابِ ... ﴾ (٢ : ١٦٥) .

٢ ــ قال تعالى : ﴿ قالَ : يا قَوْمِ أَرأَيْتُم إنْ كُنْتُ على بَيّنَةٍ مِنْ رَبّي ، ورَزَقَنِي منه رِزْقاً حَسَناً ... ﴾ (١١ : ٨٨)

٣ ــ قال تعالى : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم وَرَحْمَتُهُ ، وأَنّ اللهَ توابٌ حكيمٌ ... ﴾ (٢٤ : ١٠)

٤ ــ قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيّنَ له سُوءُ عَمَلِهِ ، فرآهُ حَسَناً ... ﴾ (٣٥ : ٨) .

٥ ــ قال تعالى : ﴿ قالوا : طائِرُكُم مَعَكُم ، أَئِنْ ذُكّرْتُمْ ... ﴾ (٣٦ : ١٩) .

٦ — قال تعالى: ﴿ وإذا قيلَ لهم: اتّقوا ما بَيْنَ أيديكُم وما خَلْفَكُم لَعَلَّكُم تُرحَمُون ... ﴾ (٣٦ : ٤٥)

٧ — قال تعالى : ﴿ والنازِعاتِ غَرْقاً ، والناشِطاتِ نَشْطاً ، والسابحاتِ سبْحاً ، فالسابقاتِ سَبْقاً ، فالمُدَبّراتِ أمْراً ... ﴾ (٧٩ : ١ — ٥).

٨ — قال تعالى : ﴿ فإنْ استَطعْتَ أنْ تَبتَغِي نَفَقاً في الأرضِ ، أو سُلَّماً في السماءِ فتأتِيَهُمْ بآيةٍ ... ﴾ (٦ : ٢٥).

٩ — قال تعالى : ﴿ قال لَوْ أنّ لي بكم قوةً ، أوْ آوي إلى رُكْنٍ شديدٍ ﴾ (١١ : ١٠) يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت .

١٠ — قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بهِ وهَمَّ بها ، لولا أنْ رأى بُرهَانَ رَبّهِ ... ﴾ (١٢ : ٢٤) فجواب « لولا » محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لقتلها ، لأن قوله « وهم بهـا » يدل عليه ، كقولك : هممتُ به (أي بقتله)، وقولك لولا اني خفتُ الله أو خفت الحكومة، معناه لولا أن خفت ما ذكر لقتلته.

١١ — قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذينَ اتّقوْا رَبّهُم إلى الجنةِ زُمَراً ، حتى إذا جاءوها ، وفُتِحَتْ أبوابُها ، وقال لهم خَزَنَتُها : سلامٌ عليكم ، طِبْتُمْ ، فادْخلوها خالدينَ ... ﴾ (٣٩ : ٧٣)

١٢ — قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا على النـارِ فقالوا : يا ليتنا نُرَدُّ ، ولا نُكَذّبَ بآياتِ رَبّنا ، ونكونَ مِنَ المؤمنينَ ... ﴾ (٦ : ٢٧).

١٣ — قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا على رَبّهم ، قال : أليسَ هذا بالحقّ ؟ ـ قالوا : بلى وَرَبّنا ـ قال: فَذُوقوا العذابَ بما كنتم تَكْفُرون ... ﴾ (٦ : ٣٠).

١٤ — قال تعالى : ﴿ ولو تَرَى إذِ الظالِمُونَ في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ

باسِطوا أيديهم : أخرِجوا أنفسَكم ، اليومَ تجزَوْنَ عذابَ الهُونِ بمَا كنتم تقولونَ على اللهِ غيرَ الحقِّ ، وكنتم عَنْ آياتِهِ تستَكبِرُونَ...﴾ (٦ : ٩٣).

ولنا عدا ذلك من شواهد الحذوف في القرآن الكريم ما لو تتبع لزاد على المئة ، ولعل فيما استشهدنا به كفاية للمتأملين .

يوسف في الجب

البحث الثاني ـ لما وصل إخوة يوسف إلى «دوثان» نزلوا عن عانة حميرهم وأرادوا أن يخفروا تلك الذمة! فقالوا ليوسف ـ بنعمة الظافر ـ أأنت صاحب الأحلام السياسية ؟ أأنت صاحب المنامات الملوكية ؟ هبلتك أمك ـ وما عتموا أن خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه ، ثم أخذوه وألقوه في غياهب « الجفر [1] » ! ! ! وأما هو فبهت وبغت واصفر لونـه وانتقع ، للهفته وتأثره ، وجلس في الغيابة وحيداً ، تتقاذفه الهواجس والبلابل ، وقد أخذ منه القلق مأخذاً عظيماً ، وهو مقطب الوجه ، غارق في بحار التأمل ، وقد هاله ما به من الوحشة والوحدة ، مع الغربة والنأي عن الأهل والوطن ، وليس عنده ما يأكله ، ولا ما يتدفأ به ، ولا ما يقيه من البرودة والرطوبة ، فترقرقت عيناه بالدموع الحارة ، ثم افتكر في صنيع إخوته معه ، وجعل يردد قولهم لأبيهم :﴿ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ،

---

(١) الجفر بضم الجيم وفتحها بئر واسعة محفورة لم تطو .

وإناله لحافظون ﴾ ردده مراراً ، وتغنى به تكراراً ، وهو عند كل كلة يهز رأسه مستغرباً متعجباً ، ويقول : (يرتع ويلعب :!) أين الرتع ؟ وليس لي الآن ما أسد به الجوع ، وليس حوالي إلا الطحلب ، وأين اللعب ؟ وأنا الآن في جفر صخري ذي أربع حوائط ، هي وسقفه وأرضه قطعة واحدة ، وأين الحفظ ؟ وليس عندي ما يقيني من البرد والرطوبة ، ولا مايؤنس وحدتي ، فلو أن هؤلاء الإخوة (الكرام)قالوا :(فأرسله معنا غداً يجُع ويتقيد : وإناله لحابسون) لكانوا أقرب إلى الصدق .

هذا ما نظن أن يوسف أخطره في قلبه حينما صار في جبه

كيف اتفق اخوة يوسف على القائه في الجب مع اختلاف مشاربهم وميولهم

البحث الثالث ـ سألني سائل: كيف أمكن لهؤلاء الإخوة العشرة أن يتفقوا ويتحدوا على الإضرار بيوسف وإلقائه في « الجفر » مع انهم عدد غير قليل ، ومع كونهم من أمهات ثلاث ضرائر ، هنّ : ليئة ، وبلهة ، وزلفة ، فهؤلاء الإخوة العشرة لا بد أن يكونوا مختلفي المشرب والميول ، لا سيما رأوبين ويهوذا ، فقد كانا غير حاقدين على يوسف كثيراً ، بعكس شمعون المظهر الحقد عليه ، وبخلاف كل من دان ونفتالي اللذين كانا إلى محبة يوسف أقرب من كرهه ، حيث هما ولدا جارية أمه وقد تربى هو وشقيقه بنيامين في خيمتها بصحبة ولديها المذكورين ، وبخلاف الخمسة الباقين ، فقد كانوا متوسطين في كرههم ليوسف، فكيف مع هذا الاختلاف المظيم، ومع كثرة عددهم اتفقوا وأجمعوا على الإضرار العظيم بيوسف، وقد توفقوا أن فعلوا ما أجمعوا عليه ؟!!..

فأجبته بجواب مختصر ولعل فيه الكفاية ،وهو أنني كنت افتكرت نفس هذا

السؤال ولم أتمكن حتى الآن أن أعرف سبب اتحـاد هؤلاء العشرة واتفاقهم غير القاعدة القائلة : « المصائب تجمع » ...

خيبة آمال اخوة يوسف

البحث الرابع ـ نرى ان الأمور التي أجراها إخوة يوسف بيوسف ، هي من الأمور التي لم تلاحظ فيها العواقب البعيـدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة التي لا تثمر إلا شوكاً وحنظلاً ، ولذلك فأخيراً خابت آمالهم ، ودخلوا في كنف أخيهم صاغرين، وإيضاح ذلك :

أولاً ــ لقد أخرجوه وأخرجوه ، وفي غيابة الجفر أسقطوه ، ظناً منهم أنه سيسقط من عين أبيه وأنهم سيحلوا من قلب أبيهم منزلة أعلى من منزلتهم الأولى ، والحقيقـة عكس ذلك فيوسف لم يسقط من عين أبيـه ولا هم حلوا من قلبـه مـنزلة أعلى من منزلتهم الأولى بل لم يستفيـدوا من كل ما دبروا وعملوا شيئاً ما ، سوى أنهم ظلموا أخاهم وباءوا بإثمـه ، وعقوا أباهم ، وأدخلوا عليـه القلق والاضطراب .

ثانياً ــ لقد رجوا إن فعلوا بيوسف فَعْلَتهم أن يخلوا لهم وجه أبيهم ، فهل خلا يا ترى ؟ نقرأ في القرآن الكريم فنرى يعقوب بعد حادثة يوسف ، قد حصر كل محبته وعنايته في بنيامين ، الابن الأصغر شقيق يوسف ، فقـد سمعناه يقول : ﴿ هل آمَنُكُم عليه إلاّ كَما أمِنْتُكُم على أخيهِ من قبلْ ﴾ ثم سمعناه يقول: ﴿ لَنْ أُرسِلَه معكم حتى تُؤْتُونْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّني بِهِ إلاّ أنْ يُحاطَ بِكُمْ ﴾ ، ثم سمعناه يقول : ﴿ يا بَنِيْ لا تدخلوا مِنْ بابٍ واحــدٍ ،

وادخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقةٍ ﴾ ، وقد طلب منهم هـذا التحفظ عند سفرتهم الثانية ، حين كان بنيامين معهم ، ولكن عند سفرتهم الأولى حين لم يكن معهم لم يوصهم بشيء ، ثم عطفاً على ما سبق ـ سمعناه يقول: ﴿ يا بَنيَّ اذهبوا فتَحَسَّسُوا مِنْ يوسف وأخيهِ ﴾ يريد بأخيه « بنيامين » طبعاً ، مع أن رأوبين كان متخلفاً بمصر ، ولكنه لم يشر إليه بشيء ، ثم رأيناهم سلكوا مسلك أبيهم في المحافظة على بنيامين ، حيث صاروا يترضون أباهم بسهرهم عليه وحراستهم له. إذ قالوا ، ﴿ وإنَّا له لحافظون ﴾ ، و ﴿ نحفظ أخانا ﴾ ، ثم سمعناهم يقولون : ﴿ يا أيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ، فخذْ أحَدَنا مكانَهُ ﴾ وسمعنا كبيرهم يقول : ﴿ ألم تعْلَموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من الله ﴾ يريد موثقاً في شأن (بنيامين)خاصة .

فنتعلم من مجموع هـذه الآيات الكريمة وما إليها ، أن وجه أبيهم بعد غياب أخيهم لم يخل لهم ، ولكنه خلا (لبنيامين) شقيقه ، فنرى من ذلك أن آمالهم خابت وانهم لم يستفيدوا شيئاً بعد أن فعلوا ما فعلوا ، بل خدموا بذلك (بنيامين) إذ نقلوا له حصة الحب والعناية التي كانت ليوسف ، فانحصرت فيه محبة وعناية أبيه خلاف ما كانوا يرجون وعكس ما كانوا يأملون .

سيلون ودوثان والجب

البحث الخامس ـ علمنا أن اخوة يوسف ذهبوا بأخيهم يوسف من « سيلون » محط رحال في والدهم ذلك الحين ، وهي بجوار نابلس قرب « سنجل » ، وما زالو سائرين حتى أتوا « دوثان » : وهي اليوم « خربة » معروفة بهذا الاسم تبعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من « جنين » بجوار « عَرّابة » وبعبارة أخرى هي بين سنجل ونابلس ،

تبعد عن «خليل الرحمن» ـ قريبة أربع ـ إحدى وثلاثين ساعة لجهة الشمال، هذا بيان المحل الذي ذهبوا منه والمحل الذي ذهبوا إليه؛ وأما غيابة الجب، فمعناه ما غاب من أسفل الجب من جوانبه المرتفعة عادة عن وسطه، هذا نصف الحقيقة، أما نصفها الآخر فهو ان الجب كان فيه بقية قليلة من الماء راكدة في وسط الجورة المتوسطة في قعره، والفرق بين كلة جب وبئر، ان الجب هو البئر التي لم تطو، أي لم تبن بالحجارة ونحوها بل جبت جباً، أي قطعت قطعاً بالمعاول والفؤوس، أو الديناميت والبارود، ويقال للجب أيضاً «جُفْر» وأما ما كان مطوياً بالحجارة فيقال لَه «طَوِيّ» وجمعه أطواء، وبئر وجمعه آبار، قال الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجـــدي

وبئري ذو حفرت وذو طويت

والحقيقـة ان آبار صحراء دوثان وصحاري ما حواليها من سنجل ونابلس ونحوها، هي جباب صخرية، ومنه تعلم عدم صحة تعبير التوراة عن جب يوسف «بالبئر» وان الصواب التعبير بالجب كما في القرآن الكريم.

(وأوحينا إليه .. الخ)

— ١ —

قال الميرزا حسين الكاشاني [1]:

الايحاء ليوسف وهو في الجب

ألقوه في الجب، ورجعوا لشأنهم، وتركوه وحيداً يحرّق أسنانه، ويساور

---

(١) نسبة إلى كاشان إحدى مدن إيران

نفسه هم وقلق شديدان ، ويبكي ويقول : « واشقا آه ، يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيـد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً » . وما هي إلاّ ساعة أو قريب منها ، إذ رأى أنه قـــد تجدد فيه شيء من الأمن واطمئنان القلب ، وانه لكذلك ، إذا بالمَلَكِ قد نزل عليـه يطمئنه ، ويقول له : يوسف . يوسف . لا تخف : ﴿ قل : يَجْمَعُ بينَـنَا ربُّنا ، ثم يفتَحُ بيننا بالحق وهو الفتاح العليمُ ﴾ (٣٤ : ٢٦) فباح له وكاشفـه بالسر المصون ، والغيب المكنون ، وصارحـه بما سيكون ، وقال له : ستخرج من هـذا الجب بصحتك وعافيتك ، وتعلو لمنصب ذي شأن ،وسيأتونك محتاجين لفضلك ، واقفين بين يديك وعند ذلك تقول لهم:﴿هل عَلِمْتُم ما فعلتم بيوسفَ وأخيهِ إذْ أنتم جاهِلون؟﴾ ولكن الأمر يحتاج إلى صبر ، لأنك الآن في أول الطريق،وهذا الاجتماع والعتاب إنما سيكون بعـد ٢٣ سنـة : ﴿ واصبرْ على ما أصابَكَ ، إنّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمورِ ﴾ (٣١ : ١٧) فهـذا حديث نحدثك به اليوم ، وسترى مصـداقه بعد اليوم .

سمع يوسف ذلك ، فانبثق له ـ وهو في ظلمة الجب ـ نور تلك المواعيد فخفف شيئاً من الويلات التي كانت حاقت بـه ، فكأنما نشط من عقال ، فاستراح قلبه ، لأن الله كان معه وقد طمأنه : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ﴾ (١٤ : ٢٧) وقال في نفسه : (لتكن إخوتي كما يشاؤون ، وليعيشوا كما يريدون ، وليعملوا ما يحبون فستنقضي أيام نزق شبابهم ، وستبلى منهم تلك الحدة ، وسيعطيني الله ما وعدني في رؤياي ،وعلى لسان أبي،وهنالك ينزلون من سمائهم إلى أرضي ، ويكون ما سيكون ، فنتعارف بعد التناكر ،ونتواصل بعـد التقاطع ونلتقي كما كنا ، ونعيش جميعاً تحت نظر الأب الكريم ، وإن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان ، لا يعجز عن أن يتعهدها بلطفه وعنايته ، حتى تخرج

ثمارها ، وتتلألأ أزهارها ، إنه جواد كريم ، على أني لم أكن بادئاً بالطلب ، ولا مقترحاً ولا مستبداً ، إذ كل ما أرجوه قد سبق فيه الوعد ، ممن لا يخلف الميعاد ، فلست أريد أن أموت باليأس ، بل أريد أن أحيا بالأمل .

سبحان المنعم : كن مع الله ولا تبالي ، فكم وكم من الناس يدخلون القصور وهم أعزاء ، ولكن يغادرونها في حالة الذل ، وأما يوسف فنزل في الجب ، وهو بحالة الذل ، ولم يغادره إلا وهو موحًى إليه ، كما سيأتي أنه دخل السجن عبداً فغادره وهو ناظر مالية !!! .

وإذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان

هذا حال يوسف في جبه ، وأما إخوته فهل يظن ظان أنهم بعد ما فعلوا فعلتهم أنهم كانوا مستريحين في قلوبهم ؟ ... كلا.. بل لا نرتاب في أن ضمائرهم كانت تخزهم ، ونفوسهم كانت تلومهم على هذا الصنيع الرديء .

الوحي لغة واصطلاحاً

وبعد فقبل الختام اسمحوا لي أن أتكلم كلمة في شرح « الوحي » بمناسبة قوله تعالى هنا : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ :

قال أحد المصريين ـ « الوحي في لغة العرب إعلام مع خفاء وسرعة ، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تبنى عليها تلك النتيجة ، بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال » ،

وقال عصري آخر ـ : « الوحي في اللغة يطلق على الأمور الآتية :

١ ـ على الاشارة والايماء والكتابة ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إليهم أنْ

سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيّاً ﴾ (١٩ : ١٠) فان الذي وقع من زكريا لقومه إنما هو الاشارة وقيل الكتابة على الأرض .

٢ ـ على الإلهام الذي يقع في النفس ، أو يلقى في الروع ، وهو أخفى من الايحاء ، ومنـــه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنا إلى أمِّ موسَى أنْ أرْضِعِيهِ ، فإذا خِفْتِ عليه فَأَلْقيهِ في اليَمِّ ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنّا رادُّوهُ إليكِ ، وجاعِلوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) ، وهذا من قبيل ما يقع في نفوس الصالحين ، من المعاني والأفكار الصحيحة ، فيعد من الإلهام ، الذي قـــد يعبر عنه بالوحي .

٣ ـــ يطلق على ما يكون غريزة دائمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأوْحَى ربُّك الى النحل ، أنْ اتّخِذِي مِنَ الجبالِ بيوتاً ، ومِنَ الشجرِ ، ومما يَعْرِشُون، ثم كُلِي مِنْ كلّ الثمراتِ ، فاسْلُكِي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلًا ﴾ (١٦ : ٦٨)

٤ ـــ ويطلق على الإعلام في الخفـاء ، وهو أن تُعلِم إنساناً بأمر تخفيه عن غيره ومنه قوله تعالى : ﴿ شياطينَ الإنسِ والجن ، يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ﴾ (٦ : ١١٣) .

وقال عصري ثالث : ثبت ان الروح الانسانيـة إذا تجردت عن الاشتغـــال بالماديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، فيوسف الصديق لما رأى نفسه وحيداً في الغيابة تملص عن كل شيء من عالم المادة ، وتقلص عما عدا الروحيات ، فانكشف له أنه سوف ينبيء إخوته بمـــا عملوه معه ، غير شاعرين انه أخوهم .

وأما الرسل فينكشف لهم عالم الأرواح العليا باستمداد فطرتهم ، وبتخصيص الله تعـــالى إياهم لذلك ، فلا جرم إذا كانوا يعرفون من عالم التقديس ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقال عصري رابع ـ : معنى الوحي او الالهام في اللغة : الإلقاء في الروع ، أي الإخطار على البال ، ويكون على ثلاثة انواع ، يختلف تعريفه اصطلاحاً بحسبها.

النوع الأول : عام ، وهو ما تكون به هداية كل نوع لما يصلح له قوامه ، وذلك كالذي نراه في فطرة الحيوانات آكلة العشب ، من اجتناب التي لا تلائمها من غير معلم ، ومن غير تجربة سابقة كالخيل والبقر والأنعام ، وكالذي نراه من اتخاذ كل نوع من الأنواع المتعادية ، اسبابَ الدفاع والهجوم من صياصي وخدائع ، اعتبر ذلك من صغار الحشرات ، الى كبار السباع ، وكالذي نشاهده من استشفاء البعض منها ، ببعض الأعشاب ، كالسنانير والكلاب ، وكالذي نراه من نظام الحيوانات ، المنقادة لرئيس منها ، كالنحل والنمل ، وكالذي يعلمه كل منا من اندفاع الرضيع لالتقام حلمة ثدي أمه ،فمصه إياه حتى يكتفي ، وشاهد هذا النوع من القرآن : ﴿ وأوحَى ربُّك الى النحلِ ﴾ (١٦ : ٦٨) .

النوع الثاني : خاص ، وهو ما تكون به هداية هذا النوع الانساني في حياته النوعية ، وشؤونه الخصوصية ، متى وصل لسن التمييز : والشاهد لهذا : ﴿ وأوحَيْنَا الى أمِّ موسى أنْ أرضِعيهِ ، فإذا خِفْتِ عليه ، فألْقيهِ في اليَمِّ ، ولا تخافي ولا تَحزَني ، إنّا رادُّوهُ اليكِ ، وجاعِلوهُ مِنَ المرسَلينَ ﴾ (٢٨ : ٧) .

النوع الثالث : أخص ، وهو ما تكون به هداية بعض الأفراد لمعرفة شيء من علم الغيب ، وهذا ما يقع للأنبياء ، وشاهده : ﴿ إنّا أوحَيْنا اليكَ ، كما أوحَيْنا الى نُوح : والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعدِهِ ﴾ (٤ : ١٦٢) .

ويقابل النوعين الأخيرين ، إضلالات ، تأتي من جانب الناس والشيطان ،

وشاهده : ﴿ وكذلكَ جَعَلْنا لكلِ نبيٍّ عَدُوّاً ، شَياطينَ الجنِّ والأنسِ ، يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ، زُخرُفَ القَوْلِ غُروراً ﴾ (٦ : ١١٢) .

وربما كان الوحي ليوسف من قبيل الإلهام ، فهو من المعنى الثاني من المعاني الآنفة الذكر ، والله تعالى أعلم ، وأما نحن فلا نعلم إلا أنَّا لا نعلم .

وأما وحي الله لأنبيائه فقد شرحه إخواننا الامـام القلقيلي والشيخ البيساني والمدقق اللدي في جلسة الائتمار على الآية الثالثة ، فمن أراد فليرجع اليه .

دموع التماسيح

آ (١٦) ﴿ وجاءوا أباهُم عِشاءً يَبْكُونَ !! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة عشرة فقام ابو الفضل البحراني[1] وقال :

(وجاءوا) أي جاء فريق من اخوة يوسف العشرة وبقي فريق آخر منهم في حراسة يوسف وهو في جبه ، حيث السيارة لم تجيء بعد كما هو مقتضى نظم الآيات الكريمة (أباهم) يعقوب (عشاء) في أمسية أحد الأيام (يبكون) وقد عبر بهذه الكلمة مع أن الذي صدر منهم هو التباكي ، لأن الانسان إذا تباكى انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقي ، وبيان ذلك : أن الأفكار والخواطر التي تمر بأذهاننا يتأثر بها جسمنا ، كما بالعكس ، أن عقلنا يتأثر من جسمنا ، فكل عواطفنا تؤثر في أجسامنا ، وقد يمكننا استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها ، فاذا

(١) نسبة الى البحرين احدى مقاطعات الجزيرة العربية الواقعة على الخليج العربي .

تضاحكنا مثلاً وليس هناك ما يضحكنا ، فإن هذا التضاحك يحدث سروراً عندنا وينتهي بنا الى الضحك الحقيقي ، وإذا تباكينا انتهى التباكي المصنوع ببكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن ، ومعنى هذا ان الجسم يؤثر أيضاً في العقل ، هذا هو تحقيق الكلام في هذا المقام الذي غفل عنه المفسرون .

(وجاءوا أباهم . الخ)

— ١ —

وقال الشيخ دخيل الكويتي [١] :

حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع اخوته وحال اخوته بعد القائه في الجب

لنترك يوسف في جبه ، ونأتي على ما جرى ودار بين يعقوب وأولاده حينما رجعوا اليه بدون يوسف :

بعدما فعلوا فعلتهم ، اجتمعوا وتذاكروا في أمر يتخلصون به من أبيهم ، بحيث يتفقون جميعاً عليه ، لئلا تظهر له دخيلتهم ، فاتفقوا على ما سيأتي ذكره .

هذا ما كان من جهتهم ، وأما ما كان من جهة والدهم ، فانه كان في آخر يوم من غياب ولده الحبيب تذكره وتذكر بعده عنه ،فانتابته الهواجس ، ورأى نفسه في وحشة عليه ، وكأني به قد شرع يقول بينه وبين نفسه : « كم يوماً أنت غائب عني يا يوسف ؟ وكم يوماً بقي لك حتى ترجع ، وأرى نور وجهك ؟ آه ، أنت يا ولدي في سرائك وأنا في ضرائي ، أنت مشغول القلب بالمتنزهات الجميلة الرائعة والمناظر الطبيعية ، وأنا مشغول الفؤاد بغيبتك عني ! » .

---

(١) نسبة الى بلدة الكويت في امارة الكويت العربية على ساحل الخليج العربي .

ملّ يعقوب الانتظار ، وقد كان يتوقع أن يرى يوسف حاضراً بالسلامة ، ممتلئاً سِمَناً ، متفقئاً شحماً ، مترعرع البدن بسبب وجوده في الصحراء ، يرتع ويلعب فيها ويستنشق هواءها النقي ، وكان يعدّ مدة غياب ابنه يوسف بالأيام ، بل بالساعات .

بينا يعقوب ، وهو في ظلمة البعاد يتطلع لرؤية وجه ولده الساطع ، كما يتطلع الملاح في ظلمة البحر الى نجمة القطب ،

بينا يعقوب ، قد هاجت بلابله ، وتحركت أشجانه ، وقد جعل يتلفت كأنما يبحث عن ضائع ، ويُصيخ بسمعه ، كأنما يتسمع لأنين طفل يبكي ،

بينا يعقوب ، يتقلب على مثل الجمر من الانتظار ، يقضي بانتظاره كل ليل بطيء الكواكب ، وكل نهار أطول من فقر أهل الكسل ،

نعم بينا هو كذلك ، إذ في ذات ليلة ، في الهزيع الأول من الليل ، بعد أن سحبت الغزالة ذنبها الأحمر ، وتكاثفت العتمة ، وخيم الغسق ؛ وسدل الليل نقابه وانغمست جذوة النهار في لجة الليل ، جلس يعقوب وهو يفكر في أمر وحشته من يوسف ، وانه لكذلك ، إذ حضر أبناؤه (لسيلون) وقربوا من باب فسطاط أبيهم وقد علتهم الأحزان ، واحمرت عيونهم ، وكلل العرق أصداغهم وجباهم ، وتجول في محاجرهم دموع التماسيح ، يبكون بكاء مر أ بكل عين قوية ، وقد شرقوا بدموعهم وهم يجهشون في بكائهم وقد خنقتهم العبرات ، ولكن دموع بكائهم لم تكن سخينة ، بل باردة:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

فبغت أبوهم ، وصاح : مَهْيَمْ ؟ ما وراءكم ... ما خبركم ... ؟ ما خطبكم ..؟ تكلموا .. قولوا ..

فأجابوه بما سيأتي في الآية (١٧) .

(وجاءوا اباهم ..)

— ٢ —

وقال ابو غانم الاربدي :[1]

اختلاف القرآن والتوراة في كيف ومتى رجع اخوة يوسف بعد القائه في الجب

إذا قرأنا من هنا الى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فأرسَلُوا وارِدَهُمْ .. الخ ﴾ وتأملنا فيه قليلًا نعلم من نظـام ترتيب الآيات أن إخوة يوسف رموه في الجب وفي الحـال قبلما تأتي السيارة المذكورة قاموا ورجعوا الى أبيهم ، ونعوا له يوسف وهو أجابهم بما أجابهم ، وبعد ذلك ، وفي حال غيـابهم ، جاءت السيارة المذكورة فالتقطت يوسف ونشلته من جبه ، هذا ما نتعلمه من الآيات المذكورة فإنه وإن تكن «الواو» لا تفيد ترتيباً لكن المتبادر من نظام الآيات هو ما فهمناه، وإننا نقرأ في «سفر التكوين» فنفهم ان «السيارة» جاءت وأخذت يوسف وذهبت به لمصر بحضور إخوته ، بل هم الذين باعوه لها ، ثم بعد أن أتموا ذلك كله، وصاروا آمنين أرسلوا بعضهم بالقميص ينعي يوسف لأبيه . ورأيُنا في هذا الاختلاف هو انـــه يمكن الجمع بأن فريقاً منهم ذهبوا بالقميص والنعي لأبيهم ، وفريقاً آخر بقي في دوثان لأجل حفظ يوسف في الجب ، ومراقبة ما سيطرأ عليه ، خوفاً من تفلته بإحدى الوسائط ، فهروبه منه ، فرجوعه لأبيه ، فتبين كذبهم صريحاً ، وعليه فالضمير في قوله تعالى: « وجاءوا » ليس هو ضمير الجميع، بل ضمير المجموع ، أي للبعض منهم ، فيصدق بواحد أو اثنين أو ثلاثة مثلاً وإنمـــا نسب المجيء بضميرهم

---

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرق الاردن) .

كلهم ، لأن مجيء البعض كان بمعرفة ورأي الكل ، فلذلك جازت نسبته للكل، عملاً بقاعدة التضامن والتكافل التي هي معتبرة شرعاً وعليها جرى القرآن الكريم على طول الخط ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثمَّ اتخذتُمُ العِجْلَ مِنْ بعدِهِ وأنتم ظالِمُون ﴾ (٢ : ٥١) وقوله : ﴿ وإذْ قلتمْ يا موسى لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ، فأخَذَتْكُم الصاعِقةُ ، وأنتم تَنْظُرون ، ثم بَعَثْنا كُم مِنْ بعدِ موتِكُم لعلكم تَشْكُرون ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله : ﴿ وإذْ قلتم يا موسى لَنْ نَصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ : ٦١)،وقوله : ﴿ وإذْ قتلتُم نفساً فادّارأتُم فيها ، واللهُ مُخرِجٌ ما كنتم تَكْتُمون ﴾ (٢ : ٧٢) وقال تعالى ﴿ فكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهُم بذَنْبِهِمْ ﴾(٩١ : ١٤ و ١٥) ومـا الى ذلك مما لا يُحصى في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية والأشعار العربية .

وأما القول بأن مجيء « السيارة » وأخذهم إياه لمصر كان قبل مجيء إخوته لأبيهم عشاء يبكون ، وأن الواو في قوله « وجاءوا » لاتفيد ترتيباً — فهو قول أدخلَ في باب الهراء منه في باب الكلام المقول ، وما يسع رجلاً يحترم نفسه وما وهبه الله من المدارك والمشاعر أن يقول هذا القول .

عذر أقبح من ذنب

آ (١٧) ﴿ قالوا : يا أَبانا ، إنَا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وتركنا يوسفَ عندَ مَتَاعِنا ، فأكَلَهُ الذئبُ ، وما أنت بمؤمنٍ لنا ، ولوْ كُنَّا صادِقينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة عشرة فقام الفاضل الغزي وقال :

روي أن يعقوب لما سمع صوت أولاده وهم قادمون عليه ، فزع وقال : مالكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ـ قال : فما لكم وأين يوسف ! ـ قالوا: بلسان الفم والكآبة : (يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو في الرمي ـ ومعنى نستبق ننتضل ـ (وتركنا) أخانا (يوسف) المحبوب في الخيمة (عند متاعنا) حوائجنا (فأكله) فاختطفه (الذئب) الخبيث (وما أنت بمؤمن) بمصدق (لنا) في هذا النبأ (ولو كنا صادقين) أي ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا؟ أو ولو كنا صادقين في الواقع ونفس الأمر .

(قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا .. الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ اليافي :

اخوة يوسف يلفقون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف

يمم أبناء يعقوب ـ سامحهم الله ـ فسطاط أبيهم ، وقالوا بصوت مرتجف

مضطرب أجش متقطع ، وهم يتلعثمون في كلامهم ، وعيونهم تترقرق بدموعهم : يا أبانا المحترم لا نَكْذِبُك ، ـ قال : خيراً لنا شراً لأعدائنا ، تكلموا ، فإني أراكم بحالة على غير ما أعهد ، أعرف منها وأنكر ، ـ قالوا : إنا ذهبنا .. نستبق.. وتركنا ... يوسف ... أخانا المحبوب ... عند متاعنا ... فأكله ... الذئب ... وما أنت بمؤمن لنا ... ولو كنا صادقين .. فيما قلناه ، ـ فقال أبوهم : ما هذا الذي تقولون ؟ ـ فوقف ابن آخر وقال : ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ،ونتناضل ، ونشتد ونعدو ، وأوغلنا في الكر والفر ، وتركنا أخانا المحبوب يوسف . ـ ولما وصل في حديثه إلى هذا الحد ـ امتقع لون أبيه الشيخ ، وشخص ببصره لسماع تتمة الحديث قائلاً : ثم ماذا ؟ ؟ ـ قال : يا ليتنا متنا قبل أن ننقل إليك هذا الخبر السيء ، ـ قال أبوهم : ثم ماذا ؟ أسرع في الكلام ـ قال : فما عتمنا أن بعدنا عنه ، وشسعت بيننا وبينه المسافة ، فما لبث أن جاء الذئب وبَتَكَه ودَجَّيْه ، وهكذا أسلمه حظه إلى أنيابه ، أكله (وا أسفاه) ذلك الحيوان الأشرس الضاري ، واستل حياته من بين يدي أجله ، ولعله تعرض له في الصبح في أول ما خرجنا للاستباق ، عند فترة كلابنا ونومها ، لأن الذئاب أكثر ما تتعرض لافتراس الغنم في أول ذلك الوقت ، كما هو معروف ـ ولعل أخانا خافه فهرب منه ، فطمع فيه فأدركه وقتله .

وربما كان أخونا نائماً،فجاءه فخدشه بأنيابه في عنقه، أو أثقله وأثخنه بالجراح حتى سالت نفسه فقضى نحبه ، وأما نحن فبعد ما أسفنا وبكينا عليه بكاءاً مراً فقد جهزناه ، ووارينا جثمانه التراب. ولم نشأ أن نأتي به أو ببقية جسده، لئلا يتضاعف حزنك عليه ، وإنا لا نكذب الله فيما نقول ، ولكن ما العمل والإنسان هدف للنوائب ، وإنه ليعرض لنا أنك غير مصدق لنا بقلبك على صحة هذه الحقيقة ، وإن كانت كفلق الصبح، ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، ولماذا يا ترى؟. لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟!!!

(قالوا يا أبانا، إنا ذهبنا.. الخ)

— ٢ —

قال الشيخ السلفي العُنيزي (١) :

ليسمح لي السادة المستمعون أن أبين في هذا الصدد ثاني نقاط هي من الأهمية بمكان :

المعذرة المصطنعة

أولها : — لقد تمركز إخوة يوسف على معذرتهم التي قدموها لأبيهم ، لأنها تكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، وإن كانت كالثوب الشفاف ينم عما وراءه ، وكل أحد يدرك لأول نظرة أنها حيلة مصطنعة ، فهي في ظهور فسادها ، كحيلة الفقهاء في « الربا » التي يسمونها « العينة » ، وقد قيل : « إياك والعينة فإنها لعينة » . نعم لقد انتحلوا هذا العذر ، وصمموا على حكايته لأبيهم ، سواء أصادفوا منه إصغاء وقبولاً أم لا ، مع أن الشيء الذي اتخذوه عذراً ، ضعيف في العقل جداً ، ولكن ماذا يعملون ؟ .. وهم لا يجدون شيئاً يلجأون إليه سواه ، « ولا بد للكذاب من بارد العذر » .

الاستباق

ثانيها : — يريدون بقولهم « نستبق » يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، بأن يرمي اثنان مثلاً ، ليتبين أيها يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة ؟ ، فمعنى « نستبق » ننتضل ونترامى ، فننظر أي السهام أسبق إلى الغرض (قاله الزجاج) ، وقد روى

---

(١) نسبة إلى العنيزة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية

مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « وأعِدُّوا لهم ما استَطَعْتُم مِنْ قوةٍ. ألآ إنّ القوةَ الرميُ، ألا إنّ القوةَ الرميْ » وهو سنة، ولكن يحرم اتخاد الحيوان الحيّ غرضاً ، فقد روي مسلم في صحيحه أن ابن عمر مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه ... فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟، لعن الله من فعل هذا، « إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » .

وقيل معنى « نستبق » نسرع ونعدو على أرجلنا ، ليتبين أينا أسرع عدواً ، وقد روي أن النبي ﷺ كا يسابق عائشة (ض) وذلك على نوع من أنواع فن الرياضة البدنية المستحب طباً وشرعاً .

وقيل معنى « نستبق » نتسابق على دوابنا ، ففي البخاري « أن النبي ﷺ سابق بالخيل التي أضمرت ، وسابق بين الخيول التي لم تضمر » وزاد مسلم : «وكان ابن عمر فيمن سابق بها » .

المتاع

ثالثها : - قولهم « متاعنا » جمعه أمتعة ، ويرادفه « الثَّقَلُ » كما في ﴿ وَتحمِلُ أثقالَكُم إلى بَلَدٍ ﴾ (١٦ . ٧) أي أمتعتكم الثقيلة ، وكلمة « متاعنا » مفرد مضاف فيعم جميع الأمتعة المتادة لأمثالهم في البر ، المؤلفة من خيام وعدول وأصواف وسمن وزبد وألبان ولحوم مقددة ، وجرار ماء ووسائد للجلوس وأغطية نوم ، واقط وجبن وجلود ونعال ، وما إلى ذلك .

وههنا لنا عليهم ملاحظة ، كما لا بد أن يكون قد لاحظها عليهم أبوهم (ع) ، وهي أنهم كانوا قالوا : ﴿ ما لَكَ لا تأمَنّا على يُوسفَ ؟ وإنّـا له لناصِحُونَ

أرسِلْهُ معنا غَداً يَرتَعْ ويَلعبْ ، وإنّا له لحافِظُون ﴾ ، فإنا نراهم الآن لم يفوا بهذا الوعد ولم يقوموا بما قالوا ، فإنهم بدّلوا يوسف عن « الرتع واللعب » بالحراسة ، فقد جعلوه كحارس لأمتعتهم ، وتركوه وحده ، ولم يكونوا له من الحافظين ، ! وبهذا يكونوا قد تناقضوا ، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره .

ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه

رابعها : — قالوا : (فأكله الذئب) فسمع أبوهم ذلك النعي السيء ، فأثر فيه تأثيراً كلياً ، فاختلج قلبه أيما اختلاج ، بل شعر كأن صوت هذا النعي اخترق صدره ، حتى وقعت سهامه في قلبه ،ولكنه رجع إلى أمله في ولده ، وصبر صبْر الكرام .

وروي انه لما سمع صوتهم فزع ، وقال : « مالكم يا بني ، هل أصابكم في غنمكم شيء ! ـ قالوا : لا ـ قال : فما لكم ؟ وأين يوسف ؟ ـ قالوا : أكله الذئب» ـ فاتهمهم ، وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب (ع) هلاك ولده بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلفقوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) أعني أن يكونوا التقطوا منه تلك الكلمة، فتمركزوا عليها ههنا ، ولا غرو ، فإن الجملة الاعتذارية التي نطق بها أبوهم لهي كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال،وكثيراً ما تُتَلقف الأعذار الباطلة من كلام المخاطب المعتذر إليه ، فهم غنموا هذه التكأة ، ودبروا هذه الحيلة من يوم أن غَزَوا أباهم لاستلاب يوسف .

اطلاق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً

خامسها : ـ للعرب إقدام على التجوز في الكلام ثقةً منهم بفهم المخاطب من أصحابهم عنهم كما جوزوا قولهم : « أكَلَه الأسْود » وإنما يذهبون إلى النهش واللدغ والعض ، كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، وهكذا الحال هنا فمعنى « أكله الذئب » خدشه وأثخنه بالجراح ، حتى أسلم روحه لربه .

تعدي الايمان بالباء وباللام وبعلى

سادسها : ـ قولهم (وما أنت بمُؤمِنٍ لنا) معناه وما أنت بقابلٍ لكلامنا ، مصدق لنا ، بل أنت من المرتابين في اخبارنا،ونظيره ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لكم ، يُؤمِنُ بالله ، ويُؤمِنُ للمؤمنينَ ﴾ (٩ : ٦٢) أي يصدق بالله ويقبل كلام المؤمنين الخلّص ، وقوله ﴿ فآمَنَ له لوطٌ ﴾ (٢٩ : ٢٦) أي أن لوطاً صدق كلام عمه إبراهيم وقبله ،وقوله تعالى ﴿ فما آمَنَ لموسى إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قومِهِ ﴾ (١٠ : ٨٣) ، أي صدقوا كلامه ، وقبلوا إخباره ، والخلاصة ، أن الايمان تارة يتعدى بالباء مثل آمنت بالله ، فيكون بمعنى التصديق بالذات ، وتارة يتعدى باللام، مثل آمنت لك ، بمعنى قبلت كلامك ، وتارة يتعدى بعلى ، مثل (هَلْ آمَنُكُمْ عليهِ) فيكون بمعنى الائتمان .

الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة

سابعها : ـ يقولون : (ولو كنا صادقين) ! يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط ، فإنهم ما كانوا صادقين ، في بكائهم ، ولا في قولهم إنهم ذهبوا يستبقون وقد تركوا يوسف عند متاعهم ، ولا في قولهم إن الذئب أكله ، فكل ذلك كذب ،

كما أن الدم الذي جاءوا به على قميصه كان كذباً ،فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع .

الصادق عند الإطلاق ، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة فلا ينطوي قلبه على كذب ، ولا ينطق لسانه بكـذب ، ولا تتحرك جارحة من جوارحه في شيء كذب،ولا يعمل أعمال كذب ، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق ، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هـــذا ، فالقلب واللسان ليسا بصادقين ، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ، ليس بصادق ، وعمل جارحة العين وهو البكاء ، ليس بصادق .

هم يقولون لأبيهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم عجبت لهم ، يعلمون أن ما قالوه كذب سحاق ، وافتراء حَنْبَرِيت ، ويدعون الصدق !! كما قال الشاعر :

ومن البلية أنْ يسمى صادقاً من وصفه الأولى كذوبٌ ناري
غفران ربك قلما فَعَل الفتى ما ليس محوجه إلى استغفـار

الخير مؤجل والشر معجل

ثامنها : ـ وعد يوسف بالخير مناماً في رؤيبه ، ثم يقظة بلسان أبيه ، وهـذه الوعود تأخر تحقق مضمونها ، ولم يصلْ إلا بعد مدة طويلة ، ولكن المصائب التي نصبت فوق رأس الصديق (رض) لم يحصل له فيها وعيد ، وإنما استلها فوراً ، يداً بيد :

عرفت سجايا الدهر . أما شروره
فنقد ، وأمـا خيره فوعود !!!

الا إنما الدنيا نحوس لأهلها
فما في زمان نحن فيه سعودُ
(مرحى مرحى)

(فأكله الذئب)

— ١ —

قال النجم الروسي القازاني (١) :

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤيي يوسف وبشائره

سادتي :

تقدم في محاورات المؤتمر على الآية (١٣) شرحاً لقول يعقوب (ع) : ﴿ وأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذئب ﴾ ـ سؤال ، صورته : كيف يقع هذا التخوف من يعقوب (ع) مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى إليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره بقوله : (وكذلكَ يجتَبيكَ ربُّكَ .. الخ) ولا ريب ان هذا لم يكن منه على وجه التكهن أو التفرس أو الألمية أو حسن الرجاء ، بل كان كما هو الظاهر على وجه انه أوحى إليه به ، لأنه نبيّ : ﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوَى ، إنْ هُوَ إلاّ وحيٌ يُوحَى ﴾ (٥٣ : ٣) ، ولذلك ألفيناه غب حادثة الذئب التي زعموها ـ لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته ، كيف لا وقد قال ﴿ بلْ سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمْراً ﴾ وقال : ﴿ عسى اللهُ أنْ يأتِيَني بهم جميعاً ﴾ وقال: ﴿ وأعلمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾

(١) نسبة إلى قازان إحدى مدن بلاد الروس .

وقال : ﴿ اذهبوا فتَحسَّسُوا من يوسفَ وأخيهِ ، ولا تيأسُوا من رَوْحِ اللهِ إنَّهُ لا يَيْأسُ من رَوْحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون ﴾ وقال : ﴿ إنّي لأجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ فمجموع هذه الأقوال الخمسة عطفاً على ما سبق من الرؤيين والبشائر يرشدنا إلى أن يعقوب (ع) كان على يقين أن ولده موجود بقيد الحياة ، وإلا فكَيف كان يخبر عن ولده بمستقبل له كمن ينظر إلى الغيب ، أو إلى اللوح المحفوظ ، ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة ، ثم يتخوف عليه من افتراس الوحش إياه ؟ هذا مالا يكون ولا يتفق ولا يعقل قطعاً ، وأما قوله :(وأخاف أن يأكله الذئب)فيحتمل انه إنما قاله دفعاً لطلب أولاده وحجة يحتج بها عليهم ليصرفهم عن أخذه ، هذه هي صورة السؤال الذي تقدم طبق الأصل ؛ وقد كنت أجبت عنه بثلاثة أجوبة ذكرتها هناك في محاورة آية (١٣) ، كما تعلمون ذلك ، وتعلمون اني انعطفت فأجبت بجواب رابع عرضته على أسماعكم بصورة مختصرة جداً ، بل رمزاً وإشارة فقط ، وقلت لكم أيها السادة الكرام : إن هذا الجواب الرابع وجيه وقوي جدّ القوة ، ولكن ليس هذا الموضع محل توضيحه وبسطه .

استعمال الذئب والاكل مجازاً

والآن أيها الأحباء المحترمين أريد أن أبين لكم من هو هذا « الذئب » ،ومنه نعلم الجواب الشافي عن السؤال الآنف الذكر ، وعليه فأرجوكم أن تصيخوا لما أقول : هم يقولون (فأكله الذئب) ونحن نقول : يجوز أن كلمة « الذئب » مجاز عن « شمعون » الذي ناصب يوسف العداء أكثر من سائر إخوته ، وكلمة « الأكل » مجاز عن الإضرار اللاحق بيوسف .

يستعار « الذئب » كثيراً للانسان المفترس ، وهو مجاز شائع مشهور في اللغتين العربية والعبرانية ، فأما شواهده في اللغة العربية فأكثر من أن تحصر ، وهي

معروفة لكل أديب ، وأما شواهده بالنسبة للعبرانيين ففي سفر اشعيا : « فيسكن الذئب مع الخروف» (أش ١١ : ٦) ، كناية عن اجتماع الأممي مع الاسرائيلي، على ما قالوه ، أو كناية عن شدة الأمن والراحة والسلام ، أو اجتماع الطالح مع الصالح واتحاد القويّ مع الضعيف ، ومن هذا القبيل : « الذئب والحمل يرعيان معاً » (أش ٦٥ ٢٥) ، وفي سفر صَفَنْيَنــا يصف نينوي : « قضاتها ذئاب » (صف ٣ : ٣) ، وفي سفر إرميا نبوءة عن أهل أورشليم : « ذئب المساء يهلكهم» (إر ٥ : ٦) ، يريد من الذئب نبو خذنصر ، أو اسكندر المكدوني ، وفي سفر حزقيال نبوءة عن أورشليم: « رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطئة » (حز٢٢:٢٧).

الذئب مجاز عن « شمعون »

فأنتم ترون أنه بحسب اصطلاح إسرائيل وبني إسرائيل كثيراً مايطلق«الذئب» ويراد به الإنسان المفترس ، المهاجم المعتدي ، فلا غرابة إذا قلنا إن « الذئب » في كلام يعقوب ههنا يجوز أن يراد به أحد أولاده المتألبين على يوسف ، وهو «شمعون» على ما ذكره مفسرو التوراة أنه كان هو المتصدي لعداء أخيه ، وعهدنا في شمعون انه صاحب نَزَقٍ وثورة فوق اللزوم بزيادة عن المعتاد (انظر تك ٣٤ : ٢٥-٣٠) وقد قالوا إن طبع الذئب الشراسة وإنه عديم الأمن ، وقد كان شمعون كذلك ، كما يستفاد من سيرته في كتب تاريخ قومه ، (انظر تك ٣٤ : ٢٥ و ٢٦ و ٤٩ : ٥ - ٧) ، ولا بدع في نحو قولنا : إن الذئب مجاز ، فكتاب الله تعالى هو أجمع الكتب لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة ، والأمثال الرشيقة ، والمجازات الرائعة ، والكنايات المستطرفة ، وما إلى ذلك من أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس ، وآخذه بالألباب ، وأملكه للعواطف والمشاعر ، وأمثال تلك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه ، إلا عند ذهابه مذهب الخيال

الشعري ، وهذا ما دعى العرب إلى أن يسموا النبي ﷺ الذي بعثه الله إليهم « شاعراً » ، وما أتى به من الله تعالى « شعراً » شُبِّه لهم ، غُمَّ عليهم ، فزعموا ما زعموا ، وما هو بشاعر ، بل هو نبيّ يوحى إليه ، وما كتابه بشعر ، وإنما هو وحي يوحى .

الأكل مجاز عن النهش والعض والأضرار

ويستعار « الأكل » للنهش والعض واللدغ تجوزاً من العرب في كلامهم ثقة منهم بفهم المخاطب كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، ولذلك يقال للسكين « آكِلَةُ اللحم» وهي إنما تجرح أو تقطع فقط ، ومنه في القرآن : ﴿ وما أكَلَ السَّبُعُ ﴾ (٥ : ٤) أي جرح ، بدليل قوله : ﴿ إلا ما ذَكَّيْتُم ﴾ (٥: ٤) ، ويطلق الأكل في كلام العرب على أوسع من ذلك ، فيقولون : « مأكول حِمْيَرَ خيرٌ من آكِلِها » ، أي رعيتها خير من واليها ، وقال الممزَّق للنعمان :

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ　　وإلا فأدركني ولما أُمَزَّقِ

فقال النعمان: «لا آكُلُكَ ولا أُوَكِّلُكَ غيري». وقال الخليل: « الواو في مَرْئِي أكلتها الياء لأن أصله مرؤي » ، وعقدتُ لفلان عهداً فَسَلِمَ ولم يُؤْكَل ، ومن هذا القبيل ما نُقل عن عليٍ كرم الله وجهه أنه قال : « إنما أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض » ، ومنه: « تأكَّلَ الرعيةَ ، واستأكَلَهم » إذا ظلمهم وصادرهم ، وقال الشاعر :

لعمري لنعم الحي يدعو صريخُهم　　إذا الجار والمأكول أرهقه الأكل

تفسير كلمة « يأكله » بكلمة « يتولى أمره ويتصرف فيه »

فكل هذا ونحوه يصحح لنا أن نفسر كلمة « يأكله الذئب » وهو « شمعون » يتولى أمره ويتصرف فيه ، ويفعل فيه ما يشاء وما يريد ، على نحو ما تقدم من الأمثلة السبعة .

وقبل الختام لابد لي أن أنبه حضراتكم بأن ما قلته لا يعبر إلا عن رأيي الخاص الذي يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته والله أعلم .

وما أن انتهى النجم الروسي القازاني من خطابه ونزل عن منبر الخطابة حتى عقبه الشيخ الزيدي الصنعاني وقال :

تسبيك القول بأن « الأكل » هو الاستيلاء والاضرار وبأن « الذئب » هو شمعون في المجاز

بينا أخي النجم الروسي القازاني يخطب فينا مبيناً ماهو « الأكل » ، ومن هو « الذئب » في هذه الآية ، سمعت رنة صوت من خلفي من بعض الاخوان الحاضرين يقول : إن هذا البيان عما هو الأكل ومن هو الذئب ، بيان « مسلوق » يحتاج « للتسبيك » ولذلك ترون اني قمت بين أيديكم لتسبيكه قائلاً : إن « الأكل » كثيراً ما يطلق في الكلام على معنى مجازي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تَأْكُلُوا أَمْوالَهم إلى أَمْوالِكم ﴾ (٤ : ٢) ، و ﴿ لَيَأْكلونَ أموالَ الناسِ بالباطِلِ ﴾ (٩:٣٤) ، وقول بعض العرب : « أكلوني البراغيثُ » فهذا وأشباهه لم يقصد به حقيقة الأكل ، وإنما قصد منه الاستيلاء والإضرار والأذى .

ثم « الذئب » مجاز عن « شمعون » ، وشمعون معناه « سمعان » ، حتى أن العرب

ينطقون به كذلك ، وسمعان صفة مبالغةومعناه كثير السمع ، ولا يوجد في الانسان من يسمع مثل الذئب ، فقد قالوا : « إن الحيوان أرقى منا حاسيات حيوانية ، فالإنسان لا يشم مثل الكلب، ولا يسمع كالذئب ، ولا ينظر كالنسر والهدهد ». فإذن يجوز أن يكون معنى « يأكله الذئب » يسطو عليه « الجبار المبرقع » ويضره الحيوان اللابس لباس الإنسان ، وقد يوجد اليوم في بعض أفراد الإنسان ما يشبه بعض أفراد إنسان الغابات والأحراش بالأمس ، وقد قيل : « من شأن الذئب أكله أخاه » ، وقال أبو العلاء المعري :

يغدو على خله الإنسانُ يظلمه كالذئب يأكل عند الغرة الذيبا

فشمعون أَجمَعَ مع إخوته أمْرَهُ على إلقاء أخيه في غيابة الجب ، ثم كان هو القائم بهذا الأمر ، وبظني ان أبا العلاء المعري يشير لذلك في قوله :

ولكنّ مَن أعطاهم الخبر افترى وأُلفِيَ مثلالسِّيد أجمَعَ وافترّا

فالسِّيد : الذئب ، وأجمَعَ اتفق مع إخوته على الإلقاء وافترّا أبدى أسنانه .

رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

قالوا : « إن الأرض التي يرعى فيها إخوة يوسف كانت مذأبة » ، وهو بعيد مخالف للعادة ، لأن العادة أن الرعاة يبعدون عن الأرض التي تكون مذأبة لغيرها « وأرض الله واسعة فلاها » .

ومما قرره علماء التاريخ المحققون كابن الأثير وسواه ، ان سن يوسف كانت إذ ذاك (١٧) سنة ، وصدر به الطبرسي فيمجمع البيان نقلاً عن الحسين ، وظاهر أن من كان كذلك لا يخاف عليه من الذئب الحقيقي ، ولكن من الذئب المجازي، وهو الرجل القوي الشرس ، فتكون معرفة المخاطبين بعمر يوسف قرينة على

هذا التجوز ، كيف لا والذئب ضعيف في نفسه على حسب ما نتعلمه من قول الشاعر ، يصف ضعف نفسه ، وما آل إليه كبر سنه وهرمه:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي، وأخشى الرياح والمطرا

قالوا : خص الذئب بالذكر ، لأنه ضعيف .

رد قول الطبرسي بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

ولكن « الطبرسي » في (مجمع البيان) أجاب عن هاتين الملاحظتين بقوله : « قيل كانت أرضهم مذأبة ، وكانت الذئاب ضارية ، في ذلك الوقت » وقد علمت أننا بما حققنا في غنية عن هذه التخرصات ، « وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ». هذا وكثيراً ما يطلقون لفظ الذئب على الرجل الذي يختطف أو يسلب الشيء ، قال سيف الدولة بن حمدان في « الخندوثاني » وهو أحد وجوه المعرة وأعيانها ، وكان سلاّباً نهاباً :

ذئب تراه مصلياً فاذا تمثّل لي ركع
يدعو وجلّ دعائه ما للفريسة لا تقع

على ان معنى قول العلماء : « الأصل في الكلام الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز أو الكناية إلا بدليل وقرينة » ، هذا القول لا يريدون به ان كل ما أمكن أن يراد به الحقيقة ، يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه ، انه مجاز أو كناية ، مع إمكان إرادة المعنى الحقيقي .

هذا هو رأيي عطفاً على رأي أخي النجم الروسي القازاني حفظه الله ، فان

أصاب الحز فيها ونعمت ، وإلا فما أنا أول سار غره قمر ، فكم من مثلي يخطىء ، ويرحم الله أبي آدم .

من انكر على مفسر رأياً فكأنه أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم

على أنني أنا « لم اخترع البارود » ـ وهو مثل يقال لمن يأتي أمراً مسبوقاً إليه ـ بل إنني كنت رأيت قريباً مما ذكرت في تفاسير السيد « الألوسي » والسيد «حسن صديق » و « الطبرسي » في (مجمع البيان) ،وعلى كل حال فاني لا أريد أن أحملكم أيها السادة على رأيي ، كما أني أرجوكم أن لا تحملوني جبراً على رأي غيري من المفسرين ، فإن أنكر عليّ منكر ، لأنني خالفت المفسرين ، فليعلم انه يجب عليه أن ينكر أيضاً على جميع المفسرين تفاسيرهم ، لأنه ما من مفسر متأخر ، إلا قد خالف في مواضع كثيرة رأي جميع المفسرين قبله ، فالمخالفة أمر مشترك بيني وبين كل مفسر قبلي دون استثناء ، فالتسليم لهم لمجرد انهم أموات ، دون التسليم لي لمجرد كوني حيّاً أرزق ، ليس من الإنصاف في شيء ، على أنكم أيها السادة سمعتم أن الأخ النجم الروسي القازاني ، قد سبقني إلى هذه الفكرة ، وأنا لست إلا مؤيداً له فيها ، والله تعالى يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، والسلام عليكم.

ثم نزل الشيخ الصنعاني عن المنبر ، فقام إليه النجم الروسي وصافحه، وشكره على مناصرته لرأيه .

وتكلم بعد ذلك العلامة التدمري [1] فقال :

جواز كون الذئب ذئباً معهوداً غائباً او حاضراً

كنا سمعنا يعقوب (ع) يقول : (وأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذئبُ)، فيجوز أن

(١) نسبة الى بلدة تدمر من بلاد الشام (سوريا)

يكون أراد من « الذئب » ذئباً معهوداً عهداً ذهنياً بينه وبين مخاطبيه ، فالالف واللام فيه نظيرها في : (إذْ هُمَا في الغارِ) (٩ . ٤١) ، أو معهوداً عهداً حضورياً فالألف واللام فيه نظيرها في قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾ (٥:٤) ويجوز أن المعهود على كل هو «شمعون» المتجوز إليه بلفظ الذئب ، فان كان شمعون غائباً وقت مكالمة إخوته لأبيه ، فالعهد ذهنيّ ، وان كان حاضراً في الجلسة ، فالعهد حضوري ، يقول : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ ، ولكنه ليس من ذئاب العالم الناطق ، ولا من الذئاب الساكنة في الآجام ، وانما هو من سكان الخيام . وكأني بلسان حال يعقوب (ع) يقول : (وأخاف أن يأكله الذئب) الذي تقمص صورة الإنسان ، وتمثل في جسم طويل القامة يمشي على رجلين فقط ، وأي غرابة في أن أتخيل ذلك التقمص ما دام ذلك الابن والذئب سواء في حب الشر والميل الى الأذى ؟ . . . وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية ، والصفات المقومة للماهية ؟ . . . إن العشرات من الذئاب ، لا تريق في عشرات من السنين من دم الانسان مقدار ماأراق هذا الابن من دم أهالي مدينة شكيم على ذمة التوراة(تك ٢٤ : ١ — ٣١) ، قد يكون الذئب الحقيقي في قتله الانسان والشاة، أجل مقصداً من الانسان الذي له روح الذئب ، لأن الأول يطلب عيشه ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ، ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، وأما الثاني فانه يريق دماء الناس للتشفي والحسد وكبرياء النفس !

هذا هو المعنى المجازي لكلمة « وأخاف أن يأكله الذئب » ، ولقد كان كامناً في نفسي منذ القديم ، الى أن ذاكرت فيه بعض الناس ، فصادفت منهم جموداً أعقبوه جحوداً فاصطدمتُ بمعارضات شديدة من جراء جمودهم وجحودهم ،

فسكت ، وبقيت هذه الفكرة مستترة في ضميري الى هذا اليوم الذي اتحفني فيه الدهر بالتشرف بكم ايها السادة ، وتذكرت قول القائل :

وقد وجدتُ مجالَ القولِ ذا سَعةٍ فإنْ وجدتَ لساناً قائلاً فقُلِ

فأبرزت ذلك الضمير المستتر لحيز الوجود ، لا سيما وأني أرى روح التفاهم سائداً بيننا ، وقد رأيت بعض الاخوان المحققين سبق ونطق بما ثلثت به عليهما ، وضممت به صوتي لصوتهما .

كيف فات المفسرين الذهاب للمعنى المجازي في الاكل والذئب وشواهد على ذلك .

وأتذكر هنا أن سألني سائل قائلاً : إن جميع المفسرين أو أكثريتهم الساحقة لم يفهموا من كلتي « الذئب » و « أكله » سوى المعنى الحقيقي ، وأما المعنى المجازي فلم يخطر لهم على بال ، فلو كان المعنى المجازي مراداً لاقترن بقرينة معينة ، وعلى الأقل مانعة ، فكان المفسرون اهتدوا اليه ، فكيف يقال بجواز الذهاب للمعنى المجازي ؟ فاجبته بأن هذا ليس بدعاً في نوعه :

فأولاً — حكى المؤرخون أن ليلى الأخيلية دخلت على الحجاج ، فمدحته بأبيات بليغة ، وقعت لديه موقع الاستحسان ، وسُرمنها أيَّما سرور ، حتى قال : « قاتلها الله ! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلتُ العراقَ غيرها » ثم قال « يا غلام ، اذهب الى فلان — يريد وكيل خرجه — فقل له اقطع لسانها » ، قال فأمر باحضار الحجام ، فالتفتت إليه وقالت : « ثكلتك أمك ! أما سمعت ما قال ؟ ! إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة » — فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، إذ همّ بقطع لسانه ، وقال : « ارددها » ، فلما دخلت عليه قالت : « كاد — وأمانة الله — يقطع مقولي » ، فأعطاها الحجاج مئة ناقة ، (كذا في مصارع العشاق الجزء التاسع) .

ثانياً — ورد في الحديث : « أسرعكُنّ لحاقاً بي أطولكُنّ يداً » ، فصار الأزواج الشريفات يقسن أذرعهن ، ليعلمن من ستموت بعد النبي ﷺ ، فحيث جاز على نساء النبي ﷺ أن لا يفهمن المعنى المجازي ، وهو طول اليد بالصدقة إلا بعد موت صفية (ص) ، وحيث وكيل الحجاج العربي الصميم لم يفهم المعنى المجازي من كلام الحجاج يجوز للمفسرين أن لا يتنبهوا للمعنى المجازي الذي قلنا تجوز إرادته من لفظ (يأكله الذئب) ، لاسيما والقرينة ليست لفظية ، بل حالية، وهي من الخفاء بمكان .

ثالثاً — هذا « عديّ » بن حاتم الطائي من صميم العرب في عصر تنزل القرآن لم يفهم المراد من « الخيط الابيض والخيط الأسود » فحملها على المعنى الحقيقي لا المعنى المجازي، وهو الليل والنهار ، ففي البخاري في صحيحه انه أخذ عقالاً أبيض، وعقالاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا ، فلما أصبح قال : « يارسول الله ، جعلت تحت وسادتي عقالين » ـ قال : إن وسادك إذاً لعريض ، أنْ كان الخيط الأبيضُ والخيط الأسودُ تحت وسادك .. » ..

رابعاً — لم يفهم بعض الصحابة كيفية التيمم من آيته ، فمسح جميع بدنه بالتراب ، كما حكاه البخاري أيضاً ، فاذا كانت الصحابة ـ وهم من العرب الأولى ـ لم يفهموا بعض ما في الكتاب الكريم ، فهل يستغرب على المفسرين أن لا يفهموا المعنى المجازي من الذئب وأكله ؛

وسيأتي في المحاورات على الآية (٩٣) مايزيد هذا الموضع وضوحاً وتأييداً ، هذا ما أفهمه هنا موافقة للأخوين الفاضلين النجم الروسي القازاني والشيخ الصنعاني، ومما هو جدير بالسرور ان كثيراً من شبّان بلدنا « تدمر » الكرام استحسن هذا التفسير استحساناً عظيماً ، وعدّه من المواهب الربانية ، التي تُحدّثُ بها علماء هذه

الأمة المحمدية ، فالحمد لله على ذلك،على انكم أيها السادة ، قد سمعتم هذا المعنى اللطيف من أخويّ الكريمين ، فأنا لست بأبي عذرته :

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

وهنا نزل العلامة التدمري عن المنبر في وسط عاصفة من التصفيق الشديد ، وكلمات الاستحسان والاعجاب .

ثم علق رئيس المؤتمر على خطاب العلماء الثلاثة قائلا : « أنا لا أريد أن أثبت هذا القول أو أنفيه، وللقارىء أن يميز بين الغث والسمين ، وله وحده الرأي الأخير».

قميص العلامة

آ(١٨) ﴿ وَجَاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، — قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً !! فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة عشرة فقام العلامة البيروتي وقال :

(وجاءوا على قميصه) أي فوق قميصه (بدم كذب) أي ذي كذب ، ووصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته ، ونحوه : « فهنّ من جودٍ وأنتم من بُخلٍ » ، (قال) أبوهم بلسان الرد والإنكار: إن الذئب لم يأكله ، (بل سولت) من السول ، وهو الاسترخاء أي سهلت (لكم أنفسكم أمراً) عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونتموه في أعينكم ولقد أعتقد ان تحت الرماد شيئاً هـــذا دخانه ، فأنتم قد عملتم معي ومع

ولدي عملاً سرياً يأيد خفية تلعب من وراء الستار ، وترمي الى غاية بعيدة ، ولأمر ما جدع قصير أنفه :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق مايقول فحيلتي فيه قليلة

(فصبر جميل) وهو الذي لا شكوى فيه الى الخلق ، وقيل أراد : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت ؛ (والله المستعان على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه ، أو : والله المستعان على كشف حقيقة ما تصفون واتضاح جلية الحال في المستقبل ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من روح حزينة كئيبة، وحتى ليستطيع القارىء أن يلمس إحساس يعقوب.

هذا وقد استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم له ، ومما قواه على اتهامهم انهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فكأنه لقنهم العلة ، والبلأ موكل بالمنطق ، ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد تذكر ههنا وعدهم له بحفظ يوسف فردد في ضميره معنى قول القائل :

أما الوفاء فشيء قد سمعت به وما وجدت له عيناً ولا أثرا
فمن تعصم في الدنيا أخا ثقة فإنه بشر لا يعرف البشرا

(وجاءوا على قميصه .. الخ)

— ١ —

وقال العلامة الطرابلسي :

القميص والدم

كان اخوة يوسف نزعوا عنه قميصه الملوّن الذي عليه، وأخذوه وطرحوه في

البئر وذبحوا تيساً من المعزى ، وغمسوا القميص في الدم ، وقد صنعوا كل هذا في « دوثان » ثم قاموا منها الى « سيلون » حيث أبوهم ، وقالوا له ما تقدم من معذرتهم الملفقة ، وختموها بقولهم : مع إنّا نتكلم معك يا أبانا بحقيقةٍ وثيقتُها معنا ، وتلك الوثيقـة هي هـذا الذي تراه — قالوا ذلك ، وأبرزوا قميص يوسف ملوثاً بالدم ، وقلوبهم تخفق لما يتوقعونه من عـدم تصديق أبيهم لهم ، وهم يفتكرون ماذا عسى يكون وراء هذا العمل الرهيب — وأما أبوهم فلما رأى ذلك حزن حزناً لا يحزنه إلا أب على ابن له يتفرس في مستقبله كل رقي ونجـــابة ، وصار كأنما صب فوق رأسه ماء غالياً .

وهنا لا بد لي أن أسمعكم بعض الحواشي المتعلقة بهذا البحث :

القميص

الحاشية الاولى — إن هذا القميص الذي كان على يوسف هو قميص ملون قد صنعه له أبوه خصيصاً لأنه أحبه أكثر من سائر بنيه ، إذ كان ابن شيخوخته ، وقـد قصد يعقوب أيضاً بذلك « الثوب » ان يوسف سيكون رئيس آلهِ ، وانـه سيكون كاهنهم بدلاً من البكر « رأوبـــين » فضلاً عن معنى الإكرام ، لأن الثيـاب الملونة كانت من ملبوسات المكرمين من الفلسطينيين ، كما ظهر ذلك من الرسوم على قبور بني حسان .

دم القميص

الحاشية الثانية — هذا الدم الذي كان على قميص يوسف كذب ، فليس هو كالدم الذي جاء به « معاوية » لأهل الشام على قميص « عثمان » (ض) بل كان ذلك الدم ، دم عثمان حقيقة ، وقد قتل بيد أثيمة حقيقة ، ولكن في حادث يوسف

ادّعي زوراً أن يوسف افترس ، افترسه سبع ، وأراق دمه على قميصه ، وأن هذا الدم الذي على القميص دمه ، وكل ذلك لم يكن !!

لسان حال يعقوب عندما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم

الحاشية الثالثة — كأني بكلام ابنـــاء يعقوب قد وقع على أذن أبيهم كوقع النار على سويداء القلب ، وكأني به قد أخـذ القميص وجعل يقلبه وينظر اليه ، ولسان حاله يردد معنى قول الشاعر :

ليت السباع لنـا كانت مجاورة وليتنـا لا نرى ممن نرى أحدا
إن السباع لتهـدا عن فرائسها والناس ليس بهـاد شرهم أبدا

وكأن هذا القميص هو الذي عناه بعضهم يهجو بخيلاً بقوله :

كأن كل سؤال في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب

حجة القميص التي لهم صارت عليهم

الحاشية الرابعة : — قيل إن يعقوب (ع) أغرّب في التأمل ، فرأى القميص غير ممزق ، فقال : « يا للعجب ! هل يمكن للذئب أن يأكل ولدي بدون ان يمزق شيئاً ما في القميص !؟ » فهم اعتبروا ان هذا القميص الملوث بالدم ، هـو كوثيقة بيدهم ، يعتمدون عليها في صحة دعواهم ، ويتمركزون عليهـا في دفع الشبهة عنهم ، ولكنهم حفظـوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، إذ لم يمزقوا القميص ، فبعدمـا حسبوه حجة لهم ، صار حجة عليهم ؛

اذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهـاده

البرهان الباطل

الحاشية الخامسة : ـــ جاءوا على قميصه بدم كذب « كشاهد » يثبتون به زعمهم ، ولكنه شاهد زور ، و « كبرهان » يصححون به دعواهم ، ولكنه برهان باطل ، و « كوثيقة » يعتمدون عليها ولكنها وثيقة مزيفة .

حقاً إن هذا العمل مما يضحك الانسان في ساعـــة يجب فيها البكاء ، لأنهم بابقائهم على القميص وعدم تمزيقهم له ، لم يحسنوا سبك هذه الأكذوبة ، فكان فعلهم هذا أوجب للحجة عليهم من الحجة لهم .

مناجاة يعقوب الذئب الحقيقي والمجازي

الحاشية السادسة : ـــ كأن من يحملون « الذئب وأكله » على معناه الحقيقي سمعوا بآذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

مسكين أنت أيها « الذئب » ، يلصق بك بنو الانسان ما أنت منه بريء ، يتهمونك وهم المتهمون ، نعم إنك حيوان أعجم ، ولكن تلك العجمة خير من النطق الكاذب ، ما أصدق عجمتك ! وما أكذب نطق الناس ! نعم ان الله تكفل بأنه ما من دابة في الأرض إلا عليه تعالى رزقها ، لكن هل كتب الله التضحية بولدي في سبيل رزقك ؟!... كلا ... وحوادث الزمان المستقبلة ستكشف لنا عن جلية الأمر ، فان الزمان كشاف ، ثم لكأنه خاطب نفسه بقوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبـار من لم تزود

ثم لكأن من يحملون « الذئب وأكله » على المعنى المجازي سمعوا بآذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

أيها الذئب المستأنس ، قطعت الرحم ، أسأت إلى نفسك وسيرتك ، وضعت في تاريخك نقطـــة سوداء ، أسأت للأب والأخ ، وللخالة في قبرها ، فهي لذلك تتوجع عند « إفراتة » ، وتصرخ وتولول عند « بيت لحم » ، أيها الذئب الضاري، الذي تستره الصورة البشرية ، لماذا تفترس هذا الحمل الوديع ؟ لماذا أيها الذئب « الأصفر » تنقض على هذا الحمام « الأبيض » ؟ ـ لأيٍّ هذه الشراسة والإخلال بأمن المستأمن ؟ أما يكفيك افتراسك كل ذكر من أهل شكيم (تك ٣٤ : ٢٥) آه ، صدق من قال : من الناس من إذا كشف لك عن أنيابـه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها،أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادةلا يسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبـه ، رأيت حجراً صلداً من أحجار الصوان ، لا يبضّ بقطرة من الرحمة ، فهؤلاء الناس سباع مفترسة ، وذئاب ضارية ، يأكلون من دنا منهم ، أو وقف في طريقهم غير حافلين به ، ولا آسفين عليـه ، أصلح الله حالهم ، وحمـانا من أن يتم علينـا مُحَالُهم ، آه ... إلى الماء يمضي من يغص بلقمة ، إلى أين يمضي من يغص بماء ؟

الدم نفس أو جسد

الحاشية السابعة : — يقال للدم « نَفْسٌ » ويقال لليابس منه « جَسَد » ، ومنه قول الفقهاء : « ويُعفى عمّالا نَـفْسَ له سائلة »أي دم ، وقول بعضهم وهو من هذا الصدد الذي نحن فيه :

يا ويلهم !قد رموني بالذي أنا في	سبيل إبطاله أصبحتُ مسبوباً
برئت منهم ومـا قد رميت به	براءةالذئبمن نفْس ابن يعقوبا(١)

(١) أي من دمه . والنظم لرئيس المؤتمر .

السجع والترسل في القرآن

الحاشية الثامنة : — جملة « وجاءوا على قميصه بدم كذب » (تذييل مرسل) للآية السابقة المسجوعة ، وهذا أسلوب لطيف كثير الوقوع في كتاب الله ، كأنه تعالى يُخيّر القارىء بين أن يراعي طريقة السجع ، فيقف على رأس الفقرة المسجوعة وبين أن يراعي طريقة الترسل ، فيقف حيث يتم الكلام ، ولو لم يكن سجع .

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك، إذ علم سبحانه وتعالى أن قوماً يحبون طريقة السجع ، وآخرين يميلون لطريقة الترسل ، وأنزل كتابه بصورة تحتمل الطريقين ، وتكفل كلا المذهبين ليختار القارىء لنفسه ما يحلو في ذوقه ، ومن هذه الشواهد ما يلي :

١ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كُتِبَ عليكم الصيامُ ، كما كُتِبَ على الذينَ مِنْ قَبْلِكُم ، لعلكم تَتَّقُون ، أياماً معـــدوداتٍ ﴾ (٢ : ١٨٣ و ١٨٤) .

٢ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلكم تتفكرونَ ، في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ : ٢١٩ و ٢٢٠) .

٣ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أيديَكُم وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشَوْنَ الناسَ كخَشْيَةِ اللهِ أوْ أشدَّ خَشْيَةً ؟ وقالوا : ربَّنا لِمَ كتَبْتَ علينا القتالَ ؟ لوْلا أخَّرتَنا إلى أجَلٍ قريبٍ ؟ ـ قلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ ، والآخرةُ خيرٌ لِمَنْ اتَّقَى ، ولا تُظْلَمونَ فتيلًا ، أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ، ولو كنتم في بروجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وإنْ تُصِبهُم حَسَنَةٌ يقولوا : هذه

مِنْ عندِ اللهِ ، وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا:هذه مِنْ عِندِكَ ، ـ قُلْ : كلٌ مِنْ عنـــدِ اللهِ ، فما لِهٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يكادونَ يَفْقَهونَ حديثاً ؟﴾ (٤ : ٧٦ و ٧٧) فقوله : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ هو من ذيول ما قبله ، فهو مرتبط به ، فمن شاء مراعاة المعنى والجري على مـذهب الترسل وقف عنده ، ومن شـاء مراعاة السجـع وقف عند رأس الآية « فتيلاً » .

٤ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسولِهِ إلى الناسِ يَومَ الحجِ الأكبرِ أنَّ اللهَ بريءٌ من المشركين ، وَرَسُولُهُ ، فإن تُبْتُمْ فهوَ خيرٌ لكم الخ ﴾ (٩ : ٣ و ٤) فقوله ﴿ ورسولُهُ ﴾ هو ذيل للآية الثالثـة المسجوعة ، ولكنـه مكتوب مـع الآية الرابعة ، فإذا نظرنا المعنى ، ألحقناه بمـا بعـده وكنا ساجعين .

٥ ـ هكذا كلمة : « من دونه » في قوله تعالى : ﴿ قال إني أُشهِدُ اللهَ ، واشْهَدُوا أني بريءٌ مما تُشرِكون ، مِنْ دونه ، فكيدوني جميعاً ، ثم لا تُنظِرُونِ ﴾ (١١ : ٥٣ و ٥٥) .

٦ ـ ومثله كلمة : ﴿ كأنْ لمْ يَغْنَوا فيها ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وأخَذَ الذينَ ظَلَموا الصَّيْحَةُ ، فأصبحوا في دِيارِهم جاثمين ، كأنْ لمْ يَغْنَوْا فيها ، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا رَبَّهم ، ألا بُعْداً لثمود ﴾ (١١ : ٦٧ و ٦٨) .

٧ ـ ومثله كلمة : ﴿ مَنْ يأتيهِ عذابٌ يُخْزيه ومَنْ هو كاذبٌ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ ويا قومِ اعْمَلوا على مكانَتِكُم ، إني عاملٌ . سوفَ تَعْلَمون ، من يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ ومَنْ هُوَ كاذبٌ ، وارتَقِبُوا إني مَعَكم رقيبٌ ﴾ (١١ : ٩٣ و ٩٤) .

٨ ـ كلمة « زُخْرُفاً » في قوله تعالى : ﴿ ولِبُيوتِهم أبواباً وسُرُراً عليها يَتَّكِئُونَ ، وزُخْرُفاً، وإنْ كلُّ ذلك لمّا مَتاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عند ربِّكَ للمتقين ﴾ (٤٣ : ٣٤ و ٣٥) .

٩ ـ كلمة « وبالليلِ » في قوله تعالى : ﴿ وإنَّكُم لتَمُرُّونَ عليهم مُصبِحين، وبالليل ، أفلا تَعقِلون ؟ ﴾ (٣٧ : ١٣٧ و ١٣٨)

إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله الكريم ، فارجع إليه إن شئت المزيد .

القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف

الحاشية التاسعة : ـــ قص الله علينا ما أجراه بنو إسرائيل من الحيل على أبيهم ، وبعضهم على بعض ، لنكون على بصيرة من أعمالهم معنا ، وعلى حذر من حيلهم علينا ، لأنهم إذا كانوا يفعلون هذه الأفعال مع أصولهم وحواشيهم الأقربين فماذا عسى أن تكون أعمالهم مع من لم يكن من عنصرهم ؟!؟! وأقرب الشواهد على حيلهم ، ودهائهم ما أجروه من الكيد للنبي ﷺ في الحجاز ، بل كانوا يكيدون في جميع بقاع الأرض غير الإسلامية، حتى كان ما كان بكيدهم وختلهم من هدم صروح الباباوات والملوك المستبدين لهم في أوربا ، وإدالة الحكومات المدنية من حكم الكنيسة ، وقد كادوا ولا يزالون يكيدون لهدم نفوذ الديانة النصرانية من دول أوربا ، باسم الحرية والمدنية ، كما أن بكيدهم جعلوا الدولة الفرنسية كَكُرة اللعب في أيديهم ، إذ أخذوا يسعون في إزالة سلطة الكنيسة عنها ، وحملها على عقوقها ، بعد ما كانت فرنسة تدعى « بنت الكنيسة البكر » ثم

حملوها على الظلم الجائر القبيح في الجزائر ! مع أنها الدولة التي تفاخر الأمم بالعدل والمساواة والمدنية وقد كانت لهم يد في الانقلاب العثماني «وتداخلوا كثيراً مع « الاتحاديين من العثمانيين ، ثم أيام « الحرب العالمية » تداخلوا مع الحكومة الانكليزية وساعدوها بالمال ، ليكون لهم « وطن قومي » في « بيت المقدس» ويقيموا فيه «ملك إسرائيل» ويجعلوا « المسجد الأقصى » معبداً خاصاً لهم ، والخلاصة إن شأن هؤلاء الناس الدهاء والختل والمحَال دائماً وأينما وجدوا ، وعلى كل من عداهم !!!

لذا علينا أن نأخذ من هذه الأعمال موعظة تنفعنا اليوم في معاملتنا مع أبناء العم !! الصهيونيين في فلسطين !! وهي أنه إذا لم يوجد من هؤلاء الاخوة العشرة رحمة وعطف لأبيهم وأخيهم ، بل إذا لم يسلم أبوهم وأخوهم من شرورهم ، فكيف نرجو أن نسلم نحن (العرب) اليوم من كيدهم ؟!

يميناً — ولا حاجة لليمين — إن من فسدت فطرته، حتى صار لا خير فيه لأبيه وأخيه ، لا يرجى منه خير للبعداء والأبعدين ، ويميناً إن من لا خير فيه لأصله وحاشيته الأقربين ، فلا خير فيه لأبناء عمه الأبعدين .

انتقاد دعاة النصرانية اعتقادنا بنبوة يعقوب والرد عليهم

وإني بهذه المناسبة — والشيء بالشيء يذكر — ذاكر للقراء الكرام انتقاداً كان ورد عليّ من بعض « دعاة النصرانية » وهو قوله : (إننا نحن المسيحيين كاليهود جميعاً لا نقول بنبوة يعقوب ، ولعمرنا لو كان نبياً ورسولاً كما تقولون أيها المسلمين الأعزاء لكان على الأقل أثر الهداية والطاعة والتقوى في أولاده العشرة الصليبيين) .

هذه ملاحظة ذلك البروتستانتي ، وأما الفقير فإنني أجبته بأن الرسل (ع) لم يرسلوا إلاّ مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلاّ تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحـــد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون فعلاً من أحبوا ، ولا من كان من أقاربهم ، ولا يغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس إليهم في النسب ، وأحبهم إليهم في المعاملة ، الدنيوية ، فالأنبياء هداة لا جبارون ، وأدلة خير لا قاهرون . هذه قاعدة التوحيد الهادمة لقاعدة الوثنية ، بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله ، وأما قاعدة المسيحيين ـ بعد ابتداعهم في الدين اعتباراً من تاريخ مقررات بزنطية ـ فهي كقاعدة وثنية العرب من اتخاذ أولياء من العباد كالمسيح وأمه وسائر كبار رجال الدين ، يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد ، والإشقاء والإسعاد ، والسلب والإمـداد ، لا في مجرد التبليـغ والإرشاد ، قياساً على ما يعهـدون من الأقربين والمقربين عنـد الملوك المستبدين .

مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم

الحاشية العاشرة ـــ كأني بيعقوب (ع) بعد ما سمـع الخبر السوء عن ولده المحبوب شعر برعشة مـلأته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم سكن على أثر ذلك سكوناً لا تطرف له فيه عين ، ولا ينبض له عرق ، ولا يخفق له فيه قلب ولا يتحرك له فيه خاطر ، ثم لكأني به قد التفت لأولاده وقال: آه . لقد آلمتموني في أعز شيء لدي : إني لأعجب لـكم ، تأخـذون ابني في جمرة النهار ، وتأتون تنعونه إليّ في فحمة الليل ؟ ، وأعجب من هذا أنـكم تبكون، كأن عبرات العيون

ملك إرادتـكم ! وأعجب من هذا وهذا أنـكم أخذتموه بحجة أنه « يرتع ويلعب » وما أرى ذلك إلا قد صار وقفاً عليكم ، وأماهو فقد استخدمتموه عنـدكم كحارس، يـكون قعيد خيمتـكم ، وجِلْسَ فسطاطـكم لا يفارقـه ، شأن كل من تسنده هذه الوظيفة الفائقة !! وأعجب من هـــذا كله جيئتـكم بثوبه ملطخاً بالدم ، تدعمون بذلك صحة دعواكم ؛ كأن الله القـدير لم يخلق دمـــاً سوى دم يوسف ، وكأنـكم تظنون أن البَلَهَ قد بلغ ممن تخاطبونه مبلغه من الناس ، حتى أردتم تتاجرون بعقول العقلاء !! غريب والله أمركم ، تحملون على عاتقـكم حفظه قائلين . « إنّا له لحافِظون » ثم توجهون عليه وظيفة « محافِظٍ » لـكم ، لا محافَظاً عليه من جانبكم .

غريب والله ، تسجلون على أنفسـكم الخسران إنْ أكله الذئب وأنتم عصبة ثم اليوم تقولون « أكله الذئب » ، فكيف رضيتم لأنفسكم هذا التسجيل ؟!..

لفظ القميص في القرآن

الحاشية الحادية عشرة — لم يذكر لفظ القميص في كتاب الله تعالى إلا في هذه السورة ، والغريب أنه ذكر فيها في ستة مواضع ، من مواضع القصة المهمة ، الأمر الذي يخيل إلينا أن « القميص » ركن من أركان هذه السيرة .

هل خفي يعقوب صحة افتراس الذئب ليوسف

الحاشية الثانية عشرة — إذا قيل لماذا لم يطلب يعقوب من أولاده ما بقي من جسد يوسف عند قولهم له : « فأكله الذئب » ؟ فالجواب : يحتمل أنه لم يرد أن يشدد عليهم بهذا الطلب خوفاً أن يذهبوا ويقتلوه فعلاً .

هذه هي محاضرة العلامة الطرابلسي ، وكان الحاضرون يصرخون عند كل حاشية من هذه الحواش بكلمة : موافق ، موافق ، وكانت علامات القبول والاستحسان بادية على وجوههم .

(قال : بل سوّلت لكم ... الخ)

- ١ -

قال نور الهدى الصيداوي :

حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف

كانوا حملوا لأبيهم نعي ولده ، وتأبطوا شراً بذاك الخبر السيء ، فما أتوا على تمام حديثهم (الموضوع) حتى انقبضت نفسه واتّقد حزنه ، وتمعّر وجهه ، وتولاه الكدر ، وأخذ الذهول منه مأخذه ، فلبث صامتاً هنيهة ، كأنه أصيب بصدمة ، وأطرق إلى الأرض وسكن في إطراقه سكوناً عميقاً ، لا تتخلله حركة ولا نأمة ، ثم صار يصعّد نظره فيهم ويصوّبه ، وأخيراً نظر إليهم نظرة كشف بها أسرار قلوبهم ، كما يكشف الإشعاعي [1] بأشعة « رونتكن » ما وراء الجوامد ، نظر إليهم نظرة وقد أدرك أن في الأمر سراً ، جعله يقف تجاه أخبارهم موقف المرتاب ، نظر إليهم نظرة وهو يتنفس الصعداء وينظر إلى وجوههم ويراعي حركاتهم ، نظر إليهم نظرة وقال :سواء عليّ أجئتم بهذا الثوب الملطخ بالدم ، أم لم تجيئوا به فلا أصدقكم ، إذ ليس لكلامكم نصيب من الصحة ، بل هو خارج من مصنع التزوير ، وقصتكم كلها في وجوهكم ، وليس أدل على كذبكم من هذا القميص

(١) الاشعاعي العالم الاخصائي بفن الأشعة .

غير الممزق ، ألم اقل لكم : إني « ليحزنني أن تذهبوا به ؟ . . » فما أنذا وقعت فيما تخوفت منه ، تتركون الناقة بحملها، وترجعون إليّ بخفي حنين ، «بئس العِوضُ مِنْ جَمَلٍ قَيْدُه »

(قال : بل سولت لكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الرشيدي (١) :

عدم انطلاء الكذبة على يعقوب

لم يصدقهم أبوهم لأنه يعرف رؤيا ابنه وتأويلها . ويعلم أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق وشيء من هذا لم يحصل بعد ولكنه يحتاج إلى وقت مديد وعمر طويل ، ولذلك حيلتهم لم تنطل عليه ، بل قال لهم : إنه يلوح إلى أن أنفسكم سهلت لكم أمراً ، أنزلتموه بيوسف ضحية حبي له ، ولولاي ولولا حبي إياه ما رأى هذا البلاء الذي أحاق به .

صبر يعقوب الجميل

لقد صبر يعقوب (ع) صبراً جميلاً على تلك المصيبة ، فلم يَصِحْ ، ولم يمزق ثوبه ، ولم يَشْكُ أمره لمخلوق ، ولم يجزع ، ولم يملأ الدنيا بكاء وعويلاً ، كما ظنه حشويوا المفسرين ، لأن ذلك كله ينافي ما أخـــذه على عاتقه من «الصبر الجميل» ويناقض ما حكاه الله عنه في قوله تعالى « فهو كظيم » .

---

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية .

لقي يعقوب من الهم والحزن ما لا يستطيع أن يحتمله غيره ، ولكنه استطاع أن يفي بوعده الذي أخذه على عاتقه من «الصبر الجميل» ، لأنه نبيّ حليم ، ومن كان مثل يعقوب نبياً وصفياً ، فهو أهل لهـذا الصبر الجميل ، والله تعالى أرحم من أن يبعد عنه ابنه المحبوب ، ويبعد عنه العزاء .

يعقوب يغمز من قناة اولاده فيما ذكروه عن يوسف

يقول يعقوب عليه السلام :﴿ والله المستعان على ما تصفون﴾ يريد بذلك غمز قناتهم ، ثم يحتمل ان معناه : على كشف حقيقة ما تصفون ، أهو صدق أم كذب فإني في ريب من صحة ما تزعمون ، ولست أتبين الحقيقة إلا من حوادث الدهر التي يحدثها الله تعالى، والمستقبل كشاف ، ولذلك سأنتظر ما يجيء به الغـد : ﴿ وهو اللهُ في السمواتِ وفي الأرضِ ، يَعلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ، وَيَعلَمُ ما تَكسِبُونَ ﴾ (٦ : ٣) ، ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، وسوفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، (٦ : ٦٧) ، وقد استجاب الله دعاءه هذا ، فإنه تعالى كشف حقيقة الحال وبين الواقع ،بحيث يظهر أن كلامهم الآن كذب ، وليس من الصدق في شيء ، ولكن هذا كان بعد نحو (٢٣) سنة .

ويحتمل أن المعنى : والله المستعان على تحمل أو احتمال ما تصفون ، وقـد استجاب الله له هـذا النوع من الدعاء أيضاً ، حيث ثبت على صبره الجميل ثبوت الكرام ، ولم تبد منه كلمة ولا فعلة تنافي ذلك .

ويحتمل أن المعنى أيضاً : والله المستعان على كفاية شر أو تعـديل ما تصفون

فهذا كل ما أملك اليوم ، ولا تنسوا أنكم كنتم قلتم لي « وإنّا له لحافظون » ، فأنا الآن لا أنسى أن أقول لكم : ﴿ وإنّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ .

وقد اقتصر يعقوب (ع) على هذه الكلمة وهي قوله (والله المستعان على ما تصفون) اختصاراً وإيجازاً لأن حال الحزن يتطلب ذلك ، أو إشارة إلى أنه غير عابيء بالخبر المصنوع الذي أتاه به أولاده .

مواعيد الله في يوسف خففت من وطأة مصيبة يعقوب فيه

رأى يعقوب (ع) نفسه وقع في شبه مصيبة ، فالتمس لنفسه تعليلاً يريح باله على ولده ، والمرء ميال إلى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك ، فبعضهم إذا وقع في مصيبة ، هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة ، فيجعل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ، ومنهم من يزيده الافتكار قلقاً ولكنه لا يلبث وإن طال قلقه أن يصل إلى حلّ يتوكأ عليه ، ريثما يرى ما يأتي به القدر ، ومن هذا القبيل يعقوب (ع) ، سيما ومعرفته بمواعيد الله له في ولده ومرمى رؤياه ، قد خفف عليه وطأة تلك النازلة .

انتظار يعقوب على تفريط بيوسف والرد عليه

كأني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، بعد ما قال لأولاده ما قال ، اعتزلهم ، وخلا في خيمته وحده ، فتخيل له أن هاتفاً يقول : « يداك أوكتا وفوك نفخ » ذلك لأنك أنت السبب الأول فيما جرى ، أنت الذي نزلت مختاراً على إرادة أولادك أنت الذي انساق لمشيئتهم وانصاع لميولهم ، رغماً عن كونك تعرف درجة العداء الذي يضمرونه لأخيهم ، كيف لا ... وقد كنت قلت له : (لا تقصص رؤياك

رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » ؟ وقد كنت تعرف أن البرية التي فيها أولادك مذأبة ، وكيف لا ... وقد قلت أيضاً : (وأخاف أن يأكله الذئب) ثم كنت لا تأمن من إخوته عليه ، بل تخافهم ، كما يرمي لذلك قولهم : (ما لك لا تأمنا على يوسف ؟) وكنت متهماً لأولادك في أمره كما يشعر به قولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) هذ ما كان يعقوب (ع) سمعه بأذني قلبه من فم الهاتف ،وكأني به قد أجابه بقوله !

أيها الروح الطاهر ، اسمع معذرتي التي أتلو عليك : إنني استرسلت لأولادي لأنهم حلفوا لي مرتين ، إذ قالوا : (وإنا له لناصحون ـ وإنا له لحافظون)والمؤمن السليم القلب إذا سمع صدّق ، فلذلك هان عليّ الاسترسال معهم ،وأيضاً مما خفف عني وطأة الخوف عليه ما أعلمه فيه من المواعيد المستقبلة،فلهذا جرى ما جرى،ليقض الله أمراً كان مفعولاً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

حال اخوة يوسف عندما عرّض ابوهم بهم بأنهم كاذبون

حينما سمع أولاد يعقوب قول أبيهم لهم :(والله المستعان على ما تصفون) فهموا ما وراءه من الاشارة لتكذيبهم ، فتفرقوا عنه ، وهم سكوت صامتون لا يبدون حراكاً ، ولا ينبثون ببنت شفة ،سمعوا كلام أبيهم فسكتوا عليه ، ولم يتبرأوا عما أشار إليه ، فتحقق أنهم غير صادقين في نبأهم ، وردد في نفسه عندئذ معنى قول القائل :

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

الغمز من قناة شمعون

لو كنت محل يعقوب (ع) لكنت أعطيت ذلك القميص للمقدام «شمعون»!!؟ القائد الكبير في تلك المعركة عملاً بشريعة : « من قتل قتيلاً فله سلبه » ، لأن الأحوال تجعلني أظن أن ذلك « الذئب » هو هذا البطل !!

انتقاد يعقوب (ع) على عدم بحثه عن ولده يوسف والرد عليه

وكأني بيعقوب (ع) قد شبه له أنه سمع صوتاً يقول: يا يعقوب ، ما هو هذا « الصبر الجميل » ؟... أتصبر على ظلم الظالمين ، وتسكت عن مكر الماكرين وتسمى ذلك صبراً جميلاً ؟... مع إن إزالته واجبة عليك ، لا سيما في الضرر العائد إلى الغير ! ولِمَ تصبر على ذلك ؟!... وكيف يجوز لك أن تصبر؟!... وأنت تعتقد كذب أولادك ولِمَ لا توغل في التفتيش ، وتبالغ في البحث ، سعياً منك في تخليص يوسف من البلية والشدة ، إن كان في الأحياء على ما تعتقد ، أو في إقامة القصاص إن صحّ أنهم قتلوه ، ولِمَ لم تطلب منهم جثمانه ، أو بقيته ـ على الأقل ـ حتى تصل إلى جلية الواقع وتقف على شخصية ما عملوا ؟!... هاهي المسافة بين « سيلون » وبين « دوثان » قريبة ، لا تزيد عن بضعة أميال ، وأنت رجل رحالة ، متعود على الأسفار ، فلم لا تعمل لأجل تمحيص هذا الحادث الجلل ما هو اللازم؟!. وعلى كل لعمرنا إن الصبر في هذا المقام مذموم ، بل هو صبر قبيح ، هو صبر مبني على عدم العناية ، ومؤسس على القسوة . فكيف تسميه « صبراً جميلاً » ، وكيف تسمى نفسك محباً لولدك المظلوم الذي ضاع حقه بين ظلم الأعداء وكسل المحبين ؟! ...

أنت لم تنس رؤيي ولدك ، ولم تنس أن الله أوحى إليك فيه ، أن الله سيجتبيه

ويعلّمه ويتم نعمته عليه ، وليس مطلق إتمام ، بل كما أتمّها على الإمامين الكبيرين إبراهيم ، وإسحاق ، فبحكم هذه البشائر السماوية، أنت ترى أنه حي يرزق ، فلذلك وبالنتيجة كان يجب عليك أن تسعى في طلبه ، لا سيما أن مكانتك الشخصيـــة ، ومكانة آبائك وبيتك ، ممـا يساعدك على ذلك الفحص ، فأهل العالم يعرفونك ويكبرونك ويعظمونك ، فلو تبالغ في الطلب والفحص ليظهر لك أمره ، وينجلي فيه اللغز والأشكال ، ويزول وجه التلبس ، فكيف تسكت عن كل هذا ؛ وأنه غير جائز ، والغريب أنك تسميـه « صبراً جميلاً » ؟!... يا يعقوب ، أنت تعلم أنه كثرة البحث عن الأمور تحق الحق وتبطل الباطل ، ولذلك فالحقيقة بنت البحث وأن النار أخفيت في الحجارة ، فلا تستخرج منها إلا بالمعالجة والقدح ،وأن طلبك لولدك من الواجبات ، فالصبر عنه ذميم ، عقلاً وشرعاً وعادة وشهامـة ، فكيف تدعو سكوتك هذا « صبراً جميلاً » ؟!...

أين ذكاؤك الذي كنت تعامل بـــه أباك إسحاق وأخاك عيسو ، ثم خالك لابان .؟! هلا استعملت جانباً منه في هـذه الحادثة ، حتي يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وحتى تكون قـد قمت ببعض الواجب في البحث عن ابنك ؟!..

هذا ما كأني بيعقوب (ع) كان يسمعه بأذني قلبه ، وكان يُحَدّث بـه من حين لآخر .

وكأني به بعدما سمع هذا السؤال ، سكت هنيهة ، ثم قال بينه وبين نفسه ، أو على قدر ما يسمع الهاتف :

أولاً « إن أولادي أقوياء ، فلا يمكنوني من الطلب والتفحص ، وأني لو أبحث وأفتش لربما يقدمون على إيذاء يوسف وقتله ، تحقيقاً لدعواهم ، فنقع فيما هو أشد وأشد .

ثانياً — إني أعلم وأتأكد أن الله يصون ولدي عن الهلاك ، وأن أمره أخيراً سيعظم ، وسيكون له شأنٌ ذو بال .

ثالثاً — إني لا أريد هتك أسرار أولادي ، ولا أرضى بالقائهم في ألسنة الناس تلوكهم الأفواه كأنهم مضغة .

رابعاً — قريباً ـ وكل آت قريب ـ تتغير الوضعية ، ويظهر من الغيب لطف .

خامساً — ماذا أصنع ؟ والجرح في الكف ، ومصيبة الجزاء كمصيبة الجرم كلاهما فوق رأسي ، آه وأواه ! أنا اليوم في حيرة ، لأن أولادي تعدّوا على أخيهم وأنا ولي الجميع ، و « لابان » خالٌ للجميع ، وبذلك وقعت في حيصَ بيصَ ، فإن لم أنتقم احترق قلبي على ولدي المظلوم ، وإن انتقمت احترق قلبي على هؤلاء الأولاد فماذا أصنع وجرحي في كفي ؟... والضربة على كل حال في رأسي ، وصدق قول الشاعر :

قومي هموا قتلوا أُمَيْمَ أخي فاذا رميت يصيبني سهمي
ولإنْ عفوت لأعفونْ جللًا ولإنْ سطوت لوهِنْ عظمي

وأخيراً لما وقع هـــذا الحادث تفكرت ملياً ، فرأيت أن الأصوب الصبر والسكوت ، لا أقل ولا أكثر ، لأنني لا أقدر على أكثر من الصبر ، الذي هو ملجأ الضعيف ، ولهذا يحق لي أن أدعو صبري « صبراً جميلاً » .

المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف

لم يكن يعقوب (م) هو الذي حزن على فقد يوسف فقط ، بل شاركه في ذلك « إسحاق » لأن يوسف كان حفيده المنظور ، وموضع رجائه في مستقبل الأيام والحازم من صبر على مضض الحياة .

وحزنت عليه أيضاً « بلهة » جارية أمه ، وكافلته بعدها ، وحاضنته في خيمتها .

وبكاه بحق أخوه الأكبر « رأوبين » الذي كان يريد أن يرده لأبيه ، وكان غائباً حينما أخرجته « السيارة » من الجب وسافروا به لمصر ، ورجع إلى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه، فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : «الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ؟ » (تك ٣٧ : ٣٠)

وبكاه أخوه الأصغر « بنيامين » لأنه شقيقه ، وتعزيته الوحيدة بعد موت أمه، وأنيسه الوحيد في خيمة الجارية بلهة .

وبكاه كل من عرف أدبه من أهالي فلسطين ، ولا سيما من كانوا اعتنقوا « دين التوحيد » بدعوة أبيه وجده عليهما السلام . وعلى ذلك فقد وجد مشاطرون لأبيه في حزنه وهمه ، ولكن كان يعقوب قد أخذ من ذلك بالسهم الوافر .

(قال : بل سولت .:. الخ)

— ٣ —

وقال اللوذعي الدمياطي :

السول والأمر والصبر

أيها السادة الأحبة : لي على هذه الآية بضع كلمات : راجياً سماعها :

معنى السول

الكلمة الأولى — إن لفظة « سوّلت » لطيفة لينة ، ولكن المعنى الذي فيها

جارح فهو كما يقول بعض المعاصرين في نظيره : « الكلام أنثى والمعنى ذَكَرٌ » يقال سوّلت له نفسه كذا : زينت وسهلت ، وسوّل له الشيطان : أغواه ، من « السَّوَل » محركة ، وهو الاسترخاء ، وقد سَوِلَ كفرح ، والأسول من في أسفله استرخاء . وسَوّل له : سهّل له ركوب العظائم ، ومن غرائب الاتفاق أن هذه المادة لم تسند في كتاب الله إلا لثلاثة :

١ ــ للسامري الوثني ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لي نَفْسِي ﴾ (٢٠ : ٩٦) .

٢ ــ لأخوة يوسف العشرة ، وذلك في قول يعقوب لهم : ﴿ بل سَوَّلت لكم أنفُسُكُم أمراً ﴾ (١٨ و ٨٣) .

٣ ــ للشيطان « في قوله تعالى : ﴿ الشيطانُ سوّل لهم وأملَى لهم ﴾ ، (٤٧ : ٢٥) .

احساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالا

الكلمة الثانية ـ نرى أباهم قال لهم : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً) فكأنه كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولا بد ، ولكن كان لا يراها إلا إجمالاً ، لأنها لم تتمين عنده صورتها ، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط ، وغمّ عليه أمرها واستعجم .

التنكير في لفظ « أمراً »

الكلمة الثالثة ــ التنكير في « أمراً » إما للتنظيم والتفخيم ، كأنه يقول : أمراً عظيما ارتكبتموه من يوسف ، وهونته عليكم نفوسكم ، أمراً ذا بال ، أمراً من نوع الدهاء والخبّ ، أمراً فيه دسيسة ومكر .

أو للابهام ، فكأنه يقول : أمراً من الأمور المستورة، أمراً تحت طي الكتمان أمراً لا يعلمه ألا أنتم ويوسف .

معنى الصبر والصبر الجميل

الكلمة الرابعة — معنى « الصبر » تلقي المكروه بالاحتمال ، وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه ، ومقاومة ما يحدثه من الجزع ، فهو مركب من أمرين ، دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس به لا يسمى صابراً ، وإنما هو فاقد للاحساس فيسمى بليداً ، وفرق بين الصبر والبلادة ، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة ، وهو من أهم الفضائل ، إذ يجعل الانسان ثابتاً لا يتململ ، فيسليه عن الهم ويخفف ألم مصيبته ويدني منه بعيد الأمل ، قال تعالى : ﴿ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدوا ، والصابرينَ في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ ﴾ (٢ : ١٧٦) وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم خمساً وتسعين مرة ، ولم تذكر في القرآن فضيلة أخرى بهذا المقدار من العدد ، الأمر الذي يدلنا على عظمة الصبر ، ومعنى كون الصبر « جميلاً » أنه لبق ، أديب ، محتشم ، لائق ، أو هو الذي لا جزع فيه ولافزع،وليس فيه شكاية لمخلوق .

الباب الثالث

الفصل الأول

خروج يوسف من الجب

آ (١٩) ﴿ وَجَاءَتْ سيَّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ، فأدْلَى دَلْوَهُ .. قالَ : « يا بُشْرَى ! هذا غُلامٌ » ، وأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، واللهُ عليمٌ بما يَعْمَلُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة عشرة ، فقام الشيخ الكرملي [١] وقال :

(وجاءت) من قبل المشرق (سيارة) ، رفقة تسير لمصر في سبيل التجارة نزلوا قريباً من « دوثان » (فأرسلوا واردهم) وهو رجل يقال له « مالك بن ذعر الخزاعي » ليطلب لهم الماء ـ والوارد هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم ـ جاء للجب (فأدلى) أرسل بواسطة الرشاء (دلوه) فتعلق يوسف ، فلما خرج (قال) الوارد بلسان الفرح والسرور (يابشرى) ، نادى البشرى كأنه يقول: تعالي فهذا أوانك، رآه جميلا كأحسن مايكون فقال يابشراي (هذا غلام)ـ والغلام الطار ّ أي

---

(١) نسبة الى الكرمل قرب مدينة حيفا (فلسطين)

النابت الشارب، والكهل ضد، أو من حين يولد إلى أن يشب، وغَلِمَ كفرح غَلَماً وغُلمة بالضم واغتلم غُلِبَ شهوة، والغُلمة شهوة الضراب، واغتلم هاج من ذلك «القاموس» ـ ثم ذهب به لأصحابه (و) تقمصهم شيطان الظلم والقساوة حيث (أسروه) أي الوارد وأصحابه، أخفوه عن الرفقة، حال كونه (بضاعة) أي متاعاً للتجارة (والله عليم بما يعملون) لم تخف عليه أسرارهم ـ وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم على حسب عوائد الهمج في استرقاق الأحرار ـ وسافر معهم يوسف عليه السلام إلى مصر ولسان حاله يردد قول القائل:

وما بعض الاقامة في ديار　يهان بها الفتى الا بلاء
وكل شديدة نزلت بحيٍّ　سيأتي بعد شدتها رخاء
ولم أر كامرىء يدنو لخسف　له في الأرض سير والتواء

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ١ —

ثم قام الشيخ القلقيلي وقال:

القافلة تخرج يوسف من الجب وتقوده معها الى مصر

لا يظنن القارىء أنا نسينا أحزان يوسف وهمومه، ولم نبال بما يقاسيه وهو في جبه من الوحشة والخوف، فإننا لم نتركه إلا موقتاً، ولذلك لنترك الآن يعقوب ومَنْ عنده من أولاده في «سيلون»، ولنعد إلى «دوثان» إلى الجب الذي فيها، لنرى ماذا تم ليوسف بعد إلقائه في الجب، وسفر فريق من إخوته عنه، ورجوعهم لأبيهم:

كانت القوافل التى تأتي من الشام لمصر قديماً تجتاز «الأردن» جنوب بحيرة

طبرية ، فإلى « بيسان » الى « جنين » الى « دوثان » الى « السامرة » وهي سبسطية الى « جلجولية » إلى « يافا » إلى « غزة » وقد لا تأتي إلى يافا ، بل تذهب من جلجولية إلى « اللد » إلى غزة إلى « العريش » إلى صحراء « التيه » إلى أن تصل « لمصر » .

وبعد بيان ما تقدم تقول إن إخوة يوسف بعد أن طرحوه في الجب ، ذهب فريق منهم إلى « سيلون » يحملون نبأ أكل الذئب إياه وقميصه الملوث بالدم إلى أبيهم وبقي فريق في « دوثان » يراقبون حركاته ، وماذا عسى أن يطرأ عليه ، وهؤلاء جلسوا ليأكلوا طعاماً ، فلم يمض غير قليل من الساعات ، حتى رفعوا عيونهم ، فبصُروا بقافلة من العرب أو المديانيين أو الكنعانيين ، وقد أقبلت تلك القافلة تقطع الصحراء من وجه المشرق من « جلعاد [1] » ، وجمالهم حاملة صمغاً وبلساناً ولاذناً ، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ، فنزلت تلك السيارة قريباً من ذلك الجب ، ليستريحوا وتستريح دوابهم ، ولم يمض إلاّ دقائق بعدد الأنامل حتى أرادت العناية الإلهية أن ترفه عن يوسف ، فسخرت له من ليس من عرقه، فأرسلوا من انتدبوه للسقيا ليرد على الجب ويأتي لهم بالماء لشربهم وشرب دوابهم ، فأدلى الوارد دلوه فتعلق به يوسف ، فسحبه وأصعده من الجب، ولما نظره رأى فتى كعمود الصبح فقال (يا بشرى هذا غلام) لعمري قد صدت بحبلي ظبياً ، جاءني عفواً ، فرجع أدراجه ، وأتى رفقاءه ، وهو مشرق الوجه، إشارة إلى فوزه بالعثور عليه (وأسروه بضاعة) إذ لم يكونوا ـ طبعاً ـ يعرفونه ، ولم يسألوه من أنت ؟ وهو ـ طبعاً ـ لم يكن رآهم من قبل ، ولم يخبرهم من هو ، فشأنه معهم شأن كل شخص غريب يُعثر عليه أو يخطف أو يغتصب ويدعى أنه عبد ويباع كما هو الشائع الكثير في تلك العصور المظلمة ، ثم رحلوا به وساروا

---

(١) جلعاد موضع بشرقي الأردن .

يطوون البيداء ، ويتيممون العراء ، ووجهتهم مصر، وقد حصل كل ذلك بين سمع وبصر إخوته الذين بقوا في « دوثان » قريباً من الجب ، كما كان ذلك كله بين سمع الله وبصره ، فقد كان سبحانه مراقباً لسلسلة أعمالهم من مصادرته ـ إلى جعله كسلعة ـ إلى استرقاقه ـ إلى بيعه كأي عبد زنجي غامض النسب ، فكان كل ذلك بمعرفته وعلمه وسماحه ، لحكمة قدرها وأرادها .

وأما يوسف فارتضى أن يسير معهم ، بدون أدنى مقاومة أو حيلة ، تخلصاً من إخوته الذين هم أشد خطراً وأعمق جرحاً من مصيبة بعده عن وطنه ،فالغربة مرة المذاق ، ولكن شر إخوتـــه وكيدهم له أدهى وأمر ، والمثل يقول : « سئل واحـد : ما الذي أحوجك إلى المرّ ؟ ـ فأجاب : الذي هو أمرُّ منه » ، ولذلك فهو يصدق عليه قول القائل :

محبتي تقتضي مُقـامي وحالتي تقتضي الرحيلا

هذا ما كان من شأن يوسف وأفكاره ، وأما ما كان من شأن إخوتـــه وأفكارهم ، فانهم فرحوا بعد ما أخذ لمصر فرحاً شديداً ، واعتقدوا أن قضيتهم ناجحة موفقة قد استجمعت كل عناصر الفوز والظفر .

الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه

ورب معترض يقول : إنه كان يمكن ليوسف أن يتملص من هـذه القافلة لأنه كان من جهة ابن (١٧) سنة ، ومن جهـة أخرى كان ولم يزل في وسط بلاده الفلسطينية ، بين معارفه ومعارف أبيه وجـده وأسرته ، ولكن الذي يظهر انه كان يتخوف من عمله على الهروب لأبيه أن تلحق بـــه إخوته ضرراً أعظم وكيداً أشد ، وأن عيشته بين إخوته كانت مهددة بالأخطار وليست بالعيشة الراضية ، فلما حصل هذا الحادث خضع له ولم يعمل أدنى مقاومة .

حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه

والذي يظهر أيضاً أن يوسف كان حريصاً جد الحرص على انتهاز الفرص متى سنحت له ولنا على ذلكم الشواهد الآتية :

الشاهد الأول — هذه الحادثة التي نحن بصددها، فهو حينما أخرج من الجب وأخذ كأسير، لم يأت من المقاومة شيئاً ، بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألبين عليه ، وفضل الجلاء عن فلسطين بلاد البداوة والتوحش إلى بلاد الحرية والتمدن والأمن ، فاستخذأ « للسيارة » ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء (ع ١٩) .

الشاهد الثاني : — لما سأله الفتيان عن رؤياهمافقبل أن يعبر لهما ، انتهز الفرصة وشرع يدعوهما للتوحيد ، ويعظهما في الدين (ع ٣٧ — ٤٠)

الشاهد الثالث : — بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة ، بما فيه سلامته وقرة عينه، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله ، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك «الريان» ، وفعلاً إن رئيس السقاة نفعه وخدمه ، ولكن بعد حين (ع ٤٢ و ٤٥) .

الشاهد الرابع : — لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك ، وأدى واجبه بالجواب عن الرؤيا ، افترص الفرصة ، فأتى بما لم يسأل عنه ، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة الهكسوسية ، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد (ع ٤٧ - ٤٩) وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى مليك مصر ورجال بلاطه ، وقد كان .

الشاهد الخامس : — لما جاءه سفير الملك آمراً له بالخروج من معتقله وأحسّ

بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ، ووثق به ، افتكر أن توجه الملك عليه لابد أن يكون قد حكى في قصور أمراء مصر ، وأن كل من كان كذلك ، كان حقيقاً بأن يكون مهيب الجناب ، بحيث لا يتكلم فيه بسوى الحقائق — فنظراً لهذا كله — انتهز الفرصة فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق ، وبعد سؤال السيدات المصريات ، لأنه بتوجه نظر الحكومة عليه ، يكون قد أمن غائلة هؤلاء النسوة ، فلا يتكلمن فيه إلا بالحق ، فيخرج من المعتقل ناصع الجبين (ع ٥٠) .

الشاهد السادس : — حينما مثل بين يدي الملك ، ورمى الملك له تلك الاشارة ورمز له بذلك الرمز ، الذى يشير إلى أن الملك أزمع على إسناد منصب ما ليوسف في البلاط ، فاكتسب الفرصة وتواً تقدم إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب (ع ٥٤ و ٥٥) .

الشاهد السابع : — لما جاءه اخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التي تقتضي رجوعهم لمصر بأخيه بنيامين (ع ٥٨—٦٢) الأمر الذي هو كل ما يتمناه ، لا أقل ولا أكثر .

الشاهد الثامن : — لما رجعوا بأخيهم بنيامين ، اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضي بقاء بنيامين عنده (ع ٧٠ - ٧٢).

الشاهد التاسع : — طلب إتيان إخوته وأهليهم أجمعين لمصر منتهزاً الفرصة بذلك ، لكي يكونوا تحت نظره ، ويعيشوا تحت رعايته ، بعكس ما فعلوا معه سابقاً منذ ٢٣ سنة ، وليس يوجد ألذ للنفس وأشهى للقلب من ذلك العمل ، وأيضاً لكي يظهر لهم من مكارم أخلاقه مقدار ما أظهروا هم له من سوء أخلاقهم ، وثالثاً احتساباً لوجه الله وصلة للرحم ، ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وبضدها تتميز الأشياء».

وعلى الجملة فيوسف أجرى ما أجرى من هذه الأمور التسمة ، إما مماشاة للطبيعة الاسرائيلية ، لأن الاسرائيليين ، عموماً منذ القدم إلى اليوم هم حريصون على انتهاز الفرص ، قال الشاعر :

وانتهز الفرصة إنَّ الفرصهْ   تصير إنْ لم تنتهزها غصهْ

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة ، وبالاجمال إن يوسف كان قوي الإرادة في كل شيء أراده ، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه ، وكان يوسف بعدما خرج من سجنه ، وجلس على أريكة وزارة المال بمصر صار السعد خادماً له فكان يملي إرادته على الزمان ، والزمان يواتيه ويفعل ما يمليه عليه.

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٢ —

وقال الاستاذ راشد البعلبكي :

يوسف بين يدي « السيارة »

بينا يوسف يفتكر في ضيقه ، وما أشكل من أمره ، إذا فرج الله له على طرف الثمام ، وأقرب إليه من ظله ، فقد وردت « سيارة » سخرها الله تعالى لتكون الواسطة الوحيده في إخراجه من الجب ، وكانت هذه القافلة قد جاءت من المشرق لأنه كان يوجد اتصال تجاري واقتصادي بين الأمم الشرقية والمملكة المصرية الجنوبية ، فمكثوا غير بعيد ، وللحال أرسلوا واردهم ليأتي لهم بالماء ، وبينا يوسف ساكت ساكن ، يفكر في حاله ، سمع وقع أقدام وصوت إنسان ، فوجه انتباهه إليه ، وجعل قلبه يخفق بشدة وسرعة ، إذا بصدى ذلك الصوت يتعاظم شيئاً فشيئاً ، ويقترب نحو الجب ، فتطاول يوسف لباب الجب ، فنظر وارداً يرد الماء

ليستقي لقومه ، أرسل رشاء فيه دلو ، فتعلق به يوسف قائلاً : يا رجل : انشلني رحمك الله ، فنشله ، فرآى صبياً قد أبرقت أسارير وجهه ، فكان هـذا الوارد كموسى ، (ع) ذهب ليأتي بقبس من النـار ، فأتى بنور النبوة ، فاستبشر وارد القوم استبشاراً يمازجه استغراب وجود فتى جميـل كهذا الفتى في وسط الجب الذي هو في صحراء قفراء ، لا يمر بها أحد إلا الرعيان والقوافل ، وصرخ بنعمة الظافر : يا بشرى وألف يا بشرى (هذا غلام) في ربيع العمر ومقتبل الشباب ، أنا سعيد به اليوم — ثم أخذه الوارد واسمه مالك بن ذعر الخزاعي ، ورجع به لقومه — ولما صار بين يدي هؤلاء « السيارة » التجـار ، نظروه فاعجبوا به ، وكأني بهم قد أدنى بعضهم فمه من أذن الآخر قائلاً بصوت خافت : لعل هـذا الغلام من أبناء الملوك ، وقال آخر : لعله من أبنـاء التجار المنغمسين في الترف والرفاهية ، وقال ثالث : بل لعل هذا الفتى من المماليك الذين يجلبون من بـلاد الكرج ، وقال البعض منهم : كأن هذا المخلوق ملك من ملائكة السماء ، ولأمر ما نزل الى الأرض وأخذ صورة بشر ، ثم اتفقوا على أن يجعلوه من جملة العروض التي يريدون بيعها في مصر بشكل سري خوفاً من عرقلة مرامهم من بيعه ، لو أظهروا أمره للناس الذين معهم في القافلة ، وكانت هذه الطريقة ، وهي جعل القوافل كل ما وقع تحت يدها من الغرباء الضعفاء سلعة بيع ـ نقول كانت طريقة مسلوكة لهم قديماً ، كما وقع « لسلمان الفارسي » رضي الله عنه .

وكأني بيوسف قال لهم عنـد ذلك : « كل ما قلتموه لم يكن ، ولكني من فلسطين ، جيء بي الى هذا الجب ، فأوقعتني الاقدار الإلهية في غياهبها ، فصبرت على قضاء الله وقدره ، حتى أتاح الله سبحانه مروركم ، واستقـاءكم من الجب ، فرأيتموني فنشلتموني ؛ هذه حادثتي بصورة مختصرة ، وأما أنتم فما شئتم فافعلوا معي ، فإن الفعال هو « الأ'لُوه شَدّاي' »[1] ، وقد رضيت بكل ما يأتي علي ،

(١) لفظة عبرانية معناها « الإله القوي » .

ما أبرمه سبحانه في سابق علمه ، لا أعترضكم ولا أتماصى عليكم ، فقد صرت بين أيديكم كأسير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

ولم يطلق يوسف لنفسه العنان في بيـــان ترجمة حاله الشخصية والعائلية ، إذ رآى أن لا فائدة له من ذلك لأنهم أعراب أو مديانيون أو كنمانيون ، لا يهتمون بأمر يعقوب ولا إسحق ، ولا يقدرون هذه الأسرة الاسرائيلية حق قدرهـا ، ولا يتعرفون اليها ، ولأنه يعلم أنه لو سعى في رجوعه لأبيه لعـامله إخوته بما هو أشد وأنكى ، وربما قضوا على حياته ، ففضل البراح والبعد عن البيئة التي تجمعه باخوته ، وفضل الغربة على الاقامة في الوطن ، إذا كان فيـــه تخوف على النفس والحياة ، كالقائل :

رُبَّ هجر يكون من خوفِ هجرٍ وفراق يكون خـــوفَ فراقِ

أو كالقائل :

لا تصبونَّ إلى وطنْ فيـه تُضـــام وتُمتَهنْ
وارحل عـن الدار التي تُغْلي الوهـادَ على القُنَنْ
واربأ بنفسك أن تُقيمَ بحيث يخشـــاك الدرنْ
وجُبِ البلاد فأيُّهـــا أرضاك فاختـرهُ وطنْ

أو كالقائل :

وإنْ نَبَتْ بك أوطانٌ نشأتَ بهـا
فارحلْ فكـلُّ بـلادِ اللهِ أوطانُ
وإنْ جفاكَ أخٌ قد كنتَ تألَـفُهُ
فاطلبْ سواهُ فكمْ في الأرض إخوانُ

لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع «السيارة»

وعلى ذلك ذهب يوسف معهم ساكتـــاً ساكناً واجمـــاً ، تنطق دموعـه بما صمت عنه لسانه ، يعالج الداء بالداء ، ويفر من هم إلى هم ، ومن قضاء إلى قضاء، فقاموا راحلين به للديار المصرية ، وكأني به حينما صار بين حدود فلسطين وحدود مصر قريباً من « رَفَح » التفت شمالاً فرأى فلسطين ماثلة أمامه ، فألقى عليها نظرة واجمة ، ثم قال :

إن مجاورة الأعداء المتألبين ، ومخالطة الخصماء المناوئين ، غدر بالنفس حتى ولو كان الوطن طيبـــاً والعيش نضراً ، فكيف والوطن بادية ، ومدار معيشتنا رعي الغنم ، وإن العاقل لهو حقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصّن به نفسه من نوازل المكروه ، ولواحق المحذور ، وإلى ما يدفع المخوف لاستجلاب المحبوب، وإن معاشرة الحسدة والمصاحب لهم ، لهو كراكب البحر ، إن هو سلم من الغرق ، لم يسلم من المخاوف ، وإننا لنرى أن الدواب قد خُصّت في طبائعها بتوقي المكروه ، واكتساب ما فيه المنفعة ، ولذلك لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه بوارها وهلكتها ، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التي ركبت فيها، شحّاً بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه .

ثم استقبل « دوثان » وقال :

الوداع أيها الإخوة الذين طردوني وشردوني من بينهم ، وأبعدوني عن أبي الشيخ الجليل ، وعن أخي الوحيد اللطيم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ، وإنكم قد ألقيتموني هذه المرة في الجب ارتكاباً لأخف الضررين المناسب لِسِنّي ، فأخاف لو رجعت وبقيتم على ما أنتم عليه من العداء والمناواة أن تلجأوا لاستعمال أشد الضررين !

ثم استقبل « سيلون » وقال :

الوداع أيها الوالد المحب المخلص ، الوداع أيها الشيخ الجليل ، فقد كنت محباً لي جدّ الحب ، ولكنك متغلّب عليك من أولادك المستبدين ، فالسكنى معك محفوفة بالخطر ، فالسباق السباق لمصر ، والالحاق الالحاق لدار الحرية والأُمنية ، والسلام عليك ورحمة الله .

قال ذلك ، ثم سار مع الركب ، وقد أبغض فلسطين واجتواها وفارقها ناقماً على أهله وأهلها ،

وكأني بهذا الركب حينما دخلوا مصر إلى « سوق بيع الرقيق » أجلسوه مع ذكران العبيد من بيض وسود وحمر ، فعرف إذ ذاك أنهم أزمعوا على بيعه ، ففزع إلى ربه ، ودعاه أن يعينه على أمره هذا « الجديد » ويجعل نصيبه عند رجل أمين .

وما فعلته « السيارة » من أخذ يوسف معهم كرقيق سنة قديمة عند جميع الأمم ، فقد كان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر ، فيخطفون الأطفال والغلمـــان ويحملونهم إلى الآفاق يتجرون ببيعهم ، كما كانوا يتجرون ببيع الغلمان البيض ، من أهل اسبانيا وغيرها .

المشابهون لحالة يوسف (ع) في الرق

ويسرني أيها السادة قبل أن أختم خطابي هذا أن أقول ما أشبه حال يوسف « بدانيال » عليهما السلام ، فيوسف أسر من فلسطين لمصر سنة ٢٣٢١ ق.ن ثم عبر رؤيا ملك مصر سنة ٢٣٣٤ ق . ن ، وكانت وفاته بمصر سنة ٢٤١٤ ق . ن ، ودانيال أسر من فلسطين لبابل سنه ١١٧٥ ق . ن وفسر رؤيا نبوخذ نصر سنة

١١٧٢ ق . ن ثم كانت وفاته بالعراق ، وكما نتذكر بيوسف حادثة دانيال قبله ، فإنا نتذكر به أيضاً حادثة (ياقوت الحموي) بعده ، أعني صاحب «معجم البلدان» فإنه نشأ أسيراً ، أسر من الروم وبيع في بغداد فاشتراه تاجر يعرف بـ (عسكر الحموي) واليه نُسِب فقيل : ياقوت الحموي ، قرأ شيئاًمن النحو والصرف وولع بالأسفار في سبيل التجارة ، فبرز ونبغ في علم « تقويم البلدان » الذي يعبر عنه أهل اليوم بالجغرافية .

ونتذكر بحادثة يوسف أيضاً ، حادثة (سلمان الفارسي) حيث ادعى بعض المسافرين معه استرقاقه ، فباعوه في المدينة المنورة ، ثم أسلم واشترى نفسه ممن تملكوه ، وصار من أفاضل الصحابة المحترمين .

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٣ —

وقال الأديب الحلي [١] :

ليسمح لي السادة أن أوضح معنى بعضمفردات هذه الآية الكريمة :

معنى « السيارة »

١ — معنى « سيارة » ركب ، ويقال عنها « قافلة » ، ومعنى الألفاظ الثلاثة رفقة سائرون ، هذا هو المعنى المعروف قديما وحديثاً لهذه اللفظة، وما زال معروفاً لم تنكرهالحياة الحاضرة ولم يندثر بعـــد ، ولكن الذين يعرفون شيئاً عن الحياة

---

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق .

الصوفية يعرفون « السيارة » بمعنى الطائفة من أهل طريقتهم تسير وأمامها علَمُها ..وأما عند أهل اليوم المتمدينين فيطلق لفظ « السيارة » على ما يدعى بالافرنجية « اوتوموبيل » .

معنى «الوارد»

٢ً ـ كان اسم هذا « الوارد » فيما قيل « مالك بن ذعر الخزاعي » ، قالوا : هو رجل من العرب دميم الخلقة قــذر الثوب ، تقذى به النواظر وتتقزز منه النفس ، فسبحانك اللهم ما أخفى حكمتك ، قرد يصيد غزالاً ؟!!! ولعمري لو لم يفعل هــذه الفعلة السوأى لم يعلم به أحد ، ولو لم يرد على هذا البئر ، لم يكن في ورود ولا صدر ، ولكن هذا العمل الخبيث هو الذي أنتج هـذه الشهرة ، فمثله كمثل رجل من غمار الناس ، ليس له اسم ، حجَّ فأحب أن يكون له شهرة وصيت ، فجاء وبال في بئر زمزم بمرآى من الواقفين ، وقال لهم أنا فلان ، فطار اسمه في الآفاق ، ولله في خلقه شؤون !

فاء السرعة في قوله «فأرسلوا» ، «فأدلى»

٣َ ـ التعبير بالفاء في قوله « فأرسلوا » وقوله « فأدلى » يشير إلى السرعة في هذا الأمر ، بمعنى أنهم جاءوا وتواً أرسلوا واردهم ، ولم يتأخروا عن إرساله فواقاً ، وهو ذاهب تواً إلى الجب وأدلى دلوه ، ولم يتأخر عن إدلائه فيه فواقاً ، وهذا من لطف الله تعالى بيوسف ، إذ سخر له عبيده ، واستخدمهم في سرعة إخراجه ، وإذا أراد الله بعبد لطفاً ، فسرعان ما يسخر له كل الأسباب التي تلطف ما حلّ به من المقدور ، رحمة منه تعالى .

« يا بشرى »

٤ّ ـ قوله « يابشرى » أسلوب من أساليب الكلام العربي والعبراني ، يعبر به الانسان عن شعوره واغتباطه بما رآه ، ولم يكن وارد القوم أكثر سروراً بيوسف ممن سواه من كل من رآه فيما بعد .

ألقاب يوسف

٥ّ ـ لفظة غلام في قوله « هذا غلام » هو أول لقب لُقّب به يوسف في بدء غربته وهو في دوثان ، لقبه به مالك بن ذعر الخزاعي . وقد لقب بعده بألقاب عدة ، منها لقب « مُخلَص » لقبه به المولى عز وجل وهو في مصر إذ قال : ﴿ إنه من عبادنا المخلَصين ﴾ ومنها لقب « فتى » لقبه به النسوة المصريات إذ قلن : « تراود فتاها عن نفسه » وذلك قبل أن يَرَيْنَه ، ومنها لقب « ملك كريم » لقبه به أيضاً نسوة المدينة بعدما رأينَه .

ومنها لقب « الصديق » لقبه به رئيس السقاة ، وهو في سجنه . ومنها لقبا « مكين أمين » لقبه بهما ملك مصر الريان ، بعد براحه السجن .

ومنها لقبا « حفيظ عليم » وقد لقب هو نفسه بهما ، ترجمة حال نفسه عند الحكومة .

ومنها لقب « العزيز » لقبه به إخوته ، تبعاً للحكومة المصرية التي ـــ طبعاً ـــ لا بد أن تكون قد وجهت عليه هذا اللقب ، فكان « عزيز مصر » تحت سلطة مليكها الريان .

فيكون أول لقب وجه على يوسف في بدء محنته « غلام » ، وآخر لقب وجه عليه في بدء إشراق سعده « عزيز مصر » .

الدلو

٦ّ - لم يذكر لفظ « دلو » في كتاب الله تعالى إلا هنا ، كأن الله جل جلاله إنما أنزل « الدلو » في هذه السورة مساعدة ليوسف ، حتى يتعلق به ويخرج من جبه .

الفصل الثاني

بيع يوسف (ع)

آ(٢٠) (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ !!! دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ! وكَانوا فيهِ مِنَ الزاهِدِينَ !) .

افتتحت الجلسة وتليت الآية العشرون فقام السيدجمال العكاري[1] وقال:

(و) لما وصلوا مدينة « منف » وذلك سنة ٢٣٢١ ق . ن (شروه) أي باعوه فيها لعزيز مصر (بثمن) اسميّ (بخس) مبخوس ناقص عن قيمة يوسف نقصاناً ظاهراً ، أو زيف ناقص العيار (دراهم) لا دنانير (معدودة) قليلة تعد عداً ، ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الاوقية ، وهي الأربعون ، ويعدون ما دونها ؛ وقيل للقليلة « معدودة » لأن الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها ، ومن التعبير بالقلة عن العدد الدعوة المأثورة على الكفرة : «اللهم أحصهم عدداً» ، وقيل كانت عشرين درهماً (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن ، لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به ، لا يبالي بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده ، فيبيعه من أول مساوم ٍ

(١) عكار احدى بلاد الشام (لبنان)

بأوكس الثمن ؛ فإخوة يوسف وقعوا في الجريمة وتحت غضب أبيهم ، ويوسف ذاق من جراء ذلك الصاب والعلقم ، وعزيز مصر الأجنبي أخذه لقمة سائغة أتته دون تعب ولا نصب .

(وشروه بثمن بخس ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ اسماعيل الصيداوي [1] :

ليسمح لي السادة الأفاضل أن أذكر نبذة عن أسواق الرقيق في تلك العصور قبل الكلام على الآية الكريمة فأقول :

اسواق الرقيق

كان يوجد قديماً في الممالك الكبيرة كمصر أسواق تسمى « أسواق الرقيق » يأتون فيها بالرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغـات والأسنان ، يستجلبونهم من أقاصي بلاد الترك والروم والكرج والخزر وطبرستان وخراسانوالسند والمغرب والبربر والحبش ، يأتي بهم النخاسون أولاً ، إما بطريق الغزو أو بطريق الشراء من والديهـم أو بعض أقاربهم بثمن زهيد ، ثم يبيعونهم لتجار الرقيق ، هؤلاءالتجار يسوقونهم كالأنعام إلى « سوق الرقيق » مشدودي الأيدي بعضهم ببعض بالأمراس ليبيعوهم بدورهم أيضاً ، وهـذه « السوق » هي سوق عمومية يجتمع اليها الناس من أقاصي البلاد ،

(١) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

لشراء الرقيق أو اشترائه أو للمبادلة والمقايضة ، وحول هذه السوق سور ، بعضه من الخشب ، وبعضه من الأحجار ، فيدخل التجار السوق مع الرقيق ، ويقفلون بابه ، وحينئذ يحلون أيدي الأرقاء من الأمراس ، ويجعلون الذكور في جهة ، والاناث في جهة ، وربما أفردوا من يكونوا صغير السن جميلاً ، فيخصونهم بجهة على حدة ، فيأتي المشترون فينظرون اليهم ويفحصونهم ، يأمرونهم بفتح أفواههم ، فتفحص أسنانهم ورائحة حنكهم ، وينظرون في عيونهم وآذانهم وأنوفهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ويسومونهم ، ومتى تمت صفقة البيع ، أخذوا العبد واستخدموه فيما يشاؤون ؛ من رعي غنم أو حرث أو زرع أو غرس ، أو خدمة في بيت ، إلى غير ذلك ، وكان تجار الرقيق قديماً ، إذا وقفوا على جارية جميلة ، أو غلام جميل ، أنفذوا بعض السماسرة إلى دار الحاكم أو الأمير أو فلان الثري ، يسمون في ترويج تلك السلع ، وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الحاكم أو الأمير ، ممن يحبون الكسب من هذا السبيل ، ولعل وقوع يوسف ليد « عزيز مصر » المدعو « فوطيفار » كان ببعض هذه الوسائط .

يوسف في سوق الرقيق

حينما أخذت «السيارة» يوسف من الجب وأسرّته بضاعة ، ساروا به يطوون البيداء ، لا يلوون على شيء ، حتى وصلوا مصر ، ولم يصبروا إلا فواقاً ، حتى دخلوا به « سوق الرقيق » ، وكان لابساً أسمالاً بالية ، ولا نخاله عند ذلك إلا قد « تكهرب » وتألم وحزن حزناً شديداً ، وحيث رأى نفسه بين الزنوج . فكان جالساً بهيئة محزنة مؤثرة ، تستثير الأشجان ، وتستذرف الدموع ، ولو لا علمه بمواعيد الله له ، لقضى أسىً من وقوفه ذلك الموقف . وقد كان ليوسف إذ ذاك

فكرتان تتصارعان ، فكرة حاله الظاهرة ووقوفه موقف الذل والهوان ، وفكرة حاله الباطنة ، ومواعيد الله له بالرقي إلى الأوج الأعلى ، فكان عند الفكرة الأولى يجيش صدره ، ويبكي بعينيه ، وعند الفكرة الثانية يضحك في قلبه ويطمئن .

وبينما هو كذلك ، إذ بالقافلة تسلمه لسمار « عزيز مصر » الذي اشتراه منها ، فنزل حادث الشراء على نفسه ، نزول الجمرة على تامور القلب ، وتخيل عندئذ كأنما سهم رائش أصمى كبده ، إلا أنه تماسك ريثما يخار الله له ما يشاء من الفرج ، فسلم أمره لله ، وذهب لبيت « عزيز مصر » يعالج داء بداء ، وينتقل من ذل إلى ذل !!

ايضاح مفردات الآية

وبعد ذكر ما تقدم سأبين لكم معنى قوله تعالى «شروه» ثم عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف ثم معنى «ثمن بخس» وكم هو هذا الثمن .

معنى «شروه»

١ ـ فمعنى قوله تعالى « شروه » باعوه ، وتنازلوا عنه وبذلوه ، ضد «اشتروه» التي تفيد معنى الأخذ ، قال تعالى ﴿ ولَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم لو كانوا يَعْلَمونَ ﴾ (٢ : ١٠٢) أي باعوها ، وقال تعالى : ﴿ ومن الناس مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ ﴾ (٢ : ٢٠٧) أي يبيعها ويبذلها في الجهاد ، وقيل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيُقاتِلْ في سبيلِ اللهِ الذينَ يَشْرونَ الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ﴾ (٤ : ٧٣) أي يبيعون . وقال الشاعر العربي :

شَريتُ بُرْداً ولولا ما تَكَنَّفني
من الحوادثِ ما فارقتُهُ أبدا

ومنه تسمية (الخوارج) الذين خرجوا على الإمام عليّ كرم الله وجهه (الشُّراة) أي الذين باعوا أنفسهم — في زعمهم — لله ، ويقال في اللغة : جدّعه وشراه ، بمعنى شق أذن عبده وباعه .

عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف

٢ — الضمير في « شروه » هل هو عائد على إخوته ، أو عائد على السيارة ؟ في الأمر قولان : الأول مروي عن ابن عباس (ض) ، ومعناه أن إخوة يوسف باعوه للسيارة ، وأصل ذلك في سفر التكوين (تك ٣٧ : ٢٨) وليس من مصدر آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم ، ولا يوجد حديث صحيح في هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها .

والقول الثاني يتبين من ظاهر الآية :

أ ـ إن الضمير في « شروه » عائد على السيارة ، لأنها أقرب مذكور ، وإنما أعاد الضمير عليها مذكراً ، لأنها بمعنى الجمع أو القفل أو الرجال المسافرون ، ومما يؤيد رجوع ضمير « شروه » للسيارة ، رجوع الضمائر قبله إليها في قوله « فأرسلوا » وقوله « وأسرّوه » فعود الضمائر مرة على السيارة ، ومرة على الإخوة ، يوجب تعقيداً في التركيب ، وبالنتيجة يجب المشي مع الظاهر ، وإهمال هذه الرواية عن ابن عباس ، والله أعلم .

ب ـ إن الله تعالى يقول (شروه ، واشتروه) ، فإذن الصفقة واحدة لا ثاني لها .

ج ـ إن الله تعالى علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطاً تبعاً لتوراة اليهود ، فيقولون إن الذين شروه هم إخوته : شروه للسيارة ، وبالطبع اشترته منهم السيارة وكانت صفقة هذه المقايضة في فلسطين ، فلأجل دفع أو رفع هذا التوهم ، أقحم الله تعالى لفظ (من مصر) ، ليدلنا على أن الحادثة واحدة ، لم يُشْرَ ولم يُشْتَرَ إلا مرة

واحدة ، فالشارون هم جماعة السيارة ، والمشتري هو عزيز مصر ، والحادثة لم تكن في فلسطين بل في الديار المصرية ، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة ، بل تعين ، ما فهمنا (والحمد لله) وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون ، وإن عزوه لابن عباس .

الثمن البخس وماهو وكم هو

٣ ـ ومعنى « ثمن بخس » أي ثمن نزر ، تافه ، مألوت ناقص ، وإنما قنعوا بالثمن البخس لأنهم لم يدفعوا في مشتراه فلساً واحداً :

ومن أخذ البلاد بغير حرب　　　يهون عليـــه تسليم البلاد

ولخوفهم من هروبه وتملّصه منهم ، ولكونهم لا يعرفون قدره ومنزلته ولا ابن من هو ، فكانوا كالرجل الجاهل الذي سرق ياقوتة ، وكان لا يعرف ما هي ، وكان خائفاً من أصحابها ، فباعهــــا بخرزة لا تساوي إلا دراهم يسيرة ، مع أن الياقوتة ثمينة ، لو وقعت في يد عارف بها لأصاب بثمنها غنى الدهر .

٤ ـ ما هو هذا الثمن البخس وكم هو ؟ كان « دراهم معدودة » ويعلم أنهـا كانت أقلّ من أربعين ، وذلك لأن الناس في ذلك الزمن كانوا يتبايعون بالأواقي ، وكانت الوقية أربعين درهماً ، فما قصر عن الوقية فهو بالعدد .

أو يقال « معدودة » كناية عن كونها قليلة ، ومن التعبير عن القلة بالعـــدد الدعوة المأثورة على المشركين « اللهم أحصهم عدداً » فالمدعوّ به وإن كان إحصاؤهم عداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مراداً ، لأن الله تعالى أحصَى كلّ شيء عدداً ، وأحاط به علماً ، فلا بد من مقصود وراء ذلك ، وذلك المقصود هـــو لازم العدد وهو القلة ، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود ، دعا عليهم

بالقلة معبراً عنها بلازمها وهو الإحصاء، هذا ما قاله العلماء، وقرره أحمد الاسكندري في حواشيه على الكشاف ، وهو جيد ، ولنا في ذلك وجه آخر ، وهو أن هذه الدراهم كانت مقصوصة الأطراف ، لأنهم كانوا قديماً (كما هو اليوم) يتعاملون بالدراهم عداً لا وزناً ، فكان يوجد مجال كبير لقليلي الأمانة (وكثير ما هم) أن يأخذوا من أطراف الدراهم ، كما أن أهل عصرنا الحاضر « يسحبون » الدنانير، والناس عند ذلك يحرصون على المعاملة بالعد دون الوزن ، لأنه أربح لهم ، فيكون المعنى الذي يرمي إليه اللفظ ، انه ياليت أن هذه الدراهم التي بيع بها يوسف ، كانت صحيحة سليمة من النقصان حتى توزن وزناً ، بل كان يغلب عليها النقصان ، ولهذا عُدّت عداً .

وقد كانت هذه الدراهم عشرين درهماً من الفضة ، وكان الدرهم يساوي إذ ذاك (١٧) غرشاً ، فكانت قيمة ذلك نحو (٣٤٠) غرشاً ، وهي قيمة بخسة زهيدة جداً بالنسبة لأثمان العبيد والجواري الذين كانوا يباعون ويشترون بقيم تبلغ أضعاف أضعاف قيمة يوسف ، سواء في تلك العصور أو فيما بعدها ، ولو أردنا سرد أثمان العبيد والجواري في عهد الدولة العباسية والأموية لطال بنا الشرح والبيان ، وقد كانت الفضة في تلك الأيام أثمن منها اليوم ، ومع قلة هذه القيمة ، فبائعوا يوسف رأوا أنهم بهذا البيع وهذا الثمن فازوا بصفقة رابحة ، فواضيعتاه ! يا يوسف !

(وشروه بثمن بخس ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ محمد أحمد علماء أم درمان (السودان) :

الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام

قضي على البشر أن يستعبد بعضهم بعضاً من قديم الزمان ، فلم تخل أمة من

الاسترقاق ، حتى في شريعة موسى عليه السلام ، وليس هذا فقط ، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضاً للتجارة،فكانوا متى التقطوا شخصاً غريباً استأسروه واسترقوه، وقد عومل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة،تنفطر منها الانسانية،وهكذا قضت المسيحية البولصية ، بابقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل ، إذ لم يرد في المسيحية كلمة واحدة عن تحرير الرقيق ، إنما الذي ورد فيها ، هو أمر الأرقاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة ، كما يطيعون المسيح عليه السلام (أف ٦ : ٥) وأن يبالغوا بحسن القيام بخدمة ساداتهم ، تمجيداً لتعاليم المسيح ، كما يقوله القديس بولص في (كو ٣ : ٢٢) وفي (تي ٢ : ٩) وقد وافق على ذلك القديس بطرس الحواري، حيث أوصى العبيد بأن يخضعوا لساداتهم ويخشوهم (ابط ٢ : ١٨) وهكذا بقي هذا الحال ، إلى أيام الإسلام ، فلما أتى الإسلام ، رق لحال الأرقاء ، كما كان شأنه لجميع الضعفاء ، فمنع الاسترقاق بتاتاً ، إلا أن يكون في حرب شرعية ، مع قوم من غير المسلمين ، لم يؤمن أذاهم ، أعني انه إنما أباح الأسر في الحرب الدينية فقط ، وعـــذر الإسلام في ذلك ، أنه قد وجد النوع الإنساني ، قد تأصلت فيه عادة الأسر ، فأباح أسر الأجانب فقط ، في مقابلة أنهم يأسرون أهل الإسلام ، إذ لو حرم أسرهم على المسلمين ، لا نقرض المسلمون جميعاً ، إذ كانوا في الحرب يأسرهم غيرهم إذا غلبهم ، وهم إذا غَلَبوا لا يأسرون أحداً ، وفي ذلك شر عظيم على أهل الإسلام ، وهلاك مبيد ، فلهذا أباح أخذ الأسرى ، وبهذه القاعدة ، سدّ تفشي الاسترقاق وانتشاره ، وغلق أبواب الظلم والعدوان ، ثم أمر بالإحسان إلى الأرقاء ، وبمعاملتهم بالرفق واللين ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وبالوالِدَيْنِ إحساناً ، وبِذِي القُربَى ـ إلى أن يقول ـ وما مَلَكَتْ أيْمانُكم ﴾ (٤ : ٣٥) ورغّب في العتق ، وجعل بين المعتِق والعتيق وَلاءً ومودة ، وإن شئتم اقرأوا قوله تعالى ، ﴿فلااقتَحَمَ العَقَبَةَ ؟وما أدْراكَ

ما العَقَبَةُ ! فكُّ رَقَبَةٍ ، أوْ إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَةٍ ، يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ، ثم كانَ مِنَ الذين آمنوا ، وتواصَوْا بالصبر وتواصَوْا بالمَرْحَمَةِ ، أولئك أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ (٩٠ : ١١ - ١٨) فالله تعالى ، أول ما قال في هذه الآية « فك رقبة » ، إذن فك الرقبة ، أهم ما تقتحم به العقبة ، وذكر بعدها الإيمان ، مع الصبر والمرحمة. ونهى الإسلامُ عن لطم المملوك وضربه وجعل كفارة ذلك عتقه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : «من لَطَمَ مملوكَهُ أو ضَرَبَه ، فكفارَتُهُ عِتْقُه » ، وليس هذا فقط ، بل قال : « إخوانُكم خَولُكُم ، جعلهم اللهُ تحتَ أيديكم ، فمن كان أخوهُ تحتَ يدِهِ ، فليُطعِمْهُ مما يأكلُ ، وليُلْبِسْهُ مما يلبسُ ، ولا تكلفوهم ما يَغْلِبُهم، فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » ، بل قال : « لا يَقُلْ أحدكم : عبدي ، أمتي - وليقل : فتايَ ، وفتاتي وغلامي » وحث على تهذيبهم وتعليمهم ، في مثل قوله : « مَنْ كانت له جاريةٌ ، فعَلَّمَها وأحسَنَ إليها وتَزَوجَها ، كان له أجران » ، هذا وقد أمر الله تعالى بتزويجهم فقال : ﴿ وانْكِحُوا الأيامى منكم ، والصالحينَ مِنْ عِبادِكم وإمائِكم ، إنْ يكونوا فقراءَ : يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ ﴾ (٢٤ : ٣٢) ، ثم إذا افترش السيد أمته ، فولدت له ، كان الأولاد أحراراً ، ويرثون من أبيهم ، وهي تعتق بذلك ، إلى غير ذلك ، من القواعد العادلة ، التي لم تأت بها شريعة قط وليس هذا هو كل ما جعله الإسلام ، مساعدة لأولئك الضعفاء ، بل جعل تحرير الرقاب ، كفارة لكثير مما يقع من الإنسان ، مخالفاً للدين ، حتى في أبسط المسائل كالحنث في الأيمان : ﴿ لا يُؤاخِذُكُم اللهُ باللَّغْوِ في أيْمانِكم ، ولكنْ يُؤاخِذُكم بما عقَّدتُم الأيمانَ ، فكَفَّارَتُهُ - إلى أن قال - أو تحريرُ رَقَبَةٍ ﴾ (٢ : ٢٢٥) ، وليس هذا فقط ، بل أمر بجمع الأموال - الزكاة - من الأغنياء وصرف جزء منها في تحرير الرقاب : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ - إلى

قوله ـ وفي الرّقابِ ﴾ (٩ : ٦١) وكرر حث ذوي اليسار ، على ذلك ، المرة بعد المرة : ﴿ ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، ولكنّ البرّ مَنْ آمنَ بِاللهِ ـ إلى أن قال : ـ وآتَى المالَ على حُبِّهِ ، ذَوي القُرْبى ـ إلى أن قال : ـ وفي الرّقابِ ﴾ (٢ : ١٧٧) إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، فإذن نسأل أهل الإنصاف ونقول : أليس ما أتى به القرآن والدين الإسلامي منذ قرون ، هو ما تفتخر به المدنية الحديثة وتتيه به إعجاباً ؟!

استفادة الرقيق عند المسلمين

لقد جاء في كتاب للأستاذ الكريم الشيخ عبدالقادر المغربي قوله : ليس الغرض من الاسترقاق عندنا ، مجرد استغلال الأرقاء والانتفاع بخدمتهم ، كما ينتفع بالدابة ، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه ، ونفع البشرية ، بنشر تعاليم الإسلام بين أبنائها ، فإننا نأخذ الأرقاء في الحرب أسرى وندخلهم في بيوتنا ، ونمزجهم بعائلاتنا ، كي يتخلقوا بأخلاقنا ؛ فيدخلوا أخيراً في ديننا ، ويكثر بهم سواد أمتنا ، وربما كان ثلث المسلمين اليوم ، هم من سلالة أولئك الآباء ، الذين دخلوا في الإسلام من طريق الرق ، فالرق في نظر العالم المسلم الاجتماعي ، ضرب من ضروب الاستعمار ، أو ما يسميه ساسة هذا العصر (التجنس بالتبعية) .

استرقاق الشعوب في اوربا وامريكا

وجاء في كتاب لأمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان مانصه :

وإذا قيل إن الرق قد وجد في الإسلام ، فالجواب إنه لم يوجد فضيلة حث عليها الإسلام بصريح القرآن ، ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق ، على أن النصرانية لم تنكر الرق ، كما ظهر من كلام بولس الرسول .

وإن كانوا في أوربا قد اتفقوا مؤخراً على إلغاء الرق فلا يجوز أن ننسى أن الشعب الروسي إلى زمان الامبراطور بولس كان رقيقاً لأمرائه ، وأن النبيل إذا باع قرية يملكها ، يبيعها مع الأهالي الذين فيهـا ، لا يملكون لأنفسهم أمراً ، بل حكمهم كان حكم الحيوانات التي في القرية ؟ هذا كان شأن الأمة الروسية ، منـذ ١٥٠ سنه لا زيادة ، ولا يجوز أن ننسى أن الفرنسيين بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا ، استعبدوا البقيـــة التي بقيت من المسلمين واغتصبوا أملاكهم ، واستعملوهم خولاً وخدماً مدة طويلة ، حتى اندمجوا في غمار الأمة الفرنسية وتنوسيت أصولهم ، ولا يجوز أن تنسى أن الحرب قامت في أميركا من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٦٦ م من أجل تحرير العبيد ، وأن الاميركيين سكان جنوبي الولايات المتحدة ، حاربوا سكان شماليها مـــدة سنوات عديدة من أجل إصرارهم على استعباد السود ».

حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع

وأما حكم الاسترقاق الذي كان شائعاً في العصور السابقة فهو غير شرعي ، سواء ما كان منه في بلاد السود، وما كان منه في بلاد البيض، كبنات الجراكسة اللواتي كن يبعن في الأستانة جهراً من عصر قديم إلى ما قبل الدستور العثماني ، وكلهن حرائر من بنات المسلمين الأحرار ، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نـكاح ، وذلك من أعظم المنكرات ، حتى لو سألت عن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرّم إجماعاً وربما قال لك : (وإن مستحل ذلك يكفر ، لأنه لا يعـذر بالجهل) وعلل ذلك بما يعللون بـه مثله ، وهو أنه مجمـع عليـه ، معلوم في الدين علماً يشبه الضروري .

وكما كان يوجد هذا في الاستانة ، فهو قد كان يوجد في الحجاز أيضاً ، أعني انه كما كان يوجد في عاصمة الإسلام المدنية ، فكذا كان يوجد في عاصمة الإسلام الدينية ، والمسؤول عن هذه الفَعْلة الشنعاء والغلطة القبيحة هم العلماء والأمراء الذين كانوا معاصرين إذ ذاك . والحق إن الاسترقاق يحتوي على مفاسد كثيرة ، وإنه مناف لمحاسن الإسلام وحكمته العالية ، ولكنه قد كان مما عمت به البلوى بين الأمم ، فلذلك لم يمنعه الإسلام منعاً باتاً ، ولكنه خفف مصائبه ، ومهد السبيل لمنعه ، حتى إذا جاء وقت تقتضي فيه المصلحة العامة مَنْعَه ، مع عدم وجود مفسدة تعارض المنع وتَرجّح عليه ، كان لأولي الأمر مَنْعُه ، فإن المصلحة أصل في الأحكام السياسية والمدنية ، يُرجع إليه في غير تحليل المحرمات ، أو إبطال الواجبات .

زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه

زعم دعاة المسيحية ، بأن ما قام به الأوربيون في الزمن الأخير ،من « تحرير الرقيق » ، هو من آثار دينهم فيهم ، ولكن الحقيقة إن ذلك نتيجة الاشارات الرمزية ، التي وردت في القرآن ، وشجرة مكبرة ناجمة عن النواة التي غرسها القرآن ، في حقل حياة الإسلام، وإلا فلماذا قضوا القرون العديدة ، في استعباد الناس ، على أشنع الأحوال ؟! وقد علمتَ فيما مرَّ ، أقوال رؤساء النصرانية في حق الأرقاء ، وأين هي من أقوال القرآن والأحاديث ؟ وأين هذا من ذاك ؟ ولِمَ لمْ يهتم الدين المسيحي بشأن العبيد ، ويعطف عليهم ، كما عطف عليهم الإسلام ؟ لِمَ لمْ يأمر باستعمال الرفق بهم واللين معهم ولو بجملة واحدة ؟

سيقولون : إنه لم يأت ليسن شرائع ، أو ينسخ ما كان موجوداً منها ــ ونقول

في تفنيد جوابهم : لِمَ حَرَّمَ الطلاقَ والتزوجَ بالمطلقة والتعـــدد في الزوجات ؟ أما كان يمكنه أن ينهى الناس من استعمال القسوة على الأقل مع أولئك الضعفاء ؟

هذا ، والحق يقال إن ما أتى به الاسلام في شأن الرقيق لم يأت بمثله دين على وجه البسيطة ، وإن « تحرير الرقيق » الذي اتفق عليه ملوك أوربا ، كان الإسلام قرره قبلهم ، لأن الرقيق الموجود اليوم ، ليس هو مضروباً عليه الرق ، في حرب دينية ، حتى يوافق عليه الاسلام ، بل هو من قبيل الاختطاف ، كما وقع مـــع يوسف عليه السلام ، وهذا النوع لا يقول به الإسلام ، ولو كان المسلمون في درجة الأوربيين مدنية وعلماً وقوة ، لـكانوا أولى من ملوك أوربا ، في إظهار ما يعتقدون ، من تحريره ، ولأنه في عقيدتهم ، ليس رقيقاً شرعياً ، ولكن هكذا قضي أن يكون المسلمون حجة على دينهم .

وما أن نزل الشيخ محمد عن منبر الخطابة حتى تعالت الهتافات والتكبيرات في المؤتمر استحساناً لما قال .

الفصل الثالث

وصية عزيز مصر لامرأته بيوسف

آ(٢١) : ﴿ وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ ! «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ،عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً»، وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيوسُفَ في الأَرضِ ، ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأويلِ الأَحاديثِ ... واللهُ غالبٌ على أمْرِهِ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والعشرون فقام أمين الدين الجرشي [١] وقال :

(وقال الذي اشتراه من مصر) المسمى « فوطيفار » ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، في عهد الريان بن الوليد العمليقي الهكسوسي ، قال (لامرأته) « زليخا » بلسان الالتماس (أكرمي مثواه) اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله :« إن ربي أحسن مثواي » والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنـــة في كنفنا ، (عسى أن ينفعنا) إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته ، (أو نتخذه ولداً) نتبناه ونقيمه

(١) نسبة إلى جرش من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

مقام الولد ، لأنه قيل إن فوطيفار كان عقيماً لا يولد له ، وقد تفرس في يوسف الرشد فقال ذلك . (وكذلك) الذي تقدم من إنجائـه وعطف قلب العزيز عليه — والكاف في كذلك منصوب تقديره : ومثلَ ذلك الإنجاء والعطف — (مكنا ليوسف في الأرض) أي كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ، مكنا له في أرض مصر ، تمكيناً يليق بصلاحيته ما دام عند فوطيفار ، أي تمكيناً مقيداً بالتصرف في ممتلكات فوطيفار وأطيانه وعقاراته ، لأن يوسف صار وكيلاً مفوضاً عن فوطيفار في كل ماله ، أي وكيل دخل وخرج ، يتصرف في ذلك بأمره ونهيه ، فكان فوطيفار لا يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكله ، كان ذلك افوائد كثيرة تعود بالخير على يوسف (ولنعلمه) بإقامته ومكثه بمصر (من تأويل) أي مرامي ونتائج(الأحاديث) عموماً ، لأن مصر هي دار العلم والاستبصار بحيث من أقام بها ترقى واستنار قلبه ، وحصل ما لم يحصله في مثل فلسطين (والله غالب على أمره) على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي ، أو غالب على أمر يوسف ، يدبره ولا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الأمر كله بيد الله .

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ١ —

وقام الشيخ الرَّمتي [1] وقال :

دخول بالقارىء الى المملكة المصرية الهكسوسية

فوطيفار عزيز مصر

ينقسم تاريخ يوسف في غربته إلى قسمين : الأول تاريخ عبوديته ، والثاني

(١) نسبة الى الرمتة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

تاريخ حكمه على كل مصر . ونشرع الآن في القسم الأول :

أنزل يوسف إلى مصر فاشتراه « فوطيفار » بواسطة بعض بطانته ، وكان من رجال البلاط .

و « فوطيفار » هذا هو رئيس شرطة مملكة مصر ، وكان بالنسبة للملك كوزير الدولة ، أو كنائب الملك ، وكان يلقب بـ « عزيز مصر » (آ ٣٠) وهذا الاسم يدل على أن الرجل من المصريين الوطنيين الأصليين لأنه مركب من كلمتين قبطيتين بتغيير قليل ، والأصل (فوطي فارع) أي « مختص بالشمس » أو « موقوف للشمس » والشمس هي من معبودات المصريين ، ومع ذلك فقد نصّ قدماء المؤرخين على أنه كان مصرياً أي قبطياً ، لأنهما لفظان مترادفان ، والفلاحون ينطقون بهذه اللفظة بأصح مما نكتبها ، إذ يقولون « جبطي » أي (إيجبتي) أو مصري ، ومن هذا الاسم اشتق الإفرنج كلمة (إيجبت) وهي لفظة يونانية في الأصل ، وعلى ذلك فقوله تعالى « من مصر » يظهر أنه نعت « للذي » أو حال منه ، وهو الأرجح ، لأن الجمل وما شابهها بعد المعارف أحوال .

ومن ألقاب هذا الرجل أيضاً « خصيّ الملك » ولفظة خصيّ تدل على وظيفة لا على حالة شخصية ، لأنه كان متزوجاً ويبعد في الخصي الحقيقي أن يتزوج ، وإنما هذا اللفظ يطلق على من يكون رئيساً في البلاط وناظراً للحرم ، لأن الذين كانوا يستخدمون لذلك جرت العادة أن يكونوا خصياناً حقيقة ، وقد كان عزيز مصر ناظراً للحرم أيضاً ، ومما لا يجب أن ننساه أن اصطلاح حكومة مصر قديماً تسمية جميع المأمورين فيها « عبيداً » لفرعون ، مع أنهم أحرار ، وكذا « خصياناً » مع أنهم ليسوا مجبوبين ، فكما أن تسميتهم « عبيداً » لا تنفي أنهم أحرار ، فكذا تسميتهم « خصياناً » لا تنفي أنهم كاملوا الخلقة فأفهموا ...

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ٢ —

وقال الحافظ الترمانيني [١] :

حياة يوسف المادية

كان فوطيفار قد عرف بوجه الإجمال أن هـــذا العبد عبراني ، من نزلاء فلسطين ، ولكن لم يعرف ابن من هو ؟ ولا السلالة التي ينتسب اليها ، وأيضاً هو لم يسأله عن ذلك ، لأن هذا الأمر لايهمه كثيراً ، لأن العبرانيين كانوا في فلسطين جماعة غرباء نزلاء ، وهم على دين التوحيد ، الذي يغاير دين الوثنيـة الذي كان إذ ذاك دين أهل مصر ، وأيضاً فقد كان يوسف في ذلكم الحـين صغيراً ، وإذاً فلا مناسبة بين يوسف وبين فوطيفار لا في الوطنية ولا في العنصر ، ولا في الدين ولا في السن ، ولا في الجاه ولا في المركز الاجتماعي ، فلهذه العلل ونحوهـا لم يعتنِ فوطيفار في التعمق والبحث عن حاله .

فلما اشتراه أدخله على عقيلته وكان اسمها « زليخا » على المشهور، أو «راعيل» على ماقيل ، وكان والدها من أولاد ملوك القبط — قال لها فوطيفار : « يا أمةالله» لقد عثرنا على ضالتنا المنشودة ، إذ اشترينا هذا الغلام العـــبراني الوديع الحديث السن ، وإني أقترح عليك شيئاً ، لي ولك فيه فائدة ، أكرمي مثواه ، واجعـلي له امتيازاً خاصاً فوق ما لسائر العبيد الذين في خدمتنا ، وليكن عنـدك ضمن البيت تحت جناحك مرفهاً مسروراً ، ولا تحرجيه ، عسى أن ينفعنا غداً ، وإن غداً لناظره قريب ، أو نتخذه ولداً في مقتبل الأيام ، فهاهو عمره نحو (١٧) سنة ،

(١) نسبة الى بلدة ترمانين من البلاد السورية .

وعما قريب ينتظم في سلك الشبَبَة فيصلح لتعضيدنا، فاعطفي وتحدبي عليه ،وعامليه بالدماثة والبشاشة » .

وإنما قال لها ذلـكم ، لأنها هي صاحبة الحول والطول في البيت ، وهي الآمرة الناهية ، وقد قالوا : إن عقيلة الرجل في البيت تعتبر كناظر داخلية ، ضمن دائرة الآداب والاخلاق الشرعية ، كما يعتبر هو كناظر خارجية بالنسبة لأشغالهالبرانية، وعلى هـذا الوجه — من تقسيم الاعمـال — تم الفائدة ، وتستتب الراحـة للزوجين معاً .

لذلك هو يقول لها : « انفعيه اليوم ينفعنا غداً ، لاتمني عنه شيئاً من نوالك ، بل اجعلي له في البيت المقام الأول بين عبيدنا ، وهيئيه وأهليه للقيام بمصالحنا في المستقبل ، وأدبيه وأرشديه ، لما يكفل له النبوغ والثقافة، نعم نحن فزنا باشترائه ، ولا سيما بذلك الثمن الذي لايذكر ولا يساوي حذاء نعله ، لكن الفوز الأكبر إنما يكون بتثقيفه وتأديبه وتأهيله أن يكون عضواً عامـلاً معنا ، وساعداً قوياً لنا في المستقبل ، فهذا هو الذي يضمن لنا الفوز بكل معنى الكلمة » .

وأما هي فقالت في نفسها : (نِعِمَّا فعل ، وحبذا ما قال) لأنهالما رأتيوسف أحبته حباً لامزيد عليه لِما رأت فيه من جمال الخلق والنفس . فهذه الآية تفيد أن عزيز مصر ُعني به ، وقدم له كل مايلزم للصغير جسدياً وأدبياً ، حتى وصل لسن الرشد ، وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (آ ٢٢) يفيد أن يوسف حينما بلغ مبلغ الرجال ، أرشده الله ووفقه لكل مافيه نموه روحياً، فمرمى مجموع الكلام أن الأرض والسماء ُعنيتا بيوسف ، عنيت الأرض بكفالته وتربيته وتثقيفه ونموه ، مادياً وأدبياً ، وهذه هي المدرسة الابتدائية التي تعلم فيهـا التعاليم الابتدائية منذ ما كان عمره (١٧) سنة الى أن بلغ أشده ، ولما بلغ أشده ُعنيت السماء بإرشاده وتوفيقه وتعليمه الحكمة والعلم ونموه روحيـاً ، وهذه هي

المدرسة الثانوية ، التي تعلم فيها العلوم العاليـة ، وأما مدرسته عند أبيه ، فكانت عبارة عن « بستان أطفال » .

مصر أيام يوسف

وأما مصر أيام يوسف ، فهي مدينة « صَوعَنْ » ويقال لها « تانيس » ، وهي التي كانت عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلائل الهكسوس الثلاث ، وهي في بحرية مصر الحالية ، ويسميها اليونان « طانس » وتسمى اليوم « صان » وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقيها سهل متسع يسمى بلاد « صوعن » وهذا السهل هو البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » التي سكنها بنو اسرائيل ، (فصوعن) هي عاصمة مصر السفلى ، أيام الرعاة ، وبسط المقام إن كلمة « مصر » بحسب الأصل عبارة عن وادي النيل ، وقد تطلق هذه الكلمة ويراد بها خصوص العاصمة ، وعاصمة مصر السفلى في ذلكم العصر عصر الهكسوس كانت (صوعن) فإذا أريد من كلمة « مصر » في هذه الآية خصوص تلك العاصمة ، كان اللفظ مجازاً ، من قبيل تسمية الجزء باسم الكل ، وهذا كما يطلقون اليوم كلمة « مصر » على خصوص « القاهرة » عاصمة مصر اليوم ، وكلمة « الشام » على « دمشق » عاصمة الشام اليوم .

ومما يجب أن يعلم أن « مصر القاهرة » إنما بنيت ووجدت أيام « معز الدين الفاطمي » (سنة ٣٥٠ ب. ه) بيد جوهر الرومي القائد.

(حسن جداً)

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

- ٣ -

وقال السيد الكلسي (١) :

شيء جديد عن حياة يوسف

انتقل يوسف الآن إلى طور آخر من أطوار الحياة ، ولم يعد ذلك الإنسان المهين المثوى ، ذلك الانسان الجالس في « سوق الرقيق » ذلك الانسان المزهود فيه . لا .. لا .. بل صار ذلك الانسان الكريم المثوى ، ذلك الانسان المقيم في قصر « العزيز » مرغوباً فيه ، محبباً مرجوّاً .

وبهذه المناسبة يخالج نفسي بضع مقولات لها علاقة بهذا البحث أرجو أن تلقى أذناً صاغية من حضراتكم :

مصر مهبط الأنبياء والأولياء

المقولة الأولى — بمناسبة رحلة يوسف الصديق الى مصر نقول إن مصر كانت مهبط الأنبياء والأولياء من القرون الأولى ، اليها قدم إبراهيم الخليل وزوجه سارة في فجر التاريخ ، وفيها بلغ يوسف شأوه الأعلى وتولى خزائن البلاد ، وإليها هاجر أبوه يعقوب ومعه أسرته جميعاً ، وفيها تكاثر بنو اسرائيل ، وفيها ولد هرون وموسى ، وإليها قدم المسيح في طفولته مع أمه ورجلها يوسف النجار — فيما يقولون — وفيها مراقد آل البيت النبوي الشريف — حسب المشهور —

(١) نسبة الى كلس وهي اليوم في بلاد الاتراك .

وفيها أثر النبي موسى في كنيس الاسرائيليين بمصر القديمة ، فان الاسرائيليين يعتقدون أن النبي موسى أدى فرائض الصلاة في هذا المكان ، وفيها الامام الليث ابن سعد ، والامام محمد بن إدريس الشافعي ، فأرضها غنية بتلك الذكريات الدينية والآثار المقدسة .

منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين

المقولة الثانية — يظهر من الآية الكريمة أن المصريين في ذلك العصر — وهم شرقيون — كانوا يحترمون (المرأة) ، ويعتبرون أنها ذات الحول والطول ومصدر العمل البيتي ، وأنها ليست في بيتها متاعاً لا قيمة له، ولا أنها في البيت (أداة) غير عاملة ، ولا أنها فيه تحت رحمة زوجها ، مسلوبة الحرية والإرادة ، بل إنها كانت عاملة آمرة ، ذات سلطان ، ولها قيمة معترف بها ، نعم . نعم . لقد كان للمرأة عند المصريين القدماء مقام ممتاز ، فكانت تعقد العقود ، وتقوم بالأعمال التجارية ، وتنهمك في الأمور السياسية ، ويقول بعض العلماء: « إن الله عندما أراد أن يخلق حواء من آدم ، لم يخلقها من عظم رجله ، لئلا يدوسها ، ولا من عظم رأسه ، لئلا تسود عليه ، ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه ، لتكون مساوية له ، قريبة من قلبه » ، وقال آخر : « المرأة حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية ، وهي أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل المدرّب ، ومن مدير الأعمال العظيمة ، ومن الاستاذ في العلوم والفنون » وقال ثالث : « المال كله من الرجل ، ولكن كله للمرأة » .

وغني عن البيان أن فوطيفار شرقي ؛ وقد لفظ بالوصاة الآنفة الذكر إلى قرينته زليخا ، التي تشف عن اعتبار (المرأة) ، ومن هنا نعلم أن الغربيين يظلمون الشرقيين في زعمهم أن الشرقي كان ولايزال ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فإننا نرى هذه الآية تفيد عكس ما يزعمون ، فهي تشير إلى أن (الشرقي)

كان يحترم المرأة ويراعي عواطفها ، وربما أكثر من الغربي، فالغربي ، اليوم مهما بلغ من احترام المرأة ، ومهما حرص على مراعاة إحساساتها، لا تراه يتنازل لدرجة أنه إذا استأجر خادمة مثلاً يقول لامرأته : « أكرمي مثواها » ولو فرض أنه تنازل وقال لها ذلك ، فهو يقوله قولاً جامداً جافاً خالياً من بيان العلة ، ولا يرى نفسه في حاجة أن يذكر لزوجته علة إكرام تلك الخادمة ، كما فعل هذا الشرقي فوطيفار .

منزلة المرأة عند العرب

وهكذا كانت معاملة أكثر العرب للمرأة ، إذ أن من أسمائها عندهم (أم المثوى) ، وفي الحديث الشريف : « المرأة سيدة بيتها » و « رفقاً بالقوارير » يعني النساء « والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها » ، وإنّا إذا أردنا أن نستقي معاملة رجال العرب لنسائهم ، وجب علينا مراجعة أشعارهم التي هي ديوان أخبارهم ، فنرى أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظر احترام ، فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بما لَهُ في نظر العرب من المقام السامي ،ومن الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلاّ (المرأة) التي إذ ترقّ في نظرها، فقد رضي عنه كل الناس ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام ، وعنترة العبسي شيخ الشجعان، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر إلاّ محدّثا امرأة من قومه بأنه المدافع عن الشرف ، الحامي للحقيقة ؟ ترى العربي إذا عذلته المرأة على السرف ، وأشارت عليه بالقصد ، يجيبها بأرق ما يجيب به مخالف في الرأي فيقول :

ألم تعلمي -ياعمّرك الله- أنني كريم على حين الكرام قليلُ

ويقول المفتخر بالشجاعة :

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنة مالك إنْ كنتِ جاهلة بما لم تعلمي ؟

أوَ لا ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بها يفتخرون بمحامد قومهم ، وعظيم اعمالهم ، لا يـــذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا (المرأة) قسطها مما تحب من النسيب أو الغزل ، ويرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة . وتراهم حينما يخاطبونها . وهي ذات زوج يلقبونهـا بخير الألقاب ، فيقول أحدهم :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا!

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة .

ويقول الآخر لزوجه :

سَلي الطارق المعتر ـ ياأمّ مالك ـ إذاما أتاني بين قدرى ومجزري

أيسفر وجهي وهو أول للقِرى وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها إلا بكنيتها ، وهذا من سمات التشريف في عرفهم .

وقال ابن المغيث :

لا تعذليني فيما ليسَ ينفعُني إليكِ عني جرى المقدار بالقلم

سأتلف المالَ في عُسْر وفي يُسْر إن الجواد الذي يعطى على العدم

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة بل بالعكس يجد فيها علائم التجلة والتشريف وتراهم يفخرون بنسبتهم الى أمهاتهم، كما يفخرون بنسبتهم إلى آبائهم ، وترى الواحد منهم يتكنى بأول مولود يرزقه ، لا يفرق بين ذكر وأنثى ، وقد عرفنا كثيراً في عرب « بئر السبع » ممن يتكنى باسم بنته ، فيقال له « أبو زينب » ، ويقال لآخر « أبو مبروكة »، وكانت المرأة عند

العرب ، إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمّعت ، وإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت ، وإن كانت وجهتها إرادة الانتقام والشر ، أشعلت النار بين الأحياء .

وإليكم هذه الحكاية التاريخية التي هي عجيبة في بابها ، وعجيبة جداً :

قال «الحارث بن عوف المُرّي»، «لخارجة بن سنان»في إبان الحرب بين عَبْس وذبيان : « أتراني أخطب إلى أحد فيردني ؟ ـ قال : نعم ، « أوْسُ بن حارثة الطائي»ـ فقال الحارث لغلامه: هيء لي مركباً،ثم ركب هو وغلام،ومعها «خارجة»حتى أتيا « أوساً » ، فوجداه في داره ، فلما رآى (الحارثَ) رحب به ، وسأله عن مجيئه، فقال : جئتك خاطباً — فقال « أوس » : لستَ هناك ، فانصرف الحارث ولم يكلمه ، ثم دخل أوس على امرأته مُغضَباً ، وكانت من « عبس » ، فقالت له : من الرجل الذي وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ؟ — قال : ذاك سيد العرب «ابن عوف » — قالت فما لكَ لم تستنزله ؟ — قال : إنه استحمق، جاءني خاطباً — قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ — قال : نعم — قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ — قال : هكذا كان ، — قالت : « فتدارك ما كان منك ، فالحقه وقل له : إنك لقيتني ، وأنا مُغضَب ، وكلتني بأمر لم تجمل له بساطاً قبل ذلك ، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما قد سمعت ، فارجع إليّ ، ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيوافيك » ففعل ذلك « أوس » ، وردّ « الحارث » ، فلما وصلوا إلى بيت أوس ، قال أوس لزوجه ، ادعي لي فلانة ، لكبرى بناته ، فأتته ، فقال : يابنية ، هذا « الحارث بن عوف » ، سيد من سادات العرب ، وقد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه ، — فقالت : لاتفعل ، لأني امرأة في وجهي ردة [١] ، وفي خلقي بعض العُهدة [٢] ، ولست بابنة عمه ، فيرعى رحمي ، وليس

(١) الردة بثور فيها قيح (٢) العهدة ضعف في العقل .

بجارك في البلد ، فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما فيه . — قال : قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ماتعلم ، ثم دعى الثالثة ، وهي صغراهن ، فلما عرض عليها قالت : « أنت وذاك » ، فأخبرها بإباء أختيها ، فقالت : « لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير » ، فزوجها الحارثَ ، وهيئت إليه في بيت أبيها . فلما خلا بها ، وأراد أن يمد يده إليها ، قالت : « مـــه » أعند أبي وإخوتي ؟ هذا والله مالا يكون ؛ فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق ، أراد قربانها ، فقالت : أكما يفعل بالأمة الجليبة ، أو السّبيّة الأخيذة ؟ . . لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه ، أعدّ لها ما يعد لمثلها ، فلما أرادقربانها قالت له : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها ؟ اخرج الى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك ، فلن يفوتك ؛ فخرج « الحارث » مع « خارجة بن سنان » ، فأصلحا بين القوم ، وحملا الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير ، مقسطة على ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة (المرأة) في نظرهم ، ومشاركتها لهم في جميع أمورهم ، وتبين كيف كان الرجل لا يزوج بناته ، إلا بعد أن يستشيرهن ، ثم يقف عند إرادتهن ، نعم ، نحن لا يمكننا أن ندعي أن هذا كان أمراً عاماً عندهم ، بحيث تكون (المرأة) محترمة الجانب في جميع الطبقات ، تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة ، ولكن الذي يمكننا أن نقوله : هو إن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان حال الأمة من غير أن يقابلوا بالنكير ، يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل ، بل كان شيئاً معهوداً لا تنفر منه طباعهم .

يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ، ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يوماً ما ، فيكتب في إحدى الجرائد : قلت لامرأتي ، واستشرت امرأتي في زواج بنتي ، فكان مني ومنها كيت وكيت ، ولا يجسر أحد أن يقول على صفحات الجرائد : لا تلوميني يا امرأتي على بذلي الأموال لأني طبعت على الكرم ، أو يقول : قومي ياسيدة بيتي مرجوة غير مأمورة ، هيئي لنا الطعام مثلاً — كما وقع كل هـــذا من العرب ، فنحن نعلم يقيناً أن شخصاً لو قال شيئاً من هذا القبيل ، لقابلته النفوس بالاستنكار ، لأنه ليس من مألوفات عادات القوم ، ومن ذلكم يمكننا أن نقول : إن المرأة الشرقية كان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الوافر .

منزلة المرأة في الاسلام

والشريعة الاسلامية هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ، وساوت بينهن وبين أزواجهن في أكثر الاحكام بالمعروف ، إلا رياسة المنزل وزعامة الأسرة ، وقد هتف القرآن بمجد المرأة قائـــلا : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لكم مِنْ أنفُسِكُم أزواجاً ، لتسكُنوا اليهــا ، وجَعَلَ بينكم موَدةً ورحمةً ﴾ (٣٠ : ٢١) وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك ، لأبلغ من كثير من الأسفار التي الفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه « تحرير المرأة » ، الاوهي قوله عز وجل : ﴿ ولَهُنَّ مِثلُ الذي عليهنّ بالمعروف ﴾ (٢ : ٢٢٨) وأما قوله : ﴿ وللرجالِ عليهنّ درجةٌ ﴾ (٢ : ٢٢٨) فإنما هي درجة القوة ورياسة البيت التي أعطيت للرجل بحق ، لأنه أقدر على الكسب والحماية ، وهو المطالب بجميع النفقة ، وقال تعالى : ﴿ وعاشِروهُنّ بالمعروف ﴾ (٤ : ١٨) .

كما ذكر في آية أخرى ساوى بينها وبين الرجل في جميع الأوامر والنواهي الدينية : ﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات ، والمؤمنينَ والمؤمنات ، والصادقينَ والصادقاتِ والصابرين والصابراتِ ، والخاشعين والخاشعاتِ ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فُروجَهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ ـ أعدَّ اللهُ لهم مَغْفِرَةً وأجراً عظيماً ﴾ (٣٣ : ٣٥) ، وقال جل ثناؤه : ﴿ إنّي لا أُضيعُ عمَلَ عاملٍ منكم مِنْ ذكَرٍ أو أنثى ﴾ (٣ : ١٩٥) فعلَّمَ الرجل أنها مِثل له في الآخرة ، كما هي في الدنيا ، ولا امتياز بينها في ذلك ، ويقول تعالى في الزوجين : ﴿ فإنْ أرادا فِصالاً عن تراضٍ منهما وتشاوُرٍ ، فلا جُناحَ عليهما ﴾ (٢ : ٢٣٣) إذ اعتبر في إرضاع الولد وفطامه تراضي الوالدين وتشاورهما ، ولم يكتف برأي الزوج فقط ، ولا يخفى ما في هذه الآيات الكريمة وغيرها من اعتبار المرأة واحترام حقها ، ومعاملتها بالاحسان والمعروف ، وقد اهتدى كثير من الأمم ، ببعض هدي هذه الشريعة ، في هذه المزية ، ولم يبلغ أحد منهم شأوها ، ولكن أهلها قصروا في إقامتها ، حتى صاروا ـ مع الأسف ـ حجة عليها عند من يجهلها .

وفي الحديث الشريف : « أكمل المؤمنين إيماناً ، أحسنهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهله » وفيه « خيارُكم خيارُكم لنسائكم » ، وفيه أيضاً « استوصوا بالنساء خيراً » وفيه « المرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيتها » وفي لفظ « المرأة سيدة بيتها » .

ومن أعجب المصادفات أن ينعقد مجمع « ماكون » في « فرنسة » في زمن النبي ﷺ أي في سنة ٥٨٦ لميلاد المسيح ، ويبحث هل المرأة إنسان ؟ .. هل لها نَفْس ؟ ... ثم قرر أن لها نفساً وانها إنسان ، لكنها خلقت لخدمة الرجل ، ولم يكد يصدر قرار المجمع هذا ، حتى نقضه النبي ﷺ في الحجاز ، ورفع صوته

قائلاً : « إنما النساء شقائق الرجال » وقائلاً : « يغلبن كريماً ويغلبهن لئيم » ثم لم يكن احترامه ﷺ للنساء والحض على احترامهن بالقول فقط ، بل دعم ذلك بالفعل ، إذ أنه كان ﷺ يضع ركبته على الأرض ، لتضعَ زوجته عليها رِجْلَها إذا أرادت أن تركب ، وهذا أبلغ ما يكون في الاحترام وحسن المعاملة .

وحكى لنا المؤرخون ومنهم« ابن جرير »أنهاستأذن رجل على « عمر »(ض) فدخل بيته وقت الغداء ، فقال عمر : (يا أم كلثوم غداءنا) ، فأخرجت اليه خبزة بزيت ، في عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين الينا ، تأكلين معنا من هذا ؟.. ـ فقالت : إني أسمع عندك حس رجل ـ قال : نعم ولا أراه من أهل البلد ـ قالت : لو أردتَ أن أخرج إلى الرجل لكسوتني ، كما كسا (ابن جعفر) امرأته ، وكما كسا (الزبير) امرأته ، وكما كسا (طلحة) امرأته ـ قال : أو ما يكفيك أن يقال : أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟ ثم قال للرجل : « كُلْ ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا » .

فهذه الحادثة تبين كيف كانت (المرأة) في صدر الإسلام ، فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين ، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها ، كما يتكلم أعظم الرجال نفساً ، ولي الشرف أن أقول ذلك كشرقي يدافع عن شرقه بأنه يحتقر المرأة والعياذ بالله .

(تصفيق حاد من المقصورة التي فيها السيدات)

أخطاء فوطيفار

المقولة الثالثة ـ طلب فوطيفار من زليخا العناية بيوسف ، لأن للمرأة في بيتها ـ الذي هو مملكة صغرى ـ إدارة وزارة الداخلية والمعارف ، كما ان للرجل

إدارة وزارة المالية والأشغال العامة والتجارة والحربية والخارجية ـ مع الرئاسة العامة ـ ، المرأة رقيقة وصابرة على التربية ، فلذلك يجب أن تكون هي مـــدبرة المنزل ، ومع كون المرأة هي الـكافلة للطفل أو العبد الصغير ، فالرجل هو الكافل للمرأة ، وهو سيد المنزل الأعلى ، لقوة بدنه وعقله ، وكونه أقدر على الكسب والدفاع ، ولذلك نراه الآن هو (الآمر) للمرأة .

وبعد هذا كله ، واستدراكاً على ما مرّ ، فعندنا أن فوطيفار أخطأ فيما عمل من ثلاثة وجوه :

أولاً ـ إحالة إكرام يوسف على تلك المرأة الناعمة حليلة زوج لا يأتي النساء بحال أن هذا العبد العبراني ، كان أبدع سطر خطته يد القدرة الالـٰهية في لوح الوجود ، ولم تنعقد المناطق على مثل قوامه رشاقة واعتدالاً ، ولا اشرقت الشمس على مثل وجهه حسناً وبهاء ، فكان ينبغي لفوطيفار ، إحالة إكرام مثواه للخادمات والقهرمانات اللاتي في القصر ،ففي وصية « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه لابنه « محمد بن الحنفية » : « لا تمكنّ المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها ، فان المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة » .

ثانياً ـ مسألتا السفور والاختلاط الموجودين في القصر فهما أساسات كل بلاء .

ثالثاً ـ إباحة الخلوة ، فمجموع هذه الأمور الثلاث شكّل سبباً نشأ عنـــه سهولة مراودتها له عليه السلام .

وهنا أتذكر ما كان أنشد فيه صديقي السيد حبيب العبيدي مفتي الموصل قال:

أُولو العلم خانوا ، واستبد أُولو الأمر
وظنت جميلاً جهلهـا ربـــة الخدر

ثلاث جرائـيم عبثن بأمـــة
وقفن بهـا طبعاً على حافة القـدر

ولو أن أمراء المصريين ، ومنهم فوطيفار ، ولو أن علماء مصر ، ومنهم كهنتها رجال الدين ، ولو أن نساءها ومنهن زليخا امرأة العزيز ـ لو أن هؤلاء الجراثيم الثلاث ، التزموا طريق الهدى ، وقاموا بواجبهم في مثل هـــذه الحادثة ، فمنعوا استرقاق الأحرار واستخدام الشبان داخل البيوت ، لما وقع هذا الحادث وأمثاله .

المثوى

المقولة الرابعة ـ المثوى والثَّواء والمحلّ والمأوى والمغنى والمنتدى والمتبوَّأ والمباءة والمكان والمعرّس والمقام والنُّزل والسَّكن والنادي والنَّدِيّ ـ كلها تقريباً بمعنى واحد ، فمعنى « أكرمي مثواه » اجعلي منزله ومُقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله : « إنه ربي أحسن مثواي » والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ، ويقال للنزيل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ يُسأل بذلك أصحاب البيت الذي نزل فيه يراد هل طابت نفسك بثوائك عندهم ، وهل راعَوا حق نزولك بهم ؟

مرادفات كلمة مصر

المقوله الخامسة ـ يقال لمصر « أم خَنـُّور » والخنور الداهية والنعمة ضـد ، و « الكنانة » ، و « مصرايم » أخذاً من مصرايم بن حام، ويقال لها « أرض حام» و « رَهب المتكبر » ، وأما اسمهـا القبطي فهو « خيمي » أي أسود ، أخـذاً من لون تربتها .

وأما كلمة « ايجيت » اللاتينية ، فمأخوذة من لفظ « القبط » أو بالعكس .

(مرحى مرحى)

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ١ —

قال حمدي باشا الانطاكي [١] :

وصية فوطيفار لزوجته

تفرس فوطيفار في يوسف فوجد أن له غَنَاء فيما يسند إليه ، وكفاية فيما يقلد إياه ، فكان يتنازعه عاملان ، قائمان عنده مقام الاحتمال ، فهو يتراوح بينهما ، وهما فكرة اتخاذ يوسف كخادم ممتاز ، وفكرة تبنيه ، فلذلك يوصي زوجته زليخا به قائلاً : ما أحوجنا إلى خادم كهذا الغلام ، وما أحوج هذا الغلام إلى أناس مثلنا، ليس لهم ولد ، يعيش عندهم بالراحة والرفاه ، وتعلمين إنه لا تتكون أخلاق الفتى في عهد طفولته . أو في عهد شيخوخته ، بل في عهد شبابه ، فإذا ربيته تربية حسنة ، وكفلته كفالة صالحة ، وهذبته تهذيباً حسبما أريد منك ، بعد قليل من الزمن نجد فيه عبداً خادماً أميناً ، يقوم بمصالحنا ، ويحمل عنا شيئاً من أعباء هذه الحياة ، أو نجد فيه لنا ولداً مطيعاً ، نكون بجنبه كأب وأم ، ويكون لنا قرة عين في الحياة ووارثاً وذكراً بعد الممات ، بحيث يحسب من أسرتنا ، وله ما للولد من الإرث والنصر والمحبة ، وعلى أولاد الصلب السلام .

ويلاحظ أن فوطيفار لم يكتف بتوصيته زوجه وصية مجردة عن الحكمة والعلة ، بل أردفها بأن بين لها السبب الدافع له على هذا الأمر ، وهو لطف منه

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية).

ينبىء عن أن المصريين ـ ولا سيما كبراؤهم ـ كانوا أهل لطف مع أزواجهم ،أهل لين ورفق ، حتى إذا أرادوا منهن شيئاً ، لم يقتصروا على الأمر الجاف اليابس ، سواء أَفَهِمْنَ حكمته أم لا ، بل كانوا يبينون لهن علته وثمرته ، وهذا من الواجبات الأدبية الاجتماعية .

يوسف وكيل فوطيفار

وقد تمّ ما توسمه فوطيفار في يوسف بأجلى مظاهره فإن يوسف نفع فوطيفار نفعاً عظيماً ، فنجح في بيت سيده نجاحاً باهراً ، وكان الله معـــه في كل ما يفعل بالتوفيق والسداد ، وكان علة بركة ونجاح لسيده ، فوكّله على جميع أمور بيته ، ودفع ليده كل ما كان له ، فحصلت من جراء ذلك البركات في واردات فوطيفار ، وتدفقت لأجل يوسف الخيرات ، ثم نفعه وعقيلته بسلوكه معها بالأمانة والشرف والطهارة ، وعدم خيانته له في عقيلته ، ثم إنه قام بنفع عام حينما أسند لعهدتـــه « نظارة بيت المال » بمصر، وصار « عزيزاً » فخدم بذلك مصر والمصريين ،وأخيراً نفع المصريين بما أجرى الله على يديه من هداية وارشاد ، إذ أرسله الله إليهم نبياً ورسولاً (٤٠ : ٣٤) .

امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها بيوسف

وأما زليخا زوجة فوطيفار ، فقد عملت بوصاة سيدها ، وأكرمت يوسف أيّما إكرام ، ورفهته أيّما ترفيه ، ولكن ربما كان في ذينك الإكرام والترفيه ، يد خفية للغرام المنبعث في أنحاء نفسها ، سيما لأنها حينما نظرت إلى يوسف ، وقـع من نفسها ، وملك عليها جميع مشاعرها ، وحل من قلبها محلا لم يحله أحد من قبل، نظرته فاذا هو حسن الصورة بحيث ما كانت تظن أن الأرض تنبت مثله ، نظرتـه

فإذا هو صبيح مع جاذب وحلاوة يندران في البيض ، ولهذا وقع كلام سيدها في أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، برداً وسلاماً ، وكأني بها قالت له : لبيكَ لبيكَ أمرك مطاع ، ووصاتك نافذة .

وقد اغتبطت زليخا بتلك الصلة التي نشأت بينها وبين هـــذا الفتى العبراني ، بوجوده في قصرها كعبد وخادم لها ولسيدها ، وبودها لو استحالت تلك الصلة إلى صلة أخرى غيرها ، أدنى إلى نفسها وألصق بفؤادها . ولكن لطهارة هـذا الفتى العبراني وعفته لم يتم لها ما أرادت .

وهنا لا بد لي من الجهر قبل مغادرة هذا المنبر الحر بأن أخالف بعض إخواني الحاضرين في كلة ، وهي أن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء ، وعندي أن المسئول عن حادثة « زليخا » المشئومة والمسبب لها ابتداء هو سيدها « العزيز » وهكذا يخطىء ذوي البيوتات الكبيرة في إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لا سيا البيض بنسائهم فهو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة ، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا ، فرضاؤهم شرف وغضبهم شرف !..

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ٢ —

وقام عبد الكريم الادلبي [١] وقال :

سأقتصر الكلام هنا على أمرين :

المقصد من استعمال حرف « أو » في قوله « أو نتخذه ولداً »

الأمر الأول ـ هو ان حرف (أو) في قوله « أو نتخذه ولداً » ليس لمنع

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام (سورية)

الجمع ، بل لمنع الخلو ، كما في قولك : « جالس الحسن أو ابن سيرين » ، أي لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، فلا ينافي أنه يجوز اجتماعها فيه في آن واحد ، فقد ينفهم مع اتخاذهم إياه ولداً .

الظهار والتبني عند المصريين وفي الاسلام

والأمر الثاني ـ هو أن عبارة « أو نتخذه ولداً » ظاهرة في أن التبني كان مشروعاً عند المصريين ، كما كان عند العرب قبل الإسلام ، وفي صدر منه ، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه ، قال تعالى : ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ، وما جَعَلَ أزواجَكُم اللاّئي تُظاهِرُونَ مِنهُنَّ أُمّهاتِكُم ، وما جَعَلَ أدْعياءَكم أبناءَكم ، ذلِكُم قولُكُم بأفواهِكُم ، واللهُ يقول الحقَّ ، وهو يَهْدي السبيلَ ، ادْعُوهُم لآبائِهِم هو أَقْسَطُ عندَ اللهِ ، فإنْ لم تَعْلَموا آباءَهُم فإخوانُكُم في الدِّينِ ومَوالِيكُم ، وليسَ عليكم جُناحٌ فيما أخْطأتُم بهِ ، ولكنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُم ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٣٣: ٤و٥).

فالآية تنص على أنه كان يوجد عند العرب شيئآن : الأول الظهار ، والثاني التبني ، فالكتاب يقول : إن قلباً واحداً لا يمكن أن يتصور أن أنثى واحدة هي في آن واحد زوجة وأمّ لشخص ما ، لأنه تناقض ، وكذا يستحيل أن يتصوّر القلبُ الواحدُ أن غلاماً هو عبد وابن في آن واحد ، لأنه تناقض ، وبناء عليه فهذا القول إنما هو قول لسانيّ لا قلبيّ ، أي لا يمكن للانسان أن يعتقده بقلبه ، إذ لا يجمع في القلب بين المتناقضين ، نعم ، لو كان للانسان قلبان ، لأمكن أن يعتقد كل قلبٍ بعقيدة تضادّ العقيدة الأخرى ، فقوله تعالى : ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ﴾ ليس معناه أن العرب كانوا يعتقدون هذه

العقيدة .. لا .. وإنما يؤتى بهذا القول في بدء الكلام ، إذا كان بعده شيء متناقض لايمكن أن يدخل في العقل الواحد . (حسن)

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

— ١ —

وقام فضل الله الاسكندري [1] :

تمكين يوسف الأول

أولاً ـ تعليقاً على قوله « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » فيه اشارة إلى ما تقدم من إنجاء يوسف وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف من (كذلك) منصوب تقديره : ومثلَ ذلك الانجاء والعطف ، مكنا ليوسف في هذه الحياة الجديدة ، حياةوجوده كمملوك في بيت عزيز مصر ، لأنه أصبح أثيراً عندفوطيفار وزليخا ، مكث عندهما في مأمن من الغوائل والحسدة ، مرتاح الضمير ، وملك ثقة سيده ومحبة سيدته ، وهذا هو عصره الفضي ، وكان هذا التمكين لأول مرة عشر سنين ، من حين أن كان عمره (١٧) سنة إلى أن بلغ من السن (٢٧) سنة ، وأما عصره الذهبي ، فانما ابتدأ بعد جلوسه على كرسي « وزارة المالية » وعهد مليك مصر له بالوكالة المطلقة .

كان في عصره الأول ، وهو موضوع حديثنا الآن قرير العين، رفيع الجناب، قد دفع كل شيء ليده ، مع أنه وجد في بلاد غربة ، ومملكة غير مملكته ، وعند قوم لا يعرف سنَنَهم ولا شِيَمَهم، مع افتراق الأديان وتباين الأشكال ،ومنافرة المذاهب ، ومع كل هذا كان النجاح في أعماله ، ألصق به من ظله ، وأسرع إليه من الماء إلى منحدره .

(١) نسبة الى الاسكندرية من البلاد المصرية .

كان هذا التمكين الأول آخر عهد يوسف بحياته القديمة ، وأول عهده بحياته الجديدة ، وحياته القديمة هي حياته في حضن أبيه في بادية فلسطين ، مرؤوساً بين إخوته ، وحياته الجديدة هي حياته في قصر فوطيفار في حاضرة مصر ، رئيساً بالوكالة عنه في كل أشغاله .

ثانياً — رب سائل يقول ما هذا التمكين الذي كان عبارة عن وجوده عبداً في بيت فوطيفار ثم تلته محنة ، ثم تلاه السجن بضع سنين ؟ فالجواب هو رب محنة في وسطها منحة ، فلولا هذه العبودية لما كان مجال المحنة ، ولولا هذه المحنة لما كان هذا السجن ، ولولا هذا السجن لما عرفه رئيس السقاة ، ولولا رئيس السقاة ، ما عرفه ملك مصر ، ولولا ملك مصر ، ما صار يوسف على خزائن الأرض ، ولا صار (عزيز مصر) ولا وكيلاً مطلقاً عن مليكها الريان ، فهذه الأدوار كلها حلقات متلاحمة شكلت سلسلة نشأ عنها تمكين يوسف في الأرض .

ثالثاً — يتعدى التمكين باللام وبنفسه ، فيقال : « مكّن له في الأرض » : جعل له فيها مكاناً ، ونحوه : أرّض له ، جعل له أرضاً ، ويقال : مكّنه في الأرض ، أي أثبته فيها ، والتحقيق أن معنى مكّنه في الأرض أو في الشيء : جعله متمكناً من التصرف ، تامّ الاستقلال فيه ، وأما مكّن له ، كما في هنا وكما في قوله تعالى في ذي القرنين : ﴿ إنّا مكّنّا له في الأرض ﴾ ، (١٨ : ٨٥) . فهو على تقدير المفعول المحذوف ، كأن يقال : مكنا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميع أسباب الاستقلال في التصرف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لهم ﴾ ، (٢٤ : ٥٥) وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَماً آمِناً ؟ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ومعناه أنه يمكن لهم جميع شعائر دينهم ، يتظاهرون بها كما يشاؤون ، ويمكن لهم جميعَ جهات الحرم يمشون في أي جهة

أرادوا ، في هذا التعبير من المبالغة والاتساع ما لايوجد في التعبير الأول ، وقيل: ان مكّنه ومكن له كوهبه ووهب له ، وقال أبو علي : اللام زائدة ، كردف له .

رابعاً — وقعت جملة « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » في هذه السورة مرتين ، فقيلت فيه أولاً ، باعتبار وجوده في بيت العزيز وكيلاً عنه في أشغاله ومحبوباً منه جد الحب ، وقيلت فيه ثانياً ، باعتبار وجوده في البلاط ناظر مالية ، ومحبوباً جـــد الحب من الملك الريان ، فالتمكين الأول خاص ، وبطريق التبعية لعزيز مصر فوطيفار ، لأن نَفَس العبد من نَفَس سيده ، فكان يوسف يتجول في مستعمرات سيده ، ويأمر الزراع وينهاهم ، ويحل ويربط ، على حساب سيده (العزيز) وبهمته ونفوذه .

تمكين يوسف الثاني

واما التمكين الثاني فقد كان عاماً في كل المملكة الهكسوسية ، وبطريق الاصالة ، ولذلك أتبعه بقوله تعالى : « يتبوأ منها حيث يشاء » لأنه هو بذاته صار « العزيز في مصر » مع « وزارة المالية » ومع الوكالة المطلقة عن الريان ، وههنا نكتة يجب الانتباه اليها ، هي أن التمكين الأول ، كان ناشئاً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « عزيز مصر » وأما التمكين الثاني ، فكان ناجماً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « مليك مصر » ، فالأول تمهيد للثاني ، والثاني أقوى وأمتن من الأول ، واسع جداً وأطلق حرية ، وإن شئت قلت : إن التمكين الأول كان نواة لشجرة التمكين الثاني ، « وأول الغيث قطر ثم ينهمل » .

(ولنعلمه من تأويل الأحاديث ...)

—١—

قال الشهاب الحيفاوي[١].

تعليم يوسف

كأنّ العناية الالهيّة رأت أن يوسف بحسب السُنن الجارية يحتاج في تعلمه علوم الاجتماع ، والعلوم الكونية ، والعلوم السياسية ، والعلوم المدنية ، ومبادلة الكلام ، والأخذ والرد ، والقبول والرفض ومصائر الكلام ومراميه وعواقبه و .. و .. الخ الخ ، لخضرّ سبحانه وتعالى الأسباب التي اقتضت ذهابه لأرقى مملكة في العالم إذ ذاك . ليتعلم فيها ما ذكر وما إليه مما تتوقف معرفته على وجود الانسان في محيط راق .

ومما لا مشاحة فيه أن كل إنسان يكتسب العلم من ثلاثة ينابيع الارث والمحيط والتجارب ، فعلم يعقوب وفرط ذكائه وقوة مداركه قد انتقل شيء منه لولده يوسف بطريق الارث ، فاخذ منه نصيباً مفروضاً ، ووجود يوسف في محيط كمصر أكسبه مبلغاً عظيماً من الفهم والنبل والثقافة المصرية ، لأن مصر إذ ذاك كانت أرقى الممالك المجاورة لها ، كالكلدان واليونان وأشور وآرام ونحوها ، وقد حكى لنا التاريخ أن اليونان تلاميذ مصر وعالة عليها في المدنية ، والرومان تلاميذ اليونان . ثم صار العرب تلاميذاً الرومان واليونان والفرس ، وصارت أوربا تلميذة للعرب ، فاساس المدنية والرقي والمعارف هو مصر ؛ وتجارب يوسف واحتكاكه

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

بذاك المجتمع الراقي زاده فضلاً على فضل ، وجعله يضم الى التالد طريفاً ، فقوله تعالى : ﴿ ولنعلمه الخ ﴾ معناه لنضم لعلمه المطبوع ما يزيد من العلم المسموع ، وما لبث سبحانه أن وفىّ بما وعد فعلّمه من تأويل الأحاديث ما تطرب اليه أكباد الابل ، كما قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ ولولا هجرته لمصر لانحصر فضله في الحصة التي وصلت اليه من طريق الارث ، فالله القدير الذي لايخرج فعله عن السُنَن الكونية ، ولا يتجاوز ربط المسببات بأسبابها ، أرسله لمصر ، ومكنّ له فيها ليزيده من فضله ، بزيادة الأسباب التي هي أيضاً من وضعه سبحانه وتعالى .

فوائد الارتحال والسفر

لا يسع أحداً أن ينكر أن الارتحال من إقليم لإقليم أكبر ، والانتقال من بلد لبلد أعظم — من شأنه زيادة العلم ونمو مادته، خصوصاً إذا كان الاقليم أوالبلد الذي ذهب اليه متحضراً وراقياً أكثر فأكثر ، ﴿ الأَعْرابُ أشَدُّ كُفْراً ونِفاقاً ، وأجْدَرُ أنْ لا يَعْلَمُوا حُدودَ ما أنزلَ اللهُ ﴾ (٩ : ٩٨) ، وفي الحديث « ساكن الكُفُور كساكن القبور » .

وقد سافر « ابن البيطار » إلى بلاد الأغارقة ، لجمع غريب النبات وتدوينه ، وسافر الامام « البخاري » لجمع صحيحه ، وساح كل من « الأسد الافريقي » و « البيروني » و « الشريف الادريسي » في آسية وأفريقية والجزر ، واكتشفوا تلك البقاع ، ووصفوا لنا تلك المواطن، كما ساح « ابن بطوطة » وأخبرنا بالمجائب.

ولذلك سن الشارع لنا السياحة ، واستشراف أحوال الأمم ، وتعرف فواميس الخليقة والعمران ، والنظر في الكون ، وتنور أسرار الكائنات ، حتى قال عن

السياحة لأجل النظر في عواقب الأمم : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فانظروا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ﴾ (٣ : ١٣٧) وقالعن السياحة لأجل النظر في تبدلات الدول والشعوب والمواليد : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فانظروا كَيفَ بَدَأَ الخَلْقَ ، ثم اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ (٢٩ : ٢٠) ، وقال عن السياحة لأجل العلم والحج وصلة الرحم والجهاد : ﴿ التائِبُون العابِدونَ الحامِدونَ السائِحونَ ﴾ (٩ : ١١٢) وقال : ﴿ تائِبات عابِدات سائِحات ﴾ (٦٦ : ٥) ولكن الرجال للقتال ، والنساء لخدمة الجيش وتمريضه ، وقال تعالى عن السياحة لأجل التعقل واستخراج النتائج من الأقيسة : ﴿ أفَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلونَ بها ، أو آذانٌ يَسمعونَ بها ، فانها لا تَعْمَى الأبصارُ ، ولكن تَعمَى القلوبُ التي في الصدور ﴾ (٢٢ : ٤٦) تشير هذه الآية إلى أن السياحة تكسب الانسان تعقلاً وفهماً وادراكاً ، أكثر وأكثر جداً مما لو بقي في بيته وبلده ، فالسياحة تزيد في سعة المدارك ، وتَشْرُفُ بالانسان أسرار العالَم، وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب ، وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة ، وهذا يعلو بالعقل والفكر ، ويسمو بها درجات متوالية على أقدار محسوسة ، فيحصل ما يسمونه « الترقي في الهيئة الاجتماعية » .

العلم الكسبي والعلم الوهبي

وغني عن البيان أن العلم نوعان ، كسبي ووهبي : فالكسبي يتوسل اليه بما يقرؤه الانسان في الكتب السماوية ، وما يؤثر عن الأنبياء وما يسمعه من آثار أصحاب الأنبياء ، وكذا من علماء الأمصار . وما يستفيده من دقائق اللغة وأساليبها ،ومن

علوم الكون ، وشؤون البشر ، وسُنَن الله في الخلق ؛ وأما العلم الوهبي فيكون بزيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي وعلو المدارك في ينابيع هذا العلم .

العطف على محذوف في القرآن

والواو في قوله « ولنعلمه » للعطف على محذوف تقديره : « مكنا ليوسف في الأرض لأغراض شتى ولنعلمه .. الخ » ، وهذه طريقة قرآنية ، وأسلوب عربيّ لطيف ، ضابطه عطف مذكور على محذوف، للايذان بأن المصلحة في إيجاد يوسف بمصر وتمكينه فيها ليست بواحدة ، بل المصالح في ذلك كثيرة ، منها ما لا تحويه العبارة ، ومنها تعليمه من تأويل الأحاديث ، ولهذا شواهد ومثل كثيرة في كتاب الله تعالى : منها قول إبراهيم وإسماعيل (ع) : ﴿ رَبَّنَا ... واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لك ﴾ (٢ : ١٢٨) أي يا ربنا اجعلنا كذا وكذا واجعلنا مسلمين لك ،أو كأنهما يقولان : وفي النفس حاجات وفيك نباهة ، وعلمك بها يغني عن ذكرها ، ولكننا نصرح الآن بواحدة منها ، وهي أن تجعلنا مسلمين لك ؛ ومنها قوله تعالى : ﴿ يريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بكم العُسْرَ ... وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ، ولِتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هَدَاكُم ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ١٨٥) ومنها قوله تعالى : ﴿ وكذلكَ نُصَرِّفُ الآياتِ .. وَلِيقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ (٦ : ١٠٥) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وتلكَ الأيّامُ نُداوِلُها بينَ الناسِ ..وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذين آمنوا ، ويتَّخِذَ منكم شُهَداءَ ، واللهُ لا يُحبُّ الظالمين ﴾ (٣ : ١٤٠) ومنها قوله تعالى : ﴿قل لو كنتم في بيوتِكُم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهمُ القَتْلُ إلى مضاجِعِهم .. وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مافي صُدُورِكُم ،وَلِيُمَحِّصَ ما في قلوبِكُم واللهَ عليمٌ بِذاتِ الصُدُورِ﴾ (٣ : ١٥٤) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وألْقَيْتُ عليكَ مَحَبَّةً مِنّي ... وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾ (٢٠ : ٣٩).

ومنه حديث : « أخوكَ البِكْرِيُّ ... ولا تَأْمَنْهُ » .

وقول الأبوصيري :

يارب..واجعل دعائي غير منعكس　　لديك واجعل رجائي غير منخرم

وإنما أكثرنا من شواهد هذا النوع ، لأن بعض المفسرين تكلم ههنا بكلام غير صحيح ، فكان حقاً علينا أن نذكر ما ذكرنا من الشواهد :

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى　　فؤادي ، ولكن للعتاب مواضع

هذا وأما الكلام في شرح « تأويل الأحاديث » بصورة مسهبة ، فقد كفانا فيه المؤونة أخونا الشيخ مضيوف اليافي في محاضرته على قوله تعالى ﴿ وليعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ (آ : ٦) فليرجع إليه . (أحسنت)

(والله غالب على أمره)

— ١ —

قال السعيد الدوماني (١) :

الله غالب على أمر نفسه او على امر يوسف

إن الله سبحانه وتعالى غالب على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ، ولا ينازع فيما يريد ويقضي ، أو إن الله تعالى غالب على أمر يوسف ، يدبره ، لا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره .

(١) نسبة الى قصبة دوما قرب دمشق (سورية)

فالله تعالى غالب على أمره الذي يريده من سلامة يوسف وحياته، ورسوخ قدمه في أرض مصر، وتعليمه فيها من تأويل الأحاديث، معززاً مكرماً، فمحاولة إعدامه وزلزلته وإهانته وإذلاله عبث وضرب من المحال ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي ، إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٥٨ : ٢١).

والله غالب على أمره، غصباً عن الفلك، فلا بد من تمكين يوسف ولا ندحة عن تعليمه. وكل ما أراد الله له واقع لا محالة، ولا خيرة في الواقع، رغم حسد الحاسدين، وكيد الكائدين.

والله غالب على أمره، فيوسف كان أصيب بموت أمه راحيل، ثم بحسد إخوته له ومناوأتهم إياه، ثم بإلقائه في غيابة الجب، ثم بأخذ المديانيين له واسترقاقه كمملوك ثم بوجوده في بيت فوطيفار كخادم، ثم بالتهمة الباطلة في ذلك البيت، ثم بالاعتقال ظلماً، فكأن فضاء حياته معمل لنوازل الدهر وحوادثه، ولكن رغماً عن هذا كله، فقد كانت عاقبته الترقي لأوج العلا.

وبعبارة أخرى إن الله غالب على أمره فيما غبر، وفيما حضر، وفيما يأتي من الزمان، لأنه فعال لما يريد، لا دافع لقضائه ولا مانع لحكمه في أرضه وسمائه، فاخوة يوسف أرادوا به كل سوء ومكروه، والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى، احتالت إخوته عليه، فأوقعوه في البلاء الشديد، فجعل تعالى وقوعه في ذلك البلاء سبباً في وصوله لمصر، اتهمته امرأة فوطيفار؛ وسعت في اعتقاله، فكان ذلك سبباً في تعرفه برئيس السقاة في السجن، الأمر الذي نجم عنه أن هذا الساقي أخبر بيوسف، حتى صار «عزيزاً» في مصر، صار عزيزاً بعد أن كان ذليلاً، صار مليكاً بعد أن كان مملوكاً، صار حراً بعد أن كان عبداً، صار فوق العرش، بعد أن كان تحت الأرض، فلهذا المعنى ونحوه قال تعالى: ﴿ والله غالب على أمره ﴾.

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قال عبدالمنعم السلطي [١] :

جهل اكثر الناس ان الامر كله بيد الله

أولاً ــ أكثر الناس في كل عصر ومصر لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله تعالى وحده .

ثانياً ــ أكثر الناس لا يعلمون ، أي لا يدركون حكمته في خلقه ، وتلطفه وفعله لما يريد ، أو لا يعلمون ما الله به صانع .

ثالثاً ــ وردت هذه الفقرة في القرآن إحدى عشرة مرة ، ووردت بصيغة ﴿ وَلكنَّ أكثرَهُم لا يَعْلَمون ﴾ تسع مرات ، والجملة عشرون مرة ، أنزلها الله من السماء تنفي العلم عن أكثرية الناس من وثنيين ويهود ونصارى ومسلمين .

شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان

آ (٢٢) ﴿ وَلما بَلَغَ أشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والعشرون فقام الشيخ محسن الصيداوي [٢] وقال :

يقول الله تعالى (ولما بلغ) يوسف (أشده) أي مبلغ الرجال (آتيناه حكماً)

(١) نسبة الى السلط من أعمال بلاد الشام (شرقي الاردن) .
(٢) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

منعاً لنفسه من المعاصي وإلزاماً لها على الطاعات (وعلماً) لدنياً ، قال تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لهُ مَخْرَجاً ﴾ (٦٥ : ٢) وإنما قال تعالى : ﴿ وكذلكَ نجزي المحسنين ﴾ تنبيهاً على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عنفوان شبابه ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه ، وعن الحسن (رض) : « من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله ». والعلم علمان : علم لدني يحصل بمحض فضل الله تعالى على العبد ، لكن بسبب إخلاصه وتقواه ، وعلم كسبي وهو ما يكون بالسهر والتعب ، وإلى هذا القسم الثاني يشير بعضهم بقوله :

لو كان نور العلم يدرك بالمنى ... ما كان يبقى في البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلاً ... فندامة العقبى لمن يتكاسل

(ولما بلغ أشده)

— ١ —

وقام الشيخ عبدالحي الجولاني [1] وقال :

بلوغ يوسف الأشد

قضي الأمر ، وعاش يوسف في بيت فوطيفار ، عزيز مصر ، وهو متمتع بحياة طيبة ، محفوفة بالهناء والراحة ، لا يفتكر إلا فيما يعود عليه بالسرور ، كأن لسان حاله يقول : أريد أن أنعم بالحاضر ، وأعد الماضي نسياً منسياً ، غير أنه كان في وسط هذه المسرات يتذكر أباه الشيخ الجليل ، فتفيض نفسه، لبعده عنه ، وعدم

(١) نسبة الى الجولان احد أقضية بلاد الشام (سورية) .

تمتعه برؤيته ، زد على ذلك أنه كان يعتقد أن أباه في غمرات من الأحزان لأجله ، ولعله كان يفتكر أن يكتب لأبيه كتاباً عن حياته ومكان وجوده وكافة أحواله الحاضرة والماضية ، ولكنه كان يخاف من إخوته العشرة أن يلحقوا به كيداً ، فيقمنس عن العمل بهذه الفكرة لوقت مناسب .

ومعنى « بلغ أشده » بلغ قوتـه ، وخرج من سن الصبوة ، قال « أبو نخيلة » يمدح « هشاماً » :

طُوِّقْتَهـا مُجتمعَ الأشُدِّ　　　فانهَلَّ لما قمتَ صوبُ الرعْد

أي نلت الخلافة ، وأنت مجتمع القوة مكتهل ، فانفتحت أبواب الخير .

أو تقول « بلوغ الأشـد » عبارة عن بلوغ السن الذي يخرج به عن كونـه ضعيفاً ، وقد اختلف أهل اللغة في هل هو مفرد ، أو جمع لا واحـــد له ، أو لهواحد ؟ ... قال في اللسان : (الأشـد) مبلغ الرجل الحنـكة والمعرفة،ونُقل عن ابن سيده : بلغ الرجل أشده إذا اكتهل ، وقال علماء اللغة أقوالا في معنـاه كثيرة ، ولكن لها طرفان ، أدناها الاحتلام الذى هو مبدأ سن القوة والرشد ، ونهايتها سن الأربعين،حين تجتمع للمرء حنكته وتمام عقله، فبلوغ الأشد ،محصور الأول ، محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك .

وقال الأزهري : الأشد في كتاب الله على ثلاث معان : أما في قصة يوسف فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا في اليتيم : حكمه أن يحفظ عليه ما له حتى يبلغ أشده ، وبلوغه أشده أن يؤنس منه الرشـــد ، مع أنْ يكون بالغاً ، وأما قوله تعالى في قصة موسى ﴿ ولمـَّا بَلـَغَ أشُدَّهُ واستَـوى ﴾ (٢٨ : ١٤) فقرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن تجتمع قوتـــه ويكتهل ، وذلك عن ثمان وعشرين إلى ثلاث

وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب ، وأما قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أربعين سَنَةً ﴾ (٤٦ : ١٥) فهي نهاية بلوغ الأشد .

ورأيت في خطبة الحجاج العراقية : « أخو خمسين مُجتمعٌ أَشُدّي » .

الأشد والرشد في القرآن

ويقول العبد الحقير ، يوجد في القرآن الكريم كلمتان: « أَشُدّ » و «رُشْد» فكلمة أشد تعني النمو في الجسم والخروج من سن الصبوة . وكلمة الرشد تعني النمو في العقل وإصلاح أمور الدين والدنيا ، وهذه تكون من الأولى ، وتارة على إثرها ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد ، بسبب عارض ، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين ، قال تعالى : ﴿ولمّا بَلَغَ أشدهُ واستَوى آتيناهُ حُكماً وعِلماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ وابْتَلُوا اليتَامَى حتى إذا بَلَغُوا النّكاحَ ، فإنْ آنَسْتُم منهم رُشداً فادْفَعُوا إليهم أمْوالَهُم ﴾ (٤ : ٥) ويمكن أن يكون قوله : « حتى إذا بلغوا النكاح » هو سن الأشد الذي يتقدم الرشد أو يقارنه ، فلا رشد إلا بعد تحقق الأشد ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد إلا بعد مدة ، ولكن يوسف (ع) من حين أن بلغ الأشدأوتي الرشد بإيتائه الحكم والعلم . (أحسنت)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ١ —

قال العلامة المعري [1] :

إيتاء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية

أصل « الحكم » الإلزام والمنع ، وسميت (حَكَمَةُ) الدابة بهذا الاسم

(١) نسبة الى معرة النعمان من بلاد الشام (سورية)

لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة ، و « الحكْم » ملكة في النفس بها يقرر الإنسان أن يحكم نفسه ، بحيث يلزمها الطاعات ، ويمنعها من المعاصي ، و « الحكم » بهذا المعنى هو « العصمة » التي تكون في الأنبياء ، ويجب علينا اعتقادها فيهم ، ولهذا كثر ذكر إيتاء الحكم لهم في القرآن الكريم بهـــذا المعنى ، والحكم بهذا المعنى تصدر عنه العلوم اللدُنية والمعارف الوهبية ، التي تكون في الدرجة الأولى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر العلم ههنا بعد الحكم .

ورأى بعض المحققين أن معنى « حكماً وعلماً » حكمة عملية ، وحكمة فكرية ، ويقـــال لمن أوتي الحكم أو الحكمة (حاكم وحكيم) ويقال لمن أوتي العلم (عالم وعليم) . فيوسف أوتي العلم العملي ، المدعو تارة بالحكم وتارة بالحكمة ، وأوتي العلم الفكري الذي هو معرفة الأشياء، وبعبارة ثانية: يوسف أوتي الحكم الذي فيه استخدام الجسم والحواس،والعلم الذي فيه استخدام العقل والروح،وبعبارة ثالثة:أوتي حكم النفس بالنفس،أي منعها عما لا ينبغي(وهذا المعنى يدخل فيه ما يدعونه بالعصمة والعفة أو الحفظ) ، وأوتي العلم اللدني الذي لا يصل اليه الانسان إلا بتلك المجاهدات ، فالثاني هو نتيجة الأول ، كما قال تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُم اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لكم فُرقَاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ رزقه الله ما لم يعلم » .

لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين

وأذكر انه اعتفاني أحد الطلبة يوماً من الأيام ، فاستفتاني قائلاً : نرى الله جل

جلاله قد أتبع كلمة « الحكم » بكلمة « العلم » في كتابه الكريم أربع مرات ، كما قال تعالى في شأن يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » وقال تعالى في شأن لوط : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٤) وقال تعالى في شأن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستَوى ، آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً ﴾ (٢٨ : ١٤)وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان : ﴿ وكُلّاً آتَيْنا حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٩) قال : فلماذا نراه تعالى يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً ، مدحاً وثناءً على أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ؟... فأفتيته بقولي : إن الله تعالى علم أنه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون : (إن الحكم فرع عن العلم، فمتى كان الانسان عليماً كان حكيماً ، لأن علمه يحكمه ويمنعه من ارتكاب ما لا ينبغي ، ويدفعه لعمل ما ينبغي ، ومن هؤلاء « ابن رشد » من فلاسفة الاسلام فيما حكي عنه ...، وقد قالوا : « إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط ، أما العلماء ففي غنى عنه بعلمهم » ، وقلت له : فلذلك سبق الله تعالى وذكر العلم بعد الحكم ، ليشير إلى أنه ليس الحكم ينشأ عن العلم ، ولكن عن الدين ، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين ، سواء أكان عالماً أم جاهلاً ، نعم يوجد قبل الحكم علم يقال له علم الشريعة أو علم الفقه ، ويوجد بعد الحكم علم يقال له العلم اللدني ، ويقال لأولهما كسبي ولثانيهما وهبي ، وليس الفقه ، بمعنى معرفة الأحكام ، هو المراد من كلمة « علم » في هذه الآيات ، بل المراد منها العلم اللدني الوهبي ، وتسبب العلم الوهبي عن الحكم ظاهر ، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه ، « فكم من فقيه ، يتبلغ المأذنة في فيه ... » .

فظهر مما قررنا ان لفظ « الحكم » هنا مرادف للفظ الحكمة ، لا فرق بينهما، أبداً ، يقال : « الصمتُ حُكمٌ » أي حكمة ، على حد مافي قول المتنبي :

إن بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضُه أحكامُ

فأحكام جمع حُكْم مراداً منه الحكمة ، ومعنى آتيناه حكماً وعلماً ، أنعمنا عليه برتبتين : : رتبة « حكيم » ورتبة « عليم » ، بل وحققناه بذلك ، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية .

تفسير العلم بالمعرفة

هذا وقد قال بعض الأصدقاء : إن لفظ (العلم) في القرآن أينما وجد هو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها ، وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان (قارون) : ﴿ قالَ : إنَّما أوتِيتُهُ — أي المال — على عِلْمٍ عندي ﴾ (٣٩ : ٤٩) أي معرفة بطرق كسب المال ، ومنه قوله : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ﴾ على قول المفسرين إن معناه تفسير المرائي المنامية ، ومن علمه الدنيوي أيضاً انه بعد ما عبر وهو في السجن رؤيا (الملك) التي جاءه بها (الساقي) أتبعه بتدبير (اقتصادي) وهو قوله : « تزرعون .. الخ » وعلم الاقتصاد من العلوم الدنيوية . وبعد ، فأكثر ما يستعمل (العلم) في المعرفة التي توصل إلى الهداية كما يوجد ذلك في أكثر آيات القرآن .

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٢ —

وقالت السيدة قوت القلوب المصرية :

ايتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل

أوتي يوسف « الحكم » بحيث صار يحكم نفسه عما لا يليق ، لأنه قوي الإرادة وهذا هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ، لأن الناس يتشابهون في ميولهم

البدنية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة ، وإنما يتفاضلون بقوةالإرادة على كبح الشهوات ، والعمل بما يقتضيه الشرع ويوجبه الضمير ، ففي مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس ، وأقربهم إلى الفضيلة أقواهم إرادة،فأهل النزاهة والعفة لايفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم ، ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم ، فاذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر ، وعاشوا في راحة وسعادة ، يدلك على ذلك ان الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ، ويستسلمون لأهوائهم ، لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم .

ثم أوتي يوسف « العلم » الذي هو نور العقول ، وحياة النفوس ، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم الأنبياء ﷺ : ﴿ وقُلْ ربِّ زِدْنِي عِلماً ﴾ (٢٠ : ١١٤) ، وقوله ﷺ : ﴿ إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ﴾ .

والعلم خير من المال ، لأنك أنت تحرس المال ، ولكن العلم يحرسك ، والمال بلا علم صائر للزوال :

إذا لم يكن علم يزان به الفتى فمال الفتى جهل عظيم يشينه
لعمرك إن المال داعيةُ الهوى إذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

يمكن رفع الانسان وخفضه في كل وقت ، والآلة الرافعة والخافضة له هي العلم أو الجهل ، وعلة العلل في ارتقاء الانسان وانحطاطه هي العلم أو الجهل ، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية ، والعلم هو أهم سلاح تسلح به يوسف للانتصار على العزيز وامرأته ، ثم للرقي إلى البلاط الملكي ، ثم للانتصار على إخوته ، فبعلمه وهو «فرد»

انتصر عليهم ، وهم « عصبة » هو فزع إلى القوة العلمية ، وهم فزعوا إلى القوة الجسمية ، والجاهل ولو قوياً بالجسم ، مع العلم ولو ضعيفاً بالبدن ، كالأعزل مع المدجج بالسلاح .

وبعد ، فيظهر لنا ان إيتاء الله يوسف — وهو في بدء سن الأشد — الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير ، فهو بإيتائه « الحكم » يكون قد ملك نفسه وهواه ، وبإيتائه « العلم » يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي .

ورد في الحديث الشريف : « الشباب شعبة من شعب الجنون » ، وقال بعض الشعراء :

إن الشباب والفراغ والجِدَه مفسدة للمرء أيّ مفسده

فالعادة ان الانسان في شرخ شبابه ، تكمل فيه قوة الشهوة الحيوانية ، فيميل مع هواه ، وينزل على إرادة عواطفه ، حتى انه ليستغرب حال من يخالف هذه العاطفة ، كما في حديث : « عجب ربكم من شاب ليس له صبوه » ، ولكن في نحو هذا الوقت أوتي يوسف مايؤتاه الشيوخ الكبار ، من العفة والطهارة والعلم الوهبي. فهذا القول : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجري المحسنين » . كالتمهيد الاستدراكي أو كالاستدراك التمهيدي قبل قوله : « وراودته التي...الخ» فكأن الله تعالى يقول : قبلما تراوده تلك المرأة عن نفسه هو كان قد ترقى إلى الدرجات العُلَى ، وصار كأهل الملأ الأعلى ، طهارة وصفاء وقداسة ، وأحْرِ بمن آتاه الله (الحكم والعلم) أن يكون طاهر النفس ، ونقي الثوب .

(حسن وحسن جداً)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٣ —

وقال السيد محمد الجاوي[١]

سبب تقديم الحكم على العلم

قدم الله الحكم على العلم ، مع ان العلم مقدم على الحكم ، لأن الانسان أولاً ، يعلم ثم يعمل ، لِسرٍّ دقيق لا يعقله إلا من وفقه الله تعالى لفهم دقائق أسرار كلام الله العزيز جل جلاله وذلك انه لا يلزم من العلم الحكم ، فكم وكم من عالم لا يقف عند حدود علمه ولا يعمل به ، كما انه لا يلزم من الحكم العلم ، فكم وكم من حاكم لنفسه تقليداً لغيره ، مع جهله وقلة علمه ، فلا يقع فيما نهى الله عنه ، ولكن لا عن علم بل عن تقليد ، وعلى هذا فلا ملازمة بين الحكم والعلم ، فقد يكون حكم بدون علم ، ولكن عن تقليد ، وقد يكون علم بدون حكم ، وهو الذي لا يعمل بعلمه ، وهما مصيبتان كبريان ، وفتنتان عظيمتان ، ولكن أيهما أكبر من أختها ؟ لا شك ان الثانية أكبر من الأولى ،

وعالم بعلمه لم يعملن   معذب من قبل عباد الوثن

فالخاطيء عن جهل ، أخف جرماً من الخاطيء بعد العلم ، والجاهل التقي ، خير من العالم الشقي ، إذاً فالتقوى مع الجهل ، خير من الشقوة مع العلم ، وبذلك صار الحكم أهم من العلم ، وان المهم المقدم ، وقد أخبر تعالى أن اتباع الهوى ، وهذا يكون بترك الحكم ، يضل عن سبيل الله ، ولم يخبرنا بأن عدم العلم كذلك ، فقد يكون الانسان سالكاً سبيل الله تقليداً ، لا علماً كما قررناه ، قال تعالى : ﴿ ياداودُ إنّا جعلناكَ خليفةً

(١) نسبة الى جزيرة جاوة من بلاد اندونيسيا .

في الأرض ، فاحكمْ بين الناس بالحق،ولا تتَّبِع الهوى ، فيُضِلّكَ عن سبيلِ اللهِ ، إنّ الذين يَضِلّونَ عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديد بما نسوا يومَ الحساب ﴾ (٣٨ : ٢٦) ولم يردوعيد كهذا للجاهل ،ولا تنس ههنا ان أهل الفترة الناجون ، وان المغضوب عليهم أقبح من الضالين ، وان الغواة أرباب الشهوات ، أقبح من الضلال أصحاب الظنون والشبهات .

(وكذلك نجزي المحسنين)

— ١ —

قال مولانا عمر البيلاني [١] .

إن لي على هذه الآية الكريمة خمسةَ تعاليق :

الإجماع على احسان يوسف

التعليق الأول:ــ نسمع هذه الآية في هذه السورة ترن على آذاننا كثيراً،فمرة نسمع الله يقول في شأن يوسف : ﴿ وكذلكَ نجزي المُحسِنين ﴾ (آ ٢٢) ، ثم نسمع الفتيين السجينين يقولان له : ﴿ نبِّئْنا بتأويله ، إنّا نراك من المحسنين ﴾ (آ ٣٦) ، ثم نسمع إخوته يقولون له : ﴿ فخُذْ أحدَنا مكانَه إنّا نراكَ مِنَ المحسنين ﴾ (آ ٧٨) ، ثم سمعناها من فم يوسف نفسه متحدثاً بنعمة ربه يقول : ﴿ إنه مَنْ يتّقِ ويصبرْ فإنّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين ﴾ (آ ٩٠) ، وهذا من قبيل توارد الخواطر ، الذي يفيد تحقق مورده ، فالرب والعبد ، والأقارب والأباعد نطقوا بنغمة واحدة ، هي ان يوسف كان محسناً ولا بد .

الجزاء على السبب لا على النسب

التعليق الثاني : ــ لم يقل : وكذلك نجزي أولاد الأنبياء ، أو يقل : وكذلك

---

(١) نسبة الى بيلان من بلاد الشام (سورية)

نجزي ذوي البيوتات العريقة في المجد ، بل جعل هذه المجازاة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته،لأن الله تعالى لا ينظر للأنساب والأحساب ولكنه ينظر الى الأعمال والنوايا ، فالمرء بأعماله ، لا بآماله ، وبسببه ، لا بنسبه ، وبطي لسانه ، لا بطيلسانه ، وبأصغريه ، قلبه ولسانه ، وبِجَنانه ، لا بِجِنانه .

اركان الاحسان

التعليق الثالث : — رب سائل يسأل : ما هوهذا الاحسان الذي كان يوسف متحلياً به ، حتى استحق المكافأة عليه ، وصار به خليقاً لايتاء الله إياه (الحكم) وجديراً أن يُسدي الله اليه مَوْهَبَة (العلم) اللدني ؟

فنجيب قائلين : الاحسان يقوم بثلاثة أركان ، الركن الأول — العقيدة ، وهي الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والركن الثاني — الأعمال البدنية والمالية ، وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة وما إلى ذلك ، والركن الثالث — الآداب مع الله والناس،والأخلاق الفاضلة ؛ وذلك يقوم بسلامة القلب ، وحسن النية ، وطهارة الوجدان ، وصلة الرحم ، ونفع أهل الجوار ، والنصيحة والارشاد ، والصبر عن وعلى ، والوفاء بالوعد ، والثبات على العهد ، والصدق في القول والعمل ، والوداعة ومحبة الخلق ، والتفكر في آلاء الله تعالى ومصنوعاته ، وآياته العجيبة ، وطاعة الوالدين ، والعفو عن المسيء ، والصفح عن الزلات والحلم والأناة ومقابلة السيئة بالحسنة وخدمة الإنسانية وخدمة المصالح العامة ، والكف عن الضرب والقتل والسرقة ، وزجر النفس عن الكبرياء والغضب ، والرجوع إلى الحق بعد ظهوره ، وتنزيه القلب عن الحقد والبغض ، وصون اللسان وسائر الأركان عن الكذب والبهتان ، وترك الغيبة والنميمة وكل أمر مكروه ، وعدم البغيان على أي إنسان ، ومزايلة الأشرار .

اركان الاحسان في القرآن وتحلي يوسف بها

قال تعالى وفيه صراحة بالأركان الثلاثة ﴿ ليسَ البِرَّ أنْ تُولُّوا وجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبِيِّنَ ؛ وآتَى المالَ - على حُبِّهِ - ذَوِي القُرْبَى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السَّبِيلِ ، والسائلينَ وفي الرقابِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ ،والمُوفونَ بعَهدِهِم إذا عاهَدُوا ،والصَّابِرِينَ في البأساءِ والضراءِ وَحينَ البأسِ . أولئكَ الذينَ صَدَقُوا، وأولئكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ (٢ : ١٧٧) ، ولقد كان يوسف متحلياً بهذه الأركان الثلاثة التي منها إيتاؤه المال ذوي القربى ، إذ أنه أمر فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم ، فهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، ومنها صبره في البأساء والضراء كصبره في غيابة السجن وصبره على أخذه لمصر وبيعه وخدمته في بيت العزيز كعبد ، وصبره عن السوء والفحشاء ، وفي غياهب الحبس وصبره عن شفاء غليله من إخوته .

وقال تعالى وفيه عشرة أسهم من أسهم الدين : ﴿ التَّائِبُونَ العابدونَ الحامدونَ السائحونَ الراكعون الساجدونَ ، الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عن المنكرِ ، والحافظونَ لحدودِ اللهِ وبَشِّرِ المؤمنينَ ﴾ (٩ : ١١٣) ، ولقد كان يوسف (تائباً) راجعاً في كل حين إلى ربه ، (عابداً) له بأركانه وجنانه (حامداً) له أيام حريته وأيام رقه (سائحاً) بهجرته من بلاد الهوان إلى بلاد الإطمئنان (راكعاً ساجداً) لمولاه (آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر) كما وقع منه مع الفتيين السجينين ، إذ نهاهما عن الوثنية ، وأمرهما بالتوحيد ، (حافظاً لحدود الله) إذ لم ينزل على إرادة امرأة العزيز ولم يخن سيده في أهله وعرضه .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنونَ ، الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خاشِعونَ ، والذينَ هم عن اللَّغْوِ مُعْرِضون، والذين هم للزكاةِ فاعلون ، والذين هم لِفُرُوجِهِم حافِظُون ، ـ إلى أن يقول ـ والذين هُمْ لِأَماناتِهِم وَعَهْدِهِمْ راعونَ ، والذين هُمْ على صَلواتِهِم يُحافِظونَ ، أولئك هم الوارثون ؛ الذين يَرِثُون الفِرْدَوْسَ ، هُمْ فيها خالِدونَ ﴾ (٢٣ : ١ ـ ١١) وبديهي أن يوسف كان (مؤمناً) بالله (خاشعاً في صلاته) لمولاه (معرضاً عن اللغو) كما ظهر ذلك جلياً في إعراضه عن لغو إخوته حينما قالوا له : ﴿ إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّها يُوسفُ في نفسِهِ ولم يُبْدِها لهم ﴾ (مزكياً) كما آنس منه إخوته ذلك إذ قالوا له: ﴿ وتَصَدَّقْ علينا إنَّ اللهَ يجزي المتصدقين ﴾ ولا بد أن يكون قد صدّق ظنهم فيه (حافظاً لفرجه) ، (مراعياً لأمانته) كما ظهر ذلك بأجلى مظاهره في حادثة سيدته معه .

فما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة هو قوام الإحسان الذي وصف به يوسف عليه السلام ، ولذا كان خليقاً بما أنعم الله عليه من الوسامين المرصعين ، وهما وساما (الحكم) و (العلم) مكافأة له على إحسانه. وفي قوله تعالى : ﴿ وكذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ ﴾ تقريظ ليوسف ، بأنه لم يؤت ما أوتيه مجاناً أو محاباة ، لا . لا . بل لسابق إحسانه في أقواله وأعماله ونواياه وسرائره ، أي أنه تعالى وجه عليه وِسامَي (الحكم والعلم) لأنه محسن ، فهو قمن بذلك ، وهكذا هو تعالى يجزي سائر المحسنين .

الجزاء يكون في الدنيا كما في الآخرة

التعليق الرابع ــ قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يريد به الجزاء الدنيوي ، لأن هذا الجزاء الذي عجل ليوسف هو كان في الدنيا ، كما سيأتي قوله

في موضع آخر : ﴿ وكذلكَ مَكـنَّا ليوسفَ في الأرضِ ، يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يشاءُ ، نُصيبُ برحمَتِنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المحسنين ، ولأجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يَتَّقُونَ ﴾ (آ٥٦ و ٥٧) .

فكثيراً ما يصيب الإنسان في الدنيا صنوف من الخير ، جزاء على أعماله الصالحة ، وصنوف من الشر ، عقاباً له بما اجترح من الأعمال السيئة ، كما يظهر لمن تدبر سنة الله في خلقه ، ودرس تواريخ الأمم الخالية والأمم الحاضرة، فليس الجزاء على الأعمال الصالحة ، والأعمال السيئة مقصوراً على الآخرة فقط ، بل يكون في الدنيا كما في الآخرة ، ولكن لكل دار ما يناسبها من الجزاء .

(فالحكم والعلم) الذي أوتيه يوسف هو من الجزاء الذي يستحقه على إحسانه ، جزاء معجلاً في الدنيا ، فهو من قبيل : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢)، ومن قبيل : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ، إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لكم فُرقاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ومن قبيل : ﴿ ذلكَ مِمَّا علَّمَني ربِّي ، إنِّي تَرَكْتُ مِلةَ قومٍ لا يؤمنونَ باللهِ ﴾ (آ٣٧) الخ حيث جعل تعليم ربه له ثواباً على ترك الوثنية واتباع التوحيد .

فيوسف أحسَن أعماله وأقواله ونواياه ، فأحسن الله اليه ، لأنه : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحسانِ إلاّ الاحسانُ ﴾ (٥٥ : ٦٠) وهذه قاعدة جارية في الدنيا والآخرة ، لأن كلام الله تعالى فيها مطلق ، نعم هو في الدنيا مطرد في الامم ، وغير مطرد في الأفراد ، وأما في الآخرة فهو مطرد للجميع .

الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالاحسان

التعليق الخامس — نتعلم من هذه الآية ان إيتاء الله (الحكم والعلم) ليس هو عطية شخصية ، ولكنها عطية وصفية ، وأريد أن أقول إنها ليست عطية خاصة

بشخص يوسف ، ولكنها عامة لكل من اتصف بالاحسان ، وهكذا العطية في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيوسفَ في الأرضِ ، يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يشاء ، نُصيبُ بِرَحمَتِنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ ﴾ (آ٥٦) فنتعلم منه ان كل من كان محسناً ، مكنه الله في الأرض ، وأصابه برحمته ، فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ، ولكنه منوط بالوصف ، يدور معه حيثما دار ، وهكذا نتعلم من قول يوسف الآتي : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ علينا ، إنهُ مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ ، فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحسِنين ﴾ (آ٩٠) ، فمِنّة الله على عباده بالنعم الوافرة ليست مرتبطة باشخاص مشخصين ، ولكنها مرتبطة بوصفي التقوى والصبر ، فأينما وجدت التقوى والصبر ، وجدت نعم الله .

الوعد يتناول الناس بحسب اوصافهم

نأخذ من المثل السابقة وأشباهها قاعدة ، هي : الوعد لا يكون قاصراً على أشخاص وآحاد معينين ، بل إنه يتناول الناس بحسب أوصافهم ، واليكم بعض الأمثلة على ذلكم من غير سورة يوسف :

(١) — ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ ﴾ (٣٤ : ٥٥) فالموعودون بالاستخلاف في الأرض ليسوا هم أشخاص الصحابة فقط ، بل كل من اتصف بالايمان والعمل الصالح .

(٢) — ﴿ إنْ تَنْصُروا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (٢٧ : ٧) فهذا الوعد ليس خاصاً بشخص الصحابة ، بل هو عام لكل من اتصف بنصر الله .

(٣) ﴿ رَبَّنا ... وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ ، ولا تُخْزِنا

يَومَ القِيَامةِ ، إنكَ لا تُخلِفُ الميعادَ ، فاستجابَ لهم رَبُّهم ﴾ الخ (٣ : ١٩٤ و ١٩٥) فهذه الاستجابة ليست خاصة باولئك الصحابة أولي الألباب ، الذين كانوا يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم،ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم يتلون هذا الدعاء ، وليست هـــذه الاستجابة منوطة بأفراد بحسب ذواتهم ومشخصاتهم ، بل هي عامة لكل من اتصف بتلك الأوصاف ، لأن فضل الله ليس قاصراً على شخص دون شخص ، ولكنه منوط بالأعمال والأوصاف ، فأينما وجدت الأعمال والأوصاف ، تحقق وعد الله تعالى ، فالله تعالى لا يراعي ولا يحابي الأشخاص ، ولا ينظر إلى الوجوه ، ولكنه ينظر إلى العمل التقي ، فينوط به الجزاء الآلهي .

الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر احسانه

وعلى هذا فيمكننا أن نقتطف من قوله تعالى : ﴿ وكذلكَ نجزي المحسنين ﴾ قاعدة كلية مطردة ، وهي ان كل محسن يؤتيه الله حكماً وعلماً ، على قدر إحسانه، ممن كان وممن هو كائن ، وممن سيكون وسوف يكون . فليعتبر بذلك القارئون والسامعون .

المراودة

آ (٢٣) ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأبْوابَ ، وقالتْ : هَيْتَ لَكَ ! ـ قالَ : مَعَاذَ اللهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والعشرون وما كاد المقرر ينتهي من تلاوتها حتى سمع جلبة من مقصورة النساء المؤتمرات كلا منهن تريد التكلم على هذه الآية فقامت أولاهن وهي السيدة انصاف الدمشقية وقالت :

في يوم من الأيام دخل يوسف القصر ليقوم ببعض الخِدَم والملاحظات والترتيبات على حسب عادته ، فانتهزت امرأة سيده فرصة خلو المكان من كل أحد ما عداهما ، فاقتربت منه (وراودته)أي كلمته (التي هو في بيتها) وهي السيدة زليخا ـ والمراودة مفاعلة من راد يرود : إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته ـ (عن نفسه) أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لايريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التمحل لمواقعته إياها (و) لما لم تفد المراودة الكلامية وقام بها تهيج جِنسيٌّ شديد (غلقت الأبواب) أي كل ماللقصر من أبواب ، حذراً من هروبه، وخوفاً من مجيء إحدى الخادمات على غفلة ولئلا يسمع أحد كلامهما ، إذ الأبواب والنوافذ « آذان البيت » (وقالت) له بصريح العبارة وبلسان الغرام والحب (هيت) أي أقبل ، فسألها لمن تقولين هذا الكلام ؟ ـ فقالت (لك) ـ (قال) بلسان العظمة والنفور : بَرْحَى ، لا

يكون ذلك دون أن يبيض الفار ويجتمع الليل والنهار ، أنا أخون مولاي العزيز في عرضه ؟!؟!؟!! .. (معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذاً (إنه) أي الشأن والحديث (ربي) سيـــدي ومالكي وهو فوطيفار ﴿ أحْسَنَ مثوايَ ﴾ حين قال لك : ﴿ أكرمي مثواه ﴾ ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿ إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجازون الحسن بالسيء .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ١ —

وقالت السيدة علية المكية [1] :

المراودة من زليخا والترفع من يوسف

جعلت زليخا تفكر فيما مر بها من الأهوال منذ عرفت يوسف ، وما رأته من حوادث الحب وهواجسه ، وتذكرت حالها قبل قدوم يوسف إليها ، وأنها كانت خلية البال ، لا تعرف الهواجس ولا الأفكار ، وكان السبب في ذلك كله الحب ، ذكرت يوسف وجماله فطارت عجباً ، ثم ذكرت أنه فتاها ورهين إشارتها فرقص قلبها طرباً وسهل عليها ما ينتابها من الشواغل والحب ،ظنت أن في وجوده عندها بصفته عبداً لها مؤتمراً بأمرها تعزية لها ، تنسيها الهموم وتخفف عنها الأحزان ، وتهون عليها أمر حبها له ، فانتعشت جوارحها وثابت إليها آمالها . وانجلى صدرها وانبسطت نفسها ، وكانت غادة في مقتبل العمر ، وشرخ الفتوة،جميلة الطلعة ، قد أشرق وجهها بماء الشباب ، وقد تعبدت له وسلمته قلبها . لأن المرأة

---

(١) نسبة الى مكة المكرمة من البلاد الحجازية .

تفوق الرجل في بعض القوى العاقلة ، كالإدراك عن طريق الحواس ، المعروف بالشعور ، وكسلامة البداهة والذوق العقلي ، فلذلك مالت إليه كثيراً . ومع كل هذا لم تكن ترى منه ميلاً وانعطافاً فلبثت أياماً تتردد بين اليأس والرجاء ينقبض صدرها تارة ، وينبسط أخرى ، فبالغت في تعزية نفسها عنـــه ، ولكنها لم تتعز ، فغلب الحب على عواطفها، واستحوذ الضعف الطبيعي وسلطان الهوى على مشاعرها وعيل صبرها ، نخضعت لعواطفها ، ورضخت لأميالها ، فانتهزت فرصة دخوله البيت ليصلح بعض شأنه ، كما هو العادة كل حين ، فلم يَرِمْ مكانه حتى دنت منـه ، وجعلت تنظر إليه نظرات الحب والشغف ، وتفضي إليه من طريق الصمت والسكون ، بما تخجل عن الإفضاء به من طريق الكلام ، ولما لم يفد معه ذلك ولم تطق هي صبراً استجمعت قواها فراودته ويا للخجل !!! ... فاقشعر بدنه ووقف شعره ، وقال مستهجناً مستغرباً : ماذا تقولين يا إمرأة ؟!..! لقـــد ابتغيت بيض الأنوق ، وطلبت المستحيل ، إني ولدت شريفاً ، وعشت شريفاً ، هو ذا دم الشرف والأصالة جار في عروقي ، وهاهي ذي العفة اليعقوبيـة سارية في كل جروحي ، فبعد ذلك هل أسمح للتاريخ أن يسجل عليّ فعل الفحشاء ؟...لا والذي نفسي بيده وبعد فهل لهذا غلقت الأبواب ، وتنازلت معي في الخطاب اللين ، فوالله ما أحسنت في القول ، ولا أجملت في الفعل .

الكبرياء

إنه لأمر غريب أمر هذه المرأة ! فقد كانت تحسب مراودتها إياه منة وتكرماً عليه، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بميلها أن يطير فرحاً ، لأن حاله الدنيوي منحط عن حالها كثيراً ، فهو فتاها وعبدهـــا ، وعبراني غريب ، وهو في نظرها من السوقة ، ومن سائر النـاس ، وهي سيدته وقرينة سيـده ، وأميرة من أميرات

البلاط الملكي ، ومن سلائل الفراعنة فلذلكم كانت تتوقع منه قبول اقتراحها ، والنزول على إرادتها بما لها من دالة السيادة والنفوذ .

المرأة العتيقة الجديدة

وغنى عن البيان ، أن هذه المرأة من قُدمَيَات النساء المصريات وهو ظاهر ، لأن بينها وبين الإسلام ما يقرب من (٣٧٠٠) سنة قمرية فهي بحسب الزمان من نوع « المرأة القديمة » ولكنها بحسب مسلكها وأفكارها . هي من نوع « المرأة الجديدة » ، إذ كانت لها السيادة المطلقة في المنزل ، بدليل قول العزيز لها : « أكرمي مثواه » ، وكانت تبغض الحجاب بغض الشريفات للسفور ، بدليل انها راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : « هيت لك » وكانت متهتكة لا تبالي بشيء ، بدليل انه لما هرب منها لحقته الى الباب ، وهي متعلمة نبيهة مدافعة كأكبر المحامين ، بدليل قولها للعزيز ،وهي في أحرج المواقف وأذهبها للألباب : ﴿ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ ، وقولها للسيدات المصريات: « هذا الذي لمتنني فيه » تقيم عليهن الحجة ، وكانت تعرف كل شيء ، إلا واجب عرضها وواجبات زوجها ، بدليل انها خانته في نفسها أولاً ، ثم لم تمتثل أمره ثانياً، وكانت لها المهارة في الخداع والتغلب على عقل الزوج ، بدليل انها نفذت وعيدها ليوسف بالسجن ، فاقنعت زوجها بذلك ، فسجنه حتى حين ، وأخيراً كانت ذات بيان واقتدار فصيحة وخطيبة بليغة ، بدليل النطق الذي فاهت به أمام مندوب التحقيق من طرف الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق » الى آخر الآيات الثلاث ، فهي بأوصافها هذه تعد من نوع « المرأة الجديدة » بكل معنى الكلمة .

المرأة أعف من الرجل

وقبل الختام ليسمح لي السامعون الكرام أن أنتصر للمرأة ولهم عليّ أن لا أتكلم إلا بما يوافق العقل والمنطق وبما هو مدون في بطن كتب التاريخ :

إن هذا النوع من بدء المرأة بمراودة الرجل نادر ، وقليل جداً ، ومن المسلم به أن المرأة تقل عن الرجل فساداً وشذوذاً ، وتزيد عليه فضلا وعفة ، انظر إلى أيّ بلد شئت من البلاد الكبيرة ، وتطلع فيها الى « دور الفسق » تجد في كل بلد يعد أهله الخمسين الفاً من السكان ، الفاً من النساء من تلك الطبقة « الشاردة » وتجد من يرتادون هذه الدور من الرجال عشرة آلاف ، أي أن كل واحدة من « الشاردات » يقابلها عشرة من « الشاردين » وهذا تقدير تقريبي ، ولكنا نظن أنه صحيح في الأغلب ، بالنظر للبلاد الكبيرة ، التي دخلتها المدنية العوجاء ، وأما البلاد المتوسطة « فالساقطات » فيها ، هن واحدة في المئة ، وأما البلاد الصغيرة « فالساقطات » واحدة في الألف ، وربما شذ في بعض العائلات واحدة بينهاأولا يشذ منها أحد مطلقاً من النساء ، ولكن يكون قد خرج عن قانون العفة فيها جمع من الرجال ، وهذا أمر مشهود يعرفه جميع الناس ، ويعترفون بـه سراً ، إذا لم يكن جهراً ، وها نحن أولاً نلاحظ أن المرأة في الشارع أكثر حشمة ووقاراً من الرجل ، ويندر أن تتحرش امرأة برجل ، حتى ولو كانت من « الشواذ » إلا قليلاً ، ولا نرى المضايقة تأتي إلا من قبل الرجال ، بما فيها من كلام لطيف أو خشن .

وظاهر ان للمرأة رجحاناً في كفةالعفاف على الرجل ، وهذه ميزة لها ، يجب علينا الاعتداد بها والافتخار ، وترويض النفوس على الاقتداء بما فيها .

وأما حادثة «امرأة العزيز» مع يوسف «فشاذة» بسبب أن تلك المرأة اندهشت بجماله العبراني ، فلم تمد تمالك ، ومما سهلها كثرة اختلاطها به ، وأنه تحت أمرها ويوسف أبى عليها بما أوتي من عفة وطهارة ، فهذه حادثة نادرة في بابها ، فما كل النساء « زليخا » ولا كل الشباب « يوسف » .

وما أريد من هـذا البحث إلا رفع الغرور من رؤوس الذين يتبجحون بفضائلهم ورذل المرأة واحتقارها لهفوتها ، وبظني إن مراودة امرأة لرجل أندر من الكبريت الأحمر ، ولذلك ذكرت هذه المراودة في التاريخ الذي لا يذكر فيه إلا الشيء النادر ، ولو كان يعتنى في التاريخ بذكر فواحش الرجال ، لكانت صحفه مملوءة أكثر مما هي اليوم مرتين ، ولا أحسبكم إلا مسلمون لي في هـذا الاعتقاد على طول الخط .

مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب

وتابعت السيدة عليه المكية خطابها قائلة :

والآن ليسمح لي السادة المؤتمرون أن أجري مقابلة بين امرأة العزيز «زليخا» وبين بعض نساء العرب الفضليات اللواتي سطر التاريخ فضلهن وعفتهن ورجاحة عقلهن بمداد من الفخار والشرف فأقول :

١ ــ أين هذه المرأة (زليخا) من السيدة (خديجة بنت خويلد) ، زوج النبي وأم المؤمنين ، فانها لما رغبت في النبي ﷺ أرسلت إليه عجوزاً تشوقه في خطبتها من وليها ، فالنبي ﷺ بعد مشورة أعمامه ، خطبها من أبيها ، فاقترن بها .

٢ ــ بل أين هذه المرأة (زليخا) من (هند بنت عُتْبَة) التي أراد أبوها أن يزوجها من أحد رجلين ، رجل ذي ثروة وجمال رائع .. ورجل ليس عنده

شيء من ذلك ، ولكنه منظور إليه في الحسب والنسب ، فعدلت عن صاحب الثروة والجمال ، واختارت الثاني فكان هو (أبا سفيان بن حرب) « فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني أمية ، وأحد نجباء العرب ودواهيهم .

٣ — وأين هذه المرأة (زليخا) من الفتاة (بهة بنت أوس) الطائي التي لما زفت إلى (الحارث المري) وأراد ان يدخل إليها ، نسيت لذتها وشهوتها وقالت له: « أتفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟!! » تشير إلى حرب ظلت مستمرة نحواً من أربعين سنة ، بين بني عبس وبني ذُبيان ، ولم يتفكر أحد في إطفائها إلاّ هيه ، فقال لها وهي بين ذراعيه . « ماذا تقولين ؟ » . قالت : « اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع إليّ !!! » ، فقام من عندها وخرج ومشى بالصلح ودفع الديات ، ثم رجع إليها وحظي بها ، فلا ريب أن مسلك هؤلاء النسوة كان خيراً جداً وأشرف مما سلكته (امرأة العزيز) التي كان معظم اجتهادها النظر إلى شهوتها ولذتها .

٤ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (معاذة الباهلية) التي نزل بها رجل من العرب ، وليس زوجها عندها ، فأكرمته وفرشت له ، فلما لم ير عندها أحداً سامها نفسها ، فأخذت مدية فأخفتها ، فلما ثار إليها ، ضربته بها في نحره ، فسقط ميتاً (مصارع المشاق ج ٣) .

٥ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (أسماء ابنة رويم) التي كانت من نساء العرب العاقلات الحكيمات الولودات والتي كانت تسمي أولادها بأسماء الوحوش الضارية ، قيل أنه مرّ بها يوماً (وائل بن ساقط) فرآها منفردة في خبائها ، فراودها عن نفسها فقالت : « والله لئن قربت مني ، لأدعون أسبعي » ـ فقال : ما أرى سواك في الوادي ، فصاحت ببنيها : « يا كلب يا ذئب ، يا فهد ، ياسبع ، يا دب ، يا ضبع ، يا نمر » فجاءوا يتعادَون بالسيوف ، فقال وائل : « ما هذا إلا

وادي السباع » فلزم هذا الإسم ذلك الوادي ، وقالوا لها : « ما شأنك ؟ » ـ قالت: « إنه نزل بنا ضيف فأحببت أن تكرموه » فأكرموه إكراماً زائداً وانصرف وهو يتعجب من ذريتها ومن حضور بديهتها ، لتحمل العذر الذي أبدته لأولادها !! .

هـذا قليل من كثير أيها السادة ولو أردت أن أسرد جميع ما كتب في التاريخ من أمثال ذلك لاحتجت إلى مئات من الصحائف .

« وما أن أتمت السيد علية خطابها حتى دوت في قاعة المؤتمر عاصفة حادة من التصفيق وكلمات الاستحسان » .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ٢ —

وقالت الآنسة أسماء المقدسية :

المراودة من طرف واحد

كانت زليخا أولاً فارغة من حب يوسف وسواه ، ولكن لما وُجد يوسف عندها على ما هو عليه من الصباحة ، ومقتبل الشباب ، وشرخ الفتوة، وتكررت (طبعاً) رؤيتها له صباح مساء ، علقت به من حيث لا تشعر ، ومن غريب أمر الحب أنه يقع على الناس وقوع السبات ، من حيث لا يعلمون .

أحبت يوسف ، وياليتها اقتصرت على الحب فعفّت وصبرت ، ليكون طاهراً، بل أرادت تلويثه بما فعلت ! إذ تاقت نفسها وشرهت ، وألحّ عليها الغرام ونازعتها الميول الجسدية واستولى عليها سلطان الحب فأنساها سلطانها،

وسلطان سيدها ، الذي كان رئيس الشُرَط ، وناظر الحَرَم ، وعزيز مصر ، والحب نافذ الكلمة ، ماضي القضاء ، غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ، ويحطّم سيوف القادة .

علقت زلَيخا بيوسف ، وأرادت قضاءوطرها منه ، فجعلت تفتكر هل تطيع قلبها وتعصي زوجها ؟ وهل سيكون عند يوسف مثل ماعندها ؟ وهل يمكنها الوصول لذلك بدون أن يشعر بها أحد من خدمة قصرها ؟ وهل يمكن ليوسف أن يدوس إرادتها تحت أقدامه ولا يمتثل أمرها ، وهي سيدته النافذة ؟ وهل سيُخفي هذا الأمر أو يُفشيه .

قضت في ذلك أياماً وليالي ، وهي تطوف في عالم الخيال ، ثم تعود إلى حيث بدأت ، حتى لم تعد تستطيع الصبر ، ولم تمالك السكوت ، فتغلبت عواطفها على عقلها ، واستسلمت لشيطان شهوتها ، وانقادت لميولها الحيوانية ، وآثرت اللذة الفانية ، على لذة الشرف الباقية وتنزلت عن عرش أنفتها وعزة نفسها ، وتزلفت له بالذوطاب من لطيف الخطاب ولما لم تكن ترجو الوصول لمطلوبها بسهولة ، افتكرت أن هذا الأمر يحتاج إلى روّية وتمهيد ، فابتدأت في مناغمة يوسف ومناغشته بالبسمة الخفية ، فلم تجد منه سوى الجد والإغضاء والصلابة ، ولم تر في شيء من حركاته وأقواله مايفتح لها نافذة من الأمل ، ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس فيها ، وكانت أميالها وآمالها تقوى شيئاً فشيئاً ، — والخلوة — كما يقولون — رُقية الفحشاء — ، كما ان — الجمال عزيمة الحب — فراودته جائية ذاهبة وذاهبة جائية ، ولكن هو لم يراودها ، فالمفاعلة من واحد ، كمطالبة الدائن ، ومماطلة المديون ، ومداواة الطبيب ونظائرها ، مما يكون من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الجانب الآخر سببه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقَاسَمَهُمَا ﴾ (٧ : ٢٠) أي حلف لهما ، ولم يحلفا له ، كما قاله البخاري ، ومنه كلمة : فقاطع كلامه .

وإنما وقعت المراودة منها فقط لأن الغريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً ، فضلاً عن أن عواطفها تتغلب على عقلها بعكس الرجل الذي يتغلب عقله على عواطفه ، فهي أحس بالجمال من الرجل وإن كانت أضيق له فهماً ، ولا تنس ما ليوسف عليه السلام من عفة دينية ، لا يزعزعها جمال ولا جبال .

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)

— ٣ —

وقال الامام الظاهري لي على هذه الفقرة التعليقات التالية :

الحكمة من ذكر حديث المراودة

١ — لا بد لسائل يسأل عن الحكمة في ذكر حديث المراودة فنقول إن في ذلكم هي العبرة للقارئين ، ليحتاطوا لأنفسهم فلا يقتنوا في بيوتهم الفتيان والمماليك وإذا اقتنوهم لم يسوغوا لهم الخلوة بنسائهم فإنهم إن يفعلوا هكذا يمزقون أعراضهم بأيديهم ، ولا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، إذ ليس كل فتى هو يوسف ، وليس كل مملوك كهذا « الملك الكريم » كما إن الحكمة في ذكر حديث المراودة الصادر من امرأة العزيز وذكر تهتك النسوة المصريات وعشقهن ليوسف واستغراقهن في جماله وتقطيعهن أيديهن وتغزلهن في محاسنه ، هو الذم في أهله بصورة تبغضه وتنفر عنه ، وتوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه ، وتبين سوء عاقبة أهله ثم تبين عفة يوسف وطهارته ، وحسن عاقبة المتعففين ، وسوء عاقبة الساقطين ، هذا وقد قص الله تعالى علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء والمتقين وقصص الفجار والكافرين ، لنعتبر بالأمرين ، فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ، ونجتنب فعالهم .

والحكمة أيضاً في ذكر قصة المراودة هي تعليم الاناث ان عاقبة مراودة الشابات للشبان إنما هي الخزي والعار وسوء السمعة وانها مهما اجتهدت في قلب الحقيقة وستر الفحشاء ، فلا بد أن الله تعالى يظهر الحق ويدافع عن الأبرياء الأعفاء وإن الانثى الساقطة قد يكون أبوها أو أخوها أو غيرهما من أهلها من المقاومين لها ، كما اتفق أن الرجل الشاهد من أهل زليخا كان من أعظم المقاومين لها وكذا زوجها العزيز ، وكذلك صديقاتها النسوة المصريات ، وان العاقبة للأعفاء الطاهرين ، وفيه أيضاً تعليم أن سقوط الإمرأة أو محاولتها السقوط ربما يسبب زوال محنة بزوجها ، كما وقع لزوج زليخا فانه أنزل عن وظيفة« عزيز مصر »بسبب أعمال زوجته ، فظهر أن في قراءة هذه القصة أو هذه السورة فائدة كبرى للرجال والنساء .

وأما ما يرويه بعض المفسرين من حديث : « لا تعلموهن سورة يوسف ، علموهن سورة النور » فهو من الموضوعات ، وماذا يقول من يروي مثل هذه الأخبار الموضوعة في قوله تعالى : ﴿ إنَّا أنزَلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقِلون ﴾ (آ : ٢) هل هذا التعقل خاص بالرجال ؟! وما يقول في قوله تعالى: ﴿ نحنُ نقصُ عليكَ أحسنَ القَصصِ ﴾ (آ : ٣) فهل أحسن القصص هذا مخصوص بالرجال ؟! وماذا يقول في قوله تعالى : ﴿ لقد كان في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأولي الألباب ﴾ (آ : ١١١) فهل هذه العبرة هي منحة ومزية للرجال فقط ؟! وما القصد من قوله تعالى : ﴿ ذلكَ مِنْ أنباء الغيبِ نوحيه إليك ﴾ (آ : ١٠٢) فهل القصد نوحيه إليك لتبلغه للرجال فقط وتكتمه عن النساء أو لتبلغه للجميع كما هو مقتضى عموم قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسولُ ، بَلّغْ ما أُنزلَ إليكَ مِنْ رَبّك ، وإن لم تَفعلْ فما بلّغْتَ رسالته ﴾ (٥ : ٧٠) وهل القرآن نازل لأجل الرجال فقط أولهم وللنساء ؟ وهل تبليغ الرسول لما أنزل من ربه خاص

بناس دون ناس ، وبشيء من القرآن دون شيء ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم ،وإذا كنا منهيين عن تعليم نسائنا سورة يوسف لما فيها من ذكر قصة امرأة العزيز ، فلم لا ننهى عن كل قصة يوسف مع إخوته لما فيها من ذكر قطع الرحم والعقوق والختل .. والخ والخ .

فالخلاصة ان رواية النهي عن تعليم النساء سورة يوسف هي كاذبة محضة وفرية على الله ورسوله والله أعلم .

مواضع استعمال المراودة في القرآن

٢ـ لم تقع هذه المادة « المراودة » في القرآن الكريم إلا في موضوع الإحتيال والدهاء ، فحيناً استعملت في مفاوضة (امرأة العزيز) ليوسف الصديق ، كما هنا وحيناً استعملت لدى مفاوضه أبناء يعقوب لأبيهم في إرسال بنيامين معهم لمصر عند رحلتهم الثانية ، وذلك في قولهم : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ (آ : ٦١) وحيناً استعملت في مفاوضة السدوميين لنبي الله لوط (م) بشأن ضيوفه الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوهُ عن ضَيفِهِ ، فطمسنا أعينَهُم ﴾ (٥٤ : ٣٧) فهذه مواضع ثلاثة وردت فيها هذه المادة ، ولم ترد في غيرها ، وكلها من نوع التحيل والاستدراج كما قلنا .

اختلاط الرجل بالمرأة

٣ـ نعلم حق العلم أن الذي سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبراني (يوسف) إنما هو المخالطة والخلوة ، ولو لا ذلك لما حصل شيء مما ذكر .

قيل لأعرابية : « لِمَ زنيتِ بعبدِكِ ، ولم تزنِ بحرٍّ ، وما أغراك به ؟ ».-
قالت : « طول السواد ، وقرب الوساد » فما يمرق السهم من الرمية كمروق السيدة للباطل ولهذا كرة عبدها الذي تختلي بـه بلا رقيب ولا ملاحظ ، بخلاف ما إذا لم تكن هناك مخالطة ولا خلوة ، فان وصولها لهذا الأمر لبعيد جداً .

فاختلاط الرجل بالمرأة فيما إذا كان (مثلاً) زائراً أو خادماً كما هنا لهوا اختلاط محفوف بالمخاوف .

وبدعة الاختلاط ، وبالأحرى بدعة المفاوضات السرية الدنيئة ، موجودة (غالباً) في الطبقات العليا من الناس ، وإنما قلنا (غالباً) لأننا نعرف أنه يوجد في الطبقةالعليامن هن أعف وأشرف من كل من عداهن، وحكم الطبقات الدنيا كحكم العليا ، وأما الطبقات الوسطى ، فهن أبعد عن أمثال هذه البدعة من الطبقتين .

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة في العصور القديمة فهو من سموم العصور الحاضرة الحمقاء ، ومن دواعي السفور والخلاعة والاستهتار،

وقد أثبت كتاب أوربا وكاتباتها — ان سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو اختلاط المرأة بالرجل في البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرها من أبواب الحياة .

ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بالحجاب الحقيقي الشرعي ، وهو يتجلى في كل مايمنع الفتنة ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ ، قُلْ لأزواجِكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنينَ : يُدْنِينَ عليهنَّ مِنْ جلابيبِهنَّ ذلكَ أدنى أنْ يُعْرَفْنَ ، فلا يُؤْذَيْنَ ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٣٣: ٥٩) وقال تعالى : ﴿ وقُلْ للمؤمناتِ : يَغْضُضْنَ مِنْ أبْصارِهِنَّ ، ويحفَظْنَ فُروجَهُنَّ ، ولا يُبْدِينَ زينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ منها وليَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ، ولا يُبدينَ زينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أبنائِهِنَّ أو أبناءِ بُعولَتِهِنَّ أو إخوانِهِنَّ أو بني إخوانِهِنَّ أو بني أَخَواتِهِنَّ أو نسائِهِنَّ أو ما ملكَتْ أيمانُهُنَّ أو التابعينَ غيرِ أولي الإرْبَةِ مِنَ الرجالِ أوالطفلِ الذينَ لم يَظْهَرُوا على عَوراتِ النساءِ ،

ولا يَضْرِبْنَ بِأرجلِهِنَّ ، لِيُعْلَمَ ما يُخفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وتوبوا الى اللهِ جميعاً أيها المؤمنونَ ، لعلكم تُفلِحون . ﴾(٢٤ : ٣١)، ومعلوم أن يوسف لم يكن مملوكاً لامرأة العزيز ، بل لسيدهـا ، ولم يكن من غير أولى الا ربه ، بل من أصحابهـا .

هذا وإن الشرع الشريف ، يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، وكذلك مكالمتها للأجنبي مع الخلوة دون الملأ ، وأما مكالمة المرأة الرجال في الملأ ، فجائزة ، كما كان يقع ذلك من نساء النبي (ص) مع الأجانب ، وهن اللاتي أُمِرْنَ بالمبالغة في الحجاب ، وقد ورد : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلم إحدى أزواجه « زينب » في باب المسجد ، فمر رجلان ، فأسرعا في المشي ، فقال لهما : على رسلكما ، إنها فلانة » ففي هذا تنبيه للمسلمين ، الى أنه لايجوز للرجل أن يخلو بامرأة ، مهما كان صالحاً ، هذا في الشريعة الاسلامية ، ولعل الشريعة الابراهيمية — العبرانية — كانت تبيح كلا من الخلوة ، والمكالمة في الخلوة ، كما وقع من يوسف ، أو لعل يوسف كان يرى نفسه مقهوراً على ذلك ، حيث انه عبد .

وقد أباح علماء المسلمين رؤية الوجه واليدين ، قائلين إنهما ليسا بعورة ، ومن قال إنها عورة أباح رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة ، وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والمحاسبة وما إلى ذلك ، وبالجملة : فالمدار عندهم على الحاجة كائنة ما كانت .

وجه اضافة البيت الى زليخا

٤ـ كثيراً ما أضيف البيت إلى النساء باعتبار انهن القائمات بمصالحه ، أو الملازمات له ، كما يقول الكتاب : ﴿ وَقَرْنَ في بيوتِكُنَّ ﴾ (٣٣ : ٣٣) و ﴿ هَلْ أدلُّكُمْ على أهلِ بيتٍ تكفُلُونَهُ لكم ؟ ﴾ (٢٨ : ١٢) و ﴿ إنما

يريـــدُ اللهُ ليُذْهِبَ عنكُم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ﴾ (٣٣ : ٣٣) ﴿ ولا تخرِجُوهُنَّ مِنْ بيُوتِهِنَّ ﴾ (٦٥ : ١) هذا وجه ، ووجه آخر، وهو انه قد يكون لنساء الحكام والأمراء ، وذوي البيوتات الرفيعة بيت خاص بهن ، لزيارة النساء ، كما يكون للرجال بيت خاص بهم ، لاستقبال الرجال ، ويكون بيت ثالث قريب من الباب يسمى بهواً .

وكلمة « في بيتها » ، أريد بها أمران ، الأول الستر عليها ما أمكن ، بعدم التصريح باسمها ، والثاني الإشارة إلى استهجان هـــذه المراودة بكون (امرأة العزيز) إنما راودت عبداً ، هو من خدمة القصر ، وممن حوام القصر للخدمة .

وفي تبيان أن يوسف « في بيتها » ثم تغليق الأبواب ، واستعدادها له ـ إعلاء لشأن يوسف ، لأن كونـه في بيتها أدعى إلى موافقتها ؛ وتغليق الأبواب ، أدعى وأدعى ، فان المستتر لا سيما مع من يملك أمره ـ يفعل ما لا يفعله الذي يستبين فعله ويظهر حاله ، وقد راودته من تملك أمره، وتملك نفعه وضره ، فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ما وصل إليه أهل العفة .

لماذا عبر بكلمة « عن نفسه »

٥ـ وأما كلمة « عن نفسه » فمعناها خادعته عن نفسه ، فعدّى بـ « عن » لتضمنه معنى المخادعة ، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه ، عن شيء لا يريد صاحبه إخراجه من يده ، وهو يحتال أن يأخذه منه ، والكلمة عبارة عن التمحل في مخالطته إياها .

عمر يوسف وزليخا حين المراودة

٦ - نعلم أن يوسف لما اشتراه (عزيز مصر) كان ابن ١٧ سنة وأما كم كان عمره وعمر زليخا حينما حدثت تلك الحوادث ، حوادث المراودة فذلك سؤال لا يمكننا الإجابة عنه ، غير ان الظاهر من التاريخ ، ان عمر يوسف حين المراودة كان يتراوح غالباً بين ٢٦ و٢٧ سنة ، كما أننا نقدر أن نستنتج من حال امرأة العزيز وشبقها وشغفها وحبوتها انها كانت نصفاً أو إلى الشباب أقرب .

(وغلقت الأبواب ..)

— ١ —

وقالت السيدة لطيفة العامرية :

أبواب قصر العزيز

لما دخل يوسف يوماً على جاري عادته قصر سيده العزيز ، انتهزت زليخا فرصة تلك الخلوة ، فأرادته ، فأبى ، وهكذا ما زالت تؤزه أزاً ، وهو لا يزداد إلا ترفعاً ، حتى اضطرها إلى أن قامت مسرعة وغلقت الأبواب ، ومنعت كل دخول وخروج منها ، وقالت : الآن اختر الحائط التي تريدها واخرج منها .

والأبواب هذه ، هي كما جرت العادة من القديم إلى الآن أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدة أبواب ونوافذ من الجهات الأربع ، أو أن يكون لكل قصر أبواب متتابعة بعضها وراء بعض خارجة وداخلة ووسطى ، وقد جرى «أبو حيان» في « البحر » على الاحتمال الأول إذ قال : « هي أبواب ليست على الترتيب باباً باباً بل هي في جهات مختلفة ، وكلها منافذ للبيت الذي كانا فيه » ، وقد قلنا شأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون للقصر الواحد عدة أبواب في عدة نواح للدخول

والخروج ، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور ، فلعل تلك المرأة أوصدت كل ذلك وقوله فيما يأتي : ﴿ واستبقا الباب ﴾ بالإفراد يؤيد الاحتمال الأول .

المراودة وتغليق الأبواب

وعندنا أن تغليقها الأبواب كان لأحد ثلاثة أسباب أو لجميعها :

الأول ــ التقدم لتلك الفعلة الشنعاء التي تُرخى على مثلها الستور ، وتُسد النوافذ ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .

الثاني ــ خوف أن يدخل أحد من الخدم والجواري الذين اعتادوا الدخول فيه بلا إذن ، ليعملوا عملهم ، أو خوف أن يبغتهم العزيز نفسه إذا جاء على حين غرة وفي غير وقت مجيئه المعتاد .

الثالث ــ خوفها أن يأبى يوسف عليها ، ويركن إلى الهروب من بين يديها ورب سائل يسأل : لماذا لم تغلق الأبواب قبل المراودة . مع أن فيه احتياطاً واحتفاظاً أكثر ، ثم أليست حكاية المراودة تكفي عن ذكر أنها قالت له « هيت لك » ؟ لأنهما شيء واحد ؟ فالجواب هو أن هذا السؤال مبني على أن ما ذكر في كلام الله تعالى هو حادثة واحدة ، وهو ما درج عليه المفسرون ، وعندنا انه يحتمل أنها حادثتان ، فالحادثة الأولى هي أن « امرأة العزيز » كانت رفعت عينيها إلى يوسف يوماً ما وراودته فأبى ، ثم كلمته يوماً آخر ولاحقته على أن يضطجع معها ، ولكنه لم يسمع وأبى إباء كلياً ، ثم حدث بعد ذلك أن دخل القصر ليقوم بما كان عليه من الأعمال والخدم ، باعتبار أنه وكيل البيت ، وناظر حرم، فكلمته أيضاً وأرادته على نفسها قائلة : « هيت لك » تعال اضطجع معي في هذه الكلّة ، فقال : « معاذ الله » الخ ما حكاه الله تعالى عنه ، فطلب امرأة العزيز

ليوسف تكرر مراراً ، كما صرح به في (تك ٣٩ : ٧ — ١٣) وقد أشار الله تعالى لذلك بكلمة « راودته » ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، لأن هذه الكلمة تشعر بالذهاب والإياب تكراراً ، كما نعلمه من كتب اللغة ؛ وبهذا التحقيق يظهر أنها حادثتان ، لا حادثة واحدة ، فقوله : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ يشير للحادثـة الأولى وقوله : ﴿وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك ﴾ الخ يشير للحادثة الثانية ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال بشقيه .

ويجوز أن تكون راودته بلطف وإيماء ، ولما لم تر منه نزولاً على إرادتها ، قامت وغلقت الأبواب ، وانتقلت من دور اللطف والايمـاء الى دور الصراحة والوضوح فقالت : « هيت لك » وعلى هذا فالحادثة واحدة ، والله تعالى أعلم .

ما معنى « غلّقت »

و « غلقت » أجافت وأوصدت دونه الأبواب ، وأرتجتهـا « بالمزلاج » وهـو ما يفتح باليد ، ويقال له في عرف اهل الشام « الدّقْر » ، حملاً على العوائد القديمة عنـد أهل العالَم ، أو ارتجتها « بالمغلاق » ويقـال له « الغلَق » ، وفي العرف « ضَبّة » وهذا لا يفتح إلا بالمفتاح ، أو غلقتها «بلاقطة» من خشب سهلة الحركة ، ويقال لها في عرف أهل الريف اليوم « لَقّيطة » .

وقد عبر « بغَلّقَتْ » دون « غَلَقَتْ » لأنه لُثْغَة أو لُغَيّة رديئـة متروكة « ولا يقال لباب الدار مغلوق » فما بقي إلاّ غلّق وأغلَق ، ولكن الأول أكثر استعمالاً ، وربما قالوا « أغلق » قليلاً ، والأفصح غلّق ، فلذلك اختير في كتاب الله هذا التعبير .

(وقالت هيت لك — قال : معاذ الله)

— ١ —

وقالت الحاجة صفية المقدسية :

طلب زليخا الفاحشة من يوسف واباء يوسف

عملت زليخا أمام يوسف كل عزيمة سحرية ، وحرقت بين يديه البخور ، وقالت بلغة الحب والغرام ، قالت وهي باشة متهللة قالت وهي ترقبه بعينين يشع منهما بريق الأمل ، قالت يا يوسف ، أمتع الله بك ، تعال لنقض من اللذات الأرب ، ثم ليكن بعد ذلك الطوفان ، يا يوسف ، إنني في خطر الموت من حبي لك ، وحياتي في يدك ، فهَلُمّ إليّ ؛ يا يوسف ، هذا صوتي ، فاسمعني صوتك ، وهذه رغبتي ، فأرني رغبتك ، وهذا حبي ، فأرني حبك ، وهذه إرادتي ، فأرني طاعتك ... وهكذا أقبلت به وأدبرت واجتهدت ، وفي لحن كلامها وملامحها ما يدل على شدة توافقها وتراميها ، بغية الوصول لهذا الأمر ، وكانت قد أخفت صوتها لئلا يسمعها أحد ، وجعلت تتطلع من النوافذ خوفاً من تجسس بعض الجواري أو القهرمانات.

سمع يوسف خطابها فتمعّر وجهه ، حتى صار كالصّرف ، وقال أيْ هَنْتاه ، لمن تقولين هذا القول ؟ — قالت لك وإياك أعني ، — قال هل غرك أني عبد لكِ ؟ ، « وأنكِ مهما تأمري القلب يفعل ؟ » حاشا لي من ذلك ؛

فكررت عليه القول وكرر عليها الإباء مبيناً لها حرمة الطلب وشناعة الملتمس ، ولما رأت منه ذلك أخذت تخطر في القصر وقلبها يخطر في صدرها ، ثم أعادت عليه الطلب مُلِحّة مُلحِفَة وأخذت تتبعه بنظراتها ، لتفحص صورة نفسه

المرتسمة على وجهه ، فما رأت إلا أنه قد اربدّ ، وعلاه لون الكدر والكمد وقال لها بملء فيه : برحىٰ برحىٰ ، معاذ الله ، وألف مرة معاذ الله حاشا لي أن اقدم على هذه العظيمة التي فيها العار والشنار ، وفي الآخرة النار .

وما زالت امرأة العزيز تستعطفه باللين تارة ، وتعـده بالسعادة تارة أخرى كما انها لم تترك وسيلة من الوسائل إلا اتخذتها للوصول الى غرضها منه ولكن يوسف كافح كفاح الاسود وصبر عما أرادته صبر الرجال ، وثبت على قداسته وطهارته .

ويظهر لنا ان استنكاف يوسف عن مس تلك الأميرة يعد من قبيل الإرهاص لنبوته ، لأن تعفف شاب من الشببة ، عن قربان سيدة أميرة ، تطلب منه وترغب اليه أن يعرفها ، حال كون هذا الطلب كان وهو في قصرهـا ، ليس عليها رقيب ولا ملاحظ ، ولا محلّ لخوف يوسف منها أو من زوجهـا ، لأنهـــا هي المتزلفة المتهافتة ، فهذا الامتنـــاع في مثل هذه الحال ، هو نادر في بابه جداً ، ويعد من الأولياء كرامة ، وممن سيكونون أنبياء إرهاصاً .

(انه ربي أحسن مثواي)

— ١ —

ووقف الشيخ أحمد من علماء « ليبيـا » ليلقي خطاباً حبرته يد السيدة عصمة بالنيابة عنها فقال :

اعتراف يوسف بالجميل

يقول يوسف ان فوطيفار رباني في عهد الثقافة بنعمته ، وكلأني برعايته ، فتح لى صدره ومنازله ، فيجب عليّ أن أحفظ كرامته ، أباح لي التصرف في بيتـه ،

واني إذا لم أحسب له حساباً ، يجب عليّ أن أحسب لفضله وخيره ألف حساب .

ألقى الي مقاليد أموره ، وهو صاحب نُعماي ، وقد أمنني على عرضه ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عقل له ، فلا ندحة من أن أحتفظ بمعروفه، لأن لي شرفاً أحب أن أبقي عليه . أكثر ما أُبقِيَ على متاع الدنيا ولذاتها .

إنني فقدت وطني وأهلي ، وخسرت أبويّ وإخوتي ، ولم يبق لي إلا شرفي ، فهو كل ما أصبحت أملكه ، من بعد ذلك كله ، فهل يسوغ لي أن أعدمه أيضاً ، وأُلحقه بتلك الخسائر ؟!.. حاشا لي من ذلك ...

نعم إنه ربي أحسن مثواى، وجداً أحسن مثواي فيما درج من الأيام، وبذل في سبيل راحتي كل مرتخص وغال ، ورَفَدني وأفضل عليّ ،ولا يُقدم على هذا الأمر، إلا كل ناس أو متناس للاحسان ، ميت الضمير ، لا زمام له يزجره ، ولا عقل يعقله ، وإن لي بحمد الله ضميرا حياً يؤنبني ، وعقلاً عاقلاً يعقلني .

هو جعل لي في قصره ، بل وفي قلبه ، المقام الأول ، وكلني على بيته ، وائتمنني على عقيلته وحرمه ، فيجب أن تكون حقوقه عندي مقدسة ، فان كان مثلي يخون ، فرحمة الله على الوكلاء ، وسلام على الأمناء ، إن ماسألتني إياه محظور من وجهين : وجه ديني ، ووجه أدبي ، فلو لم أدعِ هذا تأثماً ، لتركته تأدباً ، وإذا كانت الشرائع تقول : « لا تخن من خانَك » فكيف أخون أنا من أمنني؟وإذا أراد الله بعبد خيراً ، جعل صنائعه ومعروفه في أهل الحفاظ ، واذا أراد به شراً ، جعل صنائعه ومعروفه في غير أهل الحِفاظ ، كما نطقت بذلك الحِكم السماوية ، فهل تريدين أن أكون من غير أهل الحِفاظ ، هذا هو مرمى كلام يوسف (م) ومغزاه .

وهنا فوائد :

الأسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة

الفائدة الأولى — إن ما يبعد الانسان عن الفحش والمخالطة المحرمة ، هو إما سبب صحي يبين الخطر الهائل الكامن في هذا الفعل ، أو سبب ديني ، يدعو إلى الائتمار بأمر الله والانتهاء بنهيه والخوف من ناره وغضبه ، والرجاء في جنته ورضوانه أو سبب أدبي ، يدعو الى المحافظة على المروءة والشرف ، وحسن السمعة وكرم المحتد ، ومراعاة الامانة .

وظاهر ان الذي منع يوسف الصديق (ع) هو السببان الأخران ، الديني والأدبي ، فلهذا عصم نفسه بعصمة الله تعالى إياه .

توبيخ يوسف لزليخا ضمناً

الفائدة الثانية — كانت كلمة ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أشد وقعاً على رأس زليخا من الصاعقة ، ولما سمعتها اضطربت لها كل جارحة من جوارحها ، لأنها تذكرها بارتباطها بزوجها الرباط المقدس ، الذي لا يجيز لها مراودة سواه بمثل ذلك ، ولا ريب أنه عندما سمعت جوابه ، استاءت وخجلت بتلك الكلمة ، لما تضمنته من التوبيخ والتعنيف ، ولكن مع الاسف رغماً عن كل ذلك ، فما زالت مندفعة بتيار العواطف الرديئة ، حتى كررت عليه الطلب ، فالجأته الى همه بقتلها فالهرب كما سيأتي .

تعريض يوسف بزليخا

الفائدة الثالثة — يريد بقوله « إن ربي أحسن مثواي » نفسه ، ثم هو أيضاً يعرض به لها ، كأنه يقول : أنا أفتكر هذا الفكر ، وأحفظ لسيدي معروفه معي ، وأحافظ على شرفه ، فكان من الواجب عليك أنت أيضاً أن تحفظي لسيدك (الذي أحسن مثواك) حقه ، ولا تظلميه في التعدى على شرفه ، بل إن هذا بك أولى مني، فليس العبد أولى بحفظ معروف سيده وبالمحافظة على شرفه — من زوجته (شريكة حياته التي هي وهو إنسان واحد) .

المراد بالرب في قوله انه ربي

الفائدة الرابعة — نتعلم من قوله « إنه ربي » أن إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل — على غير الله تعالى كان جائزاً عند يوسف الصديق وفي عصره ، أو بعبارة أصح كان جائزاً في شريعة جده إبراهيم (م) بل إن مثل ذلك وارد في شريعتنا، ففي صحيح البخاري ، في أشراط الساعة الصغرى : « وأنْ تلد الأمة ربها » وفي رواية « ربتها » ، وربما جاء باللام عوضاً عن الاضافة إذا كان بمعنى السيد ، قال الحارث بن حلزة :

فهو الرب والشهيد على يوم الحِيَارَيْنِ والبلاء بــــلاء

(مصباح) ومنه ما في صحيح البخاري أيضاً : « إن تداول سلمان الفارسي بضعة عشر من ربّ إلى ربّ » ، أي تداولته الأيدي من مالك إلى مالك .

وعليه فيكون المراد ههنا « بالرب » — « عزيز مصر » والرب بمعنى السيد والمولى والمالك .

ومنه فيما أفهم على احتمال ما في قوله تعالى : ﴿ لولا أنْ رآى برهانَ رَبِّه ﴾ (آ : ٢٤) إذ يحتمل عندنا أنه بمعنى سيده ومالكه وهو فوطيفار ، وبرهانه هو إحسانه لمثواه . ومنه : ﴿ فيَسْقي رَبَّه خَمْراً ﴾ (آ : ٤١) أي سيده ومولاه وهو الريان مليك مصر .

ومنه : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ (آ : ٤٢) ، أي سيدك وهو الريان .

ومنه : ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّهِ ﴾ (آ : ٤٢) أي الريان .

ومنه : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ (آ : ٥٠) أي الملك الريان .

ومن هذا القبيل — فيما نفهم — مافي قول يوسف : ﴿ إنّ ربي بكيدِهِنَّ عليمٌ ﴾ (آ ٥٠) فربه ههنا فيما نفهم هو سيده ومالكه عزيز مصر ، الذي كان علم بكيدهن ، إذ قال : ﴿ إنَّ كَيدَكُنْ عظيمٌ ﴾ (آ ٢٨) ، ودليلنا على ذلك أن يوسف يريد الاحتجاج ، ولا تقوم له حجة ، إلا إذا كان المراد من لفظ « ربي » في هذه الآية هو ما فهمناه ، وأما علم الله فلا ينهض حجة عليهم ، لأنه غير مطّلع عليه ، بل هو غيب محض ومن اطلاق « الرب » على السيد ما في قول « أبي نُخَيْلَة » يمدح « هشاماً » :

إلى أميرِ المؤمنين المُجْدي　　رَبِّ مَعَدّ وسوى مَعَدّ

تعاليم الاسلام في كلمة الرب

الفائدة الخامسة — إطلاق « الرب » على غير الله تعالى اصطلاح عتيق ، كان جرى عليه الأشوريون والكلدان والسوريون والمصريون واليهود والنصارى — تبعاً لهم — والعرب في الجاهلية ، وبعض شعراء العرب في الاسلام ، الذين ما كانوا يتقيدون بالدين ، ولكن الاسلام يعلمنا أن لا نطلق كلمة « الرب » على غير

الله تعالى أدباً مع الله ، واحتياطاً في باب التوحيد ، ولهذا قال ﷺ : « لا يقولنّ أحدكم : عبدي ، أَمَتي ، ولا يقل المملوك ربي ، ليقل المالك فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك سيدي وسيدتي ، فانكم المملوكون ، والرب هو الله عز وجل » ، رواه الشيخان ، وهذا الأدب اللطيف أخذه النبي ﷺ من القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤ : ٢٤) ، ﴿ وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ (آ ٦٢) ، ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ (آ ٣٠) ، ﴿ ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ ﴾ (٢٤ : ٣٣) ، والصواب أن يمنع في غير ما ورد النص به فيما إذا كان معرفاً بأل ، أو مضافاً لعاقل عام ، وهذا نظير السجود ، أعني سجود إنسان لانسان على جهة الاحترام والترسم ، فانه كان جائزاً في العصور السابقة ، ولكنه منع في شريعتنا المحمدية منعاً مطلقاً ، احتياطاً في باب التوحيد ، والله تعالى أعلم .

هل كان العزيز خصياً حقيقة أو مجازاً

الفائدة السادسة — قيل : « كان العزيز خصياً ، فكانت امرأته ترسل الدمعة إثر الدمعة ، وتنتابها لوعة بعد لوعة ، كلما استعرضت حياة الزوجية الكاملة ، التي تكفل اللذة والولد ، ولكنها لم تزل خلواً من طفل محبوب تناغيه ، وطفلة جميلة تلاعبها ، لذلك فهي لا تفتأ تطلب الذرية ، وتسعى لها سعيها ، والآن قد سعت ذلك السعي الملوم ، ترمي بذلك حجراً لتصيد به صيدين ، أي لتحصل على استكمال الشهوة البدنية واللذة الجسمانية ، ولتكون أماً ويصير « العزيز » أباً ، ولكن على حساب سيدنا يوسف ، حماه الله وعصمه » .

ولكن الصحيح إن فوطيفار « عزيز مصر » لم يكن خصياً حقيقة لغوية ، بل

كان خصياً حقيقة عرفية ، جرى عليها عرف حكومات المصريين والأشوريين والكلدانيين ، وربما بل كثيراً ما يسمون المأمورين في التاريخ عبيداً ، والحقيقة أنهم أحرار وكاملو الخلقة ، ومن لم يقف على هذا الاصطلاح الذي جرى عليه قدماء المؤرخين تبعاً لاصطلاح تلك الحكومات دخل عليه من الغرور ما جرّأه أن يقول إن فوطيفار عزيز مصر كان خصياً حقيقة لغوية ، كما اغتر بنحو ذلك من المفسرين « ابن جرير » رحمه الله ، وأما قول عزيز مصر لامرأته « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » (آ ٢١) فلا تقتضي أنه كان خصياً مقطوع عضو الرجال ، إذ يجوز أن يكون عدم وجود ولد له ناشئاً لمانع من جانب زوجته أو لمانع من جانبه غير قطع العضو كالعقم أو الارتخاء أو العنة أو نحو ذلك مما بسطه علماء الطب، فافهموا ..

(انه لا يفلح الظالمون)

— ١ —

صعد على المنبر الشيخ حسين العاملي [١] وقال :

أيها الاخوان هذا خطاب السيدة سلمى بنت الحاج حسين الصيداوي فأرجوكم أن تصغوا اليه .

الظالم لا يفلح

يقول يوسف : إن سيدي خلق لك ، وأنت خلقت له ،فبعد ذلك هل يجوز لي أن أظلم سيدي وأتعدى على ما خصته الشريعة به ؟ — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون .

(١) نسبة الى جبل عامل في بلاد الشام (لبنان) .

أنا كما لي يد تتناول إحسان سيدي ، فلي قلب يحس بواجب شكره ، ويشعر بحفظ معروفه ، ويُقدّر إنسانيته معي حق قدرها، فهل يسوغ لي التغاضي عن ذلك الحس والشعور ؟ حتى أكون بذلك قد ظلمت قلبي وحسه وشعوره — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون .

أنا لا أمتنع من هذا العمل خوفاً من القانون ، فالقانون في هـذا البلد مدني لا أدبي ، ولا خوفاً من الحكومة ، فالحكومة (بالنسبة اليّ) هي أنت ، وأنت هيه ، ولا خوفاً من أبيك وولي أمرك ، فانهما لا يعلمان من حالنا شيئاً ، ولكني أخاف من ضميري يوبخني ، فان ربي فوطيفار أحسن مثواي ، وأخاف من (الأَلُوه) أن يكتبني في ديوان الظلمة ، الذين لا يفلحون ، حيث يجازون الحسن بالسيء . إن هذا العمل ، ظلم لسيدي العزيز ، ظلم لحقوقه وشرفه وعرضه، ظلم لنعمته وخبزه وملحه ، ظلم لنفسي ، ظلم للشريعتين ، شريعة الطبع وشريعة السماء ، واني أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

بدء المعركة بين زليخا ويوسف

آ(٢٤) ﴿ ... وَلَقَد ... هَمّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها ! ، لَوْلا أنْ رَآى بُرهانَ رَبِّهِ ... ، ... كَذلكَ ، لِنَصْرِفَ عنهُ السُّوءَ والفَحشاءَ ، إنّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والعشرون فتسابقت السيدات أيضاً الى الكلام على هذه الآية ، فقامت السيدة نزار الموصلية وقالت :ـ

(ولقد) كان انه لما لم ينجح مع « يوسف » الطلب باللين والرفق ، ولم ينجح مع

« زليخا » الرد بالعظة الحسنة ، ولم تجد هي عنده صدى غرامها به ، وقد أخذ الشبق منها مأخذاً قوياً ، كما أخذ التغيظ منه مأخذاً قوياً أيضاً ، (همت به)ضرباً أو لكماً أو قتلاً (و) هو أيضاً (همّ بها) كذلك ، وكاد أن يقع ذلك منها ، لولا أن تراخت هي عن تنفيذه ، بالنظر لما هو معلوم طبعاً من ضعف المرأة ، و (لولا أن رآى) هو ، أي استحضر أو تصور أو تخيل في نفسه (برهان ربه) وهو الدفع بالتي هي أحسن أو التملص متى أمكن (كذلك) ـ الكاف منصوب المحل ـ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ـ أو مرفوعة أي الأمر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) وهو الزنا أو مقدماته ، بدليل قولها فيما بعد :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » ثم قول النسوة : « ما علمنا عليه من سوء » ، (والفحشاء) القتل (إنه من عبادنا المخلصين) الذين قلنا فيهم إنهم : ﴿ ولا يقتلونَ النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِ ولا يزنونَ ﴾ (٢٥ : ٦٨) وقلنا فيهم : ﴿ إنّ عبادي ليسَ لك عليهم سلطانٌ ﴾ (١٥ : ٤٢) وورد فيهم : ﴿ فَبِعِزّتِكَ لأغوِيَنّهُمْ أجمعينَ إلاّ عبادكَ منهم المخلَصينَ ﴾ (٣٨ ٨٢ و ٨٣) ؛

هذه كلمي ابتعثها الألم ، فسطرها القلم ، وهذا هو التفسير الذي يطير رؤوس غلطات المفسرين عن أبدانها لأن المعنى الذي قرروه شيء لا وجود له في الواقع وإنما هو من مخلوقات الخيال ، ليس إلا ... !! وإنه ليعز علينا أن نناقش المفسرين هذه المناقشة الشديدة ، ولكن دفاعنا عن مقام نبي الله ورسوله يوسف الصديق ، تحدو بنا لمثل ذلك والسلام .

(ولقد همت به وهم بها ...)

— ١ —

وقالت السيدة ميمونة الحليه (١) :

همت به جلباً وهم بها دفعاً

أعظمت زليخا إباء يوسف ، وهالها جفاء جوابه ، ورأت أنه لم ينفع فيه الكلام الهادىء الناعم المرن ، فأخذت تغلظ له في القول ثم قامت « فهمّت به » جلباً ، وتفانت طلباً ، واستماتت رغبة ، في سبيل الحصول على شهوتها والوصول إلى رغبتها ، واجتهدت على هذا بكل حواسها وعواطفها النفسية ، وأما هو (ع) « فهمّ بها » دفعاً ، واستمات منعاً في سبيل المحافظة على شرفه وطهارته ، والاحتفاظ بدينه ، واجتهد على ذلك بكل حواسه وعواطفه العقلية ، وهكذا قامت القيامة بينها ، وشنت الغارة وأعلنت الحرب .

برهان ربه هو حجة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن

أراد يوسف أن يدفعها بشدة وعنف « لولا أن رآى برهان ربه » القاضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ، فاستدرك وشرع يحاول دفعها باللطف ، عملاً بالقانون السماوي المذكور ، ولئلا يعرض نفسه للخطر لأنه عبدها وفتاها و « برهان ربه » هو حجة الله على العبد في تحريم الضرب أو القتل أو الدفع بقسوة وشدة ، مع إمكان الدفع بيسر ولين .

---

(١) نسبة الى بلدة الحلة من بلاد العراق .

هذا هو المعنى الذي أعثرني الله عليه، وأطلعني على مكنونه ، فان كنت مصيبة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وإن كنت مخطئة فما ذلك بأول قارورة كسرت . (مرحى).

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رآى . الخ).

— ٢ —

وقالت السيدة خديجة الغزية :

همت بقتله وهم بقتلها

إن رأيي في هذين الهمين هو أن يوسف رآى نفسه مع تلك المرأة في حالة أخذ ورد ،ورغبة وإباء،وأنه صار في موقف خطير ، فاحتدم الدم في وجهه ،فكررت الطلب بإلحاح وشدة ، وكرر هو الاباء بأشد ، فصارت هي في حالة غير اعتيادية، وهاجت عواطفها أكثر من ذي قبل ، « فهمت » به أن تقتله أو تبطش بـه أو تضربه ، أي أنها لجأت إلى الطلب اليابس الجاف ،ولكن خوفها منه اعترض مجرى أفكارها ، فتوقفت ، ورآى هو نفسه أن موته أهون ، ولئن مات مات شهيد الطهر والعفاف ، ولكنه أخيراً لم يرد أن يستسلم لها، بل أراد الدفاع ، فصار في حالة غير اعتيادية « وهمّ » بها أن يقتلها أو يبطش بها أو يضربها، إذا لم يجد مخلصاً سوى ذلك لسان حاله يقول : « إن الموت في سبيل حياة الشرف ، خير من الحياة في سبيل موت الشرف ، وإنه لا محيص من الصدر أو القبر » ،ولكن برهان سيده منعه من إتمام ذلك . وحوادث الغرام والحب مملوءة من ذكر القتل أو إرادة الإقدام عليه تارة من جانب المحب إذا استولى عليه الحب وملك عليه حواسه ، وطوراً من المحبوب إذا كان شريفاً ، وحيناً من الجانبين عند اختلافهما في الفكرة كما هنا ،

وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري ، وله شواهد تقع دائماً والعبارة تدل عليه دون غيره ، فان المقام مقام خلاف ومغاضبة ، ولا يقال : « همّ بالشخص » في هذا المقام إلا إذا أريد بالهمّ الضرب أو ما ماثله أو فوقه من الايذاء ، وأيضاً لا يقال : « إنّ المرأة همت بالرجل » بالمعنى الذي جرى عليه المفسرون ، لأن الهم إنما يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهي في المباشرة موآتية لا عمل لها .

البرهان في قوله « لولا أن رآى برهان ربه »

وأما رأيي في هذا البرهان فهو أنه لما حمي الوطيس بين يوسف وزليخاوانتقل الكلام من الجدال الى الجلاد ، ومن المقال الى القتال ، أراد أن يتمادى هو على ذلك « لولا أن رآى برهان ربه » وهو شعوره بثقل فضل سيدته عليه ، وثقل فضل سيده فوطيفار ، ولكونه تربى في بيتها ونعمتها وكفالتها ، ورآى في هذا البيت عزاً وراحة .

ويجوز أن يكون الرب هناهو الله سبحانه ، وبرهانه هو أن الضرر لا يزال بالضرر ، كما ورث ذلك من أبيه يعقوب وجديه إسحاق وإبراهيم ، من أنه لا يجوز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأنه يجب الدفاع بالتي هي أحسن ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته   عند القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من كف طرفاً أو ثنى قدماً   عن الحرام فذاك الفارس البطل

وجواب « لولا أن رآي برهان ربه » محذوف ، تقديره : لولا أن رآى برهان ربه

لقتلها أو ضربها أو صفعها ، لأن قوله « هم بها » يدل عليه ، كقولك : « هممت به أي بقتله ، لولا اني خفت الله » ، أي لولا أن خفت الله لقتلته .

هذا هو المعنى الذي يشف عنه اللفظ ، شفوف الكأس الصافية عن الشراب، وتفسيرهذهالآيةبغيرنحوما قدمنا، هومنقبيل تفسيرالكلام بالمعنى المركوز في نفس السامع،لا من قبيل تفسيره بالمعنى الذي أراده القائل ، ولعمري إنماقالوهفي تفسير هذه الآية لا يقبله إلا من يأخذ برواية « مسيلمة » عن « فاختة » ويا ليت الأقلام التي كتبت تلك الروايات لم تنبت بعد ، ولعمري إني أول ما قرأته أصابتني نوبة ذهول شديدة ، صرعتني أكثر من عشر سنين ، ولم أفق منها إلا بعد ما رأيت الفيلسوف الشيخ محي الدين بن عربي يقول « همت به » جلباً « وهم بها » دفعاً ، ثم رأيت العلامة ابن حزم يقول : « همت به » قتلاً« وهم بها » كذلك ، فسررت بذلك كثيراً والحمد لله .

الرؤية في قوله (لولا أن رآى) هي رؤية علمية

والرؤية هنا علمية ، كما في قوله تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنـَّا خلقناهُ من نُطْفَةٍ ، فاذا هو خَصِيمٌ مبين ﴾ (٣٦ : ٧٧) ، وقوله تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ أنـَّا أرسلنا الشياطينَ على الكافرين تؤزُّهُم أزّاً ؟ ﴾ (١٩ : ٨٤) ، وقوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السمواتِ وما في الأرض ؟ ﴾ (٥٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرشْدِ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ (٧ : ١٤٥) وقوله تعالى : ﴿ إنهم يَرَوْنَهُ بعيداً ، ونراهُ قريباً ﴾ (٧٠ : ٦ و ٧) وما إلى ذلك مما هو كثير في كتاب الله وسنة رسوله ، وفي شعر العرب ، ولكن القافية ضاقت على فريق من المفسرين فحملوه على الرؤية البصرية ، وفهموا غلطاً أن ما رآه كان كتابة في حائط ، أو في صورة برزت منها ، إلى آخر ما فهموا ...

ولو كان المعنى على حسب ما ذكره هذا الفريق من المفسرين ، لم يكن في قوله سبحانه « همت به » فائدة جديدة ، لأن همها به — بالمعنى الذي تصوروه — قد عرف تماماً من سابق قوله « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك » ، فلو قال قائل : إن قوله ، ولقد همت به توكيد لما سبق من مراودتها وتغليقها الأبواب وطلبها إياه ، — قلنا إنه لأمر معلوم أن التأسيس خير من التأكيد كما هو معلوم أن المؤكّد يجب أن يكون من درجة المؤكَّد ، حال كون « الهم » هنا — بالمعنى الذي تخيلوه — ليس هو من درجة المراودة وتغليق الأبواب وطلبها إياه ، بل ليس من درجة « العزم » الذي هو أعلى من الهم ، كما قال الناظم اللغوي الفقيه :

مراتب القصد

مراتب القصد خمس : « هاجس » ذكروا
« فخاطر » « فحديث النفس » فاستمعا
يليه « همّ » « فعزم » كلها رُفِعَت
سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

هكذا كنت رأيته منذ القديم أو نحواً منه ، في كلام الفيلسوف الشيخ محي الدين ابن عربي ، وكلام العلامة ابن حزم . (مرحى)

استعمال كلمة الهم في كلام العرب والقرآن والحديث

وتفسيرنا هذا الهم ، وهذا الهم بما قلنا هو الذي يستدعيه الاسلوب العربي ، قال الشاعر :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

ويقول جميل بثينة :

فليت رجالاً فيكِ قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بثين لقوني

وقال تعالى : ﴿ وهمُّوا بإخراج الرسولِ ﴾ (٩ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ إذْ همّ قومٌ أنْ يبْسُطوا إليكم أيديَهُم ﴾ (٥ : ١٢) وقال تعالى : ﴿ وهمت كلُّ أمّةٍ برسولِهم ليأخذوه ﴾ (٤٠ : ٥) فهذه النقول تفيد أنه كثيراً ما يستعمل الهم في الايقاع والاقدام على المكروه والقتل ، وفي حديث ابن ماجة وغيره : « جاء رجل يطلب نبي الله ﷺ بدين ، فتكلم ببعض الكلام « فهمّ » صحابة رسول الله به ، فقال رسول الله : « مَهْ ، إن صاحب الدين له سلطان على صاحبه حتى يقضيه » ، وفي ابن ماجة أيضاً : « بعث رسول الله ﷺ أبا حذيفة مُصدِّقاً فلاجّه ، رجل في صدقته ، فضربه أبو جهم فشجه ، فأتوا النبي ﷺ ، فقالوا : القودَ يارسول الله، — فقال النبي ﷺ: لكم كذاو كذا، فلم يرضَوا، فقال لكم كذاو كذا فرضوا فقال النبي ﷺ إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم — قالوا: نعم، فخطب النبي ﷺ فقال : إن هؤلاء الليثيين أتوني يريدون القود ، فعرضت عليهم كذا و كذا ، أرضيتم ؟ — قالوا : لا ... « فهمّ » بهم المهاجرون ، فأمر النبي أن يكفوا ، فكفوا ، ثم دعاهم فزادهم ، فقال أرضيتم ؟ — قالوا : نعم — قال : إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم — قالوا : نعم ، فخطب النبي ثم قال : أرضيتم ؟ قالوا نعم » وفي البخاري عن ابن عباس : « أن عُيَيْنة بن حِصْن ، قال لعمر (ض) :هِيْ[1] يا ابن الخطاب ! فوالله ما تعطينا الجَزْل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى « همّ به » ، فقال له الحُر بن أخي عُيَيْنَة : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ العَفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلين ﴾ (٧ :

(١) كلمة تهديد ، وقيل هي ضمير لمبتدأ حذف خبره ، أي هي داهية .

١٩٨) ، وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ماجاوزها عمر ، حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله » .

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رآى برهان ربه)

— ٣ —

وقالت الآنسة ربيحة المقدسية :

الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله انه همّ بمخالطة امرأة العزيز

هذه كلمة يجب التكلم عليها برفق وأناة ، وهي قبل التأمل فيها « شبهة » لمن طعن في عفاف يوسف ، وقوله ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ مع ملاحظة قوله : ﴿ إنّ عِبَادي ليسَ لَكَ عليهمْ سُلطانٌ ﴾ « حجة » لمن قام يناضل عن يوسف، وقد فسرّ الخطباء من قبلي « الهمّ » بما سمعتم ، فلا تكونوا ممن يتمسك « بالشبهة » ويغض نظره عن « الحجة » ، فإن قوماً من المفسرين ذكروا في هذا المحل ما يهوي برأس الحقيقة الى عقبها ، ولعمري إنهم لطخوا عرض يوسف بما هو براء منه ، وأرادوا أن يكسبوا تاريخه لوناً قاتماً ، قد كادوا له كيداً أعظم جداً من كيد إخوته له ، فان من يسقطك عن درجة الأعفاء الأطياب ، يسيء اليك أكثر ممن يلقيك في غياهب الجباب .

وعندنا إن كلام هؤلاء المفسرين الذين أرادوا تشويه تاريخ يوسف (ع) متصل بالمعمل الذي خرجت منه تلك « الأسفار » التي لا تزال تنال من عفة الأنبياء الأطهار .

أي أن بعض المفسرين نقلوه عن جهلة اليهود الذين اعتنقوا دين الإسلام لأمر ما ، مع أن نفس تلك الأسفار اليهودية وإن تكن قد حشيت بالطعون الفاحشة في أنبياء الله ، لكنها خلت عن الطعن بيوسف (ع) .

وطالما دافعت بلساني وقلمي عن يوسف (ع) في هذا المقام ، وإني أود أن يكون لي لسان ثان ، وقلم آخر ، لأستخدمها في سبيل الدفاع عن هـــذا النبي الصديق (ع) .

فأنا الحقيرة أؤمن بأن يوسف نبي ورسول (٤٠ : ٣٤) وصديق (١٢ : ٤٦) وأنه لما بلغ أشده ، آتاه الله حكماً (١٢ : ٢٢) يحكم به نفسه عن الهمّ بالمخالطة وعن كل سوء ، وأنه من عباد الله المخلَصين (١٢ ، ٢٤) الذين ليس لابليس عليهم سلطان بحكم قول القرآن :﴿ولأغْوِيَنَّهُم أجمعين إلاّ عبادَكَ منهمُ المُخْلَصينَ قالَ : هذا صِراطٌ عليّ مُستقيمٌ ، إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عليهمْ سُلطانٌ﴾ (١٥ : ٣٩ - ٤٢) وبالتالي والنتيجة أُؤمن بأن يوسف إنما « همّ » بدفعها بشدة أو بضربها أو بقتلها ، لولا أن رأى برهـــان ربه ، الذي أرشده للدفع بالتي هي أحسن ، وأما من صدق بهذه الآيات الكريمة مع قوله : إن يوسف « همّ » بمخالطتها فقد آمن بشطر دون شطر ، أو نقول إنه آمن بالمقدمات دون النتيجة ، أو بالفاظ الكتاب دون معانيه .

حقاً إنه ليصعب علينا أن نعتقد ما قاله القائلون ههنـا ، مما يلوث شرف السيد الصديق ، مما يخالف ما أخذ على نفسه تحقيقه ، وهـو حفظه معروف ربه ، وإن الظالم لا يفلح أبداً . (مرحى مرحى)

(كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء)

— ١ —

قال الشيخ اسعد البنهاوي (١) :

السوء والفحشاء

الكاف في كذلك منصوب المحل ، أي مثلَ ذلك التثبت ثبتناه ، أو مرفوعه ، أي الأمر مثل ذلك (الكشاف) .

« والسوء » هو كل ما يَغم الانسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية ، من فوات مال وفقد حميم ، وفعل قبيح ، وهو اسم من ساءه ضد سره ، والسوء ضد الحسَن ، وهو في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الخِزْيَ اليَومَ والسُّوءَ على الكافرينَ ﴾ (١٦ : ٢٧) بمعنى الغم ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ (٣ . ١٢٢) بمعنى القبيح ، فالسوء كل عمل قبيح يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس أو يسوء الناس .

« والفحشاء » هي والفحش والفاحشة الفاظ ثلاثة معناها واحد ، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحُشَ الرجل صار فاحشاً، قال الشاعر :

أرى الموتَ يَعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني به العظيم القبح في البخل ، وفي الحديث : (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) ، فالفاحش : ذو الفحش في كلامه وأفعاله ، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمده ، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي تطلق عليه هذه الألفاظ

---

(١) نسبة الى بنها من البلاد المصرية .

ومنه الحديث : (قال لعائشة : لا تقولي ذلك ، فان الله لا يحب الفحش ولا التفاحش) أراد بالفحش التعدي في القول والجواب ، والتفاحش تفاعل منه ، وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ، ومنه حديث بعضهم ، وقد سئل عن دم البراغيث ، فقال : (إن لم يكن فاحشاً فلا بأس) وقوله تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ ، إنَّه لكم عدوٌّ مُبين ، إنما يأمُرُكم بالسُّوءِ والفَحْشاءِ وأنْ تقولوا على اللهِ مالا تعلمونَ ﴾ (٢ : ١٦٩) « فالسوء » القبيح ، « والفحشاء » ما يتجاوز الحد في القبح (كشاف) .

وكل واحد من القتل والزنى يقال له سوء وفحشاء ، قال تعالى : ﴿ ولا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُم مِنَ النساءِ ، إلاّ ما قد سَلَفَ ، إنَّه كانَ فاحِشَةً ومَقْتاً وساءَ سَبيلًا ﴾ (٤ : ٢١) وقال تعالى : ﴿ ولا تقرَبُوا الزِّنى إنَّه كانَ فاحِشَةً وساءَ سبيلا ﴾ (١٧ : ٣٢) وقال : ﴿ ما كانَ أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ (١٩:٢٨) أي زنى ، وقال : ﴿ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ﴾ (٧ : ٧٣) أي قتل ، وقال: ﴿ يسُومونكم سُوءَ العذابِ ، يُذَبِّحونَ أبناءَكم ﴾ (٢ : ٤٩) وقال: ﴿ فإنْ أَتَيْنَ بفاحِشَةٍ فعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ماعلى المُحْصَناتِ مِنَ العَذابِ ﴾ (٤:٢٤) .

فاذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما يغمه ويحزنه وكل أمر قبيح وكل ما يتجاوز الحد في القبح ، أو لنصرف عنه الصغيرة والكبيرة ، أو لنصرف عنه الكبيرة والكبرى من المعاصي ، فلعله أراد : لنصرف عنه مايسوءه ، وهو خيانته لسيده ، والفحشاء وهو قتله لسيدته ، أو السوء ما لا حد فيه وهو قتله لسيدته دفاعاً عن عرضه ، والفحشاء مافيه حد وهو الزنى ، أو نصرف عنه السوء وهو مقدمات الفاحشة من التقبيل والضم ونحو ذلك والفحشاء وهي الزنى أو القتل ، أو السوء هو الزنى والفحشاء هي القتل ، وهذا الاخير هو الاقرب عندنا بدليل قوله تعالى : ﴿ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوءاً ﴾ أي زنى ، و ﴿ ما علمنا عليه

من سوء﴾ أي زنى ، و ﴿ إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسوء﴾ أي الزنى ، فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الزنى ،فليكن لفظ «السوء» في قوله ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ مراداً منه الزنى ، وإذا ثبت هذا « فالفحشاء » هي القتل الذي كان حاوله يوسف ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار ، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوأ وفاحشة . هـذا ما فهمته ذكرته لـكم والله تعالى أعلم .

(انه من عبادنا المخلصين)

— ١ —

قال العلامة الجيزاوي(١) :

(اخلاص يوسف لله واخلاص الله ليوسف)

هذا هو حجر الزاوية في عفة يوسف وطهارته ، فيوسف كان من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هَوْناً — الى أن يقول — ولا يَقْتُلونَ النفسَ التي حرَّمَ اللهُ الاَّ بالحقِ ، ولا يَزْنُون ﴾ (٢٥ : ٦٣ — ٦٨) ، كان يوسف من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان﴾ (١٥ : ٤٢) كان يوسف من عباد الله الذين ورد فيهم : ﴿ قالَ فبعزَّتكَ لأغْوِينَّهُم أجمعينَ ، إلاَّ عبادَك منهم المُخْلَصِينَ ﴾ (٣٨ : ٨٢و٨٣) .

فيوسف بانصرافه عن الزنى والقتل تم فيه قوله تعالى : ﴿ ولا يقتلونَ النفسَ التي حرَّم اللهُ إلاَّ بالحقِ ولا يَزْنون ﴾ (٢٥ : ٦٨) وباعراضه عن

---

(١) نسبة الى الجيزة في البلاد المصرية

مراودة امرأة العزيز إياه وقولها له « هيتَ لك » ثم فيه قوله تعالى : ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ (٢٥ : ٧٣) وبرؤيته برهان ربه والعمل بمقتضى ذلك البرهان تم فيه قوله تعالى: ﴿ والذينَ إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْياناً ﴾ (٢٥ : ٧٣) .

وهنا تتمة للكلام مهمة جداً ، وهي أن كلمة « مخلَصين » في القرآن الكريم تقرأ بالفتح والكسر ، بمعنى أن الانسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله لطاعته ، ومن خواص الاخلاص انه لايعلمه مَلَك فيكتبه ، ولاعدوّ فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فيبطله . فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع زوجها فيما وقعت فيه من السوء ، وأما يوسف (ع) فمع عزوبيته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة ، وتهديدها له بالحبس ، فقد عصم نفسه ، فعصمه الله باخلاصه لله .

قميص الشهادة

آ (٢٥) ﴿ واسْتَبَقا البابَ ، وقَدَّتْ قميصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وألفَيَا سَيِّدَهَا لدا البابِ ... قالتْ : ماجزاءُ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوأً إلاّ أنْ يُسْجَنَ أو عذابٌ أليمٌ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والعشرون فقام الشيخ الدنوشري [1] وقال :

(واستبقا الباب) أي تسابق يوسف وزليخا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار ، لأنها ضايقته وضغطت على حريته ، وشددت عليه

(١) نسبة الى دنوشر في السودان .

وأحرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار، ولما كان الإحراج يؤدي إلى الاخراج، نفر منها فأسرع يريد الباب ليخرج، ولسرعت وراءه لتمنعه الخروج، (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق قميصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ، وما كان منه إلا أن نزعه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها فأخذته ملفوفاً في يدها (وألفيا سيدها) وصادفا بعلها فوطيفار (لدا الباب) مقبلاً يريد أن يدخل وقيل كان جالساً مع ابن عم المرأة ، فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سبات، وقد رجعت اليها حواسها ، فراعها ذلك ، والتمست مخرجاً أرادت أن تلهب به عليه سيدها (فقالت) بلسان المشتكي المظلوم : الله أكبر ، ما هذا ؟ « إن البغاث بأرضنا يستنسر » ، الله أكبر « حاميها حراميها » جئنا بالعبيد لكي يحرسونا فاذا هم الخائنون ! صدق من قال : « من اشترى الدون بالدون ، كان هو المغبون » قالت وجرسُ صوتها ينم عليها (ما) أي ليس (جزاء) عقاب كل (من أراد بأهلك) بزوجك (سوءً) زناً (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) كالضرب بالسياط مثلاً أو تشغيل بأشغال شاقة ، ويجوز أن تكون « ما » استفهامية بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السجن ، ولو كان حبها شريفاً ، لم تقل ذلك ولآثرته على نفسها ، ولكن حبها إياه كان حباً شهوانياً ، وأما يوسف ، فنظن انه لما سمع هذا السباب تأفف جد التأفف ولكنه صبر ، وردد في نفسه معنى قول القائل :

إذا ما كنت في قوم غريباً فعاملهم بعقل يستطابُ
ولا تحزن إذا فاهوا بفحش غريب الدار تنبحه الكلابُ

(واستبقا الباب)

— ١ —

قالت الآنسة معصومة النابلسية [١] :

هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به

كانت زليخا لم تأل جهداً في استنزاليوسفعلى مرادها ، وهو لم يأل جهداً في ردها عما ترغب اليه فيه ، فتشا كساوم كل بالآخر،وبتعبير آخر لما حمي الوطيس بينها ، أرادت ضربه أو لكمه أو قتله ، وأراد ضربها أو لكمها أو قتلها ، ثم رجع هو عن هذه الفكرة ، بحكم البرهان الذي رآه ، القاضي عليه أن يدفع بالتي هي أحسن ، وعندئذ رأى نفسه عاجزاً أمامها ، وأن ليس له سلاح يتسلح به سوى الفرار من بين يديها ، فولى وجهه شطر الباب ، فر هارباً وللنجاة طالباً ، فلطمت يداً بيد وضربت صدرها ، وما عتمت أن لحقته ، فذهبا يتسابقان نحو الباب ، وهما بين هارب وطالب ، طريد هارب ، وصائد طالب ، تسابقا تسابقاً يمني المصور أن يراه فيرسمه ، لكي يرسم صورة الطهارة والعفة في ذلك الشاب الشريف ، ويرسم صورة الخيانة والدناءة في تلك المرأة الساقطة .

هو يستبق لباب الجنة ، وهي تستبق لباب جهنم ، هو يستبق لباب الطهارة ، وهي تستبق لباب الدنس ، هو يستبق لباب الشرف والعلو ، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط — كل منها يريد الباب ، ولكن لأمرين مختلفين ، كل منهما يريد الباب ، وهو عمل في ظاهره واحد ، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف ، صورة هذا العمل واحدة ، ولكن الروح مختلفة ، هو استبق الباب ليخرج منه ،

(١) نسبة الى نابلس من بلاد فلسطين .

وهي استبقت الباب لتمنعه من الخروج ، هو استبق الباب ليفتحه ، وهي استبقت الباب لتسده في وجهه ، هو استبق الباب ليفر بدينه ومروءته ، وهي استبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها .

هذا يا سادتي ما أردنا التعليق به على كلمة (استبقا) ، وأما تعليقنا على كلمة (الباب) فيظهر أن هذا الباب هو أحد أبواب القصر الداخلية التي تحوطه من جهاته، وكانت قد غلقتها كما تقدم ذكره ، وكان الباب في طريقه ، فقصده ليخرج منه ، وكان مغلقا (بالمزلاج) أي السقاطة ، على حسب العوائد القديمة ، وليس هو الباب الخارجي الذي يؤدي إلى الطريق المسلوكة ، إذ يبعد أن تعمل هي هـذا العمل ، اللهم إلا إذا كانت الحركة حركة حب جنوني ؛ هذه كلمتي في هذا الموضوع ، والله أعلم .

(وقدت قميصه من دُبُر)

—١—

وقالت السيدة فريدة الحمصية (١) :

قد القميص

هرب منها يريد الخروج من باب القصر ، وعدت خلفه لتجذبه إلى نفسها ، فتبادرا الى الباب ، يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف ، فتح باب القصر ونجا لأنه يصير بين جمهور من الخدم ؛ وإن سبقت هي أمسكته

(١) نسبة الى بلدة حمص من سورية

الباب لئلا يخرج ، ولكن يوسف سبقها إلى الباب ، وأراد الخروج وهي تعدو خلفه ، فلم تصل إلاّ إلى دبر قميصه فأمسكت به وجذبته فانشق والغالب ان هذا كان طولاً ، لأن أكثر استعمال « القد » في الشق طولاً ، وأما عرضاً فيقال له « قط » ، وفي وصف سيدنا علي (رض) « إنه كان إذا اعتلى قدّ ، وإذا اعترض قطّ » ، ولم تزل الامرأة متمسكة بالقميص ، نزعه يوسف وتركه بيدها وبقي مثابراً على الهرب ؛ وههنا دقيقة قد أغفلها جميع أهل التفسير ، ولكن نحن لابد لنا من التنبيه عليها وهي :

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قدّه

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده ، حتى ألفى « سيدها » لدى الباب ، أو هو لما رآها قد تمسكت به فانقدّ ، وكانت لا تزال متمسكة به ، تضايق منها فنزعه عن جسمه وتركه لها ، إمعاناً في سرعة التخلص منها كما أشرنا اليه سابقاً ؟

هذا هو السؤال الذي لم نجد من المفسرين والمؤرخين من تخيله فذكره في أثناء هذه القصة ، وجوابنا بطلان الشق الأول من هذين الاحتمالين ، لأنه لو بقي لابسه ، وهو واقف ماثل أمام تلك الهيئة المؤتلفة من « عزيز مصر وامرأته والشاهد من أهلها » لكان الأمر ظاهراً ، وكان القدّ محسوساً منظوراً للجميع ، فلا يكون هناك مجال للشك والتردد وتطريق الاحتمالات ، وثانياً لو كان لا يزال لابسه لجاز « لإمرأة العزيز » أن تدافع عن نفسها وترد كلام ذلك « الشاهد من أهلها » قائلة له : « إنك متحيز لهذا العبد لأمر ما ، وإنك حاقد عليّ لسابقة بيني وبينك ، فأنت لما رأيت القميص غير مقدود من قُبُل ، اعتقدت بالضرورة أنه مقدود من دُبُر ، فلذلك تحيزت لهذا العبد ، وحكمت بهذا الحكم الجائر » .

ولكنها لما لم تحتج على « الشاهد من أهلها » ولم تنتقد على حكمه بشيء بل سلمت له تسليماً ، تبين أن يوسف لم يكن لابس القميص ، كما هو الواقع ، بل كان القميص ملفوفاً بيدها ، فلما فتش وجد أنّ قدّه كان من دبر ، هذا هو الصواب الذي يجب أن يقال في هذا المقام ، والله تعالى أعلم ..

(وألفيا سيدها لدا الباب)

— ١ —

وقالت الحاجة صالحة الموصلية [١] :

مفاجأة فوطيفار لزليخا و يوسف عند الباب

ولم يكن إلا كلمح البصر حتى وجدا عزيز مصر عند باب القصر ، وقد انقلب من دار الحكومة للغداء أو لبعض شؤونه ، واذا هو بين ظهرانيها ، وكأنما كان يسمع صدى عدوهما حينما قربا منه ، وكان كل من زليخا و يوسف متهيجاً ، يخرج منها نَفَس مرتفع متواتر ، وعند ذلك تحشت الغمزات والاشارات في أفواه الجواري والعبيد وعيونهم ، وعَقَدت أنظارهم نطاقاً حول ذلك المنظر المدهش . ويا لهول ذلك الموقف ! موقف يترك في النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، موقف يندى له الجبين خجلاً ، وتشمئز منه النفوس الطاهرة .

ألفيا سيدها لدى الباب ، ويا شرّ ما ألفيا ، وبعبارة أصحّ ياشرّ ما ألفت هي فقط وأما يوسف فكان ذلك له — بحسب النتيجة — فرجاً ومخرجا ، ألفيا سيدها لدى الباب ، فاعترت الأشخاص الثلاثة حالة غير اعتيادية ، فأما يوسف فبغت بهـــذا

---

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق .

الاتفاق ، ولكن سر فؤاده وفرح به قلبه ، لأنه رآى انه قد تخلص من شرها ، بحضور سيدها ووقوفه على واقعة الحال ، وقد تبدل حاله من وجل الى خجل ، وتخيل كأنما يد القدر كانت قد خبأت عزيز مصر خلف الباب ، ثم أبرزته حين اللزوم ، نعم ، لا يخلو ان يوسف في بدء ما رآى عزيز مصر ، تقرر في نفسه لأول وهلة ، قائلا : « ههنا المطرقة والسندان ، وأنا بينهما » ولكنه ثاب الى أمنه أخيراً ، لأنه يعتقد في نفسه البراءة ، وأن البريء لا يخاف ظلماً ولا رهقاً ، فلذلك اطمأن باله ، وسكت راجياً من الله الخلاص .

وأما فوطيفار فبُهت وشُدِه ، وألقى عليهما نظرة التعجب ، ورابه منظرهما ، وخيل اليه أن ذلك العبد آبق ، أو سارق أو هارق ، فدارت به الأرضُ الفضاء دورة كاد يُصعق فيها ، وتمثل له أن صرح راحته ومسرته بذلك العبد الكنعاني قد خرّ بين يديه دفعة واحدة ، فثار لذلك ثائره ، واكفهر وجهه واربد ، وتَفَصّد عرقاً .

رآى فوطيفار من الأمور المدهشة المحزنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرابه أمرهما ، وقال ما لكما ؟ إني أراكما في أمر مَريج ثم التفت لامرأته ، لفتة استفهام بتغيظ وتحرق واستغراب . وأما زليخا فراعها ذلك ، فتضعضعت واستخذت ، واستُطير عقلها ، خوفاً ورعباً ، فولولت وجَلّبت وصاحت ، وتبرّمت وضاقت بذلك ذرعاً ، ودق قلبها دقات متسارعة ، وظهرت البغتة على وجهها ، وارتعدت فرائصها ، كأنها أمسكت نضيدة [1] كهربائية قوية ، وأوجست في نفسها خيفة ، وانتُقِع لونها وامتُقِع . ولكنها ما لبثت أن عادت الى

(١) بطرية كهربائية .

نفسها واستجمعت قواها ، وخاطبت سيدها بلهجة يابسة ونغمة جافة ، كأنها تريد بذلك « ستر السموات بالقبوات »(١) .

هذا خطابي المختصر ، ألقيته على مسامعكم الشريفة ، ولا ندحة لي قبل الختام من أن أتكلم كلمتين :

ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة

الكلمة الأولى : — إطلاق كلمة « سيد » على الزوج هي لغة المصريين ، وشائعة بينهم الى اليوم ، حكاها القرآن الكريم جرياً على اصطلاحهم ، وأماالعرب فيسمون شريك الحياة «زوجاً» قال تعالى : ﴿ قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجادِلُك في زَوْجِها ﴾ (٥٨ : ١) وربما سموه « رجلاً » كما قال تعالى : ﴿ الرجالُ قَوّامُونَ على النِساء ﴾ (٤ : ٣٣)،« وبعلاً » كما قال تعالى : ﴿ وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢٨) و « حليلاً » كما يستفاد بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وحلائلُ أبْنَائِكم ﴾ (٤ : ٢٢) و « صاحباً » كما تعلمه بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وصاحِبَتِهِ وبنيه ﴾ (٨٠ : ٣٦) وقد ورد : « المرأة سيدة بيتها ، والرجل سيد بيته » .

الكلمة الثانية — لم يطلق لفظ « السيد » في كتاب الله تعالى إلا على شخصين فمرة على نبيّ الله « يحيى » (م) في قوله جل من قائل : ﴿ وسَيِّداً وحَصُوراً ونبياً مِنَ الصالحينَ ﴾ (٣ : ٣٩) وثانية على « عزيز مصر » في هذه الآية : ﴿ وألفيا سيدها لدا الباب ﴾ ، ومن غريب الصدف أن الأول (م) لم يتزوج قط ،

(١) القبوات احشاء الحيوانات من كرش ومصارين وهو مثل عامي يضرب لمن يريد ستر أمر مفضوح .

والثاني كان عنيناً على أشهر القولين ، وورد في الأسفـــار الالهية ، إطلاق لفظ « السيد » على عيسى المسيح (م) وهو أيضاً لم يتزوج ، فاطلاق لفظ « السيد » على هؤلاء الثلاثة خاصة، الذين ليس للنساء حظ منهم، إن لم يكن له سر، فهو من عجائب المصادفات وأخشى أن يكون من معاني «السيد» من لم يخضع لشهوة النكاح فهو من هذه الجهة سيد على الحقيقة، وأما من كان خاضعاً لتلك الشهوة، فهو من هذه الوجهة «عبد» على الحقيقة، قال الشاعر:

صاحب الشهوة « عبد » فاذا   ترك الشهوة أضحـــى مَلِكا

(قالت ما جزاء مـن أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ..؟)

— ١ —

قالت الآنسة سهير المصرية :

المرافعة والاتهام

رمت زليخا بهذا الحجر ، لتصيد صيدين ، أي لتبرر نفسهـــا أمام زوجها ، ولتوغر صدره على عبده ، فتشفي غليلهـــا منه بسجنه أو عذابه ، لأنه لم يقض لهـــا شهوتها .

نطقت بهذا الحكم القضائي بكل عين قوية لما تعلم من دالتهـا عليه ، ولتهيج من ثورته ، وتشعل من نار غضبه على عبده وفتاه العبراني وقالت وصوتهــــا يرتعش ، وركبتاها تصطكان ، ولسانها يتلعثم ، وكلامها يتقطع مما لحقها من التعب بسبب الجري، أو مما لحقها من الخزي والخجالة وحراجة الموقف :

« ما جـــزاء . . مـــن . . . . أراد . . بأ . . . هـ . . لـ . ك . . .

ســوأ ... وا فضـــيحـــتـــاه ! إلاّ ... أن ... يســـجن أو عـــذاب ألـــيم ... وا خجـــلتـــــاه ! »

هكذا نظن ان نغمة كلامها كانت متقطعة ، كأنما قد أصيبت في مخيلتها بمرض عصبي في دماغها تقول : بماذا يحكم على من ربيناه كظبي ، فاذا هو نمر ضاري ، يريد أن يلتهم فريسة القصر بين أنيابه ، ولا يخشى بأس الأسد حارس القصر وعزيز مصر ؟ .. إذ قد تزلف لي وغازلني، ثم أرادني وراودني ، فانتهك حرمة بيتك ، وعبث بشرفك .

رأت أنها وقعت في الشراك ، فتسلحت بالكذب ، لتتخلص من الشرك الذي وقعت فيه وكان صوتها متزعزعاً مضطرباً ، مع أن المعهود فيه ان يكون رخيماً مطرباً .

صرخت باكية شاكية ، لكي تدفع عنها الشبهة ، كما قيل : « وسيلة المرأة في هجومها دموعُها ، ووسيلتها في دفاعها صراُخها ، والنكبة الحقيقية تظهر جلد المرأة ، بينما الهموم الصغرى تظهر ضعفها ، فلهذا انقلبت من « غزالة » وديعة ، إلى « وحش » ضار مهاجم ، حاولت إخفاء عواطفها الشهوانية أمام سيدها وعكست الآية ، وشوهت الحادث ، وقلبت المسألة رأساً على عقب ، وكانت كما تقول العامة: « ضربني وبكى وسبقني واشتكى » .

تقول في تصاغر كله كبرياء : ليس جزاء من حاول الفحشاء مع حرمك ، وهن في عقر دارهن ،واقسرهن علىماأراد اقتساراً ، واعتسرهن عليه اعتساراً ، إلا السجن في المطبق ، أو أن يسام الخسف والجور والإذلال ، وكل ما فيه ألم وأذى ، فيجب أن يدان بأحد هذين الأمرين ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي ذلك على طول الخط ، لأن فعلته هذه خيانة وكفران بالنعمة ، وجرأة على «عزيز مصر » .

هذا ما رمت اليه في مقالتها التي استَعْدت بها على يوسف البريء جبابرة الأرض وزبانية جهنم ، نطقت بذلك لا بلهجة الصاغرة المشدوهة ، بل بلهجة المستكبرة المتأمرة ، وبلسان سليط .

ولنا هنا احدى عشرة ملحوظة :

التناقض في حكم زليخا على يوسف

الملحوظة الأولى — رأيناها تقول هنا : « ما جزاء من أراد باهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وستراها تقول : «ولقد راودته عن نفسه ، فا ستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ، ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فجعلت الجزاء على جريمة الفحش (المزعومة) والجزاء عن النزاهة عن تلك الجريمة واحد !!! فما أبعد إنصاف الانسان !!! وما أشد تناقضه خدمة لأغراضه الشخصية !!! ...

ارتياب العزيز في أمر زوجته منذ بدء تكلمها

الملحوظة الثانية — أدرك سيدها من هيئتها وغنة صوتها ، ومجمل حالها أنهـا هي الطالبة وهي الراغبة وهي التي أرادت السوء ليوسف وان حالها تنم عن مكنون صدرها ، إذ قد قرأ في صفرة وجهها وملامحها ان في الأمر دسيسة ، وانها مفترية « ويكاد المريب يقول خذوني » ، ولذلك لم يجاوبها بشيء ، ولم يظهر له أقل عناية.

وبعبارة أبسط من ذلك : سمع سيدها كلامها ، فأدرك أنـه ليس فيه شيء من من الغيظ والحنق ، كما هو الواجب لو كانت صادقة ، وليس فيه شيء من الشدة والغلظة التي يجب أن تكون نتيجة للتعدي على شرفها ، بل بالعكس فيه ما يشف عن الرأفة بيوسف ، وذلك لأنها راعت في كلامها دقيقتين ، فأولاً بدأت بذكر

السجن ، واخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يبادر إلى السعي في إيلام المحبوب، ولطفت امر السجن بقولها :« إلاّ أن يسجن » لأن هذه العبارة تصدق بسجن أيّ مدة ولو قلّت ؛ فأما السجن الدائم ، فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال مثلاً « إلا ان يكون من المسجونين » .

وثانياً لم تصرح باسم يوسف ؛ بل ذكرت ذلك ذكراً مرسلاً ، صوناً له عن الذكر بالسوء والألم .

ادرك سيدها العزيز هاتين الدقيقتين في طي شكاتها ، فساء فيها ظنه ، واتخذ ذلك علامة انها هي الماكرة الخاتلة ، وحفظ الأمر عليها .

ما المراد بكلمة « الأهل »

الملحوظة الثالثة — المراد بكلمة « الأهل » ههنا الزوجة ، كما في قوله تعالى: ﴿ فلمّا قَضَى موسى الأجَلَ وَسَارَ بأهلِهِ ﴾ (٢٨ : ٢٩) فاهله هنا هي زوجته « صَفُورة » ، وقوله تعالى للنبي (ﷺ) : ﴿ وإذ غَدَوْتَ مِنْ أهلِكَ تبَوِّيءُ المؤمِنِينَ مَقَاعِدَ للقتالِ ﴾ (٣ : ١٢١) اراد من اهله عائشة (ض) لأن غدوه الى أُحُدٍ كان من حجرتها ، وقوله تعالى : ﴿ فراغَ إلى أهلِهِ ﴾ (٥١ : ٢٦) ، اراد من اهله هنا ساراى وهاجر خاصة ، لأن ولده اسماعيل كان اذ ذاك ابن ١٢ سنة ، وابن اخيه لوط كان ساكناً في شرقي الأردن ، بخلاف إبراهيم ففي غربيه في فلسطين ، فالأهل ههنا في هذه الآيات الأربع اغام الزوجات .

زليخا تضيف نفسها الى زوجها اعظاماً للخطب

الملحوظة الرابعة — في إضافة نفسها إلى العزيز في قولها : « بأهلك » إعظاماً للخطب ، وإغراء على تحقيق ما تتوخاه ، بحكم الغضب والحمية .

زليخا تبادر بالكلام خشية ان يسبقها فيه يوسف او زوجها

الملحوظة الخامسة — رأت نفسها قد وقعت في مأزق حرج ، فخافت ان يتكلم يوسف قبل ان تتكلم هي ، او خافت ان يبادرها « سيدها » بالسؤال عن هذا الحال ، فبادرت في التكلم وسبقت قبل ان تُسأل .

اطالة زليخا الكلام في الشكوى

الملحوظة السادسة — لم تعمد في كلامها الى الاختصار الذى فيه البلاغ إذ كان يكفيها أن تقول : « هو راودني عن نفسي » ، كما اكتفى يوسف بمثل ذلك إذ قال : « هي راودتني عن نفسي » ، ولكن أنىّ هذا وقد قال العلماء : « إن حذق فن الكلام والبراعة فيه ، مع طول وكثرة واطناب ، هو شيء تحتكره النساء من دون الناس أجمعين » .

عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية

الملحوظة السابعة — قولها : « ما جزاء من اراد بأهلك سوءاً إلا ان يسجن أو عذاب أليم » هو من مواد الشريعة المصرية ، وهذه المادة توافق شريعتنا المحمدية لان كلا شقي هذه المادة من انواع « التعزير » الذي هو عقاب من حاول فعل الفاحشة ، وبعبارة اخرى ، الذي يكون في المعصية التي لا حدّ فيها .

اخفاء زليخا اسم يوسف عند الاتهام

الملحوظة الثامنة — لو قال قائل : « كيف لم تصرح في شكاتها بذكر يوسف ، وانه هو الذي اراد بها سوءاً » — قلنا قصدت العموم ، وان كل من اراد بأهلك سوءاً فحقه ان يسجن او يعذب لأن ذلك ابلغ فيما قصدته من تخويف يوسف ، او يقال : إنها اظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة ان تقول لبعلها امام ذي رحمها : « هذا اراد بي سوءاً » ، ولذلك ايضاً كنَّتْ بالسوء عما أضمرته من الهناة ، مبالغة في المكر والكيد ، وابعاداً للتهمة عنها ، بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقِحَة .

القميص المقدود كان دثاراً

الملحوظة التاسعة — نتعلم من قوله : « وقدت قميصه من دبر » مع ما روى التاريخ من انه خلع ثوبه في يدها ، أن هذا القميص كان دثاراً لا شعاراً ، وإلا للزم ان يوسف صار عرياناً لا شيء على جسده ، ونتعلم ايضاً أن يوسف كقدماء المصريين المعاصرين له انه لم يكن يلبس ألبسة كثيرة ، على قبيل ماهوحاصل اليوم من تقطيع الثياب الى قطع كثيرة ، بل كان يلبس ثياباً طويله بحيث تكون قطعة واحدة ، كما هو المعروف عند قدماء العرب والاسرائيليين .

سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته

الملحوظة العاشرة — قالوا : لم يصرح القرآن الكريم باسم «العزيز» وامرأته ستراً عليهما ، ولكننا نحن ذكرناهما باسمهما وهو العلم الشخصي ، لأننا نعتقد أنهما اليوم مجهولان جداً ، بحيث لا يمكن لأحد ما أن يعرفهما منهما ، ولأنهم قالوا يجوز التصريح في مقـــام التعليم ، على أن القرآن الكريم لم ينبه علينا بعدم ذكر اسمها اختصاراً حسب عادته ، فلذلك نحن في حـل من التصريح باسمها على هذا المنبر .

الثأر هو الدافع للتهمة

الملحوظة الحـادية عشرة — هي قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فنراها بحسب الظاهر حولت العـاطفة من القلب الى السجن ، أو الى العذاب الأليم ، أصحيح إنه يوجد حب يؤدي لمثل ذلك؟ والجواب نعم إن الحب إذا لم يكن طاهراً يؤدي لمثل ذلك ، ولأعظم من ذلك كالقتل ونحوه ، وثانياً يخيل إلينـــا أن المسألة مسألة كبرياء وأنفة ، وتحويل جريمة من شخص لشخص آخر ، وان الدافع لهذه التهمة إنما هو الثأر لعدم امتثال الأمر. (مرحى)

المحاكمة

آ(٢٦) ﴿ — قالَ : « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها : إِنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ قَبُلٍ ... فَصَدَقَتْ ، وَهوَ مِنَ الكاذِبينَ ﴾ .

آ(٢٧) ﴿ وإِنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ... فَكَذَبَتْ ، وَهُوَ مِنَ الصّادِقِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآيتان السادسة والعشرون والسابعة والعشرون فقام الشيخ عبد الغني الانطاكي وقال :[1]

لما أغرت زليخا بيوسف وعرضته للسجن والعذاب ، وجب عليه الدفع عن نفسه ، فقال بل (هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكتم عليها (وشهد شاهد) أي وقال قائل من (أهلها) قيل كان ابن عم لها ، قال بلسان الحاكم العدل (إن كان قميصه قدّ من قبل) أي شق من أمام (فـ) قد (صدقت وهو من الكاذبين) لأنه يكون قد هجم عليها فدفعته عن نفسها فقدت قميصه من قدامه، وانما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أقاربها ، لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه (وإن كان قميصه قد) شق (من دبر) أي من خلف (فـ) قد

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية) .

(كذبت) في رميها له (وهو من الصادقين) في أنها هي التي راودته ، لأن شق قميصه من خلفه يدل على أنه كان هارباً ، وهي لاحقة له .

قيل هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق ، وسمى قوله شهادة ، وما هو بلفظ الشهادة ، لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها ، وانه ليصدق على هذا « الشاهد » المثل السائر « ربّ أخ لك لم تلده أمك » .

(قال هي راودتني عن نفسي)

— ١ —

وقالت الآنسة رحمة الناصرية [١] :

دفاع يوسف

تعلمون أيها السادة أن يوسف كان أولاً سمع من زليخا مراودتها إياه ، ثم رآى همها بضربه إن لم يوآتهـا ، ثم بلحوقها إياه حينما هرب منهـا ، ثم الآن رآها تُسمّع [٢] به زوراً وبهتاناً وتتهمه وتلصق به العيب ، فشعر بالدم يغلي في عروقه ، ولكنه تماسك وتمالك ، ولم يكن يحجزه عن المبـادرة لاظهار الحقيقة إلا ما لبيت العزيز عليه من الاحسان واكرام المثوى ، فاقتصر عن الدفاع عـن نفسه بأخصر عبارة وأوجز كلمة ، قائلاً « هي راودتـــني عن نفسي » مؤملاً أن الواقع سيتكلم عنه طويلاً ، وان ميزان العدل سيكون له القول الفصل بالبحث عن القرائن والاستشهاد بالامارات .

---

(١) نسبة الى الناصرة من بلدان فلسطين .

(٢) سمع بالرجل اذاع عنه عيباً وندد به وأشهره وفضحه واسمع الناس اياه .

قال كلمته الموجزة هذه مفصلاً فيها نوع الاكتفاء ولم يطلق للسانه العنان في الدفاع عن نفسه بأن يقول مثلاً : « هي راودتني عن نفسي ، وأرادتني على السوء ، فلم أنزل على إرادتها ، وهي غلقت الأبواب، لتحصرني وتكرهني على الأمر الشنيع، وهي همت بالايقاع بي ، جلباً وحملاً على مرغوبها ، وهي لحقتني إذ هربت منها ، وبالنتيجة هي شقت ثوبي من خلفي ، عندما أرادت أن تمسكني » نعم ، لم يطلق للسانه العنان ببيان ذلك كله ، بل تجاهل عن أكثر ما حصل منها،واختصر الكلام في المحاماة عن نفسه اختصاراً ، لأن خير الكلام ما قل ودل .

قال يوسف كلمته وأمارات العفة والطهارة ظاهرة على وجهه ، ودلائل الصدق لائحة على محياه ، وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، يقرأ الناظر في إشراق وجهه وملامحه آية النزاهة والشرف فكانت دعواه كما قال القائل :

سَبوحٌ لهـا منها عليها شواهدُ

وأما « العزيز » فكأني به كان مصغياً لجوابه ، وعيناه شاخصتان فيه ،يتفرس في حركاته وسكناته ، ليستطلع مقدار ما في كلامه ، فرأى الصدق ظاهراً على كل حرف من حروف جملته المختصرة .

وأما « امرأة العزيز » فنتخيل انها لما فرغت من كلامها التفتت لجهة يوسف وتسمعت ما عسى أن يبدو منه ، وكانت تتوقع استياءه وكدره ، لينفدع ببذيء الكلام ، فيشفي ما في نفسها ، ولكن يوسف لم يزد على كلمه « هي راودتني عن نفسي »،معرضاً عن اهانتها له بتلك الافتراءات والأيعادات،فزاد استياؤها وبلبالها، لأن من يتعمد إهانتك إذا لم يرَ قولَه قد أغضبك . يرى أن تلك الاهانة رجعت اليه ، وشق ذلك عليه . (مرحى مرحى)

(وشهد شاهد من أهلها : إن كان ...)

— ١ —

قالت الآنسة صبحة الدومانية (١) :

الشاهد والتحقيقات

كان رجل من أهلها حاضراً ومشاهداً الحادث وكأني به قد افتتح جلسة المحاكمة في هذه « المحكمة المختلطة » ... بقوله : ﴿ اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم ﴾ (٦ : ١٩)، ﴿ وإذا قلتم فاعْدِلوا ولو كان ذا قُربى ﴾ (٦ : ١٥٢) ، ﴿ ياأيها الذينَ آمَنوا إنْ جاءَكم فاسقٌ بنبَإٍ فتَبَيَّنُوا ... أنْ تُصيبُوا قوماً بجَهالةٍ ، فتُصبِحُوا على ما فعَلْتُم نادمين ﴾ (٤٩ : ٦) ، ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، كونوا قَوّامينَ لله ، شُهداءَ بالقِسْطِ ، ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ على أنْ لا تَعْدِلُوا ،اعْدِلوا هو أقربُ للتقوى،واتقوا اللهَ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بماتعملون﴾ (٥ : ٩) ، ثم قال مخاطباً يوسف وزليخا : كلاكما يدعي وليس بيده سلطان ، وكلاً منكما يريد هدم ما عند خصمه من العفاف والطهر ، فهذه بهجومها تريدهدم عفاف هذا العبد وطهره، بدون إثبات ولا برهان، وهو بدفاعه يقصد هدمعفاف هذه السيدة وشرفها ، بغير مستند ولا حجة وما هكذا يدلى بالتهم ، ولا سيما في باب الأعراض ، ولذلك وحيث لا يوجد مع كل شهود تثبت له صحة دعواه ، فما علينا إلا أن نلتجيء إلى الأمارات ، ونحكّم العلامات ، ونستطلع حقيقة الأمر من الدلائل المحسوسة،فأطلقوا لساني الحرية لأقول كلمة ـ فقال له صهره«العزيز» : « اقضِ ما أنت قاضٍ » ـ فقال : أيها العزيز« أحبُّ الجهادِ إلى اللهِ تعالى كلمةُحقٍ

(١) نسبة الى بلدة دوما من ضواحي دمشق الشام (سورية) .

تقال لإمامٍ جائرٍ »[1] حاشاك ، أيها العزيز ، أنا أكفيك أمر هذا المشكل ، وأكشف لك عنه النقاب .

وعندما وصل إلى هنا اشرأبت أعناق كل من الحاضرين ، من عزيز وامرأته ويوسف ، وأصاخوا لما سيقوله هذا الرجل « الشاهد » وتولاهم جميعاً سكوت عميق .

ثم قال : « أيها العزيز ، أنت تعلم ان الدعاوي لا ينصرها إلا الدليل ، وعليه فالدليل الممكن هنا الذي يصلح لكشف وجه هذه المعركة ، والبرهان الذي ينبغي التعويل عليه ، ولا ينبغي التعويل على غيره .

والذي نقيمه مقام الشهود ، هو أن نتأمل في هذا القميص الملفوف المحمول بيدها ، الذي يقولان عنه إنه قُدّ — هل هو مقدود من أمام ، أم من خلف ؟ فان رأيناه مقدوداً من قُبُل ، فهي صادقة في دعواها ، وانه كان تابعها وهاجماً عليها ، وانها هي دافعته عن نفسها فقدت قميصه من قدامه بالدفع ، وان رأيناه مقدوداً من دُبُر ، فهي كاذبة ، بل تكون هي التي تبعته واجتذبت ثوبه اليها فقدّته » .

هذا مرمى كلام ذلك « الشاهد » وكان هذا الشاهد رجلاً شهماً عاقلاً فهماً ؛ مثالاً للعدالة والانصاف .

فعند ذلك صارت الهواجس تتقاذف المتداعيين وأخذت الخواطر تتضارب في نظر هذين المتدافعين ، بين يأس وأمل ، وخوف ورجاء .

ولا بد انه قبلما سرد الشاهد حكمه ، كان الأمل والرجاء يغلبان على امرأة

(١) رواه احمد في سنده من حديث أبي امامة .

العزيز ، لكون « الشاهد » من أهلها ، وان حال يوسف كان بالعكس ، لأن غايته انه خادم وغريب ، ولكن بعدما أصدر « الشاهد » حكمه ، انعكست الآية ، وصار يوسف في غاية الأمن والرجاء ، ولا تسل عما خامر فؤآده من الامتنان لذلك « الشاهد » وحكمه عفواً ، خدمة للعقل والوجدان الطاهر ، وهو وان لم يشكره بلسانه ، اكتفى بشكره بقلبه ، ومن القلب إلى القلب دليل ؛ أمّا امرأة العزيز فلا تخال إلا انه قد وقع حكم « الشاهد » عليها وقوع الصاعقة على الخشبة اليابسة » .

وقف هذا « الشاهد » وقد تمثلت في كلامه روح العدالة ، ولم يكن ليريد الدفاع عن واحد من هذين الخصمين بعينه ، وإنما يريد الانتصار للحق والحقيقة ، ولكنه ما كأنه إلا وقف وقفة مدافع عن يوسف ، كمحام قدير وقف للذب عن موكله ، فالله تعالى هو الذي سخر هذا « الشاهد » للانتصار للواقع وخدمة يوسف من حيث لا يشعر هو ولا يوسف .

بمثل هذا الرجل صاحب العبقرية البارزة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ـ تتجلى العدالة في أجلى مظاهرها ، وتعلم أنه كان يوجد في مصر في ذلك التاريخ المظلم أفراد أفذاذ هم ذوو إنصاف وضمير حيّ .

رجل وقف كحاكم وهو من ذوي قربى امرأة العزيز ، وبالتالي هو صهر لنفس العزيز ، وقف على منصة الحكم ، وتلا ذلك الحكم العادل ، الذي لم يراع فيه قرابته لتلك السيدة الأميرة ، ولم يحاب فيه صهره الوجيه ، ولم يغدر فيه بذلك العبد العبراني الغريب ، ولكن نطق بالصدق ، ولم يشطط عن جادة الصواب ، فعلينا نحن ان وسّد الينا أمر الحكم مهما كان نوعه ان لا نراعي الوجوه ولا نحابي ولا نغدر بالضعيف ، لكي يسطر لنا التاريخ صفحة بيضاء بمداد الفخر ، كما سطر لهذا الرجل المنصف .

وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر ، به يمكن الكشف عما كان يخالج نفسَيْ يوسف « الصديق » وزليخا « المفترية » ، وهما واقفـــان بين يدي « العزيز » و « الشاهد » وما يحيط بالجميـع من الجواري والقهرمانات والخدم ، لا شك انهما كانا فريسة الهواجس والمخاوف وكيف انهما لا يكونان كذلك و « امرأة العزيز » تعرف نفسها ، والخائن خائف ، ويوسف يعرف ان الانصاف في الدنيا قليل ، وانه غريب وحيد مملوك ، وان خصماءه هم حكامه ؟ ..

ولكن كان هذا بالنسبة ليوسف في الابتداء ، وأما أخيراً فقد تجلت له أمانة هذا « الشاهد » وظهرت له عدالته وانصافه ، فصار من الأمن بمكان هذا ما يسره الله لي من القول في هذا الموضوع،والله تعالى بالحقيقة اعلم .

(وشهد شاهد من أهلها ..)

—٢—

وقالت السيدة مليحة اليافية : —

لي على هذه الآية عدة فرائد :

شهد شاهد بمعنى اخبر حاضر او حكم حاكم

الفريدة الأولى — « شهد » بمعنى أخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا ﴾ (آ: ٨١) ، و « شاهد » حاضر ، كما في ﴿ لِيَشْهَدُوا منافِعَ لهم ﴾ (٢٢ : ٢٨) ، ﴿ وَلْيَشْهَدْ عذابَهُما ﴾ (٢٤ : ٢) ، ﴿ وما شَهِدْنا مَهْلِكَ أهلِهِ ﴾ (٢٧ : ٤٩) ، ويقولون : « صلّينا صلاةَ الشاهـــد » وهي صلاة المغرب ، لأنها لا تقصر ، بل يصليهـا الغائب كما يصليها الشاهد ، أي الحاضر (أساس) .

إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار ، فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف ، والانتصار لهذا العبد المظلوم .

فكل من أخبر بشيء فقد شهد به ، وان لم يتلفظ بلفظ « أشهد » فلا يشترط في صحة الشهادة ذكر لفظ أشهد ، بل متى قال الشاهد : رأيت كيت وكيت ، أو سمعت أو نحو ذلك ، كانت منه شهادة ، ولا يتوقف إطلاق لفظ الشهادة لغة ولا شرعاً على قول « أشهد » قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الذِينَ يَشْهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هـــذا ، فإنْ شَهِدُوا فلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ (٦ : ١٥٠) ، ويشهدون يخبرون ، فلاتشهد معهم : فلا تخبر كاخبارهم ، أي لا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لانه إذا سلّم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، وقال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أنْزَلَ إليكَ ﴾ (٤ : ١٦٥) ، ومعنى شهادة الله بما أنزل اليه ، إخباره بإثبات صحته ، ولكن هذا الاخبار ليس كلامياً ، بل فعلياً بإظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالدلائل المحسوسة المشاهدة ، وقال تعالى :﴿ ولا يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعةَ ، إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحقِ ﴾ (٤٣ : ٨٦) أي أخبر بالحق وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما يخبر به عن بصيرة .

ويجوز أن يكون معنى « وشهد شاهد » : وحكم حاكم ، والنكتة في العدول عن جملة « حكم حاكم » الى جملة « شهد شاهد » الاشارة الى أن هذه الأمارة هي قائمة مقام « الشاهد » فكأنها شهادة ، لأن معنى قول النبي (ﷺ) « البينة على المدعي » : ان عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه ، فاذا ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حكم له [1]

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم .

موجبات الحكم

لم يوجب الله على الحكام أن لا يحكموا إلا بشاهدين ، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين ، أو بشاهد وامرأتين ، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك ، فقد حكم النبي ﷺ بالشاهد واليمين ، وبالشاهد فقط ، ويجوز للحاكم أن يحكم بالنكول ، وباليمين المردودة ، وبالقرعة ، وبالقافة ؛ وبالقسامة ، ويجوز له أن يحكم بشاهد الحال ، إن تداعى الزوجان والصانعان متاع البيت والدكان ، ويجوز له أن يحكم بوجوه الآجر في الحائط ، فيجعله للمدعي إذا كانت الى جهته (١) .

من هو الحاكم

فلو سأل سائل وقال : هل كان هذا الرجل قاضياً حتى يحكم ؟.. قلنا : كل من حكم من ولاة الأمور ، أو من أهل الفهم والعلم فهو حاكم ، سواء سُمّوا قضاة ، أو ولاة الأحداث ، أو ولاة المظالم ، أو حكام صلح ، أو حاكماً منفرداً ، أو كانوا من أهل الفضل ، أو كانوا محكّمين ، أو حكاماً إدازيين ، أو غير ذلك من الأسماء العرفية ، والألقاب الاصطلاحية ، فان كل واحد من هؤلاء يعتبر حاكماً ، ولو لم يسم عند الناس بهذا الاسم ، ويعتبر قاضياً ولو لم يستحق هذا اللقب في اصطلاح القوم ، ولكنه يستحقه بحسب اللغة ، لأن الحكم والقضاء ، والحاكم والقاضي واحد ، وأن الفلاحين أهل الأرياف ، والبدو أهل الخيام ، يسمون اليوم كل من حكم لهم من رؤسائهم « قاضياً » ، فالحكم ليس مختصاً بناس دون ناس

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم .

ولا يتوقف على نصب من طرف الحكومة ، قال تعالى : ﴿ لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّنَات ، وأنزلنا مَعَهُمُ الكتابَ والميزانَ ، ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ ﴾ (٥٧ : ٢٥)، وقال جل جلاله : ﴿ إنّ اللهَ يأمُرُكم أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ الى أهْلِها ، وإذا حكَمْتُم بين الناسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ﴾ (٤ : ٥٧) ، وقال جل من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد ، وأنتم حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ منكم مُتَعَمِّداً ، فجزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ منكم ﴾ (٥ : ٩٨) .

مرادفات الشاهد

الفريدة الثانية ـــ الشاهد والضمين والعريف والنقيب واحد ، كما في القاموس في مادة « نقب » ، فلعل ذلك « الشاهد » كان من أهل العلوّ والرئاسة ، حتى أنه ليمكننا أن نفسر كلمة «شاهد» برئيس .

نفي كون الشاهد كان طفلا

الفريدة الثالثة ـــ قيل كان هـذا الشاهد « طفلاً » ، وعندنا أن هذا القول بعيد جداً لوجوه :

أولاً ـــ لو كان الحال كذلك لم يحسن التعبير بعبارة « شهد شاهد » التي تفيد أن ما قاله هو من قبيل الشهادة أي من قبيل الاخبار عن مشاهدة ، ولو كان «طفلاً» لحسن أن يقال : « ونطق طفل في مهده » .

ثانياً ـــ لو كان ذلك صحيحاً ، لم يحتج لتقوية هذه الشهادة بكونه من أهلها، لأن هذا « الطفل » لو كان من هنود أميركا أو من هندوس الهند لقبلت شهادته، قال الجبائي : لو كان « طفلاً » لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه الى البيان .

ثالثاً — لو كان ما روى صحيحاً لم يحتج الى التطويل ، والالتجاء الى تقرير هذه العلامة ذات الوجهين ، بل كان يكفي من هذا « الطفل » الرضيع أن يقول : « يوسف صادق» أو « امرأة العزيز كاذبة » ، ثم يرجع لطبيعته ويسكت ، ويكون حينئذ قد ظهرت براءة يوسف ليس بعلامة فقط ، بل بأوضح دليل في العالم ، لأن نطق الطفل الرضيع في مهده ، يعد معجزة ، أو إرهاصاً خارقاً للعادة ، وهادماً لناموس الطبيعة .

تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم

الفريدة الرابعة — نحن لا يسعنا إلا أن نقدم لهذا « الشاهد » كل شكر وثناء ، يليقان بعدالته وإنصافه ، حيث تكلم بما أوجبه عليه ضميره ، ولم يراع قرابته لزليخا ، ولم يدلّس ، لأنه صهر للعزيز ، بل نطق بما أوحاه اليه الإنصاف قال تعالى : ﴿ ولا تكنْ للخائنينَ خصيماً ﴾ (٤ : ١٠٤) ، فلا يجوز للمحامي أو للحاكم أن يخاصم البراء لأجل الخائنين ، وقال تعالى : ﴿ ولا تجادِلْ عَنْ الذينَ يختانونَ أنفُسَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يُحبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أثيماً ﴾ (٤ : ١٠٦) ، فلا يجوز للمحامي ولا للحاكم أن يدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية كما في حادثة زليخا ، فهذا القول يحرم المحاماة عن المجرمين، والدفاع عن الخائنين .

لم يكن الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء

الفريدة الخامسة — لو سأل سائل : « إن الرجل الذي يشهد ولم يُستشهد ، ويحلف ولم يُستحلف مذموم ، كما ورد في الحديث في سنن ابن ماجة وغيرها ، ومع ذلك فالشاهد الواحد لا يكفي ، بل لا بد من اثنين » والجواب : هو أن شهادة هذا « الشاهد » ليس من قبيل الشهادة الواردة في الحديث والمصطلح

عليها عند الفقهاء ، ولكن معنى « شهد شاهد » : قال حاضر ، فشهد مضمّن معنى قال ، ولذلك جازت حكاية الجملة الشرطية بعد فعل الشهادة و « شاهد » بمعنى حاضر كما قال الشاعر :

ما علموا أني لكم حافظ شاهداً ما كنتُ أو غائباً

أو « شهد شاهد » بمعنى حكم حاكم ، أو أخبر مخبر ، كما تقدم آنفاً .

تغلب الحق على القوة

الفريدة السادسة — كان هذا الرجل « الشاهد » من أهل امرأة العزيز ، ودمه من دمها ، ولكن الأخلاق والطباع متباعدة :

أبوك أبي والأصل لا شك واحد ولكننا صنوان ورد وخروع

ولكونه من أهلها ، وبالتالي لكونه صهراً « لفوطيفار » كان له دالّة عليه ، فأطلق لسانه بين يديه ، وتكلم بحرية تامة ، ونطق بحكمه العادل وبفضل هذا الحكم تغلّب يوسف على امرأة العزيز من قبيل تغلب الحق على القوة .

مشابهة الشاهد لبعض الحكام والحكماء

الفريدة السابعة — ما أشبه هذا « الشاهد » في فراسته بالنبي سليمان (ع) وعمر بن الخطاب (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) والقاضي أياس بن معاوية ، والقاضي شريح ، والقاضي أبي حازم ، وغيرهم من حكام العرب وحكمائهم ، فجميع هؤلاء مع مشاركة سواهم في العلم والحكمة قد اختصوا بالفهم وامتازوا بالاستدلال بالأمارات وشواهد الحال ، وهذا الذي فات كثيراً من الحكام الجامدين،فأضاعوا كثيراً من الحقوق ، وأحيوا كثيراً من الباطل .

جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات

الفريدة الثامنة — أخذوا مما فعله هـــذا الرجل « الشاهد » أن للحاكم أو الوالي أن يحكم بالقرائن التي يظهر له فيها الحق ، وأن يستدل بالأمارات ، ولا يقف عند خصوص البينات والاقرارات .

اختصم رجلان الى « أياس » قاضي البصرة ، في قطيفتين حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : « دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم جاء هـــذا ووضع قطيفته بجنب قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبـــلي ، وأخذ قطيفتي فتبعته ، فزعم أنها قطيفته » — فقال أياس : ألك بينة ؟ — قال : لا — قال : ائتوني بمشط فأتي به ، فسرح رأس هذا ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف احمر ومن رأس الآخر صوف أخضر فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

ولا تنس في هذا الموضع حكاية نبي الله سليمان (ع) مع المرأتين اللتين ادّعتا الولد ، فحكم به داود (ع) للكبرى ، فقـــال سليمان : « ائتوني بالسكين أشقه بينها » فسمحت الكبرى بذلك ، وقالت الصغرى : « لا تفعل رحمـك الله ، هـو ابنها » فاستدل برضى الكبرى بشقه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك — على انهـا أمه ، وان الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعها الله في قلب الأم ، فاتضحت هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارهـا ، فانه حكم به لها مع قولها : هو ابنها .

وهنا في هذه السورة الكريمة نرى ذلك « الشاهد » من أهـل امرأة العزيز توصّل بقد القميص الى تمييز الصادق منها من الـكاذب ، وهذا « لوث » في دعوى « العرض » وقد حكم به .

وقد يكون « اللوث » في دعوى « المال » فيحكم بموجبه، وهذا مذكور في سورة المائدة في دعوى المال ، في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين ، في الوصية في السفر ، في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، شَهَادةُ بَيْنِكم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ حينَ الوصيةِ اثنانِ ذوا عدلٍ منكم ، أو آخرانِ مِنْ غيركم ، إنْ أنتم ضَرَبْتُم في الأرضِ ، فأصابتكُم مُصيبةُ الموتِ ، تَحْبِسونَهُمَا مِنْ بعدِ الصلاةِ ، فَيُقْسِمانِ باللهِ إنْ ارْتَبْتُمْ : لا نَشْتَرِي به ثمناً ، ولو كان ذا قُربى ، ولا نَكْتُمُ شهادةَ اللهِ ، إنّا إذاً لَمِنَ الآثمين ﴾ (٥ : ١٠٩) .

وقد يكون « اللوث » في « الدماء » ، فقد حكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة ، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يميناً ويستحقوا دم القتيل .

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) والصحابة معه برجم المرأة التي ظهر بها حمل ، ولا زوج لها ولا سيد ، وحكم عمر وابن مسعود بوجوب الحد برائحة الخمر من فم الرجل ، أو قيئه خمراً اعتمادا على القرينة ، ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون « بالقطع » إذا وجد المال المسروق مع المتهم ، وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار .

وهل يشك أحد رأى قتيلاً يتشحّط في دمه ، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله ؟ ولا سيما إذا عرف بعداوته ، وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس وليس ذلك عادته ، وآخر هارباً قدامه ، بيده عمامة ، وعلى رأسه عمامة ، حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً ، وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة ، بالقرينة الظاهرة ، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف .

وهل القضاء « بالنكول » إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة ، التي علمنا بها

ظاهراً انه لولا صدق المدعي لرفع المدعى عليه دعواه باليمين ؟ فلما نكل عنها ، كان نكوله قرينة ظاهرة دالة على صدق المدعي ، فتقدمت على اصل براءة الذمة (١).

وبالجملة فان ما قاله وما حكم به ذلك « الشاهد » هو من قبيل الاعتماد على « الأمارة » ، وانها تقوم مقام البينة ، وله نظائر كثيرة ، فمن ذلك ان النبي (ﷺ) أمر الملتقط أن يدفع اللقطة الى واصفها ، وأمره أن يعرف عفاصها ووعاءها ووكاءها كذلك ، فجعل وصفه لها قائماً مقام «البينة» ، وقد سئل الإمام احمد عن المستأجر ومالك الدار ، تنازعا « دفيناً » في الدار ، فكل واحد منها يدعي انه له ، فقال : « من وصفه منها فهو له » .

وكذلك اللقيط إذا تداعاه اثنان ووصفه أحدهما بعلامة خفية في جسده حكم له به عند الجمهور ، ومن ذلك أن ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل ، فقال النبي (ﷺ) : « هل مسحتما سيفيكما ؟ — قالا : لا — قال : فأرياني سيفيكما ، فلما نظر فيها ، قال لأحدهما : هذا قتله ، وقضى له بسلبه » .

وعلى الاجمال « فالبينة » اسم لكل ما يبين الحق ويظهره ، ومن خصّها بالشاهدين ، لم يوف مسماها حقه ، ولم تأت « البينة » قط في القرآن الكريم مراداً بها الشاهدان ، وإنما أتت مراداً بها الحجة والدليل والبرهان ، وكذلك قول النبي (ﷺ) : « البينة على المدعي » المراد به أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له، والشاهدان من البينة ، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة قد يكون أقوى منها كدلالة « الحال » على صدق المدعي ، فانها أقوى من دلالة إخبار الشاهد ، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمارة والسلطان والمستند

(١) ملخصاً من الطرق الحكمية لابن القيم .

والقرينة — ألفاظ متقاربة المعنى ، فالشارع لم يلغ القرائن والأمارات ودلائل الأحوال ، بل من استقرى الشرع ، في مصادره وموارده ، وجده شاهداً لها بالاعتبار ، مرتباً عليها الأحكام ، وقد مدح الله سبحانه الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه ، فقال تعالى ﴿ إنّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسّمين ﴾ (١٥ : ٧٥) ، وهم المتفرسون الآخذون بالسيماء ، وهي العلامة ، يقال : تفرست فيك كيت وكيت وتوسمته ، وقال تعالى : ﴿ولو نشاءُ لأريناكَهُم فلَعَرَفتَهُم بسِيمَاهُمْ﴾ (٤٧ : ٣٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَحسَبُهُم الجاهلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٢ : ٢٧٣) ، وفي جامع الترمذي مرفوعاً : (اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمنِ ، فإنّهُ ينظرُ بنُورِ اللهِ) ثم قرأ : ﴿ إنّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوسّمينَ ﴾ [(١)]

وقد ذكر الفقهاء ان الدعوى إن كانت من قبيل تهمة ، وهي أن يدعي إنسان على إنسان فعل محرم ، مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال ، فهذا القسم إن أقام عليه المدعي حجة شرعية فذاك ... وإلاّ فالقول قول المدعى عليه بيمينه ، لما روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : (لو يُعطَى الناسُ بدعواهم ، لادعى ناسٌ دِماءَ رجالٍ وأموالَهم ، ولكن اليمين على المُدعَى عليه) [(٢)].

فلهذا وحيث ان يوسف رفض الدعوى عليه رفضاً مجرداً عن اليمين ، وان المرأة المدعية لم تأت ببينة تثبت دعواها ، احتيج الى الاستناد الى أمارة تؤيد واحداً من المدعي والمدعى عليه ، فقيل : إن كان .. وإن كان ...

(١) الطرق الحكمية لابن القيم

(٢) الطرق الحكمية لابن القيم .

وهذا من قبيل نصب العلامة على الحق المشروع ، وقد نصب الله سبحانه على الحق الموجود والمشروع علامات وأمارات تدل عليه وتبينه ، قال تعالى : ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون﴾ (١٦ : ١٥ و ١٦) ، ونصب على القبلة علامات وأدلة ، ونصب على الإيمان والنفاق علامات وأدلة ، قال النبي (ﷺ) : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ، فجعل اعتياد شهود المسجد من علامات الإيمان ، وجوز لنا أن نشهد بإيمان صاحبها ، مستندين الى تلك العلامة ، والشهادة إنما تكون على القطع ، فدل على أن الأمارة تفيد القطع ، وتسوغ الشهادة ، وقال (ﷺ) : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان) .

وقد نصب تعالى الآيات دالة عليه وعلى وحدانيته وأسمائه وصفاته ، فكذلك هي دالة على عدله وأحكامه ، والآية مستلزمة لمدلولها ، لا تنفك عنه ، فحيث وجد الملزوم وجد لازمه ، فاذا وجدت آية الحق ثبت الحق ، ولم يتخلف ثبوته عن آيته وأمارته ، والحكم بغيره يكون حكماً بالباطل ، وقد اعتبر النبي (ﷺ) وأصحابه من بعده العلامات في الأحكام ، وجعلوها مبينة لها ، كما اعتبر العلامات في اللقطة ، وجعل صفة الواصف لها آية على صدقه وأنها له ، وقال لجابر : « خذ من وكيلي وسقاً ، فإن التمس منك آية ، فضع يدك على ترقوته » ، فنزل هذه العلامة منزلة البينة ، التي تشهد انه أذن له أن يدفع له ذلك ، كما نزّل الصفة للقطة منزلة البينة ، بل هذا نفسه بيّنة ، إذ البينة مايبين الحق ، من قول وفعل ووصف ، وجعل الصحابة رضي الله عنهم الحَبَل علامة وآية على الزنا ، فحدّوا به المرأة ، وان لم تقر ولم يشهد عليها أربعة ، بل جعلوا الحَبَل أصدق من الشهادة ، وجعلوا رائحة الخمر ، وقيئه لها آيةً وعلامة على شربها ، بمنزلة الإقرار والشاهدين ، وجعل النبي

(ﷺ) كثرة المال وقِصَرَ مدةِ إنفاقه آيةٌ وعلامة على كذب المدعي أنه ذهب في النفقة والنوائب، في قصة «حيّ بن أخطب» واعتبر العلامة في السيف وظهور أثر الدم به في الحكم، بالسَّلَب لأحد المتداعيين، فنزل الأثر منزلة البينة، وجعل الحيض علامة على براءة الرحم من الحمل، واعتبر العلامة في الدم الذي تراه المرأة ويُشتبه عليها، هل هو حيض أو استحاضة، واعتبر العلامة فيه بوقته ولونه، وحكم بكونه حيضاً بناءً على ذلك، وهذا في الشريعة أكثر من أن يحصر وتستوفى شواهده، فمن أهدر الأمارات والعلامات في الشرع بالكلية، فقد عطّل كثيراً من الأحكام، وضيّع كثيراً من الحقوق (١)

ولولا العلامة التي اتخذها «الشاهد» دليلاً على التمييز بين المحق والمبطل هنا لحكم على يوسف، أو على الأقل لكان حال يوسف مشكوكاً فيه.

سبب تأخير أمارة صدق يوسف على امارة صدق امرأة العزيز

الفريدة التاسعة — إن كان «الشاهد» بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له، كما ذكره الزمخشري احتمالاً، ونحن درجنا عليه في تقريرنا — إن كان كذلك كان من حقه أن يصرح بما رآى، فيصدق يوسف ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقداد قميصه كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر، وهو قده من قبل، على علم منه بأنه لم ينقد من قبل، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفها جميعاً، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثمّ قدم أمارة صدقها

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم.

على أمارة صدقه في الذكر ، إزاحةً للتهمة ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفة بعينها — والله أعلم — هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله : ﴿ وإنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ (٤٠ : ٢٨) ، فقدم احتمال الكذب على احتمال الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق اليه في حق موسى (م) ووثوقاً بأن الاحتمال الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : « بعضُ الذي يَعِدُكُمْ » ، ولم يقل : : « كُلُّ ما يَعِدُكُمْ » ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه .

وبنحو هذا النحو تأخير يوسف (ع) لكشف وعاء أخيه ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه ، والله أعلم . فقصد هذا « الشاهد » الأمارة الأخيرة فقط ، وأما الأمارات الأولى فليست مقصودة ، وإنما ذكرها توطئة وهي من قبيل الفرض والتقدير ، وكأنه قال : إن كان قميصه قدّ من قبل فهي صادقة ، لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة ، فعلق صدقها على محال ، وهو ثبوت قدّه من قبل حالة عدمه .

هذا هو التقرير الصواب ، والحق اللباب . وههنا قام السيد رئيس المؤتمر وقال: حقاً ان هذه الفرائد هي فرائد درية وفريدة في بابها ، لأنها مفعمة بالابحاث الاجتماعية والدينية الدقيقة ، فبارك الله في الخطيبة .

(وإن كان قميصه قدّ من دبر .. الخ)

— ١ —

وقالت السيدة صباح النابلسية :

سأقتصر كلامي على هذه الآية بكلمات ثلاث :

هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي

الكلمة الأولى : — قوله في الآية السابقة : « إن كان ... الخ » وقوله هنا : « وإن كان ... الخ » ، هذا التشقيق والتشكيك يفيدنا أن يوسف لم يكن لابساً القميص إذ ذاك ، بل كان منزوعاً عنه ، كما قالته اختنا السيدة فريدة الحصية في محاضرتها ، على موضوع « قد القميص صحيفة ٥٤٨ » ، لأنه لو كان إذ ذاك لابساً القميص المقدود لكان القدّ ظاهراً ملموساً ، واقعاً تحت حس ونظر الجميع ، إذ كيف يعقل أن يخفى القد اين هو ، هل هو في جهة الأمام أو في جهة الخلف ، ويوسف لابسه وواقف قدام تلك الهيئة ، فلا ريب إذاً ان يوسف لم يكن لابساً القميص آنئذ ، بل كان ملفوفاً مستوراً ، بحيث لا يعلم قده في أي جهة كان ، أمن قبل أو من دبر ، والظاهر من كلام « الشاهد » ومن احتماليه اللذين حكاهما بقوله : إنْ ... وإنْ ... ، أنّ القميص لم يكن ملبوساً حين التداعي ، هذا ما فهمته في هذه الآيات القرآنية الكريمة ، ولا أظنه إلا الصواب الذي لا محيد عنه ، وعليه فالصحيح ان امرأة العزيز لما جذبت قميص يوسف انشق طولاً ، فسهل على يوسف ان ينزعه عن بدنه ويتملص منه ، فتركه لها في يدها ، ومضى في حال سبيله مستمراً في فراره ، حتى وصل الباب ، وهذا الذي فهمناه من ان القميص كان منزوعاً وكان في يد امرأة العزيز هو المذكور صريحاً في (تك ٣٩ : ١٢ — ١٨) .

احتقار الشاهد «لامرأة العزيز» رغم مقامها

الكلمة الثانية ــ قال ذلك «الشاهد» أمام تلك السيدة «امرأة العزيز» : «فكذبت» ولم يحترم مقامها ، لأن الرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم . ثم ان ما ظنه في يوسف من الصدق قد أظهرت الحادثة تحققه ؛ وسيأتي لرئيس السقاة أن يصفه بالصدق حيث يقول له : «يوسف ، أيها الصديق» ، كما سوف سيأتي لنفس عدوته امرأة العزيز أن تصفه بالصدق، إذ تقول:«وإنه لمن الصادقين» فهذا من قبيل توارد الخواطر الذي يفيد تحقيق مورده .

قد القميص من قبل دليل الاقبال وقده من دبر دليل الادبار

الكلمه الثالثة ــ لو كنت حاضرة محاكمة يوسف وزليخا أو لو رفعت إليّ دعوى تشبه دعواها لكانت خلاصة حكمي الجملة المختصرة التالية : «إن قدالقميص من دبر دليل على إدبار يوسف عن زليخا بظهره ، وقد القميص من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه والسلام» ، هذا ما أحب أن يسجله التاريخ ويحفظه عني علماء الحقوق ... ــ بخٍ بخٍ ــ

وثيقة البراءة

آ(٢٨) ﴿ فلمَّا رآى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، قالَ : إنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنَّ ، إنَّ كَيْدكُنَّ عَظِيمٌ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والعشرون فقام الشيخ عبدالجواد السلطي [١] وقال :

فتش العزيز قميص يوسف الذي بقي في يد زوجته زليخا (فلما رأى) سيدها (قميصه) أي قميص يوسف الذي بيدها قدْ (قُدّ من دبر) علم براءة يوسف وصدقه وكذبها ، ثم (قال) آنئذ بلسان الغاضب الماقت : كل هـذا يجري تحت جناحي وفي عقر داري !.. (إنه) أي إنّ قولك : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً .. الخ » ، أو إن هذا الأمر ــ وهو طمعها في يوسف ، أو إن هـذا الالصاق والتجريم ، بغير حق (من كيد كن) يا بنات حواء (إن كيدكن عظيم) بالنسبة لكيد أبناء آدم ، لان النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة ، ولهن في ذلك نِيقَـة [٢] ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

وفي هذه الآية الكريمة تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة ويعملوا بقضائهم ، كما فعل « العزيز » إذ نزل على حكم ذلك الحاكم «الشاهد».

---

(١) نسبة الى بلدة السلط من البلاد الاردنية .

(٢) النيقة اسم من التنوق وهو الرفق والأناة .

(فلما رأى قميصه ... الخ)

— ١ —

قال الحاج صالح الاسكندروني [1] :

تبرئة يوسف وتجريم زليخا وتوبيخها

لما أتم « الشاهد » خطابه الذى به (قطعت جهيزة قولَ كل خطيب) استطابه « العزيز » ، ونزل على حكمه ، ثم طلب نشر القميص ليُفتش ، فلما رآه مقدوداً من دبر ، فهم الدسيسة ، فضرب يداً بيد ، وحوقل وندب حظه ، وقرع سنه ، وأضمر بين جنبيه لوعة وأسى ، وكاد قلبه يذوب بين أضالعه ، ذوب السبيكة في البوتقة .

نم ، نعم ، انه دهش دهشة عظمى ، وعض على شفته السفلى ، وورد عليه ماطار بلبه ، وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة ثم التفت يمنة ويسرة ، وبعد لأْيٍ ما استطاع أن يقول بصوت منخفض ، لئلا يسمعه أحد من العبيد والخدم : عَقْرَى حَلقَى — إن آفة الحديث الكذب - إن طمعك في هذا العبد ، وقولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم — إن هذا العمل وهذا القول من كيد كن الذي تَمُدِدْنه للناس ، وسوف يرتد لنحوركن ، إنه من مصائد كن التي تنصبنها لمن تردن وقوعه في الشَرَك ، إنه من ختلكن يابنات آدم الذي لا يَعْدوكن ، إنه من دهائكن الذي لا يتجاوزكن ياحبائل الشيطان ، آه . . .

---

(١) نسبة الى اسكندرونة من بلاد الشام (سورية)

إن من غره النساء بود بعد هـذا لجاهل مغرور

فالآن ـ وقد رأينا القميص ـ فقد دفع الحق الباطـل ، وظهر الصبح لذي عينين ، وزالت الرغوة وبدا الصريح ، يميناً لقد ظهرت الحقيقة ، ووثيقتها معها ، و (على نفسها جنت براقش) ، يميناً لقد تبين أن «السوء» الذي الصقته بيوسف هو واقع منك ، ولا خيرة في الواقع ، وماله من دافع .

« إن كيد كن » يا فصيلة (الجنس اللطيف) « عظيم » ، بخلاف فصيلة(الجنس القوي) فالغالب فيهم حقارة كيدهم .

« إن كيد كن » الذي يدبر من جهتكن « عظيم » ، فقـد ظهر لي الآن أني ما كنت أعرفك إلا معرفة مُطـوَّسة (١) ، كنت لا أعرف منك إلا الذَّنب ، ولـكن اليوم عرفت منك الدماغ ، وماحوى من خبث وطيش .

« إن كيد كن عظيم » ، فأنتن مُعَشَّش الشياطين ، ووكرُ الباطل ،ومرسى دعائم الفتنة ، أللهم إلا قليلاً .

« إن كيد كن عظيم » لا سيما فيما يتعلق باللبس والأزياء وأمر الاستمتاع بالشهوة والحب ، فهناك رحمة الله على الأمانة ، رحمة الله على العفاف والشرف .

نعم انه « عظيم » من معاظم الشؤون المنكرة ، ومن عظائم الصفات المستقبحة وأي عظيمة أقبح من الختل ؟ وأي كبيرة أفحش من المِحَال (٢) .

عجبت لك كيف تتهمين هذا العبد بتهمة باطلة ؟! ... كبرت كلمة تخرج من فيك ، ان تقولين إلا كذباً .

---

(١) مطوسةمتصورة أو متخيلة.
(٢) المحال بكسر الميم الكيد والمكر

قال العزيز ذلك ، وعلى وجهه دلائل البغتة والاندهاش ، وفي ملامحه أمارات الخجل من هذه المرأة ، قال العزيز ذلك موجهاً الخطاب لزليخـــا ، وتفرس فيها يسبر حالها ، فاذا لونها ممتقع ، وإذا الارتباك ظاهر على وجهها . قال لها ذلك ، وهو ينظر اليها بعين تتجلى فيها الحِدّة .

وأما هي ، فكانت واقفة وقوف الصنم ، وقد جمد الدم في عروقها ، واصطكت ركبتاها ، وانماث [١] قلبها ، كما ينماث الثلج في الحر ، وعقرت [٢] حتى كادت تقع الى الأرض ، بل كأنما خرت من السماء في مكان سحيق ، وأخيرا أطرقت برأسها إطراق من ترى ان بطن الأرض خير لها من ظهرها .

وأما يوسف ، فلما سمع هذا القياس الذي أنتج هذه النتيجة ، أفرخ روعـه ، وأمن جنابه ، وأحس كأنه قـــد ألقي عن ظهره حمل ثقيل ، وحمد الله تعالى ، وشكر في نفسه هذا الرجل ، وقال : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

هـذا ما اردت قوله على هـذه الآية الكريمة ولا بد لي من إنهاء حديثي بترفيلات [٣] تسع :

رب محنة في وسطها منحة

الترفيلة الاولى ــ كان في مصيبة يوسف بقدّ قميصه فائـدة له كبرى ، وهي براءته مما نسب اليه ، ورب محنة في وسطها منحة :

من عرف الله أزال التهمه : وقال : كل فعله لحكمه

(١) انماث ذاب (٢) عقرت : فجأها الروع فلم تقدر أن تتقدم أو تتأخر (٣) الترفيل التذييل .

حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى

الترفيلة الثانية ـ لو كنت مكان يوسف لادخرت هذا القميص في « صِوان[1] » وحده ، وأوصيت أن يكون أثراً من بعدي ، يحفظ في « دار الآثار » المصرية ، تذكاراً لهذه الحادثة التاريخية المؤلمة السارة ، ولأنه من الأزياء التاريخية .

تبادل التهنئة والشكر

الترفيلة الثالثة ـ كأني « بالشاهد » بعد ما ظهرت براءة يوسف ، أخذ يهنئه ويمسحه ، وكأني بيوسف ، أخذ يجتزي « الشاهد » خيراً ، ويقدم له التحيات والشكران .

مرادفات الكيد

الترفيلة الرابعة ـ الكيد والمِحال والخداع والختل والغدر والتمحل والخِب والمكر والدهاء والخلابة ـ تقريباً واحد .

الكيد والمكر من صفات الضعفاء والبهود

الترفيلة الخامسة ـ الكيد والتقلب والرياء والنفاق والخداع والخيانة والمكر والتدابير الخفية والألغاز المجهولة ـ كل هذه هي من الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة ، غير ان المرأة لما كانت أضعف من الرجل ، رأت نفسها مضطرة الى الالتجاء لهذه الصفات اكثر من الرجل القوي الجبار القاهر، فلذلك اشتهرت النساء

---

(١) الصوان وعاء الثياب .

بهذه المعاني اكثر من الرجال ، ويوجد الختل والمكر في النساء عموماً ، وفي « اليهود » من الرجال وغيرهم ، وسببه الذل والمسكنة لان الرجال ظلموا المرأة وأهانوها وأذلوها ، وكذا حال « اليهود » بين الناس ، من حين أن هاجروا من العراق إلى سورية وفلسطين ، فعاشوا غرباء بين تلك الأمم المتوثبة ثم حين أن عاشوا بمصر بعد يوسف فأذلهم الفراعنة وسخروهم وذبحوا أبنائهم واستحيوا نسائهم ، ثم ـ بعد رجوعهم لسورية وفلسطين ـ من حين أن استولى عليهم الكلدان فالفرس فاليونان فالرومان ، فبعض قساة ملوك الاسلام .

كيد المرأة

الترفيلة السادسة ـ يريد بقوله : « إنه من كيدكن » ، إنه من كيدكِ ، ولكنه عبر بصيغة الجماعة ليشير الى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النساء ، فجل النساء في الخدعة والمِحال كزليخا ، وزليخا في الختل والحيلة صورة صادقة لجل النساء .

وبعبارة اخرى : هو لا يصف ما جال في نفس امرأته فحسب ، وما حاك في صدرها فقط ، من ختل وِخب ، إنما هو يصف العادة الطبيعية لكل امرأة ، ويخبر بالحال النفسية لكل أنثى ، فهو يمثل النوع بأن ديدنه كما ذكر ، فالكيد هو خلق لهن عريق فيهن :

ولا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس ، كلُّ غانيــة هند

وبعبارة ثالثة : لم يقع الكيد إلا من واحدة ، ولكن لما كان الكيد من نفسية « الجنس اللطيف » نسبه لذلك الجنس ، ونظيره قوله (ص) : « إنكنّ لأنتنّ صواحب يوسف » ، يريد أن الإلحــاح والمكر من نفسية هذا الجنس النسائي ، قاله ﷺ لحفصة ، إذ كانت قالت عائشة (رض) : (إن أبا بكر رجل أسيف ،

إذا قام مقامك ، لم يسمع الناس ، من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس) فلم يقبل ﷺ ، ثم قالت له ذلك حفصة ، فلم يقبل ، وإذ رآهن قد ألححن ، قال ذلك .

هذا وان سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل هو انها لمـــا أضلت حريتها في ظلمات الأجيال الماضية ، وفقدت استقلالها وعزها، وادركها العجزعن تناول ما ترغب اليه بالطرق المسنونة ، بسبب ظلم الرجل لها ، اضطرت الى استعمال الحيلة ، وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها ووليأمرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه ، ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع ، فأصبحت ممثلة ماهرة ، ومشخصة قادرة ، تظهر في المظاهر المتضادة ، والألوان المختلفة ، في كل حال بحسبها ، وذلك لا عن عقل وحكمة ، وإنما هي حيل الثعالب، وعذرها في ذلك انها ليست حرة مع ولي أمرها ، من أب أو زوج مثلاً .

الكيد موجود في الرجال والنساء ، إلا ان النساء ألطف كيداً ، وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ (١١٣ : ٤) ، والقصريات من بينهن معهن من البوائق ماليس مع غيرهن .

ولعل الحال في بلاد « التيبت» بالعكس ، لأن الأمر والنفوذ والإرادة والسيادة هي هناك — كما يقال — « للنساء » ، وأما الرجال عندهم لخدمة مستعبدون لهن في كل شيء بلا استثناء ، فالمرأة هناك أقوى جداً من الرجل ؛ فاذاً لا ندحة من أن رجالهم هم أصحاب الكيد والتقلب والرياء والختل .

سئل الشاعر الانكليزي « ميلتون »: لماذا يسمحون « لولي العهد » عندكم بأن يتولى الملك في الرابعة عشرة من عمره ، ولا يسمحون له بأن يتزوج قبل

الثامنة عشرة ؟.. فقال : « لأن سياسة البلاد على ما فيها من رعايا كثيرين ، أسهل مراساً من سياسة الزوجة » :

وقال بعضهم : « إن النساء لو تدربن على السياسة ، لكنّ أعظم سائسي العالم ».

كتب أحد الأغنياء على بابه : « يا باب ، لا يدخلك سوء » ، فلما قرأه « ديوجينس » قال : « وامرأتك من أين تدخل ؟ »

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها من النساء تأتت

قال نابليون : « إن المرأة التي تهز المهد بيمينها ، تهز العالم بيسارها » ، وقال بعضهم : « إني لا أخشى في الحياة سوى تلك التي ملكت قلبي ، إذ هي وحدها قادرة على أن تمنحني السعادة والشقاء » ، وقال فولتير : « إذا كانت المرأة هي التي أفقدتنا النعيم ، فهي وحدها تستطيع أن تعيده إلينا » ، وقال بلزاك : « لقد درست طبائع النساء طويلاً ، وإني لأفاخر بأني لم أضع وقتي كله ، فقد عرفت الآن أني لا أعرفهن » ، وقال « سنت جوست » : « لا يمكنك أن تتصور ما يتولد في قلب المرأة الضعيف من القوة والإقدام حال ما تحب » ، ومن الأمثال اليابانية : «النساء يفهمن الرجال ، ولكن لا يفهم النساء إلا النساء » ويقولون أيضاً: « الرجل يضحك بقلبه ، أما المرأة فتضحك بفمها فقط » ، وقال الفيلسوف شوبنهور الألماني : « يسألوني عن الأفعى اللينة الملمس ، وهي أمامهم في كل وقت ، بل في كل لحظة ، وهي المرأة » ، وقال أيضاً : « لتكن المرأة ملاكاً طاهراً ، أو شيطاناً رجيماً ، فمالنا ولها ؟ أجارنا الله من شرها وأذاها » ، وقال سنت بوف : « المرأة شيطان محسن » .

فضل المرأة

الترفيلة السابعة — جرت المقادير ، وقضي الأمر على « المرأة » أن تكون أضعف من الرجل في الجسد والقوة والسيطرة ، فلذلك التجأت للتسلح « بالتدابير الخفية » والأفكار الباطنية ، لكي تقوى بذلك على الدفاع عن نفسها ، وتارة على الهجوم عند الاقتضاء . غير أن هذا لا ينافي أن « المرأة » أحسن من «الرجل» في الفضل الأدبي ، والتهذيب الفطري ، والعفة ، وعمل الخير ، وما إلى ذلك من أمثال وفضائل ، فهذه ما لا يقدر الرجل أن يجاري المرأة فيها ، وهي من هذه الوجهة أفضل من الرجل وأسمى منه ، في كل آن ومكان ، على اختلاف الأجناس والأديان .

انظر إلى الرجل أولاً من جهة قوته الجسدية وشدته ، تجد أن قوته هذهأدت في جميع أدواره إلى ارتكابه الجرائم ، كبيرة وصغيرة ، من السرقات ، الى قطع الطرق على السابلة ، ونهب أموالها،إلى تأليف العصابات وإيقاد الثورات ،والانتقام من بعض إخوانه في الانسانية ، وربما في الدين والوطن ، هذا عدا ما في إثارة الحروب ، وتقتيل البشر — مزاحمة على حطام الدنيا — من نبذٍ لكل شريعة ومدنية .

فكل ما جرى ويجري في هذه الدنيا من الفجائع والاستبداد والاستعباد واستعمار البلاد وإرهاق أهلها ، إنما يفعله الرجل ، نعم أن الرجل هو القائم بكل هذه البلايا ، ولم يعرف لا في عصرنا ، ولا في العصور الماضية أن النساء ألّفْنَ من بينهن عصابات للسرقة والقتل والسلب ، ولا تَجَمّعْنَ لجريمة ، أو أعَنّ عليها ؛

ولا يقدح في هذا أنه وجد في التاريخ نساء دعون إلى مثل هذا ، وباشرنه بأنفسهن ، « كوقعة الجمل » ، وأعمال « جاندارك » و « غزالة » الخارجيـــة ، و « زنوبيا » ملكة تدمر ، و « الزباء » إلى غير ذلك من الشواذ ، فما كان الدافـع إليهن إلاّ حب تأييد عقيدة ، رسخت في تلك النفوس ، لا حباً بسفك الدماء ، والتغلب على الأعداء ، ولا يدحض أيضاً ما هو معلوم عن مساعدة النساء لرجالهن في الحروب ، فهو إنما اضطرت اليه « المرأة » لتخفف من ويلات الحرب عن الرجال ، بدافع الكرامة القومية ، لا بقصد قتل الأعداء .

ونعلم ان كثيراً من جرحى الحرب الذين يؤسرون ويدخلون مستشفيات أعدائهم — كانوا يلقون من عطف « المرأة » وحنانها مثل ما كان يلقى أهلها وقومها ، إذاً فما كان وجودهن في تلك الساحات قديماً وحديثاً إلا لتلطيف هـــذه المصائب . بحنانهن ورقة إحساسهن ، فهن محسنات بالطبيعة ، والروح الأدبية فيهن أقوى وأسمى مما هي في الرجال .

أراك يعلو صوتك ، وتندفع للرد عليّ قائلاً : إن أكثر الحروب والعداوات الشخصية ، والجرائم المتعددة ، التي ذكرتها ، إذا دققت في أسبابها ، تجدها آتية من طريق « المرأة » ، وهو أمر مشهور وبرهانه ساطع ، لا يقبل الرد — إذاقلت هذا فإني أجيبك ان السبب ليس هو « المرأة » ، أي أن المرأة لم تدفع الرجال إلى هذه المخازي ، ولا حرّضتهم عليها ، ولكن الرجال بأنانيتهم ، وحبهـــم للاثرة ، ومزاحمة بعضهم لبعض ، وما في رؤوسهم من مطامع يندفعون إلى هذه الشرور ، تنفيذاً لمآربهم ، فلا ذنب « للمرأة » في هذا .

وهل شهدتَ أو سمعتَ إلا نادراً ان امرأتين اقتتلتا ، أو قتلت إحداهما الثانية من أجل الوصول للرجل؟ — وهي أولى منه بذلك لما فيها من قوى ثائرة،وعواطف

متهيجة - أو أثارت جنسها أو ناحيتها أو قومها من أجل الحصول على رجل ؟ هذا ما لا وجود له إلا في القليل النادر ، وخاصة فيمن كان في حياتهن العائلية شيء من الشرف ..

وهل تعتقد أن الزانيات في النســـاء يبلغن عشر عشر الزانين من الرجال ؟ - كلا -، وهل تعتقد ان شاربات الخمر من النساء يساوين جزأ من ألف من شاربي الخمر الرجال ؟ — كلا — ، وهل تعتقد ان المرابيات من النساء يساوين جزأ من ألف جزء من مرابي الرجال ؟ — كلا — .

هذا ما عدا ما « للمرأة » من التأثير على الرجال بإبعادهم عن تلك المآزق الحرجة ، وما عدا ما لها من الفضل في نشر السلام ، فهي رسوله الصادق الأمين، وهذا ما يدعو كل منصف بصير أن يعترف « للمرأة » بهذه الحسنات الكبرى ، وبُعدِها عن الأعمال القاسية .

ثم إذا استعرضت « الرجل والمرأة » في ملاعب الميسر تجد أن الرجل يأخذ من هذه البلية القسط الأوفر ، والبلاء الأعظم ، ولا ينال « المرأة » منها إلا جزء صغير ، إذاً « فالمرأة » أبعد من الرجل عن المخازي الفتاكة بالهيئة الاجتماعية ، والمنهكة للأجساد والأرواح ، الدافعة للناس — بين بأسهم ورجائهم — إلى اقتراف السرقة والقتل .

ولننظر إلى « الرجـل والمرأة » من حيث الدماثة واللطف ورقـة العواطف والشعور والحنان ، فهذه الأخلاق تفضل فيها « المرأةُ الرجلَ » .

ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط...وفوق ما اتصفت به من تلك الأخلاق وتفوّقها فيها ، فهي مخصصة للقيام بعبء عظيم، من أعباء هذه

الحياة ، إذا لم تقل أعظمها ، وهو الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال التربية الأولية .

نعم لا ننكر ان الرجل يفضل المرأة بأشياء هي جوهرية وذات قيمة كالعقل الثابت في مقابلة عاطفتها المضطربة ، والقيام بالواجبات الاقتصادية والسعي والإنفاق في مقابلة كونها لا تقوم بشيء من ذلك ، والدفاع عن الوطن والشرف والمال في مقابلة كونها ليس فيها أهلية لذلك ، والثبات على المبدأ في مقابلة تناقضها في أعمالها وأقوالها ، فبهذه الأشياء وأمثالها فَضَلَ الرجلُ المرأةَ .

كيد النساء وكيد الشيطان

الترفيلة الثامنة ــ قال بعض الناس : إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأنه ورد في النساء: ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾(٢٨:١٢) وورد في الشيطان : ﴿ إنّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ﴾ (٤ : ٧٥) .

وفي كلام هذا البعض نظر ، لأن كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفاً بالنسبة اليه ، ألا ترى أول الآية : ﴿ الذينَ آمنوا يُقَاتِلون في سبيلِ اللهِ ، والذين كَفَروا يقاتِلونَ في سبيل الطاغوتِ ، فقاتِلوا أولياءَ الشيطانِ ، إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضَعيفاً ﴾ (٤ : ٧٥) فصدر الآيةمتضمن لكيد الله تعالى ، وعجزها متضمن لكيد الشيطان ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة لكيد الله تعالى ، وأما قوله « إن كيدكن عظيم » فهو بالنسبة لكيد الرجال ، أي ان كيد زليخا وأمثالها من النساء عظيم بالنسبة لكيد يوسف وأمثاله من الرجال .

وأيضاً فان الكيدالذي يتعاطاه النساءوغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته،

وتسويله ، وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده .

قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود

الترفيلة التاسعة — كأني بهذا « القميص » المقدود هو أشبه شيء « بالقميص » الذي وضع فيه « الحجر الأسود » حين بناء قريش الكعبة ، فهذا القميص المذكور هنا كان سبباً لرفع الخلاف بين يوسف وزليخا ، وذلك « الشاهد » بسبب حكمته كان الواسطة الكبرى لعمل طريقة أزال بها الخلاف ، كذلك كان « القميص » الذي أمر النبي ﷺ قريشاً أن يأتوا به ليضع ﷺ « الحجر الأسود » فيه ، كان هو الواسطة العظمى لازالة الشقاق العظيم بين قبائل قريش وكان هذا بسبب حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا ... وإذ قد تم خطابي فاني أقدم أسمى احتراماتي لحضرات إخواني أعضاء المؤتمر المحترمين ، وأختم هذه الجلسة باعراب عن تشكراتي وتقديم اسمى التحية لهم لحسن إصغائهم إليّ والسلام عليكم . (مرحى)

نتيجة الحكم

آ (٢٩) « يُوسُفُ ، أعْرِضْ عَنْ هـذا ، واسْتَغْفِري لِذَنْبِكَ ، إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئينَ .. »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والعشرون فقام الأستاذ العلامة البغدادي [١] وقال :

قال العزيز بلسان الرجاء إلى يوسف يا (يوسف) لأجل خاطري (أعرض

(١) نسبة الى بغداد من القطر العراقي العربي .

عن هذا) الأمر ، واكتمه ولا تحدث به ، (و) قال بلسان النصيحة لزوجته زليخا (استغفري) أنت (لذنبك) الذي ثبت عليك ، واسدلي الستار على هذه المأساة (إنك كنت من) جملة القوم (الخاطئين) المتعمدين للذنب .

ولما سمعا هذا القول ، امتثل يوسف وعادت أمور إدارته في القصر لمجراها الطبيعي ، غير أنه كان فيما نظن بعيداً عن امرأة العزيز والخلوة بها ، وأما امرأة العزيز فجلست في كسر بيتها يحفها الخجل ويحوطها الذل والهوان .

(يوسف أعرض عن هذا ..)

—١—

وتابع العلامة البغدادي قوله :

طلب الاعراض من يوسف

جعل « العزيز » يتطلع حواليه ، ويلتفت يمنة ويسرة ، لئلا يسمعه أحد من الخادمات والجواري ، وقال مخاطباً يوسف بصوت منخفض ، ونفس صغيرة :

يوسف :

لله أنت ، ولله أبوك ، لا فض فوك ، ولا عاش من يشنوك ، هنيئاً لبطن حواك ، وثدي سقاك وحجر آواك ، فقد نطقت بالحق ، وتكلمت بالصدق ، بورك فيك من عفيف شريف ، ومن شاب نشأ في طاعة ربه ، حقاً أنت ممن يستظلون بظل العرش يوم القيامة .

يوسف :

كن مطمئناً ، تهنأ بمروءتك وشرفك ، فقد ظهر لنا جلياً أنك أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية ؛

يوسف:

كفاك افتخاراً انتصارك على العواطف البشرية ، وحسبك شرفاً ، انتصاوك على هذه « المرأة » برجل من أهلها ، فلا تفتكر في هذا الشأن ، وافرض أن هذا الكائن لم يكن ، « أعرض عن هذا » الحادث ، وقدره كأنه ما كان ، ولاتخطره لك على بال ، اضرب عنه صفحاً ، وأعرض عنه إعراض الكرام ، واغض عنه إغضاء ذوي الستر والمروءة:

وقد علمت وغيري علمَ تجربة أن الكياسةخبء السرفي خيس (١)

فاكتم حديثك لا يشعر بـه أحد : من رهط جبريل أو من رهط ابليس، أعرض عنه ، ريثما تسكن هذه السيرة المنتنة ، وتتلاشى من نفسها ، بل أعرض عنه مطلقاً ، وانتزع رسمه من خيالك ، واجعله نسياً منسياً ، فلا تذكره لأحد ما، حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس ، ولا تكترث بهذا الأمر ، ولا تهتم به ، فقد بان عذرك ، واتضحت براءتك .

هذا مغزى كلام « العزيز » ، وهذا هو معناه الروحي ، الذي يجب أن يكون قد أراده « عزيز مصر » في خطابه ليوسف .

وأما يوسف فكأني به حينما سمع كلام « العزيز » قال له : لبيك لبيك ، سمعت لك مأموراً مطاعاً ، لأن الذي يحب أن تشيع الفاحشة ملعون في الدنيا والآخرة.

ثم ربض يوسف في مكانه في بيت العزيز على حاله ، وآثر الصمت ، واعتصم بالأناة ، واستمسك بتناسي كل ما وقع ، وهذا الحادث — والحمد لله — لم يقلل من شرف يوسف ، بل بالعكس زاده قيمة واعتباراً .

(مرحى) •

---

(١) الخيس بالكسر موضع الاسد .

(واستغفري لذنبك)

— ١ —

وقالت السيدة رشيدة البيروتية :

طلب الاستغفار من زليخا ووعظها

من انصاف « العزيز » أنه أعدى يوسف على زوجته ، وحكم له عليها ، نظر فيها نظرة كأنها وقع السهام ، نظر اليها نظرة ملؤها الكره والهوان . وقال لها : وأما أنتِ ، فلا إخالكِ إلا مفترية على هذا البريء الطاهر ، وكأني بكِ قد سعيتِ الى حتفكِ بظلفكِ ، أقلعي عن كل ما تقدم ، وابغضي حالتك الأولى بغض الأرض للدم ، اقرأي سورة التوبة ، وعليكِ بسرعة الفيء والأوبة ، أسمعي السماء صوت توبتكِ ، قبل أن تسمعي منها صوت العذاب الأليم ، الذي سيحيق بكِ إذا لم تؤوبي وتتوبي ، وتقرعي سن الندم ، على ما فرط منكِ في حق هـذا العبد العبراني من الرغبة اليه ، ثم الفرية عليه ، فذنبكِ مزدوج، ولذلك فأنتِ قد أصبحتِ مخروطة في سلك الخاطئين ، الذين إذا عدوا فأنتِ — واخجلتاه — معدودة ، وإن حدوا كنتِ — واآسفاه — محدودة ، فليتكِ قبل هذا كنتِ موؤدة.

« استغفري لذنبكِ » ، فليست العفة عفه الخدر والخباء ، ولكنها عفة النفس والضمير ، وأنتِ مسوؤلة عن ذنوبكِ وآثامكِ أمام نفسكِ وضميركِ ، فضميركِ هو الذي يتولى بنفسه محاسبتكِ على جميع أعمالك ، وهو المراقب على حركاتكِ وسكناتكِ ، لأنه أعظم سلطاناً وأقوى يداً من جميع الوازعين والمسيطرين ، فأصلحي ما بينكِ وبين من خلقكِ ، الذي يعلم السر وأخفى ، أنا لا أريد أن أرهقكِ ، ولا أن أدينكِ ، لأنك ربما ترينَ أنكِ لستِ مسؤولة أمام رجلكِ ،

ولكنك مسؤولة في الدنيا أمام ضميرك ، وفي العقبى تسألين أمام هيئة المحكمة العدلية الكبرى المؤلفة من الملائكة ، تحت رئاسة الديان العظيم .

يسوءني أن أصرح باسمكِ ، وأناديك بلقبكِ الرسمي في هذا المقام ، مقام صدور الحكم عليك ، ولكني أكني عنك فقط ، فيا أمة الله ، يا هَنْتاه ، بل يا عدوة نفسها ، يا قَرْنَ الفتنة ، قد هَبِلْتِ ، فاستغفري لذنبك ، وسبعين مرة استغفري لذنبك ، واشطبي جميع حسابات الحب الماضية ؛

خليق بك أن تستغفري الله ، فقد أسأت وظلمت ، ﴿ ومَنْ يَعملْ سُوءاً أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثم يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

ثم جعل « فوطيفار » ينظر الى يوسف ، نظر عناية واعجاب ، موصيه أن يتغاضى عن هذا الحادث الأليم ، راغباً اليه أن يجعله تحت طيّ الكتمان ، وجعل ينظر الى « زليخا » شذراً وتنفس نفساً وصل اليها حرّه ، وأمرها بالتوبة والاستغفار وطلب العفو من المولى الغفار عن « ذنبها » الذي هو مجموع المراودة باللسان ، وتغليق الأبواب باليد ، وهمها بالقلب أن تبطش به إذا لم يوآتها ، فقد زنت بلسانها ويدها وقلبها ، لأن الزنا كما يكون بالفرج ، فكذا يكون بالجوارح ، وهو الزنا الأصغر ، وهو (طبعا) دون الأول ، وفي البخاري عن أبي هريرة : « فزنى العين النظر ، وزنى اللسان المنطق ، والنفس تَتمَنّى وتشتهي ، والفرج يُصَدّق ذلك كلّه ويكذبه » .

سمعت « زليخا » خطاب سيدها لها ، فودّت لو تنفتح الأرض وتبتلعها ولا يراها أحد ، ولم تفه ببنت شفة في تبرير فعلها ، ورجعت لقصرها وهي كاسفة البال مسربلة بالخزي والعار . قبعت في كسر بيتها ، تُصَعّد الزفرة تلو الزفرة ، وترسل

العبرة فالعبرة ، وباتت محطمة من آثار معركة التحقيق . ولكأني أراها حينئذ قالت بينها وبين نفسها : يأمرني بالاستغفار !! أسأل الله العافية ، لقد أدخل يده في الجراب ، فأخرج أشدّ ما فيه وأصعبَه ، وإلاّ .. فمن ماذا استغفر ؟.. أستغفر من حب يوسف ؟.. أستغفر من حرصي على قربه ؟ ؟.. أستغفر من تمتعي بمحاسنه ؟. أستغفر الله العظيم !!! ثم قالت متمثلة :

ما ذا لقيتُ من الهوى وعذابه　　طلَعَتْ عليّ بليةٌ من بابه

مرحى

(واستغفري لذنبك)

— ٢ —

وقالت الآنسة ثريا اللاذقانية :

سوف لا أتكلم في هذا المقام إلا عما تضمنته هذه الآية الكريمة من نكات دقيقة لا ندحة لي من التنبيه عليها :

بعض فضليات النساء في التاريخ

النكتة الأولى ــ لقد ذكر التاريخ كثيراً من السيدات الفضليات ، مثل السيدة « مريم » بنت عمران ، من بنات إسرائيل ، ومثل « بلقيس » ملكة سبأ . من بنات قحطان ، ومثل « زنوبيا » ملكة تدمر ، من صميم العرب ، ومثل « تماضر الخنساء » أفضل شاعرة من شواعر العرب ، ومثل السيدة « خديجة » بنت خويلد ، زوج النبي ﷺ ، والسيدة « عائشة » وأختها « أسماء » بنتي أبي بكر الصديق ، من بنات قريش ، ومثل « كليو بطرة » ملكة مصر ، من بنات الرومان ، ومثل « جاندارك » من بنات الفرنسيس ، وغيرهن .. وقد حفظ التاريخ

لهؤلاء وأشباههن ذكريات فخمة ، غير أن هذه « المرأة القبطية » زليخا ، مع الأسف ، لم يرو لنا التاريخ عنها إلا أسوأ الذكرى .

لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة

النكتة الثانية — لا ريب أن « فوطيفار » كان اعتبر أن هذه الحادثة نكبة من أعظم النكبات التي حلت به وبأسرته ، وبأسرة زوجته أيضاً ، ولكنه لم يؤاخذها بأكثر من العظة ، حتى قيل عنه : « إنه كان رجلاً فَسْلاً[١] ، لا مروءة له ، وكان ضعيف الغيرة » ، وقيل عنه : « إن هذا الرجل ، جبان هيّابة ، رعديد رعشيشة ، قنذع ، طسيع »[٢] وقيل عنه : « إنه كان خوّار العود ، رخو المكسر » ، وعندنا أن هذا الرجل لم يقاص امرأته ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، ولم يطلقها ، ولم ... ولم ... الخ ... لوجوه عديدة ، وكلها وجيهة إن شاء الله .

يدا فوطيفار أوكتا وفوه نفخ

آ — لأنه هو الذي وضع هذا « الحمام الوديع » يوسف ، بين مخالب هذه « اللبوة الشرسة » زليخا ، هو الذي جمع بين هذا « الشاب » الفاتن وبين تلك الامرأة القوية الشعور ، هو الذي غرس بيده هذه الشجرة ، شجرة الحب في قلب امرأته ، وهو الذي « يداه أوكتا وفوه نفخ » ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم ﴾ (٤ : ٧٠) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ، قُوا

(١) الفسل : الضعيف المسترذل الذي لا مروءة له .

(٢) الرعديد : الجبان الكثير الارتعاد . والرعشيشة : الجبان الكثير الارتعاش . والقنذع : الذي يغض ما يرى من زوجته . والطسيع : عديم الغيرة .

أنفُسَكُم وأهلِيكم ناراً ، وَقودُها الناسُ والحِجَارةُ ، عليهـا ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ، لا يَعصُون اللهَ ما أمرَهُم ، ويَفعَلون ما يُؤمَرون ﴾ (٦٦ : ٦) .

فعندنا أن « العزيز » لم يعاقب امرأته بما يلزم من العقاب ، ولم يقاصهـا ، ولم يعاملها بشيء من الصرامـة ، لأنه افتكر فرأى أن الذنب كل الذنب عليه ، لأنه هو الذي جلب يوسف اليها ، وجعل لها عليه سلطاناً ودالّة ، إذ قال لها « أكرمي مثواه » ، وسوّغ له الدخول في أيّ وقت في بيتها الخاص بها ، كما يدل عليه قوله : « في بيتها » ، فاذا كان هذا ، وكان يوسف من الجمـال كما وصفه سفر التكوين والقرآن الكريم والحديث الشريف ، فهل يستطيع أقدر « محام » في الأرض أن يدافع عن « العزيز » ؟ وهو السبب الوحيد في هذه الفتنة التي حدثت في قصره ، وهو الواسطة الكبرى في هذا الخطر الذى أحدق بامرأته ، وهـل يستطيع ذو مُسكة أن يتصور خطراً على امرأة العزيز ، وعلى عفتها وطهرها أعظم من هـذا الخطر ، الذي عرّضها له سيدها العزيز ؟ .. كلا ..

فاذاً الضرر كل الضرر إنما جاء من جانبه ، ولذلك ولكونه يوجد عنده شيء من الانصاف ، لم يقاص زوجته بما يجب من القصاص ، ولم يعاقبها بطلاق أو غيره..

ثم الغريب انه أخطأ في التسبب في وجود يوسف عندها في القصر وفي بيتها ، وعرف أنه مخطىء ، وتبين له عاقبة خطئه ، ولم يتدارك الأمر ، بل بقي مصراً على خطئه ، إذ لم يبعدها عن يوسف ، أو يبعد يوسف عنها ، نعم لا ننكر أنه لمـا تفاقم الشر ، واتسع الخرق على الراقع ، بسبب حادثة النسوة ، وتقطيعهن أيديهن في قصره ، بدا له أن يعتقله وقد فعل ، ولكن بعد خراب البصرة ..

والخلاصة أن « العزيز » هو الذي هيـأ الوقود لنار هذه الفتنة بيده ، إذ أتى بيوسف بين يدي زوجته ، وأطلق لها الحرية أن تجتمع به ، بلا رقيب ولا ملاحظ كما أطلق الحرية ليوسف في خدمة القصر ، والدخـول والخلوة بلا مهيمن ولا

مسيطر ، فيوسف قدّر الله أن يكون معصوماً بتوفيقه تعالى ، لكن تلك المرأة « زليخا » لم يقدر لها ذلك ، فوقعت في الشَّرَك ، ولو أن « سيدها » أراد معاقبتها لكانت تقدر أن تقول له « يداك أوكتا ، وفوك نفخ ».

فلذلك نحن نرى أنه لم يعاقبها ، مع أن عملها جريمة ، لأنه بإهماله وتفريطه شاركها في ارتكاب الجريمة ، فقد سهل لها الاجتماع والخلوة بفتاه ومملوكه الجميل فرّط في واجبات اعتزال زوجته عن الغير ، فحق عليه القول : « المفرط أولى بالخسارة » .

احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الأخلاق

٢ً — ربما كان « عزيز مصر » من الأمراء الذين لم يترفعوا عن بعض أنواع الفحشاء ، فكان يحاسب نفسه بنفسه ، ويقرر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، ويقول في نفسه : ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، فلذلك لم يحاسبها على ما صدر منها بأكثر من العظة والنصيحة ، وقد روى الحاكم من حديث أبي هريرة : « وليردّك عن الناس ما تعلم من نفسك » .

وحيث أن إيضاح المقام يحتاج إلى بسط في الكلام نقول :

إنه لأمر معلوم أن « عزيز مصر » كان تهاون في صون امرأته وحجابها عن الخدَمة ، وبناء عليه ، فيحتمل أن هذا الرجل كان عنده شيء من فساد الأخلاق والتطلع إلى الأجنبيات ، بمقدار ما كان عند زوجته من ذلك ، ولذلك لم يُنَكِّل بها ، من قبيل : « افتضحوا فأصلحوا » و « إن الطيور على أشكالها تقع » و « إن هذا الكعك من هذا العجين » و « الجنس للجنس يميل » ، قال تعالى : ﴿ الخبيثاتُ للخبيثينَ ، والخبيثون للخبيثاتِ ، والطيباتُ للطيبين ، والطيبون للطيباتِ ﴾ (٢٤ : ٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ الزاني لا يَنكِحُ إلاّ زانيةً أو مُشرِكةً ،

والزانيةُ لاينكحُها إلاّ زانٍ أو مُشرِكٌ ﴾ (٢٤:٣) ، ومعنى الآية الأولى أن الغالب أن الطيب لايقترن إلا بالطيبة ، والطيبة لاتقترن إلا بالطيب ، ومعنى الآية الثانية أن الغالب في المائل الى الزنا أنه لا يرغب في نكاح الصوالح ، والزانية لا يرغب فيها الصلحاء ، فالمشاكلة على الألفة ، والمجالسة من دواعي الانضمام ، والمراد « بالزاني » ولو بالنظر أو اللسان أو تمني القلب ، فان تحول الأخلاق الاجتماعية في النساء ، ينشأ من تحول الأخلاق الاجتماعية في الرجال ، لأن الرجل مرآة المرأة ، كما ان المرأة مرآة الطفل ، ولذلك لما فسدت أخلاق أكثر شباننا ، بدأ فساد أخلاق أكثر النساء ، بما يتناسب مع هوى الرجل .

حقاً إن العوامل التي تفسد المرأة ، وتحول أخلاقها هذا التحويل المشئوم ، ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل ، فاذا صار هو فاسقاً ، فلا ينتظر أن تكون هي العفيفة ، وإذا هو هدم المسجد ، فلايعقل أن تبني هي المأذنة ، وإذا كان هو متهتكاً ، فلا يمكن أن تبقى هي حيّيهمصونة . هذه هي القاعدةالاجتماعية (الغالبة) ، وما خرج عنها فهو شاذ ، وقليل ماهم .

ولا نعلم هل هذا العزيز « فوطيفار» ممن قد انخرطوا في سلك هذه «القاعدة» أم هو من الأفراد الشاذة التي خرجت عنها ؟ ، ولذلك قلنا : إن فساد أخلاق « فوطيفار » « من المحتمل » ، وليس من « الأمر المحق » .

احتمال خوف العزيز من أسرة زوجته وضعفه تجاهها

٣ً ــ لعل «عزيزمصر»سكت عن تأديب زوجته بأكثر من التأنيب الكلامي لأنها كانت بنت رجل عظيم في البلاط ، يخاف « العزيز » من إفساده قلب مليك مصر عليه ، لو أهان أو فارق بنته ، والتزوج أو التزويج في سبيل التجارة ، عادة قديمة بين العظماء ، ومستمرة إلى اليوم ، فكم من رجل يتزوج امرأة لمالها أو لأملاكها ، أو لجاه ونفوذ أبيها ، أو لمنصبه ومكانته في الحكومة ، عسى أن ينال الزوج من مالها شيئاً ، أو يعيش تحت ظل والدها .

ويظهر لنا مما سبق من قول « سيدها » لها : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، ومن اقتراحها إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم » ، ومن جرأتها فيما سيأتي إذ تقول أمام النسوة : « ولقد راودته عن نفسهِ فاستعصم » ، ومن استبدادها حين تقول : « ولَئِنْ لم يفعلْ ما آمُرُهُ ، ليُسجَنَنَّ وليَكوناً من الصاغِرينَ » ومن الإجمال والابهام، وعدم تخصيصها بالكلام حينما يقول يوسف : « ربِّ ، السجنُ أحبُّ إليَّ مِمّا يَدْعونَني اليه » ، ومن أنَّ يوسف أهمل التصريح باسمها ، مكتفياً بالتلويح اليها فيما يقول : فاسألْهُ مابالُ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ ، إنَّ ربي بكيدِهِنَّ عليمٌ » ، ومن صراحتها المدهشة وعدم خوفها من سيدها ، إذ تقول أمامَ مندوب التحقيق : « آلآنَ حَصْحَصَ الحقُّ ، أنا راوَدْتُه عن نفسِهِ ، وإنه لَمِنَ الصادقين » — يظهر لنا من مجموع ذلك ان امرأة العزيز كانت (كما روى) من سلائل العائلة القبطية ، التي كانت مالكة ، أو على الأقل كانت من قوم مُدِلّين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، أو كانت شخصياً ، لما لها من مال أو جمال ، نافذة ، مستبدة ، جريئة ، محفوظة — الأمر الذي يكشف لنا سر ضعف « سيدها » الذي تجلى في قوله لها : « واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » ، حيث جعل عقابها على خطئها مجرد الاستغفار .

احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين

٤ً — يقول بعضهم : لماذا لم يطلقها ؟ — ونحن لا نعلم المانع له من طلاقها تماماً، لأننا لم نقف على نظام « الأحوال الشخصية » عند هؤلاء المصريين القدماء ، ثم إني لقد رأيت في شرح سفر التكوين أنه كان للمرأة عند المصريين أن تستولي على كل ما يملكه الرجل إذا تركها ، كما علم مما نُشر من أخبارهم ، على ما قال الدكتور

« بين سميث » ومع ذلك فلعله لم يطلقها ، لأنه ليس في شريعتهم طلاق البتة ، كما هو عند « الكاثوليك » ، ويحتمل أن الطلاق لا يجوز عند المصريين إلاّ في صور وحوادث معلومة صعبة التطبيق والاثبات ، كما يقول بعض المؤرخين ، وكما هو مذهب « الأرثوذكس ».

احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته

٥ — من المحتمل ان « فوطيفار » لم يكن سريع الانفعال ، متكهربَ الأعصاب ، كان بعيداً عن خشونة الأخلاق ووعورتها ، فلذلك اكتفى بعظتها وتنويبها ، ولم يؤدبها بالسجن أو الضرب ونحوهما ، لأن المرأة التي لاتحافظ من تلقاء نفسها على شرفها ، فعبثاً أن يؤمل منها الخير بالضرب أو السجن ونحوهما ، كما انه من العبث أن تحاول صيانتها بوضعها تحت المراقبة ، والتضييق على حريتها ، ولهذا قيل : إن هذه الطريقة التي جرى عليها فوطيفار هي منه عقل ، وحرص على ستر هذه الحادثة ، والعاقل من ستر إهانة نفسه .

والتاريخ حافل بأمثال ذلك ، إذ أن « الحجاج » في عتوّه ، لم يتعرض « لابن نمير » في تشبيبه « بزينب » أخته ؛ مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها ، فيزيد زائد ، ويكثر مكثر ، وكذلك « معاوية بن أبي سفيان » ، لم يتعرض « لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت » ، وكان يتشبب بابنته .

ولدى التأمل العميق يرى القارىء ان ما فعله « عزيز مصر » خير مما فعله « هرون الرشيد » مع أخته « العباسة » ، فانه كان عقد عليها لوزيره « جعفر بن يحيى البرمكي » ، عقداً شرعياً صحيحاً ، وأذن لهذا الوزير بالدخول على كل أهل بيته وأخته ، وأمرها أن لا تمنعه من دخول البيت ، في أيّ وقت شاء ، ليلاً أو نهاراً.

أجرى ذلك العقد مستوفياً لشروطه الشرعية ، لأجل أن يحل لوزيره «جعفر» النظر والاجتماع والخلوة والمكالمة ، وكل شيء ما عدا النكاح ، ولكن الوزير « جعفر » كان دخل عليها سراً ، ورزق منها ولدين ، سماهما الحسن والحسين ، ولما بلغ « الرشيد » ذلك ، حرّق أسنانه ، واشتد غضبه ، وقتل أخته « العباسة » والوزير « جعفر » ، مع انهما لم يفعلا إلا ماأحله الله ، وأذِنَ فيه ، ثم قتل الغلامين الصغيرين المعصومين، وقتل عشرات من الفَعَلة والحمالين والحفارين الفقراء، الذين أطلعوا على هذا القتل ، ارتكب هذه الكبائر الفاحشة بداعي الكبرياء ، ودعوى أن « جعفر » البرمكي ليس كفواً « للعباسة » وأراد بقتل أخته وولديها ، ومن نقلهم وحفر لهم ودفنهم من الفَعَلة الفقراء إخفاء هذا الأمر ، وجعله في طي الكتمان ، مع انه قد تناقلته الألسنة ، وكتبه المؤرخون ، ولم يغادروا من هذه الحادثة صغيرة ولا كبيرة إلا سطروها ، فالذي عمله «فوطيفار» أفضل مما عمله « هرون الرشيد»، ولو عمل « فوطيفار » كما عمل « الرشيد » لكان قتل « يوسف » وقتل زوجته « زليخا » و « الشاهد » الذي من أهلها ، وقتل جميع من اطلع في قصره على هذه الحادثة ، من الجواري والقهرمانات ونحوهم ، ولكان بئسما عمل ، ولكن أنّى للرجل ذي الأناة والرصانة راجح الحكم ، ثابت التؤدة أن يعمل ذلك ؟

معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير

٦ — المعاصي ثلاثة أنواع : نوع فيه « الحدّ » وذلك كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، ونوع فيه « الكفارة » وذلك كالجماع في الإحرام وفي نهار رمضان ، والحِنث في اليمين ، ونوع لاحدّ فيه ولا كفارة ، بل فيه «التعزير» ، وذلك كسرقة مالا قطع فيه ، واليمين الغموس ، والنظر إلى الأجنبية بشهوة ، ومحاولة ارتكاب الفاحشة وأخذه في أسبابها وإقامة الدعوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من « امرأة العزيز » لما راودت يوسف ، ثم لما افترت عليه ، فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط ، والتعزير أنواع : منها التشهير وتغيير الهيأة وحلق اللحية،

ومنها الضرب ، كما في حديث أبي بردة بن نيار في الصحيحين وغيرهما انه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » ، ومنها الحبس ، إذ حبس ﷺ رجلاً في تهمة ، يوماً وليلة ؛ ومنها الربط ، إذ ثبت أن عمر (ض) أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يربط خالد بن الوليد بعمامته ، لما عزله عن إمارة الجيش ، كما في كتب السير ، وسبب ذلك أنه استنكر منه إعطاء شيء من أموال الله ؛ ومنها إقامة الانسان من المجلس ، ومنها النفي كما فعله ﷺ بالثلاثة الذين تخلفوا ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ ومنها السبّ الذي لا فحش فيه ، كقول موسى للاسرائيلي الذي استنصره أولاً ، واستصرخه ثانياً : ﴿ إنكَ لَغَوِيٌّ مُبين ﴾ (١٨:٢٨) وقول النبي ﷺ لأبي ذر ، لما سمعه يسب امرأة : « إنكَ امرؤ فيك جاهلية » كما رواه البخاري ، ومن هذا القبيل قول « العزيز » لامرأته « زليخا » : « إنكِ كنتِ منَ الخاطئين » مع سابق قوله : « إنه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم » يعتبر توبيخاً وزجراً « لزليخا » لأن تعزير كل إنسان بحسبه وعلى قدر منزلته ، ورب امرأة غير زليخا إذا افترت افترائها تستحق الضرب ، واخرى تستحق الحبس ، الى غير ذلك ؛ فكل واحد يُعَزر بما يليق بمقامه ومركزه بين الناس .

عقاب المراودة في الشريعة الاستتابة مع التعزير

لا يوجد في الشريعة في مثل حادثة « امرأة العزيز » مع يوسف ، أعني حادثة المراودة ، سوى الاستتابة مع التعزير ، والتعزير — كما سبق — يكون لكل شخص بحسبه ، وواحدة مثل امرأة العزيز يكفي في تعزيرها ما خاطبها به سيدها لا أكثر ، سيما أنه لم يثبت عليها عند زوجها انها راودته وطلبت اليه الفحشاء من طريق البرهان الجلي ، ولكن من طريق « اللوث » ، طريق الأمارة والعلامة ، وقد ذكر الفقهاء في باب « اللعان » : أن الزوج إذا رمى زوجته بالفحشاء ،

وجبت عليه البينة ، وإلاّ أقيم عليه الحدّ ، فان لم تكن بينة ، وأراد الزوج تبرئة نفسه من الحد أتى بالايمان المؤكدّة ، وعند ذلك يثبت « اللوث » عليها ، فتحبس لأجله ، ويضيق عليها به ، فان دافعت عن نفسهابالأيمان المؤكدة ، سقط عنهاالحدّ، وفرّق الحاكم بينها .

هذا ما ذكروه في باب « اللعان » ، وهـذا الباب مبني على أن الزوج رمى امرأته بالزنا ، ولكن ههنا لا يوجد رمي من الزوجبالزنا ، وإنما كل الموجوديتحصر في أن«إمرأةالعزيز»تدعي أن يوسف راودها،وبالمقابلةيدعي يوسف أنالمراودةوقعتمنها لامنهثم بالبحث وجدت قرينة تدل على أن المراودةوالرغبةصدرتمنامرأةالعزيز، فاذاتقررهذافماهوالحكمياترىفي هذه الحادثة ؟ والجواب، انهلاحكم سوى مافعله «سيدها »،مناستتابتهاواستغفارهاالاغير .

نعم ، ينبغي طلاق المرأة التي يصدر منها مايغاير المروءة والشرف ، كما إذا ثبت عليها انها راودت رجلاً أجنبياً عن نفسها ، لأن المرأة مأمورة أن تعاشر زوجها بالمعروف ، ومن يصدر منها ذلك ليست من هـذا القبيل ، كما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله (ض) أنه قالعن زوجته : « لو صدرمنها نحوالوشم، ما جامَعَتْنا » ، أي ما إجتمعت معنا في بيت واحد ، بطريق العشرة الزوجية ، ولا تنس ما تقدم من أن الفراق عند المصريين كان يوجد له مانع كبير ، وهو استيلاء المطلقة على كل ما يملكه الزوج ، بل نفى بعضهم الطلاق عن المصريين بالمرة .

هذا ما حضرني الآن في الجواب عن « عزيز مصر » ، والله تعالى أعلم .

(إنك كنت من الخاطئين)

— ١ —

وقالت الآنسة سلمى البصرية :

العزيز يخطىء زوجته ويوبخها

كأني بالعزيز بعد أن طلب من امرأته أن تستغفر لذنبها ، أخذ يوبخها ويعزرها قائلاً لها : أيتها السافرة المتبرجة ، تقدمين على عمل هو من العار والنذالة بمكان ! ، تقدمين على هذه المراودة مع عبد أنت سيدته ؟! ؟! هاه . هاه .

العوض على الله في أخلاقك وآدابك ، حقاً (إنك كنتِ من الخاطئين) خطأ مزدوجاً ، إذ راودتِ يوسف الطهور ، ثم هممت بالايقاع به ، ثم رميتِهِ بارادة السوء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أوْ إثماً ، ثم يَرْمِ به بريئاً ، فقد احتَمَلَ بُهتاناً وإثماً مُبيناً » (٤ : ١١١) ، وقد أخطأتِ في حق سيدكِ وأهلكِ ، وفي جانب الله تعالى ، وقد أخطأتِ للهيئة الاجتماعية بمصر ولكل بنات مصر ، فأنت إذاً من الخاطئين ، حقاً أيتها المتحفزة للخلوة ، الجاحدة للواقع ، إن وجهكِ يتكلم ، وعينيكِ تعترفان ، وحالكِ ينطق بما ينكره اللسان ، فتبصري وانظري في أمر نفسكِ ، بعين غير عين الحب ، فانها دائماً حولاء ؛

حقاً لقد أوقعتِ ذاتكِ في مهواة لا منقذ لكِ منها سوى الاستغفار ، وأوردتِ نفسكِ مواردَ لا صَدَر لكِ منها بغير التوبة الى الكريم الغفار .

هذا هو مغزى كلام سيدها معها ، وهذا هو المعنى الروحي الذي اراده من خطابه لها .

ولكن « زليخا » سكتت على مضض إذ لم تنجع فيها هذه العظة ، بل زادتها تأججاً وثوراناً ، وكان من الواجب المعقول على سيدها ، بدلاً من هذه العظة ، أو بعد هذه العظة ، أن يعمل على التفرقة بينهما ، بأن يعتق يوسف ويطلقه من قصره ، ليذهب حيث يشاء ، أو يرجعه الى وطنه فلسطين ، إذ لا أنفع لزوال الغرام من ابعاد المحب عن محبوبه ، أو إبعاد المحبوب عن محبه ، ولو فعل « العزيز » ذلك من أول الأمر ، لما حدثت حادثة « نسوة مصر » ، وتقطيع ايديهن ، ولما ثارت زوجته ثانية ، راغبة الى يوسف بالنزول على حكمها (تكواراً) ، ولما احتاجوا لاعتقاله ظلماً ، ولكن هكذا صار ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

معنى الخطء

هذا وأختم كلمتي بملحوظة لغوية وهي : يقال للمتعمد : خطىء فهو خاطىء ، والمصدر الخطء ، قال تعالى : ﴿ إنَّ قتلَهم كانَ خِطْئاً كبيراً ﴾ (١٧:٣١) والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، كما في قول ابراهيم (م) : « أنْ يغفرَ لي خطيئتي يومَ الدِّينِ » (٢٦:٨٢) ، وعلى الكبيرة كما في : « وأحاطتْ به خطيئتُهُ » (٢ : ٨١) ويقال فيمن لم يتعمد الفعل : أخطأ وكذا لمن اجتهد ولم يوافق الصواب ، لحديث « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » وإنما أوجب له الأجر على اجتهاده في إرادة إصابة الحق ، لا على الخطأ الذي يكفي صاحبه أن يعذر فيه ، ويرفع عنه مأثمه ، والفاعل من أخطأ : مُخطىء ، والاسم الخطأ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كانَ لمُؤمنٍ أنْ يقتُلَ مؤمناً إلاَّ خطأً ﴾ (٤ : ٩١) وقال الحريري :

لا تخطونّ الى خِطء ولا خطاءٍ ... من بعدما الشيب في فوديك قد وخطا

فأيّ عذر لمن شابت مفارقه ... إذا جرى في ميادين الهوى وخطا؟

كل سر جاوز الاثنين شاع

آ (٣٠) « وقال نِسْوَةٌ في المدينةِ : امرأةُ العزيزِ تُراودُ فتاها عن نَفْسِهِ ! ، قَدْ شَغَفَها حُباً ! ، إنا لَنَراها في ضلالٍ مُبينٍ . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثلاثون فقامت ست اخوتها اللدية (١) وقالت :

انتقل الخبر لقصور الأميرات بواسطة بعض الخدم والجواري ، ووقع هذا النبأ عندهن موقعاً سيئاً ، (وقال نسوة) جماعة من النساء ، وكن خمساً : امرأة رئيس السقاة ، وامرأة رئيس الخبازين ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب ، (في المدينة) وهي صوعن عاصمة المملكة العمليقية الهكسوسية ، ـ قلن بلسان المكر (امرأة العزيز) فوطيفار ـ والعزيز في اصطلاح المصريين من قديم وحديث هو نائب الملك (تراود) تخاتل (فتاها) عبدها العبراني يوسف (عن نفسه) ليقترب منها لأنه (قد شغفها حباً) خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جليدة رقيقة يقال لها لسان القلب ، وقد اصطلح عليها اليوم بأنها جليدة رقيقة تبطن جوف القلب ، فيميناً بآلهة مصر المقدسة (إنا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب ـ وقد وجهوا اليها هذا النقد مبطناً بالزراية ـ .

---

(١) نسبة الى اللد من بلاد فلسطين .

(وقال نسوة في المدينة)

— ١ —

وقالت سيدة مديحة الديرية[١]:

وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس

إن « حادثة » يوسف وزليخا لم تظل مكتومـــة في قصر « العزيز » بل ذاعت وشاعت ، حتى وصلت الى قصور الأمراء ، ودخلت في آذان سيدات تلك القصور ، وإن الداخل الى غرف الأميرات المصريات إذ ذاك ، يجد أحاديث الغيبة والانتقادات قد أخذت مأخذها فيها ، ويرجع السبب في ذلك اما الى « القيّمات » اللاتي أطرن الحادثة الى بيوت الأميرات ، أو إلى « المواشط » صواحب النفوذ في بيوت الكبراء ، لأن الأميرات يفضين الى « الماشطة » بأسرارهن ، ويعتمدن عليها في المهام العظام ، فإذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ، ملكت زمام القصر ، ووقفت على جميع حوادثه . فتصبح « خزانة أسرار » وجعبة حوادث ، أو يرجـــع الى بعض « القهرمانات » ، و« الجواري » لأنهن أكثر الناس رغبة في نقل الأحاديث ، وأنمّ من الصبح في إفشاء الســـر ، وأسرع من البرق في حكاية ما يسمعن ، وخصوصاً إذا كان من هذا القبيل .

سئل « ديوجنيس » : « أي فعل يعسر على الانسان ؟ — فقال أن يعرف نفسه ويخفي سره » ، وقال أبو العلاء المعري :

تلقى الفتى كالريـــح إن أودعته
سراً ، أذيع ، فصـــار كالمزمار

---

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام (سورية) .

والشمس أكتم للسريرة فى الضحى

من قهرمانة دميـــة وجواري

وربما يكون الحادث بلغهن بواسطة « الخادمات » ، بل ربما أن يكون بعض الخادمات مُقامة في قصر العزيز « رَصَداً » لبعض نساء الأمراء ، تأتيهن بالحوادث التي تحدث في قصر العزيز .

وهذه عادة قديمة ومستمرة ومطردة في قصور الأمراء ، فقد كان « للأمين ابن الرشيد » ، جارية في بيت الوزير « جعفر » البرمكي ، أهداهاله ، لتكون رَصَداً عليـــه ، تراقب حركاته ، وتنقلها للأمين ، كما كان « لزبيدة » زوج الرشيد « جاسوس » عند « العباسة »أخت الرشيد ، يطلعهاعلى ماجريات العباسة ، وهكذا نعلم أنه كان للسلطان عبد الحميد العثماني « جواسيس » من جواري ورجال في كل قصر من قصور الأمراء في « الأستانه » .

وربما أن النبأ اتصل ببيوت هؤلاء النسوة بواسطة أناس من أهل بيت العزيز، فان امرأته كانت نادت اهل بيتها ، وكلتهم قائلة : « انظروا قد جاء سيدي العزيز الينا برجل عبراني ، ليداعبنا » (تك ٣٩ : ١٤) ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وبالجملة : تناهى الخبر الى قصور الامراء ، وتساقطت هـــذه الحادثة الى سِطاة السيدات المصريات ، واستطار ذلك النبأ الى سِرْب من عقيلات رجال البلاط ، واتصل بسجيرات زليخا ، وهن من بطانة المملكة وسَرَوات السيدات ، ومنهن امرأة حاجب الملك الذي كان رئيس التشريفات » ، فطرق آذانهن ، وحام حول قلوبهن ، وذلك رغماً عن أن يوسف أعرض عن ذكر هذاالمصاب ، وتكتمامرأة العزيز فيه ، فصِرْنَ يَصِمْنَ تلك « المرأة » بـــكل عيب حتى صارت مضغة في أفواههن ، ونبذنها من نفوسهن نبذ النواة ، لأنهن استفظعن هذا الأمر ، وهالهن

هذا العمل الدنيء من سيدة شريفة من شريفات مصر وكبرياتهن ، وبدأن يحاولن التوفيق بين نظريتي الشرف والدناءة ، وكدن أن لا يصدقن الخبر ، لولا تكرر الروايات المؤكدة لوقوعه ، وليس بين الأحاديث حديث أسيرَ ولا أذيعَ من حديث السوء .

ولكن .. كم كنا نتمنى لهؤلاء « النسوة » — ويا للأسف — أن يبقين ثابتات على فكرة انتقادهن تلك « المرأة » ، إذ سرعان ما رأيناهن قد تغير فكرهن ، حينما وقع نظرهن على يوسف وجماله ، (كما سيأتي) ، وهكذا شأن مخضوبات البنان ، ليس لهن ثبات على حال ، اللهم إلا على حال التقلب والدهاء .

وتشعر كلمة « المدينة » أن « النسوة » كن « مدنيات » من سيدات مصر ، من مدينة « صوعن » أو « منفيس » عاصمة المملكة الهكسوسية في ذلك العصر ، ومثلهن يُصغَى لقولهن ، لوقوفهن على الحوادث الاجتماعية ، وهن من سجيرات وخليطات امرأة العزيز ونظيراتها ، فلا ريب أنها تتأثر ببلوغ الحادثة لهن ، ثم بانتقادهن ، بخلاف مالو كنّ من « البادية » أو « الارياف » فقولهن لا يغيظ ، ولا يجد آذاناً صاغية .

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب الكابلية [١] :

انتشار حديث السوء

لما بلغ خبر المراودة إلى سيدات « صوعن » أخذن في لومها وتضليلها ، قائلات ما هو في معناه :

(وا أسفاه) امرأة العزيز « تراود فتاها عن نفسه » ، مع أنها مقترنة بزوج ،

(١) نسبة إلى كابل عاصمة الأفغانستان .

وأيّ زوج ؟!؟! فلا عذر لها ، وكان يجب حسب العادة أن تكون المراودة منه فالشبان هم الذين يراودون النساء ولا عكس ، لمكان الحياء الشديد الذي يمنعهن من المراودة ، ويا للعار ! فإنها لوأرادت أميراً من أمراء البلاط من سجراء سيدها لكان لها بعض العذر ، ولكنها لم تراود إلا عبداً من العبدان !

امرأة العزيز — سليلة المجد ، ربيبة النَعمة والنِعمة ، مالكة الدور ، ساكنة القصور ، ذات المال الوفير والخير الكثير ، ربّة التاج والحَلْي الوهاج ، تراود عبدها عن نفسه ، لأنها علقت بحبه !!! امرأة العزيز — يغفر الله لها ، من البيوتات الشريفة ! وسيدها من علية القوم وجلتهم، فانها أرادت خادمها لنفسها ، لتشبع لذتها الحيوانية ، فانا لله ، وإنا اليه راجعون !

امرأة العزيز — تراود خادمها (العبراني) عن نفسه ، تريده على الفعل الشنيع عنوة وقسراً ، ومراغمة وقهراً ، لا يلفتها عن ذلك شيء ، ومن العجب العاجب أن تستبيح سيدة كزليخا مثل هذا الفعل ، الذي يتردد صداه في القصور ،وهي من اللاتي يؤاخذن بأعمالهن أمام ضميرهن ، وأمام الناس .

نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واغفال اسمها

وهنا لا بد للمدقق في هذه الآية الكريمة أن يبحث في الدقائق التالية :

أولاً — ان « النسوة » قد دعون زليخا « امرأة العزيز » للاشعار بأنها شريفة وماجدة ، إذ لو لم تكن كذلك ، ، لما اقترن بها ، كما أنهن قد دعون يوسف « فتى » لها ، للايذان بأنه عبد من عبيدها ، وخادم من خدامها ، وكل ذلك لاظهار ما بينها من التباين البين ، وأيضاً ليظهر أن « زليخا » هي امرأة عزيز مصر ، أي امرأة رجل عظيم ومقترنة به بالفعل ، قصدن بذلك الاشباع في لومها ، فان من لا زوج لها من النساء ، أولها زوج دنيء قد تعذر نوعاً في مراودة الأخدان ، لا سيما إذا كان فيهم شيء من علو الجناب ، وأما التي لها زوج ، وأيّ

زوج هو ؟ هو عزيز مصر ، فلعمري إن مراودتها لغيره ، لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلاً ــ بحكم الظاهر ــ وتماديها في ذلك ، لهي غاية الغيّ ، ونهاية الانحطاط .

هذا ، ويحتمل أنهن أردن من هذه الاضافة (امرأة العزيز) نسبة العار والعيب للعزيز ، باضافة هذه المرأة الساقطة اليه ، نسبنها له ، لا لأهلها ، لأنه هو السبب فيما حدث ، فهو الملوم دون سواه من أهلها ، ولذلك لا يجب نسبتها لواحد من أهلها ، ولكن لزوجها .

إن التهاون الذي يبدو من الزوج في شأن زوجته ، قد يكون له سوء مغبة، ليس في جانب الزوجة فقط ، أو في جانبها وأهلها فحسب ، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج ، لا سيما إذا كان هو المتسبب .

انظر (يا رعاك الله) الى هؤلاء النسوة المصريات ، عندما أردن ذكر زليخا بالاقذاع ، لم يسمينها باسمها الشخصي ، بأن يقلن : « زليخا تراود فتاها عن نفسه» بل نسبنها إلى زوجها ، قائلات : « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » وتناسين اسم أبيها وأسرتها ، كأنها « حواء » ثانية ، خلقت من ضلع من أضلاع زوجها اليسرى ، فهو أبوها وهو عصبتها .

فلماذا يا ترى هذه النسبة ؟ قلنا إنها للاشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه ، بنسبة هذه الساقطة اليه ، ولماذا هذا ياترى ؟ قلنا لأنه هو الذي تسبب ، فهذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار ،

نحن لانلوم عزيز مصر في إطلاق يد فتاه في سائر أموره الاقتصادية ورؤيته الصادرمنها والوارد اليها ،ورؤيته سائرأحوال البيت ، ولكن ما هوعذره فيالسماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه في غرفته الخاصة به وبأشغاله ؟ وماهو عذره في

أمره ليوسف أن يدخل القصر في أي وقت شـــاء لرؤية بعض اللوازم ؟ سواء أكانت العزيزة زليخـا في القصر أم لا ، لا فرق في ذلك ، حتى ولو كان هنـاك خلوة ، فلا منع ولا حظر أصلاً ، وهل يجمع بين النار والحطب ؟

نعم ، صادف أن هذا العبد (من حيث لا يعـــلم العزيز) ، ذو دين وشرف وعصمة ، ولماذا ؟.. لأنه يوسف وكفى ! ولكن ليس كل الفتيـان يوسف ، فاذاً يجب علينـــا المحافظة على صواحبنا وبناتنـا كل حين ، والله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين .

تسمية العبد فتى

ثانياً ــ إن هذا الأدب الذي كان يمشي عليه المصريون الأقدمون في تسمية العبد « فتى » ، هو نِعْمَ الأدب ، ففي الحديث الشريف : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي » والفتى من الناس : الشاب ، ويستعار للمملوك أو التـابع أو الخادم أو المستخدم للحكومة « قال تعالى : ﴿ وإذْ قال موسى لفتاهُ ﴾ (١٨:٦١) لأن يوشع بن نون كان تابعاً لموسى عليهما السلام ، وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِجْنَ فَتَيانِ ﴾ (آ٣٦) لأن رئيس السقاة المسمى « نَبُو » ورئيس الخبازين المدعو « مَجْلَتْ » ، كانا مستخدمين في حكومة الهكسوس ، وقال تعـــالى : ﴿ وقالَ لِفِتْيانِـــهِ ﴾ (آ٦٢) لأن هؤلاء أيضـاً كانوا مستخدمين عنـد يوسف أيام عمالته بمصر .

تسمية حاكم مصر عزيزاً

ثالثاً ــ إن تسمية حاكم مصر الذي يكون تحت أمر وسلطة فرعون «عزيزاً» هو اصطلاح للمصريين ، ونظيره تسمية حاكم مصر سابقاً « خديوي » ما دام تحت نفوذ وإمرة السلطان العثماني بالآستانة ، بل إننا أدركنا العصر الذي كان يسمى

فيه الخديوي بكلمة « عزيز مصر » ، وأما مليك مصر الأكبر ، مليك القبط قديماً فكان اسمه الرسمي « فرعون » كما أن اسم ملك الفرس كسرى ، والروم قيصر ، والترك خاقان ، واليمن تبّع ، والحبشة نجاشي ، وفلسطين أبي مالك ، فهذه كلها ألقاب حكومية رسمية ، يلقّب بها الملك من جانب الرعية يوم تتويجه ، وهي غير الأعلام الشخصية التي يسمى بها هؤلاء الملوك من جانب آبائهم يوم سابع ولادتهم ، وكما أن الرعية تعطي الملك لقباً خاصاً يوم إجلاسه على العرش ، فكذلك هو يعطي رجال دولته ألقاباً رسمية مثل: عزيز ، خديوي ، وزير بلاط ،رئيس تشريفات ، صدر أعظم ، الخ .. الخ ..

(قد شغفها حباً)

— ١ —

وقالت السيدة سكينة العَدَنية (١) :

شغف الحب

يقول سيدات «صوعن» : إن امرأة العزيز تراود عبدها العبراني لأنه « شغفها حباً » بحيث لو بحثت بين جوارحها ، وفتشت قلبها ، لما رأت فيه غير يوسف ، وغير جماله وحبه ودلاله « شغفها حباً » حتى قهرها سلطان الهوى وأحاط حبه بقلبها كاحاطة الشغاف بالفؤاد .

وإننا لنعجب ، وتأخذنا الدهشة ، كيف أنه « شغفها حباً » مع أن العادة الغالبة ، ان الشباب هم الذين يشغفون بحب النساء ، وإن عشق الكواعب للشباب ، أندر من الكبريت الأحمر ؛

ما هذا العشق الذى تمكن من قلبها ، واستبد بفؤادها ، واستقل بميولها

(١) نسبة الى عدن عاصمة مقاطعة عدن جنوب المملكة اليمنية .

وعواطفها ، اللهم لا شك انه عشق ضال عن جادة الصواب ، وإلا فكيف يسوغ لأميرة مصرية ، قرينة أمير مصر الوحيد ، وأول رجل بعد الملك ، أن تتنازل لعبد من عبيدها !!!

وليسمح لي السادة والسيدات والآنسات أن أنهي خطابي هذا بالتعليقتين التاليتين:

أمثلة من غرام النساء بالرجال

التعليقة الأولى — إن كتب التاريخ تذكر لنا عدة أمثلة من غرام « الجنس اللطيف » « بالجنس الخشن » منها :

١ — حب الآنسة « قارعة » بنت ثابت ، « لعبد الرحمن » بن الحارث المخزومي حتى قالت فيه :

يا خليلي نابني سهدي لم تنم عيني ولم تكَدِ
فشرابي ما أُسيغ وما أشتكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على يَفَعٍ آنِسٍ تلتذه كبدي ؟
مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزُّمَّيلَةِ النَّكِدِ
نظرت عيني فلا نظرت بعده عيني إلى أحد

٢ — حب « عُلَيَّة بنت المهدي » لغلامها « طَلّ » ، وقد حرم عليها أخوها « هارون الرشيد » أن تتشبب به ، فكان من نتيجة ذلك ، أن تشببت بجاريتها زينب ، وجعلتها كناية عن « طل » .

٣ — أحبت امرأة من الأوس شاباً من الخزرج ، كان تقياً باراً بأبيه ، قد كفاه جميع ما يعنيه ، فأرسلت اليه تشكو له حبها ، وتسأله الزيارة ، وتريده على نفسها ، وكانت ذات بعل ، فأرسل اليها :

إن الحرام سبيل لست أسلكه ولا أمر به ما عشت في الناس
ألغي العتاب فإني غير متبع ما تشتهين وكوني منه في ياس.

فكتبت اليه :

دع عنك هذا الذي أصبحت تذكره
وصِرْ الى حاجتي يا أيها القاسي.
دع التنسك إني غير ناسكة وليس يدخل ماقد قلت في راسي

فأمسك عنها وأهملها ، فأرسلت اليه : « إما أن تزورني واما أن أزورك » — فأرسل اليها : « إربعي أيتها المرأة على نفسك ، ودعي عنك هذا الأمر ، واكتفي بعرسك » (مصارع العشاق ج ١٤) .

٤ً — قيل إنه كانت جارية اسمها « سَلاّمة » اشتراها « يزيد بن عبد الملك » بثلاث مئة دينار ، وكان يوجد في زمنها فتى صالح تقي ، اسمه « عبد الرحمن » بن أبي عمار من عباد أهل مكة ، ولقب « بالقِسّ » لكثرة عبادته ، وكان شاباً جميلاً ، رأته تلك الجارية فأحبته ، وشغفت به ، كما هو بها ، وصار بينهما تخالل وتواد ، فقالت له يوماً على خلوة : « أنا والله أحبك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « أحب أن أقبلك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « أحب أن أصادرك وأخاصرك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « فما يمنعك » — قال. قوله تعالى : ﴿ الأَخلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاّ المُتَّقِينَ ﴾ (٤٣ : ٦٧) ، وانا أكره أن تؤول خُلتُنا إلى عداوة ، ولذلك اشتهرت هذه الجارية باسم « سَلاّمة القِسّ » (أخبار النساء لابن قيم الجوزية) .

٥ً — روي أن جارية من الجواري القِيَان : كانت على غاية العشق لشاب من أهل الأدب والظرف ، اسمه « العَلاَء التغلبي » فكانت تتودد اليه ، ولا ترى منه سوى الجفاء والاباء ، ولم يزالا على ذلك ، حتى مرضت الجارية من حبها له فماتت. (مصارع العشاق ج ٨) .

العشق بين الرجل والمرأة وبالعكس

التعليقة الثانية ــ العشق بين الرجل والمرأة وضع سماوي ، فتارة يكون من الطرفين ، وطوراً يكون من أحدهما ، والغالب على الهندوس الوثنيين أن العشق يكون من جانب المرأة للرجل ، وسببه أن المرأة في دينهم ، لا تتزوج إلا زوجاً واحداً فقط فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج ، حتى انه إذا مات تحرق نفسها معه ، وتمام الحظ يكون بجمال الزوج وصحته ونشاطه ، وهـذا بخلاف العرب والهنود الموحدين ، فالأكثر أن العشق يكون فيهم من طرف الرجل للمرأة (حسن صديق).

(إنا لنراها في ضلال مبين)

—١—

قالت السيدة سعيدة الكويتية :

تلوم السيدات الخمس على امرأة العزيز حبها ليوسف

لم يكتف النسوة الخمس ، بترداد حديث السوء ، حديث المراودة ، بل حكمن على « زليخا » بأن حبها هذا للعبد العبراني ، هو حب أحمق ، حب ضال عن محجة الصواب ، وها هن يقلن انه إذا كان لها نفس تحملها على انتهاز اللذات ، ألم يكن لها عقل يعقلها عما فيه سوء السمعة وسوء المغبة ، وإذا كان لها جسد حيواني يطالبها بارتكاب الشهوات ، ألم يكن لها روح شريفة نزيهة ، تربأ بها عما فيه خسة ودناءة ، وإذا كان فتاها جميلاً ، ألم يكن لهـــا من المنصب والمركز والجاه ما هو أجمل وأجمل ، فاذاً ويميناً « بأبيس » المقدس إن فكرتها لفكرة جنونية ، يميناً ، ولسنا بالحانثات في يميننا ، إنها ذات ضمير ميت ، وخلق سيء ، وصاحبة وجدان غير طاهر .

مسكينة هذه المرأة ، فقد تتابعت في عمايتها ، ولجّت في غلوائها ، وإن مراودة سيدة مثلها ، لعبد من عبدانها ، وشَغَف قرينة « عزيز مصر » بالإغرام بخادم من

خدامها ، أمران مستهجنان جداً وكل واحدمنها منفرداً ، خليق أن يشين بسمعتها ، فكيف وقد اجتمعا ! إن هذا ليس فعل الحرائر ، ولا أهل المروءة والدين ، فتباً له من عمل ، يورث العار والشنار ، ويخفض الرأس ، ويغمض الأبصار .

إن هذه المرأة قتلت شرفها ، وقاتل الشرف أخس من قاتل النفس ، لأن قاتل النفس يحوّل احتقار الجمهور إلى ذاتـــــه فقط . أما قاتل الشرف ، فيحول ذلك الاحتقار إلى الأسرة جميعها ، هي كانت سابقاً « قرينة العزيز » ولكنها اليوم (قرينة الذل والصغار) ، لتسقط ولتنزل إلى أسفل سافلين ، ونحن لم يصدر منا هذا الحكم مجازفة أو عن تقليد ، بل عن علم ورأي ، وإننا بحمد الله متنزهات مترفعات عن أمثال ما هذه المرأة عليه من السقوط والانحطاط ، « وإلى الملتقى إن كابرت » .

هذا مرمى كلامهن ، ومعناه الروحي ، قلن هذا الكلام بلهجة الأنكار والانتقاد والتلوم عليها ، ولكن في هـذا القول ماكرات أولاً ، ومغتابات ثانياً . (مرحى مرحى)

تذييل : ـــ إن ما قاله هؤلاء المحاضرات الأربع هو الصحيح ، وما عداه لا يستحق النظر مما قاله بعض المفسرين .

اقامة الحجة على النسوة الخمس

آ (٣١) ﴿ فلمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ أرْسَلَتْ إلَيْهِنّ ... وأعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكأً ، وآتَتْ كلّ واحِدَةٍ مِنْهُنّ سِكّيناً ، وقالتْ : «اخْرُجْ عَلَيْهِنّ» ، فلمّا رأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ وقَطّعْنَ أيْدِيَهُنّ ، وقُلْنَ : « حاشَ للهِ ، ما هذا بَشَراً ، إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريمٌ » . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثلاثون فقامت السيدة فاطمة اليوغوسلافية ورجت أحد الأعضاء المؤتمرين لقراءة خطابها فقال :

وأما زليخا (فلما سمعت بمكرهن) واغتيابهن وسوءقالتهن ، وقولهن : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، فمقتها وأجفل منها أيّما إجفال ـ وسمى الاغتياب مكراً ، لأنه في خيفة وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره ، وكثير من الألفاظ في هذه السورة استعملت في غير معناها الحقيقي وذلك مثل (وشهد شاهد) وقد مر الكلام عليه ، ومثل (قلن حاش لله) وسيأتي الكلام عنه ـ ، أقول لما سمعت زليخا ذلك قالت أنا أعلم أن لكل حادث حديثاً ، وأن هؤلاء النسوة معذورات لأنهن لم يرين جمال يوسف ، ولذلك (أرسلت اليهن) تدعوهن ضيوفاً عندها لكي يرينه فيعذرنها ، فلبين الدعوة وأتين ودخلن عندها في البهو (وأعتدت لهن متكأ) أي مجلس طعام ـ لأنهم كانوا يتكئون عند الطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، وقيل المتكأ الطعام أو المائدة التي عليها الطعام ـ (وآتت) أمرت بأن

يؤتي الخدم (كل واحدة منهن سكيناً) ليعالجن بها مايأكلن من فواكه وغيرها، على حسب العادة الجارية عند المترفين في تلك الأزمنة من الأكل بالسكين ، (و) بعد ما انتظم الجمع وقدمت أنواع الأطعمة اليهن وشرعن يأكلن ، وبينا هنّ فيذلك قالت:ماالذي بلغني عنكن؟ـقلن هو الذي بلغك ـ تحاشياً منهن عن الكذب فعند ذلك أرادت أن تقيم عليهن الحجة ليعذرنها ،فرفعت رأسها و(قالت) بلسان الافتخار والابتهاج، لعبدها العبراني (اخرج عليهن) ، ولا بد انه لم يكن في البدء عندهن ، بل كان جالساً في مكتبه أو نحوه من الغرف ، وربما انه لم يكن شاعراً بشيء من هذه الترتيبات ولا سبق له بها علم ، لأن الحادثة ليست إلا حادثة ضيافة يقصد بهاالتوصل لرؤيتهن يوسف وجماله فيعذرنها ، هذا كل ما كان ، لا أقل ولا أكثر ، وأما يوسف فلم يسعه إلا امتثال أمرها والنزول على إرادتها ، لأنه عبدها ورهين إشارتها ، فخرج ومثل بين أيدي هؤلاء السيدات الجالسات حول المتكأ ، (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق (وقطعن أيديهن) أي جرحنها وشطبنها ـ كما تقول : « كنت أقطع اللحم فقطعت يدي » تريد جرحتها ، وقد يطلق تقطيع الأيدي على فصلها وإزالتها جملة ، كما في قوله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا ﴾ (٥ : ٤١) فلفظ التقطيع أو القطع مرن يمكن تضييقه وتوسيعه ، إنما قطعن أيديهن وانشغلن به عن الطعام، لأنهن في ذاك الوقت لم يكن منهومات بمعدهن وأحشائهن ، بل بحواسهن وأذواقهن، فكان نهم النظر والذوق منهن ، أشد من نهم المعدة والأحشاء ـ (وقلن) بلسان الاندهاش والتنزيه (حاش لله) وهي كلمة تفيد معنى التنزيه والبراءة ، فمعنى حاش لله : براءة لله وتنزيه له ، وكأن هذه الكلمة من جملة الكلمات التي عرف معناها المراد من غير أن يدل عليه اللفظ ، لأن المقصود ههنا التعجب من جمال يوسف لا غير (ما هذا بشراً) نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

الصور (إنْ) أي ما (هذا إلا ملك كريم) نزل من السماء « سفيراً » ، ليمثل الملكة الملائكية السماوية ، في المملكة البشريـــة الأرضية ، فاثبتن له المـَلـَكية ويتثنَ بها الحكم ، لأن الله ركز في الطباع أن لا أحسن من المـَلـَك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، وركز أن لا أجمع للخير من الملائكة ، كما ركز فيها أن لا أدخل في الشر من الشياطين ، قامت عليهن الحجة لأمرأة العزيز .

(فلما سمعت بمكرهن ...)

— ١ —

وقالت السيدة وفائيه الدمنهورية [1] :

بلوغ امرأة العزيز اعتياب النسوة لها

وصل النبأ الى امرأة العزيز بأن نساء رجال الدولة من الوزراء والعظماء قد بلغهن حادثتها مع يوسف وانهن أخـذن في لومها واغتيابها ، شامتات ، منافسات ، حاسدات ، نعم « سمعت بمكرهن » بواسطة جواريها أو ماشطاتها أو قهرماناتها أو غيرهن ، وربما كان الذي نقل عنهـا الخبر الى النسوة هو الذي نقل خبر لوم النسوة ومكرهن واغتيابهن اليها ... ، « سمعت بمكرهن » الذي منه قولهن: « قد شغفها حباً » وانهن أرجفن وخضن ، فثارت حفيظتها وبدأت تمتعض ويجيش صدرها من الغيظ ، ويغلي دمها من الحنق ، ورأت أن معاملتهن لها كمعاملة « الجبان المبرقع » ، لغريمه ، فافتكرت أن تحول دفتهن عن جهة لومهن إياهـــا ، إلى جهة معذرتهن لها ؛ « سمعت بمكرهن » وتألبهن عليها . وعرفت أنهن يسخرن بهـا في أعماق نفوسهن ، وينلن بلسانهن من شرفها ، « سمعت بمكرهن » وسقط اليها أن السيدات المصريات تآزرن وتكاتفن على تنقيصها ، وتضافرن على تضليلها ، وأصبحن

(١) نسبة الى دمنهور من البلاد المصرية .

حرباً وألباً واحداً عليها ، فقالت في نفسها : إن هؤلاء السيدات الغافلات ليس لهن سلاح ، إلا القيل والقـال ، ثم حسبت لذلك ألف حساب ، وافتكرت فرأت أن تطلعهن على يوسف ليعذرنهـا ، أو لـكي توقعهن في الشرك الذي وقعت هي فيه ، فيشاركنها في عواطفها وبلاياها ، حتى يصدق عليهن جميعاً المثل القائل : « افتضحوا فأصطلحوا » وتكون بذلك قد طوقت مكرهن ، وأجهزت عليه وهو في مهده .

وجه تسمية الغيبة مكراً

ملحوظة ـ سميت الغيبة مكراً ، باعتبار أساسها ومنشأها ، لأن الغيبة التي هي من هـذا القبيل المذكور هنا ، إنمـا تنشأ عن اختلاس أسرار الناس ، واستطلاع ما يدور في البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مـع الجواري والعجائز ونحوهن ، وهذا مكر بمن يبحث عنهم ، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم ، ولا ريب أن هذا أمر منكر ، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار ، وعدم الاغضاء عن استطلاعها وتجسسها ، عملًا بالآداب العامة ، ووجه ثان في تسمية هذه الغيبة مكراً: وهو أنهن كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن ، لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء ، تقول بلسانها ما ليس في قلبها ، والله أعلم بما تكنه ، ولذلك لم يُسمه غيبة بل مكراً ، فهنّ بقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » يتمنين أن تكون الأسباب قد سهّلت لهن مثل هذه المراودة ، وبقولهن « قد شغفها حباً » يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن ، ولما قلن : « إنا لنراها في ضلال مبين » أردن انها في هداية ظاهرة حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد في صباحته ، عديم النظير في ملاحته ، فملاحظتهن على امرأة العزيز ، ملاحظة غبطة وغيرة ، ملاحظة لا يقصد منها معنى آخر ، يعرفنه وتعرفه امرأة العزيز ، ويعلمه الله الخبير ، الذي سمى هذه الغيبة « مكراً » .

ووجه ثالث : كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة « المكر » بدليـل إنهنّ لمنها وهن غائبات عنها ، ولم ينصحنها وجهاً لوجه ، وإلاّ فهن لو أردن النصح لاجتمعن

بها وقدّمن لها ما يعود عليها بالغناء ، فسماه « مكراً » ، لأنه من قبيل التحكك بشخصية تلك المرأة وتنقصها ، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة.

ووجه رابع : سميت هذه الغيبة « مكراً » ، لأنها طعن لم يرتكز على مستندات قوية ، لأن هذا الذي وقع منهن ، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز ، إلا أنه غير جائز ، إذ يجب أولاً التثبت والتبين ، لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب ، وقد قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا ، إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. أنْ تُصيبُوا قَوْماً بِجَهالةٍ ، فَتُصبِحُوا على ما فَعَلْتُم نادِمينَ ﴾ (٤٩ : ٦) ويجب على العاقل أن يظن باخوانه وأخواته ظناً حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلا — إذْ سَمِعْتُمُوهُ — ظَنَّ المؤمِنونَ والمؤْمِنَاتِ بأنفُسِهِمْ خَيْراً ؟ وقالوا : هذا إفْكٌ مُبينٌ ﴾ (٢٤ : ١٢) ، لأنه ليس من دليل يصدقه ، والأصل في الرجال والنساء العدالة ، والسلامة من الطعون ، وحيث لم يقم عند هؤلاء النسوة — على تلويث تلك المرأة — دليل مقنع ، كان الواجب عليهن حسن الظن بها ، ورد ذلك الاخبار السيء ، قال تعالى : ﴿ يا أيّها الذينَ آمَنُوا ، اجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَّنّ ، إنَّ بعضَ الظنّ إثمٌ ﴾ (٤٩ : ١٢) ، ويقول النبي (ﷺ) : « إياكُم والظن فإن الظن أكذبُ الحديث » ، والانسان يُنهى عن تلقي مثل هذا ، كما قال تعالى : ﴿ إذْ تَلَقَّوْنَهُ بألسِنَتِكُمْ وتقولون بأفْواهِكُم ما لَيْسَ لكم به عِلْمٌ ، وتَحْسَبُونَه هَيناً ، وَهُوَ عندَ اللهِ عظيمٌ ، ولولا — إذْ سَمِعْتُمُوهُ — قلْتُم : ما يكونُ لنا أنْ نتكلَّمَ بهذا ، سبحانَكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ ﴾ (٢٤ : ١٥ و ١٦) وقال تعالى : ﴿ ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) .

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات ، أن يسكتن حين سمعن هذا الخبر السيء ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الذين يُحبُّونَ أنْ تَشيعَ الفاحشةَ في الذينَ آمَنُوا لهم عذابٌ أليمٌ ، في الدنيا والآخرة ﴾ (٢٤ : ١٩) ، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة ، أو يخبر بها حسداً أو بغضاً ، وكأن الذي هون على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء المخبرات ، ان امرأة العزيز كانت من المشركات ، وأن مراودة أهل التوثن الناسَ عن أنفسهم ، أمر معهود وقريب جداً ، بل قد عهد مراراً من أهل الشرك الوقوع في الفاحشة ، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان ، قلما يوجد شرك إلا ومعه زناً ، وقلما يوجد زنا إلا ومعه شرك ، كما يعلم ذلك من الاطلاع على تواريخ الأمم العتيقة .

هذا ما ظهر لنا في تعليل تسمية هذه الغيبة « مكراً » ، فان صادف قبولا عند أولي النظر ، فذاك من فضل الله علينا بصحة تعليلنا ، وعليهم لحسن ظنهم ، وسلامة طويتهم ، وأما الرجميون فعليهم أن يرجعوا الى ما قاله غيرنا في هذا المقام .

(أرسلت اليهن ..)

— ١ —

وقالت الآنسة رؤوفة الحمصية :

دعوة امرأة العزيز للنسوة

تضافرت الأخبار في قصور الأميرات المصريات ، عن هذه الحادثة الأليمة ، وانتشرت فيهن ، رغماً عن كل الاحتياطات والتحفظات وبالتالي طفقن ينتقدنها ويسلقنها بألسنة حداد ، فنُمي الخبر باشاعة ذلك عند هؤلاء النسوة الى زليخا ،

فظنت انها تقدر أن تدرأ انتقادهن بما ستتخذه من التدابير الصامتة ، التي يرجى أن تكون ناجعة ، في سبيل تسكين غيبتهن ومكرهن ، وتدبير نفسها عندهن ، في حبها إياه ، بما سيرين من جماله الفائق ، ومنظره الجاذب ، فلذلك « أرسلت اليهن »، وللمفسرين ههنا كلام غير هذا الكلام ...

« أرسلت اليهن » برسم الدعوة لقصرها ، على سبيل الضيافة ، مع الإعزاز والاكرام ، لتحتج عليهن بما سيشاهدن من جمال يوسف وكماله ، احتجاجاً صامتاً، ولتقلّم ظفر انتقادهن ، وتشذب من لومهن ، وقد هيأت لهن مظاهر الزينة والنعيم، ومجالي السرور والتكريم ، وأما هن فصدعن بمرامها ، ولبَّيْن وحَضَرْن ، عملاً بسنة « مَن دُعي فليجب » أو امتثالاً لأمرها ، لما لها عليهن من الدالة ، بكونها امرأة العزيز .

ولنا ههنا كلمة – وهي بدلاً من هـذه الدعوة النسائية ، كان يجب على امرأة العزيز حينما سمعت بوصول النبأ لقصور الأميرات أن تتدارك حصره قبل شيوعه ، وتتلافى طيه قبل نشره ، بطريقة غير طريقة هذه الدعوة النسائية ، طريقة تكفل كتمانه عن غير هؤلاء السيدات ، وتضمن إخفاءه عما عداهن من قبيل حصر النار قبل انتشارها في سائر البيوت ، لأن دعوة هؤلاء النساء توسع دائرة الفتنة ، ولكن أبى الحب إلا أن يترك في نفس المحب نوعاً من الجنـون ، وأبى الشموخ الذي في أنف امرأة العزيز ، وأبت الغطرسة التي في رأسها ، إلا أن تعمل عملاً من شأنه توسيع الخرق على الراقع ، ومن طبيعته أن يزيد الطين بلة ، فرأت بحسب اجتهادها أن تعتذر لهن اعتذاراً صامتاً ، وبعبارة أصح أن تحتج عليهن احتجاجاً أخرس. وقد كان الأحرى بها اختصار هذه الحوادث ، ويكفي ما وقع سابقاً من المعارك ، بينها وبين يوسف ، ثم المحاكمة بمعرفة سيدها والشاهد من أهلها ، فهي بتلك الدعوة

النسائية ، مع ما نجم عنها من تقطيع الأيدي والفرام ، وبما صدر عنها من الاعتراف أمام السيدات ، ثم توعدها ليوسف توعداً مشتملاً على القحّة وقلة الحياء وعدم المروءة ، قد زادت الفتنة اشتعالا ، وبذلك انتقلت الحالة من رديء الى أردأ ، ومن سيء إلى أسوأ ، فيا للفضيحة .. ويا للعار .. ويا للجهالة .. ويا للحب يُعمي ويصم ...

(وأعتدت لهن متكأ ...)

— ١ —

وقالت السيدة زهراء النجفية :

المطعم الصائد — المتكأ

لما أرسلت زليخا تدعو النسوة الى قصرها أعدت وهيأت لهن متكأ يكفل أنواع الأطعمة اللذيذة ، من لحوم أرضية وسماوية ومائية ، ومن فواكه وأثمار مختلفة الألوان والأجناس ، وأمرت بفرش الطنافس ، وترتيب المجالس ، واستحضرت مياه النيل المروّقة المزوجة بماء الزهر ، والمطيبة بالبخور ، وقد أمرت بنصب ذلك في روضه من رياض القصر يجري من تحتها النيل ، قد غرست بالوان من الأشجار اليانعة الثمار . واكتست أرضها بسندس النبات ، ومختلف الورود والرياحين ، فطاب هواؤها ، ورق ماؤها ، وتطايرت عصافيرها ، وانطلق نسيمها ، فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيار ..

هناك أشارت بترتيب المائدة ونصبها ، فكانت هذه الروضة كالجنة ، وكان هؤلاء السيدات المصريات فيها كالحور العين ولم ينقص تلك الجنة الا" الولدان ، فلذا

أمرت يوسف بالبروز لهن (كما سيذكر) ليتم بهاء ذلك المنظر الجميل ، وتكمل اللذات من جميع الوجوه .

وههنا نتذكر الملحوظات التالية :

معنى أعتدت

الملحوظة الأولى — يقال عَتَدَ الشيءُ عَتَاداً : حضر ، عَتَدٌ وعَتِيد ، ويتعدى بالهمزة والتضعيف ، فيقال : أعتَدَه صاحبه وعَتَّده إذا أعدَّه وهيأه ، ويقال : أخذ للأمر عَتَاده ، أي ما أعدَّ من السلاح والدواب وآلة الحرب ، أعْتُدُ وأعْتِدَة ، مثال زمان وأزْمُن وأزْمِنَة ، وفي حديث : « إن خالداً جعل رقيقه وأعْتُدَهُ حُبُساً في سبيل الله » (المصباح) ، وفي البخاري « وأعْتَدَت » : أعَدَّت ، « أعتَدنا » : أعْدَدْنا ، أفعلنا من العَتَاد .

معنى المتكأ

الملحوظة الثانية — يطلق المتكأ على نفس الطعام ، وعلى نفس المائدة والخوان ، وعلى نفس ذلك ومحلّه ، وعلى النمارق والوسائد ، كل ذلك جائز ، وصحيح في اللغة والاصطلاح ، وفي البخاري « المتكأ : ما اتكأت عليه لشراب أو حديث أو طعام » ولكن التعبير بالاعداد والتهيئة والتحضير ، قرينة واضحة على أن المراد هنا نفس الطعام الذي يؤكل ، لأن هذا الذي يحتاج عادة للاعداد والتهيئة ، بحيث يجلب حيناً فحيناً ، وشيئاً فشيئاً ، وأما نفس الخوان أو المكان أو النمارق ، فتبعد إرادته هنا ، لأنه موجود ، متوفر في بيوت الأمراء والمترين على الدوام .

ومع ذلك فقد فسر بعضهم « المتكأ » هنا بالمجلس يجلسْنَ عليه أو الكراسي يقعدن عليها متكآت على ظهورها ، فكلمة « متكأ » هي مثل كلمة « نُزُل » ، فان

النزل يطلق على ما يعد للضيف من الطعام وعلى المحل الذي فيه الطعام ، ويقال للمتكأ بمعنى الطعام : « سؤر » بلغة الفرس ، وفي الحديث : « يا أهل الخندق ، إن جابراً صنع لكم سؤراً ، فحيّ هلاً بكم » رواه البخاري في صحيحه ، وقد فسره شراح البخاري بالضيافة أو الطعام ، ويسمى عند العرب « مأدبة » وهو طعام الدعوة .

وقال بعض العلماء : الاتكاء الجلوس مع التمكن والقعود مع تمايل معتمداً على أحد الجانبين ، وتوكأ على عصاه ، اعتمد عليها ، وقال تعالى : « وسُرُراً عليها يَتَّكِئُون » يجلسون ، والعامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل في القعود معتمداً على أحد الشقين ، ويقال اتكأ : أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمداً عليه ، وكل من اعتمد على شيء ، فقد اتكأ عليه ، ويقال : أتْكأتُه : أعطيته ما يتكيء عليه ، أي ما يجلس عليه ، وضربته حتى أتْكأتُه ، أي سقط على جانبه ، والاسم التُّكَأَة مثل رُطَبَة . وإعداد « المتكأ » للطعام هو عادة للمترفين ضد إعداد « الحصيرة » للطعام الذي هو عادة للفقراء » ؛

ويطلق « المتكأ » على مائدة مؤلفة من ثلاث قطع ، على طرفي الواحدة منها الاثنتان الأخريان ، على وضع قائم معها ، فتشبه الثلاث مربعاً نزعت إحدى أضلاعه ، فيكون بذلك فيها مدخل لموزعي الطعام ، وكانوا يضعون حول الجوانب الخارجة للمائدة أسرة ، تتكيء عليها الأكَلَة ، ورؤوسهم مسندة على أكفهم اليسرى ، متجهة الى المائدة ، وأرجلهم منفرجة الى الوراء .

هذه هي صورة « المتكأ » عند المصريين واليهود قديماً ، وكان « متكأ » صاحب الوليمة في الصدر ، مقابل مدخل المائدة ، ومحل الشرف عن يمينه ، وهو المقعد الأول ، لأعظم الضيوف وأوجههم « فالمتكأ » إذاً آلة خشبية للأكل ، بديعة عالية يستعملها الأغنياء والأمراء في الولائم ، في عشائهم أو غذائهم .

هذا وقد قرأ بعضهم « مُتْكاً » بضم الميم وسكون التاء، وتنوين آخره بلا همز، وذكر « المفضل » أنه المائدة أو الخمر، في لغة « كندة »، وكان بعض أصحابنا تعجبه هذه القراءة مع تفسير « المتك » بالخمر، ويقول: « إنه يسهل حينئذ على من يكون أجنبياً عن الدين هضم القول: بتقطيع الأيدي — فقلت له: « أليس القصد وجود السكر، حتى يهضم الأجنبي حادثة تقطيع الأيدي؟ » — قال نعم — قلت له: فالجمال نوع من السكر، فقد ذكروا ان للسكر سبعة أنواع: سكر الشراب، وسكر الشباب، وسكر المال، وسكر الجمال، وسكر المنصب، وسكر القوة البدنية، وأخيراً سكر الموت. فالسكر على كل حال حاصل، فالرجوع للقراءة المشهورة أولى، لاسيما وقد حدثت حوادث كثيرة للعشاق، تشبه هذه الحادثة [1].

(وآتت كل واحدة منهن سكيناً)

— ١ —

وقالت السيدة تماضر الحضرموتية [2]:

سكين الطعام

بعد أن استقر المقام بعقيلات الأمراء والوزراء في قصر امرأة العزيز أمرت جواريها باعداد الطعام وأعطت هي بيدها كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتأكل بها، مبالغة في الاحترام، ويحتمل أنها أمرت الجواري بذلك، على جاري العادة، فقد كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين (الخازن)

---

(١) راجع مصارع العشاق ج ٢ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٤ و ١٨ .

(٢) نسبة الى حضرموت علصمة احدى مقاطعات الجزيرة العربية الجنوبية.

وكذا كان من عادة العرب أكل اللحم بهـا ، كما كان يفعل النبي (ﷺ) [١] ، بل وبالشوكة ، أعني شوكة النخل ، التي يقال لها مسلة النخل [٢] ، تكون طول شبر تقطع وتشذب وتغرز في اللحم ،أمام كل واحد سكين مربوطة بسلسلة في الجفنه وشوكة من سلاّي النخل ، إذ لم يكونوا يستعملون الصابون ولا غيره ، مما يزيل الدهن .

وأهل اليوم يأكلون بالسكين والشوكة والملعقة ، المصنوعة من المعدن .

وامرأة العزيز لم تأمر باعطاء كل سيدة سكيناً ، توصلاً لما لعله يقع ، وذريعة لما ربما يصير ، من قطع السكين ليد حاملتها ، لا .. لا .. لأنها لم تكن تتوقع منهن ذلك ، ولم يقم عندهـا احتمال قط أنه ستنزل بهن تلك الفاجعة ولكن هي أمرت الخادمات وأشارت على مرتبات المتكأ أي المائدة ، باعداد السكاكين ، جرياً على القاعدة عند الكبراء ، ومشياً مع العادة في بيوت الأمراء ، من وضع السكاكين على « الخوان » ، لأجل تقطيع ما عليه من خبز ولحم وفاكهة ، فتقطيعهن لأيديهن كان حصل بالعرض وعن طريق الصدفة ، لا أكثر ولا أقل .

ويقال للسكين مدية ، حتى ان بعض العرب لا يعرف إلا الأسم الثاني ، وقد روى أن أبا هريرة ، لما قدم من دَوْس عام خيبر ، لقي النبي (ﷺ) وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : « ناولني السكين » ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال : « آلمديةَ تريد ؟» وأشار إليها ، « فقيل له نعم » — فقال « أو تسمى عندكم السكين ؟ » — ثم قال : « والله لم أكن سمعتها إلاّ يومئذ » .

---

(١) شمائل الترمذي (٢) شعراني .

(وقالت اخرج عليهن)

—١—

قالت السيدة إنصاف الدمشقية : —

اجتماع المحب والحبيب والعواذل

إن طعن أولئك السيدات في شرف امرأة العزيز وعقلها ، ترك أثراً سيئاً في نفسها ، فأرادت أن تمحو انتقادهن باحتجاج صامت أخرس ، فقدمتهن للمائدة ، فشرعن يأكلن ، وأنشأن يتساقطن الأحاديث والأخبار ، في سرور وضحك ، وفيما هن في ذلك قالت لهن : « ما الذي بلغني عنكن ؟ — قلن : هو الذي بلغك» ، تحاشياً منهن عن الكذب ، فعندذلك أرادت أن يرين ما كنّ سمعن من جمال يوسف وصباحته ، لأن الرؤية فوق السماع ، « وما راءٍ كمَنْ سَمِعا » ، أعني أرادت أن تقيم عليهن الحجة الصامتة ليعذرنها ، فوجهت وجهها شطر المكتب الذي هو فيه وقالت منادية : أنت ، يوسف ، اخرج ، اخرج من مكتبك على ضيوفنا هؤلاء السيدات العواذل ، اخرج عليهن لأدلي لهن بأن رأيي في هواك هو عين الصواب ، واني لم أكن في ضلال مبين كما قلن ، اخرج عليهن وعلى إحساسهن السلام ، وعلى عقولهن رحمة الله ؛

فلما سمع يوسف هذا الطلب من سيدته ، تمرمر في داخله ، وكرب وضاق ذرعاً ، وأوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات ، لا يمكنه تنفيذها أو من أعمال لا يروق له أن يراها ، أو من سفور . وإبداء زينة وتبرج جاهلي ، لا يمكنه أن يصبر على رؤيته ، بدون أن يتكدر ويتنغص ، وأخيراً لما سمع إلحاحها ، لم يجد بداً

من الامتثال لأمرها ، لأنه لم يكن وهو في بيت العزيز ذا جاه وشوكة ، بحيث يسوغ لنفسه عصيان سيدته ، والاستبداد عليها فيما تأمر ، ولذلك نراه نزل على إرادتها ، وترك دفاتره ومحابره وخرج من مكتبه على السيدات وهو خائر النفس ، وقلبه يخفق ، لما يتوقع من مغازلة له منهن ، ومداعبة تصدر عنهن ؟

برز لهن كبدر التمام ، ويا له من موقف غرام ، وموله وهيام ، موقف دهشة وحيرة وارتباك ، موقف ذهول ، وسكر عقول ، وغيبة عن الإحساس !!! لاسيما وانه لما رآى نفسه وسطهن ، اعترته حمرة الخجل ، وأسبل جفنيه حياء وعفة ، فزاد بذلك بهاء وجمالاً ، وأنف أن يتبع نظره اليهن ، فلم تزده الأنفة إلا حسناً وكمالا ورواء .

وأما السيدات فلما سمعن من امرأة العزيز كلمة اخرج عليهن ، أتلعن بأعناقهن ، وشخصن بأبصارهن ، ينتظرن طلوعه عليهن، التي كن سمعنها ، والتي كنّ خضن فيها ، وهن يتطاولن لرؤية محيا يوسف الباهر، ويستشرفن للقياه ، ويشتقن لمشاهدة طلعته ، فلما مثل بين أيديهن ، شرعن ينظرن اليه ، نظر المنجم إلى الكوكب ، الخافق في أفق السماء .

وأما زليخا فانما اختارت خروجه عليهن وهن على المتكأ ، لأن هذه الحال حالة صفاء وسرور ، فأرادت حضور فتاها الجميل ، لتكمل لهن اللذة بمشاهدته ، وبذلك تكون جمعت لهن بين تمتع البطن بالأكل من صنوف الطعام ، وتمتع العين والأذن بنظرهن لذلك الجمال الباهر ، وسماع كلامه الرخيم .

(فلما رأينه أكبرنه ...)

—١—

قالت الآنسة أسماء من كلكتا (١) :

انقلاب العواذل محبين

لما خرج يوسف عليهن (رأينه) كأنه آية الجمال المحكمة ، التي لا تقبل تبديلاً ولا تغييراً ، فظهرت على وجوههن الدهشة ، (رأينه) فرأين ما يبهر النظر ، ويستوقف البصر ، وقرأن في صحيفة محياه « سورة النور » (رأينه) فانفتحت له قلوبهن ، وفرحت به أفئدتهن ، واختلط فرحهن بأمارات البغتة ، وبهتن كأن على رؤوسهن الطير ، (رأينه) لأول مرة ، فأعقبت تلك النظرة ألف حسرة وحسرة ، وسرعان ما ذهلن وغبن عن أنفسهن ، (رأينه) فبهتن ودهشن ، ودخل عليهن رعب شديد ، ولم تبق جارحة من جوارحهن لم يتصورن فيها « صورة أبي مسلم » ولا تسل عن حالهن في تلك الجلسة الرهيبة ، من الاضطراب والذعر الحارّين (رأينه) ودرسن صحيفة وجهه ، وقرأن فيها آيات الصفاء القلبي ، رأين مالا عين منهن رأت ، وسمعن مالا أذن منهن سمعت ، وظهر لهن ما لم يخطر على قلوبهن يوم اعتراضهن على « زليخا » ، (رأينه) فرأين نزهة النفس ، وربيع القلب ، وعددن يومهن هذا « يوم عيد كبير » ، وودن لو أن هذا اليوم يكون « يشوع » ، يطول عن باقي الأيام بارتداد الشمس فيه بعد الغياب ، فلما رأينه (أكبرنه) — وأجللن جماله وأعظمن حسنه ، وكدن أن يقمن اليه ويجذبنه ، ولكنهن رأين في عينيه هيبة أوقفتهن عند حدهن ، فاكتفين بالكلام ، (أكبرنه) وصار موضوع

(١) كلكتا احدى مدن الهند .

إكبارهن وإجلالهن ، ومركز دائرة إطرائهن وتقريظهن ، وأحلّنه المحل الأعظم من نفوسهن وألسنتهن ، (أكبرنه) وغدون مسبوهات (ذاهبات العقول ، مشردات الأفكار ، مبلبلات النفوس ، وامتلأت به قواهن ومشاعرهن ، وصرن به صرعى الهيام ، ومشت الرعدة في أجسامهن ، مشي المدام في أدمغة أهل الغرام . (أكبرنه) ما أن رأينه ، فاذا هو في نواظرهن ، أكبر مما كان في خواطرهن ، أي أنهن وجدن مخبره ، أسنى جداً من خبره ، وأن « ليس الخبر كالعيان » . (أكبرنه) لأنهن رأين عليه نور « النبوة » وسيما « الرسالة » وشاهدن فيه مهابة ملكية ، وهي عدم الالتفات الى الطعام والنساء ، وعدم الاعتداد بكل ذلك ، فتعجبن من تلك الحالة ، فلا جرم إنهن أجللنه [1] .

وههنا تتمتان :

عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً

التتمة الأولى : — يظهر من قوله : « فلما رأينه أكبرنه » مع قولها : « هذا الذي لمتنني فيه » انهن لم تسبق لهن رؤيته ، رغماً عن انه كان مضى عليه في (قصر العزيز) نحو عشر سنين ، وان بيت العزيز كان في ذلك العصر كعبة الرائدات ، ومنتدى الصديقات النبيلات ، فلذلك نظن ان امرأة العزيز كانت تحرص على إخفاء يوسف ، وإبعاده عن هذا « الجنس اللطيف » غيرة منها عليه وأمثال ذلك كثير في التاريخ ...

احترام النسوة الأقصى ليوسف

التتمة الثانية — إن الذي صدر من هؤلاء النسوة حينما رأين يوسف هو

(١) الرازي .

مجموعة مركبة من ثلاثة أركان : ركن قلبي ، وهو اكبارهن له ؛ وركن عملي، وهو تقطيعهن أيديهن ، وركن لساني ، وهو قولهن : « حاش لله ، ما هذا بشراً ، إنْ هذا إلا ملك كريم » ؛ فقد ظهر احترامهن ليوسف في مظاهره الثلاث ، في الجنان والأركان واللسان ، على حد قول الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّبا

وهذا أقصى أنواع الاحترام ، هذا ما حضرني الآن فما قولكم فيه ؟

(مرحى وأحسنت)

(وقطعن أيديهن)

— ١ —

وقالت الآنسة وصفية الديرية :

جرح النسوة المدعوات أيديهن

بينما النسوة المدعوات يأكلن ، وقد مسكت كل واحدة منهن سكيناً في يدها اليمنى وأهوت بها لتقطع الطعام ، من لحم أو فاكهة ، وهو مُمْسَك بيدها اليسرى إذ دخل عليهن يوسف ، تلبية لأمر امرأة العزيز ، فلما رأينه تأثرن بجماله تأثراً زائداً ودهشن اندهاشاً عظيماً ، وذهلن به عن شعورهن ،وأصبحن كأن قوى الاحساس المتنوعة المتفرقة على أعضائهن ،قدتوحدت واجتمعت كلها وانحصرت في عيونهن، فلم يعد في أيديهن حس ولا إدراك ، أو كأن في اندهاشهن بجماله قوة التخدير الموضعي لأيديهن ، فبدلاً من أن يقطعن الطعام أو الفاكهة بالسكين قطعن أيديهن، بأن جرحنها وحززنها من حيث لا يشعرن بألم ، ولا يعلمن أنهن يصنعن شيئاً ، لفرط ما قد تولاهن من الدهشة والذهول ، حتى يكاد الناظر اليهن في تلك الساعة

يعتقد أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تنبعث فيها الحواس في سبيلها ، ولكنها لا تعود الى الدماغ بشيء مما تحس به ؛

أو يحتمل أن يكون المنى أنهن قارين ذلك ، كيف لا وقد ورد قوله تعالى: ﴿ وإذا طلقتم النساءَ فبَلَغْنَ أجلَهُنَّ ﴾ (٢ : ٢٣١) (ومثله في ٦٥ : ٢) ، أي إذا شارفنه ، كما يقال : بلغ البلد إذا شارفه وداناه ؛ ويقال : وصلت ولم يصل وإنما شارف (الكشاف) .

وأما امرأة العزيز فلم تندهش ولم تذهل لرؤيته معهن ولم تقطع يدها ، لأنها قد تعودت رؤيته من قبل ، وتكرر لقائه ، إذ أنها أول ما رأته كان ابن ١٧ سنة ، أي صغير السن ليس محلاً لمحبة الإناث إياه « فضلاً » عن أنه « فتاها » وعبدها ، وتحت يدها ، وان مشاهدته مبذولة لها في كل حين ، بخلاف النسوة فإنهن لم يكن قد تعودن رؤيته من قبل ، وانهن حينما رأينه لأول مرة كان بالغاً مبلغ الرجال ...

ويمكن أن نقول وجهاً آخر في تفسير ذلك ، وهو أن زليخا قدمت للنسوة مع الطعام « مُتْكَأً » الذي هو « الخمر » في لغة « كندة » على مافسره « المفضل » رحمه الله ، فلما أكلن وشربن وسكرن ، ضاعت عقولهن ، وضل إحساسهن ، فلم يعدن يميزن بين الطعام وبين أيديهن ، وعند مباغتتهن بخروج يوسف عليهن ، واندهالهن بجماله وقده سكرن سكر الهوى ، فاهوين بالسكين على أيديهن بدل الطعام فجرحنها وشطبنها ، ولما صحون من سكر الخمر وسكر الهوى ، أدركن حالهن ، فرأين الدم يسيل من أيديهن ، فجعلن يمسحنه بمناديلهن ، ثم أتي لهن بمناديل أخرى ، عصبن بها جروحهن وضمدنها .

ولنا ههنا بضع ملحوظات :

وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز

الملحوظة الأولى — كأني بامرأة العزيز وقد نظرت إلى هذا الحادث الأليم المدهش ، حادث تقطيع النسوة أيديهن ، ووقفت أمامه وقفة المتحير ، ولسان حالها يقول : « ما هذا الاتفاق الغريب ؟! إنني إنما أمرت بالسكاكين لهؤلاء السيدات لأجل أن يقطعن بها طعامهن الذي على المتّكأ (طبعاً) ، لا ليقطعن بها أيديهن ، ولكن حقاً ، إن لي من هذه الصدفة العجيبة حجة بينة على هؤلاء اللوامى ، بها يكون لي عندهن من العذر الواضح » .

هي افتكرت أن تدعوهن في قصرها ضيوفاً ، وقت غداء أو وقت عشاء ، ذريعة لجمعهن بيوسف ، ورؤيتهن جماله الفائق ، حتى يعذرنها في إغرامها به ، وسعيها في وصاله .

هذا كل ما أرادت ، وهذا جميع ماقصدت لا أقل ولا أكثر ، وقد حصلت على ما أرادت وقصدت ، ولكن ليس العجب حصولها على هذا الذي قصدت اليه، وسعت فيه ، فانه أمر عادي ، ليس فيه ما يقتضي العجب ، ولكن إنْ تعجب فعجبٌ كونه حصل شيء (عن عرض) هو فوق مرامها ، وهو تقطيعهن أيديهن، لشدة دهشتهن وذهولهن وغيبتهن عن إحساسهن ، حتى بذلك تسنى لها بكل سهولة الاحتجاج على تثريبهن عليها احتجاجاً صامتاً أخرس ، ولكنه أنطق من اللسان .

احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع

الملحوظة الثانية — من المحتمل أن التشديد في « قَطَّعْنَ » هو لكون الأيدي متعددة كما قالوه ، ويحتمل عندنا أن معنى التشديد ، هو أن كل واحدة

جرحت يدها جروحاً عدة في مواضع من يدها ، ويشير له ابن جرير بقوله : « حززن بالسكين في أيديهن حزاً حزاً » .

أمثلة للنسوة اللائي جرحن أيديهن في التاريخ

الملحوظة الثالثة – ليست حادثة تقطيع النسوة ايديهن بالحادثة الأولى في التاريخ ، بل هناك أمثالها كثير ومنها ، الحوادث التالية :

١ – دخلت « عَزّة » على « كُثيّر » وهو يبري سهاماً ، فجعل ينظر اليها ، ويبري ساعده ! فدنت منه ومسحت الدم بثوبها [١] .

٢ – روى ان « الحارث بن حِلّزة اليَشكُري » أنشد معلقته بين يدي « عمرو بن هند » الملك ، وهو متوكيء على قوسه ، وقد زعموا انه حين إنشادها ، اقتُطِم [٢] كفُّه من الغضب ، وهو لا يشعر .

وقال ابن السِيْد في « أدب الكاتب » : كان متوكئاً على عَنَزَةٍ [٣] ، فارتزت [٤] في جسده ، وهو لا يشعر .

٣ – كان بالكوفة شاب حسن الوجه ، نظرت اليه فتاة ، ذات جمال وعقل، فشغفت بحسنه ، ولم تأل جهداً في أن تحظى به ، وهو يأبى عليها ، ولم تجد لذلك سبيلاً ، فجعلت تبكي بكاء مراً ، وتحزن حزناً شديداً ، ولم تزل كذلك ، حتى مرضت ولم تلبث أن بليت ببلية في جسمها ، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرطالاً ، ولما كان قد عرف حديثها مع الفتى ، كان إذا أراد أن يقطع من لحمها ، يحدثها

---

(١) الدر المنثور .

(٢) قطع .

(٣) رمح صغير لاسنان له وفي أسفله زج أي حديدة .

(٤) انفرزت .

بحديث الفتى ، فما كانت تجد لقطع لحمها ألماً ، ولا كانت تتأوه ، فاذا سكت عن ذكره تأوهت ، ولم تزل كذلك حتى ماتت كمداً [١] .

٤ً — كان شاب يقال له « مسافر » يحب جارية من أهل مكة ، وكان غائباً بالحيرة ، فسأل عنها ، فقيل له : تزوجت ، فشهق ومات في مكانه [٢] .

فإذا كان خبر تزوجها أثر على جميع جسمه وروحه ، فأسلم روحه توّاً ، فهل من غير الممكن أن تؤثر رؤية يوسف فقدان الاحساس من أيدي هؤلاء السيدات اللاتي شغفن به ، وبوغتن برؤيته ؟ .. كلا ..

٥ً — حكي أن فتى علق بجارية من القيان ، فاشتراها بستة آلاف دينار ، فلما حصلت عنده وملكها ، قالت له : « أيها الفتى لماشتريتني ؟ وما في الأرض أبغض إليّ منك ، وإني أرى نظري اليك عقوبة ، فاسترد مالك ، فلا متعة لك بي ، مع بغضي إليك » ، ورآى منها بغضاً وإعراضاً شديدين ، فبذل لها كل ما يبذله الناس ، فما ازدادت إلا عتواً ، واعتزلت في بيت ، لا تأكل ولا تشرب ، وإنما كانت تبكي وتتضرع ، حتى ضعف صوتها ، وأحَسّ منها بالموت ، وكان كل يوم يجيء إليها ، ويبذل لها الرغائب ، ولا ينفع ذلك ، ولا تزداد إلا بغضاً له ، مكثت على ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ، ذهب إليها ، فرآى منها شيئاً من الاقبال ، فسألها عما تشتهيه ، فاشتهت عليه « حريرة » ، لحلف لا يعملها أحد سواه ، فأوقد النار ونصب القدر ، وبقي يمرس ما جعل فيها ، والنار تعمل وتتقد ، وقد أقبلت عليه تشكو

---

(١) مصارع العشاق ج٢ .
(٢) مصارع العشاق ج٨ .

ما مرّ بها من الآلام ، في هذه الأيام ، وبينما هو يمرس الحريرة بيده على النار ، إذا يده قد انسمطت [١] بالحريرة ، فصارت مشلولة [٢] وهو لا يدري ، ولا يشعر ، لولا أن دايته جاءت فرأت ذلك ، فأخبرته ، فأخرج يده ونظرها ، فإذا هي مشلولة [٣] .

٦ً — قال ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » : حدثتني امرأة أثق بها ، أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يجد كل واحد منها بصاحبه فضلاً وجداً ، قد اجتمعا في مكان على طرب ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرها جراً زائداً ، فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ، ظهر فيـــه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية ، لها قيمة ، فأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه .

حمل التقطيع على التحزيز والتشطيب

الملحوظة الرابعة — لقد حمل تقطيع الأيدى على تشطيبها وتجريحها وتحزيزها وهو أمر ظاهر ، وعليه درج ابن جرير وسواه من محققي علماء التفسير ، ومما مرّ بي في بعض كتب التاريخ أن « المبرد » دخل يوماً على « عبيد الله بن طاهر » ، وقد فصد ، فظن أن ذلك لعلة ، فدعا له بالشفاء ، فقال عبيد الله : « خفض عليك أبا العباس ، فليس ذلك لعلة ، وانظر ما تحت طرف البساط » ، فنظر ، فإذا رقعة فيها :

حلف الظريف بقطعه يــده إذ مس من يهواه بالألم

حتى إذا ضاق الفضاء بـــه جعـــل الفصاد تحلة القسم

فقال المبرد : « حسن أيها الأمير فما سببه ؟ » ، قال : مددت البارحة يدي إلى بعض الجواري بالضرب فأَلِمتْ لما نالها من الألم ، فحلفت بقطع يدي ، فاستفتيت اليوم

---

(١) ذهب شعرها من شدة الحرارة .

(٢) يابسة متكتعة .

(٣) مصارع العشاق ج ١٠٤ .

فأُفتيتُ بالفصد ، ففعلتُ ، قالوا : لأن الله تعالى قال : « قطعن أيديهن » مريداً التشطيب والتجزيز .

كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن مليك مصر

الملحوظة الخامسة — رب سائل يسأل ، لِمَ لمْ يظهر لتقطيع هذه الأيدي سيرة في البلاط ، بل طوي هـذا الحادث عن مليك مصر ، كأنه لم يحدث ، مع أنه عمل مهم ومغيظ ، ولماذا حصل هذا التكتم يا ترى ؟ — فنجيب أن المصريين القبط هم أصحاب البلاد ، وهم الوطنيون الأصليون ، فكانوا يكرهون هؤلاء العمالقة المستعمرين ، فلأجل كراهتهم لمليك مصر« الريان » المستولي على البلادبالقهر والغصب ، — كانوا يطوون أخبارهم وحوادثهم عنه ما أمكن ، ولا يريدون أن يوقفوه على أحوالهم الداخلية، لا سيما حادث كهذا يمس بشرف عزيز مصروامرأته وهؤلاء السيدات المدعوات ، وبالجملة يمس بشرف عموم القبط الوطنيين ، فلذلك طويت هذه الحادثة عنه كأن لم تكن ، بل طويت عن سمع التاريخ وبصره بالمرة، حتى أذن الله أن تقص علينا في كتابه الكريم .

جمال يوسف

الملحوظة السادسة — ذكر البغوي بسنده المتصل أن النبي ﷺ قال :«أعطي يوسف شطر الحسن » ، ويقال إنه ورث ذلك الجمال عن جدته « سارة » وكانت قد اعطيت سدس الحسن ، وقال محمد بن إسحاق : « ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن »[١] ، وقال عكرمة : « كان فضل يوسف على الناس في الحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » ،وروى أبو سعيدالخدري (ض) قال قال:رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » ، وورد في سفرالتكوين أنه قد« كان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر »(تك٣٩ :٦).

---

(١) خازن

وتحرير المقام أن يقال :

يوسف هو ابن يعقوب من زوجته راحيل، ويعقوب هو ابن اسحاق من زوجته رفقة ، واسحق هو ابن ابراهيم من زوجته ساراي ، فابراهيم كان جميلاً وكذا زوجته ساراي فقد جاء في سفر التكوين «أنها حسنة جداً» (تك ١٢: ١٤) فهذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما إسحق ، وهو تزوج برفقة التي جاء في سفر التكوين انها « كانت حسنة المنظر » (تك ٢٦ : ٧) ، وهذان الزوجان أيضاً ورثا الجمال لولدهما يعقوب ، وهو تزوج براحيل التي جاء في سفر التكوين أنها « كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر » (تك ٢٩ : ١٧) ثم هذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما يوسف ، الذي وردت في جماله النقول الكثيرة ، فهو ورث الجمال من أبيه يعقوب وأمه راحيل ، وأما يعقوب فكان ورث الجمال من أبيه إسحق وأمه رفقة ، وأما اسحق فكان ورث الجمال من أبيه إبراهيم وأمه ساراي ، فيصدق على يوسف أنه الجميل بن الجميل بن الجميل بن الجميل ، من زوجات أربعة جميلات ، فلذلك وردت في حسنه الروايات المتعددة ، ونظمت في ذلك الأشعار ، وضربت الأمثال ، وهذا المقدار من حسن يوسف ، كاف لأن يدهش هؤلاء السيدات المصريات ، ويأخذ بأفئدتهن ، بل ويذهب بإحساسهن ، لا سيما وانهن ما خرجن عن كونهن من سلالة حام ، وغني عن البيان ان كل أفراد هذه السلالة الحامية سواء أكانوا رجالاً أم نساء ، هم (كما ذكر المؤرخون وعلماء الجغرافية) فطس الأنوف ، متجعدو الشعر ، طوال القفا ، ذوو رؤوس مفلطحة ، ووجنات بارزات العظام ، وأفواه واسعة كبيرة ، وشفاه غليظة ، وألوان سوداء ، لأنهم من « العرق الأسود » أحد عروق البشر الأربعة ، وأما يوسف فكان كغيره من العبرانيين من سلالة سام أي من « العرق الأبيض » الذي من مميزاته انه أبيض الجلد ناصعه ، دقيق الانف ، رقيق الشفة ، سبط الشعر ناعمه. فالقارىء الفهيم إذا لاحظ هذا وهذا ، ولاحظ ثالثاً ان النساء عموماً ، والأفريقيات منهن خصوصاً ، رقيقات الشعور ، شديدات الحس ، سريعات التأثر بالجمال والمحاسن ، — إذا استحضر ما ذكرنا كله سهل عليه اعتقاد ان هؤلاء النسوة المدنيات قد قطعن أيديهن .

هذا ما فتح به الوهّاب ، في هذا الخطاب ، وهو تعالى أعلم ، واتباع الحق أولى وأسلم .　(حسناً حسناً)

(وقلن حاش لله !)

— ١ —

قالت الآنسة ست إخوتها الكوفية (العراق) ـ

النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر

من المعلوم ان النسوة المدعوات كن في ذهول عميق ، أو في سكر متغلب على العقل ، ولكن لما أفقن من ذلك ، ونجون من غلابه ، ورجعن لأنفسهن شرعن يهتفن بجمال يوسف ، ويعجبن من محاسنه ، نعم ، كن سكتن سكتة استغراق في في محاسنه ، ثم رأين أن يتكلمن كلمة يخرجن بها من هذا الذهول والاستغراق ، فقلن « حاش لله » أي براءة لله ، وتنزيهاً لله ، — أصله حرف جر وضع موضع التنزيه والبراءة ، فهو مفعول مطلق ، كقولك : « سقياً لك » والمعنى تنزيه الله تعالى — أن يكون هذا الشاب من العالم الأرضي ، بل هو من العالم السماوي ، وكلمة « حاش » يختص استعمالها بالله تعالى ، فلا تقل : « حاش لك ، بل حاشاك ، وحاشى لك » والمقصود من كلمة « حاش لله » تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً ، فهذه الكلمة من قبل الكلمات التي استعملت في غير معناها ، ومنه قول النبي ﷺ في أبي بكر (ض) : «والله يغفر له » ، وقوله (ﷺ) في عتبة بن أسيد: «ويل أمه» ، وقوله ﷺ لأم سلمة «تربت يداك» ، وقولهم «لا أملك» ، وقول الكتاب : ﴿أرأيتك هذا؟﴾ (١٧:٦٢) وقوله: ﴿أرأيتَ الذي يُكـذِبُ بالدينِ﴾ (١٠٧:١) ونحو ذلك.

والغريب ان كلمة « حاش لله » لم ترد في القرآن المجيد إلا في هذه السورة ، ثم

لم تحك هذه الكلمة في هذه السورة إلا عن فم هؤلاء النسوة المصريات ، في مقام تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً مرة ، وفي تنزيهه عن السوء مرة أخرى (آ : ٥١) .

(ما هذا بشراً)

وقالت الآنسة زبيدة الغزية .

المغالاة طبيعة في المرأة

جعل النسوة يتأملن في وجه يوسف ، ويتفرسن في ملامحه ، تارة يستغرقن في النظر لوجهه ، وطوراً يُطرقن متأملات، يبحثن في ذاكرتهن : هل سبق انهن رأين إنساناً يشبهه في الحسن ؟ .. أجهدن فكرتهن في تذكر أهل المحاسن والجمال ، فلم يهتدين على أحد يشبهه ، أو يقاربه في صباحته وملاحته ، فعند ذلك قررن انه ليس من عالم البشر ، بل هو من عالم أرقى جمالاً ، وأعلى بهاء ، وأسمى نوراً ، نعم إن الصورة وإن تكن صورة إنسان أرضي ، لكن النفس التي يحملها بين جنبيه ، هي نفس مَلك سماوي .

هنّ كنّ ظنن َقبل أن يرينه أنه جميل الصورة فقط ، حسب العادة المألوفة، أي انه ليس فيه إلا جمال الجسم ، وقسامة الوجه ، ونحو ذلك .

أما الآن ، وقد رأينه ، وتأملن وتفرسن فيه ، وعلمن ما عنده من طهر وزاهة وجمال نفس ، ونورانية روح — فقد عرفن شيئاً كنّ يجهلنه من قبل ، فقد امتزج في نظرهن جمال صورته بجمال نفسه ، فاستحالتا الى صورة واحدة ، هي يوسف ! حتى انه لو نزلت به كارثة ، من كوارث الدهر أفقدته جمال صورته ، لبقي معشوقاً للقلوب ، تتشربه النفوس ، وتهفو له الأحلام،

بما فيه من الجمال النفساني ، الذي هو أعلى قيمة جداً من الجمال الجثماني ، فكيف وقد اجتمع فيه الجمالان ، فاذا هو نور على نور .

إن هؤلاء النسوة ، ولا ريب ، كن يعتقدن أنه بشر ، ولكن المغالاة طبيعة نسائية ، قال « غونكور » : « أظهر أخلاق المرأة حب المغالاة في كل شيء »لاسيما إذا لاحظنا أن أفكارهن هذه شعرية بحتة .

عجبت لهؤلاء النسوة ، لا يشغلهن شأن عن شأن ، ولا يمشين على طريقة من قال : « حال الجريض دون القريض » ، فهن مع ما أصابهن من الجراح تراهن يتلاهين بتقريظ يوسف ، وإطراء ما له من جمال وجلال ، وطبع النساء معاداة الصمت في حالي الحزن والفرح ، ومحبة الكلام ، وهن بين الحسرة والغبطة .

(إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب البنجابية :

النسوة اللائمات ينقلبن الى متغزلات مادحات

عجيب وايم الله ذلك الذي أحدثه هذا الاتفاق الغريب الأطوار !! فالنساء اللاتي كن لائمات أصبحن متغزلات مادحات عاشقات ، ووقعن في شرك الحب كما وقع غيرهن ، وصار لسان كل واحدة منهن ينشد :

وعذلتُ أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنـــبي أنني عيرتهم فلقيت منــــه ما لقوا

انهن نظرن شاباً في ريعان الشباب ، جميل الصورة ، له منظر جذاب يغري الرائين ويعجب الناظرين ،يدل على الجلال والعظمة ، فهتفن بهذه الجملة الامتداحية

وهي : « إن هذا إلا ملك كريم » بجمال ذاته وكمال نفسه ، وطهارة ضميره ، بحيث لم يبق فيه من صفات البشر إلا الاسم واللقب ، بأن نقول عنه : « يوسف فتى امرأة العزيز » ، فهو بشر ، بحسب ذلك اللفظ فقط ، وأما فيما عدا ذلك ، فهو من نوع سكان السموات ، المنشأين من النور .

ورغماً عما أصابنا من هذه الكارثة ، فإننا اليوم سعيدات ، برؤية هذا الفتى متلوجات الصدر ، بمشاهدة وجهه الصبيح، الله أكبر ! إنه لجميل ! وجميل جداً !. إنه زهرة سماوية ، ونفس ملكية . كلامهن هذا هو من قبيل الغزل بجمال يوسف، المبني على استحسانهن له ، واستكبارهن لظرفه، ومن قبيل المدح بالنزاهة والطهارة، والدليل على أن تشبيههن له «بالمَلَك» غزل ومدح ، استعملهن الشعراء قديماً وحديثاً ذلك التشبيه في مقام الغزل بمحاسن المحبوب ومدح كماله ، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تسطر .

نفين عنه البشرية ، لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له المَلَكية وبَتَتْنَ بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن ولا أكمل من المَلَك ، كما ركز فيها أن لا أقبح ولا أنقص من الشيطان .

فهذا بدء التغير الفكري الذي جدّ لهن ، وأعظم دليل على تغير فكرهن عن ذي قبل ، هو اندهاشهن وغيبوبتهن عن الحس ، حتى قطّعن أيديهن ، من حيث لا يشعرن، ولا يُحسِسن ، فهذا هو دليلنا على انهن اندهشن بجماله وجلاله .

ذاب فكرهن الأول الانتقادي فيما صرن إليه من هذا الفكر الجديد ،فانقلبن عما كن فيه ، فكنّ من قبيل من قيل فيهم : « يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً » ، أو « الحرام ما حرموه ، والحلال ما حلّ بأيديهم » وكأن « الشَغَف حباً » ،إنما يعد « ضلالاً مبيناً » لغيرهن ، وأما لهن فهو الهدى الساطع !!!...

كنّ سرقن لحمها وأكلنه ميتاً ، فقطعت أيديهن وهن في قيد الحياة ، مكرن بها قولاً ، فمكرت بهن فعلاً ، حكمن عليها بالضلال ، فضللن عن تقطيع طعامهن إلى تقطيع أيديهن ، دعون يوسف قبل أن يرينه « فتى امرأة » ، فلما رأينه دعونه « ملكاً كريماً » .

هذه الانقلابات والتطورات هي نتيجة من نتائج الاندهاش بالجمال ، فسبحان مقلب قلوب النسوة ، قبل قلوب الرجال ، وبهذا صِرْنَ من « مريدات » امرأة العزيز ، المحبذات لغرامها وحبها ، بعـــد ما كن سابقاً من اللوامى المنتقدات ، والعواذل المنكرات ، فانقلبت حالهن ،وتغيرفكرهن ، وشاطرنها في شغفها ،وهذا كل ما أرادت وسعت إليه .

كان جمال يوسف من أكبر المؤثرات على دقائق قلوبهن ، وكان كماله من أقوى السلطات النافذة لأفئدتهن ، فقلن ذلك القول مع اعتقادهن أنه بشر ، فهن يعبرن بذلك عن شعورهن ، وشدة سرورهن وإعجابهن بيوسف ، نظير قول القائل :

محمد بشر ما كان كالبشر بل كان ياقوتة والناس كالحجر

والنساء يحكمن بمقتضى الشعور والوجدان ، أكبر ممـــا يحكمن بمقتضى العقل والبرهان ، أو انهن قلن ذلك على الطريقة الشعرية ، أو على وجه المبالغة في الوصف وعلى كل ، فلعمري ما أبعدن المثَلَ ، ولا تجاوزن القياس ..

قال بعض الحكماء : « الملائكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والانسان يجمع صفات الملائكة وصفات البهائم ،فان غلبت روح الانسان وعقله على نفسه وهواه ، كان أفضل من الملائكة ، وإن غلبت نفسه وهواه على روحه وعقله ، كانت البهائم أفضل منه » .

لوم واعتراف ووعيد

آ (٣٢) ﴿ قالتْ : فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فيهِ ، ولَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نفسهِ فاسْتَعْصَمَ ،ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والثلاثون فقامت السيدة هدى اليانية وقالت :

رأت « امرأة العزيز » أن النسوة بما صدر منهن من فعل وقول قد قامت عليهن الحجة ، فعند ذلك (قالت) لهن بلسان الاحتجاج (فذلكن) الفتى الرائع في الجمال الفاتن في الحسن ، أو فذلكن العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم (لمتنني فيه) ولم تخطرن على بالكن قول بعض الحكماء : « لعل لها عذراً وأنت تلوم » و « ليس من العدل سرعة العذل » ، تعني انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به،ولذلك وبما صار لكن أحتج عليكن في انتقادكن علي ، ثم قالت بلسان الاعتراف : (و) السر عندكن اني (لقد راودته عن نفسه فاستعصم) — والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها،ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب ، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو الذين لا يفقهون — ثم قالت بلسان الايعاد والارهاب : (و) قسماً بأبيس وبتماسيح النيل (لئن لم يفعل ما آمره) به (ليسجنن) في المطبق (وليكوناً من الصاغرين) الأذلاء .

(قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه)

— ١ —

قامت الآنسة زينب العدنية وقالت :

لوم زليخا النسوة

بعد ما احتجت امرأة العزيز عليهن احتجاجاً صامتاً قالت لهن بلسان اللوم والعتاب : « ذلكن » الشاب الفتى الذي برؤيتكن لم تتبين لكن حقيقة معذرتي ـ هو « الذي لمتنني فيه » ، وهل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد رأيت ما حل بكنّ ، مما لم يكن في الحسبان ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد صرتن به مغرمات ، بعد ما كنتن فيه عواذل ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد جُنّ جنونكنّ في حبه ، فزدتنّ فيه عليّ أضعافاً مضاعفة ؟..

« ذلكن الذي لمتنني فيه » ، وماذا عساي أن أعمل ؟.. وأنا قد وُلدت «امرأة» ضعيفة الارادة ، ودبيت « امرأة » لطيفة الشعور ، وشببت « امرأة » رقيقة الاحساس ، ونشأت « امرأة » تتغلب عليها العواطف ، ثم الدم النسائي اللطيف جار في عروقي ، والميول النسائية المتقلبة سارية في كل جوارحي ، وهذا الفتى قطعة من الجمال ، خُلق من معمل اللطف والحسن ، خلق فتنة للعباد ، وهو عبدي وتحت يدي ، أفمن العجب بعد هذا كله أن أستسلم لجماله ، وأسلم له عقلي ؟!؟!..

« ذلكن » الفتى الأديب الذي أكبرُتنه وقطعتن بمجرد النظر اليه أيديكن ، هو « الذي لمتننى فيه » ، والآن مع اني من جهة آسفة جداً ، لما أصابكن من هذه النازلة ، لاسيما وأنتن في بيتي وضيافتي ، لكنني من الجهة الثانية أحمدالله ، إذ شعرتن بثقل الحب وشدة سلطانه ، وإني لأرجو أن كل ما صدر مني وسيصدر لا يقلل من قيمتي شيئاً

عند من رأت جمال الفتى ، وكانت ذات إنصاف ، فأنا لست من غير طينتكن ، بل أنا مثلكن من لحم ودم .

أنتن كنتن لمتنني فيه ، سامحكنّ الله ، فابحثن الآن في ذات أنفسكن ، هل ترينَ ضميركنّ يشهد ان حبي إياه عبث ، أوانه في غير محلّه ؟..

أنتن كنتن لمتنني فيه ، وأراكن هذه الساعة قد شغفتنّ به حباً ، فهل ألومكن أنا الآن فيه ؟ .. كلا .. لأن من جرب الحب لا يلوم فيه أحداً :

يالائمي في الحب ذق طعم الهوى فاذا عشقت فبعد ذلك عنف

فاذن نحن الآن قد تفاهمنا جميعاً ، فلا تمكرن بي ولا تنتقدنني .

ملحوظة — لقد تقدم انها كانت سمعت بلومهن لها ، وانتقادهن عليها ، فتنازعتها العوامل التي تتنازع عادة كل محب انصب عليه لوم اللائمين ، ونيل من شرفه وعرضه ، فتارة كان يدفعها « عامل الكبرياء والغطرسة » لرد لومهن بحمو وشدة ، زاعمة انه ليس من شأنهن البحث والسؤال عما في قصر العزيز ، وان كل تدخل من فريق ثالث في الشؤون التي بينها وبين عبدها تدخلٌ غير وديّ .

وحيناً يدفعها « عامل الذل » — ذل المحبين المغرمين — للاعتذار بهدوء وسكينة ، ومرة يدفعها « عامل الاعتدال » للجواب عما يخالج ضميرهن ، بما يكفل عزتها ويرفع بلطف لومهن ، كانت تتجاذبها هذه العوامل ، وتنتابها هذه الأفكار المختلفة ، ثم حسن في عينها أن تعمل عملاً أهم من هذه كلها ، وهو أن تبعث اليهن على سبيل الضيافة في قصرها ، حتى يرين يوسف ، فيشاطرنها في حبه ، ويقعن في الشرك الذي ارتطمت هي فيه ، او على الأقل يرين جماله فيعذرنها ، وبذلك تكون قدمت لهن معذرة محسوسة ، بارزة ، صامتة ، ذلك كل ما قصدته من الارسال اليهن ، وأما ما حصل في تلك الجلسة ، من تقطيع النسوة ايديهن ، واعترافها الصحيح أمامهن ، وتوعدها ليوسف إن لم يوآتها ، فلم يكن شيء من ذلك مقصوداً

لها ، ولم يخطر على بالها ان هؤلاء السيدات ، سيستغرقن في حبه ، ويندهشن بجماله ، لدرجة أن يغبن عن أنفسهن وإحساسهن ، فيقطعن ايديهن ، وأما هي فلما حصل منهن ، ولما قيل : « حبك الشيء يعمي ويصم » ، سوغت لنفسها أن تبوح لهن بكل صراحة انها (نعم) مشغوفة به حباً ، وانها كانت أرادته فأبى ، وانها حتى اليوم والى الغد باقية على هذا الحب ، وعلى هذا الشغف ، وعلى هذا الشيء الذي سمينه (ضلالاً) ، لا يهدأ لها بال ، ولا تروق لها معيشة ، الا بالحصول على غرضها ، أحبّ يوسف أم كره ، وبقين‌هن على لومهن ، أم أقلعن عنه .

هذا ما سمح به الوقت أن ألقيه على مسامعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(مرحى)

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

قالت السيدة لطيفة المراكشية

— ١ —

اعتراف زليخا للنسوة

لقد أرادت امرأة العزيز أن تبرهن للنسوة ثقتها بهن فقالت لهن : أريد أن أدلي اليكن بحديث خطير ، أرجو أن يكون سراً ، تحت طيّ الكتمان ، فأنتن لستن ممن يتاجر بالاسرار النسائية ، نعم سأعلمكن بجلية الواقع ، مما كان مني ومنه ، فأما ما كان مني ، فهو انني كنت سلمت أمري لعواطفي فراودته عن نفسه ، وأما ما كان منه ، فإنه سلم أمره لعقله لذا فقد استعصم ، متعللاً بأن سيدي « العزيز » أحسن مثواه ، مع ان إحسان سيدي العزيز لمثواه كان بواسطتي ومباشرتي ، ونحن

إنما أحسنا له وأكرمنا مثواه ، ليكون طوع إرادتنا ، فما تصورناه نحن (سبباً) ، تصوره هو (مانعاً) ! فيا للعجب من هذا العبد المتمرد !ولا بد ان أضحي كل افكاري وتدابيري وقواي في سبيل الوصول الى رغبتي منه .. الخ مالها من قول هراء كما سيأتي .

ولنا هنا ملحوظات أربع :

زيادة قحة زليخا

الملحوظة الاولى — جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسره لبعض خلصائه، ولكن مقتصراً على ما يجوز ذكره شرعاً ومروءة، امتثالاً لقول القائل :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق   واشرح هواك فكلنا عشاق

إنما هذه المرأة زادت في القحة ، فنفضت لهن جملة حالها ، فذكرت ماالأفضل عدم التصريح به ، إذ ينبغي لمن ابتلي بشيء من هذه المعاصي أن يستتر بستر الله ، كما ورد في الحديث الشريف .

عدم صبر النساء على حفظ الاسرار

الملحوظه الثانية — كانت سمعت أن النسوة المصريات وقفن على حادثتها ، ثم دعتهن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن ، وحكمهن على يوسف بأنه ليس من نوع البشر ، بل من نوع الملائكة ، فعلمت من هذا انهن صرن شريكات لها في حبه ، ولا بد أن يكنّ قد عذرنها في شغفها به. وأخيراً رأت أن تلك الجلسة السرية، انتقلت من جلسة ضيافية الى جلسة غرامية ، وهي قديماً تعرف ان المصدور يرتاح لبث شكواه لمن يخفف عنه لذا رأت أن سلسلة هذه الاشياء ، تصلح أن تشكل سبباً يسوغ « اعترافها » بالحب أمام هولاء النسوة ، فصارت عواطفها تتراوح بين « الاعتراف»

بما كان صدر منها ، وبين البقاء على التكتم ، وأخيراً فضلت أن تبوح لهن بما كان ، وقد اعترفت لهن بذلك،لأن النساء أقل صبراً على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال ، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه ، ويغلب أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة ، والانسان إذا أعجزه أمر . أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه به ، فامرأة العزيز لما أعياها أمر يوسف ، أرادت أن تكاشف به هؤلاء السيدات ، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لغرضها منه .

اعتراف فاسقة لفواسق

الملحوظة الثالثة — إن قولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) هو « اعتراف » منها بالخطيئة ، ولكنه ليس « اعترافا » أمام رجل دين مسلم ، توصلاً للتوبة عن يده إلى الله ، ولكي يخبر ذلك الرجلُ الديني المعترف بالكفارة التي تجب لهذه الخطيئة ، كما أنه ليس « اعترافاً » لرجل دين مسيحي ، توصلاً لمغفرته تلك الخطيئة ، وإنما هو « اعتراف » فاسقة لفواسق لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً .

الاعتراف السري

الملحوظة الرابعة — لا نشك في أن اعتراف زليخا للنسوة بمراودتها ليوسف وباستعصامه كان ضمن دائرة الأسرار ، وتحت طي الخفاء ، عن كل ما عدا هؤلاء النسوة المدعوات ، لأنه سيأتي اعترافها جهراً بهذه الحوادث في جلسة التحقيق ، على يد مندوب الملك ، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في الكلام على الآية (٥٢) .

(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين)

— ١ —

قالت الخاتون ماهتاب الشيرازية [١] :

انذار يوسف ووعيده

تعلمون أن امرأة العزيز كانت أولاً راودته ، فرأت منه كل الاباء والامتناع فتركته وتناست هذه الفكرة ، ولكن شهوة النفس وعواطف أمثال هذه المرأة ، وعزة المنصب وعبودية يوسف في بيتها — أمور دفعتها لتعليل نفسها بالأمل، وسهولة حصولها على رغبتها ، لا سيما إذا اسمعته إرعاداً وإبراقاً ، والحب يهون على صاحبه كل عسير ، حتى يريه القصور مبنية في الهواء ، فلذلك هي تقول الآن موجهة خطابها للنسوة ، وعلامات الاهتمام ظاهرة على وجهها يمازجها شيء قليل من الحياء : لئن لم يفعل ما آمره به ، ولم ينزل على حكمي وارادتي عاجلاً أو آجلاً ، ليكونن عرضة للجزاء الصارم بالاعتقال في (المطبق) والاهانة والذل، حتى ولو كان هذا الجزاء مخالفاً لقانون الجزاء المصري ،الذي هو بالعكس يعتقل ويهين من يفعل ذلك، فآخر الدواء الكي ، وإنني لقديرة أن أرغم هذا الفتى بالقوة ، وأصل إلى ما أريد منه بالقسر بدون احتياج إلى ترغيب وتشويق ، كما قال الشاعر :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً ، لم يغتنمه سوآلا

فكم مرمر معيشتي بعدم انصياعه لميولي ، فان هو بقي مصراً على إبائه ، ولم يختم رواية حبي له بما أريد ، فإني سأعامله بالمثل ، وأمرمر معيشته ، بسجنه وصغاره .

ثم قالت وصوتها يرتجف ، وجوارحها ترتمش ، أنا والله لست بمغلوبة لمن هو .

(١) نسبة الى شيراز احدى مدن ايران .

في يدي ، وتحت أمري ، وضمن قصري ، وقد اشتري بدراهمنا ، وغُذي بخيراتنا فهو أصغر من أن يثابر على مخالفتي ، وأنا أكبر من أكون مقهورة باستبداده .

وإني سوف لا أستصعب أمراً في سبيل الحصول على غرضي من هـذا الفتى العبراني ، فخلاصه من دخول الحبس ، وشموله بالصغار معقود بتنفيذ ما أريد منه وإلا عوقب بيد منبسطة ، ولسان منطلق .

هذا مرمى كلامها الروحي مع هؤلاء النسوة ، وهكذا قضين سحابة ذلك اليوم . وهن في أحوال متناقضة ، في أفراح وجراح ، في عتاب وتراض ، في اندهاش وانتعاش ، في إرعاد وإبراق ، ووعيد وتهديد ، في أمل ويأس ، ثم ختمت تلك الجلسة النسائية، فتحفزن للقيام ، وودعن امرأة العزيز ، وهن يحسسن بألم سهم الفراق . وقبل أن أنهي خطابي أذكر الدقيقتين التاليتين :

وعيد زليخا ليوسف دون وعده

الدقيقة الأولى — ترى أن زليخا أوعدت يوسف بشقاوة مستقبلة إن لم يخنع لأمرها ، بقولها : « وإن لم يفعل .. الخ .. » ، ولكنها لم تعده بسعادة مستقبلة ، إن أطاعها وطاعها ، لأنه من جهة حاصل في بيت « العزيز » على كل سعادة ، تليق بواحد مثله ، ومن جهة ثانية ، هي تعلم ترفعه عما عساه أن يصل اليه من السعادة على يدها ، فرأت انه لا يجدي معه وعدها ، بل وعيدها ، وانه لا تؤثر عليه بشائرها ، بل انذاراتها .

دلائل نفوذ زليخا وشموخها

الدقيقة الثانيه — كانت « امرأه العزيز » شديدة الذهـــاب بنفسها ، مُدِلّة بجاهها ونفوذها ، متشددة في أرائها وأفكارها ، متغلبة على سيدها ؛ ألا ترى الى

ضراعته لها بقوله : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ؟

ألا ترى إلى شدة وطأة انتقادها على سيدهابما ورد في سفر التكوين من قولها : « قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا » ؟ (تك ٣٩ : ١٤)

ألا ترى الى أنها لحقته لما هرب ولم تبال برؤية الجواري ونحوهن لها وافتضاح أمرها عندهن ؟

ألا ترى الى ثقل اقتراحها واستبدادها أمام سيدها ، إذ قالت له كحاكم مستبد : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ؟

ألا ترى الى سيدها ، حينما ثبت عليها « الجرم » لم يقاصها إلا بقوله : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ؟

ألا ترى الى قحتها إذ قالت بمسمع ومرآى من السيدات المصريات ، وربما كان واقفاً عندئذ بعض الجواري : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ؟

ألا ترى الى استهانتها بوصاة سيدها واستبدادها في الحكم إذ قالت : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكوناً من الصاغرين » ؟ تتوعده بما كانت هي حقيقة به ؟

وأخيراً ألا ترى الى صراحتها واعترافها أمام مأمور التحقيق ، المندوب من جانب الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه » ، ثم قالت : « وما أبريء نفسي » ؟

فبهذه المواضع التسعة تعلمنا ان هذه المرأة كانت شامخة مستبدة .

« مرحى »

المناجاة

آ (٣٣) ﴿ قالَ : رَبِّ ، السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي اليهِ ، وإِنْ لا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الجاهِلِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثلاثون فقامت الآنسة سليمة البعلبكية وقالت :

سمع يوسف كلام « امرأة العزيز » وتهديدها له ، فالتجأ إلى ربه ، و (قال) يا (رب) الذي إليه التجيء وبه اعتصم (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)أي أحب إلي من ركوب المعصية — لأنه وإن يكن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه فيه لذة عظيمة ، لكن تلك المشقة آثر عنده نظراً لحسن الصبر على احتمالها في وجه الله ، ونظر القبح معصية ،وعبر بكلمة « يدعونني » على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهن سكتن على كلام امرأة العزيز، والسكوت رضاً، بل كن بحالة من يدعو إلى الفحشاء ، ورب حال أفصح من مقال ،ومن استحسن عملاً قبيحاً فكأنما عمله — ثم قال يوسف أدعوك يامولاي أن تصرف عني كيدهن صرفاً متأصلاً دائمياً ، بحيث إذا قبر اليوم لا يبعث غداً ، (وإلاّ تصرف عني كيدهن) بألطافك الإلهية ، وعصمتك الربانية (أصبُ) أي أمِلْ (اليهن) — والصبوة الميل إلى الهوى — فإني لا أملك من القوة إلا معونتك (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا جدوى لعلمه ، فهو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء ، والحكيم لا يفعل القبيح .

(قال : رب ، السجن أحب الي مما يدعونني اليه)

— ١ —

قالت الآنسة جهينة الحمصية :

مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه

رأى يوسف تلك الحفلة النسائية الخطيرة ، وسمع فيها كلام « امرأة العزيز » وتهديدها وإنذارها الشديد ، وممالأة « النسوة » لها عليه بسكوتهن على ما قالته ، فعلم أنها تريد أن تبعث مسألة « المراودة » من قبرها ، رغماً عن نهي « العزيز » لها فرأى نفسه انه على شفا حفرة من التهمة ، وأنه ليس بينه وبين وقوع « الكيد » عليه ، من هؤلاء الكواعب إلا كلفتة الجيد ، فقال في نفسه : ليت شعري أُراجع مَنْ مِنْ أهل البلاط في شأنها ، واقتراحاتها الساقطة ؟.. فهل أراجع سيدهاعزيز مصر ، وأخبره بأنها لم تسمع صوت أمره لها ، ولم ترضخ لنصحه ؟.. أو يا ترى أراجع مليك مصر « الريان بن الوليد » ، وأحيطه علماً بسلسلة هذه الحوادث ،التي جرت وتجري في مملكته ، بغير علم له بها ؟.. ومَنْ لي بأن أقف ماثلاً بين يديه ، حتى أنفض له جميع ما في صدري ؟.. لا .. لا .. لا لزوم لمراجعة عزيز مصر ، ولا ملك مصر ، ولكني أراجع العزيز الحقيقي المطلق ، عزيز كل الأمصار ، وملك الملوك الحقيقي الأكبر ، ملك الأرض والسموات ، وهو « الله » سبحانه وتعالى ، فيارب ، يا الله ، إليك أتوجه بعرض حالي ، وإليك أضرع بمقالي ، يا رب ، أبعد عني هذه الفتنة العمياء ، وغير قلوب هؤلاء النسوة،ليرجعن إلى طاعتك ،ويشعرن بفظاعة الأمر ، الذي هنّ عازمات على ارتكابه .

يا رب ، أرشدني إلى سبيل أنجو به من هذه الأشراك، واحفظ عبدك يوسف

من دهائهن وختلهن ، تحنن يا رب على هذا المسكين الغريب ، هذا المسكين الذي ليس له ملجأ إلا ّك ، أنت ملجأ البائسين الضعفاء فاحفظني من كل سوء وتجربة ، وحقاً إني أفضل المعتقل المظلم على القصور المتلألئة بالأنوار ، فإن كان لا ندحة عن الإعتقال ، فلهو خير لي مما يرغبن إليّ فيه ، ولو قضيت فيه سحابة عمري ، ولا يهمني مفارقة القصر المنير ، إلى سجن مظلم،فقد عافت نفسي القصور ،ومايحف بها من أسباب الفتن والفجور .

هذا ما حُدِّثتُ به أيها السادة، ان هذه المعاني حاكت في صدر يوسف (ع) فجعل يناجي بها ربه سبحانه وتعالى .

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه)

— ٢ —

وقالت الآنسة خيرية الريحاوية [١] :

سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات

نتعلم من كتاب الله تعالى أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة ، كان ساكتاً ، لم يتبادل الحديث ، لا مع النسوة المدعوات ، ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة ، ونعلم أن ذاكم السكوت زاده رفعة في أعينهن ، وزاده هيبة في قلوبهن ، فالصمت يرفع منزلة صاحبه ، وكثرة اللفظ تقلل من مهابته ، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل ، فكيف والجليسات في تلك الحفلة اناث لا يليق بذي المروءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن ، ولكن يصمت عن محادثتهن، فلذلك وحيث ان العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة ، بقي يوسف ساكتاً ،

(١) نسبة الى اريحا من بلاد فلسطين .

حتى سمع إنذار « امرأة العزيز » إياه ، فأوجس منها خيفة ، وخشي أن تصيبه من ختلها دائرة ، لأنها تقول وتفعل ، وكابد في نفسه ألماً ممضاً ، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه ، غير عين واحدة ، وهي عين الله تعالى ، ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء ، وشخص لجهة العلو ، وقال وفي صوته غنة الضراعة ، والذل : يا رباه ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ...

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه)

— ٣ —

وقالت السيدة سعدى العكية (١) :

كيف كانت مشقة نزول السجن أحب الى يوسف مما يدعوه النسوة اليه

لي ههنا كلمة مختصرة في هذا الموضوع،يقول يوسف الصديق (م) : «السجن أحب إلي مما يدعونني اليه » وقد استشكلوه بأن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه النسوة إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة ؟ وأجابوا عنه بانه كانت المشقة أحب إليه وآثر عنده ، نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفي عاقبة كل واحدة منها ، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها .

وهو جواب حسن جداً ، ونحن نزيد على ذلك بأن هذا أسلوب عربي مألوف ومنه ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأنْ أَخِرَّ من السماء أحبُّ إلي من أنْ أقول عليه ما لم يقل » ، مع أن كلاً من الخرور من السماء والكذب على النبي ﷺ مبغوض للنفس . والشاعر العربي يقول :

(١) نسبة الى بلدة عكا من بلاد فلسطين .

لنقلُ الصخر من قلل الجبالِ أحب إليّ من مِنَن الرجالِ

على أن أصحاب النفوس الملكية العالية ، يرون ان الفاحشة مرة الطعم جداً ، وعليه فالمعنى : حامض السجن ، أخف عليّ من مرّ الفاحشة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، على أن أحد الحاضرين قد بين في خطابه ان في السجن فوائد جمة ، لا يستهان بها ، وقد سمعتموه آنفاً ، « وما بالعهد من قِدَم » .

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونه اليه)

— ٤ —

ثم قامت السيدة علية النجفية وقالت :

لماذا نسب يوسف الدعوة لجميع النسوة

نسمع يوسف يقول « يدعونني » بصيغة الجمع ، مع أننا نعلم أن التي دعته إنما هي واحدة ، وهي مولاته « زليخا » ، ونرى انه كثر في هـذه السورة كغيرها إطلاق الجمع على المفرد ، لعلة من العلل المناسبة لـكل موضع ، وفي بيان ذلك أربع احتمالات :

الاحتمال الأول : ان المراد من قوله تعالى « يدعونني » هو امرأة العزيز خاصة، لأنها هي التي دعته للفحشاء، كما حكاه القرآن الكريم عنها،ولم يحك ذلك عن غيرها من النسوة.وأما ما حكي من أنهن قلن ليوسف:«أطع مولاتك» أوأنهن طلبن منه كما طلبت، أو أن الطلب كان منها خاصة،وهن مالأنها على طلبها،فهو افتراء على هؤلاء النسوة،وهتك سترلهن،بما لم يثبت عنهن،وعندنا ان من نسب إليهن ذلك القول،قد أقولهنّ ما لم يقلن، ونسب إليهن مالا تجوز نسبته إلاّ بحجة وبينة وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعدِ مَا رَأَوا الآياتِ ﴾ (آ : ٣٥) وما رأوا سوى آية واحدة ، وهي القميص ، وقوله تعالى : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ (آ : ٤٤) وما هو إلا حلم واحد ، وقوله تعالى : ﴿ فأرسلون ﴾

(آ: ٤٥) خطاباً للملك الريان ، وقوله تعالى : ﴿ لعلي أرجع الى الناس ، لعلهم يعلمون ﴾ (آ: ٤٦) والمراد من الناس الملك الريان أيضاً وقوله تعالى : ﴿ إذْ راودتُنَّ يوسف عن نفسه ﴾ (آ:٥١) والتي راودته هي امرأة العزيز خاصة ، فهي التي راودته في بيتها : وهي قالت « أنا راودته عن نفسه » ، ولكن اتى هنا بصيغة الجمع ستراً عليها ، وقوله تعالى : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ (آ:٥٥) أي ناظر خزينة ، وهو وزير المالية ، وفي غير هذه السورة قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ الوارثونَ ﴾ (١٥ : ٥٣) وإنما هو إلـه واحد ، وقال تعالى : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٢٣ : ١٠٠) قال (في فقه اللغة) : « من سنن العرب الاتيان بالجمع مراداً به الواحد» ، كما قال تعالى شأنه: ﴿ ما كانَ للمُشْرِكينَ أنْ يَعْمُرُوا مساجِدَ اللهِ ﴾ (٩:١٨) ، وإنما أراد المسجد الحرام ، وقال عَزَّ سلطانه : ﴿ وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارَأْتم فيها ﴾ (٢:٧٢) ، وكان القاتل واحداً وهكذا قال في (العقد الفريد) ومثّل له بقوله جل جلاله: ﴿ نادَتْهُ الملائكةُ ، وهو قائمٌ يُصَلِّي في المحرابِ ﴾ (٣:٣٩) ، والمراد بالملائكة جبريل فقط وقوله سبحانه : ﴿ إنَّ الذينَ يُنادونَكَ مِنْ وَراءِ الحُجُراتِ أكثَرُهُم لا يَعْقِلونَ ﴾ (٤٩ : ٤) وإنما هو رجل واحد من بني تميم .

وفي القاموس إن « المدائن » هي مدينة كسرى قرب بغداد ، وسميت بذلك لكبرها . والخلاصة ان هؤلاء النسوة المرسل إليهن باسم الضيافة ، لم يطلبن من يوسف شيئاً ، مما يقال عنه « سوء وفحشاء » ، كما طلبت امرأة العزيز ، نعم إنهن يتلاقين معها في نقطة واحدة ، هي الابتهاج بحسن يوسف ، والاعجاب بجماله وجلاله ، وإنما قال : « يدعونني » بصيغة الجمع ، ستراً على سيدته زليخا ، فهو لم يرد أن يطعن سيدته في صدرها ، ولكنه لمس حاشيتها فقط ، وذلك لأنه لم يذكر شخصها في دعائه ، بل لفّها في مجموعة النساء وجنسهن ، والسامع أدرى بمراد المتكلم .

الأحتمال الثاني – وهو انه حينما قال : « يدعونني » ، لا يصف امرأة العزيز فقط ، ولا يحكي عنها فحسب ، ولا يتكلم عن شخصية هذه المرأة ، وطبيعتها الخاصة بها ، ولا ينعت واحدة مخصوصة ، لأن الأشخاص تفنى وتزول ، وإنما يصف « نوع الإناث » الذي يبقى ويدوم ، يصفه ان هذا شأنه . يصف الحياة النفسية لكل شابة ، ويحكي عن الحالة الغرامية لكل ذات هوى ، هو يتكلم عن النوع بأن شأنه ما ذكر ، وهو دعوتهن للشبان ، شنشنة أخذمية ، وعادة كالطبيعة الثانية ، فكل امرأة لا بد أن يملكها الهوى ، وتؤثر عليها عاطفة الغرام ، نقول « كل » ومرادنا الكل المجموعي لا الجميعي ، والا فيوجد في هذا النوع أفراد ، هن كملائكة الرحمة ، طهارة وقداسة ، وما من عام إلا وخُصّص ، فأرجو من السيدات عدم موآخذتي .

الاحتمال الثالث – وهو ان امرأة العزيز دعته بلفظها المسموع بالآذان ، وأما النسوة المصريات ، فدعونه بسكوتهن على طلبتها . نعم كنّ صامتات ، ولكن نفوسهن الصامتة ، كانت تنطق بلسان الحال ، لسان الموافقة ، فهو سَمِع نفوسهن الصامتة تتطلب سراً ، ما تطلبه زليخا جهراً ، ولكن حلّ السكوت محل الكلام ، « ولسان حالي بالشكاية أنطق » ، « ورب حال أفصح من مقال » . امرأة العزيز نطقت بدعوته صريحاً علناً بمرآى ومسمع من النسوة المصريات ، فلم يَثْرّبْنَها ، ولم يَلُمنها ، ولم يضللنها ، كما سبق انهن جرين على ذلك في غيبتها قبل دعوتهن عندها ، وقبلما يرين يوسف وجماله ، فسكوتهن على كلامها ، يعد موافقة لها ، فصار ذلك من قبيل الاجماع السكوتي ، فلهذا نسب يوسف الدعوة اليهن ، وعندي ان إنكار نسبة الدعوة للجميع ، مع سكوت النسوة على كلام زليخا ، لهو من قبيل الانكار للاجماع السكوتي ، وإلا فما الفرق ؟ امرأة العزيز تكلمت ورغبت وتوعدت ، والنسوة سمعن هذا المنكر وسكتن عليه وقررنه ، هن لم يؤيدن شرعة

العفاف ، ولم ينكرن الباطل ، فجُعِلن بسكوتهن وإقرارهن مشاركات لها في الدعوة للفحشاء ، وصارت هذه الدعوة مجمعاً عليها إجماعاً سكوتيــاً من هؤلاء النسوة ، جميعاً ، المتكلمة منهن والسامعات .

وعلى هذا المذهب قوله تعالى : ﴿إذ قالوا لَيوسُفُ وأخوهُ أحبُّ الى أبينا مِنّا ونحنُ عُصبة الخ﴾ وظاهر ان هذا القول لم يصدر من كل فرد من إخوته العشرة ، ولكنه صدر من البعض ، وأقره البعض الآخر ، فنسب لجميعهم ، وكذا نرى الله تعالى نقــل عنهم انهم قالوا : ﴿ اقتلوا يُوسفَ أو اطرحوهُ أرضاً ﴾، ولم يصدر هذا القول إلا من البعض ، قيل إن هذا البعض هو « شمعون » ، قاله وأقره آخرون من إخوته ، ولم يقله جميعهم ، إذ قال يهوذا : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب إن كنتم فاعلين » ، وسبق النقل عنهم انهم قالوا : « يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف »وانهم قالوا : « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق » وظاهر ان ذلك لم يصدر عن جميعهم ، وسبق ان « نسوة المدينة » لما رأين يوسف « قلن حاش لله ، ما هذا بشراً » وطبعاً لا بد أن يكون هذا القول إنمـا صدر من البعض ، لا من الـكل ، وهكذا يقال فيما سيأتي من قوله : « قالوا أضغاث احلام الخ .. » وقوله : « سنُراوِدُ عنه أباه ..الخ » وقوله : « قالوا يا أبانا مُنِعَ منّا الكيل ..» الى ما لا نهاية له في كلام الله تعالى من هذا القبيل ، فغنيٌ عن البيان ان هذه الأقوال عادة وعرفاً إنما تصدر من البعض ويقرها الباقون ، وبسبب هذا الاقرار ينسب القول للجميع ، لأن السكوت موافقة واعتراف ، فكيف وقد زاد هؤلاء النسوة على المشاركة السكوتية المشاركة الفعلية ، بالحب والغزل ، فلذلك اعتبر يوسف انهن دعونه جميعاً ، فقال « يدعونني » ذاكراً انهن دعونه ، ونسب اليهن كيدهن إياه ، لأنه يجب على من سمع أو راى منكراً أن ينكره وينهى عنه ، فاذا قصر في العظة والإنكار ، كان شريك الفاعل فيما هو بصدده .

الاحتمال الرابع — جرت العادة منذ القديم الى اليوم ان كل عمل وقع من فرد من أفراد «أمة» أن ينسب ذلك العمل للأمة، وكل فعل صدر من فرد من أفراد «نوع» مثلا أن ينسب ذلك الفعل لكل النوع، وهكذا، جرياً على قاعدة التضامن والتكافل، فما حصل من شخص من بلد نسب ذلك الحاصل لأهل تلك البلد، وما صدر من انسان من قبيلة، نسب ذلك الصادر لتلك القبيلة، وهلم جرا، وعليه تتخرج آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، وذلك: كقوله تعالى: ﴿ وإذْ قَتَلتُم نَفْساً فادّارأتُم فيها ﴾ (٢ : ٧٢) وقوله تعالى. «وَظَلَّلْنا عليكُمُ الغَمامَ، وأنزلنا عليكُمُ المَنَّ والسَّلوَى ﴾(٢ : ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿وإذْ قلتم يا موسى لَنْ نَصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ : ٦١). وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بعدِهِ وأنتم ظالمونَ ﴾ (٢ : ٥١)، وقوله تعالى: ﴿ وإذْ قلتم يا موسى، لَنْ نُؤْمن لَكَ حتى نرى الله جَهْرَةً فأخَذَتْكُمُ الصاعقةُ وأنتم تنظُرونَ، ثم بَعَثْناكُم مِنْ بَعدِ موتِكُم، لعلكم تَشْكُرونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦)، الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، مما نسبه ليهود المدينة المنورة، المعاصرين لحضرة صاحب الرسالة (ﷺ)، مع ان هؤلاء اليهود اليثربيين المعاصرين للنبي (ﷺ) المخاطبين بهذه الخطابات لم يفعلوا شيئاً من ذلك، وانما الذين فعلوه آباؤهم ونسبة للذرية لأنهم «امة» متكافلة متضامنة، مرتبط بعضهم ببعض بما لهاوما عليها فهؤلاء اليهود في المدينة لما كانوا عرباً أو متعربين، وكانوا يفهمون الأساليب العربية التي نزل بها القرآن الكريم لم ينكروا على النبي(ﷺ) شيئاً مما سمعوه، فههنا لما دعت زليخا يوسف، نسب الدعاء لعموم هؤلاء النسوة، اللاتي كن حاضرات إذ ذاك، والله تعالى أعلم.

ولم تكد السيدة علية النجفية تنتهي من مقالها حتى قامت السيدة لمياء الدمشقية وقالت:

إنني لا أنتقد الاحتمالات الأربع التي جادت بها اختي المحترمة السيدة علية، بل

أسلم بها تسليماً ، ولكن عندي احتمال خامس ، جرى عليه المفسرون قبلنا ، وذلك انه يظهر من قوله : « رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ، وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن » ، ومن قوله : « فصرف عنه كيدهن » ، وقوله : « فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » — يظهر من هذه الأقوال الثلاثة ، ان النسوة المصريات كنّ دعونه لإطاعة مولاته زليخا ، والنزول على إرادتها ، على ما قاله علماء التفسير ، والقرينة على ذلك هذه النسبة في هذه المواضع الثلاثة . ومن المعروف ان المعنى يلتقط من مجموع الجمل ، المتساند بعضها لبعض ، أقول هذا ، راجية من اختي السيدة علية أن لا تؤاخذني ، والعلم مائدة مباركة ، تقتضي المشاركة ، وكلنا يصيب ويخطىء ، ويسرع ويبطىء .

(وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن ، واكن من الجاهلين)

— ١ —

وقالت الآنسة أميمة الحلبية :

استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة

يقول الصديق (م) : ها أنذا ، سادافع عن ديني وشرفي ومروءتي جهد طاقتي إلى آخر نسمة من حياتي ، ولكن واخيبة من اعتمد على قواه ، تاركاً مولاه ، فلذلك أسألك يارب أن تمدني بالتوفيق، وتصرف عني بألطافك مكر هؤلاء النسوة. نعم ، إنني لا أبالي بهن ، ولا بجمالهن وزينتهن ، ولا أحسب لهن حساباً ، ولا أقضي لواحدة منهن وطراً ، ولا أشعر بانعطاف نحوهن ، وميل اليهن ، ومع كل هذا ، فلست اعتمد في السلامة من فتنتهن على نفسي ، بل عليك يا رب أعتمد ، وبك أتحصن ، وإليك التجيء ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

فلا تتركني لنفسي فواقاً ، ولا لفتة جيد ، بل ولا طرفة عين ، وإنما ساعدني بألطافك الخفية ، وإلا فأنا في خطر من الوقوع في براثن هؤلاء الثعالب .

حل بيني وبين ختلهن ، وأزْوِعني كيدهن ،وإلاّ ذهبت عفتي أدراج الرياح، وقلت قيمتي التاريخية المعنوية ، كما كانت قلت قيمتي الذاتية ، حينما اشتريت في هذه الديار المصرية ..

أنا الآن أسخر من كل القلوب التي تميل مع الهوى ، وأضحك على كل فتى شاب ، يستسلم لفتاة شابة ، ولكني أخشى على قلبي ، إن لم يكن محفوفاً بالطافك الربانية ، وأتخوف على نفسي إن لم تكن محوطة بعصمتك الصمدانية ، وفي الحقيقة أنت عصمتي التي اعتصم بها ، وأنت حماي من غوائل الصبوة وشرورها .

يا رب ، إن لم تدركني بالعفة أتُقْ وأمِلْ نحوهن ، وأنعطف عليهن ، وإن لم تسعفني بحمايتك أفْنَ فيهن ، ويُجنّ جنوني بهن ، وإن لم تحفني بالعناية ، أقع في فخوخهن ، وأعلق بشباكهن، ويصرن عثرة في سبيل طهارتي ونزاهتي ،ويتسلطن على قلبي ، فإنهن الخطر العظيم ، الذي يحيط بالمرء من كل جانب ، فلا يعرف له سبيلاً إلى الخلاص منه إلا بمعونتك ، وهن المغناطيس الجذاب ، الذي يستهوي قلب الناظر إليهن ، وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، إلا إذا أدركته مساعدتك ، فاصرف عني خَتْلهن ، ، وردّه في نحورهن ، وإلا ... أمِل نحوهن ، وأكن من المأفونين ، الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن دائرة الشغف (بالجنس اللطيف) مرنة ، تسع كل من لم يلطف به ربه ، ولم يصرف عنه أسباب الهوى والغرام .

يا رب ، أنا انسان ، لا مَلَك ، حساس ، لا جامـــد ، في شرخ الشباب ، لا هرم ولا شيخ ، مركب من مادة وروح ، لا روحاني فحسب ، قابل للاقتران والتناسل ، لا خصيّ ولا عقيم ، والحاصل أنا بشر كسائر الناس ، وغاية الأمر أني

معصوم ، ولكن هذه العصمة ليست لي، ولكنها بك يا الله ، فاحفظها عليّ ،بلطفك الخفي ، فأنت الحفيظ اللطيف .

فهذا الالتجاء ، وهذه الضراعة ، هو كل ما أملك اليوم ، فاستجب لي يا رب ولا تردني خائباً ، فوالله لوددت أن أكون تراباً ، ولا أسمع من هذه المرأة ماسمعت من كلام الفحشاء والمنكر .

هذا مرمى دعاء يوسف واستغاثته بربه سبحانه وتعالى، دعاه مخلصاً له ،لاجئاً إليه ، بعد أن عمل بما أمر الله به عباده على قدر الطاقة ، وبعد ما استعمل مايصل اليه كسبه من الوسائل والذرائع ، التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة ، فهو في الحقيقة دعا ربه بلسان مقاله ولسان حاله معاً ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

الدعاء الى الله تضرعاً وخفية

تذييل أول ــ كأني بيوسف (ع) نطق بدعائه وهو يخفض صوته،احتراماً لمقام الربوبية ،وعملاً بالشرائع السماوية، كما قال تعالى: ﴿ أُدعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً ، إنَّه لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (٧ : ٥٤) في بعض وجوه التفسير أن المعتدي هو من يرفع صوته في الدعاء ، وقال ﷺ : « أيها الناسُ أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهومعكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

الجاهلون هم الفاعلون فعل الجهالة

تذييل ثان ــ « الجاهلين » هنا الفاعلين فعل الجهالة ، لأن من عمل مايؤدي

إلى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لا من أهل الحكمة والعلم ، ومنه قول الشاعر :

على أنهـا قالت عشية زرتها :		جهلتَ على عمد ولم تك جاهلا

وفي الحديث : « ابن آدم ، أطـع ربك تسمى عاقلا ، ولا تعصه ، فتسمى جاهلاً » .

استجابة الدعاء

آ (٣٤) ﴿ فاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ ،فَصَرَفَ عنهُ كَيْدَهُنَّ إنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثلاثون فقام الحاج أحمد اللاذقاني وقال :

(ف) لم يكن إلا بمقدار ما صعدت الدعوة إلى السماء كشرر النار ، وخرقت الحجب ، حتى (استجاب له ربه) ـــ وإنما عبر بالاستجابة التي تقتضي تقدم الدعاء عليها لأن قوله : وإن لا تصرف عني كيدهن .. الخ) فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ـ (فصرف عنه كيدهن ، وإنه) سبحانه(هو السميع)لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم .

وهنا أيها السادة أزمعنا على ترك الـكلام المتعلق بهؤلاء النسوة ، وسنأتي على تتمته عند قول يوسف « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة .. الخ » .

(فاستجاب له ربه .)

— ١ —

وقال المرزا حسين الأصفهاني[١]:

أشكال الدعاء

دعا يوسف مولاه ، باستكانة وضراعة ، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر ، تتطاير إلى الأجواء العليا ، حتى قرعت صفحة السماء ، فسمعت الملائكة رنينها ، وعرضتها على ربه (وهو أعلم بها) فاستجاب له ربه دعاءه .

والدعاء قد يكون صريحاً ، مثل « اصرف » و « لتصرف » ، وقد يكون بالثناء والمدح ، كما هنا ، لأن قوله : « وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن وأكن من الجاهلين » ثناء يتضمن الدعاء ، وعلى ذلك قول الفقهاء : « دعاء الثناء » ، وهو : « سبحانك اللهمّ وبحمدِكَ ، وتباركَ اسْمُكَ ، وتعالى جَدُّكَ ، ولا إله غَيرُكَ » و « دعاء الافتتاح » وهو : « وجَّهتُ وجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ ، حَنيفاً مسلِماً ، وما أنا من المشركين ، إنْ صلاتي ونُسكِي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِ العالمينَ ، لا شريكَ له ، وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا مِنَ المسلمين » ، ومنه حديث : « أفضلُ دعاءٍ قلتُـه أنا والنبيونَ مِنْ قبْلي ، لا إلهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، يُحيي ويُميتُ ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ » ، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء ان الثناء على الكريم يحمله على الاحسان ، كما قال الشاعر في عبد الله بن جَدعان :

---

(١) نسبة الى بلدة أصفهان من البلاد الايرانية .

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وقال تعالى حكاية عن يونس (ع) : « فنادَى في الظُّلُماتِ : أنْ لا إلهَ إلاَّ أنتَ ، سُبحانَكَ إني كنتُ مِنَ الظالمينَ ، فاستَجبنا له ، ونَجّيناهُ مِنَ الغَمّ وكذلكَ نُنْجي المؤمنينَ » (٢١: ٨٧و٨٨) وقد سماه النبي ﷺ دعاء ، حيث قال : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » ، وفي حديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ، وقال تعالى: ﴿ وأيوبَ إذْ نادَى رَبَّهُ : أَنّي مَسَّنِيَ الضُرُّ ، وأنتَ أرحَمُ الراحِمينَ ، فاستَجَبْنَا لَهُ ، فكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحمَةً مِنْ عِندِنا وَذِكْرَى للعَابِدِينَ ﴾ (٢١ : ٨٣و٨٤) .

(فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم)

— ١ —

وتابع المرزا حسين الأصفهاني قوله :

استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه

دعا يوسف ربه ، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة ، حتى استجاب له ربه فوراً ، وفي أسرع ما يكون ، بدون أدنى تأخير ، وسرعان ما يستجيب الله المخلصين من عباده !

فقال الله له : لبيك ، قريباً دعوت ، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب ، وحجز بينه وبين حبهنّ على ما رغب ، وأطفأ الله نارهن التي كن أوقدنها ، لاستمالة هذا

الصديق الكريم ، فأحس يوسف حيئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً ، ومن ذلك الحين صار يستهزىء بكل حيلهن ، ولقد قيل : « من يهرب من أمام الحب هو الظافر » .

دعا يوسف ربه ، فأحس بانبساط نفسه ، وارتياح ضميره ، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه ، (وقد ألقى اتكاله على الله) ، ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الايمان الوطيد ، فان أحدهم إذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى ، كما كان نبينا ﷺ إذا حز به أمر قام إلى الصلاة ، كما رواه البخاري في صحيحه .

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف ، وخروجه من تلك التجربة ، شريفاً طاهراً ناصع الجبين ، فاطمأن حينئذ وطاب نفساً ، وقال في نفسه : (أحمد الله على ما حفني بلطفه ، فإن ما تشرئب اليه نفوس الناس ، لا يساوي شيئاً في جانب روح الأبد وراحته) ، وأخذ بعد ذلك يخدم في البيت كجاري عادته ، لكن مع التحفظ التام من زليخا ؛

كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع انه سجن بعد ذلك

ورب سائل يسأل ويقول : كيف يمكن أن نذعن بأن الله تعالى صرف عنه كيدهن ، مع أنه سجن وصار من الصاغرين، كما سيأتي على الأثر ، تحقيقاً لإيعادها له بقولها : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » ؟ فالجواب عنه ان سجنه لم يكن نتيجة انه لم يفعل ما أرادت منه، إذ هي ليس لها دخل في سجنه، كما سيأتي توضيحه وتدليله ، وإنما كان سجنه برأي « العزيز » وآله ، ورأي آل « زليخا » بدون حضورها ولا أخذ رأيها في هذا الشأن ، لأن سجنه كان لأجل إبعاده عنها ، ولأجل إلصاق التهمة به عند الجمهور ، فهم عملوا هذا العمل لأمرين،

كمن رمى حجراً ، فصاد صيدين ، وهذا سيأتي بيانه بما لا مزيد عليه،وأماتوعدها له بأن يكون من الصاغرين ، فلم يقع ، لأن العبرة بالخواتيم ، وهو في الخاتمة كان من الكبراء المحترمين ، والأعزاء المعظمين ، ولا أدل على ذلك من كونه صار « عزيزاً لمصر » . بدلاً من فوطيفار ، ووزير ماليتها ، ووكيلاً عن مليكها .الأمر الذي به سقط « فوطيفار » ، فسقطت زوجه « زليخا » بسقوطه .

— مرحى —

الفصل الرابع

يوسف في السجن

آ (٣٥) ﴿ ثُمَّ بَدا لَهُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيات ، لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِين ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والثلاثون فقام العلامة الصفدي وقال :

(ثم) بعد حين من الزمن ، يظن أن مقداره نحو ثلاث سنين ، أعني لما صار عمر يوسف نحو ٢٨ سنة، تفكروا فيهذاالحادث المشؤوم الذي حدث فيالقصر، وخافوا سوء معرته ، وأن يفهم الجمهور أن المراودة كانت من طرف زليخا ، لا من جانب يوسف ، فأرادوا تغشية الأبصار ، وقلب الحقيقة ، و (بدا) أي ظهر (لهم) أي للعزيز وأهليه وأقارب امرأتــه وفي مقدمتهم ذلك

الشاهد الذي هو من أهلها ومع الأسف ان ذلك الذي بدا لهم كان(من بعدما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا رعاية لمصلحتهم ،وستراً لما حدث من زليخا ، وقلباً للحقيقة (ليسجننه حتى حين)أي سجناً موقتاً روعيت فيه مصلحتهم الشخصية ، بينما يسكت عن زليخا الحب والغرام ، أو لبينما تموت تلك السيرة السيئة ، أو حتى يثبت عند الناس ان الجاني هو يوسف لا غير ، وقد سجن كما أرادوا وأراد لهم ظلمهم واستبدادهم ، لأن السياسة ليس لهـــا قلب ، وليس فيها شيء من الانصاف .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ١ —

وقال الشيخ منصور السوداني :

لماذا سجن يوسف

لندع نساء مصر وقصتهن ، ونشرع في الافصاح عن الفكرة الجديدة التي طرأت « للعزيز » وذويه :

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر ، وتتطور تطوراً مدهشاً ، لأن « العزيز » قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وكان هو وقريب زوجته من أنصار هذا « الصديق » الكريم، فكان مقتضى ذلك أن لا تمس كرامته بشيء ،ولعمري إن هذا العمل الجديد من « العزيز » بعد أن اتضحت له الحقيقة لهو منكر جداً ، غير أنه افتكر ان المصلحة تقتضي سجن يوسف ، لكي يقول من سمع بالحادث ، أنه سجن لأن المراودة كانت منه ، ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التي وصل حبها له لدرجة قصوى ، وبهذا يستريح « فوطيفار » فلا تشتغل

أفكاره فيها وفيه ، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالحبل من طرفيه ، فأقدم على سجنه .

نعم أيها السادة لم يكد يوسف يتوسم الراحة ، ويحيي الأمل ، بالخلاص من المكاره ، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى بغت بادخاله في السجن ، وكان أمر الله مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه ،ثم خلص من فتنة النسوةالمصريات ودعا ربه أن يمنع عنه كيد النساء فلبي طلبه ، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قدذللت كل عقبة في سبيل راحته ، ولم يكن يخطر له على بال انه سيدعى يوماً إلى السجن بعد ما تبرأت ساحته ، ولكن الظلم ليس له حدود تعرف ، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها ، وما هو إلا أن تلقى تلك المفاجأة المستغربة التي تستفز النفوس بهدوء وسكينة شأن كل عاقل كريم ، أو شأن كل غريب ضعيف بين حكام ظلمة لا يراعون خالقاً ولا ضميراً .

★ ★ ★

سُجن يوسف سجناً إدارياً ، عداءً وزوراً،بحجة أنه الذي تقتضيه مصلحتهم وتستدعيه السياسة ، وكثيراً ما ساقت هذه الفكرة الادارية الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم بالاعتقال في « الجزر » تارة ، وتحت بطن الأرض أخرى ، كما قضت على يوسف اليوم ، فسجنوه ليبرءوا ساحتهم ،ويظهروا شرفهم ، على حسابه ، وعلى حساب ظلمه والاساءة اليه .

سجن يوسف حينما رآى « العزيز » نفسه كحجر بين مطرقتين ، فهو من جهة يريد أن يتستر ، ويخفي قباحة زوجته بحبسه يوسف ، ليقال انه هو المجرم دونها ، ومن جهة أخرى ، هو ما زال يعتقد في يوسف البراءة الكاملة ، كما يعتقد ذلك

فيه صهره الرجل الذي هو من « أهلها » ولكنه لم يعدم حلاً لهذا المشكل ،فرأى أن يسجن يوسف ، ولكن ليس في سجن العامة،بل في سجن الأمراءوالأشراف. وليس سجناً مؤبداً ، ولكن سجناً مؤقتاً إلى حين من الزمن ، ثم يعاد إلى القصر أو يفعل الله ما يشاء .

حالة يوسف عند دخوله السجن

كانت حالة يوسف عنددخولهالسجن ، مزيجاً من الحزنوالفرح ، فأما الحزن. فلكونه سجن ظلماً محضاً ، ولأنه سينجم عن سجنه سمعة سيئة ، عند من لم يكن. مطلعاً على الحقيقة ، وهم الجمهور من الناس . وأما فرحه ، فلخروجه من بيت « فوطيفار » بيت الفتنة والأتعاب ، إلى بيت العزلة والراحة ، قائلاً في نفسه : « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، فهو لذلك كان مسروراً (نوعاً). لا سيما وان سجنه كان على نوعٍ ما بسبب دعائه وطلبه إذ كان قال: « رب،السجن أحب إلي مما يدعونني اليه »(آ: ٣٣) دخل السجن وهوساكت صامت ، مع ان سجنه كان بدون إقامة دعوى ، ولا إثبات ريبة ما عليه ، ولكنه ماذا يصنع ، وخصمه حاكمه ؟!

★ ★ ★

قُضي الأمر وسُجن يوسف ! وصبر على هذه المصيبة التي نزلت بـه ظلماً وعدواناً ، صبر مترقباً من الله فرجاً قريباً ، وخلاصاً عاجلاً ، فلا بد من تغير الأحوال ، وان للدهر لدورة ، ولئن سكت الانسان ، فالدهر لا يسكت ، قال الشاعر :

كن حليماً إذا بليت بغيظ   وصبوراً إذا أتتك مصيبهْ
فالليالي من الزمان حبالى   كل يوم يلدن كل عجيبهْ

نتائج سجن يوسف

قُضي الأمر وسُجن يوسف ! ولقد كانوا ظالمين له بسجنه ، ولذلك وقعت عاقبة ظلمهم على رؤوسهم ، فأما « العزيز فوطيفار » فانه نُحّي عن منصبه ، بجلوس يوسف الصديق محله ، بدليل ما نقرؤه في هذه السورة الشريفة،من أخذ يوسف لقب « العزيز » بعد ما كان لقباً لفوطيفار ، حتى أنه بعد ما أعطي يوسف «وزارة المالية » بمصر ، لم يرد ذكر لفوطيفار البتة ، بل أميت اسمه تماماً ، وأما « امرأة العزيز زليخا » فانها اضطرت أخيراً للاعتراف صريحاً أمام « مندوب » التحقيق ، فأعلنت أنها هي التي راودته عن نفسه، فكان في ذلك انكشاف سرها ، وانتشاره لدى الجمهور .

* * *

قضي الأمر وسجن يوسف ! وكان سجنه هذا هو « الحلقة الأخيرة » من سلسلة ما انتابه من خطوب ، فمن فقد أم رؤوم ، إلى عيشة بين إخوة حسدة ،إلى إلقاء في غيابة جب ، إلى تشريد واسترقاق ، إلى بيع في سوق الرقيق ، إلى خدمة وعبودية ، إلى تلويث عرض بلا حق . إلى غياهب السجن .

ويمكن أن نعتبر أن سجن يوسف هذا هو « الحلقة الأولى » من سلسلة أسباب رقيه لوزارة المال بمصر ، وانه « النواة » التي أنبتت شجرة شهرته بالعلم ، ثم جاءت « بثمرة » رقيه العظيم .

* * *

قضي الأمر وسجن يوسف ، ولكن كان هذا الاعتقال بحسب النتيجةمفيداً له ، وذلك بسبب تعرفه في معتقله برئيس السقاة الذيأفاده الفائدة العظمى ،والذي كان خروجه من « مطبقه »بسببه ، كما كان بواسطته قد وقفمليك مصر «الريان».

على ترجمة حال يوسف وفضله ، وأنه سجن عدواناً وهذا بخلاف ما لو بقي يوسف في قصر العزيز « فوطيفار » منعماً مرفهاً « فان ذلك لا يفيـده شيئاً ، ولا بقي في القصر ضعف ما لبث في السجن ، واقد صدق من قال : « رب محنة ، ضمنها منحة » فعزيز مصر ، وإن يكن باقتصاره على قوله : « يوسف أعرض عن هـذا » بدون أن يبعده عن القصر لقصر آخر — يكون قد أساء ليوسف ، لأنه لم ينحه عن مواقف التعب . كما انه بالعكس بفكرة سجنه إياه يكون قد أحسن اليه ، بحسب العاقبة ، وعليه فهو ما أساء إلا حيث ظن الاحسان ، وما أحسن إلا حيث ظن الاساءة .

(ثم بدا لهم من بعدما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ٢ —

وقال السيد عبد الحسن الصيداوي :

لي ههنا ملاحظات تسع :

متى سجن يوسف

الملاحظة الأولى : التعبير بكلمة « ثم » يفيد أنه كان مضى زمن بعـد تلك الحادثة المشئومة ، وكان هذا الزمن ليس بالقصير ، أي بعد ما مضى ما شاء الله أن يمضي من زمن فيه شيء من الطول ، فبدت لهم فكرة الحبس .

مرادفات لفظة « بدا »

الملاحظة الثانية — من مرادفات « بدا » : عرض ، ظهر ، خطر ، لاح ، بان حدث ، عَنّ ، طرأ ؛ فمن التعبير « بثم » ومن هذه المفردات جميعها التي هي مرادفة

« لبدا » نعلم أن فكرة سجنه لم تكن حاصلة على أثر تلك الحوادث ، ولكن بعدما مضى ردح من الزمن ليس باليسير عرض لهم استحسان سجنه .

من هم الذين « بدا لهم » سجن يوسف وهل لامرأة العزيز دخل في ذلك

الملاحظة الثالثة — نتعلم من كلمة « لهم » ان الذين استحسنوا سجنه كانوا جماعة ولعلهم فوطيفار وذووه ، ونظن أن فوطيفار جمع ذوي قرابته وقرابة زوجته وذاكرهم في شأن يوسف وسجنه ، فرأوا جميعاً ان المصلحة تقضي ذلك .

ولسائل أن يسأل : هل لامرأة العزيز دخل في سجن يوسف وانها اشتركت معهم في المؤآمرة ؟ والجواب ان جمهور المفسرين أو جميعهم فهموا أن لها ضلعاً ورأيا في سجنه ، بل هي التي كانت مهيجة وحاملة عليه ، بقرينة قولها سابقاً : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » .

وأما نحن فيظهر لنا أن لا دخل ولا رأي لامرأة العزيز في سجن يوسف ، وأما توعدها إياه سابقاً بالحبس ، فانما هو من قبيل أقوال العشاق ، الذين هم كالشعراء يقولون ما لا يفعلون .

ولكن هذا الرأي حدث جديداً لنفس فوطيفار عزيز مصر ، ومن اليه من ذوي قرباه ، وذوي قربى زوجته ، ولنا على هذا عدة أدلة :

١ً — قوله تعالى « بدا » لأن فكرة سجنه إنما بدأت في ذهن فوطيفار وذويه دون امرأته ، وأما امرأته فان فكرة سجنه لم تكن بدأت جديداً في ذهنها ، بل هي بالنسبة اليها فكرة بعيدة العهد قديمة ، اختلجت في ذهنها مرة ، إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ، أو عذاب اليم » ، وثانية إذ قالت : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » فهذه كانت فكرة شخصية فردية ترددت في ذهن زليخا قبل الوقت الذي ظهر لهم فيه استحسان سجنه .

٢ً — إن الله تعالى قال : « فصرف عنه كيدهن » ، فحيث أنه أبعد عنه مكر الماكرات ، لاجرم ان امرأة العزيز لادخل لها في سجنه ، بل هي بهذا الصرف السماوي ، تحولت هي وغيرها من مفسدات على يوسف ، لمسعدات له ، ولذلك سيأتي أنهن لم يتكلمن في شأنه إلا بالجميل الطيب ، حيث قلن ، « حاش لله ، ماعلمنا عليه من سوء » وتقول امرأة العزيز ،« الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » .

٣ً — إن امرأة العزيز بظهور خيانتها سقطت من نفس العزيز ومن اليه ،فكيف فيما بعد يستأمنها ويشاركها في هذا كرة حبس يوسف،ولا سيما وأن سجنه كان لأغراض منها إبعاده عنها ؟ . .

فيظهر من هذه الأدلة أن ليس لامرأة العزيز ضلع في سجن يوسف ، خلافاً لما ذكره المفسرون .

هذا ، ومع كل ماذكر ، يحتمل أن يكون لزليخا دخل في سجن يوسف ، وأن صرف « كيدهن » عنه إنما هو من جهة ما يمس العرض لامطلقاً .

سجن يوسف كان بعد حادثة دعوة النسوة وخروجه عليهن

الملاحظة الرابعة — نرى أن العزيز وذويه لم « يبد » لهم أن يسجنوا يوسف بعد الحادثة الأولى التي جرت بين يوسف النزيه وزليخا الطموحة ، وذلك لأنها حصلت في دائرة السكون وتحت طيّ الخفاء تقريباً ، وقد « بدا » لهم سجنه في الحادثة الثانية بسبب ماوقع للنسوة ثم لتصميم زليخا بكل شدة على فكرة المراودة — تكراراً — مهما كلف الأمر إذ بعد المفاوضة ظهر لهم أن المصلحة العمياء والسياسة الخرقاء تقتضي سجن يوسف ، فسجنوه ، وعلى العدالة السلام ، و « إن من الحسن لشقوة » .

الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية في عهد مليكها الريان

الملاحظة الخامسة — يظهر من قرائن الأحوال ، ومن أمثال هذا المقال ، أن الأمراء ووكلاء الدولة في مصر ، في ذلك العهد ، كانوا امتمتعين بما يشبه « الاستقلال الإداري » ، فكان كل مأمور في الحكومة يحبس ويطلق ، حسبما تسول له نفسه ، ولذلك حبس يوسف بمجرد إرادة فوطيفار عزيز مصر ، فهو فاه بكلمة «ليسجن» فكان مسجوناً ، بدون علم مليك مصر الريان ، وبلا إقامة دعوى وثبوت جرم .

دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم

الملاحظة السادسة — نعلم أن دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم ، ونعلم أن المدعى عليه في هذا النوع ينقسم الى ثلاثة أقسام ، فان المتهم إما أن يكون « بَرّاً » ليس من أهل أمثال تلك التهمة ، أو « فاجراً » من أهلها ، أو «مجهول» الحال ، لا يعرف الوالي أو الحاكم حاله .

فان كان « بَرّاً » لم تجز عقوبته اتفاقاً ، ولكن بالعكس ان الذي يعاقب هو المُتَّهِم . فيعاقب صيانة لتسلط أهل الشر والعدوان ، على أعراض ذوي البراءة ، وإن كان المتهم معروفاً بالفجور . كالسرقة وقطع الطريق والقتل نحو ذلك ، حُبِسَ ، وكذلك اذا كان المتهم مجهول الحال ، لا يعرف ببر ولا فجور ، فانه يحبس حتى ينكشف حاله ، ويتبين للحاكم أمره [1]

وغني عن البيان أن المدعى عليه هنا وهو يوسف هو من القسم الأول ، أي أهل « البر » الذين لم يعرف لهم عدوان ، فقد مكث في بيت العزيز نحو العقد من

(١) ملخصاً من الطرق الحكيمة .

السنين لم يجترم فيها جريمة قط ، ولم يتهم بخيانة ، فيكون حبسهم اياه — على حسب هذه الشريعة — ظلماً محضاً ، وكان يجب اجراء العكس ، وهو حبس تلك المرأة التي اتهمته زوراً تأديباً لها ولأمثالها الشريرات أن يجسرن على أهل الفضل والدين، ولكن العزيز وما اليه اعتبروا يوسف من القسم الثالث وهو من كان « مجهول الحال » فسجنوه .

بعض الانبياء والصلحاء الذين سجنوا

الملاحظة السابعة — هذا السجن الذي صار على يوسف يذكرنا بسجن « يحيى الحصور » (ع) لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه الزنا ، وكذلك كان سجن « يحيى » بسبب اعتراضه على « هيرودس » لأنه لم يترك خطية الزنا مع « هيروديا » ، ويذكرنا بحبس « أبي حنيفة » أيام « المنصور » وحبس « الامام أحمد » أيام « المعتصم والواثق » وبحبس شيخنا « الشيخ عليش » وشيخنا « الشيخ حسن العدوي » في الحادثة العرابية .. و الخ والخ

تحسر يوسف وهو في السجن

الملاحظة الثامنة — كأني بيوسف للسجن أمسى يقول : أوهِ . أوهِ . أوهِ! اليوم يشاع عني مالا ينبغي ذكره ، ولا يليق بسمعتي ، فإنا لله ، كانت إخوتي تريد القضاء على « حياتي الجسمانية » والآن وقعت فيما ربما يقضي على « حياتي الأدبية والأخلاقية » ، فما من يوم يمضي الا والذي بعده شرّ منه ، سلمت من الرماد فوقعت في ذات الجمر ، فان موت الجسوم ، أهون جداً من موت الشرف .

أوهِ . أوهِ . أوهِ ؟ إخوتي في بُلَهْنِية وترف عند أبيهم ، وأنا أتنقل من جب ، لبلاد غريبة ، لسوق بيع الرقيق ، لبيت الخدمة والاستعباد ، وأخيراً لأعماق السجون !!! ...

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

مكان سجن يوسف

الملاحظة التاسعة — قيل كان سجنه في « بوصير » من أرض مصر ، وأعمال « الجيزة » في أول « الصعيد » من ناحية مصر[1] وأما العاصمة في ذلك العصر ، فهي « صوعن » ويقال لها « تانيس » وهي في بحرية مصر الحالية ، وكانت على فرع النيل الطائي ، والى شرقها البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » .

السجن في زمن النبي والصحابة

الملاحظة العاشرة — على ذكر « السجن » — والشيء بالشيء يذكر — نتذكر أنه لم يكن الحبس في زمن النبي ﷺ هو الحبس في مكان ضيق مجعول لذلك خصيصاً ، كما هو الحال اليوم ، وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء أكان في بيت أو مسجد ، أو كان بتوكل الخصم أو وكيله عليه وملازمته إياه ، ولهذا سماه النبي ﷺ « أسيراً » أو باقامة حافظ عليه ، وهو الذي يسمى « الترسيم » ، وهكذا كان الحال في زمن ابي بكر (رض) فلم يكن له محبس معد لحبس الخصوم ، ولكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب (رض) ابتاع بمكة داراً ، وجعلها سجناً يحبس فيها ، وهي دار صفوان بن أمية ، اشتراها عمر بأربعة آلاف درهم وجعلها حبساً[2] ، وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان السجن سنة (٥٠) هـ ، وأما سجن يوسف . فاسمه في العبرانية « السُّهَر » ومعنى هذه الكلمة برج مستدير كان يسجن فيه ، وكان جزءاً من « الشكنة » التي كان فيها

(١) معجم البلدان .
(٢) ابن القيم

« فوطيفار » بالنظر الى كونه « رئيس الشرط » ، هذا مافتح الله به على عبده الحقير ، وفوق كل ذي بصارة بصير .
مرحى

ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ، ليسجننه حتى حين

— ٣ —

قال العلامة البيروتي :

ما هي الآيات التي أدت الى سجن يوسف

رب سائل يسأل ماهي هذه الآيات التي رأوها ؟ وكيف رأوها ؟ فنقول انهم رأوا بعضها رأي العين وبعضها رأي الأذن وبعضها رأي العقل والتجربة ، فما رأوه رأي العين كون القميص قدّ من دبر ، ومما رأوه رأي الأذن اعترافها أمام النسوة يوم أن دعتهن بانها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، ومما رأوه ، رأي العقل والتجربة هو ماجربوه على يوسف من حسن السلوك وكرم الاخلاق والأمانة في العمل ، حينما كان في القصر وكيلاً عن العزيز في وارداته ، ومصروفاته، فهذه ثلاث آيات ، والآية الرابعة انها لم تدافع حين قال « الشاهد » : « وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » بان تقول مثلاً : « هذا لا يدل دلالة قطعية على كذبي وصدقه ، وعلى أني كنت تابعة له من ورائه ، لاحتمال أنه عثر في مقادم قميصه حين إسراعه فانقد » أو تقول : « إنه قصدني وطلبني فغضبت عليه ، فهرب ، فعدوت خلفه وجذبته لكي أضربه ضرباً موجعاً ، فتمزق قميصه من دبر ، فأنا البريئة وهو المجرم» ، فلما لم تقل ذلك ، تبين أنها هي الطالبة للفحشاء .

والآية الخامسة سكوتها حينما سمعت قول العزيز : « إنه من كيد كن ، إن كيدكن عظيم » وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ، فسكوتها

وعدم دفاعها عن نفسها حينما سمعت هذا القول هو آية باهرة على براءة يوسف كما قيل « السكوت إقرار » .

والآية السادسة هي ما كان يلوح على وجه امرأة العزيز نحو يوسف من الحب في بحر هذه المدة ، ثم ما كان يلوح على وجه يوسف نحوها من العفة ، قال «لاروشفوكو » : « ليس شيء يستر الحب حيث يكون ، ولا شيء يظهره حيث لا يكون » .

والآية السابعة :قوة شكيمتها بقولها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فقد قالوا : « إن للمبطل صولة وللكاذب دولة » وفي الحديث : من آيات المنافق : «وإذا خاصم فجر » . فهي صالت بهذا القول وفجرت، ولكن يوسف اقتصر على مجرد قوله : « هي راودتني عن نفسي » ،فتلك الاستطالة وتزويق الطعن مع هذه المدافعة البسيطة الموجزة لهي من الآيات التي تميز المحق من المبطل .

الآية الثامنة :شكل عيونها وهيئتها وقت التكلم ، على حدما قال عبد الله بن المعتز:

تفقّدْ مساقط لحظ المريب　　فان العيون وجوه القلوب
وطالعْ بوادره في الكلام　　فانك تجني ثمار الغُيوب

وقول مجنون ليلى :

وكيف يفوت هذا الناسَ شيء　　ومافي الناس تظهره العيون

وكثيراً ما كشفت العينان ماحاول صاحبها ستره من الأسرار النفسية ، والقضاة اليوم يستعينون بها على كشف الجرائم وقد قيل : « قلب الانسان في عينيه ، فما عليك إلا أن ترى وتقرأ » وقال بعض الحكماء ، « متى كلمتك المرأة ، فاسمع ماتقوله عيناها » .

حكي أنه تقدم للقاضي أياس بن معاوية أربع نسوة ، فقال أياس « أما إحداهن فحامل ، والأخرى مرضع ، والأخرى ثيب ، والأخرى بكر » فنظروا فوجدوا الأمر كما قال ، قالوا : كيف عرفت ؟ — قال : « أما الحامل فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها ، فعلمت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تضرب ثدييها ، فعلمت أنها مرضع ، وأما الثيب ، فكانت تكلمني وعينها في عيني ، فعلمت أنها ثيب وأما البكر ، فكانت تكلمني وعينها في الأرض ، فعلمت أنها بكر »(١) .

الآية التاسعة : اصفرار وجهها دون احمراره كما حكاه بعض المؤرخين ، ومعنى هذا أن المرأة اذا خافت اصفر وجهها ، وهذا يكون حينما تكون مقهورة ، وإذا لم يكن لها دخل فيما يستحي منه خجلت وهذا فيما اذا لم تكن مقهورة .

الآية العاشرة : حالتها النفسية ، ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا ، فما اللسان إلا الموضح والمفسر لما عساه أن يبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ، ولا يمكن أن تعبر عنه تمام التعبير ألفاظه ، والحاذق لا يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانته — على شيء غير مايتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه .

فجملة الآيات هذه ، على حسب مافهمناه واستخرجناه ، عشرة ، ولهذا أتى بصيغة الجمع فقال : « من بعد مارأوا الآيات » .

ذلك أن تقول إنها آية واحدة فقط ، هي آية القميص ، وإنما جمعها على طريقة

(١) الطرق الحكمية

العرب وسنتهم من الإتيان بالجمع مراداً به الواحد ، كما تقدم مبسوطاً ممثلاً موضحاً في خطاب أختنا السيدة علية النجفية حفظها الله،في خطابها على قوله تعالى «يدعونني اليه » فانظره إن شئت .

فالقوم من بعد ما رأوا تلك الآيات ، ومن بعد ما تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، واتضحت لهم براءة يوسف تماماً ، وارتاح ضميرهم من هذا القبيل — من بعد ذلك كله سجنوه ، ظلماً وعدواناً ،فصدق عليهم أنهم صرعوا البرهان بالسلطان ، وصادموا الحق بالقوة ، وقابلوا الآيات النيرات ، بالسجن في أعماق الظلمات ، كان هذا كله وهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون ، ولكن هل تظنهم بعد ذلك أصغوا لنداء ضميرهم؟.. كلا ..فانهم لو صغوا لما ثابروا على اعتقاله ساعة واحدة. على أنك لو سبرت غور قلوبهم لرأيتهم يناجون أنفسهم بشبهة أنهم عمدوا إلى ذلك، ليقال ان المراودة كانت منه لا منها ، ولإخماد ثورة الحب بالتفريق بين المحب والمحبوب يناجون أنفسهم بذلك ، ليدفعوا تبكيت ضمائرهم فهذا الاعتقال هو أشبه بما يسمونه اليوم « اعتقالاً إدارياً سياسياً » يرتكز على القوة ، لا على الحق .

وهم لم ينووا أن يسجن مؤبداً ، ولكن « حتى حين » أي الى زمان انقطاع القالة ، أو إلى أن تزول حرارة الحب ودواعيه ، أو إلى مدة يرون فيها رأيهم ، أو إلى مدة يفعل الله فيها ما يشاء ، وعلى كل فليس هذا من قبيل ما يسمونه اليوم « التوقيف المؤقت » الذي يكون عند ما يكون الحاكم مشغولاً عن تعجيل الفصل بين المتخاصمين ، أو يكون عنده حكومات سابقة ، فيسجن المتهم من حين يُطلب إلى أن يفصل بينه وبين خصمه ، ولكن هو كان للأسباب أو لبعض الأسباب التي قدمناها ، والله تعالى أعلم .

سجن الفتيين ورؤياهما

آ (٣٦) ﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيان ، قالَ أحَدُهُما : إنّي أَرَاني أعْصِرُ خَمْراً ، وقالَ الآخَرُ : إنّي أراني أحْمِلُ فوقَ رأسي خُبزاً تأكُلُ الطيرُ منهُ ، نَبِّئْنَا بتَأْوِيلِهِ ، إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثلاثون فقام السيد الطنطاوي [1] وقال :

لقد تقدم أنهم سجنوا يوسف (و) صادف أنه (دخل معه السجن فتيان) عبدان للملك الريان مستخدمان عنده ، وهما رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين « ملحب [2] » ترقى اليه أنهما يسمانه أو أنهما دخلا في الموآمرة على خلعه ، فحبسا ساعة حبس يوسف عليه السلام ، ثم بعد زمن رأى كل منهما رؤيا ، فأرادا أن يقصا ما رأيا على يوسف فـ (قال أحدهما) وهو (نبو) رئيس السقاة ، بلسان المستفهم المستفتي (إني أراني) في المنام (أعصر خمراً) أي عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول اليه — وقال الزجاج وابن الأنباري : « العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول اليه إذا وضح المعنى ولم يلتبس ، يقولون فلان يطبخ الآجر ويطبخ الدبس » وإنما يطبخ اللَّبِنَ والعصير ، وقال قوم إن بعض العرب يسمون العنب خمراً ، لقي بعضهم أعرابياً معه عنب ، فقال له : « ما معك ، قال خمر » ، وفي قراءة عبد الله :

(١) نسبة الى طنطا من البلاد المصرية .
(٢) وفي رواية يسمى « مجلث » .

« إني رأيتُني أعصر عنباً » — (وقال) الفتى (الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منـــه) ، فرجاءً ولطفاً (نبئنا بتأويله)، أي بعاقبة ما قصصناه عليك (إنا نراك من المحسنين)الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أي يجيدونهـــا ، كأنهما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له ، فقالا له ذلك ، أو رأياه من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم ، أو رأياه من المحسنين لأهل السجن ، فقالا له أحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأيناه إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا .

وقد قيل كان يوسف يُطرفهم في السجن بالحكايات النادرة المثال ، ويشنف آذانهم بالعظات ، وإن أصاب بعضهم انحراف صحي عالجـــه ، فكان عوناً لهم في السجن على المصائب ، ومجناً يدفعون به أحزانهم ، وبالجملة كان يحتفي بالمسجونين ، احتفاء يليق بهم ، ويخفف من وطأة سجنهم ، وشدة عنائهم .

إن وجوده في السجن وكدره من الحيف والظلم الذي وقع عليه ، لم يمنعه من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعه عن اغتنام جليل الشكر ، ولا حال بينه وبين استعمال الاحسان إلى أهل السجن ، لا سيما هذان الفتيان اللذان عهد إليه بهما .

وهاتان الرؤييان هما من قبيل الرؤى الصادقة المعتبرة التي لها تأويل ، لأن الرؤيا الصادقة المعتبرة لا تتوقف على دين، بل تقع لمن يكون وثنياً وجاحداً أوفاسقاً، ولذلك اعتبرها يوسف وأولها لهما .

(ودخل معه السجن فتيان)

— ١ —

قال الامام الدمشقي :

من هما الفتيان السجينان مع يوسف وما سبب سجنهما

كان « عزيز مصر » صمم على سجن يوسف ، ولكنه — مع ما في الحكومة من الاستبداد والفوضى — كان يتخوف من الملك « الريان » أن يسأله عن سبب سجنه إياه ، فاتفق أن الملك أصدر إرادته بسجن شخصين من مستخدميه أحدهما ساقيه وصاحب شرابه واسمه « نبو » ويقال له « رئيس السقاة » والآخر خبازه وصاحب طعامه واسمه « ملحب » ويقال له « رئيس الخبازين » ، فانتهز « العزيز » الفرصة ، وحبس يوسف معهما، وأقامه عندهما ليخدمهما،وليقوم بمصالحهما في السجن، فقام بما أسند اليه أحسن قيام ، وعمل كل ما نيط به على أتم الوجوه .

والسبب في سجن الفتيين ، الساقي والخباز ، هو أنه يظن أن زمن الملك « الريان » الذي هو من الهكسوس، كان زمن اضطراب وضعف في السلالة الخامسة عشرة ، ويظن أن « الملك الريان » كان هو الأخير أو قبل الأخير منها ، وأنه كان حصل تواطؤ بين بعض أشراف مصر الوطنيين ، وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من الغرباء إلى الوطنيين ، أو أن التواطؤ كان حصل بين السلالة السادسة عشرة من الهكسوس وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من فخذ إلى آخر ، أي من السلالة الخامسة عشرة إلى السلالة السادسة عشرة .

وقيل ان « نبو » رئيس السقاة ، اتهم بدس السم في شراب الملك ، وان « ملحب » رئيس الخبازين ، اتهم بدس السم في خبزه ، لذا أمر بسجنهما .

وههنا بدا لي الملحوظتان التاليتان في هذا الصدد :

غاية عزيز مصر من سجنه يوسف مع الفتيين

الملحوظة الأولى — كأني بعزيز مصر رمى حجراً فصاد طيرين ، قصد بسجن يوسف أن يظهر للناس انه سجنه تأديباً له ، لأن المراودة كانت من جانبه لا غير ، كما قصد أن يقوم في السجن بخدمة رئيس السقاة ورئيس الخبازين ،لأنهما وطنيان وعزيز مصر وطني أيضاً ، وهو إذا سئل من قبل الملك « الريان » عن ذلك لا يعدم جواباً مرضياً أن يقول له إنني أرسلته للسجن لأجل أن يكون عيناً على هذين الرجلين اللذين هما ضد الملك .

كما أنه أرسل سهماً فأصاب صيدين ، حينما أمر يوسف بخدمتهما في الحبس ،لأنه قصد إذلال يوسف ، وقصد إكرام الفتيين ،لأنهما مثله وطنيان ، ولما ذكر كله كان دخول يوسف في المعتقل في الساعة التي دخله فيها هذان الرئيسان ، من بطانة الملك وحاشيته .

« الفتى » « والرب » في اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الإسلامي

الملحوظة الثانية — نعلم من قوله : « ودخل معه السجن فتيان » ومما سيأتي من قوله : « أما أحدكما فيسقي ربه خمراً » ان اصطلاح المصريين الذي كان أيام يوسف ، وجرى هو عليه — هو انهم كانوا يطلقون كلمة « فتى » على المستخدم في الحكومة كما تطلق على « العبد » كأن المستخدم في نظر الملك عبد من عبيده ، وأنهم كانوا يطلقون كلمة « رب » على « الملك » كما تطلق على « المالك » ، كأن

الملك في نظر الرعية بمنزلة « الرب » أو هو الرب بمعنى المالك أو المربي لرعيته بنعمه وحدوده .

هذا هو عرف المصريين القدماء في عصر يوسف أما تسميتهم المستخدم في الحكومةأو تسميتهم العبد « فتى » فهو أدب حسن،أقره الشرع الاسلامي وحسنه، وأما تسميتهم الملك أو المالك « رباً » فنهى عنه الإسلام في آخر الأمر ، وأرشدنا أن نسمي الملك كالمالك « سيداً » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « لا يقولنّ أحدكم : عبدي ، فكلكم عبيد الله ، ولكن ليقل : فتاي ؛ ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي» وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة : « لا يقل أحدكم اسق ربك ، أطعم ربك ، وضىء ربك ، ولا يقل أحدكم ربي ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي ، أمتي ، وليقل : فتاي ، غلامي » .

(قال احدهما : إني أراني أعصر خمراً،وقال الآخر:إني أراني أحمل ...الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ السامراني (١) :

رؤيا الفتيين

بعد ما دخل يوسف السجن مع الفتيين ، لم يلبث الفتيان أن رأى كل منهما حلماً في ليلة واحدة ، فدخل يوسف اليهما في الصباح على جاري عادته ، لأنه كان يخدمهما بأمر سيده فوطيفار ، فاذا هما مغتمان ، فسألهما: ما بالهما ،ولماذا وجهاهما مكمدان ؟ — فقالا له : « حلمنا حلماً وليس من يعبره » ، قالا ذلك ، لأنه كان في

(١) نسبة الى سامراء من بلاد العراق .

ذلك العصر رجال ، يعلمون تفسير الأحلام ، ويتخذون ذلك عملاً خاصاً ،وكانوا يسمون سحرة وحكماء ، ولم يكن أحد منهم في السجن ، ليفسر لهماحلميهما ،ولكن يوسف نفى حصر القدرة على تفسير الأحلام في أشخاص مخصوصين ، وأثبت أن ذلك فضل الله يهبه لمن يشاء ، من أهل الذكاء وأصحاب القياس ، فقال لهما : أليست التعابير لله ؟ ، قصّا عليّ ما رأيتما — فقص رئيس السقاة « نبو » حلمه على يوسف وقال له : « بأبي أنت وأمي ، نمت الليلة ، فشعرت براحة وسرور، وهدوء في نومي ، ورأيت أمامي كرمة ، وفي الكرمة ثلاثة أغصان ، وهي مفرخة ، قد طلع زهرها ، وأنضجت عنا قيدها عنباً ، وكانت كأس الملك الريان في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس الملك ، وسلمته الكأس في يده ، فأفدني تأويله أمتع الله بك ،وخلاك ذم ».

ثم قص رئيس الخبازين « ملحب » حُلمه قائلاً : « نمت الليلة فشعرت بقلق واضطراب وتشتت فكر ، ولم أذق في ليلتي رقاداً هنيئاً ، وبينما كنت نائماً ، رأيتني أحمل على رأسي ثلاثة سلال مملوءة خبزاً حَوّاري ، وفي السل الأعلى أنواع من الخبز مما يصنع للملك الريان ، والطيور تأكله من السل عن رأسي » .

هذا منام الساقي والخباز وهذا كلامهما ، ثم قال أحدهما ليوسف«هذا مارأيناه قصصناه على سمعك،فما قولك؟فمن فضلك نبئنا تأويل مارأيناحتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، نرجوك أخبرنا بسريرته ، وعرفنا بما يصير اليه حُلمنا ، فقد غُمت علينا حاله ، واستغلق مآله ، أنر نفوسنا بتفسيره ، وأفتنا بعبارته ، هذا وقت الحاجة اليك ، وإنا نقرأ آية الاحسان على وجهك ، فانك لا تخذل من قصدك ، وتعلم ما لا يعلمه غيرك ، وتسخو بعلمك ولا تبخل به ، فأضف منتك هذه الى سائر مننك وصل نعمتك علينا بنظائرها من نِعَمك » .

وهنا أبحاث مهمة :

ملوك مصر الاقدمين والخمر

(١) يظهر ان ملوك مصر الأقدمين ؛ ما كانوا يشترون الخمر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات ، بل كانوا يتخذون خدماً أخصائيين لعملها خصيصاً لهم ، ويرى علماء الآثار في جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من العناقيد حبه ، ويجعلون العصير في دنان من فخار يضعونها في المخازن.

اقوال في الخمر ومضارها

(٢) قالوا : « الخمر كالمرابي ، تأخذ من العقل أكثر مما تعطي » ، ولما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه الى الاندلس ، أتوه بخمر ، فقال : « اني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه » ، وكان العباس بن علي المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول : « ها ، أما المال فتبلعين ، وأما المروءة فتخلعين ، واما الدين فتفسدين » ، وسقى قوم أعرابية مسكراً ، فقالت : « أيشرب نساؤكم مثل هذا ؟ » قالوا : « نعم » قالت : « فما يدري أحدكم من أبوه » ... وقيل لعدي ابن حاتم : « ألا تشرب الخمر ؟ » — فقال : « لا أشرب ما يشرب عقلي » ، وترك رجل النبيذ ، فقيل له : « لم تركته ، وهو رسول السرور الى القلب ! » ـ فقال: « ولكنه بئس الرسول ، يبعث الى الجوف ، فيذهب الى الرأس » ، وقيل للعباس ابن مرداس : « ألا تشرب الخمر ؟ » — فقال : « لا أرضى أن أصبح سيد القوم، وأمسي سفيهم » .

هذا قطرة من بحر ، ودرة من عقد نحر ، مما أثر في الخمر عن عقلاء العرب وغيرهم .

وأما الأطباء فقد اتفقوا على أن الخمر تضر بأجهزة الجسم المختلفة ، إذ تضعف

المعدة وتحدث فيها الالتهاب والتقرح والسرطان ، كما أنها تضر بالكبد فتحدث فيها ضخامة أو ضموراً وتلفاً وتوقفاً عن العمل ، وتضر بالرئتين فينجم منها السُلال ، وقد قالوا في ذلك : الغول [1] يؤدي الى فراش السل ، ، كما أنها تؤذي القلب وعروق الدم فتحدث فيها أمراضاً شتى تودي بصاحبها الى الهلاك البطيء أو السريع وتضر بالكلى وينشأ عنها أمراض مدنفة شتى ، وتؤذي الخصيين بحصول الضمور وقلة أو فقد الحيوينات المنوية في النطفة ، كما انها تحدث في الجلد حكاك وأكال ودمامل وبثور وغيرها من الامراض الجلدية ،وأخيراً تضر بالمخ والمخيخ والنخاع الشوكي والأعصاب ويتجلى ذلك بالصداع والأرق والرجفة في الرأس واليدين وركاكة اللسان والتلعثم وفقد الذاكرة ونقص الحاكمة والتمييز ، ثم يصبح الشخص مستعداً للاصابة بداء الصرع والهزيان والعته الباكر وتتغير طباعه فيغدو أنانياً ، مهملاً لواجباته ميالاً لمعاشرة الأدنياء والسفهاء ، قليل التحسس بصفات الشرف والمروءة .

الخمر عند الامم الغربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث

(٣) وأما عند الأمم الغربية ، فقد انشئت في أنحاء العالم المتمدين جميات متعددة ، لتحريم الشراب ، وأخذ الشاربين بالعقوبة ، تفادياً من المضار التي تنجم عن الغول ، وما يجلبه قانون الوراثة ، من خروج نسل ضعيف ، والجنون والسل الرئوي وزيادة معدل الجرائم ،

حقاً إن من آيات العبرة ، ومن الرجوع الى دين الاسلام أن الأفرنج الذين يستبيحون شرب الخمر ديناً ، ويستحسنونه أدباً ومدنية ، ويصنعون منه أنواعاً

---

(١) ويسميه البعض بالكحول وهو الشراب المسكر .

كثيرة ، يربحون منها ألوف الألوف من الدنانير في كل عام — قد ألفوا جمعيات للنهي عن الخمور ، والسعي لابطالها .

ومن آيات العبرة فيها ان العرب كانوا في الجاهلية يعدون من منافع الخمر الحماسة في الحرب ، وقوة الاقدام فيها ، ولكن ثبت عن الطب أن السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء الحرب ، واحتمال أثقالها ، فقررت بعض الدول إبطال الخمور الوطنية ، الشديدة الرواج في بلادها ، مدة الحرب ، مع ان أكثر انتفاعها المالى منها ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (٤١ : ٥٣) ومع هـذا كله لا يزال بعض المسلمين (جغرافياً) يتململون من تحريم الاسلام للخمر !!!

ومن إحدى العجائب أن كتب المسيحيين الدينية تقول : إن أول معجزة جرت على يد المسيح (ع) حدثت في قرية « قانا الجليل » ، وهي تحويله الماء خمراً ، وذلك ان المسيح (ع) دُعِيَ هو ووالدته وإخوته وتلاميذه لعرس في «قانا الجليل» وهي قرية على بعد نحو ساعتين على الماشي من بلدة « الناصرة » ، لجهة الشمال الشرقي عنها ، فذهب وجلس مع الناس ، وصار أهـل العرس يصبون للمدعوين خمراً ، وكان ان الخمر التي عندهم فرغت ، قبل أن يشرب كثير من المدعوين ، فوقع أهل العرس في حيرة وخجالة من الناس . فقالت له أمه : « ليس لهم خمر » ، وكان في دار أهـل العرس ستة أجران حجرية يسع كل منها نحو ثمان جرار ماء اعتيادية ، فأمر المسيح الخدام أن يملأوا هذه الاجران ماء ، فملأوها حسب أمره الى فوق ، ثم أمر أن يستقوا منهـا ويقدموا لرئيس المتكأ فامتثلوا ، ولما ذاقها الرئيس ، شهد للجودة الممتازة في هذه الخمرة المقدسة ، وأدّى شهادته جهاراً بعد أن نادى العريس وشكره ، لتقديمه خمراً أجود مما شربوا أولاً ؛

وقد نهى نبينا عنها ، إذ ورد عن عقبة بن الحارث انه قال : « جيء بالنعمان أو

ابن النعمان شارباً ، فأمر رسول الله (ﷺ) من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت انا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد » رواه البخاري ، وفيه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهومؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » ، وفيه : « كل مسكر حرام » ، وروى الحاكم من حديث ابن عباس : « اجتنبوا الخمر ، فانها مفتاح كل شر » .

وقد نهى القرآن عن الخمر ، لأن العرب كانوا في الجاهلية وصدر الاسلام يشربونها ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ، وأنتم سُكارىٰ حتى تَعْلَمُوا ما تقولونَ ﴾ (٤ : ٤٢) فحرمها بذلك في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، لأنه نهى عنه قرب الصلاة في حال السكر . فلم يبق للمصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء ، وكذا الصبوح من بعد صلاة الفجر ، لمن لا عمل له ، ولا يخشى أن يمتد سكره الى وقت الظهر ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عن الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ، ومنافعُ للناسِ ، وإثْمُهُما أكبرُ مِنْ نَفْعِهِما ﴾ (٢ : ٢١٩) ، فشربها قوم لقوله : ﴿ منافعُ للناسِ ﴾ ، وتركها آخرون لقوله : ﴿ إثمٌ كبيرٌ ﴾ ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، إنَّما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ ، فاجْتَنِبُوهُ لعلكم تُفْلِحونَ ، إنما يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبَغْضاءَ في الخمرِ والميسرِ ، ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ ، فهلْ أنتم مُنْتَهُونَ ؟ ، وأطيعُوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحْذَرُوا ، فإنْ تَوَلَّيْتُمْ فإنَّما على رسولِنا البلاغُ المُبِينُ ﴾ (٥ : ٩٣ — ٩٥) نزلت هذه الآيات ، فقال عمر (رض) : « أقرِنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً

لك وسُحقاً » ، فتركها الناس جميعاً ، وروي أن عمر لما سمع « فهل انتم منتهون » قال « انتهينا،انتهينا » .

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مفتونين بها ، حتى أنها لو حرمت في اول الاسلام ، لكان تحريمها صارفاً لكثير من المؤمنين لها عن الاسلام، بل عن النظر الصحيح المؤدي الى الاهتداء به ، لأنهم حينئذ ينظرون اليه بعين السخط ، فيرونه بغير صورته الجميلة ، فكان من لطف الله تعالى ، وبالغ حكمته أن ذكرها أولاً في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة وإباحتها فيما عدا ذلك ، ثم ثانياً ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها مطلقاً ، لكن دلالة ظنية ، فيها مجال للاجتهاد ، ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه ، ثم تركهم الله تعالى على هذه الحال زمناً قوي فيه الدين ، ورسخ اليقين ، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها ، فنزلت آية سورة المائدة بما يدل على تحريمها صريحاً في كل حين .

والخلاصة إن الله تعالى حرم الخمر تحريماً قطعياً في معظم الأوقات ، ثم حرمها تحريماً ظنياً في باقي الأوقات ، ثم تحريماً قطعياً مستغرقاً لكل زمن .

هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في زمن يوسف

(٤ ً) إن قال قائل : هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة ، حتى كان الملك يشربها علنـــاً بلا نكير ! قلنا إن الخمر محرمة بألسنة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، على جميع الشعوب والأمم ، فالمصريون والرعاةوغيرهم كانوا يشربونها في حال انها محرمة عليهم ، ويحتمل ان المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط ، وان ما دون القدر المسكر حلال ، وهو ظاهر كتب العهدين الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى ، فلما كان من حكمة الله تعالى سير أمور البشر كلها

على سنن الترقي التدريجي ، الذي من مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مماقبله ،أكمل الله دينه العام بإنزال القرآن الحاوي تحريم الخمر مطلقاً ، لما فيها من الضرر الذاتي .

الخمر عامة هو ما يعصر او ينبذ

(٥) قول رئيس السقاة : « إني أراني أعصر خمراً » لا يدل على أن الخمر هي مما يعصر فقط ، بل إنما يدل على أنهم كانوا يستعملون هـذا النوع ، فلا ينافي أن الخمر قد تكون مما ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً ،فاتخاذالمصريين الخمر من العصير، لا ينافي اتخاذها من غيره ، وليس في كلام رئيس السقاة ما يدل على الحصر ، دع ما يمكن ان يقال : « إن هذا القول محكيّ عن أعجمي في بيان ما رآه في نومـه ، مما هو معهود في بلاده ، فليس بحجة في لغة العرب ولا في صناعتهم وصناعة غيرهم للخمر ، وبالأولى لا يكون حجة في الشرع ، فالخمر لغة وشرعاً ، أعم مما يتخذ من العصير » .

الرؤى الصريحة

(٦) نعلم من صحيحي الشيخين وغيرهما من الأسفار الصحيحة أن النبي ﷺ كان في بدء الوحي ، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أي تجيء كما يراها صريحة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير ، قالوا : وهذا هو الغالب في رؤى أهل الخير والصلاح ، فلذلك ولما كان « رئيس السقاة » مسجوناً ظلماً ، وكان بريء الساحة مما اتهم به ، كانت رؤياه صريحة ، ليست من قبيل الاستعارات والتمثيل ، وهذا بخلاف رؤيا « رئيس الخبازين » التي هي من نوع المجاز والمثال ، لأن الظاهر من الحكم عليه بالموت ، أنه كان غير سليم الساحة ، وإنما قلنا إن رؤياه مجاز ، لأن الخبز الذي رآى أن الطير تأكله هو حياته ، لأن بالخبز حياة

الانسان ، وقوام الأجسام ، ولذلك ناسب تأويله بالرأس، الذي به حياة سائرالبدن لأنه العضو الرئيسي .

اطلاق ضمير المفرد على المثنى والجمع في لغة العرب

(٧ً) إنما قيل « بتأويله » ولم يقل بتأويلها ، لأن من سنن العرب ، أن تجمع بين شيئين اثنين ، ثم تذكر في الضمير أحدهما دون الآخر ، وتريد بالضمير كليهما معاً ، يقولون : « رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه » أي عليهما ،قال الله عز وجل: ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهبَ والفِضَّةَ ، ولا يُنفِقونها في سبيلِ الله ﴾(٩:٣٥) وتقدير الكلام ولا ينفقونها في سبيل الله ، وقال تعالى : ﴿ وإذا رَأوْا تِجارةً أولَهْواً انفَضوا اليها ﴾ (٦٢ : ١١) وتقديره انفضوا اليها ، وقال تعالى : ﴿ واللهُ ورسولُه أحَقُّ أنْ يُرضُوه ﴾ (٩ : ٦٣) والمراد أن يرضوهما [١] ومنه قوله تعالى فيما يأتي : ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان ﴾ (آ: ٤١) ، تقديره قضي الأمران اللذان فيهما تستفتيان ، وقوله : ﴿ أفتوني في رُؤْيايَ ﴾ (آ : ٤٣) أي في رؤيَيَّ ، ويوجد من مثل ذلكم في كلامهم الشيء الكثير .

احسان يوسف لاهل السجن

(٨ً) إنما قالا له : « إنّا نراكَ مِنَ المحسنينَ » لأنه كان إذا احتاج من أهل السجن إنسان جمع له ، وإذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه ، وتعاهده وداواه ، وإذا انقطع رجاء إنسان في سجنه ، واشتد عليه فيه بلاؤه جعل يقول له : « أبشر واصبر تؤجر ، فان لهذا أجراً ، ولهذا ثواباً » ، وكان إذا ضاق على أحد المكان أوسع له ، وكان يعزي حزينهم ، ويجتهد لربه في عبادته ، ويعبر لهم أحلامهم .[٢] فكأنه جعل من السجن مدرسة ومستشفى ومعبدا وجمعية خيرية ومجالس وعظ وتذكير .

---

(١) فقه اللغة .
(٢) جامع البيان

الاعتراف باحسان يوسف

(٩) كل من كان من أهل الاصالة يُسرّ بأن يقر بالفضل لأهل الفضل ، ويعترف بالاحسان لأهل الاحسان ، كما وقع من هذين الرئيسين . فيظهر أنهما كانا كبيري النفس ، أصيلي المحتد ، وهذا بخلاف طائفة من الناس سآءت سريرتهم ، وسفلت طباعهم ، وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء ، ويجحدون إحسان المحسنين ، بل قد تحملهم الكبرياء على إيقاع الأذى بمن أحسن اليهم ،لاسيما إذا كان هؤلاء المحسَن اليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش ، وساعدتهم الأقدار على الارتقاء ، فربما حدثتهم أنفسهم الأمارة بإنكار إحسان المحسنين اليهم بل بايذائهم بل بإهلاكهم .

نهاية الجزء الأول

* * *

فهرس الجزء الأول من كتاب موءتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤلف فيها رأي أوفهم خاص في الجزء الاول

الصحيفة والموضوع :

جدول الاخطاء المطبعية وتصويبهافي الجزء الاول

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٢	١٣	سنة ونيف، لم يكن	سنة ونيف ، وتركه مسوداً بخط يده في بضع وستين كراساً قمت بتبييضها بعد ما نسقت مواضيعها ورتبتها وضبطت الآيات القرآنية ثم وضعت للمواضيع عناوين تناسبها وشرحت بعض الكلمات في الهامش ووضعت فهرس الكتاب وفهرس المواضيع التي انفرد المؤلف في فهمها وقسمت الكتاب الى جزئين الجزء الأول من مقدمة السورة الى الآية ٣٦ والجزء الثاني من الآية ٣٧ الى آخر السورة . فان ظهر في الكتاب هفوات أو أخطاء فما ذلك إلا من تقصيري وعجزي، اذ العصمة لله وحده، هذا ولم يكن ..
١٧	١٠	السيد رشيد رضا	السيد محمد رشيد رضا . .
٢٣	١٥	الغزلية	الغزية
٢٥	١٣	تطبيقها	تطبيبها
٣٠	١٠	عَجَرَ	عَجْرَد
٣١	٩	الفزيز	العزيز
٣٦	١٩	ويمثلوا	يمثلون
٦٧	١٢	تعوز	نعوذ
٧١	٧	يحضره	يحضروه
٧٩	٦	كثيرة	كثير

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٥	٤	مكاتب	مكاتيب
٨٥	١٤	كتيراً	كثيراً
٩١	١٥	مزول	نزول
٩٢	٣	عنَد	عِنْد
٩٩	١١	بلاعتها	بلاغتها
١٠٠	١٣	وفيهم	وفهم
١٠٤	١١	املغه	اللغة
١١٢	١	آ(١)	آ(٢)
١١٨	١٥	العراقيين	العراقيين
١٢٣	٣	أحلامه ومن أجل	ومن أجل
١٣٧	٨	ثلاث	ثلاثاً
١٤٣	١٦	إذ	إذا
١٤٧	٥	وإنمّا	انّما
١٤٧	٩	أن	إنّ
١٤٧	٢١	فقال الرب	فقال ملاك الرب لمنوح
١٤٩	١٤	ص (٢٢٠)	(ص ٢٠ : ٢)
١٥٢	١١	عَنَد	عِنْدَ
١٥٥	١٠	اسرائيل،لا يصلح أن	اسرائيل (تك ٣٦ : ٣١) فقوله : قبلها ملك لبني إسرائيل، لا يصح أن
١٥٨	١٣	(٣ : ٢٨)	(٤ : ٢٨)
١٥٩	٢	الخطيئة	الخطية
١٧٠	١٣	يربعام	يربعام
١٧١	٦	للكذب	الكذب

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٧١	٨	وأمر الرب	وأن الرب
١٧٣	٦	طاردتك	طاردك
١٧٣	١٨	التواة	التوراة
١٧٤	١٨	َفطُرَ الناسَ	فَطَرَ الناسَ
١٧٧	١	آ (٢)	آ (٣)
١٨١	١١	وهو تربية	الا وهو تربية
١٩٥	٢	نحل	تحل
١٩٦	٦	بخساً	نجساً
٢٠٣	١٤	(ص)	(رض)
٢١٩	١٥	يا ُبنَيَ إن اللهَ	يا بنَيِ ّ إناالله
٢٢١	١٦	ماجدا	ما حدا
٢٢٢	١٤	بين وأبيه	بين يوسفوأبيه
٢٣٧	١٢	شْتَرَوا	اشْتَرَوا
٢٣٨	٨	توفير	توقير
٢٤٥	١	والاعلام	وللاسلام
٢٤٧	٩	أنْ نقاتِلَ	أنْ لا نقاتِلَ
٢٤٨	٨	ابن َيُضنه	بن يَفْنُةَ ْ
٢٦١	١٧	لكم حكم مقتبس	لكم مقتبس
٢٦٢	٧	شخص	شخصي
٢٦٣	٣	ووثنى	ووثنيي
٢٧٥	١	بعقبة	بعاقبة
٢٨١	١	المهمة	الهامة
٢٨١	٤	َفتَنا	َفتَنّا
٢٨١	٩	المهمة	الهامة

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٢٨٢	١	اسباب عواءالاخوة الهامة	اسباب عداء الاخوة المهمة
٢٨٢	١١	يتخيلون إن	يتخيلون أن
٢٨٢	١١	يظنون إنه	يظنون أنه
٢٨٢	١٥	واذ دادو	وازدادوا
٢٨٣	١١	لحزُمته	لحُـزْمته
٢٨٤	٤	وإن	وأن
٢٨٥	١٨	فا استطارت	فاستطارت
٢٨٧	١٤	فينبغي	فيبغي
٢٨٨	٨	قَبَات	قبات
٢٨٨	٩	سليمانُ	سليمانَ
٢٩٢	١٠	أولوا	ألُو
٢٩٥	٤	يَروك : محبّاً	يَرَوْكَ مُحباً
٣٠٤	١٣	ثُمَ اتخذتم	ثُمّ اتّخذْتُم
٣٠٥	١٣	المبدنية	البدنية
٣١٠	٧	قيل أنه	قيل إنه
٣١٦	١٦	صيرت	صيدت
٣١٦	١٧	فيها	ميها
٣١٨	٢	مع أبناءَ	مع أبناءِ
٣١٨	٦	الكلمة السابقة	الكلمة السابعة
٣٢٠	١٥	ويزاد	ويزداد
٣٢٠	١٨	يوسف من الحسد	يوسف هو من الحسد
٣٢٢	٣	فالصيهونيين	فالصهيونيون
٣٢٥	١١	﴿ قال قائل ﴾ منهم	﴿ قال قائل منهم ﴾

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٣٢٧	١٩	فإن قلتم أنه	فإن قلتم إنه
٣٣٢	١٧	الجب على	الجب من
١٣٤	١٥	ىدل	يدل
٣٣٥	٧	الكلمة السابعة وهي الأخيرة	الكلمة السابقة
٣٣٧	١	آ (١٠)	آ (١١)
٣٣٧	٤	أحسن	أحسّ
٣٤٦	١٣	والضّر	والفَرّ
٣٤٧	٢	إن الكثير	أنّ الكثير
٣٤٧	١٦	لاسمح إلله	لاسمح الله
٣٥٠	٨	خذا الوعد	خُذْ الوعد
٣٥٢	٢	عليكم إنكم	عليكم أنكم
٣٥٣	١٧	إداً لذَهبَ	إذاً لذَهَبَ
٣٥٨	٣	كأنها جانٌ	كأنها جانٌ
٣٦١	١٤	ومعناها إن	ومعناها أن
٣٦١	١٧	معناها ، إن	معناها ، أنّ
٣٦٣	١٢	دومان	دوثان
٣٦٣	١٩	ليس لناقطّ	ليس لنا قطّ
٣٦٨	٤	(بالعزيز)	(بالعزير)
٣٨٠	١٨	في والدم	والدم في
٤٠١	١	والأضرار	والإضرار
٤٠٣	١٣	وافترّا	وافتَرّا
٤٠٨	٥	(ص)	(رض)
٤١٠	١٤	والبلأ	والبلاء

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٤١٨	٢٠	الصليبيين	الصلبيين
٤٢٢	١٧	حشويوا	حشويو
٤٥٠	٥	عود الضمر	عود الضمير
٤٥٠	١٨	(شروه،واشتروه)	(شروه ، اشتراه)
٤٥٤	١٣	وقد أمرا	وقد أمر
٤٦٦	٢	فان	وإنّ
٤٦٨	١٧	سأتلف الحال	سأتلف المال
٤٦٨	٢٢	باسم بنته	بينته
٤٧٨	١٣	فهو أمر	وهو أمر
٤٨١	٢٢	حهات	جهات
٤٨٢	١١	الثالي	الثاني
٤٨٤	٢٠	قواميس	نواميس
٤٩١	١	آ (٢٠)	آ (٢٢)
٤٩١	٥	فيقمنس	فيقمنسس
٤٩٣	٢	يقرر	يقدر
٤٩٩	٩	خمسةَ	خمسةُ
٥٠٧	٢	الفار	القــار
٥١٢	٥	بهة	بهسة
٥١٣	٨	السيد	السيدة
٥١٨	٢٣	بِخمُرِهِنّ ولا يُبدينَ	بِخُمُرِهِنّ على جُيوبِهِنّ ولا يُبدين
٥١٩	٢٢	تَكفلُونَهُ	يَكفلُونَهُ
٥٢١	٧	وحبوتها	وصبوتها
٥٢٥	١	في الجميل	بالجميل
٥٢٦	١	في الجميل	بالجميل

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويت
٥٣٤	١	همت به جلياً وهم بها وقعاً	همت به جلباً وهم بهـا دفعاً
٥٣٥	١٦	لسان	ولسان
٥٤١	١١	المُخلِصِينَ	المُخلَصِينَ
٥٤٢	٥	كذلك	(كذلك)
٥٤٤	١٦	المُخلِصِينَ	المُخلَصِينَ
٥٧٧	١٢	عقار	عقاب
٥٦١	٢	مفصلاً	مفضلا
٥٩٢	١٦	لِدَنبكَ	لِدَنبكِ
٦٠٠	١٩	فأصلحوا	فاصطلحوا
٦٣٥	١٦	يكون « يشوع »	يكون يوم « يشوع »
٦٤٢	١	التحزير	التحزيز
٦٦٥	٧	أخذمية	أخزمية
٦٦٧	١٧	ونسبة	ونسبه
٦٩٥	١٤	حوّاري	حَوّارى
٦٩٧	٧	حكاك وأكال	حكاكاً وأكالا
٦٩٧	٨	وبثور	وبثوراً
٧٠٣	٤	لمثنى	المثنى

وهناك اخطاء اخرى لاتخفى على القارىء

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSOF

Congrés pour l'explication de la Sourate de Joseph

(Chapitre XII du Coran)

Met en lumiére les caractéres des sionistes, montre que les caractéres des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les juifs et donne une leçon aux arabes de palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays Lisez ces conférences sur la sourate de Youssof vous comprendrez ce dont sont capables les sionistes de par leur hérédité .

PAR

CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI

(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran

à la Mosquée des Omayades à Damas

Editeurs

Imprimerie DAR - EL - FIKR

DAMAS

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSOF

Congrés pour l'explication de Sourat de Joseph

(Chapitre XII du Coran)

Met en lumière les caractères des Sionistes, montre que les caractères des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les Juifs et donne une leçon aux Arabes de Palestine.

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays ! Lisez ces conférences sur la Sourat de Youssof vous comprendrez ce dont sont capables les Sionistes de par leur hérédité.

PAR

CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI

(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran

à la Mosquée des Omayades à Damas

Editeurs

Imprimerie DAR - EL - FIKR

DAMAS

مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

وفيه

بيان طبائع الصهيونيين

وأن طبائع الآباء موروثة في الأبناء، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين

يا أهالي فلسطين ! ويا أيها العرب والمسلمون ! اقرؤوا هذه المحاضرات

على سورة يوسف، تعرفوا ما انطوى عليه الصهيونيون مما ورثوه من أصولهم

الجزء الثاني

من الآية الـ ٣٧ إلى آخر السورة

بقلم

عبد الله العلمي

(الغزي الدمشقي)

أستاذ دروس تفسير القرآن والتهذيب الإسلامي في الجامع الأموي بدمشق سابقاً

قام بتبييض مسودة الكتاب المخطوطة بخط يد المؤلف

وبترتيب مواضيعه وبوضع عناوينها وبشرح

بعض كلماتها في الهامش ابن المؤلف

الدكتور عبد الحليم العلمي

قدم له فضيلة الأستاذ العلامة

محمد بهجة البيطار

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

الطبعة الأولى : مطابع دار الفكر بدمشق

١٣٨١هـ - ١٩٦١م

الشيخ عبدالله العلمي الغزي الدمشقي

مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

الجزء الثاني

دار الفكر

الفصل الخامس

يوسف (ع) يعرف بحاله ويمهد للدعوة للتوحيد

آ (٣٧) ﴿ قالَ : لايَأتيكُمَا طَعامٌ تُرزَقانِهِ إلاّ نَبأْتُكُما بِتَأويلِه قَبلَ أنْ يأتيكُما ، ذَلِكُما مِمّا عَلّمَني رَبّي ، إنّي تَرَكتُ مِلّةَ قَومٍ لايُؤمِنُونَ بالله ، وهُمْ بالآخرةِهم كافرون ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثلاثون فقام السيد عبد الحق الداغستاني وقال:

(قال) يوسف ، بلسان المعرف بنفسه تمهيداً لما بعده ، مخاطباً الفتيين في السجن (لايأتيكما) ولايحمل اليكما في هـذا السجن (طعام ترزقانه) تأكلانه وتشربانه من أي نوع كان من المأكولات والمشروبات . وهذا العموم مستفاد من وقوع النكرة وهي ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي ، ومن كلمة ترزقانه أيضاً التي قصد بذكرها تأكيد إفادة العموم والشمول . أي لا يحضر لكما وقت الصباح أو وقت الظهر أو المساء طعام ، أي طعام كان ، ترزقانه ويجلب لكما من الحكومة أو أو من بيوتكما ﴿ إلاّ نبأتكما بتأويله ﴾ أي بعبارته لو فرض أنكما رأيتماه مناماً ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ تأويله ، أي قبل مايقع مصداقه ، و ﴿ ذلكما ﴾ التأويل والتعبير ﴿ مما علمني ربي ﴾ سبحانه وتعالى ، وكيف لايكون لي ذلك و ﴿ إني تركت ﴾ أي اجتنبت ﴿ ملة قوم ﴾ كأهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ونحوهم ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ قائماً بذاته ، غير منتشر في ذرات هذا العالم ، ولاحالّ ، ولا منبث في أحد من المخلوقين ، وليس له شريك ولا وسيل ، سوى عبادته وطاعته وحده ، ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي بدار الجزاء ﴿ هم كافرون ﴾ منكرون وجاحدون.

قال : ﴿ لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل ... الخ الآية ﴾

— ١ —

ههنا وقف الرئيس وترجى ثلاثة علماء كبار من علماء المؤتمر بأن يقولوا كل واحد بما يفتح الله به عليه في تفسيرهذه الآية ، فنهض الأول وهو العلامة الطرابلسي[1] وقال :

يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية

بدأ يوسف « ع » في هذه الآية والتي بعدها . يذكر للفتيين شيئاً من ترجمة حياته الشخصية . والحياة العائلية ، العلمية والدينية ، بساطاً وتمهيداً للعظة ، التي أزمع على إلقائها عليهما ، فكأنه جرى في كلامه على مايسمونه بسياسة (المراحل) أى التقدم مرحلة مرحلة ، ومن كلامه ظهر لهما أمران :

(١) أن هذا السجين بعدما كان في أعينهما مجهول الأصل ، ممعن النسب ، إذا هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة .

(٢) أن هذا السجين بعدما كان في نظرهما مجرماً ، ظهر أنه هادٍ مرشد واعظ معلم للخير .

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة ، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره ، وكأنه عليه السلام ، رام أجراً على تعبيره رؤييهما ، ولكن ماهو هذا الأجر ياترى ؟ ليس هو دينارا ولا درهماً ولا شيئاً ما من الأمور المادية ، ولكنه إصغاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليمه ووعظه .

وهذه طريقة لطيفة ، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والارشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه الى ما هو أولى به وواجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه ان العالم

---

(١) نسبة الى طرابلس من بلاد الشام (لبنان)

إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين ، لم يكن من باب التزكية .

ثم ان ماعمله يوسف (ع) يذكرنا اليوم بما يفعله أصحاب المستشفيات أو المدارس التبشيرية ، فانهم يطببون المرضى ، ويعلمون التلاميذ ليس في مقابلة أجرة من دينار أو درهم ، ولكن هذه الأجرة هي إصغاؤهم للكرز الديني ، الأمر الذي يشجعنا نحن أن نعمل مثل هذا العمل ، ويدعونا أن نفترص الفرص كلما لاحت لأجل أن ندعو الجحدة للايمان ، ونرشد العصاة للطريق القويم .

كان السكوت سائداً في غرفة السجن التي فيها الرئيسان ، فوقف يوسف أمامها وقال بملء فيه : سأشرح لكما تعبير رؤييكما . ولكن أحب أن تنتظرا قليلاً ، ريثما أتكلم معكما بنبذة صالحةمن تعريفكما بشخصي ، ومن العظةوالذكرى.

قبل كل شيء إنني أشكر الله على أنه لا يأتيكما طعام ترزقانـــه من أي نوع كان مما يرزق عادة إلا نبأتكما بما يؤول ويصير اليه ولو فرض أنكما رأيتما مناماً ، قبل أن يحدث لكما مصداقه وعاقبته يقظة ، فأنا مستعد أن أخبركما عنه قبل وقوعه وحدوثه ، وهذا الذي أذكر اني أعلمه في عبارة الرؤيا هو مما علمني إياه ربي فعلمته ، فهو شيء استفدته من قبل السماء ، لا من قبل الأرض — وأتى بكلمة ﴿ ترزقانه ﴾ ونكر ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي لافادة العموم — كأنه يقول:

إن علمي بتأويل الرؤى عام . وليس مقصوراً على تأويل طعام دون طعام ، بل إني قدير على تفسير أي رؤيا كانت ، في أي طعام يكون ، مما يرزق عادة ، فكل نوع من أنواع الأطعمة التي ترزق إذا رآه الانسان في منامه أقدر أن أفسره. فأنا قدير على تعبير رؤيا طعام الخمر ، ورؤيا طعام الخبز ، كما إني قدير على تفسير ماعداهما من صنوف الطعام عموماً .

ولست أريد المكاثرة بذلك ، ولكن التعريف برجل مجهول الهوية (عندكم)، إني تركت منذ دببت الى أن شببت ملة قوم لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا .

وسببه انهم لايؤمنون بوجود الله مطلقاً ، أو بوحدانيته ، لأنَّ من لم يؤمن بالوحدانية ليس مؤمناً بالله الإيمان المطلوب شرعاً ، وهم كافرون بيوم الجزاء ، وان إنكار الصانع ووحدانيته مع الكفران بيوم الدينونة هو العقبة الوحيدة في سبيل تلقي العلوم اللدنية من السماء .

فقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ ، ومنه نعلم أن جزاء الإنسان على عقائده الحقة وأعماله الصالحة قد تعجل [illegible] في الدنيا ، ثم ذلك الشيء المتعجل في الدنيا قد يكون مادياً ، وقد يكون معنوياً كما هنا ، فان الله تعالى جازى يوسف على عدم ابتداعه باجتناب ملة الكفران ، وعلى اتباعه لملة التوحيد بأن علمه مما يشاء : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ (٢ : ٢٨٢) ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنْ تتقوا اللهَ يجعلْ لكم فرقاناً ﴾ (٨:٢٩)

ويريد يوسف بقوله ﴿ إني تركت ﴾ الى آخر آية ٣٨ ، إن الدين الذى هو عليه اليوم ليس دين « تعيين » عيّنه فيه أبوه مثلا . ولا هو دين « تقليد » [illegible] فيه الأسلاف ، بل هو دين « انتخاب » انتخبه هو نفسه ، بالدليل والبرهان ، واعتنقه مختاراً له من دون سائر الأديان .

وقد يكون قد أشار بقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ الى أنه [illegible] أنه سيشير بقوله : ﴿ واتبعت الخ ﴾ الى أنه « [illegible] » [illegible] . هذا ماتيسر لنا الآن . واتباع الحق أسلم ، والله تعالى أعلم .

ثم نهض العالم الثاني وهو العلامة الحمصي وقال :

يوسف يغتنم الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتهما للتوحيد

يقول يوسف مخاطباً الفتيين السجينين ، إنني بحمد الله على استعداد تام بوجه عمومي لتفسير كل ماترون ، فعلى الخبير سقطتما — فقالا له : ذلك الظن بك ، أيها الانسان المحسن — قال : ياسائليّ أما وأبيكما اتنبآن ، فمن كان له منكم أذنان

للسمع فليسمع ، ومن كان له قلب فليحضره ، لا يأتيكما في اليقظة طعام مأكولاً كان كالخبز الذي رآه أحدكما ، أو مشروباً كالعصير الذي رآه الآخر ، ترزقانه -(عبر بذلك لإفاده العموم ، كما في قوله تعالى : ﴿ ومامِنْ دابةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحَيه ﴾ (٦ : ٣٨) فزاد « في الأرضِ وجناحيه » لافادة التعميم والاحاطة ، وكذلك ههنا زاد كلمة « ترزقانه » لافادةالاستغراقوالشمول، فكأنه قال : أي طعام كان مما عادته أن يرزقه الانسانفي هذه الدنيا) - إلا نبأتكما تأويله ، أي مصداقه ومرجعه ، وهو نفس الشيء المخبر عنه . أي أنبئكما بالتأويل بلفظي وبياني ، قبل أن تريا التأويل بالذات ذلكما مما علمني ربي ، ولافخر ، فما أنا إلا سفير من سفراء الحق ، ولسان من ألسنة الصدق ، ولهذا فتأويل الرؤى مهما عظمت هو أهون عليّ من قطع الخيط ، ولا أقول ذلك مفتخراً ، فان آفةالحسب الفخر ، بل تحدثاً بنعمة الله تعالى .

جعل يوسف (ع) العلم اللدني ثواباً على تركه ملة من لم يؤمنوا بالله ولا بيوم الدين ، ثم أخذه بملة التوحيد (انظر التعليق الرابع من خطاب مولانا عمر البيلاني على قوله ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (آ : ٢٢) .

ثم قال الصديق عليه السلام تتميماً لوعظه للفتيين : ولا أكذبكما ، ولاأخفي عنكما ، ما كان عرض لي أني استعملت عقلي ، واستخدمت أفكاري ، وجعلت البرهان رائدي ، والتبصر مطيتي ، وتفكرت في سائر المللوالنحل ، حتى وصلت لنور الحق ، وعرفت ماهي الملة التي ينبغي طرحها ، وماهي النحلة التي يجب اعتناقها ﴿ فتركت ملة قوم .. الخ ﴾ ، وأنتما لو سلكتما طريقتي هذه لكفيتما شر التقليد ، ووصلتما الى نور الاستقلال الفكري ، الذي هو أصل كل خير ، وكنتما بعده تصلان الى الملة الحقه فتعتنقانها .

هذا مرمى كلام الصديق (ع) ونري أنه قدافترص فرصة سؤالهما له ، فحول مجرى الحديث الى عظتهما ، وأخذت جمل الوعظ تنثال على شفتيه .

آنس منها ارتياحاً ، فأحب أن يطيل معهما الحديث ، جرياً على رأي من قال :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لساناً قائلاً فقل

اقتحم هذه الفرصة لإرشادهما ، لأنه رجل ديني ، وأهل الدين يكرسون حياتهم لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب ، حتى إنهم ليطوفون السجون ويتعرفون الى المسجونين ، ويترددون اليهم ، ويعظونهم ويدعونهم إلى الحق ، ويحرضونهم على التوبة ، فما أتاه يوسف هو من أهله في محله .

سألاه فعول على اغتنام السانحة ، لعله يستطيع التسلط على أفكارهما ، وكاشفهما بأنه هو على عقيدة التوحيد ، خلافاً للمصريين ونحوهم ، ووفاقاً لعائلته الكريمة .

أتى في هذه الآية والآيات الأربع التي بعدها بحديث ذي شجون ، منه مايتعلق بترجمة شخصه ، ومنه مايتعلق بترجمة أصوله ، ومنه ماله علاقة بالدعوة الدينية والوعظ والارشاد ، ومنه ماهو جواب على سؤالهما .

المراد « بالترك » الامتناع

والمراد بكلمة « الترك » في قوله ﴿ إني تركت ﴾ الامتناع عنها رأساً ، كما يفصح عنه قوله الآتي : ﴿ ما كانَ لنا أن نُشرِكَ باللهِ مِن شيءٍ ﴾ (آ: ٣٨) ، لا تركها بعد ملابستها — حاشا — وانما عبر بهذا التعبير لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهم به (ع) فهو للاستجلاب لهما أن يتركا ملتهما ، وقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ أول غمزة ، ولكن في الحاشية . وقوله الآتي : ﴿ ماتعبدون الخ ﴾ هي الغمزة الثانية ، ولكن في الصميم .

القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف

وأما هؤلاء (القوم) الذين ذكرهم السيد الصديق فلم يبين المفسرون رضي الله عنهم من هم ، وكأنه لأنّ بيانهم من هم ليس مهماً ، ولكننا نحن نظن أنهم

سكان العراق وسوريا وفلسطين ومصر ، الذين كانوا معاصرين له ومحيطين به ، وهم الأمم التالية :

(١) — القَينيّون : ، وهم قبيلة من العرب كانت متفرقة في الجنوب ، بين العمالقة .

(٢) — الحِثيّون : وهم قبيلة قوية ، استولوا على سوريا ، وكانت عاصمتهم مجاورة لبلدة (حماة) .

(٣) — الفِرِزّيون : وهم إحدى قبائل فلسطين ، سكنوا في الجبال في داخلية البلاد ، وكانوا رعاة لا مُدن لهم .

(٤) — الأموريون : وكانوا في الدرجة الثانية بعد الحثيين في القوة ، كانوا في اليهودية الجبلية ، وفي شرقي الأردن .

(٥) — الكنعانيون : وهؤلاء ينقسمون الى خمسة أمم ، (صيدوني) سكان صيدا وصور ، و (عرقي) سكان لبنان ، و (أروادي) سكان جزيرة أرادس ، و(حماتي) سكان حماة ، و (حوّيّ) سكان شكيم أي نابلس .

(٦) — اليَبُوسيون : سكان أورشليم وهي بيت المقدس .

(٧) — الكَلدانيون : سكان العراق .

(٨) — القِبط : سكان مصر .

(٩) — الفلسطينيون : سكان البلاد التي بين نهر الأردن شرقاً ، والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

فهؤلاء الأمم كانوا وثنيين ، ولا يعتقدون بحقيقة يوم الدين ، وكانوا معاصرين لابراهيم فاسحاق فيعقوب عليهم السلام ، وبالطبع كان يوسف قد عرفهم ، لأنه تولد في العراق ، وبقي فيه الى أن بلغ من العمر عشر سنين ، ثم هاجر مع أبيه

يعقوب وسائر الأسرة اليعقوبية الى سوريا ففلسطين ، وبقي في فلسطين سبع سنين ولما بلغ من العمر ١٧ سنة أخذ لمصر ، وعاش فيها الى أن توفي ، وانما قلنا : نظن أنه عنى بلفظ (قوم) هؤلاء الأمم لأنه عاش فيهم واختلط بهم وجاورهم [illegible] حق المعرفة . وهنا فوائد مهمة ، لا بد من التنبيه عليها :

الادوار التي سكت فيها يوسف والادوار التي تكلم فيها

الفائدة الأولى — تعلم أنه كان أتى على يوسف منذ غيابه عن والده ثلاثة أدوار (الدور الأول) أخذ (السيارة) إياه لمصر كسلعة تجارية ، (الدور الثاني) — حالة الخدمة والعبودية للعزيز فوطيفار ، ونراه في هذين الدورين ساكتاً ، لم يهتف بشيء من مدح شخصه ، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ ، ذلك لأنه لم يجد داعياً لذلك ، ولكنه الآن وقد انتقل الى (الدور الثالث) — دور الاعتقال في أعماق السجون ، مع المجرمين ، [illegible] ، فقد رأى من اللازب اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه ، و[illegible] أسرته وأصوله بعض التقريظ ، شأن كل واحد ، دون [illegible] في [illegible] الناس وتصوّح غصن فضله في أعينهم ، وابتدىء ثلبه ، و[illegible] عنه ، فانه عندئذ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ماتستدعي الحاجة . و[illegible] ويستند على أثيل منبته ، وكرم أصله ، ويأوى الى [illegible] ضربه من حوله ، ولله در هذا الصديق ، ما أحكمه في الحالين ، حال [illegible] وحال التكلم .

معنى ترزقانه

الفائدة الثانية معنى (ترزقانه) تعطيانه وتنتفعان به ، [illegible] لأنهم لم يكونوا يعتقدون تحريم شربها . و الرزق هو كل ما انتفع به مطلقاً ، سواء أكان حلالاً أم حراما .

معنى ذلكما مما علمني ربي

الفائدة الثالثة — قوله (ذلكما مما علمني ربي) كما أن الله علّم يوسف تأويل الرؤيا في قديم الأيام ، كذلك علّم (ابن سيرين) تأويلها في العصور الحديثة ، (فابن سيرين) هو يوسف (البصريين) كما أن (الصديق) هو يوسف المصريين ، فان ابن سيرين رزق من علم (عبارة الرؤيا) العجب العجاب .

مصدر فضل يوسف

الفائدة الرابعة - قوله : (اني تركت ملة قوم الخ الآية الى أن يقول : واتبعت الخ الآية) يبين أن ليس مصدر فضله كونه ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، بل جعل مصدر فضله تركه ملة أولئك الجاحدين ، واتباعه ملة آبائه الموحدين ، ففضل الانسان بأعماله لا بنسبه ، قال أبو العلاء المعري :

لا يفخرن الهاشمي : على امرىء من آل بربرْ
فالحـــق يحلف ماعليّ عنده الا كقنبر

(ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاولة)

ثم هو يريد بقوله : (تركت) رفضت بدون سبق مزاولة ، كما ان (العَود) قد يطلق على الصيرورة ، بدون سبق المزاولة أيضاً ، ومنه : ﴿ أوْ يُعيدُوكم في ملتهم ﴾ (١٨ : ٢٠) معنـــاه يصيروكم ، لأن هؤلاء القوم لم يسبق لهم أن اعتنقوا ملة التثليث ، ومنه حديث معـــاذ : (أعُدْتَ فتّاناً يا مَعاذُ ؟) ، أي أصرتَ ، ويقول كعب : (وددتُ أنّ هـذا اللبَن يعودُ قطراناً) أي يصير ، فقيل له : لِمَ ذلك ؟ فقال : (تتبعت قريش أذنابَ الابل ، وتركوا الجماعات) ، فكما ان العود الى الشيء قد يستعمل بمعنى الصيرورة اليـه ، بدون سبق مزاولة

له ، فكذلك ترك الشيء قد يستعمل بمعنى رفضه وعدم معاناته ، بدون سبق التلبس به كما هنا ، وإلا فالأنبياء معصومون من الكفر والشرك ، حتى قبل النبوة.

ويعجبني ما رأيته لبعض المحققين من تعليل آخر لتعبيره بكلمة (الترك) ، وهو أنه لما كان يوسف مختلطاً بالوثنيين بالعراق ثم في فلسطين ثم في مصر ، وكان مكثورا بهم ومغمورا بينهم ـ عبر «بالترك» نظرا للظاهر لهؤلاء الجهلة بحاله ، وقريب منه ما في قوله تعالى : «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ـ قَالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ ، قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا» الخ (٧: ٨٧ و ٨٨)

وقد عثرت لبعض المصريين (١) على تحقيق مهم في هذا المقام ، خلاصته :

(العوامل التي تجذب البشر الى السعادة او الشقاء)

(يوجد في هذا الكون عوامل تجذب البشر الى السعادة أو الشقاء ؛ ومن أمثلة تلك العوامل ، أولا (الحكومة) التي تسيطر على الناس ، وثانيا (الجماعة أو النادي) الذي تحتشد فيه القوم للحديث ، أو السمر أو اللهو أو [illegible] أو مختلف الأعمال والمصالح ، وثالثا (العائلة) التي تربي الأمم [illegible] (الوراثة) التي تنتقل من الآباء والأمهات والأجداد والجدات . سواء من جهة الأب أو من جهة الأم ؛ وخامسا (الاقليم) الذي يشربون ماءه ، ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حره وبرده ، ويقتاتون محصولاته ، وهذا المؤثر الخامس هو ما يسميه علماء النفس (بالبيئة الجغرافية) وأما العوامل السابقة فيسمونها (البيئة الاجتماعية) اهـ

البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها

إذا تقرر هذا نقول : إذا كان الانسان [illegible]

(١) وهو العلامة الشيخ عبد القادر [illegible]

سيطره (الحكومة) التي تعتقد تلك العقيدة ، أو (المحفل) الذى يؤثر بالاختلاط أو (العائلة) التي منها الجد والجدة لأم ، ومنها الخال ، أو (الاقليم) ، ثم قاوم تلك المؤثرات ، واتخذ لنفسه عقيدة استحسنها ، فانه يصح له أن يعبر بقوله :(تركت كذا واتبعت كذا) لأنه كان بسبيل أن ينفعل ويتأثر وينجذب لبعض هذه الجواذب ، ولكنه قاوم هذه كلها أشد المقاومة ، فيوسف الصديق كان عاش في العراق عشر سنين ، تحت سيطرة (حكومة) وثنية على دين الصابئة ، وكانت عيشته تلك المدة في بيت جده لأمه (لابان) الذي كان وثنياً ،ثم عاش سبع سنين بفلسطين الوثنية ، ثم عاش بمصر في بيت (فوطيفار) نحو عشر سنين ، وأصحاب هذا البيت وسكانه كلهم وثنيون ، ثم دخل (السجن) مع سجناء من الشعب المصري الوطني وشعب الاحتلال الهكسوسي ، وكلهم من أهل التوثن ، وكل من كان كذلك كان بسبيل أن يكون على ملة هذه البيئآت ويخشى عليه من وراثة طريقة أحواله ، ولكن يوسف الصديق بما أوتي من عقل وافر ، وحفظ إلهي ، تغلب على كل هذه المؤثرات ، ولم يجذبه شيء من هذه الجواذب ، ولم يتمسك إلا بعقيدة التوحيد ، والايمان بالنشأة الآخرة ، لاسيما وأن ذلك هو ملة آبائه الكرام ، كان كل هذا قبل النبوة ، وأما بعدها فالأمر ظاهر .

الوثنيون لايؤمنون بالله واحداً والماديون لايؤمنون به موجوداً

الفائدة الخامسة ـ قوله : ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ يحتمل معناه : لا يؤمنون بالله واحدا ، بل يشركون معه غيره ، وذلك (كالقوم) الذين عاصرهم يوسف ، من عراقيين وفلسطينيين ومصريين ، لأن هؤلاء كلهم وثنيون ، لايجحدون وجود الله ، بل يعترفون به ، ولكنهم لا يؤمنون به الايمان الحق ، الإيمان المطلوب ،وهو ايمان التوحيد ، بل يشركون معه غيره من الآلهة التي يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، ويحتمل أن معناه موجوداً ، وذلك كالماديين ، ، مع أن المادة جاهلة ، لا يمكن ان

ينشأ عنها هذا الابداع في الكون ، وارتباط المصالح في سائر العوالم ، مع وجود الحكمة في كل مانرى ونسمع ونحس ، فكل صنع لغرض صحيح وقصد معقول ولايمكن للمادة — وهي لاتعقل شيئاً وانما تحدث عنها التفاعيل آثاراً صماء — أن توجد عقولاً مدبرة مفكرة ، تعمل بالحكمة وبمقدار في هذا الوجود .

الادلة على وجود الله تعالى

كان يجب أن لايختلف الناس في العقيدة بوجود الله ، لأن دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم ، والعقل المحكم على الحكيم — بديهية ؛ بل قالوا ، إن دلالة مما يدركه الحيوان ، فضلا عن الانسان ، فانك إذا ضربت الحمار مثلا ، التفت ابرى من ضربه ؟ لأنه مركوز في فطرته ان الأثر لايكون بلا مؤثر ، والفعل لايكون بلا فاعل ، قال تعالى ﴿ ألم ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لهُ مَنْ في السموات والأرض والطيرُ صافاتٍ ، كلٌ قدْ علِمَ صَلاتَهُ وتَسْبيحَهُ ؟!!﴾ (٢٤:٤١) وأنت إذا رأيت كلمة من ثلاثة احرف لم تشك في أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير الى الأوقات ، أيقنت أن لها صانعاً ، رتب أجزاءها واعدها لتلك الغاية ، وما مَثلُ من ينكر وجود الخالق — وهو أظهر من الشمس — إلا كمن رأى (خزان اسوان) بالقطر المصري ، أو (برج إيفل) بباريس فقال : ان ذلك على فخامته وضخامته لايحتاج الى (مهندس) ولا (صانع) !!! ، أو لمن رأى (كتاباً) بديعاً في مبانيه ، بليغاً في معانيه ، وفيه من الفلسفة العالية ، والأفكار السامية ، مايفوق أفكار (أفلاطون) وفلسفة (أرسطاطاليس) وفيه من الأدب الرائع ، والشعر البارع ، مايسمو على شعر (المتنبي) ، ولما نظر فيه قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت في صندوق ، وكان معها شيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية ، فوجد ذلك الكتاب على ماترون ، فهلا ترمي صاحب ذاك القول بالجنون ؟ .

وإذا كنت لاتسلم أن (ساعة) توجد بلا صانع ، وأن (باخرة) توجد

بلا مهندس ، بل لا تسلم أن « كلمة صغيرة » توجد بلا كاتب ، فكيف تسلم أن هذا « الكون » العظيم ، الذي يبهر العقول ، ويحير الألباب ، قد وجد بلا موجد ، ونظم بلا منظم ، وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار ، الى أنواع لا يحصيها العد ، ولا يأتي عليها الحصر ، وقد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم ، وينوعها الى ما لا يحصى من الأنواع ، ويمتعها بما شاء من الخصائص المختلفة ، والمزايا المتباينة ، والصفات المتقابلة ؟ وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الدلالة على الله وجود ـ الأنثى ـ بجانب ـ الذكر ـ فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود « المرأة » فأوجدتها ؟ وغايرت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها ، فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومتّعتها بما يجذب الرجل اليها ، من صفات الجمال ، حتى في صوتها ، ومنحتها ما يحتاج اليه طفلها الصغير ، وقال أفلاطون : « يكفينا ما في ـ العين ـ من التدبير الذي جعلها في مكان مكين من الحَجَاج[1] ، وجعل لها ـ الحاجب ـ ليقيها من العرق أن يتساقط فيها ، و ـ الهدب ـ ليقيها من الغبار ، ولا يمنعها الضوء » ، وهذا الباب واسع جداً ، وفيما ذكرناه كفاية .

عقيدة ابراهيم (م) واولاده وعقيدة العرب الجاهليين

والاعتقاد بوحدانية الله تعالى هو دين ابراهيم وأولاده من جهة إسحاق ومن جهة إسماعيل ، غير أنه كان وجد في العرب مشركون لله في العبادة لا في الخلق والإيجاد ، يعني أن هؤلاء الصنف من العرب كانوا مع اعترافهم بوحدانية الربوبية ، مشركين في الألوهية ، قال تعالى : ﴿ لَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمسَ والقمرَ لَيقولُنَّ : اللهُ ، فأنى يُؤفَكُون !! ﴾ الى أن يقول : ﴿ ولَئِنْ سألتَهُم مَنْ نَزَّلَ من السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ

(١) هو الحفرة العظيمة التي فيها العين ويقال لها وقب .

بعدَ موتِها ؟ لَيَقولُنَّ : اللهُ ، قُلْ الحمدُ للهِ ، بَلْ أكثَرُهُمْ لا يَعقِلون ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣) وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يرزُقُكُمْ منَ السماء والأرض ؟ أمْ مَنْ يَملِكُ السَّمْعَ والأبصار ؟ ؟ ومَنْ يُخرِجُ الحي منَ الميّتِ ويُخرِجُ الميّتَ مِنَ الحيّ ؟ ومن يُدَبِّرُ الأمرَ ؟ فَسَيَقولونَ : اللهُ فقلْ : أفلا تَتَّقُونَ ؟ ﴾ (١٠ : ٣١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصرح بأن مشركي العرب إنما كانوا مشركين في الألوهية ، دون الربوبية ، وهكذا وجد في اليهود أناس كثيرون كذلك كما يعلم من البيان الآتي :

بيان سقوط اكثر بني اسرائيل في هاوية التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بأيديهم

(١) في عصر يعقوب : كان (على ذمة التوراة) يوجد في بيت يعقوب اناس وثنيون في بعض أيام حياته ، كما نستفيده من قول التوراة : (فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم) (ت ـ ٣٥ : ٢) ، وقولها (فاعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) (ت ـ ٣٥ : ٤)

(٢) في مدة إقامتهم بمصر ـ « كانوا عبدوا آلهة المصريين » (لا ١٧ : ٧) و (يش ٢٤ : ١٤) و (حز ٢٠ : ٧ و ٨) و (أ ر ٤٤ : ٨ ـ ١٩)

(٣) في أول مدة الخروج « عبد بنو إسرائيل العجل في البرية بعدما خرجوا من مصر في مقاطعة جبل سيناء حتى قتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل » (خر ٣٢ : ٢٧ و ٢٨)

(٤) في آخر مدة الخروج ـ « عبد بنو اسرائيل بعل فغور وذلك حينما كانوا في الغور فغضب الله عليهم وأمات منهم بالوباء ٢٤ الفا» (خر ٩ : ١٥)

(٥) في مدة التيه ـ وقع أكثر بني إسرائيل في وهدة الشرك في جميع مدة

التيه البالغة ٤٠ سنة لا فرق بين الآباء الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى ولا بين أبنائهم الذين تولدوا في البرية ، فالجميع عبدوا الأصنام في البرية ، وقربوا لها القرابين (خر ٢٠ : ٧ - ٢٦) و (تث ٩ : ٧)

(٦) في عصر يشوع - وقد وقعوا في وهدة الشرك ، وهم تحت قيادة يشوع لآخر أيام حياته (يش ٢٤ : ١٤ و ٢٣)

(٧) من موت يشوع إلى أول قاضي - وقد رجع بنو إسرائيل للسقوط في أودية الوثنية في الجيل الذي بعد يشوع إلى أيام أول قاض قام فيهم وهو «عثنيئيل» بن قناز (قض ٢ : ٨ - ٢٣ وقض ٣ : ٥ - ٩)

(٨) بعد موت القاضي الأول - مات القاضي « عثنيئيل » فعاد بنو اسرائيل لشركهم المعهود (قض ٣ : ١٢ - ١٤) مع ملاحظة مافي (قض ٢ : ١٩)

(٩) بعد موت القاضي الثالث - وقع بنو إسرائيل في أودية الوثنية بعدموت القاضي « شمجر » بن عناة (قض ٤ : ١ مع ملاحظة مافي قض ٢ : ١٩)

(١٠) بعد موت دبورة وباراق - عاد بنو إسرائيل لشركهم وأدخلوا عبادة البعل الى وسط البلاد وأقاموا له مذبحاً وسارية (قض ٦ : ٦٥ و ٢٨ و ٣٠) واعتقدوا أن البعل إله، وبقوا على هذا الحال حتى قام القاضي جدعون(قض٦ :١)

(١١) في أيام جدعون - ثم وقع بنو إسرائيل بواسطة مخلصهم جدعون في الوثنية في أيام جدعون ، على إثر مقاتلته المديانيين (قض ٨ : ٢٤ - ٢٧)

(١٢) على أثر موت جدعون - كان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزَنَوْا وراء « البعليم » وجعلوا لهم بعل بريث إلهاً (قض ٨ : ٣٣)

(١٣) بعد موت يائير - بعدما مات « يائير » الجلعادي الذي كان قاضياً ثامناً على بني إسرائيل عادوا يعملون الشر ، وعبدوا « البعليم والعشتاروت » وآلهة « آرام » وآلهة « حيدون » الخ ما في (قض ١٠ : ٦ و ١٠ و ١٣ - ١٦)

(١٤) بعد موت عبدون ـ بعد ما مات القاضي « عبدون » عاد بنو إسرائيل يعملون الشر المعهود بينهم وهو التوثن (قض ١٣ : ١) مع ملاحظة ما في (قض ٢: ١٩)

(١٥) شرك بعض اللاويين ـ ثبت إن بعض اللاويين كان يكون في بيت الأصنام (قض ١٧ : ٤ ـ ١٣) في قرية « الطيبة » التابعة لقضاء « طول كرم »

(١٦) شرك سبط الدانيين ـ ثبت أن سبط « الدانيين » صعدوا الى جبل أفرايم ، ونهبوا من بيت (ميخا) الذي في قرية (الطَّيِبة) التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك التي هي آلهة (ميخا) ، وأقاموا لأنفسهم التمثال المنحوت للعبادة (قض ١٨ : ١٧ و ٢٤ و ٣٠ الخ) .

(١٧ ً) في عصر صموئيل ـــ ثبت أن بني إسرائيل سقطوا في حفرة الشرك أيام النبي (صموئيل) ، فكانوا يعبدون في عصره الآلهة الغريبة و (العشتاروت والبلعيم) (١ صم ٧ : ٣ و ٤) .

(١٨ ً) في عصر مُلك شاول ـــ ثبت انه كان يوجد في عصر (شاول) أول ملوكهم في بيت ابنته (ميكال) أصنام صغيرة ومجسمة ، على هيئة الانسان ، بحيث من رآها يظنها إنساناً ، وتسمى هذه الأصنام (ترافيم) (١ صم ٢٩ : ١٣) وهي في شريعة اليهود وحسب كتبهم قرينة الوثن (١ صم ١٥ : ٢٣) .

(١٩ ً) في عصر سليمان ـــ تقول اليهود إن نساء سليمان أملْن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، فذهب وراء أربعة آلهة ، وهم « عشتروت » و « ملكوم » و « كموش » و « مولك » (١ مل ١١ : ٤ ـ ٨) وكان يوجد في الرعية في عهده توثن ، فتركوا الرب وسجدوا للاله « عشتروت » وللاله « كموش » والإله « ملكوم » (١ مل ١١ : ٣٣) وكانوا يقربون أبناءهم وبناتهم للاله « مولك » وهو محمي بالنار (٢ مل ٢٣ : ١٠) .

(٢٠ ً) أيام رحبعام ـــ ثبت من التاريخ ان أهالي المملكة الجنوبية مملكة يهوذا أيام ملكها « رحبعام » بن سليمان ، عملوا الشر وعبدوا الآلهة الباطلة ، وبنوا

لها مرتفعات وأنصاباً وسواري (١ مل ١٤ : ٢٣و٢٣) وكذا هم يقولون إن نفس الملك رحبعام أشرك بالله (١مل ١٥ : ٣ و١٢) .

(٢١) أيام أبيّا — سار « أبيّا بن رحُبعام » في جميع خطايا أبيه الذي تقدم آنفاً أنه كان مشركاً ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الله (١ مل ١٥ : ٣) ولم تنزع الأصنام في مدته ، ولكن في مدة أبيه « آسا » (١ مل ١٥ : ١٢).

(٢٢) أخزيا توثن « أخزيا » ملك يهوذا بن « يهورام » (٢ مل ٨ : ٢٦) وأما الرعية فكانوا سقطوا في الوثنية بهمة أبيه « يهورام » أيام ملكه عليهم (٢ أي ٢١ : ١١ — ١٣) .

(٢٣) عثليا — « عثليا » ملكة يهوذا كانت مشركة ، لأنه هي التي أدخلت عبادة « البعل » إلى يهوذا (قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) .

(٢٤) أيام يواش — رجعت يهوذا وهم أهالي مملكة القدس إلى السقوط في الوثنية أيام الملك « يوآش » (٢ أي ٢٤ : ١٨ و ١٩) حتى انه لما قام النبي زكريا ينصحهم رجموه بالحجارة ، بأمر الملك « يوآش » في دار بيت الله (٢ أي ٢٤ : ٢٠ و ٢١) .

(٢٥) أيام أمصيا — وسقط أهالي مملكة يهوذا أيام « أمصيا » في القدس الشريفة في هوّة الوثنية (٢ مل ١٤ : ٤ و ٢ أي ٢٥ : ٢٠) كما أن ملكهم « أمصيا » كان كذلك (٢ أي ٢٥ : ١٤ — ١٦) .

(٢٦) أيام آحاز — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الوثنية أيام ملك القدس آحاز ، هم وملكهم جميعاً (٢ مل ١٦ : ٣ و ٤ و ٢ أي ٢٨ : ٢ — ٤ و ٦ و ٢٣ — ٢٥) .

(٢٧) أيام منسى — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الشرك أيام ملكهم «منسى» ملك أورشليم (٢ مل ٢ : ٢ - ١٦ و ٢ أي ٣٣ : ٢ - ١١) .

(٢٨) أيام آمون — عبد « آمون » ملك يهوذا الأصنام التي عبدها أبوه « منسى » وسجد لها ، وترك الرب إله آبائه (٢ مل ٢١ : ٢١) وهكذا الشعب (٢ مل ٢٢ : ١٧ و ٢ مل ٢٣ : ٤ — ٢٦) .

(٢٩) أيام يوشيا — وسقطوا في الوثنية أيام «يوشيا» ملك يهودا (٢ أي ٣٤: ٣ — ٧) ولكن الملك كان موحداً مصلحاً .

(٣٠) أيام يهوياقيم — سقط « يهوياقيم » ملك أورشليم وشعبه في الوثنية (٢ مل ٢٣ : ٣٧ و ٢٤ : ٢ و ٣) .

(٣١) أيام صدقيا — سقطوا في الوثنية كل أيام الملك « صدقيّا » ملك يهودا (٢ أي ٢٦ : ١٢ ١٧) .

هذا ما يتعلق بمملكة أورشليم التي هي مملكة يهوذا الجنوبية ، وأما الكلام على مملكة الأسباط العشرة الشمالية التي عاصمتها « شكيم » — وهي نابلس اليوم — فانهم بالاجمال من دون استثناء قد سقطوا جميعهم في الشرك من أول أن تشكلت المملكة الى أن زالت ، كما يعلم ذلك صريحاً من أسفار العهد العتيق ، ولا حاجة الاطالة بذكر تلك المواضيع ، ثم أيام سبي اليهود الى بابل كانوا سقطوا في الوثنية أيضاً (حز ١٤ : ٢٢ و ٢٣) .

الايمان بالله واليوم الآخر

الفائدة السادسة — عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل الشرور والأضرار كما بالمقابلة ان الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل خير ونفع ، قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ ، يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عَشيرتَهم ، أولئكَ كَتَبَ في قلوبِهم الإيمانَ ، وأيَّدهم بِرُوحٍ منهُ ، ويُدخلُهم جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنهُ ، أولئكَ

حِزْبُ اللهِ ، ألا إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المفلحونَ ﴾ (٥٨ : ٢٢) وقال تعالى : ﴿ فاذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ، فأمسِكوهُنَّ بمعروفٍ ، أو فارِقُوهُنَّ بمعروفٍ ، وأشهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم ، وأقيموا الشهادةَ للهِ ، ذلِكُم يُوعَظُ به مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٦٥ : ٢) وقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسنةٌ ، لِمَن كانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾ (٣٣:٢١) وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كانَ لكم فيهم ـ أي في ابراهيم والذين معه ـ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾ (٦٠ : ٦) وقال تعالى : ﴿ والمطلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ ثلاثةَ قُروءٍ ، ولا يَحِلُّ لهنَّ أنْ يَكتُمْنَ ما خلَقَ اللهُ في أرحامِهِنَّ ، إنْ كُنَّ يُؤمِنَّ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٢:٢٢٨) وقال تعالى : ﴿ وإذا طلَّقتُم النساءَ ، فبلَغْنَ أجلَهُنَّ ، فلا تَعضُلُوهُنَّ أنْ يَنكِحْنَ أزواجَهنَّ ، إذا تَراضَوْا بينهم بالمعروفِ ، ذلكَ يُوعَظُ به مَنْ كانَ منكم يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٢ : ٢٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمْرِ منكم ، فإنْ تنازَعْتُم في شيءٍ ، فرُدُّوهُ الى اللهِ والرسولِ ، إن كنتم تؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٤ : ٥٨) وقال تعالى : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مِئةَ جَلْدَةٍ ، ولا تأخُذْكُم بهما رأفةٌ في دينِ اللهِ ، إنْ كنتم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٢٤ ٢).

يوم الآخرة

الفائدة السابعة ـ قوله : ﴿ وهم بالآخرةِ هم كافرون ﴾ الآخرة هي اليوم الأخير الذي يبتدىء حين ترفع الشمس جاذبيتها عن الكواكب ، بإذن الله تعالى ، والأدلة متضافرة على وجود هذا « اليوم » المنتظر ، وأقربها تناولاً أنه اذا لم يكن آخرة ولا عقاب ولا ثواب ، كانت الحياة ضرباً من العبث ، لأن العدل في

هذه الدنيا غريب تائه ، لا يعرف مأوى ، ولا نرى في أعمال الناس غير المظالم الفادحة ، نرى الأشرار في رغد وهناء وسعادة ، بينما نرى الأبرار يقاسون مُرّ العذاب ، وما كان ربك ليثيب الظالمين ، فستأتي ساعة تلقى فيها كلُّ نفسٍ ما كسبت ، إن خيراً وإن شراً ، ﴿فويلٌ للذين كفروا من مَشهَدِ يومٍ عظيم﴾ (٣٧:١٩) ﴿ولَنِعمَ دارُ المُتَّقينَ﴾ (١٦ : ٣٠) .

الايمان بالآخرة والطوائف التي لا تعتقد به

الإيمان بالآخرة هو دين ابراهيم وأولاده سواءاً كانوا من سلالة إسحق ، أو من سلالة إسماعيل ، إنما وجد من سلالة إسماعيل طائفة من العرب كانوا لا يعتقدون بالآخرة : ﴿وقالوا ماهِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا ، نموتُ ونَحيا ، وما يُهلِكُنا إلا الدهرُ﴾ (٤٥ : ٢٣) ، كما أنه وجد من سلالة إسحق طائفة يقال لهم « صَدُّوقيُّون » نشأوا كما قاله « يوسيفوس » نحو سنة (١٥٠) ق.م أنكروا القيامة ، لأنهم أنكروا خلود النفس ، أي اعتقدوا أن النفس تموت مع الجسد ، فاذا كانت النفس قد تلاشت عند الموت ، لم يبق باب لحياة الجسد ، وهؤلاء طائفة صغيرة في اليهود ، وسطوتهم قليلة بين الشعب ، وكان لهم ميل شديد الى الفلسفة وكانت أفكارهم دنيوية ، وكان اعتبارهم للديانة الموسوية اعتباراً سطحياً ، وهم اذا رفضوا تعليم « القيامة » سقط عندهم تعليم الثواب والعقاب ، وهم يرفضون الاعتقاد بالملائكة والأرواح . (هذا مايؤخذ من قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) ومن « الكنز الجليل » في تفسير الانجيل للدكتور وليم أدي الاميركاني .

وقد كان يوجد شيعة في الاسلام يقال لهم « الخطابية » زعموا أن الدنيا لا تفنى ، وأن الجنة هي ما يصيب الانسان في الدنيا من خير ، وأن النار هي مايصيبهم من شر ، وقريب منهم فرقة يونانية ، يقال لها « التناسخية » يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن لابعث ولا آخرة ، وأما اليوم فيوجد فرقة ، يسمون

أنفسهم « بالبهائية » ، مركز تبشيرهم بدينهم عكا وحيفا ، وهم لا يعتقدون بالآخرة ولا بالملائكة بالمعنى الذي نعرفه ، بل يأولون ذلك بأن الآخرة هي آخرة الأفراد أو الأمم في الدنيا ، وأن الملائكة هم خيار الناس وملحاؤهم ، هذا ماتيسر لنا الآن ، والله تعالى أعلم . (مرحي)

ثم نهض العالم الثالث وهو العلامة الحموي وقال :

اتباع يوسف ملة آبائه بعد التفكير

يقول السيد الصديق عليه السلام : انه قبل أن يتبع ملة آبائه وأجداده ، كان تحرر واستقل وافتكر في ملل الناس ونحلهم فلم ترق له ولم تعجبه ، فلزم ملة آبائه وأجداده ، لأنه رآها بالبرهان الساطع أحسن من غيرها من ملل المعاصرين ، ونحل المجاورين ، فلم يكن متبعاً لملة آبائه لمجرد التقليد المحض ، حسب العوائد المطردة ، عند أكثر الناس ـ حاشا له من ذلك ـ بل إنما كان ذلك بعد الإيغال في التأمل والتفكر العميق ، ذلك لأنه كان تولّد فيه منذ الصغر الميل الى البحث عن الأسباب ، والتماس البرهان عن كل شيء ، فنشأ لا يبالي إلا بحقائق الأمور ، ولا يحترم سوى العقيدة التي يطمئن لها القلب ، ويثلج بها الصدر ، وذلك لا يكون إلا غبّ الاستقلال ، وبعده التفكر ، ثم الانتحال، فكأنه يقول:

إني حررت نفسي من كل تقليد ، وركنت الى الاستقلال الفكري ، واستخدمت العقل ، وتعمقت في التفكير ملياً ، حتى وصلت بالبرهان والتعقل لملة التوحيد ، التي هي ملة آبائي وأجدادي ،وانا إذا لم أكن قد حررت نفسي سابقاً من كل تقليد ولم أركن الى الاستقلال الفكري ، فلست مستحقاً أن أقوم بالدعوة الدينية ، التي أطلب فيها من المدعو أن يعمل نظير ماعملت ، يتحرر ويستقل ويعتمد على البراهين ، حتى يصل للعقيدة الحقة .

الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له

وقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أي لا يؤمنون بوجوده مطلقاً كالدهرية والمادية والطبيعية ، ولكن الاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، ولا تكاد تخلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد إله ، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، ولذلك فيمكن أن يكون قد عنى بقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ انهم لا يؤمنون به كما يجب له من « الانفراد » خلافاً « للوثنيين » ، ومن « الاختيار » خلافاً لفريق من « علماء الهيئة » ، ومن « إحاطة » علمه بكل شيء ، حتى الجزئيات ، خلافاً « للفلاسفة » ، ومن أنه « خالق كل شيء » خلافاً « للمانوية » ، ومن كونه هو الذي تقدم له وحده أنواع « العبادات » كلها ، وأنه هو « الشارع » ، لا غير ، خلافاً للمشركين له في « الألوهية » ومن أنه « لم يتولد من شيء . ولم يتولد عنه شيء » ، خلافاً « للنصارى » ومن أنه تعالى واحد ، ليس اثنين هما الأب والابن ، خلافاً « للمكدونيين » الذين يقولون بالوهية الآب والابن فقط ويرفضون ألوهية الروح القدس ، فهم لذلك نصارى مثنية وإمامهم في ذلك مكدونيوس ، أسقف القسطنطينية ، ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته الألوهية ، خلافاً للنصارى « الملكانية » الذين يقولون بالثالوث وبطبيعتين ، « فالثالوث » معناه الآب إله والابن إله والروح القدس إله ، والكل إله واحد ، ومعنى الطبيعتين أن لأقنوم الابن طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو طبيعة الانسان وطبيعة الاله ، وكل طبيعة على حدتها لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، وهؤلاء مثل اللاتين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت ، فهؤلاء يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد ، أو باقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم : « إنها أم الاله ، أو أم الله ، أو والدة الاله » .

ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته ، ولكن طبيعته ليست تمتزج بطبيعة الانسان ، خلافاً للنصارى « اليعاقبة » مثل السريان القديم والأرمن والأقباط بمصر وكانت اليعقوبية منتشرة في « غسان » وسائر قبائل الشام ، وكذا في نصارى « نجران » ، فهؤلاء الطوائف يعتقدون أن المسيح طبيعة واحـــدة متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالانسانية أوبالعكس ، وهؤلاء هراطقة [1] في نظر الملكانية .

ومن أنه تعالى واحدذو أقنوم إلهي واحد، خلافاً «للنساطرة» القائلين بأقنومين أقنوم إلهي ، وأقنوم بشري ، كلاهما ممتاز عن الاخر ، والأول مشرق على الثاني إشراق الشمس على الكون تقريباً ، وبناء عليه هم لايقولون عن السيدة مريم انها أم الله ، بل أم الانسان فقط وهم على كل حال على غير حق ، وان كانوا أقرب اليه بالنسبة لمن سواهم ، حتى مؤرخي النصارى اعتبرهم « كالأريوسيين » ولذلك وقع اتفاق النصارى الملكانية واليعقوبية على ان هؤلاء النسطورية هراطقة ومعظم أهالي هـــذا المذهب في العجم وفيما بين النهرين (دجلة والفرات) « في جبل النساطرة » وعند منابع نهر الزاب وبحيرة أرمية ، وبين الفرات وحدود إيران وجنوبي الهند وفي الموصل على دجلة ، وفي أذربجيان ، ويسمون « الكلدان » ، وكانت النسطورية منتشرة في « الحيرة »

ومن أنه تعالى واحد ولا دخل فيه للانوثة والذكورة ، خلافاً « للمريميين » من النصارى ، فانهم يقولون بربوبية العذراء . وهؤلاء كانوا بجزيرة العرب وهم معدودون في نظر جميع الطوائف النصرانية هراطقة ومن أهل البدعة .

ومن أنه تعالى ليس إله جمال فقط ، ولا إله أرياح فقط ، ولا إله قبيلة

---

(١) الهراطقة الخارجون على الدين عند النصارى .

واحدة دون أخرى ، ولا أمة واحدة دون سواها ، خلافاً لقدماء اليونان ، و . . و . . الخ الخ .

عقيدة الايمان الكاملة بالله

تلخص عقيدة الايمان الكاملة بالله بأنه : (هو اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصمدُ ، لم يلدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحدٌ) (١١٢)،(وربُّك يخلُقُ ما يشاءُ ويختارُ) (٦٨:٢٨) وهو (خالقُ كلِّ شيءٍ) (١١٢:٦) ، (إياكَ نعبُدُ وإياكَ نستعينُ) (٤:١) وهو (ربّ العالمين) (١:١) ، (ولله ما في السموات ومافي الأرض) (٣ : ١٠٩) ، (هُوَ الذي خلقَ لكم مافي الأرض جميعاً) (٢٩:٢) (الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما) (٢٥:٥٩) (اللهَ ربَّكُمْ وربَّ آبائكم الأوَّلينَ) (١٢٦:٣٧) (اللهُ الذي سخَّر لكم البحر) (٤٥:١١) ،(وألقى في الأرض رواسيَ أنْ تميدَ بكم) (١٥:١٦) ، (اللهُ الذي رفعَ السموات بغير عمَدٍ ترَوْنَها) (٢:١٣) . (وهو الذي يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رَحمَتِهِ) (٥٦:٧) ، (جعلَ لكم الأرضَ بساطاً) (٧١ : ١٩)، (واللهُ جعلَ لكم مِنْ أنفُسِكُم أزواجا) (٧٢:١٦) (واللهُ أنبَتكُم مِنَ الأرضِ نباتاً) (١٧:٧١) ، (وعندَهُ مفاتِحُ الغَيبِ لا يَعلمُها الا هو ، ويَعلَمُ مافي البرِّ والبحر ، وما تَسقُطُ مِنْ ورقةٍ الا يَعلَمُها ، ولا حبة فى ظلماتِ الأرضِ ، ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مُبينٍ) (٦ : ٥٩)، (إن اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ) (٢٠:٢) ، (إنّ ربَّكَ هو القويُّ العزيزُ) (١١ : ٦٦) « أحسنت »

يوسف (ع) يبدأ بالدعوة الى التوحيد

آ (٣٨) ﴿ واتَّبعْتُ مِلّةَ آبائِي ، إبراهيمَ واسحاقَ ويعقوبَ ، ما كانَ لنا أنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شيءٍ ، ذَلكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ، ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يَشكُرونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثلاثون فقام السيد فتح الله اليماني وقال: يقول يوسف : (واتبعت) مع تمسكي بالدليل والبرهان (ملة آبائي ابراهيم و) ابنه (اسحق و) ابنه (يعقوب)الأنبيـــاء الكرام ، المعروفين في العراق وسورية والحجاز وفلسطين ، فأنا بحمد الله من بيت نبوة وتوحيد ، (ما كان) ما صحّ (لنا)نحن معاشر الأنبيـــاء (أن نشرك بالله من شيء) لا شيئاً من الشرك ولا شيئاً من الشركاء ، فلا نشرك في عبادته ، وهو شرك الألوهية ، كما لا نشرك معه غيره ، وهو شرك الربوبية ، و (ذلك)التوحيد (من فضل الله علينـــا) معاشر الأنبياء الهادين (وعلى الناس) المهتدين ، فلذلك نحن وهؤلاء الناس شاكرون له فعلا بتمسكنا بالتوحيد ، وشاكرون له قولاً بتقديرنا هذه النعمة واعترافنا بهذا الفضل ، وثناءنا لله عليه (ولكن أكثر الناس) مع الأسف خاصة هؤلاء المصريين (لا يشكرون) نعمة التوحيد ، لا فعلاً باتباعهـــا ، ولا قولاً بالثناء على مجديها . ووجه كون التوحيد من فضل الله انه تعالى نصب الأدلة التي ينظر فيهـا الانسان ويستدل بها ثم لطف بمن لطف حتى توفق للتوحيد ، وقـد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكنهم لم ينظروا ولم يستدلوا اتباعاً لأهوائهم فبقوا كافرين غير شاكرين ، قال تعالى : (وقليلٌ مِنْ عبادي الشكور) (٣٤ : ١٣) والشاكرون في المائة لا يتجاوزون عدد الأنامل ، ولا حركات العوامل .

واتبعت ملة آبائي ، ابراهيم واسحق ويعقوب

— ١ —

وقام صنع الله الصيداوى [1] وقال :—

ملة آباء يوسف

كان يوسف عليه السلام تابعاً لملة آبائه ، عقيدة وشريعة ، وكان تابعاً في ذلك لأبيه يعقوب ، التابع لأبيه اسحاق ، التابع لأبيه ابراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، (فالملة) هي في البدء لابراهيم ، وأما أنساله المذكورون ، فتابعون له فيها ، وإن كانوا أنبياء . ومن أمثلة ذلك أن أنبياء بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام، تابعون له في شريعة التوراة وعقيدتها ، مؤيدون لها ، مفسرون لمعانيها ، حاضون على العمل بها والرجوع اليها ، مع ان كل واحد منهم ، نبي ، وقد يكون البعض منهم رسولا أيضاً ، وقد يكون كثير منهم أصحاب أسفار جديده .

اصول الدين الموجودة في كل ملة موحدة

نعلم من سابق قوله : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ولاحق قوله (واتبعت ملة آبائي الخ) ان ملة آبائه هذه التي اتبعها هي الايمان بالله وبالآخرة ، ثم بالطبع كل من آمن بالله والآخرة لزم أن يعمل عملا صالحاً ، وهذه الثلاثة هي أصول دين الله تعالى الموجوده في كل ملة ، لا يتباين فيها دين ودين ، بل الأديان فيها سواء ، قال تعالى :(إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والنصارى والصابئينَ ، مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحا ، فلهم أجرُهُم عندَ ربِّهم ،ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون)(٢:٦٢) وقال تعالى:

---

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

﴿ يُؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ ، ويأمُرونَ بالمعروفِ ،ويَنهَونَ عنِ المُنكَرِ ، ويُسارِعُون في الخَيْراتِ ، وأولئكَ مِنَ الصَّالحينَ ﴾ (٣ : ١١٤) ، وقال تعالى: ﴿وماذا عليهم لَوْ آمَنوا باللهِ واليومِ الآخرِ وأنفَقوا مما رَزَقهم اللهُ؟، وكانَ اللهُ بهم عليماً ﴾ (٤ : ٣٨) ، وقال تعالى : ﴿ إنَّما يَعْمُرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، ولم يَخْشَ إلاّ اللهَ ، فعسى أولئك أنْ يكونوا مِنَ المُهتَدين ، أجَعَلْتُم سِقايةَ الحاجِّ وَعِمارَةَ المسجدِ الحرامِ كمَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وجاهَدَ في سبيلِ اللهِ ؟ لا يَستَوونَ عِندَ اللهِ ، واللهُ لايَهْدِي القومَ الظالمين ﴾ (٩ : ١٩و٢٠) وقال تعالى : ﴿ ومِنَ الأعرابِ مَنْ يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، ويَتَّخِذُ مايُنفِقُ قُرُباتٍ عندَ اللهِ وصَلَواتِ الرسولِ ، ألا إنها قُرْبَةٌ لهم،سيُدخِلُهُم اللهُ في رَحْمَتِهِ ، إنّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ ﴾ (٩ : ١٠٠) ، وقال تعالى : ﴿قاتِلوا الذينَ لايُؤمِنونَ باللهِ ، ولا باليومِ الآخِرِ ، ولايُحرّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ، ولا يَدينُونَ دِينَ الحقِ مِنَ الذينَ أوتُوا الكتابَ ، حتى يُعطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ ، وهم صاغِرُون ﴾ (٩ : ٣٠) وقال تعالى : ﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيْباً ، فقالَ : ياقومِ اعبدوا اللهَ ، وارْجُو اليومَ الآخِرِ،ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسِدينَ ﴾ (٢٩ : ٣٦) ، وقال تعالى : ﴿ لقدْ كانَ لكم في رسولِ اللهِ أسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، وذَكَرَ اللهَ كثيراً ﴾ (٣٣ : ٢١) ، هذا مايحضرني الآن من الآيات التي تجمع الأصول الثلاثة المهمة ، وهي الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح .

اركان الايمان الستة

ويزاد على هذه الثلاثة ثلاثة أيضاً ، وهي : الايمان بالملائكة والأنبياء والكتب السماوية ، ومجموع الستة هو أركان الأيمان ، وهذه الستة مذكورة في نحو قوله

تعالى : ﴿ ليسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبلَ المَشْرِقِ والمغربِ ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِر ، والملائكة والكتاب والنَّبيِّينَ ، وآتي المال (على حُبِّهِ) ذَوي القُرْبَى واليَتامى والمسَاكينَ ، وابْنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والموفونَ بعهدِهِمْ إذا عاهَدوا ، والصابرينَ في الباساء والضراء وحينَ البأسِ ، أولئكَ الذين صَدَقوا وأوْلئكَ هم المتَّقونَ ﴾ (٢ : ٢٧٦)

العمل بأركان الايمان شرط مهم في الدين

فالعمل شرط مهم لا ندحة عنه ، إذ ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب اليه ولا مجرد فهمه ومعرفته حق المعرفة ، فان ذلك لا يهدي إلى خير ، ولا يدفع شراً ، وإنما العمل الانتفاع بكل ماجاء فيه ، هو الذي يرقي صاحبه إلى ذرى الكمال ، وذلك « كالطب » ، فانه لا يكفي أن يعتقد الإنسان أنه نافع ، ويبرأ من مرضه وأوصابه ، وإنما يحصّل ذلك باستعماله والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، ولذلك حرصت جميع الأديان على تبيان هذه الحقيقة للناس ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا باللهِ ورسولهِ ، ثمّ لمْ يَرْتابوا ، وجاهَدوا بأموالهم وأنفُسِهم في سبيلِ اللهِ ، أولئكَ هُمْ الصادقون ﴾ (٤٩ : ١٥) ، وقال تعالى: ﴿ ليسَ البرَّ أنْ تولّوا وُجُوهَكُم ﴾ الخ الآية التي تقدمت ، فالبار الصادق التقي هو بحكم هذه الآية من جمع بين العقيدة الصحيحة ، والأعمال البدنية والمالية والأخلاق الحميدة ، وقال تعالى ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أماني أهلِ الكتابِ ، مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ بهِ ، ولا يَجِدْ لهمن دونِ اللهِ وَليّاً ولا نصيرا ومن يعملْ مِنَ الصالحاتِ ، منْ ذكرٍ وأنثى ، وهُوَ مؤمنٌ ، فأولئكَ يَدْخُلونَ الجَنّة ، ولا يُظلَمُونَ نقيراً ﴾ (٤ : ١٢٢ و ١٢٣) وفي القرآن الكريم : ﴿ وقالوا : لَن تمسّنا النارُ إلاّ أياماً معْدُودَةً قلْ : أتّخذْتُم عِندَ اللهِ

عَهْداً ؟ فلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أمْ تقولونَ على اللهِ مالا تَعْلَمونَ ؟ بَلى مَنْ كَسَبَ سيِّئةً وأحاطتْ به خطيئَتُهُ ، فأولئكَ أصحابُ النارِ ، هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنةِ ، هُمْ فيها خالدونَ ﴾ (٢ : ٨٠ – ٨٢) وفي القرآن الكريم : ﴿ وقالوا لَنْ يَدخلَ الجنةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أو نصارى ؟ تلك أمانيُّهُمْ ، قُلْ : هاتوا بُرهانَكم إن كنتم صادقينَ ، بَلَى مَنْ أسْلَمَ وجهَهُ للهِ ، وهو مُحْسِنٌ ، فَلَهُ أجرُهُ عِندَ ربهِ ، ولاخَوفٌ عليهم ، ولاهم يَحزَنون ﴾ (٢ : ١١١ و ١١٢)

ونقل عن المسيح مامعناه : « كل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت ، فلم يسقط ، لأنه كان مؤسساً على الصخر ، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها ، يُشبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت فسقط ، وكان سقوطه عظيما » (مت ٧ : ٢٤ – ٢٧) ونقل عنه أيضاً مامعناه : « ماذا تظنون ؟ كان لإنسان ابنان ، فجاء إلى الأول وقال يابني ، اذهب اليوم اعمل في كرمي ، – فأجاب وقال : ما أريد ؛ ولكنه ندم أخيراً ومضى ، وجاء الى الثاني وقال كذلك – فأجاب وقال : ها أنا ياسيد ، ولم يمض ، فأي الاثنين عمل إرادة أبيه ؟ قالوا له : الأول – قال لهم يسوع : الحقَّ أقول لكم ، إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » . (مت ٢١ : ٢٨ – ٣١)

عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد

كان نسب يوسف عليه السلام غامضاً عند المصريين ، وكان يحسب أنه من غمار

الناس ، سواء أيام وجوده عبداً في بيت العزيز ، أو في أزمنة سجنه ، ولكنه لما وجد أنه اضطهد اضطهاداً زائداً ، وقد حانت له الفرصة ، أظهر نسبه أمام الفتيين فبهتا عند سماعهما كلامه ، وعظم في أعينهما أكثر من ذي قبل ، إذ قال لهما إني متولد من سلالة الموحدين ، دعاة التوحيد ، وقد اتبعت ملتهم وهم إبراهيم وإسحاق عليهما صلوات الله ورحمته وبركاته ، ويعقوب حفظه الله : فإن كنتما ممن سمع بهم فقد كفا كما ما سمعتماه وإن كنتما لم تسمعا بهم ، فسلوا عنهم من أهل « مابين النهرين » وأهل مملكة « آرام » ومملكة « أبي مالك » .

وغني عن البيان أنه لايريد بهذا القول الفخار بذكر سلسلة النسب ، لأن سائر الشرائع السماوية جاءت تدعو لمحو التعصب للقبيلة والتمسك بالأنساب ، ففي الحديث الشريف : « المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » ، ولكن يوسف عليه السلام ذكر آباءه ضمن ذكره اتباع عقيدة التوحيد ؛

أو تقول : ذكر ذلك على سبيل التحدث بالنعمة ، لاعلى سبيل الفخر والمنجهية وعلى كل فهو « ديمقراطي » صميم ، وليس فيه شيء من « الثيوقراطية » .

وهنا نذكر الشيء بالشيء فنقول إن إبراهيم عليه السلام ولد سنة (٢٦٢٠)ق.هـ وكل حياته (١٧٥) سنة ، وبعد (١٠٠) سنة من عمره ولد له إسحاق عليه السلام فيكون إسحاق قد عاش مع أبيه (٧٥) سنة ، وكل حياة إسحاق (١٨٠) سنة ، وبعد ٦٠ سنة من عمره ولد له يعقوب عليه السلام ، فيكون يعقوب قد عاش مع أبيه (١٢٠) سنة ، وكل حياة يعقوب (١٤٩) سنة ؛ وبعد (٩٣) سنة من عمره ولد له يوسف عليه السلام ، فيكون يوسف قد عاش مع أبيه (٥٦) سنة ، وبذلك أمكن ليوسف أن يتلقى التوحيد ويتلقنه جيداً من أبيه يعقوب ، كما أمكن ليعقوب أن يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إسحاق ، كما أمكن لاسحاق أن

يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إبراهيم ، فضلا عن أن كل واحد منهم قد صار فيما بعد نبياً ورسولا كريماً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم .

إذا تقرر هذا ، فقوله : ﴿ واتبعت ملة آبائي .. الخ ﴾ يحمل على اتباع فرد من أفراد الأمة لنبيها ، بالنسبة لمدته التي قبل نبوته ، حينما كان من أمة أبيه يعقوب تابعاً صرفاً له ، ثم صار بعد ذلك رسولا ، كما قال : ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ من قبلُ بالبينات فما زِلتُم في شك مما جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ ، قلتم : لن يَبْعثَ الله مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف في هذا مع أبيه نظير « لوط » عليه السلام مع عمه إبراهيم ، حيث كان قبل نبوته فرداً من أفراد أمة عمه ، تابعاً له ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ (٢٩ : ٢٦) ، ثم صار لوط من بعد ذلك نبياً ورسولاً ، كما قال تعالى ﴿ وإنَّ لوطاً لَمِنَ المُرسَلِينَ ﴾ (٣٧ : ١٣٣) وهكذا كان « يوشع بن نون » فتى موسى بالنسبة لموسى ، وسليمان بالنسبة لأبيه داود ، عليهم جميعاً الصلاة والتسليم .

﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾

— ١ —

وقام مولانا صنعة الله الهندي وقال :

يوسف ينهي عن الشرك بالله واسلوب القرآن في

استعمال النفي بمعنى النهي

يقول يوسف عليه السلام : (إن كل شيء من أمر الجاهلية والتوثن هو تحت أقدامنا ، هو موضوع ليس له قيمة ، هو خلاف قضية العقل ، ولا يجوز لنا شرعاً ولا عقلاً أن نجعل لله شريكا في عبادته وطاعته ، كما في ربوبيته) أو هو نفي بمعنى

النهي ، أي لننته عن الشرك . ويوجد في القرآن من هذا الأسلوب الشيء الكثير ، واليكم بعض الشواهد :

(١) قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمَّن منَعَ مساجِدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسمُهُ ، وسعَى في خرابِها ؟ .. أولئكَ ما كانَ لهم أن يَدخلوها إلاّ خائفين ﴾ (٢ : ١١٤) ، أي لا ينبغي للمؤمنين أن يمكنوا هؤلاء من دخول مساجدهم، إذ ما كان لهم في حكم الله وشرعه أن يدخلوها إلا خائفين ، فهذا النفي كناية عن نهي المؤمنين من أن يمكنوا أحداً من الخاق الأذي بمساجدهم .

(٢) قوله تعالى ﴿ وما كان لكم أن تُؤذوا رسولَ اللهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) ، أي لا يباح لكم ذالكم ، فهو نفي للاباحة ، أو هو نهي بمعنى لاتؤذوا ..الخ .

(٣) قوله تعالى ﴿ لايمَسُّهُ إلا المُطهَّرونَ ﴾ (٥٦ : ٧٩) ، أي لايجوز لهم مسّه بغير طهر ، أو هو نهي في المعنى أي لايمسّه إلا المطهرون .

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ ، على المؤمنينَ سبيلاً ﴾ (٤ : ١٤٠) أي لم يكن ليجعل من أحكام شريعته ، مايلزم المسلمين بالخنوع والانقياد لأحكام الكافرين ، ولا يوجب عليهم السكون والطمأنينة لسلطانهم ، لأنه يريد أن تكون كلة الذين كفروا هي السفلى ، وكلمته هي العليا، أو هو محمول على النهي ، والمعنى لاتجعلوا أيها المؤمنين سبيلا عليكم للكافرين ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ﴾ (٤ : ٥٨) ، فكلمة « منكم » صريحة في أنه ليس المؤمنين أن يطيعوا أولي الأمر من غير أنفسهم إلا أن يتقوا منهم تقاة ، الى غيرذلك من الشواهد والأمثال القرآنية.

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الانبياء

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الأنبياء حتى المسيح ، فالمسيح

ماجاء لينقض الناموس ، الذي أساسه التوحيد ، بل ليتمم ، ولكن « بولس » الذي هو أفضل مقدس عند النصارى ، نقض الناموس حجراً حجراً ، ولبنة لبنة ، مع انه يوجد عندهم نصوص واضحة في عقيدة التوحيد ، وإنما هم مع الأسف ـ أهملوها وأولوها وحرفوها .

نصوص عقيدة التوحيد في الانجيل

منها ـ قول المسيح : (وهذه هي الحيـــاة الأبدية أنْ يعرفوكَ أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) (يو ١٧ : ٣) فبيّن أن الله تعالى هو الإله وحده ، وأن يسوع المسيح إنما هو رسوله فقط ، وهـذا هو الذي دعا إليه القرآن ، وهو عندهم بمثابة ماهو عندنا ، من قولنا : « لا إلهَ إلا اللهُ، محمدٌ رسولُ الله » ، وكان يجب أن يكون هذاالنص أساس عقيدتهم ، يرد اليه بالتأويل كل مايوهم خلافه ، لأجل المطابقة بين المنقولات بعضها مع بعض ، ولأجل موافقة المنقول للمعقول .

ومنها ـ أن احد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا ، فأجابه يسوع : أول الوصايا « إسمعْ ياإسرائيل : الرب آلهنا رب واحد ـ فقال له الكاتب : جيداً يامعلّم بالحق نطقت ، لأنه واحد ، وليس آخر سواه ... فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له : لست بعيداً عن ملكوت السموات » (مر ١٢ : ٢٩ و ٣٢ و ٣٤) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدةالمعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلاتأويل، فان فرضنا أنه ورد ماينافيها ، وجب رده اليها .

الشرك في الربوبية والشرك في الالوهية

والمراد من قوله : ﴿ ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ نـفي جواز نوعي

الشرك في الربوبية ، أي الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية اما الشرك في الربوبية فهوان يطاع غير الله في أمر ونهي ، وتشريع وتحليل وتحريم ، وبعبارة أخرى : ان ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم لذاته، فهذا هو الشرك في الربوبية ، المشار إليه بقوله : (أأرباب متفرقون خير ؟) الخ وقد فسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً بطاعتهم فيما يحلون ويحرمون .

والشرك في الألوهية ، هو أن يعبد مع الله سواه ، وبعبارة أخرى ، أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية العامة ، فترجو نفعه وتخاف ضره ، وتدعوه وتذل له . سواء شعرت في توجه قلبك إليه بأنه ينفعك بذاته ، أو بتأثيره في إرادة الله تعالى ، بحيث يفعل لأجله مالم يكن يفعله لولاه ، بمحض فضله ورحمته ، فهذا هوالشرك في الألوهيه ، المشار اليه بقوله تعالى: ﴿ماتعبدون من دونه ألا أسماء .. ﴾ الخ (آ ٤٠٠) .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس)

— ١ —

وقال جمال الدين البغدادي : —

-(التوحيد فضل من الله على عباده)-

يقول يوسف : إن ماذكر من الترك والاتباع ، الذي حاصله ملة التوحيد ، هو من فضل الله علينا ، لأنه وإن يكن بكسبنا وأعمال أفكارنا وسعينا ، ولكننا إنما وصلنا اليه ، وحصلنا عليه ، بتوفيق الله تعالى ، أو إن (ذلك التوحيد هو من فضل الله علينا) وليس علينا نحن خاصة ، بل (وعلى) عموم (الناس) لأنه الوسيلة العظمى ، لجمع كلمة الخلق ، والذريعة الكبرى لانتظام أمور معاشهم ، فحسن العاقبة في معادهم . وكيف لا .. وان فكرة الحب الانساني العام هي ناشئة

عن الاعتقاد بوحدانية الله ، الله الذي نحن جميعاً (رعيته)وهو (الملك) الواحد الأكبر لجميع هؤلاء (الرعايا) فاذا (المملكة) واحدة و (مليكها) واحد و(الراية) واحدة ، و (التابعية) واحدة ، اذاً فنحن (إخوة) في الدين ،وليس بيننا (أجنبي) في هذه (المملكة الدينية) ، أو إن (ذلك)التوحيد (من فضل الله .؟ الخ) فهو مائدة مباركة منصوبة لمن يريد الجثو حولها ، والتناول منها، فنصب هذه المائدة هو من محض كرم الله على عباده ، وأما التوجه اليها وتغذية الروح بها ، فهو متعلق بكسبنا ، ولا ينال إلا بعمل الفكر وسعي العقل ، ومع كل ذلك ، فهذا التوجه لهذه المائدة ، يحتاج الى لطف وتيسير ، من الله تعالى ، فعلى كل نحن أسراء فضل الله تعالى الموهوب والمكسوب ، قال الشاعر :

فله سبحانه الحمد دوماً ولــه الشكر بكرة وعشية

وهذا القول (ذلك من فضل الله علينا ..) يذكرنا بقوله تعالى : (يابني اسرائيلَ : اذكروا نِعمَتي التي أنعمتُ عليكم ، وأنّي فضّلتُكُم على العالمين) (٢:٤٦) ، فهذه التفضلة التي فضلهم الله بها على عالمي زمانهم ، أي على الأمم المعاصرة لهم هي (التوحيد) الذي ذكر انه من فضل الله على بيت ابراهيم .

ومع ذلك فهو لم يخص شخصه ولا بيته بهذا الفضل ، بل قال : (وعلى الناس) فعممه للجميع ، موافقة للواقع .

المؤمنون اخوة

فالشرائع السماوية تهدم (الوحدة القَبَلية) (والوحدة العنصرية)وتكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس والعنصر ، فالمؤمنون كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره ، قال تعالى ؛ (إنما المؤمنون إخوة) (٩:١٠) وقال : (إنّ أكرَمَكُم عند اللهِ أتقاكم) (٤٩:١٣) ،

وقال عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية) وقال ﷺ : (من دعا الى عصبية فمات ، مات ميتة جاهلية) ، وقال أيضاً : (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) ، وقال (ﷺ) : (الناس سواسية) ، وقال : (ربّ أشعث أغبر ، لو أقسم على الله لأبرّه) ،

(المرء باعماله لا بنسبه)

وثبت في الصحيح انه ﷺ قال : (من بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه) ، رواه مسلم ، وخطب النبي (ﷺ) في خطبة الوداع : (أيها الناس ، إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى).

وقال الشاعر :

الناس من جهة التمثيل أكفاء   أبوهم آدم والأم حـــواء
فإن يكن لهم من قبل ذا نسب   يفاخرون به فالطين والماء

وقال :

وإني وإن كنت ابن سيد (عامر)   وفي السر منها والصريح المهذّب
فما سوّدتني (عامر) عن ولادة   أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتّقي   أذاها ، وأرمي من رماها بمنكبي

فهذا مع إمكانه أن يفتخر بالآباء ، لم يفتخر إلا بنفسه ، وقد أخذ هذا المعنى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

فقال :

لسنا وإن أحسابنا كرمت   يوماً على الأحساب نتــــكل
نبني كما كانت أوائلنــــا   تبني ونفعل مثل ما فعـــلوا

ورآى (المأمون) يوماً رجلاً ، من أبدع النـــاس زياً ، ووقاراً وهيبة ، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فسأل عنه المأمون ، فقيل له : « إنه عالم من العلماء» فأنشد عند ئذ قول الشاعر :

كن ابن من شئت واتخذ أدباً ... يغنيـك مأثوره عن النسب
إن الفتى من يقول :ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول : كان أبي

وتكلم رجل عند (عبد الملك) بكلام ، ذهب فيه كل مذهب ، فقال له وقد أعجبه : (ابن من أنت ياغلام ؟ — فقال : ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، الـتي نلت بها هذا المقعد منك ، — قال : صدقت) واخذ هذا المعنى (ابن دريد)فقال:

كن ابن من شئت وكن مؤدباً ... فانمـا المرء بفضل حسه
وليس من تكرمـــه لغـــيره ... مثل الذي تكرمـه لنفسه

قالت عائشة (رض) مامعناه : (اذا كرمت أفعـــال الانسان لم يضره لؤم آبائه ، واذا لؤمت ، لم ينفعه كرم آبائه) وقال المعري :

لو يعلم الانسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبــــده
لولا سجاياه وأخلاقه ... لكان كالمعدوم في وُجْده (١)
ومجده أفعاله لا الذي ... مِنْ قبله كان ولا بَعـدِه

وقال الحريري : تباً لمفتخر ، بعظم نخر ، انما الفخر بالتقى ، والادب المنتَقَى.

وما الفخر بالعظم الرميم وانما ... فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

وهذا (عصام) الجرمي ، الذي ترقى الى أن صار حاجباً عند (النعمان بن المنذر) ، لم يكن شريفاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشد الناس بأساً ، وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، فصار أقربهم الى النعمان ،

---

(١) في وجده في وجوده

قال له رجل يوماً : (كيف بلغت هـــذه المنزلة من الملك ، وأنت دنيء الأصل ؟) ـــ فقال :

نفس عصام سوّدت عصامـا وعلمته الكرّ والاقدامــــا
وصيرته سيداً هماما

وبذلك صار يقال : (كن عصامياً ، ولا تكن عظامياً) أي افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم .

وللسيد رئيس المؤتمر :

إني وإن أكُ فرع بيت طاهر ما ينبغي لي أن أكون بفاخر
لكن فخاري بالوداعة والتقى والعلم والقلب السليم العامري[١]

﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾

— ١ —

وقال الاستاذ فكرة التركي :

الغمز من قناة الفتيين ، ادب الانبياء في الخطاب

يقصد يوسف من قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ أن العدد الجم من الغفلة لايشكرون الله بتوحيده ، بل يكفرون به إذ يشركون ، فان كثرة النعم أكثر من الحصى ، وقد أراد يوسف (ع) بقوله هذا غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من الشكر في شيء ، ولكنهما بالعكس كفرا بنعمة التوحيد ولم يستعملا فيها قواهما العقلية .

ويلاحظ أنه لم يقل (ولكن أكثركم لاتشكرون) كما أنه قال : (ياصاحبي

(١) قوله العامري فيه تورية لأن اصول السيد رئيس المؤتمر القدماء من محلة بني عامر في بلدة غزة هاشم .

السجن) (آ : ٢٩) ولم يقل (أيها المسجونان) وقال ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ (آ : ٤٠) ولم يقل (ولكن أكثركم لاتعلمون) تحسيناً للجواب ما أمكن ؛ وتلطيفاً للخطاب ماتيسر ، كما قال تعالى : ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ) : (١٦ : ٢٥) وقال : ﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لِنْتَ لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ ، لانْفَضّوا مِن حولِكَ ﴾ (٣ : ١٥٩) وقال تعالى : ﴿ وإنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ (٦٨ : ٤) ؛ وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ومظاهر أمره ، كلهم حكماء رحماء لطفاء أصحاب أخلاق كريمة وذوو خطابات أدبية ، خلافاً « للبولسيين » الذين نقلوا (كما في مت ١٥ : ٢٢ — ٢٨) أن امرأة كنعانية صرخت للمسيح ليشفي ابنتها المجنونة ، وكانت تقول له : (ارحمني ياسيد يا ابن داود) ، فلم يجبها بكلمة ، فصارت تصيح وراءه ، حتى طلب تلاميذه منه صرفها ، فقال لهم : (لم أرسل إلا الى خراف إسرائيل الضالة) فجاءت وسجدت له قائلة : (ياسيد أعني) — فقال لها : (ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) — فقالت له : (نعم ياسيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها) — حينئذ شفى لها ابنتها بعد هذا العناء العظيم ، والالحاح الكبير . فانظر الى هذه الجوابات القاسية ، والخطابات اليابسة ، في مقابلة كلام تلك المرأة اللطيف ، وخطابها الأديب ؛ بل إنهم نقلوا عنه أيضاً أنه كان يخاطب قومه بني اسرائيل بالسب واللعن بأفحش الألفاظ ، كقوله : (أيها المراؤون ، والقادة العميان والجهال والحيات أولاد الأفاعي) (مت ٢٣ : ١٣ — ٣٦) ، وقوله : (إن العشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله) (مت ٢١ : ٣١) ، كل هذا نقوله ، ونحن بريئون منه الى الله ، ولا نعتقد أنه صدر من السيد المسيح ، وإنما ننقله الزاماً للخصم ، وإظهاراً لما

تجر اليه قصص هذه الأناجيل ، وبياناً لكمال وأدب البولسيين مع السيد المسيح عليه السلام ! ! (هـذا ماأعطانا الله وألهم ، وهو بالحقائق أعلم)

يوسف (ع) يدعو الى التوحيد

آ(٣٩) ﴿ ياصاحِبي السِّجْنِ ، أأرْبابٌ مُتَفرِّقُونَ خَيْرٌ أمْ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ ؟ ! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثلاثون فقام العلامة التونسي وقال :

يقول يوسف (ع) بلسان الهادىء الداعي مخاطباً الفتيين السجينين : (ياصاحبي السجن) أي ياصاحبي في السجن ، وقد أضاف صاحبيه الى السجن كما تضاف الليلة للسارق في قولك : ياسارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف ، خاطبهما بذلك تحبباً اليهما وتودداً لأن النصح علاج مر فليصحبه شيء من حلو الكلام ، مثل : يابني اسرائيل . ياأهل الكتاب . ياأيها الذين آمنوا التي صدرت بهـا جمل الوعظ في كتاب الله المجيد ، (أأرباب متفرقون) في العدد والتكاثر ، أو مختلفون ، أي أن تكون لكما أرباب شتى يستعبدكما هـــذا ، ويستعبدكما هذا (خير) لكما (أم الله الواحد) أي أم يكون لكما الله الواحد الذي لا يشارك في ربوبيته ولا في الوهيته (القهار) الذي لايغالب بل هو الغالب ؟ أفتوني مأجورين ، أفيقوا من نومكم وأجيبوني — وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام المصرية كالفراعنة والعجول ، أبيس وبوخيس وغيرهما ، والشمس والتماسيح ونحوها من معبودات قدماء المصريين : الذين كانوا يعتقدون

بالحلول السام . وانبثاث الروح الالهي في العالم ، انبثاثاً متفاوتاً على قدر مافي المخلوق من مزايا وقوى .

ياصاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ؟!

— ١ —

وقال السيد عبد العال البحريني(١) وقال

يوسف يهدي الفتيين بالمحاجة والاقناع

وقف يوسف ، وقد القى على صاحبيه الفتيين نظرة الجد والحماس ، وقال : أيها الصاحبان . واحد منكما رآى نفسه في (المنام) أنه يحمل الكأس في يده للملك ، وثانيكما رآى نفسه في « الحُلم » « يحمل الخبز على رأسه ، وأما أنا بدوري فاني أراني في « اليقظة » أحمل بين جنبي قلباً ملىء عبرة دينية ، وتوفرت لديه أسباب الدعوة والارشاد ، ولذلك وبهذه المناسبة أقول لكما : « ناشدتكما الله أ أرباب متعددون متشاكسون ، متعادون ، مختلفون ، أفضل ياترى ؟ أم الله الواحد القهار ؟ افتكرا وأجيباني ، إذ يجب أن يكون لنا أدمغة ، كما لنا رؤوس ، فابحثا فيما بعد هذه الجلسة ، في ذات أنفسكما ، هل تريان ضميركما يشهد أن الأرباب المتعددة ، سيما المتشاكسة المختلفة ، خير من الواحد ؟ أظن أن جوابكما سيكون باختيار الشق الثاني ، فان لم يحضركما شيء في هذا الموضوع الآن ، فأجيباني فيما بعد.

ياشريكيّ في عواطفي وبلاي ، ياشريكيّ في هـــذا السجن الذي هو مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، ومحل الهوان ، ياشريكيّ في السجن الذي تصفو فيه المودة ، وتخلص النصيحة ، ياشريكيّ في هذا السجن الذي تصير فيه الأعداء أصدقاء والبُعَداء أنسباء ، أفتياني في سوآلي .

(١) نسبة الى البحرين احدى الامارات العربية في شرق جزيرة العرب .

أنا لا أزيد كما علماً في ذلك ، فانتما تعرفان حق المعرفة ، وتحسنان أن تجيبا عنه الجواب الشافي ، فأترك الجواب فى ذلك لكما ، لتحكما بما يوحي به اليكما الوجدان الطاهر ، والعقل الكامل ، أنتما فطنتان عاقلان ، فلا توقعا نفسيكما فيما يخالف العقل السليم ، والنقل الصحيح ، فعسى أن تصغيا الى نداء الضمير ، وتعطيا جواباً يرضاه الواقع .

أنا لا أريد أن أسادركما فيما تعتقدان ، ولا أقصد أن أهجم عليكما هجمة قاهرة بل كل الذي أريد منكما أن ترجعا الى عقولكما ، وتستفتيا ضمائركما ، وتسألا وجدانكما ، أطالبكما بالحاح أن تتأملا . فان الحقيقة بنت الفكرة ، والتدبر قنطرة الصواب ، والاستدلال بريد اليقين .

انظرا بعقولكما ، ولا تدوساها تحت أقدامكما ، فان الله إنما أنعم عليكما بها لتستعملاها ، انظرا لاتستبد بكما رجال دينكما الكهنة المصريون ، كما يستبد رجال الأديان الأخرى بعقول عوامهم ، ليكن دينكما عقلياً منطقيا ، ولا يكون دين تقليد وجمود ، غير موافق للعقل والمنطق .

هذا مايرمي اليه كلام يوسف عليه السلام ، وقد أبرز وسطها في سوره الاستفهام ، حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام ، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج بقبلها ، فدا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها ، ثم كذالك الى أن يصل الى الاذعان بالحق .

وأما الفتيان فلم يجيبا يوسف على سوآله بشيء ، كيف وهماقد يؤلمها ويكوي غرورهما وكبرياءهما أن يكون جوابهما : ﴿ الله الواحد القهار خير ﴾ .

وليسمح لي السادة أن أتكلم الآن كلمة عن الديانة الوثنية بمصر .

الديانة الوثنية بمصر

علمنا أن يوسف عليه السلام ، جرى في خطابه للفتيين على طريقة الاختصار

وأجمل الكلام إجمالاً ، ولم يشأ أن يتوسع في تسمية آلهة المصريين الدنيئة ، مثل العجل (أبيس) والتماسيح والهرر ، بل وكل الحيوانات المنحطة ، ولم يطلق لنفسه العنان في قباحة اعتقادهم (بالثالوث) الأقدس ، المركب من أب وأم وابن ولهم ثواليث متعددة،أي مجموعة آلهةثلاثة، ثلاثة ،كما في الثالوث المسيحي ،إلا أن المسيحيين ليس لهم إلا (ثالوث واحد) وأيضاً ان المسيحيين يعتقدون أن الثالوث هو إله واحـــد ، ولكن المصريين لايعتقدون أن ثالوثهم إله واحد ، بل ثلاثة ، غير أنهم يعملون معاً ، وكان لكل مدينة معتبرة (ثالوث) يحرسها ويستحق عبادتها على نوع خاص ، ومن أشهر ثواليثهم (اوسوديس وايسيس وهورس) .

إن ديانة المصريين هي الشرك كباقي الأمم القديمة في فينيقية وأشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة والعرب ؛ والمصريون يعتقدون بآلهة كثيرة فائقة العدد ،ويعتقدون بانبثاث الآلهة في كل العالم ، فعندهم ان كل شيء فيه جزء من الألوهية بحيث يستحق العبادة ، فأجازوا السجود لكل مخلوق ، وأجازوا أن يكون الانسان إلهاً ومألوهاً في وقت واحد (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) (٧ : ١٢٦) ، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (٢٨ : ٣٨) ، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٧٩ : ٢٤) .

كان لكل مدينة في مصر معبود لايشبه معبود ما يجاورها من المدن ، وكانوا يسمون الإله في هليوبوليس(را) وفي منفيس (أمون) ، وكان لهم في منفيس ثور يدعى (أبيس) وفي جهة أخرى ثور يدعى (بوخيس) وكانوا يعبدون الشمس والليل والفجر والاسد والكبش وابن آوى وغير ذلك من الحيوانات .

(مرحى)

ياصاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟

— ٢ —

وقام الأستاذ الازهري (من علماء الأزهر) وقال :

سأسرد على مسامع أعضاء المؤتمر الفوائد التي تضمنتها هـذه الآية الكريمة :

واجب الواعظ نحو الموعظين وأمثلة من القرآن

الفائدة الأولى — نجد أن يوسف (ع) قد خاطب الفتيين بأنهما رفيقاه في السجن ، وعشيراه في هـذه المحنة ، تزلفاً اليهما ، وارتباطاً بهما وإيناساً لنفوسهما ، واحتراماً لشخصهما ، ذلك كله تمهيداً لما سيذكره من وعظهما ودعوتهما ، وهذا أسلوب لطيف في الوعظ ، كما تقول الوعاظ اليوم .

(أيها الاخوان) مثلاً ، ومنه نعلم أنه ينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بكلمة تشف عن ارتباطه بالموعوظين واحـــترامه وتنزله لهم ، وحفظ كرامتهم ، لكي يستعدوا بذلك لقبول الموعظة ، الأمر الذي يشفع الواعظ بسبب مايستلزمه الوعظ من فطنة الاهانة ، فعندئذ يسهل على الناس احتمال الوعظ ويقرب قبولهم إياه ، وقد قال صاحبنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان : «النصح علاج مر ، فليصحبه شيء من حلو الكلام » وهذه طريقة القرآن الكريم التي جرى عليها كثيرة جداً ، واليك بعض أمثلة ذلك :

أولاً — قال تعالى : ﴿ يابَني إسرائيلَ ، اذكُروا نِعمَتيَ التي أنعمتُ عليكم وأنيّ فضّلتُكُم على العالمين، واتقوا يوماً لا تَجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا يُقبلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخذُ منها عَدلٌ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢ : ٤٧) .

أراد تعالى أن يأمرهم بالتقوى فاستهل ذلك أولاً بتشريفهم بأنهم سلالة يعقوب ، وأنهم مهبط نعمة الله ، وأنه تعالى فضلهم على معاصريهم .

ثانياً — قال تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل ، اذكُروا نِعْمَتِي التي أنعمتُ عليكم وأوْفُوا بِعَهدِي أوفِ بعهدِكم ، وإيايَ فارهبونَ ﴾ (٢ : ٤٠) .

ثالثاً — ﴿ يا أهلَ الكتابِ ، لِمَ تَكفُرونَ بآيات اللهِ ، وأنتم تَشْهَدون؟ يا أهلَ الكتاب لِمَ تلبِسُونَ الحقّ بالباطلِ ، وتكتُمونَ الحقّ ، وأنتم تَعْلَمونَ ؟ ﴾ (٣ : ٧٠ و ٧١) .

رابعاً — ﴿ يا أيها الذين أوتُوا الكتاب ، آمِنُوا بما نَزَّلنا مُصدِّقاً لما معَكم ﴾ الخ (٣ : ٤٦) .

وتراه إذا أراد وعظ المؤمنين وإرشادهم يقول : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا ، لا تقولوا « راعِنا » وقولوا « انظُرنا » ﴾ (٢ : ١٠٤) ، ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ، استعينوا بالصبر والصلاةِ ، إنّ اللهَ مع الصابرينَ ﴾ (٢ : ١٥٣) ، ويقول : ﴿ يا أيها آمَنُوا ، ادخلوا في السِّلْمِ كافّةً ، ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ ، إنّهُ لكم عَدوٌّ مُبين ﴾ (٢ : ٢٠٨) .

كما إنك تراه إذا خاطب كفار أهل مكة ، ناصحاً ومرشداً لهم يقول : ﴿ يا أيها الناسُ اعبُدوا ربَّكم الذي خلقَكم والذين مِنْ قبلِكم لعلكم تَتقون ﴾ (٢ : ٢١) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناسُ ، كلُوا مما في الأرضِ حلالاً طيِّباً ، ولا تتّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ إنّه لكم عَدُوٌّ مُبينٌ ﴾ (٢ : ١٦٨) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربّكم الذي خلقكم مِنْ نفسٍ واحدةٍ ، وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا الله الذي تساءَلون به والأرحام ، إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٤ : ١) .

هذا .. وأما نحو «قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَاأَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ »(١٠٩ : ١و٢) الخ فهو ليس من باب الوعظ والارشاد ، ولكنه من نوع التنصل والانفصال ، ولم يرد في القرآن الكريم « ياأيها المنافقون » قط ، فافهم دقائق كتـــاب الله ، والا فالسلام عليك .

واجب المصلح المرشد

الفـائدة الثانية ـ نتعلم من هذه الآية أن الرجل المصلح المرشد ينبغي أن لايفتر عن تعليم الناس وإرشـادهم في كل حين ، وفي أي مكان ، وعلى أي حال ، من عسر أو يسر ، من ضيق أو فرج ، من سرور أو حـزن ، فهذا النبي يوسف الصديق قام بالنصح والارشاد وهو في سجنه ، قياماً بحق الانسانية ، ووفاء بواجب الدين ، نصح ولم تعقه ضيقة السجن ، ولا زور التهمة عن أن يقشع عن النـاس سحب الضلال ، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ، ويجلوها بجلاء المعارف والحكمة ، فكان بذلك من المحسنين ، فليقم العلماء والمرشدون ، الى انتشال الأميين من وهدة الجهل ، وليرفعوهم الى سماء الفضيلة ، وليعمموا العلم بين أفراد الأمة

كما نتعلم من كلام السيد الصديق درساً آخر ، وهو أنه ينبغي للعالم المرشد أن لايبخل برشده وهدايته على أحد مطلقاً ، حتى لو كان غريباً في الوطن أو الجنسية ، فقد نصح عليـــه السلام للمصريين ، وهو غريب عن وطنهم وعن جنسيتهم ، فلا ينبغي للعالم اذا وجد في بلد غير بلده ، أو بين أقوام ليسوا من جنسه ، أن لا يقرأ درس الوعظ والارشاد ، ولا يقوم بهداية العباد ؛ بل عليه ذلك اقتداء بهذا النبي الصديق وباقي الأنبياء الكرام ، الذين لم يقتصروا في هدايتهم وإرشادهم على أهل وطنهم ، وذوي جنسيتهم ، بل عمموا العلم للجميع . . .

الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا اكراه في الدين

الفائدة الثـالثة ـــ نتعلم من هذه الآية مع ماقبلها وما بعدهـــا ، أن الدعوة الى

الحق . لا تكون بالسيف والسنان ، ولكن بالدليل والبرهان ، وذلك كما قال تعالى : «فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر»(٨٨: ٢١و٢٢)،وقال تعالى: «من يطع الرسول فقد أطاع الله ،ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً»(٤: ٧٩) وقال تعالى : ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ﴾ (٤٢ : ٤٨) وقال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال تعالى : ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ (٩: ١٣٠) وقال تعالى:﴿وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل﴾ (٦:٦٦) وقال تعالى : ﴿فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (٣٩:٤١) ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟﴾(٢٥:٤٣) وقال تعالى : ﴿ قل ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها ، وأنتم لها كارهون ؟ ..﴾ (١١:٢٨) ، وقال تعالى :﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ، ولي دين﴾ (١٠٩ :) وقال تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون ﴾ (١٠:٤١) وقال تعالى : ﴿ الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾ (٤٢:١٥) ، فمعنى قوله (لا حجة) لا خصومة ، لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به ، فلا حاجة الى المحاجة ، وهو على نية

مضاف ، أي لا ايراد حجة ، وقال تعالى : ﴿ لا إِكْراهَ في الدينِ ، قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ ﴾ (٢:٢٥٦) ، وسبب نزول هذه الآية مارواه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : (كانت المرأة تكون مقلاة (أي لا يعيش لها ولد) ، فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده ، فلما اجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبنائنا) ، فأنزل الله (لا إكراه في الدين) ، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : (نزلت « لا إكراه في الدين » في رجل من الأنصار من بني سالم ابن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكرههما ؟ ، فانهما قد أبيا إلا النصرانية) فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير انه حاول إكراههما ، فاختصموا الى النبي ﷺ فقال : (يارسول الله ، أيدخل بعضي النار ، وأنا أنظر ؟) ولابن جرير عدة روايات، في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا ، وان المسلمين بعد الاسلام أرادوا (إكراه) من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب — على الاسلام فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال عندما أنزلت :(قدخيَّرَ الله أصحابكم ،فان اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم)

هذا هو حكم الدين الذي يزعم كثيرون من أعدائه أنه قام بالسيف والقوة ، قالوا : (إنه كان يُعرض على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه) ، هذا كلام أعداء الإسلام ، وهو تعنت أو جهل وإلا فهل كان السيف يعمل عمله في « إكراه » الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفياً ، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع التعذيب ولا يجدون رادعاً ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون : إن ذلك « الاكراه » وقع في المدينة بعد أن اعتز الاسلام ؟ ، وهذه الآية قد نزلت

في غرة هذا الاعتزار ، فإن غزوة « بني النضير » كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، وقال البخاري إنها كانت قبل غزوة « أُحـــد » ، التي لاخلاف في أنها كانت في شوال ، سنة ثلاث للهجرة ، وكان كفار مكة لايزالون يقصدون المسلمين بالحرب .

لقد نقض « بنو النضير » عهد النبي ﷺ فكادوا له وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه « باكراه » أولادهم المتهودين - على الاسلام ، ومنعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين « الاكراه » على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (٢ : ٢٥٦) .

وقبل أن نختم هذا الموضوع نريد أن نذكر قوله تعـــالى : ﴿ وقلْ للذينَ أوتوا الكتابَ والأميّينَ ، أأسلمتم ؟ ، فان أسْلَموا فقداهتَدَوْا ، وإن تَوَلّوْا فإنما عليكَ البلاغُ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد ﴾ (٣ : ٢٠) ، فبهذه الآية نص قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله .

هذا وأما حديث : (أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فاذا قالوها ، عصموا مني دمائهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله) فليس بالاكراه على تلك الكلمة ، لأنهم يمكنهم المهاجرة ، والرسول لايمنعهم منهـا ، ولأن المراد (بالناس) العرب في الجزيرة الذين كانوا استحقوا القتـال باعتداءاتهم المتوالية على المسلمين ونقضهم المواثيق والعهود التي جـاء ذكر نقضهـا في الآيات التي قبل هذه الآية ، وجرت القاعدة الإلهية غالباً ، أنه متى قيـــل في القرآن : (ياأيها الناس) مثلا ، فالمراد قريش وسائر عرب الجزيرة .

أو أن المعنى حتى يقولوها ولو ظاهراً بلسانهم ، غير مكلفين أن يعتقدوها بدليل التعبير « بالقول » وبكلمة « وحسابهم على الله » ، فيكون الغرض كف شرهم فقط ، لأنهم اذا تظاهروا بالاسلام ، لم يقدروا على إيذاء المسلمين المخلصين ؛

وهناك وجه رابع في الجواب عن هذا الحديث ، وهو أنه وقع فيه اختصار من الراوي له ، إذ الأصل : (أمرت أن أقاتل الناس — أي قريش — حتى يتمكن مريد الاسلام من قوله لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدينُ لله ﴾ أي حتى يصلوا في الضعف الى أن لا يقدروا أن يفتنوا المؤمنين ، وهو يدل على أن الغرض من القتال كان ايجاد الحرية للمسلمين في العقائد الدينية ، قال تعالى : ﴿ ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يكونَ له أسْرَى حتى يُثخِنَ في الارض ﴾ (٨ : ٦٧) .

والذي يضطرنا الى نحو هذه التأويلات قرائن منها رواية الترمذي في سننه عن جابر انه بعد أن أتم الحديث السابق قرأ قوله تعالى : ﴿ إنما أنتَ مُذَكِّر ، لستَ عليهم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (٨٨ : ٢٢) ، فهذه الآية التي استشهد بها رسول الله ﷺ تؤيد ما قلناه في معنى الحديث ، وإلا فأي مناسبة بينها وبينه ؟ ومنها التوفيق بين الحديث المذكور وبين الآيات القرآنية الكثيرة مثل قوله : ﴿ وقل الحقُّ مِن رَبِّكُم ، فمَنْ شاءَ فَليؤمِنْ ومَنْ شاءَ فَليَكفُرْ ﴾ (١٨ : ٢٩) و (ليسَ عليكَ هُداهُم) (٢ : ٢٧٢) ﴿ إنكَ لا تَهْدي مَنْ أحبَبْتَ ولكنْ اللهَ يَهْدي مَنْ يشاء ﴾ (٢٨ : ٥٦) و ﴿ ولو شاءَ ربُّك لآمنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهمْ جميعاً . أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنينَ ﴾ (١٠ : ٩٩) و ﴿ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكم ، لا يَضُرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتُم ﴾ (٥ : ١٠٨) و ﴿ لا تَسُبُّوا الذين يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ ،

َفيَسُبُّوا اللهَ َعدْواً بغيرِ عِلْمٍ ، كذلكَ زَيَّنا لكلِ أمةٍ َعمَلَهُم ، ثم إلى ربهم َمرْجِعُهُم ، َفيُنَبِّئُهم بما كانوا َيعْمَلون ﴾ (٦ : ١٠٨) و ﴿ وإنْ أحدٌ مِنَ المشركين استجارَكَ فأجِرْهُ حتى َيسْمَعَ كلامَ اللهِ ، ثم أبْلِغْهُ َمأمَنَهُ ، ذلكَ بأنّهم قومٌ لا يعلمون ﴾ (٩ : ٧) وهذه الآيات وأشباهها ليست منسوخة كما قال بعض الناس ، وقد ورد في الحديث الشريف : (سيكون أناس يضربون القرآن بعضه ببعض ليبطلوه ويتبعوا ما تشابه منه ، ولكل دين مجوس وهم مجوس أمتي وكلاب النار).

انطباق الآية على معتقد البولسيين من النصارى ورد استدلالهم على معتقدهم في ألوهية المسيح

الفائدة الرابعة — ما أصدق هذه الآية الشريفة على « الثالوث » معتقد البولسيين فانه يحتوي على أرباب متفرقين في الجوهر ، متفرقين في العمل ، أما كون هذا الثالوث مركباً من أرباب ، فلأنهم قالوا ، إنه مركب من الآب وهو رب وإله ، والابن وهو رب وإله ، والروح القدس وهو رب وإله ، والثلاثة واحد ، وأما كون هذه الارباب الثلاثة ، أو الاقانيم الثلاثة أو الجواهر الثلاثة ، أو ما شاءوا يقولون — متفرقين في الاصالة ، فلأن أصل الجميع أقنوم الآب ، وأما الأقنومان الآخران فمشتقان منه أو متوالدان منه ، أو ما شاءوا يقولون ، وأما كون هذه الثلاثة متفرقين في الجوهر ، فلأنهم قرروا أن جوهر الآب شخص مستقل قائم بنفسه وكذا جوهر الابن ، ومثله جوهر الروح القدس ، وأما كون الثلاثة متفرقين في العمل ، فلأن الآب هو خالق ما كان وما يكون ، والابن به كان ما كان وبه يكون ما يكون ، والروح القدس ، هو الذي يبث العلم والنور والهدى في قلوب الناس كما كان هو الناطق بالانبياء .

هذا ومن المدهشات استدلال النصارى على معتقدهم في ألوهية المسيح بقوله خطاباً لله تعالى: ﴿ أنت فيَّ وأنا فيك ﴾ (يو ١٧ : ٢١) ولكن هذه الجملة مقتطعة من مقال طويل، لو سمعه الانسان لم يقدر أن يستنتج منه معتقدهم، وإليك نقل هذا المقال، في دعائه لأتباعه هكذا: (ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني، وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد، أنا فيهم وأنت فيَّ، ليكونوا مكمّلين الى واحد، وليعلم العالم انك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني) (يو ١٧ : ٢١ - ٢٣)، وينقلون أيضاً عن المسيح عيسى أنه قال: (إني أنا في أبي، وأنتم فيَّ، وأنا فيكم)(يو ١٤ : ٢٠)، فهذه العبارات ان ادعوا أنها تدل على ألوهية المسيح، فلا شك أنه يلزمهم أن يقولوا، إن تلاميذه أيضاً آلهة، لأن ماعبر به عن نفسه، عبر به أيضاً عنهم بلا فرق، وقريب من هذه التعابير، قول النبي ﷺ لعليّ (رض): (أنت مني وأنا منك) أخرجاه في الصحيحين من حديث البراء بن عازب، وفيهما عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّت نفقة عيالهم في المدينة، جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد، ثم قسموه بينهم بالسوية، هم مني وأنا منهم) وكذلك قال ﷺ عن جليبيب: (هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه)، رواه مسلم في صحيحه عن أبي برزة.

التثليث عند المصريين القدماء

الفائدة الخامسة — كان المصريون القدماء، ومنهم المعاصرون ليوسف عليه السلام — من أهل «التثليث» ولكن ليس لهم «ثالوث» واحد، بل كل مقاطعة تعبد «ثالوثاً» وكان أصحاب هيكل «منفيس» يعتقدون بثالوث مركب من «الله» قبل كل شيء، ثم «الكلمة» ومعها «روح القدس» ولهؤلاء الثلاثة طبيعة

واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » : (لاريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس « كلمة » هو من أصل وثني مصري ، دخل في غيره من الديانات كالمسيحية ، و « أبولو » المدفون في بلدة « دهلي » في الهند يدعى « الكلمة »،وفي علم اللاهوت الاسكندري الذي كان يعلّمه القسيس « بلاتو » قبل المسيح بسنين عديدة ، « الكلمة هي الإله الثاني » وتدعى أيضاً « ابن الله البكر » ، فالمصريون يقولون بلاهوت الكلمة ، وان كل شيء صار بواسطتها ، وانها «منبثقة» من الله ، وانها هي الله ، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية ، وكذلك «أرسطو» وغيرهما ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بقرون (كذا قاله «بونويك» في كتابه « عقائد قدماء المصريين ») ، وهو أشبه شيء بما في مفتتح إنجيل«يوحنا» بلا فرق ، ولكن اعتقاد مبشري المسيحيين « مقدس » ، واعتقاد قدماء المصريين « نجس » !!! وبمناسبة ذكر التثليث عند قدماء المصريين سأذكر التثليث عند باقي الأمم :

١ — (التثليث عند البراهمة) : « البراهمة » من الهند يعبدون « ثالوثا » مركباً من « برهما وفشنو وسيفا» ، وعندهم أن هذه ثلاثة أقانيم متحدة لاتنفك عن الوحدة ، فهي إله واحد ، وعندهم أن « برهما » هو « الآب » و « فشنو » هو « الابن » و « سيفا » هو « الروح القدس » .

فبرهما الآب — هو الممثل لمبادىء التكوين والخلق ، وفشنو الابن — يمثل حفظ الأشياء المكونة — من الزوال والفساد ، وهو منبثق عن اللاهوتية ، وسيفا الروح القدس ـ هو الذي له التصرف والتحويل في الكون ،ويرمزون له بصورة « حمامة » (كذا قاله « موريس » في كتابه « الآثار الهندية القديمة » ج ٢) وهذا هو نظير اعتقاد مبشري المسيحيين في « ثالوثهم » من

كل وجه . ولكن ثالوث البراهمة نجس ، وثالوث مبشري المسيحيين مقدس !!! ..

٢ — (التثليث عند البوذية) : البوذية يعبدون « بوذا » ويسمونه « فو » ، ويقولون إنه إله ، له ثلاثة أقانيم ، هذا بالنسبة لبوذيي الصين ، وكذلك بوذيو « جيسنت » يقولون إن « جيفا ـ) مثلث الأقانيم » وكذلك شيعة « تاوو » التي ابتدأت قبل المسيح بنحو ٦٠٤ سنين ، وكانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، فإن « تاوو » عندهم هو العقل الأول ، انبثق منه واحد ، ومن الثاني انبثق ثالث ، وعن هذا الثالث انبثق كل شيء ، وهذا القول بالتولد والانبثاق أدهش العلامة موريس ، لأن قائله وثني ، ولكن الانبثاق عند هؤلاء الوثنيين باطل ، بخلاف الانبثاق عند مبشري المسيحيين فانه حق !!! ..

٣ — (التثليث عند الكلدانيين) : الكلدان قوم ابراهيم لهم ثالوث مركب من « إل » و « بعل » و « حيا » وعندهم أن « إل » هو الله ، وأما « بعل » فتعريبه (كما في قاموس جورج بوست) رب أو سيد ، وهما اللفظان اللذان يلقب بهما المسيح كثيراً ، وأما « حيا » فيرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة ، فهو قريب من « روح القدس » ؛ وعليه فيكون ثالوث مبشري المسيحيين ، الأب والابن والروح القدس تفسيراً لثالوث الكلدان « إل وبعل وحيا » ولكن ثالوث الكلدان غير صحيح وثالوث مبشري البروتستانت هو الصحيح !! ! ..

٤ — (التثليث عند الفرس وأهل آسية) : قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » كان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، ويسمونها « أوزمرد ، مترات ، أهرمن » فاوزمرد الخلاّق ، ومترات ابن الله المخلّص والوسيط ، وأهرمن الملك ، ودين مبشرى البروتستانت يشبه دين هؤلاء ولكن عقيدة المبشرين صحيحة وعقيدة أسلافهم الفرس باطلة !!! ..

٥ ــ (التثليث عند اليونان) : كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ، ولكنه ذو ثلاثة أقانيم ، كذا في كتاب « سكان أوربا الأولين » ؛ وإن اليونان كانوا يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم ، ونقل « دوان » عن « اورفيوس » أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : « كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم » ، هـذا اعتقاد اليونانيين القدماء . الذين جال « بولص » في بلادهم جولات واسعة ، وامتزج بهم امتزاجاً شديداً ، ثم إن الكنيسة المسيحية بعد دخول نصرانية « قسطنطين » فيهم ، اقتبست منهم هذا التعليم ، ولكن يوجد فرق جوهري بين عقيدة هؤلاء الوثنيين، وبين عقيدة مبشري البروتستانت المحققين ، وهذا الفرق ينحصر كله في قولنا : إن عقيدة وثنيي قدماء اليونان باطلة ، وعقيدة هؤلاء السادة المبشرين حقة !!!.

٦ ــ التثليث عند الرومان : كان الرومان الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث يؤمنون بالله أولاً ، ثم « بالكلمة » ثم « بالروح » ، (كـذا في كتاب الخرافات ومخترعوها) تأليف « فسك » ص ٢٠٥ ، وهل هذا سوى عقيـدة مبشري البروتستانت اليوم ؟ غير أنهم نزلوا « الكلمة » على السيد المسيح .

٧ ــ (التثليث عند الفنلنديين): كان للفنلنديين البرابرة الذين كانوا في شمال روسية ــ إلـه اسمه « تريكلاف » ، وقد وجد له تمثال في « هرتونجرج » ، لـه ثلاثـة رؤوس على جسـد واحد ، قاله « بارخوست » في القاموس العبراني ، وتريكلاف مركب من كلمـة « تري » ومعناهـا ثلاثة ، وكلمـة « كلاف » ومعناها إلـه .

٨ ــ (التثليث عند الاسكندناويين) كان الاسكندناويون يعبدون إلـهاً مثلث الأقانيم ، يدعونها « أودين ، تورا ، فري » ويقولون : الثلاثة الأقانيم إله واحد ، وقـد كان أهل اسوج ونروج والدنيمارك يفاخر بعضهم بعضاً في بنـاء

الهياكل لهذا الثالوث، وكانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتماثيل هذا الثالوث، ويدعون «أودين» باسم الأب، «تورا» باسم الابن البكر «فوي» باسم مانح البركة والنسل والسلام والغنى، (كذا قاله «دوان» في كتابه «خرافات التوراة» ص ٣٧٧»، وغير خاف ان هذا الثالوث الاسكندناوي قريب من ثالوث مبشري البروتستانت الأذكياء، فما أشبه الليلة بالبارحة، ولكن عقيدة هؤلاء المبشرين الكرام صادقة، وأما عقيدة أسلافهم الاسكندناويين فهي كاذبة !!! ..

هذا ما تيسر لنا نقله في بحث الثواليث .

فرق النصارى الشهيرة

الفائدة السادسة ـ فرق النصارى الشهيرة ستة :

الفرقة الاولى الأريوسية : ـ « يقولون بالـه واحد، هو الله، وينفون الالوهية عن المسيح وعن الروح القدس، ويحملون ما ورد في الأناجيل من تسمية الله بالرب وتسمية المسيح بالابن ـ على المجاز، فهم من أهل التوحيد الصرف ولأجل رد قول رئيسهم «آريوس» بأن المسيح إنسان فقط، ليس فيه لاهوت فقد انعقد أول مجمع في «نيقية»، وهو محل قريب من الاستانة سنة (٣٢٧) مسيحية، ويقال له «المجمع النيقاوي» وهو الذي قرر عقيدة «الأمانة» أو «قانون الإيمان» وسمّى الآريوسيين «هراطقة» ولكن فكرة آريوس هذه، وهي عقيدة التوحيد ونفي الالوهية عن المسيح، قد انتشرت في أوربا في أواسط القرن السادس عشر، لا سيما في ايطاليا وبولاندة وترانسلفانيا، وقد اشتهرت هذه البلاد الأخيرة بأنها صارت مهد القول بتوحيد الله تعالى، ثم انتشرت كنائس الموحدين من النصارى في أوربا وغيرها، وكذلك اقيمت لهم المدارس في كبريات

المدن العلمية ، وفي كل مملكة من الممالك الاسلامية، وآريوس هذا يعتقد في المسيح عين ما يعتقده فيه المسلمون ، ويقول عن المسيح إنه ابن الله مجازاً ، وقد كان كاهناً للكنيسة الاسكندرية ، وكان معه على هـذا الاعتقاد أتباع من النصارى ورجال الدين كثيرون ، خصوصاً في الشرق ، خصوصاً في مصر وفلسطين ،وكان على مذهبه من ملوك الرومان الملك « قسطنس » والملك « فالنص » ولما فتح القوط الغربيون « اسبانيا » في القرن الخامس للميلاد كانوا يدينون بالآريوسية ، وظلوا على ذلك قرناً وبعض القرن ، وفي أواخر القرن السادس تولى اسبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » ، اتبع المذهب الكاثوليكي سنة (٥٨٧) للميلاد ، فتبعه الأساقفة ثم الرعية ، فعادت اسبانيا إلى مذهب كنيسة رومية ، ولقد كان المذهب الأريوسي مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية وقضوا نحو مئتي سنة ، وهم على مذهب آريوس ، والذين استبدلوا مذهبهم في أول الأمر إنما استبدلوه مسايرة إلى « ريكارد » ، لا عن اقتناع البرهان لأن مذهب آريوس أقرب إلى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية » قاله « جين » مؤلف تاريخ المملكة الرومانية ، وهذه الفرقة من النصارى « موحدة » .

وقد حكم المجمع الذي ألفه الملك قسطنطين سنـة (٣٢٥) ميلادية بمقاومـة آريوس وإحراق كتبـه وتحريم اقتنائها ، ولمـا انتشر تعليمه من بعـده قضى « تيودوسيوس » الثاني باستئصال مذهبه وإبادة الأريوسية بقانون روماني صـدر في سنة ٦٢٨ مسيحية ، وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضاً .

الفرقة الثانية المكدونية ـ يقولون بألوهية المسيح دون الروح القدس ، نسبة إلى « مكدونيوس » اسقف القسطنطينية ، وقد انعقد المجمع الثاني القسطنطيني سنة (٣٨١) مسيحية ، لأجل الرد على مكدونيوس الذي أنكر ألوهية الروح القدس وهذه الفرقة من النصارى « مثنية » .

الفرقة الثالثة الملكانية — يقولون بالثالوث وبطبيعتين وأقنوم واحـــد، أي للمسيح طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت، أو تقول: طبيعة الانسان وطبيعة الإله وكل طبيعة على حدتها، لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى، ومن هؤلاء اللاتين والروم الارثوذوكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت فجميعهم يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد، أو بأقنوم واحد في طبيعتين، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم إنها أم الإله أو أم الله، أو والدة الاله أو الرب، وهؤلاء طبعاً «مثلثة».

الفرقة الرابعة النساطرة — يقولون بالثالوث وأن المسيح له أقنومان، أقنوم ناسوتي وأقنوم لاهوتي، وأن أقنوم اللاهوت ليس متداخلا معه، بل هو مشرق عليه إشراقاً فقط، ولذلك فليس للمسيح عندهم سوى طبيعة واحـــدة بشرية، وأن السيدة مريم لم تلد إلا أقنوم الناسوت، فليست هي أم الإله، بل أم الانسان فقط وهم عند باقي طوائف النصارى أشبه بالزائفين ويسمونهم هراطقة، وكان معظم أهالي هذا المذهب موجوداً في العجم وفيما بين النهرين أو حوالي ذلك، ويوجدون عند منابع الزاب، وبحيرة اوزمية، وما بين العراق وحدود الفرس وجنوبي الهند، ويسمون «الكلدان»، ويوجدون في الموصل على نهر دجلة وفي أذربيجان، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الثـــالث الاقسوسيّ سنة (٤٣١) ميلادية، وينسب هذا المذهب الى «نسطوروس» أسقف القسطنطينية الذي لا يقول بالتجسد، أي تجسد أقنوم الكلمة، ولا يقول بالاتحاد، أي اتحاد أقنوم الكلمة بناسوت المسيح، خلافاً للملكانية، وقد قرر المجمع المذكور أن أصحاب هـذا المذهب هراطقة، ولكنهم على كل حال «مثلثون».

الفرقة الخامسة اليعقوبية — يقولون بالثالوث ولكن المسيح له طبيعة واحدة

واليعاقبة هم اليوم عبارة عن اربع طوائف ، السريان غير الكاثوليك أو إن شئت قلت : السريان القديم ، والأرمن والأقباط بمصر والحبشة ، فهؤلاء يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالانسانية أو بالعكس، وهم عند غيرهم من النصارى هراطقة ،ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الرابع الخَلْقيدُوني سنة (٤٥١) م وقرر الطبيعتين .

الفرقة السادسة المريمية — تقول بربوبية العذراء ، وانهـــا أقنوم آلهي ، وهؤلاء أصحاب بدعة في نظر طوائف النصارى ، (راجع خلاصة تاريخ الكنيسة للمعلم لومند الفرنسي تعريب الخوري يوسف البستاني المطبوع في بيروت ، وغيره وغيره من تواريخ الكنيسة تقف على العجب العجاب من الخلافات والتفصيلات الكثيرة) وقبل الختام وعلى ذكر « الاقباط » نقول كان الأقباط أيام أجدادهم الفراعنة في التوثن ، وما زالوا كذلك الى سنة (٣٨١) ب . م[1]، ومن هذا التاريخ اعتنقوا النصرانية بأمر « ثيودوسيس » ولكن على مذهب يعقوب البرادعي كما علمت ، وأما الرومان الذين كان لهم الانتداب على مصر فكانوا « ملكانية » ، ولذلك كان يوجد حزازات بين الحكومة الرومانية المنتدبة ، وبين القبط الوطنيين المنتدب عليهم .

شرك المصريين القدماء في الربوبية والالوهية

الفائدة الثامنة — نعلم من قوله « أأرباب ...الخ » ومن قوله الآتي « ماتعبدون ... الخ » أنه كان يوجد عند المصريين القدماء شرك في الربوبيـــة وشرك في الألوهية ، فشرك الربوبية كان عندهم باتباع رؤساء دينهم الكهنة فيما يحلون لهم وما يحرمون عليهم « وشرك الألوهية كان عندهم بعبادة غير الله تعالى كالعجل أبيس وسواه ، وقد أخذ النصارى عن المصريين وسواهم هذين النوعين من

(١) أي بعد المسيح .

الشرك ، ولذلك دعا النبي ﷺ أهل الكتاب في كتبه الى الاسلام بقوله عز وجل : ﴿ قُلْ يا أهْلَ الكتابِ تعالوْا الى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نَعبُدَ إلا اللهَ ، ولا نُشْرِكَ به شيئاً ، ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ اللهِ ، فإن تولَّوْا ، فقولوا : اشهَدُوا بأنّا مُسلِمون ﴾ (٣ : ٦٤) فأهل الكتاب طرأ على توحيدهم شرك في الألوهية باتخاذ المسيح إلهاً وعبادتهم إياه ، بل هم قد اتخذوا غيره من حوارييه آلهة بالوساطة والشفاعة ، وطرأ عليهم فوق ذلك شرك في الربوبية باتباعهم لأحبارهم ورهبانهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم . فدعاهم النبي ﷺ الى توحيد الألوهية والربوبية معاً .

وحدانيتا الربوبية والالوهية

هذا وهناك وحدانيتان ، وحدانية الربوبية ، ووحدانية الألوهية ، فأما وحدانية الربوبية فهي ترجع الى الائتمار بأمر الله وحده ، والانتهاء بنهيه وحده ، والرجوع إليه تعالى وحده في التشريع والتحليل والتحريم ، كما ورد في حديث عدي بن حاتم قال : (أتيت رسول الله ﷺ وسمعته يقرأ آية ﴿ اتَّخَذوا أحْبارَهُمْ ورهبانهم أرباباً مِنْ دونِ الله ﴾ (٩ : ٣١) فقلت له : يارسول الله ، لم يكونوا يعبدونهم ـ فقال :(أليس يحرمون ماأحلَّ الله ويحلون ماحرم الله ؟ ـ فقلت : بلى ـ قال : فهو ذاك) فالرب هو السيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى وله حق التشريع الذي يربي به الناس .

وأما وحدانية الألوهية فهي ترجع للعبادة أي حصر العبادة في الله تعالى ، فلا يسأل إلا الله ولا يستعين إلا بالله ولا يعبد سواه .

الدعوة الربوبية

الفائدة التاسعة ـ هذه الدعوة التي قام بها يوسف عليه السلام من الآية ٣٧

لآخر الآية ٤٠ هي دعوة أدبية وافية بالمقصود ، لم تخرج عن دائرة الذوق والكمال الأمر الذي هو من أوكد واجبات المناظرة ، فلم يسب تلك الآلهة الباطلة ولم يجرح عاطفة السامعين بكلمة ما ، كما في الحديث الشريف « المسلم ليس بسبّاب ، ولا لعّان » ، والله تعالى يقول : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ ، فيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٦ : ١٠٨) .

(واجب الداعي التحقق مما يدعو اليه)

الفائدة العاشرة — قوله هنا « أأرباب » الخ الآية الأربعين ، هو الأمر المقصود ، وأما ماقبله من قوله ﴿ ذلكما مما علمني ﴾ الخ الآيتين ، فهو تقدمة لهذا الغرض المقصود هنا ، أتى به قبله لأنه يجب على الداعي أن يكون متحققاً بما يدعو اليه ، لكي ينتفع بارشاده ودعوته ، قال شعيب عليه السلام : « وما أُريدُ أنْ أخالِفَكُم الى ماأنهاكُم عنهُ » (١١ : ٨٨) يقال خالفني فلان الى كذا ، اذا قصده ، وأنت مول عنه ، ويقال خالفني عنه اذا ولّى عنه وأنت قاصده ، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء ، فتسأله عن صاحبه ، فيقول : خالفني الى الماء ، يريد أنه قد ذهب اليه وارداً ، وأنا ذاهب عنه صادراً ، فمعنى عبارة شعيب : لاأريد أن أسبقكم الى شهواتكم التي نهيتكم عنها ، لاأستبد بها دونكم ، وقال تعالى ﴿ هل يستوي هُوَ وَمَنْ يأْمُرُ بالعدلِ وهُوَ على صراطٍ مستقيمٍ ﴾ ؟ (١٦ : ٧٦) يعني يأمر الناس بالخير ، وهو في نفسه على سيرة صالحة ودين قويم .

وجاء في التنزيل مافيه تقريع وتعجب من حال الذي يلقي الموعظة ، ويبسط لسانه بالأمر بالمعروف ، وهو تارك للعمل به ناحية ، قال تعالى : ﴿ أتأمُرونَ الناسَ بالبِرِّ وتنْسَوْنَ أنفسَكُم وأنتم تتلونَ الكتابَ أفلا تَعْقِلونَ ؟ ﴾

(٢ : ٤٤) ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولونَ مالا تفعلونَ ؟ كَبُرَ مقتاً عندَ الله أنْ تقولوا مالا تفعلونَ ﴾ (٦١ : ٢ و ٣)

سبب اقتصار يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد فقط

الفائدة الحادية عشرة ـ الدعوة الى اصلاح العقائد، ووضع التوحيد محل التوثن : أمر مهم يقصد منه نقل النفوس من ملة الى ملة ، ومعلوم أن تحويل النفوس من عقيدة الى أخرى صعب جداً على الداعي وعلى المدعو ، ولذلك سأل موسى عليه السلام ربه أن يشرك معه في الرسالة شقيقه هرون ، فقال : ﴿ واجعلْ لي وزيراً مِنْ أهلي هرون أخي ، اشْدُدْ به أزْرِي ، وأشرِكْهُ في أمْرِي ﴾ (٢٠ : ٢٩ ـ ٣٢) : وبعث عيسى عليه السلام الى أهل انطاكية برجلين اثنين ليدعواهم الى الايمان ، فقابلوهما بعناد وتكذيب ، فأضاف اليهما ثالثاً يؤيد بعثهما ، قال تعالى : ﴿ واضرِبْ لهم مَثَلاً أصحابَ القرية إذْ جاءها المُرسلون ، إذ أرسلْنا اليهم اثنين فكذَّبُوهُما ، فعَزَّزْنا بثالثٍ ، فقالوا : إنَّا اليكم مُرْسَلون ﴾ (٣٦ : ١٣ و ١٤) ، وبالنظر الى صعوبة ذلك وأهميته جداً اقتصر يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد ، وأما الارشاد الى أحكام الدين العملية ـ مثلاً ـ فهو أيسر من اصلاح العقائد ووضع الايمان موضع الجحود ، أو وضع التوحيد موضع التوثن ، على أن التوحيد هو الأساس ، فيجب البداءة بالدعوة اليه أولاً ، وأما الأعمال الفرعية فينبغي تأخير الدعوة اليها بعد اعتناق الأصول ، وبهذا تعلم نكتة كون يوسف لم ينه رئيس السقاة عن سقي ربه خمراً ، فتفهم هذا ، والا فالسلام عليك.

مثل من يعبد عدة آلهة والهاً واحداً كمثل العبد المملوك لشركاء عديدين أو لمالك واحد

الفائدة الثانية عشرة ـ نظير هذه الآية التي نطق بها يوسف عليه السلام قول

الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلا ، رجلا ، فيه شُركاءُ مُتَشاكِسُونَ ، ورجلاً ، سَلَماً لرجلٍ ، هلْ يَستَويانِ مثلاً ؟ ﴾ (٣٩ : ٢٩) ، فالرجل الأول مملوك من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي انه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتماورونه في مهنٍ شتى ، ومشاده (أشغال)متنوعة ، واذا بدت لهم حاجة تدافعوه ، فهو سادر (متحير) في أمره ، قدتشعبت(فرقت) الهموم قلبه ، وتوزعت (فرقت) أغراضهم أفكاره ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ؟

والرجل الثاني قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع ، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل شأناً ؟ ، والمراد تمثيل حال الرجل الأول الذي يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه ، من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ، ويبقى هو محيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد ؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفقه ؟ فهمّه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وحال الرجل الثاني الذي لم يثبت إلا إلـٰها واحداً ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما يرضيه ويسخطه ، لا يذل إلا لهذا السيد الفذ ، ولا يعتمد إلا عليه ، منه يطلب حوائجه ، وهو مع غيره حر ، مهما مسه الضر .

فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها

الفائدة الثالثة عشرة ـ لقد فتح لنا يوسف الصديق بهـذا المقال باب الوعظ والتبشير على مصراعيه ، والقرآن الكريم لايزال يرشدنا الى هذه الفكرة الحميدة، فكرة الدعوة والارشاد ، كما قال تعالى : ﴿ ولْتَكُنْ منكمْ أُمّةٌ يَدْعونَ الى الخير ، ويأْمرونَ بالمعروفِ ، ويَنْهونَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (٣ : ١٠٤)وهذا الأمر والنهي هو التواصي في قوله تعالى : ﴿والعَصْرِ إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ

إلاّ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحات ، وتَواصَوا بالحق ّ وتواصَوا بالصَّبْرِ ﴾ (١٠٣ :) ، ثم إن لهذه الدعوة الى الخير والأمر والنهي مرتبتان ، فالمرتبة الأولى هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم الى الخير ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ؛ وعليه فالخير والمعروف هو الاسلام ، والمنكر هو الشرك والكفر ، ودعوة يوسف ههنا من هذا القبيل . والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي - هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير وأمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، وعليه فالخير والمعروف هو الواجبات ، والمنكر هو الحرام .

قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَروا مِنْ بني اسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى ابن مريمَ ، ذلكَ بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون ، كانوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنكرٍ فَعلُوه ، لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلون ﴾ (٥ : ٧٨) .

صفات الداعي الى التوحيد

وإننا بمناسبة دعوة يوسف لهذين الوثنيين نريد أن نذكر ما يجب أن يكون عليه « الداعي » من الصفات :

(١) العلم التام بما يدعو اليه ، وهو العلم بالقرآن والسنة والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين . وسلف الأمة الصالح ، وأهم ما يجب أن يعلمه « الداعي » من القرآن معاني الآيات المتعلقة بالنصارى والمسيح وأمه والحواريين والآيات التاريخية التي لها علاقتها بتاريخ اليهود .

(٢) العلم بحال من توجه اليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم الاجتماعية .

(٣) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمة ، ليتيسر « للداعي » بيان ما فيها من الباطل ، فان المدعو إذا لم يتبين له بطلان ما هو عليه ، لا يلتفت الى الحق الذي عليه غيره ، وأهم شيء في هذا الباب ، الوقوف على ما عند النصارى « مثلا » من

المذاهب والتقاليد الدينيــة ، وأهم هذا الأهم ، مطالعـة كتب تواريخ الكنيسة وكتب الجدل التي لنا ولهم ، والوقوف التام على شرح ما بأيديهم مما يسمونه بالتوراة والانجيل والتمكن من مواطن الخلاف بين فرق النصارى الملكانية واليعقوبيــة والنسطورية ، وما تعتقده كل فرقة في غيرها ، مع الوقوف التام على عقائد الروم الأرثوذكس والروم اللاتين والبروتستانت ، وما تقوله كل فرقة في شأن غيرها .

(٤) — يجب أن يكون « الداعي » نزيهـاً عن السباب والشتائم والصخب ، دمث الاخلاق ، وديعاً ، حمولاً ، حريصـاً على مراعاة العواطف ، واحترام من يناظره أو يدعوه ، لا ينطق ببنت شفة تمس كرامة مدعوه ، أو تجرح عاطفته ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ الى سَبيلِ ربِّكَ بالحكمـــةِ والمَوْعِظَةِ الحسَنةِ ، وجادِلْهُمْ بالتي هيَ أحْسَنْ ﴾ (١٦ : ١٢٥) وأحسن شيء يربي في «الداعي» هذه الملكة ، مراجعته للآيات القرآنية الحاوية على الجدل المتبادل ، بين الأنبيـاء وأممهم ، والتأمل في ذلك تأملاً عميقاً ، لكي يتخلق بأخـلاق الأنبياء ، ويتأدب بآدابهم ويتحمل كما تحملوا ، ويتلطف كما تلطفوا ، فان في القرآن من ذلك العجب العجاب ، والكنز الثمين الذي لا يقدر بثمن .

اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين

الفائدة الرابعة عشرة ـ لقد حث يوسف صاحبي السجن في هـذه الآية وما بعدها ، على التوحيد ، ولم يحثهما على الايمان باليوم الآخر ، لأن ذلك كان من أكبر عقائدهم العتيقة ، من وجود يوسف بينهم ، ولولا اعتقادهم بالدينونة في اليوم الآخر ، ماقال عزيز مصر لامرأته ، لما وجدها خاطئـــة : ﴿ واستغفري لِرَبِّكِ إنَّكِ كنتِ مِنَ الخاطئينَ ﴾ (آ ٢٩) والظاهر أن هـذه العقيدة ، أتت للمصريين ، من طريق الوحي إليهم ، ولذلك كانوا يعرفونهـا قبل اليهود ،

وكانوا يعتقدون أن قلب الانسان، سيوزن يوم القيامة، لمعرفة إن كان يستحق الرحمة أو العذاب، ولعل مرادهم من ذلك هو كمراد القرآن عند المحققين، مما ذكره مشابهاً لذلك في قوله: ﴿وَنَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامَةِ، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً، وإنْ كان مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ، أتينا بها، وكفى بنا حاسِبينَ﴾ (٢١: ٤٧)، فالمقصود المبالغة في بيان دقة الحساب وكمال العدل الإلهي، في ديتونة الخلائق، كأن أعمالهم أو قلوبهم، توزن وزناً دقيقاً.

فالمصريون القدماء، كانوا يعتقدون يوم الدين، وكذلك بنو اسرائيل «طبعاً» كما يفهم من قول يوسف: ﴿إني تركتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون﴾ (آ ٣٧).

وجه عدم ذكر اليوم الآخر في التوراة

لم يذكر يوم الآخرة في اسفار العهد القديم، لأن وجود بني اسرائيل بين المصريين مدة (٤٣٠) سنة على ذمة التوراة (خر ١٢: ٤٠) أو مدة (٢١٥) سنة على ما حققه علماء التاريخ المدني ــ استدعى اقتباسهم منهم هذه العقيدة، التي كانت عالقة كثيراً بأذهان المصريين، فانتقلت منهم لبني اسرائيل، وأصبحت من الأمور التي لا يترددون في قبولها، فلذا لم يحتاجوا التذكير بها كثيراً.

وهناك وجه ثان لعدم ذكر اليوم الآخر في التوراة، هو أن اليهود، كانوا في تلك الأزمنة، قصيري الإدراك، بلداء الشعور، وكانوا ذوي رقاب صلبة (خر ٣٢: ٩)، فلذا ما كانوا يتأثرون، ولا تنفعل نفوسهم بالمواعيد الآجلة، انفعالها بالمواعيد العاجلة، التي أكثرت كتبهم من ذكرها لهم، لغلظ قلوبهم وقساوتها.

ولنا وجه ثالث في الموضوع، وهو أن كتبهم كالتوراة والزبور دخلها نقص كثير، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به، فلعل عدم ذكر اليوم الأخير، هو من أمثلة هذا النقصان، ومن أفراد ذاك الحظ الذي نسوه.

عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين بيوم الدين

لقد نجم عن عدم ذكر اليوم الأخير في كتب العهد العتيق ، ضعف هذه العقيدة في اليهود ، وكأنها مع طول الزمن ، تلاشت من بين كثير منهم ، حتى أن اليهود انقسموا الى قسمين ، قسم يعرفون باسم « فرّيسيّين » يعتقدون بيوم الدين، وقسم يعرفون باسم « صَدُّوقيّين » ينكرون البعث والقيامة (مت ٢٢ : ٢٣ ، أع ٢٣ : ٨) وههنا نتذكر قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ، لا تتولّوا قوماً غضِبَ اللهُ عليهم ، قد يَئِسوا مِنَ الآخرةِ ، كما يَئِسَ الكفارُ من أصحابِ القبور ﴾ (٦٠ : ١٣) فهؤلاء « القوم المغضوب عليهم » هم يهود المدينة ، وهؤلاء « الكفار » الذين يئسوا من أن يلاقوا أقاربهم وأصحابهم، لأنهم لا يعتقدون بالآخرة ، وهم الدهرية من العرب .

إذا تقرر هذا ، فكيف نقدر أن نفهم أن اليهود ، لا يعتقدون بالآخرة ، كالدهرية من العرب ؟ والجواب فيما يظهر لنا أن هؤلاء اليهود الذين هاجروا للحجاز كانوا من « الصدوقيين » الذين يقولون « لا بعث ولا قيامة » أو كان بعضهم « صدوقياً » وبعضهم « فريسياً » ولكن إذا طال عليهم الأمد ، وامتزج « الفريسي » بكل من « الصدوقي » اليهودي والدهري العربي ، ضعف في جميعهم الاعتقاد بالقيامة ، فيئسوا من الاخرة ، كما يئس دهريو العرب .

ضعف عقيدة اليهود بيوم الدين كانت سبباً في كون اكثر معجزات المسيح (ع) نزل على هذه العقيدة

قال الدكتور توفيق صدقي : « وكأنه لهذا ـ أي لضعف هذه العقيدة في اليهود ولكثرة الشك بين الناس فيها ـ جاء المسيح عيسى عليه السلام ، لتبيين هذه العقيدة.

العظمى ، واشتهر بالتصريح بها ، أكثر من جميع من سبقه من أنبياء بني إسرائيل ، وقد يبين قدرة الله تعالى على البعث والنشور بمعجزاته العظيمة ، كاحياء الموتى ، وخلقه من الطين طيراً ، وبوجوده هو نفسه بدون أب ، خلافاً لما اعتاده الناس ، فالله تعالى الذي أجرى على يديه كل هذه الآيات البينات (آع ٣٠ : ٢٢) لا شك أنه قادر على احياء الموتى يوم القيامة .

لذلك نرى أن أكثر معجزات السيد المسيح عليه السلام هي ما له علاقة باحياء الميت ليدل بذلك كله على قدرة الله التامة على البعث ، فان الذي خلقه بدون استيفاء أهم الشروط المعتادة ، في خلق الأحياء الراقية ، ثم احيا على يديه الموتى بل الجماد ، لا شك أنه قادر على بعث الخلائق يوم القيامة ، مهما طرأ عليهم من الفساد والانحلال والتغيير ، ومهما فقد من الشروط المعتادة أو اللازمة للحياة في هذه الدنيا ، لذلك قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ (١٩ : ٢٠) وجاء عن لسانه مكرراً في موضع واحد (٣ : ٤٩ و ٥٠) قوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي إذا علمتم مما جئتكم به من الآيات ، ان الله موجود ، وانه سيبعثكم للحساب ، يوم القيامة ، كان واجباً — عليكم إن كنتم تعقلون — أن تتقوه كل التقوى وتطيعوني .

وجود المسيح (م) من غير أب آية على وجود القيامة

وقبل ختم هذا البحث ، يجب أن لا ننسى قوله تعالى في شأن المسيح : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (٤٣ : ٦١) ، وقد قرئ ﴿ عَلَمٌ ﴾ — بدون لام — أي هو سبب للعلم بها ، فانه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل ، على إمكان البعث ، وهذه العبارة في الآية مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، فانه تعالى أطلق المسبب ، وهو العلم ، وأراد السبب ، وهو عيسى ومعجزاته ، كقولك

أمطرت السماءُ نباتاً ، وقريء (عَلَمٌ) ومعناه ان تولد عيسى من غير أب ، دليل على جواز قيام الموتى من قبورهم ، وذلك لأن فرقة من اليهود ، وهم (الصدوقيون) كما قدمته لكم ، كانوا ينكرون القيامة (مر ١٢ : ١٨) فجعل الله تعالى ولادة المسيح من غير أب ، آية لهم على وجود القيامة ، أي كما جاء أن يولد شخص بدون أب ، يجوز أن توجد الناس يوم القيامة ، بدون وساطة آباء ، بل بمحض ارادة الله تعالى .

هذا هو الاحتمال الأول لهذه الآية الكريمة ، وفيه الشاهد هنا ، ولبعض المتأخرين احتمال ثان ، وهو أن المسيح عيسى ، كان علماً لساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ، ونقلها الى بني اسماعيل ، ولهذا قال لهم المسيح : (لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ، ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه ، يسحقه) (مت ٢١ : ٤٣و٤٤) .

التعليق على قوله « ام الله الواحد »

الفائدة الخامسة عشرة : تعليقاً على قوله :﴿ أم اللهُ الواحدُ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ قُل هو اللهُ أَحدٌ ، اللهُ الصَمَدُ ، لم يَلِد ولم يُولَد ، ولم يكُن لهُ كُفُواً أَحدٌ ﴾ (١١٢ : ١ — ٤) (فالله أحد) إشارة لتوحيد الربوبية ، (والله الصمد) إشارة لتوحيد الألوهية ، الذي كان العرب على خلافه ، وقوله (لم يلد ولم يولد .. الخ) رمز لتوحيد الكمية ، الذي مشى النصارى على خلافه ، إذ أن اليعقوبية من النصارى والاتوخية ومنهم السريان القديم والأرمن والأقباط ، يقولون ان ليس للمسيح الاطبيعة واحدة لاهوتية فقط ، وليس له طبيعة بشرية ، ومن نتائج هذه العقيدة القول بأن المسيح هو الله ، وان العذراء هي أم الله ووالدة

الإله ، وأما الملكانية ، ومنهم الانكليز والفرنسيون والألمان والايطاليون والروس فيثبتون له طبيعة بشرية مع الطبيعة اللاهوتية .

التعليق على قوله القهار

الفائدة السادسة عشرة — تعليقاً على قوله : (القهار) ، بخلاف هؤلاء الأرباب التي من دون الله ، فهي مقهورة وضعيفة : ﴿ مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ ، كَمَثَلِ العنكبوتِ اتَّخَذَتْ بيتاً وإنَّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ ، لو كانوا يعلمونَ ﴾ (٢٩ : ٤١) لمثل المشرك الذي يعبد الوثن ، بالقياس الى المؤمن الذي يعبد الله ، مثل العنكبوت تتخذ بيتاً ، بالاضافة الى رجل يبني بيتاً بآجر وجبص أو ينحته من صخر ، وكما أن وهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً ، بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان ، إذا استقريتها ، ديناً ديناً ، عبادة الأوثان ، قال تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للناسِ ، وما يعقِلُها إلا العالِمونَ ﴾ (٢٩ : ٤٣) .

هذه الكلمة (القهار) تشير الى أن الرب الإله المعبود ، لايجوز أن يكون ذليلا مقهوراً ، بل يجب أن يكون عزيزاً علياً ، لأن المؤمن يجب أن يكون عزيزاً ، فبالأولى يجب أن يكون معبوده عزيزاً .

يوسف (ع) يتابع الدعوة للتوحيد

آ (٤٠) ﴿ماتَعبُدونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ أسْماءً ، سَمَّيْتُمُوها أنتُم وآباؤكُم ، ما أنزلَ اللهُ بها مِنْ سُلطانٍ ، إنِ الحُكْمُ إلاّ للهِ أمَرَ أنْ لا تَعبُدوا إلاّ إيّاهُ ، ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، ولكنَّ أكثَرَ النّاسِ لايَعْلَمونَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الأربعون فقام الشيخ مصطفى الطنطاوي وقال :

مالبث يوسف أن وجه خطابه لصاحبيه في السجن ولمن على دينهما من أهل مصر بقوله : لاأخفي عليكم أيها المصريون القدماء إنكم ماعبدتم و (ماتعبدون من دونه) أي من غيره تعالى ذات إله جوهرية مشخصة ، سوى وهم صرف وعدم محض ، بل لاتعبدون (إلاّ أسماء) لاغناء فيها ، أربأ بكم أن تعبدوها ، إذ سميتم مالا يستحق الالوهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون سوى أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات ، وهذه الخيالات المعبودة (سميتموها) سميتم بها(أنتم و) من قبلكم (آباؤكم) آلهة ، وهذه المسميات في الحقيقة والواقع مألوهة لاآلهة ، فما أشبه ذلك منكم بتسمية العرب الاناء الفارغ ملآنا ، وللسيارة الذاهبة قافلة ، وليست هذه التسمية في محلها ، بل هي كما قال القائل :

أسماء مملكةٍ في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

(ماأنزل الله بها) ولا ينزل ولن ينزل أبداً بتسميتها (من سلطان) من حجة ، إذ ليس بيدكم برهان على صحة عبادتها ، ولا عقل يسلم بذلك ، وانما هي الشبهة تروجت بتسويل الشيطان فحبلت بهذه المعبودات فولدتها ، فاذا هي تماثيل سيئة

المثال ، فمعبوداتكم وليدة شبهة ، ونتيجة تقليد ، فأي باطل أخذتم ؟ ! وأي حق رفضتم ؟ ! . . والحق الحق أقول : (ان الحكم) في أمر العبادة والدين (الا لله) وحده لا يعدوه لسواه ، ثم بين ما حكم به فقال : (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) خاصة (ذلك الدين القيم) الثابت الذي دلت عليه البراهين ، والذي يقوم ويثبت به الحق ، والذي هو وحده الكفيل باصلاح الانسانية ، والذي يحمل في كيانه العزاء للمكدودين في الحياة ومن انتابتهم مصائبها ، وحلت بهم أرزاؤها ، وهو الذي يحمل في كيانه ما يرضي النفس ويحقق لها مطامحها وآمالها في حياة أخرى ، تقوم على العدل بين الناس ، ويرتفع فيها الغبن وعدم المساواة ، وهو الذي وحده يغرس الفضائل في النفس ، وينشر العواطف الكريمة ، وأمهات الأخلاق الحسنة (ولكن أكثر الناس) أي السواد الأعظم من الناس في كل زمان ومكان (لا يعلمون) من أمر التوحيد شيئاً ، فالجهلاء على وجه الأرض أكثر من الجراد ، ولا يخلو معظم الناس أن يكون من أهل الخُرق [١] والثَّوَل [٢] لأنهم تبع لكل ناعق وناعر ، والعوام كالأنعام ، لو كانوا عبيداً لأبي يوسف ، صاحب أبي حنيفة ، لاعتقهم وأسقط ولاءه عنهم .

(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم)

— ١ —

وقام السيد الحسام المقدسي وقال :

لي ههنا عدة مسائل بها يتم تفسير الآية وهي :

اعتناق المصريين الاقباط النصرانية

المسألة الأولى — كان المصريون القدماء وثنيين منذ أول عهد الفراعنة ،

(١) الخرق بالضم والتحريك ضد الرفق ، وان لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور.
(٢) الثول الجنون يصيب الشاة .

وبقيت الوثنية فيهم الى أن دخلت النصرانية في الديار المصرية بأمر « ثيودوسيس » (سنة ٣٨١ ب.م) فاعتنقها المصريون ، وهـــم الأقباط ، فصاروا على دين الدولة الرومانية الحاكمة في مصر وانقرضت الديانة الوثنية ، وهدمت هياكلها وكسرت تماثيلها ، ولكن كان «الأقباط» متمذهبين بالمذهب « اليعقوبي » وكان «الرومانيون» أصحاب الانتداب في مصر متمذهبين بالمذهب « الملكاني » ، فالمصريون الأقباط كانوا نصارى يعاقبة ، والرومان الحكام كانوا نصاري ملكانية .

وجوب الجهر بالدعوة الدينية

المسألة الثانية ـــ رمى يوسف صاحبيه وغيرَهما من المصريين بحجر واحد ، فقال « ماتعبدون » الخ بصيغة الجمع ، أو يقال : هو لم يرد التحكك بشخصية واحد منهما ولكنه أراد الانتقاد على عمل عام أطبقت عليه الأمة المصرية، وهو عبادتها لغير الله تعالى، والمخاطبان يدخلان في كلامه دخولاً أولياً ، رآهم استعبدوا للأهواء، وخضعوا للأوهام ، وحصروا عقولهم في مضايق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم.

تعرض للطعن عليهم في دينهم ، ولم يبال بمـا يعلمه من أن كل من تعرض لدين قوم وجد المقاومة الشديدة من الأفراد ، ثم من الجماعات ، ثم من الدولة نفسها التي يمثلها الملك وبلاطه ـــ لم يبال بذلك لأنه يجب على الانسان الصدع بالأمر الديني والجهر بالدعوة الدينية على كل حال ، شأن أنبياء الله وهداة دينه .

الأمور الداعية لعبادة المعبود

المسألة الثالثة ـــ عبـادة المعبود نتيجة لأحـد أمرين : الأمر الأول شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه ، فهو لذلك يخضع له ، رغبـة فيما عنده من

الخير ، ورهبة مما يقدر عليه من الشر ، ولذلك تراه يفزع إليـــه عند الشدة ، لتخفيف ماألم به من الكروب .

والأمر الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يده من عظائم الأمور ، فالانسان يتخيل لذلك أن تلك القوة التي بهـا تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة له من الإله القادر على كل شيء ، لأنه يحبه حباً جماً ، فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته إياه ، يرجو بها رضا المعبود الأول ، الذي هو وحده خالق العالم ، وهو وحده رب السموات والأرضين ، فان كان حياً فهو الوسيلة ، وإن كان ميتاً قام قبره مقامه ، أو جعلت له صورة تمثله ، وقد تكون من حجر أو صفر أو ماشا كل ذلك ، وتعطي هذه الصورة من الخضوع ماكان يعطي صاحبها في حياته .

وقد يكون التعظم أو العبادة لحيوان من الحيوانات النافعـة أو الضارة ، أو لجماد نافع أو ضار ، لأن القوة التي أعطيها ، وبها ضر ونفع — أثر من آثار الخالق الوحيد ، وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل ، وتجعل صورته أو تمثـاله مما يُقرّب من خالق القُوى ، ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر أو فضة أو ذهب « صنماً » ؛ ويسمون الحجر الغُفْل من الصنعة « وثناً » ، وعلى ذلك ورد فى القول المأثور عنه ﷺ : (لا تتخذوا قبرى وثناً يعبد).

العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته

المسألة الرابعة — العبادة ضرب من الخضوع بالغ حـــــد النهاية ، ناشيء عن استشعار القلب بعظمة للمعبود لايعرف منشأها ، وعن اعتقاده بسلطـــــة له لايدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى مايعرفه منها ، أنها محيطة بـــــه ، ولكنها فوق

إدراكه ، فمن ينتهي الى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، وإن قبل موطىء أقدامه . مادام سبب الذل والخضوع معروفاً ، وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، أللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية ، أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً ، أو يعتقدون حلول حصة كبيرة من الالوهية في الملوك ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد الى الشرك ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً ، وعبدوهم عبادة حقيقية ، كما هو الحال في المصريين مع فراعنتهم ، والحقيقة أن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له تعالى دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد ، فيعظم تعظيم العبادة ..

ليس في المخلوقات شيء من اللاهوت

المسألة الخامسة — يريد بقوله « الاسماء » انكم سميتم مالا يستحق الالوهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات لأن معنى الالوهية فيها معدوم ، محال وجوده ، وهذا كقوله : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ﴾(٧: ٧٠) ، وقوله: ﴿ مايدعون من دونه من شيء ﴾ (٢٩: ٤٢) ، فنتعلم من هذه الآية الكريمة انه لا لاهوت في شيء من المخلوقات ، ما عبد منها وما لم يعبد ، لا فرق فيها بين الضار والنافع ، ولا بين القوي والضعيف) خلافاً لقدماء المصريين وأمثالهم.

وقريب من هذا ، وان يكن ليس من نوعه ، احترام الناس على اسمائها ، لا على أفعالها ، فتجد الانسان متى فهم أن جليسه هو من الاسرة الفلانية أهال عليه الاحترام ، وقدم له الاكرام ، جزافاً بلا كيل .

وجوب علم امور الدين علما استقلاليا استدلاليا

المسألة السادسة — سبق في الآية التي قبل هذه أن يوسف (ع) أحال المخاطبين الى غرائزهم وفطرهم ، والآن أقحم في هذه الآية كلمة « وآباؤكم » ليذكرهم بتأثير التربية التقليدية في أنفسهم ، ومناشىء عروض الشبهات لأذهانهم والزامهم الحجة بمحاسبة عقولهم ، ومخالفة التقاليد والمسلمات ، للغرائز والملكات وهم في الحقيقة تابعون لآبائهم في ذلك ، كما قال تعالى في إخوانهم من مقلدة قريش :

﴿ واذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله — قالوا : بل نَتَّبِعُ ما ألفَيْنا عليه آباءنا — أوَ لَو كانَ آباؤهم لا يَعقِلون شيئاً ولا يَهتَدون ؟ ﴾ (٢ : ١٧٠) وقال تعالى : ﴿ إذ تَبرَّأ الذينَ اتُّبِعوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا ، ورَأَوا العذابَ ، وتقَطَّعَتْ بِهم الأسبابُ ﴾ (٢ : ١٦٦) ، ومن هذا نعلم بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصبية جاهلية ، فيجب على الانسان العلم الاستقلالي الاستدلالي في أمور الدين ، لا سيما الأحكام الأساسية الاصولية ، وان في تحريم الأخذ بالدليل افتياتاً على دين الله ، ونسخاً لكتابه ، وشرعاً لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم وايجاب الجهل ، وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل . وهو أقطع المُدى لأوصال الحق . وأفعل المعاول لهدم قواعد الأديان ، وعلة العلل لانتشار البدع التي تذهب بهداية الدين ، وتستبدل بها الخرافات ودجل الدجالين .

هذا ما تيسر لنا في هذا المقام ، فتفهمه بإمعان وإنعام ، واتباع الحق أسلم ، والله تعالى بالصواب أعلم

مرحى

وتكلم بعد ئذ رئيس المؤتمر مشيراً الى أنه لم يسمع من السيد المحاضر مايشفي

الغليل في بيانه على جملة قوله تعالى : ﴿ ما أنزلَ اللهُ بِها مِنْ سلطانٍ ﴾ ، فتقدم عندئذ ستة من العلماء الحاضرين طالبين التكلم على هذه الآية فدون أسماءهم ، وقام أولهم وهو الامام الزقازيقي وقال :

(ما أنزل الله بها من سلطان).

— ١ —

اصطلاحات القرآن اللفظية

كل (سُلطان) في القرآن هو بمعنى (الحجة) كما انـــه — والشيء بالشيء يذكر — كل فعل في القرآن من (الإمطار) فهو العـذاب ودائماً بدون استثناء كما قاله البخاري ، وكل كلمـة (صَيْحة) في القرآن هي بمعنى (الهلكة) كما قاله البخاري والكشاف ، وكل (ظُلل الغَمام) في القرآن هو عذاب ، كما يعلم من البخاري أيضاً ، ويعلم من الكشاف انه متى قيل : (أتاهم الله) مثلاً فهو أيضاً العذاب ، كما اذا قيل (أتاهُم أمرنا) ، (فأتى الله بُنْيانَهُمْ) ، (أو يأتي أمرُ ربك) ، (الا أن يأتيهم اللهُ) وكل (وليّ الله) في القرآن ، فهو المؤمن التقي ، وكل (أهل الكتاب) فهو اليهود والنصارى ، وكل (يا أيها الناس) فهو كفار أهل مكة .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٢ —

ثم قام الشيخ المنصوري (١) وقال :

السلطان والحجة وتعظيم شأنهما

« السلطان » الحجة والبينة والبرهان ، وسميت الحجة سلطاناً ، لأن لها

١) نسبة الى المنصورة من البلاد المصرية .

سلطة على العقل والقلب ، أو ان اشتقاقه من السليط ، وهو الدهن ، لإضاءته ، وغني عن البيان أن الشرك بالله أبطل الباطل ، فلا يمكن أن تقوم عليه حجة من العقل ، ولا بينة من الوحي ، واذاً فما معنى قوله هنا : ﴿ ماأنزل الله بها من سلطان ؟﴾ والجواب عن ذلك انه تعالى عظم شأن « السلطان » في دينه ، وناط به تصديق دعوى المدعي وردها ، بصرف النظر عن موضوعها ، حتى كأن من جاء « بالسلطان » على الشرك يصدق فيه ، وهو من قبل فرض المحال ، فالمبالغة في مدح البرهان ، وفضل الاستدلال ، وقد قال تعالى في سياق إقامة البراهين على توحيده : ﴿ أ إلهٌ معَ اللهِ ؟ قُل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢٧:٦٤) ، على انه صرح بأنه ليس لديهم برهان فيا أقام على كذبهم فيه البرهان ؛ وكيف يكون لديهم ماهو في نفسه محال ؟ وذلك في قوله تعالى: ﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ! ، سبحانه هو الغني ، له ما في السموات وما في الارض إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ (١٠ : ٦٨) أي ليس لديكم أدنى دليل بهذا القول الفظيع الذي تقولونه ، مع أن مثله مما تبطله البراهين والدلائل البينة يحتاج مدعيه الى أقوى البراهين والحجج ، وأعظمها سلطاناً على العقول ، ومن قبيل مقالة يوسف قول سلفه هود عليهما السلام : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، مانزّل الله بها من سلطان ؟ ﴾ (٧:٧٠) ، وقول جده ابراهيم : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ ﴾ (٦:٨١) ، وقوله تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم ، وما للظالمين من نصير ﴾

(٧١:٣٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم — إن في صدورهم إلا كبر ، ماهم ببالغيه ﴾ (٥٦:٤٠) ومن أمثلة استعمال لفظ « البرهان » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مع الله إلٰهاً آخر — لا برهان له به — فإنما حسابُهُ عِندَ ربِّهِ ، إنَّه لا يُفلحُ الكافِرونَ ﴾ (٢٣ : ١١٨)ومن أمثلة استعمال كلمة « حق » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْفُرون بآياتِ اللهِ ، ويَقتُلونَ النَّبيّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ الخ (٣ : ٢١) ، فهذا القيد يقرر لنا أن ذم الشيء ومدحه يدوران مع « الحق » وجوداً وعدماً ، لا مع الأشخاص والأصناف ، فهو تعظيم لشأن الحق ، حتى كأنه من قتل نبياً بالحق لا يؤاخذ ، وهو من باب فرض المستحيل ، مبالغة في احترام الحق ! ! ! ونحوه قوله تعالى : ﴿ سأصْرِفُ عن آياتي الذين يَتَكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ ﴾ (٧ : ١٤٥) ، فلا ريب أن التكبر لا يكون مرة بحق وأخرى بغير حق ، ولكن رمزاً لاحترام الحق ، من حيث هو حق ، وفرضاً للمحال قيل : لو كان التكبر في الأرض بالحق ، لكان مقبولاً ، ولكنه مستحيل ، لأن التكبر لا يكون إلا باطلاً ، ومن أمثلة استعمال لفظي الحق والسلطان قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحِشَ — ماظَهَرَ منها وما بَطَنَ — والإثمَ والبَغْيَ بغيرِ (الحق)، وأنْ تُشْرِكوا باللهِ مالم يُنَزِّلْ به (سلطاناً) ، وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تَعلمون ﴾ (٧ : ٣٢) ، وهكذا ورد قوله تعالى : ﴿ نحنُ نَقُصُّ عليكَ نَبَأهُم (بالحق) ﴾ (١٨ : ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿ واتْلُ عليهم نَبَأ ابْنَيْ آدم (بالحق) ﴾ (٥ : ٣٠) فهذا ونحوه تعظيم للحق ، وإلا فالله تعالى لا يقص على نبيه نبأ دائماً إلا بالحق ، والنبي لا يتلو على قومه أيّ نبأ كان إلا بالحق .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٣ —

ثم قام الحافظ البصري[١] وقال :

الدين مبني على الحجة والعلم

يقول هنا « ما أنزل الله بها من سلطان » وسيأتي له أن يقوله : ﴿ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمون ﴾ فمن هاتين الكلمتين وأشباههما نتعلم أن الدين مبني على (الحجة) ، ومؤسس على (العلم) قال تعالى : ﴿ قلْ هاتوا بُرْهانَكم إنْ كنتم صادقينَ ﴾ (٢ : ١١١) ، ﴿ وتلكَ حُجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومهِ ﴾ (٦ : ٨٣) ، ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يُجادلُ في الله بغيرِ علمٍ ﴾ (٢٢ : ٣) ، ﴿ إنْ يتّبِعونَ إلا الظنَّ ، وإنّ الظنَّ لا يُغْني مِنَ الحقّ شيئاً ﴾ (٥٣ : ٢٨) ، ﴿ ولا تَقْفُ ماليسَ لكَ به علمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) هذا مايصرح به القرآن ، وهذا ماتشهد به العقول النيرة ، فمن قال ان التقليد يكفي في الدين ، فقد غمس لسانه في حمأة الأغاليط .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٤ —

ثم قام سيدي حسام آغا الفيومي[٢] وقال :

المسميات لا تنبدل بتبدل الاسماء كماء الغيل والشمس والنهار ولا تصير آلهة بتبدل أسمائها

يقول : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ويريد أن المخاطبين على ثقة من ذلك ،

---

(١) نسبة الى البصرة من بلاد العراق

(٢) نسبة الى الفيوم من البلاد المصرية .

يعقلونه بعقولهم ، ولكنهم يميلون الى التقاليد المصرية ، الموروثة عن الآباء الأقدمين التي يسميها العلماء « الحركة المستمرة » فيقلبون الحقائق ، ويغيرون النواميس ، ويرون المألوه إلهاً ، والضعيف قوياً وما كانوا يدعون له فى الصلاة عليه يوم وفاته، صار يُدعى بعد نزوله في حفرته !! ، واذا بلغ الناس في حالتهم العقلية الدينية ، الى هذه الدرجة ، فقولوا : على عقولهم السلام .

ومعلوم أن المسميات لاتتبدل بتبدل الأسماء ، لاذواتها ولا أحكامها ، ولا وضعيتها ، فالعجل « أبيس » الذي يعبدونه هو مازال عجلاً ولو سمي إلهاً ، و « آمون » إله « ثيبة » الموقر عندهم مازال مألوهاً ولو دعي إلهاً ، و « را » أي الشمس وهو الاله الشمسي عندهم هو في الواقع كوكب مخلوق ، وهكذا يقال في تماسيحهم وفراعنتهم وغيرها وأسْخِفْ بالعاقل إن عبد اسماً بلا مسمى ! وأجْهِل بالانسان إن خضع لشيء موهوم ! حقاً إن هذا الحال ليذيب لفائف القلب ويقضي بالعجب العجاب !..

(ماأنزل الله بها من سلطان)

— ٥ —

ثم قام سميح المكي وقال :

سكوت صاحبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه

يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إن عبادتهم للشمس والعجل « أبيس » وغيرهما لا تستند على برهان ، ولا تدعم بعقل ، فهل تظنهما بعد ذلك أصغيا الى نداء الضمير ، إذا كان لهما ضمير ؟! ــ على أنك لو سبرت غور قلبيهما وهما يسمعانه خطاب « الصديق » لرأيتهما يناجيان نفسيهما ليدفعا عنهما تبكيت الضمير

بشبهة أنهما — كغيرهما من المصريين — إنما اعتقدا تعدد الآلهة، مشياً مع القول الشائع عندهم، وهو أن الله «روح عظيم» منبث في هذا العالم، انبثاث الكهرباء في الاجسام، أو الأشعة في الفضاء، أو الأثير في العالم، وكل واحد له من هذا الروح حصة تناسبه على قدر الاستعداد والتأهل، وعلى كل فلا نحسبهما إلا قد رأيا شخصيهما مغلوبين، وأنه قد سدّ عليهما أبواب الجواب والدفاع لسطوع البرهان، وظهور الصبح لذي عينين، ولهذا نراهما قد سكتا ولم يفوها بكلمة، مع أن لهما نفوذاً أن يتكلما مع يوسف، إذ هما من أهل المناصب المعتبرة في بلاط الملك، وأما يوسف فانما هو عبد عبراني غريب قد اعتقل بتهمة تمس العرض والشرف. وقد كان معهما في السجن كخادم لهما، إذ أقامه رئيس الشُرَط عندهما لأجل هذه المهنة، فسكوتهما والحالة هذه حكم صامت واعتراف بصحة كلام هذا الصديق. عليه السلام.

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٦ —

ثم قام الاستاذ المدني وقال:

الاستدلال مطلوب في الدين

حكي أن حامد بن العباس، سأل قاضي القضاة أبا عمرو عن أداء «الخُمار» وعن دوائه، فتنحنح القاضي لاصلاح صوته ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (٥٩ : ٧) وقال النبي ﷺ: (استعينوا على الصناعات بأهلها) والاعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة،

وقد قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ　　وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أني امرؤ　　أتيت المروءة من بابهـــا

ثم تلاه ابو نواس في الاسلام فقال :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء　　وداوني بالتي كانت هي الداء

فقـد استظهر في جواب المسألة بآية قرآنية ثم بحديث نبوي ثم بين الفتيا وأدّى المنى وتقـصى من العهدة (١) ، فاذا كان الاستدلال مطلوباً حتى في أتفه الامور فمـا بالـك بالدين ، خصوصاً عقائده ، ولذلك طالبهما يوسف الصديق بالسلطان على مايعتقدان ان كان لهما سلطان .

ولما انتهى الاستاذ من كلامه قام السيد الرئيس وشكر الاساتذة الستة على ماذكروه من تفسيره قيم لهذه الجملة بحيث لم يتركوا زيادة لمستزيد .

(إِن الحكمُ الا ّ لله)

قال عبد الملك الكري :

الحكم الشرعي والحكم الفعلي

حكم الله نوعان : حكم شرعي وحكم فعلي ، فالحكم الشرعي هو بوحي الله الى رسله بأمره ونهيه وايجابه وحظره ، وهذا يكون في العبادة والدين ، وماهنا من هذا النوع ، بدليل ماقبله وهو قوله : (ما أنزل الله بها من سلطان) وما بعده وهو قوله : ﴿ أَمَرَ أن لا تَعبُدوا إلا ّ إيّاهُ ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿

(١) شرح الشريشي على الحريري .

الذين آمنوا ، أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد ﴾ (٥ : ١ر٢)
والحكم الفعلي بمعنى القضاء والنفوذ ، يفصل فيه بين الخلق ، تارة في الدنيا ، وتارة في الآخرة ، كما سيقول يعقوب عليه السلام ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ (آية ٦٧) أي القضاء والنفوذ في الدنيا كالآخرة لله وحده ، وكما يقول الله : ﴿ واتبع ما يوحى اليك واصبر ، حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين ﴾ (١٠ : ١٠٩) وحكمه هذا في الدنيا بين المسلمين وغيرهم بنصر الاقرب للعدل والاصلاح في الارض ، ومثل حكمه في الآخرة قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، - وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، - وهم يتلون الكتاب ؛ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٢ : ١١٣) فالحكم هنا القضاء و الفصل بتصويب قوم وادخالهم الجنة وتخطئة قوم وادخالهم النار .

(أمر ألا تعبدوا إلا إياه)

قال نادر الزمان الافغاني :

وحدة الالوهية ووحدة الربوبية

وهذه هي وحدانية الالوهية ، وهي ترجع الى عبادة الله وحده ، السؤال منه وحده ، والاستعانة به وحده ، ودعائه وحده ، (فالاله) هو المعبود الذي تولّه العقول في معرفته ، وتدعوه وتصمد اليه ، لاعتقادها أن السلطة الغيبية له وحده ، كما لنا وحدة في الالوهية فلنا وحدة في الربوبية ، وهي الاعتقاد بان مصدر الخلق والرزق والاحياء والاماتة وكذا التشريع والحظر والاباحة وسن الأحكام

انما هو لله وحده الذي يربي العالم بقوانينه السماوية ، التي ينزلها على رسله ، والى الوحدتين ، وحدة الربوبية ووحدة الالوهية الاشارة بقوله تعالى : ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ ، تعالوا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ، أنْ لا َنعبُدَإلا الله ، ولا َنشركَ به شيئاً ، ولا َيتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أربابا من دونِ الله ، فانْ َتولَّوا ، فقولوا : اشهدوا بأنَّا ُمسلمون ﴾ (٣ : ٦٤) .

(ذلك الدين القيم)

وقال عبد العظيم التركي :

الدين والعلم اخوان

نرى في هذه الآية الكريمة ان الدين والعلم أخوان ، متى ثبت أحدهما ثبت الآخر ، ومتى انتفى أحدهما انتفى الآخر ، ولا يقول قائل : إنه يوجد تباين بين الدين والعلم يتنافيان به ، فانّ ذلك غير صحيح ، وانما جاء ذلك لهم من أجل انهم جعلوا من الدين ماليس به ، أو أخطأوا مقاصده ومعناه ، قال الفيلسوف (هربرت سبنسر) : (العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، ولكنه ليس بعدو للدين الحق ، الذي كثيراً ما تحاول هذه الاوهام ستره عن الأبصار ، نعم إنه يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ، ولكن هذا أيضاً من قبيل العلم الذي أكثره وهم ، اذ العلم الحقيقي الذي يغوص وراء حقائق الأشياء لا يناقض الدين) . وقال إمام الفلسفة الحديثة (باقون) : (القليل من العلم يبعد من الله ، والكثير منه يقرب منه) ، وقريب منه قول ابن تيمية : (أضر شيء على الناس نصف فقيه ونصف مفسر ونصف محدث ونصف مؤرخ ونصف طبيب وهكذا الى آخر الأنصاف) ، وقال (هكسلي) الحكيم الكبير :

(الدين والعلم كتوأمين متلاصقين ، فصلهما يؤدي الى موتهما ، فان العلم ينمو ، متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً) — مرحى —

(ولكن اكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قاله شيخنا اليوغوسلافي

يوسف يكرر الفخر من فتاة صاحبيه في السجن

كان يوسف فخر من فتاة الفتيين المصاحبين له في السجن بقوله لهم في الآية (٣٨) : (ولكن اكثر الناس لا يشكرون) ، وهنا في هذه الآية كررا لفخر من فتاتها بقوله لهما : (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعرفون حقـــاً ، ولا تنكر عقولهم باطلاً ، وأما أنتما ايها الفتيان فلابد أن تكونا قد عرفتما وجه كلامي اليكما ، ولا أحسبكما إلا مسلمين لي اعتقادي على طول الخط ، وهذه هي أهم مادة في برنامج (دين التوحيد) قد ألفت نظركما اليها ، وعسى أن تصادف كلمتي معكما آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وهـذه هي الحقيقة الراهنة ، فانحواها ولا تمحواها ، واكشفاها ولا تكسفاها ، واتبعاها ولا تبتدعاها :

لعمري لقد نبهت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذن

هذا رأيي بثثته لكما ، وأما أنتما فما رأيكما؟ وهذا قولي ، فما قولكما؟ .. أترك الجواب عن ذلك الى وجدانكما الطاهر ، وضميركما الحر ، وذوقكما السليم ، وليس من المتعذر على الباحث الذي يحمل مصباح عقله في يده اليمنى ونبراس علمه في يده اليسرى أن يصل الى نتيجة صالحة تكفل له السعادة الدينية .

(عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد)

هذه عظة يوسف التي أتى بها هنا استطراداً قد تمت ، وهــــذه دعوته التي قدمها انتهازاً للفرصة قد كملت ، ويظهر انها انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، لأن الكتاب والتاريخ لم ينقلا لنا عن ايمانهــــما شيئاً ، لا سيما (رئيس الخبازين) الذي لم ينقل عنه الكتاب أقل كلمة تشعر بميله ليوسف ، وأما(رئيس السقاة) فقد أشار الكتاب الى أنه مدح يوسف للملك الريان ، وخاطبه بلقب (صديق) ، ولما كان مأمور تحقيق في حادثة النسوة مع يوسف ظهر له براءته ، وطهارته ، الأمر الذى لا بد أن يكون نتج عنه محبته ليوسف ، وحسن اعتقاده فيه ، هذا الذي نقــدر أن نستنتجه من الكتاب ، وأما ان (رئيس السقاة) ترك دينه واعتنق دين التوحيد فلا صراحة فيه لا في كتاب ولا في حديث .

(وجوب الجهر بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان وحال)

وبعد فهذا الوعظ والتعليم من يوسف اقدام عظيم على بث عقيدة التوحيـد على رؤوس الاشهاد ، مع انه في محيط كله متوثن منذ أجيال : فدين الحكومة الرسمي هو التوثن ، وكذلك دين الشعب المصري الوطني ، وهكذا دين المستعمرين الهكسوس ، وقد أراد يوسف بما قال غمز قنـاة الفتيين بأنهما لم يكونا من العلم في شيء وانما هو تقليد محض وتخرص وظنون وان الظن لا يغني من الحق شيئاً .

جهر يوسف بهذه الدعوة ، دعوة عقيدة التوحيد ، وهو طريد من بلاده ، وغريب في مصر ، ومعدود من عبدان بعض رجال الحكومة ، وسجـــين بدعوى جريمة شائنة ، ومع هذا كلـــه لم يسعه سوى إعلان عقيدة التوحيد ، ودعوة الفتيين اليها ، والطعن في عقيدة التوثن التي عليها الفراعنة والامة المصرية والامة الهكسوسية ، وكأن الارض ـــ والحمد لله ـــ لا تخلو من قائم لله بحجة في

عبادة ، حتى أرض السجون ، وهكذا كان يفعل الإمامان أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، وهما في سجنهما ببغداد أيام العباسيين يعلمان المسجونين معهما ، ويرشدانهم لما فيه خيرهم ، رغماً عما هما فيه من السجن .

وقد قال بعض العصريين : « لعمري إنه إذا لم يكن لدى الداعي جرأة وشجاعة أدبية في عرض دعوته » فان دعوته تموت ، مهما كان واثقاً من صدقها ، بل مهما كانت حقاً في نفسها ، وكم من دعوة حق ماتت في مهدها ؟ وكلمة صدق أطفئت في مشكاتها ؟ بسبب تهيب الداعي من المقاومين ، وما ينقص من الشجاعة الأدبية في تحمل الكوارث والشدائد التي تعترض سيره ، ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة « الحرية الفكرية » ركناً من أركان مدنيتهم ، وعماداً قوياً لحضارتهم ، ولو قال قائل : إن مدنية الغربيين وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم في العلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم في العزة والصولة والغلبة الى الأوج الذي وصلوا اليه اليوم إنما هو أثر من آثار « الحرية الفكرية » — لو قال ذلك لما كان غالياً ولا مبالغاً . ومن أحب أن يسمع محبوساً في أعماق السجون يقف في سجنه خطيباً ، ويجلس في مجالس الوعظ والدعوة الى الله ، فليقرأ هذا البحث من قصة يوسف عليه السلام ، ولعمري إن هذا مما يجب أن يحملنا على الذهاب لدور السجناء ، لأجل وعظهم وارشادهم ، وتذكيرهم بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ، وتشويقهم للتوبة ، وترغيبهم في الصبر الجميل .

حكم القرآن بالاحكام الرديئة على الاكثرية الساحقة من الناس

نقرأ في القرآن المجيد ، فنجده دائماً يحكم على الأكثرية الساحقة من الناس بالأحكام الرديئة ، كالجهل والكفر — الى الفسق والشرك — الى

الإعراض والغدر والجدل ونحو ذلك ، وها كم بعض الشواهد على ذلك :

﴿ وكثيرٌ منهم ساءَ مايعملونَ ﴾ (٥:٦٩) ، ﴿ ثم عَمُوا وَصَمُّوا كثيرٌ منهم ﴾(٥:٧١)، ﴿ وكثيرٌ حقَّ عليه العذابُ ﴾ (٢٢:١٨) ، ﴿ لاخيرَ في كثيرٍ مِنْ نجواهُم ﴾(٤:١١٣) ، ﴿ ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الارض لَمسرِفونَ ﴾(٥:٣٥)، ﴿ وترى كثيراً منهم يُسارِعون في الإثمِ والعدوان وأكلِهِم السُّحت ، لَبِئسَ ما كانوا يعملونَ ﴾(٥:٦٥)، ﴿ ولَيزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ اليك مِن ربِّك طغياناً وكفراً ﴾(٥:٦٧)، ﴿ ولا تتَّبِعوا أهواءَ قومٍ قد ضَلُّوا مِن قبلُ ، وأضلُّوا كثيراً ﴾(٥:٨٠)، ﴿ ترى كثيراً منهم يتَولونَ الذينَ كَفَروا - لبئس ماقدمت لهم أنفسُهم - أن سَخِطَ اللهُ عليهم، وفي العذاب هم خالدونَ ﴾(٥:٨٣)، ﴿ وإنَّ كثيراً ليَضِلونَ بأهوائِهِم بغير عِلمٍ ﴾ (٦:١١٩)، ﴿ ولقد ذَرَأنا لجهنم كثيراً من الجنِّ والانس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ، ولهم أعينٌ لا يُبصِرون بها ، ولهم آذانٌ لايسمعون بها ، أُولئك كالأنعام بل هم أضَلُّ ، أولئك هم الغافلون ﴾(٧:١٧٨)، ﴿ إنَّ كثيراً من الأحبارِ والرهبانِ ليَأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ ، ويَصدون عَن سَبيلِ اللهِ ﴾(٩:٣٥) ، ﴿ ربِّ إنَّهن أضْللنَ كثيراً من الناسِ ﴾(١٤:٣٦) ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾(٣٦:٦٢) ﴿ وإنَّ كثيراً من الخُلَطاءِ ليَبْغي بعضُهم على بعضٍ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، ﴿ وما أكثرُ الناسِ - ولو حَرَصْتَ - بمُؤمِنِين ﴾ (١٢ : ١٠٣) ، ﴿ فأبى أكثرُ الناسِ إلاَّ كُفُوراً ﴾ (١٧ : ٨٩) ، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايَشكُرون ﴾ (٢ : ٢٤٣) ، ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يَعْلَمون ﴾ (٧ : ١٨٦) ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضلوكَ عن سبيلِ اللهِ ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظنَّ ، وإنْ هم إلاَّ يخرُصُونَ ﴾ (٦ : ١١٦) ، ﴿ ولكنَّ أكثرَهُم

للحق كارهون ﴾ (٤٣ : ٧٨) ، ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ (٥ : ١٠٤) ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ (١٠ : ٣٦) ، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (١٢ : ١٠٦) ، ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ (٣٤ : ٤١) ، ﴿ فأعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون ﴾ (٤١ : ٤) ، ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ (٧ : ١٠١) ، ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ (٦ : ١١١) ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

حكم القرآن بالاحكام الحسنة على القليل من الناس

كما إننا نقرأ في القرآن الكريم ، فنجده يصوره مطردة إنما ينسب الطاعة والايمان والعلم والشكر والفقه وما أشبه ذلك من المحامد للقليل من الناس ، واليك البيان : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ (١١ : ٤٠) قيل كانوا ثمانين نفراً ، ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ (١٨ : ٢٢) ،﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ (٣٤ : ١٣) ، ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ﴾ (٣٨ : ٢٤) ،﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾ (٢ : ٢٤٦) ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ (٢ : ٢٤٩) ، ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ﴾ (٥ : ١٤) ، ﴿ لئن أخرتني الى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ (١٧ : ٦٢) ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلاً ﴾ (٣٣ : ١٨) ، ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ (٤٨ : ١٥) الى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم ، والحالة الطبيعية تؤيد كل ماورد من هذه النصوص ، فان أهل الشر أكثر عدداً وجداً أكثر من أهل

الخير في كل مصر وعصر ، وكل كوخ وقصر ، (راجع كتب الملل والنحل وانظر كتب الجغرافية . تجد صدق ماقلنا) .

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم

آ (٤١) ﴿ياصاحِبَي السِّجْنِ أمَّاأحَدُكُمَا فيَسْقي رَبَّه خَمْراً ، وَأمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ ، فتأكُلُ الطَيْرُ مِنْ رَأسِهِ ، قُضِيَ الامْرُ الذي فيه تَسْتَفْتِيانِ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والاربعون فقام اقاي حسن جم الهمداني[1] وقال :

قال يوسف لصاحبيه بلسان المفتي المجيب (ياصاحبي السجن) لكل حادث حديث ، اسمعا تأويل رؤييكما (أما أحدكما) وهو «بنو» رئيس السقاة (فيسقي ربه) سيده (خمراً) حيث يخرج من هذا المعتقل بريئاً ، ويرجع مقامه الأول عند «الريان» ، (وأما الآخر) وهو «ملحب» رئيس الخبازين (فيصلب) على الجذع فيموت (فتأكل الطير من رأسه) ، لأنه يتهم بمقاومة الملك (قضي الأمر) قطع وتم (الذي فيه تستفتيان) ، ولو كنت أعلم أن التمني سينفع أحدكما الخباز لتمنيت له السلامة، ولكن التمني لايدفع مقدوراً ، والأمل لا يقضي على الحقيقة.

هذه فتوى يوسف التي خلاصتها هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

---

(١) نسبة الى همدان من البلاد الايرانية .

(ياصاحبي السجن ، أما أحدكما .. الخ)

— ١ —

وقال الصاحب البعلبكي[١] :

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بصراحة

لما أتم يوسف عظتهما ، وقضى مناصحته إياهما ،رجع يجيبهما عما سألاه عنه فقال: ياصاحبي السجن يارئيس السقاة ويارئيس الخبازين من كان منكما له أذنان للسمع فليسمع ، أنا لست أريد أن أطيل عليكما القول في عبارة هذه الرؤيا ، بالكلام على مخيضها ، بل أقتصر على أن أبين لكما زبدتها فأقول :

أما أحدكما وهو أنت يارئيس السقاة « نبو » فطب نفساً وقر عيناً ، فإن جدك قد تحرك ، وإني أزف لك البشارة بإبقاء الملك عليك ، لظهور براءة ساحتك ، من المؤامرة على الملك أو من دسك السم في شرابه (راجع تفسير آية ٣٦) وصدور إرادته بإخراجك من السجن ، ورجوعك لوظيفتك ، بذات الراتب المقرر لك قبلا ، فتقف بين يدي سيدك الملك الريان وتسقيه خمراً ، تصبها له من أباريقه العسجدية ، في القوارير الزبرجدية ، حسب سيرتك الاولى .

وأما الآخر وهو أنت يارئيس الخبازين « مجلث » ، فاعذرني إن صارحتك في تعبير رؤياك ، لتكون على بينة من أمرك ، وبصيرة من شأنك إذ سينزع الملك اسمك من ديوان الأحياء ، ويكتبه في سجل الموتى ، وترفع على أعواد الصليب ، وتأتي الطير تأكل من رأسك ، ذلك لأنه تبين دخولك في المؤامرة على الملك ، أو أنك دسست السم في خبزه ، وإنه لعزيز عليّ والله أن أحمل إليك الخبر الذي

---

(١) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (لبنان) .

يسوءك ، ولكن ماذا أصنع وأنت تحدوني إلى تأويله ، واخبارك به كيفما كان ؟

هذا ماأعلمه مما علمني ربي ، وأما كونك يارئيس الخبازين خليقاً بهذا العقاب لأنك دخلت في المؤامرة على الملك ،أوغير خليق لأنك لم تتآمر عليه ،فذلك مما لا أعلمه.

ثم وجه يوسف خطابه للفتيين وقال : قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ، فهو أمر لامندوحة أن يقع ، ولا خيرة في الواقع ، وإن صوتي هـــذا لهو صوت من أصوات أهل السماء ، فاني لاأرمي القول جزافا ، ولكني أتكلم عن الله عزوجل، ولأن الرؤيا لأول عابر ، ولذلك فان شأنكما لايتجاوز كلامي خطوة واحـدة ، وان مع اليوم غداً .

هذا وقد وقع صوت البشارة على طبلة اذن رئيس السقاة وقوع الماء على قلب الظمآن وتمشت روح الفرح في أعضائه تمشي الشرف والمروءة في نفوس العرب .

وأما رئيس الخبازين فقد وقع صوت النذارة على أذنيـــه وقوع الصاعقة على الهشيم ، فانتفضت انتفاضة شديدة كادت تتطاير لها أجزاء نفسه ، ، ثم جمـد الدم في عروقه ، وكرب الحال أن يذهب بلفائف قلبه .　(مرحى)

(ياصاحبي السجن ، أما أحدكما ،، الخ)

— ٢ —

وقال ولي الدين المراكشي :

إتماماً لتفسير هذه الآية وعدا عما ذكره المحاضران الفاضلان نسرد التكميلات التالية

اصغاء الفتيين الى وعظ يوسف

التكملة الأولى ـ كأنك بكل من رئيس السقاة ورئيس الخبازين قد رأيا ان

درس الوعظ قد امتد أكثر مما كانا يتوقعان ، وقد كان قلباهما متمشقين بالأكثر لسماع تأويل حلميهما ، فكانا يقولان في نفسيهما :

لك الحمد لم نسمع عبارة حُلمنا ونسمع مالا نشتهي فلك الحمـــد

وكان كل منهما يهم بأن يقطع على يوسف سلسلة حديثه ، لولا أن ملكا نفسيهما ، فما شعر إلا وهو يقول: ﴿ ياصاحبي السجن أمّا أحدكما .. الخ ﴾ ذلك لأن الناس منذ القديم الى اليوم ، لا يعتنون باللب عنايتهم بالقشور .

استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة

التكملة الثانية ـ كأنك بيوسف عليه السلام وقد وجد له في معتقله أخاً مظلوماً مثله ، تبرأت ساحته ـ كأنك به أنه تمنى أن يكون هو أيضاً قاربت آلامه النهاية ، والعامة من الناس تقول : « إن مطرت بلاد بشر بلاداً » .

الحجر الاول في بناء مجد يوسف

التكملة الثالثة ـ كان تعبير يوسف لهذين الحلمين هو الحلقة الاولى من سلسلة الحلقات التي تشكل سبب خروجه من السجن لدست وزارة الماليـة ، فتم ماقيل: « سعادتك بين شفتيك » .

وبعبارة أخرى : كان تعبيره لهـذه الرؤيا هو (الحجر الأول) في أساس خروجه من السجن وبناء مجده الخالد العظيم ، وأما (حجر الزاوية) فهو تعبيره رؤيا الملك الآتية ، وأما (ثالثة الأثافي) فهي ظهور براءته بلسان النسوة من كل مارُمي به ، حتى خرج من معتقله عزيز الجناب ، ناصع الجبين .

حال الفتيين حين سماعهما تعبير رؤيهما

التكملة الرابعة ـ كأنك (برئيس السقاة) لما سمع بشارة يوسف له ثمل من

الفرح وصار نشوان بخمرة هذه البشرى ، وكأنك (برئيس الخبازين) بغت ووجم[١] وعض على سبابته ، وصار مُشْتَرَكاً[٢] مشدوهاً[٣] لايحير جواباً ، ولايعرف صواباً ، وسُقط في يده ، وندم ولات ساعة مندم .

النواة والشجرة والثمرة

التكملة الخامسة ـ كان هذا التعبير الابتدائي (نواة) لمجيء (رئيس السقاة) ليوسف مندوباً من جانب مليك مصر الريان ، ليعبر رؤيا الملك ، كما أن تعبيره رؤيا الملك أخيراً كان (شجرة) من تلك النواة ، وبالتالي كان خروج يوسف من السجن الى البلاط الملوكي هو (الثمرة) لتلك الشجرة .

تسمية الملك ربا عند المصريين

التكملة السادسة ـ تسمية الملك (رباً) اصطلاح للمصريين كالكلدان والعبران ونحوهم وقد بحث عن ذلك سابقاً بما فيه الكفاية .

لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة

التكملة السابعة ـ لما وصل يوسف الى تعبير رؤيا (رئيس الخبازين) تنازعه عاملان عامل السكوت عن تأويل رؤياه ، لئلا يفزعه ويكدره ، ويكون قد واجهه بما يكره ، وعامل الصراحة ليكون ذلك الرجل على بينة من أمره ، وبصيرة من شأنه ، فيجري مايجب أن يجريه قبلما يصلب ، فربما كان عليه أوله دين ، وعسى أن يكون عنده أو له عند غيره أمانات ، ولعله يريد أن يوصي أهله بشيء ، أو يقيم على قاصر وصياً ، أو لعله اذا عرف أمره أن يتوب من جرائمه

(١) سكت (٢) هو الذي يحدث نفسه كالمهموم الموسوس
(٣) من دهش وتحير

وأوزاره ، فلهذا ولما كان كاتم العلم ملعون ، أو لأن الله يرسل الرؤيا لصاحبها ليعرف تأويلها ، ويعمل مايجب عليه عمله بحسبها ، أو لأن يوسف ألهم أن هذا الرجل كان مجرماً ولابد ، فحنق عليه ولم يتمالك أن أخبره ، فلاجل ذلك لم يجد بدأ من أن يبين له تأويل رؤياه ، وكان هذا هو أصل مايفعله حكام اليوم من تبليغهم المجرم ، الحكم الذي حكمت به عليه المحكمة ، ليكون على بينة من أمره .

ومامثل تعبير هذه الرؤيا الا كمثل الفتيا التي تصدر من المفتي يسأل عن حكم شرعي ، فيجيب مطلقاً ، أعني سواء أكان في جوابه حظ ومنفعة للسائل ، أوكان فيه منع من إرث مثلا أو غرامة ، حتى لو اقتضى الحال أن يجيبه أنه يستحق القتل أجابه بلا مواربة .

تحقق وقوع تعبير رؤيا الفتيين

التكملة الثامنة ـ كل ما أخبر به يوسف وقع ، فبعد ثلاثة أيام أرجع (رئيس السقاة) الى عمله في قصر الريان ، ثم أخذ بتلبيب (رئيس الخبازين) ورفع على الصليب ، ونادى المنادي : « هذا جزاء من يدخل في المؤامرة على الملك أوالتعدي على حياته » ، وجعل في اذنه رقعة مكتوب فيها (هذا جزاء من ثبتت عليه المؤامرة ضد الملك) ، وهذا الجاني هو (مجلث) ، كان أنه حينما أخرج من سجنه لشنقه ينظر الى قصره ، ولسان حاله يقول :

يامنزلا لم تبقَ أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلَى
لم أبك أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذ ولّى

وعندنا انه بالنظر لكونه أطاع المؤتمرين على الملك فتآمر معهم عليه بشر ، أو سم خبز ، كان حقيقاً بأن يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ ربَّنا إنّا أطعْنَا سادَتَنا

وكُبَراءَنا فأضَلُّونا السبيلا ، ربَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنْ العذابِ ، والْعَنْهُم لَعْناً كبيراً ﴾ (٣٣ : ٦٧ و ٦٨) .

خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى

التكملة التاسعة ـ نقرأ في كتب التفسير أن (خباز) فرعون يوسف ، واسمه (مجلث) قتل صلباً ، ثم نقرأ في تلك الكتب أيضاً ، عند قوله تعالى : ﴿ ودخلَ المدينةَ على حينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهلِها ، فوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ، هذا مِنْ شيعَتِهِ ، وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ، فاستغاثَهُ الذي مِنْ شيعَتِهِ على الذي مِنْ عَدُوِّهِ ، فوكَزَهُ موسى فَقَضَى عليه ﴾ (٣٨ : ١٥) فنرى أن هـذا المصري كان خبازا لفرعون موسى ، واسمه (فانون) وكزه موسى فمات فطمره تحت الرمل ، فسبحان الله ! خباز علق فوق الاعواد ، وخباز طمر تحت الرمل ، وعلى كل فالنتيجة واحدة ، وهي الاماتة غير الطبيعية ، فما أسوأ حظ (الخباز) منذ القديم !!!

من عادة قدماء المصريين حلق شعور رؤوسهم ولحاهم

التكملة العاشرة ـ القول بأن الطير ستأكل من رأس هذا المصلوب ربما يدل على صحة ماقاله مؤرخو مصر : أن من عادة قدماء المصريين حلق شعور رؤوسهم ولحاهم فلا يبقون منها شيئاً ، وربما كان يوجد عندهم عادة متبعة فيمن يراد صلبه وهي تجديد حلق شعر رأسه ولحيته . والذي يحدونا لأحد هذين الاحتمالين هو أنه لو كان المصلوب موفر شعر الرأس واللحية كما هي العادة التي كانت مطردة في العبرانيين والعرب والفرس لما كان يتسنى للطير بسهولة أن تأكل من جلدة الرأس أو جلدة العوارض ، لكونها محجوبة بما يحوطها من الشعر .

الصلب عرفاً هو الاماتة على الصليب

التكملة الحادية عشرة ـ إذا قيل : « صلب فلان » فمعناه عرفاً أنه أميت على الصليب ، فالصلب عرفاً لا يطلق إلا إذا كان معه إزهاق روح ، فاذا صح هذا فلعل مرمى قوله ههنا « فيصلب » فتزهق روحه عليه ، ولذلك رتب عليه قوله « فتأكل الطير من رأسه » ، لأن الطير لاتحوم حوالي رأس الحيّ على الصليب ولكن على الميت فقط ، والقرآن الكريم دائماً لا يستعمل « الصلب » إلا بهذا المعنى العرفي ، كما يقول في شأن عيسى عليه السلام ﴿ وماقَتَلُوه وماصَلَبُوه ﴾ (٣ : ١٥٦) أي لم يقتلوه على الأرض بأيديهم ولا على الصليب بواسطة ما كدوام التعليق وطول مدته ، أو بنحو المسامير والحراب والجوع والعطش والألم وما الى ذلك ، مما يقتضي الموت فوق الصليب .

معنى الصلب في القرآن

فاذا صح هذا فلعل المنفي عن المسيح إنما هو الصلب المقرون بالموت ، ومن هذا النوع قول الكتاب الكريم : « ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُم أجمَعِينَ ، قالوا : إنّا الى رَبِّنا لمُنقَلِبُونَ » (٧:١٢٣و١٢٤) ، فهم قد فهموا من تصليبهم موتهم لا محالة ، فلهذا قالوا : إنهم حينئذ يذهبون الى ربهم ، وكذا قوله تعالى : « إنما جزاءُ الذينَ يحاربونَ اللهَ ورَسولَهُ ويَسعَونَ في الارض فساداً أنْ يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا ..» الخ (٥:٣٦) فلعل معناه : يقتلوا باليد على الارض بدون تصليب، أو يشدوا على الصليب حتى تزهق أرواحهم ، بسبب ما من أسباب الموت ، فمادة « صلب » في القرآن الكريم لم ترد إلا فيما فيه إزهاق الروح فعلاً .

استشفاع يوسف بالناجي من الفتيين

آية (٤٢)﴿ وقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والأربعون، فقام الحاج موسى النابلسي وقال:

(و) بعد ذلك (قال) يوسف بلسان الرجاء والاسترحام (لِـ). رئيس السقاة (الذي ظن انه ناج منهما) من الصلب والحبس والتهمة (اذكرني عند ربك) أي صفني عند الملك الريان بصفتي، وقصّ عليه قصتي، لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة، فان العلاقة بينك وبين الملك ستكون وثيقة والصلة متينة، (فأنساه الشيطان) أي فأنسى الشيطان رئيس السقاة (ذكر ربه) أي أن يذكر يوسف لربه الذي هو الملك الريان (فلبث) يوسف (في السجن بضع سنين) أي سنتين وشيئاً من السنة الثالثة على التحقيق، والبضع من واحد الى أربعة.

(وقال الذي ظن انه ناج منهما ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ بدر الدين الحمصي:

استشفاع يوسف بالفتى الناجي

مل يوسف وسئم من طول مدة سجنه، وصار يشعر ان نفسه سجينة في صدره، كما سجن جسمه في معتقله، فزفر زفرة من زفرات الضيق، فلذلك ولكونه قد رأى أن «الانصاف» أخذ يدخل في السجن، ليخرج المظلومين —

صار له أمل قوي أن تشمله العدالة ، ويفوز بنعمة الخلاص ، ثم لكون « رئيس السقاة » على وشك الخروج من السجن والمثول بين يدي الملك ، أدلى برجائه اليه قائلاً له :

(أيها الشرابي ، إني مع احتفاظي بالاتكال على الله ، والاستمداد من معونة الحق ، أقول لك : المعروف صيد ، هنيئاً لمن صاده ، والمعروف قروض ، ومع اليوم غدٌ ، وهذه فرصة لك فانتهزها ، تذكر ما كان بيني وبينك من اخوّة الضيق ، فاجعل ذلك شفيعي اليك ، وذمامي لديك ، أنت قد جربت الظلم ومرارة طعمه ، والقلوب التي عرفت الآلام هي التي تشفق على المتألمين ، والأفئدة التي احترقت بنار ظلم الحكام ، هي التي ترثي للمظلومين ، فأرغب اليك أن تجعلني منك ببال حينما تقف بين يدي (الريان) وأن تذكرني بكلمة إسعاد عنده ، وها أنا ذا سألتك حاجتي ولم أصنْ وجهي عن ذلك ، فأنت لا تَصُنْ وجهك عن التعب في تتميم هذا الأمر ، أنت صديقي ، وليس الصديق الذي يقبل عليك والدنيا في إقبال ويدنو منك ماحامت حولك الآمال ، انما الصديق هو الذي يذكرك في الضيق ، أو ينقذك من ظلم الظالمين ، ولا مثوبة يقدمها المرء بين يدي الله تعالى ، يوم جزائه أفضل من إسعاد البائس ، وتفريج كربة المكروب (ومن فرّج عن أخيه كربة من كرب الدنيا ، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، والدال على الخير كفاعله ، وان خيراً من الخير فاعله) وتذكر اني أسمعتك صوتي ، متخللاً في أعماق قلبك ليسرك ، ويحمل اليك البشرى بخروجك من هذا السجن ، فرقيك عند الملك ، فأنت بالمقابل ، أسمعني صوتك ، حاملاً اليّ — على الأقل — بشرى خروجي من السجن ، وخلاك ذم) .

هذا مرمى كلام يوسف الروحي ، وكأني (بالشرابي) قال له : (لبيك ،

سمعاً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فقد تفضلت بما لا طاقة لي على شكره ، فلا أبرح أذكر إحسانك الى آخر نسمة من حياتي ، فثق إني لسوف أقوم بواجبك ، الذي هو حتم عليّ ، وأحسبني سعيداً إذا خدمتك .) قال ذلك ثم خرج يتعثر في أذياله لسرعته وفرحه بلقاء أهله وذويه ، وهو بحال السلامة كأنما جاء وليداً ، وأعطي عمراً جديداً .

نسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك واسبابه

هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق حتى أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف للملك ، بدليل قوله : (وقال الذي نجا منها وادكر) ، فان الادكار إنما يكون بعد النسيان ، هذا هو الصواب ، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره ، إلا أن يكون قد اعتزل العقل والذوق ، بحيث هو لا يعرفها ، وهما لا يعرفانه .

وانما نسي الشرابي ذكر يوسف للملك ، لوسوسة الشيطان اليه بما شغله عن ذكراه له ، حتى ذهب عنه وزل عن قلبه ذكره ، فقربه من الملك أنساه بوعده السابق ، وقصر الملك أنساه السجن . وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء ، وأصحابه في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه ، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق والذل ، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه ، وبأهله وذويه ، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك ، أصبح شغله الشاغل ، هذه هي الوسائط التي استعملها الشيطان ، حتى غفل (الشرابي) عن يوسف ، ولكون هذه الأشياء وما اليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء اليه ، ولو أن يوسف عليه السلام استقبل من أمره ما استدبر ، لما كان قدم للشرابي رجاءه ، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل .

وهذا النوع من النسيان معهود، وليس ببدع ولا مستبعد، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء، فكأي من يصحبك حال شدته وضيقه، ينساك يوم الرخاء والفرج، بل كثيراً مايتسى الناس خالقهم في أيام الرغد والرخاء، فلا عجب من أن ينسى (الساقي المصري) (يوسف العبراني) العبد السجين:

وكثيراً من أن الأولاد لايذكرون أتعاب والديهم عليهم في صغرهم والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى أسندت لهمدتهم عمالة ما، كما أن كثيراً من الأصحاب الفقراء إذا اغتنوا وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الخشن، ونرى كثيراً من أهل الأمراض متى صحوا وشفوا ينسون طبيبهم، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذتهم، الى آخر ماهنالك من الضروب والأشكال، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (٩٦ : ٦) وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الإِنسانُ ما أَكْفَرَهُ ؟! ﴾ (٨٠ : ١٧) ثم إن أنس لاأنسى ان من الأسباب الأساسية لنسيان (الشرابي) ذكر (يوسف) الملك، معاطاته شرب الخمر، فان شربه، كما يعمل تأثيراً سيئاً في الأخلاق والصحة والاجرام، وفي المال وفي قوة الانتاج فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار، وكم هالهم أن تكون المسكرات سبباً لاصابات بالجنون.

وهذا وان الفاء في قوله: (فأنساه) ليست تفريعية بمعنى ان الإنساء كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه، بل هي عاطفية خلافاً للمفسرين، إذ المعنى على مانفهم أنه حصل أن يوسف قال كذا وكذا، ثم فوراً حصل أن الشرابي نسي ماتكلم به معه، هذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام، والمناسب للواقع، لا أقل ولا أكثر، فكن لما ذكرناه من الحافظين وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين.

مدة بقاء يوسف في السجن

وعلى هذا النسيان لبث يوسف في سجنه بين أربعة جدران ، صابراً محتسباً ، سنتين وشيء من الثالثة كما ذكره المؤرخون ، إذ يستعمل البعض فيما دون العشرة كما حكاه ابن جرير ، ووجهه إن البضع هو البعض ،لأن الحروف واحدة،والبضع الطائفة من الليل ، كما في القاموس ، يعني قلت أو كثرت .

وههنا فوائد لها علاقتها بتفسير الآية الكريمة :

التوسل وأنواعه والجائز منها شرعاً

الفائدة الأولى — كان هـذا الطلب من يوسف « لرئيس السقاة » من بابه الأخذ في الأسباب المأمور به شرعاً وعقلاً وعادة وطبعاً ، إذ لولا الواسطة لذهب الموسوط ، والتوسط (وإن شئت قل التوسل) على أربعة أوجه:

(١)توسل الانسان الى الله تعالى بإيمانه به وطاعته له والعمل بما يرضيه تعالى ، وهذا صحيح جائز باتفاق العلماء.

(٢) توسل الانسان الى الله بدعاء إنسان آخر وشفاعته ، بأن يطلب منه الدعاء الى الله تعالى ، وهذا أيضاً صحيح جائز باتفاق الجميع ، وقد قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه حينما ذهب ليعتمر : « أشركنا ياأخي في دعائك » وفي رواية « لا تنسنا ياأخي من دعواتك ».

(٣) التوسل بمعنى الإقسام على الله بذات نبيّ أو وليّ أو مَلَك ، فهـذا هو الذي لم تكن الصحابة تفعله ، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم المأثورة عنهم ، وهذا النوع هو الذي قال « أبو حنيفة » وأصحابه « انـه لايجوز » ونهوا عنـه قائلين :

« لا يُسأل تعالى بمخلوق » وهذه الأنواع الثلاثة هي فيما إذا كان المتوسَّل (بالفتح) اليه هو الله تعالى .

(٤) أما إذا كان المتوسَّل اليه إنساناً ، فلا مانع من أن يتوسّل اليه بانسان آخر ، كما هو ظاهر ، ظهور الشمس في رائعة النهار ، ولا يخفى أن الذي صدر من يوسف هو من هذا القبيل ، فانه استشفع عند مليك مصر برئيس السقاة ، وهو عمل معقول ومعقول جداً لأن الحامل عليه الكفكفة من ظلم « عزيز مصر » وتخطيه حدود العدل في سجنه يوسف ، فعزيز مصر جار وظلم في حكمه على يوسف ، ويوسف يريد أن يرفع عنه هذا الجور بشفاعة هذا « الساقي » ولا مانع من ذلك ولا حرج فيه أصلاً ، وما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ، وليس في توسطه « بالشرابي » دليل على أنه أغفل الدعاء الى الله تعالى ولكنه سعى في كف الظلم عنه بالوسائط المشروعة في كل دين.

الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر ـ التوكل

هــــذا وان من الأسف انه وجد من النـاس من انتقد عمل يوسف هذا بما في دماغه ، عكساً للازم ، لأنه يلزم أن نزن ما في أدمغتنا من عقائد بالقرآن وبما ورد عن أنبياء الله تعالى ، لا أن نزن القرآن وأعمال الأنبياء بما في أدمغتنا مما تلقيناه عن المشايخ ، فنجعل الموزون ميزانا ، والميزان موزوناً ، قلباً وحقيقة ، فنحن هنا بدلاً من أن ننتقد ونستشكل عمل يوسف يجب أن نستنتج منه عقائدنا ، فنقول : بما صدر من يوسف نحتج على من يقولون أو يفضلون ترك الأسباب ، اتكالاً على القضاء والقدر ، وهو جهالة صرفة ، لأن هذا ليس من قبيل التوكل ، بل من قبيل العجز والكسل ، إذ التوكل هو الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه واعتقاد أن الأمر منه وإليه ، مع الأخذ بالاسباب ، وهكذا ينبغي لكل عاقل متشرع أن

يدخل لكل أمر من بابه ، ويطلب كل رغبة من أسبابها ، ولا يقدح في التوكل تعاطي الأسباب ، اتباعاً لسنة الكون وسنة الرسول ﷺ فقد ظاهر الرسول عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة الى الحبشة ، ثم الى المدينة ، وهاجر هو بنفسه ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه القوت من السماء ، وقد ورد : « أأعقل ناقتي أم أتركها وأتوكل ؟ - قال : اعقلها وتوكل » وقال ﷺ : « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي » مع انه سيد المتوكلين. وقد روي انه ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي ، وكان يطلب من يحرسه ، حتى جاء سعد بن أبي وقاص ، فنام .

وقال في القرآن على لسان المسيح عليه السلام : « مَنْ أَنْصَارِي الى اللهِ ؟ » (٣ : ٥٢) هذا وانه لاخلاف في جواز الاستعانة بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق وما الى ذلك .

وانا لنرى رجاة يوسف من رئيس السقاة نفعته في الجملة لأنه وان لم ينفعه في الحال فقد نفعه في المآل ، إذ حين رأى الملك حلميه وأعوزه من يعبرهما له تذكر رئيس السقاة يوسف . وتذكر اقتداره في عبارة الرؤيا ، وتذكر أنه كان قد رغب اليه أن يذكره عند الملك فذكره حينذاك ، وعلى كل فيوسف لم يعمل بدعاً . وليس ما أتاه غلطاً ، فعلى الانسان الاجتهاد ، وعلى الله قضاء المراد :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

تحقق رجاء يوسف من الشرابي

الفائدة الثانية : كانت فكرة يوسف الاولى وجوب استعمال الأسباب العادية، تذرعاً لخروجه من السجن ، ولكن كان عدم وجود واسطة ترفع شكواه للملك

يعترض مجرى هذه الفكرة ، فلذلك كان ساكتاً ساكناً ، ولكن «مُكْرَهٌ أخاكَ لا بَطَلٌ» فالآن حيث وجد «الشرابي» يريد أن يخرج من السجن الى البلاط ، فضل نشاطه على جموده ، وسعيه على كسله ، منتهزاً الفرصة لاقتداب هذا الرجل لهذه المهمة ، لاسيما وأنه كان أفاده تعليماً دينياً ، وبشره بحسن رؤياه، وانعقدت بينهما أخوة السجن وآلامه ، فكلمه أن يصفه عند الملك بصفته ، ويقص عليه قصته ، لعله يرحمه وينتاشه من هذه الورطة .

تأمل يوسف أن تنفرج أزمته بواسطة هذا «الساقي» ومع أن هذا الرجل نسي يوسف وأمله فيه ، فقد حقق الله رجاء يوسف ، وجعل ظنه في محله ، ولكن بأعجوبة أعني بسبب الرؤيا التي رآها الملك ، بعد حين من الدهر ، ولم يجد من يعبرها له ، وعليه فيصدق على يوسف أنه ماقال رأيه فيما فصل ، وماخاب ظنه فيما رجا ، فان هذا «الشرابي» الذي نجا وادّكر بعد أمة ، — أخبر الملك بشأن يوسف ، فأرسله الملك إليه ، وبالنتيجة كان هذا من أكبر أسباب خروج يوسف من معتقله .

الاستعانة بالاسباب في قضاء الحاجة

الفائدة الثالثة — احتياج الانسان للواسطة والرجاء في قضاء حاجته أو رفع الظلم عنه عادة قديمة ، وفي الغالب لا تكون إلا إذا كانت الحكومات ظالمة مستبدة ، لا يُعمل فيها بموجب الشرائع والأنظمة ، ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة ، وهذه الحال السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية الهكسوسية، هي سائدة في جميع الأمم ، بنسب تتفاوت تبعاً للتربية والأخلاق .

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال : « إن الشريعة كما حصرت « العبادة » في الله تعالى فقد حصرت « الاستعانة » فيه أيضاً ، إذ ورد : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَستَعين ﴾ (١ : ٤) فكما أمرنا تعالى أن لانعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فكذلك أمرنا أن لانستعين بغيره أيضاً). فأجبته :

إن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب ، التي اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مؤداة اليه ، وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكّن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ، ونبذل في اتقان أعمالنا كل مانستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ، ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ، ثم نفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لايقدر على ماوراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء ، إلا مسبب الاسباب ورب الأرباب ، فقول يوسف هنا (اذكرني عند ربك) هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله تعالى ، وجعلها بتوفيقه ذريعة للمقصود ، وهذا الضرب لامانع منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتعاوَنوا على البِرّ والتقوى ﴾ (٥ : ٢) ، ولنضرب لذلك مثالاً :

الزارع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الارض وريّها ، يفعل ذلك بنفسه ويستعين عليه بغيره ، ثم يستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، وإشراق الشمس وإنزال المطر الكافي ، على سبيل التعاقب بين الشمس والمطر بمقدار اللزوم ، فالاستعانة بالعبد على القسم الأول جائزة طبعاً ، وشرعاً ، وأما الاستعانة على القسم الثاني فانما هي بالله وحده .

هل قام الشرابي بما طلبه منه يوسف فور خروجه من السجن

الفائدة الرابعة — كان رئيس السقاة رجلاً شريفاً مصرياً من أشراف مصر

(الاصطلاحيين) أي الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، فنظراً لذلك وفظراً لكون يوسف كان قد أوّل له رؤياه بما يعود عليه بالغبطة والسرور ونظراً لكونهما قد انعقدت بينهما أخوة السجن والاعتقال ظلماً ، وأقرب ما تكون النفوس الى النفوس اذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، نعم انه قد وحّد ما بينهما ما صب فوق رؤوسهما من الظلم ومازَجَ بين نفسيهما ما كان من الوحدة والعزلة عن العالم ، الى الذكرى المؤلمة ، الى البؤس المشترك ، فهما أخوان في المساءة والأحزان ، تجمعهما صلة الجرح التي ذكرها الشاعر في قوله :

قد قضى اللهُ أن يؤلّفنا الجر ح وأن نلتقي على أشجانهْ
كلّما أنّ « بالعراق » جريح لمس « الشرق » جنبه في «عُمانهْ»

نظراً لذلك كله حسب يوسف أن مجموعة هذه الأمور تصلح لأن تشكل سبباً يدفع صديقه (رئيس السقاة) لأن يهتم بأمره ، ويرفع مظلمته للملك ، ويأخذ على عاتقه إطراءه والثناء عليه ، متخيلا ان العظماء في دار الحكومة ، عظماء في المعروف ، عظماء في مقابلة الاحسان بالاحسان ، عظماء في تقدير الرجاء ، يقدرون القصد ويحسبون ان المعروف صيد ، لا ينسون أصدقاءهم ، ولا يخلفون إذا وعدوا ، ولا يبخلون بجاههم — كان قد خيّل اليه ذلك كله ، فاذا هو قد خاب فاله ، واستسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضرم ، ولم ينتفع منه على الفور ، ولكن بعدما دقّ العظم ، ورقّ الشحم ، وبلغ السيل الزبى ، ثم حدث ما أوجب أن يتذكره قسراً ، ويطريه بسببه عند الملك قهراً ، وللمفسرين هنا كلام ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه أقل من أن ينظر اليه الناظرون ، ويعلق عليه المعلقون.

اسباب عدم اخبار يوسف اباه بسجنه

الفائدة الخامسة — ان قال قائل : « لماذا لم يكتب يوسف لأبيه يعقوب عليهما

السلام بطاقة يخبره فيها بهذا الحادث عساه أن يأتي ويسعى في مساعدته واخراجه من سجنه ، وقد جرت العادة ان الانسان عند الشدة يفزع لأقاربه ويستنصر بهم ، وان رجاء يوسف لوالده أفضل من رجاء الأجنبي ؟ » قلنا ، يظهر لنا في جوابه وجوه :

(١) أن خصيمه هو الحاكم ، فشكوى حاله لأبيه لاتجديه شيئاً ، وقد قيل « إذا كان غريمك القاضي . فلمن تشتكي ؟..» وقال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شرقٌ　　كنت كالغصان بالماء اعتصاري

(٢) ربما كان يخشى من سوء سمعته في فلسطين . لعدم وقوفهم على براءة ساحته مما اتهم به وحبس لأجله.

(٣) ربما كان لا يزال يخاف من اخوته وكيدهم إياه فيأتون لمصر ويتداخلون لأجل كيده مع الحكومة . فيزيدون الطين بلة .

(٤) ان يوسف كان رآى ان أحد عشر كوكباًوالشمس والقمر سيسجدون له . وهذه الرؤيا تفيد انه لابد أن يأتي يوم تسجد له فيه إخوته الأحد عشر وكذا تسجد له الشمس وهي أبوه . والقمر وهو مربيته بلهة . إن قلنا إن(الواو) في قوله تعالى : (والشمس والقمر) عاطفة . فان قلنا إن هذه (الواو) واو المعية أفادتنا أن سجود الاخوة الأحد عشر ليوسف لابد أن يكون اجتماع يوسف بالشمس والقمر أمراً مؤكداً عنده ، منتظراً له . كما كان أيضاً منتظراً لأبيه يعقوب . وعلى ذلك فكان يعقوب يترقب اجتماعه بولده يوسف وينتظر ذلك اليوم المعهود . وكان يوسف يترقب اجتماعه بوالده يعقوب ، وينتظر ذلك اليوم الموعود أيضاً ، وكان الاثنان على مثل اليقين ، بل على حق اليقين من اجتماعهما فيما بعد ، مهما طال الوقت ، فلذلك لم يسع يوسف في تعريف والده بوجوده ولم يجتهد على

إحاطة والده بأنه في مصر ، لتحققه ان الاجتماع سيقع أو سوف يقع بكفالة سماوية ، ووعد رباني لن يتخلف ، هذا أقصى ما أمكننا من الاعتذار عن سيدنا يوسف عليه السلام .

فصول مأساة يوسف (ع)

الفائدة السادسة — كانت مأساة يوسف عليه السلام ذات فصول سبعة :

(١) القاؤه في الجب (٢) نقل السيارة له من موطنه لوطن آخر (٣) بيعه لفوطيفار كرقيق ، (٤) اتهامه زوراً بالفحشاء (٥) محنته بالنسوة المصريات (٦) سجنه ظلماً (٧) وأخيراً نسيان صديقه له وقد تشفع به أن يذكره الملك فكانت هذه الحادثة الأخيرة المؤلمة خاتمة هذه الفصول وتتمة تلك الذكريات المحزنة .

على من يريد انتقاد احد ان يتمهل حتى تستوفي البينة نصابها

الفائدة السابعة — (وقال للذي ظن .. الخ) ههنا يحشر المفسرون أحاديث تحتوي انتقاد يوسف في هذا وفيما ذكر في آية ٤٧ و ٥٠ و ٥٥ ، ويا ليتهم تريثوا وتمهلوا وتأملوا ، ولم يكونوا سراعاً في ايراد الطعن من نبي في نبي ، كأننا نحن المسلمين لم نكتف بإيقاد نار الفتنة بين رجل ورجل من غمار الناس وغوغائهم ، حتى وسعنا في هــــذا الباب وفتحناه على مصراعيه ، وجعلنا ننقل ما فيه إيقاد نار الفتنة بين الأنبياء الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، ويا ليت المفسر حينما يريد أن ينقل انتقاد نبي على نبي ، واعتراض رسول على رسول ، يصبر حتى تستوفي البينة نصابها ، فقد ورد أن عمر بن الخطاب استشار الناس في دية الجنين ، فقال المغيرة بن شعبة : (شهدت رسول الله ﷺ قضى فيه بغرة عبدٍ أو أمةٍ) — فقال عمر : (إئتني بمن يشهد معك) فشهد معه محمد بن مسلمة رواه ابن ماجه في سننه ، وفيها أيضاً أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلب من راوي الحديث شاهداً آخر ، في حادثة

ميراث الجـدة ، فقد روى ابن ماجه : جاءت الجـدة الى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها ، فقال لهـا أبو بكر : (مالك في كتاب الله شيء ، وما علمت لك في سنة رسول الله شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس) فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة: (حضرت رسول الله أعطاها السدس — فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ — فقام محمد بن مسلمة الانصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأنفذه لها أبو بكر)

تعليل تعبيره بكلمة (ظن) في الآية

الفائدة الثامنة — إنما قيل (ظن) في قوله (وقال للذي ظن أنه ناج) ، ولم يقل (عَلِم أو جَزَم) لأن عبارته لرؤيا الشرابي ، ليست مبنية على حس أو تواتر أو وحي ، ولكن على ملكة ومقدرة ، وتوضيح المقام يحتاج لشيء من بسط الكلام:

للعقل أحكام قاطعة ، وهي ماتستند الى يقينيـــات كالمشاهدات والمتواترات والأمور الموحى بها من الله ، وللعقل أحكام غير قاطعة ، وهي ماتستند الى ظن ، وقد رفع الله الظنون بعضها فوق بعض درجات ، فمن الظن مايقوى ، فيوشك أن يكون علماً ، ومن الظن مايضعف ، فيوشك أن يكون شكاً ، وقوة الظن وضعفه يرجعان الى تفاوت الامارات والدلائل التي توجده وتربيه في النفس ، فلهذا ولمـا كان اعتقاد يوسف بنجاة « رئيس السقاة » ليس مستند على حس أو تواتر أو وحي ، بل على مجرد ملـكة في عبارة المرآئي ، ومقدرة وهبها الله له ، ناسب أن يعبر في جانبه « بالظن » هذا هو الصواب في تعليل تعبيره بكلمة « ظن » خلافاً للمفسرين ،

فدع كل صوت غير صوتي فـإنني أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدي

اطلاق لفظ « رب » مضافاً للعاقل على غير الله تعالى

الفائدة التاسعة — نتعلم من قوله « عند ربك » ان إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل على غيره تعـالى كان جائزاً عند يوسف وفي عصره ، نظير السجود ، أي

سجود الانسان للانسان على جهة الاحترام والترسم ، فان كان جائزاً في ذلك العصر وما قبله لعهد آدم عليه السلام ، كذا قالوا ، وهو حسن ، ولكننا نزيد عليه ماهو أحسن انشاء الله تعالى وهو أن هذا النوع من التعبير مبني على اصطلاح عند المصريين والعبرانيين ، وهو اعتبارهم الملك سيداً ، وكل رجل من رعاياه عبداً له ، وهم كالعرب يعبرون عن السيد بالرب ، مضافاً للفظ العبد أو لضميره . فيقولون : رب العبد وربه ، وهذا ، أي اضافة لفظ الرب للعبد جائز لغة ، كما نص عليه (الاساس).

علاقة الشر بالله تعالى

الفائدة العاشرة : — نتعلم من قوله : ﴿فأنساه الشيطان﴾ أن ننسب ما كان من نوع الشرور ، الى غير الله تعالى ، كانفسنا والشيطان ، ولا ننسب لله عز وجل إلاّ ما كان من نوع الخير ، قال موسى عليه السلام ، لما قتل القبطي : ﴿هذا مِنْ عمَلِ الشيطانِ﴾ (٢٨:١٥) ، وقال ابن مسعود لما سئل عن الفريضة :

﴿أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً ، فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه﴾ ، وكذلك قال أبو بكر في الكلالة ، وقال عمر نحو ذلك ، ومرادهم ان الصواب ، قد أمر الله به وشرعه وأوجبه ورضيه ، والخطأ لم يأمر به ولم يحبه ولم يشرعه ، بل هو مما زينه الشيطان لنفسي ، ففعلته بأمر الشيطان ، فهو مني ومن الشيطان ، وتوضيح ذلك : أن الله تعالى وان كان خالقاً لكل شيء ، ولكن لا يضاف اليه الشر مفرداً ، بل إما أن يدخل في العموم ، واما أن يضاف الى السبب ، كالشيطان والنفس الخبيثة مثلاً ، وإما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى : ﴿اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ﴾ (١٣:٩٨) والثاني كقوله : ﴿قلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ﴾ (١١٣ : ١ و ٢) أي من شيطان و نفس

خبيثة ونحوها ، كما قال تعالى :﴿وإمّا يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ ، فلا تقعدْ بعدَ الذِكْرَى مَعَ القومِ الظالمين﴾(٦٨:٦) ، وقال فتى موسى :

﴿وما أنسانيه إلاّ الشيطانُ أنْ أذكُرَهُ﴾(٦٤:١٨)،ولما نام النبي وأصحابه في الوادي عن الصلاة ، قال : (هذا وادٍ حضرنا فيه الشيطانُ) ، وقال : (إن الشيطان أتى بلالاً ، فجعل يُهَدِيه ، كما يُهَدّى الصبي ، حتى نام) ، والثالث كقول الجنّ : ﴿وأنّا لا ندري أشَرٌّ أُريدَ بمن في الارضِ ، أم أراد بهم ربُّهم رَشَداً ؟﴾(١٠:٧٢) وقد قال تعالى: ﴿اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ ، صِراطَ الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾(١:٥-٧) فذكر انه فاعل النعمة ، و حذف فاعل الغضَبِ ، وأضاف الضلال اليهم ، وقال الخليل عليه السلام :﴿ وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِينِ ﴾(٢٦: ٨٠)وانما يذكر الشر في المفعولات كقوله تعالى:﴿اعلَموا أنَ اللهَ شديدُ العِقاب، وأنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾(١٠١:٥) وقوله : ﴿إنَ ربَّكَ لسريعُ العِقاب ، وإنهُ لغفورٌ رحيمٌ﴾(١٦٦:٧)، وقوله : ﴿نبيءْ عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ ، وأنّ عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾ (٤٩:١٥)، ﴿وقوله : حَم ، تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ العليمِ ، غافرِ الذّنبِ ، وقابِلِ التوبِ ، شديد العقاب﴾(٤٠: ٣) (منهاج السنة).

معنى قوله « ذكر ربه » تذكير ربه

الفائدة الحادية عشرة — معنى قوله :﴿ذكر ربه﴾تذكير ربه ، فهو من إضافة المصدر لمفعوله ، فان الذكر مصدر ، تارة يضاف الى الفاعل ، وتارة الى المفعول ، كما يقال : دَقُّ الثوب ، ودَقُّ القصار ، ويقال : أكلُ زيدٍ وأكلُ الطعامِ ، ويقال : ذِكْرُ اللهِ : أيْ ذِكْرُ العبدِ اللهَ ، ويقال ذكرُ اللهِ : أي ذَكْرُ اللهِ منْ ذَكَرَهُ ، وكل هذا في إضافة الذكر اضافة المصادر ، وقد

يضاف الذكر اضافة الأسماء المحضة ، كقولك ثوب زيد : أي الثوب المختص بزيد وذكر الله : أي الذكر المختص بالله ، ويحتمل المعنيين قوله تعالى: ﴿ومَنْ أعرضَ عن ذِكري ، فإنّ له معيشةً ضنكاً ، ونحشُرُهُ يومَ القيمة أعمى ، قال ربِّ ، لِمَ حشرتَني أعمى ، وقد كنتُ بصيراً ؟ — قال كذلك أتتْكَ آياتُنا فنسيتها ، وكذلك اليومَ تُنسى﴾(٢٠: ١٢٤–١٢٦) ، فقوله ﴿ذكري﴾ إن أضيف إضافة المصادر ، كان المعنى : الذكر الذي ذكرته ، وهو كلامه الذي أنزله ، فهو من اضافة المصدر الى مفعوله ، وان أضيف إضافة الأسماء المحضة ، فذكره هوما اختص به من الذكر ، والقرآن هوما اختص به من الذكر ، قال تعالى : ﴿وهذا ذِكرٌ مُبارَكٌ أنزلناه﴾(٢١: ٥٠) وقال أيضاً: ﴿إنْ هوإلا ذِكرٌ وقرآنٌ مُبينٌ﴾(٣٦: ٦٩) (منهاج السنة).

سبب مكث يوسف في السجن بضع سنين

الفائدة الثانية عشرة — قوله : ﴿فَلَبِثَ في السجنِ بِضْعَ سنينَ﴾ هو مرتب على قوله : ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّه ﴾ ولا علاقة له بقوله : ﴿ قالَ اذكرني عند ربِّكَ ﴾ ، حتى يظن أنه مجازاة ليوسف ، كما توهمه بعض من ليس عنده دقة وإدراك للأمور ، وليس عنده كبير احترام لأنبياء الله الكرام.

التحقيق في معنى « البضع » وفي مدة مكث يوسف في السجن

الفائدة الثالثة عشرة — « البضع » هو من واحد الى عشرة ، نقله الطبرسي في (مجمع البيان) عن ابن عباس ، ونقله الشريشي في شرحه على مقامات الحريري عن الأخفش والفراء ، ونقل صاحب القاموس أن من معاني البضع ما بين الواحد الى الأربعة ، أو أن البضع ما بين العقدين من واحد الى عشرة ، ومن أحد عشر الى عشرين وهكذا ، قال تعالى : ﴿ وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهِم سيَغْلِبُونَ في بِضْعِ

سنين ﴾ (٣٠ : ٣) وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر « الروم » على « فارس » لأنهم أهل كتاب ، والمشركون يميلون الى « فارس » لأنهم أهل أوثان ، فلما بشر الله المسلمين بأن « الروم » سيغلبون ، سُرّ المسلمون بذلك ، ثم أن أبا بكر رضي الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم ، فقال له « أمية بن خلف » : « خاطرني على ذلك » فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بخطاره مع « أمية بن خلف » فقال له النبي : « ماحملك على تقريب المدة ؟ » ـ قال الثقة بالله ورسوله ، ـ فقال له : عُدْ اليه فزوده في الخطر ، وازدد في الأجل » ـ فزادهم قلوصين ، وزادوه سنتين ، فظفرت (الروم بفارس) قبل انقضاء الأجل الثاني ، ولكن كان (أُبَيّ بن خلف) ، قد مات ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية (أُبَيّ) وتصدق به ، وهذه الحكاية تدفع القول بأن (البضع) مابين الثلاثة والعشرة ، وهل كان (أبو بكر) لا يعرف معنى البضع في اللغة العربية ، وهو من صميم العرب ؟ إذ لو كان البضع كما قالوا لم يخاطر في مدة ثلاث سنين بل في مدة بعد الثلاث سنين ، ولكان النبي ﷺ ينتقده من هذه الجهة ، بل أقره على فهمه ، ولكن أراد النبي الاحتياط بازدياد الأجل ، والخلاصة وبالنتيجة يصح لنا أن نقول ان مدة إقامة يوسف في السجن إنما هي سنتان وشيء من السنة الثالثة كما يستفاد من (تك ٤١ : ١) وكل مايروى في تحديد مدة سجن يوسف بأكثر من ذلك فهو غير حائز على شروط الصحة ، ومبني على حب المبالغة التي هي عادة في الناس .

هذه هي كلمتي في هذا المحل وهي آخر كلمة فأرجو الاصغاء اليها ، وآمل من السامعين قبولها .

لاتحقر الرأيَ يأتيكَ الصغيرُ به ‏ ‏ ‏ ‏ فالنحلُ وهو ذبابٌ طائرُ العسل

الفصل السادس

حلما الملك

آية (٤٣) ﴿... وقالَ المَلِكُ: إنّي أرَى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ، وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ، وأخَرَ يابساتٍ، ياأيها المَلأُ، أفْتُوني في رُؤيايَ، إن كنتم للرؤيا تَعْبرون﴾.

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والأربعون فقام الشيخ ناصر الدين الأفغاني وقال:

لقد تم الكلام في اعتقال يوسف وذيوله، ولتركه في سجنه كما قدر الله، وتذهب بالقارىء الى الملك الريان وحلميه، واليك البيان: (وقال الملك) الريان بلسان المتفهم المستفتي (إني أرى) في المنام (سبع بقرات سمان) جمع سمينة (يأكلهن سبع) من البقرات (عجاف) جمع عجفاء، والعجف الهزال الذي ليس بعده، (و) أرى أيضاً في حلم آخر في ذات الليلة (سبع سنبلات) سنبلات (خضر) سبعاً (أخر يابسات)، هذا ما رأيت في حلمي فهيّا (يا أيها الملأ) الأعيان من العلماء والحكماء والكهان (أفتوني في رؤياي) علموني تأويلها وبينوه لي، بينوا لي حكم هذه الحادثة (إن) كان عندكم ثروة علمية و (كنتم للرؤيا) المنامية (تعبرون) وتعرفون عاقبتها ومآلها.

(وقال الملك : اني أرى سبع بقرات . . . الخ)

— ١ —

وقال العلامة الروحاني البخاري :

الملك الريان يقص حلمه على الملأ طالباً تعبيرهما له

شاءت العناية الالهيـة أن يخرج يوسف من سجنه بسبب شريف علمي . . فقد آن للمظلوم آن ينتصر على الظالمين ، وحان للحق أن يدمغ الباطل ، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسباباً ، ولذلك لمـا أراد الله اخراج يوسف من معتقله ، واسناد وزارة المالية وحاكمية مصر لعهدته ، أرى ملك مصر رؤيامنامية ذات بال ، إذ بينا الريان نائم رآى رؤيا أكبرها جداً وأفاق من نومه وهو خائر النفس ، وأصبح من جرائها في اضطراب لم ير قبله مثله ، ولن يضطرب بعده مثله ، وأوجس منهـا خيفة ، وأجفل أيما إجفال ، ولذلك جمع الكهنة والكتبة المقدسين والحكماء ، وقال لهم بلهفة وهو مضطرب الحواس ، محطم من آثار مارآى في منامه : إني أرى حلماً ذا بال ، إذ رأيت فيه سبع بقرات سمان وحسنة الصورة ، طلعت من النهر ، فأرتعت في روضة كثيرة الكلأ ، ثم رأيت سبع بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورفيعة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة ، فأكلت البقراتُ المزيلةُ القبيحةُ البقراتِ السبعَ الأولى السمينة ، فدخلت أجوافها ولم تظهر علامات ذلك ، وكانت كأنها لم تأكلها ، وعليه فبقي منظرها قبيحاً كما في الأول ، وههنا استيقظت ، ثم نمت فرأيت في حلمي سبع سنابل خضر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، ثم رأيت سبع سنابل يبض يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نائية وراءها ، فابتلعت السنابلُ الرقيقة السنابلَ الحسنة :

فيا أيها الكهنة ويا أيها العلماء والحكماء والكتبة المقدسين أنيروا ظلمة نفسي، وبينوا لي بفجر أفكاركم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقد التبس عليّ أمر هذه الرؤيا، والتوى عني مآلها، ياأيها الملأ الذين يملأون بهيئآتهم عيون الناس، لله أبوكم، بينوا لي مرمى مارأيت، إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا، وتعرفون مآلها ومرجعها

قال ذلك، ولوائح الاهتمام تلوح على وجهه، وظواهر العناية تبدو على لسانه.

وههنا نسرد ثماني مسائل لها علاقتها بتوضيح معنى الآية:

من هو «الملك» في قوله: وقال الملك..

المسألة الاولى — ان هذا «الملك» الذي يعنيه القرآن هو «الريان بن الوليد» كما ذكره مؤرخو العرب، وكما وجد اسمه منقوشاً على بعض الأحجار الأثرية، وهو من العمالقة، وبعبارة أخرى من الاسرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة لدولة الرعاة العربية بمصر، أي الهكسوس، إذ لما كانت السلالة الرابعة عشرة من الفراعنة المصريين تحكم في وادي النيل سنة (٢٠٠٠ق.م)، كانت الأقوام السامية تنتقل في شرقي مصر (مديرية الشرقية المسماة في التوراة أرض جاسان)، على حدود البادية، وهذه الأقوام هي التي كان المصريون يسمونها «شاسو» أو «هكسوس» أي البدو، وهم قوم من البدو يشبهون العرب، ويتكلمون لغة يظهر انها كانت قريبة جداً من العربية، وكانت هذه الاقوام تترقب ضعف الفراعنة في مصر، فتسطو على المصريين في مدنهم، أو يقطعون عليهم السابلة للغزو، وكانت الفراعنة تخافهم وكثيراً ماسالمتهم واستعانت بهم في حروبهم، لقوتهم وشجاعتهم، شأن أهل البادية في كل عصر، ومازالوا كذلك حتى سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر السفلى، وامتلكوها، وكيفية ذلك انه لما حدثت الاضطرابات والفتن،

منذ السلالة الرابعة عشرة ، اغتنم الهكسوس ضعف دولة النيل ، فوثبوا على مصر السفلى ، وأعملوا فيها يد النهب والسلب ، واستعمروا الوجه البحري ؛ وجزءاً من الوجه القبلي ؛ واستولوا على مدينة « منفيس » وضبطوا « الدلتا » بكاملها ، وولوّا عليهم ملكاً منهم ، فتقهقرت الفراعنة الى الجنوب ، ثم بدأوا يجبون الضرائب من الأهلين ، ومازالت مصر في حوزتهم حتى أول القرن الثامن عشر ق . م ودامت سيطرة العمالقة (الهكسوس) على مصر نحو أو أكثر من خمسة قرون ثم طردهم المصريون .

دولة الهكسوس في مصر

وكانت دولة الهكسوس عندما انحسر تيارهم وقت ورود يوسف الصديق تقع في المثلث الذي تتألف منه رؤوسه ، من « مينا القمح » و« بوبسطه » (القريبة من الزقازيق) وصان الحجر ، وهي المسماة « صوعن » ، ثم لما تقدم ، لما بيع يوسف لم يجد أقل مشقة في محادثة الأهالي ، لأنهم كانوا منه ، وهو منهم ، يتكلمون كلهم لغة سامية ، فيوسف لم يخدم أحداً من فراعنة مصر ، لأن هؤلاء كانوا في « طيبة » في ذلك الوقت ، وكانت لغتهم مصرية لايفهمهايوسف.

تعبير القرآن بلفظ « ملك » ولفظ « فرعون » لحكام مصر الاقدمين

المسألة الثانية ـ عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذي كان فيعهديوسف بلفظ «ملك» ولم يعبر بلفظ «فرعون» ، لان هذا الملك «الملك الريان » لم يكن من « القبط » بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين في نظرهم ، وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة « فرعون » إلاّ على من كان مستولياً على مصر استيلاءً شرعياً وكان مصرياً قحاً ، وليس دخيلاً أو مستعمراً وعلى هذا جرت عادة كتاب الله تعالى أن يراعي الاصطلاحات المعروفة عند أهلها،

وهو ما فهمته في توجيه تسمية حاكم مصر في زمن يوسف بلفظ «ملك» في خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة، منها ما جاء في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ومنها قوله تعالى: ﴿ وقال الملك: ائتوني به ﴾ وقوله: ﴿ وقال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ وقوله: ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ وقوله: ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ فهذه خمسة مواضع اطلق الله فيها على حاكم مصر بصورة متمادية لقب «ملك» لا لقب «فرعون»، ولكنه في سائر السور سمى ملوك مصر الوطنيين «فراعنة» جرياً على اصطلاح «القبط» كما في قوله تعالى في فرعون التسخير «رمسيس الثاني» من السلالة التاسعة عشرة: ﴿فالتقطه آلُ فرعونَ﴾ (٨:٢٨) وقوله تعالى في فرعون الخروج «منفتا» الابن الثالث عشر لرمسيس الثاني: ﴿ وقال فرعونُ يأيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري ﴾ (٣٨:٢٨)، وقوله تعالى في بعض فراعنة مصر: ﴿وضربَ اللهُ مثلاً للذينَ آمنوا امرأةَ فرعونَ ﴾ (٦٦:١٠) وهذا لا نعلم من أي سلالة، وفي أي عصر هو؟

غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم «ملك مصر»

في زمن يوسف باسم «فرعون»

وبعد كل ذلك نعلم غلط جميع المؤرخين من أهل التاريخ القديم والحديث العرب واليهود والنصارى، وكذا المفسرين والمحدثين في تسميتهم «ملك مصر» في زمن يوسف باسم «فرعون» لانه مخالف للواقع ولاصطلاح أهل ذلك الزمن ولكتاب الله تعالى، وقد تبع التوراة في هذه التسمية جمهور المفسرين والمؤرخين، أو كأن المسلمين أخذوا تسمية الرعاة بالفراعنة، عمن دخل في الاسلام من أهل الكتاب، فقلدوهم في ذلك، حتى اتصل بالمفسرين والناس — كما قال ابن تيمية — اسراب طير يتبع بعضهم بعضاً، وليعذرني القارئ

الكريم في مخالفتي لجميع من ذكر ، فالهدهد رد على سليمان ، والمرأة أصابت دون التعمان ، والفاروق يقول : «اخطأ عمر وأصابت امرأة » والسمكة ردت على الشيخ محي الدين الأكبر .

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى　　ولكنها الأهواء عمت فأعمتِ

وعندنا ان هذا من جملة البراهين على أن القرآن وحي يوحى ، وليس من تأليف البشر ، لأنه لو كان كذلك ، لاتبع القرآن ما هو المشهور عند أهل الكتاب ، المتداول على ألسنتهم ، المكتوب في أسفارهم ، من تسمية « ملك مصر » في زمن يوسف باسم (فرعون) كما هو كذلك في توراتهم وغيرها من كتب اليهود المقدسة عندهم ..　　(مرحى مرحى)

عدد سبعة في تاريخ يوسف

المسألة الثالثة — كثر عدد « السبع » في تاريخ يوسف ، فالبقرات السمان سبع ، والعجاف سبع ، والسنبلات الخصر سبع ، واليابسات سبع ، وسنو الخصب سبع ، والسنو الشداد سبع ، والحفلة النسائية التي تشكلت في قصر العزيز ، لكي تلتف حوله وتراه ، كانت مؤلفة من سبع نسوة ، والأبواب التي غلقتها امرأة العزيز كانت سبعاً ، والاخوة الذين تبعوا مشورة شمعون في قتل يوسف أو طرحه أرضاً كانو سبعة ، ولما ماتت « راحيل » حضنت « بلهة » يوسف سبع سنين ، وكان عمر يوسف حين قام أبوه من حاران سبع سنين .

احتياج الملوك للعلماء

المسألة الرابعة — نتعلم من قول « الريان » للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكماء - ان الملوك مهما كانوا من ذوي الأيد والشدة ، لا يستغنون عن أهل العلم ، يستنيرون بنور علومهم ، في دياجي الحوادث ، فكم من ملك بنى القلاع والحصون ، وقاد

الجيوش ، واستكثر من السلاح والكراع ، وأوغل في الفتح ودوخ البلاد ، واستعبد الأمم ، وعاش في الغبطة والسرور ، ومع كل هذا لم يستغن عن سؤال العلماء ، والاستفادة من معارفهم ، فقول «الريان بن الوليد » ههنا : « يأيها الملأ أفتوني في رؤياي » قول يتضمن احتياج الملوك للعلماء وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله !

الملأ جماعة من رجال البلاط والعلماء

المسألة الخامسة — « الملأ » جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون ، أو ينظرون فيملأون بهيئتهم العيون ، كما قالوا ، وعليه يكون « ملأ » بمعنى مالىء ، ويحتمل عندنا أن يكون « ملأ » بمعنى مملوء ، لأنهم مملوؤن من الرأي ، ومملوؤن من الهيئة الجميلة ، فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول ، وقد عهد مجيء فَعَل بمعنى مفعول أكثر من مجيئه بمعنى فاعل ، فمن ذلك :

حسب ، نقض ، صمد ، سكن ، ولد ، حصب ، نفض ، ذهب ، جلب ، سرب ، خرز ، ملك ، نعم ، طرح ، الى غير ذلك .

وربما كان هذا « الملأ » من رجال البلاط ومن العلماء اصحاب المناصب في الديوان الملكي ، الذين ليسوا أخصائيين في عبارة الرائي المنامية ، ولذلك قال : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فان هذه الجملة تفيد ان الملك « الريان » لم يكن على بينة من أنهم يعبرون الرؤيا ، وليسوا مشهورين ولا أخصائيين في عبر المنام ، هذا ما فتح به المولى الكريم ، وهو بكل شيء عليم .

يغلب على الحالم أن يرى ولا يسمع

المسألة السادسة — تعليقاً على قوله « إني أرى » قلما يحلم الانسان حلماً تحتوي مادته على لغة وكلام ، وانما الاكثر أن « يرى » الحلم ولا يسمع ، وهو لذلك يسمى « رؤيا » فتحن في معظم أحلامنا خرس لا نتكلم وانما نرى فقط ، كما كان

الانسان في بدء حياته الانسانية عقب خروجه من الطور الحيواني أخرس لا يتكلم، ويوجد في هذه السورة المجيدة خمسة مرائي : الأولى رؤيا يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ، والثانية رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً والثالثة رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، والرابعة والخامسة، رؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل، وكل ذلك رؤيا لم تحتو مادته على لغة وكلام ولكن على شيء منظور، نعم في ذلك أفكار مجسمة، وتجسيم الافكار هو الاصل في الرموز، ففي الرؤيا الأولى ، علو يوسف وشرفه مجسم في ذاته المسجود لها ، وخضوع اخوته مجسم في ذوات اخوته الساجدين ، وأما في الرؤيا الثانية فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته ، عند الملك هو مجسم في عصر الخمر للملك ، وأما في الرؤيا الثالثة فصلب رئيس الخبازين هو مجسم في الخبز المعلق فوق رأسه ، وأما في رؤيي الملك ، فالخصب مجسم في أشخاص البقرات السمان والسنابل الخضر ، والجدب مجسم في أشخاص البقرات العجاف والسنابل اليابسات ، فالأفكار والآراء تتجسم للرائي في الحلم أشخاصاً أو أشياء ،

الفتوى

المسأله السابعة — (أفتوني) بمعنى علموني تأويل تلك الرؤيا ، ففي حديث رويناه ، في سنن ابن ماجه : (سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فاذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ، وأفتوهم) قال محمد ابن الحارث للحكم بن عبده : (ما أفتوهم قال علموهم) وأفتاه في الأمر أبانه له ، والفتيا والفُتوى وتفتح: ما أفتى به الفقيه (قاموس) .

تعبير الرؤيا

المسألة الثامنة — حقيقة (عبرت الرؤيا) ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما

تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها، وعِبْر الوادي وعَبْر النهر ويفتح: شاطئه وناحيته، وعَبَرت الرؤيا عبْراً وعبارة فأنا عابر، أفصح من عبرت بالتشديد، والتعبير والمعبر، ثم لفظ (تعبرون) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة، في هذا الموضع لا غير..

امكان رؤية حلمين في نوم واحد

وقبل الختام فعندي كلمة لابد من التصريح بها، وهي أن بعضهم سُئِلَ: هل يمكن أن يرى الإنسان في منامه حلمين من مراد واحد يتكرران في ليلة واحدة: فأجاب بأن هذا من الممكن، بل من المرجح، لأن الإنسان يحلم بما يشغل باله، فإذا كان هذا الشاغل قوياً تكرر حدوثه بل إذا تذكرنا حلمي مليك مصر وهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة، قلنا إنه واقع وثابت، هذه هي كلمتي الختامية والسلام عليكم. (مرحى)

جهل الملأ بتأويل الاحلام وجوابهم

آية (٤٤) — ﴿ قالوا: أَضْغَاثُ أَحْلامٍ، وما نحنُ بتأويلِ الاحلامِ بِعَالِمِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والأربعون فقام الشيخ أسعد الحوراني [1] وقال:

(قالوا) أي الملأ بلسان الجهل أو المكر (أضغاث أحلام) أي تخاليطها

---

(١) نسبة الى منطقة حوران من بلاد الشام (سورية)

وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ماجمع من أخلاط النبات وحُزِم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة بمعنى مِنْ ، أي أضغاث من أحلام ، فان قلت : لم قالوا أضغاث أحلام بصيغة الجمع ؟ هو جمع ، لأنهما حلمان ، فالسبع بقرات حلم ، والسبع سنابل حلم بعده ، إنما كلاهما في ليلة واحدة ، وقد قيل أقل الجمع اثنان ، (وما نحن بتأويل الأحلام). أي المنامات الباطلة (بعالمين) فليس لها عندنا تأويل ، فان التأويل انما هو للمنامات الصحيحة ، ويحتمل أن المعنى : هي أضغاث أحلام ومع ذلك فلسنا في تأويل الأحلام الصحيحة بنحارير ، وههنا يظهر الفرق بين العالم والجاهل .

(قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الحق الاخصائي في علم النفس :

طعن الملأ في رؤيا الملك على اعتبار انها غير صحيحة

سبق أن الملك الريان دعى « الملأ » الذين عنده في البلاط وقد حسن فيهم ظنه واستفتاهم في أمر حلميه ، وهم كانوا في اثناء استفتاء الملك جالسين جلوس الاصنام ، وقد جمد الدم في عروقهم ، لأنهم رأوا أن جهلهم لايساعدهم على تأويل رؤياه ، فلذلك أجابوه وقد علاهم الاصفرار والخجل واكتنفتهم ظلمة الجهالة : أيها الملك ، علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ، إن هذه الرؤيا التي رأيت ، لايعول عليها في تصاريف الايام بل هي تخاليط أحلام وأباطيلها ، اقتضتها هواجس الملك وشكوكه ؛ أو هي منامات باطلة ليس لها عندنا تأويل ، فان التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة .

فترى أنهم طعنوا في الرؤيا بأنها غير صحيحة ، وليست رؤيا رحمانية ، بل هي حُلُم من الاحلام الشيطانية التي لاتستحق النظر ، أرادوا أنهم وان يكن عندهم علم بتأويل الرؤى ، لكن هذه الرؤيا إنما هي حُلم شيطاني ليس له تأويل مطلقاً ، لاعندهم ولا عند سواهم .

جهل الملأ بتأويل رؤيا الملك على اعتبار أنها صحيحة

وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون معنى الأحلام في قولهم : (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) الرؤى المنامية الصحيحة ، كانوا يقولون : ومع ذلك فلسنا هناك ، فاننا غير أهل لتأويل الرائي المنامية مطلقاً ، حتى على فرض انها صحيحة صادقة ، فقد نصدق إن قلنا : «خيراً رأيت» ، وقد نصدق إن قلنا « عكس ذلك» لاسمح الله ، فنحن لانعلم إلا أننا لا نعلم ، وان من العلم أن نقول : « لا نعلم ، بل الله أعلم » . وعلى هذا فيكونون قد اعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا في تأويل الاحلام بنحارير ، ويكون كلامهم هذا اعترافاً بالجهل أو العجز ، وانسحاباً من ميدان القدرة على التعبير مطلقاً ، واعلاناً لا فلاسهم من العلم والمعرفة ، وبهذا يكونون قد استراحوا من حيث تعب الكرام ، كما أنهم بهذا قطعوا آخر خيط كان في نفس الملك من خيوط الرجاء بوقوفه على تأويل رؤياه بواسطتهم ، وهذا الاحتمال الثاني قوي جداً ، وقول الملك لهم أولا : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا في اعتقاده عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج الاستفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أو غير عالمين ، وقول الفتى الذي نجا ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ... الخ الآية ﴾ دليل أيضاً على ذلك .

ولنا هنا خمس فوائد :

كذب الملأ وصدقهم في جوابهم للملك

الفائدة الاولى — نرى أن هؤلاء « الملأ » قد كذبوا في جوابهم للملك وصدقوا أما كذبوا ، ففي قولهم : « أضغاث أحلام »، فان هذه الرؤيا ليست من قبيل أضغاث الأحلام ، بل هي من الروآى المعتبرة ، وأما صدقوا ، ففي قولهم : ﴿ ومانحن ... الخ الآية ﴾ الذي حاصله الاعتراف منهم بالجهل .

جواب الملأ للملك يدل على جهلهم تعبير الروآى

الفائدة الثانية — يوجد في هذه الآية نكتة ، وهي أن هؤلاء « الملأ » جمعوا في جوابهم بين قولهم ﴿أضغاث أحلام﴾وقولهم ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ ذهاباً منهم الى إرادة عدم الجواب على كل حال ، فهم يقولون : هذه الرؤيا لاتخلو من أحد أمرين ، فان كانت أضغاث أحلام فيما نظن ، فليس لها عندنا ولا عند غيرنا تعبير ، وإن كانت من قبيل الحُلم الذي له تأويل فلسنا هناك ، لأننا لسنا من العلماء بتفاسير الأحلام ولو صحيحة ، فعلى كل حال لا تكلفنا أيها الملك بتعبير هذه الرؤيا .

معنى الضغث

الفائدة الثالثة — الضغث من العمل ما كان مختلطاً غير خالص ، فهو فِعْلٌ بمعنى مفعول ، كالذِبح والحِمل ، من ضغث الحديث إذا خُلط ، وأتانا ضَغيثةٌ من ناس : أي جماعة ملتبسة ، داخل بعضها في بعض ، ومنه قولهم للحُزمة من كلأٍ أو غيره « ضِغْث » والأحلام الملتبسة « أضغاث ».

طاف عمر رضي الله عنه بالبيت فقال : ﴿ اللّهُم إن كنت كتبت عليّ إثماً أو ضِغثاً فامحه عني ، فانك تمحو ماتشاء وعندك أم الكتاب ﴾ ، وفي حديث أبي

هريرة رضي الله عنه أنه أردف غلامه خلفه ، فقيل له : ﴿ لو أنزلته فيسعى خلفك فقال : لأنْ يسير معي ضِغثان من نار ، يحرقان مني ما أحرقا ، أحب إليّ من أن يسعى غلامي خلفي ﴾ ، (الفائق) .

وقد جاء هنا « أضغاث أحلام » بصفة الجمع والمقصود ضغثا أحلام ، لأنها ضغثان اثنان فقط ، ولكن من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع كما تقول عند ذكر الحسنين : « كرّم اللهُ وجوههما » ، وكما قال عز وجل : ﴿ إن تتوبا إلى اللهِ .. فقد صغَتْ قلوبُكما ، وإنْ تظاهرا عليه .. فإنَّ اللهَ هوَ مَوْلاهُ . الخ الآية ﴾ (٦٦:٤) ولم يقل « قلبا كما » ، وكما قال عز وجل : ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعُوا أيديَهما ﴾ (٥:٩ ٤) ، فلم يقل « يديهما » فقه اللغة.

الحِلْمُ والحُلُم

الفائدة الرابعة — « الأحلام » جمع حُلْم بالضم بمعنى الرؤيا المنامية وهو من الباب الأول ، مثل حكم يحكم حكماً ، واسم الفاعل منه حالم ، ويقال : حَلُمَ يَحْلُم كحَسُنَ يَحْسُنُ من الباب الخامس ومصدره الحِلم بالكسر ؛ ومعناه صفح وستر وتأنى وتروى وتعقل ، واسم الفاعل منه حليم ، وجمع الحِلْم بمعنى العقل حلوم وأحلام أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ أمْ تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ؟ ﴾ (٥٢:٣٢) وقال حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر حسم البغال وأحلام العصافير

احتمال تجاهل « الملأ » تعبير رؤيا الملك وسببه

الفائدة الخامسة — كل ما تقدم من أن هؤلاء « الملأ » جهلوا تأويل حلم الملك جهلاً حقيقياً ، لا تجاهلاً صنعياً ، هو ما ذهب اليه جميع مفسري القرآن الكريم ، ومفسري التوراة ، وهو حسن ؛ وعندي أنه يجوز أيضاً أن يكونوا غير جاهلي

تأويل هذه الرؤيا ، ولكنهم تجاهلوه ، تذكروا ماانطوت عليه الصدور ، وانحنت فوقه الضلوع ، من الحقد القديم ، والضغينة السياسية ، بين القبط الوطنيين ، الذين منهم هؤلاء « الملأ » ، وبين أمة الهكسوس الذين منهم هذا الملك ، ولا بدع في كون الوطنيين كانوا يعدون الهكسوس غريبين عنهم ، مغتصبين لبلادهم ، مع حلولهم بمصر نحو مدة (٥٠٠) سنة ، فهذه بلدة سلانيك ، ظلت في قبضة الترك (٤٨٢) عاماً ، ومافتيء أهلها يعدون الأتراك أجانب ومغتصبين ، وتراهم عند كل فرصة كانوا يثورون على دولة « آل عثمان » حتى سلمت اليهم .

وغني عن البيان ان تأويل هذه الرؤيا بسيط وبسيط جداً ، ولكن هؤلاء « الملأ » لايريدون أن يبينوا التأويل لهذا الملك الغريب المغتصب ، ولم يكونوا يريدون نصحه والاخلاص له ، لمكان الاختلاف بينه وبينهم في اللغة والعنصر والوطن والدين ، فلغتهم وجرثومتهم قبطية ، ولكن الملك الريان ساميّ في لغته وجرثومته ، وأما وطنهم فافريقية وهو من آسية ، وأما معبوداتهم فهي قطعاً غير معبوداته ، وإن كان كل من الفريقين وثنياً .

فهل بعد هذه المخالفات يمكن أن يخلصوا لهذا الملك ، أو لأيّ واحد من سلالته ، أولأي سلالة من سلالات الهكسوس الثلاث ؟ ـ حاشا ـ

وعندي أنه بهذا الفهم ينحل إشكال ، صورتهمايلي:

كيف ان « الملأ » الذي يجمع بين السحرة والحاذة والمنجمين والمفكرين والمعبرين لم يجيبوا عن سوآل الملك ، مع بساطة الجواب لاسيا على المصريين.

فاذا صح هذا يكون المعنى هكذا : سألهم الملك الريان عن رؤياه،فتفاوضوا فيما بينهم: ﴿ إن هذا الملك العماليقي الغريب المغتصب قداستبد هو وأجداده بمقدرات الشعب المصري ، والآن (يستفاد من رؤياه) ، سيحدث بمصر حوادث هامة حيوية اقتصادية ، ربما أوجبت اضطراباً في مملكته وأنهكت قواه وزلزلت أقدام هؤلاء

الغرباء ، وعليه فالأوفق أن لا تنصح له ، ولا نجيبه على سؤآله لئلا يستدرك ويلطف هـذه الحادثة التي ستحدث ، ولذلك قالوا له بأفواههم فقط دون قلوبهم ، لأنهم لا يعتقدون ما يلفظون : (أضغاث أحلام) تجاهلاً منهم ، والافهم أهل لتعبير هـذه الرؤيا وغيرها ، وأما قول الملك لهم : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) فليس هو من قبيل الشك في مقدرتهم ، ولكنه من قبيل الحث والتحضير لكي يؤولوا هـذه الرؤيا بجد وسرعة ، أو لكون الملك هو قد استصعبها في نفسه ، وإن لم تكن صعبة عليهم في الواقع ، هذا ما نذكره على سبيل الاحتمال ، والله تعالى أعلم .

وقبل الختام ، فلا ندحة لنا من أن نقول : جل الله القدير ، إن هؤلاء الملأ ، أطبقوا وتمالئوا على ماقالوا ، جهلاً منهم بمرامي الرؤى المنامية أو كراهة منهم للملك ، وإذا كان معاوية بن أبي سفيان كان قال في حادثة : (إن لله جنداً من العسل) ، فنحن هنا نقول : (إن ليوسف جنداً من جهل هؤلاء الملأ أو مكرهم بالملك) لأن يوسف انتفع بذلك ، ولو لا جلهم أو تجاهلهم ، لم يحتج اليه في تفسير رؤيا الملك ، فكان يبقى في معتقله لآخر لحظة من حياته ، ولكن هكذا أراد الاله القدير ، ولله تعالى في خلقه شؤون . مرحي

وعند جهينة « يوسف » الخبر اليقين

أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب اليه ليؤول له حلمي الملك :

آ (٤٥) ﴿ وقالَ الذي نجا منهما ، وادّكَرَ بَعْدَ أُمّـةٍ : أنا أُنَبِّئُكُم بتأويله ، فأرسِلونِ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والاربعون فقام الجان عبدالسلام التركماني وقال :

سمع الملك الريان جواب (الملأ) فقال : سبحان الله ، ما هـذه الحادثة التي

هي أعقد من ذنب الضب ، وإن أعجب ، فعجب أنكم تقولون عنها انها أضغاث أحلام ، ثم تقولون ما أنتم بتأويل الأحلام بعالمين (و) عند ذلك (قال) الفتى ، رئيس السقاة (الذى) كان في السجن مع يوسف ثم (نجا منهما) من القتيين من القتل (وادّكر) تذكر يوسف وما شاهده منه ، ولكن مع الأسف انما كان تذكره (بعد أمة) بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين حكى الملك الريان رؤياه واستفتى فيها الملأ ، وأعضل على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه رئيس الخبازين ، كما تذكر أيضاً طلب يوسف اليه أن يذكره عند الملك ، قال : (أنا أنبئكم) أخبركم (بتأويله) بواسطة من عنده علمه وهو الفتى العبراني خادم فوطيفار رهين السجن (فأرسلون) أي فابعثوني اليه لأسأله ومروني باستعباره .

(وقال الذي نجا منهما . . . الخ)

— ١ —

ثم قام الحاج عبد القهار الألباني (١) والقى المقال التالى :

تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهاب اليه ليستعبره حلمي الملك

سمع رئيس السقاة (نبو) سوآل الملك الريان وجواب (الملأ) السلبي ، وصار يضحك في قلبه على جهلهم ، ويقول بينه وبين نفسه : (إن هؤلاء الملأ ، هؤلاء العلماء الرسميين ، لهم أضعف من أن يقدروا أن يعبروا رؤيا الملك) ، ثم ماعتم أن تذكر يوسف العبراني ، فقام ووقف أمام الملك وركع بين يديه وكفّر وقال : (أيها الملك المعظم ، ماهؤلاء وذاك ؟ . اعط القوس باريها ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) .

(١) نسبة الى بلاد الالبان الكائنة بين اليونان وايطاليا .

(أنا) بصفتي كوسيط (أنبئكم بتأويله) بكل تدقيق وتفصيل ، على أهون سبيل ، فان في معتقل الخاصة كهلاً فاضلاً صالحاً ، كثير العلم كثير الطاعة ، كنت معتقلاً معه أنا ورئيس الخبازين (مجلث)[١] ، وكان كلانا رأى حلماً ، فقص كل منا حلمه على هذا الانسان ، فذكر لنا تأويلها باسرع من لمح البصر ، وليس هذا هو العجيب ، بل العجيب أنه صدق في تأويل كليها ، وما أخطأ في حرف واحد فان رأى جلالة ربي الملك أن يبعثني إلى سجن الخاصة ، ويصحبني بمن يسمع ويعي معي مايقوله ذلك السجين قمت ورجعت بالجواب الوافي الذي يبرد الغلة ، ويشفي من العلة .

وهكذا هتف الشرابي بمدح يوسف وأفاض فيه ، حتى ألبسه ثوباً فضفاضاً من الاعجاب والتقدير ، وكانت تلوح على فمه آيات الصدق والاخلاص ، فلذلك قال له الملك : (ليكن كما تحب ، وليذهب معك من أردت ، دونك ما بدا لك) فسار في كوكبة من رجاله الى يوسف السجين .

وههنا ملحوظات أربع :

ثمرة الاحسان

الملحوظة الأولى – تتعلم من هـذه الآية أنه مادلّ مليك مصر على يوسف الصديق ، وعرّفه بفضله إلا ذلك المصري (رئيس السقاة) ، لما سبق أنه سمع منه الحكمة والفوائد الجليلة ، مع ما عهده إليه يوسف من ذكره المليكه ، فأثمر عنده الاحسان ووفى بالوعد ، وإن كان بعد طول العهد .

الحكمة من صرف الله الملأ عن تأويل رؤيا الملك

الملحوظة الثانية — لقد صرف الله الملأ عن تأويل رؤيا الملك ، وجمّد أفكارهم

(١) وفي رواية يسمى « ملحب » .

عن فهمها ، وألجم ألسنتهم عن بيانها ، حتى يسمع « الساقي » فيطير بها ليوسف ويقضى الله أمراً كان مفعولا .

التدابير الالهية وجهل الملأ

الملحوظة الثالثة — يالليلاهة والسذاجة ! ألهذه الدركة يكون الجهل في هؤلاء الملأ ؟.. أين علماء « صوعن » ؟.. أين سحرة « تانيس » ؟.. أين حكماء «الوجه البحري» ؟ أين فلاسفة «الوجه القبلي» ؟.. أين حازّة «المديرية الشرقية»؟.. أين عافة « بوبسطة » ؟.. أفلا يوجد واحد على الأقل في هؤلاء يقدر أن يعبر حلمي الملك ؟.. لكن هي التقادير والتدابير الالهيـة صرفت هؤلاء عما هو بسيط ، وجعلتهم يجهلون ماهو غاية في السهولة ، حتى يحتاج الريان لمراجعـة ذلك السجين العبراني ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

الفتى الناجي يتحدى الملأ

الملحوظة الرابعة — رأى « رئيس السقاة » أن هؤلاء « الملأ » حوّلوا رؤيا الملك عن جهة كونها رؤيا معتبرة قيمة تستحق التعبير — الى جهة كونها حلمـاً ليس له قيمة ، وليس له اعتبار ولا تعبير ، بل هو تخاليط وخيالات ، ثم رآهم أيضاً يتنصلون من معرفة التعبير مطلقاً — فلذلك قال : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون).

استعبار رؤيا الملك من يوسف

آ(٤٦) ﴿ . . . يوسفُ ، أيها الصِدِّيقُ ، أفْتِنَا في سَبْعِ بقَراتٍ سِمانٍ ، يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ ، لَعَلِّي أرجِعُ الى الناسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والاربعون فقام مولانا احمد حسن الهندي الكلكتي[١] وقال :

وافق الملك وحاشيته على إرسال « رئيس السقاة » الى يوسف ، ولما أتاه ، قال له : يا(يوسف أيها الصديق) البليغ في الصدق ، لقد تعودنا أن نسمع حديثك اللذ وفتواك الصحيحة ، التي ذقت أحوالها وتعرفت صدقها في تأويل رؤياي ورؤيا صاحبي ، حيث قد جاءت كما أولت لنا ، فنرجوك الآن (أفتنا في سبع بقرات ..الخ) وان أمكنك أن تكون الفتيا في هذه الجلسة فذاك هو المطلوب ، حيث الحاجة ماسة والمسألة مستعجلة ... (لعلّي أرجع الى الناس) وهم الملك وحاشيته (لعلهم يعلمون) التأويل أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان .. الخ)

— ١

وقال السيد محسن السامراني[٢] :

الفتى الناجي يقابل يوسف ويمدحه ويستعبره رؤيا الملك

قام رئيس السقاة يعدو في ذهابه ، حتى لتراه يكاد يخرج من إهابه ، ودهب

(١) نسبة الى كلكتا احدى مدن الهند . (٢) نسبة الى سامراء بلدة في العراق .

الى سجن يوسف ودخل عليه قائلاً :

« يوسف » قبل كل شيء أطلب إليك الصفح ، فقـــد كنت أدفنت حيالك ، لأنني أُنسيت أن أذكرك لربي ، وما أنسانيك إلا الشيطان أن أذكرك ، (أيهـا الصديق) لله أبوك ، لك الله من رجل صدق ، رجل حذق ودكاء ، لك الله من رجل جمع الى الاحسان في عمله ، الصدق في رأيه وقوله ، أريد أن أجتديك ، وأعتني فضلك ، فقد أتيت لك بمهمة ذات بال : أفتنا وأز ظلمة نفوسنا ، وبين لنـا المرمى في رؤيا سبع بقرات سمان اللحم وحسنة الصورة ، طلعت من النهر فأرتعت في روضة فأكلتهن سبع بقرات مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقـة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة ، طلعت البقرات الرقيقة القبيحـة من النهر وراء تلك السبع الأولى فأكلتها ودخلت أجوافها ، ولم يُعلم أنها دخلت أجوافها.

ثم أفتنا في رؤيا ثانية أيضاً ، رؤيت بعد الأولى في ليلة واحـدة وهي سبع سنابل خضر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، وسبع سنابل أُخر يابســات ورقيقات نابتة وراء تلك ، ملفوحة بالريح الشرقية الجنوبية، المعروفة بريح الخمسين تأتي لمصر من صحارى بلاد العرب اليابسة ، فابتلعت السنابل الرقيقـــة السنابل السبع الحسنة ؛ هذا هو الحلم الذي استعجم علينا مآله ، والتبك تفسيره ، فأفدني من فضلك وخلاك كتمان العلم،لأني سأرجع الى الملك « الريان بن الوليد » و« الملأ » الذين من حوله ، فأطلعهم على علمـك وفضلك ، فتصير بالطبع تحت الطلب ، وأنا لا أكلفك بتوقيع الجواب عن سؤالي اعتباطاً ، بل لداع هام منحصر في دائرة ، وهي علم الملك وحاشيته بتأويلك ، فعلمهم بفضلك ، فخروجك من السجن ، فهذه الفتوى ليست مجانية ، بل مأجورة ، وأجرتها ما قـــد علمت ، فقد عودتنا الاحسان منذ القديم ، فجدد بفتواك اليوم سالف إحسانك ، وألحق النعمـــة

الأخيرة بأولها ، وأنت تعلم أن (الساكت بين النائم والاخرس) فنرجوك الجواب، ولك من الله الثواب .

فلما سمع يوسف ذلك رأى وهو في ظلمات السجن ، دقوّ سلامته يشرق عليه كالقبس في الديجور ، وتفاءل من مجيء رئيس السقاة خيراً وفرجاً قوياً .

(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات .. الخ)

— ٢ —

وقال مولاي عبد الحفيظ التونسي :

سوف أقتصر كلامي على هذه الآية بالملحوظات التالية :

الشرابي ينبه يوسف الى سابق صحبته له بدعوته اياه باسمه ولقبه

الملحوظة الاولى — نجد أن « الشرابي » قد بدأ يوسف بذكر اسمه ولقبه ، لينبهه الى صحبته له سابقاً ، ومعرفته به وحاله ، وليلفت فكره الى ما كان سبق من عبارته رؤياه ، وصدقه فيها .

كرم اخلاق يوسف بعدم معاتبة الشرابي لعدم قيامه بما كان طلبه منه

الملحوظة الثانية — كان « الشرابي » يتوقع أن يوسف سيذكره بما كان رغب اليه فيه ، ويعاتبه على عدم قيامه به ، ولكن يوسف عليه السلام لم يفعل ، إما ترفعاً عنه ، أو كرم أخلاق منه .

القاب يوسف

الملحوظة الثالثة — لقبه « بالصديق » لأنه كان جربه في عبارة حلمه وحلم رئيس الخبازين ، فوجده صادقاً وصادقاً ، ولقد حفظ له التاريخ هذا اللقب ، واعتبره منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، فكلمة (صديق) هي الكلمة الوحيدة التي تأتي دائماً بعد كلمة (يوسف) ، عندما يراد ذكره ، أو ترجمة حياته الشريفة ،

وفي صدد تلقيبه (بالصديق) نرى إخوته لقبوه (بالعزيز) حيث قالوا له ، لما دخلوا عليه في السفرة الثالثة (يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر . . الخ) (آية ٨٨) ولا بد أن يكون هذا . قد صار لقباً رسمياً له من حين أن جعل في الحكومة المصرية ثاني الملك ، كما كان قبله (فوطيفار) ، ثم هو بجعله على خزائن الأرض طبعاً قد صار (ناظر مالية عاماً) ، ونرى في بعض كتب التاريخ القديم أن ملك مصر وجّه له لقب (صفنات فعنيح) حينما رآه قد أحيا أهل مصر ، وخلصهم من عذاب الجوع ، لأن هاتين الكلمتين مصريتان ، معناهما على ماقاله (القانون كوك) : (طعام الحياة) أو (قوت الأحياء) ، وفسرهما آخر (بمخلص العالم) والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة إلى زمن القحط ، فهذا هو رابع الألقاب ، ونرى ليوسف عليه السلام في القرآن الكريم لقباً خامساً ، وهو (رسول) ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جاءَكُم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبَيِّنَاتِ ، فما زِلْتُمْ في شكٍ مِمّا جاءَكُم به ، حتى إذا هَلَكَ ، قلتُم : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ومما يستحق الالتفات أن هذه الالقاب الخمسة كانت مؤسسة على أعمال صدرت منه استحقها بحق ، بدون سعي منه ، أو توسط بمن يلزم ، أو دفع رشوة لأولياء الأمر أو ابتياع الاسماء والألقاب والرتب كما يفعل كثيرون من المتمجدين من أهل اليوم ! ! . .

اخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف

الملحوظة الرابعة — مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذي رأى هذه الرؤيا ، وتتميماً لهذا التستر ، تجده ذيل استفتاءه بقوله (لعلي أرجع إلى الناس ، لعلهم يعلمون) عبر بهذا بدلاً من أن يقول : (أفتنا في

رؤيا رآها الملك وهي كيت وكيت ، ثم يذيل سؤاله بأن يقول : لعلي أرجع إلى الملك لعله يعلم) ، فما هي النكتة يا ترى في ذلك ؟ . . وعندنا أن الداعي لذلك هو أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن ووقوفه أمام الملك ، مشترطاً ذلك ، توصلاً لخروجه من معتقله فلما ظن ذلك ، وهو حريص على تأويل الحلم ، وحريص أيضاً أن يسمع الملك تأويل حلمه ليس من فم يوسف ، بل من فمه ، لينال حظوة عند الملك بذلك ، فلهذا ستر الحالم ستراً ، ودحر تفصيل الواقعة دحراً .

معنى الافتاء

الملحوظة الخامسة — أفتاه في الأمر : أبانه له ، وأخوات هذه المادة تشير للكشف والظهور ، وذلك مثل فتّ ، فجّ ، فرّ ، فضّ ، فتق ، فتك ، فتن ، فكل ذلك يرمي لمعنى البيان والوضوح والكشف ، وبعد لم يقل كما قال هو و (الخباز) أولاً (نبئنا) لما عاين من سمو رتبة يوسف ، وجرب من علو فضله سابقاً ، لأن هذه المادة تشعر بذلك ، فان (الفتى) يطلق على السخي الكريم ، (والفتوة) هي الكرم .

معنى الصديق

الملحوظة السادسة — الصديق : من غلب عليه الصدق وعرف به كالسكير لمن غلب عليه السكر ، هذا إذا لوحظ أخذه من الصدق ، كما هنا ، وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التصديق ، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكمال الايمان بهم ، وذلك كما في لقب « الصديق » لأبي بكر رضي الله عنه ، ومن اطلاق « الصديق » بالمعنى الأول ، قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً ﴾ (٤١:١٩) . وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

إدريس ، إنـّه كانَ صِدِّيقاً نبياً ﴾(١٩:٥٦) ومن قبيل إطـلاق الصديق بالمعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وأمُّهُ صِدِّيقةٌ ﴾ (٥:٧٨) بدليل : ﴿ وصَدَّقتْ بكلمات ربِّها وكُتُبِهِ ﴾ (٦٦:١٢)

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسل كما قال تعالى : ﴿والذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئك هُمُ الصِّدِّيقونَ والشهداءُ عند ربِّهم،لهم أجرُهم ونورُهم﴾ (٥٧:١٩) فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمـة « صديق » اطلقت في كتاب الله تعالى على إدريس وإبراهيم ويوسف ، بمعنى ، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسل بمعنى آخر .

هذه كلمة ولنا كلمة أخرى ، وهي أن الصديق رتبة من أربع رتب رسمية ، ولقب من ألقاب أربعـــة سماوية ،وهي نبيّ ، صديق ، شهيد ، وصالح ، وهؤلاء الأربعة هم المنعم عليهم في قوله تعالى : ﴿ صِراطَ الذينَ أنعَمتَ عليهم ﴾(١:٦) والدليل على ذلك كلـــه قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يُطعِ اللهَ ورسُوله فأولئكَ مَعَ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من النَّبيينَ والصِّديقينَ والشُهداء والصالحينَ ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ؟﴾(٤:٦٨) .

وجوب التزام الادب عند مخاطبة النبي (ص)

الملحوظة السابعة — قال علماؤنا : يجب الأدب مع النبي ﷺ في حين خطابه، أخذاً من قوله تعالى :﴿ لاتجعلوا دُعاءَ الرسولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكم بعضاً ﴾ (٢٤:٦٣) ، فلا يجوز أن يخاطب بيامحمد أو ياأحمد ، ولكن بلقب الرسول والنبي ونحوهما مما فيه احترام له عليه السلام ، ولو قيل : يامحمد خاتم النبيين مثلاً ، جاز ، لأنه وإن يكن نداء باسمه ، لكنه قد أتبع بلقب احترام .

ولقد التزم « الشرابيّ » الآن هذا الأدب مع يوسف عليه السلام حيث اتبع لفظ العلم بلفظ اللقب .

قوله لعلهم يعلمون بدل اشتمال من قوله لعلي ارجع الى الناس

الملحوظة الثامنة — وربما كان قوله ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿ لعلي أرجع الى الناس ﴾، والله أعلم .

الإيجاز في القرآن

الملحوظة التاسعة - يوجد بين قوله : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ وقوله : ﴿ يوسف ، أيها الصديق .. الخ ﴾ إيجاز لطيف مقبول معهود ، والمعنى :

أنا أنبئكم بتأويله ، فاني أتذكر اليوم أن حضرة الملك لما سخط علي وعلى « الخباز » وحبسنا ، رأى كل منا حلماً ، وكان في الحبس غلام عبراني ، عبد « لعزيز مصر » فقصصنا عليه ما رأينا فعبره لنا ، وكما عبر حدث ، إذ ردني الملك الى مقامي، وأما « الخباز » فقتلني ، فلا أعلم أحداً أصدق منه عبارة للرؤيا ، فارسلوني اليه لأستعبره ، فأرسل إلى يوسف ، فأتاه فقال له : «يوسف أيها الصديق الخ »، ولهذا نظائر في اللغة العربية وفي القرآن الكريم ، لاتحصى كثرة ، وهي في القرآن نحو الـ ٥٠٠ أو تزيد ، واليك بعض الأمثلة .

١ــقوله تعالى : ﴿ فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾(٢: ٣٤و٣٥).

٢ــقوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم ﴾(٢: ٥٤)، والمعنى ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم .

٣ــقوله تعالى . ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك

الحَجَرَ ... فانفجرتْ منه اثنتا عَشْرةَ عيناً ﴾(٢:٦٠)والمعنى فضرب فانفجرت.

٤ــ قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناسُ ، قد جاءَكُم بُرهانٌ مِنْ ربِّكم ، وأنزَلنا اليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا باللهِ واعتَصموا به ، فسَيُدخلُهم في رحمةٍ منهُ وفضْلٍ ، ويهْديهمْ اليه صِراطاً مُستقيماً ....﴾ (٤:١٧٣و١٧٤) والمعنى وأما الذين كفروا بالله واعتصموا بالطاغوت ، فسيدخلهم في نقمة منه وغضب ، ويسلك بهم الصراط الأعوج .

٥ــ قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لكم .... أنْ تَضلُّوا ﴾ (٤:١٧٥) ومعناه كراهة أن تضلوا .

٦ ــ قوله تعالى: ﴿ لايُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ في أيمانِكم،ولكنْ يُؤاخِذُكمْ بما عَقّدتُم الأيْمانَ . . . فكَفّارَتُهُ . . الخ ﴾ (٥ : ٩٢) ، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان اذا حنثتم ، فكفارته الخ .

٧ ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ افتَرَيْتُهُ ، فعليَّ إجْرامي . . . وأنا بَرِيءٌ مِما تُجرِمُونَ ﴾ (١١ : ٣٥) يعني ولم يثبت ذلك ، وأنا برىء من إجرامكم في اسناد الافتراء اليّ .

٨ ــ قوله تعالى : ﴿ فلمَّا ذهبوا به وأجْمَعُوا أنْ يَجْعَلوه فى غَيَابةِ الجُبّْ . . ﴾ (آية ١٥) ، جواب « لمَّا » محذوف ، ومعناه فعلوا به مافعلوا من الأذى .

٩ ــ قوله تعالى : ﴿ واللهُ المُستَعانُ على ماتَصِفُونَ . . . وجاءَتْ سيارة . الخ ﴾ (آية ١٨ و ١٩) ، فهنا كلام محذوف تقديره ، وبعد أن ذهب آباء الأسباط لأبيهم ، ونعوا له أخاهم ، وقال أبوهم ماقال ، ومضى مدة من الزمن ويوسف في الجب « جاءت سيارة الخ » .

١٠ - قوله تعالى : ﴿ فأرسلوا واردَهم . . . فأدلى دلوَهُ . . . قال يابشرى هذا غلام ﴾ (آية ١٩) ، والمعنى أرسلوا واردهم ، فذهب حتى وصل الجب ، فأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالرشاء ، فلما خرج إذا هو بفتى أحسن مايكون ، فقال يابشرى الخ .

ويوجد في كتاب الله تعالى الشيء الكثير من هذا القبيل الذي لو تتبعناه لخرجنا عن الصدد وفيما ذكرنا كفاية المستبصرين .

تأويل يوسف لرؤيا الملك

آية (٤٧) « قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ، فَمَا حَصَدتُم فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ، إلاَّ قليلاً مِمَّا تأكلون » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والأربعون فقام السيد صدر الدين الدمشقي وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الشرابي : أريد أن آتيك بالتعبير على وجهه (تزرعون) أي ازرعوا جميع أراضيكم (سبع سنين دأباً) - بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدرا دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين إما على تدأبون دأبا ، وإما على إيقاع المصدر حالاً بمعنى ذوي دأب فتأتي بزرع أخصب زرع وبربيع أحسن ربيع حتى أن قطعان الغنم تختفي عن الأبصار بين أعشاب الربيع وحتى أن الجاموسة بطولها تحتجب في المراعي بين الأعشاب ذلك لعظمة قوة الانبات وجودة التربة وكثرة الإبليز في تلك السنين (فما حصدتم فذروه) اتركوه وأبقوه (في سنبله) لئلا يتسوس (الا قليلا مما تأكلون) ، فهذا لا بأس أن تدرسوه وتذروه وتخرجون

حبه وتميزوه من تبنه تهيئونه لأجل أكلكم وقوتكم ، وبما أن هذه المسألة مسألة أساسية ، حيوية ، ينبغي لكم أن تعتنوا بها ولا تخالفوا ماقلت لكم .

(قال : تزرعون سبع سنين .. الخ)

— ١ —

ثم ألقى العلامة الديري[1] البيان التالي :

تعبير يوسف لرؤيا الملك يبسط التدبير اللازم

جاء الشرابي بمن معه من الجند ، وقص على يوسف تلك الرؤية ، فلما سمع منه يوسف ذلك ، لم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، حتى أمعن في بيانه وجوابه وقال : على الخبير سقطت ، ولا ينبئك مثل خبير ، إن هاتين الرؤيين ستحدثان تبدلات خطيرة في الموقف الحاضر ، اذ السماء نظمت برنامجاً جوياً أرضياً وسوف تطبقه عليكم ، ولا مفر من ذلك ولا محيص غيرأنه يمكن تخفيف وطأة مواد هذا البرنامج السماوي ، فاذا كان قدراً قابلناه بقـــدر مثله ، وهو العمل على تلطيفه ما أمكن ،ولذلك أقول لكم تأتي على مصرأولاً سبع سنوات هي سنوّ جدبوقحط هي موت زعاف ، تفعل في الناس ولا فعل الحروب والأوبئة ، إلا إذا تُدُورِك هذا الخطب الجلل ، وتُلُطِّفَ هذا البلاءالعظيم ، بحسن التدبير والحكمـــة ، والاقتصاد القويم ، فهذهطريقتي تضمن لكم الفوز ، وتؤمنكم من الخطر الذييريد أن يحدق بكم فازرعوا كعادتكم سبع سنيندأباً ، عادة مستمرة ، كما كنتمتزرعون سائر السنوات السابقة قبلهـــا ، بدون أن يتخلل تلك السبع سنة واحدة بغير زراعة بأن تتركوا الأرض بوراً مثلاً فما جزرتم وقطعتم بالمنجل فذروه في سنبله

---

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام « سورية » .

لئلا يتسوس إلا قليلا ، أي يسيراً ، فانه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه منه لأجل أكله ، الأمر الذي يعوزكم لوجود عامل صاحب همة عالية ، ينشطكم للأعمال الزراعية وتعميمها وتقوية أصحاب الأراضي وتفهيمهم مايلزم عمله .

سرعة اجابة يوسف بتعبير رؤيا الملك دون قيد ولا شرط

وتابع العلامة الديري قوله : إن لي على ماسبق ذكره ملحوظة واحدة وهي أن يوسف (ع) أجابهم على الفور ، ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك ، لأنه كريم ، وشأن الكريم عدم الابطاء والاخلاص في الاعطاء . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه) ، وعن علي كرم الله وجهه : (ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا) ، وقال المسيح عليه السلام للحواريين : (مجاناً أخذتم ، مجاناً اعطوا) وبعبارة أخرى : إنما أفتاه يوسف مع إنه كان عهد إليه بتوسطه له عند مليك مصر ولم يفعل ، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي ستحل بالمصريين ، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً ؛ لأن النصيحة من الايمان ، وكاتم العلم ملعون ، ولأن الذي سجنه إنما هو واحد فقط وهو « فوطيفار » ، وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو أيضاً واحد ، وهو « الشرابي » ، فكيف يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير ، بذنب رجل أورجلين .؟ (مرحى)

(قال : تزرعون سبع سنين .. الخ)

— ٢

ثم قام المحقق الانطاكي(١) **وقال ليسمح لي السادة الافاضل بالتحقيقات**

---

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام « سورية » .

التالية لشأن سياسة يوسف في مجاعة مصر وفي بعض الالفاظ التي وردت في هذه الآية الكريمة :

تدبير يوسف الاقتصادي لاهل مصر

١ً — وضع يوسف هذا التدبير الاقتصادي لأهـل مصر ، في ذلك العصر لقلة طرق المواصلات ، وضعف وسائط النقل البرية والبحرية ، إذ لم يكن أمن مستتب بين مملكة وأخرى ، كما لم يكن هناك سفن بخارية في البحر ولا سكك حديدية في البر ، فلذلك كان إذا حصل قحط في جهة من الجهات أثر عليها تأثيراً كبيراً ، أما لو كانت الحال على ما نحن عليه اليوم من اتصال الممالك بعضها ببعض، وتسهيل طرق التجارة براً وبحراً وجواً وتيسير أسباب النقل بسرعة ، لما كان لذلك القحط تأثير يذكر .

ملكية الحاصلات في مصر

٢ً — تنص هذه الآية أن يوسف أمرهم بادخار جميع الحاصلات في سبع سنيّ الخصب في سنابلها ، والظاهر أن هذه الحاصلات هي ملك لأربابها الأهالي ، وأما الحكومة فلا سيطرة لها عليها إلا بأن أجبرتهم على هذه الطريقة أو شوقتهم اليها وحببتهم فيها ، هـــذا مانتعلمه من كلام الله تعالى ، وللمفسرين ههنا نقول في كيفية خزن الحكومة لهذه الحاصلات ، ثم بيعها للاهالي بالفضة حتى نفدت ، ثم بالمواشي والخيل والحمير حتى نفدت ، ثم بيعت لهم بأرضهم وأنفسهم بأن صارت الأرض ملكاً للحكومة ، وصاروا هم عبيداً للحكومة ، فكتاب الله تعالى لايشير لشيء من هذا ، بل ظاهره ينافي ذلك ، وإنما هو شيء نقلوه من (تك ص ٤١ : ٣٤ — ٣٧ و ص ٤٧ : ١٣ — ٢٦) ونحن إذا تعارض كتاب الله مع سواه من التواريخ يجب علينا الرجوع لكتاب الله فقط ، ورفض مايخالفه ، والله أعلم .

الخبر في معنى الأمر والانشاء في قوله (تزرعون)

٣ — قوله (تزرعون) خبر في معنى الأمر والانشاء كقوله : ﴿ تؤمنُونَ باللهِ ورسولِهِ ، وتجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ ، ذلِكُمْ خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ ، يَغفرْ لكم ذُنُوبَكم ، ويُدْخلكم جنّاتٍ . . الخ الآية ﴾ (٦١ : ١١ و ١٢) ، فهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بقوله : (يغفر لكم) ، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : (فذروه في سنبله) .

وهذا أسلوب عربي قد جرى عليه القرآن كثيراً ، لو لاحظه المفسرون لما وقعوا في كثير من الآيات في حيص بيص ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وما تُنفِقُونَ إلا ابتغاءَ وجهِ اللهِ ﴾ (٢ : ٢٧٢) وقوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرون ﴾ (٥٦ : ٧٩) وقوله تعالى : ﴿ أولئك ما كانَ لهم أنْ يَدخلُوها إلا خائفين ﴾ (٢ : ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ وما كانَ لكم أنْ تُؤذُوا رسولَ اللهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) وقوله تعالى : ﴿ ولَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلا ﴾ (٤ : ١٤٠) وقوله تعالى : ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يُقاتلوكم ، وألقوا إليكم السَّلَمَ ، فما جعلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً ﴾ (٤ : ٨٩) وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، هل أدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنجيكم مِنْ عذابٍ أليمٍ ؟ تُؤمِنُونَ باللهِ ورسولِهِ ، وتُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفسِكم ﴾ (٦١ : ١١) وقول النبي ﷺ : (لا يزال هذا الأمر في قريش ، ما بقي من الناس اثنان) .

ادخار الحنطة

٤ ـ أشار بقوله (فذروه في سنبله) إلى رأي نافع بحسب طبيعة طعام مصر ونواحيها وحنطتها التي لاتبقى عامين بوجه ، إلا بحيلة إبقائها في السنابل ، فإذا بقيت فيها . حفظت ويكون قصبه علفاً للدواب .

السنين والاعوام

٥ ـ أراد (بالسنين) السنين الشمسية ، لأن الموضوع موضوع زراعة ، وهي مركبة على السنة الشمسية ، فالمصريون هم أول من عرف بالسنين الشمسية ، لأنهم أول أمة اهتدت إلى معرفة الزراعة ، فلما مارسوها احتاجوا إلى سنة فلكية لاتتغير فيها أوقات الفصول ، فعرفوا السنة الشمسية ، وقد كانت الزراعة ولاتزال هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم ، وكان أهم ما زرعوه الشعير ثم القمح ثم الكتان والذرة ، وبعد ذلك صاروا يعتنون بزراعة القطن .

ثم إن لفظ (السنين) يستعمل لسني الجدب والقحط ، ولفظ الأعوام يستعمل في أعوام الخصب والخير ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً ﴾ (٢٩: ١٤) ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعونَ بالسنين ونقصٍ منَ الثَّمَرَاتِ ، لعلهم يَذَّكرون ﴾ (٧: ١٣٠) ، ومنه الحديث في صحيح مسلم : ﴿ إذا سافرتم في الخصب ، فاعطوا الابل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم في السنة فاسرعوا عليها السير ﴾ ، وانما لم يعبر يوسف بكلمة « أعوام » هنا ، بل عبر بكلمة « سنين » ، مع ان هذه السنين هي سنو خصب وخير ، لان هذه القاعدة انما يجرى عليها في غير مقام العدد والاحصاء ، أو لأن اللغة العبرانية ، لاتعنى بهذا الفرق الدقيق الذي هو من مزايا اللغة العربية ، أو يقال : إن هذه القاعدة غالبة لا مطردة .

اقسام الاحلام الصحيحة

٦ـ قد علم من تعبير يوسف لحلمي « الملك » وحلمي « الشرابي » و« الخباز » إن الأحلام الصحيحة على ثلاثة أقسام: منها مايَسُرّ حتماً، نظير حلم رئيس السقاة السابق، ومنها مايسوء صاحبه قطعاً، وليس له رد ولا فيه حيلة، ومثاله مارآه رئيس الخبازين، ومنها مالا يدعو الى السرور. وربما خيف منه إذا لم تستعمل فيه الحكمة، ويفعل فيه مايلطفه، مثل حلمي « الملك » المذكورين، فهو كما قلنا لايدعو الى الفرح والاطمئنان، ولا يرتاح له القلب، لكن إذا وفق فيه الانسان لاستعمال الحكمة وسلوك سبيل الاقتصاد وتدبير هذا الحادث العام، تلطفت هذه النازلة، فما رآه « الملك » هو من قبيل القضاء السماوي الذي يمكن تخفيفه بالألطاف الالهية، على يد عبيده الحكماء، أهل البصر والبصيرة، على حسب ما أشار اليه يوسف عليه السلام.

معنى الدأب

٧ـ أصل الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه واجتهد، وعليه فمعناه تجدون في هذا الأمر، وتصرفون فيه عنايتكم، وتفرغون فيه مجهودكم، وقد يوضع موضع ماعليه الانسان من شأنه وحاله، فيكون بمعنى العادة والديدن، وحينئذ تفيد المادة الدوام والاستمرار، أي تزرعون سبع سنين، على حسب عادتكم وشأنكم وسابق عملكم، قال تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ (٣: ١٣) وقال: ﴿مِثْلَ دأبِ قومِ نوحٍ﴾ (٤٠: ٣١) أي مثل عادتهم الجارية المستمرة الدائمة، ويجوز أن يكون لفظ « دأباً » هنا، ظرفاً زمانياً، بمعنى دائماً لأن « الدائب » هو الدائم والمعنى: دائماً في كل مدة السبع سنين، كما قال: ﴿وسخَّرَ

لكم الشمسَ والقمرَ دائبَين ﴾ (١٤:٣٣) أي يدأبان في سيرهما ، ويجدان على مدى الأيام .

والحاصل إن لكلمة « دأباً » ثلاثة معان في اللغة : المعنى الأول ، الجدوالتعب ، والمعنى الثاني « السّوق الشديد ؛ والمعنى الثالث ، الشأن والعادة ؛ وهذا المعنى الثالث هنا ، يرجع للمعنيين الأولين ، لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة ، هو الجد والتعب فيها والسوق الشديد .

فالمصريون أول من عُني بالزراعة ، كما ذكره المؤرخون ؛ وبالنتيجة ، فكل واحد من المعاني الثلاثة للكلمة « دأباً » يرمي الى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع ، وهذا أمر لازم وضروري جداً لأن الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي.

(إذا ذكر المحققون خيهلاً بالفاضل الانطاكي)

تتمة تعبير يوسف لرؤيا الملك

آ (٤٨) ﴿ثمَّ يأتي منْ بعْدِ ذلكَ سبْعٌ شِدادٌ ، يأكلْنَ ما قدّمْتُمْ لهُنَّ ، إلاّ قليلاً ممّا تُحصِنُونَ ﴾

استمر انعقاد الجلسة وتليت الآية الثامنة والاربعون فقام مولانا ناصر الدين التونسي وقال :

أضاف يوسف الى قوله السابق قوله : (ثم يأتي من بعد ذلك) سنون (سبع شداد) جمع شديدة (يأكلن) أي يأكل أهلهن من الاسناد المجازي أي جعل أكل أهلهن مسنداً اليهن — ، (ما) كنتم (قدمتم) وادخرتم (لهن) وهو الذي

تركتموه في سنبله سابقاً (إلا قليلاً مما تحصنون) تحرزون وتخبئون لأجل بذر الأراضي في العام الخامس عشر .

في هذه الآية تابع يوسف عليه السلام تعبير رؤيا الملك بقوله تأتي بعد سني الخصب السبع السابقة سنون سبع شداد ما بين حمر ، و بين بيض ، تجدب فيها الأرض ، ويقل ماؤها ، وتغار عيونها ، ويذوي قيتها ، ويبس شجرها ، فلا وابل ولا طل ، ولا رش ولا رذاذ ، سنون سبع شداد تأتي باللازبة ويعم الناس فيها العُدْم ، سبع شداد حالقة ، حارقة ، تأتي على الزرع والضرع ، وتحبس فيها القطر ، ويجف النيـــل ، ويسوء أثرها في الانسان والحيوان ، أرض جرز وغمام جهام ، سبع سنون شداد ، يحر فيها الشجر وتهلك الاسواق ، وتتقطع السبل ولا يرى في الســماء قزعة ، سبع شداد ، يأتين على الاخضر واليابس ، ويهلكن الحرث والنسل ، ويضعفن الاقتات والحيوان ، حتى كانه يخيل للانسان أن مواد الارض المتبخرة ، اصطدم بعضها ببعض ، فتداعى وفتح فيها فوهات ، فخرج لهبها ونارها ، من ههنا وههنا ، فحرق كل ماسيلاقيه من نبات وشجر وحيوان .
سبع شداد هي البقرات السبع العجاف والسنابل السبع اليابسات ، كما أن السنين السابقـــة ، هي البقرات السبع السمان ، والسنابل السبع الخضرات ، سبع شداد ﴿ يأكلن ماقدمتم لهن ﴾ ويذهب ادراج الرياح كانه ما كان الا قليلاً مما تحصنون في الحصن الحصين الذي لا يوصل الى جوفه تحرزون فيه أو تخبئون أو تخزنونه او تدخرون لبذر الزراعة وللاعالة أيام الشتاء .

وبذلك تكونون قد تخلصتم من كابوس الجوع و براثن الهم ، فان عملتم بما اوضحت لكم ، كفيتم شر هذه السنين الاوازم ، ولا يكون هـــذا الا بواسطة مرشد يهديكم سواء السبيل ، وعبقري يصلح من شؤون حاصلات الارض .

تكلم يوسف عليه السلام بهذا الكلام والسكوت سائد في تلك الجلسة لا يبدأ

احدهم بكلام ، ولا ينطق ببنت شفـة ، ولكنهم كانوا يتطاولون باعناقهم لاستماع فتوى يوسف وعبارته رؤيا جلالة الملك ، وارشاده لهم ماذا يعملون ؟. ولقـــد اعتقدوا ان فتواه هذه ليست مستندة لمراجعة أسفار تعبير الاحـلام ، ولا لتعليم أحد من الناس ، ولكنها صوت من أصوات السماء ، فتقبلوه بكل اخلاص ،وعندما أرادوا الذهاب قال له مندوب الملك بورك فى بطن حواك ؛وثدي سقاك،وحجر طواك ، لقد أحسنت سابقاً ولاحقاً ، فلك الشكر مرتين ، كما تفضلت اثنتين.

وحاصل القول ان يوسف عليه السلام علمهم أن يقتصدوا من السنين الاولى ويدخروا الحبوب للسنين الجديدة عملاً بقول الناس : « إخبأ درهمك الابيض ليومك الاسود »، فيكون يوسف لفت فكرهم للاقتصاد ، وهكذا فنحن نرى ان « لـــلاقتصاد » اليوم شأناً من شؤون بني اسرائيل (أو اليهود) حتى في حال اليسر فضلاً عن العسر.

وبعد فهل كان تدبير يوسف عليه السلام رافعاً للشدة من أصلها ، بحيث لم يلحقهم في هذه السنين جوع أبداً ، أو ياترى انما كان تدبيره عليه السلام مصلحاً ومخففاً فقط من شدة وطأة الجوع؟

لا بل كان الشق الثاني ، بدليل حديث البخاري : ﴿ اللهم اشدد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف ﴾،

يوسف يبشر بانتهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب

آ (٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ، فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ، وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

تابع الرئيس انعقاد الجلسة ثم تليت الآية التاسعة والاربعون فنهض الشيخ الأرزنجاني[1] وقال :

قضى يوسف كلامه بقوله : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عـــام ﴾ خصيب مريع ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ الفلاحون — من الغوث أو من الغيث ، والغيث المطر ، وغاث الغيث الأرض أصابها ، وغـــاث الله البلاد ، وبابها باع وغيث الأرض تغاث غيثاً ، فهي أرض مغيثة ومغيوثة — ، ﴿ وفيه يعصرون ﴾ العنب والزيتون والسمسم ونحو ذلك . بشرهم يوسف بعد فراغه من تأويل حلمي الملك بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي أو من جهة الفهم والذكاء ، إذ من المعلوم أن السنين المجدبة اذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب (اشتدي أزمة تنفرجي) ، و (إن مع العسر يسرا) ، ومعلوم أن السماء كانت في سني الجدب ضغطت بشدة ، على السحاب الذي هو اسفنجة المطر ، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار ، علم طبعاً أن السنة الخامسة عشرة هي عام خير وخير عام.

(ثم يأتي بعد ذلك عام ..)

— ١ —

ثم قام العلامة الدمشقي وقال : عندي على هذه الآية الكريمة عدة مسائل:

عزو اخبار يوسف بحسن عاقبة الازمة الى ذكائه

المسألة الأولى — لما كانت السنون المجدبة سبعاً ، لكون « العجاف » سبعاً ،

---

(١) نسبة الى مقاطعة ارزنجان الواقعة في شمال غرب ايران .

وقطعاً لا تزيد على هذا العدد ، صار من المعلوم بالضرورة أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب ، إذ مابعد الشدة إلا الفرج ، فلذلك فهم يوسف أن العام الخامس عشر هو عام خير ومَيْر وهصر وعصر . ولكن المفسرين لا يريدون أن يحملوا ذلك من يوسف عليه السلام على مجرد الذكاء ، بل نسبوه الى الوحي السماوي كأنما الانبياء الكرام يحتاجون الى الوحي في أبسط الأشياء التي يفهمها أقل الناس فهماً ، قال الشاعر :

عسى فرج يأتي به الله إنه : له كل يوم في خليقته أمر
عسى مائرى أن لا يدوم وأن ترى له فرجاً مما ألح به الدهر
اذا اشتد عسر فارج يسراً فانه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين

المسألة الثانية — كان المصريون القدماء يعنون بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق ، تكثر به الفواكه وتَفرُه ، وكان العنب والبلح أكرم الثمار التي اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الخالية (عمر الاسكندري) .

وعليه فكانوا يعصرون العنب والبلح ومما يعصر أيضاً الزيتون والسمسم والمشمش والرمان والليمون والوردوالزهر والخرنوب والقراصيا والتوت والتفاح ، وهكذا الضروع تعصر لتحلب .

بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الرؤيا

المسألة الثالثة — وجد يوسف هذه النهزة فأحب أن يغتنمها ، وقدم له هذا السؤال ، فأحب أن يستثمر من جوابه ، فلم يقتصر على تأويل رؤيا الملك ، تأويلاً بسيطاً حسب عادة العابرين للاحلام ، بل علمهم ، بما سبق من الآيتين ، ماذا يصنعون ، ودبر لهم المخرج مما عساه أن يصيبهم ، وأخيراً ، ههنا ، بشرهم بحسن

الخاتمة » اذ قال لهم : « ثم بعد انتهاء هذه السنين السبع يأتي عام خير يغاث فيه الناس بالامطار، كأنما جادت عليهم مياه المحيط ، وفيه يعصرون ما يعصر لاستخراج عصيره ؛ وعند ذلك يتبدل درهمكم ديناراً ، وتنقلب أتراحكم أفراحاً ، وتستحيل أصوات الاضطراب الى أصوات سرور وطرب ؛ هذا ما علمني الذي وهبني ربي في هذا الموضوع الذي سألتم عنه ، أو هذا الجواب الذي استنبطه باجتهادي حسب الأسس والقواعد التي علمنيها ربي ، وهذه وصاتي إليكم ، فعليكم أن تأتمروا بها ، وإلا .. فعلى مصر السلام ، فان هذا أمر قد قدر وفرغ منه ، وصار عند ربكم حتماً مقضياً .»

لطف الله بالمصريين عن يد يوسف

المسألة الرابعة — كأني بالمندوب « نبو » لما سمع جواب يوسف عليه السلام جزاه خيراً ، وقال له : (سأحمل جوابك هذا الى جلالة الملك ، وسيكون ذلك السبب الوحيد في خروجك من هذا المعتقل) .

نعم إنه سمع جوابه كأنه وحي صادر من أفواه الملائكة ، وبالعمل على ذلك يكون الله قد لطف بالمصريين بلطفه فيما جرت به المقادير ، ولكن عن يد يوسف عليه السلام .

اغفال يوسف تأكيد ذكره عند الملك في هذه المرة

المسألة الخامسة — لم يقل يوسف في هذه المرة الثانية « للشرابي » : (اذكرني عند ربك) ، ربما لكونه تصور أن سيكون حظه في هذه المرة بقول « الشرابي »: (لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) ، فان في هذا القول ما يطمئن يوسف أنه سوف لا ينساه ، ومع ذلك فهو في هذه المرة اعتمد على أنهم بالطبع سيعرفون علمه

وفضله ، ويضطرون لاخراجه من معتقله بدون رجاء ولا شفاعة ، للاستفادة من إرشاده ومشورته لهم .

تدبير يوسف ازمة المصريين بنفسه

المسألة السادسة — هكذا أرشد يوسف المصريين ، وبين لهم المخرج من المصيبة التي ستحل فوق رؤوسهم ، ودبر لهم طريق النور فيما يعملون ، ونصح لهم بكلامه فيما يجرون ، ثم نصحهم بفعله بأن باشر هو بنفسه تدبير شؤونهم وحمل على عاتقه الاتعاب ، لأجل راحتهم وسلامتهم ؛ قال هذا ثم فعل هو حسبما قال:

مقابلة بين «الملأ» الجهلاء وبين يوسف العالم

المسألة السابعة — ههنا يتجلى الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم — بين العالم والجاهل — بين النور والظلمة ، فأولئك «الملأ» بعدم فهمهم نزلوا للحضيض الاسفل ، وترك ذكرهم كأنهم أموات ، وهذا العبد العبراني بفهمه وعلمه ترقى الى أعلا الدرجات ، ولا بدع ، فعبارته رؤيا مليك مصر ، أكسبته حبه إياه ، وحسن اعتقاده فيه ، وسرعة الاتصال به ، واستخدامه في البلاط كوزير مالية ، وكعزيز مصر ، وكوكيل عن جلالة الملك ، فكان في البلاط ثاني الملك .

أين فوطيفار في هذه الازمة

المسألة الثامنة — يجدر بنا ههنا أن نفتقد « فوطيفار » ونتساءل عنه أين هو ؟ فان أزمة الملك وحيرته في رؤياه المنامية لم تحلّ الا على يد عبده العبراني السجين ، وأما ذاته « الشريفة » ! ! فكأنها في هذه الضيقة لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ ويميناً إنه لو جرد من لقبه وثروته ووظيفته ، لم يبق في اليد منه شيء ، قال المعري :

لو يعرف الانسان مقداره	لم يفخر المولى على عبده
لولا سجاياه وأخلاقه	لكان كالمعدوم في وجده

الرؤيا على ما عبرت أولاً

المسألة التاسعة — نقل الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) عن البلخي أن هذا التأويل الذي وقع من يوسف يدل على بطلان قول الناس : « إن الرؤيا على ما عبرت أولاً » قال : لأن الملأ كانوا قالوا : « أضغاث أحلام » ، فلو كان ما قاله هؤلاء الناس صحيحاً ، لكان يوسف لا يتأولها ، أقول هو وهم ، لأن قول الملأ : « أضغاث أحلام » ليس من قبيل التأويل ، ولكنه من قبيل التنصل من التأويل كما هو ظاهر فافهمه . . .

الفصل السابع

القصر يطلب يوسف (ع)

آ (٥٠) « . . . وقالَ الملكُ : ائتُوني بِهِ » ، فلما جاءَهُ الرسولُ . . قالَ : ارجع الى ربكَ ،فاسألهُ ما بالُ النِّسوةِ اللاّتي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ؟ ، إنَّ رَبّي بِكَيْدِهِنَّ عَليمٌ . »

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخمسون فقامت السيدة انصاف الدمشقية وقالت :

القصر يطلب يوسف

كان رئيس السقاة قد رجع أدراجه من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا ، وهو يطوي الطريق طياً ، حتى حضر بين يدي الملك ، فاقتص الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكاها له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك ،

وأحب يوسف ، « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة : مرحى ! ، اذهبوا حالاً ، و (ائتوني به) فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لاسيما في الشئون الاقتصادية . فآض رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك المسمى « نبو » أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأنى يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب : إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب اليّ ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (الى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) ياللعجب ! ! (مابال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم مادعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي) الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في نحورهن .

وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : مامكث في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسيها يقولان فيها : هـذا الذي كان راود سيدته ، فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، ففي الحديث : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم) .

(وقال الملك: ائتوني به... الخ)

— ١ —

وقال العلامة قمر الدين من علماء بلدة كراتشي في الهند[1]:

الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته

بعدما رجع رئيس السقاة (نبو) من عند يوسف الصديق عليه السلام وقص على مليك مصر تأويل حلمه، كما كان قص عليه حادث اعتقاله ظلماً، مع بيان ترجمة حالة، أكبر (الملك الريان) يوسف وأعجبه منه حسن عبارته الرؤيا، ولا سيما بعدما عبرها له، عرفه ماذا يصنع، كما أهمه أكبر اعتقاله قائلاً: ياللظلم ويا للعار! رجل كهذا يحبس دون تحقيق أو إقامة دعوى، بل دون إثبات جريمة، بل بعد براءته من تهمة الجريمة، وأخيراً دون أن يكون لي علم بحبسه، ؟!! يظهر أن في الأمر دسيسة، انهضوا واذهبوا حالا دون توقف، وائتوني به، فإني أراه حسن الرأي، يستدا اليه في الأمور، وتلقى اليه مقاليد الأحوال، ويؤخذ رأيه في الحوادث والنوازل، ولا عرو. فالملك لايستطاع ضبطه إلا بالوزراء والأعوان، ذوي الرأي الصائب، والتدبير البالغ، وإن هذا العبراني خليق أن يكون (المستشار الاقتصادي) في البلاط أو في رجال المعية، ليرجع اليه في الشئون وليذاكر في المهام.

فعاد رسول الملك إلى يوسف، ووجهه يتهلل فرحاً وبشراً، فبادره يوسف قائلاً: أهلاً بالمندوب الكريم، أراك أسرعت الرجعة، قل ماوراءك ياأخا القبط

— قال المندوب: أبشر يا أخا العبرانيين فقد آن أوان الفرج، وآن أوان خروجك من المعتقل، فان ربي عاهل الديار المصرية المليك الريان أنفذني اليك لأجل

---

[1] وحالياً في جمهورية باكستان.

شخوصك اليه ، وانه يريد أن تكون عنده ، وعند ذلك ثارت في يوسف عزة النفس ، وجرى في عروقه دم الشرف والمحافظة على العرض وحسن السمعة ، وأخذ يراجع المضايقات التي مرت به في بيت (العزيز) ويستعرض تلك التهمة التي أتت عليه ، فكادت تهدم شرفه من الأساس ، واستحضر تلك الدعوى المزورة المشؤومة ، بمقابلة اخلاصه لهم ، وافتكر في اعتقاله ظلماً أمام أمانته ومحافظة على شرف (العزيز) وزوجه ، فرآهم قد قابلوا إحساناً بإساءة ، ومعروفاً بمنكر ، وأمانة بخيانة ، فشعر بدبيب ميله للانتقام للمرة الأولى في حياته ، وقال في نفسه : (إذا كانت الشريعة المصرية ، والقوانين الوضعية ، قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس ، فلينتصف الناس لأنفسهم بأنفسهم) ، فاعتقد أنه لابد أن يقتص بشخصه من شخصي العزيز وامرأته ، كما اعتقد أنه لابد من أن يسعى في براءة ذمته ، فلأجل هذين الغرضين لم يشأ أن يخرج من الحبس ، وتوجه بالخطاب الى المندوب قائلاً له أيها المندوب :

« أقول لك بكامل الحرية ، قد آن لي أن أعيش أو أموت ، فللملك أن يلبس التاج ، ويحمل الصولجان ، له أن يجلس على عرش الملك ويسيطر على جميع البلاد والرعايا ، له أن يوجه الرتب والأوسمة والانعامات لمن يشاء ، له أن يبتز الأموال ويحكم على الاجسام ، له أن يعزل ويولي ، له أن يقرب ويبعد ، له أن يعتقل المجرمين ، ويجزر الخائنين ، له كل ذلك ، ولكن ليس لعدالته وانصافه أن يكرهني على خروجي من السجن ، وعلى جبهتي غبرة الاجرام ، بل أرغب اليه وأستميح فضله ، أن يصبر علي قليلاً ، حتى تجرى التحقيقات اللازمة عما نسب اليّ ، فان تبين أني مجرم ، مكثت في معتقلي هذا البقية الباقية من عمري ، والا .. خرجت برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق بـه ذرة

من غبار العار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب الركس ، بحيث لا أهاب ، ولا أغضي لشيء ، ولا أخجل من شيء ، فمع احتفاظي بالمطالبة بالتحقيق عن الاسباب التي دعت لاعتقالي ، سأمتثل أمر الملك ، وأخرج اليه شاكراً حسن رعايته وعنايته ، غير أنني أرجوك أن ترجع الى ربك ، جلالة الملك الريان ، وقص عليه ماسمعت ومارأيت من حالي ومن أمري ، واسأله مابال الظعائن رسل الشيطان ، نساء بعض امراء البلاط ، اللاتي كن منذ بضع سنين جرّحن أيديهن ، يوم ضيافتهن في قصر « العزيز » فأنا أريد أن أنقل الدعوى من محكمة « العزيز » الى محكمة « الملك » إذ أن ربي الذي كان قال سابقاً : (إنه من كيدكن) هو اليوم أيضاً « بكيدهن » المعروفات به « عليم » بـــل هو أعلم أهل الارض بذلك ، فهو كان عرف كيد امرأته يوم حادثة « قـد القميص » وهو إذا أنصف ورجع الى مايعلمه حجـة لي على سلامة شرفي ومكر سواي ، وإني أطـالب بإلحـاح الإمعان في البحث عن أسباب ذلك .

وأقول هنا نعم مافعل يوسف عليه السلام ، وقد أصاب فيما أتى ، لأنه يريد أن يخرج من السجن موسوماً بالبراءة ، لابساً تاج الأمانة ، وهذا هو الـــلائق بالحازم العاقل ، إذ لو خرج في الحال ، ربما بقي في قلب الملك من تلك التهمة أثر .

هذا وأما مايذكره المفسرون من « حديث » يشم منه الانتقاد على عمـــل يوسف ، وعدم تحبيذه ، فعلى فرض صحته فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة يوسف عليه السلام ، حتى من الغلط في عـدم مبادرته للخروج عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخـــذ فيها بالظن ، وعلى كل حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث الذي يحتوي طعن نبي في نبيٍ الى الله تعالى .

« وقال الملك ، ائتوني بـه ... الخ »

— ٢ —

وقال السيد المراكشي ليسمح لي السادة المستمعون بالقاء التعليقات التالية على هذه الآية الكريمة :

البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً

اولاً — جعل يوسف « براءته » في المقام الأول « وخروجـه » من السجن في المقام الثاني ، فلم يكن طلب الملك له والافراج عنه ليهمه بمقدار مايهمه براءة ساحته مما الصق به من العار .

تأدب يوسف بعدم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته

ثانياً — لم يقل يوسف « مابال امرأة العزيز » بل قال : « مابال النسوة » تأدباً معها وحفظاً لما رآى منها من معروف واكرام مثوى، عندما كان في بيتها وتحت يدها لأنـه كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم ، لم يسمه عليه السلام إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمركزها ، قال الشاعر :

ماوهب الله لامرىء هبـة أفضل من عقله ومن أدبه
هما كمال الفـتى فإن فقـدا ففقـده للحياة أحسن بـه

سؤال بحقو البراءة

ثالثاً — وقال يوسف المندوب سل الملك : « مابال النسوة » أي ماحالهن ، ولم يقل : « سله ان يفتش عن شأنهن » لأن السؤال ممـا يهيج الانسان ، ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة

القصة ، وأراد قصّ الحديث ، حتى يتبين له براءته بيانا مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل .

هوية الرسول الذي ذهب الى يوسف

رابعاً — عندنا أن هذا « الرسول » هو رئيس السقاة الذي كان قال « فأرسلون » فهذه أول قرينة ، وقرينة أخرى ، وهي قوله : « الصديق » فهو يدل على انه كان اختبره سابقاً وعرف صدقه في تأويل الأحلام ، و« الرسول » بمعنى المرسَل أو البريد أو السفير أو المحضر أو المندوب أو المبعوث .

تسمية الملك ربا

خامساً — جرى اصطلاح الشعوب والممالك القديمة ، مثل مملكة مصر وبهوذا واسرائيل وأشور والكلدان حتى العرب في الجزيرة — على أن يسموا الملك رباً ، وكل من سواه عبداً ، وقد سبق تفصيل ذلك .

العلماء اغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك باغنياء عن العلماء بالملك

سادساً — باحتياج مليك مصر ، وهو على أريكة ملكه ، الى يوسف وهو في معتقله ظهر جلياً أن العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأغنياء عنهم بملكهم . قال الشاعر :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

حجر أصاب عصفورين

سابعاً — رأى يوسف أن « زليخا » غدرته باتهامه إياه ، وأن « قوطيفار » ظلمه بسجنه طيلة بضع سنين ، رأى ذلك ورأى أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، فلماذا يسكت عن غدره وظلمه ؟...

فلا بد من أن يسأل عن سبب سجنه ، ويفتح باب البحث عن تلك الحوادث الاولى على مصراعيه ، ليحيط « البلاط » بها علماً ، ويكون بذلك رمى حجراً فاصاب صيدين ، الأول وصوله لظهور براءته مما الصق بـــه ، والثاني اظهار ان « عزيز مصر » و« امرأته » كانا قد غدراه وظلماه ، فاهتبل فرصة توجه « الريان » نحوه وحبه إياه فطلب ماطلب وهذا ماأعثرنا عليـه الفتاح العليم ، وللمفسرين هنا كلام أستطيع أن أقول عنه إنه موجب للأسف .

الاجتهاد في نفي التهم واجب

ثامناً — الذي سهل على يوسف عـدم المبادرة الى امتثال أمر الملك بالخروج اليه ، والذهاب عنده انه تصور في كرم أخلاق الملك أن سيعذره ويغتفر له ذلك أمام حرصه على براءة عرضه ، وفي سبيل اجتهاده على حسن سمعته .

وقد ذكروا أن الاجتهاد في نفي التهم واجب ، فقـد أخرج مسلم من رواية أنس :(ان رسول الله ﷺ كان مع احدى نسائه فمر به رجل ، فدعاه وقال : هذه زوجتي .) — (فقال يارسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك) — فقال رسول الله : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) وكانه لهذا كان الزمخشري رحمه الله — وكان ساقط الرجل — قد أثبت عند القضاة أن رجله لم تقطع في جناية ولا في فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار ، وكان رحمه الله يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء .

ديموقراطية حكم الملك الريان

تاسعاً — إنه لأمر معلوم أن الملك (الريان) أرسل مندوبه ليوسف ليأتيه بـه ، ولكن يوسف أبى الخروج إلا بعد إجراء التحقيقات عن سبب سجنه ،

فنأخذ من هذا انه قد كان مطلق فرد من أفراد الناس بمصر، حتى العبيد الدخلاء كانوا يعيشون بمصر عيشة حرية شخصية تامة بأجلى معانيها و أبعد مراميها ، حتى مع نفس الملك القابض على مملكة مصر ، سيدة ممالك العالم إذ ذاك ، وإن هـذا الملك كان ديموقراطياً بحتاً ، يأمر بشيء في حق عبد دخيل ، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره إلا بعد إجراء التحقيق ، مع انه يمكنه الجمع بين امتثال إرادة الملك وبين إجراء التحقيق ، بأن يبادر يوسف للخروج ثم يطلب من الملك ذلك، ولو فعل اليوم نظير هذا الأمر مع « مدير شرطة » لأخذته العزة بالاثم ، وقامت قيامة كبريائه ، وعدل عن إخراجه من السجن ولانقلب له عدواً لدوداً فلو قارنت هذا الملك (الريان) بأمير مقاطعة صغيرة ، أو اهبط قليلاً فقل بوزير من وزرائه ، أو اهبط قليلاً فقل بوكيل الوزير ، أو اهبط قليلاً فقل بالمحافظ أو المتصرف أو المدير ، أو اهبط ثم اهبط ثم اهبط فقل بمأمور الانضباط . . . اذا حاولت أن تقارن بين هؤلاء وبين مليك مصر الريان ، وجعلت الكبرياء ومحبة النفوذ وقوة النفس مقياس التمييز بين الفريقين لوجب أن يعتلي هؤلاء عرش مصر ووجب على « الريان » الوديع المنصف أن يحتل كرسي مأمور الانضباط .

سبب نزول الملك الريان عند رغبة يوسف بعدم خروجه من السجن قبل اجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه

عاشراً — ترى أن ملك مصر « الريان » منذ ما سمع « بيوسف » وخبره وعلمه ، بادر توّاً لاطلاقه من معتقله ، واسترسل في ذلك استرسالاً يفوق عوائد الملوك في تؤدتهم وترويهم ، وهو أمر يستوجب دقة النظر ، وما هـذا الحب والاخلاص الذي أظهره ملك مصر ليوسف قبل أن يراه ؟! فقابل يوسف ذلك بالرفض ، إلا بعد التحقيق عن التهمة التي وصم بها !! فهذا الرفض من يوسف

بدلاً من الشكر والامتثال ، كان يجب أن ينجم عنه حقد «الملك» عليه .وكدره منه ، ولكن الأمر أتي على عكس ذلك ، إذ أمر بالمساعدة اللازمة باجراء التحقيقات نزولا على رغبة يوسف !!! فما سبب ذلك ياترى ؟

وعندنا أن الجواب عن ذلك ، هو أن ملك مصر اسيوى أجنبي عن القبط الافريقيين ، ويوسف كذلك ، (وكل غريب للغريب نسيب) فلذلك استرسل في اطلاق يوسف من معتقله استرسالاً ، وتساهل معه إذ رفض امتثال آمره بالاتيان اليه إلا بعد التحقيق وآثر التمشي مع العاطفة الوطنية على التمشي مع نزعة الصلف والكبرياء ، على أننا نظن قوياً أن هذا الملك (الريان) هو من العقلاء الرصناء الذين ليسوا من ذوي العجرفة فلذلك نزل على إرادة يوسف عليه السلام .

دواعي عدم خروج يوسف من السجن

حادي عشر — إن لعدم خروج يوسف من السجن دواعي عديدة منها (١) انه لم يرض المثول بين يدي الملك وأمره بين بين ، وحاله غامض ، وعاقبته مجهولة ، ومجال الغض منه واسع ولذا أبى أن يخرج من السجن إلا بعدأن ينكشف أمره، وتزول التهمة عنه بالكلية — (٢) انه بهذا العمل لايقدر أحد بعد خروجه من السجن أن يلطخه بتلك الرذيلة ، وأن يتوصل بها الى الطعن فيه ، (٣) انالانسان الذي بقي في سجنه بضع سنين ، إذا طلبه الملك وأمر بخروجه ، فالظاهر أن لا بد أن يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج ، عرف منه أنه في نهايةالتعقل ، وأعلى درجات الصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يُعتَقَد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يُحكم بأن كل ما كان يقال فيه كذب وبهتان . (٤) ان التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من أولئك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ، ووثوقه بكسب الدعوى ، وبعبارة أصح : وثوقه بالبراءة ، اذلو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان يخاف من ذكر ماسبق ، ولايريد أن يخطر ذلك على بال (٥) كان يوسف يخشى

أن يخرج وينال من الملك حظوة وتقريباً ، ويسكت عن أمر تأويله ، فيراه الناس بتلك العين ، يقولون « هذا الذي كان راود امرأة العزيز عن نفسها ، انظروا له كيف صار من أهل البلاط ، انظروا له كيف صار مقرباً من حضرة الملك » .

كيف لم يخش يوسف من النسوة ان يكتمن حقيقة امره

ثاني عشر — لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال (ما بال النسوة .. الخ) ، بما لا يحب كما رمته إحداهن من قبل ، لأنه (١ً) رأى الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع ، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل و (٢ً) هو قد ظن فيهن خيراً ، واعتمد على شرفهن قائلا في نفسه : إن لهن ضميراً سوف لا يتصامن عن ندائه و (٣ً) لأنه كان يعتمد على « الشاهد » من أهل امرأة العزيز و (٤ً) كان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بآذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، وأشد اعتماده على امرأة رئيس السقاة ، التي كانت مدعوة فيهن ، ولا بد أن تكون أفشت لزوجها اعتراف امرأة العزيز و (٥ً) كان يعتمد أيضاً على شرف (عزيز مصر) الذي كان قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وحصر التهمة في زوجه ، ولذا قال عنه ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ ، وانما كان حبسه يوسف حبساً إداريا لأجل إبعاده عن زوجته ، و (٦ً) اعتمد على توجه نظر مليك مصر عليه ، وتمكنه من محبته ، وثقته بعلمه ودرايته . ويوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس ، وأعظمته الرعية ، وأكبره الموظفون الذين هم تحت إدارة ذلك السلطان القاهر ، فصار بذلك أميناً من مكر هؤلاء السيدات ، نساء المستخدمين بمعية الملك .

كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤالهن عن قصة المراودة ولم يقع منهن شيء من ذلك

ثالث عشر — إن قال قائل : إن هؤلاء النسوة لم يكنّ من الكيد في عير

ولا نفير ، ولم يكنّ من المراودة في ورد ولا صـــدر ، فكيف ينسب لهنّ يوسف الكيد ، ويطلب سؤالهن ؟.. وكيف يسألهن مندوب الملك عن مراودتهن ليوسف ؟ ولم يقع منهن شيء من ذلك ؟..

والجواب عن ذلك يعلم بمراجعة ماقيل في الآية ٢٨ والآية ٣٣ فراجعوه إن شئتم.

لم يقصد يوسف التشهير بامرأة العزيز في طلبه التحقيق بل ظهور براءته

رابع عشر — لاريب أن يوسف عليه السلام لايريد لأحـــد الرجال ، ولا لاحدى النساء ، أن يفتضح وتشيع فعلته ،ولكن لامندوحة له عن السعي في ظهور براءته مما اتهم به ، وحبس من جرائه ! حتى لايخرج من السجن ، وهو مخفوض الرأس بين الناس ، فلذلك شرع في طلب التحقيق عن هذه الحادثة ، تذرعـــاً للحصول على ملاك شرفه ، وقوام حسن سمعته ، وهو ظهور طهارته من كل دنس الصق به زوراً . فلذلك رأى أن خروجه من السجن سابق لأوانه ، إنما أوانه بعد ظهور براءته ، وبهذا يسقط ماعساه أن يقال : كيف سعى يوسف في اشاعة الفاحشة ، وأحب تشهير تلك المرأة ؟

فضل يوسف ذلك على خروجه وشيكاً ، ضناً بشرفه ، وحسن سمعته ، لأنه تصور في نفسه وصمته بارادة السوء والفحشاء مع أهل « العزيز » وحبسه من جُراء ذلك ، لايزال الآن عقبة كؤوداً في طريق خلاصه وحسن سمعتـه ، وانها من أعظم الموانع لوصوله لما تطمح اليه همته .

تنازع يوسف عند طلب الملك له عاملان : عامل النزول على إرادة عاهـــل مصر ، ومحبة النفس لمبارحة الحبس ، وعامل الشهامة والعزة ومحبة ظهور البراءة من كل لوث ، ففضل المشي مع العامل الثاني ، فقال للرسول (ارجع .. الخ)

سعة صدر الملك الريان

خامس عشر — لم يغضب الملك على يوسف ، لأنه رفض نعمتـه عليه ، ولم

يطع إرادته السنية التي صدرت من لدنه ، لإتحاف يوسف بخروجه من معتقله حالاً بل تناسى ذلك لطفاً منه وكرماً ، وليس ذلك فقط ، بل زاد عليه — كما سيلي — انه نزل على ارادته في اجراء التحقيق عما كان وصم به ، واعتقل من جرائه ، ولعمري إن هذا من الملك لتضحية كبرى لأنفته وكبريائه يستحق ذلك الملك العملاق . من أجلها أعظم الثناء .

قذف البريء يعود عليه بالخير عند ما تظهر براءته

سادس عشر — نسمع الملك يقول هنا (ائتوني به) ، وسنسمعه يقول بعد ذلك (ائتوني به أستخلصه لنفسي) ، فالطلب الثاني أرقى من الطلب الأول ، وسببه أن الطلب الأول كان مبنياً على علمه بعلم يوسف وفهمه فقط ، وأما الطلب الثاني فكان مبنياً على ذلك وعلى تيقن الملك بسلامة يوسف من الجريرة ، وبعبارة اخرى كان ظهر للملك أولاً تحلية يوسف فحسب ، ولكن بعده ظهر له أيضاً تخليته ، ولا ريب أن التخلية مع التحلية ، أهم من التحلية وحدها ، وهكذا جرت السنة ان في قذف البريء خيراً يعود عليه عندما تظهر براءته كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم لا تحسبُوه شرّاً لكم ، بل هو خيرٌ لكم ﴾ (٢٤ : ١١) .

على الباغي تدور الدوائر

سابع عشر — لاريب أن « العزيز » وذويه كانوا أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة « المرأة » بتوجيه التهمة اليه ، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة ، لأن سجنه سبب تعرفه الى « الساقي » فالتقدم اليه بأن يذكره عند الملك ، ولما رأى الملك رؤياه ، ذكر الساقي يوسف فحمل اليه تلك الرؤيا فأولها يوسف ، فنتج عن ذلك طلب الملك إياه فلم يرد أن يخرج الا بعد التحقيق ، فكانت

النتيجة حصر التهمة في « المرأة » وبراءته مما نمي اليه ، فكان « العزيز » بحبس يوسف كمن رمى الوقود في النار ليخمدها ، أو كمن حول الضرب الى سقف جاره ، فاذا الضرب في سواء داره ، ولا غرابة في ذلك ، ففي المثل السائر:

« على الباغي تدور الدوائر ».

المراد بالكيد

ثامن عشر — أراد انه كيد عظيم لايعلمه الا الله لبعد غوره ، كما قيل : « وهن شر غالب لمن غلب » ، أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه وأنه بريء مما قرب به ، أو أراد الوعيد لهن ، أي هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه ، أو أراد بربه « عزيز مصر » — كما ذكره احتمالاً كل من ابن جرير والسيد حسن صديق وغيرهما ، على حسب اصطلاح المصريين والعبرانيين وغيرهما من تسمية الملك رباً بمعنى السيد ؛ وعندنا أن هذا الاحتمال الثاني أحسن ، فهو يشير بذلك الى سابق قول العزيز : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » ، فكأن يوسف يقول : « اسألوا سيدي — عزيز مصر — الذي سبق منه انه حكم على زوجته بالكيد ووصفها به ، فإنني أقبله شاهداً عليّ وأرضى به حكماً ، بل واحتج به و بعلمه الحقيقة على كيدهنّ لي » فعلى هذا الاحتمال الثاني يكون قد استشهد على أنهن كواذب « بعزيز مصر » وما يعلمه فيهن ، وهذا ممكن ، وفيه فائدة عاجلة وتقوم به الحجة ، وأما على الأول الذي جرى عليه جمهور المفسرين فيكون قد استشهد بالله وعلمه بكيدهن ، وهذا لافائدة فيه ليوسف في الدنيا ، ولا يدفع عنه المؤاخذة عند رجال الحكمة وفي نظر الشعب ، ولا يبرىء ساحته من الجزاء الدنيوي بوجه ، لأنه من يعرف علم الله فيهن ؟　　(مرحى مرحى ولا فض فوك)

اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ(٥١)[. . . قالَ ماخَطْبُكُنَّ ، إذْ راوَدْتُنَّ يوسفَ عنْ نفسِه ؟« ـ قُلْنَ : حاشَ للهِ ، ماعَلِمنا عليه مِنْ سوءٍ » ـ «قالتْ امرأةُ العزيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحقُ ، أنا راوَدْتُهُ عنْ نفسِهِ ، وإنّهُ لَمِنَ الصادقينَ »] .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والخمسون قامت الانسة أسماء الغوية وقالت :

كان « نبو » مندوب الملك « الريان » رجع اليه من عند « يوسف » عليه السلام وقص عليه القصة ، فقال له الملك : « أما قلت لك أن في الأمر دسيسة ، فالآن ادهب واعمل كما أحب هذا السجين ، وائتني بنتيجة » فصدع « نبو » بأمر الملك ، وقفل راجعاً ، و (قال) للنسوة : ناشدتكن الله يا سيدات «منفيس» ، (ماخطبكن)(١) وما شأنكن ، (إد راودتن يوسف) العبراني السجين (عن نفسه) فيا دولة الجنس اللطيف ، لله دركن ، هل وجدتن منه ميلاً اليكن ، هل رأيتن منه غمزة ، هل سمعتن منه رمزة ، هل ضحك لكن وداعبكن ، حتى أقدمتن على مراودته ، وتجرأتن على مطالبته بما لا ينبغي لأمثالكن أيتها السيدات ؟

وأما السيدات فأجبن و (قلنَ حاش لله) ــ تعجباً من عفته ومن نزاهته عن الريبة ــ ووالله (ماعلمنا عليه) قط ، (من سوءٍ) ، ووالله لو كان في أنفسنا غير ماننطق به لقلناه ، هذا جوابنا عما يسائل عنه جناب المحقق ، وخلاك ذم .

---

(١) الخطب : الأمر الذي يعظم شأنه ويخاطب الانسان فيه صاحبه .

هذا ولما كان العاشق يفادي بنفسه وشرفه عن طيب خاطر مرضاة لمعشوقه (قالت) زليخا (امرأة العزيز) فوطيفار، معترفة بجلية الواقع، تذود عن يوسف وتنتصر له على نفسها : أنا أخبرك بواقعة الحال ، وأطلعك على جلية الواقع (الآن حصحص الحق) والحق على مضاضته يقال ، واني إنشاء الله لا اكذبك شيئاً (أنا راودته عن نفسه) ، وعلى المكشوف ، أنا براقش التي جنت على نفسها ، أنا المذنبة ، وله العُتْبى[1] ، ووالله اني لم أراود قط أحداً قبله ولا بعده ، ولا يمكنني التنازل لأحد سواه ، وأنا الآن أستغفره على هذا الذنب ، (وانه من الصادقين) في قوله منذ سنتين: « هي راودتني عن نفسي » ، فهو لم يلوث لسانه بالكذب والفرية قط ، وإنه لمن الصادقين في العمل ، حيث أبى علي ، وامتنع من النزول على إرادتي ، وتمسك بدينه ، وثبت على متانته ومروءته ، وكأنها خافت أن تثبت عليها التهمة ببعض البراهين إذ رأت أن السماء تنذر بتقلب الجو ، فسبقت الى الاعتراف على حد قول القائل : « بيدي لا بيد عمرو » أو على حد قول الشاعر : « وليس لمخضوب البنان يمين » ، أو كما يقولون في المرأة :

« إن الأمومة عودتها عادات إنكار النفس والتضحية والرغبة في مصلحة الآخرين ، أكثر من الرجل » .

(قال ما خطبكن إذ راودتن ..الخ)

— ١ —

وقامت السيدة لُبنى البغدادية وقالت : يستفاد من هذه الآية الكريمة عدة فوائد سأتلوها على مسامعكم :

استنطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات

ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

الفائدة الأولى — تعليقاً على قوله : (ماخطبكنّ) ، نسب « ابن كثير »

(١) العتبى : الرضاء .

و« البغوي » هذا القول الى الملك الريان » وقالا إنه هو الذي جمع عنده هؤلاء النسوة واستنطقهن ، وقال ما خطبكن ، وهو يريد امرأة العزيز خاصة .

وقال بعضهم : إن القائل هو مندوب الملك ، ذهب اليهن وجمعهن في محل واحد بما فيهن امرأة العزيز ، وسألهن هذا السؤال ؛ ويجوز أن يكون قد سأل كلاً منهن على انفراد في بيتها ، ثم للاختصار حكى الله ماحدث جملة واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يأيها الرُّسُلُ كُلوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، واعملوا صالحاً ، إني بما تعملونَ عليمٌ ، وإنَّ هذه أمتُكُمْ أمةً واحدةً ، وأنا ربكم فاتّقونِ ﴾ (٢٣: ٥٢و٥٣) . فهذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، كيف والرسل إنما ارسلوا متفرقين ، في أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول فى زمانه نودي لذلك ، وَوُصِّيَ بـه .

نسبة المراودة الى جميع النسوة والمراد منه واحدة

الفائدة الثانية — قال : (إذ راودتن) بصيغة الجمع ، والمراد منه واحدة ، وهي امرأة العزيز ، وقريب منه ما في قوله تعالى :

﴿ الذينَ قالَ لهم الناسُ ، إنَّ الناسَ قد جَمَعوا لكم ﴾ (٣: ١٧٣) ، فقد قيل لفظ الناس الأول عبارة عن شخص واحد ، هو « نعيم بن مسعود الأشجعي » ، ولفظ الناس الثاني هو عبارة عن « أبي سفيان » ؛ ذلك لأنه من جنس الناس ، كما أن امرأة العزيز هي من جنس المراودات ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وماله إلا فرس واحدة ، وبرد واحد .

شهادة النسوة ليوسف بالعفة والطهارة

الفائدة الثالثة — مع تسبب يوسف بتجريح أيدي هؤلاء النسوة ، وتأثير جماله الباهر ، ومع أنهن لم يرين منه عطفاً نحوهن ، حتى ولا ابتسامة واحدة على الأقل ،

دية لتلك الأيدي المجرحة ، وتعويضاً على تلك العقول المذهولة — مع هـــذا كله فهؤلاء السيدات لم يشهدن في يوسف إلا بما يجب له من العفة والطهارة ، ذلك لأنهن كن من النساء الداجنات والمسالمات ليوسف ، ومن صواحب الوجدان والشرف ولعمري لامزيد على شهادتهن وشهادة زليخا له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن بأنه لم يتعلق بشيء يشينه ، مـــع أنهن خصومه ، واذا اعترف الخصم بأن خصيمه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال ، خلافاً لحشويي المفسرين ، الذين قالوا: (نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بد لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته) !!..

حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه

الفائدة الرابعة — كأني «بامرأة العزيز» قالت وهي تتلعثم في كلامها ،وتضطرب مما لحقها من الخجل والخوف ، وترتجف من حراجة الموقف :

« الآن .. حص .. حص .. الحـ .. ق .. أنا المشدو .. هة .. راود ... ته ... عـــن نفـ .. ـسه .. واحـ .. ـسرتاه ! وانـــه .. حر .. ـسه .. الله ... لمن الصا ..دقين .. في ..سابق ..قوله : هي راودتني عن نفسي،ذلك ليعـ .. ـلم ..أني.. لم أخنـــه .. بالغيـ .. ـب كما خنـ .. ـته بالحـ .. ـضور .. واويلاه ! وان الله .. لا يهـ .. ـدي .. كيد .. الخا .. ئنين .. وا .. ندماه ! .. وما ابرىء .. نفـ .. ـسي إن النفـ.. ـس .. لأمّ .. ـارة ..بالسوء .. واسوأتاه ! إلا .. مارَ ..حم .. ربي.. إن ربي .. غـ .. ـفو .. ر .. رحيم .. واخجـ .. لاه ! » .

وما أكملت هذا النطق إلا وقد زاد صوتها في التقطع ، وصارت رجلاهـــا تصطكان ، ووقفت عند هذا الحد من البيان والاعتراف .

دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها

الفائدة الخامسة — عندي لدواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ثلاث نظريات :

النظرية الأولى: ان النسوة قد أجبن المستنطق بقولهن (ماعلمنا عليه من سوء) وسببه أن امرأة العزيز لما أرسلت إليهن، وهيأت لهن متكأ، رأينه في جماله الذاتي والنفسي، حيث لم ينظر إليهن نظرة سوء، كأنه ملك كريم، ثم ان امرأة العزيز اعترفت لهن بأنها كانت راودته، ولكن هو استعصم، فما رأينه في تلك الجلسة وما سمعنه فيها كان دليلاً على براءة يوسف عليه السلام، فامرأة العزيز، بما دبرت من دعوة النسوة، وبما قالت أمامهن كانت كالباحث عن حتفه بظلفه، خصوصاً لما سمعت قولهن: « ماعلمنا عليه من سوء » فكانت هذه الجملة هي الطعنة النجلاء التي أثبتت « زليخا » « وقطعت بها جهيزة قول كل خطيب». فعند ذلك رأت زليخا من الحكمة والتعقل أن تعترف بالواقع، لأنها اذا بقيت مصممة على انكارها، شهد عليها هؤلاء النسوة بأنها كانت قالت : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (آية ٣٢) فهي بذلك اعتقدت أنها ألقيت في فم المدفع أو قد وضعت السلسلة في رقبتها وانتهى الأمر، وانه لا مندحة لها من الاعتراف، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار شرعت تكشف السر، كمن يريد الاقرار أمام المستنطق في محكمة، أو « الاعتراف » أمام قسيس في بيعته .

فاهت بتلك المقالة العصماء التي في آيات (٥١ و ٥٢ و ٥٣) والسكوت سائد في تلك الجلسة، جلسة التحقيق السرية، لا واحدة تتكلم ببنت شفة، بل كنّ جميعاً مصغيات لمقالتها، منصتات لخطابها .

النظرية الثانية : هي انه مهما بلغ الحقد بالقلب الانساني، وغلبت الشهوة شعوره

ووجدانه ، فلا بد أن تهبّ عليه من حين الى حين ، نفحة من نفحات الفطرة الالهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود الى طهره وصلاحه ، وما انطوى عليه من صدق وأمانة ، فهي في هذه الجلسة ، نسخت ما كانت قالته سابقاً ، والنفس الانسانية كما يقول « روسو » مرآة ، تترآى فيها مختلفات الصور والألوان ، ومن خَبَرَ عقلية المرأة ، لا يستبعد هذا التطور العجيب :

إنما المرأة مرآة بها كل ماتنظره منك ولك

فهي شيطان اذا أفسدتها واذا اصلحتها فهي مَلَك

وكأنه قد صار الحال بحيث يخيل اليك أن هناك سيدتين ، واحدة ابتلعتها نار الذنوب والتهتك ، والأخرى ولدتها التوبة والاخلاص ، تلك كانت كاذبة فاجرة عيّابة ، وهذه صادقة مدافعة متواضعة .

النظرية الثالثة : جلست زليخا في مجلس « الاستنطاق » وجعلت تراجع فهرس حياتها الماضية مع فتاها العبراني ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بدبيب الخطأ الذي كان صدر منها ، فحكمت بنفسها على نفسها ، انها مجرمة آثمة ، وانها لم تستفد من كل ماعملت سوى سوء السمعة ، وانحطاط المنزلة ، وانها لم تسىء الى فتاها بمقدار ماأساءت لنفسها باحباط شرفها ، وكأن حياتها الحاضرة — حياة الشيخوخة — قد أنستها حياتها الماضية — حياة الشباب — فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة ، كما لا أثر فيه للعشق والغرام ، فلذلك قررت أن تعترف بالصحيح فلفظت كلمتها الأخيرة ؛ هذا مايظهر من حكاية القرآن المجيد توبة زليخا .

وإنما قلنا ان حياتها الحاضرة حياة شيخوخة ، لأننا نظن انها لما تكلمت بهذا القول ، كانت في سن الاربعين أو تزيد ، ذلك لأن يوسف عليه السلام حينما وقف بين يدي الملك الريان بعد خروجه من السجن ، كان ابن ثلاثين سنة ، ويظن أنها كانت أكبر منه بعشر سنين أو أكثر ، وعليه تكون دخلت في غرة سن

الشيخوخة ونسيت الحب وآلامه ، والغرام وأيامه ، ودخلت في سن الوقار والكمال ، سن التوبة والانابة الى الله ، فسلسلة هذه الأسباب هي التي خلقت هذه الاعجوبة ، وأتت بهذه الخارقة ، حتى نفضت زليخا لمندوب الملك جملة حالها ، وصارحته بكشف المعمى .

معنى حصحص

الفائدة السادسة — حصحص ، ظهر ، برز ، ثبت ، استقر ، كلها ألفاظ متقاربة ، وهي من حصحص البعير : إذا ألقى ثفناته للاناخة ؛ وأصل حصحص حصّ ، كما في كفكف ، أصله كفّ ، وكُبْكِبوا أصله كُبُّوا ، وردرد أصله ردّ ، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الا في هذه السورة .

الاجماع على سلامة شرف يوسف

الفائدة السابعة — تعلمون أن الذين لهم علاقة بحادثة يوسف ثمانية ، وهم : الله سبحانه وتعالى ، وابليس ، والعزيز فوطيفار ، وامرأته زليخا ، والشاهد من أهلها ، والنسوة المصريات ، ويوسف نفسه ، وثامنهم الخادمة ، وكلهم متفقون على سلامة شرف يوسف .

فأما « الله » سبحانه وتعالى فانه يصف يوسف بأنه لما بلغ أشده آتاه حكم نفسه بنفسه ، وما نشأ عنه من العلم اللدني ، ويقول : ان زليخا هي التي راودته عن نفسه ، وهي التي غلقت الابواب ، وهي التي قالت : « هيت لك » ويقول : ان يوسف أجابها جواباً سلبياً فقال لها : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » ، ويقول : « ولقد همت به وهمّ بها » ، أي قتلاً ، وعلى الأقل لكماً وضرباً ، لولا أن رأى برهان ربه العزيز ، وهو أنه أحسن مثواه ، ويقول : « إنه من عبادنا المخلَصين » ، وحسبنا هذا وكفى .

وأما « ابليس » ، فان الله تعالى حكى عنه أنه قال يوم موآمرة « سيلان » : « إلا عبادكَ منهم المخلَصين » (١٥ : ٤٠) فأجابه الوكيل المفوض بقوله على حساب الله : ﴿ هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ ، إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ (١٥ : ٤٠ ـ ٤٢) فحالته مع يوسف كانت سلبية تماماً .

وأما « فوطيفار » عزيز مصر ، فقد كان قال لما ظهرت له الأمارة : « إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » ، وخاطب امرأته بقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

وأما « زليخا » امرأة العزيز ، فقد اعترفت أمام النسوة بالحقيقة ، قائلة : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، ثم توعدته إن لم ينزل على إرادتها بقولها : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ ، ثم أقرت في محكمة التحقيق بجلية الواقع فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدي كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا مارحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

وأما « الشاهد » من أهلها ، فانه استدل بالامارة قائلاً : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ، فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين ﴾ ، وأخيراً رؤي قميصه مقدوداً من دبر ، فإذن يوسف في نظره من الصادقين في دعواه أن المراودة إنما كانت منها لامنه .

وأما « النسوة » المصريات ، فانهن إنما نسبن المراودة والحب والضلال لامرأة العزيز ، إذ قلن : ﴿ امرأة العزيز تراودفتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنالنراها في ضلال مبين ﴾ ، ثم لما رأين يوسف قلن : ﴿ حاش لله ، ماهذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ، ثم اليوم في جلسة التحقيق قلن : ﴿ حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء

وأما «يوسف» نفسه، فانه كان واقفاً مع امرأة العزيز موقفاً سلبياً، إذ قال ﴿ معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي، إنه لايفلح الظالمون ﴾ ، حتى انه في الدرجه الثانية هَمّ بها قتلاً أو لكماً وضرباً، وأخيراً في الدرجة الثالثة هرب من أمامها طالباً الباب، وقال بحضورها وحضور العزيز: ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ثم قال يوم الضيافة النسائية: ﴿ رب، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه ﴾، ثم لما جاءه رسول الملك، وطلب اليه الخروج من المعتقل، أبى ذلك إلا بعد التحقيق والتمحيص قائلاً ﴿ ارجع الى ربك فاسأله : مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

وأما «الخادمات» في قصر العزيز، اللاتي لا بد أن يكن قد حضرن، عندما استبق يوسف وزليخا الباب، هرباً وطلباً، ثم سمعن حكم «الشاهد» ثم خطاب «العزيز» لزوجه : ﴿ استغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين ﴾ فانهن حينما نقلن هذه الحادثة لقصور الاميرات المصريات، لم يتكلمن إلا بأن «المراودة» وقعت من «امرأة العزيز» بدليل كلام السيدات المصريات، اللاء ماعلمن بالحادثة، إلا من أفواه هؤلاء الخادمات، فلو كان صدر من يوسف شيء ينافي شرفه، لنقلنه لهؤلاء النسوة .

هذا خلاصة الكلام، في تحقيق هذا المقام، ولعله يكفي لرد مازعمه (غلطاً) بعض المفسرين، مصرحين بما تتحامى عن سماعه آذان المتأدبين، مع أنبياء الله المخلصين.

تحقق صرف الكيد عن يوسف

الفائدة الثامنة — نرى «نسوة المدينة» قد ﴿ قلن حاش لله، ما علمنا عليه من سوء ﴾ ونرى «امرأة العزيز» قالت : ﴿ الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه الخ ﴾ وكل هذا كان مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فصرف عنه كيدهن، انه هو السميع العليم ﴾.

الاعتراف بالخطأ فضيلة

القائدة التاسعة — لقد رأيتم أيها السادة أن هذه « المرأة » زليخا قد تناست منزلتها ، وتغافلت عن عظمتها ، ونطقت بكلمة الاعتراف ، والاعتراف بالخطأ فضيلة كما تعلمون ، وهو خير من التمادي فيه ، ونظن أن هذه المرأة لولم تعترف ، ثم أتت بشهود زور ، ممن لهم بها علاقة محسوبية (مثلاً) لطالت ذيول « الحادثة » وتشعبت كثيراً ، لاسيما لو ظهر فيما بعد انها مبطلة في تقديم أولئك الشهود ،فتكون العاقبة أدهى وأمر ، ولكن الله هداها « للاعتراف »، فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على ماحكاه القرآن الكريم ، واقتصر في عقاب هذه المرأة وزوجها على مجرد الطرد من الوظيفة الرسمية ، وجعلها نسياً منسياً .

« مرحى ، مرحى »

(قال ما خطبكن اذ راودتن ...الخ)

— ٢ —

ثم قام الامام القلقيلي وقال : نشكر اختنا البغدادية على ما اتحفتنا من فوائد قيمة وأرجو أن يسمح لي السادة بسرد الفرائد التالية :

انصياع الرسول ليوسف بمراجعة الملك

الفريدة الأولى — انصاع « نبو » رسول الملك ، لطلب يوسف ورجع بدون اعتراض ولا توقف الى الملك ، فأمره باجراء التحقيقات السرية ، لأنها « دعوى » متعلقة « بالعرض » .

عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته

الفريدة الثانية — قال النسوة : « حاش لله ... الخ » وشهدن في يوسف الطهارة

والعفة ، مع انه في تلك الجلسة القديمة لم يعبأ بهن ، ولم يلتفت اليهن ، كما نعلم ذلك من أنهن ﴿ لما رأينه أكبرنه ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا الا ملك كريم ﴾ ، وكذلك كان حال « زليخا » معه ، فمع انه لم ينزل على إرادتها شهدت فيه شهادة طيبة إذ قالت : ﴿ أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ﴾ . الخ ، فهذا كله نتيجة ان في المرأة عاطفة ليست في الرجال ، فالنساء أشد تأثراً وأرق شعوراً من الرجل ، لأنهن أطوع للفؤاد منهن للعقل ، ومن كان يتكلم تحت تأثير الدماغ ، كان أقرب للكذب ممن يتكلم تحت تأثير الفؤاد ، لأن عاطفة المرأة تملك عقلها ، بخلاف الرجل ، فان عقله يملك عاطفته ، فهو الى الكذب واخفاء الحقيقة أقرب ، وأما المرأة ، فهي الى الصدق واظهار الواقع أقرب .

داعي اندفاع زليخا للاعتراف بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف

الفريدة الثالثة — إن وجه اندفاع « زليخا » لهذا « الاعتراف » الذي أعلنته بكل وضوح وصراحة ، مسبب عن أمور اذا اجتمعت صلحت ان تشكل مبدأ قوياً حدا بها أن تعلن اعترافها ، وذلك عدا عما سبق ذكره في الفائدة الخامسة من فوائد السيدة لبنى البغدادية وهي :

(١ً) — تعلمون ان المندوب « نبو » كان قال : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ فلا بد انه إذ ذاك كان بيّن « للملك » الريان » ولأهل « البلاط » ماذا سمع من يوسف من تأويل رؤياه ورؤيا الخباز « ملحب » ، وماذا رأى من أعماله وذكائه .

و (٢ً) — تعلمون أن المندوب « نبو » كان رجع من عند يوسف بعبارة رؤيا الملك ، التي كان ألقاها على « الملأ » فأظهروا جهلهم بتعبيرها ولكن « يوسف » عبرها تماماً ، وزاد على ذلك انه بيّن لهم ماذا يجب أن يعملوه .

و (٣ً) — لا بد أن يكون الشرابي « نبو » أفهم الملك عن يوسف أنه

من « العراق » تولداً ، ثم من « فلسطـــين » منشأً ، فهو « آسيوي » صرف ، يعني من « آسيا » التي منها جـلالة الملك ، ومن « العنصر السامي » الذي ينتمي اليـه الملك .

و (٤ً) — لا بد أن يكون الملك زاد ثقته بيوسف وحسن اعتقاده فيه جداً حينما أرسل اليه ليخرج من معتقله ويكون عنده فلم يقبل إلا بعـد التحقيق عن سبب اعتقاله.

فلهذه الوجوه ، وماإليها ، لابد أن يكون شاع واشتهر في « البلاط » الملكي أن « يوسف العبراني » المعتقل ، سيصير مقرباً عند الملك ، وسيكون له شأن ذو بال ، وبالطبع لا بد أن يكون عزيز مصر « فوطيفار » قد بلغه كل هـذه الحوادث وانه حكى ذلك لزوجه « زليخا » وعليه صار لسان حالها يقول:

سَيُرَى مـالكُ رقيّ مالـكاً رقّ الرقـابِ
لم يـكن ياأحسن العـا لم هـــذا في حسابي

فلذلك كله تغيرت حال امرأة العزيز ، وتبدلت خُطتها ، واعتدلت أفكارها عن ذي قبل ، فاعترفت بجلية الواقع ، لاسيما اذا لاحظنا انها علمت ان هذه المناظرات والتفحصات ، إنما هي بسببها ، ورأت أن النسوة قـــد نزهن يوسف ، وان التهمة انحصرت فيها ، وانها كانت في ذلك التاريخ قد تقدمت نوعاً في السن ، فتقدمت في العقل والاستقامة ، وانها قد حيل بينها وبين يوسف بضع سنين ، خمدت فيها ثورة الحب ، وان طبيعة النساء سرعة التحول والتطور ، فمجموع هذه الأشياء يصلح أن يشكل سبباً كافياً لاندفاع « امرأة العزيز » لهذا « الاعتراف » الصريح ، فعند ذلك أخذت كلمات الدفاع عن يوسف تنثال من شفتيها ، انثيال المـاء من السماء ، هذا ما أفهمه في (آ ٥١—٥٣) ، وللمفسرين ههنا كلام رجيّ ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه لايستحق أن يلتفت اليه طفل صغير .

عجباً لهذه المرأة ! وقفت هنا بروح جديدة ، موقف المدافع عن شرف يوسف ، واتفقت في هذا النطق كل ما تملك من قوة وبيان ، صار هذا بعد تلك الوقفة الطويلة التي حفظها عليها التاريخ ، وقفة الاتهام المشين وهي أمام زوجها الفضيحة وبعد تلك الوقفة التي وقفتها أمام النسوة ، ترعد وتبرق ، وتوعد فتاها بالعقاب الأليم ، إن لم ينزل على حكمها ، فهذه « الحسنة » التي صدرت منها الآن ، هي في جانب مضايقاتها ليوسف سابقاً ، كالغرة البيضاء في الأديم الأسود ، وهذا « التقريظ » الذي نسمعه منها اليوم ، هو في جانب ماسبق من « الهجاء » كالكهرباء أمام الظلام القاتم .

فياله من تطور مدهش ! ويا له من تغير غريب !

فهي بمقدار ما اجتهدت أولاً أن تلصق به العيب ؛ فاليوم اجتهدت أن تبرىء ساحته من العيب ، فسبحان من ألهمها فجورها وتقواها ، وصدق من قال : « إن للباطل صولة ، ثم يضمحل ، ولريح الضلالة عصفة ، ثم تخفت » وصدق صاحبنا الأمير شكيب أرسلان إذ قال : « لا تطلب الثبات من ثلاثة أشياء : البورصة والتقود والهواء ، وإن شئت فضم قلوب النساء » .

واليكم سبباً ثانياً قد ألهمته الآن وأنا ماثل بين أيديكم يبين وجه تغير فكر « زليخا » :

كانت قد بقيت بقية من مرارة الحب في أعماق قلبها حتى بلغها أن حبيب قلبها قد انقلب في السجن من « شاب » الى « كهل » ومن « فاتن » الى « مفتي » يُستفتى فيُفتي ، ويُسأل فيجيب ، بل الى « واعظ » يجلس على كرسي الوعظ ، يعلم المسجونين ، عقائد الدين ، كما بلغها انه صار في السجن طويل « الفرع » طويل « اللحية » ، والمصريون في ذلك العصر كانوا يعتبرون اللحية علامة « الذل » والدناءة ، فقد شوهد على الآثار المصرية ، « الأسرى » والأدنياء مصورين بلحى ،

وأما المصريون فكانوا عموماً يرون وجوب حلق لحاهم ورؤوسهم ، فكانت امرأة العزيز كلما يبلغها عنه شيء من هذا القبيل ، تتضاءل شعلة محبتها له،شيئاً فشيئاً:

ومَن يَدُه يوماً «عارضٌ» وجناتِه فكبر عليه أربعاً لوفاته

فكان ذلك الزمان آخر عهدها بالحب ، وكأن شبح الغرام هامةُ اليوم أو غده، فلذلك نسيت أحكام الهيام ، وسبحان من له الدوام .

هذا ما كنا وعدنا كم به على لسان السيدة لطيفة المراكشية عند محاضرتها على (آ ٣٢) (وهذا كلام« المرأة » التي كانت خصيمة يوسف بالأمس ، وانقلبت اليوم محامية مدافعة عن شرفه ، وانه كان يجب أن يكون لجماعة المفسرين مغزىً وعبرة من قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ ، فينبغي لنا نحن أن لا نتعدى حدودنا ويقلّ حياءنا ، ونقول فيه كما قال فريق منا ، مما يخالف ماشهدت بـه زليخـا ، فلا ينبغي أن تكون هي أهـــدى منا لمعرفة واجبات ذلك « الصديق الكريم »:

قم فقد قامت الطيور تغني لا يكون الحمام أطرب منـا

(مرحى)

تتمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥٢) ذلكَ لِيَعْلَمَ أني لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ ، وأنّ اللهَ لا يَهْدي كَيْدَ الخائِنينَ .

استمرت الجلسة في محاضراتها وتليت الآية الاثنتان وخمسون فقام العلامة الغزي وقال :

تقول امرأة العزيز إن (ذلك) القول الذي قلته في تنزيه يوسف ، والاقرار

على نقسي بالمراودة من جانبي الذي ضحيت به شرفي وحسن سمعتي في سبيل شرف يوسف وحسن سمعته ، ليس لراعدة أتخوفها منه ، ولا عائدة أرجو أن يقبسنها ، وليس هو دهاناً ولا تملقاً ، لا . . .لا . . . ولكن (ليعلم)يوسف (أني لم أخنه بالغيب) وإن كنت خنته بحضرته وعند مشاهدته ، ولم أغفل واجبه ، ولم أصمه بدنيئة ولم أعبه بما يشينه ، فلئن كنت منذ بضع سنين قد أحلت الذنب عليه وهو حاضر ، فلا يسعني الآنأن أحيلالذنب عليه حال غيبته ، احتفاظاً بالأمانةوحقوق الغائبين ، أي ليعلم أني لم أكذب عليه فيحالالغيبة ، بلجئتبالصحيح والصدق، فيما سئلت عنه ؛ فعلت ذلك لتطيب نفسه وتقر عينه ، ويعرف أنه يوجد من يحفظ الود ، ويتمسك بالعهد ، ولو على البعد ، ول(أن الله لايهدي كيد الخائنين) بل يجعله قبض الريح ، فلاينفذه ولا يسدده ؛ وأنا الحقيرة كنت منهؤلاءالخائنين مع الاسف ، فانني أقدمت على الكيد والمكر لاجرَم انني افتضحت ، وانه لما كان بريئاً عن الذنب لاجرَم طهره الله تعالى بالثناء عليه .

وبعد ما سبق ذكره نذكر الذيول التالية :

توبة زليخا

أولاً — نرى الآن « امرأة العزيز » قد أقلعت عن أفكارها الأولى ، أفكار العار والدنس والكذب ، الى أفكار جديدة ، أفكار الشرف والطهارة والصدق، وهذا من نعمة الله عليها ، فتاب الله عليها من أفكار الفحشاء ، كما تاب أخيراً على اخوة يوسف من أفكار العداء (آ ٩١ و٩٧) .

معنى بالغيب ومحله اللغوي

ثانياً — قوله « بالغيب » محله الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : « وأنا غائبة عنه ، خفية عن عينيه ، لأني ههنا في قصري وهو في سجنه ، أو وهو غائب

عني ، خفي عن عيني » ، ويجوز أن يكون ظرفاً ، « أي بمكان الغيب وهو الخفاء والاستتار في قصرها » .

الكيد المذموم والكيد الممدوح

ثالثاً ــ خص الخائنين في قوله ﴿ وأن الله لايهدي كيد الخائنين ﴾ تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده الخيانة ، فالكيد يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، فمما هو من قبيل المذموم ، مافي هذه الآية ، وكقوله سابقاً « فيكيدوا لك كيداً » (ع ٥) ، ومما هو من قبيل الممدوح مافي قوله تعالى « كذلك كدناليوسف » (ع ٧٦) وقد مر تفصيله في آ ٥٥ ٢٨ .

نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم الخ الى زليخا وليس الى يوسف

رابعاً ــ قوله : ﴿ ذلك ليعلم أني ..الخ ﴾ ، قال جمع من المفسرين ، ومنهم مع الأسف العلامة الزمخشري ، إن هذا القول من كلام يوسف ، وهو في سجنه وإن الضمير في « ليعلم الخ » راجع للعزيز ، وقولهم هذا لايصح ، لأن الضمائر التي قبله ، عائدة الى يوسف ، فلا ضرورة تدعو الى حمل الضمير في « ليعلم » على العزيز ، وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بنسبة القول لزليخا ، فلذلك يجب أن تكون المحكيات كلها من كلام تلك المرأة .

فالحاصل إن امرأة العزيز أتت في استجوابها على ثلاث جمل ، أو ثلاث آيات ، نطقت بها أمام « المستنطق » في قصرها أو في قصر مليك مصر ، في حال وجود يوسف في سجنه ، الذي ربما يكون بعيداً عن قصور الأمراء ، كما يفيده كلمتا « فأرسلون » و « لعلّي أرجع الى الناس » ، فنسبة بعض القول ليوسف لهو من أبعد البعيد .

وأما ما نظر به صاحب الكشاف من قوله تعالى : ﴿ قال المـلأُ منْ قوْمِ

فرعونَ: إنَّ هذا لساحرٌ عليم، يُريدُ أنْ يُخرِجَكم من أرضِكم بسِحْرِهِ، فماذا تأمُرون؟ — قالوا: أرْجِهْ وأخاهُ، وأرْسِلْ في المدائِنِ حاشِرينَ، يأتوكَ بكل ساحرٍ عليمٍ﴾ (٧: ١٠٨ — ١١١) فقوله إنه هذا الساحر..الخ هو مقول قول الملأ، وأما قوله، فماذا تأمرون، فهو كلام فرعون، يخاطبهم ويستشيرهم، كذا قرره صاحب الكشاف، ورد بأنه انما يجري الكلام على هذا الوجه، اذا ألجأ اليه محوج، كما في الآية المذكورة اذ لا يمكن جعل «فماذا تأمرون» من كلام الملأ، فتعين أن يصرف الضمير عنه الى فرعون، وأما في آيتنا التي في سورة يوسف، فلا محوج فيها لمثل ذلك، كذا قرره صاحب الكشاف، ولنا أن نقول: إن جملة «فماذا تأمرون» هي أيضاً من تتمة كلام الملأ، أي أن فريقاً من الملأ، قال لفريق آخر منهم، هذا القول يستطلع رأيهم، ولما أن سأل هذا الفريق من الملأ، فريقاً آخر منهم، أجاب الفريق المسؤول، موجهين الخطاب لفرعون، وقالوا: أرجه وأخاه، وأرسل.. الخ، وقال بعض المعاصرين: إن الملأ من قوم فرعون، ما قالوا هذا القول إلا تبعاً لقول فرعون، الذي حكي عنه في سورة الشعراء: ﴿قال للملأ حولهُ: إن هذا لساحرٌ عليم، يُريدُ أنْ يُخرجكم من أرضكمْ بسحرهِ، فماذا تأمرونَ؟ — قالوا: أرْجِهْ وأخاهُ، وابعثْ في المدائنِ حاشرين، يأتونَ بكل سَحّارٍ عليمٍ﴾ (٢٦: ٣٤ — ٣٧)، أي أنهم رددوا كلام فرعون، وصار يلقيه بعضهم الى بعض، كدأب الناس، في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده، اظهاراً للموافقة عليه، ونعماً لتبليغه، فهذه ثلاثة وجوه في الآية التي استشهد بها الكشاف، كل وجه منها يبطل الاستشهاد بها.

(وما أن نزل الخطيب عن المنبر، حتى وقف السيد رئيس المؤتمر، وطلب التكبير إعجاباً بتحقيق الخطيب، فكبر الحاضرون ثلاثاً)

ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران

آ (٥٣) ﴿وما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسوءِ، إِلاَّ مارَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غفورٌ رحيمٌ .﴾

الجلسة وتليت الآية الثالثة والخمسون فقامت الآنسة خديجة اللدية وقالت :

استمرت «زليخا» في كلامها قائلة : ومع ذلك ياحضرة «المحقق» (وما أبرىء نفسي) من الخيانة ، فاني قد خنت يوسف حين قرفته ، وقلت ﴿ ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ واني انحرفت عن طريق الفضيلة ، ففقدت السعادة والاغتباط في معيشتي .

ثم أرادت الاعتذار مما كان منها بقولها: (إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي) أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف الذي هو نقي الجيب ، صحيح العرض ، (إن ربي غفور رحيم) وعفا الله عما مضى . هذا لفظها الذي دق وشف، وقد استعجلت في طلب المغفرة والرحمة ، مع أن يوسف لايزال بمساعيها في سجنه ؛ وما أظلم الجنس اللطيف اذا قلت إنه إذا طلب لم يصبر على التريث في الإجابة، حتى عند الطلب من السماء ، — وجملة الاستغفار والاسترحام ، جملة خبرية لفظاً ، انشائية معنى — إذ تقول : (إن ربي غفور رحيم) يتغمد الذنوب ، ويصفح عن العيوب ، وإني ممن يرجو مغفرته ورحمته ، فلست فيما حاولت من الخطيئة بأولى النساء ولا واحدتهن ، وليست رحمة الله اذا شملتني بأول رحمة شملت الخاطئات .

قال الشاعر :

يانفس لاتقنطي من زلة عظمت	إن الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربي حين يقسمها	تأتي على حسب العصيان في القسم

وبعبارة ثانية يمكن أن تقول :

(وما أبرىء نفسي) ولا أكذب الله ، ولا أخلّص نفسي من الخيانة ، عن كل ما فعلت مع يوسف من مراودتي أنا إياه ، ولا من تغليق الأبواب ، ولا من قولي « هيت لك » ، ولا همي بالايقاع به ، ولا من لحاقي له حين أراد أن يفر بشرفه ، ولا من تلويثي شرفه بنسبته لإرادة السوء ، ولا من تشويقي لسيدي أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً ، وأخيراً : وما أبرىء نفسي من كيدي له مطلقاً ، فالآن اعتذر الى الله وإليه مما كان ، (إن النفس لأمارة بالسوء) ، بحسب سليقتها وغريزتها ، وبمقتضى ديدنها وعادتها ، فكل ما عملته ناشىء عن شعور نفساني ، لا عن خواطر عقلية ، لأني أعتقد أن كل ماصدر مني ، هو ما ينهى عنه العقل ، وإن أمرت به النفس فهو خدعة من خدعها ، ونزعة طائشة من نزعات الشباب ، هذه جلية الواقع ، قد كشفت عنها القنـــاع ، بمرأى ومسمع حضرة « المحقق » المحترم ، وحضرات أترابي السيدات ، وسواء عليَّ أشُكرت على هذا الاعتراف أم انتقدتُ ، فأنا اليوم لايهمني سوى براءة هذا العبد الطاهر ، بمقتضى ما أوحاه إلي الضمير الحي ، ولا خير في حياة يحياها المرء بغير ضمير ، ولا خير في ضمير لايخدم به الانسان صديقه المظلوم !.. وهكذا لم تأل « زليخة » جهداً في تبرئة ساحة يوسف ، ونزاهة جنابه ، عن كل وصمة تعاب بها الشبيبة ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوز والظفر .

(وما أبرىء نفسي ، إن النفس .. الخ)

— ١ —

وقام سيدي جعفر الجيزاوي (١) يلقي خطاب السيدة زينب الجغبوبية (٢) بالنيابة عنها فقال :

ليس من لزوم الى الاستفاضة في شرح مفردات وتراكيب هذه الآية الكريمة .

(١) نسبة الى الجيزة في مصر . (٢) نسبة الى جغبوب من بلاد السودان

فان هذا البحث قد قام به من سبقنا أحسن قيام، وانما غرضي الآن أن أذكر بعض ملحوظات لها علاقتها بهذه الآية بل والآيتين قبلها واليك البيان :

اطلاق لفظة «ما» على العاقل وغيره اذا اريد بها الصفة

الملحوظة الأولى — قيل «ما» في قوله «مارحم»، ذهاباً الى الصفة، أي «المرحوم»، ومتى أريد بها الصفة، أطلقت على العاقل وغيره، ومن أمثلته : (لاأعبُدُ مـا تعبُدونَ، ولا أنتم عابِدونَ مـا أعبُدُ» (١٠٩ : ٢ و٣) فلفظ «ما» في هذه الآية، اريد به الصفة : أي «المعبود»، أو يقال : إن امرأة العزيز تتكلم في الاناث من العقلاء، يجـري مجـرى غير العقلاء، ويحتمل الوجهين قوله تعالى : «فانكِحوا ماطابَ لكم من النساءِ» (٤ : ٣) وقوله : «أو ماملـكت أيمانكم» (٤ : ٣)، ألا ترى أنه قد جاءت «من» عند ارادة الذكور من العقلاء؟ كقوله : «لاعاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ» (١١:٤٣)، وقوله : «ولا يزالونَ مُختلفينَ إلا مَنْ رَحَم ربُّك» (١١ : ١١٩) وقوله : «يومَ لايُغني مَولىً عن مَولى شيئاً، ولا هم يُنْصَرونَ، إلا مَنْ رَحَم الله». (٤٤ : ٤١).

فضائل الرحمة ومزاياها

الملحوظة الثانية — قوله : «إلا مـارحم ربك»، فرحمة الله، تبعد النفس عن أمرها بالسوء، كما أنها تقرب للانسان العصمة : «لاعاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ إلا مَنْ رحمَ» (١١ : ٤٣)، وتنفي عن الناس الاختلاف : «ولا يزالون مختلفين إلا مَنْ رحمَ ربك» (١١ : ١١٩)، وتمنع العذاب يوم القيامة عن الانسان: «يومَ لا يُغني مولىً عن مولىً شيئاً، ولا هم ينصرون، إلا من رحِمَ اللهُ».

(٤٤ : ٤٩) ، «قل إني أخافُ إنْ عصيْتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عنه يومئذٍ فقد رَحِمَهُ ، وذلك الفوزُ المبينُ » (٦ : ٩٥ و ١٦) ، « ومَنْ تقِ السيئاتِ — أي عقوباتها – يومئذٍ ، فقد رَحِمْتَهُ ، وذلك هو الفوزُ العظيم » (٤٠ : ٩) الى غير ذلك من فضائل الرحمة ومزاياها .

رحمة الله الخاصة ورحمته العامة

الملحوظة الثالثة — تعليقاً على قوله ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ فباعتباره «غفوراً» نرجو أن يكون قد غفر الله لامرأة العزيز ، إذ هي قد اعترفت وندمت ، وغالباً عزمت على عدم العود ، وباعتباره «رحيماً» لم يوح ليوسف بقصاصها وعقابها ، هذا من جهة رحمته الخاصة بها ، وأما من جهة رحمته العامة ، فانه تعالى أنزلها عن سمو درجتها ، ورفع عن رأسها التاج ، بإنزال سيدها « العزيز » عن منصة الحكم ، هذه هي الرحمة الخليقة بتربية أخلاق الأمة ، وهذا هو الحنوّ الإلهي الذي يخفف من إجرام المجرمين ، وأما الرحمة التي هي مجرد عفو عن الظلمة أو القتلة أو السراق مثلاً ، فما هي إلا تكثير للظلم أو سفك الدماء ، أو السرقة ، لأنها تولد الميل لارتكاب أمثال هذه الجرائم .

إننا وإن كنا نشعر بحزن عميق ، من أجل المجرم ، الذي يعاقب من جراء جرمه ، إلا أنه يجب علينا أن نعاقبه ، لتمنع الآخرين ، ولنمنعه هو أيضاً من العودة ، إنه لمن أقطع الأعمال ، أن نديرله الخد الآخر ، وإن ذلك لمريع جداً ، لأنه يشجع الشريرين ، على السير في تيار جرائمهم . (هكذا رأيته في كلام لحضرة اللورد هدلي المسلم الانكليزي رحمه الله تعالى) .

أقوال في توبة زليخا

الملحوظة الرابعة — (قيل إن «زليخا» اضطرت للاعتراف اضطراراً ،

حيث رأت ان النسوة ، قد شهدت فيه شهادة طيبة ، ورأت أن مليك مصر أحبه، وأراد أن يقربه من لدنه ، فهي ليست مخلصة في هذه التوبة) وفي هـذا القول نظر ، فان العبرة بالظاهر ، وهي ظاهراً قد تابت وحسنت توبتها ، وقـد ثبت في في الصحيحين عن « أسامة بن زيد » رضي الله عنه أنه قال : (بعثنـا رسول الله ﷺ في سرية ، فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلاً فعلوته بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فطعنته فقتلته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ ، — فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ — قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح — قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً من السـلاح أم لا ؟ — فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) .

نهاية سيرة العزيز وامرأته

الملحوظة الخامسة — آخر كلمة تكلم بها «عزيز مصر» هي قوله: ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ (ع ٢٩) ، وآخر كلمة تكلمت بهـا امرأته ، قولها ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ، فكأنهـــا امتثلت إرشاد سيدها لها بالتوبة والاستغفار ، لكن بعد حين ، وبعد حوادث وعواصف ، والى هنا انتهى تاريخ « العزيز وامرأته » وطويت صحيفة ذكرها ، وتداعى مجـدها ، كما يتداعى بيت أقـــيم من الورق ، أو قصر بني على الرمال ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وبسبب هذه الحوادث ، قدخسر « العزيز وامرأته » خسارةعظيمة ، مادياً وأدبياً، فأما خسارة العزيز المادية ، فبنزوله عن وظيفته ، وأما خسارته الأدبيـه فبتساهله بالجمع بين امرأته وفتاه ، ثم تساهله في مجازاة امرأته ، بعد ظهور خيانتها ، وأما خسارة «زليخا» المادية فبنزول تاج وظيفة سيدها عن رأسها. وأما خسارتها الادبية فبما حفظ عليها التاريخ ،من سقوطها في هوة محاولة الشهوة البدنية ، وهكذا شأن كل ظالم مستبـد ، خارج عن قوانين شريعة الأدب ، فان الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وما ربك بظلام للعبيد .

العار دائم والسبة خالدة

الملحوظة السادسة — كانت «امرأة العزيز» كما قلت سابقاً، كتبت لنفسها بيدها صحيفة سوداء، في تاريخ حياتها، ولكنها اليوم بما أقرت واعترفت، وبما ندمت واستغفرت، قد شطبت من تلك الجريمة شيئاً أو كل الشيء، ثم هي اذا كانت قد تابت الى الله توبة خالصة، فلا ريب أن الله يتوب عليها، ويغفر لها، فلا يؤاخذها يوم الدين، ولكن على كل حال فالعار دائم والسبة خالدة، فليعتبر بذلك المعتبرون والمعتبرات، ويأخذوا لأنفسهم كل أنواع الحذر والحيطة.

زليخا لم تجرم عزماً وليست مجرمة فعلا

الملحوظة السابعة — لم نر في تاريخ الإناث الشقيات، أخف شقاء من هذه «المرأة» لأنها اعترفت أخيراً أمام مندوب الملك، وصرحت بجلية الواقع، وذادت عن غريمها. وانتصرت له على نفسها، وأعلنت ندمها وتوبتها، وطمعت في غفران الله ورحمته، وقليل جداً من الشقيات من يصدر عنهن كل هذا.

ثاب لهذه المرأة رشدها، وحاولت الرجوع الى ربها، والتوبة من ذنبها، ولا ريب أنها اذا كانت مخلصة - ولا نخالها إلا كذلك — إن الله يتوب عليها، ويفتح أمامها أبواب السماء، كما هي مفتوحة للقائلين والجاحدين، متى تابوا، لا سيما أنها أرادت السوء فقط، ولم تساعدها الاحوال على حصولها على ما أرادت، فهي «مجرمة» عزماً، غير مجرمة فعلاً ومباشرة، فجرمها أخف من جرم من سقطت بالفعل، كما أن جرم من تسقط فعلاً وهي مستترة، أهون من جرم من تكون في المواخير، تقف نفسها في سبيل الفحشاء على وجه القحة والمجاهرة.

هذه «المرأة» لا هي شريفة، بحيث تعد من السيدات الشريفات، ولا هي متينة القلب غير حساسة، حتى تعد من النساء الساقطات، بل هي في منزلة بين

المنزلتين ، لأن كل ماصدر منها إنما هو « المراودة » ثم انها أخيراً تابت وثابت، فوجدت أمامها رباً غفوراً رحيماً .

بهذا الاعتراف المقرون بالتوبة والندم ، نعلم أنه قد وجد في هذه « المرأة » التي تعد نصف ساقطة ، فضيلة من فضائل النفس ومزاياها ، لا توجد إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، فقد ضحت بشرفها في سبيل الدفاع عن يوسف ، ولعمر الحق ان هذا النوع من التضحية ، لهو نادر الوجود في هذا العالم ، المتمدين الحاضر ، الذي يعد نفسه من عالم النور .

مؤثرات الحب في النفس والاخلاق

الملحوظة الثامنة ـ الحب يخفف الغضب ، ويذلل الأسود ، ويستأسد الجبابرة، وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو ، فاذا رأيت انساناً في خلقه جفاء وخشونة ، فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد ، نعم إن حب « امرأة العزيز » ليوسف ، لم يكن خالصاً من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لايمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير ، لاسيا وانه لم يفسد بفعل الفاحشة ، فالحب وإن ظهر في الناس ، مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم ، فسببه واحد ، وهو الجمال الجاذب ، ونتيجة واحدة، وهي تلطيف الطبع ورقة القلب ، وهذا ماحمل « زليخا » على أن نسمع منها هذا « الاعتراف » الذي هو من قبيل رد القول ، وعلى أن يصدر منها هذا « الندم » الذي هو من قبيل مايسمى ردّ الفعل ، فحبذا هذه العبقرية التي يسجلها لها « التاريخ » بمداد الاعجاب .

نعم . نعم . قلنا ولانزال نقول : إن هذا النوع من التعقل والخضوع والإنابة، الذي صدر من امرأة العزيز ، هو شأن كل من عرف الحب ، وشعر به ، لأن الحب يدمث الأخلاق ، ويلطف الطباع ، وله الأثر البليغ في تهذيب العقول ،

وترويض النفوس ، وهو أبو الشفقة وشقيق الحنان ، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً ، لأن الذي لا يُحب ، لا يرحم ولا يشفق ، ولا يكون فيه شيء من عواطف المحبين . فلذلك استقام طبع « زليخا » وتحولت مجاري أفكارها ، وبدأت تطري يوسف ، وتقرظه بما هو أهله .

زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها

الملحوظة التاسعة — إن « زليخا » ههنا باعترافها سهلت على يوسف الخروج من سجنه شريفاً ، ومهدت له الجرأة أن يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، ولولا ذلك لقامت دون خروج يوسف من سجنه الحوائل ، ولتعرقلت مساعيه فيما رغب ، إذ كان يمكنها أن ترفض « العلامة » التي أقامها « الشاهد من أهلها » قرينة على انها هي المراودة بأن تقول : « إنما جذبته من خلفه لأمسكه فأضربه ، لأنه لما راودني غضبت عليه فهرب » كما يمكنها أن ترد تزكية النسوة له بأنهن كنَّ لما رأينه عشقنه حتى غبن عن إحساسهن ، وقطعن أيديهن ، فتزكيتهن له معلولة ، كما كان يمكنها أن تقول : « لو شهدن — أي النسوة — عليها بأنها أقرت واعترفت بمراودته وأنه استعصم بطعنها في شهادتهن لأنهن حسدنها عليه » ، فمع إمكان كل ذلك لها لم تفعل ، بل أحجمت عن كل ما ذكر ، بل أقرت واعترفت ، بأن الجرم إنما كان من جانبها ، وزيادة على ذلك أثنت عليه ثناءً حسناً ، وصدق عليها انها أحيت يوسف ، مع تمكنها من موته ان لم يكن جسمانياً فمعنوياً .

صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الاوساط

الملحوظة العاشرة — لا مندحة من انه كان لجواب هؤلاء النسوة — لا سيما امرأة العزيز — صداه العظيم في قصور أميرات مصر ، وفي بلاط الملك ، حتى رنت له « صَوْعَنْ » رنة استغراب واندهاش ، مع الاعجاب الشديد بيوسف وطهارته .

(وما ابرىء نفسي ، إن النفس لأمارة ...) الخ

— ٢ —

وقالت السيدة لطيفة الكشميرية [1] :

عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامرأته

الى هنـــا انتهت سلسلة ذكريات « امرأة العزيز » و « العزيز » ، وطويت صحيفتها ، وأتى الدهر على جميع ما كان لهما من ترف ونعيم ، وجاه ونفوذ ، وذكر جميل ، ولم يبق لهما من ذلك كلـــه إلا تلك السيرة التي تتلى في مدارس اليهود والنصارى والمسلمين ، في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، في حلقات الوعظ ، في المحاريب والنوادي والحفلات ، وفي البيوت ، حتى في مراسح التمثيل ودور السينما ، فلتعتبر السيدات والآنسات ، وليحافظن على عفتهن ، التي هي كل ما يملكن من شرف وافتخار ، وليعتبر الامراء والوجهاء وليحتفظوا من الوقوع في مثـل هذه الاشراك ، التي تجر عليهم العار والشنار ، فان هذه السيدة ما سجلت في بطون الكتب الدينية إلا للعبرة والذكرى .

إلى هنا ينتهي ذكر زليخا وفوطيفار ، ولم يعد لهما ذكر في كتاب الله تعالى ، وأصبح ذكرهما أثراً بعد عين ، أثراً من الآثار الدارسة ، التي يهديها التاريخ الغابر للتاريخ الحاضر ، ولم يبق إلا ذكر يوسف ، فكأن سعادة يوسف وأهـله بنيت على أنقاض شقاء فوطيفار وأهـــله ، وهكـذا شأن الدنيا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إلى هنا يتم القول في تلك الفتنة التي أضرمت زليخا نارها ، وتم تاريخ عزيز مصر وآذن نجم سعده بالأفول ، ولقد صدق من قال : « ما يبنيه الرجل من الآمال

---

(١) نسبة الى كشمير من بلاد الهند

في سنة ، تهدمه المرأة في يوم واحد ، ولو كان تاريخ النساء مسطراً ، لصح أن يدعى تاريخ العالم بأسره ، لأن النساء أصل كل ثورة في الممالك أو في الاسر ، وقد قيل : « المرأة سر غامض ، منها يولد الرجل ، وبها يحيى ، وبها يموت ».

هذا وإن في كتاب الله تعالى ، في سورة النساء ، اللاتي هذه المرأة « زليخا » منهن ، ثمان آيات ، هي خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، كما أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس ، رضي الله عنهما :

الآية الأولى والثانية والثالثة — قوله تعالى : ﴿ يريدُ اللهُ ليُبيّنَ لكم ، ويَهديَكم سُنَنَ الذينَ مِنْ قبلِكم ، ويتوبَ عليكم ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ ، واللهُ يريدُ أنْ يتوبَ عليكم ، ويريدُ الذين يتّبِعونَ الشّهواتِ أنْ تميلوا ميلاً عظيماً ، يريدُ اللهُ أنْ يُخفّفَ عنكم ، وخُلِقَ الانسانُ ضعيفاً ﴾ (٤ : ٢٥ — ٢٧).

والآية الرابعة — قوله تعالى ﴿ إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَونَ عنهُ ، نُكفّرْ عنكم سيئاتكم ، ونُدْخلْكم مُدْخلاً كريماً ﴾ (٤ : ٣٠) .

والآية الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ لا يَظلِمُ مثقالَ ذرةٍ ، وإنْ تكُ حسنةً يُضاعفْها ، ويؤتِ من لدُنه أجراً عظيماً ﴾ (٤ : ٣٩).

والآية السادسة — قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يعملْ سوءاً أو يَظلِمْ نفسَهُ ، ثم يستغفرِ اللهَ ، يجِدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

والآية السابعة — قوله تعالى : إنّ اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشرَكَ به ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ ﴾ (٤ : ١١٥).

والآية الثامنة وهي الأخيرة — قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورُسُلِه ، ولم يُفرّقوا بينَ أحدٍ منهم ، أولئكَ سوفَ يؤتيهم أجورَهُم ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ ١٥١) .

الى هنا يتم خطاب الاعتراف ، الذي صدر من زليخا ، وقد قيل إنه كانت لتلك المرأة عذر في مراودتها ليوسف ، وذلك أن زوجها كان « خصياً » ورُدّ

بأن هذا القول مأخوذ من تعبير سفر التكوين عنه : « بخَصِيّ فرعون » ، ولكن هـذا الأخذ غلط ، لأن لفظ « خَصِيّ » لايراد به أصل معناه ، بل يراد به من يكون « ناظراً في الحرم » ، لأن الذين كانوا يستخدمون في الحرم ، جرت العادة أن يكونوا خصياناً ، ولهذا ترجمت في بعض الترجمات غير العربية « برئيس الحرم » هكذا قاله بعض شراح سفر التكوين ؛ وقيل إن زوجها فوطيفار كان دميماً ، فلما رأت يوسف ، ظهر لها بالمقابلة قبحه أكثر وأكثر .

إن اعتراف زليخا بجلية الواقع ، بعد أن أنكرت قبلاً تمام الانكار ، وانقلابها الخطير من مهاجمة الى مدافعة ، ومن ظالمة الى عادلة ، ومن كاذبة الى صادقة ، كان كله بحسب النواميس الطبيعية ، وبحسب الظـاهر ، وأما العـامل الحقيقي في تغيير فكر زليخا وعدم ثباتها على الكيد ليوسف ، هي ورفيقاتها النسوة المصريات ، هو الله تعالى مقلب القلوب ومصرف الأمور ، تحقيقاً لسابق قوله تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ (ع ٣٤) .

ختمت امرأة العزيز اعترافها بأن ربهـا غفور رحيم ، إيذاناً بطمعها فيها ، قال تعالى ﴿ قُل ياعبادي الذين أسرَفوا على أنفُسِهم ، لاتقنطوا من رحمةِ اللهِ ، إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفورُ الرحيم ﴾ (٣٩ : ٦٣) وقوله تعالى: ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ﴾ (٧ : ١٥٥) ، والمغفرة من الغفر وهو الستر، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه ، لاينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن بأن لا يبقى له أثر في النفس، لاظـاهر ولا خفي ، وبناء على هذا ، فالعفو أبلغ من المغفرة ، وانمـا عبرت امرأة العزيز بالمغفرة دون العفو مع انه أبلغ ، لأنها لم تطمع إلا فيه فقط ، وربما يقال : إن الفرق بينهما لغوي ، واما النتيجة فهي واحدة . (مرحى)

وعند هذا الحد يختم الفصل الأخير من رواية هذه المرأة وزوجها فلا يذكران أبداً ، وكأنهما ما كانا :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنـيس ، ولم يسمر بمـكة سامر

الباب الرابع

الفصل الأول

من ظلمة السجن الى نور الحرية أو خروج يوسف من السجن بريئاً

آ(٥٤)﴿وقالَ المَلِكُ: «ائتُوني بهِ أستَخلِصهُ لِنَفسي». فلما كَلَّمَهُ، قالَ: «إنَّكَ اليومَ لَدَينا مَكينٌ أمينٌ.»﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والخمسون، فقام الخان عبد السلام التتري (١) وقال:

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال

مابين رمشة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

لندع أيها السادة امرأة العزيز والنسوة المصريات لغير أجل، فإن قصصهم قد انقضى، ولنعد ليوسف الصديق وخروجه من السجن، فالآن ستنتهي سلسلة آلامه، ويبتدىء أن يدخل في دور جديد.

لقد تقدم أن «الرسول» أجرى التحقيقات اللازمة وما هي الا جولة في هذا المعترك السري، حتى عاد من بعدها متأبطاً في حقيبته نتيجة التحقيق، أو أنه حكى شفاهياً مارأى وسمع في غرفة «الاستنطاق» من وقت دخوله بها الى وقت خروجه منها، ولا نسل عن سرور الملك، وشدة محبته ليوسف، غبّما بلّغ نتيجة التحقيق، (و) لذلك (قال الملك) الريان، والاهتمام ظاهر في كلامه

(١) نسبة الى قوم التتر وهم اصول الاتراك القدماء

ممزوجاً بالشوق (ائتوني به) سراعاً ، لأنني أتصور أن هذا الشخص هو المرساة التينة التي تمنع سفينة مصر من أن يجرفها تيار الجدب والقحط (أستخلصه لنفسي) وأستخصه وأصطنعه لشخصي ، وأصطفيه ، وأنتخبه لذاتي وأزلقه اليّ ، بحيث أرجع اليه في تدبير مملكتي ، وأعمل على اشارته في مهات أموري ، يكون عندي كمستشار أوناموس ؛ فذهب الرسول الى يوسف ، وأنبأه بقوله : « لقد جرت التحقيقات السرية ، حسبما رغبت ، فكانت النتيجة براءة ساحتك من كل وصمة ، فالسيدات نساء الأمراء قد شهدن فيك بالطهارة ، بل إن نفس « امرأة العزيز » قامت كمدافع عنك ، واعترفت بأن المراودة كانت منها فقط ، وانك صادق ، وهي المبطلة ، ودافعت عنك دفاعا مجيداً ، ولم تأل جهداً في بيان طهارتك وعفتك ، وعليه « فالملك الريان » يكرر طلبك ، ويأمر بشخوصك اليه »فلما سمع ذلك قال : « الحمد لإبلي ، والشكر لإلوهي ، غب الصباح يحمد القوم السُرى » ثم خرج من السجن، بعد ماودع رفاقه فيه ، ومع أنهم سرّوا بالافراج عن صديقهم الصديق ، فقد أحسوا في أنفسهم بشيء أقلق راحتهم ، لا يدرون ماهو ؛ وقد فاتهم انه سهم مفارقة يوسف اليهم ، الذي كان في السجن تعزية لهم ، فما هي الا جولة أو جولتان حتى وصل الى حيث يجلس الملك فدخل عليه ، وقال له : أبيت اللعن أيها الملك ، (فلما) وقفه بين يديه ، رآه فلمس قلبه قلبه ، و (كلمه) يوسف ، فعجب الملك من فصاحته وقال : حقاً إن في الزوايا خبايا ، حقاً إن الرجال تحت طي لسانهم ، لا تحت طيلسانهم، حقاً إن الحديث أدل على الرجل من لباسه ، حقاً إن يوسف هذا هو ملء الاذن ، كما هو ملء العين ، وعند ذلك قال له الملك بلسان الوعد والتطمين : لله أبوك ! « (إنك) عندنا ياأخا العبرانيين (مكين) ذو مكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل شيء ، أو آمن من كل ماترهب مابقيتُ وبقيتَ ، فأنت المضطرب الخائف سابقاً ، والثابت الآمن لاحقاً ، أنت الذليل المتهم بدءاً ، وذو المكانة والمأمون أخيراً ، أنت

العظم واللحم ، ونحن الجُنة والرداء» ويحتمل ان معناه مكين في ملكي ، أمين على تدبيره .

«وقال الملك ائتوني به ..» الخ

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الغفار الجركسي :

طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المندوب من التحقيق

كان تمني الملك تأويل يوسف لرؤياه ، كما علمت ، ورآه من أهل الفضل والحنكة والسياسة ، ثم ظهرت له من نتيجة التحقيقات براءته ، ورأى أنه يوجد بينهما صلة وثيقة ، وهي الاتحاد في الوطن الأسيوي ولذلك ، ولكون الملك الريان آسيوياً أولاً ، وملكاً على مصر ثانياً ، قال : إن هذا السجين كريم الشيمه ، مرضي الأخلاق ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وأجعل له في مجلسي المقام الأول فقد يلوح لي أن هذا الفتى فيه روح ، روح الأمانة ، روح الحكمة ، روح الاقتصاد روح الفهم ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وعلى باقي النبلاء السلام ، أسرعوا بالفيئة اليه ، فلم يبق معي أكثر من صبر ساعة ، وإن لهذا اليوم مابعده — هذا كلام « الريان» وهذه مساعيه الجميلة ليوسف ، وهو مع كونه وثنياً ، أحب يوسف وأخرجه من سجنه ، ولكن إخوته اجنوه ، وفي غيابة الجب قذفوه ، ولقد صدق من قال : « إذا ضيعك الأقرب ، أتيح لك الأبعد ».

فأتى اليه « الرسول » وأنبأه بما كان من أمر براءته ووقعه من نفس الملك الموقع الأول ، وحبه له حباً لا ينقصه إلا الموت ، ثم أراده على الخروج من السجن بأمر الملك الريان ، فعندئذ آنس يوسف أنه لامانع من خروجه ، وأنه قد استحصل على البراءة تماماً ، وعلى حسن السمعة وطيب السيرة ، وان الملك قد وثق به وأحبه ،

فارقت أسارير وجهه ، فقام وقال للسجناء : أستودعكم الله ، ثم خرج من السجن باسم بريء ، بعد أن كان دخـــله باسم متهم ، فحضر بين يدي الملك ، وعمل له « الريان » حفلة تكريم ، جمع له فيها الوزراء وجميع كبراء البلاط ، وعزاه بما أتى عليه سابقاً ، وطمأنه وهنأه بما سيلاقيه من الحفاوة ، فشرع يوسف يكلم الملك ، فنال حظوة في عينيه ، وتبادل معه الحديث ، وأحبه أكثر من ذي قبل ،واحتفى به بنوع خاص ، واقتص منه تأويل رؤياه ، لكي يسمعه منه باذنيه ، قائلاً له : أعد عليّ تعبير الرؤيا كله . ولا تدع منه حرفاً إلا جئت به ، فجعل يوسف ينثر كلامه والملك مصغ اليـــه ، ولم يمض فواق حتى عرف الملك تأويل حلميه ، فدهش منه أيما اندهاش وأنشد :

وأستكبر الأخبـار قبـل لقائـه　　فلمـا التقينا صغر الخَبَرَ الخُبْرُ

وقال له عند ذلك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ومن معلقة زهـــير ابن أبي سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب　　زيادتـــه أو نقصـه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده　　فـلم يبـق إلا صورة اللحم والدم

(وقال الملك ائتوني به ...)الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبـد الاله اليماني مستأذناً رئيس المؤتمر في بيان مايراه من فوائد في هذه الآية الكريمة وبعد أن أذن له قال :

عدد جيئات الرسول السجن

(١) ـــ جملة جيئات الرسول « تبو » للسجن أربـع مرات ، فالمرة الأولى

كان متهماً بجريرة المؤامرة على الملك ، والمرة الثانية لما ذهب إلى يوسف ليستفتيه عن رؤيا الملك ، والمرتان الأخيرتان لأجل إخراجه من السجن الى الملك، فافهم.

دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه اياه لنفسه

(٢) — أصبح يوسف كأنه جبل مغناطيسي ، وأصبح قلب الملك كأنـــه قطعة حديدية تحاول أن تنفصل من جسم الملك وتترامى لجهة يوسف ، فلمـا أحس الملك بهذا التداعي المدهش ، قال ائتوني به .. الخ وبعبارة أخرى : وقف الملك على صحة براءة يوسف وعفته ، فازداد شعوراً بالانعطاف اليه ، وردّد في ذاكرته ما آنسه فيه قبلاً من الذكاء والفهم حين أول رؤياه ، فناداه ضميره باستخلاصـــه لنفسه ، فلبي نداء الضمير ، وقال : السَبْقَ السَبْقَ ،والسَّرعَ السَّرعَ ، صيروا اليه وأسرعوا الكرة ، وائتوني به أستخلصه لنفسي . فاني إذا منيت بــه ، قويَ ساعدي ، واشتد عضدي .

ثم تعبير يوسف سابقاً رؤيا الملك ، وتدبيره الذي ذكره للخروج من ذلك المأزق الحرج ، ثم ظهور الظلم الفادح في سجنه ، وانه بريء مما نسب اليه ، مع ظهور أنه سامي فلسطيني ، وليس من الأمة المصرية ، — كل ذلك ترك أثراً قوياً في نفس الملك ، حببه فيه حباً جماً ، فرغب في استخلاصه لنفسه .

هندام يوسف حينما استعد لمقابلة الملك

(٣) — لما أراد يوسف الخروج من السجن ،حلق وأبدل ثيابه(تك ٤١: ١٤) وإنما حلق لأن المصريين ما كانوا يطلقون فروعهم ولحاهم إلا في أوقات الحزن ، وكان حلق الرأس عادة في كهان الفرس ، خلافاً للفلسطينيين يومئذ ، فقـد كانوا يعدون اللحى زينـــة الرجولية ، وشوهد على الآثار المصرية الأسرى والأدنياء

مصورين بلحىً (١) ، ولذلك كان يوسف في السجن طويل الفرع واللحية ، رمزاً لحزنه ، أو تقليداً لأهـــله ، فلما دعي الى المثول في حضرة مليك مصر حلقها ، لأن حزنه زال ، ولأن المصريين يكرهون فرع الرأس واللحية ..

اكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريبه منه

(٤) ـــ سمع الملك الريان كلام يوسف فوقع في نفسه وأكبره ، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة ، تختلف صورتها عن صورة الأسمال الحقيرة التي عليه ، وانه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يسجن بضعة أيام ، فضلاً عن بضع سنين ..

وقـــد جرت عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة أنهم يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحلاهم ، ثم باسمائهم وأنسابهم وما يحملون من رتب وأوسمة ، فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم ، ونرى ملك مصر هنا انما قـدر يوسف وأجلّه بما رزقه الله من مواهبه السامية ، وأفكاره الثاقبة ، كما قال أفلاطون لجليس لـه :

« تكلم لأعرفك » ، فلذلك ولـما كلمه يوسف قال له: « إنك اليوم لدينا مكين أمين ».

عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك

(٥) ـــ كان يوسف عليه السلام لما وقف بين يدي الملك ابن ثلاثين سنة ، ولكن يوسف لايعتبر من تلك الأعوام الطوال التي عاشها في ذلك العالم المنكود سوى (١٧) سنة ، وهي السنون التي مضت عليه وهو في حضن والده .

(١) كما قاله هيرودوتس ،

تفاهم يوسف مع الملك في اللغة

(٦) — كلم يوسف الريان، وكانا يتفاهمان تماماً، لأن لغة الريان عمليقية، وهي قريبة جداً من العربية، أو هي عربية، ومعلوم أن العربية والعبرانية متقاربتان، وكذلك كان يوسف يتفاهم مع القبط المصريين الأصليين، لأن القبطية قريبة أيضاً للغته، والحاصل ان اللغة المصرية القبطية واللغة العبرانية واللغة العمليقية واللغة السرياقية واللغة المديانية، قريب بعضها لبعض، فكأنها من أمهات مختلفة لأب واحد، ولذلك كان بإمكان الجميع متى اجتمعوا أن يتفاهموا.

دعاء يوسف لأهل السجن الذي كان فيه

(٧) - قيل إن يوسف دعا لأهل السجن حين خروجه منه، فقال: (اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عنهم الاخبار، فهم أعلم الناس بالحوادث والواقعات) وقيل كتب على باب السجن: (هذه منازل الابتلاء، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء).

العبرة في هذه الآية وما بعدها

(٨) هذه الآية والاثنتان بعدها تعلم الانسان عدم الحسد، لأنه بقراءتها يعلم انه يوجد في التاريخ من كان عبداً اشتري بثمن بخس ثم ترقى الى درجة عالية في دار الحكومة، حتى صار من الوزراء العظام.

يوسف وزير مالية

آ (٥٥) ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي على خَزَائِنِ الأرضِ ، إنِّي حَفِيظٌ عليمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والخمسون فقام السيد عبد القهار الألباني[1] وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الملك الريان : ياذا الجلالة (اجعلني) وَلِّني (على خزائن الأرض) حاصلات الأرض المصرية عموماً المخزونة في حقول القرى والمدن والحصون (إني حفيظ) أحفظ ماتستحفظنيه (عليم) عالم بوجوه التصرف بها.

ونرى هنا ان يوسف قد وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، فقال له الملك : « أنت لها ، أنت لها، قد فعلت» فأوقف يوسف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمة مصر والمصريين ، بل وما اليها مما جاورها من فلسطين وغيرها .

(اجعلني على خزائن الارض .. الخ)

— ١ —

وقال السيد الحضرمي[2] :

مؤهلات يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر

آنس يوسف من نفسه من النشاط والذكاء وعلوّ الهمة مايؤهله لإدارة.

(١) نسبة الى بلاد الألبان الاسلامية .

(٢) نسبة الى حضرموت احدى مقاطعات جنوب الجزيرة العربية .

وزارة مالية مصر ، فاقتحم هذه الطلبة ، ولسان حاله يقول :

ذريني أنل مالا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

أو يقول :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً الى آماله ومعلقا

أو يقول :

أين فضلي إذا قنعت من الد هر بعيش معجل التنكيد
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وهو عليه السلام وإن لم تسبق له خدمة في الحكومة وإدارة شؤون ماليتها إلا أنه كان على مذهب من يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

على أن الله عز شأنه قال في شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (ع ٢٢) وليس بعد هذا بيان لمستبين .

ولذلك قال للملك الريان : (ياصاحب الجلالة ، عيني على حاصلات أرضك أرض البلاد المصرية عموماً ، التي تختزن الحاصلات والغلال في حقولها ومزارعها وحصونها — وكانت تلك الحاصلات عبارة عن القمح والشعير والذرة الصفراء والبرسيم والكروم والتين والزيتون والجميز والقصب والبلح والتمر وما أشبه ذلك من غلات مصر ، كما يعلم ذلك من التواريخ القديمة — ثم أردف يوسف قائلاً : إني

خلقت اقتصادياً وعشت اقتصادياً ، ودم العلم والخبرة جار في عروقي ، وملكة المعرفة سارية في جوارحي ، حفيظ للأموال ممن لا يستحقها ، حفيظ لها في خزائنها ، خبير بالوجوه التي يمكن تحصيل الدخل والمال منها ، خبير بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال اليها ، عليم بمصالح الناس وبمواقع حاجاتهم ، عليم بوجوه التصرف دخلاً وخرجاً ، وهذا هو سلاحي الذي أتسلح به وهذه هي حليتي التي أتحلى بها ، وهذه هي وسيلتي التي أتوسل بها إلى مليك الديار المصرية ، ليس لي سلاح ولا حلية ولا وسيلة بعد الله تعالى سوى الخبرة والحفظ والأمانة . هذا ولا نشك بأن الريان قال له : (ذلك الظن بك أيها العبراني الاقتصادي الحيسوب القدير) ، ثم التفت إلى وزرائه وقال لهم : (هل نجد رجلاً ينهض بالعمل في بلاطنا ويستقل به استقلالاً أحسن من هذا الفتى ، هل نرى انساناً أجزأ للعمل وأمضى من هذا الإنسان ؟ . . . كلا . . .) ثم أمر فجعله كما طلب في مهرجان عظيم ، وقد هاج المصريون وماجوا من هذا المهرجان والموكب الذي عمل لأجله ، وكان هذا الحادث يعد من الحوادث التاريخية الباهرة في تاريخ يوسف . وبهذه الحادثة يكون انتهاء فصل المأساة التاريخيه ، وبدء لعصر جديد ونتعلم من هذا الذي حكاه الله تعالى عن (الريان) — وهو وثني — أن ننظر عند إسناد الوظائف للكفاآت ، لأنه إذا كانت الحكومة الوثنية — حكومة مصر — قد جرت على هذه الطريقة المثلى ، فأولى أن تجري على ذلك الحكومات ذات الأديان السماوية .

لقد ادعى يوسف دعواه السالفة الذكر وأتى من العمل بما يصدقها وحفظه له التاريخ ، إذ قام بما أصاره اليه الريان مليك مصر من الأمر ، أحسن قيام وأتى بكل ما عصبه به ، وعوّل عليه فيه ، فكان هماماً أحوذياً ماهراً ، لا يفوته

شيء، ولا يعجزه أمر، مشمراً للأعمال، يسوقها أحسن مساق، لايشذ منها عنه شيء ما.

ونتعلم من كلام وعمل يوسف عليه السلام، أنه ينبغي للعاقل — إن كان عاقلاً — أن يسعى في طلب الدنيا، ليعيش بشرف، وغني عن الناس، ولا يتكل على ماتأتي به الأيام، ورحم الله من قال:

لعمرك إن المال قد جعل الفتى نسيباً وإن الفقر بالحر قد يزري

وقال آخر:

ولا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وفي الحديث الشريف: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل).

«اجعلني على خزائن الأرض ... الخ»

وقال الاقتصادي الكبير الأستاذ الدمشقي:

عمل يوسف في سني الخصب والجدب في مصر

لقد طلب يوسف عليه السلام أن يكون جابياً للحاصلات في سني الخصب السبع وخازناً لها، ثم بائعاً لتلك الحاصلات في سني الجدب السبع الأخيرة.

ويظهر أن هذه الوظيفة التي هي عبارة عن الجباية فالخزن فالبيع وظيفة جديدة لم تكن من قبل، لأنه لم يكن لها داع، وقد جاء في سفر التكوين وشرحه أنه يظن أن أهل مصر كانوا يعطون الملك، عشر الغلال، ولكن يوسف أشار على الملك أن يأخذ خمس الحاصلات، وكان إعطاؤهم للملك ضعفي ما كان يأخذه سابقاً، ليس ثقيلاً عليهم في سني الخصب، لكثرة غلالها كثرة لم تعهد،

ويرجح أنهم علموا ما كان من حلم الملك ، فكان ذلك مما خفف عليهم دفع الخمس .

وقد جمع يوسف (ع) جميع الفضة التي في أرض مصر ، وفي أرض كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها وأدخلها بيت ملك مصر ، فيوسف لم يكتف بأن تلافى مضار المجاعة بل عُني كرجل خبير بالسياسة والاقتصاد ، أن يقوي سلطة مولاه ، ويزيد غنى دولته ، بادخال فضة الأهلين خزائن الملك ، ثم بتمليكه ما شيتهم ، إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام : (إذا كانت فضتكم قد نفدت فهاتوا ماشيتكم ، أبعكم بها ، فجاءوا يوسف بماشيتهم فأعطاهم طعاماً بالخيل والماشية من الغنم والبقر وبالحمير ، ثم إن المصريين عادوا في السنة الثانية إلى يوسف يشكون اليه سوء مصيرهم ، لأنه لم يبق بين يديه الا أبدانهم وأراضيهم ، ويسألونه أن يشتريهم وأراضيهم للملك ، فاشترى يوسف جميع أراضي المصريين للملك ، لأنهم باعوا كل واحد حقله ، فصارت الأرض للملك ، إلا أن أرض كهنتهم لم يشترها ، لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاقاً من قبل الملك يأكلونها ، ولذلك لم يبيعوا أراضيهم (كذا في التوراة وشروحها والله أعلم بصحة ذلك).

إني حفيظ عليم

— ٣ —

وقال الاديب العدني (١) :

الشدائد علمت يوسف ادارة شئون مصر المالية والاقتصادية

كان يوسف ذاق نكبة المنكوبين ، وجرب ذل الأعزاء ، واختبر مهانة الأشراف ، وعالج مرارة العيش ، وشاهد بؤس البؤساء — وسمع أنين أهل البلواء .

(١) نسبة الى عدن احدى بلاد الجنوب العربي .

ذاق نكبة المنكوبين ، حين ألقي في (غيابة الجب) وجرب ذل الأعزاء حين جلس في « سوق الرقيق » ليباع لمن يرغب فيه ، واختبر بنفسه مهانة الأشراف ، حين كان عبداً في بيت « بوطيفار » ، وعالج مرارة العيش ، حين اعتقل في « السجن » كمجرم ، وهناك شاهد بؤس البؤساء وسمع أنين أهل البلواء .

كان يوسف (ع) مر بجميع الطبقات ، وخالط جميع الناس ، خالط (طبعاً) اخوته ، فرأى حسد القريب للقريب ، خالط « السيارة » فعرف كيف يكون تعدي القوي على الضعيف ، خالط « التزوج » في سوق الرقيق ، فأدرك شدة السادة على العبيد ، خالط « الكبراء » في بيت العزيز ، فجرب ظلم الاميرة والامير ، خالط « المعتقلين » في السجن ، فشاهد كم فيه متظلمين ، وسمع أنات المتألمين وزفرات المتوجعين .

تصور كل ما جرى عليه فيما مضى ، ثم تصور كل ما سيجري على الناس المصريين ، في سني القحط فيما يأتي ، فخاف أن يغدروا كما غدر ويهانوا كما أهين ، ويصب من فوقهم الظلم كما صب فوقه ، فأحب أن يتولى شؤونهم المستقبلة بنفسه ، وأن يكون هو القائم بخدمتهم ، ليعطي كل ذي حق حقه ، ويقوم بواجب العدل والانصاف ، ولتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم ، فلذلك اقترح على الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

لله در الألم ما أنفعه ! لله در البؤس ما أنجعه ! فالألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والاحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين المجتمع الانساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه .

لم يرد يوسف أن يعيش عيشة وردية ، لا يخدم بائساً ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثي لأمة ، ولا يبكي على وطن ، لم يرد يوسف أن يكون كبعض هؤلاء النفر من

العلماء الذين لايشتركون في شأن من الشؤون العامة ، ولا يعنيهم ماداموا راضين عن أنفسهم ، مغتبطين بحظوظهم ، قابضين رواتبهم ، أسقطت على الأرض السماء ، أم قرقت الدهماء في الدأماء ! ! !

لم يرد يوسف أن يعيش دنيئاً قميناً لأن هذا من سفالة الهمة ، بل أراد أن يعيش عظيم الهمة ، وعظم الهمة هو استصغار مادون النهاية من معالي الامور وطلب المراتب السامية ، كما أراد يوسف عليه السلام .

هذا ماينبغي أن يكتب في هذا المقام ، وما يليق أن يقوله القائلون ، ومايناسب أن يسمعه السامعون ، وان لم يقع موقع الاستحسان من أشياخ الكسل ، وأساتذة العجز ، وأئمة التثاؤب والتململ ، الذين يحتقرون نعمة العقل والقوة ، بتعطيلها عن العمل ، وربما كان الواحد منهم في نفسه أطمع من « أشعب » تذهب نفسه حسرات على « الذهب » ، لو استطاع أن يهدم بيتاً ، ليربح حجراً لفعل ، يظهر الزهد ، وهو احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

إن الرجل ذا النبل والمروءة يكون خامل الذكر ، فتأبى نفسه الا أن تشب وترتفع ، كالشعلة من النار يضرمها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً ، فلذلك اشرأبت نفس يوسف عليه السلام ، للرفعة ، والمجد ، لكي يقوم بخدمة مصلحة عمومية ، وفي ضمنها مصلحته الشخصية ، لأن حب الذات فطرة في الناس ، لايمكن أن يخلو منها أحد ، حتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ لم يقل أحد ما ان الأنبياء معصومون من ذلك .

خرج يوسف من سجنه ، فطلب الجلوس على أريكة « وزارة المالية » ، فاستحق بذلك قول أبي فراس الحمداني :

ونحن أناس لاتوسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

طموح الانسان الى الرياسة ، من ملك ووزارة وقيادة جيش ونحوها ، هو لا شك مما يبعث على التنافس ، وبذل المستطاع في سبيل الوصول اليها ، وهو أمر حسن ، قال ﷺ :

﴿لا يزال الناس بخير ماتفاضلوا ، فاذا تساووا هلكوا﴾ ، معناه انهم إنما يتساوون إذا رضوا بالنقص ، وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودرك المعالي (ابن الأثير في نهايته) .

(قال اجعلني على خزائن الارض ...) الخ الآية

— ٤ —

وقال الاستاذ الزبيدي(١)

عزيز مصر وخديويها

نتعلم من هذا القول أن يوسف عليه السلام كان « وزير مالية » ثم نتعلم من تسمية اخوته له « بالعزيز » ، إذ قالوا له في سفرتهم الثالثة : ﴿ياأيها العزيز﴾ انــــه كان « عزيزاً لمصر » ، وعزيز مصر بحسب اصطلاح المصريين القديم والحديث هو حاكمها الكبير ، والمتصرف العظيم فيها ، بعد مليكها الأكبر ، وفرعونها الأعظم ، فليس يوق « عزيز مصر » سوى الملك فرعون ، ووظيفة عزيز مصر هي النظر في جميع أمورها بلا استثناء ، فهو المرجع في كل حادث مهم لجميع المصريين ، ويكون في حكومة هـــذا العزيز وزراء ، ورئيس وزارة ، ويكون العزيز كأمير مطلق اليد ضمن الشروط المشروطـــة له ، وفي دائرة الحدود المحدودة ، ويكون تحت نفوذ مليكها الأعلى ، الذي اذا أراد عزله عزله ، وعين له خلفاً ، وعلى هذا الاصطلاح المصري القديم جرى الاصطلاح

---

(١) نسبة الى زبيدة بلدة في الحجاز

الجديد ، منذ عهد مؤسس العائلة الخديوية « محمـــد علي باشا » لأواخر الحرب العالمية ، فقد كانت مصر « أيالة » من أيالات الدولة العثمانية ، وكان ملكها هو الخليفة العثماني ، الذي كان يدعى له على منابرها ، وكان « الخديوي » فيها يسمى « عزيز مصر » وللخديوي حكومة مؤلفة من وزراء ورئيس وزارة .

اذا تقرر هذا نجم عنه سؤال صورته : كيف يكون يوسف في وقت واحد « وزير مالية » بحكم قول الكتاب العزيز ﴿ اجعلني على خزائن الارض ﴾ (ع٥٥) و « عزيزاً لمصر » بحكم قوله أيضاً : ﴿ ياأيهـــا العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ﴾ ؟ (ع ٨٨) ، وجوابنا عنه من وجهين ، الأول يحتمل أنه صار أولاً وزير مالية ثم ترقى فصار عزيزاً لمصر مع احتفاظه بوزارة المال ، كما كان آخر خديوي بمصر وهو « عباس حلمي الثاني » عزيزاً لمصر وناظر أوقافها في آن واحد ، ويحتمل أنه كان من يجعل على (خزائن الارض) يكون (بالطبع) هو « عزيز مصر » فتأملوه عسى أن تنفذوا ببصيرتكم لأحسن منه والسلام عليكم .

(اجعلني على خزائن الارض ..الخ)

— ٥ —

وقال ميرزا حسين الكاشاني[١] :

نظير حادثة يوسف في التاريخ

تقدم أن يوسف عليه السلام ، استسلم « للسيارة » وسلّم بأن يذهب معهم لمصر ، بدون أدنى مقاومة ، وان من مهونات هذا الاستسلام ومسهلاته ، بل من دواعيه وبواعثه ، خوف يوسف على نفسه من اخوته « بني العَلاّت » لو حاول الرجوع لأبيه ، وبناء عليه فهو قد بقي صابراً يفترص الفرص ، حتى سنحت له ،

(١) نسبة الى بلدة كاشان في ايران .

هذه الحادثة النادرة المثيل ، وهي وقوفه أمام مليك مصر محفوفاً بحجبة منه له هي نادرة المثال ، فتعرض لهذه النفحة . وطلب أن يكون من أهل البلاط ، وما هي إلا لفتة الجيد ، حتى صار وزير مالية مصر العام ، فقام بهذا المنصب أحسن قيام ، وأسس لنفسه ولأهله مجداً بمصر ، له عزه وجلاله .

ولعمري إن هــذه الحادثه تشبه من بعض وجوهها حادثه (عبد الرحمن الداخل) الأموي الذي فرّ من وجه بني عمه العباسيين ، إلى الغرب خوفاً من قتلهم إياه ، ولحق بالأندلس ، وأسس ملكاً ودولة مستقلاً بها عن بني العباس وإذا كان « المنصور » العباسي قد لقب « عبد الرحمن » هذا « بصقر قريش » فما أحق « يوسف » أن يلقب « بصقر اسرائيل » ؟ ! وههنا (والشيء بالشيء يذكر) تذكرت حكاية رأيتها في بعض التواريخ وهي مشهورة وخلاصتها أن « عبد الرحمن الداخل » هذا دخل ذات يوم وهو صبي على جده « هشام » ، وعنده أخوه « مَسْلَمَة » ، وكان مسلمة شديد الفراسة ، بعيد النظر ، فأمر « هشام » أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : (دعه ياأمير المؤمنين ، هذا صاحب بني أمية ، ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيراً) ، قال عبد الرحمن : (فلم أزل أعرف من جدي مزية من ذلك الوقت) فهذه البشرى من مسلمة لعبد الرحمن تشبه بشرى « يعقوب » لولده « يوسف » حينما قال له : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك . . الخ ﴾ ، سواء أكان كلام يعقوب لابنه من قبيل الفراسة ، أو مبنياً على الوحي السماوي ، فهذا وجه ثان من وجوه المشابهة بين عبد الرحمن الداخل ويوسف عليه السلام ، واليك وجهاً ثالثاً ، وهو اني رأيت في بعض الدفاتر قصيدة تصف عبد الرحمن الداخل فكان منها :

دبرّ ملكاً وشادَ عزا ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أخلا

ثم دعا أهــله اليــه حيث اتتأوا أن هـلم أهلا
فجـاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتـلا
فنال أمنـــاً ونال شبعاً ونال مالاً ونال أهـلاً

وغني عن البيان أن انطباق هذه الأبيات على يوسف حيث دبر الملك وشاد العز وجند الجند ومصر الأمصار ودعا أهله اليه أجمعين .

«قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ»

— ٦ —

وقال السيد العماني :

الدين الاسلامي والسعي في الدنيا

السعي في الدنيا وطرق الشرف والمجد ، هو من تعاليم الأديان الحقة . . . » المطابقة لروح المدنية الحقيقية . . . ، وفي مقدمة هـذه الأديان « الاسلام » نعم إن دين الإسلام هو دين علم وعمل ، دين جهاد ونشاط ، دين روحي ومادي معاً ، وبعبارة أخرى دين ايجابي ، بعكس بعض الأديان الأخرى ، كالدين الهندوسي مثلا ، الذي هو سلبي محض ، يأمر بانكار الذات التام ، ويحض على الا بتعاد عن كل مافي هــــذه الدنيا من رزق ومتاع وأسباب شرف ومجد ، بحيث أن من أراد العمل بأوامر ذلك الدين ــ بالحرف الواحد ـــ لزمه ترك الدنيا والتنسك في صومعة ؛ ولكن دين الإسلام يمكننا العمل بأوامره تماماً ، دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم ، وما فيه مباح اللذة والتمتع بكل ماتحت الكلمة من أكل وشرب ولباس وأثاث ورياش ومجد وشرف .

وأما تعليم الزهد والرهبانية وترك الدنيا ، فانما هو من الزوائد التي أدخلها بعض رجال الدين من العجم ، ومن متمشيخة العرب الذين لم يفقهوا حقيقة الدين

فأدخلوا عليه ماليس فيه فمسخوه مسخاً ، وشوهوه تشويها ، وأما الطريقة التي كان عليها الفاروق الأكبر ، رضي الله عنه ، فانما هي حالة نفسية ، رضيها لنفسه بنفسه ، وألزم فيها نفسه ، ولم يلزم بها غيره ، ومع ذلك فهو رضي الله عنه إنما زهد في الملبس والمأكل ، ولكنه فيما يتعلق بالمجد والشرف وبعد الصيت ، فقد وصل لغاية لاغاية بعدها ، بحيث قهر كسرى فارس ، وقيصر الروم . ووضع رجله فوق رؤوس كل العتاة المتجبرين ، وهو الذي كان إذا رآى رجلاً جالساً في المسجد بعد أداء الفريضة يضربه بالدرة ، ليخرج لمعاطاة أسباب المعاش ، وكان يقول : (إني ليعجبني الرجل ، حتى إذا علمت انه ليس له عمل سقط من عيني) .

إذا كان الإنسان خُلق قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته ، فانه عليه أن لا يَنِيَ في ذلك ، لأن به ترتبط رفاهيته وراحته ، وإذا كان ينبغي للقادر على الشغل أن يحمل الفأس ويقطع بها الصخور ، أو يقلب بها الارض — أفلا ينبغي لمن فيه أهلية للوظيفة أن يرشح نفسه لها ، ليقوم بواجبات نفسه وأهل وطنه ؟ وإذا كان الله يقول : ﴿ وسَخَّر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً منه ﴾ (٤٥ : ١٢) فهل يجوز أن ينكر على يوسف الصديق أن يتطلب بعض منافع مافي الارض ؟ . . حاشا . . .

وهل من العبث تسمية الله تعالى المال خيراً في قوله تعالى :

﴿ إنْ تَرَكَ خيراً ، الوَصِيَّةُ ﴾ (٢ : ١٨٠) وقوله : ﴿ وإنه لحبِّ الخيرِ لشَديدٌ ﴾ (١٠٠ : ٨) ؟ . .

وأما قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدون ﴾ (٥١ : ٥٦) فالعبادة فيه هي طاعة الله في كل ما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، والله يقول : ﴿ ولا تَنْسَ نصيبَكَ مِن الدُّنيا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ، ويقول ﴿ فانْتَشِروا في الارض وابْتَغُوا مِنْ فضلِ اللهِ ﴾ (٦٢ : ٩) ،

ويقول : ﴿ هو الذي جعلَ لكم الارض ذَلولا ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا مِنْ رزقِهِ واليهِ النُّشُورُ ﴾ (٦٧ : ١٥) والإنسان مكلف أن يعمل بكل أوامر الله تعالى ، سواء كانت أوامر دنيوية ، أو أوامر أخروية ، ذلك لاجل خدمة الجسم والروح ، وكل من اتبع شِقاً من ذلك وترك شقاً ، يكون محشوراً في زمرة الذين يكتون بقول الله : ﴿ أتؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتكفُرون ببعض ؟ ﴾ (٢ : ٨٥)

أحسنت

« قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ »

— ٧ —

وقال العلامة الدمشقي الصالحاني[1] :

دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال

لم يزل بعض علماء الدين يتشددون في الدين ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء ، صخوراً صماء ، يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة ، حتى صيروه عبئاً ثقيلاً ، على كواهل الناس وعواتقهم ، فملّه الكثير منهم وبرموا به ، ولو أن علماء الدين لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنياهم .

هذا « داود » نبي الله عليه الصلاة والسلام ، كان ملكاً ، وامتن الله عليه بذلك ، حيث يقول له : ﴿ ياداودُ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٣٨ : ٢٦) خلفاً عن « شاول » ، فهل يمتن الله عليه بشيء لاقيمة له ، أو شيء يزهد هو فيه ، ولا يأبه له ؟ . . حاشا . .

---

(١) نسبة الى حي الصالحية في دمشق .

وهذا ابنه «سليمان» نبي الله، عليه الصلاة والسلام، كان ملكاً، حتى أنه قال: «وَهَبْ لي مُلكاً، لاينبغي لأحدٍ مِنْ بعدي» (٣٨ : ٣٥) أي لا يتطلبه غيري من العائلة المالكة، ولا ينازعني فيه، من بعد جلوسي على كرسيه، كما جربت من أخي «أدونيا» فيما مضى، فهذا الطلب، وطلب يوسف، يخرجان من مشكاة واحدة، فهل كان سليمان أقل تقوى من هؤلاء المتعالمين المداجين، الذين يقولون للناس في دروسهم ووعظهم مالا يفعلون فيما بينهم وبين أنفسهم وفي داخل بيوتهم؟... حاشا...

وهذا «أبو بكر الصديق» وبعده «عمر الفاروق»، تقبلا الخلافة، وربما كان لهما في الحصول عليها نصيب من السعي، فهل كان هؤلاء المتشددون المتطعون، أكثر من الشيخين زهداً وورعاً؟... حاشا...

وهذا «عثمان ذو النورين» و«علي المرتضى» و«الحسين» و«محمد صاحب النفس» و«زيد بن علي»، رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا في سبيل المحافظة على الخلافة، أو طلبها، فهل أولئك المعترضون - على طلب يوسف الدجالون أكثر منهم تقوى واخلاصاً وزهداً؟... حاشا...

أليس ان الدنيا مطية المؤمن؟.. أليس ان الدنيا مزرعة للآخرة؟... ألم يقل الكتاب ﴿ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا﴾ (٢٨ : ٧٧) ألم يرد «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً؟..»

لعمرك إنا لنتأسف أنه مع ترقي العقول وتنور الأذهان في هذه العصور المستنيرة، لم يزل جماعة من المتشددين عَبَدَة الأزياء يُغالون في الدين بدون أن يتفهموه ويحيطوا به علماً، ويقفوا على حِكَمه ومراميه، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا، وينزلوا على حكمهم بما أرادوا، ويقيمون المناحات السوداء على كل عالم يريد أن يجمع بين أطراف الدين ونصوصه، في مواضيع المعاش والمعاد،

حتى ملتهم الناس ، وملّوا الدين منهم ، فتمردوا عليهم، وخلعوا طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية الدينية المطلقة ، فسقطوا في هوة الضلال ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ودينها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق المستنير ، من العلماء الواقفين على حكمة التشريع ، والفضلاء الذين أدركوا كنه الدين ، وهم مابين مؤلف يكتب للأمة الرسائل الدينية ، التي توافق روح القرآن والسنة وطريقة السلف ، وما بين خطيب يخطب لهم الخطب المنبرية التي تحثهم على النظر لآخرتهم ، بالعين الواحدة ، ولدنياهم بالعين الاخرى ، وما بين مدرس يوقفهم في دروسهم على الحقائق الراهنة من الدين ، وينهض بهمتهم الى معالي الأمور ، ولولا هؤلاء ، لبقي الدين في أيدي الجاحدين ، فمات أو غلب عليه الجهل فاختفى .

يميناً لو نشر اليوم أبو بكر وعمر الفاروق وعلي المرتضى وعمر بن عبدالعزيز، وأحمد بن حنبل والحسن ، وأشباههم ، لما كان لهم بد من أن ينزلوا الى عالمنا الذي نعيش فيه ، فترى منهم صاحب المعمل الصناعي ، وصاحب المستودع التجاري ، وصاحب المستعمرة الزراعية، والأمير السياسي ، والحاكم الشرعي ، والملك المهيمن، ووزير المالية ، وناظر العدلية ، وشيخ الاسلام ، ووزير الحربية والبحرية ، وقائد الجيوش ، ووزير المعارف والاوقاف ، كما نرى منهم زعيم قوافل التجارة البرية والبحرية والجوية ، ومدير الشرطة ، وآمر الضبط والربط ، حتى يستتب الأمن العام في الأمة .

فان هم لم يريدوا أن يكونوا كذلك ، رأوا أن من الواجب عليهم أن يعودوا الى مراقدهم من حيث جاؤوا .

إن الكثيرين من أسلافنا لم يكونوا بالصورة التي يصورها لنا بعض الواعظين، بل كانوا في رغد من العيش ، فقد أثبت لنا التاريخ أنه في أيام خلافة عمر بن الخطاب

كان يُدفع من الرواتب لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ ، كل سنة اثنا عشر الف درهم (فرنك) ، وللعباس رضي الله عنه كذلك ، ولكل من الحسن والحسين خمسة آلاف درهم (فرنك)[1] ، فهل كان أصحاب هذه الرواتب أقل زهداً من المتشددين من أهل اليوم ؟.. حاشا ..

وجد عند خازن « عثمان رضي الله عنه » ماله الخاص بعد استشهاده دنانير ودراهم تساوي (٥٧٥,٠٠٠) جنيهاً ، ووجدت قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مايساوي (٥٠٠,٠٠٠) جنيهاً ، وذلك بعد وفاته سنة ٣٥ هـ[2] .

أنا لا ألوم على الأخذ بطرف من الدين ، وترك الطرف الآخر — الاغبياء الذين أظلمت أذهانهم ، فأظلمت دروس وعظهم ، وظلمة المدرس أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يعرفوا الديانة الاسلامية ، ولم يمارسوا حكمتها ، ولم يتشبعوا بروح نصوصها ، ولا الوعاظ القاصدين الذين لم يقفوا من الدين المحمدي إلا على بعض قشوره القاتلة لروحه ، فهؤلاء جميعاً لاحول لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم العلماء الحقيقيين ، العارفين ، الذين عرفوا الدين ، واطلعوا على حكمه ، وفهموا مراميَ نصوصه ، ومغاري شرعته ، وأنقم منهم عدولهم عن بيان ذلك للناس ، وآنعي عليهم نقص القادرين على التمام .

يجب على العالم الاسلامي أن لا يألو جهداً في الحصول على أسباب الثروة ، فلا دين إلا بملك ، ولا ملك إلا برجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالسعي والجد والنشاط ، وما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا .

حكى المؤرخون أن بعض الشعراء مدح « المأمون » وكان من قوله :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين ، والناس بالدنيا مشاغيل

(١) تاريخ التمدن الاسلامي . (٢) تاريخ التمدن الاسلامي

فلم يتحرك له ، لأنه مازاد على أن جعله عجوزاً في محرابها ، في يدها مسبحتها ، ولذلك قالوا ، أحسن منه قول بعضهم :

فلا هو في الدنيـــا مضيع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولا عبرة بتزهيد بعض المشايخ الكسالى ، وربما كانوا كاذبين في زهادتهم ، فان أكثر مانرى من الزهاد ، إنما يتجلى لنا زهدهم في ألبستهم أو ألسنتهم ، أو الغرف التي يستقبلون فيها زائريهم ، فهذه هي مظاهر زهدهم ، ولو أتيح لنا أن نطلع على داخل بيوتهم ، وما فيها من أثاث ورياش ، أو لو بحث عن حال نسائهم ، وكم في خزائنهن من أنواع الالبسة المزركشة وكم في صناديقهن من ضروب الحلي والجواهر ، لرأينا أمراً عجباً ، يدهش الابصار ، ويأخذ القلوب ! ! !

(مرحى)

« اجعلني على خزائن الارض .. الخ »

— ٨ —

وقال الهمام البحراني(١) :

حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي والتصوف في الاسلام

هذا الطلب — طلب يوسف — هو من روح الدين الاسلامي ، يوم كان الدين ديناً والاسلام إسلاماً ، إذ لم يكن فيه شيء مما يسمونه قطع العلائق مع الناس ، وزهداً في الحياة الدنيا ، لأن هذا بعيد عن روح الدين الاسلامي ، إذ الاسلام دين فتح ورفعة ، دين عز وشرف ، دين نشاط وعمل ، دين سعي وجد ، دين ابتغاء من فضل الله بالتجارة والصناعة والزراعة ونحوها ، وقد قال تعالى : ﴿ وأن

(١) نسبة الى قطر البحرين احد الامارات العربية على الخليج العربي .

ليسَ للانسانِ إلا ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سوفَ يُرى ، ثم يُجْـزاهُ الجزاءَ الأوفَى ﴾ (٥٣ : ٣٩ ـ ٤١) وهل هـذا لاينافي مايسمونـه « تصوفاً » ، إذ التصوف بالمعنى الصحيح ، هو طهارة الباطن وحب الخير ، وبغض الشر وما الى ذلك ، مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، وهو بهذا المعنى يرجع في جوهره الى روح الاسلام ، وأما « التصوف » بالمعنى المشهور عنـد الجمهور ، فليس هو مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وإنما هو مزيج من عـدة مذاهب ، هندية وقارسية ويونانية ويهودية ،قال الدكتور « وليم ادي » الأميركاني في شرحه على الانجيل : (قد كان في اليهود جماعة « الأسينيـين » ، كانوا بين اليهود بمثـابة الباطنيين أو المتصوفين ، مارسوا التطهيرات اليهودية ، واعتنقوا الفلسفة اليونانية ، وكثيراً ما اعتبروا التقشفات الجسدية ، وتجنبوا مخالطة الناس) ، فهذه التعـاليم المزيجة ، نقلت الى المسلمين ، وصـادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها حسابه من القواعد والأصول .وحقيقة الاسلام أنه يُمِدّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، وإن التصوف بالمعنى المشهور عنـد الهنود واليونان والفرس ـ يلبس أصحابه أرواح العبيد ، وإلا فلماذا سـاد المسلمون وأفلحوا في الحياة يوم كانت مبادىء الاسلام الخالصة رائدهم ، وتعاليمه البريئة هاديهم ؟ ولماذا فقدوا مكانتهم ، وأضاعوا عزهم ومجـدهم وضلوا في الحياة سواء السبيل ، حتى صاروا طعمة سائغة لكل طاعم ، ونهبة هنيئة لكل ناهب ، يوم شابوا تلك المبادىء السامية بشوائب التصوف ،وخلطوها بتعاليم المتصوفين .

دين الاسلام ، الذي هو دين ابراهـيم وأولاده اسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف ـ هو دين السعادتين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ،دين يقول في هدايته: ﴿ ولا تَنسَ نصيبَكَ مِنَ الدنيـا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ويقول : ﴿ ربَّنـا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً ﴾ (٢ : ٢٠١) ويقول : ﴿ هو الذي جَعلَ

لكم الأرضَ ذلولاً ، فامشُوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور﴾ (٦٧ : ١٥) ويقول : لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ : ٢١٩) ويقول : ﴿ ليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ (٢ : ١٩٨) أي في مواسم الحج كما قاله ابن عباس ، ويقول : ﴿ فاذا قضيتم الصلاةَ فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ﴾ (٦٢ : ١٠) أي بالتجارة والسعي كما رووه عن ابن عباس ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) ويقول ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) ويقول ﷺ : (يعمل بيده ، فينفع نفسه ويتصدق) ويقول ﷺ : (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه) ويقول ﷺ : (كان أصحاب رسول الله عُمالَ أنفسهم) ويقول ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو القائم الليلَ الصائم النهارَ) ويقول ﷺ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار باصبعيه السبابة والوسطى ، وأخيراً يقول : (في كل ذات كبد رطبة أجر)[1] .

وكيف يستطيع الانسان أن يسعى على الأرملة والمسكين ، ويكفل اليتيم ، ويتصدق على ذي الكبد الرطبة إذا لم يكن ضارباً في الأرض أو عاملاً من عمال الحكومة ، أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً أو محامياً أو طبيباً أو مهندساً أو حائكاً أو نحو ذلك ؟!؟!؟!

دين الاسلام ، الذي هو دين يوسف أيضاً — متصل بشؤون المسلمين الدنيوية ، كما هو متصل بشؤونهم الاخروية .

من هنا كان « الاسلام » دين عقيدة وعبادة وحُكم ، دين قضاء وإمامة

(١) هذه الاحاديث الثانية كلها رواها البخاري في صحيحه .

وجهاد دفاعي ، دين سياسة شرعية ، دين علم وفنون ، دين أعمال أخروية وأعمال دنيوية ، أعمال روحية ، وأعمال جثمانية ، أعمال شخصية ، وأعمال اجتماعية ، دين ضبط وربط ، وأمر ونهي ، وإقامة حدود وتعازير ، دين معـاملات مع الخالق ، ومعاملات مع المخلوق ، دين يشمل بتـدابيره جميع ماعلى وجه الأرض ، ويشمل بعقائده ما فوق السموات وتحت الأرضين ، دين ينظم شؤون القلوب ، بما فيه من « علم أخلاق » ، وينظم شؤون الجوارح ، بمـا فيه من « علم أعمـــال » ، وينظم الجمـاعات بما فيه من « علم اجتماع » ، وبالجملة : يعلم الانسان كل مايلزم له في دنيـاه وأخراه ، ويحض على السعادة المالية ، كما يحض على السعادة المآلية ، و «لأنْ يترك الانسان المال لألد أعدائه بعد مماته ، خير من أن يحتاج لأعز أصدقائه في حياته .

قال الحجـاج بن يوسف ، لحريم الناعم : « ماالنعمة ؟ » — قال : « الأمن ، فاني رأيت الخـائف لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالصحـــة ، فاني رأيت المريض لاينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالغنى ، فاني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش » — قال له : « زدني » — قال : « فالشباب ، فاني رأيت الشيخ لاينتفع بعيس » قال له « زدني » — قال : « ماأجد مزيداً » :

هـذا هو دين الاسلام ، الذي هو دين جميع الانبياء من لدن آدم الى فخر الوجود ، عليه وعليهم الصلاة والسلام ، خلافاً لمـا يوجد عند متصوفة الهندوس ، ومتصوفة النصارى ، ومتصوفة الاسلام ، أقول : « متصوفـة الاسلام » ولا أعني المتصوفة الحقيقيين الذي يتطبق تصوفهم على الشرع ، ولكني أعني جهلتهم فقط .

التزهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية

إن كل من يقرأ في « البشائر الأربع » من التزهيد والبراءة من الدنيا ، ليس هو الشريعة المسيحية ، وانما هو تتميم لشريعة « الناموس العتيق » ، وتلطيف لها ،

وتشذيب لأطماع اليهود وتكالبهم على الدنيـــا ، ولذلك روي عن المسيح انه قال : « إنما جئت لأتمم » ، فالناموس العتيق لم يذكر الآخرة — على ذمة أسفاره المطبوعة — بل اقتصر على ثواب الدنيا ، ولم يذكر ملكوت الأخيار ، ولا جهنم الاشرار ، بل انما خوف الناس ، إذا خالفوا الأوامر بمصائب الدنيا وعاهاتها ، وكذا لم يذكر شيئاً من قواعد الزهد والقناعة والرقائق القلبية ، واللطائف الروحية ، فجاء المسيح ذاكراً لكل ذلك ، ومتمماً لمواضيع التوراة بذكر مقابلها ، وملطفاً لحرص وطمع وشراهة اليهود ، وبذلك كان مجموع « العهدين » — التوراة والانجيل — كتاباً واحداً ، كما نطق القرآن الكريم (٢ : ١٠٥ و ٤ : ١٣٥ و ٦ : ١٥٦) الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة في القرآن الشريف .

انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية

وأخيراً وبالنتيجة ، كل من أبدى ههنـا انتقاداً على يوسف الصديق في طلبه وزارة المالية ، فليعلم أن انتقاده ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية وسماحتها ، ولكن على تلك التعاليم الاخرى المبتدعة ، التي لا يعترف بها القرآن ولا السنة ولا الاجماع ولا عمل السلف الصالح ، الذين كانوا « عمال أنفسهم » .

كل حرفة مهما كانت منحطة في أعين النـاس ، لا يمكن أن تكون أحط من عيشة المتكل على غيره ، فكيف لو كانت خدمة في « البلاط » ؟ ولهـذا فإننّا نحبذ طلب يوسف من مليك الديار المصرية أن يجعله على خزائن الأرض .

حبذا الطموح الشريف إلى العلا ، حبذا سعي الإنسان في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل مايزيد بعد ذلك عن حاجاته العادية ، فيما يعود على هيئة المجتمع بالفائدة .

ليس المانـع من اهتمام الشرقي اليوم قناعة في النفس وزهـد في الأموال ،

ورغبة عن زخارف الدنيا ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لما وجد أحد حاسداً غيره على نعمته ، ولا ناظراً إلى غني نظراً شذراً ، والشرقيون كلهم بين شاك ومشكو من هذه الحال ، فالشرقي إذن طماع كغيره ، وليس عنده من الزهد ماليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ، ولا ينشط لعمل فيه رزقه ، فهو إذن يحب أن تمطره السماء ذهباً ، وأن تنبت له الأرض فضة ، يحب أن يكون أغنى الناس على شرط أن لا يتعب جسمه ، ولا يجهد فكره .

حب المال ليس مذموماً لذاته ، ولكن لكونه يشغل عن الآخرة ، وكيف يكون مذموماً لذاته ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان ، وهو تعالى ينهى عن الاسراف والتبذير في انفاقه ، كما ينهى عن البخل به ، وقد امتن على نبيه بأنه وجده عائلاً ، أي فقيراً فأغناه ، وجعل المال قواماً للامم ، ومعززاً للدين ، ووسيلة لاقامة ركنين من أركانه ، ومن أعظم أسباب التقرب اليه تعالى وفي الحديث الشريف : (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي) رواه مسلم في صحيحه ، فليس المال مذموماً لذاته في دين الله ، ولا مبغضاً عنده تعالى على الاطلاق ، كيف وقد شرع لنا الكسب الحلال ، وهدانا إلى حفظ المال ، وعدم تضييعه ، وناهيك بآية الدين التي ذكر الله فيها تسع مؤكدات ، وفيها خمسة عشر نهياً وأمراً ، وقد أرشدنا تعالى إلى اختيار الطرق النافعة في إنفاقه ، أن نستعمل عقولنا في تصرفها ، ونوجه إرادتنا إلى العمل بخير مانعرفه منها ، قال تعالى : ﴿ ولا تُؤتوا السُّفهاءَ أموالَكُم التي جعلَ اللهُ لكم قياماً ﴾ (٤ : ٥) ، أي تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم ، وفي الحديث الشريف : (نِعِمَّا المالُ الصالح للمرء الصالح) ، رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح .

فماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم ، حتى صرنا أفقر

الأمم ؟ وماذا جرى لتلك الأمم التي يقول كتابها الديني : (الحق أقول لكم : إنه يعسر دخول غني إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله) (مت ١٩ : ٢٣ و ٢٤) ويقول : (لايقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لاتقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون) (مت ٦ : ٢٤ و ٢٥) ، ويقول : (لاتقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه) (مت ١٠ : ٩ و ١٠) ، ويقول : (تأملوا الغربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يقيتها ، كم أنتم بالحري أفضل من الطيور ؟ . . فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا . . . بل اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزاد لكم) (لو ١٢ : ٢٢-٣١) .

فماذا جرى للامة ذات هذه الأقوال ؟ . ماذا جرى لها في دينها ؟ حتى صارت أبرع الخلق في فنون جمع الثروة ، وسادت بالغنى جميع أمم الأرض ؟ وكيف جاز أن يسمى مانحن عليه (مدنية إسلامية) مع مخالفتنا للقرآن والحديث في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية ؟ وكيف جاز أن تسمى مدنيتهم (مدنية مسيحية) مع مخالفتها لتعاليم دينهم من المبالغة في الزهد وبغض المال ؟

والجواب عن ذلك واضح ، وهو انهم نبذوا تعاليم كتابهم وأخذوا بما في كتابنا ، كما أننا بالعكس تركنا تعاليم كتابنا وأخذنا بما في كتابهم ، وقد أثرت علينا تأثيراً سيئاً أقوال الجاهلين ، الذين لبّسوا علينا بلباس الصالحين ، فنفثوا في الامــــة سموم المبالغة في التزهيد والاتكال ، والحث على إنفاق كسب الكاسبين عليهم ، وهم كسالى لا يكسبون ، لزعمهم أنهم بحب الله مشغولون !!

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ماتدر لها ثعل

صار هـذا ، حتى صار من المعروف المقرر ، عند جميع شعوب المسلمين ، إدرار المال والرزق على علماء الدين ، وشيوخ الطريق الصالحين ، فهم يأكلون مال الأمة بدينهم ، وإن ورد في حديث الصحيحين : « اليد العليا خير من اليد السفلى !! » .

هذا هو الذي تيسر لنا في هذه الوقفة والله تعالى أعلم .

(لافض فوك)

« قال اجعلني على خزائن الارض ... »

— ٩ —

واختتم البحث في تفسير هذه الآية الشيخ الصنعاني بالتعليقات التالية :

(اولاً ـ حدود تعاون المسلم مع غير المسلم)

نتعلم من طلب يوسف عليه السلام من الملك الريان الوثني ، أن يجعله على خزائن ، ليخدم المصريين ومن جاورهم ، جواز التعاون على دفع الشر أو فعل الخير مع غير المسلم ، أي يجوز للمسلم أن يطلب المساعدة من غير المسلم ويجوز للمسلم أن يساعد غير المسلم ، وهل يوجد مجال للخلاف في الاستعانة بالكتابي أو الوثني أو الملحد ، على إنقاذ الغريق وإطفاء الحريق وإقامة الجمل في الطريق ؟ كما أنه لا مجال للخلاف في جواز إعانة المسلم لغير المسلم وصلى الله على من قال : « في كل كبد حرا صدقة » .

(ثانياً ـ خضوع المسلم لغير المسلم)

لا يبيح دين الاسلام للمسلم أن يكون تحت رعاية غير المسلم في غير ضرورة ،

قال تعالى : ﴿ ياأيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ والرسولَ وَأُولي الأمرِ منكم ﴾ (٤ : ٥٨) ، فهذه الآية تفيد أنه لايجوز لنا الخضوع لغير المسلم ، وقال تعالى : ﴿ ولَنْ يَجْعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً ﴾ (٤ : ١٤٠) ، والمراد كما هو مقتضى الآية وروح سبكها أن الله تعالى لن يجعل من أحكامه الشرعية السماوية مايبيح للمؤمنين أن يخضعوا لأحكام الكافرين ، ويستكينوا لسلطانهم وسيطرتهم ، فان تقبلوا أحكامهم ، ورضوا بسلطانهم ، فإنهم إذن هم الذين جعلوا للكافرين سبيلاً على أنفسهم ، خلافاً لشريعة الله تعالى : هـــذا هو الحكم عندنا في دين القرآن وسياسته ، ولكنه مقيد بحالة الاختيار ، وأما في حالة الاضطرار فهو جائز .

إذا علمت هذا فلعل يوسف الصديق عليه السلام رآى نفسه مضطراً أن يكون تحت سيطرة غير المؤمنين ، لأنه كيفما مكث في مصر ، سواء كواحد من الرعية ، أو على خزائن الأرض ، فهو على كل حال تحت سيطرة مليك مصر الوثني ، ثم لو أراد الرجوع لفلسطين ، فسيكون أيضاً تحت حكومة « أبيمالك » ملك فلسطين الوثني ، وإذا أراد الرحلة لدمشق ، لزم كذلك أن يكون خاضعاً لحاكمها الوثني ، وهكذا الحال في العراق ، بلاد الصابئة ، فيوسف الصديق على كل حال وفي أي بلد لا بد له أن يخضع لحكومة وثنية ، كل الجالسين على كراسيها وثنيون ، لكنه إن تغلب باقتداره أن يكون حائزاً على كرسي فيها يكون قد خفف شيئاً من وطأة المشركين ، وشغل كرسياً من كراسيها برجل مسلم موحد ، هذا هو الجواب عن خدمة يوسف عليه السلام لتلك الحكومة الوثنية ، ثم ربما كان هذا جائزاً في شريعة العبرانيين الابراهيمية ، وكفى بإقدامه على ذلك برهاناً على جوازه ، والله أعلم . (جيد)

(ثالثاً ـ موالاة المؤمن لغير المؤمن)

لو سأل سائل : كيف يجوز ليوسف المؤمن أن يكون تحت سلطة « الريان »

بحيث يكون مواليا له ، وهو وثني ، وقد قال تعالى : ﴿ لا يتخذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دونِ المؤمنينَ ، ومَنْ يفعلْ ذلك ، فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ ، إلا أنْ تتقوا منهم تقاة ﴾ (٣ : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ (٥ : ٥٠) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، لا تتخذوا عدُوِّي وعدُوَّكم أولياءَ ، تُلقُونَ اليهم بالمودةِ ، وقد كفروا بما جاءَكم مِنَ الحقِّ ، يُخرِجونَ الرسولَ وإيَّاكم ، أنْ تُؤمِنوا باللهِ ربِّكم .. ﴾ الخ (٦٠ : ٩) ، فان هذه الآيات ، تشترك في النهي عن موالاة الكافرين ، وتدل على أنه لا يجوز للمسلمين أن ينفقوا معغيرهم ، ولا يوادوهم ، ولا يوالوهم ، وقال تعالى: ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولهُ ولو كانوا آباءَهم ﴾ (٥٨ : ٢٢) .

فنجيبه عن ذلك : أما عن الآية الأولى ، فإن الاتفاق إذا كان لمصلحة المسلم فهو جائز ؛ فقد كان النبي ﷺ حالف « خزاعة » وهم على شركهم ، كما أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من الطائف لم تمكنه قريش من دخول مكة ، لما علموه من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ، فأرسل عليه السلام الى « المطعم بن عدي » يخبره انه سيدخل مكة في جواره ، فأجابه الى ذلك ، ودخل مكة في جوار « المطعم » وهو مشرك ، فاذا جاز هذا للنبي ﷺ ، جاز بالأولى ليوسف عليه السلام أن يكون من وزراء « الريان » المشرك ، وعن « قتادة » هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الانسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه ، واذا علم نبيٌّ أو عالم انه لا سبيل الى الحكم بأمر الله ورفع الظلم الا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقد صح في الحديث أن كَعْب بن عُجْرَة (ض) كان يخدم عند يهودي مستقية كل دلو بتمرة ، وكان ذلك باطلاع النبي (ﷺ) واقراره .

وعلى ذلك يكون معنى الآية الأولى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء تقدم فيه مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين ، « والاتخاذ » يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين ؛ وبعبارة أخرى : هذا « الاتخاذ » لايحرم الا إذا كان ضد المؤمنين ، كما قال : « من دون المؤمنين » .

وأما عن الآية الثانية ، فالمحرم إنما هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من حيث هم يهود ونصارى ، أي ولاية دينية ، وأما صحبتهم لأمور دنيوية معاشية ، فـــلا مانع منهـا .

وأما عن الآية الثالثة ، فالموادة مشاركة في الاعمال ، فان كانت في شأن من شؤون الدين ، فيه خذلان له ولاهله ، أو إضاعة لمصالحهم ، فهو حرام ، وليس هذا المعنى موجوداً هنا ، وأما إن كان في شأن من شؤون التجارة والمناصب وغيرها من المعاملات الدنيوية ، فلا تدخل في ذلك النفي ، لانها ليست معاملة في محادة الله ورسوله ، وأيضاً فهذه الآية ، إنما تفيد النهي عن موالاة أعـــداء الله ورسوله ، وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفراً حملهم على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم ، لأنهم مؤمنون بالله ، وأما هنا ، فالأمر بالعكس ، فإن الريان بدلاً من أن يخرج يوسف من مصر ، فقد قربه اليه ، ثم سمح بمجيء أهله جميعاً من فلسطين وسكناهم في مصر في الشرقية .

وحجتنا على صحة هذا التأويل ، ورائدنا في هذا الموضوع ، قوله تعالى : ﴿ عسى اللهُ أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عادَيتم منهم مَودّةً ، واللهُ قديرٌ ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ ، لاينهاكُمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ ، ولم يُخرِجوكم مِنْ ديارِكم أنْ تَبرّوهم وتُقسِطوا اليهم ، إنّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطين ، إنّما يَنهاكم اللهُ عن الذين قاتَلوكم في الدين ، وأخرجوكم مِنْ دِيارِكم ، وظاهَروا عـــلى

إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (٦٠:٧-٩)
فالقرآن الكريم يرجو تجدد المودة بين المؤمنين والمشركين، ولا ينهى عن البر والقسط إلى المشركين الذين لم يقاتلوا المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ونراه أخيراً يؤكد حصر النهي في الذين حاربوهم حرباً دينية، وأبعدوهم من ديارهم، وساعدوا على إبعادهم عنها، ومع كل ذلك تراه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم، لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل!! فماذا على يوسف عليه السلام من اتفاقه مع الريان للمصلحة؟ وماذا عليه من صحبته له لامور دنيوية معاشية؟ وماذا عليه من موادته له إذ أخرجه من سجنه وقربه لديه؟ وماذا عليه في بره وإقساطه اليه؟ اللهم إن هذا كله جائز لا حرج فيه.

(رابعاً – ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته)

الفريدة الثانية — إنه لأمر معلوم أن يوسف عليه السلام لم يكن له سابقة خدمة في دار الحكومة، وإنه لأمر معلوم أن يوسف غريب الدار ليس وطنياً، وقد كان عبداً مملوكاً عند «فوطيفار»، وقد اعتقل لاتهامه بجريرة سافلة، فارتقاؤه لمنصب «وزارة المال» و «عزيزاً» لمصر، مع هذه الاحوال التي أحاطت به يعد من المدهشات، وقد يسمون هذا النوع فلتة من فلتات الطبيعة. أو أعجوبة من أعاجيب الايام، أو شاذة من شواذ القاعدة، ولكننا نحن لا نسميه بشيء من هذا القبيل، بل ندعوه قضاءً وقدراً، أو نتيجة إرادة سماوية قاهرة، وقدرة الهية باهرة، تغلبان كل الارادات والقدر، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إنما أمره لشيء إذا أراده أن يقول له «كن» فيكون، فالله الذي أسجد له كواكب السماء، وأوحى اليه في أحرج الاحوال انه سينبئ إخوته بما فعلوه معه والله الذي سخر له التجارة ليخرجوه من الجب، والله الغالب على أمره، والله

الذي لما بلغ أشده آتاه حكماً وعلماً ، والله الذي خلق له من عدوه « زليخا » ولـيّاً مزكياً مدافعاً ، والله الذي سخر له قلب مليك مصر ، فطلب الإتيان بـه من سجنه ليستخلصه لنفسه ، هو الذى منّ عليه بهذا المنصب الكبير ، وأقـدره أن يدبره بأحسن تدبير .

هذا ما ينبغي أن يذكر عند الكلام على هـــذه الآية ، ويذكر فريق من المفسرين ههنا ما يعد هو وأمثاله من أسباب الجمود في الاسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم الشرقيين .　　(لافض فوك ياأستاذ)

تمكين يوسف عليه السلام

آ(٥٦) ﴿ . . . وكذلكَ مَكَّنا لِيُوسفَ في الأرض ، يَتَبَوَّأُ منها حَيْثُ يشاء ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نشاء ، ولا نُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِين ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والخمسون فقام الاستاذ السلفي البُريدي[١] وقال :

يقول الله تعالى في حق يوسف (م) : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك التمكين الطاهر ﴿ مكنا ليوسف في ﴾ جميع ﴿ الارض ﴾ التي كانت مستعمرة ومملوكة للهكسوس ، من أصل المملكة المصرية ، وذلك هو « الوجـه البحري » وجزء من « الوجه القبلي » الى منتهى بلاد « الشرقية » ، فيوسف تمكن في هـذه الارض ،

(١) نسبة الى بلدة بريدة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية .

وكان النجاح في أعماله ألصق به من ظله ، وأسرع اليه من الماء الى منحدره ، وكان هذا التمكين عاماً بحيث ﴿ يتبوأ منها ﴾ بعد الحبس والضيق والإسار ، أو بعد أن كان لايتصرف إلا في أرض سيده بوطيفار خاصة ﴿ حيث يشاء ﴾ ، أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوءاً له لم يمنع منه ، لاستيلائه على جميعها، ودخوله تحت نفوذه وقهره ، فكان هو الكل في الكل ، وهو الآمر الناهي ، في كافـــة مرافق الحياة ، وكان هـذا هو عصره الذهبي الذي دام له لآخر حياته ، وعند ذلك نبي يوسف فلسطين واخوته ، ﴿ نصيب برحمتنا ﴾ بعطائنا في الدنيا من الملك والوزارات والغنى وغير ذلك من النعم ﴿ من نشاء ﴾ جرياً على سنة (تنازع البقاء واختيار الأحسن) ، فدائرة رحمتنا مرنة ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، تسع كل خليق بها ﴿ ولا نضيع ﴾ في الدنيا ﴿ أجر المحسنين ﴾ كيوسف ، فهو خليق بالأجر العظيم ، فتمكيننا إياه ، وإصابتنا له بهذا النوع من الرحمـــة الخاصة ، هو بسبب إحسانه السابق ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية ، و (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ؟..) ، فنحن قطعياً لانضيع أجر أي محسن كان ، من السابقين الأولين ، واللاحقين الآخرين ، موقفنا واحد ، ووضعيتنا واحدة ، مع يوسف وغيره ، برنامج ثابت لمجازاة كل محسن لا يتبدل ، ولن يتبدل .

(وكذلك مكنا ليوسف في الارض ...)

— ٢ —

وقال الشيخ احمد من علماء الرياض (١):

نستخلص من هذه الآية الكريمة الجواهر التالية .

تمكين يوسف الخاص والعام

(١) — كان تمكين يوسف في الأرض ، ينمـــو شيئاً فشيئاً على حسب

(١) الرياض بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية .

الطبيعة ، فكان أولاً تمكيناً خاصاً ، بزمن محدود وأمكنة محدودة ، وبالوكالة عن « العزيز » وهذا هو المذكور في قوله تعالى سابقاً : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ولكن هذا التمكن عقبه اضطراب وتقلقل عندما حبس يوسف ، فلم يدم ، ثم لم يكن عاماً وواسعاً ، كما أنه لم يكن إلاّ مستعاراً من جاه العزيز ، لأن العوام يقولون : (نَفَس العبد من نَفَس سيده) وهذا كله بخلاف التمكين الثاني المذكور هنا في هذه الآية ، فإنه تمكين عام مطلق في جميع الأزمنة والأمكنة وبالاصالة ، فأما عمومه لجميع الأمكنة فلقوله تعالى : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ وأما كونه بالاصالة ، فلأن يوسف صار عزيزاً بمصر ووزير مالية فيها ، عوضاً عن فوطيفار ، وبهذا تعلمون أن لفظ « الارض » مرن كالمطاط يقبل التضييق والتوسعة ، فكلمة « الارض » في سابق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ربما كان معناها أرض عزيز مصر ، وكلمة « الارض » في لاحق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في في الارض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ (ع ٥٦) معناها عموم الارض الداخلة في المملكة الهكسوسية .

تقدير الملوك الاقدمين للناس بحسب مواهبهم

(٢) — نتعلم من هذه الآية ، أن الملوك الأقدمين ـ ومنهم الريان ـ كانوا يقدرون الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لا بحسب أنسابهم وأموالهم ، وإلا فيوسف عليه السلام لا يزيد في نظرهم عن أنه عبد لفوطيفار ، اشتراه بدراهم معدودة ، وأنه فتى غريب غامض النسب ، ليس وطنياً ، وأنه من بلاد تعد في نظرهم بادية ، وانه ليس له سابقة في خدمة الحكومة ، ولكن رغماً عن ذلك كله ، عين وزير مالية بمصر وعزيزاً لها ووكيلاً عن مليكها .

تزكية انتصار يوسف

٣ — نحن نعلم أن يوسف عليه السلام بخروجه من السجن كان قد انتصر انتصاراً باهراً، واليوم جاء جلوسه على كرسي الوزارة تزكية لهذا الانتصار ومتماً له.

كيف ان اخبار يوسف لم تصل لابيه

٤ — إن قال قائل، أو سأل سائل: لاريب أن يعقوب عليه السلام كان من الأنبياء المشهورين، وكذلك كان أبوه إسحاق، وجده إبراهيم، وعم أبيه إسماعيل، وابن عم جده لوط، وعليه فيعقوب عليه السلام، من أصحاب الصور البارزة، وحائز على الشهرة الشخصية والعائلية، ولا بد أن هذه الشهرة لما تجلت في «العراق» و«سورية» و«فلسطين»، كانت أيضاً فيما جاور فلسطين من الديار المصرية، كما أنه قد اشتهر في أهل مصر، وجميع مملكتها أنّ «الريان» ابن الوليد أسند مأمورية «خزائن الأرض» لعبد عبراني فلسطيني من سلالة يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم المشهورين بمصر كسواها، وأن ذلك العبد صار «عزيز مصر» و«وكيلا» عن مليكها، وقد فوض اليه أمور الخاصة والعامة، فهذه الحقيقة الواقعة أصبحت أمراً مشهوراً معروفاً عند الخاص والعام. لايقبل الخفاء والكتمان، ولم يعرفه المصريون فقط، بل والممالك المجاورة والبلاد المحادة لمصر، لاسيما فلسطين التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وأنساله، وإذا لم يكن هذا الحادث قد اشتهر وعرف عند أهل فلسطين قبل سنيّ الجوع، فلا بد أن يكون قد عرف أيام سنيّ الجوع بسبب رود القوافل الممتارة ذهاباً واياباً، من فلسطين لمصر، بل قد أثبت لنا التاريخ، ان القوافل كانت تسير من فلسطين لمصر، وأنه كانت التجارة مشهورة ومتبادلة بين البلادين، فاذا تقرر

هذا ، فكيف أن هذه الأخبار الشهيرة لم تصل ليعقوب عليه السلام وهو وعشيرته مشهورون بمصر ، وهم جيران مصر وعلى حدودها ؟ ! ؟ ! ! ؟ ! . . . قلنا : إن هذا السؤآل عظيم ، وله شأنه عند المفكرين المستقلين ، ولكن يوجد قاعدة كونية عجيبة جداً ، ومسلمة عند العموم ، وهي أن الخبر يصل إلى ظاهر أذن صاحبه ويقف ، ولا يدخل فيها ، وهـذا مجرب ومعهود ، فكثيراً ماتحدث حوادث تكون معروفة عند الجمهور ، ولكن عند من لهم مساس وعلاقة بها هي غير معروفة ولا مسموعة ، بناء على هذه القاعدة الكونية المذكورة ، التي لم يوقف لليوم على علتها ، والله تعالى في خلقه شؤون .

الانتصارات التي فاز بها يوسف

٥ً ـ كان ماحصل ليوسف عليه السلام من قبيل انتصار العلم على الجهل ـ لأن يوسف بعلمه رقي للعلا ، خلافاً « للملأ » الذين بجهلهم سقطوا في هاوية الخذلان ومن قبيل انتصار الحياة على الموت ـ لان يوسف كان بذلك هو السبب الوحيد في استخلاص المصريين من الهلاك ، ومن قبيل انتصار التوحيد على التوثن ـ لان يوسف بواسطة ذلك حصل على قوة بها بلغ دينه ودين آبائه ، ومن قبيل انتصار العبد على السادة ، وانتصار الذكاء على البلادة ، وأخيراً من قبيل انتصار التدابير السماوية على التدابير الارضية .

المراد بتمكين يوسف في مصر

٦ً ـ قوله : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ ، حيث فوض الامر اليه ، وأطلقت يده في مصر ، لان ملك مصر إذ ذاك ـ كباقي ملوكها ـ كان قليل الظهور للعامة ، إلا عند الاقتضاء ، إظهاراً لعظمة الملك ورهبة السلطان ، كما يزعمون.

أن « هرون الرشيد » كان يجلس في الإيوان ، وفي وسطه ستر من الحرير الصيني معلق عرضاً بين الحائطين ، يحجب الخليفة عمن يجالسه ، على العادة في مجالسة الملوك يومئذ ، إلا من اختار الملك تقديمه ورفع الستار بينه وبينه ، من أهله وخاصته [١] .

تمكين يوسف في مصر سبعين عاماً

٧ً — مكن الله ليوسف في الارض بغير سلاح ولا كراع ، بحيث صار صاحب الحل والعقد ، والنقض والإبرام ، لانه أصبح أعلى وزراء الملك رتبة ، وآثرهم عنده ، وأنفذهم في البلاط ، وأشدهم سلطة في الديار المصرية ، كان هذا طيلة سبعين عاماً ، عاشها بعد الاربعين سنة التي أتت عليه سابقاً ، واجتاز فيها أزمات ، ومع هذا فقد كانت هذه الامجاد وتلك الافراح ممزوجة بما يدعوه للاسف والقلق ، وهو فراقه لابيه وأخيه ووطنه وذويه ، فكان ذلك يعترض مابه من غبطة وسرور ، فالسعادة في الدنيا لاتتم لاحد ما ، ولا سعادة حقيقية تامة إلا في النشأة الآخرة .

مصر في أيام يوسف وبعده

(٨ً) — هذا التمكن وهذا التبوء العام في أرض مصر ، ودورها وقصورها — كان في ذلك العصر ، مما يليق أن يتنى به ، لاسيما على رجل كان بالامس في السجن ، وكان قبله من رعاة الغنم ومن سكان البوادي ، ولكن مصر فيما بعد صارت جزءاً من أملاك الخلافة الفاروقية ، ثم صارت جزءاً صغيراً جداً من مملكة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ، وعن « الرشيد » أنه لما قرأ قوله تعالى : ﴿ ونادى فرعونُ

(١) المسعودي ج ٢

في قومِهِ : قال ياقوم : أليسَ لي مُلْكُ مِصرَ ، وهذه الانهارُ تجري من تحتي ، أفلا تُبصِرون ؟﴾ (٤٣ : ٥١) قال — أي الرشيد — : « لأُوَلّيَنّها أخسَّ عبيدي » ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر ، أنه وليها فخرج اليها ، فلما شارفها وقع عليها بصره ، قال: « أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أليس لي ملك مصر ؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها » ، فثنى عنانه ورجع (كشاف) .

رحمة الله واحسانه نصيبان جميع من يستحقهما

(٩ً) — نصيب برحمتنا من نشاء ، ولو كان من الدهريين والماديين ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولو كانوا من الجاحدين والوثنيين ، لأن هذا إنما يكون في الدنيا فكل من أتقن عمله وأحسنه ، أصيب برحمة الله ، من الأرباح العظيمة ، وكل من أحسن عمله ، أخذ الأجرة من إقبال الناس على مصنوعاته ، وتوجههم على مايصدر من عمله ، وكلما زاد إتقاناً وإحساناً ، زادت الناس فيه ثقة ، وزاد ربحه وشاع صيته ، وجَمُل ذكره ؛ وإنا لنأسف إذا غض الجمهور من الشرقيين عن احسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم ومعاملهم ، حتى لو شرعوا في إحسان شيء في البدء ، لم يثبتوا على ذلك دواماً ، فتراهم بعد قليل من الزمن يغيرون مصنوعاتهم ويدخلون فيها الغش ، فتتغير قلوب المشترين عنهم وينفرون منهم ويعاملون سواهم ، ومع الأسف إنا نرى الذين فازوا بذلك هم الغربيون ، فوفى الله بعدله للشرقيين حظهم من التأخر ، ووفى الله بفضله للغربيين حظهم من التقدم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم ، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

ملاحظة : هنا قال الرئيس الفلسطيني : « قد سمعتم أيها السادة مافاه به أخونا

الشيخ الرياضي ، وأما الحقير فلست أريد أن اعلق عليه شيئاً ، لأنني لم اكوّن حتى هذه الساعة رأبي الشخصي في هذا الموضوع ».

ثم تابع الشيخ الرياضي كلامه في اتمام الجواهر :

أجر المحسنين في الدنيا

(١٠ً) لا نضيع في الدنيا أجر المحسنين ، الذين يقصدون بعملهم وجه الله والذمة والضمير ، لأن الذي يبتغي الآخرة لايفوته حظ الدنيا ، وان مَثَله مثل الزارع الذي يبذر حبه في الأرض ، ويعمرها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لامحالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر الزرع .

احسان يوسف الذي استحق عليه التمكين والتبوأ في الارض

(١١ً) — إن قال قائل : ماهذا الإحسان الذي عمله يوسف حتى استحق أن يمكن في الأرض بحيث يتبوأ منها حيث يشاء ، قلنا إننا نعلم منه إباءه عن مواتاة تلك المرأة الساقطة ، وحفظه لمعروف سيده معه ، وقيامه بالدعوة إلى التوحيد ، وهو في سجنه ، إلى غير ذلك من أنواع إحساناته التي يعلمها الله تعالى ، وسيثيبه عليها في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مبدأ تبادل الاحسان

(١٢ً) — نتعلم من هذه الكلمة الفاذة الجامعة (لا نضيع أجر المحسنين) أن مبدأ التبادل مرعي شرعاً ، فقد أمرنا الله بالصلاة والصوم والزكاة ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة ، وقال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾.

ونتعلم من هذه الآية الشريفة أيضاً أن الله تعالى يثيب العبد على صالح عمله في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأنه تعالى جعل تمكينه ليوسف في الأرض من ثوابه إياه

في الدنيا على إحسانـــه ، ثم الثواب التام يكون في الدار الخالدة كما قال تعالى :
﴿ ولأجر الآخرة خير ...﴾ الخ

اجر المحسنين في الدنيا والآخرة

(١٣ً) — ولانضيع أجر المحسنين ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأن كلام الله تعالى ههنا مطلق ، ولكن الأجر في الدنيا إضافي مطرد في الامم ، إضافي غير مطرد في الافراد ، وأما في الآخرة فالاجر حقيقي مطرد للجميع ، ؛ ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ ، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإنْ كانَ مثقالَ حَبةٍ مِنْ خَرْدلٍ ، أتينا بها ، وكفَى بنا حاسِبين ﴾ (٤٧:٢١) و ﴿ فمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَةٍ خَـــيراً يَرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ درةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (٩٩:٧و٨) وهذا هو الدستور وكل ماأوهم خلافه مؤول .

صلة الملك الريان بيوسف

(١٤ً) — لابد أنه كان بين يوسف وبين الملك الريان ، مالم يكن بين مليك ووزير ، كان ذلك على تفاوت بينهما في المذهب ، فقد كان الريان وثنيـاً ، وكان يوسف بالطبع موحداً ، كما أن بينهما اختلافاً في الشعب ، فقد كان الريان عمليقياً عربياً ، وكان يوسف عبرانياً إسرائيلياً ، وليس هذا بنادر في نوعـه ، فإننا نتذكر من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، منهـا صحبة الكُمَيت للطِّرِمّاح ، وإخلاص أحدهما للآخر ، مع أن الكميت كان متشيعاً لبني هاشم ومضرياً ، وأما الطرماح فكان خارجياً متعصباً لأهل الشام وقحطانياً ، ولكن ذلك لم يمنع صداقة كل الآخر ، وربما كان الجامع بينهما صنعة الشعر ، كما أن الوظيفـة هي التي جمعت بين الريان ويوسف ، زد على ذلك أنهما ساميان ، بخلاف المصريين فحاميون ولا تنس إحسان الريان ليوسف بتخليته من الحبس وتحليته بالمنصب العظيم، ولذلك

سكن يوسف مصر وهو مطمئن الخاطر، قرير العين، منشداً بلسان الحال:

وكل امرىء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

اجر الدنيا واجر الآخرة

آ (٥٧) ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ للذين آمَنو وكانوا يَتَّقُونَ

ت الجلسة وتليت الآية السابعة والخمسون نقام الاستاذ السلفي العُنَيْزي (١) **وقال: يقول الله تعالى عز وجل:**

﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ بكثير جداً جداً ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كيوسف وأشباهه، فيوسف مأجور قطعاً في الدنيا والآخرة. والمؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق، فقوله يامر: ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ أي في الدنيا — هو حكم عام، يشمل المؤمن وغيره، ويعم التقي والشقي، بدليل التخصيص بقوله: ولاجر الآخرة.. الخ قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العاجلةَ عَجَّلْنا له فيها ما نشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثم جعلنا له جهنمَ يَصْلاها مذموماً مدحوراً، وَمَنْ أرادَ الآخِرةَ وسَعَى لها سَعْيَها — وهو مُؤْمِنٌ — فأولئكَ كانَ سَعْيُهم مشكوراً، كلاً نُمِدُّ هؤلاءِ مِنْ عَطاءِ ربكَ، وما كانَ عطاءُ ربك مَحظوراً، انظرْ كيفَ فَضّلْنا بعضَهم على بعضٍ، وللآخِرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ﴾ (١٧: ١٨—٢١) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ

(١) نسبة الى عنيزة بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية.

الدنيا نُؤتِه منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤتِه منهـا ، وسنجزي الشاكرين ﴾ (٣ : ١٤٥) ، أجر الآخرة خير من كل ما في الدنيا ، ولو كانت كنوز « قارون » (١) وصناديق « روكفلر » (٢) وخزائن « روتشليد » (٣) ،
والآن لنا على هذه الآية الكريمة التعليقات الآتية :

الآخرة لغة واصطلاحاً

التعليق الأول — الآخرة آخرتان ، الآخرة المعروفة المقابلة للدنيا ، وهي المعبر عنها باسم « يوم القيامة » و « يوم الدين » ونحوهما ، والآخرة بمعنى المدة الأخيرة من عمر الانسان في الدنيا ، وهي التي ربما يعبر عنها بلفظ « العاقبة » ونحوه ، وعلى كل حال ، فالآخرة بقسميها خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ، ومن المحتمل للمعنيين ما في مثل قوله تعالى : ﴿ أمْ للانسانِ ماتَمَنّى ؟ فلهُ الآخِرةُ والأولى ﴾ (٥٣ : ٢٥) وقوله تعالى : ﴿ ولَلآخرةُ خـــيرٌ لك من الأولى ﴾ (٩٣ : ٤) ، قال « علي وفا » : (معناها وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة) ، وقوله تعالى : ﴿ لهُ الحمدُ في الأولى والآخِرةِ ﴾ (٢٨ : ٧٠) وقوله تعالى : ﴿ فأخَذهُ اللهُ نكالَ الآخِرةِ والأولى ﴾ (٧٩ : ٢٥) ، فهـذه أمثلة يحتمل استعمال لفظ « الآخرة » فيها في المعنى اللغوي وفي المعنى الاصطلاحي ، وأما لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿ فاذا جاء وعْدُ الآخـــرةِ ﴾ (١٧ : ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ ماسمعنا بهذا في المِلّةِ الآخرةِ ﴾ (٣٨ : ٧) فهو مستعمل في المعنى اللغوى قطعاً ، كما أن لفظ الآخرة في مثل قوله تعـــالى ﴿ وبالآخرةِ هم يُوقِنُون ﴾ (٢ : ٣) ، هو مستعمل في المعنى الاصطلاحي قطعاً ، فتدبر ، فان لـكل مقام مقالاً .

---

(١) هو قورح التوراة (٢) اميركي اغنى اغنياء العالم قاطبة (٣) من اغنياء اليهود في العـالم .

ثواب الجنة جسماني وروحاني

التعليق الثاني — دار الآخرة هي دار المثوبة والعقوبة ، فدار المثوبة الجنة ، ودار العقوبة النار ، وقد جُعل في الجنة نوعان من الثواب ، نوع من اللذائذ الجسمانية كما قال تعالى: ﴿وبَشِّر الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أنَّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتِها الانهارُ ، كلما رُزِقوا منها من ثَمَرةٍ رِزْقاً ، قالوا : هذا الذي رُزِقْنا مِنْ قبْلُ ، وأُتوا به مُتَشابِهاً ، ولهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرةٌ ، وهم فيها خالدون﴾ (٢ : ٢٥) ونوع روحي ، وهو رضا الله والقرب منه ، قال تعالى : ﴿يا أيتُها النفسُ المُطْمَئِنَّةُ ، ارجِعي الى ربكِ راضيةً مَرْضيةً﴾ وقال تعالى: ﴿لهم دارُ السلام عندَ ربِّهِمْ ، وَهوَ وليُّهم بما كانوا يَعْمَلونَ﴾ (٦ : ١٢٧) ويجمع النوعين قوله تعالى : ﴿قل أؤُنَبِّئُكم بخيرٍ من ذَلِكُمْ ؟ لِلذين اتقَوْا عندَ ربِّهم جناتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، وأزواجٌ مُطهرةٌ ورِضوانٌ من اللهِ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد﴾ (٣ : ١٥) وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، ومَساكنَ طَيِّبةً في جنات عَدْنٍ ورِضوانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ، ذلكَ هو الفوزُ العظيم﴾ (٩ : ٧٣).

حظ المؤمن في الآخرة أرقى منه في الدنيا

التعليق الثالث — هذه الآية جارية على قاعدة «تنازع البقاء واختيار الأحسن» في الآخرة ، كما في الدنيا ، قال تعالى : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ، فالمؤمن التقي في الآخرة ، هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا ، فمثلاً : يوسف الذي هو موضوع الحديث ، لئن كان قد تبوأ من خريطة مصر حيث شاء ، فلعمري سوف يتبوأ من خريطة الجنة أعظم وأعظم .

اجر الآخرة مادي وروحي

التعليق الرابع — تعليقاً على قوله ﴿ ولاجر الآخرة ﴾ ، أجر الآخرة قسمان: مادي وروحي ، فأما المادي ، فهو معلوم وهو للعوام ، وأما الروحي فهو للخواص وسبحان من أشار اليه بقوله : ﴿ وقال لهم خَزَنَتُها : سلامٌ عليكم ، طِبْتُم ، فادخلوها خالدينَ ﴾ (٣٩:٧٣) ، فالسلام ، أي الامن ، هو في نظر كل عاقل ، أقصى أماني المرء ، وأعظم الملاذ قاطبة ، وجل من قال : ﴿ ونَزَعنا ما في صُدُورِهم مِنْ غِلٍ ، إخواناً ، على سُرُرٍ مُتَقابلينَ ﴾ (١٥:٤٧) ، وأيّ رذيلة أخبث من الغل ، مصدر المحن والمصائب ، والنقم والآفات ؟ وأيّ شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟ وأيّ دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل الى الملاذ ، من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقدع عن مآربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الاوطار والرغبات ، وسبحان من قال: ﴿ وأما الذين ابيضَّتْ وُجُوهُهم ، ففي رحمةِ اللهِ ، هم فيها خالدون ﴾ (٣:١٠٧) .

اجر يوسف في الآخرة أجل مما كان له في الدنيا

التعليق الخامس — يخبر تعالى في هذه الآية ﴿ ولاجر الآخرة .. ﴾ الخ أن ما ادخره لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة ، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، وهذا كقوله تعالى في شأن سليمان : ﴿ هذا عطاؤنا فامنُنْ أو أمْسِكْ بغير حساب ، وإنّ له عندنا لزُلفى وحُسْنَ مآبٍ ﴾ (٣٨:٣٩و٤٠) ، وكقوله تعالى في شأن المهاجرين الذين يصح أن يعد منهم يوسف : ﴿ والذينَ هاجروا في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا ، لَنُبَوِّئَنَّهم في

الدنيا حَسَنةً ، ولَأجرُ الآخرةِ أكبرُ ، لو كانوا يعلمون ﴾(١٦ : ٤١).

الإخلاص يكون بالإيمان والعمل الصالح

التعليق السادس — جمع في هذه الآية بين الايمان والتقوى ، كما جمع في آيات كثيرة ، بين الإيمان وعمل الصالحات، إشارة الى أن الانسان لا يخلص إلا بالإيمان والتقوى ، وبعبارة أخرى ، بالإيمان والعمل الصالح ، خلافاً لكتب النصارى ، ليس للاعمال فيها قيمة ، ولا أجرة مطلقاً ، قال بولس في رسالته الى أهل رومية: (أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة ، بل على سبيل دين ، وأما الذي لا يعمل ، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر ، فإيمانه يحسب له براً) (رو ١٤ : ٤ و ٥) ، والله يقول في القرآن المجيد : ﴿ ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيِّينَ ، وآتى المالَ (على حُبِّهِ) ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقاب ، وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والموفونَ بعهدِهِم إذا عاهَدوا ، والصابرين في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ ﴾ (٢ : ١٧٧) .

واجتهد بولس في احباط الاعمال ، حيث ذكر أن أعمال الناموس تحت لعنة، وأنه لا يتبرر أحد عند الله بالناموس ، وأن الناموس لا لزوم له ، بعد مجيء المسيح (غلاطية ٣ : ١٠ – ١٣) ، مع أن المسيح نفسه يقول : (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الانبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل) (مت ٥ : ١٧) ولكن المسيحيين عملوا بكلام بولس ، فتركوا التوراة وأحكامها بالمرة ، وقد أباح لهم الرسل جميع المحرمات ، ماعدا أربعة : الزنا والدم المسفوح والمخنوق والمذبوح للأصنام (أع ١٥ : ٢٨ و ٢٩).

يوسف النبي والرسول

التعليق السابع – كان يوسف بمصر نبياً ورسولاً ، وكان أهل مصر كفاراً وثنيين ، ولكنه لم يمكنه أن يفعل معهم كل مايعرفه من دين الاسلام ، فإنه دعاهم الى التوحيد والإيمـــان ، فلم يجيبوه ، قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ مِنْ قبْلُ بالبَيِّناتِ ، فما زِلْتُمْ في شكٍّ مِمّا جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتُمْ ، لنْ يبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف بلغ الرسالة ، ولكن المصريين لم يؤمنوا به ، بل كانوا في شك مما جاءهم به ، ولكنه هو أدّى الامانة ، ونصح لله واتقى الله ماستطاع .

الجزاء يكون على الايمان والعمل معاً

التعليق الثامن — نعلم من قوله : ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ومن أمثاله مما لايحصى قاعدة مهمة في الدين ، وهي أن الجزاء إنما يكون على الايمان والعمل معاً ، لأن الدّين إيمان وعمل ، ومن الغرور أن يظن المنتمي لدين نبي من الانبياء أن يكون ناجياً بمجرد الانتماء ، ومما يشهد لذلك ماحكاه الله لناعن بني اسرائيل من غرورهم بدينهم ، وماردّ به عليهم ، حتى لانتبع سنتهم فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا:لَنْ تَمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودةً ﴾ ، — قُلْ : أتّخذْتم عنـدَ اللهِ عهداً ، فلَنْ يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ ، أم تقولون على اللهِ مالاتعلمون ؟ بـلى مَنْ كسَبَ سيّئةً وأحاطتْ به خطيئتهُ ، فأولئك أصحابُ النارِ هم فيهاخالدون ، والذينَ آمنُوا وَعمِلوا الصالحاتِ أولئك أصحابُ الجنةِ ، هم فيها خالدون ﴾ (٢: ٨٠—٨٢) ، وماحكاه عن اليهود والنصارى جميعاً وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : « لنْ يَدخُلَ الجنةَ إلاّ منْ كان هُوداً أو نصارى » — تلك أمانِيهُم — قل : « هاتوا بُرهانَكم إنْ كنتم صادقين » بلى مَنْ أسلمَ وَجههُ للهِ — وهوُ محسِنٌ —

فله أجرُه عند ربّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٢:١١١و١١٢)، من هذه النصوص نعلم أن النجاة في الآخرة والسعادة الابدية فيها . إنما تكون بالإيمان والتقوى ، لا بالإيمان وحده ، خلافاً « للمُرْجِئة » في قولهم بكفاية الإيمان ، بدون أعمال ، سُمّوا بذلك ، لانهم أرجأوا العمل ، أي أخروه قالوا : لايضر مع الإيمان معصية ، وخلافاً للنصارى ، في اكتفائهم بالإيمان بالآب والفداء .

استطراد :

وعقيدة الصلب والفداء وثنية محضة سرت للنصارى من الوثنيين ، كما بينه علماء أوربا الاحرار ، بل ومؤرخوهم ، بل وعلماء الآثار والماديات منهم في كتبهم .

قال « دوان » : «إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم » وذكر الشواهد على ذلك ، منها قوله :« يعتقد الهنود أن « كرشنا » المولود البكر الذى هو نفس الإله « فشنو »، الذي لاابتداء له ولاانتهاء — على رأيهم — تحرك حنواً ، كي يخلص الارض من ثقل حملها ، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه »..

وقال «هوك» :« يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة ، وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس عن الخطيئة ».

وقال القس« جورج كوكس »في سياق الكلام عن الهنود : « ويصفون « كرشنا » بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً،لانه قدم شخصه ذبيحة ».وقال«هيجن» عن «أندرا» الذي يعبده سكان النيبال والتيبت :« انه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير ، لكي يخلص البشر من ذنوبهم »،والبوذيون يقولون في «بوذا» إنه مخلص

العالم، وإنه إنسان كامل وإله كامل، تجسد بالناسوت، وقدم نفسه ذبيحة،ليكفر ذنوب البشر، ويخلصهم من ذنوبهم، فلا يعاقبوا عليها.

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم « بيل » في كتابه (تاريخ بوذا) ومنهم «هوك» في رحلته،ومنهم «بول» في كتابه (تاريخ الآداب السنسكريتية)،والخلاصة إننا لا نعتقد أن خلاصنا يكون بواسطة إنسان، ولكن بالإيمان والتقوى.

رد دعوى زواج يوسف بزليخا بعد موت زوجها فوطيفار

التعليق التاسع — ذكر فريق حشوي من المفسرين أن «عزيز مصر»فوطيفار مات في تلك الليالي، وأن ملك مصر « الريان » زوّج «يوسف» «زليخا» امرأة ذلك العزيز فوطيفار، وشاع عند القصاص أن « زليخا »عادت شابة بكراً، بعد ما كانت ثيباً غير شابة، وهذا كما قال الآلوسي في تفسيره مما لا أصل له، قال: (وخبر تزوجها أيضاً مما لا يعول عليه عند المحدّثين)، ونحن نزيد على ذلك أن نسبة يوسف عليه السلام للتزوج بهذه المرأة لا يليق، لانها وإن تكن تابت وحسنت توبتها، فقد كانت عزمت على السقوط، وصممت عليه، ومعلوم أن زوجة كل رسول هي أم لافراد أمته، كما قال تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ (٣٣:٦)،ولا يليق أن تكون هذه المرأة نصف الساقطة أماً للمصريين إذ ذاك، والصحيح أن مليك مصر الريان كان قد زوّج يوسف « أسنات » بنت«فوطي فارع » كاهن « أون »، ومعنى « أون » الشمس، ولذلك سميت البلدة عند العبرانيين « بيت شمس »، واليونانيون يدعونها « هليو بوليس »، وأما«أسنات» فلفظة مصرية معناها محبوبة « نات »، ونات هذه إلهة الحكمة عند المصريين.

استطراد:

فان سأل سائل: كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتزوج بامرأة وثنية

بنت كاهن وثني ؟ فالجواب أنه يجوز أن تكون صارت من الموحدين إما قبل الزواج أو بعده بقليل ، ويكون ذلك جائزاً عندهم . وذلك كما أن مسلمي الصين اليوم يتزوجون بالصيقيات الوثنيات فلا يلبثن أن يسلمن عند أزواجهن ، حتى أن ذلك صار أحد أسباب انتشار الإسلام في الصين ، وقريب من هذا ماوقع قديماً أن إبراهيم عليه السلام كان تزوج بساراي وهي ابنة أبيه « تارح » المسمى في كتابنا الكريم « آزر » ، فهي أخته من أبيه فقط ، وليست أخته من أمه ، وتارح أو آزر كان وثنياً فلا بد أن تكون بنته كانت في البدء كذلك ، ولكن لما تزوجها إبراهيم صارت من أهل التوحيد كزوجها ؟ ولنا أمثلة على ذلك كثيرة منها تزوج « لوط » عليه السلام بامرأة كافرة ، وكذلك قبله نوح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلذينَ كَفَروا امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ ، كانتا تحتَ عَبدَيْنِ مِنْ عبادنا صالِحين ، فخانَتاهما فلم يُغنيا عنهما مِنَ اللهِ شيئاً ، وقيلَ ادْخلا النارَ مع الداخلين ﴾ (٦٦ : ١٠) ، ومنها تزوج إسحاق عليه السلام « رفقة » وهي بنت « بيوئيل » الوثني ، وتزوج يعقوب عليه السلام « ليئة » و « راحيل » وهما بنتا « لابان » وهو وثني ، وكذا تزوج إسماعيل عليه السلام بامرأة من أرض مصر على مافي التوراة ، أو بامرأة من جرهم على مافي التاريخ العربي ، وعلى كل فهي وثنية ، والامثلة من هذا القبيل كثيرة ، فما جاز لهؤلاء فعله في شريعتهم يجوز ليوسف عليه السلام في شريعته .

وجواباً ثانياً — وهو أن المشركات اللاتي حرم الله نكاحهن في قوله : ﴿ ولا تَنكِحوا المُشرِكاتِ حتى يُؤمِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢١) ، هن مشركات العرب فقط ، وان المصريين كالصابئين ووثنيي الهندوس والصين وأمثالهم كاليابانيين هم أهل كتب مشتملة على التوحيد ، وأن كتبهم طرأ عليها التحريف كما طرأ على كتب اليهود والنصارى التي هي أحدث عهداً في التاريخ ، وان قوله

تعالى بعد بيان محرمات النكاح ﴿ وأُحِلَّ لكم ما وَرَاءَ ذَلِكم ﴾ (٤ : ٢٤) يفيد حل نكاح نسائهم ، فليس لاحد أن يحرمه الا بنص .

الفصل الثاني

سفرة اخوة يوسف الاولى لمصر

آ (٥٨) ﴿ ... وجاءَ إخوةُ يُوسفَ ، فَدَخَلُوا عليهِ ، فَعَرَفَهُمْ وهُمْ لهُ مُنْكِرُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والخمسون ، فقام الشيخ الزيدي الصنعاني وقال :

تحقق تعبير يوسف لرؤيا الملك الريان ، بمجيء السنين السبع الخصبة ، ثم السنين السبع الأخرى المجدبة ، فحصل جوع وقحط لاسيما في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين ، لعدم استعداد أهلها لمثل هذا اليوم ، وقد أصاب يعقوب وأولاده كما أصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود قمح في مصر ، فطلب من أولاده أن يذهبوا اليها للامتيار ، فهيأوا رواحلهم قاصدينها ، (وجاء إخوة يوسف) العشرة الى مصر ، فرأتهم العيون المرصدة من قبل يوسف بشكل وعدد يلفت النظر ، فأخذوهم الى يوسف في بلاطه (فدخلوا عليه) وهو جالس على عرشه ، فسلموا عليه ، (فعرفهم) بملامحهم وكلامهم وأزيائهم (و) أما (هم) فلم يعرفوه إلا انه « العزيز » ، وأما من هو وما اسمه ومن أي عنصر فبقوا (له منكرون) .

(وجاء إخوة يوسف . . . الخ)

— ١ —

وقام الاستاذ بن نصيف أحد علماء بلدة جدة الأفاضل وقال :

مجيء اخوة يوسف لمصر للامتيار

جاءت سنوُ الخصب ، ثم تلتها سنوُ الجوع ، فأصاب أهل مصر وما جاورها من البلاد وخاصة فلسطين شظف وضيق ، وخشونة عيش ، وأتاهم الجدب كوحش هائل ، فاغر فاه ، يتلقف ماقرب منه وما بعد ، فقال يعقوب لأولاده : « أبقوا على عيالكم وأولادكم ، ولا تحملوهم الى الفناء ، فانه ليس من المروءة أن يرمي الإنسان بأهله في مهاوي الجوع ، بل يقيهم بسعيه ، ويدفع عنهم بجده ، وان السعي على العيال واجب ، فقوموا اسعوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، واليه النشور ، قوموا اضربوا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله »

وما طـلب المعيشة بالتمني ولـكن ألقِ دلوك في الدلاء
تجيء بملئهـا طوراً وطوراً تجيء بحمـأة وقليـل ماء
ولا تقعد كذي كسل وجبن تحيـل على المقدر والقضـاء
قعودك عن طلاب الرزق عجز وعجز المـرء أسباب البـلاء

علم يعقوب عليه السلام أنه يوجد قمح في مصر ، فقال لبنيه : (لماذا تنظرون بعضكم الى بعض ؟ إني قد سمعت أنه يوجد قمـح في مصر ، انزلوا الى هناك ، واشتروا لنا ، لنحيا ولا نموت ، وإن ماعندنامن بقايا القوت يوشك أن يفنى ونبقى معدمين ، حتى ولو اقتصدنا ، بل ولو قترنا في تناوله ، فان قلة الانفاق ، لايمنعه من سرعة النفاد ، فان الكحل الذي لايؤخذ منه إلا عيار الميل سريع فناؤه ، فكيف ونحن عشيرة كبيرة ، نحتاج كل يوم نحن ودوابنا الى قوت ليس بالقليل).

وقد كان يعقوب عليه السلام ، وأولاده أنفسهم في حاجة الى الطعام ، في تلك الايام ، وقد ضعفت مواشيهم من قلة المرعى ، وربما مات كثير منها ، وأخذ الموت يجرف كثيراً من الناس .

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، فقاموا وشرعوا في الرحلة ، ماعدا بنيامين ، فقد تخلف عنهم إذ لم يرسله أبوه معهم ، لأنه قال في نفسه : (أخشى أن يصيبه أذى) ثم ساروا ميممين الديار المصرية ، وقبيل ماوصلوا لمصر ، رأوا في ضواحيها من جهة طريقهم ، مضارب وخياماً منصوبة للمشارين القادرين ، وإبلا وحميراً ، مابين مربوطة وذاهبة لمصر فارغة ، وآيبة منها مثقلة بالميرة ، وصادفوا جلبة وازدحاماً ، ولم يزالوا كذلك حتى دخلوا مصر ، مابين نهيق الحمير ، وجمير الابل ، يتخلل ذلك ضوضاء وصلصلة وقعقعة ، إذ كان في مصر اجتماعات مدهشة من صنوف المتارين ، تعيد للاذهان ذكرى برج بابل ، أو تمثل للانسان يوم المحشر .

وكان أبناء يعقوب حينما دخلوا مصر مغمورين في جمهور كبير من المتارين ، لكن العيون المرصدة من قبل يوسف اقتحمت ذلك الجمع وتخطت الجمهور ، ولم تتناول إلا هؤلاء الاخوة ، فأخذوهم اليه في بلاطه ، فدخلوا عليه ، وهو في قصره يناطح السحاب . جالس على عرشه ، وسلموا عليه سلام الامانة ، وترامو بين قدميه ، وقد استوسق له كل ما أراد من سلطان ومراس ونفوذ كبير ، ومهابة عظيمة ، دخلوا عليه ، وهو في عنفوان دولته وشمخها ، وعزة ملكه وقبسها ، فتفرس فيهم ، فلم يكن إلا كلمح البصر ، حتى بصر بهم ، فعرفهم من بعد العهد ، عرفهم بلحاهم وشعور رؤوسهم حسب عوائد الفلسطينيين وخاصة العبرانيين ، عرفهم بملامحهم وتكلمهم بالعبرانية ، عرفهم بلباس من نوع أزياء أهل فلسطين يمازجه شيء من هندام العراقيين ، عرفهم بحيث يقدر أن

يناديهم بأسمائهم ، ويخبرهم بأحوالهم ، التي غادرهم عليها منذ صغره ، عرفهم لأن صورهم كانت قد ارتسمت في « فلْم » دماغه وهم كبار ، فلم يطرأ عليها تغير كثير ؛ وأماهم ، فلم يعرفوه إلا بأنه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » ، وأما من أي عنصر هو ، ومن أي عشيرة ، فلم ...

(وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ...الخ)

— ٢ —

وقال العلامة العدَني[1] : نستفيد من هذه الآية الكريمة الفوائدالتالية :

وصف منظر المتارين من الناس في مصر في زمن يوسف

الفائدة الأولى — جاء إخوة يوسف فاذا الناس من خواص العالم ، ورجالاتهم وعامتهم في هرج ومرج ، يموج بعضهم في بعض كموج البحر ، قد تسربوا أزواجاً وأثلاثاً ، بين راكب وماش ، هذا يكال له ، وهذا يحمل الميرة ، يهرعون نحو الكيالين ، تتزاحم أقدامهم ، وتتراص صفوفهم ، ويندمج بعضهم في بعض ، الرجل يدفع الرجل ، والمرأة تدفع المرأة ، وهم أنواع شتى ، وأشكال متباينة ، ولغات مختلطة ، وأزياء مختلفة ، كار وفار ، داخل وخارج ، باك وضاحك ، منهم الشيوخ والهرمى ، ومنهم الشببة والفتيان ، وقد علا الضجيج حتى استكّت المسامع ، وتصاعد الغبار ، حتى حجب السماء ، يتواردون كوكبة بعد كوكبة ، وزرافة بعد زرافة ، ولا غرو فمصر بعناية يوسف وتدابيره ، أصبحت الحرم الوحيد الذي تقصده أهالي البلاد المجاورة لها ، وهي القلب الذي تتدفق منه مادة الحياة الى جميع الأطراف ، وهي الموئل الذي يرجع اليه عند الشدة ، وأما إخوة

---

(١) نسبة الى عدن ، قاعدة شبه جزيرة عدن .

يوسف ، فدهشوا لهذا المنظر الرهيب ، فوقفوا هنيهة في وسط الساحة ، ريثما يقل المتزاحمون ، وهناك أخذوا فأدخلوا على يوسف ليشرح لهم على وثيقة الامتيار .

ترقب يوسف مجيء اخوته

الفائدة الثانية — لم يعجب يوسف لهذا المجيء ، لأنه كان يعرف أن هذا المجيء سيكون طبعاً ، وكان يعد له الأيام عداً ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب ، إذ متى حصل الجدب والقحط فيمصر حصل فيما يجاورها من البلاد ، التي منها بالأقرب فلسطين ، فتضطر إخوة يوسف للامتيار ، وقد وقع .

يوسف يشرع في تحقيق هدفه

الفائدة الثالثة — جاء إخوة يوسف فانشرح صدره ، وشعر أنه تقدم خطوة نحو الغرض الذي كان يتوخاه ويتوقعه ، وهو مجيء بنيامين لمصر ، وحظوته بلقياه ، وقال في نفسه : « قد دنا وقت العمل » ، فلذلك سيأتي إنه عمل معهم الحيلة الأولى لرجوعهم بأخيه ، قائلا في ضميره : متى رجعوا به ، أحتال لإبقائه عندي بحيلة أخرى ، أشذب بها شيئاً من كبريائهم ، ثم أسعى في مجيء والدي لمصر » ، وهكذا سيتم له ماأراد .

ابتداء يوم يوسف

الفائدة الرابعة — من ههنا يبتدىء اليوم الذي ليوسف ، وينتهي بنهاية (ع١٠١) بعد ما صبر على اليوم الذي عليه المذكور في (ع ١٥) ، فهو في هذه الحوادث كغيره ، يوم له ، ويوم عليه ، يوم له كان في بكرته ممزوجاً بشيء من الرحمة (ع ٥٨ — ٦٢) ، وكان وقت الظهيرة شديداً جداً (ع ٧٠-٧٩) ثم صار حين

الأصيل رحمة مطلقة (ع ٨٩ — ٩٣) ، وأما اليوم الذي عليه فكان لوناً واحداً، وهو لون القسوة .

حال اخوة يوسف بعد ما شردوه

الفائدة الخامسة — كان حصل ما حصل من إخوة يوسف مع يوسف منذ ٢٢ سنة، فأما هم فبقوا ساكتين ساكنين بفلسطين عند أبيهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم ، وأما يوسف عليه السلام فأقام بمصر ، في بيت العزيز ، ثم في السجن ، ثم في بلاط الملك ، ونامت تلك القضية، التي كانت بين هؤلاء الاخوة، نعم نامت ولكن بدون أن تنام تلك الاحقاد ، التي نشت في الصدور ، بين الظالمين والمظلومين .

مجيء اخوة يوسف لمصر كان من أكبر المساعدات لتحقيق آماله

الفائدة السادسة — مجيء إخوة يوسف لمصر ، ومثولهم بين يديه وتمكنه منهم — يعد من أعظم متممات مجد يوسف وسروره ، ويعد من أكبر المساعدات لآماله ، جاءه هذا الأمر عفواً صفواً ، لم يمد اليه يداً ، ولا تجشم فيه مشقة ، ولا خاض فيه غمرة .

الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين

الفائدة السابعة — نتعلم من هذه الآية، ومن سابق قوله ﴿ وجاءت سيارة الخ﴾ ومن لاحق قوله : ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أنه كان يوجد اتصال اقتصادي بين فلسطين ومصر .

اسباب عدم معرفة اخوة يوسف له عندما قابلوه

الفائدة الثامنة — لم يعرفوه لأسباب منها أولاً : بعد الشقة ، وطول مدة

الفرقة ، ومما دعا لعدم معرفتهم إياه بنوع خاص وجوده في البلاط ، في دست الوزارة المالية ، وانه عزيز مصر ، ووكيل مليكها .

ثانياً : الشوار الذي كان على لباسه ، وتكلمه معهم بالقبطية ، لأنها هي اللغة الرسمية ، وانه كان حليق الرأس والفرع واللحية ، لأن تلك الهيئة هي هيئة المصريين ، وهي عندهم هيئة العز والشرف « وأما الذين يوفرون فروعهم ولحاهم فهم في نظر المصريين واصطلاحهم الأدنياء والأذلاء ، كما ثبت ذلك في التاريخ ، وعلم من الرسوم المصرية .

ثالثاً : قد تغير اسمه في دار الحكومة وعند الاهالي بموجب إرادة سنية ، صدرت من البلاط ، لأن مليك مصر دعا يوسف « صفنات فعنيع » ، وهما كلمتان مصريتان ، قال القانون كوك : معناهما « طعام الحياة » ، أو « قوت الاحياء » ، وفسرهما آخر « بمخلص العالم » ، والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الاحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة الى زمن القحط .

رابعاً : كان قد تغيرت صورته ، لأن صورة الانسان وهو في سن الأربعين ، تباين صورته تمام المباينة وهو في سن ١٧ سنة ، إذ تكون قد تغيرت تقاطيعه ، واختلفت أوضاعه ، وتبدل فيه كل شيء ، حتى ملامحه وشمائله .

معنى نكر وأنكر

الفائدة التاسعة — نَكَرَ بالقلب وأنكَرَ بالعين (أساس) ، فاخوة يوسف لم يخافوا منه بقلوبهم ، ولم ينفروا منه حين رأوه ، ولكنهم لم يروه في الشكل المعروف لهم ، أو رأوا له حالاً وشكلاً خلاف حال السوقة من المصريين ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ هل أتاكَ حديثُ ضيفِ ابراهيمَ المُكْرَمِينَ ؟ إذْ دخلوا عليه فقالوا : سلاماً — قال : سلام ، قومٌ مُنكَرُونَ ﴾ (٥١ : ٢٤ و ٢٥) ،

وكما في قوله تعالى : ﴿فلمــــا جاءَ آلَ لوطٍ المُرسَلونَ ، قال : إنــكم قومٌ مُنكَرُونَ﴾ (١٥ : ٦١ و ٦٢) ،فمعنى قول ابراهيم وابن أخيه لوط «منكرون» إنهما لم يعرفا الملائكة في اول دخولهـــم عليهما ، فمعنى « منكرون » مجهولون غــير معروفين ، وأما قوله تعالى : ﴿ولقــد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى ، قالوا : سلاماً — قال : سلامٌ ، فما لَبِثَ أنْ جاء بعجلٍ حَنيــذٍ ... فلما رأى أيدِيَــهُم لا تصِلُ اليه نكِرَهُم ، وأوجَسَ منهم خِيفَـةً﴾ (١١ : ٦٩ و ٧٠) ، فمعناه أنّ ابراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لم تأكل من طعامه نفر منهم بقلبه ، وخاف انهم يريدون به مكروهاً ، لأنّ عادة الشرقيين هكــذا ، إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ،وإلاّ خافوه ، ولذلك حسن التعبير بكلمة «نكر» هذا ما نقرره بناءعلىماذكره الزمخشري فيأساسه ، من التفرقة بين نكر وأنكر ولكنه في كشافه لم يفرق بينهما ، وأنشد قول الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشَيْبَ والصلعا

وما قاله في الاساس أدق ، وهو اصطلاح القرآن الكريم ، الذي أنزله الله حُكْماً عربياً ، وحَكَماً لغوياً .

سبب عدم اظهار يوسف نفسه لاخوته

الفائدةالعاشرة — لم يظهر يوسف نفسه لاخوته ، في هذه المرة من اللقــاء، خوفاً من حسدهم وإلحاقهم به الأضرار ، وأن ينقلبوا عثرة في سبيل تمكنــه من منصبه الذي هو فيه لأنهم اذا كانوا قــد حسدوه على مجرد حب أبيه له أكثر منهم ، فأخلق بهم أن يحسدوه ويضروه إذا رأوه قد تربع فوق دست وزارة المال بمصر ، وأنه قد صار عزيزها ووكيلاً مفوضاً عن مليكها ، وبما أنهم إخوته ، فهم قديرون على ذلك ، إذ من ذا الذي يظن ان الاخوة العشرة من أبناء نبيّ اللهوصفيه يعقوب ، من سلالة اسحق وذرية ابراهيم — يتألبون بالزور والبهتان على أخ منهم

وفيهم ؟؟!؟!! ... فلعمري إن طعنهم فيه قريب التصديق . فلذلك كان يوسف يخاف منهم ويتقي شرهم ، ويحسب لهم ألف حساب ، وهذا مادفعه الى التكتم عنهم ، والعاقل لايجد له أماناً من حاسديه ، أوثق من الذعر والتحفظ ، واتقاء قربهم ، والتعرف اليهم ، والتحكك بهم ، ويحتمل انه لذلك العهد كان لايزال مغتاظاً منهم وحاقداً عليهم .

داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً

الفائدة الحادية عشرة — لاريب أن يوسف عليه السلام كان قد أقام أناساً لبيع الحنطة يبيعون كما يأمرهم ، فكيف أتى إخوته رأساً إليه ؟

والجواب : إن علة ذلك كثرتهم ، لأنهم عشرة ، ومعهم عبيد وخدم ، فكانوا ممن ينظر اليهم بريبة ، فلما دخلوا مصر ، رفع أمرهم الى حاكمها يوسف عليه السلام ، لينظر في أمرهم ، وقد كان المصريون يرتابون من كل جماعة غريبة تدخل أرضهم ، ولا سيما الجماعات التي تدخلها من الحدود العربية .

يوسف يجهز اخوته بالميرة ويطلب منهم الاتيان ببنيامين

آ (٥٩) ﴿ . . . ولَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ ، وقالَ : ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وأَنا خَيْرُ المُنْزِلِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والخمسون فقام الشيخ الحديدي اليمني وقال :

أعطى إخوة يوسف مايدهم من الفضة ، وكال لهم يوسف القمح ، كيلاً

طافاً زائداً عن الحق الذي لهم ، ثم تجهيزاً لهم في إيابهم أعُطوا زاداً للطريق ، وأعطاهم كل مايصلحهم ، من كل مايحتاج اليه المسافرون ، قائلا في نفسه : بعلة الزرع يسقى القرع ، (ولما جهزهم بجهازهم) أي هيأ لهم جهازهم ، وهو مايحتاجون اليه في قطع المسافة ، من دقيق وسويق ، وسقاء وماء ، وعلف للدواب ، وكل مايلزم لهم في الإياب ، (قال) لخأة وبغته ، بلا سابق مذاكرة : يا أبناء فلسطين لله أنتم ، إني أقترح عليكم شيئاً واحداً (ائتوني) مرجعكم الي (بأخ لكم من أبيكم) ، سمعتُ به ولم أره معكم في هذه الزيارة — قال ذلك جهراً بحيث يسمعونه ثم قال بينه وبين نفسه : لأن « الشكلى تحب الشكلى » ، ثم رجع وقال مرغباً : [(الا ترون) ناشدتكم الله ، (أني أوفي الكيل) أي أكثره وأزيده بحيث يطف الحب عن المكيال (وأنا خير المنزلين) من الباعة الكيالين ، الذين ينزلون الممتارين عندهم ، فهم إنما يعطونهم الحق فقط ، ثم لا يجهزونهم بشيء من لوازم السفر ، ولكني قمت بالفريضة والنافلة ، قمت بالواجب والمستحب ، قمت بما يلزم وما لا يلزم] ، وربما كان معنى (المنزلين) بمعنى المضيفين ، لأنه يقال : أنزله بمعنى أضافه ، والنزيل الضيف .

ألا ترون اني اوفي الكيل .. الخ

— ١ —

وقال تقي الدين العريشي (١) :

جود يوسف على اخوته وبعض الامثلة المشابهة في التاريخ

إذا لاحظنا أن الوقت في مصر وماحولها من البلدان كان وقت جدب وغلاء وأن يوسف عليه السلام جهز إخوته بجهازهم جوداً منه وكرماً ، وأوفى لهم

(١) نسبة الى بلدة العريش من فلسطين .

الكيل وزاده عن الواجب ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ، فلا ريب أن يكون خير الباعة الذين ينزلون المتارن عندهم ، فيبيعونهم بالثمن ، مقتصرين على حقهم فقط ، لا يزيدونهم عليه شيئاً ، لا سيما إذا لاحظنا أنه عمل هذا العمل مع قوم كرهوه وحسدوه وشردوه ، وإن هذا الجود الذي جاد به يوسف على إخوته ، أقصى مايمكن أن يجريه « وزير مالية أمين » مع من أراد أن يحابيه من المتارين .

ويجمل بنا بهذه المناسبة أن نسوق للقرآن بعض الأمثلة التي وقعت من الأجواد فنقول :

١ً — وقع قحط في عهد « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه ، فقيل له : « إن الناس في شدة » — فقال : « إنكم لاتمسون حتى يفرج الله عنكم » ، فلما كان آخر النهار ، جاءت عير محملة « لعثمان ابن عفان » رضي الله عنه ، من الشام ، فجاءه التجار وقالوا : « إن الناس في شدة قحط ، وقد قَدِم عليك مائة راحلة من البر ، فبعنا إياها » — قال : « كم تربحوني ؟ » — قالوا : « تجعل ربح العشرة درهمين » — قال « زادوني أكثر من ذلك » — قالوا :« نربحك أربعة » — قال : « زادوني أكثر من ذلك » — قالوا : « نحن تجار المدينة ، فمن زادك ؟ » — قال « إن الله زادني بكل درهم عشرة ، قال تعالى : ﴿مَنْ جاءَ بالحسنةِ ، فله عَشْرُ أمثالها﴾ (٦ : ١٦٠) ، أشهدكم إنها صدقة للمسلمين ! ! ! » .

٢ً — في غزوة اليرموك ، عند المزيريب ، في خلافة عمر رضي الله عنه ، قصد بعض الصحابة ابن عم له جريح طريح بشربة ماء ، فلما وصل اليه ، سمع شخصاً جريحاً يشكو عطشاً ، فأشار اليه : أن اسقه ، فجاء فسمع آخر يشكو عطشاً ، فأشار اليه : أن اسقه ، فجاءه فوجده قدمات ، فرجع الى الثاني فرآه كذلك ثم أتى ابن عمه ، فرآه كذلك قد مات ! ! !

٣ً — كان « لطلحة الخير » رضي الله عنه مال ، أربعمائة الف ، فتصدق به على المسلمين .

(٤ً) — وردت قافلة بتجارة من الشام « لعبد الرحمن بن عوف » رضي الله عنه فحملها وقال : « من كان من أصحاب بدر ، فله عليَّ أربعمائة دينار » ، واتفق أن أعتق ثلاثين ألف رقبة ، وأوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائةالف.

(٥ً) — أنفق « أبو بكر » رضي الله عنه ، أربعين ألف دينار ، كما رواه ابن عساكر في تاريخه ، وقيل : كانت ثروتـــه أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين الفاً ، معونة لرسول الله ﷺ .

(٦ً) — « زبيدة » امرأة هرون الرشيد ، أنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطر مالم ينفقه أحد من قبلها ، فمن ذلك ماأنفقت في حفرها للعين المعروفة « بعين زبيدة » بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لها في كل رفع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً ، فأحصي ماأنفقت فيها ، فوجد الف الف وسبعمائة الف دينار . وفي كتب التاريخ عدا ماذكرنا أمثلة كثيرة من أخيار أهل الجود .

(ولما جهزهم بجهازهم . قال ائتوني .. الخ الآية)

—١—

وقام نور الهدى الصيداوي (١) : لنا ههنا تتمات لشرح هذه الآية:

معنى الجهاز

١ً — قوله ﴿ ولما جهزهم الخ الآية ﴾ ، لابد له من مقدمة قولية تقديرها :

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

إنه كال لهم فأوفى ، وأنزلهم خير منزل ، وجهزهم بكل معدات السفر ، ولما جهزهم .. الخ ، وجهاز الميت والعروس والمسافر بالفتح على الأفصح مايحتاجون اليه ، وقد جهّزه تجهيزاً فتجهّز ، والجمع أجهزة ، وتجهزت للأمر تهيأت له ، قال عمر بن عبد العزيز :

تجهزي بجهاز تبلغين بـه يانفس قبل الردى ،لم تخلقي عبثاً

اشارة رمزية من يوسف لابيه يعقوب عليهما السلام

٢ — قوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ هذا النوع من التعبير يفيد أنه لم يسبق « لبنيامين » ذكر بين يوسف وبين إخوته مطلقاً ، وإلاّ لقال : « ائتوني بأخيكم من أبيكم » كما أن جملة : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » متى نقلت لأبيهم ، أوقعته في استغراب ، وأذهبت نفسه كل مذهب ممكن ، وجعلته يظن أنه لهذا الرجل المصري المحمول على خزائن أرض مصر مغزى في هذا الطلب، وإلاّ ممن عرفه أن لهم أخاً من أبيهم ؟ وماهي علاقته به ؟ وألا يكفي انه عرف عشرة من أولاد يعقوب ؟ فهل من الضروري أن يتعرف للحادي عشر ؟ وماهي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ، وماهي هذه الأهمية ياترى ؟ وماالمناسبة بين « عزيز مصر » وبين « بنيامين » ؟! ومافائدة العزيز من مجيء بنيامين ؟!

كل هذه الأسئلة لابد أن ترد على ذهن يعقوب ، ولا بد أن يستنتج منها احتمال أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، هو على الأقل يعرف يعقوب ، ويعرف أن له ولداً غير هؤلاء العشرة ، وأنه أخوهم من أبيهم . ويستنتج أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، ذو علاقة خصوصية ببنيامين دون سواه ، وعليه فلا بد أن يعقوب يقول في نفسه حينئذ : « إن في الأمر لسراً » ، وبالنتيجة ، كأني بيعقوب عليه السلام قد قام عنده احتمال ان هذا المتكلم بهذا الكلام ، الطالب هذا الطلب ، إما أن يكون يوسف ، أو رجلاً يعرف يوسف وله به علاقة ، ولذلك سيأتي له

أن يقول لأولاده : ﴿يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾، فلكأني به أنه ظن أن يوسف بمصر ، وعلى هذا فما كأن هذه الجملة ، إلا برقية شفرة من يوسف لأبيه ، أو لغز لايحله إلا يعقوب ، أو اشارة رمزية ، وكل لبيب بالاشارة يفهم ،

هذا مايجب أن تحمل عليه الآية الكريمة ، وأما من حملها من المفسرين على غير ماذكرنا فهو كمن يقول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام ، والأذن للشم ، والعين للسمع.

ويمكننا أن نقول أيضاً أن تجهيز يوسف اخوته بما يلزم لهم في سفرهم ، وطلبه منهم الإتيان بأخ لهم من أبيهم ، هو ليسمع يعقوب بما عمل ابنه يوسف وما قال ، فيتحرك ذهنه ، ويدرك أن في الأمر سراً ، وإلا فما هو السبب الذي يدعو « عزيز مصر » لتجهيزهم بلوازم سفرهم ، وإيفائه لهم الكيل ، أي زيادته ، واطلب بنيامين ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ؟؟

حقاً إن هذه الأعمال والأقوال لتقتضي الدهشه ، وتوجب التفكر والبحث الذهني العميق ، وتستدعي التدبر في مرمى ذلك ، وماهو المقصود منه ؟ لاريب أن يوسف رجى أن يفهم أبوه أن في الأمر سراً ، فيتحرك ذهنه ، ويشرع في التفكر والبحث عن ذلك السر ، لعله يحوم حول ولده المفقود ، فكأن يوسف بما عمل وماقال ، اعتبر إخوته كالآلة المسجلة التي تنقل الكلام من غير فهم لسره ومرماه ، ولا ندحة من أنه قد اختلج في صدر أبيه شيء من هذا القبيل ، فنحن نرى أن يعقوب عليه السلام حام حول ماأراد يوسف .

لقد كان يعقوب سابقاً يتحقق أن ابنه حيّ يرزق ، استناداً على مارآى ولده يوسف من الرؤيا المجيدة ، إنما أين هو ، فسؤال كان لا يعلم له جواباً ، وأما الآن ، فإنه فهم من هذه الرموز ، أن ابنه يوسف بمصر ، بدليل انه قال لأولاده

عند زيارتهم مصر للمرة الثالثة : ﴿ يابنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ (آ:٨٧) وإلاّ لم يكن معنى للتحسس عن يوسف في مصر خاصة ، فما ذاك إلا لكون يعقوب ظن أن يوسف بمصر ، الأمر الذي هو سر تلك الاعمال ، وبهذا يمكننا الاعتذار عن يوسف في أخذه بنيامين واسترقاقه عنده ، حيث ربما يعترض معترض على يوسف بأن هذا العمل يسيء أباه ، فكيف أقـــدم عليه ؟ فيكون الجواب عن هذا الاعتراض أن يوسف قبلما يأخذ أخاه ، أفهم أباه بلطف بما عمل من تجهيزهم بجهازهم وإنزالهم خير منزل ، ووضع بضاعتهم في رحالهم ، وما قـال من قوله : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » — أفهمه بهذا العمل وهذا القول انـــه بمصر ، وكل لبيب بالاشارة يفهم ، هذا مايلوح لي ، تبعاً للأخ الاستاذ الحُديدي حفظه الله ، والله تعالى أعلم .

وجه قبول اخوة يوسف منة اخيهم

٣ً — قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ، إن قال قائل: كيف قبلوا منه هذه المنة وسكتوا عليها ، والشاعر التميمي يقول :

إن الذين يسوغ في أعناقهم زاد يمـن عليهم للئـــآم

قلنا : إنه لا لؤم في قبول الرعايا منة الأمراء والملوك ، كقبولهـا من نحو الوالدين والمؤدّبين.

وجواباً ثانياً — وهو أن من رضي لنفسه بقطيعة الرحم والكذب والعقوق، والحاق الضرر بأبيه وأخيه ، هو أقل من أن يربأ بنفسه عن قبول منة الناس ، كيف وهم رضوا لأنفسهم هذه المنزلة إذ قالوا : « وتصدق علينا » كما سيأتي:

سلسلة كرم يوسف مع اخوته

٤ً — يوسف هنا جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وأنزلهم خـــير

منزل ، فهذا من رجل مشرّد فعله مع مشردين ، مظهر من مظاهر الكرم ، واكبر منه قوله فيما يأتي : ﴿ وائتوني باهلكم أجمعين ﴾ (ع٩٣) واكبر من هذا وهذا ، كرمه المتوي الذي عبر عنه بقوله : ﴿ لاتَثْريبَ عليكم اليومَ ، يَغفِرُ اللهُ لكم ، وهو أرحمُ الراحمين ﴾ (ع ٩٢) . (مرحى)

دواعي طلب يوسف لبنيامين

٥ً — رأى يوسف اخوته العشرة ، فهاجت فيه ذكرى أخيه بنيامين ، وتنبهت أشجانه وقامت نفسه لرؤيته ، وجهده الشوق اليه ، فلذلك ولأجل أن ينقذه من براثن إخوته النارزة في جسمه ، رغب اليهم أن يرجعوا به في السفرة الثانية ، من قبيل من رمى حجراً لكي يصيد به صيدين .

كما أنه نظراً لأن يوسف كان يتوسم من وراء مجيء شقيقه نوراً يهتدي به استطلاع أحوال أبيه ، والاسرة اليعقوبية بصورة مفصلة ، تكفل وقوفه على أحوال إخوته ، ماظهر منها وما بطن ، حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ونظراً لأن بنيامين هو أخوه الشقيق الأصغر ، فكان بالأشواق الكلية اليه — نظراً لذلك كله ، حسن في عين يوسف ، أن يطلب منهم « بنيامين » فقال لهم : اسمحوا لي أن أقترح أمراً ، ربما لايكون فيه صعوبة عليكم ، أمراً تتوخون به مسرتي ، وتتحرون به رضاي ، « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » الخ .

منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين

٦ً — قوله : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » : تعلمون أن يوسف عليه السلام كان يحب « بنيامين » حباً جماً ، ولماذا ياترى ؟ . . لأنهما نشأآ في خيمة واحدة كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد ، فهو نام معه وليداً ، ولعب معه طفلاً وتسار معه فتى ، وذاق معه حلاوة السمر ، وذاق معه مرارة موت الأم

وشرب معه كأس كره الأخوة إياهما ، زد على ذلك أن يوسف كان لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، إلا في قلب بنيامين ، كما أن بنيامين كان كذلك ، لا يعرف لة وجوداً في قلب أخ من إخوته ، سوى قلب يوسف ، فبنيامين شارك أخاه يوسف ، في كل هذه الأدوار والمعاني ، فهذا — مع كونهما شقيقين — هو منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ، تلك المحبة الفائقة .

شيئآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذهاب
لم أبلغ المعشار على حقيهما فقد الشباب ورؤية الأحباب،

لماذا لم يذكر يوسف أباه بشيء

٧ً — لسائل أن يسأل قائلا : يقول الشاعر جرير في إحدى قصائده التي يمتدح بها بعض الأمويين :

هـذي الأرامل قد قضيت حاجتها : فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر ؟

ونحن نقول هنا لسيدنا يوسف عليه السلام : قد قضيت حاجة إخوتك بني العلات بإيفائك لهم الكيل ، وإنزالك إياهم منزلاً حسناً ، بل وبجعلك بضاعتهم في رحالهم ، حتى صاروا آخذين القمح مجاناً ، وقضيت حاجة أخيك بنيامين بطلبك إياه للترفيه عنه ولرؤيتك إياه ، ولكن من لحاجة ذاك الأرمل الذكر ، أعني والدك الشيخ الباكي الحزين ، فاننا لم نسمعك ذكرته بكلمة ؟ !

ولنا على هذا جوابان :

الجواب الأول — ان يوسف يعرف أن أخاه بنيامين لم يبشر بشيء من الله في مستقبل أخيه يوسف ، فهو لا يعرف عنه من هـذا القبيل شيئاً ، وإذاً فليس له فيه رجاء ، فعيشته إذاً هي عيشة نصب وشقاء ، فلذلك أراد يوسف سعادته باحضاره اليه ، وهذا بخلاف أبيه يعقوب عليه السلام ، فهو يعرف مستقبل ولده

ويتأكد تلك البشائر الربانية عنه ، نعيشته إذاً ليست عيشة شقية ، باعتبار ماله من الأمل والرجاء ، وان الذين يعيشون بالأمل . ويحيون بالرجاء . لهم بعيدون عن الشقاء والنصب .

الجواب الثاني — لا يحكى إلا من فم لأذن .

سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب

٨ً — يقولون في المثل : « إذا لم تغلب فاخلب »، فيوسف عليه السلام لما لم يستحسن قهر اخوته على إتيانهم بينيامين سلك مسلك المصايدة والزلفى ، تذرعاً منه لمجيئهم به في السفرة الثانية .

كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم

٩ً — قوله : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ﴾ ، خطب « معاوية » خطبة ، أعجب بها كثيراً ، وفاخر ببلاغتها ، وحسن صياغتها ، فقال : « أيها الناس ، هل تروت في خطابتي من خلل ؟ » فأجابه رجل : « نعم َخلَل كخلل المنخل » — فقال معاوية : « وما يكون هذا الخلل ؟ » — فأجابه الرجل : « ذلك الخلل هو اعجابك بها ومدحك إياها » .

هذا شيء ، وشيء آخر أهم منه وهو قوله تعالى : ﴿الذينَ يُنفِقونَ أموالهم في سبيل اللهِ ، ثم لايُتْبِعُونَ ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى ، لهم أجرُهُم عندَ ربهم ، ولا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزنونَ ؛ قولٌ مَعْروفٌ ومَغْفِرَةٌ ، خيرٌ مِنْ صدقة يَتْبَعُها أذىً ، واللهُ غنيٌ حليمٌ ، يا أيها الذينَ آمنوا ، لا تُبْطلوا صَدَقاتِكم بالمن والأذى ﴾ الخ (٢ : ٢٦٢ — ٢٦٤) وفي حديث علي رضي الله عنه ، « آفة السماحة المنُ » ، وعلى ماذكرنا فلو قال قائل : كيف يعجب يوسف بعمله ، وكيف يمن على نزلائه بما جادت به مرؤته عليهم ؟ فإنا نجيب بثلاثة أجوبة :

الجواب الأول — إن يوسف عليه السلام إنما تكلم معهم ، لا باسم أنه يوسف ابن يعقوب ، ولكن باسم أنه « عزيز مصر » وعزيز مصر أجنبي عنهم في المذهب والجنسية ، فهذا القول هو على حساب « عزيز مصر » لا على حساب « يوسف » .

الجواب الثاني — ان هـــذا من يوسف عليه السلام ، شروع في تشذيب نفوسهم العاتيـة ، وبـدء في تخضيد شوكتهم الصلبة ، وفائدته تعود عليهم بالتهذيب والخضوع .

الجواب الثالث — يوسف لم يقصد الاعجاب ولا المن ، ولكنه قصد بما قال ترغيبهم وتشويقهم للرجوع بأخيهم من أبيهم ، فهذا كل ماأراد من كلامه ، لا أقل ولا أكثر .

محاولة يوسف اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم

١٠ — شوقهم يوسف بالآية الحاضرة « ألا ترون .. الخ » وهددهم بالآية الآتية « فإن لم تأتوني به . .الخ » (ع ٦٠) فسلك معهم بهذا القول وذاك القول ، مسلك من يكلم بيد ، ويأسو بأخرى ، وبعبارة ثانية — أحاط يوسف هذا الطلب الذى طلبه ، بالورود والرياحين أولاً ، ثم بالقنابل والدبابات ثانياً ، وبعبارة ثالثة — هذه الآية والتي بعدها ، يمثلان لنا بابي « الاغراء والتحذير » الذين يذكران في علم العربية ، ثم إن الغرض الذى أراده يوسف من ذلك ، يمثل لنا « باب الاختصـاص » الذي يذكره النحـاة أيضاً ، لأنه أراد بهذا العمل وهـذا التدبير ، أن يستحوذ على « الاختصاص » بشقيقه بنيامين .

محاولة يوسف رجوع اخوته بنيامين عن طريق الترغيب والتحبيب

١١ — ويفهم من ظاهر قوله « ألا ترون . . الخ » مع الآيات الثلاث التي بعده ،

أن يوسف عليه السلام ، إنما حاول رجوعهم بنيامين عن طريق الترغيب والتحبيب والإغراء والتحذير ، فلم يهر في وجوههم ولم يتهمهم بجاسوسية ، وقيل إنه حاول الحصول على ذلك عن طريق القوة والإرهاب ، والقهر والإزعاج ، حيث اتهمهم بالتجسس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم وارتهن عنده أخاهم شمعون وقيده لبينما يرجعون بنيامين ، كما حكاه أكثر المفسرين الذين لم يأتوا عليه بسلطان مبين ، وليس له مصدر سوى سفر التكوين (تك ٤٢ : ٩ - ٢٤) ، وهو يخالف ظاهر الايات الأربعة (ع ٥٩ - ٦٢) ، فحشر ما ذكرته التوراة مع كلام الله تعالى هنا هو من قبيل حشر الأروى مع النعام ، أو الجمع بين الغواصات والطيارات .

نعم نعم ، إن يوسف إنما جاءهم من باب التشويق والترغيب ، وأرادهم على الإتيان بأخيهم من طريق الاقناع ، دون طريقة القسر ، لأن طريقة الإقناع هي التي تولد الميل في الانسان ، ليجتهد في تحصيل مايراد منه ، وأما طريقة الإكراه والإجبار ، فلا تجعل إخوته يميلون لإقناع نفوسهم ، فلا يجتهدون لإقناع والدهم ، فلا يحصل الغرض المروم ، وأما قوله : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » فهو غير مجبر لهم الإتيان بأخيهم ، إذ يمكنهم - بكل سهولة - أن يرسلوا عبيدهم وخدمهم بدلاً منهم ، ويوسف عليه السلام يعرف كل هذا الذي ذكرنا ، لأنه حكيم وذو مدارك عالية ، فلا يمكنه أن يزعجهم ، ولا تساعده الحكومة المصرية على حبس أو تقييد أخيهم شمعون ، لأنه مهما كان مطلق اليد ، فلا بد أن يكون إطلاقاً نسبياً ، فلا ندحة من أن يكون مقيداً بنظامات الحكومة المصرية وقوانينها ، ولهذا كان مسلكه مع إخوته مسلك حيلة وترغيب كما نتعلمه من (ع ٥٩ - ٦٢) ، هذا ما أعثرنا الله عليه من الفهم في كتابه ، والله سبحانه اعلم .

معنى الايفاء ووجه امتنان يوسف على اخوته

١٢ - أوفى الشيءُ كَثُرَ ، وأوفاهُ : كثَّرهُ ، فالمادة في بعض المواضع

كما هنا ، تدل على الكثرة والزيادة ، كما يقال : أوفي على المائة : اذا زاد عليها ، ويقولون في المدح : « هو أشعر أهل زمانه ، والموفي على أقرانه » ، وفي سنن ابن ماجه : « جاء اعرابي الى النبي ﷺ يتقاضى ديناً له عليه ، فقضى الأعرابي وأطعمه» أي أعطاه زائداً عن حقه طُعمة له ، فقال : أوفيتني ، أوفى الله اليك » ، والكثرة في الكيل إنما تتحق بالزيادة على الحق ، بحيث يصير الكيل أعلى من حرف الصواع لاسيما وانّ هذه المادة أيضاً تدل على العلو ، فانه يقال : « أوفى عليه : أشرف » ، فالمعنى الذي أراده يوسف ههنا ، انه كال لهم وزاد عن استحقاقهم في الكيل ، بحيث جعل القمح يعلو طـــرف الصواع ، هذا مايظهر لنا ههنا ، وبه يظهر وجه امتنان يوسف عليهم بذلك ، وإلا فالبائع لايصح له أن يمتن على المشتري إذا كان اقتصر على إعطائه حقه فقط ، قلنا — والشيء بالشيء يذكر — وبهذا يظهر وجه الذم في قوله تعالى : ﴿ وَيلٌ لِلمُطَفِّفينَ ، الذينَ إذا اكتالوا على النــاسِ يَستَوفونَ ، وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسِرون ﴾ (٨٣ : ١ — ٣) ، فهذا الاستيفاء هو زيادة عن الحق ، في الكيل لأنفسهم ، ولذلك قابله بقوله : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون » ، فالاستيفاء والإخسار ضدانّ ، والوسط هـو وصول الحب المكيل الى طرف الصواع من فوق ، من غير أنْ يزيد عنه أو ينقص ، وبهذا التحقيق أيضاً يظهر وجه قول إخوة يوسف ، في السفرة الثالثة : « ياأيها العزيزُ مسّنا وأهلَنا الضُرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ ، فأوفِ لنا الكيلَ ، وتصدَّق علينا ، إنّ اللهَ يَجزي المتصدقين » (آ : ٨٨) ، قدموا له الرجاء أنْ يزيدهم وأن يكون بذلك متصدقاً عليهم ، وإلا لما كان وجه لقولهم : « فأوف لنا الكيل » لأن حقهم سيصلهم قطعاً ، كما جربوا ذلك منه في السفرتين الأولين ، هذا مافتح الله به ، وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله رب العالمين .

(مرحي)

يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ (٦٠) ﴿فإنْ لم تأتُوني بِهِ ، فَلا كَيْلَ لكُمْ عِندي ، ولا تَقْربُون﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الستون ، فقام الشيخ الرشيدي (١) وقال :

سبق أن يوسف قال لإخوته بلهجة السرور والترغيب ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾ ، والآن يقول لهم بلهجة النفور والإرهاب : ﴿فإن لم تأتوني به﴾ أي ببنيامين وتستقدموه معكم ، (فـ) لا أخفي عليكم أنه (لا كيل لكم عندي) فضلاً عن إيفائه (ولا تقربون) بدخول بلادي ، فضلاً عن الإحسان في الإنزال ، فانظروا لأنفسكم مصلحتكم ، فأنتم من أهل الحجى والنهى أقول قولي هذا صدقاً وإعذاراً وإنذاراً ، والله يتولى هداي وهداكم .

فإن تدن مني تدن منك مودتي وإن تنأ عني تلقني عنك نائياً

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانياً

لم يأل يوسف جهداً في تمهيد المقدمات ، وتذليل العقبات التي تقف في طريق حظوته بأخيه بنيامين ، فاستعمل مرة اللين ، ومرة بعض الشدة ، رغماً عن كونه لا يريد إزعاجهم بحرف واحد ، ولكن ضرورة الحال أحرجته فأحوجته لما قال :

بين لهم بما سبق من قوله وبهذا القول الحاضر أن اليه الرتق والفتق وبيده البسط والقبض ، وانه قدير على النفع والضر ، متمكن من القبول والرد ، سياسة

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية.

حكيمة ، وخطة معتدلة ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، يُطمع ويؤيس ، يوحش ويؤنس ، رسم لهم الطريقين وهداهم النجدين ، ليختاروا لأنفسهم مايحلو ، وقول يوسف « فإن لم تأتوني به .. الخ » هو أول رصاصة رماها في أول هذه المعمعة ، وقوله الآتي لفتيانه : « اجعلوا بضاعتهم في رحالهم .. الخ » هو ثاني رصاصة ، وأما (القنبلة) فهي جعله السقاية في رحل بنيامين كما سيأتي في (ع ٧٠) .

(فان لم تأتوني به .. الخ)

— ١ —

وقال الامام سعيد المنتفكي (١)

يوسف ينذر اخوته اذا لم يأتوه ببنيامين

يقول يوسف عليه السلام : إن لم تأتوني بأخيكم فسوف أعرقل مساعيكم ، بأنه لا كيل لكم عندي حينما تنقلبون لمصر ثانية، كما ولا تقربون بلادي ، ما كرّ الجديدان ، وتعاقب الملوان ، فإن لم تفعلوا ما أشير عليكم ، فدون بلوغ مناكم عندي شرح القتاد ، فعلى إتيانكم ببنيامين يتوقف كيلي لكم ، بل دخولكم بلادي، وإن حصولكم على الميرة للمرة الثانية معقود بمجيء أخيكم معكم ، أفهمتم ؟... لا تنسوا شرطي ، فالشرط أملك ، عليك أم لك ، أنتم مخيرون بين شهد الحياة وصاب الموت ، مجيئكم بأخيكم هو أشبه بورقة الجواز التي يحملها المسافر ، وإن أبرزها حين وصوله للحدود دخل المملكة الأخرى ، وإلا .. فلا .. وهكذا أنتم إن أتيتم بأخيكم سمح لكم بدخول بلادي ، وإلا .. أرجعتم على أعقابكم ، ونفوسكم اللوامة ، هاأناذا قد أنذرتكم ، قبل أن تقرعوا السن ، ومن أنذر فقد أعذر ، هذه وصاتي إليكم ، فإن عملتم بها ، حمدتم غبّ رأيكم ، وخير الأعمال

(١) نسبة الى المنتفك وهو اسم احد الالوية العراقية الجنوبية.

أحمدها عاقبة ، وإلا فلا آمن عليكم ما أكره وتكرهون ، وبالجملة والاختصار ، إن أتيتموني بـه أدنيتكم ، وإلا دِنتكم ، ولا يمكني أن أكيل لكم ولا أراكم في بلادي .

هذا مرمى كلام يوسف عليه السلام مع إخوته العشرة . ومن ههنا عول على أن يجمع قواته وينازل بها إخوته في موقعة فاصلة ، هي حرب ولكنها حرب تحت طيّ الخفاء ، حرب تدبير وتفكير .

(والشيء بالشيء يذكر) أتذكر أنه كان دفع رجلان الى امرأة مائة دينار وديعة ، وقالا لها : « لا تدفعيها الى واحد منا دون صاحبه » فلبثا ماشاء الله أن يلبثا ، ثم جاء أحدهما فقال : « ان صاحبي قد مات ، فادفعي اليّ الدنانير » فأبت وقالت : « إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ، فلست بدافعتها اليك »، فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها اليه ، ثم لبثت ماشاء الله أن تلبث ، فجاء الاخر فقال : « ادفعي الي الدنانير » — فقالت : « إن صاحبك جاءني فزعم أنك قد مِتّ ، فدفعتها اليه » — فقال « إنه لعب عليك وذهب هارباً » فاختصما الى القاضي ، فعرف أنهما قد مكرا بها ، فقال :« أليس قلتما : لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ؟» — قال : « بلى » — قال :« إن مالكما موجود عندها ، فاذهب فجيء بصاحبك حسب شرطكما ، حتى تدفعه إليكما ، فإن الشرط أملك » ، وهكذا يوسف عليه السلام إذا رجع إخوته اليه بدون بنيامين وأرادوا الميرة يقول لهم : « قد اشترطت عليكم أن تأتوني بأخ لكم من أبيكم ، ولم تفعلوا ، فليس لكم عندي ميرة حتى تأتوني به» .

(مرحى)

وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر

آ(٦١) (قالوا :... سَنُراوِدُ عنه أباهُ ، وإنَّا لَفاعِلون)

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والستون ، فقام الشيخ راشد البيساني [١] وقال :

(قالوا) أي إخوة يوسف بلسان الوعد والموافقة ، لبيك ، نحن أطوع لك من ظلك ، وبالله إننا لنبتهج جدا لابتهاج بما نلناه من التفاتك ، — وأنت عزيز مصر — لسوقة غرباء مثلنا ، ونفتخر بما أصبناه من الحظوة في عينيك ، وعليه فسنصدع بأمرك ، رغماً عن انه لاقبل لنا بهذا المطلوب ، ولا يدان لنا بحصوله ، لأن أمر أخينا من أبينا ليس بيدنا ، بل (سنراود عنه أباه). ولسوف لا نألوا جهداً في إقناعه (وإنا لفاعلون) معه جهد الاستطاعة أن يرسله معنا ، متى رجعنا المرة الثانية .

(قالوا .. سنراود عنه أباه .. الخ)

— ١ —

وقال شمس الدين الدمياطي [٢] :

وعد الاخوة باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة ابيهم

حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة ، وهي ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر للمرة الثانية ، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به ، خاطبوه

---

(١) نسبة الى بيسان من فلسطين.

(٢) نسبة الى بلدة دمياط من البلاد المصرية .

قائلين له باعتباره انه عزيز مصر : أيها العزيز — لقد رغبت في أمر كؤود المطلب وعر الملتمس ، فإن أخانا هـذا الذي ترغب في مجيئه ، أصغر أولاد أبينا الشيخ وابن شيخوخته ، وقد اتخذه أكبر مُعزّ له بعد أخ له مفقود ، فالإتيان به إن لم يكن متعذراً ، فهو متعسر ، فلو قلنا لك : لسنا هناك ، لأن الأمر ليس بيدنا ، بل بيد أبيه الشيخ كنا صادقـــين ، وإن قلنا لك : « إذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع » وإن هذا الأمر ليس الينا كنا معذورين ، ومع ذلـــك فقد أذنا لك وسمعنا وأطعنـا .

تأكد أيها العزيز انه لقد مضى علينا مـدة تنيف عن العشرين سنة ، ونحن في أمر أخينا من أبينا هذا على « الحياد الدقيق » لا نكلف أباه شيئاً مما يتعلق به ، وذلك من جراء حادثة لشقيق له كان خرج معنا فهلك ، فلذلك من الصعب أن نكلم فيه أباه بشيء ، ولا نستطيع أن نغتصب منه اختياره أو نصادر حريته الشخصية ولكننا سنتلطف معه برقيق العبارة ، ورشيق الحيلة ، فلعـــله ينزل على رغبتنا ، رغماً عن أنه سيكون في هذه المرة صعب المراس جداً .

أيها العزيز — إن المراودة هي في ذاتها هينة ، أهون علينا من قطع الخيط ، ولكن الصعوبة والإشكال ، في قبول أبيه مشورتنا فان نجحنا فذاك ، والا فمعذرة منـا اليك سلفاً ، وماتلك المعذرة سوى كلمة واحدة هي « العجز » فانا لا ندري ماذا سيكون جواب أبيه ، أيرسله معنا أم لا ؟ فقد نُصَدّقُ إن قلنا : لا ، وقـد نُصَدّقُ إن قلنا : نعم ، فنحن سنبدأ والتمام على الله .

وكأني بيوسف قد ثنى على كلامهم بقوله : ها أنذا انتظر رجعـكم ، وأتنجز وعدكم ، فلنفترق على هذا الاتفاق ، أودعتكم الله ، سافروا بسلام .

يوسف يأمر باعادة ثمن الميرة لاخوته لضمان مجيء بنيامين

آ (٦٢) ﴿ وقالَ لِفِتْيانِهِ : اجْعَلوا بِضاعَتَهم في رِحالِهم لعلهم يَعرِفونَها اذا انقَلَبوا الى أَهلِهِم ، لعلهمْ يَرجِعُون ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والستون فقام العلامة التدمري(١) وقال :

أشفق يوسف أن لا ترجع إخوته ، فانتدب بعضاً من غلمانه الكيالين ، أحضرهم (وقال لفتيانه) هؤلاء ، وَيْهَ أيها الغلمان أغفلوا هؤلاء القوم الكنعانيين ، و (اجعلوا) ضعوا (بضاعتهم) فضتهم (في رحالهم) عدالهم ، بحيث تخفونها عن عيونهم ، (لعلهم يعرفونها) يطلعون عليها (إذا انقلبوا) منصرفين (إلى أهلهم) في فلسطين متى فرغوا ظروفهم ، (لعلهم يرجعون) الينا ثانية .

ففعل غلمانه ما أمرهم به ، إذ كانوا أطوع اليه من ظله ، وكأني بيوسف قد أخذ يردد في نفسه قول القائل : « ليس من رسول كالدرهم » :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على غيره يُستغن عنه ويذمم

ثم قال : لعلهم يرجعون الينا بنيامين لأنه حجر الزاوية ، وهو المقصود من هذه الأعمال ، ولعلنا بذلك نفتح باب الحركة وندير المعركة في فلسطين ، ونحن جالسون هينا في « صوعن » فنخضد شوكتهم ، وينزلون شيئاً من شكيمتهم ونزقهم لعلهم يرجعون — فلنهم بواسطة ذلك يحبوننا ويثنون علينا عند أبيهم فنصل إلى غرضنا :

(١) تدمر احدى المدن السورية .

والناس أكبر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

نعم لعلهم يرجعون — فسيكون لي ولهم شأن ، فإن هذا حادث له مابعده ، وإن مع اليوم غداً ، فإن لم يرجعوا فعلى بضاعتهم السلام .

ثم صار يوسف ينتظرهم بكل فروغ صبر ، ويردد في نفسه معنى قول الشاعر:

عسى الملك المجيب لمن دعاه يساعدني ويعلم كيف شكري ؟
فأجزي بالكرامة أهل ودي وأجزي بالعداوة أهل وتري

وههنا لا بد من التنبيه على المسائل التالية :

سعي يوسف بمجيء بنيامين بالقول والفعل

١ً — ترى من هذا أن أمر رجوع اخوة يوسف بنيامين قد أصبح شغله الشاغل ، حتى أنه لم يكتف بمافاه به أمامهم من الوعد والوعيد ، بل أتبعه بالعمل الجدي ، والفعل الفوري ، الذي يرجو أن يكون الدافع الوحيد لرجوعهم بنيامين ، والكفيل لنجاح مساعيه ، وان هـذه المنفعة المادية ، ستكون كجاذب مغناطيسي لهؤلاء القوم « أبناء العم المحترمين ! ! تقودهم الى الرجوع فوراً ، بلا أدنى تردد ، لا سيما في أيام كهذه ، فان « أبناء العم » هم الأمة الوحيدة ، في محبة المنافع المادية ! ! كما هو معروف ومشاهد لهذا العهد ! !

المراد من كلمة « الفتيان »

٢ً — الفتيان هنا بحسب اصطلاح المصريين ، الخول والخدم والجند والتبعة والمستخدمون والكيالون .

ماذا اراد يوسف برد بضاعة اخوته اليهم

٣ً — أراد يوسف عليه السلام بهذا العمل أن يحمل إخوته — متى رجعوا الى

فلسطين وعرفوا مافعل ببضاعتهم — على حسن الظن به ، وإنه قد بلغ من الكرم والسماحة والجود حداً لم يبال معه أن يعطيهم ما طلبوا من الميرة بلا عوض ولا ثمن فيوسف أتى ذلك العمل ليجرىء إخوته على الرجوع وليعرفوا أنه محسن لاعدو وأنه يتوقع منه مالا يعلمون من الخير .

كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية

٤ً — سألني سائل قائلاً : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتصرف بأموال الخزينة المصرية مع أنه لم يكن سوى موظف يجب عليه أن يشتغل في مأموريته بأمانة ؟

فاجبته بقولي أولاً — لناظر بيت المال أن يصرف شيئاً من الخراج في سبيل المصالح العامة التي منها مساعدة الغرباء المحتاجين ، ولعل إخوة يوسف منهم .

وثانياً — كانت المساعدات التى أداها يوسف لمصر ، والخدمات التي خدم بها أهلها ، بمثابة خميرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد ، فانه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات سني الخصب .

ثالثاً — يقول الله تعالى : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين ، والعاملينَ عليها ، والمؤلفة قلوبُهم ، وفي الرقابِ والغارمينَ ، وفي سبيلِ اللهِ وابن السبيل﴾ (٩ : ٦٠) وربما كان إخوة يوسف فقراء أو مساكين ، ولا ينافيه أنهم أتوا للميرة على دواب لهم ، لأنهم كانوا يحتاجون للدواب للركوب عليها في روحاتهم وجيئاتهم ، لأنهم من الرحل ساكني الخيام ، فهي لهم نظير آلة الجهاد للمجاهد ، وكتب العلم للعالم ، وآلة الصناعة للصانع ، ودواب السفر لمن يعيش بالمكاراة ، والضرب في الأرض ، وكالسفينة للملاح ، قال تعالى على لسان العبد الصالح :

﴿ أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يَعملون في البحرِ ﴾ (١٨ : ٨٠) فهذه السفينة كانت ملكاً لهم ، وملكهم لها لم يخرجهم عن المسكنة ، لما عرفت من أن الآلات التي تقوم بها المعيشة مستثناة ، وربما يكون يوسف عليه السلام ، قد اعطاهم فضتهم وميرتهم لأنه اعتبرهم من « المؤلفة قلوبهم » أعني بذلك تأليف قلوبهم للرجوع بأخيه بنيامين ، كما قال « لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » هذا مذهب له واجتهاد منه ، لايجوز لنا أن نعترض عليه فيه ، لاسيما وأن له شرعة ومنهاجاً غير شرعتنا ومنهاجنا ، والله أعلم . وههنا شيء دقيق، وهو أنه يظهر من قرائن الاحوال أن يوسف عليه السلام كان متمتعاً بما يشبه الاستقلال الاداري ، فكان يتصرف فيما عهد به اليه تصرفاً مطلقاً ، زيادة عن بقية مأموري الدولة ، فكان يوسف متفوقاً على باقي وكلاء الملك ، لأنه كان هو « العزيز » ، القابض على ناصية المال ، وهو الوكيل الأعظم والصدر الأعلى .

وأما ما أجاب به فريق من المفسرين بما مرماه : (أن يوسف عليه السلام موحد يشتغل في أموال قوم وثنيين ، فيجوز له أن يأخذ منها ماوصلت اليه يده) فهو جواب غير صحيح ، لأنه إنما يجوز أكل مال الحربي في داره فالعقود الفاسدة التي لا تحل في دار الاسلام ، كالربا والبيع الفاسد ، والحادثة التي ههنا لم تتوفر فيها هذه القيود ، أولاً ـ لأن « الريان » ليس حربياً ليوسف ، ثانياً ـ ليس من عقد فاسد جرى بين يوسف والريان ، ثالثاً ـ إن يوسف عليه السلام ، وكيل عن الملك الريان « والوكيل مؤتمن » لاسيما وقد وضع فيه الريان ثقته وقال له : (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فيجب أن يكون الريان أميناً لدى يوسف كما كان يوسف أميناً لديه ، كما هو مقتضى الشهامة والمروءة ، فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين ..

معنى الرحال

٥ً ـــ كلمة « رحال » هنا هي التي سميت « متاعاً » في قوله تعالى ﴿ ولما فتحوا

متَاعهم ﴾ (ع ١٥) و « أوعية » في قوله بعد ﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ (ع٧٦) فالجميع بمعنى لفظ « العِدال » الذي عبرت بـه التوراة ، ويقال أيضاً « غرارة » و « جوالق » و « كيس » جمعه أكياس ، وهو ما عبرت بـه التوراة أيضاً في موضع آخر .

مقصد يوسف مما قاله لاخوته ومما فعله معهم

٦ً — قال يوسف ما قال (ع ٥٩ و ٦٠) وفعل ما فعل (ع ٦٢) لكي يستعين بإرادة إخوته على إرادة أبيه ، لأنه يعلم أنه يصعب على أبيه السماح لأخيه « بنيامين » السفر لمصر ، ويوسف عليه السلام كان بإكرامه لهم ، وجعله بضاعتهم في رحالهم كصائد رأى طيوراً لا يريد اصطيادها ، لأنه لا يهواها ، ولكنه رمى لها الحب على أمل أنها بعدما تأكله تطير وترجع بطير يريد ذلك الصائد اصطياده ، لأنـــه يهواه ، وما فال رأيه فيما فعل ، فإنهم لما وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ، أكدوا على أبيهم بأخـــذ أخيهم ، فرضي بعدما كان قد امتنع ، ورجعوا لمصر بذلك العصفور الجميل ؛

إن العظيم عظيم في كل شيء ، حتى في حيلته التي يجريها توصلاً لمرامه ، فيوسف أراد أن يحضر إليه أخوه بنيامين ، فتذرع بكل مايقدر عليه من الذرائع ، فذكّر ، وبشّر ، وأنذر ، وحذر ، ومؤخراً أرجع اليهم بضاعتهم ، تشويقاً لهم في رجوعهم بـه اليه .

لماذا لم يخبر يوسف اخوته بجلية الواقع في سفرتهم الاولى

٧ً — سألني سائل : لماذا لم يخبر يوسف عليه السلام اخوته بجلية الواقـــع ويرغب إليهم أن يذهبوا بقميصه في هذه السفرة الأولى ، ليلقوه على وجه أبيه ، تعجيلاً لارتداده بصيراً ؟ ولم أخر يوسف عليه السلام هـذا التوضيح والبيان

للسفرة الثالثة بعد اللتيّا والتي ، وبعد ما بلغت الروح التراق ، وقيل من راق ؟ وغبما بلغت القلوب الحناجر ،وبلغ السيل الزبى ؟ وهل يجوز للطبيب أن يؤخر عن المريض علاجه النافع ، لمدة يعاني فيها المريض أشد المشقة ، خصوصاً وهو يعلم أن هذا العلاج طب ساعة ، وهو الترياق المفيد تواً ؟

فأجبته بقولي : لعله خاف لو أخبر إخوته منذ الآن ، ولم تكن قد تشذبت أخلاقهم ، ولم تخضد شوكتهم بعد ، أن يعملوا مكيدة يكيدون له بها، فيحدق به الخطر ، ويتزعزع مركزه بمصر ، خصوصاً وهو كان متهماً بتلك الجريرة السيئة، فلذلك أخر إظهار نفسه للسفرة الثالثة ، حتى تكون قد سكنت ثورتهم ، وهيض جناحهم ، وتشذبت أخلاقهم .

ثم قلت للسائل : وعندي جواب آخر ، وهو أن صاع قصاص . . . لم يمتلىء بعد ، لأن العشرين ... في مقابلة العشرين ... الأولى ، لم تكمل بعد ، فيوسف عليه السلام ، لما افتكر أن يخبرهم بجلية الواقع ، ويكشف نفسه لهم ، ويريد أن ...، كان يسمع صوتاً من السماء يقول له : « لم يحن الوقت بعد يا يوسف » ، فيسكت ، ففي الحقيقة نحن نرى يوسف بعمله هذا مسخراً للقدر العدل ، وآلة تديرها يد القدرة السماوية ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

هذا ما ألهمنيه الله وفتح به علي ، فتدبره فلعلك أصفى ذهناً ، وأخلص قلباً ، وأنور معرفة ، ﴿ سبحانَك لا عِلْمَ لنا إلاّ ما عَلَّمتنا ، إنك أنتَ العليمُ الحكيم ﴾ (٢ : ٣٢) .

كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم

٨ً — قوله « جعلوا بضاعتهم في رحالهم » ، اختلف المفسرون في كنه هذه البضاعة ، وسنسلط « الأشعة » على هذه البضاعة ، بحيث يستطيع القارىء أن

يكشف حقيقتها : يظهر من كلمة « بضاعة » أن الذي كان معهم هو من غير النقود المضروبة — ويدخل فيه الفضة غير المضروبة — لأن النقد المضروب لا يعبر عنه « ببضاعة » ، بل يعبر عنه بدينار أو بدرهم ، كما سبق في قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ والغالب على البلاد غير المتمدينة ، أن تكون المقايضة فيها بغير الدراهم المضروبة ، كبلاد فلسطين ، « وجاء بكم من البدو » (ع ١٠٠) ، كما أن الغالب على البلاد المتمدنية أن تكون المعاوضة فيها بالدراهم أو الدنانير المضروبة ، كما في البلاد المصرية ، ولذلك اشترى يوسف في مصر بدراهم ، وأما إخوته ، فلكونهم من فلسطين غير المتمدينة ، فقدجاءوا لمصر يمترون ، لا بدراهم مضروبة ولكن بنوع من البضاعة ، ربما كان فضة غير مسكوكة أو نحوها مما قد يخفى وقد يظهر ، كما يشير اليه قول يوسف عليه السلام « لعلهم يعرفونها » ، فان هذا التعبير ينم عن أن هذه البضاعة ليست من قبيل النعال والأدم ، كما ظنه أكثر المفسرين ، لأن هذا مما يعرف قطعاً ، فإذن هذه البضاعة هي مما قد لا يعرف إذا وضع في الرحال ، فلذلك قلنا إن هـــذه « البضاعة » كانت من قبيل الفضة غير المضروبة ، والله تعالى أعلم .

٩ً — يجوز أن يكون قوله « لعلهم يرجعون » بدل اشتمال من قوله : « لعلهم يعرفونها » ، كما سبق لمولاي عبد الحفيظ التونسي في قول المندوب « لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » (ع ٤٦) والله تعالى أعلم . (مرحى)

الاخوة يطلبون بنيامين من ابيه

آ (٦٣) ﴿... فَلَمَّا رَجَعُوا الى أبيهم ، قالوا : ياأبانا ، مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ ... فأَرْسِلْ مَعَنا أخانَا ، نَكْتَلْ ، وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والستون فقام الشيخ غانم الاربدي[1] وقال :

قام إخوة يوسف ، من مصر ، وركبوا رحالهم يطوون البيداء ، الى كنعان بلادهم ، (فلما رجعوا آيبين من وجه الغرب الى وجه الشرق ثم الى وجه الشمال ، أعني من « صوعن » عاصمة المملكة المصرية الهكسوسية ، الى « سيلون » قافلين (الى أبيهم) الشيخ الجليل وكان في انتظارهم على مثل الجمر ، فتحفز للاقاتهم ، فترجلوا ومشوا اليه ، وسلموا عليه فباركهم وسر بقدومهم غير أنه تأملهم فرآهم على غير حالة سرور ، قال : مالكم ومالي أراكم مضطربين قلقين ؟ — (قالوا) وعليهم إمارات الحيرة والضيق : « (ياأبانا) لا نكذب الله ، لقد رأينا في عزيز مصر رجلاً شهماً كريماً ، أنزلنا خير منزل ، وأوفى لنا الكيل ، وجهزنا خير جهاز ، فصرنا بفضله مجهزين بالدقيق والسويق ، وبالسقاء والماء ، وبعلف الدواب ، وبكل مايلزم لنا في الاياب ، وما رأينا منه إلا كل مانحب وتحب ، غير أنه قال لنا : (ائتوني بأخ لكم من أبيكم) فكما دهشنا من إكرامه لنا على غير معرفة ، فقد دهشنا بنوع خاص حينما كلفنا بذلك واشترط في امتيارنا من مصر المرة الثانية

[1] نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرقي الاردن)

بمجيئه معنا ، وتوعدنا إن لم نحضره معنـــا ، بعدم الكيل ، بل بعدم رؤية وجهه ، وأنذرنا بالمقاطعة التامة ، الأمر المدهش الغريب الذي لم نقف له على سبب ، ولذلك وبناء على إنذاره ، ربما رجعنا اليك في المرة الثانية وقد (مُنِـع منـا الكيل) لأنه هذا الرجل يقول ويفعل ، ذا إرادة سنية ، ونفوذ لايعارض ، ولا نظن أن هذا الرجل ينزع عن مقالته (وَ) نتقدم اليك بهذا الرجاء الحار (أرسل معنا) في المرة الثانية (أخانا) المحبوب « بنيامين » حسب اقتراحه ، فإنك إن أرسلته (نكتل) من القمح كما في الاول ، وإن لم ترسله خشينا أن تلفظنا مصر ، وخشينا من هـذا الرجل أن يصدق القول بالفعل ، فإنه ذو سطوة ومراس ، ولا ندحة لنـا عمـا يدعونا اليه من طاعته ، والإذعان لدولته ، وأنت في هذه المرة لاتخف على بنيامين ، فإنا عليه ساهرون (وإنا له لحافظون) من كل مايضيمه ، من أن يستطار ، أو يغتال ، أو يفترس ، أو يتيه ، الى غير ذلك ، والوعد على الحرّ دين » . هـكذا نفضوا لأبيهم جملة ماوقع لهم بمصر وجملة مافي ذهنهم . ويمكننا أن نستنتج من ذلك النتائج التالية :

اخوة يوسف بين مطرقتين

١ً ــ أصبح إخوة يوسف كالّة بين مطرقتين ، لايدرون أيقومون بعهدهم « لعزيز مصر » ويطلبون بنيامين من أبيه ، أم يسكتون عن طلب بنيـــامين لئلا يتكدر والدهم من طلبه ولئلا يتذكر يوسف فيتجدد همه عليه بعد أن كان خامداً؟.. ثم إنهم رجحوا الشق الأول ، وهو طلب بنيامين أن يسافر معهم ، لأنهم لا يستغنون عن الرجوع لمصر ليمتاروا لأهلهم ، ولذلك قالوا : ياأبانا الخ .

فكرة سفر بنيامين

٢ً ــ من ههنا ابتدأت فكرة سفر بنيامين تتمشى خطوة خطوة الى أن استقر

الامر على سفره فسافر ، وهذا ينتهي بانتهاء (ع ٦٨) والذي وضع أساس هذه الفكرة هو يوسف عليه السلام بما عمله وبما قاله لإخوته (ع ٥٩ ـ ٦٢)

يعقوب يفكر فيما عمله « العزيز » مع اولاده

٣ٓ ـ لا بد أن يعقوب عليه السلام ابتدأ يفكر فيما عمل « عزيز مصر » مع أولاده من تجهيزهم بجهازهم ، ومن إيفائه لهم الكيل ، ومن إنزالهم خير منزل ، ثم صار يفتكر في هذا الطلب على غير معرفة ، وبدون سابقة داعية اليه ولا مناسبة ، فأوغل في تفكره ، وقال في نفسه : « لأمر ما جدع قصير أنفه » والمستقبل كشاف.

الشك يخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) « قالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عليه إلا كما أَمِنْتُكُمْ على أخيه مِن قَبْلُ ؟! ؟! ؟! فاللهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحَمُ الراحِمينَ » .

تليت الآية الرابعة والستون فقام الشيخ الكرملي وقال :

سمع يعقوب كلام أولاده فخامره فيه الشك ، ووقعت في نفسه من ذلك الطلب رهبة ، فأطرق برهة ، ثم رفع رأسه و (قال) مستهزأً : مثلكم من يوثق بوعده!!! (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) إذ كنتم منذ ٢٢ سنة قلتم في يوسف (وإنا له لحافظون) كما تقولونه الآن في بنيامين ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني اليوم من مثل ذلك ؟ . . وبعبارة أخرى : لا آمنكم على بنيامين في الذهاب إلا كأمني إياكم على يوسف الذي ضمنتم لي حفظه ثم ضيعتموه ، وهكذا حالكم اليوم ، تضمنون لي حفظ بنيامين ثم تضيعونه ، والزامر يموت وأصابعه تلعب ، وللعادة حكم لا يقوى المرء على مغالبته ، « فالله يرضى عليكم

خيطوا بغير هذه المسلّة » ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ومن جرب المجرب حلت به الندامة ، وقد قيل : ويل أهون من ويلين ، وقالوا : ما وعظ امرءاً كتجاربه ، وقالوا : ومن نهشته الحية خاف من الرش ، حقاً إني أخاف أن تعيدوا الكرة ، أخاف أن يكون ذئب أخيه موجوداً بعد ، فتر سلوه له أيضاً ليأكله ، وما أسرع مجيئكم لي عندئذ على قميص بنيامين بدم كذب ، وأظنها تكون القاضية عليّ ، فبالله عليكم دعونا من هذه الوعود التي جربناها ، وخبرنا نوعها ودرجتها وعرفنا نصيبها من الصحة ، وبالله عليكم دعونا من ترداد جملة (وإنّا له لحافظون) ، فإن هذه الجملة لا تزال ترن في أذني يوم نطقتم بها يوم أخذكم يوسف، وما رأيت من حفظكم شيئاً ، فإن كنت أريد إرساله معكم (فالله خير حافظاً)(وهو أرحم الراحمين) وكفى ، فأرجو أن لا يجمع عليّ مصيبتين ، ولكني لا أريد ذلك أبداً . هذا مرمى الجواب السلبي الذي وجهه يعقوب لأولاده ، وما أتم هذا الجواب إلاّ وقد شرق بالدموع السخينة .

وجملة (فالله خير حافظاً) تميز كقولك هو خيرهم رجلاً ، ولله درّه فارساً .

(قال هل آمنكم عليه)

— ٢ —

وقال شيخنا الكركي (١) :

جواب يعقوب لأولاده جواباً سلبياً منددأ بهم وبوعودهم

سمع يعقوب اقتراح أولاده ، وقد تذكر حادثتهم مع يوسف التي تركت أثراً سيئاً في نفسه ، فتمعر وجهه واقشعر بدنه ، وخفق قلبه ، ونآى بجانبه ، ونظر

(١) نسبة الى الكرك من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

إليهم شزراً ، وابتدرهم بالدهشة والاستغراب ، وجاوبهم جواباً سلبياً قائلاً : لا يكون ذلك ، ولن يكون ، هل تريدون مني أن آمنكم على بنيامين إلا مثل ما أمنتكم على أخيه يوسف سابقاً و كانت النتيجة التي تعرفونها ، ألا يحق لي أن أحسب لإرساله معكم ألف حساب وحساب،فها أنا ذا شيخ ، قد حنكتني التجارب، وعركني الدهر وعركته ، فعرفت أن ليس لوعودكم قيمة ، ولا أراكم إلا جماعة متألبين عليّ لتفقدوني بنيامين ، كما أفقدتموني قبله يوسف ، أنتم الآن تمدوني وتطمئنوني ، ولكن حقاً إن صوت أعمالكم سابقاً ، يصم أذني عن سماع أقوالكم وتصديق وعودكم ، ومن جرب المجرب حلت به الندامة ، يا أولادي كذبتكم نفوسكم ، إن تاريخكم الماضي محفوظ عندي ، لم أنسه ، ولا أريد أن أنساه ، بل ولا أقدر على تناسيـــه ، راجعوا جريدة أعمالكم وانظروا ماذا كنتم عملتم في يوسف ؟... فهل تريدون اليوم أن تضيفوا الى تاريخ أعمالكم الماضية صفحة أخرى ، من صفحات الأعمال المحزنة ؟.. أما أنا فذلك ما لا أريد أن يكون ، كفى ما كان حصل سابقاً ؛ يا أولادي ، إن الثقة لا تتولد في النفس لمجرد صدور الوعد ، لا سيا وإن التجربة الماضية التي جرت في حادثة يوسف، لم تترك في نفسي أثراً من الثقة والاعتقاد ، لذلك ليس من الأمر الهين في هـذه المرة قناعة نفسي بصدق وعدكم ، وطمأنة قلبي بإرسال بنيامين لمصر معكم ، أنتم أخذتم يوسف قبلاً ، لمرعى غنمنا ، وفي بلد قريب منا ، ضمن بلاد فلسطين ، التي أنا ساكن فيها ، فلم يرجع إليّ ، فكيف اليوم أرضى بأخذكم أخاه لمصر ، لمملكة أخرى ، بيننا وبينها مراحل ؟.. تقولون لي (وانا له لحافظون) ؟.. قسم ضائع لا قيمة له ،ووعد مكذوب ، فقد كنتم « وقعتم المعاهدة » على حفظ أخيه ، وسجلتم الخسار على أنفسكم ان لم تسهروا على صيانته ، ولكنكم هتكتم حرمة تلك المعاهدة ، ورجعتم عليها بالنقض ، فإذا هي لم تخرج عن حدود الكلام !!! أوّاه ! لشدّ ما ينقبض

لذلك صدري ، ويلتاع له فؤادي ، فما هـذه الخطة العسراء التي تريدون أن تحملوني عليها ؟..

تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟

لا يتسنى لي أن أنعمكم عيناً بهذه الطلبة ؛

تقولون لي (إنّا له لحافظون) ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد رأيت جعجعة ، ولم أر طحناً ؛ بالله عليكم ، عرفوني ، هل أكون هذه المرة أسعد حظاً ، وأرقى حالاً ، وأهنأ بالاً ، وأحمد عاقبة ؟ دعونا بالله من هذا الاقتراح ، المزهق للأرواح ؛

هَيْهاهْ هَيْهاهْ ، دعونا من هذا الطلب الخطر ، فإن شراً واحداً أهون من شرين ، حقاً إن وعدكم بحفظ بنيامين هو كوعدكم سابقاً بحفظ يوسف ، وعدان خلابان يخرجان من مصدر واحد ، هو المكر ، ومن ينبوع واحد هو الختل ؛

هذا مايظن أن يعقوب عليه السلام أجاب به أولاده جهراً ؛ ثم لكأني به جعل يقول بينه وبين نفسه :

لئن أرسلته معهم لايكونن رجل في فلسطين أعظم مني لوعة ، أنا كلما ذكرت يوسف وجدت في وجه أخيه العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنهما إن فقدت وجهيهما معاً ؟ . . بنيامين هو صورة يوسف الباقيـة عندي ، هو رسمه التـذكاري ، هو رائحة تلك الوردة الذابلة ، هو الممثل الوحيد لذلك الولد الفقيد ، هو البقية الباقية من آثار « راحيل » ، هو المعزي عن أمه وأخيه ، فمن لي بمعز سواه إن فقدته؟ ..

قال هل آمنكم عليه

— ٣ —

وقال الشيخ الطفيلي (١) : لي ههنا ذيول :

موقف يعقوب مع ابنائه في طلبهم بنيامين

الذيل الأول ــ هذا الموقف الذي وقفه يعقوب ههنا مع أولاده موقف سلبي

(١) نسبة الى الطفيلة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

خلافاً للزمخشري ومن تبعه من المفسرين ، فهو بقي مقيماً على المخالفة ، مصراً على الإباء ، غير واقف معهم موقف إيجابي ، إلا بعد ماذكروا عدة محسنات ، وبعد ما آتوه موثقاً (ع ٦٥ و ٦٦) ، وأما قول يعقوب (فالله خير حافظاً الخ) فمعناه إن أردت أن أرسله معكم ، فلا أعتمد على حفظكم له ، فالله خير حافظاً الخ ، ولكني لا أريد .

عمر بنيامين عندما طلبه اخوته من ابيهم

الذيل الثاني — ربما يتوهم بعض القارئين من قول إخوة يوسف (وإنا له لحافظون) وقول أبيهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم .. الخ) ثم قولهم (ونحفظ أخانا) وقول أبيهم (لن أرسله معكم حتى .. الخ) — ربما يتوهم متوهم من مجموع هذه الأقوال المتبادلة أن بنيامين كان صغير السن ، بحيث يخاف عليه إذا سافر ، وليس هذا التوهم في محله ، والآيات الكريمة لا توهم شيئاً من ذلك ، كيف وقد كان عمر بنيامين حينما فارقه يوسف سبع سنين ، ثم مضى على يوسف بمصر ٢٣ سنة ، ثم افتكر يوسف في طلبه عنده ، وعندذلك دارت هذه المحاورات والمقاولات بين يعقوب وأبنائه .

نعلم من التاريخ أن بنيامين كان وقتما ذهب لمصر ابن نحو ثلاثين سنة ، كما في السنن القويم » وقد ورد أنه كان له حينما دخل مصر خمسة بنين صلبية ، على رواية سفر العدد (٢٦ : ٣ — ٤٠) ، أو كان إذ ذاك عشرة بنين على رواية سفر التكوين (تك ٢٠) ، وعليه فلم يكن « بنيامين » حين هبوطه لمصر صغيراً وبالتالي لم يكن خوف أبيه عليه لذلك ، وإنما أبوه كان يخاف عليه من مجموع إخوته العشرة أن يتواطأوا عليه ، كما سبق أنهم تواطأوا على أخيه ، فالخوف عليه ليس من واحد أو اثنين مثلا ، وليس من ذئب أو نحوه ، حتى يصح هذا التوهم ، ولكن الخوف من رجال عشرة يعدون « عصابة » ورهطاً ، قد عهد منهم سابقاً ،

مايحمل على الخوف الآن ، وإن السبب الذي دفعهم للايقاع بيوسف — وهو زيادة حب والده له أكثر من حبه لهم — متحقق في بنيامين ، كما كانوا قالوا منذ ٢٣ سنة : (ليوسف وأخوه ، أحب الى أبينا منا)، لاسيما وقد صاروا بعملهم السابق من أهل الضراوة والعادة تثبت بمرة ، ولكل امرء من دهره ماتعود ، ومما ربما يجرئهم (بنوع خاص) ان أباهم لم يعاقبهم ، ولم يجازهم على إيقاعهم بيوسف شيئاً ما فلهذا أو جس منهم خيفة وأجابهم بذاك الجواب السلبي .

هـذا ماتيسر لنا الآن تحقيقه ، قـد ألقيناه عفواً بين يديك فاحفظه والا فالسلام عليك .

الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب واولاده

الذيل الثالث — قص الله علينا مادارهينا من المقاولات بين يعقوب عليه السلام وأولاده ، لكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل ، كيف لم يأتمنهم أبوهم على أخيهم الأصغر ، حيث سبق أنهم خانوا الأمانة لما ذهبوا بأخيهم الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربما تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلا ، وقص الله علينا ذلك ، لنقيس نحن حاضر أحوال سلائلهم (أبناء العم المكرمين ! !)، على ماضيه ، ولنكون على حذر تام من يهود اليوم ، وإذا كان النبي ﷺ قال : « احترسوا من الناس بسوء الظن » كما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي والعسكري من حديث أنس ، فينبغي أن تكون اليهود من أول هؤلاء الناس ، خصوصاً الصهيونيين منهم ، عافانا الله تعالى من شرورهم .

أولى الامور بالنجاح التكرار والالحاح

اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم اليهم حجة للالحاح في طلب اخيهم بنيامين

آ(٦٥) ﴿... وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، قَالُوا: يَاأَبَانَا، مَا نَبْغِي؟! هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ... وَنَمِيرُ أَهْلَنَا، وَنَحْفَظُ أَخَانَا، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخامسة والستون فقام الشيخ العقبي[1] وقال:

كان يعقوب عليه السلام أجاب أولاده بجوابه السلبي السابق، فاتخذوه تعنيفاً لهم، ومن قبيل التكذيب لإخبارهم، وعلموا أن أباهم لايزال مقيماً على المخالفة، مصراً على الإباء، فانتشر عليهم رأيهم، ولما لم يعرفوا ماذا يجيبون، وضاقت عليهم أرض فلسطين بما رحبت، وما هي إلا غمضة وانتباهة، ان قاموا لفتح جوالتهم (ولما فتحوا متاعهم) عدالهم (وجدوا بضاعتهم) وهي الفضة غير المسكوكة (ردت اليهم) فما وقفوا على تلك البضاعة حتى فرحوا بها، واعتنقوها باليمين والشمال، لأنهم وجدوها تساعدهم على مطلوبهم، وتصدق كلامهم، فتقووا وتشجعوا في طلب أخيهم كرة أخرى، وظنوا أنهم بهذا السبب يستطيعون أن يتسلطوا على أفكار أبيهم ويقنعوه (قالوا) بنغمة المحتج الظافر بما يبرهن صحة كلامه: (ياأبانا) المعظم لسنا اليوم كما تظن فينا، لقد رأينا مايُصدّق قولنا، فنحن (مانبغي) أي

---

(١) نسبة الى بلدة العقبة من بلاد الشلم (شرق الاردن)

لسنا نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان « العزيز » ولا نكذب فيما حكيناه من إكرامه لنا ، فإنا نحمل شهادة الصدق فيما نخبر ، نحن قلنا لك الصدق فلا تستغشنا ، هاأن الغامض قد انكشف ، وأبدَت الرغوة عن الصريح (هذه بضاعتنا ردت الينا) كما ترى بعينك ، الأمر الذي لم تتحرك به خواطرنا ، ولا علق بأوهامنا ، وهذا مصداق ماقلنا : إننا رأينا في « عزيز مصر » شهماً همّاماً جواداً رحب الصدر عالي الجناب ، والآن برد تلك البضاعة الينا ، يصير لنا دالة عظيمة على هذا الرجل، فهذه فرصة يجب أن تفترص ، ونفحة من النفحات ينبغي أن نتعرض لها ، فلا يجوز لنا أن نضيع الفرصة عبثاً ، ونحن علينا الحركة ، وعلى الله البركة ، ولانظن الرجل ردها في عدالنا إلا قصداً ، بداعي الكرم والجود الذي طبع عليه ،فكأنه لم يبعنا الميرة بيعاً ، بل وهبنا إياها هبة ، أحسن الله اليه ، كما أحسن الينا ، فلا ريب أن هذا العزيز فياض معطاء ، رحب الذراع ، واسع الفناء ، فنستظهر بها عند رجوعنا إليه ، (نمير أهلنا) الذين هم في لوْلاءَ ولأواءَ ، وأزمة وبأساء ، أي نجلب لهم الميرة والطعام ، لأن امتيارنا بدون وجود بنيامين معنا ، سيكون أعقد من ذنب الضب (ونحفظ أخانا) بنيامين ، ومن آذاه منا يكون دمه على رأسه ، نحفظه من كل يد تتقدم اليه ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، وأما حادثة يوسف « المرحوم » فهي « بيضة الديك» أي من الشواذ والنوادر ، فلايقاس عليها غيرها (ونزداد كيل بعير) أي جمل لأن الرجل لا يعطى أكثر من حمل جمل للتقسيط ، فإرسال أخينا معنا أربح لنا وأجدى علينا ، ولسنا في غنْية عن السعي في هذه الزيادة ، ولماذا يقعد أخونا عن السعي ، وقد أمر الله به ؟ وإن كل فمٍ واحدٍ يخلق في هذا العالم ، يخلق معه يدان اثنتان ، فان لم ينتج الإنسان بيديه الاثنتين ضعف مايستهلكه فمه ، فعلى الأقل يجب أن ينتج مقدار مايأكله ، لاسيما وأخونا ذو أهل وأولاد (ذلك كيل يسير)

أي أن مايكال لنا قليل لا يقوم بأودنا ، فنريد أن نضم اليه مايكال لأخينا ، والتمرة الى التمرة تمر ، ومع ذلك فالأمر راجع اليك ، فأنت مخير ، فإذا وافقتنا شكرناك، واذا خالفتنا أطعناك وعذرناك ، هذا هو الرأي الحازم الذي نراه الآن ، فما قولك؟.. قالوا ذلك وهم يتضرعون الى الله أن يغير قلب أبيهم ، ويلهمه السماح لهم بطلبتهم ، وهكذا لم يزالوا يجادلون أباهم جدال طلب ، وهو يجادلهم جدال امتناع ، ولكنهم أظهروا من ضعفهم مع أبيهم قوة ، أثروا عليه بهـــا ، وأولى الامور بالنجاح التكرار والالحاح ، كما كانوا أثروا عليه حينما أرادوا أخذ يوسف منذ ٢٣ سنة ، لكن نيتهم في هذه المرة كانت صالحة ، وبالنتيجة وأخيراً : اجتهد إخوة بنيامين حتى أحرجوا أباهم وأعارهم أذناً صاغية ، واستنام لكلامهم ، وركن اليهم ، وغلب على أمره ، وسمح بإنفاذ بنيامين معهم ، لكن بشروط سلك فيها معهم سبيل الاحتياط .

(ولما فتحوا متاعهم . الخ)

— ١ —

وقال الأديب الزحلي [١] :

« ما » استفهامية في قوله ما نبغي

إني أضم صوتي لصوت أخي الشيخ العَقَبي وأصادق على كل ماقال ، إلا أني أخالفه في كون « ما » في قوله (مانبغي) نافية ؛ بل أقول إنها استفهامية ، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا الإحسان ؟ أي ماذا نطلب ونروم ؟ وماهو الأمر الذي نحاوله ونتوخاه فوق ذلك ؟... وإنما رجحنا انها للاستفهام لقراءة ابن مسعود : ماتبغي ؟ بالتاء على مخاطبة يعقوب عليه السلام ، بمعنى أي شيء تطلب وتريد فوق هذا الجود والعطف .

---

(١) نسبة الى بلدة زحلة في لبنان .

وبعد ، فعندي عدا عما ذكرت عدة فوائد على هذه الآية الكريمة :

اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء

الفائدة الأولى — يريدون بقولهم لأبيهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » ان هذه أمور أربعة استفدناها ونستفيدها بعودتنا الى مصر مع أخينا بنيامين وهي : رد العزيز بضاعتنا الينا في المرة السابقة وربما ردها في المرة اللاحقة والامتيار ثانية وحفظ أخينا إذا أخذناه ثم أخذ ميرة بعير باسمه ، وكلها ذات بال ، تهون عليك النزول على مانرجوه منك ، ونعرضه عليك من إرسال أخينا معنا ، فأخبرنا بالذي اجتمع عليه رأيك.

نجاح حيلة يوسف في طلبه بنيامين

الفائدة الثانية — قولهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » وبذلك تمت حيلة يوسف على إخوته ، بل وعلى أبيه ، فقد كان لهم فيما أتاه معهم من الجميل والمكرمة حجة بالغة على أبيهم حينما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم في سبيل الميرة بعد تلك الكرة.

معنى الميرة

الفائدة الثالثة يقال : مار يمير من الميرة ، وهي الطعام ، وفي معناه ماد يميد ومنه المائدة ، أي المطعمة ، وكما يقال لها « ميرة » يقال لها « غيرة » كما في القاموس ..

معنى البعير

الفائدة الرابعة — كما يطلق « البعير » على الجمل وهو المشهور ، يطلق أيضاً على الحمار ، وقد نقل ابن جرير عن مجاهد أن البعير هنا هو الحمار ، وسيأتي لهذا البحث تتمة عند تفسير (آ ٧٠).

معنى المتاع

الفائدة الخامسة — « المتاع » الأوعية بما فيها الميرة والطعام ، ومطلق إناء يقال له « متاع » قال تعالى: ﴿ وما يوقدون عليه في النار ، ابتغاء حلية أو متاع ﴾ (١٣ : ١٩) ، والمتاع مايتمتع به ، أي ينتفع به زمناً ممتداً في الجملة ، لأنه من « المتوع » وهو الامتداد ، يقال : متع النهار ، ومتع النبات ، إذا ارتفع وامتد « وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور » (٣ : ١٨٥) .

قلب المؤمن دليله

اشتراط يعقوب على اولاده لارسال بنيامين معهم أن يعاهدوه على ارجاعه

آ (٦٦) ﴿ ... قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّني بِهِ ، إلا أنْ يُحَاطَ بِكُمْ ... ، فلَما آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ، قَالَ : اللهُ على مَا نَقُولُ وَكيلٌ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والستون فقام جمال بك العكاري[1] وقال :

أيها السادة تلك المقاولة التي دارت بين يعقوب عليه السلام وأولاده العشرة ، بين جزر ومد ، ورغبة ورهبة ، وطلب وإباء ، وأخيراً : كأني بيعقوب قال لهم : « لا تطلبوا مني بنيامين ، فما أنا بشقي مارأيت ولدي بجانبي ، وما أنتم بأشقياء ماقنعتم بما يحمله كل واحد منكم من « الغيرة » ، لا نريد زيادة على ماتمتارون بحسب عددكم »

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

ـ سمعوا منه ذلكم ، وكأني بهم قالوا : « لم نسألك إرسال أخينا معنا ، إلا ونحن نتوقع أن نسمع منك عين هذا الجواب السلبي ، ولكنا لانرى ندحة عن ارسال بنيامين إذا كان لك ولنا فكر في الرجوع »

وبما ذكر من المقاولات والمحاورات قدروا على أن يقنعوا والدهم بلزوم أو باستحسان إرسال بنيامين معهم ، ولا ريب أن الإقناع يولد الميل في نفس السامع، ولهذا تطور فكر أبيهم تطوراً جديداً ، وافتكر بارساله بشرط ؛

نعم نعم ، إن يعقوب عليه السلام رآى المناقشة حامية ، ودرجة حرارة الجدال مرتفعة ، فمشى مع ذلك محتفظاً باشتراطه عليهم أن يحلفوا له ويعاهدوه بارجاعه له سالماً ففعلوا .

هذا مانذكره دخولاً على قوله تعالى (قال) لهم أبوهم : قد أوليتكم ماتوليتم، لكنني أنا اليوم قد صرت ممن يطلبون إيضاح الخطة قبل الدخول في المعركة ، فقد كنت تساهلت نوعاً عند إرسال يوسف معكم ، منذ ٢٣ سنة ، والآن لا أريد أن أعيد كرة هذا التساهل ، ولذلك ولكوني أرى الخطر يتهددني (لن أرسله معكم) ولا فواقاً (حتى) تضعوا أيديكم في يدي (تؤتون موثقاً) أي تعطوني ميثاقاً(١) أتوثق به (من) جهة (الله) عز وجل ، وهو الحلف به بأن تتحملوا مسؤوليته : لتَحمُنُّه ولتَدفَعُنَّ عنه و (لتأتنني به) فإن رجعتم بأخيكم سالماً ، كنت راضياً عنكم ، وإن كانت الأخرى ـ لاسمح الله ـ سخطت عليكم ، وقوله « لتأتنني » جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به ، أي لاتمتنعون عن الإتيان به في حال من الأحوال العارضة ولعلة من العلل ـ (إلا) لعلة واحدة ، وهي (أن يحاط بكم) أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، أو إلا أن تهلكوا، فهل تفوا لي هذه المرة بما تقولون ، ولي عليكم بذلك العهد والميثاق ، ماذا

---

(١) اصل الميثاق في اللغة عقد يتأكد بيمين .

ترون ؟ — فقالوا له : تأمر وتطاع ، حسناً ، ليكن كما تريد ، فلك علينا العهد والميثاق أن نَفِيَ لك ، وأن نرد اليك ابنك ، فو الذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لنأتينك به ، إلا أن يمنعنا قدر واقع، ماله من دافع ، وإنا نموت بموته ونحيا بحياته، لك ذمة الأ'لوه يَهْوَهْ ، وذمة أبراهام وإسحـــاق وذمتنا على ما أحببت ، نحلف باءِهْ ، لا يعترض أحد بيننا وبين احتفاظنا بأخينا بنيامين ، إلا أهرقنا دمه ، ومشينا على جثته ، ما كان لنا به قوة ، ولن يصل اليه أحـد ، إلا بعد ان نكون جثثاً باردة هامدة بين يديه ، ولسوف نرجع به اليك ، وهو على أحسن ما يكون من العافية ، اللهم إلا إذا قاومنا مايجعل قوتنا ضعفاً وقدرتنا عجزاً ، فمعذرة عندئذ منا الى الله واليك .

وهكذا أقسموا لأبيهم بالله جهدَ أيمانهم ، وحلفوا له بكل مُحَرِّجَةٍ (١) من الايمان أن يرجعوه له ، وأن يحتفظوا به كما يحتفظون بأنفسهم ، ويذبوا عنه كما يذبون عن حياتهم ، وأعدوا لذلك الموثق عُدته من شجاعة النفس ، وقوة العزيمة والإخلاص القلبي ، وهكذا أرهقهم أبوهم صعوداً بما حملهم من الشرط الثقيل ، والميثاق الشديد (فلما أتوه موثقهم) ، وآنس منهم صدقاً لم يعهده قبلُ منهم (قال الله) وأشار بأصبعه ونظره الى السماء (على مانقول) من طلبي الموثق منكم ، واعطائكم لي هذا الذي طلبتْ (وكيل) مطلع رقيب ، لا تخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده ، وفجر في الحلف به ، أو موكول اليه القيام بما شهد عليه منا ، فيسجل التاريخ عليكم ذلك ، وتحفظه عليكم الملائكة ، وستكون هذه المعاهدة والمواثقة تحت مراقبة الإله الحق ، سبحانه وتعالى .

وبهذا الذي حصل ،حصل السماح من يعقوب عليه السلام بسفر ولده بنيامين ،

---

(١) الايمان المحرجة : التي تضيق مجال الحلف وهي بتشديد الراء من حرج وبدون تشديد من احرج .

فكأنما هذا « الموثق » هو « جواز سفرهم » لمصر بأخيهم بنيامين والله تعالى أعلم

(قال : لن ارسله معكم . . الخ)

— ٢ —

وقال السيد احمد الصفدي [1] : يمكننا ايها المستمعون الكرام ان نعلق على هذه الآية بالتعليقات الاتية :

الاحتياط والتحفظ لا زمان بجانب المقدر

١ً — كان يعقوب عليه السلام ، استرسل استرسالاً في شأن يوسف وإنفاذه معهم سابقاً ، وسمح بذهابه للمرعى دون شرط ولا قيد ، فرآى من سوء المغبة ، فهاهنا لما شعر بذلك التساهل احتاط في أمر بنيامين ، ومع ذلكم ما أغنى عنه ذلك شيئاً فنتعلم من هذا أن المقدر كائن لامحالة ، كما نتعلم أنه على كل حال ينبغي لنا الاحتياط والتحفظ ، أخذاً بأسباب السلامة ما أمكن .

وجوه سماح يعقوب بانفاذ بنيامين مع اخوته

٢ً — سمح يعقوب بإنفاذ بنيامين معهم وقد شاهد ماشاهد ، وجرب ماجرب لوجوه : أولها استيثاقه باليمين المحرجة التي حلفوها له ، وعلى الأخص لما شخص ببصره نحوهم وجعل ينظر الى سحنهم ويتأمل في أقوالهم ويتفرس في حركاتهم وسكناتهم ، فرآى الاخلاص ظاهراً متجلياً في كل كلمة من كلامهم ، ورآهم يومئذ للصدق أقرب ، فجنح لموافقتهم إنما بتعديل .

ثانيها إنهم كانوا تقدموا في السن ، وذهب عنهم نزق الشباب ، ثالثها أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والعداء مثل ما كان بينهم وبين يوسف .

(١) نسبة الى صفد من بلاد الشام (فلسطين)

رابعها ضرورة القحط أحوجته وسهلت عليه ذلك .

الحالف بالله حالف على حساب الله

(٣ّ) — قوله : ﴿ موثقاً من الله ﴾ جعله منه تعالى لأن من حلف بالله ، كان كأنه قد كفّل الله على نفسه ، كما قال جل من قائل : ﴿ ولا تنقضوا الإيمان بعدَ توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (١٦ : ٩١) » ولما كان الكفيل كالأصيل ، صار المتعهد كأنه هو الله ، فالحالف بالله فهو حالف على حساب الله ، ومتعهد باسم الله ، فكأن الحالف يقول : « إني أتعهد ليس باسمي ، بل باسم إلهي » وعلى الأقل كأنه يقول : « إني أتعهد وأجعل الله كفيلاً لي على هذا التعهد » ، والدليل على ذلك أنني أتقدم وأحلف باسمه تعالى » ، هذا هو وجه قول يعقوب عليه السلام ، إن الموثق الذي تترابط عليه الناس هو عند الحالف باسم الله — من الله ، هذا ما ألهمنيه المولى الكريم ، فتح الله على من تلقاه بقلب سليم .

حس يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه

(٤ّ) يقول يعقوب عليه السلام «إلا أن يحاط بكم» ، فسبحان الملهم ، وجل المنطق ، كان يعقوب يرى ويحدثه قلبه بشيء سيلاقونه ، ويحيق بهم ، ولكنه مجمل عنده لم يتعين في نظره ، وكان يتخوف منه كثيراً ، وكأني به أنه كان يتخيل كرباً شديداً يحيق بأولاده ، وربما يكون ذلك جيشاً يحيط بهم في سفرتهم هذه ، يرون منه يوماً عصيباً ومن الغريب أن هذا الخيال ، قد فسره الحادث الذي وقع ، فقد أحاط بهم عزيز مصر وفتيانه الذين عملوا عليهم الحيلة ، وأرهقوهم بها ، وبواسطتها كان إمساك بنيامين بمصر ، وقلما نرى حادثاً مهماً لم تتقدمه الهواجس .

وجوب التعلم من دروس الماضي

(٥ّ) — للماضي دروس تعلم الإنسان اموراً لم يكن في البال أن يتمسك بها ،

هو بهـــذه الدروس يدرس مافي جعبة الدهر من خفايا وأسرار ، فيحرص على اجتناب كل مضر منها ، وتقديم كل نافع مفيد ، وترانا لانذهب بعيداً للاستدلال على صحة مانقول ، فهذا صفي الله إسرائيل [1] هو اليوم غـيره ، قبل ٢٢ سنة ، ومن ينكر أن هذا الصفي الكريم كان قبل ٢٢ سنة ، قد استرسل مـع أولاده ، لحسن ظنه فيهم ، حتى جاؤوه وأثروا عليه ذلك التأثير المغناطيسي ، وسحبوا ولده المحبوب — يوسف — من حضنه ، وأسلموه لحضن الجب ؟... لايستطيع أحـد أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، كان أبوهم أمس هـكذا ، ولـكنه اليوم يخافهم ، كما يخاف الثعـالب والثعالي ، فهو بين أمس واليوم قد تغير فـكره في أولاده ، وشرع يسلك معهم سبيل الحيطة ، فلذلك لم يرد أن يلبي طلبتهم ، بأخـذهم بنيامين لمصر ، إلا بعد اللتيا والتي ، وبعد استيثاقه منهم بالايمـان المحرجة ، فهـكذا ينبغي لنا نحن أن نكون مـع الناس المشتبه فيهم ، لاسيما سلائل هؤلاء الآباء ، أعني يهود اليوم « أبناء العم المحترمين »!!..

معنى الإحاطة بالشيء

(٦ً)— قوله ﴿ إلا أن يحاط بكم ..﴾ يحتمل أن معناه إلا أن يحـاط بكم من من أولي الصهيل والصليل ، وتلتف حولكم أهل السلاح والكراع ، وتلتقي حلقتا البطان ، فتغلبكم أعداؤكم ، ولا تقدرون على الدفاع عنه ، فيصادر منـكم مصادرة فلاتقدرون على الإتيان به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للظالمين ناراً أحاطَ بهمْ سُرادِقها ﴾ (١٨:٢٩) وقوله تعالى : ﴿ وأخرى لم تَقْدِروا عليهـا قـد أحاط اللهُ بها ﴾(٤٨:٢١)، ويحتمل أن معنى « إلاّ أن يحاط بكم ..» إلاأنتهلكوا في سبيل الدفاع عنه ، وتنشب بكم أظفار العدو ، وتعلق بكم مخالبه ، وتقتلون في

(١) كناية عن سيدنا يعقوب عليه السلام .

الذب عن حياته ، وترتطموا في مهاوي المتالف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ ، وظنّوا أنهم أحيطَ بهم ﴾ (١٠:٢٢)أي أُهلِكوا ،جعل إحاطة العدو بالحي مثلا في الهلاك ، وكذا قوله تعالى :﴿ وأحيطَ بثمَرِه فاصبحَ يُقلّبُ كَفّيْهِ على ماأنفقَ فيهـا وهيَ خاويةٌ على عرُوشِها ﴾ (١٨:٤٣) .فالإحاطة هنا عبارة عن الإهلاك ، وقوله تعالى :﴿ وإذْ قلنا لكَ إنَّ ربّكَ أحاط بالناسِ ﴾ (١٧:٦٠) أي أهلكهم وهم المشركون من قريش في غزوة بدر ، كان أخبره بذلك سلفاً قبل وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ بَلى مَنْ كَسَبَ سَيئةً .وأحاطت به خطيئَتُهُ ، فأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ﴾ (٢:٨١) أي أهلكته .

وعد رأوبين ويهوذا لأبيهما بإعادة بنيامين اليه

(٧) — ورد في سفر التكوين ، أن « رأوبين » كلم أباه وقال له : « اقتل ابنيّ إنْ لم أجيء به اليك ، سلمه ليدي وأنا أرده ليدك » (تك٤٢:٣٧) ولم يكن «رأوبين » يعتقد أن يعقوب يقتل حفيديه حاشا ، بل قال ذلك توكيداً له انه لا يكون على بنيامين أدنى خطر ، وأن « يهوذا » قال لأبيه « أرسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعاً ، أنا أضمنه ، من يدي تطلبه ، أنا إن لم أجيء بـه اليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً اليك كل الأيام» (تك ٤٣:٨و٩).

نصح يعقوب لاولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ(٦٧) ﴿ ... وقالَ : يابَنِيَّ ، لاتَدْخلوا مِنْ بابٍ واحدٍ ، وادْخلوا من أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ . وَما أُغْنِي عنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ ، إِنْ الحُكْمُ إلاّ للهِ ، عليهِ تَوَكلتُ ، وعليهِ فَلْيتَوكلِ المتوكلونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والستون فقام الشيخ اسماعيل الصيداوي [١] وقال :

أعد أبناء يعقوب بما فيهم بنيامين معدات السفر وتجهزوا الرحيل فأخذ أبوهم في نصحهم (وقال) لهم بلهجة المشفق : (يابَنِيَّ) الأحد عشر ، لاتنسوا أن « العين حق » واني أخاف عليكم عين الحاسد ، إذا عمل بمقتضى حسده ، وعين الظالم ،متى جرى على طبيعة ظلمه ، وعين السارق والمفسد والواشي ، ولاتغفلوا عن « ان العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » ، ولا أظنكم نسيتم ماجرى لكم عند دخولكم مصر في سفرتكم الأولى ، من لفت نظر الناس ورجال العزيز عليكم لدخولكم مجتمعين ، لذا حينما تصلون في هذه السفرة الى مصر أوصيكم أن (لاتدخلوا) كوكبة واحدة (من باب واحد) من أبوابها الأربع ، لئلا تكونوا موضع التفات الناس . كما كنتم في السفرة الأولى ، مظنة لطموح الأبصار اليكم من بين الوفود (و) لكن (ادخلوا) « الفرَما » التي هي أول حصن في طريقكم لمصر (منأبواب) « كانت لها أربعة أو أكثر » (متفرقة) ومتباعدة عن بعضها البعض ، وذلك

(١) سبة الى صيدا من البلاد الشامية (لبنان)

احوط لكم ، تحاشياً من ضرر شرطة مصر ، وتفادياً من اعين كل اهل السوء (و) مع ذلك ، فانا (ما) لست (اغني) ادفع (عنكم من) امر (الله) تعالى (من شيء) .. حاشا .. فإنه تعالى يجري الأمور بنظام ، تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب ، (إن) ليس (الحكم) والقضاء الفعلي (إلا لله) الذي بيده المستقبل (عليه توكلت) بعد مراعاتي سننه (وعليه فليتوكل المتوكلون) وليس احد في سعة عن الاتكال عليه ، وخاصة انتم فإنكم غرباء ، والغريب اعمى ، ولو كان بصيراً .

ملحوظة — لا بد انكم ايها السادة تنبهتم لتفسير الآثار الواردة في « العَيْن » وضررها ، الذي حشوته في كلامي حشو اللوز في الفالوذج ، وقريب من هذا تأويل فريق من العلماء لقول : « إن يكن الشؤم ففي ثلاث : في المرأة والدار والفرس » وبعضهم يزيد : « والخادم » فقد اولوا ذلك بأن شؤم المرأة سلاطة لسانها وتعرضها للريب ونشوزها وعقمها وتبرجها ، وشؤم الدار ضيقها وعدم جريان الهواء فيها ، ورطوبتها ، وشؤم الفرس حرانها وغلاء ثمنها ، وشؤم الخادم سوء خلقه وخيانته وكسله وقلة تعهده لما فوض اليه وجهله بما يشتريه وجهله بتدبير المنزل .

(وقال : يابني لاتدخلوا .. الخ)

— ٢ —

وقالت الشيخة فاطمة الصيداوية :

استعداد ابناء يعقوب الاحد عشر للسفر ونصح ابيهم لهم

لما سمع يعقوب عليه السلام بإنفاذ بنيامين مع إخوته الى مصر فرحوا فرحاً شديداً واخذوا يعدون العدة للسفر وقبل الرحيل بقليل قصدوا خيمة ابيهم

لوداعه ، فلما مثلوا بين يديه وقف بينهم مرشداً وناصحاً إذ قال لهم يابني إن الوصية لو تركت لفضل ادب ، تركت لذلك منكم ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل وعليه فأوصيكم متى تجاوزتم « العريش » ووصلتم « الفَرَما » قرب « قطية » وهي اول حصن لمصر في طريقكم فإياكم ان تدخلوا اليها من باب واحـــــد من ابوابها ، ولاتضعوا امركم في موضع الغَرَر ، ولاتخاطروا بأنفسكم ، فإني لاآمن من ان تلتفت اليكم رجال الدولة المصرية ، كالشرطـة والعيون الراصدة والعسس ، وإني اخاف عليكم من العين ، عين الشرطي وعين « الجاسوس » وعين الحسدة والمكرة ، فيكون في ذلك ماأكره وتكرهون ، لاسيا انكم ذوو بهاء وشارة حسنة ، وانكم من أهل فلسطين اعداء مصر والمصريين ، ولذا تلافياً لكل محذور ادخلوا من ابواب لها متفرقـة لتتعدد متوجهاتكم ولتتفرق مداخلكم لأنكم إذا تفرقتم كنتم مغمورين مجهولين بين الناس ، فلا تلتفت الأفكار نحوكم ، فليس التجمع مفيـداً في كل شيء ، بل قد يكون مضراً في بعض الحالات ، فحصنوا عورتكم واحترسوا من غفلتكم ، ولاتلقوا بأيديكم الى ماعسى ان يكون فيه تهلكة . هـذا هو الرأي الصليب الذي اراه الان ، وعلى كل حال فليس باستطاعتي ان ادفع عنكم ممـا قدر الله عليكم من شيء ، إذ لواراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما اشرت بـه عليكم من التفرق ، بل هو مصيبكم لامحالة ، بالرغم عن السدود التي اقمتها في سبيل ما اخشى ان يصيب اخاكم ويصيبكم ، لأني لا اعلم شيئاً من الغير التي ستكون ، ولا اعلم مايأتي به الغد في طياته من الحوادث ، لست ادري ولا المنجم يدري :

قال الشاعر :

لعمرك ماتدري الطوارق بالحصى ولازاجرات الطير ماالله فاعـل

وقال آخر :

وأعـلم عـلم اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم مافي غدٍ عمي

هذا هو « القَدَر » الذي لا محيص عنـــه ، فهل أنا أقدر أن أمنعه عنكم بوصايتي إليكم ؟ أستغفر الله فها أنا أنتظر ما سيجيء به الغد ، واني عالم بأنه إذا كان الداء من السماء بطل الدواء ، كما أعلم أن يد الله فوق كل الأيدي ، وأنـه المسيطر الوحيد الفعال لما يريد ، ولكن اليقين بالقدر لا يمنع الحازم من توقي المهالك، وليس على أحد النظر في القدر المغيب ، ولكن عليه العمل بالحزم ، ونحن نجمع تصديقاً بالقدر وأخـذاً بالحزم ، وأخيراً فليس الحـكم والقضاء الفعلي على سبيل الحقيقة إلا لله غصباً عن الفلك ، فاذا أسند الحـكم والقضاء لغيره فهو على سبيل الصورة والإضافة المؤقتة (انظر تفسير ع ٤٠) نعم نعم ، ليس الحـكم إلا لله وحده ، رغماً عن معاطسنا ، فهو الإله الذي تتبخر أمامه أحـكام جميع الخلق فتصبح دخاناً منثوراً ، ومع كل هذا فإني أريد أن أبذل كل ما أستطيع من أخذ الحياطة ،لئلا أكون اسير الحسرة والندامة إذا ـــ لا سمح الله ـــ صار ما أكره عليه توكلت لا على سواه ، وعليه لا على أنفسهم ولا على قوتهم وعـددهم ولا على أولادهم فليتوكل المتوكلون .

ولما سمع أولاد يعقوب تحذير أبيهم وتعليمه ونصحه قالوا له : لبيك ليكن كما تريد ، ثم تقدموا منه وودعوه وركبوا وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم، فرحاً بقدومهم على « عزيز مصر » ، الذي لم يجربوا منه بعد سوى الإكرام !!!... وكأني بيعقوب عليه السلام حين ودعه أولاده قال لهم بلسان حاله : الى الملتقى يا أبنائي ، على الطائر الميمون يا أولادي ، ثم لكأنه حين وداعـه « لبنيامين » قال بينه وبين نفسه : في عهد الله أيها الابن المثكول ، وفي حراسة الله يا ولداه ، في ذمة الله وكنفه ، أنت سلوى أبيك الشيخ،أنت التعزية الوحيدة عن أخيك الفقيد، أنت الأثر الباقي بعد « راحيل » خار الله لك في سفرتك ،الى الملتقى ، الى الملتقى،. الوداع الوداع ، الى يوم الاجتماع :

خف إذا أُصبحت ترجـــو　　وارج إنْ اصبحت خائــــف
رب مكــروه مخـــوف　　فيـــه لله لطائـــف

(مرحى مرحى)

(وقال : يا بني ، لا تدخلوا ..)

— ٣ —

وقال السيد الإسكندري : عندي على هذه الآية المسائل التالية :

سر التوكيل

١ً — إن سر التوكيل وحقيقته ، هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلايضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفـــع الإنسان قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره ، وركونه اليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مـع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء ، فقول العبد : « توكلت على الله » مع اعتماد قلبه على غيره ، هو مثل قوله : « تبت الى الله » وهو مصر على معصيته مرتكب لها ، كذلك توكل العبد على الله مع عـدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلا .

وجوب الأخذ بأسباب التحرز والحيطة مع التوكل

٢ً — نعلم من قوله : لا تدخلوا .. وادخلوا ... عليه توكلت ... ان يعقوب عليه السلام فضل التحرز والحيطة ، ومع ذلك فقـد القى حبل اتكاله علي الله ، فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، وكلام يعقوب يشير الى أنه لا منافاة بين الأخـــذ بالأسباب والتوكل ، لأن التوكل ليس هو إلا الثقة بالله تعـالى.

والاعتماد عليه والاعتقاد ان الأمر منه واليه ، ولو مع الأخذ في الأسباب ،وما قاله يعقوب عليه السلام هو على حد قول فخر الكائنات : « اعقلها وتوكل » ، أشار الى أن عقل الناقة لا ينافي التوكل ، وقوله عليه الصلاة والسلام روحي له الفداء : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » ، فأثبت للطير توكلاً مع ذكره انها تغدو وتروح .

الاخذ باسباب الحيطة والسلامة فرض ديني

وبعد فترانا في هذا المقام ، لا نقف عند هذا الكلام ، فنقول :غني عن البيان ان يعقوب عليه السلام هو نبي كريم ، وطبعاً يعلم كما يعلم كل مؤمن أن لا شيء يجري في هذه الحياة بدون قضاء الله وسماحه ، ولكنه يدرك مع ذلك ان سعيه في أسباب الحيطة والسلامة من الوقوع فيما يكره ، هو فرض من فروض الدين ، فنفسية يعقوب أرقى جداً من نفسية كل من يستسلم للقضاء والقدر ، ولا يأخذ في أسباب السلامة على قدر الإمكان ، وماذا عسى أن يكون مبلغ علم الناس ، عند علم يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ إيمان الناس ، عند إيمان يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ ثقة الناس بالله،عند ثقة يعقوب ؟ ولكنه هو الأخذ بالأسباب المفروض على كل مسلم ومسلمة .

اسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل منهم من القضاء والقدر

إن الغربيين هم أتباع ديانات ، يعلم فيها بالقضاء والقدر ، كما يعرف ذلك تماماً من توراتهم وزبورهم وإنجيلهم ، وسائر أسفار الأنبياء التي بأيديهم ، ولكنهم مع ذلك يدركون أن نشاطهم وابتعادهم عن طرق الشر ، وتعاونهم ومثابرتهم — كل

ذلك عندهم فرض من فروض النجاح، حتى ولو كان الأمر الذي يزاولونه بسيطاً، لا يحتاج لتحفظات جدّية ، ولا الى أيدٍ كثيرة .

قد يجوز أن يكون هذا الموقف المختلف ، الذي يقفه كل فريق منا ومنهم بازاء ما ندعوه « قضاء وقدراً » هو من أسباب نجاح الغرب ، وتأخرنا نحن أهل الشرق،وقد يجوز أيضاً أن يكون سبب خذلان مشروعاتنا الاقتصادية ،وشركاتنا التجارية ، وفقدان المؤسسات النافعة ، من بين ظهرانينا هو نتيجة هذا الاتكال على « القضاء والقدر » ، ليقدم لنا ما نطلب ، ويتحفنا بما نحتاج اليه ، والأمر لو وقف عند هذا الحد ، لهان الخطر ، وقلنا : إن الشرقيين شعب له ثقة بالله ، واتكال على قضائه وقدره ، والله سبحانه وتعالى لا يخيب من يقصده ، ولا من يتكل عليه ، ولكن المصيبة في أن هذا الشيء تأصل في عقولنا ، وتوسعت فيه نفوسنا ،وتشبعت منه أفكارنا ، فتيبسنا وجمدنا ، وضرب علينا الكسل قبابه ، ونصب حولنا الفشل خيامه ، حتى ان الإكثار من ذكر « القضاء والقدر » أصبح عادة متمكنة من نفوسنا ، وغدا ذلك شعاراً لنا عند كل عمل أردنا مزاولته ، فصار لنا ذلك بمثابة طابع لنا نحن الشرقيين ، نطبع به كل عمل ، من صنع أيدينا ، أو هو العلامة المسجلة لكل عمل أردنا أن نعمله ، أو هو العقبة الكؤود التي إن لم تمنعنا من الاقدام على جلائل الاعمال ، منعتنا من المثابرة والإتمام .

انواع الناس بالنسبة الى عقيدة القضاء والقدر

(٣) ــ أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر ، ثم أشار الى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة ، ولا مغنية عن حكم الله شيئاً .. والناس في هذا الباب ثلاثة أنواع :

النوع الأول ــ متسبب صرف ، قد قصر نظره على السبب وقوّته وضعفه ،

وهؤلاء هم المنكرون لوجود الصانع المختار، من قبيل الماديين والطبيعيين والدهريين، وظاهر أنهم من أهل الإلحاد، الذي ليس وراءه الحاد.

النوع الثـــاني — اتكاليّ صرف معرض عن الأسباب والوسائط، والآلات والأعمال، لا يريد أن يفتكر ولا يتحرك، ولا يعمل عملاً ما، اتكالاً منه على القضاء والقدر، واعتماداً على ماسبق في العلم أزلاً، وإن شيئا من هذا لا يتحول ولا يتحور، ولا يزيد ولا ينقص، وإن العمل وعدمه سيان، والحركة والسكون أخوان، وظاهر أن هؤلاء أهل جمود وكسل وجهـالة، غالطون في تصوراتهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون، وهم بهذا مخالفون لشرائع الله وأوامره جميعاً، يُحتجّ عليهم ويثربون، ويحكم عليهم بأنهم عصاة ضالون، وهم للجنون أقرب منهم للعقل، ولو كان الناس كلهم على شاكلتهم، لما أتى قرن واحد، وعلى وجه الأرض إنسان، وأشرف منهم الطير والحيوان.

النوع الثالث — من يثق بالله تعالى، ويعتمد عليه، ويعتقد أن الأمر منه واليه، مع أخذه بالأسباب، ودأبه على العمل بجد ونشاط؛ وظاهر أن هؤلاء أتقياء أهل الايمان، وهم أهل التوكل المشروع، وهذا ماجرى عليه يعقوب عليه السلام في وصيته لأولاده كما ترى.

التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي والأخروي

(٤ً) لينظر القارىء اللبيب قول هذا النبي الكريم: « لا تدخلوا.. الخ »، مع قوله: « عليه توكلت »، مع مدح الله له بقوله: « وإنه لذو علم لمـا علمناه » يجد أن الاحتراس من الامور الضارة يمـدح الله عليه من فعله، ويسلم له دعواه التوكل، فليسمع هذا جهلة المتصوفين، الذين لا يفهمون التوكل إلا بأنه معاداة الأسباب وإهمالها، وليعلموا أن الله ورسله يكذبونهم، وأكبر رد على من يستهين بالأسباب قوله تعـــالى: ﴿ بَلى مَنْ أَسْلَمَ وجهَهُ للهِ، وهو مُحسِنٌ ،

فله أجرُهُ عندَ ربِّهِ ، ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزَنون ﴾ (٢:١١٢) ، فان الله تعالى لم يقـــل ﴿ ولاخوف عليهم ﴾ إلا بعد قوله ﴿ وهو محسن ﴾ منضماً الى إسلام الوجه لله ، وكذا قوله تعالى : ﴿ فامشُوا في مناكبها وكُلوا من رزقه ﴾ (٦٧:١٥) وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكم ﴾ (٤:٧٠) وقال تعالى ﴿ وأعِدُّوا لهم مااستَطعْتُم مِنْ قوةٍ ومنْ رِباطِ الخيلِ ﴾ (٨:٦١) وقال تعالى ﴿ وتزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزادِ التقوى ﴾ (٢:١٩٧) وقال تعالى خطاباً لنبيه لوط عليه السلام : ﴿ فأسْرِ بأهْلكَ بِقِطْعٍ مِنَ الليـــل ﴾ (١١:٨١) وقـال تعالى : خطاباً لنبيه موسى عليه السلام : ﴿فأسْرِ بعبادي ليلاً ﴾(٤٤:٢٣) وقال تعالى : ﴿ فاذا قُضيَتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرضِ وابْتغوا من فضْلِ الله ﴾ (٢:١٠) وقال تعالى : ﴿ ليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تَبْتغُوا فضـــلاً مِنْ رَبِّكمُ ﴾ (٢:١٩٨) ، وقال تعالى : ﴿ وقلْ اعمَلوا فسَيرى اللهُ عملَكمْ ورسولُه والمؤمنون ، وستُرَدُّونَ الى عالمِ الغيبِ والشهادةِ ، فيُنبِّئُكمُ بما كنتم تعملونَ ﴾ (٩:١٠٦) ، الى غـــير ذلك من الآيات التي تحض على مطلق عمل دنيوي وأخروي .

التوكل محله القلب ، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح ، والانسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليهـا ، وكل من خالف ذلك فهو فاسد الفطرة مبدل لخلق الله .

إذا الإنسان توكل فقط ، ولم يستعد للأمر ، ويأخـذ له أهبته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه ،فيكون ملوماً شرعاً ، وعقلاً ، كما قال تعالى في الإسراف في المال : ﴿ ولاتجعـلْ يدَكَ مَغْلولَةً الى عُنقِـكَ ،ولا تبْسُطْـها كلَّ البَسْطِ ،فتَـقْعُدَ ملوماً محسُوراً ﴾ (١٧:٢٩) وقال تعالى خطاباً لفخر الوجود ﴿ ولاتُطِـعِ الكافرينَ والمنافقينَ ،

وَدَعْ أذاهُم وتوكلْ على اللهِ ، وكَفَى باللهِ وكيــلاً ﴾ (٣٣:٤٨) قرن أمره بالتوكل بنهيه عن إطاعة من لايوثق بقوله ، لأنه يغش ولاينصح ، وقال تعـالى : ﴿ وشاوِرْهُم في الأمرِ ، فاذا عَزَمْتَ فتوكَّـــلْ على اللهِ ، إنَّ اللهَ يُحبُّ المُتوَكلِينَ ﴾ (٣:١٥٩) ، قرن الأمر بالتوكل بالمشاورة ، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلباً وإيجاباً .

وبالجملة ، ضل اثنان خـــير منهما ثالثهما ، الأول لايريد أن يعرف النواميس ، والثاني يريد أن لايعرف سواها ، فياقاتل الله الإفراط والتفريط .

العين الشريرة وعادات الامم في دفع أذاها

(٥ً) — قوله : «لاتدخـلوا .. الخ » : يعتقـد فريق من الناس خصوصاً النساء أن للعين الشريرة (كما يدعونها) تأثيراً على الاشخاص والاجرام والاشجار التي تنظر اليها هذه العين نظرة استحسان وإعجاب ، ولما كانت كل امرأة تنظر الى طفلها مثل هذه النظرة ، فهي تعتقد أن هـــذه « العين الشريرة » واقعة عليه لامحالة ، ولذلك قد جرت العادة أن تسلح النساء أطفالهن بسلاح يرد هذا الضرر ،

فالمرأة السورية لترد العين عن طفلها تلبسه خرزة من الخرز الأزرق .

والمرأة الفلسطينية ، تضع ضمن قلادة خرزة بيضاء وخرزة زرقاء ، وصورة شخص من ذهب ، تسميه « مُشَخَّص ».

والمرأة الإرلندية ، تمنطقه بخصلة شعر من امرأة عجوز ؛

والمرأة الرومانية ، تربط كاحليه بشريطة حمراء ؛

والمرأة الإسوجية ، تضع في مهده كتاباً من كتب الطب ،

والمرأة البلجيكية ، تعلق على صدره قطعة من النقود ؛

والمرأة الاسبانيولية ، تعلق على قبعته غصن صنوبر ؛

والمرأة الانكليزية ، تعلق فوق باب غرفته نعل حصان ، وفي عنقه زهرة من نبات يدعى « ميسيلتو » ، يوجد في غابات إنكلترة ؛

والمرأة الفرنسية ، تعلق فوق مهده غصناً من أغصان شجرة « الدرويد » المقدسة في نظرهم ؛

وبعد كل هذا فيعقوب عليه السلام إنما أراد لأولاده التحفظ من عيون الناس الأشقياء أهل الفساد ، ومن عيون مستخدمي الحكومة.

ابواب الدخول الى مصر

(٦ّ) — ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ قيل هي أبواب « الفَرَما » وكان لها أربعة أبواب ، قيل : هي في محل « بورسعيد » اليوم ، أوهي في محل البحر جهة « بورسعيد »، وقال بعضهم : « الفَرَما » بالتحريك والقصر مدينة على الساحل من ناحية مصر ، وبعبارة أخرى : حصن على ضفة البحر ، وهي بعد « العريش »، وقيل إنها مدينة قديمة بين « العريش » و« الفُسطاط » قرب « قطية » وشرقي « تَنّيس » على ساحل البحر ، على يمين القاصد لمصر ، بينها وبين بحر القلزم ، وكان « احمد بن المدبر » قد أراد هدم أبواب الفرما ، وكانت من حجارة شرقي حصن الفرما ، فخرج أهل الفرما ومنعوه من ذلك ، وقالوا ان هذه الأبواب هي التي ذكرت في كتاب الله ، حين قال يعقوب لبنيه : ﴿ يابَنِيّ لاتدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ فتركها ، قالوا : وكان « عمرو بن العاص » فتحها عنوة سنة ١٨ هـ في خلافة عمر رضي الله عنه (١) اذ سار عمرو بن العاص بالمسلمين لفتح مصر ، فوصل « رفح » ثم « العريش » ثم « الفرما ».

---

(١) معجم البلدان

الحذر لا يغني من القدر

(٧ً) — تعليقاً على قوله ﴿ وما اغني عنكم من الله من شيء ﴾.

أولاً — نتذكر ههنا نادرة ، هي انه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دارخربة، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجـــل منهم : ياهؤلاء لاتقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولهـا فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، وأصبح الجميع في عافية ، وحمّلوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، اذ دخل الرجل الى الدارلحاجة، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً — يحكى أن عضـــد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدولة وابن ركنها   مالك الاملاك غلاّب القَدَر

ثم أصيب بعدبشيءمن الخبل والوسواس وفساد المزاج، فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ ماأَغنى عني ماليَهْ ، هَلكَ عني سُلطانيهْ ﴾ (٦٩:٢٨و٢٩) .

هل للعبد ارادة واختيار

(٨ً) — وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لانه سبحانـه وتعـالى الفعال لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحـك ، وما أراده تعالى كائن لامحالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه ليس للعبد كسب واختيار — كلا — لأن هذاالمعنى مناف للعدل الالهي ، ومناقض لحكمة التشريع السماوي ، ولايلتحم مـع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبـد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابـة والسلف يفهمون من تلك

النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولكنه إنما يختار لنفسه ماوافق استعداده، وجرّته اليه ملّته وارادته وتربيته ومزاجه ووراثته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيدة والعادة والحكم والاسرة والمدرسة والمجتمع والمناخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة او الشقاء.

واما قضاء الله وقدره فينا ، فهما خفيان عنا معشر البشر ، وانما يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سننه الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بثها في هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، وهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها الى أبصارنا مافي اللوح السماوي من حكم الله وارادته ومشيئته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدراً بقدر ، حسبما هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة،وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يعتقد انه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاه الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت الى هنا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلٰهي للقضاء والقدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنكم مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ ... ﴾ فتأمله ، سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا .　(مرحى)

قول الخوارج لا حكم الا لله

٩ً — سألني طالب علم صغير : إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكمُ إلاّ لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه،فكيف كانوا على باطل ، وهذه الجملة شعارهم ؟ ... فتبسمت لسوآله وشكرته عليه لحداثة سنه ، وقلت له : يا ولدي ، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل ، أريد بها الخروج

على عليّ كرم الله وجهه ، حيث حكّم وهو على حق ، فكان الخوارج يقولون « لا حكم إلا لله » .

نظام الطبيعة واحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر

١٠ - إن ما قيل في آية (وما أغني عنكم من الله من شيء) فيه كفاية للمستبصرين ، ولكن تذييلاً للمقام أقول :

إن للطبيعة نظاماً ، وإن لله في سيرها أحكاماً ، فينبغي لنا أن نخضع لأحكام الله ولا نخل النظام،قال تعالى : ﴿ وخلقَ كلَّ شيءٍ فقدّرَهُ تقديراً ﴾(٢:٢٥) وقال تعالى ﴿ إنّا كلّ شيءٍ خلقناهُ بقدَرٍ ﴾ (٥٤ : ٤٩) ، وعندي ان في هاتين الآيتين ونحوهما ما يوقظ الأفكار لحل مشكلة القدر ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث

سفرة اخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) ﴿ . . . ولمّا دَخَلوا مِنْ حيثُ أمَرَهَمْ أبوهم ، ما كانَ يُغْنِي عَنهمْ مِنَ الله مِنْ شيءٍ ، إلاّ حاجةً في نَفْسِ يعقوبَ قضاها ، وإنّه لذو عِلمٍ لِمَا علّمناهُ ، ولكنّ كثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ ﴾ .

اقتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والستون فقام الشيخ آدم الرمتي (١) وقال :

قام أبناء يعقوب وأبوهم واضع يده على قلبه ، وركبوا دوابهم ورحلوا من

(١) نسبة الى الرمتا من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

سيلون الى غزة الى رفـح الى العريش الى الـفـَرما وهي أول حصن حصين من بلاد مصر (و) لا أخفي عن القارئين والسامعين أنهم (لما دخلوا) الـفـَرَما (من حيث أمرهم أبوهم) وكما رسم لهم ، وعلى حسب الخطة التي اختطها لهم ، متفرقين لأبوابها الأربعة — لما دخلوا هكذا ما عتموا أن وقعوا فيما قدر عليهم وخاصة على أخيهم بنيامين ، و (ما كان) ذلك الرأي ودخولهم متفرقين (يغني) يدفع (عنهم من) قدر (الله من شيء) ، لأن الإنسان وديعة غيب ، لا يعلم ما يطرأ عليه ، بل ذهب ذلك التحفظ أدراج الرياح ، وغلب التقدير التدبير ، حيث أصابهم ما ساءهم من إضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم ، ولكن عدم إغنائه من الله من شيء ، لا يقلل شيئاً من قيمة الأخذ في الأسباب ، وسلوك سبيل الاحتياط والتحفظ ، (إلا حاجة) غاية (في نفس يعقوب قضاها) وهي على ما فهمه العلامة الزمخشري شفقتـه عليهم وإظهارهم بما قاله لهم ووصاهم به ؛ أو هي على ما يفهمه هـذا الحقير أن لا تبقى في نفسه حسرة ، إذا حدث لولده « بنيامين » شيء مما يخشاه ، كما بقيت في نفسه حسرة في حادثة يوسف ، حينما وحيثما استرسل مع أولاده استرسالاً ، وسلمه لهم دون قيد ولا شرط ، دون عهد وميثاق ، دون وصية وارشاد ؛

فهو كان رأى نفسـه في حادثة تسليم ولده يوسف أنه استسلم لأولاده على العمياء دون كفالة ولا توثق ، حال كونه كان يخاف منهم عليه ، لأنهم يكرهونه ، وهم له حسدة ، وأبوهم يعرف ذلك كله ، حتى انه قال له : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » (ع ٥) ، فمع كل ذلك قد زج به الى إخوته ، وتعذيبهم إياه ، حتى صار فريسة الإثم وطعمة الغرور ، وألعوبة في يد المكرة ، وقد قيل: « من استرعى الذئب ندم » ، ويعقوب

استرعى الذئب على ولده بدون أن يكون معه حراس ، كان كل هذا في حادثة يوسف ، وأما اليوم في حادثة بنيامين ، فلم يرد أن يترك أخذ العهد المغلظ عليهم ، ولم يشأ أن يغفل إرشادهم ووصيته اليهم ، لئلا يتوهم انه ضيّع ولده بيده ، وانه سلمه الى المهالك باختياره ، فيحزن عليه حينئذ حزن النادم المتفجع ، الذي لايجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى ، ويتحسر انه ترك نوعاً مما يقدر عليه ، من أنواع التحفظ ، بل يريد هنا أن يحتفظ لبنيامين ما وجد لذلك سبيلاً ، وأن يأخذ حذره ما أمكن ، فيعقوب عليه السلام بما أجراه هذه المرة مع أولاده في شأن بنيامين لا يتحسر كثيراً ، ولا يتأسف أسفاً جليلاً ، لو طرأ على ولده صدمة من صدمات القدر ، أو نزل عليه نازلة من نوازل القضاء ، لأنه حينئذ لا قصور منه ولا تقصير ابتداء ، ولا حول ولا حيلة انتهاء ، فهو إذ عمل بالواجب قد يهون عليه الأمر ، ويسهل في نظره المصاب، فلا يصدر منه كبير أسف ، ولا كثير تحسر ، ولا يقدر أحد أن ينسب اليه الاسترسال مع الأولاد ، أو الاهمال لشيء من الحذر ؛ هذا ما أفهمه فيما هي هذه « الحاجة » ولا أعلم هل أنا مصيب أو مخطىء ولكن أعلم أنني كتبت ما اعتقد .

(وإنه لذو علم) أي فهم ومعرفة (لما علمناه) أي بفهم الذي علمناه إياه ، ومنه أمره لأولاده بالحذر وأن لايدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لايدفع القدر ، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظ من التأثير ، فنعمّا ذلك الصفي الكريم ، أو معنى قوله « ذو علم » ذو عمل ، لأن العلم التصديقيّ الإذعانيّ المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل ، ونقلَ البخاري عن قتادة أن العلم هنا العمل، ولذلك فسره بقوله « عامل بما علم» ، ووجهه أن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أُشْرِبَتْهُ روحُه ، وخالط لحمه ودمه، ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بداً من العمل

به ، رضي أم أبى ، فاذاً أصبح العلم هو العمل ، لأن أثره اللازم له ، لزوم الظل للشاخص ، أو لزوم حركة الخاتم لحركة الاصبع ، ولذلك قالوا : آية فهم المعلوم تأثر العالِم به وظهوره فيحركاته وسكناته وترقرقه في شمائله ، ترقرق اللابن السائغ في جسم الرضيع .

العلم علمان : نظريات وعمليات ، والعلم لايتحقق أو لايتأكد إلا بالعمليات ، فلا يقال : فلان نجار ، إلا بعد أن يكون — عقب النظريات — قد عمل صندوقاً أو خزانة مثلاً ، وكذا لا يقال : فلان حداد ، إلا بعد أن يكون قد عمل مفتاحاً أو سكيناً مثلاً ، وهكذا لا يقال : فلان طبيب ، بمجرد نواله الشهادة ، مالم يكن قد ابتدأ في تطبيب المرضى بالفعل ؛ وعندنا أن جملة « لذو علمٍ لما علمناه » تحتمل تخريجاً ثالثاً ، وهو أن اللام فيقوله « لما » للتعليل و « ما » موصول حرفي ، والمعنى لأجل تعليمنا إياه ، (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ماعلمه يعقوب من الجمع بين الاخذ بالاسباب والتوكل ، فالقِبْضُ منهم في غفلة عن ذلك ، وجمهرةُ الناسهم من ذوي الغَبْنِ والنوْك .

اجتماع شمل الشقيقين

آ (٦٩) « ولمّا دخلوا على يُوسفَ ، آوى اليه أخاهُ ، قالَ : إنِّي أنا أخوكَ ، فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يَعْمَلونَ »

وتليت الآية التاسعة والستون في نفس الجلسة فقام الحافظ الترمانيني[1] وقال :

(ولما) وصلوا صوعن « صانالحجر » عاصمة المملكة الهكسوسية ، و (دخلوا

(١) سبة الى ترمانين من بلاد الشام (سورية)

على) عزيز مصر (يوسف) ووقفوا وِجاهَه ، شعر بتعزية داخلية بمجيئهم عنده ، و (آوى اليه أخاه) بنيامين ، وأدناه منه ، وأنزله تحت ظله ، وجمعه اليه ، ورق له وعطف عليه ، و (قال) له (إني أنا أخوك) — قال بنيامين : « أخي في الحب والصداقة أم ماذا ؟ » — قال : « أخوك المفقود يوسف بن إسرائيل ، من زوجه راحيل، أنا أخوك وأنت أخي ، أنت لي وأنا لك ، وكلانا على الدهر (فلا تبتئس) لاتحزن ولا تتذمر (بما كانوا يعملون) ويمرمرون به معيشتنا ، فإنه لا يقلل من قيمتنا التاريخية شيئاً ، هكذا قدر عليهم أن يعملوا ماعملوه ، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم ، واجعل قرة عينك اليوم برؤية أخيك، ناسخة لأحزان الثلاث والعشرين سنة الماضية : افرح وتهلل اعتباراً من هذه الساعة .

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد الكلسّي

اخوة يوسف الاحد عشر بين يدي يوسف

ولما وصل إخوة يوسف مصر ساروا تواً الى حيث يقيم العزيز « يوسف » ومعهم بنيامين الذي طلبه منهم ، وعنددخولهم عليه سُرّي عنه بذلك كل هم وغم إذ كان ينتظرهم بفارغ الصبر ، وهو على أحر من الجمر ، ووقفوا أمامه وسلموا عليه تسليم الإمارة وركعوا وكفروا ، مترامين بين قدميه ، فلما رأى يوسف بنيامين معهم ، قال لهم : (أنجز حرّ ماوعد) ثم قال الذي على بيته : (أدخل الرجال الى البيت واذبح ذبيحة وهيء ،لأن هؤلاء الرجال يأكلون معي عند الظهر) ففعل الرجل كما قال له يوسف ، وأدخل الرجال الى بيت يوسف ، وأعطاهم ماء

(١) نسبة الى كلس من بلاد الشام .

ليغسلوا أرجلهم ، وأعطى عليقاً لدوابهم ، فلما جاء يوسف الى البيت سجدوا له الى الأرض ، فسأل عن سلامتهم ، وقال : (أسالم أبوكم الشيخ الذي قلتم عنه ؟ أحيّ هو بعد)فقالوا : عبدك أبونا سالم، وهو حيّ بعد ، وخروا وسجدوا،وكان هذا السجود تمام الحلم الاول ، وهو أن حزمهم الإحدى عشرة سجدت لحزمته ، وكانت الحزم في الحلم مناسبة لطلبهم القمح منه ، فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه ، وقال : (أهذا أخوكم الصغير الذي سمعت به وطلبته منكم ؟) وهذا الاستفهام للتكلم أو للتعجب ،لأنه رآه ابن نحو ثلاثين سنة ، وكان يوم بيع يوسف ابنَ نحو من ثماني سنين ، ثم خاطبه يوسف بقوله : (الله ينعم عليك يابني) واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت الى أخيه ، وطلب مكاناً ليبكي ، فدخل المخدع وبكى هناك ، ثم غسل وجهه ليزيل آثار الدموع وخرج وتجلد ، وقال للخدامين : قدموا الطعام ، فقدموه له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين وحدهم ، لأن المصريين كانوا لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين ، وهذا التمييز بين الآكلين كان عاماً في الأزمنة القديمة ، ولا يزال في الهند ، ولكنه عند المصريين كان بمقتضى أمر ديني ، أن لا يأكلوا مع الغرباء ، ففي تاريخ هيرودوتس أن المصريين كانوا يأبون الأكل مع اليونانيين وأن مس الطعام بسكين يونانية ينجسه .

ورفع يوسف حِصَصاًمن قدامه اليهم ،ولكن كانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم ، وهذه العادة كانت تعد من الرئيس في بلاد الشرق إكراماً عظيماً ، فأكلوا وشربوا ورووا ، وكانوا آمنين مبتهجين ، وأما يوسف فكان يفعل ذلك معهم وهو يقول في نفسه : اليوم تمر وغداً أمر ، ثم بعد انتهاء حفلة الطعام ضم يوسف اليه بنيامين في عزلة عن باقي اخوته ، وهش له وبش ، وقد ترقرقت الدموع في عينيه ، ثم قال له أتعرفني وتعرف اسمي ومن أنا ؟ — قال :

ماأنكرك لسوء ــ قال يا ابن راحيل انظرإليّ جيداً وتفرس فيّ ملياً إني ابن أمك وأبيك ، أنا أخوك يوسف ــ وأما بنيـامين فسمع مالم تضطرب به حاسته ، ولا هجس في الضمائر ، فقال : ماتقول ياحضرة «صفنات فعنيح المحترم» ــ قال هذا هو الواقع ، أنا يوسف ابن أمك راحيل ، من رجلها يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ، أنا أصح نسبة ليعقوب من المطر الى السحاب ، وأصح نسبة لراحيل من النور الى الشمس ــ فظن بنيامين نفسه في منام ، لأنه فارقه منذ ٢٣ سنة ، فلم يعرفه ، ولكن يوسف ذكر له من السيما ماتأكد به أنه أخوه الفقيد ، وعند ذلك برح الخفاء وتقشعت الغمامة ، وظهر البدر التمام ، وأما بنيامين فطار فرحاً ، وقام اليـه وتحاضنا ، وسلم عليه بالقبلة الاخوية ، وجاوبه أخوه بقبلة حارة ، وأمسك كل بيد الآخر إمساكاً شديداً ، ثم قال له يوسف والآن يا أخي ، لاتحزن ولا تتذمر بما يفعله إخوتنا ، مما سجله عليهم التاريخ ، بمداد من نار . إن الله قد أحسن الينـــا وجمعنا على خير مانرجو ، وقد أبدلك مرارة صابهم ، وغضاضة علقمهـم بحلاوة اللقاء ، وجمع شمل الأحباء ، ومع ذلك فان مع اليوم غداً .

(مرحى)

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

ــ ٣ ــ

وقال حمدي باشا الانطاكي[١] :

يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه اليه

لما دخل إخوة يوسف على يوسف ، حيوه تحية الأمراء ، وقالوا له : (هانحن أولاء قد سعينا السعي الحثيث مع أبينا حتى أتينا بأخينا بنيامين حسب رغبتك) ، وأما يوسف فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين ، فقد فرح بمجيء إخوته بني

(١) نسبة الي انطاكية من بلاد الشام .

العلات ،فرح المنتصر الظافر، وفرح بمجيء شقيقه،فرح الحبيب بالحبيب،ولما رفع نظره لبنيامين لمس القلب ، لاسيما وقد لاحت له في صورته صورة المرحومة أمه « راحيل » ، فعطف عليه وآواه اليه ، وكأنه سبحانه وتعالى ، يشير بهذه الكلمة إلى إنقاذه من ظلم إخوته إياه ، واستبدادهم به ، فقد تكاد هـذه الكلمة أن لاتستعمل إلا في مقام النصر والانقاذ من الذل والتهلكة ونحو ذلك ، ومن قوله تعالى : ﴿ وآويناهما إلى ربوة ﴾ (٢٣ : ٥١) وقوله تعالى : ﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾ (٧٠ : ١٣) وقوله تعالى في النبي ﷺ : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ (٩٣ : ٦) وقول لوط عليه السلام : ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ (١١ : ٨٠). وقول ابن نوح : ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ (١١ : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿ آوى اليه أبويه ﴾ (ع ٩٩) ، ويدلنا على أن بنيامين كان محوطاً بظلم إخوته واستبدادهم ، قول يوسف له : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ الذي يرمي إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه ، ثم هو لما رآى بنيامين وضمه اليه تتخيل أنه قال في نفسه :

كأنك لم توتر من الدهر مرة　　إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

وقال لبنيامين مقدماً نفسه اليه معرفه بشخصه الكريم ، إني أنا أخوك يوسف ، فكن مطمئن البال ، حيث ظفرت بأعز ماترجو ، وعلى الدنيا السلام ، فلا تحزن ولا تتذمر بما كانوا يعملون معنا ، فقد أصبح منذ اليوم خبراً ليس له أثر ، أصبح ليس له وجود إلا في بطون الدفاتر ، وأنا لا أريد أن أثير المعركة عليهم من جديد سامحهم الله ، فلنتناس مافات ، وننظر فيما هو آت ، وان لم شملك بأخيك اليوم يشفع في كل ما أصابك من الأسواء ، ويجب أن ينسيك كل بلواء .

بدء المعركة بين يوسف واخوته - التسريق

آ (٧٠) ...﴿ فلما جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، جَعَلَ السِّقَايَةَ في رَحْلِ أَخيهِ ... ثم أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : أيتها العِيرُ ، إنكم لسَارِقونَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية السبعون فقام السيد مطيع الادلبي[1] وقال:

كان يوسف عليه السلام عقد النية بالاتفاق مع « بنيامين » على عمل الحيلة بنسبة السرقة اليه ، توصلاً لبقائه عنده قهراً كرقيق لمدة سنة أو أكثر ، فأمر خادمه الخصوصي الذي على بيته قائلاً : « املأ عدال الرجال طعاماً حسبما يطيقون حمله ، وضع فضة كل واحد في فم عدله ، وطاسي طاس الفضة تضعه في فم عدل الصغير مع ثمن قمحه » (فلما جهزهم بجهازهم) من قمح وزاد للطريق من خبز ودقيق وسويق وعليق ، وسائر لوازم السفر ومعداته (جعل) وضع (السقاية) أي طاس الفضة (في رحل) في عدل (أخيه) بنيامين ، بيد خادمه الخاص الذي على بيته ، فلما أضاء الصبح انصرف إخوته ، هم ودوابهم ، وعندما قاربوا الخروج من المدينة « صوعن » ولم يبتعدوا ، قال يوسف لخادمه الخاص « قم واسع وراء الرجال ، ومتى أدركتهم فقل لهم : لماذا جاريتم شراً عوضاً عن خير ؟ اليس هذا هو الذي يشرب سيدي منه ؟ أليس هذا هو الذي يكيل أيضاً به ؟ » فقام الخادم يسعى وراءهم (ثم أذن مؤذن) أي نادى مناد : (أيتها العير) القافلة الفلسطينيون رويداً ، على رسلكم ، إن « العزيز » أرسلني ، والرسول غير ملوم فيما يبلغ ، وإن أغلظ في القول ، — قالوا : « فما الرسالة ؟ » — قال : (إنكم لسارقون) وسيكون لنا معكم شأن من الشؤون ، فأنتم لستم قافلة تجارة ، ولا رواد ميرة ، بل عصابة

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام .

لصوص ، أو حملة عدائية نحو « العزيز » فما هذا الشرك الذي نصبتموه لنا ، ذريعة للاختلاس ؟ وماهذا المركب الخشن الذي ركبتموه ؟ . .

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية . . الخ

— ١ —

وقال السيد عبد الكريم العجلوني (١) :

المحادثة التي يظن أنها جرت بين يوسف وأخيه بنيامين قبل تسريقه

لو كنت من المحدثين في هذه الأمة المحمدية لقلت إني حُدِّثتُ بما يلي :

قال يوسف لأخيه « بنيامين » : « يا ابن الأعيان ، لي معك كلمة ، أصغ اليها ، فإن اجتويتها فاضرب بها عرض الحائط ، وإن وقعت عندك الموقع الحسن ، فتنازل بمساعدتي على ماأريد ، أنا أريد الآن بقاءك عندي ، لتؤنس من وحشتي ، وتخفف من آلامي وفرقتي ، وتعينني على احتمال أعباء الحياة وهمومها ، وها أنا ذا هنا أقلب طرفي حولي ، فلا أرى أخي الذي أحبه وأوثره ، وأرى فيه شخص يعقوب وصورة راحيل ، إنني ههنا لا أرى إلا أناساً آخرين أجانب ، لا شأن لي معهم ، ولا صلة بيني وبينهم ، فلذلك يخيل الي ، وأنا مجتمع بالجمهور من المصريين المحكومين ومحفوف بالجمهرة من العمالقة الحاكمين ، كأنني خال بنفسي ، منقطع عن العالم ومافيه ، ولقد كنت سعيت في أسباب حضورك ، وكنت أترقب ذلك ترقب المقرور أشعة الشمس ، وكنت أنتظرك انتظار الظامىء ديمة القطر ، فالآن أريد أن تبقى عندي لاسواك ، تبقى عندي مدة طويلة لاقصيرة ، لأننا مشتاقان كل الى أخيه ، كما أريد ذلك بالأحرى لأبينا الشيخ الجليل ، ولكن الأمر بالنسبة لأبينا صعب الآن جداً ، لأن الظروف والأحوال لاتمكننا اليوم من الحصول على لذة الاجتماع

---

(١) نسبة الى عجلون من اعمال بلاد الشام (شرقي الاردن)

به ، لأن هذا لايمكن إلا إذا أظهرت نفسي له ولإخوتي ، وبان لجميعهم من أنا ، وهذا لم يحن حينه بعد ، وأما تمتعي بحصولك عندي فممكن ، بشرط أن تضحي شيئاً من شرفك مؤقتاً ولأجل محدود ، وبحيث يكون ذلك ضمن دائرة الخفاء إلا عن اخوتك ، تضحي ذلك من أجلك وأجل تمتعك برؤيتي ، بل وأيضاً من أجلي وأجل تمتعي برؤيتك » — فأجاب بنيامين قائلاً : « وماالذي اجتمع عليه رأيك حتى نتوصل لذلك ؟» — قال : « أنسب اليك أنك أخذت صواعي ، وجعلته في رحالك ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه من عار السرقة أمام إخوتك أنك ستكون عندي مدة طويلة ، نتبادل فيها الأحاديث والسرور ، ويتمتع بعضنا بمشاهدة بعض ، كما انه ليكن عزاء أبينا الشيخ عما سيلاقيه من الحزن والكمد بتسريقك وبعدك عنه — أنه سيمكن له ولنا بعمل هذه الطريقة ، مجيئه لمصر ، ويتمتع كل برؤية الاخر ، ذلك لأنني أريد فيما بعد إظهار نفسي لإخوتي ، توصلاً لذلك ، ولكن بعد تنزيل شيء من كبريائهم وتمردهم ، وإني لاأنسى انهم كادوا لي كيداً ، وأنا اليوم أيضاً أخوف ماأخاف منهم : ولوخبرتهم الجوزاء خبري ، لما طلعت مخافة أن تكادا ، على اني أعتقد أن والدي سيتخذ حبسك عندي إشارة رمزية يفهم منها أن لا بد للأمر من سر ، ويشم رائحة يوسف من ناحية مصر ، نعم ، إنه من الشديد عليّ أن أسرقك أيها الأخ ، ولكن أشد منه عليّ مفارقتك إياي ، فتحمل أنت هذه الحملة اليوم ، لما قلت لك ، والنتيجة تبرر الواسطة ، نعم إن الحادثة التي ستستقبلها شديدة ، شديدة عليك وعلى أبينا الشيخ ، ولكن أبونا سيتحملها بما لديه من صبر وسكون ، وعلمه بتأويل مايكون ، وفهمه تلك الرموز والإشارات ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، هذا ماأراه في هذا الموضوع ، والله أعلم بإخلاصي فيماانتويت أن أجريه ، وهو سبحانه من وراء القصد ، وأنا والله إنما أريد هذا لأسرك لا لأضرك ، فهل تطيعني يابنيامين في ذلك ؟..» — فقال بنيامين : « ماعصيت لك

أمراً قبل اليوم ، ولكن هبك فعلت كل هذا ، وتوفقت له ، فأنى لقوانين أن تحكم بيقائي عندك سنة ؟ وهي إنما تغرم السارق بمثليْ ماأخذ ، دون أن يستعبد؟» — قال يوسف :« سوف نستفتيهم ونطلب منهم الفتيا ، وهم طبعاً إنما يفتونا بشريعة جدنا إبراهيم ، وهي استعباد السارق سنة عند المسروق منه » — فقال بنيامين : « افعل مابدا لك ، مرني بما تريد ، فأنا في كل حين أطوع لك من بنانك » — قال يوسف « اسكت عليها ، لاتعرّض بذكرها بين شفة ولسان » وبناء عليه فلما جهزهم بجهازهم ، بيده اليمنى ، جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين بيده اليسرى ، قائلاً في نفسه :« شأن عساه أن يجر شؤوناً » ولم يأخذه مصادرة ، لئلا يقيموا عليه بذلك دعوى ، ويشتكوه للملك الريان ، فيكون قد غرّر بنفسه ، وكان هذا بمعرفة ورضى من بنيامين ، نزولاً على إرادة يوسف ، وهذا الأمر يعد أكبر تضحية من بنيامين ، وإنما ارتآى يوسف هذا الرأي وأقدم عليه ليرد من شأوهم ، ويثني من عنانهم ، ويقلم أظفارهم ، ويكف من عُرامهم ، ويحسم من شِرّتهم :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمَنسِمِ

قال قيس بن زهير :

إذا أنت أقررت الظلامة لامرىء ... رماك بأخرى خطبها متفاقم
فلا تبد للأعداء إلا خشونة ... فما لك منهم إن تمكن راحم

فكانت هذه «السقاية» كفخ نصبه يوسف ليصطاد به أخاه ليكون عنده ، فلما أضاء الصبح ، ثاروا إلى أحمالهم ووضعوها على ظهور الأبعرة ، وانصرفوا ومشوا أدراجهم ، في غمار المتارين ، الآيبين الى بلادهم ، يطوون الأرض طياً ، من فرحهم بميرتهم ، وإيابهم بسلامتهم وسلامة أخيهم ، ثم لما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبعدوا ، أذن مؤذن ، أي صرخ صارخ أو نادى مناد ، أو صاح صائح،

أو أعلم مُعلم ، وهو الخادم الخاص ليوسف ، بمــلء صوته والاهتمام ظاهر على وجهه ، حيث خف وراءهم في كوكبة من رجاله ، وشخصوا خلفهم وصمدوهم ، وصرخوا عليهم : أيتها العير ، أصلحكم الله ، أنتم تحت الطلب ، فعلى رسلكم ، وقفوا مكانكم ، لأنه ظهر أنكم سارقون ، — وفيه تعريض باختلاس يوسف من أبيه ، أو بسرقة المسرة والحبور الذي كان في قلب يعقوب ويوسف وبنيامين ، وما كانوا يشعرون به من الغبطة في نفوسهم بلمّ شملهم ، وأنس بعضهم ببعض ، والسرقة كما تكون في الماديات تكون في المعنويات ، كما يسرق الشاعر معنى لشاعر قبله ، وكما يسرق الفرح أو الحزن النوم من الأجفان ، وكما يسرق فتقبض النفس بانقباضه ، صفاءَ جليسه وانشراحه ، ويحتمل أن المراد بقوله « لسارقون » أن حالهم تشبه حال السَّرَقةِ ، بما أن الصواع مخبوء في رحالهم —.

(فلما جهزهم بجهازهم .. الخ)

— ٣ —

وقال الاستاذ المقدسي : لي على هذه الآية الملحوظات التالية:

هل كانت العير حميراً أم ابلاً

الملحوظة الاولى : — العير ، جماعة الإبل التي عليها الأحمال ، والمراد بها في الآية أصحابها ، ونحوه « ياخيل الله اركبي » ، ويقال لهـــا « عيس » ، وإذا كانت خراسانية قيل لها « بُخت »، وتطلق كلمة العير على القافلة أو الإبل تحمل الميرة أو كل مالمتير عليه ، إبلاً كانت أو حميراً أو بغالاً ، وقال بعضهم ، العير هي القافلة إذا كانت فيها جمال ، قد تخللتها حمير تحمل الميرة ، وقد نقل ابن جرير في تفسيره عن مجاهد ان العير هنا كانت حميراً ، وأما كلمة بعير المتقدمة في قولهم (ونزداد كيل بعير) ففيها خلاف أيضاً عند اللغويين ففي القاموس : « البعير وقد

تكسر الباء الجمل البازل أو الجَذَع ، وقد يكون للأنثى ، وهو أيضاً الحمار وكل مايحمل ، قاله ابن خالوَيه » وقال في تاج العروس : قال ابن بريّ : « وفي البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان ، وكان السائل ابن خالويه ، والمسئول المتنبي ، بين يدي سيف الدولة ، وكانت فيه خنزوانة وعنجهية ، فاضطرب ، فقلت المراد بالبعير في قوله : (ولمن جاء به حمل بعير) الحمار ، وذلك أن يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف ، كانوا بأرض كنعان ، وليس هناك إبل ، وإنما كانوا يمتارون على الحمير ، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره » اه.

ويقول الحقير إن القول بأن دوابهم كانت حميراً ، مأخوذ من التوراة ، وأما قوله إنه لم يكن إذ ذاك بأرض كنعان إبل ، فهو وَهم مخالف للواقع وللتاريخ ، بل وللتوراة التي هي المستند في أن دوابهم كانت حميراً ، فقد ذكر في التوراة : أن « رفقة » لما جاءت من العراق لكنعان كانت راكبة على جمل (تك ٢٤:٦٤) وذكر فيها أن راحيل وقت براحها العراق لكنعان أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل (تك ٣١ ٣٤) وفيها أنه صار لإبراهيم لما كان بمصر غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تك ١٢:١٦) ، فهذان نصّان تاريخيان منها نعلم انه كان يوجد بشرقي كنعان (أي العراق) جمال ، وكان يوجد بغربي كنعان (أي مصر) جمال ، فلماذا حينئذ لاتوجد الجمال في نفس كنعان المتوسطة بينهما ؟ على أنه ورد في التوراة أن اليعازر الدمشقي ، عبد ابراهيم ، أخذ عشرة جمال من جمال مولاه ومضى الى العراق (تك ٢٤:١٠) فهذا النص التاريخي يفيد أن الابل كانت موجودة في نفس كنعان من ايام ابراهيم ، وفيها ان الجمل لايؤكل (لا ١١:٤) فهذا النص الثاني يفيد ان الجمل كان موجوداً ايضاً في كنعان التي هي ارض اسرائيل لأيام موسى عليه السلام ، فالقول بأن الجمل لم يكن موجوداً في كنعان ايام يعقوب واولاده غلط تاريخي .

المراد بالمؤذن

الملحوظة الثانية — كلمة « اذن » في قوله « اذن مؤذن » بالتشديد تفيد كثرة الاعـلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه ، واما « آذن » فانما تفيد الاعلام ولو مرة واحدة .

بدء المعركة بينه يوسف واخوته بايقاعهم في مأزق حرج مع ابيهم

الملحوظة الثالثة — من ههنا ، اي من قوله : « فلما جهزهم » تبتدىء المعركة بين يوسف واخوته وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله : ﴿ فلما استيأسوا منه .. الخ ﴾ (ع٨٠) ، فلكأني بـــه قد سمع من شقيقه بنيامين تلك التعهدات القوية التي صدرت من رأوبـين ويهوذا لأبيهما ، فلذلك ولكون يوسف يعتب عليهما اكثر من باقي إخوته ، لأنه كان يركن اليهما اكثر من غيرهما ، فقـد عول على ان يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع ابيهم ، وان يعمل معهم عمـلاً يقابل عملهم ، بحيث يدخل على جميعهم الكرب والهم ، لأنهم كانوا أنزلوه في جب المـاء ، فأراد ان ينزلوا في اتون من نـار الهم والغم ، وهم كانوا قالوا له حينما ألقوه في الجب : « خذ ياصاحب الأحلام » فقال لهم الآن : « خذوها ايها الظلام » كانوا عملوا معه عملاً يريدون به ان يخلو وجه ابيهم لهم ، وأراد ان يعمل معهم عمـلاً ، يلفت عنهم وجه أبيهم جزاءً وفاقاً ، وذر الرماد في العيون ، وهيأ لهم ضربة اليمة ، كما كانوا ذروا الرماد في عيون ابيهم وآلموا يوسف ، جزاءً وفاقـاً ، فكأن يوسف يقول : احصدوا أشواك اعمالـكم السابقة .

ويقول الشاعر :

إدا قيل رفقاً قلت للحلم موضع   وحلم الفتى في غير موضعه جهل

أو يقول

وقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أُقحِمُ حتى لاتَ مُقتَحمُ

هو عمل معهم هذه الحيلة المسيئة لهم التي سيضيقون منها ذرعاً ، لأنهم سبق انهم عملوا عليه تلك الحيلة المسيئة ايضاً ، وهي اخذه من ابيه بحجة انـه « يرتع ويلعب » فما كان منهم إلا انهم انزلوه في غيابـة الجب وقد قيل : « الهزيمـة تعـلم الظفر » .

اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه

الملحوظة الرابعة — إن قال قائل ماالدليل على أن يوسف اتفق مع أخيه بنيامين على تسريقه ليقيم عنده ، فهـل ورد بذلك حديث عن المعصوم ، أو هل يوجد في القرآن مايشير لذلك ؟ قلت لا هذا ولا هذا ، إنمـا دليلنـا على ذلك كون يوسف شقيقاً ومحباً مخلصاً لبنيـامين ، وبنيامين كان عنده كضيف نزيل كريم ، وهذه الضيافة كانت بدعوة سابقة من يوسف ، فمع هذه الأحوال لا نقدر أن نتصور أن يوسف دبر هذه المكيدة لبنيامين بدون أن يشعره ويتفق معه عليها ، وإلا كان ذلك قطعاً للرحم ، وأذىً كبيراً للضيف الكريم البريء ، وقد قال تعالى « والذين يُؤذُون المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيرِ ما اكتَسَبوا ، فقد احتمَلوا بُهتاناً وإثماً مُبيناً » (٣٣ : ٥٨).

مبررات قبول بنيامين

الملحوظة الخامسة — إن قال قائل « كيف رضي بنيامين بهذه الاهانة ووافق عليها ووقف بازاء أخيه موقف السامع المطيع ، موقفاً إيجابياً محضاً ، مع أنه يوجد له ثلاثة موانع ، تمنعه من موافقة أخيه : أولهـا المحـافظة على شرفه ومروءته أمام المصريين والحكومة وخوفه من الوقوع في الخجالة معهم ، وثانيها ، تسبب بنيامين

يقبوله هـذا الأمر في إدخال الكدر على إخوته الذين جاؤا به من عند أبيه بعد اللتيّا والتي ، وبعد ماأعطوه الأيمان المحرجة ، والعهود الوثيقة ، وثالثهـا ، إدخال زيادة الهم والغم على قلب أبيه يعقوب ؟ » .

فإنا نجيب عن الاول بأن المتهمين له خادم بيت يوسف الخاص وأتباعه الخصوصيين ، وهم في الباطن يعرفون انه غير سارق ، لأنهم ، على قول ، هم الذين جعلوا السقاية في رحله بيدهم ، فالمسألة كانت ضمن دائرة الخفاء بين يوسف وخدمة بيته لاغير ، وهم لما رجعوا إنما رجعوا لبيت يوسف ، لالدار الحكومة في البلاط ، وهو مانعلمه من التاريخ ، ويعلم أيضاً من التوراة (تك ٤٤ : ١ ـ ١٤) ونجيب عن الثاني بأن بنيامين عمل ذلك لأن إخوته كانوا أوغروا صدره عليهم بمـا سبق انهم عملوه مع شقيقه يوسف ، وبما كانوا يعملون معه نفسه ، حسبما يفهم من قوله « فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ثم قوله لهم « هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه » ، ونجيب عن الثالث بأنه كما لايمكننا إنكار احتمال أن هذا العمل يدخل على أبيه غماً وهماً ؛ فلا يمكنـا إنكار احتمال ان هذا العمل يدخل على أبيه ارتياحاً وسروراً ، فإنا نعتقد أن يعقوب اتخذ من هذا العمل بشرى عن ولده يوسف بأنه ـ في الجملة ـ في مصر ، لاسيما اذا انضم اليه ماسبق في السفرة الأولى من أنه جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وكان لهم خير المنزلين ، وجعل بضاعتهم في رحالهم ، وكان قال لهم بغتة : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » ثم انه في السفرة الثانية أنزلهم ضيوفاً في بيته ، وجهزهم بجهازهم ، وأرجع لهم فضتهم أيضاً وأخذ بنيامين عنده بحجـــة عمل لم يعهد عليه قبـله انه عمله ـــ فـكل هذه الاشارات والرموز ، هي برقيات لاسلـكية ، وأحاجي لايفهمها ولا يحلهـا إلا ذو فهْمٍ دقيق ، وشعور رقيق كيعقوب عليـه السلام ، ولذلك نراه بعد ذلك قال :

« عسى أن يأتيني بهم جميعاً » ثم قال : « إني أعلم من الله مالا تعلمون » ، ثم قال

« يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » وكل هذا إنما بناه يعقوب على تلك الاشارات التي دارت بينه وبين ولده يوسف ، وإلا إذا كان يعقوب يعرف أن ولده يوسف حيّ ، فمن أين عرف أنه بمصر ، حتى قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ، لولا تلك الاشارات الخفية ، التي كان يرسلها يوسف لأبيه مع إخوته ، دون أن يحوموا حول فهمها خوفاً من إيذائهم وإضرارهم إياه ، فيوسف كان ساكتاً ، ولكن أفعاله تتكلم ، وإخوته تحمل هذا الكلام الرمزي ، دون أن يفهموه ، الى من يفهمه وهو أبوهم عليه السلام ، كساعي البريد يحمل الأخبار السرية والرسائل دون أن يطلع عليها ؛

الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين انا اخوك اخوة صداقة وحب

وإن قال قائل : نقل المفسرون عن وهب بن منبه انه قال : « إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود أي أنا صديق لك ومحب لك ، وعاضدك عوضاً عن أخيك الفقيد يوسف ، فهي أخوة صداقة وحب ومساعدة ، لا أخوة نسب ، وعليه فبنيامين لم يفهم قط ان المتكلم معه هو يوسف أخوه النسبي ، ولم يصر بينه وبينه اتفاق على تسريقه ، بل بنيامين سُرّق دون أن يكون له شعور بذلك » قلنا في جوابه إن وهباً استند في هذا على ما في توراة اليهود ، فانها تفيد أن بنيامين لم يكن له شعور بذلك (تك ٤٤) ويَرُدُّه انه خلاف الظاهر من قوله : (أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) والا فالذي مضى مضى ، فلا يمكن تداركه وتلطيفه ، لأن أخوة « فوطيفار » التي هي أخوة صداقة ومساعدة ، لا تنفع بنيامين فيما مضي من الايام ، بل فيما يأتي فقط ، وإنما يصح تفسير وهب لو قال : « أنا أخوك ، فلا تبتئس بما سيعملون » .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يعمل على اخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها

الملحوظة السادسة — إن سأل سائل : كيف جوز يوسف عليه السلام لنفسه أن يعمل على إخوته العشرة هذه الحيلة المسيئة التي أزعجتهم أيما إزعاج ؟ فالجواب أنه أراد أن يعرفهم انه كما هو قوي بسلطانه وشوكته وجنده ، فكذلك هو غير غبيّ عن طرق الحيل التي هم يتقنونها ، ويرتكزون عليها ، قائلين : « رب حيلة أنفع من قبيلة » فكما جربوا وعملوا عليه الحيلة حتى أخذوه من أبيه ، وأوقعوه في الجب وغربوه ، وكما عملوا الحيلة ثانياً على أبيه حينما جاؤوا بدموعهم ودم معزاهم ، فكذلك هو قدير على هذا النوع من الحيل ، وبعبارة أخرى : أراد أن يعرفهم من هو ؟ حتى في ضروب الحيلة التي يعرفونها فكما أنه لا يعرف الشجاع إلا الشجاع ، فكذا لا يعرف المحتال سوى المحتالين .

وإليك جواباً ثانياً ، وهو أن يوسف عليه السلام كان يعرف أنهم أصحاب عَرامة ، وذوو شراسة ، فأراد أن يخضد من شوكتهم ويفُت في عضدهم ، تنزيلاً لنفوسهم المتكبرة ، وإضعافاً لقوتهم المتحكمة ، فأتى هذه الحيلة المزعزعة لأفكارهم ؛ وبعبارة أخرى : يوسف كان لا يزال في تخوف من شر إخوته وحماسهم ونزقهم ، فرأى أن يعمل معهم عملاً يخفف جانباً من قوتهم ، ويشذب بعضاً من حماسهم ونزقهم ، ويُطامن من نخوتهم ، ويكسر من زهوهم ، ويقمع من طغيانهم ، تأديباً وترويضا ، وعليه ولأنه من جهة ثانية يريد بقاء شقيقه عنده دونهم ، رأى أنه قد يسوغ له — خصوصاً في شرعه — أن يجري هذه الحيلة ، ليصيد بها صيدين : الأول أن يبقي بنيامين عنده والثاني أن يؤدبهم ويهذبهم ويكسر من حدتهم وكبريائهم وشكيمتهم ، فعل ذلك اضطراراً ، لا تشهياً ولا اختياراً ، وكأنه في ذلك كالعبد في اصطلاح الجبرية ، مجبور باطناً ، مختار ظاهراً ، فإن كان يوجد عبيدٌ هم كذلك ، فمنهم بل أمثلهم في هذا المقام خاصة يوسف ، أمّا انه مجبور باطناً ، فلأنه أراد

تشذيب شرهم ليسلم منهم وأما أنه مختار ظاهراً ، فلأن خادمه الذي فعل ذلك بأمره يرى أن يوسف اختار ذلك من تلقاء نفسه بطواعيته ، وبحسب تشهّيه ، دون أن يكون له دافع مجبر ؛

وجواباً ثالثاً ، وهو لعل يوسف أراد أن يكون رسول « الارادة الالهية » فجازى مكراً بمكر ، فهو إذ مكروا عليه وعلى والده ، واخذوه منه بالختل والدهاء ، أراد أن يظهر بمظهر آلة قصاص لهم ، وأن يجازي مكراً بمكر ، فكان في ذلك العمل مظهراً من مظاهر اسمه تعالى « المنتقم » قصاصاً من المعتدين ، فنصب هذه الأحبولة ، وأما مالحق أباه من جراء هذا العمل ، فهو أمر طبيعي حاصل عَرَضاً وبالتبع ، ولم يكن مقصوداً ، لأن شأن البلاء أن يعم ، أو هو من طبائع حوادث القصاص في الكون ، قال تعالى :﴿ واتّقوا فتْنَةً لا تُصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً ﴾ (٨:٢٥) ، ومن حديث ابن عمر : « إذا أراد الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »، يوسف أراد أن يرميهم بحجر نظير حجرهم الذي كانوا رموه به سابقاً ، أراد أن يربطهم بوَتر نظير وَتَرهم الذي كانوا ربطوه به قديماً ، أراد أن يكيد لهم كما كادوا له ، قال تعالى:﴿ الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ ، والحُرُمَاتُ قِصاصٌ ، فَمَنْ اعتَدَى عليكم فاعتَدُوا عليه بمثلِ مااعتَدَى عليكم ﴾ (٢:١٩٤) ، فكل مايجب احترامه ، يجوز انتهاك حرمته قصاصاً ، فكما جاز للمسلمين مقاتلة مناوئيهم في الشهر الحرام من أشهر الحج ، لأنهم كانوا قاتلوا المسلمين عام الحديبية رمياً بالسهام والحجارة ، وصدوهم عن دخول مكة ، وكان ذلك في ذي القعدة من الأشهر الحرم ، فكذا جوز يوسف لنفسه إجراء هذه الحيلة ، وان كانت تحزنهم ، لأنهم كانوا أحزنوه سابقاً بالحيلة التي أجروها عليه ، وقال تعالى :﴿ والذين إذا أصابهُم البَغيُ هم يَنتَصرون ﴾ (٤٢:٣٩) ، فالشهم يكره أن يذلّ لئلا يجترأ عليه ثانياً ، والمنتصر لنفسه محمود

على انتصاره ، إذ لا حرج على الانسان أن يأخذ حقه قصاصاً غير متعد حد الله تعالى ، وإن كان العفو أفضل ، والعافي ممدوحاً أكثر ، كما قال تعالى : ﴿ وأَنْ تعفُوا أقربُ للتقوى ﴾ (٢:٢٣٧) ، ﴿ ولَئِنْ صَبرتُم لَهوَ خيرٌ للصابرين ﴾ (١٦:١٢٦) ، ﴿ ولمنْ صَبرَ وَغفرَ إنَّ ذلك مِنْ عزمِ الأمور ﴾(٤٢:٤٣) ونظيره ماروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لحسّان بن ثابت أن يهجو قريشاً بعدما طفقوا يهجون مقامه الشريف ، لكي يجازي هجواً بهجو : ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها ﴾ (٤٢:٤٠) ، ﴿ وإنْ عاقبْتُم فعاقبُوا بمثلِ ماعوقبْتُم به ﴾ (١٦:١٢٦) ، ﴿ ولمنْ انتَصَرَ بعدَ ظُلمهِ فأولئكَ ماعليهم مِن سَبيلٍ ﴾ (٤٢:٤١) ، ﴿ ولولا دَفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ ، لفَسَدَتِ الأرضُ ، ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين ﴾ (٢:٢٥١) ، قال الشاعر :

لست ذا ذلة إذا عضني الدهر ولا شامخاً إذا واتاني
أنا نار في قلب من يظلموني أنا ماء جار مع الخلان

وقال مُرَيط العَنبري :

لو كنت من «مازنٍ» لم تستبح إبلي بنو اللقيطة مِنْ ذُهلِ بن شيْبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إنْ ذو لوثةٍ لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا

فيوسف كان في مقاصته لاخوته على مذهب « المازنيين » لاعلى مذهب « العنبريين » ، وكان على المذهب الذي تمذهب به أبو الطيب حيث يقول :

وإني لمن قوم كأنَّ نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرَت بي ساعةٌ لا تُعِزّني ولاصحبتني مهجة تقبل الظلما

أو على مذهب « الفِندْ الزِّماني » في قوله:

وبعض الحِلم عند الجهل للذّلة إذعان وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

وجواباً رابعاً — « قد لا يقاوم الشر إلا بالشر ، وقد لا يدفع الظلم إلا بالظلم ، وقد لا يبرأ العليل إلا بتجريعه الدواء المر ، وقد لا يشفى الجريح إلا بقطع شيء من جسمه ، وحامل السيف لا يغمده في غمده ، إلا أمام حامل سيف مثله، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد »(١)

كان المعهود من طبع اخوة يوسف انهم يكدرون صفو الحياة ، فخشي أن يمسكوه اليوم كما أمسكوه سابقاً — من موضع الضعف منه ، وماهذا الموضع إلا أنهم يعلمون أنه لا يعرف شيئاً من الحيل ، التي يعرفونها ، ولذلك رآى أن لا بد أن يعمل معهم عمـــلاً يوقعهم في حيص بيص ، يلبسه على خشونته ، ويسيغه على كدورته ، ليعرفوه من هو ، وليعلموا أنه يعرف مايعرفون ، فمثله كمثل السائر ، يعترضه الجبل ، فلا يجد بداً من اجتيازه ، نعم لاريب أن الطريق بغير الجبـل يكون أجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه صادف أنـه كان في طريقه ولا بد من اختراقـه ..

وجواباً خامساً « ثبت في الصحيح أنه إذا عبر أهل الجنة الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونُقوا ، أذن لهم في دخول الجنة » فلا يدخلون الجنة إلا بعـــد التهذيب والتنقية ، كما قال تعالى : ﴿ طبتُم فادخلوهـا خالدين ﴾ (٣٩:٧٣)،وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، وبناء عليه فكأن يوسف عليه السلام ، اعتبر أن مصر جنة، وأن فلسطين

(١) النظرات المنفلوطي .

بالنسبة اليها كأنها نار ، وأن إخوته قد وصلوا للصراط الذي بين الجنة والنار ، فأراد أن يقتص منهم وهم على الصراط ، حتى إذا ماهُذبوا ونُقوا ، قال لهم : « طبتم فادخلوها خالدين ».

هذا ماظهر للعبد الحقير ، والله تعالى أعلم .

شبه حادثة يوسف هذه بحادثتي العبد الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام

الملحوظة السابعة — حادثة يوسف هذه تشبه حادثتي العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، إذ خرق السفينة ، ثم قتل الغلام ، فما كان جواباً عنهما ، فهو الجواب عن حادثة يوسف هذه عليه السلام .

استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم

آ (٧١) ﴿ قَالُوا :ـ وأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ـ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والسبعون فقام برهان الدين الدرعاوي (١) وقال :

سمع إخوة يوسف صرخة الصارخين وراءهم ، فأجفلوا ، و(قالوا) بلهفة وامارات البغتة تبدو من أسارير وجوههم ، (و) قد (أقبلوا عليهم) أي على المؤذن ومن معه ، محولين عنان دوابهم اليهم ، (ماذا تفقدون ؟!) بلهجة الاستفهام الذي يمازجه استغراب ، وفيه شيء من استهجان نسبتهم للسرقة.

(١) نسبة الى درعا من بلاد الشام (حوران)

الصواع المفقود

آ (٧٢)﴿ قالوا : نَفْقِدُ صُواعَ المَلِكِ ،ولِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعيرٍ ،وأنَا بِهِ زَعيمٌ . ﴾

ثم تليت الآية الاثنتان وسبعون فقام تاج الدين العكي وقال :

(قالوا) أي المؤذن ومن معه من الصارخين (نفقـد صواع الملك) الريان ، — وكل مايشرب به فهو صواع ، ويقال له أيضاً صاع ، وقيل هو إناء الشرب إذا كان من فضة أو ذهب ، وأما « القدح » فهو ما كان من زجاج ، و« العُسّ » من الخشب ، و « العلبة » من الأدَم ، و« الطـّرْجهارة » من الصفر ، و«والمِرْكن» من الخزف [١] ، ولم ترد كلمة صواع في القرآن الا في هذا المحل ، وكان هـذا الصواع من فضة ، وتقدم تسميته بالسقاية وسماه في التوراة « طـاساً » — وهو ليوسف عليه السلام ، وانما نسبه هنا للملك ، لأن كل ما كان ليوسف وغيره من المأمورين فهو من الملك وللملك ، أو يقـال أراد « بالملك » من له شيء من الملك ، كما سيأتي ليوسف ان يقول : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ ، فالملك إذن يوسف نفسه ، وآثروا التعبير به تهويلاً على السامعين ، (ولمن جاء به حمل بعير) لاأقله من خالص الحب وجيده ، يَعْتامُه من القمح الصافي ، فإن جاء به من رحـله ، أخذ حمل البعير تقدمة او هدية ، بعد العفو عنه ، لأن الاعتراف يهدم الاقتراف ، وان جاء به من رحل غيره اخذه على انه جُعالة او عمالة [٢] او اجر او حلوان ،

(١) فقه اللغة ، ومنه يعلم ان كلمة صواع لم تحدث لهذا الاناء جديداً حينما صار يكال بـه ، بل هي اسم له عتيق قبل ان يكال به .

(٢) الجعالة مايجعل للانسان من الرشا والمصانعات والعمالة مايسمى للعامل لقاء عمله .

مع شكره ، فنحن مستعدون ان نجمع له بـــين الماديات والمعنويات ، وهو في اي قالب وضع ذلك فهو حر ، على كل حال نحن مستعدون لمجازاته بالحسنى ، فارشدونا لذلك ، ارشدكم الله تعالى ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون والبعير بمنزلة الانسان ، والجمل بمنزلة الرجل ، والناقـة بمنزلة المرأة (سيرافى) — كان حمل البعير في ذلك الحين العصيب ، حين الأزمة وساعة العُسرة يساوي مبلغاً لايستهان به ، مبلغاً له قيمته ، فالوعد به اذ ذاك كالوعد بسعادة مستقبلة ، او بضمانة الحياة ، ومن هنا اقتضى الحال ضرورة وجود كفيل ، يتعهد بتحقق هـذا الوعد الهام ، ولهذا قال : ﴿ وأنا به زعيم ﴾ والزعيم غارم ، وانا له ضمين ، والضمين مسئول ، وانا به كفيل ، والكفيل كالأصيل ، وانا له حميل ، والحميل مطالب ، وسأكون اول مصفق له ولمروءته ، إن اراحنا من عناء التفتيش ، وقد جاءت هذه اللفظة في قوله تعالى : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بذلكَ زعيمٌ ﴾ (٦٨ : ٤٠) ولم يقع هذا اللفظ في كتاب الله في غير هذين الموضعين ، وهما بمعنى واحد وهو الضامن للشيء المتكفل به ، هذا هو معناه عند العرب ، واما اهل اليوم فيكثر استعمالهم له في الذي يتكلم عن القوم ويحتج لهم ويحامي عن حقوقهم ومصالحهم ، ضامناً لهم النجح والغلبة ، فهو بحسب استعمالهم هذا يفيد معنى الضمان والرآسة .

اخوة يوسف يردون التهمة

آ(٧٣) ﴿ قـالوا : تاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ ، وَما كُنّا سارِقينَ ﴾ .

ثم تليت الآية الثالثة والسبعون فقام الشهاب الحيفاوي[1] وقال :

سبق أن مندوبي « العزيز » سألوا إخوة يوسف عن الصواع ، وقالوا لهم ،

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

هانحن أولاء سألناكم ، فما رأيكم وما علمكم ؟ ها قدسمعتم صوتنا ، فأسمعونا صوتكم ، وأطلعونا على جلية الأمر ، وأما إخوة يوسف فلما سمعوا كلام المؤذن ورفقائه ، تعجبوا جداً وأحفظهم هذا السؤال ، وأغضبهم وغاظهم ، وتقززت منه نفوسهم ، لأول وهلة ، و (قالوا) لسنا هناكم ، ماأبعد وهمكم ! ! هي والله الفحشاء واللؤم (تالله لقد علمتم) أنّا (ماجئنا) مصر (لنفسد في الارض) ونعيث في مملكتكم تعجب إخوة يوسف من نسبة السرقة اليهم ، ونفهم هذا من التاء ، لأنها وإن تكن حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كما ذكره الزمخشري في تفسير سورة الأنبياء .

وإنما قالوا « لقد علمتم » فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ، وورد أنهم قالوا لهم : هذه الفضة التي وجدناها في أفواه عدالنا رددناها إليكم من أرض كنعان ، فكيف نسرق اليوم الصواع ؟ ! . .

والفساد ضد الصلاح ، فكل ما يخرج عن وصفه الذي يكون به صالحاً ونافعاً يقال فيه أنه فسد ، ومن عمل عملاً كان سبباً لفساد شيء من الاشياء يقال إنه أفسده ، فازالة الأمن عن الأنفس أو الأموال أو الأعراض إفساد في الارض ، وإخلال لنظام الاجتماع وأسباب المعاش ، (وما كنا) قط (سارقين) أي نوصف بالسرقة .

سمعوا هذه التهمة التي ألصقت بهم ، فأكبروها وأعظموها ، وظهرت الأنفة على وجوههم ، ممزوجة بشيء من اضطرابٍ ورعدةٍ في الحواس ، وملامح الغضب تلوح على جباههم وصاروا ينظرون الى مندوبي العزيز شزراً ، وقالوا بنغمة جافة وقد عقدوا بين حواجبهم : تباً علينا ، ماهذه الظنون التي تظنونها فينا ؟ بعد ما عرفتمونا وجربتمونا ، فلقد عرفتم تاريخ حياتنا وسوابق أعمالنا ، وتبينتم حقيقتنا ، وان انطباق هذه على هذه لهو أيسر من إثبات السرقة علينا ، « وأين الرقمتان من وادي الغضا » ، هل نحن متلصصون ؟ . . هل نحن متشردون ؟ . . لابد أن يكون

ذهنكم عالقاً حتى الآن بما كنا فعلنا من إرجاع بضاعتكم اليكم ، فكيف نقدم على هذه العظيمة التي هي زيادة عن كونها سرقة ، ففيها جرأة على « العزيز » وحكومته ، ونكران لجميله الذي أجراه معنا ، فهل نحن ماتتو الضمير لهذه الدركة ؟ . . أفٍ وتفٍ من هذه النسبة التي لطختمونا بها ! ! . .

ج الاخوة للحكم على نفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جَزَاؤُهُ إِنْ كنتم كاذِبِينَ ؟ ﴾

ثم تليت الاية الرابعة وسبعون فتابع الشهاب الحيفاوي كلامه قائلاً:

قال مندوبو « العزيز » الى اخوة يوسف ، وقد نظروا اليهم شزراً : لاأف ولاتفٍ ، أتظنون اننا نلقي القول جزافاً ، ولانفكر فيما يثبته ويحققه ؟ طاش سهمكم ، ، إن البحث هو الذي يظهر صدقكم من كذبكم ،(فما جزاؤه)ــ الضمير للصواع ــ أي فما جزاء سرقته ، (إن كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه ؟ هذا سؤال نقدمه لكم ، أفتونا مأجورين أو مشكورين ، وأفيدونا بالحكم القضائي في هذه الحادثة ، وخلاكم ذم ، فأجيبوا فأنتم أعلى برأيكم عيناً.

ويمكن أن نقول بعبارة أخرى :

قال رجال العزيز لإخوة يوسف : أخفضوا أصواتكم ، واعرفوا مع من تتكلمون ، ومن هم الذين تخاطبون ، إنكم لستم تخاطبون جماعة من السوقة ولكنكم تخاطبون جمعاً من خدمة الحكومة الهكسوسية ، وليست المسألة مسألة أيمان ، ولا اعتماد على وجدان ، بالله عليكم دعونا من الدعاوى العريضة ، فنحن لانعتبر الأقوال ، لكن الأعمال ، وإن أحسن حكم بيننا وبينكم هو القرائن الراهنة ، والدلائل الساطعة ، ولانعلم هذا إلا من نتيجة التفتيش ، وعند الامتحان ، يكرم

المرء أو يهان ، ونحن نريد أن نتحاكم معكم إليكم ، وننزل على حكمكم ، فمع أننا قد اعتبرناكم خصوماً ، نقبل أن تكونوا علينا قضاة ، فاحكموا بيننابالقسطوالنصفة.

ماقولكم دام فضلكم ، فيما لو تبين كذبكم ؟ وانه كذب حِبْرِيت [١] وان الصواع معكم ، فما تقولون حينئذ وبأي حكم تحكمون ؟ نرجوكم الجواب ، ولكم من الله الثواب .

وقبل الختام نقول : تبارك الله القدير ! ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم؟! يعقوب جاء اليه أولاده ، ينعون له يوسف وينبئونه بافتراس الذئب إياه ،فلم يصرح لهم بأنهم كاذبون ، مع انهم كانوا كذلك ، وهو يعتقدهم كذلك ، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة « كاذبين » وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفوهم وواجهوهم بكلمة « كاذبين » مع انهم ما كانوا كاذبين ، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين ، فما أكبر الفرق ؟..

الجزاء من جنس العمل

آ (٧٥) ﴿ قالوا : جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه ،فهو جزاؤُهُ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة وسبعون فقام الشيخ الجولاني[٢] وقال:

(قالوا) أي اخوة يوسف ، والشر باد في عيونهم (جزاؤه) أي جزاء سرقته في شريعتنا نحن آل يعقوب أن يؤخذ (من وجد في رحله) وليكن من كان (فهو جزاؤه) ولا كرامة ، — وهذه الجملة تقرير للحكم — أي فأخذالسارق

---

(١) كذب حبريت : خالص مجرد لايستره شيء

(٢) نسبة الى الجولان من بلاد الشام

نفسه هو جزاؤه لاغير كقولك : « حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فهو حقه » ، لتقرر ماذكرته من استحقاقه (كذلك) بدون أسف طبعاً (نجزي الظالمين) فموقفنا واحد ، مع القريب والغريب ، برنامج ثابت لمجازاة كل ظالم ، لن تجد له تبديلاً ولاتحويلاً ، وإن سكوتنا عن هذا الظالم السارق يعدجريمةومشاركة له في ظلمه وسرقته ، فلا بد لنا من مجازاته ، إحقاقاً للحق ، وانتصاراً للشريعة العبرانية ، وتأييداً للقوانين السماوية العادلة .

(قالوا : جزاؤه من وجد .. الخ)

— ٢ —

وقال العلامة الشويكي (١) :

جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه كعبد

سمع إخوة يوسف كلام مندوبي « عزيز مصر » فاشتموا منه جفاء،واستروحوا منه شدة ، فكادوا يتميزون من الغيظ ، وصار الشرر يتطاير من عيونهم وتملكهم التهيج العصبي ، ولكن الأمر كما يقال : « العـــين بصيرة واليد قصيرة » فهؤلاء المتكلمون هم أصحاب البلاد المسيطرون ، وإخوة يوسف ضيوف غرباء ، لذا قالوا بصوت يرتعش ، نحن لا نعبأ بهذا التهديد ، بل نقول لكم إن جزاء سارق الصواع هو أخذ صاحب الرحل الذي تجدونه في رحله ، لأن كل غادر مأخوذ ، وإننا نجزي الظالمين في شريعتنا بهـذا الجزاء ، ولانجزيهم بسوى ذلك ، بحيث لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها فدية ، ولاتنفعها عندنا شفاعة ، ولاأحد يقوم بنصر هؤلاء الظالمين ، هذي هي فتوانا ، والبحث والتحري هو الحكم بيننا وبينكم،

(١) نسبة الى الشويكة احد احياء دمشق .

هذا وقد حمي وطيس الشجار ، واشتدت بينهم نار الحوار ، الى أن كانت النتيجة أن مندوبي « العزيز » سمعوا هذه الفتوى من اخوة يوسف فاطمأنت قلوبهم عندما تلقفوا هذا الجواب المنتظر ، واعتقدوا انهم وصلوا لمطلوبهم لأنهم لم يسألوا إخوة يوسف السوآل السابق إلا وهم يرجون أن يسمعوا منهم هذا الحكم العبراني .

وأخيراً أختتم كلامي بالملحوظات الاتية :

اقامة الظاهر مقام المضمر في قوله جزاؤه

أولاً — كلمة « جزاؤه » في الآية مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها إقامة المضمر ، والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : « مَنْ أخو زيد ؟» فيقول لك : « أخوه من يقعــد الى جنبه فهو أخوه » أي فهو هو ، ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر .

جزاء السارق في شتى الشرائع

ثانياً — إن ماذكر في الآية الكريمة من الحكم هو حكم السارق في الشريعة العبرانية الإبراهيمية ، الذي خلاصته ان جزاء الشيء المسروق هو نفس السارق، فيؤخذ كعبد ، ولا أعلم مقدار مدة عبوديته في الشريعة الإبراهيمية ، غير ماقاله المفسرون (والعهدة عليهم)، أنها سنة ، وأما جزاؤه في الشريعة الموسوية ، فهو انه إن كان عنده مال أخذ منه بقدر ماسَرَق مضاعفاً ، والا أخذ عبداً ست سنوات ، قال في التوراة في السارق :« إنه يُعَوّض ، فإن لم يكن له ، يُبَع بسرقته » (خر ٢٢:٣) قال في السنن القويم : « ذهب اكثر المفسرين للتوراة الى أن مقدار العوض مضاعف قيمة الخسارة ، وفسروا بيعه بسرقته ، أنه يكون عبداً لرب البيت ست سنوات ، فيكون قد أوفى بذلك ما عليه ».

وأما شريعة المصريين ، فهي انه يجب على السارق أن يدفع ضعفي قيمةالمسروق لاغير ، وليس فيها استرقاق .

وأما حكمه في شريعتنا المحمدية فهو كما قال الله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما ، جزاءً بما كَسبا نَكالاً مِنَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ (٥:٤١) وقد اختلف علماء الاسلام في القدر الذي يوجب الحد من السرقة ، فذهب جمهور السلف والخلف ، ومنهم الخلفاء الأربعة الى أن القطع لا يكون إلا في سرقة ربع دينار ، أي ربع مثقال من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ،وعلى هذا الأئمة الثلاثة ، وأما مذهب الحنفية فهو أن النصاب الموجب للقطع عشرةدراهم فاكثر ، ولاقطع في أقل منها .

الاسترقاق في شتى الشرائع

ثالثاً — نتعلم من هذه الآية أنالاسترقاق كان موجوداً في الشريعة الابراهيمية ثم نتعلم من التوراة أنه كان موجوداً في الشريعة الموسوية ، والواقع أن الرق كان فاشياً قبل البعثة المحمدية في العرب واليهود واليونان والرومان . على أبشع صورة وأنكرها، وههنا يجب أن لا تنسى استرقاق يوسف بيد « السيارة » التي نشلته من الجبوباعته بمصر، فلما جاءالاسلام ضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب، وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرتهم ، فقال ﷺ: (إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون) الى غير ذلك من الاحاديث .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يجازي اخوته بشريعتهم

رابعاً — نعلم إذا عمل إنسان جريمة في مملكة غير مملكته ، وجب استفتاء

قانون تلك المملكة التي وقع فيها الجرم ، وذلك احتفاظاً بشرف وسلطان تلك المملكة ، ولا يجوز الرجوع في الاستفتاء والحكم لقانون مملكة المجرم ، اللهم إلا ما استثني من هذه القاعدة القضائية ، وذلك مثل « الملك » إذا وجد في غير مملكته ، وعمل هناك جريمة ، فانه إنما يعامل بقانون مملكته احتراماً لمقامه ، ومثل « سفراء الدول » في الممالك الأخرى ، فانهم إنما يعاملون بقانون دولهم ، وذلك لأجل حريتهم تماماً ، وتوسيع نطاق عملهم في البلاد الأخرى ، واخوة يوسف ههنا ليسوا بملوك ولا سفراء ملوك ، حتى يعاملوا بأحكام مملكتهم ، فما الذي جوز ليوسف عليه السلام أن يوصي عبيده ، أن يستفتوا إخوته توصلاً للحكم عليهم بشريعتهم في مملكتهم ، دون الحكم عليهم بشريعة المملكة المصرية ، وأليس في هـذا تحقير لمملكة مصر وقوانينها ؟.. ثم أليس في هذا ظلم لإخوته ، لأن في حكمهم في هذه الحادثة صرامة أشد وأغلظ من حكم المصريين ؟ ..

وجوابنا عن هذا: لعل يوسف عليه السلام اعتبر « الجاني » من إخوته « كملك » عمل جناية في غير مملكته ، فانه لا يعامل إلا بقانون مملكته ، أو كان يوسف اعتبر إخوته كأجانب أصحاب امتيازات فلذلك أراد أن يحاكمهم بقوانينهم ، وعلى كل حال ، فكأن يوسف من جهة عمل لهم شيئاً من الاحترام ، ومن جهة أراد أن يستعبد أخاه ليحظى ببقائه عنده ، فيكون كمن رمى حجراً ليصيد صيدين ، ويحتمل أن هذه التدقيقات لم يكن معمولاً بها في تلك العصور بمصر ، بل كان يجوز أن يعامل الغريب الأجنبي بقوانينه في بلاده ، ولو وقعت منه الجريمة في مملكة أخرى لها قوانين أخرى .

ويحضرني الآن جواب ثالث ، وهو أن القوانين المصرية كانت في ذلك العصر وضعية ، أي من وضع البشر ، ولكن قانون العبرانيين كان شريعة من وضـع

السماء ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون ، هذا ما تيسر لنا من الجواب ، والله تعالى أعلم .

الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة

آ (٧٦) ﴿ . . . فَبَدأ بأوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أخيهِ ، ثُم اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أخيهِ ، – كَذلكَ كِدْنَا لِيوسُفَ ، ما كانَ لِيَأْخُذَ أخاهُ في دِينِ المَلِكِ ، إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ ، نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ ، وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عليمٍ – ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة وسبعون فقام الاستاذ الحلبوني[١] وقال:

قال لأبناء يعقوب الأحد عشر من وُكِّلَ بهم من المؤذن وجماعته : نريد أن نفتش أوعيتكم ، ما من ذلك بد (فبدأ بأوعيتهم) أي بدأ بتفتيش رحالهم (قبل وعاء) رحل (أخيه) بنيامين ، لنفي التهمة ، على حد قول الشاعر :

وطرفك إما جئتنا فاحبسنه كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

(ثم) لما وصل المفتش الى رحل بنيامين ، أصاب السقاية فيه و (استخرجها من وعاء) من رحل (أخيه) أخي يوسف (كذلك) أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) بأن ألهمناه أن يوصي معتمده باستفتائه من إخوته عن حكم السارق ، ثم وفقنا إخوته أن يوقعوا الجواب على السؤآل حسبما ظن وأراد (ما كان) يوسف (ليأخذ أخاه) بنيامين (في دين الملك) في جزاء ملك الديار المصرية ، أي

(١) نسبة الى حلبون من قرى دمشق (سورية) .

في الحكمة الجزائية بالديار المصرية — وهو تفسير للكيد وبيان له — لأن الذي كان يحكم به في دين ملك مصر ان يغرم السارق مثلي ما سرق ، لا أن يستعبد ، فالدين ههنا بالمعنى اللغوي هو الجزاء ، كما في « مالِك يومِ الدِّين ». (١ : ٣) ، ﴿ أإذا مِتْنا وكنا تُراباً وعِظاماً أإنّا لَمَدِينون ؟ ﴾ (٣٧: ٣٥) ، ﴿ يومئذٍ يُوَفّيهِم اللهُ دِينَهم الحق ﴾ (٢٤: ٢٥)،﴿ وإنّ الدِينَ لَوَاقعٌ ﴾ (٥١ : ٦) ، ﴿ وله الدِينُ وَاصِباً ﴾ (١٦ : ٥٢) قال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دِنّاهم كما دانوا

وورد « كما تدين تدان » أي كما تكافأ وتجازى ، ويحتمل أن يكون المراد بالدين الشريعة ، أي شريعة الجنايات والقصاص والعقوبات ، فيكون لفظ الدين محمولاً على المعنى الشرعي أوالعرفي (إلا أن يشاء الله) أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله ، بأن يجعل له عذراً فيما فعل ، وقد شاء الله ذلك (نرفع درجاتٍ من نشاء) في العلم ، كما رفعنا درجة يوسف فيه سابقاً ولاحقاً (وفوق كل ذي علم عليم) أي فوق كل صاحب علم أو كل ذي معرفة عليم عارف ، بحيث يكون فوقه بطبقات ، إلى أن ينتهي الإنسان الى درجة في العلم ليس بعدها أوسع منها إلا علم الله تعالى ، وعندها يقف علم ذلك الانسان .

(فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه ..الخ)

— ٢ —

وقال مولانا عمر البيلاني :

كيد يوسف لاخوته كان بوحي من الله عقاباً لهم في الدنيا

بدأ المفتش يفتش اوعيتهم قبل وعاء بنيامين فتطاولت أعناقهم ليروا ما يبرر كلامهم أمام من اتهمهم ، ثم مشى مشياً متثاقلاً نحو رحل بنيامين ، وما كاد يفتحه

حتى استخرج الصواع منه ، وعندئذ قطعت جهيزة قول كل خطيب ، فاقشعرت أبدانهم ووقفت شعور رؤوسهم ، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير ؛ رأوا ذلك فأجفلوا وبهتوا جميعاً لما نظروه ، مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين ؛أما بنيامين فقد انصب عليه سوط لوم وطعن من إخوته ، فتظاهر بالخجل وتصنع بالاضطراب تصنعاً لم يغير شيئاً من مظاهر عزته وأنفته ، وكأنه لم يعمل شيئاً يذكر ؛ صبر ولم يرد أن يكاشفهم بالحقيقة ، خوفاً من ظهور الأمر قبل أوانه ، فتبطل الحيلة التي دبرها شقيقه يوسف ، فأبقى الأمر مكتوماً الى حينه ، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به ، لاعتقاده انه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين ، وانه بذلك رفع من حضيض الأسر ، الى أوج النسر ، وهكذا تمت الحيلة ليوسف ، ورب حيلة أنفع من قبيلة ، وبسعيه هذا فاز بطريدته وأخذ أخاه بنيامين .

وأما إخوته فاحسوا بنيران هبت في أبدانهم ، وودوا لو تسوى بهم الأرض ، ولا كانوا يشهدون هذا المشهد المخجل أمام « عزيز مصر » وعبيده .

كذلك الكيد العجيب كاد الله ، أي دبر وأراد وصنع ويسر ليوسف المكائد لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها ، يكيد بها من سبق أنهم كادوه ، ويصيد بها من كانوا صادوه « جزاء وفاقا » ، « وواحدة بواحدة جزاء » ، «بالصاع الذى تكيل يكال لك » .

روى البخاري في تاريخه من حديث أبي بكرة :« اثنان يعجلهما الله في الدنيا، البغي وعقوق الوالدين » ، فلعل الله تعالى أراد تعجيل عقاب أولاد يعقوب في الدنيا لبغيهم على أخيهم ، وعقوقهم لأبيهم ، بأن ألهم يوسف عليه السلام أن يدبر هذه المكيدة ، ليذوقوا وبال أمرهم . وفي الحقيقة إن هذا كله يرجع لقدرة الله تعالى التي لا تقاوم وإرادته التي لا تغالب ، فلهذا ولما كان الله هو المرجع لكل حادث ، والمعول عليه في كل الأمور ، نسب هذا الكيد له سبحانه وتعالى.

أو يقال : لما كان هذا الكيد محموداً ومأذوناً فيه شرعاً ، لما فيه من فائدة يوسف وأخيه ، نسب لله ، فقال : « كذلك كدنا ليوسف » بخلاف كيد الإخوة ، فإنه شر ليوسف ، ولهذا نسب لهم وللشيطان في قول أبيه له: ﴿فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ فيوسف ماقصد إلا خير أخيه ، والإخوة لم يقصدوا إلاّ شر أخيهم ، قال الشاعر :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذا كا

كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر

ويجوز أن يكون كيد يوسف لإخوته كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر ، أى راجعاً للظروف التي احتاطت بيوسف ، فإن هذه هي مظهر القضاء والقدر ، وتوضيحه أن يقال : إن الظروف والأحوال التي كانت أحاطت بيوسف أخيراً سهلت له أن يكيد لإخوته ، تلك الأحوال هي كونه قد صار من رجال البلاط المتسلطين ، وربما كان قد تعلمه من تأويل الأحاديث ، ومصائر الكلام ، وبماعرف من شريعتي اسرائيل ثم القبط ، حتى صار فيه أهلية للتصرف في الحوادث، وكيفية الخروج منها والدخول فيها ، ومقدرة تامة على عمل مايريد .

كيد يوسف لإخوته كان حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم أو حيث اختاره لنفسه

ويمكن أن يقال : إنه كان ليوسف عليه السلام وصفان : وصف كونه نبياً ورسولاً ، ووصف كونه وزير مالية وعزيزاً لمصر في البلاط الملوكي ، وسياسياً محنكاً ، فهو باعتبار حالته الأولى ، كان له مساع وأعمال روحية يوفقه الله لها ويساعده عليها ، وباعتبار حالته الثانية ، كان له مساع وأعمال زمنية ، يوفق لها ويساعد عليها من الله ، الذي هو خالق كل شيء ، ولا نشاء إلا مايشاؤه ، قال

تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤتِهِ منها، وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة ،نؤتِهِ منها ، وكذلــــك نجزي الشاكرينَ ﴾ (٣: ١٤٥) ، فيوسف نبيّ ، ولكن لم يكن على منهج إدريس وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ونحوهم ممن كان نبياً محضاً، بل كان على منهج إبراهيم وموسى وداودوسليمان ونحوهم . ممن هو نبيّ وأميروملك ذو سلطة وبأس ، ومعلوم ان الحالة التي كانت بين يوسف وبين إخوته ، كانت حالة حرب ، لا حالة سلم و « الحرب خدعة » كما في الحديث الشريف ، وقد كان له على إخوته تِرَةٌ ، فأراد أن يثأر لنفسه منهم ، لأنه كره أن يذل نفســـه ، فيجترأ عليه ، فاختار الاقتصاص لنفسه ، ردعاً للتعدي ثانياً ، وهذه طريقة محمودة لمن أرادها ، قال تعالى : ﴿ والذينَ إذا أصابَهم البَغْيُ ، هم يَنتَصِرونَ ﴾ (٤٢ : ٣٩) وان كانت طريقة الغفران أفضل ، كما قال تعالى في نفس هذه الآية: ﴿ فَمَنْ عفا وأصلَحَ فأجرُهُ على اللهِ ﴾ ، لكن الغفران له أهله، كما أن القصاص له أهله ، فتبين من هذا أن كيد الله ليوسف من مناوئيه ـ حيث اختاره لنفسه أو ث اقتضاه الحال ـ نعمة يمتن بها عليه ، فلهذا قال . « كذلك كدنا ليوسف » .

لِمَ لَمْ يَسرق يوسف احد اخوته غير بنيامين

فان قال قائل : كان الأصرح في الكيد أن يسرّق يوسف أحد اخوته العشرة بني العلاّت خصوصاً « شمعون » ، فهو أفعل من تسريق شقيقه بنيامين ، وأشــد بأساً وأشد تنكيلاً ، فلم عدل عن ذلك وسرّق شقيقه المخلص له في الحب ؟ قلنــا ليس مقصد يوسف مما عمل إذلال إخوته والكيد لهم فقط ، بل كان هذا حاصلاً ثانياً وبالعرض ، إنما كان مقصوده اولاً بالذات أخذ شقيقه عنده ، فان قال آخر : لماذا كان تسريق بنيامين كيداً ليوسف وانتصاراً على إخوته ؟

فالجواب هو لأنهم كانوا في البدء سعوا بكل جهـدهم في سفر بنيامين معهم ، ولما امتنع أبوهم شوقوه ورغبوه ، ولكنه لم ينزل على مرغوبهم إلاّ بعد أن أخــذ

عليهم الأيمان المحرجة والعهود المغلظة ، فلهذا كان أخذ بنيامين منهم فشلاً عظيماً لهم، وخيبة مخجلة أمام أبيهم ، فهذا وجه اعتبار ذلك انتصاراً لأخيهم يوسف عليهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد رشيد الرصافي(١) لي على هذه الآية الملحوظات والتعليقات التالية :

يوسف يحتال على اخوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم

الملحوظة الأولى — تعلمون أيها السادة الأفاضل أن يوسف عليه السلام وإن كان قد صار « عزيزاً » بمصر ، وصار « وزير ماليتها » ووكيلاً عن مليكها الريان ، فهو رغماً عن ذلك كله، كان لا يزال ضعيفاً أمام إخوته العشرة ، يخاف شرهم ، ويخشى بأسهم ، لأنه مقروض بمخالبهم سابقاً ، ومعضوض بأنيابهم ، فهو كما تقول العامة من الناس « مضبوع » ولذلك احتاج في وصوله لغرضه أن يحتال عليهم بالحسنى ، فقدّر الشقاء عليهم وهم لا يعلمون ، وأرصد لهم الانتقام من حيث لا يشعرون ، أظهر لهم الرفق واللين ، وهو ينصب لهم مصائد الخدعة ، حيث يقعوا فيها ، حيث هو لا يقدر على التظاهر بالبطش ، ولا المصارحة بالانتقام ، ذلك لكثرتهم وقوتهم وجرأتهم وسرعة تصديق الناس لهم بطعنهم فيه لو أرادوا ، لأنهم إخوته وأقرب الناس اليه وأعرفهم فيه ؛ هذا منخول ما سمعته من بعض معاصريّ والعهدة عليه .

اين جرى تفتيش الاوعية

الملحوظة الثانية — لو قال قائل : هل كان تفتيش الأوعية خارج المدينة في المكان الذى وصل المفتشون الى إخوة يوسف فيه ، أو أن المفتشين انصرفوا بهم

(١) نسبة الى الرصافة احدى المدن العراقية .

إلى يوسف وهناك صار تفتيشهم ؟ قلنا إن المفسرين (ومنهم العلامة الزمخشري مع الأسف) على الرأي الثاني . ولكن الحقيقة ان التفتيش حصل خارج المدينة في المكان الذى وصلوا اليهم فيه والدليل على ذلك ١ً — قوله : « فبدأ » عبر بالفاء ليفيد ما قلنا ٢ً — العقل والعادة ، إذ المعقول والمعتاد انه إذا اتهم جماعة بالسرقة فأدركوا خارج البلد أن لا يكلفوا بالرجوع للبلد لأنهم ينكرون تلك التهمة ويقولون : ها نحن أولاء وهذه رحالنا فتشونا ، فان رأيتم معنا المسروق مضى علينا الحكم الشرعي ، ورجعنا معكم للحاكم ليفعل ما يريد ، وإلا سرنا لحال سبيلنا مع جماعة المتارين من كنعان .

هذا هو المعقول المعتاد ، وأما ان الجند قالوا لهم:« لا نفتشكم في هذه الطريق، ولكن ارجعوا للحاكم معنا قضُّكم بقضيضكم حتى نصل الى المدينة وهناك عند الحاكم يصير تفتيشكم » فهذا مخالف للعقل والعادة ، ٣ً — الواقع ، فان التاريخ ينص بصراحة ان التفتيش حصل خارج البلدة ، ٤ً — قولهم فيما سيأتي « واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها »(ع ٨٢)،فهذه « العير » التي استشهدوا بها كانت معهم في الطريق وهم مقبلون من الديار المصرية الى الديار الشامية آيبين الى أبيهم ، وهذه العير هي التي وقفت على هذه الحادثة ورأتها رأي العين ، ويجوز لنا أن نقول أيضاً إن هذه « القرية » كانت دسكرة في الطريق ، وهي التي وقع فيها التفتيش ، وليست هي العاصمة التي كان فيها يوسف ، فقد جرت سنة القرآن الحكيم في هذه السورة الكريمة ، أن لا يعبر عن المحل الذي فيه يوسف « بالقرية » بل تارة « بمصر » كما في سابق قوله تعالى : « وقال الذي اشتراه من مصر » (ع ٢١) ولاحق قوله تعالى : « وقال ادخلوا مصر » (ع ٩٩) ، وتارة بالمدينة كما مر في قوله تعالى : « وقال نسوة في المدينة » (ع ٣٠) ، وكلمة « قرية » لم تطلق في القرآن على مصر المعروفة ولا في موضع واحد ، فنأخذ من مجموع هذا الذي ذكرناه أن

هذه القرية كانت دسكرة في الطريق خارج العاصمة التي فيها يوسف ، فإذا صح ما قلنا يكون معنا أربعة أدلة تؤيد ان التفتيش وقع في دسكرة في الطريق وليس بالعاصمة التي فيها يوسف خلافاً للمفسرين .

تذكير ضمير الصواع وتأنيثه

الملحوظة الثالثة : — ذكّر ضمير الصواع مرات باعتبار اسم الصواع ثم أنثه باعتبار أنه يسمى سقاية ، وهكذا في كل شيء له اسمان مذكر ومؤنث ، مثل : خوان ومائدة ، قتال وحرب ، رمح وقناة ، سنان الرمح وعاليته ، والخ .

كيف جاز ليوسف ان يعمل هذه الحيلة على اخوته

الملحوظة الرابعة — ان قال قائل: كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة، وهي كذب حنبريتٌ ، وفيها إهانة لإخوته ، وكسر خاطر لهم ، وإلحاق عار ، بدون تسبب منهم ؟ وكيف قبل بنيامين هذه الاهانة ، وقبل أن يظهر بمظهر مارق في نظر اخوته ونظر عبيد يوسف ، ثم في نظر أبيه وأولاده ، وأولاد اخوته متى بلغهم الخبر ؟ وبالتالي كيف جاز ليوسف أن يدخل على أبيه هذا الحزن والقلق بسبب هذا الحادث المصنوع ؟!؟!..

فجوابنا عن هذه الأسئلة أن يوسف عليه السلام فعل ذلك بحسب الرأي وما تقتضيه المصلحة ، وتوضيح ذلك يحتاج الى بسط في الكلام ، واليكم البيان :

الرأي واتباع المصلحة مصدر من مصادر الشريعة

تعلمون أن مصدر كل شريعة الكتاب وأقوال الرسل وفتاواهم ، وهناك أصل ثالث وهو الرأي واتباع المصلحة ، وهو كما فسره « ابن القيم » مايراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أظهر الصحابة في هذا النوع وهو استعمال الرأي فقد روي عنه الشيء الكثير ، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه ، وهو أقرب شيء الى مايعبرعنه اليوم بروح القانون لابحرفيته. ونذكر من هذا القبيل أمثلة منها : قال الله تعالى : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينَ والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهم .. الخ الآية ﴾ (٩ : ١٦) فالآية جعلت المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعطي بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام ، كما أعطى جماعة منهم « عيينة بن حصن» و « الاقرع بن حابس » ، ثم فى زمن أبي بكر رضي الله عنه جاء عيينة والاقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب وقال : (إن الله أعز الاسلام ، وأغنى عنكم ، فان ثبتم عليه ، وإلاّ فبيننا وبينكم السيف ؟!) ، فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعلة هي المصلحة ، فلما ارتفعت هذه العلة بعزة الاسلام وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم ، لم يستمر في إجراء الحكم . كذلك روي أن عمر رضي الله عنه لم يقطع يد السارق فى عام المجاعة ،ويوجد من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، وأشهر من سار على طريقة عمر تلميذه عبد الله بن مسعود في العراق . وعلم أهل العراق ابتدىء بابن مسعود وختم بأبي حنيفة ثم بأبي يوسف ، ولذلك اشتهرت العراق « بالرأي » ، حتى صار اذا قيل « عراقي » فمعناه صاحب « رأي » كما بمقابلته اذا قيل « حجازي » فمعناه تابع « نصوص » .

وأما التعليقات التي لنا على هذه الآية فهي :

علم الله فوق كل علم في الكيف والكم

التعليق الأول — على قوله (وفوق كل ذي علمٍ عليمٍ) أي فوق كيفِ مايعلمه ، وفوقه في كمّ مايعلمه ، فكل ذي علم ، لو علم الشيء علماً مبهماً مجملاً ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلمه موضحاً مفصلاً ، وكل ذي علم ، لو علم بشيء دون

شيء ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلم كل شيء ، وهذا هو الفرق بين علم المخلوقين وعلم الخالق ، فمثلاً : الانسان يعلم أنه يوجد غداً شمس ، ولكنه لا يعلم درجة حرارتها وإضاءتها ، والانسان يعلم أشياء كثيرة ، ولكنه مثلاً لا يعلم في أي وقت تقوم القيامة ، حتى ولو كان نبياً مرسلاً ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونَك عن الساعةِ أيّانَ مُرْساها ؟ فيمَ أنتَ مِنْ ذِكراها ؟ الى ربِّك مُنتَهاها ، إنما أنت مُنذِرُ مَنْ يخشاها ﴾ (٧٩ : ٤٢ - ٤٥) ، وكما نقل عن السيد المسيح عليه السلام : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بها احد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب) (مر ١٣ : ٣٢) .

علم الله فوق كل علم توصل ويتوصل اليه الانسان

التعليق الثاني — يقول تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ولا يزال العلم آخذاً في الترقي ولا يزال الانسان آخذاً في التقدم ، ولا سيما في هذه الأيام ، فالانسان اليوم بلغ الثريا بمعارفه ، واكتشف الكواكب بعقله وعلمه ، وقاس الارض شبراً شبراً بحسابه ، وغاص البحار وطار في الهواء ، وابتنى القصور فوق الماء ، واكتشف الكهرباء واستخدم البخار . واخترع البرق والهاتف وأتى بالمعجزات العلمية كالحاكي والسماعة ، والراديو والنظارات المكبرة وموازين الارتفاع والانخفاض والحرارة والبرودة ، وأشعة رونكن ، وقدر الانسان أن يعرف بعلمه وذكائه أسرار الطبيعة وقوانينها ونواميسها وتحويلاتها واختلاف عناصرها ، ثم عرف مصدر الأرض وتركيبها وما تحتويه ، وعرف مصدر الماء وتركيبه ، ومصدر الهواء وتركيبه ، وعرف أن الغمام هو مصدر الأمطار ، وأن احتكاك الغيوم ببعضها هو مصدر الرعد والبرق ، وأن الشمس هي مبعث الحياة للأرض وسكانها ، وقدر البعد الشاسع الذي بينها وبين الكواكب والارض ، وفهم أن

هذا الكون سائر بدقة ونظام تام ، وفهم أن مبدع هذه الاشياء هو خالق عظيم ، ورب قدير ، هذا بعض ماأدركه الانسان بعقله وعلمه ، وما هو ياترى هـذا الانسان ؟ هو ذرة صغيرة في هذا العالم الواسع ، هو جرثوم ضئيل بين مخلوقات الله العظيمة ، هو لاشيء وكل شيء في آن واحد ، هو جزء من جزء وفي ذات الوقت هو الكل في الكل ، فسبحان المبدع القدير ، والخلاق العظيم .

كيف رضي بنيامين بتطبيق حيلة اخيه يوسف عليه

التعليق الثالث — هذه الحيلة التي اجراها يوسف ، وان كان يقصد منها أولاً وبالذات أخذ بنيامين ، ويقصد منها ثانياً وبالعرض إيقاع إخوته في مشكل ، لكننا لانقدر أن نجهل أن بنيامين كان من جملة ضحايا هذه الحيلة ، بل هي ماصبت إلاّ فوق رأسه بالأكثر ، ولكن لما كان ذلك كله بحسب الظاهر ، ولما كان سيظهر للناس أن بنيامين بريء ، ولما كانت العبرة بالعواقب ، ولما كانت النتيجة تبرر الواسطة رضي بها بنيامين كفدائي ، حتى يرضى أخوه .

ماهية الكيد في هذه الحادثة وانواعه

التعليق الرابع — على قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾، في مقابلة كيدهم ليوسف ، كادهم الله تعالى له ، والله يكيد من يكيده ، ويكيد من يكيد مظاهر أمره ، من أنبيائه ورسله ، ومصدر الكيد الرباني في هذه الحادثة هو نفس المكيد له وهو يوسف ، والكيد من الخلق الحيلة ، ومن الخالق التدبير بالحق .

فقوله كدنا ليوسف هو على حد ﴿ ومَكَروا ومَكَرَ اللهُ ، واللهخـير الماكرين ﴾ (٣ ٥٤)، ﴿ ومَكَروامَكْراً ومَكَرنا مَكْراًوهم لايشعرون ﴾ (٢٧: ٥٠) ومعلوم أن الأنبياء هم مظاهر أمر الله ، والأمراء هم مظاهر انتقام الله ، ولما كان يوسف مع نبوته معدوداً من الأمراء ، ظهر لاخوته بمظهر اسم « المنتقم»

فكادهم كما كادوه ، وجزاء المعصية قـد يتجزأ فيكون بعضه معجلاً في الدنيا ، وبعضه مؤجلاً الآخرة ، فما كان مؤجلاً للآخرة فهو موكول الى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقب عليه ، وأما ما كان معجلاً في الدنيا ، فهو مرتب على المعصية ، ترتب المسبب على السبب ، أو المعلول على العلة ، ترتباً طبيعياً لايمكن أن يتأخر عنه ، فضلاً عن أنه يمكن عدمه ، وأقل ذلك الجزاء الدنيوي مايحصل لفاعل الجرم من توبيخ الضمير ، وتأنيب النفس اللوامة ، ومايدخل عليه من الحزن وانكسار النفس ، ومايحوم حول ذلك من سوء السمعة وسقوط المجرم من أعين الناس ، وهوانه عليهم .

وقد وقع الكيد في هذه السورة اليوسفية ١ً — منسوباً لاخوة يوسف ، بناء عن وسوسة شيطانية ﴿ فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عـدو مبين ﴾ (ع٥) ، وعليه فهذا الكيد في الحقيقة من الشيطان ، ونظيره في نسبة الكيد للشيطان مافي قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياءَ الشيطان ، إنَّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً ﴾ (٤:٧٥) ، ٢ً — منسوباً للنسوة اللاتي تقع من بعضهن الحيل الشائنة ، وذلك في مثل قوله :﴿ إنـه من كيدكن إنَّ كيدكن عظيم ﴾ (ع٢٨) ٣ً — منسوباً للخائنين ، وذلك كما في : ﴿ وإنَّ اللهَ لايَهدِي كيدَ الخائنين ﴾ (ع ٥٢) ، والكيد في هـذه المواضع الثلاث مذموم ٤ً — منسوباً لله تعالى ، وذلك في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (ع٧٦) ، وهذا الكيد ممدوح ، لأنه بسبب تعديهم القديم على أخيهم ، فهو من قبيل اقتصاص ومجازاة من الله على مافرط منهم سابقاً ، ومما نسب فيه الكيد لله ، قوله تعالى ﴿ إنَّهم يَكيدون كَيْداً ، وأكيدُ كيداً ﴾ (٨٦:١٥) ، وقوله تعالى ﴿ وأُملي لهم إنَّ كَيدي متينٌ ﴾ (٧:١٨٢) وهـذا الكيد أيضاً ممدوح ، لأنه واقع من الله على الكافرين بسبب كفرهم .

معاني الدين

التعليق الخامس – على قوله تعالى ﴿ دين الملك ﴾ : يطلق الدين على معان، منها :

أولاً – بمعنى الأحكام القضائية أو الجزائية ، كهذه الآية .

ثانياً – الدين بمعنى الشريعة الفروعية ، ومن هذا القبيل كلمة الدين الثانية في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدّمُ ولحمُ الخنزير ، وما أكلَ السَّبُعُ إلاّ ما ذكيتم ،وما ذبحَ على النصبِ ، وأن تستقسموا بالأزلامِ ذلكم فسْق ، اليومْ يئسَ الذين كفروا منْ دينكمْ ، فلا تخْشوهم واخْشونِ ، اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورَضيتُ لكم الاسلامَ ديناً ، فمنْ اضطُرّ في مَخمصةٍ ، غيرَ مُتجانفٍ لإثمٍ ، فانّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٥:٤) ، وقوله تعالى : ﴿ أمْ لهم شُركاءُ ، شرعَوا لهم منَ الدّينِ مالم يأذنْ به اللهُ ؟ ﴾ (٤٢:٢١).

ثالثاً – الدين بمعنى مايشمل العقيدة والشريعة ، فمن ذلك مافي قوله تعالى : ﴿ ورَضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾(٥:٤) وقوله تعالى : ﴿ إنّ الدينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ (٣:١٩) وقوله تعالى : ﴿ ديناً قيماً ملةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾ (٦.١٦٢) . وقوله تعالى : ﴿ وماجعلَ عليكم في الدينِ من حرجٍ ، ملةَ أبيكم إبراهيمَ ﴾ (٢٢:٧٨).

وبهذا علم أن الدين قد يطلق على العقائد وأحكام الشريعة ، من معاملات وعقوبات وغيرها ، وأما تخصيص « الدين » بالعقيدة ، وتخصيص الشريعة بالأحكام القضائية والجزائية ، فهو اصطلاح مستحدث ، جرى عليه علماء أوربا ، وشايعه عليه كثير من علماء أهل اليوم في الشرق.

رابعاً – الدين بمعنى الأصول العبادية أو حصر العبادة في الله ، فمن ذلك قوله

تعالى: ﴿إن الحكمُ الا لله، أمرَ أن لاتعبدوا إلا إياه، ذلك الدينُ القيمُ﴾ (٤٠:١٢) وقوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلا ليعبُدوا اللهَ مخلصينَ له الدينَ حُنفاءَ، ويُقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، وذلك دينُ القيِّمة﴾ (٥:٩٨) وقوله تعالى: ﴿وأقيموا وجوهكم عند كلِ مسجدٍ، وادعُوه مخلصينَ له الدينَ﴾ (٢٨:٧).

خامساً — الدين بمعنى العقائد فقط، من ذلك قوله تعالى: ﴿ولا يزالون يُقاتِلونكم حتى يَردوكم عن دينكم، إنْ استطاعوا، ومَن يرتدِدْ منكم عن دينهِ فيمُتْ وهوَ كافرٌ، فأولئكَ حبطتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرةِ، وأولئكَ أصحابُ النارِ، هم فيها خالدونَ﴾ (٢١٧:٢) وقوله تعالى: ﴿ياأهل الكتابِ، لا تغلوا في دِينكمْ، ولا تقولوا على اللهِ الا الحقّ، إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولَ اللهِ، وكلمتهُ ألقاها الى مريمَ، وروحٌ منه، فآمنُوا باللهِ ورُسُلهِ، ولاتقولوا «ثلاثةٌ» انتهُوا خيراً لكم، إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ﴾ (١٧٠:٤)، وقوله تعالى: ﴿قلْ أتُعلّمونَ اللهَ بدينكم؟ واللهُ يَعلمُ مافي السمواتِ ومافي الأرضِ، واللهُ بكل شيءٍ عليم﴾ (١٦:٤٩).

جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم

التعليق السادس — كان الملك «الريان» في زمن يوسف وثنياً، وكانت شريعته أرضية لاسماوية، وأما يوسف عليه السلام، فهو وان كان وزير مالية وعزيزاً بمصر، فلم يكن له دخل في محاكم مصر الجزائية، ولا المحاكم القضائية، وهو في غير حادثة إخوته، لم نعلم له مداخلة في حكم جزائي ولاقضائي، ومع ذلك فهو لما تداخل في هذه الحادثة، اجتهد أن يكون الحكم بحسب شريعة جده إبراهيم عليه السلام.

الدرجات وانواعها واطلاقها

التعليق السابع — على قوله ﴿نرفعُ درجاتٍ منْ نشاءُ﴾ فالدرجات في الأصل هي مراقي السلم ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق ، فالعلم بشريعة إبراهيم درجة ، والعلم بشريعة المصريين درجة ، والعلم بالرأي والمصلحة درجة ، وسياسة القوم حتى يصل من يسوسهم الى مطلوبه منهم درجة ، والسيادة والحكم بالحق درجة ، والنبوة درجة ، وايتاء الانسان شيئاً من الملك درجة ، وتعليمه تأويل الأحاديث درجة ، الى غير ذلك مما أنعم الله به على يوسف ، « والدرجات » المقصودة هنا هي في العلم ، كما في قوله تعالى : ﴿وتلك حجتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ، نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ ، إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ﴾ (٨٣:٦) وقوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكم : « تفسّحوا في المجالس » فافْسحُوا ، يفْسحِ اللهُ لكم ، واذا قيلَ « انشُزُوا » فانشُزُوا ، يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ﴾ (١١:٥٨).

وقد تكون « الدرجات » في الولاية العامة والخاصة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ولهُنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروفِ ، وللرجالِ عليهنَّ درجة﴾ (٢٢٨:٢).

وقد تكون « الدرجات » في الثواب والمنازل بحسب درجات الأعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿لايَستوي القاعدونَ من المؤمنينَ — غيرُ أُولي الضررَ — والمجاهدون فى سبيل اللهِ بأموالهمْ وأنفسهمْ ، فضلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وأنفسهمْ على القاعدينَ درجةً ، وكُلاً وَعدَ اللهُ الحُسنى وفضّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً ، درَجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً ، وكان اللهُ غفوراً رحيماً﴾ (٤:٩٤و٩٥) ، وقد تكون « الدرجات » في الدنيا ، كما في قوله

تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكمْ خلائفَ في الأرضِ ورَفعَ بعضَكمُ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، ليبْلوَكمْ فيما أتاكمُ ﴾ (١٦٧:٦).

وقد تكون « الدرجات » في الدنيا والآخرة معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ انظرْ كيفَ فضّلنا بعضَهم على بعضٍ ، وللاخرةُ أكبرُ درجاتٍ ، وأكبرُ تفضيلاً ﴾ (١٧ : ٢١) .

ويقال في الصعود « درجات » وفي النزول « دركات » لا فرق في ذلك بين الصعود والنزول الحسيين والمعنويين ، قال تعالى : ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) وقال : ﴿ وَرَفعَ بعضَهمْ درجاتٍ ﴾ (٢ : ٢٥٣) وقال تعالى : ﴿ إنّ المنافقينَ في الدّرْكِ الاسفلِ منَ النارِ » (٤ : ٤٥) :

وقد تكون « الدرجات » متفاوتة جد المفاوتة ، كدرجات الحرارة في مقياسها ، إذ ما كل درجة فيه يغلي بها الماء ، ولا كل درجة فيه ، يتبخر فيصعد بخاراً ؛ وكدرجات الامتحان في المدارس ، أو الأعمال في الحكومة ، لا ينال الفوز فيها إلا بالدرجات العليا ، المحدد أدناها وأعلاها بالحكمة .

ومقابل رفع الدرجات نزولها ، فهو قد يتفاوت تفاوتاً كبيراً ، كنزول درجات الرطوبة في مقياسها ، ونزول حرارة الجو ، ونزول حرارة الماء ، إذ ما كل درجة في نزول حرارة الجو يسبب نزول المطر ، ولا كل نزول درجة حرارة الماء يكون بها جليداً .

رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ماوهبه لهم من الاختيار والاستقلال

وبناء على ما تقدم فقوله تعالى : ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء ﴾ أي نرفع من

شئنا من عبادنا درجات ، وهــذا لا ينافي ماوهبه الله للانسان من الاختيار والاستقلال ، فإن الله خلق الإنسان وأعطاه نوعاً من الاستقلال في أعماله الاختيارية على حسب علمه ووجدانه ، وما تكون التربيـة والعادة في نفسه من الصفات ، وبذلك يكون مصدراً لسعادتها أو لشقائها بعمله ، وهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء بإعداده وبتوفيقه من يشاء للكسبي منها ، واختصاصه من يشاء بالوهبي منها، ثم هو يرفع درجات من يؤتيهم ذلك ، بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية الى ماترتقي به درجته ، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه ، وبإيتاء ذي الدرجة الوهبية كالنبوة مالم يؤت غيره من أهلها من المناقب والآيات :

ـــ وجملة « نرفع » استئنافية مبينة أن ما آتى الله يوسف من أخـذه أخاه ، كان باختصاصه أعلى درجات معرفة الشرائع واتقانه حسن التوصل للمطلوب ـــ .

وأخيراً أختم كلامي بكلمتين :

الكلمة الأولى ـــ سوغ يوسف لنفسه أن يعمل هذا العمل مع اخوته العشرة وأخيه بنيامين توصلا لسهولة مجيء أبيه والعائلة جميعاً لمصر ، فالعمل الذي كان أجراه مع إخوته في سفرتهم الأولى كان هو « النواة » ثم هذا العمل الحاضر الذي أجراه معهم ومع أخيه كان هو « شجرة » ، ثم مجيء أبيه والأهل أجمعين لمصر كان هو « الثمرة » .

الكلمة الثانية ـــ بعد ختام هذا العمل واحتظاء يوسف ببنيامين ، لكأني به التفت الى أخيه وقال :

يا أخي الحامـل ضيمي دون إخواني وقومي
إن يكن ساءك أمسي فلقـد سـرك يومي
فاعتفر ذاك لهـــذا واطرح شكري ولومي

فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه . . الخ

— ٤ —

ثم قام السيد الهمام الغزي وقال :

جواز كون ما عمله يوسف عقاباً لاخوته في الدنيا كان موحى به من الله تعالى

أيها السادة :

كنت تأملت برهة في هـــذا العمل الذي دبره سيدنا يوسف لإخوته ، ولم ألبث أن رأيت مقالة منقولة عن الجاحظ ، فبها شفي غليلي ، ومنها تعلمت الجواب عن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، قال تحت عنوان « سياسة الحزم » :

« من لم يعمل بإقامة جزآء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الاحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الاعطاء — خالف الرب في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ، وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌ منه من كان شره صرفاً ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فان الناس لايهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب . والإطماع والاخافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك ، دخل عليه بحسب ماعرف منه ، فخير الخير ، ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل ، أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على

أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر — عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً — وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع ، وفيما هو أدوم ، ومن الانقطاع أبعد » آه ،

هذا هو كلام الجاحظ ، ومنه نتعلم الجواب عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، ومنه نعلم أن قوله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ أن هذا الكيد الذي نسبه المولى لنفسه ، قد يكون جرى عليه يوسف بوحي الطبيعة ، لأن الله تعالى كتب مايلزم عمله من الأدبيات على ضمائر انبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقد يكون جرى عليه يوسف بوحي الشريعة ، فيكون ماأجراه يوسف عقاباً لاخوته في الدنيا موحى به من الله تعالى وحي شريعة ، فلهذا نسب تعالى ذلك « الكيد » لذاته جل جلاله .

أحسنت

الطعن بيوسف وشقيقه

ا (٧٧) ﴿ ... قالوا « إنْ يَسْرِقْ ... فقد سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ » فأسَرَّها يُوسفُ في نفْسِهِ ، ولمْ يُبْدِها لَهُمْ ، قالَ : « أنتمْ شرٌّ مكاناً ، واللهُ أعلَمُ بما تَصِفُونَ » ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة وسبعون فقام السيد العاملي وقال :

لما رجع اخوة يوسف ، وصاروا بين يديه في بيته ، (قالوا) متملصين من بنيامين ﴿ إنْ يسرقْ ﴾ هذا الفتى الغِرّ ، فلا عجب ، ﴿ فقد سَرَقَ ﴾ سابقاً ﴿ أخ له من قبل ﴾ ويعنون به يوسف ، —وقد اختلف فيما أضافوا له من السرقة ،

فقيل : (كان أخذ في صباه صنماً لجده أبي أمه فكسره) ، وقيل : (أخذ تمثالاً صغيراً من ذهب فدفنه) ، وكل ذلك لم يكن ـ (فـ) لمّا سمع يوسف هذه التهمة تأثر كثيراً ، وجرى الدم اليعقوبي في عروقه ، ووقف شعر رأسه ، ولكنه كظم غيظه ، وصبر ، وقال كلمة لم تتجاوز شفتيه بحيث (أسرها يوسف في نفسه) ، شفى بها بعض غليله ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ ، بل جعلها بينه وبين ضميره ، ـ وهذا إضمار على شريطة التفسير ، وتفسيره قوله : ﴿ أنتم شرٌ مكاناً ﴾ ، وقد جاء التعبير في قوله « أسرها » وفي قوله « لم يبدها » ، بصيغة المؤنث لأن قوله (أنتم شر مكاناً) هي جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أنتم شر مكاناً) والمعنى قال في نفسه : أنتم شر مكاناً ، وهذه الجملة بدل من أسرها ، فمع انهم وقعوا فيه ، ونالوا منه ونطقوا بهذه الجملة القاسية ، لم يصارحهم ولم يبد لهم كلمة ما في مقابلتها ، بل طوى غيظه عنهم ، وأكنّ الحزازة الحاصلة مما قالوا ، ولكنه لشفاء غليله نوعاً ، (قال) في ضميره (أنتم شر مكاناً) أي أنتم أضرُّ منزلة في السَّرَق ، أو أنتم الذين خلقتم هذا الضيق وهذا الموقف الحرج ، من نفسكم لنفسكم (والله) عز وجل ﴿ أعلم بما تصفون ﴾ من تسريق أخي وتسريقي ، كذباً وزوراً . (قالون)

(قالوا : إن يسرق فقد سرق .. الخ)

— ٢ —

وقال وليّ الدين الشهرستاني[1] :

اتهام يوسف بالسرقة وحقيقة هذه السرقة

رأت اخوة يوسف أنه قد وضعت السلسلة في رقابهم وانتهى الأمر ، وكان ذلك بسبب « بنيامين » ، فلجؤوا الى شفاء بعض عليلهم بالطعن فيه وفي شقيقه

(١) نسبة الى شهرستان في البلاد الايرانية .

يوسف ، فقالوا : (إن بنيامين يتلو تلو شقيقه ، ويَستَسِنّ بسنته ، فهو أشبه بأخيه ، من الغراب بالغراب ، فهما قد قدا من أديم واحد ، وشقا من نبعة واحدة ، هو قد أخذ هذا الدرس من أخيه قبلاً ، فأراد اليوم أن يجرب هل يلحق شأو أخيه ؟ فيابئس الخلف ، لبئس السلف ، وإنّا براء منها ومن عملها) .

واختلف فيما أضافوا الى يوسف من السرقة ، والصحيح عندي أنها أيقونة ذهبية من أيقونات الترافيم ، وذلك أن يعقوب لما قام من وجه حميه وخاله (لابان) الذي كان ساكناً فيما بين النهرين ، وأخذ معه زوجتيه ليئة وراحيل ، كانت راحيل أخذت معها تمثالاً صغيراً من ذهب هو خاص بأبيها « لابان » فافتقده أبوها لابان ، وفتش فلم يجده معها ولا مع غيرها ، لأنها كانت خبأته في كُور الجمل الذي كانت راكبة عليه (تك ٣١ : ٣٥) ، ثم لما وصل يعقوب بأهله الى فلسطين ، كانت تلك الايقونة أي الصورة الصغيرة في يد يوسف يلعب بها ، لأنها تشبه مايسمى « بلعبة الصبيان » فقيل إنه سرقها من بيت جده لأمه ، فهم تذكروا هذه الحادثة ، وذكريات الصبا عميقة الأثر في النفوس ، فلذلك ذكروا ماذكروا ، ولكن الحقيقة والحال ، أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، على أن سن يوسف في ذلك الوقت نحو عشر سنين ، ولكن سن بنيامين حين وقوع هذه الحادثة الحاضرة كان نحو ثلاثين سنة ، فأيّ شاهد قدموا ؟ وعلى أيّ قياس قاسوا ؟

رأى اخوة يوسف ماحدث ، فانتشر عليهم رأيهم ، وضاع صوابهم ولم يعرفوا ماذا يقولون ؟ ولا ماذا يهون عليهم هذا المصاب . ولا ماهو الشيء الذي يضعف الصلة ـ نوعاً ما ـ بينهم وبين بنيامين ، فتصوروا أنه من غير أمهم ، فنفضوا منه أيديهم ، نفض المودع يده من تراب الميت ، فقالوا : إن يسرق بنيامين فلا غرابة ، فقد سرق أخوه يوسف الفقيد من قبله ، فهما شقيقان ، ورضيعا لبان ، فالدم

واحد ، والعواطف واحدة ، وقد نتقتهما أم واحدة ، والنفس التي كانت بين جنبي يوسف ، هي اليوم بين جنبي بنيامين ، وإن اختلفت المظاهر .

وأما يوسف فلما سمع قالتهم لم يطلق لنفسه العنان في الرد عليهم علناً ، بل أغض على القذى ، وتجرع كأس الضيم ، وكظم الغيظ ، وأبدى من الحلم ما يصغر عنده حلم « معن » بن زائدة ، و « قيس » بن عاصم ، و « الوليد » بن عتبة ، و « معاوية» ابن أبي سفيان ، غايته أنه أضمر في نفسه كلمة واحدة ، هي قوله : (أنتم شر مكاناً) قالها بينه وبين ضميره ، ولم يبدها لهم بحيث يسمعونها ، وإنما لم يقل (فقال أو قال) لأنه جواب لسؤال اقتضاه الحال ، كأنه قيل : ما الكلمة التي أسرها في نفسه ؟ فقيل : . قال أنتم شر مكاناً .. الخ أو لأن هـــذه الجملة تفسير للضمير في قوله « أسرها » ووقوع الجملة تفسيراً ، كثير في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

١ ــ مافي ﴿ قالَ إنَّهُ يقولُ : إنَّها بقرةٌ لاذَلولٌ (تُثير الأرضَ) ، ولا تَسقي الحَرْثَ ، مُسَلَّمةٌ (لا شِيَةَ فيها) ﴾ (٢ : ٧١) فقوله (تُثيرُ الأرضَ) تفسير لقوله (ذلول) ، وقوله (لاشية فيها) تفسير لقوله (مسلمة) ولهذا فُصِل ولم يُعطف .

٢ ــ مافي ﴿ وقال نبيُّهم إنَّ آيةَ مُلكِهِ أن يأتيكم التابوتُ ، فيه سكينةٌ من رَبِّكم ، وبقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآل هرون (تحمِلُهُ الملائكةُ) ﴾ (٢ : ٢٤٨) ، فقوله (تحمله الملائكة) تفسير لقوله (أن يأتيكم التابوت) .

٣ ــ مافي ﴿ كدأبِ آلِ فرعونَ والذين من قبلِهم (كذَّبوا بآياتنا) ، فأخَذَهم اللهُ بذنوبِهم ، واللهُ شديدُ العِقاب ﴾ (٣ : ١١) ، فقوله (كذبوا بآياتنا) تفسير لقوله (دأب) ، ولذلك لم يعطفه .

٤ ــ مافي ﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أخرِجَت للنـــاسِ ، (تأمرونَ بالمعروفِ

وتنهَوْنَ عن المُنكرِ ، وتؤمنونَ بالله) ﴾ (٣ : ١١٠) فقوله (تأمرون..الخ) تفسير لقوله (خير) .

٥ً — ما في ﴿ يُخفُون في أنفُسِهم مالا يبدونَ لك ، (يقولون : لو كان لنا مِنَ الأمرِ شيءٌ ما قُتِلنا ههنا) ﴾ (٣ : ١٥٤) ، فقوله (يقولون .. الخ) تفسير لقوله (يخفون .. الخ) ولهذا فصله ولم يعطفه ، الى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله تعالى .

وكلمة « شَرٌ » أفعل تفضيل ، وليس هو هنا على بابه ، نظير ﴿ قال : يا قومِ، هؤلاءِ بناتي ، هُنّ أطهرُ لكم ﴾ (١١ : ٧٨) ، فإنه لا طهارةَ في اللوط بهم البتة .

ثم لكأنك بيوسف قد قال في نفسه : « والله إنكم لم تقولوا صدقاً، ولا ذكرتم أمراً واقعاً ، والله إني أقدر الآن أن أكذبكم وأفقأ في عيونكم الحصرم ، فانكم تلصقون بي ما لا علم لي به، ولا وثيقة بيدكم تبرهنه، ولكن ليس هذا وقت الجدل، ولا هو وقت إظهار نفسي لكم » .

والآن ننهي قولنا بالتعليقات الآتية :

اعراض يوسف عن اللغو

١ً — تعليقاً على قوله « فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم » لأن يوسف عليه السلام كان ممن إذا مروا باللغو مروا كراماً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ؛

شتم « هشام » بن عبد الملك رجلاً من أشراف الناس ، فقال له : « أما تستحي تسبني وأنت خليفة ؟ » — فقال هشام : « اقتص مني » — قال : « لا أريد أن أكون سفيهاً » — قال : « تعوض مني بمال » — قال : « ما كنت لأبيع شرفي

بالدرهم والدينار » — قال : « اجعلها لله » — قال : « هي لله ولك » ، فخجل هشام ونكّس رأسه ، وعاهد الله على انه لا يشتم أحداً بعدها أبداً (١).

تذكر الاخوة ليوسف بالسوء

٢ً — تعليقاً على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » لم يكتفوا بما كانوا اصبوه من المصائب على رأس أخيهم المظلوم يوسف ، حتى وثبوا عليه الآن ، ووصموه في هذه المرة بجريرة السرقة ؛

وا أسفاه ! تذكروه في غيابه بالسوء ، بدلاً من أن يتذكروه بالشوق لمرآه ، والحزن على بعد عهدهم به ، والندم على ما فرط منهم في شأنه ، ولعمرُ الحق إن هذا الشيء لا يكون إلا ممن جفّت طباعهم ، وسقمت ضمائرهم ، والأمر لله ؛ وهذه المسبة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة إغاظاتهم ليوسف ، وأما الحلقة الأولى فهي صدهم إياه وهو في حضن أبيه في فلسطين ، وأما واسطة عقد هذه السلسلة ، فهي إلقاؤهم له في غيابة الجب .

ظن الاخوة بان بنيامين بريء من السرقة

٣ً — تعليقاً على قولهم « إن يسرق » إنما عبروا « بإنْ » التي تقتضي مرجوحية مدخولها ، لأنهم كانوا يغلب على ظنهم انّ « بنيامين » كان بريئاً من أخذ الطاس ، لأنهم رأوا أن الحاكم قد أكرمه كثيراً ، وكان قبله طلبه ، فلا بـــد من أنهم استنتجوا من ذلك أن الحاكم أتى ذلك رغبة في إبقاء بنيامين في خدمتـه لأمر لم يعلموه (٢) .

ثبات الاخوة على كره يوسف

٤ — تعليقاً على قولهم « أخ له » هـذه الكلمـة تشف عن ثباتهم على كره

(١) محاضرات عصرينا الاستاذ الحضري . (٢) السنن القويم

يوسف ، حتى يوم ما فاهوا بذلك، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم ، والحفيظة ملأت صدورهم !!! والعجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف ، وبما عملوه معه ، حتى أردفوا عملهم السيء بالقول السيء ، مخالفين قول بعض الحكماء : « لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه ، فتسد عليه طريق عفوه عنك » ، وأما هو عليه السلام فلم يحفل بطعنهم ، بل هضمه ، قائلا : « إنه كلام لا يسر ولا يضر ، فلنمر عليه مر الكرام » .

ويمكن أن نقول إنهم أرادوا بقولهم « أخ له » أخاه الذي يمت اليه من طرفين طرف الأبوة وطرف الأمومة ، وأما نحن فلا نمت له إلا من جانب الأبوة فقط ، فاتصالنا به ضعيف ، ومشابهتنا له قليلة ، بخلافه هو ، فهو المشارك له في أخلاقه وأعماله ، فهو على وتيرته وشاكلته ، خِرِّيجُه ، الذي أخذ عنه هذه الثقافة .

اختصار الاخوة الطعن بيوسف

٥ ً — تعليقاً على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » ، اختصروا القول في الطعن بيوسف اختصاراً ما كان مأمولاً فيهم ولا مرجواً منهم، وإلا فبغضهم الشديد ليوسف كان يقتضي الإسهاب والبسط في النيل منه ، وكأن السبب في ذلك أمور: ١ ً ـ إن المقام ليس مقام الطعن في يوسف ، ولكنه ذكر على وجه الاستطراد ، ٢ ً ـ إن يوسف كان قد غاب عنهم مدة طويلة هي نحو ٢٢ سنة ، فربما كانوا متصورين موته ، فلذلك خفت وطأة حقدهم عليه ٣ ً ـ المقام مقام « سرقة » لا غير ، فلذلك إنما ذكروا من طعونهم بيوسف « السرقة » فقط ، ٤ ً ـ إنهم لم يجدوا في « عزيز مصر » ـ الذي هو بالحقيقة يوسف ـ ميلاً لما يقولون ، ولا ارتياحاً لما يفترون ، فلما أحسوا بذلك لم يسترسلوا في الذم ، ٥ ً ـ هم إنما تكلموا فيما بينهم بلغتهم العبرانية ، ففاه بعضهم لبعض بهذه الكلمة ، من قبيل نفثة مصدور يريد أن يروّح نفسه ، وهم

لا يعلمون أن « عزيز مصر » (يوسف) يفهم كلامهم ، ولو كان مرادهم الاعتذار عند عزيز مصر ، لتوسعوا في القول بعض التوسع ، من قبيل التنصل من هـذا « الإنسان وأخيه » ، وأن تربيتها وأخلاقها ليستا كتربيتنا وأخلاقنا ، لأنهما ولدا الزوجة المحبوبة « فلذلك ترك أبوهما حبلهما على غاربهما» .

اوجه احتمال قوله فأسرها ... الخ

٦ً — تعليقاً على قوله « فأسرها .. الخ » عندنا ان هذا القول يحتمل وجوهاً ثلاثة :

الوجه الاول ـ انه أجال ذلك في ضميره فقط،فهذا القول قول نفساني ليس إلا :

إن الـكلام لفي الفؤاد وإنما　　جعل اللسان على الفؤاد دليلا

أي أنه تحدث بكلمة لم تتعد النفس والضمير،ولم تتعرف عليها الشفة والسمير، وهذا هو الغاية القصوى في الحشمة والأدب،وفي المثل :« الشاتم من أسمع والضارب من أوجع » .

الوجه الثاني ـ انه رطن باللغة المصرية التي لا تفهمها إخوته .

الوجه الثالث ـ أنه حرك بها شفتيه فقط انتهاجاً لطريقة الخرس ، بحيث لا يفهم كلامه إلا من يعرف طريقة المكالمة بحركات الشفاه .

مثال لحلم يوسف

٧ً — وكما أن يوسف عليه السلام قد حلم على إخوته ، فقد وجـد في هـذه الأمة المحمدية كثير من الحلماء ، واليك مثال من كثير من الأمثلة من هذا القبيل في حلم « معن » بن زائدة :

قدم أعرابي ذات يوم على « معن » بن زائدة يمتحن حلمه ، فلما وقف ببابه قال : أتذكُرُ إذ لحافُك جلدُ شاةٍ　　وإذ نعـلاك من جـلد البعير ؟

— فقال « معن » « أذكر ذلك ولا أنساه » — فقال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

— قال « معن » « سبحانه وتعالى » — فقال الأعرابي :

فلستُ مُسَلِّماً ماعشت يوماً على « معن » بتسليم الأمير

— قال « معن » : « ياأخا العرب ، السلام سنة ، وشأنك في الأمير »

— فقال الأعرابي :

سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير

— قال « معن » : « ياأخا العرب ، إن جاورت فمرحباً بك ، وإن رحلت فمصحوب بالسلامة » — فقال الأعرابي :

فجد لي ياابن ناقصة بشيء فإني قد عزمت على المسير

— قال « معن » : « أعطوه الف دينار يستعين بها على سفره » ،فاخذهاوقال :

قليل ما أتيت بـه وإني لأطمع منك بالمال الكثير

— قال « معن » : « اعطوه ألفاً آخر » ، فأخذها وقال :

سألت الله أن يبقيك ذخراً فمالك في البرية من نظير

— فقال « معن » « اعطوه الفاً آخر » فقال الأعرابي : « يا أمير المؤمنين ، ماجئت إلا مختبراً حلمك ، لما بلغني عنه ، فقد جمع الله فيك من الحلم ، مالو قسم على أهل الأرض لكفاهم » — فقال « معن » : « ياغلام ، كم أعطيته على نظمه ؟ » — قال : « ثلاثة آلآف دينار » — فقال « معن » : « أعطه على نثره مثلها »فأخذها ومضى في طريقه شاكراً .

استعطاف الاخوة

آ (٧٨) ﴿ . . . قالوا : ياأَيُّها العَزِيزُ ، إِنَّ له أباً شيخاً كبيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ ، إِنّا نَراكَ من المحسِنينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة وسبعون فقام الشيخ خالد البيتلحمي وقال :

سكت عن اخوة يوسف الغضب نوعاً ورأوا أنفسهم أنهم صاروا في موقف حرج ، لابد لهم فيه من الحكمة والتدبير ، والعمل على الخروج منه بلباقة ، فخاطبوا العزيز بنغمة المتوسل المستعطف و (قالوا) بصوت حزين (ياأيها العزيز) ملكت فأسْجِح [1] ، قدرت علينا فارفق بنا ، وتساهل معنا ، ولا تأخذنا بالشدة (إن له) أي لهذا السارق (أباً شيخاً كبيراً) طاعناً في السن ، وقدعلمت أنه هو أصغر أولاده ، كما أنك تعلم أن الأب الكبير مهما كان له أولاد ، فان نفسه تكون متعلقة بأصغرهم ، فهو طبعاً يحبه أكثر من غيره ، لأنه ابن شيخوخته (فخذ) أي إنا نتقدم اليك أن تأخذ (أحدنا) أيّ واحد منا أردت ، مستعبداً (مكانه) وكل منا راض بذلك ، (إنا نراك من المحسنين) الينا ، فأتمم إحسانك ، أو من عادتك الإحسان ، فاجر على عادتك .

(١) جرى مجرى المثل ، يضرب لمن قدر على خصمه ، فاراد المبالغة في قهره ، والسجاحة السهولة ، ومنه كلمة « سجاح » .

قالوا : ياأيها العزيز . . الخ

— ٢ —

وقال السيد سعد الدين اليبرودي (١) :

استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه

تذاكر أولاد يعقوب فيما بينهم ، فرأوا أن الأوفق الخضوع لأمر الحكومة والنزول على إرادتها ، قائلين في أنفسهم : وماذا عسى نعمل مع حكومة مصر الجبارة :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهذم

ثم علموا بسبب ماصار عليهم أنهم قد استهدفوا للوم الشديد من أبيهم ، وأنه سيظن بهم الظنون ، فوطنوا أنفسهم على إبقاء أحدهم بدلاً من بنيامين بدلاً شخصياً فمثلوا بين يدي يوسف ، وهم يتعثرون من الخجالة والهوان وقالوا له : ياعزيز مصر المحترم ، مكرمة أتيناك لها ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها (٢) نحن لانريد عدالة فقط بل رحمة ، والرحمة فوق العدالة وفوق القانون ، وماذاك الا أن لاخينا هذا أباً كبيراً في المقام وفي السن ، قد ظهرت عليه علامات الشيخوخة ، فإن عمره الآن ١٣٠ سنة ، وقد ذوى عوده ، وخوى عموده ، وضعف نظره ، وتحجرت منه الغضارف ، وضعفت عضلاته ، وبَرَى عظمه ، وقد كان له ابن يحبه ففقده ، وهذا الابن المحبوب المفقود كان من أبيه بمنزلة الشعار ، وقد اتخذ هذا الولد الحاضر من نفسه بمنزلة الدثار ، فاليوم كيف تكون حالة الشيخ الكبير إذا فقد شعاره ودثاره كليهما معاً ؟ ! ؟ ! فإن رأيت أن تهبه لابيه الشيخ فأنت لذلك أهل ، ومع ذلك

---

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية)

(٢) اي حزتها وصنعتها .

فليس مجاناً ، ولكنها هبة بثواب ، فخذ أيّ واحد منا مكانه ، وخله يظعن لوالده الشيخ الهرم ، لاسيا وأن أباه أبى أن يرسله معنا ، حتى نؤتيه موثقاً من الله لنأتينه به ، وقد تعهدنا له بذلك : وأقسمنا بالايمان المُحرّجَةِ ، وأعطيناه الميثاق الاكيد وإنا نقرأ آية الإحسان على وجهك ، نراك كريم الطبائع ، كثير الصنائع ، أحسنت الينا أولاً وآخراً ، سالفاً وحادثاً ، فافعل معنا ماتبنيه على قديم أياديك ، وسوابق إحساناتك ، أحسن الينا ، أحسن الله اليك ، أسعدنا أسعدك الله ، واتخذها عندنا يداً ، لاننساها لك مدى الدهر ، وأنت إذا كنت لاتريد أن ترحم دموعنا السخينة فارحم ذلك الشيخ الهرم ، ذا المقام العالي في فلسطين وكنعان والعراق ، المشار اليه بالبنان من عموم السكان والقطان فيما بين البحر الابيض المتوسط الى نهر الفرات .

وههنا تعليقات :

اى الاخوة قام بالاستعطاف

١ً — يقال إن الذي ناب عن إخوته في الكلام مع العزيز هو « يهوذا » وقد عرض نفسه للعبودية مكان أخيه بنيامين .

طلب الاخوة ترك الجاني واخذ البرىء

٢ً — من العجيب أن تخرج كلمة « خذ أحدنا مكانه » من فم هؤلاء الاخوة بعد صدور الفتوى الشرعية منهم ، بأن جزاء من سرق الصواع هو من وجد في رحله ، ولم يصدروا الفتوى بأن جزاءه أخذ أخ له لاعلم له بالسرقة ، ولايد له فيها .

ومن العجيب أيضاً أنهم تذرعوا لترك الجاني وأخذ البريء ، بقولهم « انا نراك من المحسنين » ، كأن من احسان المحسن أن يفك الآثم ويسترق العفيف الشريف !!!...

يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على اخذ سارق الصواع

آ(٧٩) ﴿ قالَ : مَعاذَ اللهِ أنْ نأخذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عندَه ، إنَّا إذاً لَظالمونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة وسبعون فقام الشيخ الجيرودي[1] وقال :

ما كاد يوسف يسمع كلام اخوته الا وقد سفهَ فكرة الاستبدال ، وفيّل رأيهم تفييلاً ، و(قال) بنفس عزيزة وصوت جهوري ، مجيباً لهم جواباً سلبياً ، ما هذا الإبرام ؟!.. وماهذه الشفاعة الملتوية ؟!.. (معاذ الله أن) أي نعوذ بالله معاذاً من أن (نأخذ) نستبدل واحداً بريئاً بواحد آثم ، وقد أضيف المصدر الى المفعول به وحذف لفظ « منْ » (الا من وجدنا متاعنا) سلعتنا ، (عنده) في رحله ، ولم يقل « من سرق » تفادياً من تلويث لسانه بالكذب ، ولبيان مستند الجريمة ، فهو ليس بتصريح بالسرقة ، ولكنه تعريض بها ، وان في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، (إنا إذاً لظالمون) للشريعة ولأنفسنا ولهذا البدل الشخصي عن بنيامين .

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية)

هذا هو موجز تفسير مفردات هذه الاية ايها السادة واما تفسير الاية المفصل فكما يلي :

(قال : معاذ الله ... الخ)

— ١ —

رفض يوسف ترك بنيامين او اخذ غيره من الاخوة

كان اخوة يوسف قد عرضوا عليه رجاءهم ، وهم في شيء من القلق ،وضعف الأمل ، كأن قلوبهم حدثتهم بما سيلاقونه من الفشل عند « عزيز مصر » ، لأنهم كانوا يحسون بضعف مستندهم في طلبهم ، أمام قوة الحكم الصارم ، الذي صدر من ألسنتهم ، فلذلك لما سمع طلبتهم زمهر في وجوههم ، وكشر لهم عن مثل ناب الليث ، ونآى بجانبه ، وقال قول مصر على مخالفتهم ، مقيم على محاربتهم ، ما هذا الذي تقولون ؟.. ما هذا المركب الخشن الذي تريدون أن تحملونا عليه ؟.. هل يجوز لنا أن نكرم أهل الشقاوة ، ونهين أهل السعادة ؟.. إيهاً (١) ياقوم ، هل يجوز أن نأخذ البريء ونطلق المجرم ؟.. لعمري دون ماتطلبون شرخ القتاد، حاشا لي من أن أقبل هذا الظلم الغير جائز ، لاسيا أني أمثل الوطن والتاج ، فاعذروني إذا لم أقبل توسلاتكم ، أنتم أنفسكم قد حكمتم بأفواهكم ، إذ قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين » ، فهل قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فأخوه جزاؤه ، كذلك نجزي إخوة الظالمين » ؟.. كلا .. لم تنطقوا بذلك ، ولا يكاد أن ينطق به عاقل ، وإن هذه الشفاعة منكم ،هي من قبيل : ﴿ ومنْ يشفعْ شفاعةً سيئةً يكنْ له كفلٌ منها ﴾ (٤:٨٤) ، وإن الشفاعة لاتجوز في الحدود ، وإن هذا الاقتراح لا يقبله منكم أحد من

(١) كلمة استكفاف أي كفوا أو كلمة يراد بها التبعيد والاستغراب .

المتشرعين ، إلا من بلغ من الغفلة والبله مبلغاً لايبلغه الأطفال ، ولاسكان المارستانات ، ولعمري لولا إنكم غرباء نزلاء علينا ، لقرعت لكم العصا وعاملتكم بما تستحقون ، فلاتحرجونا باسترحاماتكم ، فتخرجونا عن شريعة آبائكم ، فظلم الظالم يكون عليه ، والنفس التي تخطىء موتاً تموت ، وكما بالراعي تملك الرعية ، فبالعدل تملك البرية ؛ « وأما ما كان من جهة أبيكم ، فعزيز علي والله أن أشق عليه ، ولكن الضرورة لها أحكام ، والشيء قد وقع ، ولاخيرة في الواقع ،ولكن إذا أتيتموه فأقرئوه السلام ، وقولواله :« إن عزيز مصر يدعو لك أن لاتموت حتى ترى ابنك يوسف ، وحتى تعلم أن في أرض مصر صديقين مثله ، هكذا بلغوه عني، وخلاكم ذم »[1] .

وهنا نرى ان موقف يوسف في حالتي استرحامهم وعدمه واحد ، برنامج ثابت، وضعه لأخذ شقيقه ، لن يتغير أو يتبدل ، ولا بد أن يكون جوابه السلبي وقع عليهم كالصاعقة ، فبلبل لأول وهلة خواطرهم ، وجالت في ذهنهم بل جرت كمجرى البرق ، صور كلها سوداء تنذر بالبلاء ، والعياذ بالله تعالى . (قالون)

وأخيراً أنهي كلامي بالمواد التالية :

يوسف بين عاملي فرح وكدر

مادة ١ — كأني بيوسف عليه السلام صار يتردد بين عاملين ، عامل الفرح بحصوله على أخيه وأخذه عنده ، وعامل كدر أبيه متى بلغه ذلك الحادث ، لكنه آثر الجري مع العامل الأول ، توصلاً لتشذيب شكيمة إخوته،وتخضيدشوكتهم، وقد دلت التجارب على أن إظهار شيء من قوة الحاكم أو الآمر كفيل بتقويم شيء من الاعوجاج ، فيوسف أراد بهذه الشدة أن يعمل على تحسين حال إخوته،

(١) جامع البيان .

ثم ان تصوره قرب انكشاف الواقع ودنو مجيء أبيه وأهليه جميعاً اليـه ، خفف تأثير العامل الثاني عليه .

لا محاباة في أحكام الشرع

مادة ٢ — يريد بقوله ﴿ معاذ الله .. الخ ﴾ إن الحكم الشرعي الذي لفظتموه عام ، فهو لا ينظر في كون المجرم له اب شيخ كبير ام لا ، ولا فرق فيه بـين ولد وولد ، ولا يحتمل شيئاً من المحاباة ومراعاة الوجوه.

لا تجزي نفس عن نفس شيئاً

مادة ٣ — تعليقاً على قوله : « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » ، فكما انه في الآخرة ﴿ لا تَجْزِي نفْسٌ عن نفْسٍ شيئاً ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخذُ منها عَدْلٌ ، ولا هم يُنصَرون ﴾(٢:٤٨) فكذا في الدنيا ، لا نسيغ البدل الشخصي ، ولا نقبل الشفاعـة ، التي تعود على العدالة بالنقص والبطلان ، ولا نأخذ فدية من المحكوم عليه ، وليس أحـد من عشيرته وذويه ، يقدر أن يخلصه منا قهراً ، لأن فتح هذا الباب يزيد الناس ميلاً الى الشر ، وضراوة بالإثم ، وان تعطيل العدل ، والوقوف في وجه الشرائـع والقوانين ان تأخذ مأخذها ، وتنفذ نفاذها — ضار بالأمم ، مفسد للعُمران ، ولذلك فحكمتنا في مصر ، لا ترضاه ، بل هي تباهي بأنها لا تروج لديها «المحسوبيات» ، ولا تميل الى « المحاباة » ، وليس فيها متسع « للمداخلات » ، حقاً إن شيئاً من هذا القبيل لهو مما يضر بالأمم ويفسد حالهم ، ويؤخر عمرانهم ، ويوهن عزائمهم عن الوقوف عند حدود الشرائع والقوانين .

يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به اخوته

مادة ٤ — ربما ان يوسف لما سمع تعطفهم إياه ، واستنزالهم رحمته وإحسانه ،

وذكرهم شيخوخة أبيه وطعنه في السن، وانه يحبه لكونه أصغر أولاده — ربما انه لما سمع ذلك حدثته نفسه بإطلاق بنيامين، وفصم عُرَى التدابير التي كان رتبها، ولكنه رأى وجوب إمضاء العزيمة، لأن نقضها ضعف في النفس، وزلزال في الأخلاق، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل، فإذا كان ناقض العزيمة عامل حكومة أو قائد جيش، كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضاً للثقة بحكومته وبجيشه، ولا سيما إذا كان بعد الشروع في العمل، وبعد الفكر والروية، ولذلك لم يصغ النبي ﷺ الى قول الذين أشاروا عليه بالرجوع عن غزوة أحُد، بعدما كانوا أشاروا عليه بالخروج إليها، وبعدما كان قد افتكر فيها ملياً، وعزم عليها، ولبس لامته وخرج، فإنه بذلك صدق عليه انه شرع في العمل بعد الروية، ويمكن ارجاع ذلك الى قاعدة «ارتكاب أخف الضررين»، وأيّ ضرر أشد على الحاكم من فسخ عزيمته، وما فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة.

تكرار جملة «معاذ الله» في القرآن

مادة ٥ — كلمة «معاذ الله» لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين، حكاية عن فم يوسف عليه السلام، فالمرة الأولى تقدمت عندما قالت له امرأة العزيز، «هيت لك» فأجابها بقوله: «معاذ الله»، والمرة الثانية ههنا، حينما قال له إخوته: (خذ أحدنا مكانه)، فيوسف أظهر لامرأة العزيز أن هذا الامر وهو الفحشاء منكر يستعاذ بالله من الوقوع فيه، كما أنه هنا أظهر لاخوته ان استبدال بنيامين بغيره، منكر أيضاً، لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم.

ظاهر قوله «انا اذاً لظالمون» وباطنه

مادة ٦ — تعليقاً على قوله: «إنا إذاً لظالمون» لأن الجاني هو بنيامين، فكيف نجازي غيره بجنايته، قال تعالى: ﴿لها ما كسبَتْ، وعليها ما اكْتَسَبَتْ﴾ (٢ : ٢٨٦)، ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت

وهم لايُظلَمون ﴾ (٢ : ٢٨١) ، ﴿ وأنْ لاتَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى ، وأن ليسَ للانسانِ إلاّ ماسَعَى ..الخ ﴾ (٥٣ : ٣٨) ، ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفْسٍ إلاّ عليها ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فالقاعدة ان عمل كل انسان له أو عليه ،لايجزى به سواه ، فطلبكم استبدال المجرم بالبريء لاأقبله ولن أقبله ، ولا يستطيع أحد من علماء الشريعة أو الحقوق ، بل ولا من أحط الجهلة إدراكاً ، وأسخفهم ذهناً،وأبعدهم عن الحق ، أن يفتكر هذا الفكر.

هذا بالنظر لظاهر اللفظ ، وأما بالنظر لباطنه فكأني به يقول : (أعوذ بالله ان آخذ إلا شقيقي المحبوب ، الذي كنت بالاشواق الكلية لرؤيته ، والذي عملت هذا الكيد المتسلسل حتى توصلت للحصول عليه ، وإني لو أخذت أحد إخوتي الكبار الذين كادوا لي كيداً ، وعملوا على إيذائي وإبعادي ،في حين أني غير مشتاق لواحد منهم — لكنت ظالماً بتركي شقيقي المحبوب ، واستبدالي به مكروه من أولاد العلّات ، ولحقّ عليّ أن أنشد قول الشاعر :

لك الحمد أمّا مانحب فلا نرى ونبصر مالا نشتهي فلك الحمد

التورية في قوله « متاعنا »

مادة ٧ — تعليقاً على قوله : « متاعنا » فالمتاع كما يطلق اسماً للسلعة كالطاس هنا فانه يطلق مصدراً بمعنى المنفعة واللذة ، فهذه الكلمة هنا من قبيل مايدعى « تورية » أو « تعريضاً » (وفي السنة كثير من المعاريض ، التي هي جائزة ، اذا لم تبطل حقاً ، ولا تحق باطلاً ، كقوله ﷺ لمن سأله « ممن أنتم ؟ » قال : « نحن من ماء » ، وكان اذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، وكان الصديق رضي الله عنه يقول في سفرة الهجرة لمن يسأله عن النبي ﷺ : (من هذا الذي بين يديك ؟ فيقول: هاد ، يدلني على الطريق) [1].

(١) الطرق الحكمية .

برقيتا شفرة من يوسف لأبيه

مادة ٨ — أراد يوسف عليه السلام بتلك الأعمال والاقوال ، التي عملها وقالها بشأن بنيامين ، أن تبلغ لأبيه ، فيي منها حل اللغز ، وفك الطلسم ، وان لم تفهم اخوته منه شيئاً ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، وطبعاً ان المرسل اليه الرسالة يفهم منها مالم يفهمه ساعي البريد ، كما قيل : « فنحن سكوت والهوى يتكلم » ، ونحن نرى أنه أرسل لأبيه برقيتي « شفرة » الأولى تفهم من (ع ٦٩ – ع ٧٩) وقرأ الأب هاتين البرقيتين وفهم رموزهما ، وبناء عليه قال كما سيأتي : ﴿ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. ﴾ (ع ٨٧) .

وهنا تنتهي « المعركة » بين يوسف واخوته

(أحسنت ولا فض فوك)

اليأس والمفاوضة والمناجاة

آ (٨٠) ﴿ فلما اسْتَيْأَسُوا منهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ... قال كبيرُهم : أَلَمْ تَعْلموا أنَّ أباكُمْ قد أَخذَ عليكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ ، ومِنْ قَبلُ ما فَرَّطْتُم في يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض حتّى يأذَنَ لي أَبي ، أوْ يَحْكُمُ اللهُ لي ، وهوَ خيرُ الحاكِمين . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الثانون فقام السيد الحلبي (١) وقال :

سمع الاخوة العشرة جواب « عزيز » مصر السلبي ، وردهم بلا ح

(١) نسبة الى بلدة حلب في سورية .

وتغليطهم في طلبهم ورأوه انه غير مهتم بما قالوا ويقولون ، يئسوا وكانت إحدى الحسرات ، وتقهقروا من أمامه منكسي الرؤوس (فلما استيأسوا) وظنوا أنهم قد وقعوا في مخالب الشقاء ، كالقابض على الماء ، وعقدوا فيما بينهم مجلس مؤامرة و(خلصوا) أي اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم (نجياً) ذوي نجوى — وهو مصدر بمعنى التناجي — أو فوجاً نجياً ، أي مناجياً ، لمناجاة بعضهم بعضاً ، كالعشير والسمير ، بمعنى المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقرّبناهُ نجياً ﴾ (٥٢:١٩) ، وأحسن منه يمكن أن يقال : إنهم تمخضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك وافاضتهم فيه ، بجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، فعلوا ذلك لكي يتفاوضوا في تدبير أمرهم على أيصفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ، كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، وصاروا ينظرون الى أفق المستقبل بمنظار حالك ، لايعلمون مادبر لهم القدر ، من رحمة أو من نقمة ، فاحتاجوا الى التشاور المطلوب شرعاً وعقلاً ، ثم (قال كبيرهم) في السن وهو رأوبين ، وقد استشاط غيظه ، وتلظّى تلظياً ، وتضرّم تضرماً ولاحت له صورة ذلك التشديد والاحتياط الذي عمله أبوهم معهم ، كما لاحت له صورة يوسف « المظلوم » : إن الأمر لجلل ، وهو أعظم مما تتصورون : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) وعاهدتموه وواعدتموه ، والوعد على الحر دين — فقالوا : اللهم نعم — قال (ومن قبل مافرطتم) أي تفريطكم (في) شأن (يوسف ؟) وتهاونتم في أمره ، وقصرتم في الاحتفاظ به ، ولم يَرِمْ واحد منكم من ورائه ، ويناضل كما يجب ، ومما يؤلمني انه قد شملني عقاب عملكم ، لأنه قد يؤخذ الجار بظلم الجار ، ولعمري لقد تفاقم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع ، وبلغ السيل الزبى ، وان ماسوف يكون ، أشد هولاً مما كان ، وان في طيات المستقبل ماتتضاءل أمامه حوادث الماضي ، وان الغد سيجيئنا بأروع مما جاءنا به

منذ ٢٢ سنة — قالوا : وما الذي نصنع ؟ وشمعون هو الذي اضطرنا لأخذ يوسف من حضن أبيه ، ويهوذا هو الذي حسن لنا إلقاءه في غيابة الجب ، ثم أنت بالأشد، ويهوذا بالاكثر ، بطلا رواية أخذنا بنيامين من أبيه ، لازلتما تلحان عليه ،ولا برحتما تتعهدان له حتى واتاكما ، فيصح أن نقول لك كما ليهوذا : « يـداك أوكتا وفوك نفخ » — قال :وما علمي بما سيكون؟ لعمري لقد سبق السيف العزل — قالوا :وماذا تريد الآن ؟ — قال : أما أنا ، فوالذي بإذنه تقوم الخضراء والغبراء (لن أبرح) لن أفارق (الأرض) الداخـــلة في مملكة الرعاة ولا فواقاً (حتى يأذن لي أبي) بالبراح ، أو الانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من يميني ، الذي أقسمت له،ويتنازل عن الوعد الذي وعدته إياه — وذلك أن رأوبين كان قال لأبيه : « اقتـل ابنيّ إن لم أجيء به اليك ، سلمه بيدي وأنا أرده اليك » (تك ٤٢ : ٣٧)،(أو يحكم الله لي) بمفارقتها والخروج منها ، أو بتتمة مدة أسر أخي ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ، أو بموتي في مصر ، فلئن مت غريباً في هذه الديار بلا خجالة ولاذل ، خير لي من أن أرجع لفلسطين بالخجل والهوان ، (وهو) سبحانـــه وتعالى (خير الحاكمين) لانه لايحكم أبداً إلا بالعدل والحق ، هذا كل ماأملكه اليوم في مصر ، وكل ماأستطيع أن أقدمه ، أملاً في تخفيف ويـلات والدي ، وتخفيف هذا المصاب الذي لي منه حظ وافر ، سمع اخوته منه هـذا الخطاب ، فأظلمت الدنيا في عيونهم ، وخيل اليهم كأن المحيط الذي يحيط بهم ، قـد صبغ بصبغة الظلام الدامس ، ووقعوا في حيص بيص ، ووقعوا في قريب مما كان وقـع فيه يوسف أيام الجب ، منذ ٢٢ سنة ، وكما تدين تدان :

تحكموا ما استطاعوا في تحكمهم ... عما قليل كأن الحكم لم يكن

لو أنصفوا أنصِفوا،لكن بغوا فبغى ... عليهم الدهر بالأحزان والمحن

فاصبحوا ولسان الحال ينشدهم ... هـذا بذاك ولاعتب على الزمن

(فلما استيأسوا منه : خلصوا نجياً .... الخ).

— ٢ —

وقال سيدي علي المسمِيّ[1] :

يأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم واقوال اخيهم الاكبر

فرغنا مما كان من أمر الجذل بين يوسف واخوته ، وتوسلهم اليه ، وعدم اجابته إياهم ، فلنترك ذلك كله ، ولنترك يوسف وهو محظيّ بأخيه في فرح وجذل ، ولنذهب بالقارىء الى هؤلاء الاخوة العشرة ، وحيرتهم ووقوعهم في الضيق ، الى أن التجأوا الى المفاوضة .

رأوا أنه قد حمي الوطيس من جانب « عزيز مصر » فرجعوا الى أفاحيصهم متسللين متلاوذين ، وما رجعوا الا بخفي حنين ، فتلبدت عليهم غيوم الحادثة ، وضاق صدرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ووقعوا في أزمة شديدة ، ورأوا أن هذا الحاكم لايراغمه ، وعلموا أن بقاء أخيهم أمر حتم ، لا بد منه طوعاً أو كرهاً ، فمثلت لهم حراجة الموقف بأجلى مظاهرها ، ورأوا أنهم وقعوا في حيرة ، تتقاذفهم العوامل ، بين رجوعهم لفلسطين بدون بنيامين ، وبين بقائهم بمصر ، حياء من أبيهم ، وكلا الأمرين شاق ، وصاروا كلما تصوروا مسيرهم لفلسطين هالهم موقفهم أمام أبيهم ، وعظم عليهم الاعتذار ، ولم يكن ذلك الحادث ليهولهم أو يكبر عليهم ، لو لا ماسبق من حادثة يوسف ، فبها قد أصبحوا متهمين في نظر أبيهم ، فهذه المسألة هي بمكان من الدقة والخطر ، فلذلك رأوا أنفسهم في حاجة الى التفكير والمفاوضة ، لعلهم يصلون الى رأي أو مشورة ، يكون فيها حل لهذا المشكل ، ومخرج لهم جميعاً ، وتخفيف على أبيهم الذي هو الآن في قلق واضطراب .

---

(١) نسبة الى المسمية من قرى قضاء غزة (فلسطين)

ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه بنيامين ، وعودتهم جميعاً سالمين ممتارين ، فلذلك انتبذوا جميعاً في ناحية بعيدة عن مجتمع الدهماء وضوضائهم ، متناجين ، وأعملوا فكرتهم ، وفزعوا الى المؤامرة ، فقال أخوهم الأكبر رأوبين كما روي عن قتادة وهو في الواقع ونفس الأمر كبيرهم على الاطلاق ، لأنه بكر اسرائيل ، وهو ذو البلاء الحسن واليد المشكورة (نوعاً) في آرائه في يوسف ، فقد كان له معه ضلع لاينكر ، وإن كانت المقادير لم تساعده — قال وقد شعر بعظم التبعة التي تحملوها بالأقسام التي أقسموها لأبيهم : « يا أخوتي ، ألم تعلموا أن أباكم إسرائيل قد كان تخوف منكم على ولده بنيامين حتى أخذ عليكم موثقاً من الله في شأنه ، وشأن محافظته ، والرجوع به سالماً ؟ . . فقد أصبحتم مقيدين بهذا الموثق ، وصرتم مرتبطين بذلك (والشرط أملك ، عليك أم لك) ، ومن قبل مافرطتم في أمر المحافظة على « يوسف » رحمه الله منذ ٢٢ سنة ؟ . . أنا لا أريد أن أزيدكم علماً بذلك ، لأنكم تعرفونه تماماً ، اليس هكذا ؟ » — قالوا : « اللهم نعم ، ولكن إن لم يكن لنا في الواقع اعتذار عن حادث يوسف ، فانا نعتذر عن حادث بنيامين بأن أبانا قال : « إلا أن يُحاط بكم» وقد أحيط بنا ، إذ لا يَدَ لنا مع الحكومة المصرية ، ذات الحول والطول ، ولا طاقة لعشرة أنفار أن يعصوا دولة ، ويخرجوا عليها ، خصوصاً ونحن غرباء ، وفي داخل حدود مملكتهم ، لا سيما وقد أخذوه بوجه مشروع ، بعد استفتائهم منا ، وأنت تعلم أننا جميعاً لم نأل جهداً في استبداله بواحدمنا ، وان « عزيز مصر » لم يقبل رجاءنا من هذا القبيل ، وكيف يقال أننا قصرنا ، وكل واحد منا فادى بنفسه ، وقبل التضحية بذاته ، ولكن مساعينا لم تكن الا قبض الريح » — فقال رأوبين : « أنتم وذاكم ، وأما أنا فقد وطنت نفسي على أن لا أزال مرابطاً في مصر ، بدون أن أتبرم أو أتذمر ، ولن أفارق هذه الأرض ولو تَجلَبتْ عليّ الحكومة بخيلها ورجلها ، وسأبذل كل مرتخص وغال ، وأجود

بالنفس والنفيس ، وأنسى أهلي وأولادي ، في سبيل إقامتي في « صوعن » ، وعدم رجوعي لكنعان ، حياء من أبي ، ولأجل مشارفة أخي بنيامين وملاحظته ، وأملاً أن يجد في شأنه مافيه بارقة أمل ، حتى يأذن لي أبي بالانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من اليمين التي كنت أقسمت له بهـا عندما أخـذنا بنيامين منه بان أرده له بيدي وأن يتنازل عن الوعد الذي كنت وعدته إياه بان يقتل ابني إن لم أجيء بنيامين اليه ، أو يحكم الله لي بما لا يعلمه سواه ، لأن المستقبل بيده سبحانه وتعالى.

(جيد)

فلما استيأسوا منه ، خلصوا نجياً . . الخ

— ٣ —

وقال تقي الدين الدهشوري [١] :

نشكر المحاضر الكريم الأخ المسمي على تفسيره لهذه الآية الكريمة وأرجو أن تعيروني سمعكم للتعليقات التالية عليها :

معنى النجيّ

١ً — النجيّ والنجوى والتناجي مصادر بمعنى المسارة بالحديث وأصله من من النجوى ، وهي المكان المرتفع عما حوله ، بحيث ينفرد من فيه عمن دونه ، أو من النجاة ، كأنه نجا بسره ممن يحذر اطلاعهم عليهم :

والغالب في التناجي أن يكون خيراً للمتناجين ، وشراً لغيرهم ، أو مؤذياًلهم ولو من بعض الوجوه ، كأسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بهـا أهلها نفع أنفسهم ، وضرر غيرهم ، فيكتمون أخبارها ، ويجعلونها نجياً بينهم ، لئلا تصل الى خصومهم ، وعدوهم الذي يضره ماينفعهم ، وينفعه مايحبط عملهم ، ويبطل كيدهم

(١) نسبة الى دهشور من بلاد السودان المحري .

ويشبه ذلك ما يكون بين التجار وغيرهم من طلاب الكسب ، من التناجي فيما يخافون أن يطلع عليه غيرهم ، فيسبقهم اليه أو يشاركهم فيه ؛

فالنجوى تكون في الخير كما علم ، ولكن الأكثر أن تكون في الشر ، أو أنها فيما يعود بالشر على غير المتناجين ، ولذلك كانت النجوى مظنة الاثم والشر ، والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر ، هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب اظهار الخير والتحدث به في الملأ ، وان الشر والإثم هو الذي يخفى ، ويذكر في السر والنجوى ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لا خَيرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْواهم ، إلاّ مَنْ أمرَ بِصَدقةٍ ، أو معروفٍ ، أو إصلاحٍ بينَ الناسِ ﴾ (٤ : ١١٣) ، والنجوى ههنا هي من قبيل هذا النوع الثالث ، وهو الاصلاح ، لأنهم يتناجون لما فيه صالح أخيهم بنيامين ، أو فيه صالحهم جميعاً فيما بينهم وبين « عزيز مصر » ، أو فيما بينهم وبين أبيهم إذا رجعوا اليه ماذا يقولون له في شأن أخيهم .

مجلس شورى الاخوة

٢ً — لما وقعوا في الأزمة الشديدة عقدوا « مجلس شورى » ، وقد أصابوا لأن « يد الله مع الجماعة » ، و « المرء قليل بنفسه كثير باخوانه » و « ماخاب من استخار ، ولا ندم من استشار » وقد أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بالشورى ، فقال : وشاوِرْهم في الأمر (٣ : ١٥٩) ومدح الصحابة بقوله : ﴿ وأمْرُهم شُورَى بينهم ﴾ (٢ : ٣٨) ، وقال أبو الطيب المتنبي :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافي رافدات القوادم
وماخير كفٍ أمسك الغِلْ أختها ؟ ... وماخير سيف لم يؤيد بقائم ؟

تعريض رأوبين باخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف سابقاً

٣ً — نفهم من قول راوبين : « ومن قبل مافرطتم في يوسف » شيئاً مهماً ، وهو أن رأوبين لم يقع منه تفريط في الاحتفاظ بيوسف ، وهو حقيقة راهنة ، أيدها النقل الصريح ، فقد روى لنا التاريخ أن « رأوبين » لما سمع كلام إخوته ومؤامرتهم الاولى في شأن يوسف ، منذ ٢٢ سنة . قال : « لانقتله ، لاتسفكوا دماً ، لاتمدوا اليه يداً » وصادف أنهم بعد أن القوه في الجب أن رأوبين غاب عن الجب وعن اخوته في بعض شؤونه ، ثم رجع الى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه فمزق ثيابه ، لانه لم يكن يعلم أن « السيارة » جاءت فسحبته ، وأصعدته من الجب وسافرت به لمصر ، وكان بعد القائه في الجب عازماً على إخراجه منه بحيلة ، ليرده الى أبيه ، فرجع الى اخوته وقال : « الولد ليس موجوداً في الجب ، وأنا الى أين أذهب ؟ » « فرأوبين » كان يعمل في الخفاء ويريد أن يرد يوسف لابيه فيما بعد ، — هـذا ماذكره التاريخ ، وهو يؤيد مافهمناه من الكتاب الكريم من أن « رأوبين » لم يكن مفرطاً بالاحتفاظ على يوسف ، وإلا لجاز أن يقول له كل واحد من اخوته ، ماقاله « أبو العيناء » لصاحبه ، حينما سأله عن سبب بكوره ، فقال : « أراك تشاركني في الفعل ، وتضروني بالعجب » أو كما قال بعضهم لآخر : « ماجاء بك في هذا المحل المريب » ؟ فأجابه : « الذي جاء بك ».

اقرار الاخوة على التفريط بيوسف سابقاً

٤ً — وأخيراً فقد لاحظت هنا ملاحظة ، ولا أعلم إذا كان اتيح لغيري أنه لاحظها أم لا ، وهي أن قول رأوبين : « ومن قبل مافرطتم في يوسف » هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحـد منهم وسكت عليه الباقون ، فيكون الـكل قد اعترف صراحة بأنهم فرطوا في يوسف ، وكان هذا نتيجة شيء من

الخلاف بين الاخوة ، وبعبارة أصح بين رأوبين وسواه ، وبذلك صدق قول بعض الحكماء : « إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق » (مرحى)

نتيجة المفاوضة

آ(٨١) ﴿ ارجِعُوا الى أبيكم ، فقولوا : ياأبانا ، انّ ابنك سَرَقَ ، وَمَا شَهِدْنا الاَّ بِما عَلِمنْا ، وَمَا كُنّا للغَيْبِ

افتتحت الجلسة وتليت الاية الحادية والثانون فقام الملا محمود السليماني [١] وقال :

يقول « رأوبين »: هذا ماصحت عزيمتي عليه بالنسبة اليّ ، وأما بالنسبة اليكم ياأخوتي ، فلست أرى الا عودتكم ، فذلكم أخلص وأوفق لكم (ارجعوا) سراعاً ، واستحثوا عيركم جهد طاقتكم (الى أبيكم) ، وَنِهاً ، سيروا لفلسطين وإن يكن هذا الرجوع رجوعا بشرٍ وعرّ [٢] ، رجوعاً بصفقة المغبون،ولكن ما العمل ؟ ارجعوا اليه (فقولوا : ياأبانا ، إن ابنك) بنيامين اصلحه الله ، (سرق) سقاية الملك ، التي يكيل بها للممتارين ، وجدت في عدله ، فأُخذ عبداً ، حسب شريعتنا ، وها هو الآن عند « عزيز مصر » (وماشهدنا) عليه أمامك بالسرقة (إلاّ بما علمنا) ظننا بمقتضى ظاهر الحال ، وبمقتضى شريعتنا أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد انكاره يوجب له أحكام السارق ظناً (وما كنا للغيب

(١) نسبة الى السليمانية بلدة في العراق .

(٢) العر : المكروه

حافظين) أي وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ، أو ما علمنا انك تصاب به كما أصبت بيوسف ؛

نحن اليوم وقعنا في مشكلة لم تكن في حُسباننا ، وما كنا لنعلم مايأتي بهالغد.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غدٍ عمى

ما كنا نعلم أن حادثاً كهذا ينزل فوق رؤوسنا ، وبنوع أخص فوق رأس أخينا بنيامين ، أنت قلت ، وكأنك حفظت لنا خط الرجعة : إلاّ أن يحاط بكم ، وقد أحيط بنا ، فلقد غلبنا على أمرنا ، ولسنا أكفاء لحكومة مصر أن نقاومها ، وما عسى أن نصنع مع حكومة قاهرة غنية ؟ وقد قيل « إذا تكلم الجاه سكت الصواب ، واذا نطق المال خرس الحق » على اننا نعترف بأنا رأينا الصواع في عدل أخينا رأي العين ، ونحن لو كنا نعلم الغيب لاستكثرنا من الخير ، وما مسنا السوء ، سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

جهل البشر وفهم الانبياء بالغيب — اقامة الحجة على النصارى بعدم الوهية المسيح

ملاحظة — لقد صدقوا في قولهم : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ، لانهم بشر مخلوقون ، وليس هم فقط ، بل كل بشر مخلوق لايعلم الغيب ، حتى ولو كان نبياً مرسلاً ، قال نوح عليه السلام : ﴿ ولا أعلمُ الغيبَ ﴾ (٣١:١١) وكذلك قال خاتم الأنبياء : ﴿ ولاأعلمُ الغيب ﴾ (٥٠:٦) وقال أيضاً :

﴿ ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ ، لاستكثرتُ مِن َالخيرِ ، وما مَسّني السوءُ ﴾ (١٨٧:٧) وقال المسيح عيسى : ﴿ تَعلمُ مافي نفسي ، ولا أعلمُ مافي نفسِكَ ﴾ (١١٩:٥) وقال في الانجيل ﴿ وأما ذلكَ اليوم وتلك الساعة ، فـلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلاّ الآب ﴾ (مر ٣٢:١٣)

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر ، نقول اذا كان المسيح بمقتضى هــــذه العبارة لا يعلم متى تقوم الساعة — سواء أكانت الصغرى أم الكبرى — باعترافه هذا ، فكيف يكون هو ديان الخلائق يوم القيامة ؟ وقوله فيها : إن الابن لا يعلمها، نص على أنه ليس بإله ، فان قيل : لعله يريد « الانسان يسوع » — قلت : ولَمَ لَمْ يعبر بذلك ، ليكون قولــه خالياً من اللبس والتضليل ؟» واذا كان افنوم الابن متحداً بناسوته كما يقولون . فكيف لم يعلم الناسوت مايعلمه اللاهوت ، والا فما معنى هذا الاتحاد ؟؟ وجاء أيضاً في انجيل يوحنا ، ان المسيح عيسى لما أشار عليه إخوته بالذهاب الى أورشليم ، لأجل العيد ، قال لهم : « أنا لست أصعد بعـد الى هذا العيد) (يو ٧:٨) ولكن لما مضى اخوته الى العيد ، مضى هو ايضاً بعدهم متخفياً (يو ٧ : ١٠) ، فعبارته هذه إما انها كذب وغش ، ولذلك ذهب بعدها متخفياً ، واما انه ما كان يعلم أنه سيذهب الى العيد (أي جهل وتردد) ، وكلاهما مما يجب أن ينزه الله تعالى عنه ، وان كان قالها باعتبار الناسوت — وهو الجواب الذي صدّعوا آداننا به — قلت وكيف لم يهده اللاهوت المتحد به ، الى البت في عمل صغير كهذا ، وتركه يبدي كل تردد وجهل ؟ وما فائدة اللاهوت إذاً ؟ وفي أي شيء أفاده ؟ ولمَ اتحد به الله ، وهو لم يصلب معه ؟ بل تركه ، ولذلك قال : « إلهي إلهي ، لماذا تركتني ؟» ولِمَ يعبد النصارى هذا الناسوت العاجز الجاهل مع اللاهوت ، ولم يفرقوا بينهما ؟؟!!

شهود الحال على جريمة التسريق

آ(٨٢) ﴿واسْأَلْ القَرْيَةَ التي كُنَّا فيها ، والعِيرَ التي أقْبَلْنا فيها ، وإنَّا لَصَادِقونَ﴾

تابع الخطيب السابق كلامه على الآية الثانية والثانين قائلاً :

استمر « راوبين » في مخاطبة اخوته مبيناً لهم ما يجدر بهم أن يقولوه لأبيهم، (و) إذا أردت يا أبانا أن تتبين حقيقة ما نقول ، وتعلم صحة ما ننقل ، (اسأل) بنفسك أو بواسطة أحد عبيدك سكان (القرية التي كنا فيها) حيث جرى حديث التسريق والتفتيش ـ وهي الدسكرة التي لحقهم فيها فتيان العزيز وجرت فيها تلك المحاورة ـ (و) أيضاً اسأل (العير) أي اصحاب العير والعير هي القافلة من الإبل ـ (التي أقبلنا) التي رافقناها وكنا مقبلين (فيها) لجهة كنعان ، فذلك يوم مجموع به الناس ، وذلك يوم مشهود ، وهذه « القرية » لقربها لا تحتاج لقطع أعناق الإبل ، إنه ليس بينك وبينها سوى ثلاث مراحل ، وهذه « العيرة » من فلسطين من جيرانك ليسوا بعيدين عنك ، وهم كثر ، لا يأخذهم عدّ ، ولا يتهم واحد منهم بأنه يشهد عن عاطفة أو محاباة لنا ، بل كلهم شهود عدول ،وبراهين ساطعة ،وعند السوآل يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتظهر لك صحة ما ندعي، فان هذه الحادثة اصبحت من الاخبار المستفيضة المستطيرة المعلومة عند هؤلاء الناس أجمعين ، (و) والله الذي بإدنه تقوم السماء والأرض ، (إنا لصادقون) وإلاّ فكل واحد منا نَفِيٌ من أورمة إسرائيل ، وقد قيل : « لسان أخرس خير من لسان ناطقٍ بالكذب » ، فهذه شهادتنا بأنفسنا ، وهذا استشهادنا بالناس المرافقين

لنا ، وهذه ايماننا ، وذلك الآن هو كل ما نملك من الدلائل التي نقدر أن نقدمها أمامك ، وما بعدها زيادة لمستزيد .

وأختم كلامي بالمواد التالية :

التحقق من القرية والعير

مادة ١ — طلبوا الى أبيهم إنْ أحَبَّ ، أن يسأل القرية والعير ، والغالب أن تلك القرية كهؤلاء العير ليسوا من المؤمنين ، ومع ذلك فإخبارهُم مقبول ، لأنه من قبيل البينة ، لا من قبيل الشهادة ، وقد قال العلماء : « البينة في الشرع أعم من الشهادة » ، فكل ما يتبين به الحق بينة ، وذلك كالقرائن القطعية ، وعليه فشهادة غير المسلم تدخل في البينة بهذا المعنى ، إذا تبين للانسان بها الحق ، ومع ذلك فهم يقولون لأبيهم إن هذا الحادث مستفيض ، وعند الاستفاضة لا فرق بين المسلم وغيره ، وربما كانت أخبار غير المسلم مقبولة أيضاً والله أعلم .

المراد من القرية !!

مادة ٢ — المراد من « القرية » أهلها كما ذكرنا ، فان العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه ، ومثاله : « والى مديَنَ أخاهم شُعَيْباً » (٧ : ٨٤) ، أي الى أهل مدين ، وكما قال حميد بن ثور :

قصائد تستحلي الرواة نشيدها ويلهو بها من لاعب الحي سامر

يَعَضّ عليها الشيخ إبهام كفه وتجري بها أحياؤكم والمقابر

أي أهل المقابر ، والعرب تقول : « أكلت قدراً طيبة » أي أكلت ما فيها ، وكذلك قول الخاصة : « شربت كأساً »(١) .

(١) فقه اللغة .

حال يعقوب واسرته آنئذ

مادة ٣ — قضوا في هذه المؤآمرة ساعة وبعض الساعة ، وأخيراً وعلى حسب ما قال « كبيرهم » قام الاخوة التسعة ، وأعدوا معدات السفر ، ورحلوا قافلين لفلسطين .

فوا أسفاه لهذه الحال المحزنة التي صارت اليها أسرة يعقوب عليه السلام : بلاء اكتنفهم ، وشرور تظاهرت عليهم ،ومحن قد أحاطت بهم ،وتفرق بعد اجتماع، وانتشار بعد انتظام،فأبوهم هو وأحفاده في فلسطين ويوسف ـ في رأيهم ـ مفقود، وبنيامين ، مستعبد عند « عزيز مصر » ، ورأوبين بقي في مصر في إحدى فنادقها ، غريباً وحيداً ، ينتظر الفرج من الله ، وأما التسعة الباقون ، فهم سائرون الآن في الطريق الى أبيهم ، بين مصر وفلسطين ، في تلك الصحراء القاحلة ، وكلهم في فكرة وقلق ؛ سبحان الله ؛ قضى يعقوب عليه السلام زمناً غير قليل من حياته بفلسطين ،تَعِباً من أخيه « عيسو » الجبار ، ثم خوفاً منه أن يقتله قام للعراق وقضى فيها عشرين سنة وهو يرعى غنم خاله « لابان » ، ثم قضى برهة من أيام حياته مسروراً مغتبطاً بابن هو الزهرة اليانعة في روض أبنائه ، ثم نكبه الدهر فيه نكبة عظمى ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ثم جعل حزنه يخف تدريجياً ، كما تخف أحزان جميع الناس بطول المدة ، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنه بنيامين أصغر أبنائه ، ليتولى تربيته واسعاده وأصبح بنيامين تعزيته الكبرى بعد شقيقه المفقود، وهو كذلك ، فما شعر إلا وقد فقده اليوم أيضاً ، وصار عبداً لحاكم مصر :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي وسروره يأتيك كالأعياد

تكذيب فصبر فترجي

آ (٨٣) ﴿ .... قال: بَل سَوَّلَتْ لَكُم أنفسُكم أمراً، فصبرٌ جميلٌ، عسى اللهُ أنْ يأتِيَني بهم جميعاً، إنّه هو العليمُ الحكيمُ. ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثمانون فقام الشيخ خليل من علماء الطائف (١) وقال:

رجع اخوة يوسف الى ابيهم فقالوا له ما قاله له أخوهم «رأوبين»، فلما سمعه أبوهم، ألمّ به من الحزن ما كادت تتقد منه أضالعه، فقال لهم: «ثم ماذا؟ أتموا حديثكم — قالوا: هذا كل حديثنا، وليس عندنا حديث غيره» فما عدا أن يسمع هذا الكلام حتى (قال) «لم اصدق، ولا أريد أن اصدق، (بل سولت) زينت وسهلت (لكم أنفسكم امراً) أردتموه ودبرتموه، وإلاّ فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم له بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوكم» — قالوا: «ما أخبرناك إلا بالحق» — قال قلت لكم: «ان ابني لا يسرق، ولن يسرق، وان حاكم مصر لا يعرف هذا الحكم العبراني الا من فمكم، ولأمر ما دُبّر من قبلكم، وقبل حاكم مصر أن يحكم على رجل عمل جنايه في بلاده بغير شريعة مملكته، والا فشرف مصر يتطلب الحكم على الجاني فيها بقوانينها الا غير» (فصبر جميل) على هذا النأي المقدور، فان الصابر كالرجل القوي، لا ينوء به الحمل الثقيل.

— وهنا نرى ان يعقوب عليه السلام نَزَع الى الصبر ربما يتكرم عليه ربه بلقيا أولاده الثلاثة، فيفرح فرحاً مثلثاً:

(١) الطائف من مدن الحجاز.

كن حليما إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدن فيه عجيبة

(عسى الله أن يأتيني بهم) بالثلاثة (جميعاً) عاجلاً أو آجلاً ، فاني أرى ذلك بعين القلب ،ولا أزال أسمع صوت الوعد السماوي يرنّ في اذني ، (إنه هو العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم)الذي لم يبتلني بذلك الا لحكمة ومصلحة .

(قال : بل سولت لكم أنفسكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الأسيوطي [١] :

حال يعقوب عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين

انصاع أولاد يعقوب لرأي أخيهم الاكبررأوبين ورجعوا أدراجهم الى أبيهم، وقصوا عليه القصة ، وقد كان ينتظر عودة بنيه بكل فروغ صبر ، مع علمه بطول المسافة التي بين « سيلون » محل اقامته في فلسطين و « صوعن » محل اقامة العزيز بمصر ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت ، وكان بمدة الانتظار مملوءاً من الرجاء والأمل ، وهو كذلك إذ جاءه أبناؤه يحملون له نبأ تلصص بنيامين واستعباده ، فتمعّر وجهه ، وقال في نفسه : كنت في مصيبة فصرت في اثنتين ، ويحكم ! انه لحوب كبير ، ما هذا الذي تقولون ؟ ...لا.لا.. لم يكن شيء من هذا القبيل ، أنا اليوم مثلي بالأمس وبالغد ، أرتاب في صحة كلامكم ، ولا اصدق ماتخبرون به ، لاأحيد عن ذلك قيد شبر ، بل سولت وزينت لكم أنفسكم أمراً ذا بال ، أمراً ضل عني فهمه ، وعمت عليّ حقيقته واغمي عليّ واستبهم ، وان سابق عملكم مع يوسف الفقيد ، يجعلني أقف تجاه أخباركم هذه موقف المرتاب ، أنا لست الآن في معرض التحقيق والبحث،

---

(١) نسبة الى بلدة اسيوط بمصر .

ولا اتفرغ له ، إنما لا أظن أن « بنيامين » يجرأ على هذا ، إذ يحتمل انكم أنتم الذين جعلتم « السقاية » في رحله ، كما يحتمل ان حكومة مصر لها في ذلك الحادث شأن من الشؤون ، لا يعلمه الا الله تعالى ، نواحزناه ... يابنياميناه ... آه من اهل الظلم ! أواه من الحكام الظلمة ، هل انت لص خائن يابنيامين ؟!؟!.. هل أنت متسول ؟!؟!.. حاشا .. ولكن هي اغراض الظالمين ، تسلك الأبرياء في سلك المجرمين ، فصبر جميل على هذا الحادث الذي يتفتت له الصخر ، صبر جميل وإن اكن قد ذقت العذاب الوانا ً، صبر جميل وإن يكن عنائي وهمي بفراق ثلاثة أولاد سيكون أضعاف عنائي وهمي بفراق ولد واحد :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما ابالي بالرزايا لأني ما انتفعت بأن أبالي

آه ... أرسلت ابني بنيامين لازداد حمل بعير ، فنقصت ولداً بل ولدين ، ارسلت ابني بنيامين لكي اخفف ويلتي التي أصابتني بالقحط والأزمة مع من أصابت ، فكانت النتيجة انه استرق ، فكنت بحسب العاقبة كناقش الشوكة بالشوكة ، أو كغاسل الدم بالدم ، أو كمقرور هرب من الديمة . فصار تحت الميزاب ، أوهرب من الرمضاء فتدهور في النار ، ولكن :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيء أمر من الصبر
فما مثل مر الصبر صبري وانما صبرت على شيء أحر من الجمر
فما أحسن (الصبر الجميل) مع الرضا وماقدر المولى على عبده يجري

وان بطل الدهر هو من كافح المصائب بشجاعة ، وتغلب عليها بالثبات ، والحازم من صبر عن مضض الحياة :

كم ساعـة أزعجني وقعها وآلمتني يدها القـاسية
فتشت فيها جاهداً لم أجـد هنيـة واحـدة صافيـة
وكم سقتني المر أخت لها فرحت اشكوها الى التاليـة
فـأسلمتني هـذه عنـوة لساعـة اخرى وبي مابيـه
ياصاحب الساعات انصت عسى تنجيك منها الساعـة القاضية

ولكن عسى الله ان يأتيني باولادي الثلاثة ، فان في ذلك لي رَهْبَةً قوية واملاً كبيراً :

ولربما نـثر الجمان تعمـداً ليعاد احسن في النظام واكملا

وان الشمس تغرب ، فلا تلبث أن تطلع من شرقها ؛ ونرى تراكم السحاب فوقها ، فلا تلبث أن تنفرج عنها ، حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وان الاشجار تعرى ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسمات الربيع . وإن الأحياء ينامون في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري بقرنه ، قاموا من مراقدهم ، وهكذا أولادي ، سيؤوبون — ان شاء الله — الى وطنهم وحضن أبيهم ، وما ذلك على الله بعزيز . (مرحى)

(قال بل سولت لكم انفسكم .. الخ)

— ٣ —

وقال العلامة القزويني [١] لي على هذه الآية الكريمة التذييلات التالية:

هاتف من يعقوب

١ — رأيتني في مسقط رأسي « قزوين » في ذلك الحين ، حين أن سمع يعقوب

(١) نسبة الى قزوين بلد على بحر قزوين شمال ايران

من أولاده نبأ بنيامين ، وكان لدي « الهاتف اللاسلكي » فأدرت لولب أمواجه الى « سيلون » ثم أصغيت في صوانه ، فسمعت يعقوب عليه السلام يقول :

« ما هذه الكرب التي لاتزال تتعهدني ، كما تتعهد المحموم نوباته ، حيناً بعد حين ؟!.. موت راحيل ، ففقدان يوسف ، فموت اسحاق ، فاسترقاق أصغر الأولاد ، فاحتباس كبيرهم ، فما لحوادث الأيام قد التفت حولي ، التفاف المقْطرة بالمقطور ؟!.. ومالعاديات الدهر قد أحاطت بي ، إحاطة الجامعة باليد ، والقيد بالرجل؟!..

خليلي لاوالله ماالدهر منصف وليس له يوماً علي جميل
يقرب مني كل شخص يسوءُني ويبعد عني من اليه أميل

« آه .. أواه .. وا أسفاه ..»

سمعت هذا من فم هذا الصفي الكريم، ثم سمعت هاتفاً يهتف به من الملأالأعلى: ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكُم حتى نَعْلَمَ المجاهدينَ منكم والصابرينَ،ونَبْلُوَ أخبارَكم﴾ (٤٧ : ٣١) ، صار كل هذا ، فعجبت في نفسي كيف تسنى لي أن اسمع كلام يعقوب عليه السلام ، وبيني وبينه نحو (٣٧٠٠) سنة شمسية ؟ ثم استغربت من وجود اللاسلكي في ذلك الزمن ، وفيما أنا كذلك ، تململت وفتحت عينيّ فاذا أنافي حلم ، فذهب عني كل ما كان عندي من تعجب واستغراب .

الايجاز والحذف في القرآن

٢ — تقدمت الاشارة الى ان في صدر الكلام حذفاً ، تقديره : فرجعوا الى ابيهم فقالوا له ما قال لهم كبيرهم ، ولهذا نظائر في القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « يوسف ، أيّها الصديق الخ » ففيه ايجاز ، والمعنى فأرسلوه الى يوسف ، فأتاه ، فقال يوسف الخ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فأْتِيا فرعونَ فقُولا : إنّا رسولُ

ربّ العالمينَ ، أنْ أرسلْ معنا بني إسرائيل ، قال ، ألمْ نُرَبِّكَ فينا وليداً ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦ ـ ١٨) معناه فأتاه فقال له ما أمره الله ، فقال فرعون : ألم نربك الخ،

استغشاش يعقوب لاولاده في نبأ بنيامين

٣ — لم يصدقهم أبوهم هذه المرة ، مع انهم ـ فيما يعتقدون ـ صادقون فيها ، لأن من عهد عليه الكذب ، لا يصدق ولو تكلم بالصدق ، كما ان من عرف بالصدق يصدق في كل شيء ولو كان كاذباً ، فابوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم ، ولم يكن في هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشاً لهم في المرة الاولى .

كانوا استشهدوا بسوآل القرية والعير ، فلم يأبه لاستشهادهم ، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك لانه تعود منهم الغدر والكذب واليمين الغموس ، فما صدقهم في هذه الحادثة ، مع أنهم كانوا ـ في تصورهم ـ صادقين . فما مثلهم الا كمثل حكاية الذئب وراعي الغنم المشهورة .

يعقوب بين الابتسام والانسجام

٤ — لو رأيت يعقوب عليه السلام حينما سمع هذا الخبر المقعد المقيم ، لرأيت منظراً عجيباً ، وخلقاً غريباً ، نعم لو رأيته ، لرأيت في وجهٍ واحد ، ثغراً يبتسم ، ودمعاً ينسجم ، أما الانسجام فلاجل مصيبة ولده بنيامين ، وأما الابتسام فلانه علم ان الله قد آذن بالفرج ، فان الكرب اذا اشتد هان .

تشكك يعقوب في حادثتي يوسف وبنيامين

٥ — تقدم انه نطق بعين الجملة الشريفة (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) حينما أخبر بأن « الذئب » أكل يوسف ، فهو وان يكن قد ذهبت بـه الظنون

في شأن ولديه كل مذهب ، إلا أنه كان لا يعتقد أكل الذئب ليوسف ، ولا يصدق بسرقة بنيامين على الحقيقة .

صبر يعقوب

٦ — صبر يعقوب عليه السلام في هذه المرة الثانية ، مع انها مصيبة ملوثة بالعار والدناءة ، فلا تقل عن المصيبة الأولى ، بل ربما كانت أعظم ، وعلى كل فان أسباب الكرب والكدر فيها ترمي الصبر بالمنجنيق — صبر لأنه من أصحاب المبادىء الثابتة ، ومن ذوي الأخلاق المتينة ، هذا عدا أنه من الأنبياء المرسلين الذين هم سادة المتأدبين ، بما أدبهم به رب العالمين.

موقف يعقوب واحد في حالتي كذب وصدق اولاده

٧ — نرى أن موقف يعقوب مع اخبارات أولاده واحد ، في حالتي كذبهم (ع١٧) وصدقهم (ع٨٣) برنامج ثابت ، وضعه لعدم ثقته بهم ، لن تجد له تحويلاً ، ولن تجد له تبديلاً .

خوف يعقوب من اولاده

٨ — نقرأ في كتاب الله آية ، فنجدها كأنها فصلت ثوباً سابغاً ليعقوب عليه السلام ، وتلك الآية هي قوله تعالى :﴿ ولنَبْلونكُم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ، ونقصٍ مِنَ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ ، وبَشرِ الصابرين ﴾ (٢:١٥٥) ، فانه عليه السلام كان في شيء من الخوف من أولاده ، بدليل أنه — لاسيما في المرة الاولى — لم يعاقبهم ولم يشدد عليهم ، ولم يجل طويلاً في البحث معهم عن يوسف ، وقد كان قبل هذا النوع من الخوف خاف خوفاً شديداً من شقيقه « عيسو » حتى انه خاف أن يقتله ، وهذا ما كان دعاه للهجرة من الشام للعراق

عند خاله « لابان » ، ثم قد وقع هو واسرته في شيء من الجوع ونقص الأموال والثمرات في سني الجدب ، ونقص من أولاده يوسف وبنيامين ورأوبين ، ومع ذلك كله فقد صبر صبراً جميلاً .

دمعة على يوسف

آ (٨٤) ﴿ وَتَوَلَّى عنهم ، وقالَ : ياأسفَا على يُوسفَ وابيضّتْ عيناهُ مِنَ الحُزْنِ ، فَهو كَظِيمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثانون فقام حيدر افندي الازميري [1] وقال :

كره يعقوب ماجاء به أولاده ، فأعرض (وتولى عنهم) وهو يتعثر في اذياله من شدة الهم ، وقد احتدم احتداماً ، وصفّق كفاً بكف ، وقد تفتحت جروحه (وقال) بصوت شجيّ مؤثر (ياأسفا على يوسف) — والأسف أشد الحزن والحسرة ، يقال أسِفَ كتعب : حزن وتلهف ، فهو أسفٌ مثل تعبٍ ،والألف بدل من ياء الاضافة ،— وانما أسف هنا على يوسف ، مع أن المقام مقام أسف على بنيامين ورأوبين ، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً ، لأن أسفه على يوسف كان متمادياً لم ينقطع قط ، وكأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً طرياً ، ولأنه لم يقع حادث عنده موقعه ، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به (و) لازال يبكي حتى (ابيضت عيناه) أي مقلتا عينيه (من) كثرة البكاء الناجم عن (الحزن)، لأن الاستعبار إذا كثر محقت العبرة سواد العين وقلبته

(١) نسبة الى ازمير من بلاد الاتراك

الى بياض كدر ، ولابد انه عليه السلام كان يدرك رؤية الأشياء ادراكاً ضعيفاً، لأن العمى لايجوز على أنبياء الله ، لأنه من الداآت المنفرة للطبيعة؛

وجاز له أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الانسان مجبول على أن لايملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره (فهو كظيم) مملوء من الغيظ لأجل أولاده ، ولا يظهر مايسوءهم ، — وفعيل بمعنى مفعول بدليل قوله ﴿ وهو مكظوم ﴾ من كظم السقاءَ : اذا شده على ملئه ، والكظَم (بفتح الظاء) مخرج النفس ، يقال : أخذ بأكظامه .

(وتولى عنهم ، وقال ياأسفا .. الخ)

— ٢ —

ثم تابع المحاضر كلامه قائلاً :

تجدد حزن يعقوب

كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته ، ومرجع آماله ، وزهرة أعماله وتعزيته في شيخوخته ، ووارث علمه ، ومجدد مجده ، وانه هو الذي تمثلت فيه ملامحه ، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه ، ولذلك لم ينسه ولن ينساه ، فعندما سمع نبأ بنيامين ، تذكر ولده يوسف فتولى عن أولاده وخلا بنفسه ، فصارت الهواجس تتقاذفه ، والأفكار تخنقه ، وقد جرت عادته أن يتعزى عن يوسف ببنيامين ، ولكن اليوم لم يجد مايتعزى به عنه ، فاندفع الى ذكراه ،وقال: « ياأسفا على يوسف ! فقد كان تعزيتي عن كل شيء ، وكان زينة أولادي ، وبيت قصيدهم » فصعد الزفرات ، وأسال العبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق العينين فانسكب دمعها قطرات ، يسابق بعضها بعضاً ، وبالنتيجة ابيضت عيناه من الحزن الصامت ، ولكن بدون أن يجني ذلك البياض على نظره ، وأشد الحزن

مايبكي الرجال ، وكان حينما يبكي لايدري ، أيبكي يوسف .. أم يبكي بنيامين ، أم يبكي رأوبين .. أم يبكي شخصه الذي اصيب بهذه المصائب .. أم يبكي تشويش حال اسرته وتشتتها .. أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر .. الى آخر الأحوال المحزنة الأليمة التي صبت فوق رأسه ، عليه الصلاة والسلام ؟!!

وهنا رب سائل يسأل ويقول : كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبراً جميلاً ؟.. والذي يفهم من كلام بعض الشعراء أن البكاء ينافي الصبر الجميل ، قال البحتري :

إن الفراق كما علمت فخلني ومداماً تَسَع الفراق وتفضُلُ
إن لا يكن صبر جميل فالهوى نشوان يجمل فيه مالا يجملُ

وقال كثير :

وقالوا نأت فاخترمن الصبر والبكا فقلت : البكا أشفى إذاً لغليلي

وقال أبو فراس الحمداني :

إذا مادعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر

وقال المتنبي :

يأبى الشجاع وصبره متواتر : يبكي ومن شر السلاح الأدمع
واذا حصلت من السلاح على البكا : فحشاك رعت به وخدع تقرع

قلت في جوابه : ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيات الصبر الجميل ، كما تشير اليه هذه الأشعار ، ولكن الذي نص عليه علماء التفسير ، وفي مقدمتهم ابن جرير ان الصبر الجميل هو الذي ليس فيه جزع ولاشكوى ، أو كما جاء في الحديث المرفوع هو الذي لاشكوى فيه ، ومعناه لاشكوى فيه الى الخلق ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني الى الله ﴾ ، وعلى كل فهذا المعنى يصدق بما اذا كان فيه بكاء ولو كثيراً ، ومجرد البكاء ولو كثيراً ، لا يسمى جزعاً ،

إنما الجزع مايقع من الصياح والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ، فهـذا النبي ﷺ ، كان سيد الصابرين الصبر الجميل ، مع انـه بكى يوم وفاة ولده ابراهيم وقال :﴿ إن العـــين لتدمع وإن القلب ليحزن ، وإنّا بفراقك لمحزونون ، ولا نقول إلا مايرضي ربنا ﴾ وعنه ﷺ : « انه بكى على ولد بعض بنيه وهو يجود بنفسه ، فقيل يارسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ، فقال : مانهيتكم عن البكاء ، وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين ، صوت عند الفرح وصوت عند الـترح » ، وعن الحسن :« انه بكى على ولد او غيره ، فقيل له في ذلك ، فقال : مارأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب » قال الشاعر :

إن البـــكاء هو الشفاء   من الجوى بـين الجـوانح

وأما مايفهمه شعر هؤلاء الادباء من المنافاة بين الصبر ومطلق البـكاء ، فهو من باب المبالغات الشعرية ، وأيضاً فليس كلام الادباء بحجة في اللغة ، وانما الحجة الحديث الشريف الذي فسر الصبر الجميل بانه الذي لاشكوى فيه الى الخلق (فهو كظيم) حيث صار ذا حرقة كامنة تعتلج في صدره ، ولاتجد لها متنفساً ، وقـد احتفظ بسكوته وهدوئه ، فلزم خيمته يقاسي من داء قلبه وداء عينيه مالا يطيق مثله الا مثله ، وفي الختام نعلم من هـــذه السورة الشريفة ان حياة يعقوب عليه السلام كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة المثال في التاريخ .

(جيد جيد)

وتولى عنهم وقال : ياأسفا على يوسف . . الخ

— ٣ —

وقال الطبيب هبة الله الدمشقي :

اخلاق يعقوب والنبيين عليهم السلام

كره يعقوب ماجاء به أولاده ، فبرم بهم وتركهم ، أو أنه تغفلهم فأعرض

عنهم وابتعد منهم ، لأنه يريد أن يطلق عنانه في التأسف والتحسر ، ويوغل في البكاء بحرارة ، لأنه جرب فرآى أنه إذا أراد أن يذكر يوسف أمامهم ، فسرعان مايسمع منهم الانتقاد ، أو لأنه أحب أن يخفي عنهم ألمه ، الذي عجزت مُنّته عن احتماله ، وأن يحمل ثقل ذلك على عاتقه ، دون أن يكدر صفاء من حوله ، ولو أنهم هم لايهمهم أن يكدروه ، فلم يظهر لهم شيئاً من ذلك ، ولم يظهر مايسوؤهم ، رغماً عن أنهم أساؤوه ، شأن كل كريم ، لاسيما النبيين ، لايظهرون انقباض نفوسهم ، ولا يحملون الناس شيئاً من اكتئآبهم ، ولا يفرقون على الناس همومهم لئلا يحزنوا بذلك قلوبهم ، لأنهم هم الذين يأمرون الناس بأن يقدموا للناس مافيه مسرات الحياة ، وترويح النفوس ، وينهونهم عن انقباض النفس وابتسار [١] الوجه أمام غيرهم ، لئلا يكدروا صفاءهم ، لأنه أما يكفي أن لا يستطيع الإنسان أن يسعد أخاه ، فاذا لم يفعل ، فعلى الأقل يجب أن لا يشقيه ، وهذا خلق عظيم من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي لنا التخلق بها ، فحبذا لو كان كل منا يحافظ على أن لا يقطع على أخيه مسرته ، بل يزيد سعادته وغبطته ، ولا يظهر له عبوسه وبسوره [٢] بل بشره وفرحه ، وذلك إنما يكون إذا تلقى محن الدهر بصدر واسع ، وخلق وادع ، وصبر جميل ، كما هو حال يعقوب عليه السلام .

لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن

بحادثة بنيامين ذكر يوسف الفقيد النائي عنه ، فحن اليه ، حنين الناقة الى فصيلها ، وأحزنه أنه لم يسمع له بخبر ، ولم يقف له على أثر ، منذ سنة ، فلم يجد له بدأ — إذ هاجه الوجد — أن يلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد ،الذي يفزع اليه جميع البائسين والمحزونين ، وهو الأسف والشكوى الى الله بالجنان ، ولكن في خلوته بعيداً عن كل إنسان ، واختص يوسف بالأسف ، لأنه تصور في نفسه أن

(١) الابتسار العبوس . (٢) البسور الكلوح .

« رأوبين » حين حبس نفسه في مصر كان عمره نحو ٦٠ سنة تقريباً ، وهما على كل حال كبيران في السن ، ومكان وجودهما معلوم متعين ، بخلاف يوسف في ذلك كله ، فانه كان حين فقد صغيراً ابن ١٧ سنة ، ولا يعلم أين مأواه ، فهو الحقيق بالأسف .

وأخيراً نقول : ماذا تظن يعقوب عليه السلام في ذلك اليوم العصيب ، يوم ماسمع بأن ولده « بنيامين » سَرَقَ واسْتُرِقَّ عبداً في بلاد غريبة ، وعند ذلك تذكر ابنه يوسف ، وزاد على هذا وهذا انحباس ابنه « رأوبين » ؟ . . هل تظن أنه كان ساكن القلب مطمئن البال ؟ . . وهـــل ذاق جفناه الكرى بعد هذه الحوادث الاليمة ؟ . . كلا . . لانخاله قضى يومه ذلك ، وليلته تلك ، الا مضطرباً قد هاجه الأسف ، وأطلق لنفسه عنان البكاء . . وذرف الدموع السخينة لهول ماعراه ، ليس من مصاب واحد ، بل من تلك المصائب الثلاث . قال أبو العلاء المعري:

قضى الله أن الآدمي معـذب الى أن يقول العالمون به قضى
فهنيء ولاة الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى
أصبت

وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف . . الخ

— ٤ —

وقال الفضيل الشبراوي (١) :

اعلق على هذه الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

تكرار اسف يعقوب على ابنه يوسف

١ — كأني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، عندما ثارت عواطف نفسه ثورة

(١) نسبة الى شبرا في مصر

عظيمة ، وتولى عن بنيه وهو خاثر النفس ، وقد تزاحمت الهموم في مخيلته، وأكثرها بروزاً غياب يوسف — كأني به قال : « يا أسفا على ذاك الشباب الغض ، على غصنه الباسق النضير ، وا أسفا على تلك النبتة الرقيقة التي كانت تعيش بجانب دوحتها ، يفيء عليها ظلها ، ويفيض عليها نسيمها ، فهصرت وقطعت ، فاذا النبتة ذابلة ، وإذا الدوحة ثكلى حزينة !

أواه .. هاه هاه ..

يامن يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

لقد انحطت عليّ المصائب ، تعمل مطارقها على رأسي ، وسهامها في قلبي ، فلي الله ، من آسف حزين ، لي الله ، من فاقد فلذة كبده ، لي الله ، من فاقد أولاده الثلاثة ، أكبرهم وأصغرهم وأحبهم :

متى يستريح القلب والقلب متعب ببين على بين وهجر على هجر ؟

وهكذا تكدر وتمرمر في داخله ، حتى قهره الأسف ، وأنهكه البؤس ، وانقلب شوقه حزناً « وابيضت عيناه من الحزن » :

الحاجة التي في نفس يعقوب

٢ً — سمعت من عالم من علماء «دمنهور» عاصمة البحيرة في الديار المصرية أنه رآى مناماً سمع فيه يعقوب يقول : « يا أسفا على يوسف ، وكيف لا أتأسف عليه وقد خرج من عندي بارادتي لا قهراً ، وأسلمته لأعدائه برضا مني لا جبراً ، وقد كان بوسعي ملافاة ذلك الأمر قبل وقوعه ، بمنع ارساله مع اخوته ، مع أني أنا كنت أحذره منهم ، فكان يجب أن أحذر نفسي أيضاً ، وعلى الأقل كان يجب أخذ الحيطة باتخاذ العهود والمواثيق على اخوته ، حتى إذا غدروا به ، لم أحسب نفسي قد قصرت في أسباب سلامته » — قال : فقلت له : « ياسيدي هل هذا هو

« الحاجة » التي كنت قضيتها لبنيامين دون يوسف ؟ » — فأشار برأيه : « أي نعم » ، فادركت عندئذ الحاجة الواردة في قوله : « الاحاجة في نفس يعقوب قضاها » .

انما الصبر عند الصدمة الاولى

٣ً — إذا قلتَ لم ذكرت يوسف في مقام ذكر بنيامين قلتُ : جرت العادة ان المصيبة تظهر عند وقوعها عظيمة في عيني صاحبها ، وعلى ذلك جاء الحديث الشريف : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فاذا طال صبره عليها، وطال أمدها تصاغرت ، حتى ربما تكاد تزول ، ولكن متى تجدد له مصيبة أخرى ، تجددت ذكرى المصيبة الأولى ، وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام ، فانه كان استعظم اشجانه بالنسبة ليوسف ، ثم سكت ماشاء الله أن يسكت ، ثم لما نزلت به المصيبه الجديدة ، تجددت ذكرى مصيبته الأولى ، فهاجت بلابله ، وتولى عنهم ، لكي يخلو بنفسه ، ويطلق لها العنان ، في البكاء والتصورات ، ولأنه رآهم كالحشوية يقولون مالا يعقل ، وينقلون مالا يصح أن ينقل .

وكأنني به عندما انعزل عنهم جانباً لاحت له صورة يوسف حبيبه الأول ، فأخذ منه الذهول مأخذه ، وارتفعت حرارة شوقه الى درجة عظيمة فقال : يا أسفا على يوسف . . .

جرح على جرح

٤ً — أخذه المقيم المقعد عندما أخبروه بنبأ سرقة ولده الاصغر « بنيامين » واسترقاقه ، واحتباس ابنه الكبير « رأوبين » بمصر ، فتولى عنهم ، وكأني به قال « زعموا منذ ٢١ سنة أن يوسف أكله الذئب ، واليوم يقولون : « إن ابنك سرق » وهذا هو الجرح الثاني ، مع إن الاول لم يندمل بعد ، وكما ليس للايام بدل ، فليس

للنفس خلف ، ولا للدين عوض ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ، ومع هـــذا فان لي أملًا بحياة الاول ، ورجاء بقوة دين الثاني وكل ماقالوه لي سابقاً ولاحقاً لم يكن».

وجوه اسف وحزن يعقوب على يوسف

٥ً — قال : « ياأسفا على يوسف » مع انه كان يثق بحياته ، وانه سيكون له شأن ذوبال ، ولكنه أسف وحزن عليه لوجوه أولها : لانه خرج من عنده بارادته ولم يأخذ الحيطة باتخاذ المواثيق والعهود على اخوته لحفظه ، حتى إذا ما أخلفوا لم يجد نفسه قد قصر في أسباب سلامته . . وثانيها لفرقته له وطول العهد به ، وثالثها لانه تذكره بسبب حادثة اخيه ، والاسى يبعث الاسى ، رابعها لما كان سمعه قديماً عنه من أولاده أن الذئب افترسه ، لانه وان كان لم يصدق ولن يصدق بصحة هذا الخبر ، لكن جرت العادة ان أخبار السوء لايمكن أن تمر دون تترك لها أثراً في النفس ، حتى ولو كانت كاذبة ، بل ولو كان السامع لايعتقد صحتها .

المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه »

٦ً — تعليقاً على قوله : « وابيضت عيناه » نعلم من فن الطب ان القسم الظاهر من مقلة العين مؤلف في الامام والمركز من طبقة شفافة تسمى « القرنية » وفي وسطها دائرة مفرغة تسمى « الحدقة » ومن وراء الطبقة القرنية والحدقة ، طبقة اخرى تحيط بالحدقة ذات لون أسمر أو بني أو رمادي أو أزرق أو عسلي أو أخضر ، تسمى « بالقزحية » وهي التي تعطي العين الصفة المميزة لها ، ومن حول القرنية يأتي بياض العين الذي يؤلف القسم الاكبر من مقلة العين ويسمى « بالصلبة » ؛ وعلى ذلك فيكون المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه » هو القسم المركزي

الملون من العين ، أي أنه عبر بلفظ الكل وأراد به الجزء وامثال هـذا التعبير كثير في اللغة .

معنى الكظيم

٧ً ــ تعليقاً على قوله:« فهو كظيم »يقال : كظمه الغيظ والغم : أخذبنفسه، فهو مكظوم وكظيم ، ومنه : ﴿ إذ نادى رَبّهُ وهو مكظوم ﴾ (٦٨ : ٤٨) أي مملوء غيظاً ، ومن كظم السقاء اذا ملأه ، و ﴿ ظلّ وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيم ﴾ (١٦ : ٥٨) أي مملوء حنقاً على المرأة ، والكظيم المكروب ، والكظيمة المزادة أي الراوية ؛ فالمكظوم والكظيم : المملوء من الاحزان الساكت عليها لا يظهرها لأحد ، كالاناء المملوء ماء الذي لا مُتَنَفّس له ، ويقال كظمت الغيظ وعلى الغيظ فأنا كاظم اذا أمسكت على مافي نفسك على صفح أو غيظ ، ومنه : ﴿ والكاظمينَ الغَيظَ ﴾ (٣ : ١٣٤) ، وكظم القربة اذا ملأها وشد فاها ، وكظم البعيرُ : اذا لم يجتر . ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً وكَظَم الباب : سده ، وعلى هذا فيجوز تفسير « كظيم » بكاظم ، مثل « حصير » في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا جهنمَ للكافرين حصيراً ﴾ (١٧ : ٨) أي حاصرة لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ (٢٥ : ٥٥) أي مظاهراً ، وكظام القربة هو الخيط الذي يشد به فمها ، والغيظ يحمل الانسان على أفعال وأقوال لا تليق به ، فشبه مانع نفسه منها بمن كظم القربة أي منعها أن يخرج منها الماء ، وفي الحديث : « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وايماناً » ، وعن عائشة ان خادماً لها غاظها ، فقالت : « لله در التقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاء » .

مقابلة بين حزن يعقوب وحزن ارميا

٨ً ــ هذه هي الكلمة الفذة « يا أسفا » التي نَفّس بها يعقوب عن نفسه ،

ولم ينطق قط بسواها ، ولعمري لو كان « ارميا » النبي صاحب المراثي الشجية محل يعقوب ، لملأ الأرض صراخاً وعويلاً،ونثر من الأشعار ما يفتت الأكباد ،ولكن سبحان من رفع بعض النبيين على بعض درجات ، وجعل لكل واحد منهم مزية امتاز بها دون من عداه ، ومع ذلك فربمايقال إن يعقوب كان يندب شخصاًواحداً ويبكي خيمة واحدة خلت من صاحبها،ولكن « ارميا » كان يندب شعباً ،ويبكي اقليماً خلا من ساكنيه .

سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف

٩ً — أسف يعقوب على يوسف ، لان كل انسان يحب أن يحيا حياة طويلة طيبة ، ولا يتسنى له ذلك الا بواسطة أولاده وأحفاده الطيبين ، وأن الخوف من الموت غريزة في كل منا ، وذلك الخوف ليس هو من الموت الطبيعي بقدر الخوف من انطفاء الذكر بعد الموت ، فالرجل الذي لا يكون له أولاد ، فحياته تنتهي بانطفاء شعلته ، أما صاحب الأولاد فانه يعيش عيشة ثانية بأولاده ، ثم بأولاد أولاده ، وهكذا يظل مشعاله موقداً ، ينتقل من جيل الى جيل ؛

والرجل الصالح « كيعقوب » يجب أن يكون ذكره بعد موت شخصه حسناً، ويجب أن يحيا في نسله حياة حسنة ، وهذا لا يكون الا بواسطة نسل صالح ، وذلك الصلاح مأمول له أن يكون في يوسف ، كما كان قال له : « وكذلك يجتبيك ربك .. الخ » فلذلك نادى بأسفه على موضع آماله ومرمى رجائه .

الرسل بشر يعتريهم ما يعتري البشر

١٠ً — نتعلم مما حدث ليعقوب بسبب حادثتي ولديه ، ان الرسل بشر ،يعتريهم ما يعتري سواهم من الناس،وليس لهم من تدبير الكون شيء، وانما هم مُعَلِّمون، وأسوة حسنة فيما يُعَلِّمون ، قال تعالى خطاباً لنبيه الأعظم : ﴿ لَيسَ لَكَ مِنَ

الأمر شيء﴾ (٣ : ١٢٨) وقال تعالى : ﴿قل ان الأمر كله لله﴾ (٣ : ١٥٤) فهذا يعقوب اصيب في ولديه بما نعلم ، وهذا النبي ﷺ كسرت رباعيته في غزوة أُحُد ، وشج وجهه ووقع في الحفرة ، حتى وقعت الهزيمة على أتباعه المسلمين ، في هذه الغزوة ، وهو قائدها ، فأيّ نصيب من الدين الاسلامي للذين يجعلون أمر العباد ، وتدبير شؤون الكون لطائفة من أصحاب القبور أو الأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء ، فيزعمون أن بيدهم النصر والخذلان، والإسعاد والإشقاء ، والغنى والفقر ، وانهم يفعلون كل ما يشاؤون ؟؟ فهل يعد هؤلاء من أهل السنة والجماعة ، هل يعدون من أتباع طريقة القرآن ، حقاً إن تلك المزاعم هي من النزعات الوثنية ؛ نجانا الله واياكم منها .

لفظة « يا اسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن

١١ً — كلمة « يا أسفا » لم تنزل في القرآن الكريم الا في هذا الموضع ،فكأن الله تعالى جعل هذه اللفظة في كتابه مسجلة على اسم يعقوب ، وانه لولا يعقوب وأسفه ، لم تنزل هذه الكلمة من السماء في كتاب الله تعالى .

التجانس بين لفظي الاسف ويوسف

١٢ً — التجانس بين لفظتي « الأسف » و « يوسف » مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيه فيملح ويبدع ، ونحوه : ﴿إثَّاقَلتُم الى الارض ، أرَضِيتُم﴾ . (٩ : ٣٩) ﴿وهم يَنهَوْنَ عنه ويَنْأَوْنَ عنه﴾ (٦ : ٢٦) ، ﴿يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنُون﴾ (١٨ : ١٠٥) ، ﴿مِنْ سَبَاءٍ بِنَبَاءٍ﴾ (٢٧ : ٢٢) ، (كشاف) .

الرد على من يقول ان حب يعقوب لابنه يوسف لا يليق الا بمن كان غافلا عن الله

١٣ — ههنا يتساءل بعض المغفلين المتفلسفين ويقول : « إن عناية يعقوب بيوسف ، وحبه اياه لهذه الدرجة ، لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله ، وحبه لمولاه ، الذي يملأ القلب ، فلا يكون فيه متسع لسواه ، فان من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء عداه » ؟

وعندنا ان هذا الكلام مدخول ، مزين الظاهر ، فاسد الباطن ، غير منطبق على عقل أو شريعة ، وهو مخالف لروح الاجتماع وطبيعة الكون ؛ كيف لا .. وقد أرشد الله عباده المؤمنين الى العناية بكل شيء ، حتى بالدريهمات ، فانزل فيها في آية الدَّيْن نحو مائتي كلمة (٢ : ٢٨٢ - ٢٨٣) وانا نجد في الكتاب الكريم أن الله تعالى عُنِيَ بكل شيء ، حتى بالزيتون ، فامتنّ بـــه في كتابه ثلاث مرات ، وبالرمان ، فامتنّ به ثلاثاً أيضاً ، وبالنخيل ، فذكره في كتابه ممتناً به على عباده ، اثنتي عشرة مرة ، وبالعنب ، فذكره في كتابه عشر مرات ، وبالخل ، فامتنّ به على عباده حيث قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ منه سَكَراً ﴾ (١٦ : ٦٧) على أنا نجد في كتاب الله الكريم عناية الله وامتنانه على عباده بالحمير (١٦ : ٨) ، وبالقَضْب ، وهو الكلأ اليابس (٨٠ : ٢٨) ، وبالأبّ ، وهو الكلأ الأخضر ، (٨٠ : ٣١) وقد أقسم الله تعالى بجميع ما في هذا الكون من مخلوقاته ، أي بجميع مواليد العالم كله ، فقال : ﴿ ووالدٍ وَما وَلَدَ ﴾ (٩٠ : ٢) ، فاذا كان الله العظيم ، وهو الله العظيم ، يُعنى بهذه الأشياء ، ويهتم لها ، ويمتن على عباده بها ، أفلا يحق ليعقوب عليه السلام ، أن يُعنى بفلذة كبده ، ويهتم لمحط آماله ، ويحب ولده يوسف حباً جماً ؟ ..

(مرحى)

(وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف .. الخ)

— ٥

وقال ابن الدقيق الهندي :

ابيضاض العينين امتلاؤهما بالدمع من اثر الحزن

السلام عليكم : ايها السادة :

ما تركت اخواتي الاربعة الاوائل ، كلمة لهذا الحقير القائل :

جزى الله خيراً قومنا وجدودنا فقد مهدوا سبلاً لنا ومسالكا
سلكنا بها عفواً بدون مشقة ولولاهم الساري لأصبح هالكا

غير اني استميحكم ان أتكلم على قوله تعالى ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ ، فبعد إذنكم اقول :

يخيل لي ان معنى « ابيضت عيناه من الحزن » : امتلأت عيناه من أثر الحزن وهو الدمع ،أوامتلأت عيناه دمعاً من أجل الحزن ،

وبيان ذلك ان الابيضاض يطلق على الامتلاء والتفريغ، ضدّ ،قال فيالأساس: « وبيّض الاناء : ملأه وفرّغه ، وعن بعض العرب:ما بقي لهم صَمِيل إلاّ بُيِّض: أي سقاء يابس إلاّ مُلىء » ، وقال في القاموس : « بيّضه : ملأه وفرّغه ،ضد »، والأبيض الماء ، وعليه فعندنا ان المعنى ههنا : ان عينيه امتلأتا من أثر الحزن ،حيث فاض حزنه ، من قلبه لعينيه ، أو ان عينيه صارتا تمتلآن من أجل الحزن دموعاً وترسلانها على خديه ، فعبارة الأساس تصحح المعنى الذي قلناه ، فما بقي علينا إلاأن نستدل على انه المراد ، دون غيره مما قالوه ، ولنا على ذلك دليلان : نقلي ، وعملي، فأما النقلي : فيعقوب نبيّ ورسول ، والأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة للطبيعة ، ولا ريب ان العمى نوع من تلك الأنواع المنفرة ، وأيضاً فحمله على

العمى أو على مرض بياض العين ، لنا فيه قول أولاده له: « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً » : أي مريضاً أو فاسد الجسم ، فظاهره انه وقت ما كلموه بهذا القول ، لم يكن فيه نوع من أنواع المرض ، وليس فيه شيء من الفساد ، في بدنه أو عينيه ، فكلمة أولاده هذه ، تؤيد المعنى الذي حملنا عليه الابيضاض ، وتدفع المعنى الذي قاله المفسرون.

وأما الدليل العلمي : فان الفنّ يمنع أن يكون الحزن أو البكاء ، سبباً في بياض العين ، بالمعنى المشهور ، الذي مشى عليه الجمهور .

وبهذه المناسبة — والحديث ذو شجون — أتذكر حادثتين حدثتا لي مع بعض الطلبة : الأولى : قال لي بعض طلاب العلم : لماذا لانقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأُشْرِبوا في قُلوبِهم العِجْلَ ﴾ (٢:٩٣)، أن المعنى : انهم أشربوا نَفْسَ العجل ، الذي حَرَّقه موسى وذراه ونسفه في اليم ، وهو النيل ، وهم كانوا يشربون من النيل ، فصدق عليهم انهم اشربوه ؟ — فقلت له : وماذا تفعل في كلمة « قلوبهم » فان الشرب انما يكون في البطون دون القلوب !!

الثانية — وهي اكثر مناسبة لموضوعنا ، انني سمعت من بعض الطلبة ينقل عن المفسرين أن يعقوب عمي أو حصل له مرض في عينيه ، يسمى « بياض العين » فقلت له : وماذا نصنع في كلمة « من الحزن » فإنه لاشيء من العمى ومن بياض العين ينشأ عن الحزن ، فما وسعه الا السكوت.

فابيضاض العين ياسادة هنا ، هو من قبيل مايسميه علماء البلاغة « التورية » وهي أن يطلق لفظ له معنيان ، قريب وبعيد ، ويراد البعيد لقرينة ، والقرينة هنا على ارادة المعنى البعيد ، كونه فيما سبق قد أخذ على عاتقه « الصبر الجميل » الذي لاينافي امتلاء العين بالدمع ، فانه سبحانه « أضحك وأبكى » ، (٥٣:٤٣)

فالعبرة لا يملكها ابن آدم، ولا تَسبُّبَ له فيها، فلا يؤاخذ عليها، فلا تنافي «الصبر الجميل»، ولكن ينافيه البكاء الكثير جداً، بحيث ينشأ عنه العمى.

تفسير ابيضاض العينين بمعناه المجازي

وأخيراً ياسادتي يمكن أن يقال أن ابيضاض العينين ههنا ليس بالمعنى الحقيقي، بل بمعناه المجازي، وهذا نظير ابيضاض الوجوه واسودادها، المذكور في نحو قوله تعالى: ﴿يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتسْوَدُّ وجوهٌ﴾ (٣:١٠٦) وقوله: ﴿ويومَ القيمةِ ترَى الذين كذَبوا على اللهِ وُجَوهُهم مُسْوَدةٌ﴾ (٣٩:٦٠) وعلى هذا النحو ماروي ﴿إن المؤمنين يحشرون غراً محجلين، من آثار الوضوء﴾، فهل تحمل هذه الأقوال على المعنى الحقيقي، بحيث يكون المؤمنون يوم القيمة، في وجوههم بياض، وفي سوقهم بياض، مخالفاً لباقي أجسامهم!... كــلا.. فإنهم يكونون هزؤاً وضحكة للعالمين، وهل يكون أهل النار، بيض الأجسام ماعدا وجوههم، فانها ستكون سوداء؟... كلا.. ولكن البياض والسواد، في أمثال هذه النقول، من باب الكناية عن المسرة والغم؟ حتى قال العرب لمن لم يتدنس بمعاب: «هو أبيض الوجه» وقال شاعرهم فتعجبوا لسواد وجه الكاذب، والعرب لليوم يقولون: «بيض الله وجه فلان، وسوّد الله وجه فلان» وبالله عليكم، ماذا يقول هؤلاء الناس الجامدون، في قوله تعالى: ﴿واذا بُشِرَ أحدُهم بالانثى، ظلَّ وجهُهُ مُسودّاً﴾ (١٦:٥٨)، فهل يحملونه على الحقيقة ويقولون: إن الرجل العربي، كان إذا بشر بولادة امرأته بنتاً، ينصبغ وجهه بلون السواد، كأنما انقلب زنجياً بعد ما كان أبيض؟.. حاشا أن أحداً يفهم هذا المعنى، فاحمل اللفظ في كل موضع على المعنى المناسب، ولا تكن من الجامدين.

كاتب سر المؤتمر: نشرنا هذه الكلمة التي القاها الاستاذ ابن الدقيق الهندي على مسؤولية قائلها وحده.

اشفاق ونصح

آ (٨٥) ﴿قالوا : تاللهِ تَفْتَأُ تذْكُرُ يوسُفَ ، حتى تكونَ حرَضاً اوْ تكونَ مِن الهالِكِينَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخامسة والثانون ، فقام سعد الدين البرقاوي [١] وقال :

سبق أن يعقوب عليه السلام كان انسحب من ميدان المناقشة مع أولاده ، وتركهم وانحاز وحده وما أن انقضت مدة إلا وقد رجعوا لمناقشته والملاحظة عليه، (قالوا) مؤنبين له : قد مات الميت فليحي الحي ، ونحن لم يبق لناصبرعلى السكوت عن هذا البكاء وهذه التأسفات ، قد أصبح يوسف شغلك الشاغل ، (وتالله) رب ابراهلم واسحق — وهذه التاء في تالله حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قوله : « ياأسفا على يوسف » — لا(تفتأ) لاتزال — وحذف حرف النفي ، لأنه لا يلتبس بالاثبات ، لأنه لو كان اثباتاً ، لم يكن خالياًمن اللام والنون ، ونحوه : « فقلت يمين الله أبرح قاعداً » — (تذكر يوسف) بياض نهارك وسواد ليلك ، في اضطراب وهياج وحزن وبكاء ، ولاتبرح تضرب على هذا الوتر المحزن (حتى تكون حرَضاً) مشفياً على الهلاك مرضاً ، — وأحرضه المرض ، ويستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه مصدر ، والصفة حرِضٌ «بكسر الراء» ، ونحوهما دنَف ودنِفٌ ، وجاءت القراءة بهما جميعاً ، قال في فقه اللغة : « الحرِض بالكسر هو الذي لا حيٌ فيرجى ولاميت فينسى » (أو) أي بل وا كثر من الحرَض بأن

(١) نسبة الى برقة من بلاد المغرب العربي .

(تكون من الهالكين) فإن ذلك عاقبة الأحزان ، والحال الذي أنت عليه يذيب الشحم ، ويَعرُق العظم فالى متى تذكر من مات ، ومات حظه من الدنيا ، هذا كلامهم لأبيهم ، وهو نصيحة منهم له واشفاق عليه ، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف . (أصبت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد عبد العظيم الاشموني (١)

ابناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على ابيهم وتسرية همومه واحزانه مع شيء من اللوم

أراد أبناء يعقوب تهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، فدلفوا اليه وحلقوا فيه ، وقالوا له وقد رأوه انتقع لونه ، وتولاه الهزال : اضبط زمام نفسك ، واملك تذكاراتك لولدك ، ان في الموجود عزاء عن المفقود ، وان في الحاضر خلفاً من الغائب ، ان لك في أولادك وأحفادك لشغلاً شاغلاً ، ولك في النظر لصحتك وعافيتك ماينسيك كل شيء ، انك تخدع نفسك بهذه الأفكار ، وتسوقها الى المرض فالهلاك ، عن رضا وطواعية ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولاتفجعنا فيك ، فانه يعز علينا جداً أن نراك بعد قليل في يد البثور ، مرتحلاً من بين أيدينا الى أعماق القبور ، وتالله لاتفتأ تذكر يوسف بهذا الامعان والتعمق والأطناب مرة بالثكل واللوعة ، وحيناً بالهتف والضراعة ، وطوراً بالأسف والحزن ، وتارة بالأنين والتباكي ، وآونة بالثناء ، وأوقاتاً بالدعاء ، نعم لاتزال تذكر يوسف الذي أصبح من روايات التاريخ ، والذي هو في عالم الأموات منذ

(١) نسبة الى اشمون من البلاد المصرية .

زمن بعيد ، حتى تكون حرضاً ، فليس لطبيب ، ولا لجمع من الأطباء مقدرة باستئصال هذا المرض من جسمك ، ولا يرون لك فيه إبلالاً ، بل وأكثر من ذلك تكون من الهالكين ، لذوبان قلبك ، وطيرانه شعاعاً على هــذا الفقيد ، فهل سمعت بأن ميتاً رجع في هــده الدنيا الى الحياة الجديدة ؟ أو هل تظن أن يوم البعث هو بعد يوم أو يومين ؟... والله ماندري مانقول لك ، أنعظك وأنت واعظنا في جميع الأوقات ، ونجم هدانا الذي نستنير به في وسط الظلمات ، أم نرشدك الى ماينبغي أن تلاحظه في نفسك ، ولا نعرف شيئاً أنت تجهله ، إن هـذه الحياة التي تحياها انما يلجأ اليها من يريد أن يمشي في طريق القبر ، إن من رآك رأى همّاً أوفى على المئة والستين ، مع أنك لم تسلخ المئة والثلاثة والأربعين ، استرخى حاجباك ، ثقلت أجفانك ، جمدت نظراتك تهدّل عارضاك ، تجعد جبينك ، انهض عاتقاك ، هوى بينها رأسك ، فلعمرنا لقد تغير فيك كل شيء ، ولم يثبت فيك إلا تلك الذكرى المؤلمة ، فخفض عليك قليلاً ، وروه نفسك بنسيان الماضي ، لا تأس على مامضى ، اصبر قليلاً أيها الشيخ الجليل « فهاهوذا الموت يمشي اليك ، باسرع مما تمشي اليه ، اصبر فان هذه الذكرى سبب في الهــلاك ، فلا تهلك نفسك بيدك ، ولا تستسلم لهذا التذكار .

وكأني بسيدنا يعقوب قـد قال لهم وهو يشرق بدموعه : « أفبهذا الكلام تعزونني ياأولادي ؟.. دعوني أذكر ابناً سليم القلب ؛ ذا مستقبل باهر ، ولا أدري أين هو اليوم ، ولا ماهو حاله ، واذا كنتم تشفقون عليّ فابكوا معي وشاطروني في أحزاني ». (أحسنت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال لسان الحق الامبابي (١) :

« تالله » كلمة صحيحة اريد بها باطل

قولهم « تالله ... الخ » كلمة صحيحة ، أريد بها باطل ، لأنهم قصدوا أن أباهم ينبغي أن ينسى أو يتناسى يوسف . نفاسةً منهم عليه وحسداً له .

الحرض ومرادفاته

وقولهم « حرضاً » من فعل حَرِضَ وبابه تَعِبَ أشرف على الهلاك ، فهو حَرَضٌ ، وسميته بالمصدر مبالغة ، أو يقال الحرض والمرض والعلة والسقم والوحم والوعك والوَصَب والضنى والنَّهَك والدَّنف والداء تقريباً واحد ، أي دا حرض .

استعمال كلمة « الهلاك » للمسلم والكافر سواء

وأما كلمة « الهالكين » فيتصور الجمهور من الناس اليوم انها لا تستعمل إلا في الكافر عند موته ، فيقال هلك « ماير » اليهودي ، ولا يقال هلك « محمود » المسلم إذا مات ، بل توفي مثلاً ، وهو وهمٌ مبني على العرف الحاضر ، لا على اللغة العربية ، ولذلك نرى أولاد يعقوب هنا ، لقد لفظوا بهذه الكلمة ، أو ما يرادفها في لغتهم العبرية ، موجهين الخطاب بها لأبيهم ، ومنه قوله تعالى :﴿ ولقد جاءكم يوسف من قَبْلُ بالبينات ، فما زلتُم في شكٍ مما جاءكم به ، حتى إذا هَلَكَ

(١) نسبة الى امبابة من البلاد المصرية .

قلتم : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رَسُولاً ﴾ (٣٤:٤٠) (مرحى)

أين الشجي من الخليّ

آ (٨٦) ﴿ قال : إنّما أشْكُو بَثِي وحُزْني الى اللهِ ، وأعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا تَعْلَمُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية السادسة والثانون فقام المدقق الحموي (١) وقال :

دهور يعقوب دموعه في اشداقه و(قال) لأولاده متأففاً : مالكم تتذمرون عليّ ؟.. لابد للمصدور أن ينفث ، فلا تحرجوني ، ومع ذلك فما أنتم وهذاالانتقاد؟ فهل اليكم أقدم شكواي ، أو لغيركم من الخلق ؟.. حاشا لي من ذلكم كله ، أنا لم أشك لأحد ، ولا أريد أن أشكو اليكم أو لغيركم (إنما أشكو بثي) همي العظيم ـــ والبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه للناس ، أي ينشره، ومنه باثه أمره ، وأبثه إياه ـــ (وحزني) غمي (الى الله) وكفى ! وأما هؤلاء الناس فلست بشاك اليهم شيئاً ، بل ولاأسألهم دينا ، ولاأستفتيهم عن دين ، بل اليه تعالى أكل أمري (وأعلم من) أسرار غيب (الله مالا تعلمون) ، إذ أعلم بمستقبل يوسف ، ولكأني أراه رأي العين ، إنما أنا أحزن وأبكي وأتأسف لكوني أرى أن شقة البعد طالت ، ونور اللقاء يسير يبطء ، فهذا الذي قضى بحزني وبكائي وتأسفي ، بحكم الطبع البشري .

---

(١) نسبة الى بلدة حماه من سورية

(قال إنما أشكو بثي وحزني .. الخ)

— ٢ —

وقال الشهاب الخليجي (١) :

يعقوب يرد لابنائه نصحهم له ولومهم اياه على حزنه على يوسف

كأني بيعقوب عليه السلام حدّق في وجوه أولاده تحديقاً شديداً والدمع يترقرق في عينيه ، ثم قال :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ، رويداً رويداً أيها اللائمون ، فشديد جداً على والد شيخ مثلي أن لا يذكر ولداً له ، فارقه الى مالا يعلم ، لا سيما وقد امتدت شقة الفراق ، بحيث صار بيني وبينه هوة سحيقة ، لاقرار لها ، فهل من العجب مع هذا أن يطير قلبي خوفاً وهلعاً ، أو شوقاً وتوقاً ؟.. على أن غرضي من ذلكم أن أروّه عن نفسي همومها وآلامها ، بالمناجاة والشكوى الى عالم السر والبلوى ؛ كما يرفه المريض عن نفسه أسقامه وأوجاعه ، بترديد الأنات ، وتصعيد الزفرات ، ولا علي إن أبثثتُ همي لربي ، ورفعت عقيرتي لخالقي :

تموت النفوس بأوصابها ... ولم يدر عوادها مابها
وما أنصفت مهجة تشتكي ... أذاة الى غير أحبابها

وأن الشكوى الى الله لهي من ثمار الايمان ، وليس أفضل منها وسيلة لتعزية الانسان :

لا تسألنّ بُنيّ آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُني آدم حين يُسأل يغضب

سامحكم الله يا أولادي ، ماهذه الظنون التي تظنون ؟.. وماهذا التثريب الذي

---

(١) نسبة الى بلدان الخليج العربي

تضايقوني به ؟... و كيف تحولون بيني وبين البكاء على أولادي الثلاثة ، ولاسيما « العزيز » يوسف ؟..

وقع الشوائب شيّبْ والدهر بالناس قُلّبْ
إن دان يوماً لشخصي ففي غد يتقلب
فلا تثق بوميض من برقه فهو خُلّبْ
واصبر إذا هو أضرى بك الخطوب وألبّْ
فما على التبر عارٌ في النار حين يقلّبْ

سامحكم الله ياأولادي ، أراكم كلما زادت كروبي زدتم في التأنيب ، على حد مايقول القائل :

كلما أنبت الزمانُ قناةً ركب المرء في القناة سِنانا

أنا لي رجاء في يوسف ، وأنتم تقولون ، إنه صار من صيد أمس .

وما صبابة مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل

ياأولادي : الدمع دمعي والعيون عيوني ، فدعوني أبكي ، والقلب قلبي والفؤاد فؤادي ، فدعوني أحزن ، واللسان لساني والأسف اسفي ، فدعوني أرفع عقيرتي الى ربي بالأسف ، دعوني فانكم لم تصابوا بمصيبتي ، ومصيبتي هذه انما هي فوق رأسي ، سبحان الله ! أنا على أحر من الجمر . وقلوبكم أبرد من الثلج ، أنا أتأسف وأنتم تصفقون ، أنتم تشتغلون بمجادلتي .

القلب أعلم ياعذول بدائه وأحق منك بجفنه وبمائه
فوَمَن أحب لأعصينك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه
أأُحبه واحب فيه ملامةً ؟ إن الملامة فيه من أعدائه
لاتَعذُلِ المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه
إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

يا أبنائي — إنما أشكو همي العظيم وغمي على مامضى الى الله عز وجل ، وهذا أمر أحلته لي الشريعة ، ودعتني اليه الطبيعة ، واعلم من اسرار غيب الله مالا تعلمون ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟.. والأيام بيننا . والمستقبل كشاف .

يا أبنائي : انا لست احب يوسف لسواد عينيه ، وليس حالي معه كمحب لشخص ، ومغرم بذات ، بل انا محب لآمالي فيه ، محب لرجائي في مستقبله ، فلست اذكر اسمه الا مشفوعاً بتلك الآمال ، وذاك الرجاء ، ولذلك فأنا حتى اليوم وغدٍ أقول : آه ، ياترى ، يوسف الذي ستسجد له الكواكب أين هو ؟.. أواه .. ياعجباً ، يوسف الذي سيجتبيه ربه أين « راح »؟.. واحسرتاه .. يوسف الذي سيعلمه ربه من تأويل الأحاديث أين ذهب ؟.. يوسف الذي سيتم ربه نعمته عليه ، ماذا حل به ؟..

لذلك أنا لا اضن ببكائي واسفي على يوسف ، بل ولا بصحتي ، بل ولا بحياتي، فكيف انتم تضنون بشيء لا يضن بـه صاحبه ؟.. الدموع دموعي ، والزفرات زفراتي ، والصحة صحتي ، والحياة حياتي ، فدعوني أجود بذلك كلـه في سبيل محبة يوسف ، مهما كلفني الأمر .

فصلاحي الذي زعمتم فسادي   وفسادي الذي زعمتم صلاحي

وبعد ذلك أقول لكم : اما كان يجمل بكم ان تشاطروني احزاني ، وتخففوا عني وطأة همومي ، عوضاً عن هذا التعنيف ، وبدلاً من هـذا التأنيب ؟.. سبحان الله ! لوترك القطا لنام ، ياأيها الناس ، من لم يستطع البكاء فليرحم الباكين، ومن لم يُحِس بالألم ، فليشفق على المتألمين .

ياأولادي ، اني اعلم من غيب الله مالا تعلمون ، اعلم سلامة يوسف وحياته ، وذلك مما أُوحي الي في شأنه ، ان ربـه سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث

ويتم نعمته عليه ، فمن هذه الأمور التي لم تجيء بعد ، ومن الرؤيا التي رآها ، ولم يأت تأويلها ، اعلم ان يوسف حي يرزق ، وانه يعيش الى ان يبلغ مبلغ الرجال، واننا سوف نجتمع به ونراه على احسن حال ، كما يحب ونحب ، وعندئذ يقع تأويل رؤياه . يابني — انا اعلم اكثر مما تعلمون ، بل اعلم مالاتعلمون ، فكأنما في فؤادي الأشعة المجهولة التي تكشف عما وراء الحجب والموانع ، وعلى عيني منظار الرصد المقرب المجسم ايضاً ، ولذلك فأنا لا آخذ عليكم .

ياأولادي ، قد سمعت مقالتكم ، وتبين لي نصيحتكم ، والإشفاق عليّ من جهتكم ، غير أني — يرحمكم الله — لا أجهل أمراً تعلمونه،وأما أنتم فأنكم تجهلون أموراً كثيرة أعلمها ، إن الذي يرى ببصيرته ، غير الذين يرون بأبصارهم ، أنا أطالع صحيفة من صحائف الغيب ، لم يقرأ واحد منكم منها حرفاً واحداً ، بناء عليه اتركوني وشأني .

هذا آخر جواب يعقوب عليه السلام لأولاده وترى أنهم سكتوا ، ولم يعودوا يحاورون أباهم ، ولا نعلم هل كان سكوتهم عن احترام ، أو عن اقتناع ؟ . . .
(جيد)

تذييلات :

جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا وصاحب الباطل بالنعم والعطايا

١ — نقرأ في هذه السورة مصيبة يعقوب بأخذ ابنه منه ، بحيلة أجراها عليه أبناؤه الصلبيون ، لا أناس بعدآء عنه ، وهي مصيبة ذات وجهين ، ثم إنه ياليته شدد في الاحتياط ، إذ كان يعلم حسدهم وكرههم لأخيهم (ع ٥) ، بل استرسل معهم استرسالاً ، كانه لا يعرف شيئاً من مكائدهم ومصائدهم ، ثم بعد (٢٠) سنة أخذوا

من عنده ولده الأصغر بنيامين وأخيراً جاؤوه بالخبر السيء ، خبر انه سرق ، وأسرق في مقابلة ذلك ، الأمر بل الأمور التي أزعجته ، وأقلقت راحته، والحكمة في ذلك الاشارة الى أن لانجعل المصائب الشخصية دليلا على كون من تصيبه على باطل أو على حق ، فان من الجائز عقلا والواقع فعلا ، أن يبتلى صاحب الحق ، بالمصائب والرزايا ، وأن يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا ، كما أن عكس ذلك جائز وواقع ، قال تعالى : ﴿ لَتُبلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾ (٣ : ١٨٦) وقال تعالى : ﴿ وإذ ابتَلى إبراهيمَ رَبُّهُ بكلماتٍ ﴾ (٢ : ١٢٤) وقال تعالى : ﴿ فلما أسْلَما وتلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وناديناهُ أنْ يا ابرهيم ، قد صَدَّقْتَ الرؤيا ... إنا كذلكَ نَجزِي المُحْسنين ، إن هذا لَهُوَ البلاءُ المُبينُ ﴾ (٣٧:١٠٣-١٠٦) وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ، وَيَمْحَقَ الكافرينَ ، أمْ حَسِبْتم أنْ تدخُلوا الجنةَ ؟ ولمّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا منكم ويَعْلَمَ الصابرينَ ﴾ (٣ : ١٤١ و ١٤٢) ،وقال تعالى:﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مافي صُدورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مافي قلوبكم ، واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدور ﴾ (٣ : ١٥٤) وقال تعالى : ﴿ أمْ حَسِبْتُم أنْ تَدْخُلوا الجنةَ ؟ ولمّا يأتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكم : مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضراءُ وزُلْزِلوا ، حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا مَعَهُ : متى نَصْرُ اللهِ ؟ !! ! ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قريبٌ ﴾ (٢ : ٢١٤) نزلت في غزوة أحُد حين غَلَبَ المشركون المؤمنينَ ، وشجوا رأس النبي ﷺ ، وكسروا رباعيته ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ لِيَبلُوَني أأشكرُ أم أكفُرُ ﴾ (٢٧ : ٤٠) .

الحكمة من منع علم الغيب عن الناس واطلاع الانبياء على شيء منه

٢ً — تعليقاً على قول يعقوب (وأعلم من الله مالا تعلمون) غني عن البيان ان الله جلّ جلاله حجب علم الغيب عن الناس ، ذلك لأجل رحمتهم واسعادهم ،

إذ لو علم الناس الغيب لنزلوا الى الحضيض ، ولكانوا أخس المخلوقين : وأتعب الخلق أجمعين ، ذلك ان المرء لو اطلع على الغيب بعد عشر سنين مثلا سيكون رئيس حكومة أو مثرياً أو طبيباً أو استاذاً جليلا في العلم — لو صار هذا له لم يفكر يوماً مافي علم السياسة ، ولا في جلب المال ، ولا في قراءة الكتب ، ولا في تحصيل العلم ولا في دخول المدارس العالية ، واذن تضيع الحكمة ، وتذهب الحياة سدي ، وتكدر معيشة كل إنسان ؛ أما جهل الناس بالمستقبل ، فهو الذي يكفل سعادة الناس ، وصفاء عيشهم ، لانهم يجدون ويدأبون على السعي ، وذلك داع حثيث الى اتقان العمل .

علم الناس بالغيب ، قد بسبب أضراراً كثيرة ، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على مافي قلوب الآخرين ، من حسد وبغض وكراهة ، فكيف يعيش الناس في صفاء ، وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء ؟ ، لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع علم الغيب عن الناس .

ولكن نظراً لأن سد باب الغيب مرة واحدة . وبصورة مطردة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ، ويوقع في النفوس أنه لا روح خالدة « ولا حياة بعد هذه الحياة ، ولا ملائكة ولا وحي ، ونظراً لأنه يلزم أن يكون لله تعالى وسطاء بينه وبين عامة عباده ، وهؤلاء الوسطاء هم الأنبياء ، سمح باطلاع أنبيائه على شيء من علم الغيب ، من طريق الوحي والإلهام ، في اليقظة أو في المنام .

ومن أدلة حصر علم الغيب في الله تعالى على الوجه الذي قلناه ، قوله تعالى : ﴿ عالِمُ الغَيْبِ ، فلا يُظهِرُ على غَيْبِهِ أحَداً، إلاّ مَنْ ارتَضَى مِنْ رسولٍ ؛ فإنّه يَسلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصَداً ؛ لِيَعلَمَ أنْ قدأبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِم ﴾ (٧٢ : ٢٦ و ٢٧) ، وقال تعالى حكاية عن نوح (ع) : ولا أقولُ لكم : عندي خزائنُ اللهِ ، ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ، ولا أقولُ : إني

ملَكٌ ﴾ (١١ : ٣١) وقال تعالى خطاباً لخاتم رسله ، أمره أن يبلغه خلقه : ﴿ قُلْ : لا أقولُ لكم : عندي خزائنُ اللهِ ، ولا أعلمُ الغيبَ ، ولا أقول لكم: إني مَلَكٌ ، إنْ أتبعُ الا ما يوحى إليّ ، قُلْ هل يستوي الأعمى والبصيرُ؟ أفلا تتفكرون ؟ ﴾ (٦ : ٥٠) .

وقد أمر الله نبيه أن يستدل على عدم معرفته الغيب بقوله : ﴿ وَلَوْ كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ مِنَ الخيرِ ، وما مسَّنِي السوءُ ؛ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٧) وقال تعالى : ﴿ وما كان اللهُ ليُطلِعَكم على الغَيبِ ، ولكنَّ اللهَ يَجتبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ ﴾ (٣ : ١٦٩) ، وقال تعالى : ﴿ وعِندَهُ مَفاتِحُ الغَيبِ لا يَعلَمُها الا هُوَ ﴾ (٦ : ٥٩) .

وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب

ومما تقدم يعلم ان الله يظهر من ارتضى من رسله على الغيب ، الذي يتعلق به تبليغ الرسالة ، وذلك مشروح في القرآن ، ومنه الملائكة والجنة والنار والحساب وغير ذلك ، والواجب في هذا المقام الوقوف عند النص ، لا نتعداه بزيادة ولا نقصان ، لأنه ليس للعقل مجال في عالم الغيب ، فيقيسَ ويستنبطَ ، فما كان من النصوص قطعياً ، كالآيات الكريمة المصرحة بالاخبار عن الانبياء السابقين وأممهم ، وعن الآخرة وما فيها ، وعن الملائكة والجن ، وعما وعد الله به هذه الأمة من الاستخلاف في الارض ، فإننا نؤمن به ونقول بكفر من أنكره ، وما كان منها مروياً في أخبار الآحاد ، فلا يكلّف كل مؤمن بعلمه والايمان به ، وأحاديث الآحاد الواردة بإخبار النبي ﷺ بالغيب كثيرة ، وقد ظهر تأويل المشهور منها ، كالإخبار بان الله يفتح على المسلمين مصر والشام وغيرهما من الأقطار ، والإخبار بأن « عمّاراً » تقتله الفئة الباغية ، وأن « الحسن » يصلح الله به بين فئتين من المسلمين ، وان « فاطمة » رضي الله عنها أول أهله لاحقاً به بعد موته .

وأمّا ما ورد من أنّ الجنة والنار مُثّلتا له في عرض الحائط،أو قبلةالجدار، ومن أنه رويت له الأرض ، فرآى ما يصل اليه مُلْك أمته منهـا فلا يدل على ان الله تعالى أطلعه على ما كان وما يكون ، مما ليس في استعداد البشر الاطلاع عليه ، اذ لا نهاية له ، ولا هو مما يتعلق به تبليغ الرسالة وهداية الخلق ،وايضاً فالنصوص تنافيه ، والنبي يقول : « إنْ أنا إلاّ نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون » (٧ : ١٨٧) فهو ينفي أن يكون له خصوصية غير التبليغ بالإنذار والتبشير ، كأنه يقول . إن الله تعالى أمرني أن ابلغكم بانني لا أمتاز عليكم بصفات الالوهية ، كالقدرة على النفع والضر وعلم الغيب ، و ﴿ إنما أنا بَشَرٌ مثلكم يُوحَى اليّ ﴾ (١٨ : ١١١) .

طرق نقل العلم

٣َ — كان طريق علم يعقوب هو الوحي السماوي ، ويوجد اليوم طرقاخرى لعلم الأنباء البعيدة كالبرق والبريد والهاتف والراديو واللاسلكي والطائرة والمنطاد ثم قراءة الافكار والتنويم المغناطيسي وغير ذلك من المخترعات العصرية ، ولكن هذه الطرق مرتكزة على أسباب علمية ، وأما الوحي فليس مرتكزاً على شيء ، سوى نزول الملاك والالهام .

العودة الى مصر للتحسس

آ(٨٧) ﴿ يا بَنِيّ ، اذهبوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يوسفَ وأَخيه، ولا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ،إنّهُ لايَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثانون ، فقام وليّ الدين البهنسي [1] وقال :

سبق ان يعقوب قال لأولاده : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، فهو لما قال لهم هذه الجملة ، وأفاض في شرحها ومراميها ، اتخذ ذلك فرصة لتصريحه باعتقاده بحياة يوسف ، وبراءة بنيامين من السرقة ، فلذلك ولكون الحب مبنياً على الرجاء قال : « يابَنِيّ » دعونا من المزاعم والأوهام،والأخبار الموضوعة ،والادعاءالباطل، فلا اخفي عنكم أنني لليوم وللغد أتوقع خلاف ماتظنون في اخويكما ، لذا (اذهبوا) لمصر للمرة الثالثة (فتحسسوا) فيها (من يوسف وأخيه) بنيامين ، وتعرفوا منها ، وتطلّبوا خبرها (ولا تيأسوا) ولا تقنطوا (من روح الله) من فرجه وتنفيسه ، ولا تنفضوا أيديكم منها ، بالرغم عن قدم العهد بيوسف ، وعن أن خصيمكم في بنيامين هو الحكومة المصرية ، فلا تجعلوا لليأس سبيلاً الى قلوبكم ، (انه لا ييأس من رَوح الله الا القوم الكافرون) ولذلك فاني لا أيأس من حياة يوسف وبراءة بنيامين واطلاق سراحه ، ولن أيأس من ذلك ما تردد لي نَفَس على وجه الأرض ، وان طول شقة فراق يوسف وكل ما جرى على بنيامين ، لم يقللا شيئاً من أملي من هذا القبيل .

---

(١) نسبة الى بلدة بهنس في القطر المصري .

(يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه .. الخ)

— ٢ —

وقال جمال الدين الانطاكي [١] :

يعقوب يطلب من اولاده العودة لمصر للامتيار ظاهراً والتحسس من يوسف واخيه باطناً

مازالت حال يعقوب عليه السلام تضطرب بين فرح وهم ، وسرور وغم ، ومابرحت آماله تتراوح بين مد وجزر ، وبسط وقبض ، يذكر حلمي يوسف ، وما اوحى الله اليه في شأنه ، فيشرق له في خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، ويلوح له جمال العيش الساطع ، ثم يذكر غيبة يوسف ، وانقطاع اخباره، وطول المدة وماطرأ بعد ذلك من حادثة بنيامين ، واحتباس رأوبين بمصر ، وما اعدت له الأيام في طياتها ، فيلمس صدره بيده ، ليعلم اين مكان قلبه من اضالعه ، فلا تراه إلا متأسفاً قائلاً : ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل ، ولذلك قال لهم مامرماه :

يا ابنائي — إن للأمور ظواهر وبواطن ، فلا تقفوا عند ظواهرها ، دون البحث والتنقيب عن بواطنها ، فربما لايكون الذئب قد افترس يوسف افتراساً ، ولكنه حاول افتراسه ، فتجاذبا ، فأمسك الذئب بقميصه . وجرحه فقط ، واما يوسف فتملص من القميص ونجا باعجوبة سالماً فائزاً بحياته ، فلقيه اشقياء من كنعان او الكلدان او الإفريقيين ، فاسترقوه ، حسب العوائد الشائعة بين اولئك الأقوام ، وكذلك ربما لايكون اخوه « بنيامين » سارقاً ، بل دبرت له مكيدة من عدو له ، او من بعض عمال الحكومة لأمر ارادوه ، اووضع الصواع

(١) نسبة الى بلدة انطاكية في سوريه.

في رحله سهواً ثم نسي فيه ، فعسى ان تقفوا على شيء من هذا القبيل ، فيخلص اخوكم من هذه الاحبولة ، لأن الحق فوق القوة ، لذا فهيا واذهبوا الى مصر ، واستقصوا خبرهما ، واسألوا عنهما ، لعلكم تهتدون على ضالتكم ، ياأولادي ها هو صوت يرن في اذني ، ثم يخترق اعماق قلبي ، يقول لي : « يوسف حي » و« بنيامين امين » فقوموا اذهبوا وكونوا كلكم آذاناً ، حتى تسمعوا عنهما خبراً ، كونوا كلكم عيوناً تتطلع الى روايتهما، كونوا كلكم ألسنة تسأل عنهما اهل الآفاق ، كونوا كلكم انوفاً ، تستنشق اريجهما ، كونوا كلكم ادمغـــة ، تفكر في اسباب لقياهما ، وبالجملة كونوا كلكم ارواحاً تحلق في الاجواء حتى تقع عليهما وعلى حقيقة امرهما

يابنيّ — إن الإنسان إذا افتقد شاة بث عليها العيون والأرصاد ، ونشر السعاة والرواد ، ولا يهدأ له بال ، حتى ترجع اليه تلك الشاة ، فكيف والمفقود منا إنسان بل إنسانان ؟ . . . فاذهبوا وتخبروا من يوسف وأخيه ، وأبذلوا فى ذلكم وسعكم وطاقتكم ، ولا تَنُوا ، انهبوا وتبينوا حقيقة الحال ، فانتم عيوني وأرصادي لهـذا الأمر كما لغيره ، فلا تألوا جهداً في اكتناه جلية الواقع ، ولا أظنكم إلا عائدين لي ، مزودين بالخبر اليقين ، حاملين اليّ البشارة السارة عنهما .

يابني — افتكروا في طريقة مثلى تقفون بها عليهما ، عساكم تجدونهما سالمين ، فما على الله أمر عسير وان عزائم الرجال تذلل الصعاب ، وقد تكون أرهف حداً من الصوارم ، إذا اقترنت بالاخلاص ومساعدة الباري جل جلاله ، فعسى أن نصير على بينة من أمرهما ، فلا بد أن يكون في الأمر سر عميق ، أنتم رسلي ، فمتى وقفتم لهما على خبر . فانفذوه الى توا ، أمعنوا في الفحص ، ونقروا عنهما تنقيراً ، ولا تقنطوا من فرج الله ، ولا تقطعوا من نفوسكم حبل الرجاء ، ولا تبكتوا خيوط الأمل ، إنه لا ييأس من فرج الله الا كل كافر بنعمة الرجاء والأمل ، هـــذه كلمتي ، وأقول لكم كلمة جدي ابراهيم الخليل : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ ربه

إلا الضالون ﴾ (١٥ : ٥٦) فلا يتولاكم اليأس ، ولا يستحوذ عليكم القنوط.
(جيد)

يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه . . الخ

— ٣ —

وقال ضاء الدين المرعشي[1] : اعلق على الاية الكريمة بالمواد التالية :

يعقوب يطلب من اولاده التحسس من يوسف وبنيامين ثم جلب الميرة

١ً — تعليقاً على قوله (اذهبوا فتحسسوا) : الحقيقة ان أباهم دفعهم لمصر لأمرين ، الأول التحسس عن يوسف وأخيه ، والثاني جلب الميرة ، وانما لم يذكر هـــذا الثاني ، لأنه طبيعي ومعلوم ، ولان الامر الاول هو الاقوى ، والاهم في نظره ، فكأنه قال : اذهبوا ليس لاجل قوت الاجسام فقط ، بل أيضاً لاجل قوت الارواح .

معنى التحسس

٢ً — التحسس طلب الشيء بالحاسة ، وهوقريب من التجسس ، وهوتعرف الشيء بواسطة الجس ، أو التحسس في الخير ، ومنه الحاسوس ، والتجسس في الشر ، ومنه الجاسوس ، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس ، وكذلك الجَوْس ، وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف ، ومنه ﴿ فجاسُوا خِـلالَ الديار ﴾ (١٧ : ٥) ويقال : التحسس ، الاستماع لحديث القوم ، والتجسس التفتيش عن بواطن الامور ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والناموس صاحب سر الخير ، وأحسّ يستعمل في ادراك الحسي والمعنوي ، يقال أحسست

(١) نسبة الى مرعش في بلاد الترك

بالحرارة والبرودة مثلا ، وأحسست منه مكراً ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسسنا منه خبراً ، وهل تُحس من فلان بخبر .

روح الله وان اليأس منها كفر

٣ً — « روح الله » هو فرجه وتنفيسه ، أو هو فضيلة الرجاء ونعمة الامل وانه لاييأس ، من تلك الفضيلة إلا الكافرون بهـا ، نعم إن اليأس كفر بتلك النعمة ، اليأس يقتل فضيلة كبيرة ، هي حياة الانسان في هذه الدنيا ، هي تعزيته وملجـأه الحريز ، ألا وهي فضيلة الرجاء ، فضيلة الامل ، فضيلة الامنية ، إذ لولا بارقة الامل ، لعاش الإنسان في حياة مظلمة ظلاماً دامساً ، فكان كافراً بنور الحياة الذي هو الرجاء والامل ، كل العالم إنما يعيش بالامل ، لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، فالامل فضيلة ، لاحياة الانسان بدونها ، فهي نعمة من الله تعالى ، لولاها لمتنا ، فمن يئس من هـذه الفضيلة فقد كفر بها ، وصار في حياته من ذوي الاتعاب .

وقول يعقوب لاولاده : « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أذقنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثم نَزَعناها منهُ إنه لَيَئُوسٌ كفورٌ ﴾ (١١ : ٩) ؛ فيعقوب يقول لابنائه : إن الله كان أذاقنا رحمة وجود يوسف بيننا ، ثم نزعها منا على يد بعض خلقه ، ولكن لايجوز أن نيأس من عود هذه الرحمة ، لان اليأس من رحمة الله كفر بها .

معنى الكفر والكافرين واطلاقه على غمط النعم

٤ً — تعليقاً على قوله « الكافرون » : معنى الكفر في أصل اللغة ، الستر والتغطية ، وكانوا يسمون الليل « كافراً » لانه يغطي بظلامه الاشياء ، وأطلقوا لفظ « الكافر » على طلع النخل ، واكمام النَّوْر (الزهر) لما ذكر ، وعلى البحر

لان الشمس تغيب فيه — بحسب الظاهر — وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدرع يقولون له كافر الدروع، وقوله تعالى: ﴿ وأعجبَ الكفارَ نباتُهُ ﴾ (٥٧: ٢٠) هم الزراع، وأمثال هذا كثير في اللغة.

ويظهر من ذلك ان حقيقة « الكفر » تغطية المحسوس بالمحسوس، ثم اطلق على من لم يذعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزاً، فاذا تقرر هذا فلعل الكفر هنا بالمعنى اللغوي، الذي هو الستر، لان اليأس من رحمة الله، ستر لفضله وحسن الظن به سبحانه وتعالى، وقد أطلق لفظ الكفر في بعض أحاديث مسلم على ترك الصلاة، ولهذا شواهد كثيرة، فمن اطلاق الكفر على غمط النعم قوله تعالى: ﴿وهو الذي أحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم، إنّ الانسانَ لكفورٌ ﴾ (٢٢: ٦٦) أي جحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، وقوله تعالى: ﴿ وإنا إذا أذقنا الانسانَ منّا رحمة، فرِحَ بها، وإنْ تصبْهمْ سيئة بما قدّمتْ أيديهمْ، فإنَّ الإنسانَ كفورٌ ﴾ (٤٢: ٤٨) أي انه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها، وقوله تعالى: ﴿ وانْ تعدُّوا نعمةَ اللهِ لا تحصُوها، إنّ الانسانَ لظلومٌ كفّارٌ ﴾ (١٤: ٣٤) أي شديد الكفران للنعمة، ومنه حديث البخاري: (اطلعت على النار فوجدت اكثر أهلها النساء يكفرن — قيل: ومايكفرن؟ — قال العشير)، والكفر بهذا المعنى مقابل للشكر، قال سليمان (ع): ﴿ ليَبْلوَني أأشكرُ أم أكفرُ، ومَنْ شكرَ فانما يشكرُ لنفسه. ومن كفرَ فانّ ربي غني كريمٌ ﴾ (٢٧: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٢: ١٥٢) ويقول « منفتاح » فرعون مصر: ﴿ وفعلتَ فِعْلتكَ التي فعلْتَ وأنتَ منَ الكافرين ﴾ (٢٦: ١٩) أي تحريت كفران نعمتي بقتلك خبازي، وعلى الأقل بقتلك رجلاً هو من شيعتي الأقباط، وقال تعالى: ﴿ وإذْ تأذّنَ ربّكمْ: لئِن شكرْتم لأزيدَنكمْ، ولئنْ كفرتم إنّ عذابي لشديدٌ ﴾

(٧:١٤) فالكفر هنا مقابل الشكر ، بأن استعملنا نعمه فيما يغضبه ، وقال تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا ، أنفِقوا مما رزقناكم من قبلِ أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلةٌ ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢٥٤:٢) فالمراد «بالكافرين» ههنا من يكفرون النعم بقرينة السياق والسباق وهم الذين لاينفقون في سبيل البر والخير ، ولايراد به ههنا منكرو الألوهية أو النبوة أو الجاحدون لشيء مما جاء به الأنبياء وعلم علماً ضرورياً ، لأن هذا اصطلاح لم يلتزمه القرآن الكريم.

اطلاق الكفر على المعصية الكبيرة

وقد يطلق الكفر على المعصية الكبيرة ومنه فيما أرى قوله تعالى : ﴿وما كفر سليمانُ ، ولكنّ الشياطين كفروا ، يُعلمونَ الناسَ السِحرَ ، وماأُنزلَ على الملكين ببابلَ ، هاروتَ وماروتَ ، وما يُعلمانِ من أحدٍ حتى يقولا : إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفُرْ ، فيتعلمونَ منهما مايُفرقونَ به بينَ المرء وزوجِه ﴾ (١٠٢:٢) فقد تعلمون ان سليمان نبي ،والأنبياء معصومون من الكفر — المقابل للايمان — إجماعاً مامن ذلك بد ، وعليه فينبغي حمل الكفر المنفي عنه على الكفر بمعنى فعل معصية السحر ، وقوله :« ولكن الشياطين » يراد بهم شياطين الإنس كما في : ﴿ وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكمْ ﴾(١٤:٢)وقوله:﴿يُعلمون الناسَ السحْرَ﴾ تفسير لكفر هؤلاء الشياطين ، وقوله : « فلا تكفر » أي بتعلم صنعة السحر .

ومن أمثلة هذا النوع مافي حديث البخاري (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وقوله تعالى : ﴿ وبكُفرِهم وقولهم على مريمَ بهتاناً عظيماً ﴾ (١٥٥:٤) ، فكفرهم ههنا هو قولهم على مريم البهتان العظيم ، فالعطف للتفسير ، وأما الكفر المعلوم فقد ذكره في الآية قبلها مرتين حيث قال : ﴿ فبما نقضهِم ميثاقهُم وكفرِهم بآياتِ اللهِ وقتلِهِم الأنبياءَ بغيرِ حقٍ ، وقولهِم « قلوبُنا

غُلْفٌ » ، بل طَبعَ اللهُ عليها بكفرِهم ، فلا يُؤمِنونَ إلا قليلاً ﴾ (٤ : ١٥٤)
وفي الحديث : « كفر بامريء ادعاء نسب لا يعرفه » رواه ابن ماجه في سننه وفي أحاديث الجامع الصغير : « أخذ الأمير الهدية سحت ، وقبول القاضي الرشوة كفر ».

اطلاق الكفر على الضلال

وفي صحيح البخاري « لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وفي رواية « ضُلالاً » فالضلال في هذه الرواية تفسير للكفر في الرواية الأولى ، كما أن الضلال في آية الحجر وهي قول إبراهيم : ﴿ ومنْ يَقنطُ مِنْ رحمةِ ربه إلا الضالون ﴾ (١٥ : ٥٦) تفسير للكفر في آية يوسف ، وهي قول يعقوب : ﴿ إنه لا ييأسُ منْ رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون ﴾ (ع ٨٧) كما أن « روح الله » هي « رحمة الله » واليأس هو القنوط ، وفي صحيح مسلم : « اثنتان في الناس هما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » وفيه : « أيما عبدِ أبقٍ من مواليه فقد كفر حتى يرجع اليهم » وفي سنن ابن ماجه : « من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدّقه بما يقول — فقد كفر بما نزل على محمد » ، وفي البخاري: « ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر » وفيه : « لاترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفرٌ » جعل التحاق الانسان بنسب غير نسبه كفراً وكل هذا وغيره مبني على التغليظ والتشديد .

اطلاق الكفر على ترك بعض اركان الاسلام

وقد أطلق لفظ الكافر على مانع الزكاة كما في سابق قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذينَ آمنُوا ، أنفِقُوا مما رزقْنا كم منْ قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلةٌ ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢ : ٢٥٤) ، أي والمانعون للزكاة أو

النفقة في سبيل البر هم الظالمون ، فوضع « الكافرون » موضعه تغليظاً وتهديداً وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يؤتونَ الزكاة ﴾ (٦:٤١) ، وكما قال تعالى : ﴿ ولله على الناسِ حجُّ البيتِ مَنْ استطاعَ اليه سبيلاً ، ومَن كفرَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن العالمينَ ﴾ (٩٧:٣) فقال « ومن كفر » مكان « ومن لم يحج » تغليظاً وإيذاناً بأن ترك الحج من سمات الكافرين ، وقال تعالى ﴿ : فأما الذين اسودّتْ وجوهُهم : أكفرتم بعدَ إيمانكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرُون ﴾ (١٠٦:٣)، جعل تفرقهم واختلافهم كفراً ، تغليظاً ، لأن هذا العمل لا يصدر إلا من الكافرين ، كما قال : ﴿ إنَّ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعاً لستَ منهم في شيء ﴾ (٥٩:٦) وقال تعالى : ﴿ ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزل اللهُ فأولئك هم الكافرون ﴾ (٤٧:٥) ، قال ابن عباس في هذه الآية : « كفرٌ دُونَ كفرٍ » ولذلك قال بعده : ﴿ ومنْ لم يَحكمْ بما أنزَلَ اللهُ — فأولئك هم الظالمون ﴾ (٤٨:٥) ثم قال : ﴿ ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ — فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٥٠:٥) ، فهذا الكفر هو الظلم والفسق المذكوران بعده ،

وكما يطلق الكفر على ترك بعض أركان الاسلام ، فبالمقابلة قد يطلق الايمان على فعل بعض أركان الاسلام ، ونجد ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وما كان اللهُ ليُضيعَ إيمانكم ﴾ (١٤٣:٢) ، أي صلاتكم ، وقد عقد البخاري باباً عنوانه : « وكفر دون كفر » .

الكفر في عرف القرآن الكريم

فمن الشواهد السابقة وما اليها مما لم نذكره نعلم أن القرآن الكريم قد يطلق لفظ « الكفر » على غير المعنى الاصطلاحي للمتكلمين والفقهاء لأن القرآن هو

فوق هذه الاصطلاحات الجديدة ، وإن هذا النوع من « الكفر » مما يتهاون فيه المسلمون في هذه الأزمنة وفي أزمنة قبلها ، لظنهم ان كل كلمة « كافرين » في القرآن انما يراد بها الكافرون بالمعنى الخاص في اصطلاح المتكلمين والفقهاء ، وهذه الشواهد ونحوها تبطل ظنهم .

فالكفر في عرف القرآن الكريم ليس خاصاً بما يعده الفقهاء والمتكلمون كفراً ، فمن عرفه ان المتفرقين في الدين يعدون من الكفار ، وان اتحاد الكلمة والاعتصام بالوحدة ايمان ، والخروج عن ذلك كفر ، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الايمان اعتقاد وقول وعمل ، وللعمل شعب كثيرة أعظمها الاتحاد وعدم التفرقة والاختلاف ، كما أن الاعتقاد شعباً كثيرة من أعظمها الثقة بالله والرجاء في تفريج الكرب ، فاليأس إذن كفر ، هذا تحقيق المقام في معنى كلمة « الكافرون » هذا ولم أجد أحداً من المفسرين تكلم عليها ببنت شفة ، والله تعالى يهدي من يشاء الى سواء السبيل . (مرحى)

الفصل الرابع

سفرة اخوة يوسف الثالثة لمصر

آ (٨٨) ﴿ ... فلمّا دخلوا عليه ، قالوا : ياأُيها العزيزُ ، مَسَّنا وأهلَنا الضُّرُ ، وجِئْنا بِبِضَاعَةٍ مُزْجاةٍ ، فأَوْفِ لنا الكَيْلَ ، وتَصَدَّقْ علينا ، إنَّ اللهَ يَجْزي المُتَصَدِّقِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثمانون فقام شوكة افندي الجركسي وقال :

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، فآنسوا منه قوة عقيدة بحياة يوسف ، وسلامة

بنيامين من التسول ، وتصميمه على رجوعهم ثالثة لمصر ، للتنقيب عنها ، فواصلوا سيرهم حتى أتوا مصر ، وعرجوا على البلاط الذي فيه عزيز مصر الجديد ، (فلما دخلوا عليه) أي على العزيز (قالوا : ياأيهـــا العزيز) عزيز مصر المحترم (مسنا وأهلنا الضر) الجوع والهزال وسوء الحال (وجئنا) اليك مع الخجل (ببضاعة مزجاة) رديئة ، من متاع الأعراب ، صوف وسمن ، أو علك وإقط ، أو نحو ذلك (فأوف لنا الكيل) أي أعطنا شيئاً فوق حقنا بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا (وتصدق علينا) بالمسامحة والاغماض من رداءة البضاعة (ان الله) له المجد (يجزي المتصدقين) في الدنيا وكذا في الآخرة فيما نعتقـــد نحن وفيما تعتقدون أنتم ، إذ لا فرق في ذلك بين دين ابراهيم ودين المصريين والعمالقة .

(فلما دخلوا عليه قالوا ... الخ)

— ١ —

وتابع شوكة افندي الجركسي كلامه قائلاً : لقد بينت لكم أيها السادة مجمل تفسير الاية وهاأناذا أبين لكم مفصلها :

دخول ابناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة الثالثة وتذللهم له في طلب الميرة

ضاق أبناء يعقوب من بكاء أبيهم وتأسفاته ، واشفقوا على دمعه الصبيب فسمعوا لما طلبه منهم وقاموا ليفتشوا عن يوسف وبنيامين ، فتأهبوا للرحيل واعدوا معدات السفر وركبوا وفصلوا عن « سيلون » وحولوا عنان دوابهم شطر الديار المصرية، وهمزوها وأما أبوهم فكان يشيعهم بالنظر ، ولما بعدوا عنه صار يشيعهم بالقلب ، وأخذوا يطوون الأرض طياً ، في غمار المسافرين من التجار والممتارين ، حتى وصلوا « صوعن » حاضرة مملكة الهكسوس بمصر ، فنفضوا عن وجوههم وثيابهم غبار السفر ويمموا شطر بلاط العزيز ثم دخلوا على العزيز « يوسف » وهو لابس قميص

البوص الملكي ، وقالوا له بصوت مختنق : ياأيها العزيز في هــذه الديار المصرية الهكسوسية ، نحن مدينون لك سابقاً بمـا أوفيت لنا الكيل ، وكنت لنا خـير المنزلين ، ورددت لنا بضاعتنا في رحالنا ، فـكانك كلت لنـا الميرة مجاناً ، فنحن لايسعنا إلا شكرك والثناء عليك ، وان هـذه المعاملة الجميلة لتحملنا على التجاسر والطمع وعرض حالتنا المحزنة على مسامعك الشريفة ، يا أيها العزيز المحترم ، اجتزنا التخوم ، وتخطينا البلدان ، وطوينا الغـبراء ، لاغبين من الضرب في الأرض وجوب الصحراء ، يقودنا الأمل ويسوقنا الرجاء ، تارة نمشي في حمارّة القيظ وحيناً نسير في زُلـف من الليل ، ياأيها العزيز الكريم ، الرحمة الرحمة ، لقد مسنا وأهلنا الضر ، مسنا الأين والبين ومس أهلنا الجوع والهزال وسوء الحال ، فوقعوا في شبكة السغب ، وحاط بهم جيش الهزال من كل جانب ، مسنا وأهلنا الضر ، ــ كلة تترجح في بيان الواقع ، وبيان التذلل للمخاطب ــ وصَفِرت بيوتنا من الحَب ، فأملَقْنا وتَربْنا ، ولحقنا النَّصَب واللُّغُوب ، وجئنا اليك بعد التي والتيا ومع الخجل ، ببضاعة مزجاة ، رديئة يدفعها من تعطى له ، وقد صفرت أيدينا مما سواها ، وهي ليست من عقيلة المـال ، ولا حر المتاع ، وحبذا لو كانت عندنا دنانير صفراء ، لكنا قد مناها ، أو لو كان معنا دراهم بيضاء ، لكانت نفعتنا في هذه الأيام السود ، فارحمنا وتعطف علينا ، وأوف لنـا الكيل ، بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا ، كما هي عادتك الحميدة ، منذ القدْمة الأولى ، وتصدق علينا بغض النظر عن رداءة بضاعتنا ، وانها مدفوعة مردودة ،فان للصدقة مراتب. هذا منها ، وقد قيل :

عـدّيا في زمانـنا عن حـديث المكارم
من كفى الناس شره عُـدّ في جود حاتم

أو أنهم تمسكنوا له وطلبوا اليه أن يتصدق عليهم بأن يعطيهم ماتسمح به يده بلا مقابل منهم ، وهذا هو ظاهر اللفظ الذي نطقوا به .

فلما دخلوا عليه قالوا . . الخ

— ٣ —

ثم قام أبو الوفاء الكركوكي (١) وقال :

لي ههنا الملاحظات التالية :

مراحل الخطاب او « الاستدعاء »

١ً — تأنقوا في خطابهم ماشاءوا وشاء لهم انكسار قلوبهم ، فافتتحوه باحترام مخاطبهم ، وتلوه بشكاية الحال اليه ، فالاستجداء ، ثم ختموه بالترغيب فيه إن قلنا إن الجملة الأخيرة خبرية محضة ، أو ختموه بالدعاء إن قلنا إنها جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى ، فهذه الآية التي نطقوا بها ، هي من قبيل مايسمى اليوم « استدعاء » يصدر بترويسة تحتوي على اللقب الرسمي للمعروض اليه ، ثم على بث الشكوى ، ثم الطلب ، ثم الترغيب في فعل الخير أو الدعاء للمعروض اليه .

مقايسة بين العبرانيين والعرب في الهمة

٢ً — كلامهم هذا هو « عرض حال »شخصي ،أعني لأجل شخصية واحدة ، لا لأجل عموم أهل بلد مثلاً ، ولكن تحضرنا الآن حكاية ذكرها صاحب الأغاني وقعت من بعض العرب ، ننقلها ليعمل القارىء مقايسة بين همة هؤلاء الناس العبرانيين ، وبين همة ذلك العربي الصميم ،واليكم تلك الحادثة المدهشة :

دخل أعرابي على « هشام بن عبد الملك » فقال : « ياأمير المؤمنين ، أتت علينا

---

(١) نسبة الى بلدة كركوك في العراق .

ثلاثة أعوام ، فعام أداب الشحم ، وعام أكل اللحم ، وعام أنقى العظم ، وعندكم أموال ، فان تكن لله ، فبثوها في عباد الله ، وان تكن للناس ، فلم تحجب عنهم ؟ وإن تكن لكم فتصدقوا ، إن الله يجزي المتصدقين » — قال هشام : « هل من حاجة غير هذه ياأعرابي ؟ » — قال : ماضربت اليك أكباد الإبل ، أدّرِع الهجير ، وأخوض الدجى لخاص دون عام !!! » ، فأمر هشام بأموال فرقت في الناس ، وأمر للأعرابي بمال فرّقه في قومه ! . هـذا هو طلب الأعرابي ، ولكن هؤلاء الإخوة جاءوا يطلبون لأنفسهم دون أنفس سواهم ، وعلى الأقل ، ماسمعنا عنهم أنهم أوصوا بسواهم من أهل فلسطين وجارتها آرام ، فلم يتشفعوا لأحـد ماقط ، بل قصروا همتهم على أشخاصهم ، تأمل يارعاك الله المرمى الذي رمى اليه ذلك العربي الصميم ، والمرمى الذي رمى اليه هؤلاء الاخوة ؟ تأمل كم يوجد بين العرب واليهود فرق في الشمم ، وعلو الجناب وبعد الهمة ؟ وماذا بين العرب واليهود من البعد الشاسع في الشفاعات الذاتية الشخصية ، كما هي حالة اليهود ، والشفاعات العمومية ، كما هي حالة العرب ؟

ولا ريب ان هذه الشيمة في هؤلاء وهؤلاء موروثة لسلائلهم ، فعرب فلسطين اليوم إذا طلبوا أمراً ، طلبوه لعامتهم ، ولكن الصهيونيين إذا سعوا في تحصيل شيء ، فانما سعيهم لأنفسهم ، ولا فائدة منهم لسواهم .

البضاعة وطرق المبادلة بها

٣َ — تعليقاً على قولهم : « وجئنا ببضاعة » البضاعة لغة القطعة من المبيعات التي يتجر فيها ، كأنهم أرادوا أن يجروا مع « عزيز مصر » صورة مبادلة ، وصور المبادلة تختلف ، فبعضها يحصل على سبيل مبادلة الشيء بالشيء ، ويسمى المقايضة ، والمقايضة بالنقد هو النوع المتبع في البلاد المتمدينة كمصر ، ولذلك كانوا « شروه بثمن بخس دراهم معدودة » (ع ٢٠) ، والمقايضـــة عروض بعروض هو النوع

المتبع في البلاد غير المتمدينة ، كفلسطين في ذلك العصر ، لأنها كانت بدواً ، كما سيأتي ليوسف أن يقول : « وجاءَ بكم مِنَ البَدْوِ » (ع ١٠٠)، وقد كانت المبادلة والمقايضة شائعة منذ القديم ، من أول أيام خلقة البشر ، وان المزايا التي منحها الله للبلاد والممالك المختلفة ، وان المواهب التي اختص الله بها اناساً دون آخرين — جعلت المبادلة أمراً اضطرارياً ، فهذه أراضي السودان أكثرها خالية من الملح الذي هو أهم حاجات البشر ، ولذلك يضطر السودانيون لاستجلاب الملح من الممالك الكائنة خارج بلادهم ، يستبدلون به الحبوب والحيوان ، وان أصحاب المواشي كيعقوب وأولاده لا يشتغلون بالزراعة ولا بالبضاعة ، وانما يكون عندهم الجلود والنعال والإقط والجبجب والسمن والزبدة ، ونحو ذلك مما كان يسهل وجوده بطبيعة الحال عند أولاد يعقوب ،عليه السلام،فلذلك ،ولكونهم كانوا من أهل فلسطين المتبدية غير المتمدنية ، فنحن نرى على أغلب الفكر ان هذه « البضاعة » التي جاءوا بها هي من هـذا القبيل مما يسهل نقله من فلسطين لمصر ، وانما قالوا « مزجاة » لأنهم ربما كانوا قد جربوا عرضها على التجار عندهم في فلسطين فلم يقبلوها ، وربما أرادوا إنها مزجاة اليوم في مصر ،لرداءتها أو لكونها غير لازمة لأسواق مصر ، لأن العروض قد تكون مقبولة في بلد دون بلد ، وفي وقت دون وقت ، بخلاف النقود فانها مقبولة في كل مكان وزمان ، فما ذكرنا من حال فلسطين وحال أولاد يعقوب الذي كانوا عليه ، وبيان معنى البضاعة لغة ، يترجح عندكم ان تفسير هذه « البضاعة » بالنقود ضعيف جداً ، فافهموا .

٤ً — ربما كانت عبارة « فأوف لنا الكيل » راجعة لقولهم « مسنا واهلنا الضر » وعبارة « وتصدق علينا » مرتبطة بقولهم : « وجئنا ببضاعة مزجاة »، ففيه لف ونشر مرتب .

اخوة يوسف يثبتون له جزاء على صدقته

٥ً — قالوا : « وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » وهم في ظنهم إنما

يخاطبون رجلاً وثنياً من وثني العماليق المكسوس ، أو من وثني المصريين ، ومع ذلك فقد أثبتوا ليوسف ، جزاءً على صدقته ، وهذا منهم صحيح ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة ، : ﴿ فَمَنْ يَعملْ مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧) ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ ، فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً ، وإنْ كانَ مِثقالَ حبةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتينْا بها ، وكَفَى بنا حاسِبين ﴾ (٢١ : ٤٧) ﴿ نُصِيبُ بِرحمَتِنا مَنْ نشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المُحسِنِينَ ﴾ (ع ٥٦) ، وأما ما يوهم خلاف ذلك فمأول :

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى　　فوآدي ولكن للعتاب مواضع

جزاء المتصدقين في الدنيا والآخرة

٦ — تعليقاً أيضاً على قولهم « إنّ الله يجزي المتصدقين » أي يجزيهم في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ ويجزيهم في الدنيا بالصحة والعافية ورفع درجات الاحترام . والثناء عليهم من الناس .

كل الأمور تزول عنك وتنقضي　　إلا الثناء فانه لك باقي

قال عليّ بن الجهم :

هي النفس ما حملتها تتحمل　　وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة　　وأكمل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته　　وغنم إذا قدمته متعجل

وقال غيره :

قدم لنفسك زاداً　　وأنت مالك مالك
من قبل أن تتفانى　　ولون حالك حالك
ولست تعلم يوماً　　أيّ المسالك سالك
إمّا لجنة عدن　　أو في المهالك هالك

وقال آخر :

يا غافلاً عن حركات الفلك   نبهك الله فما أغفلك

لغيرك ما أنت ورثته   وما أنت أنفقته فهو لك

ذلة الاخوة مع الأجنبي « العزيز » وعظمتهم مع ابيهم واخيهم

٧ً — تعليقاً على قولهم : « مسنا واهلنا الضر » و « تصدق علينا » كلام يشف عن الذلة والمسكنة للأجنبي ، وأين هذا الصغار والتنازل مع الأجنبي من تلك الدبدبة والعظمة مع أبيهم وأخيهم ، حينما كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » ، « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » ، حتى أن أولادهم ساروا سيرة آبائهم ، وعلى العروق ينبت الشجر فقالوا : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » لعمري ان الذي حملهم على ما هو المذكور هنا من عبارات الاستكانة والخضوع إنما هو الاحتياج وحب المنفعة ، قيل إن « كُثَيّر عزّة » و « الكميت » كانا شيعيين ، غالين في التشيع ، وكانت مدائحهم في « بني أمية » أشرف وأجود منها في « بني هاشم » ، وما لذلك علة سوى الحاجة والانتفاع، وان هؤلاء الأشبال !!،اصول اليهود،قد ورّثوا هذه الطبيعة التي عاشوا عليها ـسلائلهم يهود اليوم لا سيما الصهيونيين منهم ، فتراهم عند الطلب من « الانكليز » أو غيرهم من الأجنبي عنهم ، في غاية الذلة والضراعة ، لكنك تراهم في معاملة أبناء عمهم ! « العرب » ! في نهاية الخشونة والبربرية !!... شنشنة أعرفها من أخزم .

خضوع البشر لحكم الغريب

٨ً— توسلوا اليه بصوت مازجه دل السؤال ومسكنة التشكي ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه انه أخوهم ، ولو كانوا يعرفونه انه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم

أن يخضعوا له هذا الخضوع وذلك لما في فطرة البشر من قلة الاحترام بين الاقرباء فالانسان اذا ترك لفطرته ، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه ، أو لأحد الغرباء فضل الخضوع للغريب ، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء — أسهل قياداً ، وأقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم اناس من أبناء جلدتهم ، وبهذه القاعدة يستدل على كثيرمن غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها، كأصل الفراعنة الأولين مثلاً ،فالمؤرخون مختلفون في هلهم مصريون أودخلاء؟ ونظراً لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجح أنهم غرباء فاتحون، للسبب الذي تقدم . (قالون)

عتاب وتذكير

آ(٨٩) . . . ﴿ قالَ : هلْ علمتم مافعَلتم بيُوسُفَ وأخيهِ إذْ أنتم جاهِلونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثانون فقام حيدر افندي المرعشي [١] وقال : ان التفسير المجمل لهذه الآية هو كما يلي :

تقدم أن اخوة يوسف وقفوا بين يدي يوسف « العزيز » وقالوا له ماقالوا في الآية الكريمة السابقة ، وأما هو ، فلما سمع تذللهم وضراعتهم ، (قال) لهم ،بلهجة المذكر المعاتب : (هل علمتم) أي هل تتذكرون وتعرفون قبح (ما) كنتم (فعلتم) منذ ثلاث وعشرين سنة (بيوسف وأخيه) ابن أمه وأبيه بنيامين ، (إذ أنتم جاهلون) من أهل الجهالة والسفه ، أو جاهلون سوء مغبة عملكم .

(١) نسبة الى مرعش احدى المدن التركية .

قال هل علمتم . . الخ

— ١ —

ثم تابع حيدر افندي المرعشي كلامه قائلاً: واما تفسير الاية المفصل فهو :

عتاب يوسف لاخوته وتذكيرهم بالتوبة

رأى يوسف أن اخوته قد اشتكوا اليه شكاة تنم عن رقة الحال ، وشظف العيش ، ولحوق المخمصة ، رآهم قد ودعوا جميع أقوال الشدة ، وأعمال النزق وخواطر ثورة الشباب ، وأنه قد استحالت نفوسهم الصلبة الى نفوس أخرى غيرها ، لاصلة لها بها ، نفوس مطمئنة وديعة رقيقة ، رآهم قد غلبت فيهم نزعة الخير على نزعة الشر ، سمع منهم كلة ملؤها الوداعة والذل ، فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفسه ، وحزن لاجلهم ، وتأثر من بؤسهم ، واعتزم على اظهار نفسه لهم ، حتى يضمهم وأهليهم بمعيته ، ليعيشوا عيشة الرغد والسعة ، سمع يوسف تذللهم ، فأطرق بنفسه هنيهة ثم قال لهم : أيها الذّالون (١) المُستَمْدُون (٢) ، يا أبناء « ليئة » و « بلهة » و « زلفة » أتذكرون ماحفظه التاريخ بين طياته ؟ فما أعظم مارتكبتم في يوسف وأخيه ؟ وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ فهل تدرون ذلك وتعرفونه وتتذكرونه وأنتم في حالة التمرين على أعمال الجهالة (٣) ؟ إذ جهلتم عليها بل وعلى أبيكم ، بل وعلى الاخلاق الفاضلة والطريقة المثلى ، بل وعلى أنفسكم لان من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

أنا الان لا أريد استعراض تلك الحوادث الممضة ، التي أدمت القلوب وفحمت المنكوبين ، أنا الآن لا أريد أن أحاسبكم حساب الملائكة للميت في قبره ، ولكني أعتب على الاخوة ، أعتب على ذوي الرحم أن يفعلوا مايدنس سمعتهم .

---

(١) ذل : خضع (٢) استعداه استغاثه (٣) اي السفه .

هل علمتم أنكم كدتم لهما ردحاً من الزمن ؟ هل علمتم أنكم شر أحصدتم لهما ؟ لا إخالكم إلا تعلمون ذلك وتذكرونه ، ولا أظن أنكم تجهلونه ولا أنه عزب عن أفكاركم ، راجعوا تاريخكم العتيق تجدونه قد طوى بين صفحاته الكثير المدهش من أعمال القساوة راجعوا أعمال ماقبل ٢٣ سنة تقفوا على تفاصيل ما اشير اليه .

هـــل تذكرون انكم شردتم يوسف عن أبيه وأخيه ومواطنيه ، وانكم قدناوأتموه ، ولم تهادنوه ، ولم تؤاتوه ، ولم تهدأوا عن الكيد لـه ، والقيتموه في دامس الجب ، وأما أخوه بنيامين ، فقد أحزنتم قلبه ، أفقدتموه شقيقه ، أعدمتموه لذة الحياة ، حتى صار شريكه في هذا المصاب ، بل وشريك أبيه في أحزانه ، فتجرع من الحزن كأسين كأس حزنه على شقيقه وكأس حزنه على أبيه يعقوب.

إنكم بعملكم ذلك أصبح يوسف بتشريدكم إياه عبداً مملوكاً يباع في سوق الرقيق ، ثم خادماً في بيوت الأمراء ، ثم ملوثاً بالجريمـــة زوراً ، ثم سجيناً مع الأئمـة !! ..

وأما بنيامين فأصبح بفضل اجراءاتكم غريباً منفرداً ، لايجد بين القـلوب الخافقه حوله قلباً يحزن لحزنه ، ولا بين العيون الناظرة اليه — عيناً تبكي لبكائه ، وانه ليخيل اليّ انكم كنتم تهينونه ، لأنكم ترون فيه ذنب الأفعى .

سبحان الله ، شرارة واحـدة حرقت الأخضر واليابس ، فعلتم ما فعلتم ، وكانه لاشيء في أعينكم ، :﴿ وَتَحسَبونَهُ هيناً وهو عندَ اللهِ عظيم﴾(١٥:٢٤) أنا لاأريد بكلامي هذا أن أقوم بتنظيم خطط الهجوم ، ولاأكلفكم في مقابلة ذلك نصب آلات الدفاع ، ولاأريد أن أصفي حسابي معكم ، لا..لا..لا.. ولكنها زفرة نفس ، وحسرة قلب ، ونفثة مصدور ، أعالج بهـا بعض كلوم الفؤاد ، وذكرى وكلمة مختصرة للسامع ، عساه أن يفيق بعدها من جهالته .

قال هـل علمتم .. الخ

— ٢

وقام الشيـخ الكواكبي [١] وقال:

يوسف يشفق على اخوته ويتنصح لهم

سمع يوسف كلامهم المتواضـــع ، ونظر في سحنهم ، فرأى في لحن كلامهم وملامحهم مايدل على ذلهم وخضوعهم ، وأنهم قد ذهبت منهم الجرأة ؟ وانفثأت تلك الحمية الاولى ، فشعر للحال برحمة في قلبه ، وعطف جديد نحو اخوته ، فـــلم يتمالك عن إظهار نفسه لهم ، ومما استدعى حنانه عليهم بنوع خاص قولهم : « مسنا وأهلنا الضر » ، إذ تصور أن والده من أهلهم ، وكذا قولهم « وتصدق علينا » فانه لما سمعه حرّف أسنانه ، فاذا دمعة رقراقة تترجح في عينيه ، وقد خامره حنو وانعطاف نحوهم ، ففضل أن ينفض لهم جملة حالـه ، ويعرفهم بنفسه ، فأتاهم من جهة الدين ، وكان حليماً موفقاً ، وقال لهم هل أتى حينٌ علمتم فيه قبح ما كنتم فعلتم بيوسف وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ؟ أنا أتأكد إنكم كنتم لاتعلمون قبحه تمام العلم ، ولاماذا سينجم عنـه من المفاسد ، فلذلك كنتم منذ ٢٣ سنة أقدمتم عليه ، ولكن اليوم هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه ؟ أرجو من الله أن تكونوا كذلك ، فاني على استعداد لمد يد المصافحة والمحبة ونسيان الماضي المؤلم

العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجر الى التوبة

استفهم يوسف عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، لأن علم القبح يدعو الى الاستقباح ، والاستقباح يجر الى التوبـــة ، فهذا من قبيل

---

(١) نسبة الى آل الكواكبي في مدينة حلب (سورية)

سياسة « جس النبض » عن توبتهم ، لعله يجدهم قد تابوا ، فيجد منفذاً للعيشة معهم بسلام ، فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصحاً لهم في الدين ، لا معاتبة وتثريباً ، إيثاراً لحق الله على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي ينفث فيه المصدور ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك فيه الموتور ثأره ، وينفس فيه المكروب عن كربه ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها [١] ؟ ولله حصا[٢] عقولهم ما أرزنها وأرجحها ؟

(قال هل علمتم ..)

— ٣ —

وقام الشيخ عبد الحميد الدوماني [١] وقال :

لي على هذه الآية الكريمة المواد التالية :

درجات المعاتبة وموقع كلام يوسف منها

المادة ١ — قيل إن كلام يوسف مع اخوته كان من قبيل المعاتبة التي هي أقل من « التثريب » بدرجات ؛ فهي المعاتبة ، ثم اللوم ، ثم التقريع ، ثم التوبيخ ، ثم التأنيب ، ثم التثريب ،

قال بعض العلماء : المعاتبة احتكاك بين القلوب ، تزيدها حرارة وتجاذباً ، والعتاب فاتحة حديث المحبين ، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد ، واكثر الناس لؤماً ، أقلهم لوماً ، قال الناظم :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

صَدَقَ الخَبَرُ الخُبْرَ

المادة ٢ — هذا القول الذي صدر من يوسف لاخوته هو مصداق قوله تعالى:

(١) سجح الخد كفرح : سهل . (٢) الحصا العقول والحصاة العقل . (٣) نسبة الى دوما من ضواحي دمشق (سورية)

﴿ وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ (ع ١٥) .

أدب الاخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم حقده عليهم

المادة ٣ — كان يوسف سمع كلام اخوته ، فرأى عليه صبغة الأدب والخنوع، فرق لهم وابتدأ يكشف لهم عن حاله ، ويبين شخصه من هو . . توصلاً لمنفعتهم وجلبهم وأهليهم عنده ، ولم يكن ليحقد عليهم لما فعلوه معه من قبل .

وقد جُرِّب وروى لنا التاريخ أن أدب الطالب ، قد يحمل الانسان على الجود ومكارم الأخلاق ، كما قيل انه وفد رجل من بني ضبة ، على عبد الملك بن مروان ، فقال :

والله ما ندري إذا ما فاتنا   طلبٌ اليك — من الذي نتطلب ؟
فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد   أحداً سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التي عودتنا   أو ،لا، فأرشدنا الى من نذهب ؟

فقال عبد الملك : « اليّ اليّ » وأمر له بألف دينار .

ويحكى انه جيء الى « الرشيد » « بعبد الملك بن صالح » في قيوده ، فقال له «يحيى بن خالد» البرمكي وأراد أن يبكته : « إنك حقود » — فقال : « إنما صدري خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شر » — فقال الرشيد : « والله ما رأيت أحداً احتج بمثل ما احتج به عبد الملك » ،

قال بعض العلماء : إن عبد الملك بهذا الاحتجاج فتح الباب « لابن الرومي » حيث قال :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى   وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة   فثم ترى شكراً على حَسَن العَوْض

هذا ولكن الطريقة المحمدية تعلمنا تناسي الحقد وأسبابه بتة ، ولذلك لم يرد أن النبي ﷺ عاتب أحداً بما سبق ان صنعه معه ، فكان يعفو ويغفر من الابتداء ، وقد ورد انه قال يوم فتح مكة : « ما ترون أني فاعل بكم ؟ » - قالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » - فقال : (أقول كما قال أخي يوسف) : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، « اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء » .

اسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام

المادة ٤ - قال « بيوسف وأخيه » ولم يذكر أباه ، مع إن المصيبة كانت وقعت على رؤوس الثلاثة ، بل ربما يظن الظان ان حصة أبيه من هذه المصيبة هي أكثر من حصتيهما ، وجوابنا عن ذلك من وجوه :

أ - ان يوسف يعلم أن أباه مزوّد بالبشائر الالهية في شأن ابنه الحبيب ، وانه على مثل اليقين من حياة ابنه ، وانه سيجتمع به ، وانه سيقع كل مابُشِر به ولده في المنام ، وكل ماأوحي به اليه في شأن ولده ، فيعقوب في الواقع مطمئن الخاطر من هذا القبيل ، بخلاف بنيامين الذي كان لا يعلم من مستقبل أخيه يوسف شيئاً ، فلا ريب أن كربه يكون شديداً .

ب - ان يوسف يعلم أن أباه نبي من أنبياء الله ، ورسول من الرسل الكرام والأنبياء والرسل أهل صبر وتحمل : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبَرَ أولو العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ ﴾ (٤٦:٣٥) فلا تؤثر عليهم النوازل تأثيراً كثيراً ، ولذلك نرى ان سيدنا يعقوب حينما أخبر بأن ذئباً افترس ولده يوسف قال : « فصبر جميل » ، ثم لما أنبىء بأن ابنه بنيامين سرق ، قال أيضاً : « فصبر جميل » ، وأما مانزل عليه من الحزن الذي نتج عنه ابيضاض عينيه ، فهو أمر وجداني يطرأ على الانسان بغير اختياره ، كما يطرأ عليه الجوع والعطش والسرور - الى غير ذلك من الوجدانيات .

ج ـــ ان الانسان مهما عمر في هذه الدنيا ، فانما عمره اللذيذ هو أيام شبابه وكهولته ، أعني العقود الثلاث ، التي هي الثاني والثالث والرابع ، أي من العام الحادي عشر ، الى عام الأربعين ، فهذه الأعوام هي ربيع العمر ، الحاوية لمبتدأ الشبيبة ونهايتها ، حين تكون القوتان البدنية والنفسية قد ابتدأتا ، ثم كملتا ، حين تكون الصدور مشروحة ، والقلوب مفتوحة ، لمسرات الحياة ، وملذات العيش ، فهذه المدة هي زهرة عمر الانسان وتاج حياته ، واكليل وجوده ، فيها تكون الروح فرحة مغتبطة ، والنفس صافية مسرورة ، وأما ماقبل ذلك ، وهو العقد الأول ، فهو حلم من الأحلام ، كما ان مابعد الأربعين ، وهو العقد الخامس فما بعده ، فهو عيشة الوقار والتقيد ، فتلك العقود الثلاث هي « الثروة » التي إن ذهبت لن تعود ، وهي أيام « الصفا » التي بتكديرها يضيع العمر كله ، فالمقصود بالذات من العمر ـــ بالنسبة للملذات الدنيوية ـــ هو هذه العقود الثلاثة ، وأما ماقبلها من العقد الأول ، فهو كالتقدمة لها ، كما ان مابعدها من العقود هو كالتتمات والخواتيم ، وما أصدق قول من قال : العقد الأول من العمر هو حلم محض ، لا هو للدنيا ولا هو للآخرة...

إذا كنت قد فهمت ماقلناه حق فهمه ، وكنت قد علمت أن « يوسف » قد آسفه اخوته وأحزنوه في أيام شرخ شبابه ، وعنفوان قدرته ، ومبدأ زهرة عمره إذ فرقوا بينه وبين شقيقه وأبيه ووطنه ، من حين أن كان عمره ١٧ سنة ، الى أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، وان « بنيامين » قد آسفه اخوته وأحزنوه ، في مثل تلك الأيام الزاهرة ، أيام الملذات والمسرات ، إذ فرقوا بينه وبين شقيقه من حين أن كان عمره نحو ٧ سنين ، الى أن بلغ من العمر نحو ٣٠ سنة .

إذا احطت علماً بمجموع ذلك كله ، تعلم علة كون يوسف جعل مافعله به اخوته مصيبة نازلة عليه وعلى أخيه ، دون أبيهما فهذه المصيبة نزلت بيوسف وأخيه

في أيام الشباب ، ومقتبل العمر ، أيام الملذات والمسرات والأفراح ، التي إذذهبت لايمكن أن تعوض ، فهما بدلاً من أن يجدا في زهرة عمرهما الفرَح والغبطة واللذة ، فقد وجدا الحزن والألم والمصائب ؛

وأما أبوهما سيدنا يعقوب عليه السلام ، فهو إنما أصيب بفراق يوسف حينما كان عمره ١١٠ سنوات ، فمصيبته بابنه وان تكن في ذاتها عظيمة ، لكنها صادفت أيام شيخوخته وكبره ، بعدما كان أخذ سهمه من الغبطة أيام شبابه ، فكم وكم مضت له إبان شبابه أيام صفاء وسرور ، وليالي أنس وحبور ، حينما كان في حضن أبيه « اسحاق » وأمه « رفقة » بفلسطين ، الى أن صار له من العمر نحو ٥٢ سنة، ثم بعدما هاجر الى « العراق » عند خاله « لابان » مكث هناك عشرين سنة ، قضاها مسروراً بزوجتيه « ليئة » و« راحيل »، وسُريتيه « بلهة »و « زلفة » ، ثم كان أولاده الأحد عشر وبناته حواليه ، لايكدر صفاء عيشه شيء؛

فهل حصل ليوسف وبنيامين ، أيام شبابهما من الصفاء والغبطة عشر معشار ماحصل لأبيهما أيام شبابه وكهولته ؟.. كلا.. بل بالعكس قضى يوسف أيام شبابه في غيابة الجب ، الى كونه سلعة تباع وتشترى ، الى سوق الرقيق بمصر ، الى العبودية والخدمة ، الى تلك الفتنة المدهشة ، الى أعماق السجون المظلمة ،.. وكل هذه الكوارث كانت موزعة على بساط مدة ، هي من سن ١٧ حتى ٣١ ، وتلك هي زهرة الشبيبة ، ولب العمر ، وكذا قضى بنيامين لب شبيبته من وقت أن كان عمره سبع سنين ، الى أن صار ابن ٣٠ ، وهو في أشد الألم والذل ، بفقدان أخيه ، فقداناً لم يكن فيه مُعَزٍ ولامخفف ، بخلاف أبيه يعقوب ، فكان له مما أوحاه الله ليوسف في المنام ، وله في اليقظة — بشأن ولده — أعظم تعزية وأكبر سلوان .

د — كان بنيامين ويوسف من أم واحدة ، هي « راحيل » ، وقد ماتت ،

ويوسف ابن عشر سنين ، وبنيامين ابن سبعة أيام ، فنقلا من خيمة أمها لخيمة جاريتها « بلهة » ، فكانا يأنس كلاهما بالآخر ، فلما غيب عنه يوسف ، استوحش وحده في خيمة الجارية ، لاسيا وأن ولديها ، « دان » و« نفتالى » قد كانا اشتركا مع سائر الاخوة في المؤامرة على يوسف ، فلا ندحة انه كان حصل وحشة بين بنيامين من جهة وبين بلهة مع ولديها من جهة اخرى ، وفي ذلك من ألم النفس مالا يخفى ، هذا ماحصل لبنيامين ، وظاهر انه لم يحصل لسيدنا يعقوب شيء من هذا القبيل .

هـ ــ سعادة الانسان في هذه الحياة الدنيا تقوم بوجوده مع أمه وأبيه وشقيقه وقد كان لبنيامين سعادة وحياة كاملة ، لو عاشت له أمه بعد ولادته ، ولكنها ــ واأسفاه ــ ماتت نفساء قبل أن يشعر بها ، فمات بموتها ثلث سعادته وهنائه ، ثم ماعتّم أن أفقدوه أخاه وهو طفل ابن سبع سنين فلم يبق له من السعادة والهناء إلا الثلث ، ولم تكن صحيفة هذا الثلث بيضاء نقية ، بل كانت تعتورها غبرة الهم والذل ، بمبيته في خيمة الجارية بلهة ، بين ولديها ، اللذين كان لهما ضلع في المؤامرة على يوسف .

فبدلاً من أنه كان يجب أن ينشد أنشودة السعادة والهناء ، أصبح ــ وهو طفل وديع ــ ينشد أنشودة الحزن والهم ، حزنه وهمه على إفقادهم أياه أخاه يوسف ، الذي كان يعده كل دنياه ، ويعتبره تعزيته الكبرى بعد أمه ، ويحسبه ذراعه اليمنى ، فهم كسروا ذراعه ، وأعدموه تعزيته ، وخسّروه كل دنياه ، في ساعة واحدة .

وغني عن البيان ان هذا المعنى لم يحصل لسيدنا يعقوب عليه السلام .

توجيه السؤال من يوسف لاخوته كان بمثابة دعوتهم للاعتراف والتوبة

المادة ٥ ــ يشبه أن يكون السؤال الذي سأله يوسف في الآية هو من قبيل

السؤال في قوله تعالى: ﴿ ياعيسى بنَ مريمَ ، أأنتَ قلتَ للناس : اتخذُوني وأمي إلهَيْنِ مِنْ دونِ اللهِ؟﴾ (٥:١١٩) ، فتوجيه الله السؤال الى عيسى ليس معناه أنه لا يعلم بالجواب ، ولكن ليعترف عيسى بأنه مربوب ، وأنه من جملة عبيد الله الذين يعبدونه ، ليكون ذلك منه هو نفسه أصرح رد على الذين ظلموه وأعطوه فوق مرتبته ، وهكذا يوسف وجه سؤاله لاخوته ليعترفوا ويتوبوا ،وقد كان فقد اعترفوا بالخطأ إذ قالوا : « وإن كنا لخاطئين » ، ومن أقر بذنبه غفر الله له ، فكأن ماصدر من يوسف عتاب على جهة الموعظة ، كاقال العتابي من قصيدة:

وجعلتُ عتبكَ عتب موعظةٍ ورجاء عفوك منتهى أملي

تضمين يوسف عتابه لاخوته الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم

المادة ٦ — كأن أخاهم ضمّن العتاب الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم لطفاً منه وأدباً ، كما قال بعض حكماء الشعراء :

إذا شئت أن تدعى كريماً مهذباً سنياً سرياً ماجداً فطناً حراً

إذا مابدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ، ثم تابَ مِنْ بعدِهِ وأصلَحَ ، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٦ ٥٤) ، وقال تعالى ﴿ إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ، ثم يتوبونَ مِنْ قريبٍ ، فأولئكَ يتوبُ اللهُ عليهم ، وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾ (٤:١٦).

سلوك يوسف مسلكاً وسطاً في أعماله وأقواله

المادة ٧ — نقرأ في هذه السورة الشريفة ، فنجد يوسف عليه السلام قد

سلك في أعماله وأقواله مسلكاً وسطاً ، سلك ذلك مع اخوته ومع سواهم ، وخير الأمور الوسط ، وهذا يظهر لنا في مواضع عدة منها:

١ً — انه لما راودته زليخا لم يخضع لها ، ولم يغلظ لها القول ، بل أجابها بالمعقول والأدب ، متمنعاً عن مؤاتاتها (ع ٢٣) .

٢ً — انها همت به ضرباً أو قتلاً ، وهو بالمقابلة هم بها كذلك ضرباً أو قتلاً ولكنه رأى برهان الله القائم عليه وعلى سائر المكلفين ،« ادفع بالتي هي أحسن » فرجع لحالة التوسط ولجأ الى الفرار من بين يديها ، وبذلك صدق عليه انه سلك مسلكاً وسطاً ، لاهو واتاها ، ولاهو تعدى عليها (ع ٢٤و٢٥).

٣ً — لما بهتته واختانته صريحاً لم يسكت ولم يرد عليها رداً عنيفاً ، بل اقتصر على أقل عبارة يدافع بها عن شرفه ، وتؤدي مطلوبه (ع٢٥و٢٦).

٤ً — لما رغبت اليه زليخا أن يخرج على النسوة المصريات أضيافها ، لم يمتنع ، ولكنه لم يوافقهن على رغبتهن منه ، بل سلك في ذلك مسلكاً وسطاً(ع٣١—٣٣).

٥ً — لما استفتاه الفتيان اللذان سجنا معه ، لم يطلب منهما اجرة على الفتوى ، ولم يرد أن يفتيهما مجاناً ، بلا مقابل معنوي ، بل توسط واستقضى منهما أجرة أدبية ، وهي اصغاؤهما لإرشاده الديني وتبشيره بالتوحيد(ع٣٦—٤٠).

٦ً — لما أراد « الساقي » أن يخرج من سجنه ، لم يهمل يوسف تعاطي الأسباب بتة ، ولم يتهافت على ذلك « الساقي » بالرجاء والاسترحام ، بل سلك معه مسلكاً وسطاً ، مقتصراً على أقل عبارة تؤدي المقصود وتكفل له الشرف(ع٤٢).

٧ً — لما رجع « الساقي » ليوسف في سجنه ، ليستفتيه في حلمي الملك ، فمن جهة لم يعاتبه على نسيانه وصيته سابقاً ، ومن جهة أخرى لم يصد عنه ويتجاهل ، كما صنع « الملأ » مع الملك ، بل سلك مسلكاً وسطاً باقتصاره على اعطاء الجواب ، بدون رجائه ثانية (ع٤٦—٤٩).

٨ً ـــ لما جاءه « الساقي » في سجنه ثانياً ليخرج منه بأمر الملك ، لم يرد أن يسكت بتة عن زليخا التي بهتته وظلمته ، ولم يرد أن يصرح باسمها ، ولكنه أشار اليها بسؤال النسوة اللاتي قطعن أيديهن(ع٥٠).

٩ً ـــ لما جاءه اخوته لأول سفرة ، لم يطردهم ، ولم يكرمهم اكراماً هائلاً، من قبيل مانسمع بأمثلته مما وقع على يد جماعة كثيرين من الأجواد « كحاتم » الطائي ، و« عبد الله بن جدعان »و« معن بن زائدة » و« آل برمك » في عهد الرشيد ، وغيرهم ممن كانوا يجودون بإسراف لايوافق روح الشريعة ، بل توسط معهم ، فقبلهم وكال لهم كيلاً وافياً ، وأنزلهم منزلاً كريماً ، ولم يأخذ منهم ثمن الحب الذي كال لهم ، ولا أعطاهم هدية أو نحوها (ع٥٩ـــ٦٢).

١٠ً ـــ لما بهته اخوته بالسرقة ، لم يسكت ولم يصدع بالرد ، بل توسط ، وزفر سراً زفرة المصدور ، قائلاً في نفسه : ﴿ أنتم شَرٌ مكاناً ﴾ ، حتى يرتاح نوعاً من ألم ماسمع(ع ٧٧).

١١ً ـــ لما طلب اخوته اليه أن يستبدل « بنيامين » بأحدهم ، فمع انه لم يقبل منهم نراه لم يؤنبهم بأن هذا خلاف فتواكم السابقة ، وكيف تخالفون شريعة الله ؟ وكيف تقولون مالا تفعلون ؟ وعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر :

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

فهو لم يأت شيئاً من ذلك ، بل اعتدل وردهم رداً لطيفاً (ع٧٨و٧٩).

١٢ً ـــ لما جاءوا اليه في السفرة الثالثة وشكوا اليه حالهم ، وأراد أن يظهر لهم نفسه ، لم يوبخهم ويحقرهم ، ولم يترك عتابهم ، بل توسط وعاتبهم عتاباً لطيفاً (ع ٨٩).

١٣ً ـــ لما سألوه : أأنك لأنت يوسف ، أجابهم بجواب معتدل ، فلم يتقرب اليهم بأن يقول :« أنا أخوكم يوسف » ولم يتجافهم بأن يقول :« أنا المحسود ، أنا

المشرد المطرود ، أنا موضوع المؤامرة الشريرة ، أنا الملقى في البئر بـلا هوادة » ، بل اعتدل وقال : « أنا يوسف ، وهذا أخي » (ع٩٠).

١٤ً - اعتدل في ذيل جوابه لهم فلم يقل : « أنا أهل التقوى وأهل الصبر والاحسان ، وأنتم أهل العداء والحرب والانتقام » بل إنما قال : « إنـه من يتق ويصبر ، فان الله لا يُضيع أجر المحسنين » (ع٩٠).

١٥ً — تسمعه يقول : « لاتثريب عليكم اليوم » ، « أي أنا اليوم لااريد ان اثربكم ، وانتم ماثلون بين يديّ ؛ مثول المماليك ، بـين يدي الملك ، والأذلاء ، أمام العزيز » ففي هذا القول ، مع قوله « يغفر الله لـكم » توسط واعتدال بـــين التعنيف والتكريم .

عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف

المادة ٨ — هم لم يعملوا بأخيه بنيامين عملاً مباشراً ، إلا انـــه نظراً لقوة الاتحاد بين هـــذين الأخوين الشقيقين — كانت فعلتهم بيوسف كسراً لذراع بنيامين ، فالجناية على يوسف ، هي جناية على بنيامين بصورة خاصة ، كما ان جناية الانسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم بصورة عامـة ، قال تعالى : ﴿ مَنْ قتلَ نفْساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناس جميعاً ﴾(٥:٣٥).

معنى الجهل والجاهلين

المادة ٩ — للجهل معنيان ، أحدهما ، انهم فاعلون فعل الجهالة المرادف للسفه ، وهو ضد « الحلم » لأن من عمل مايؤدي الى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلـك أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لامن اهل الحكمة ، والجهل بهذا المعنى يذم بـه الانسان مطلقاً.

وثانيهما انهم جاهلون ، اي غير عالمين ، بما يتعلق بعملهم من المكروه والمضرة ،

فتارة يذم به الانسان ، اذا جهل مايجب عليه او ما ينبغي له ويعد كمالاً في حقه ، وتارة لايذم به اذاجهل مالم يقدر على فهمه الا بالوحي مثلاً .

وقد قال : « إذ انتم جاهلون » لأنه لا يقدم على طلب مايضر بالناس ومايسوءهم إلا اهـــل الجهالة والسفه ، سيئو النظر في العواقب من امور الدنيا والآخرة ، قليلو العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة ، وبما يلزمهم من تبعة مااجترحوا من العداء والجفاء ، قال ابو العلاء المعري .

والجهـل داء قـد تقادم عهده		في العالـين ولايزال عضالا

لولا الجهـــالة لم يكونوا كلهم		إلا خــــلائق اخوة امثـالا

والعلم لايتم الا بالعمل ، وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع بــــه ، فان لم يستعمل مايعلم فليس يسمى عالماً ، ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به ، سمي جاهلاً والله تعالى اعلم .		(لا يفضض الله فاك)

اظهار يوسف نفسه لاخوته

آ (٩٠) ﴿ — قالوا : أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ — قالَ : أنا يُوسُفُ ، وهذا أخي ، قَدْ مَنَّ اللهُ علينا ، إِنَّه مَن يَتَّقِ ويَصْبِر فإنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنين ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية التسعون فقام الشيخ سعدالدين اليبرودي(١) وقال :

سمع اخوة يوسف كلام أخيهم يوسف ، فانعموا فكرهم في مغزى سوآله ،

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية)

ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته ، وتأملوا في عينيه — والعينان أظهر ملامح الوجه ، وأدل على صاحبهامن سائر الاعضاء — فانتقلوا من دور « الانكار » أي انكارهم له وعدم معرفتهم به ، الى دور « الشك » أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو ياترى يوسف أم لا ؟ ف (قالوا) وهم مضطربو الحواس (أئنك لانت يوسف ؟) — بن يعقوب — (قال) بصوت برن رنين النحاس ، ما أبعدتم في التفرس ، ولا تجاوزتم الواقع ، لا أخفى عليكم أني (أنا يوسف) بن « يعقوب » من زوجه « راحيل » بنت « الابان » ، (و) لاأريدكم علماً بان (هذا) الشخص الذي ترونه بجانبي ، هو (أخي) بنيامين ، الذي هو وأنا ، من دم واحد ، وبطن واحد ، (قد مَنّ الله علينا) بما نحب وكما نحب ، بالخلاص مما أبتلينا به،بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعز بعد الذل ، وبالأنس بعد الوحشة (انه من يتق) يخف الله وعقابه (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات ، يجن ثمار تقواه وصبره ، (فانالله) من فضله وعدله (لايضيع أجر المحسنين) وما ترونه هو ثمرة التقوى ، ونتيجة الصبر : وعاقبة الاحسان ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية .

قالوا : أئنك لانت يوسف . . الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الغني الجيرودي [١] وقال :

استعراف يوسف لاخوته بنفسه وباخيه وتعريضه بهم

فكروا فيما سمعوا ، ثم فكروا ، ثم قالوا بصوت يرتجف ويتقطع ، ولسان يتلعثم : أئنك لانت يوسف ؟ ! ! ! — قال بلسان فصيح ملؤه البلاغة والبيان : قد رأيتموه وسمع كلامكم ، وبعبارة صريحة : يسرني أن أقدم نفسي اليكم ، أنا

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية)

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا الشخص الكريم الذي ترونه كنفي وجواري ، هو أخي بكل معنى الكلمة :

أخي — الذي قام بواجبات الاخوة ، منذ دب الى أن شب .

أخي — الذي لم يقطع صلة الاخوة بيني وبينه ، ولن يقطعها الى آخر نسمة من حياته .

أخي — الذي يمتّ اليّ بالاخوة الصادقة المخلصة التي لم تشب بشيء من كدر الحياة .

أخي — الذي كان — على البعد — شاطرني في حزني وضيقتي فهو اليوم — على القرب — يجني ثمار ذلك ، ويشاركني في صفائي وبسطتي :

أولى البرية طراً أن تراعيه عند السرور الذي راعاك في الحزن
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولا ريب أن الله سبحانه قد منّ ويمن وسيمن علينا بلم الشمل ، وبهذا الرقي العظيم ، فان هذا المعنى أمر مشترك بيني وبينه ، كما أن من الأمور المقررة أن من يتق ظلم اخوته وأقاربه ، ويتق التعدي على الأعراض ، ويتق كل مايضر الإنسان في نفسه وفي جنسه القريب والبعيد ، ويتق جميع الذنوب والمعاصي ، وانمن يصبر على أذى الناس ، ويصبر على غيابة الجب ، ويصبر على الخدمة بأمانه ، ويصبر عن الفحشاء والمنكر ، ويصبر على أعماق السجون ظلماً ، ويصبر على كل مرّ وضرّ ، فلا ريب أنه لايخشى دركاً ، ولو قامت عليه الأرض ، بالطول والعرض ، ومتى كان الله مع العبد ، نجا من كل سوء ، وترك الناس تضرب في حديد بارد ، ذلك ان الله لايضيع أجر المحسنين ، وهذا العبد الضعيف منهم ولافخر ، فمن زرع التقوى والصبر ، حصد الأجر كما أن — بالمقابلة — من زرع الريح ، حصد الزوابع .

وأما اخوته ، فانهم لما سمعوا هذا الجواب ، دخل بعضهم في بعض ، وسُقط

في أيديهم ، واضطربت فرائصهم ، ورَهَبت نفوسهم ،وغشيهم من الفَرَق ماغشيهم ، وعلا وجوههم الاصفرار ، وصاروا بحالة أحبوا معها الموت ، لا سيما وقد فهموا ان في قوله « إن من يتق ويصبر ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ، تعريضاً بهم انهم ليسوا من هذا النوع .

التعريض في الكلام

والتعريض هو الاشارة الى معنى ، لم توضع له الجملة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، كقوله ﷺ في مزاحه مع احدى عماته : « إن الجنة لا تدخلها عجوز » ، فلما جزعت ، قال لها : « إن الله تعالى يخلقهن يوم القيامة ، شوابّ أبكاراً » ، وقال لامرأة : « ما فعل زوجك الذي في عينيه بياض ؟ » ،

ومن ذلك ان بعض العرب أدخِل على « الواثق » ، وكان الواثق يقول بخلق القرآن ، ويعاقب من خالفه ، فقال له : « ما تقول في القرآن ؟» ، فتصامم عليه ، فأعاد السؤال ، فقال : « من تعني يا أمير المؤمنين ؟ » ـ قال :« إياك أعني » ـ فقال: « مخلوق » ، يعني نفسه ، وتخلص منه بذلك . وقال لآخر : « ما تقول فى القرآن؟» فاخرج يده وجعل يعد أصابعه ويقول : « التوراة والزبور والانجيل والقرآن ، هذه الأربعة مخلوقة . » وعني بذلك أصابعه ، وتخلص منه .

التعريض في سورة يوسف

هذا ومما لا بد أن ننبه اليه ، ان التعريض في هذه السورة ، ليس مختصاً بهذا الموضع فقط ، بل أرى أنه وقع منها في عدة مواضع ، فمن ذلك :

أولاً ـــ ما في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (ع ٣) فان فيه تعريضاً بقصص التوراة ، التي حوت أقبح القصص .

ثانياً — قول يوسف « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » (ع ٣٨) ، فيه تعريض بالفتيين الساقي والخباز ، أنهما ليسا من أهل الشكر .

ثالثاً — وكذا قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (ع ٤٠) ، فان فيه أيضاً تعريضاً بهما .

رابعاً — قوله تعالى : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (ع ٥٦ و ٥٧) ، فيه تعريض بان يوسف من المرحومين المحسنين المتقين .

خامساً — قول المؤذن : « ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم » (ع ٧٢) فيه تعريض بأنهم هم الذي سرقوه .

سادساً — وأخيراً قول يوسف « هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً » (ع ١٠٠) ، فيه تعريض بما كان اخوته يقولونه له على سبيل الإنكار والتهكم : « هذا صاحب الأحلام ، هذا الذي يحلم أننا سنسجد له » .

ولنا هنا الملحوظات الآتية :

المحسن

الملحوظة الاولى — كلمة « المحسنين » تشمل كل محسن ، ممن كان ويكون ، من أي نحلة ومن أي ملة ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ ، وَمَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧ و ٨) ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القِيَمَةِ ، فلا تظلَمُ نَفْسٌ شيئاً ، وإنْ كان مِثقالَ حبَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ ، أتينَا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢١ : ٤٧) .

احسان يوسف

الملحوظة الثانية — كان يوسف عليه السلام أحسن طريقته مع الله ومع والديه ،

أحسن الخدمة في بيت سيده « فوطيفار » بكل أمانة واخلاص ، أحسن للعزيز وامرأة العزيز بحفظ عرضها وشرفها ، أحسن للفتيين بوعظها وارشادهما وتأويل رؤيهما ، أحسن المصريين بالعطف عليهم ، وتنظيم ثروتهم ، وترتيب ثمرات نيلهم ، أحسن لاخوته يوم وفدوا عليه لأول مرة ، وبالجملة فالفتيان اللذان كانا معه في السجن ، هما أعرف منا بتفاصيل إحسانه ، حينما قالا له :« إنّا نراك من المحسنين»، واخوته حينما صار بينه وبينهم تماس ، هم أعرف بوجوه إحسانه ، حينما قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » وهو نفسه أعرف بطرق إحسانه حينما قال : « فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل الله تعالى هو أعلم من الجميع بمرامي إحسان يوسف عليه السلام وقد قال في تقريظه : « ولما بلغ اشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » ، ثم قال : « نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين».

نتيجة كيد اخوة يوسف له

الملحوظة الثالثة — سمعوا ما سمعوا الآن ، وكانوا رأوا ما رأوا سابقاً ، فظهر لهم ان ذلك « الكيد » الذي كانوا دبروه ليوسف منذ ٢٢ سنة ، كان له نتيجة ذات وجهين ، فهي بالنسبه لهم من أسوأ النتائج ، وبالنسبة ليوسف عليه السلام هي من أحسن النتائج ، وبيان ذلك أنهم هم لم يخل لهم وجه أبيهم ، لأنه كان شغل بحب بنيامين الحاضر ، وبذكري يوسف الغائب،ولم يكونوا قوماً قدصلحت لهم أمور معيشتهم ، بل بالعكس كانوا منفورين من أبيهم ، واليوم صاروا تحت رحمة يوسف الطريد المشرد ، وانه مهما أراد أن يجري عليهم أمكنه ، حتى انه ليمكنه أن ينقص بهم عدد الأحياء ويزيد بهم عدد الأموات .

وأما يوسف عليه السلام فقد صار من رجال « البلاط » في الدولة المصرية ، ثرياً ، سرياً ، يأمر فيطاع ، عزيزاً في مصر ، وكيلاً عن مليكها . . فالهوة التي

بينه وبينهم عميقة جداً وهم بعيدون عنه ، وهو بعيد عنهم بعد الثريا عن الثرى ، وبعد الابريز الوهاج عن البرا (١) .

سارت مشرقة وسرت مغرباً   شتان بين مشرق ومغرب

سبب ذكر يوسف اخاه بنيامين مقرونا باسمه دون سؤال منهم

الملحوظة الرابعة — أجابهم عن نفسه وعن اخيه ، مع انهم لم يسألوه عنه ، لأنه كان معلوماً لهم ، لأن في ذكر أخيه بياناً لما سألوه عنه ، أو يقال : أتى بذلك لأن بنيامين كان — طبعاً — مخلصاً في حبه له ، كما أنشد إسحاق الموصلي :

وليس أخي الا الصحيح وداده   ومن هو في وصلي وقربي راغب
تقرّب مني فى ميولي ومذهبي   وان باعدتنا في الولاء المناسب

وكما قال أبو تمام :

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة   واخوة اسوة عندي وخلاني
عصابة جاورت آدابهم أدبي   فهم وان فُرِقوا في الأرض جيراني
أرواحنا في مكان واحدٍ وغدت   أجسامنا في عراق أو خراسان

وكما قال أبو تمام أيضاً :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم   وبلوت ما وصفوا من الأسباب
فاذا القرابة لا تقرب قاطعاً   واذا المودة أقرب الأنساب

الملحوظة الخامسة — إن الذي جرّ ذكر « بنيامين » ما في اسم يوسف من الاشارة للزيادة ، وهو رمز لتحقيق أمل والدته المرحومة الذي صدقه الواقع ، فيكون قريباً مما يسميه علماء البلاغة « استطراداً » وهو ذكر الشيء في غير محله لمناسبة .

(١) البرا : التراب .

العبر المستنبطة من هذه الآية

الملحوظة السادسة — نتعلم من هـذه الآية الفاذة الجامعة — أن التقوى هي البقوى ، وهي السبب الأقوى ، وان الصبر عواقبه الجبر والنبر ، ونتعلم منها أيضاً أن الانسان يجازى على تقواه في الدنيا والآخرة ، حيث جعل منـّة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر .

يوسف نال الحظوة بأخيه بحواسه الخمس

الملحوظة السابعة — لعل يوسف قال : « وهذا اخي » ليلتذ سمعه ولسانـــه برنين لفظة « أخي » التي مضى عليها نحو ٢٢ سنة ، وهو لم يلتذ بها ، وعلى ذلك فقد كملت ليوسف الحظوة بأخيه بحواسه الخمس ، إذ راى شخصه بعينيه وشم ريحـه بأنفه ، وذكر اسمه بلسانه . ولمس جسمه بيده ، وسمع صوته باذنه .

ويمكن ان نقول ان يوسف ذكر اسم اخيه بنيامين وان لم يدخل في سؤالهم مع أنه معلوم لهم ومفهوم ـ لأجل أن يرتب على ذكر الاثنين التي تعمها ، وهي : « قد منّ الله علينا » معاً ، بالجمع بعد الفرقة ، والفرح بعد الحزن ، والعز بعد الذل ، والرقي بعـد السقوط ، لأن كل ما حصل لأحدنا فهو للآخر ، فنحن متـكافلان متضامنان في كل ما يعرض لنا .

(قالوا : أئنك لأنت يوسف .. الخ)

— ٣ —

وصعد المنبر الشيخ اليرموكي وقال :

التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي »

لقد تكلم السادة الاخوان على الآية بما لم يدعوا فيه مقالاً لقائل : فأنا الفقير

الآن لا أريد أن أتكلم إلا على التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » إضافة لما ذكروه من النكت :

أولاً — الاشارة به الى قولهم « لَيوسُفُ وأخوه أحبُّ الى أبينا منا ونحنُ عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ثم قولهم (إنْ يسرقْ فقد سَرقَ أخٌ له من قَبْلُ) ، فيشبه أن يكون قوله : (أنا يوسف وهـذا أخى) من نوع التلميح لشيء آخر ، تذكيراً لاخوته بمـا كان سمع منهم ، كانه يقول : (وهـذا أخي) الذي كنتم قلتم عنه :(كيت كيت) ، ولم تتذكروه وتذكروه بعنوان أخوتي له الا في موضعي الحسد والانتقاد ، ولكن في مقابلة ذلك ، ها أنا ذا أذكره باسم الاخوة في موضع الافتخار به والمباهاة ، فأنا اباهي وأفاخر به ، صارخاً بين الملأ : « هذا أخي » .

ثانياً — لما لم يقولوا له : (أئنك لأنت أخونا يوسف) ، بل تعارفوا عليه باسم فقط ، غير مقرون بالنسبة الاخوية المشتركة بين الطرفين — أجابهم بجواب من نوعه ، أي أنه لم يقل : (نعم ، أنا أخوكم يوسف) ، بل قال مامعناه : أنا يوسف الذي تسمونه بهذا الاسم كانه أجنبي عنكم ، وهذا أخي الذي انتسب اليه ، حيث هو لم يصدر منه مايشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للاخر ، فحيث أنتم لم تذكروني باسم الاخوة ، فلا أعدم من أذكره بهذا الاسم .

ثالثاً — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) الاشارة إلى أنه إذا كان يوجد لي أخ حقيقي ، فهذا هو الأخ الحقيقي ، الذي يقوم بحقوق الاخوة ، ولم يمسني بأذى مطلقاً ، « هذا هو أخي الذي شاركني في سرائي وضرائي ، هذا هو أخى » الذي اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها ، كما اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من الغبطة والسرور :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعـك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

بخلافكم في كل ذلك ، فاخوتكم لي ، اخوة اسمية فقط ، لا فائدة منها ، بل هي مصدر ضرري ومبعث ايذائي .

وما أكثر الاخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

رابعاً — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) إنه الأخ الذي حرصتم على التفريق بيني وبينه ، وعملتم على بعدي عنه ، ها هو جالس بجانبي ، ها هو لصيقي ، ها هو لا يفصل بيني وبينه إلا ممرّ النسيم ، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفتي ، ها هو ذا يشار اليه باشارة القريب ، ها هو بين بصري وسمعي ، ضد ما كنتم سعيتم سابقاً من التفريق والتبعيد ، وهذا على حد ماقيل :

« أزجر المسيء بثواب المحسن » . (جيد)

قالوا : ائنك لانت يوسف

— ٤ —

ثم قام تقي الدين الدهشوري وصعد المنبر ثم قال :

الجزاء يكون في الدنيا والاخرة

لي ههنا كلمة فذة : يقول يوسف عليه السلام : (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) وهو يريد بذلك أنه تعالى لا يضيع أجرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فنتعلم منه أن الإنسان يجازي على أعماله في الدنيا كما في الآخرة ، وهذا يظهر لنا من آيات كثيرة في كتاب الله تعالى :

١ً — قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً ﴾ أى من أعمال الدنيا والاخرة ﴿ مِنْ ذكرٍ وأنثى — وهو مؤمنٌ — فلنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ﴾ وعلى الأقل بالرضى بما قسمنا له جزاء على عمله الصالح الدنيوي ﴿ وَلنَجزِيَنَّهم أجرَهُم ﴾

في الاخرة ﴿ بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ من أعمالها (١٦ : ٩٧).

٢ً — وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً ﴾ من أعمال الدنيا والاخرة ، ﴿ فلِنَفسِه ، ومَنْ أساءَ ﴾ أعماله الدنيوية والأخروية (فعَليها) وهذا الجزاء الذي لنفسه وعلى نفسه هو في الدنيا ، وأما جزاؤه عليها في الاخرة فهو المرموز في قوله ﴿ ثم الى ربكم ترجعون ﴾ (٤٥ : ٤٤) ، أى فيجازيكم هنا على الخير وعلى الشر بمثله .

٣ً — وقال تعالى : ﴿قال :أمّامن ظَلَمَ فسوفَ نُعَذِّبهُ ، ثم يُردُّ الى ربّه فيُعذِّبهُ عذاباً نُكراً ، وأمّا مَن آمن وعَمِل صالحاً ، فلهُ جزاءً الحُسنى ، وسنقول له مِنْ أمرنا يُسرا ﴾ (١٨ : ٨٨ و ٨٩) أي فمن ظلم بتركه الواجبات الدنيوية والاخروية، فسوف يعذبه ذوالقرنين في الدنيا على تركه واجباته الدنيوية، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً على تركه واجباته الاخروية ، وأما من آمن وعمل صالحاً من أعمال الدارين فله جزاءً الجنة على أعماله الأخروية ، وسنقول له في الدنيا من أمرنا يسراً على عمله الصالح الدنيوي .

٤ً — وقال تعالى : ﴿ فأمّا الذين كفَروا ، فأعَذِّبُهم عذاباً شديداً ، في الدنيا والآخرة ، وما لَهُم مِنْ ناصرين ، وأما الذين آمنو وعَمِلوا الصالحاتِ ، فيُوفيهمْ أجورَهم ﴾ (٣ : ٥٦ و ٥٧) ، فقوله: وعملوا الصالحات ، أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله : فيوفيهم أجورهم ، أي في الدنيا بالنسبة للأعمال الصالحة ، الدنيوية ، وفي الآخرة بالنسبة للاعمال الصالحة ، الأخروية ، والدليل على هذا المعنى ،قوله في الفريق الأول: (فأعذبهُ عذاباًشديداً في الدنياوالآخرة) فانه بحسب المقابلة يدل على أن معنى قوله في الفريق الثاني (فيوفيهم أجورهم) أي في الدنيا والآخرة .

٥ً —وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا، كونوا قوّامين للهِ ،شُهَداءَ بالقِسْط،

ولا يجرِمَنَّكم شنَآن قومٍ على أن لاتَعْدِلوا ، إعْـدِلوا هو أقربُ للتقوى ، واتقوا اللهَ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بماتعملونَ ، وعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم ﴾ (٥ : ٩ و ١٠) ، فقوله (وعملوا الصالحات) ، أي مثل القيام لله ، والشهادة بالقسط ، والعدل في الحكم ، ولو مع شنآن المحكوم له أو عليه ، فالصالحات تشمل صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (أجر عظيم) أي في الدنيا على أعمالها ، وفي الآخرة على أعمالها .

٦ — وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وَعمِلوا الصالحات سيجعلُ لهـم الرحمنُ وُدّاً ﴾ (١٩ : ٩٧) ، فالصالحات هي دنيوية وأخروية ، والوُدّ هو في الدنيا والآخرة ، فيحدث لهم في الدنيا مودة في القلوب ، يزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ، ولا تعرض للاسباب التي توجب الود ، ويكتسب بها النـاس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع ببرة ، أو غير ذلك ، وانمـا هو اختراع منه تعالى ابتداءً ، اختصاصاًمنه لأوليائه بكرامة خاصة ،وكذلك يجعلهم مودودين في الآخرة ، يحببهم الى خلقه ، بما يعرض من حسناتهم ، وينشر من ديوان أعمالهم ﴿ وَنَزَعْنا مافي صُدورهم مِنْ غِلٍ ،إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابلين ﴾ (٤٧:١٥) والسين في « سيجعل » بالنسبة للدنيا ، لأن السورة مكية ، وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة ، فوعدهم الله تعالى ذلك « الود » متى انتشر الاسلام وقوي، وأما بالنسبة للآخرة ، فلأن كل آت قريب عند الله .

٧ — وقوله تعالى : ﴿ قال : لقد ظلمَكَ بسؤال نَعْجَتِكَ الى نِعاجِهِ ، وإنَّ كثيراً من الخُلطاء ليَبْغي بعضُهم على بعضٍ إلا الذينَ آمنوا وعمـلوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هم ﴾ (٣٨ : ٢٤) فقوله : (وعملوا الصالحات) أي التي هي من قبيل الأعمال الدنيوية ، أعني عدم الظلم والتمدي ، والتباعـــد عن البغي والغصب ، فهي أعمال سلبية ، وهؤلاء هم الذين يُستثنون من الخلطـاء الذين يبغي

بعضهم على بعض ، وهم أيضاً الذين يوصفون بالقلة ، وأما من يعملون الصالحات من صلاة وصوم واعتكاف وتسبيح وتهليل وإقامة أذكار وقراءة أوراد ، مع الظلم والتعدي والغصب ونحوه ، فـلا نراهم مُسْتَثنَينَ من هؤلاء الخلطاء الذين يبغي بعضهم على بعض ، ولا نقول في شأنهم : إنهم قليلون ، بل هم كثيرون « أكثر « من الهم على القلب ! » .

٨ً — وقال تعالى : ﴿ أمْ نجعلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ كالمفسِدين في الأرضِ ، أمْ نجعلُ المتقين كالفُجّـار ﴾ (٣٨ : ٢٨) ، فقوله : (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا ، بدليل مقابلته بقوله : (أمْ نجعل المتقين كالفجار)

٩ً — وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نُزّلَ على محمدٍ — وهو الحقُّ من ربّهم — كفّرَ عنهم سيئاتهم وأصلحَ بالهم ﴾ (٤٧:٢) فقوله (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) هو جزاء صالحات الآخرة ، وقوله (وأصلح بالهم) هو جزاء صالحات الدنيا في الدنيا ، لأن إصلاح الحال إنما يحتاج اليه في الدنيا ولا حاجة له في الجنة .

١٠ً — وقال تعالى :﴿ إنّ الانسانَ لَفي خُسْرٍ ،إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ﴾ (١٠٣:٢و٣) فهذا « الخسر » هو الخسران في الماديات والروحيات وهذه « الاعمال الصالحة » هي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة.

١١ً — قال تعالى : ﴿ وَعَـــدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وَعمِلوا الصالحات ، ليَستَخْلِفَنّهم في الأرضِ ، كما استَخْلفَ الذينِ منْ قبلِهِم ، ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينهم الذي ارتضى لهم ، وليُبَدِّلَنَّهم مِنْ بَعدِ خوفِهم أمْناً ﴾ (٢٤:٥٥) فقوله (وعملوا الصالحات) هي الأعمال الروحية والمادية ، ومنها اعداد ما استطعنا

من قوة ومن رباط الخيل ، ومنها عدم التنازع المؤدي للفشل ، وذهاب الريح ، ومنها أن نرى المؤمنين بالله يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، الى غير ذلك مما أمر الله به المسلمين ، ومما يقتضيه فن الحرب ، بحيث نُعِدّ في كل عصر ما يناسبه ، فاذا قاموا بذلك وما اليه ، صدق عليهم أنهم قد عملوا الصالحات ، التي يترتب عليها ، ترتب المعلول على العلة ـ استخلافهم في الارض ، وتمكين دينهم لهم ، وابدالهم من بعد خوفهم أمنا .

وأما الصلاة والصوم والتهجد والتهليل والتسبيح واقامة الاذكار وقراءة الأوراد مع ترك ما تقدم من مأمورات الله تعالى ، فلا ينجم عنه شيء من هذا الذي وعدنا الله به في هذه الآية الكريمة .

١٢ ـ وقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكراً ، وقليلٌ مِنْ عبادِيَ الشَّكُور ﴾ (٣٤ : ١٣) ، قاله جل شأنه عقب ذكر الأعمال المادية الدنيوية ، كما يظهر بمراجعة سابقة .

١٣ ـ وقال تعالى : ﴿ إنّا جعلنا ما على الارض زينة لها ، لِنَبْلُوَهُم أيهم أحسنُ عَمَلاً ؟ ﴾ (١٨ : ٧) فالعمل هنا مادي وروحي

سألني سائل : ما هي الأعمال الصالحة الدنيوية التي تدخل في هذه الآيات ؟ ـ فقلت له : هي كثيرة جداً : الفنون ، العلوم ، الصنائع ، معامل الدباغة ، معامل الصابون ، معامل الحرير ، معامل الأجواخ ، تشييد المدارس ، تأليف الجمعيات ، السياحة ، الهجرة في طلب العلم ، إقامة الربط في الثغور ، صنع الأساطيل الحربية ، الطيارات ، المدافع ، الدبابات ، الغواصات ، تنظيم وتعليم الجيوش ، العناية بالزراعة والغرس والتجارة ، طرق المواصلات ، ايجاد فرق استخبارات في بلاد الأجانب ، إيفاد البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون ... الخ الخ .

نقرأ القرآن الكريم فنسمع الله تعالى يقول في اهل الكتاب موعظة لنا :

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ، وما أُنزِلَ اليهم مِنْ رَبّهم ، لأكلوا مِنْ فوقِهم ومِنْ تحتِ أرجُلِهِم ﴾ (٥ : ٦٩) ، فما هذه الاقامة للتوراة والانجيل؟ هل هي مجرد الركوع والسجود والتسبيح والتهليل ، وما الى ذلك ؟ .. كلا .. فان هذه الامور بمجردها لا يترتب عليها كثرة الزروع ونمو الأشجار والثمار، وانصباب الخيرات والأرزاق ، ولكن المقصود بهذه الاقامة مع ما ذكر الاشتغال بالأعمال المادية التي تعود على امتهم بالنفع المادي الدنيوي .

نقرأ القرآن الكريم ، فنسمع الله تعالى يقول تعليماً لنا : ﴿ ولقد كتَبْنا في الزَّبور مِنْ بعدِ الذّكْرِ ـ أنّ الأرض يَرِثُها عبادِيَ الصالحون ﴾(١٠٥:١١) فهل هذا « الصلاح » هو مجرد العبادات الروحية ؟... كلا ... ولكنه مع ما ذكر التأهل لملك الأرض ، وعمارتها ، وخدمتها ؛ واستغلالها ، واستخراج كنوزها ، ومعادنها وثمراتها ، وخيراتها ، وأخيراً القيام على حراستها وحمايتها والدفاع عنها ، هذا ما حضرني من الجواب ، والله تعالى هو العليم بالصواب .

(مرحى)

اعتراف الاخوة بالخطيئة

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثرَكَ اللهُ علينا ، وإنْ كنا لَخاطِئينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى وتسعون ، فقام جلال الدين المصري واعتلى منصة المنبر ، ونحن ننشر نص خطابه القيم الذي القاه على مجمل تفسير هذه الآية ، قال :

أيها السادة :

سبق ان دار الحديث بين يوسف واخوته ، وعرفوه ـ في هذه السفرة الثالثة،

كما هو قد عرفهم في السفرة الاولى - فبغتوا وأجفلوا وارتج عليهم ، وأرادوا أن ينتحلوا عذراً يتخلصون به من عقاب أخيهم ، وعلى الأقل من تثريبه عليهم ، فلم يجدوا ما يعتذرون به ، ولا ما يبررون به عملهم ،فلم يسعهم الا الاعتراف الصحيح والإقرار الصريح ، فتقدموا اليه والخجل ظاهر على وجوههم ، يمازجه الذل والانكسار ، و (قالوا) بلسان واحد ، ياللخجلة . . . (تالله لقد آثرك) فضلك (الله علينا) بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ، فانت أثير الله ، وصاحب السعادة لديه من دوننا ، (وان كنا لخاطئين) ، فشأننا وحالنا أنا كنا متعمدين للاثم ، لم نتق ولم نصبر - أو يقال وان كنا لخاطئين في تصوراتنا وأفكارنا،خاطئين في أقوالنا ومفاوضاتنا ، خاطئين في أعمالنا ومشاريعنا ، خاطئين في تهوراتنا ونزقنا .

(قالوا : تالله لقد آثرك .. الخ)

— ٢ —

ثم قام مولانا عبد الحي الدمياطي (١) وقال :

اعتراف اخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم

ما كاد يوسف يتم كلامه،حتى تحققوه انه اخوهم ،وحتى تذكروا سوءفعلتهم التي فعلوا ، وحتى وفوا على مافرط منهم ، ولعنوا تلك الفكرة التي كانوا افتكروها ، والحيلة التي كانوا احتالوها ، ثم تبين لهم أن الذي أمامهم ليس هو « فوطيفار » عزيز مصر الخليع ، ولكنه أخوهم « يوسف » بن راحيل ، فسقط في أيديهم ، واستولى عليهم السكوت ، فصغرت نفوسهم ، وتزاحمت على وجوههم صفرة الوجل وحمرة الخجل فما وسعهم إلا أن يتقهقروا من أمامه قليلا قليلا ، وقد نكسوا رؤوسهم ، ثم استنصروا جلدهم وقوتهم ، بعدما خارت قواهم وقالوا مقرظين له :

(١) دمياط من البلاد المصرية .

بخ بخ ، تالله لقد قدّمك الله علينا نحن العصبة ، فصار المأموم إماماً ، والتابع متبوعاً ، والمأمور آمراً ، والأول أخيراً ، والأخير أولاً ، والسيد مسوداً ، والمسود سيداً ، اجتباك الله علينا بتعليم الأحاديث ، بإتمام النعمة ، بتمكينك في الأرض ، تتبوأ منها حيث تشاء ، باصابة الله إياك برحمته بإتيانك منه علماً وحكماً ، بجعله إياك من عباده المخلصين ، باسناد وزارة المالية المصرية لعهدتك ، بجعله إياك عزيز الديار المصرية ، بالتقوى والصبر ، بسجود الكواكب ، وأخيراً بالنبوة والرسالة . وأما نحن ، وان كنا لخاطئين ، فمثلنا من يهفو ، ومثلك من يعفو ، ها نحن أولاً قد أقررنا بذنبنا ، وشفيع المذنب اقراره ، ونحن لا بد لنا من أن نعترف لك بالخطأ حتى لا نكون قد خطِئنا اليك خطأ آخر ، نحن غلاظ أكباد ، قساة قلوب ، فمعذرة إلى الله واليك ، وان لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، فأغض عن خطائنا ، وأذَنْ لحلمك أن يسع جهلنا :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له   إذا لم يكن في فعله والخلائق

ولعمرنا إن نهايتنا لمحزنة أليمة ، إلا أن وجدنا لنا في بعض زوايا قلبك مكاناً للرحمة بنا ، والإشفاق علينا ، ملكت فأسْجِح ، قدرت علينا فأرفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدة ، وان الذي جرأنا على ماصنعنا ، هو الذي أخرج أبوينا من الجنة ، وأنساهما العهد ، وهذا مقام العائذين بك ، أيها الأخ ، فاغسل عنا الحوبة [1] بالتوبة ، واعفر مافرط منا في تلك النوبة :

وهبنا أسأنا نحو شخصك عامداً   فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل
فان لم تكن للعفو عندك بالذي   أتينا به — أهلاً ، فأنت له أهل

هذا مرمى كلامهم ، وأما نحن فنقول : « صح النوم يا أسيادي ! . . » وصدق من قال : « أول الغضب جنون ، وآخره ندامة » ، ولكن « بعد خراب البصرة ».

---

(١) الحوبة الاثم .

ولو تراهم إذ تمثلوا بين يدي أخيهم . . ولو تراهم إذ خفضوا رؤوسهم خائفين . . ولو تراهم إذ تصببوا عرقاً . . ولو تراهم إذ غشيت وجوههم غمامـــة من الاستكانة . . ولو تراهم واقفين على مثل نار الغضا . . ولو تراهم تنتابهم الأفكار المتضاربة . . وتتقاذفهم الهواجس المتناقضة . . يتراوحون بين خوف ورجاء . . ويترجحون بين معاقبة وغفران — نعم لو تراهم بهـذه الأحوال ، لـترى مشهداً رهيباً ، وأمراً عصيباً ، كيف لا . . وإن ذلك اليوم الذي دخلوا فيـه على « يوسف » ، يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، يتمجد اسم الله ! ! ! يتبارك اسم الله ! ! ! ، كانوا ائتمروا على قتل أخيهم ، فصاروا اليوم بين يديه ، ﴿ والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ : ٢١). (جيد)

قالوا : تالله ، لقد آثرك . . الخ

— ٣ —

وقال نجم الدين الشرقاوي (١)

عندي على هذه الآية المواد التالية :

وجوب الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران

المادة ١ — نتعلم من هذه الآية ، أنة ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته ، ويطلب المغفرة ممن أساءه ، ولو أصغر منه سناً ، كما وقع من اخوة يوسف عليه السلام ، وحينئذ ينبغي للمساء اليه أن يغفر للمسيء ، كما وقـع من يوسف معهم ، حسبما نتعلمه من (ع ٩٢).

المادة ٢ — أقروا بذنوبهم ، ورجعوا الى صوابهم ، واستقبحوا عملهم ، وسخطوا على أنفسهم ، وأعلنوا فظاعة ما أجروه ، ونحن لا نرتاب في أن يوسف

(١) نسبة الى منطقة الشرقية بمصر .

عليه السلام قبل منهم هذا كله ، لأن العبد إنمـا يحاسب الناس بحسب ظواهرهم ، ولـكن هل يعتبر هـذا القول منهم توبة نصوحاً بالنسبة لله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، بحيث ينالون بها من الله الغفران ؟ . .

ورب قائل يقول : (إنهم أرادوا بذلك التوصل الى استنزال عفو أخيهم عنهم ، والتعرض لغفرته لهم) .

وربما يقول آخر : (إن القوم ندموا وأسفوا على مافرط منهم ظاهراً وباطناً وأخلصوا لله التوبة) وهـذا هو الأقرب ، بدليل تسميتهم « كواكب » ، لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بعد هذه التوبة والأوبة،ففي أي وقت يكونون كذلك ؟ نعم نعم ، انهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة ، وصار كل واحـد منهم كُسَعِياً يصرخ :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذاً لقطعت خمسي
تبين لي سَفَاه الرأي مني لعمر أبيك حين كسرت قوسي

مقابلة بين خاتمة اخوة يوسف وبين ماذكره الانجيل من خاتمة بطرس تلميذ المسيح

المادة ٣ — قولهم : « تالله لقد اثرك .. الخ » ، من هـــذا ومن دعاء أخيهم يوسف لهم بقوله : ﴿ يغفر الله لـكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ،ومن قولهم لأبيهم : « ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين »، وقول أبيهم لهم : « سأستغفر لـكم ربي إنه هو الغفور الرحيم »— من مجموع هذه المكالمات المتبادلة ، بين يوسف واخوته وبينهم وبين أبيهم ، نعلم إن خاتمة أمرهم كانت حسنة ، لأن هـذه المخاطبات جاءت أخيراً ، ومتأخرة عن أعمال اخوته الفاسدة وأقوالهم الكاذبـــة ، ومواعيدهم المخلفة ، فكل هذه نسخت بتوبتهم الأخيرة ، وحسن حالهم مع الله وأبيهم وأخيهم ولاشك أن المدار على الخواتيم ؛

وهذا (والشيء بالشيء يذكر) ضد ماحصل لبطرس الذي طرده المسيح (ع) وسماه شيطاناً ، ثم بطرس أنكر المسيح ثلاث مرات ، وهذا هو كذب صريح وبمثابة ردة ، وكان كل هذا في آخر أمره ، بعدما كان معتمده ورأس تلاميذه ، في الانجيل أنه قال له : « وأنا أقول لك أيضاً ، أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة إبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ماتربطه على الأرض ، يكون مربوطاً في السموات ، وكل ماتحله على الأرض ، يكون محلولاً في السموات » (مت ١٦:١٨) قال متى : « حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد : انه يسوع المسيح ، من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ، وفي اليوم الثالث يقوم ، فأخذه بطرس اليه وابتدأ ينتهره قائلاً : ﴿ حَشاك يارب ، لايكون لك هذا ﴾ — فالتفت وقال لبطرس : ﴿ اذهب عني ياشيطان ، أنت معثرة لي ، لأنك لاتهتم بما لله ، لكن بما للناس ﴾ (مت ١٦:٢٠—٢٣) ، ثم قال « متى » : ﴿ أما بطرس فكان جالساً خارجاً في الدار ، فجاءت اليه جارية قائلة :﴾ « وأنت كنت مع يسوع الجليلي » — فأنكر قدام الجميع ، قائلاً : « لست أدري ماتقولين » ، ثم إذ خرج الى الدهليز ، رأته أخرى فقالت للذين هناك : « وهذا كان مع يسوع الناصري » — فأنكر أيضاً بقسم « إني لست أعرف الرجل » ، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس : « حقاً أنت منهم فان لغتك تظهرك » — فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف اني لاأعرف الرجل » (مت ٢٦:٦٩—٧٤) فهذا اللقب الذي لقب به المسيح بطرس ، وهذه الشهادة بانه معثرة وانه لايهتم بما لله ، لكن بما للناس ، وهذا الكذب والانكار الذي صدر من بطرس لإلهه المسيح ، مع اللعن — كل هذه الامور كان على رواية « متىّ » بعد تلك المنحة والخصوصية التي خصه بها ، فهو ماصار لبطرس في آخرة

أمره ، فحاله مخالفة لحال اخوة يوسف ، والعبرة بالخواتيم ، هذا على رواية «متى» ولكن نحن نجل حواري المسيح عن ذلك وعن أقل منه ، ولانؤمن بهذه الرواية التي تحط من قدر بطرس القديس.

الفرق بين لفظتي الخاطىء والمخطىء واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين

المادة ٤ — من الناس من يقدم على الفعلة السيئة ، تارة « باجتهاد » وتأويل ، بحيث يكون غير خاش بما عمل عقاباً من الله ، ولا توبيخاً من الضمير ، وتارة « بالغلط » وعدم معرفة أن هذا الفعل حرام ، فصاحب هذا العمل — في الحالين — لايعاقب ، وعلامة هذا النوع ، انه يفعل الفعل ، وهو راض عن نفسه ، مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « مخطىء » ، ومن الناس من يعمل عمل السوء ، وهو عالم انه سوء ، وان الاقدام عليه غير جائز ، لا في حكم الله ، ولا في حكم الضمير ، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ماعمل ، مامن ذلك بد ، إن لم يعقبه بتوبة ، وعلامة هذا النوع انه يعمل العمل ، وهو غير راض عن نفسه ، ولامستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « خاطىء ».

فاذا تقرر هذا فأولاد يعقوب عليه السلام كانوا من قبيل هذا النوع ، ولذلك تراهم أقروا واعترفوا أمام أخيهم ، ثم أمام أبيهم بانهم كانوا « خاطئين » ، وهذا يدلنا على أن العلة التي كانوا توسلوا بها لقتل يوسف أو طرحه أرضاً ، أو القائه في غيابة الجب ، وهي كونه أحب لأبيهم منهم — كانت علة غير حقيقية ، حتى في نظرهم ، وانهم كانوا غير مقتنعين بها ، لأنها صورية فقط ، إذ العلة الحقيقية هي الحسد والغيرة والغيظ والأَثَرَة .

آيتا الاستغفار

المادة ٥ — قال عبد الله بن مسعود : في كتاب الله ، آيتان ، ماأصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلاّ غفر له :

الاولى — قوله : ﴿ والذينَ إذا فعَلوا فاحشةً أو ظلَموا أنفُسَهُم ، ذكَروا اللهَ ، فاستَغفَروا لِذُنُوبِهِم — وَمَنْ يَغفِرُ الذنوبَ إلاّ اللهُ — ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا ، وهم يَعلَمون ﴾ (٣ : ١٣٥) ،

والثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعمل سُوءاً أو يَظلِمْ نفسَهُ ، ثمّ يَستَغفِرِ اللهَ ، يَجد اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

عدم تمادي الاخوة في انكار المحسوس

المادة ٦ — لم يتمادوا في إنكار المحسوس ، ولم يثابروا على رد الحقائق ، ولم يحوجوا من يخاطبهم بهذا الخطاب أن يثبت أنه « يوسف » ! ! ! ، وأنه حتى اليوم « حيّ يرزق » ، لم يأكله الذئب ، ولم يفترسه الوحش !!!.

فنحن في مقابلة تساهلهم هذا ، لا يسعنا إلاّ تقديم واجبات الشكر لما أبدوه من هذا اللطف مع أخيهم ، والتسامح والتساهل ، وإلاّ كان لهم أن ينكروا على هذا الذي يخاطبهم — دعواه أنه « يوسف » ويكلفوه أن يثبت تلك الدعوى في محكمة مصر العليا !!!... إذ يمكنهم أن يقولوا له : نحن أثبتنا موت « يوسف » بن يعقوب قديماً من ٢١ سنة ، فان بعضنا ادعى ذلك ، والبعض الآخر شهد عليه ، بلْهَ شهادة « القميص » ، ونحن والقميص أصدق منك أيها المتكلم المدعي النسب فينا ، فان كنت تريد إثبات انك يوسف بن يعقوب ، فعليك بنقض الحكم الصادر عليك بالموت ، واثبات انك حتى اليوم « حيّ ترزق !!..

الحي الميت

الشيء بالشيء يذكر — قرأت في بعض الصحف انه ما زال يوجد « قانون » قديم في المانيا ، يقضي بأن الشخص اذا اعتبر خطأً ميتاً في ورقة رسمية ، وهو

لا يزال على قيد الحياة ، فعليه أن يراجع السلطات ، في مدة ستة أسابيع ، من وقوع ذلك الخطأ ، فاذا انقضت المدة ولم يفعل ، يبقى في نظر « القانون » ميتاً الى الأبد؛

وقد حدث أن بحّاراً المانيا يسمى « فوتكا» اعتبرته السلطة ميتاً وهو مازال حيّاً . ولكنه لم يطلب تصحيح هذا الخطأ في المهلة المعينة ، ومن أجل ذلك مازال حتى اليوم يطالب بتركته التي وزعت على ورثته ، وقد بذل بعد انتهاء « الحرب العالمية » جهداً عظيماً ، لكي يعود الى الحياة في نظر القانون ، ولكنه لم ينجح ، قال بعض الظرفاء : إن « فوتكا » لم تبق أمامه وسيلة لاثبات حياته سوى أن يقتل انساناً آخر ، ومن الطبيعي ان الميت لا يقتل حياً ، غير أنه يخشى في هذه الحالة أن لا يتمتع طويلاً بحياته الجديدة » .

هـذا ولكن « يوسف » الصديق رآى أمامه وسيلة لاثبات حياته في نظر إخوته ، وأنه هو يوسف العبراني بن يعقوب ـ هي الإتيان بهم وأهلهم أجمعين ، ليعيشوا عنده بمصر ، فبدلاً من أن يقتل واحداً منهم ، أراد أن يحييهم جميعاً .

توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز

المادة ٧ — نعلم من هذه السورة انه كان ليوسف « أعداء » في فلسطين هم « اخوته » ، كانوا أذنبوا اليه ، وتمدوا عليه ، ثم تابوا بين يديه ، ولكن بعد خراب البصرة ، أو كما قال الشاعر :

« ولكن جئت في الزمن الأخير »

كما نعلم أيضاً مما سبق أنه كان ليوسف « عدوة » لدودة « بمصر » هي «زليخا» كانت اتهمته وتعدت عليه ، وأرادت تدنيسه ، ثم بعده تابت ، ولكن في آخر نفس من أنفاسها ، فتوبة هؤلاء وتوبه هذه ، ان كانت معتبرة ، لكنها منحطة ، وفي آخر درجات التوبة ، كيف لا .. وانما كانت توبة زليخا بعد ما تملص يوسف منها وخرج من قصرها ، وتخلص من نفوذها ، وأصبح في بلاط الحكومة ، وهي قد كبرت ،

وهو قارب سن الشيخوخة ، وذبل ورد وجنته ، وجف ماء شبابه ، وكذلك اخوة يوسف إنما كانت توبتهم بعد أن رأوا أنفسهم عبيداً بين يدي أخيهم واقفين ناكسي رؤوسهم ، وهو صاحب الحول والطول، وذو العمل والصول ، وهم عزل من أقل من ذلك .

مقابلة بين اقوال اخوة يوسف السابقة واقوالهم الحالية

المادة ٨ — هم « قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وان كنا لخاطئين » ، وهذا حقيقة راهنة ، فانني لم أسمع لهؤلاء الاخوة « قولاً » لا أقدر أن أنتقده سوى هذا القول ، إنهم أولاً كانوا قالوا : « ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » (ع ٨) ، وللسامع أن ينتقد فكرهم هـذا من وجوه ، منها ان « يوسف » كان عمره في ذلك الوقت (على اطول الروايات) ١٧ سنـة ، وكان عمر « بنيامين » إذ ذاك ٧ سنين ، وأما هؤلاء الاخوة ، فكان أكبرهم وهو « رأوبين » لا يقل في ذلك التاريخ عن ٣٠ سنة ، وكان أصغرهم وهو « زبولون » لا يقل في ذلك التاريخ عن ١٨ سنة ، ولعمري إن حسد الكبير للصغير وغيرته منه لهما من الغرابة بمكان .

وانهم ثانياً — قالوا : « ونحن عصبة » أصلحهم الله ، أما كان الأولى بهم أن يعللوا بأنهم أطوع لأبيهم أو أنهم أحسن حالاً من أخيهم ؟

وانهم ثالثاً — كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ونحن نقول : إن من يضللون أباهم هم لا غيرهم في الضلال المبين .

وانهم رابعاً — كانوا قالوا : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » (ع ٩) ، أصلحهم الله ! كان الخروج من هذا الكرب والمأزق الحرج الذي تصوروه ليس منه مناص بسوى « القتل » ؟!

سبحان الله ! أما كان يكفي أن يتكلموا في هذا الشأن مع والدهم بلطف ، ويتفاهموا معه بالحسنى ؟ وأيضاً أما كان الأحرى بهم أن يحسنوا حالهم في أنفسهم ومع أبيهم ، حتى يصير محباً لهم كأخيهم ؟ ثم كيف ساغ لهم أن يتصوروا أن « قتل » يوسف ينشأ عنه خلو وجه أبيهم لهم ، مع ان العقل يقتضي ضد ذلك ؟ ثم ما هذا الصلاح الذي سيصيرون اليه ؟ مع ان كل انسان ذي احساس ، متى تذكر انه فعل فعلاً سيئاً مع اخيه ، لا سيما بدون ذنب منه ، فلا ريب أن عيشته تكون غير صالحة ، لأن ضميره دائماً يوبخه على ما فعل .

وخامساً — سمعناهم يقولون:﴿ يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف؟ ﴾(ع١١) ولعمري ان هذا القول لما يوجب الخوف ، ويوقظ الغافل عن كراهتهم لأخيهم .

وسادساً — سمعناهم يقولون ﴿ لئن أكله الذئب ، ونحن عصبة ، إنا إذاً لخاسرون ﴾ (ع ١٤) سبحان الله ! أما كان الأولى بهم أن يضعوا ثقتهم بالله ، ويحصروا اتكالهم على الله ، ويعتصموا بحمايته تعالى !؟ ..

وسابعاً — سمعناهم يقولون ﴿ إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ (ع ١٧) سبحان الله ! أرادوا أن يعتذروا فصرحوا بقصورهم في حفظهم لأخيهم ، لأنهم لم يأخذوه ليكون حارساً لأمتعتهم ، ولكن ليكون معهم حين الاستباق ، وبذلك يتوجه عليهم اللوم ، وتقوم عليهم الحجة .

وثامناً — رأيناهم جاءوا بقميصه ملوثاً بالدم ، ما شاء الله ، ما أعمق هذه الاستدلالات القيمة ؟! كأن « الدم » في هذا الكون لا يكون إلاّ من جسد يوسف عليه السلام ؟!؟..

تاسعاً — سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ (ع ٦٣) براعة استهلاك لطيفة ابتدأوها بلفظ « المنع » ، مع ان المقام مقام طلب ، أما كان يجدر

بهم أن يستهلوا كلامهم مع أبيهم بيشراه بملاطفة « عزيز مصر » لهم ، ثم يذكرون له حرص « العزيز » على رؤية أخيهم والا ّ فلا كيل لهم ؟!

وعاشراً — سمعناهم يقولون : ﴿ جزاؤه من وجد في رَحْلِهِ فهو جزاؤه ﴾ (ع ٧٥) ، وكان الأوفق بحال أخيهم بنيامين أن يحيلوا الحكم فيه للقانون المصري ، لأنه أخف عليه ، ولأنه كان يمكن لهم أن يقولوا : إن الجريمة وقعت في المملكة المصرية فلنرجع للقانون المصري ، محافظة على شرف وسلطان مصر .

والحادي عشر — سمعناهم يقولون : ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ (ع ٧٨) وفي هذا رجوع منهم عن الشريعتين ، الشريعة الابراهيمية ، والشريعة المصرية ، فلم يحترموا الأولى لأنها شريعة جدهم ، ولم يحترموا شريعة مصر ، مع أن الجريمة وقعت فيها .

والثاني عشر — سمعناهم يقولون: ﴿ وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ (ع ٨٨) والاستجداء لا يليق بأولاد الأنبياء ، لا سيما إذا كانوا فتياناً وكهولاً ، زعماء ثورات ورجال حركات .

مقابلة بين تفكير الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن

المادة ٩ — رأوا انفسهم اليوم في ضيق من « يوسف » أعظم من ضيقهم منه منذ ٢٢ سنة ، فقد كانوا حسدوه رغماً عن انه كان غلاماً ، ولكن لماذا يا ترى حسدوه ؟ حسدوه لعلة صبيانية ، هي زيادة محبة أبيه له ، حسدوه فأرادوا ازالته من الطريق ، ليخلو لهم وجه أبيهم ، هذه حادثتهم قبل ٢٢ سنة ، ولكن اليوم ما عساهم ان يصنعوا يا ترى ؟ وقد توفرت اسباب الحسد الجوهرية ، توفرت دواعي الحسد الذي عهد أن يكون بين الرجال على امور ذات شأن ، فما هي المكيدة التي عساهم اليوم ان يكيدوا له بها كيدا ... هل في وسعهم هـــذه المرة ، أن يزيلوا

« يوسف » من الطريق ليخلوا لهم وجه مليك مصر « الريان » ؟... هذا أمر يعسر عليهم اليوم ، لأن مليك مصر لا يعرفهم ، ولان يوسف اليوم ليس غلاماً ابن ١٧ سنة ، حتى يستولوا عليه ، بل هو اليوم رجل ابن ٣٩ سنة ، ومن أين لهم اليوم « مرتع وملعب وميدان استباق ؟ » ومن اين لهم وحش وقميص ملوّن ، ودم تيس من المعزى ؟ ومن اين لهم جب؟حتى يقدروا أن أن يمدوا شبكة حيلهم ، كما مدوها بالأمس ، فاليوم غير الامس ، و « العزيز » غير الذليل ، ووزير المالية غير السوقة وابن الشارع ، فمن هذا كله نرى أنهم وقعوا في « حيص بيص » ، وأنهم قد أُخذوا بخلاقيمهم،ولم يجدوا أمامهم سوى تغيير أفكارهم العتيقة بالمرة ،والاعتراف بخطئهم ، والاستسلام لأخيهم ، والالتجاء لرحمته ، فلذلك طرأ لهم هذا « التغيير الفجائي » ، وسبحان من يغير ولا يتغير !..

كان لهم في حياة يوسف الجديدة ، موت جديد ، وفي عزه ذلهم ، وفي ارتقائه سقوطهم !!! ﴿ قُلْ اللهُمَّ مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ ، وتَنْزِعُ الملكَ مِمَنْ تشاءُ ، وتعِزُ مَنْ تشاءُ ، وتذِلُ منْ تشاءُ ، بيدِكَ الخيرُ إنكَ على كلِ شيءٍ قديرٍ ﴾ (٣:٢٦) (قالون)

شفيع المذنب اقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) ﴿ قالَ : لاتَثريب عليكم اليومَ ، يَغفِرُ اللهُ لكم ، وهو أرْحَمُ الراحمين . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والتسعون فقام نور الدين الانبابي[1] واعتلى منصة المنبر وقال محاضرته القيمة التي ننقلها اليكم بقسميها المجمل والمفصل:

(قال) يوسف لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم) ولا تأنيب ولا عتب ، بل

(١) نسبة الى انبابة من البلاد المصرية

أطلب لكم المغفرة صارخاً الى السماء (يغفر الله لكم) مافرط منكم ويحتمل أن قوله (يغفر الله لكم) دعاء ، و«رب اشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره» (وهو) سبحانه وتعالى (أرحم الراحمين) ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء.

(قال : لاتثريب عليكم اليوم ... الخ)

— ٢ —

وتابع السيد نور الدين الانبابي كلامه قائلاً:

يوسف يعفو عن اخوته ويطلب لهم المغفرة

إن يوسف عليه السلام تأمل في الحالة السابقة بينه وبين إخوته فقال في نفسه :

ولست بمستبق أخاً لاتلمه على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

ففضل العفو عنهم ، وقال لهم : لامَوْجِدَةَ منذ اليوم في قلبي نحوكم ولا وَتِرَةَ بيني وبينكم ، ومن حق الصديق والقريب أن يتحملا ثلاثاً ، ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وأنتم ماخرجتم عن انكم سكان بيوت من طين ، تماسكت أجزاؤها بالماء ولعل الله قد أتى بي ههنا لأجل أن تحيوا ، وتحيا عائلة اسرائيل وأنتم إن كنتم أخطأتم فما أخطأ القدر:

والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

وحيث حملتم شهادة التوبة بيدكم ، وبما ان شفيع المذنب اقراره فلا تثريب عليكم اليوم ، فالانسان يصيب ويخطيء ، ويسرع ويبطيء الانسان من ماء وطين ، وليس من الملائكة العليين ، وان لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، والكمال لله والعصمة لانبيائه ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم،

لا تثريب عليكم اليوم ، فبعد اعترافكم بالخطأ ، وانابتكم الى الله ، لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم ، وعواطف مائتة .

يامن عدى ثم اعتدى ثم اقترف　　ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته　　« إن ينتهوا يغفر لهم ماقدسلف »

لا تثريب عليكم اليوم ، إني قد وهبتكم لأبيكم وعيالكم ، واني مستعد لمسامحتكم ألف مرة ، لو قدر أن يجنى على الف جناية .

لا تثريب عليكم اليوم ، فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها ، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرها ، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال ، ونتحامى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم .

لا تثريب عليكم اليوم ، فأنا لست عدو اخوتي ، ولكني عدو تقطيع الأرحام ، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطأ ، أرى أن من واجبي عدم لومكم وتأنيبكم ، فلا تفتكروا فيما كان بيني وبينكم من الإحن ، فقد جعلتها دبر اذني وتحت قدمي ، فلا آخذ بها عليكم اليوم ، لان خطيئتكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم .

لا تثريب عليكم ، لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التي ساعدت على ارتقائي لهذا المنصب العالي وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة ، لكن حركتكم معي أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري ، حادثة ارتقائي على عرش الملك .

لا تثريب عليكم اليوم ، بل عفوت عنكم عفواً لا يخلطه تثريب ، ولا يكدر صفوه تأنيب ، لي ولكم رب اسمه « الغفار » واسمه « الرحمن الرحيم ».

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء ، غفرت لكم قولكم :« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » غفرت لكم قولكم :« القوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة » ، غفرت لكم قولكم :« إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، غفرت لكم كل مالقيته بسبب كيدكم لي ..

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فالعفو من شيم الكرام ، بل هو من أصول الدين الأساسية ، ومن الأخلاق الفاضلة ، واني لحري بالتمشي عليه مع كل الناس ، لاسيما معكم أنتم أيها الاخوة :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

أكبر الأوزار في أصغر عفو الله أصغر(١)

أما هم فلما سمعوا ذلك ، لاحطك الله محلهم ، فانهم خجلوا خجلاً عظيماً ، ولابدع فان يوم العدل على الظالم ، شر من يوم الجور على المظلوم ، ولكنهم فيما بعد استنارت ظلمة قلوبهم ، وأنست وحشة نفوسهم ، وسكتوا كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يبدوا حراكاً ، ولعمري إن يوسف لم يبعد في الاحسان ، ولاتجاوز مزاياه الحميدة ، فهو منبع الكرم ، ومصدر معاني الشيم .

(قال : لاتثريب عليكم اليوم ... الخ)

—٣—

وقال شمس الدين الجيزاوي:

عندي على هذه الآية المواد الاتية :

معنى التثريب

المادة ١ — معنى « لا تثريب عليكم » لا تأنيب ولا عتب عليكم ، وأصل التثريب

---

(١) من نظم ابى نواس

من الثرب ، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب ، كما ان التجليد إزالة الجلد ، والتأثيم إزالة الإثم ، سمع من بعضهم : « اللهم أثمني » أي أبعد عني الاثم ، فالتشديد للسلب » فاذا ذهب الثرب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده ، ويقال للتثريب تقريع ، وأصله إزالة القرع من الرأس باستعمال دواءله ، فضرب مثلاً للتقريع أي التثريب والتأنيب الذي يمزق الأعراض ، ويذهب بماء الوجوه ، والتعيير والتعنيف درجات ، أقواها التثريب فالتأنيب فالتوبيخ فالتقريع فاللوم فالمعاتبة (١).

وثَرَبَ وثَرَد قريبان ، لأن أصل التثريب إضعاف الشيء ، أي جعله ضعيفاً ، وتثريد الخبز : تكسيره ، وفي صحيح البخاري : ﴿ إذا زَنَتْ الأمـــةُ فتبين زناها ، فليجلدها ولا يُثرب ﴾ وفسره الشراح بالتعيير والاستقصاء في اللوم .

متعلق كلمة « اليوم »

المادة ٢ـــ كلمة « اليوم » متعلقة بالتثريب أو بالمقدر في « عليكم » من معنى الاستقرار ، أو متعلقة « بيغفر » ، والمعنى على الأول : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الايام ، ثم ابتدأ فقال « يغفر الله لكم » فدعا لهم بمغفرة مافرط منهم ، يقال : غفر الله لك ويغفر الله لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً ، ومنه قول المشمت : « يرحمكم الله » وقول العاطس : « يصلح الله بالكم ».

والمعنى على الثاني : ان « يغفر الله لكم » بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم ، وعلى هـذا الثاني فمعنى قول يوسف « يغفر الله لكم » مغفرة ما يرجع الى حقه وحق ربه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركا

(١) راجع الالفاظ الكتابية .

بين الثلاثة ، ومعنى قولهم فيما يأتي : « ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا » مغفرة مايتعلق بحقه وحق ربه دون حق ولده ، لانه تنازل عنه سابقاً ، أو مقصودهم تكرار طلب المغفرة من الله بلسان أبيهم ، كما حصل بلسان أخيهم .

المشابهون ليوسف في عمله الاخير مع اخوته

المادة ٣ — كما عامل يوسف اخوته عامل النبي ﷺ قريشاً وأهل مكة ، فانه يوم أن فتحها وقف على باب الكعبة ، والناس وقوف صامتون ، كأن على رؤوسهم الطير ، فخطب فيهم خطبة طويلة ، ثم قال : « ماذا تقولون ، وماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ » — قالوا : « خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت » فقال : أقول كما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فقد مشى كل من هذين النبيين الكريمين على قاعدة « قد ملكت فأسْجِحْ » .

وثبت في التاريخ أن « المأمون » قال هذه الكلمة اليوسفية « لابراهيم بن المهدي » فان ابراهيم بن المهدي كان خرج على المأمون طالباً للخلافة فطلبه المأمون وأحضر بين يديه ، فقال له ابراهيم : « ياأمير المؤمنين ، العفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك » — قال : « بل أعفو ياابراهيم ، وأقول ماقال يوسف لاخوته : « لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» .

قال « المُقَنَّع » الكندي ، وكأنما نظمها تصويراً لحال يوسف مع إخوته :

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً
أراهم إلى نصري بطاءً ، وان هم ... دعوني إلى نصر ، أتيتهمُ شدّا
وان أكلوا لحمي . وفرتُ لحومهم ... وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم　　وانهم هووا غيّي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس يمرّ بي　　زجرت لهم طيراً يمرّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ　　وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُل مالي ان تتابع لي غنى　　وان قلّ مالي لم أكلفهمُ رفدا
وإني لعبد الضيف مادام نازلاً　　وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : « ان رجلاً قال يارسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن اليهم ويسيئوا لي ، وأحلمُ عنهم ويجهلون عليّ » — فقال : « لئن كنت كما قلت فكانما تُسِفُّهم المَلّ (١) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » ، وعن أنس بن مالك ، « ان يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها فجيء بها ، فقيل: ألا نقتلها ؟» — قال :« لا !» رواه البخاري في صحيحه .

« وحكي أنه بينما قيس بن عاصم ذات يوم في داره ، إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار ، ففرغت السفود من اللحم والقته خلف ظهرها ، فوقع على ابن له فقتله ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روع عليك ، أنت حرة لوجه الله ! » .

الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار لاخوته بخلاف ابيهم

المادة ٤ — تعليقاً على قوله « يغفر الله لكم » : هم لم يقولوا لأخيهم : استغفر لنا ذنوبنا ، كما سيأتي أن يقولوا لأبيهم ، ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله ، قبل أن يطلبوا منه ذلك ، وأما أبوهم فمع كونهم ابتدأوا وطلبوا منه استغفاره لهم ذنوبهم ، فلم يبادر بطلبتهم ، وانما وعدهم بها وعداً مؤجلاً فما الحكمة ياترى في ذلك ؟

(١) اي كانما تطعمهم الرماد الحار

والجواب عليه من وجوه :

الوجه الأول — معلوم عند العموم أن قلب الوالد سريع الانعطاف ، وانه محب لخير بنيه بالطبع ، لأنهم مهما كانوا فهم أفلاذ كبده ، فلذلك لم يحتج أن يبرهن على ذلك بنحو مبادرته بالاستغفار لهم ، بل أخر ذلك لأمر ما ، ربما يكون فيه خير لأولاده ، بخلاف يوسف ، فهو أخ ، لا أب ، ولذلك أحتاج أن يبرهن لهم على حنانه وعطفه عليهم بسرعة استغفاره لهم ، حتى بدون طلب منهم ، فابوهم لم يكن أقل مغفرة لهم ، وعطفاً من أخيهم عليهم ، بل هو أكثر مغفرة ورحمة ولكن اختلف الحال ، لما بيناه في جواب السوآل .

الوجه الثاني — وهو أنه أمسك عن تثريبهم ، وغفر لهم ، وأراد أن يجازي سيئتهم بالحسنة ، فرغب اليهم أن ياتوا باهلهم ليعولهم ، وأعطاهم من نفسه هـذا الكرم ، لأنه يرى نفسه حاكماً ، وهم محكومون ، وأميراً ، وهم مأمورون ، وعزيزاً بمصر ، وهم أدلاء ، ومن رجال البلاط ، وهم سوقة ، ووزير ماليه ، وهم فقراء يائسون ، وقوياً ، وهم ضعفاء ، وكان يراهم أصغر في عينيه من أن يأخذهم بذنب ، أو يعتد عليهم بسيئة ، وان هذه النظرة العذبة ، التي أصبح ينظر بها اليهم ، إنما هي نظرة الرفيع ، التي يلقيها على البائس الضعيف ، الذي يستحق العطف والرحمة ، شأن أصحاب المراتب العالية ، من أرباب الحكومة ، مع أفراد الرعايا ، وقد قيل : « إن الحكم والعفو في الحكام ، من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم » فهذا ماحدا بيوسف عليه السلام أن يبادرهم برفع التثريب عنهم ، والاستغفار لهم ، وهذا بخلاف أبيهم عليه السلام ، فانه ليس من أصحاب المناصب الدنيوية ، بل هو لا يزال من الناس المحكومين ، الذين لايرون لأنفسهم على غيرهم مايراه أهل الدنيا من الرفعة والعظمة .

الوجه الثالث — وهو ان يوسف رغماً عن انه وزير مالية وعزيز مصر ووكيل

مليكها ، فهو لا يزال يتحسس بالخوف من اخوته ، ومن افسادهم عليه حاله ، والمقروض يخاف من جرة الحبل، لا سيما وهم اخوته ، فطمنهم فيه أقرب للتصديق من طعن الاجانب فلذلك بادر بطمأنتهم بعدم تثريبهم،وبالدعاء لهم بالمغفرة ،وبالرغبة اليهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، يستصلح بذلك قلوبهم،ويجعل به بينهم وبين ضررهم إياه سداً منيعاً ، ولما كان هذا المعنى غير موجود في أبيهم ، لم يحتج الى شيء من هذا القبيل ، بل رغماً عن كونهم تقدموا اليه في استغفار ذنوبهم ، فقد رأيناه أخر الاستغفار لهم ، الى وقت أو مكان أو حال ، ربما يكون الدعاء فيه أقرب للاجابة.

الوجه الرابع — افتكر يوسف عليه السلام في نفسه أنه ليس بين المتشفي المصر على النقمة ، وبين المظلوم الجبار المستبد ، إلا ستر رقيق وحجاب ضئيل ، ففضل أن يعفو عن اخوته ، ولا يثربهم ، بل فضل أن يغفر لهم ، لاسيما وان التجاوز عن أمثالهم من أهل العناصر الطيبة يفيد في حسن حالهم ، كما ان المغفرة لذوي الخسة والدناءة تزيدهم تعدياً وطغياناً ، فقدقيل : « إن العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح الكريم » وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الرضا　　إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر :

إذا ما امرؤ من ذنبه جـآء تائباً　　إليك فلم تغفر له فلك الذنب

قيل : لما أُتِيَ بابراهيم بن المهدي الى المأمون شاور وزيره في قتله ، فقال له وزيره : « إن قتلته ، فلك نظراء ، وان عفوت عنه ، كنت الرجل الوحيد » فعفى عنه .

العفو أشد أنواع الانتقام

الوجه الخامس — وهو ان العفو اشد انواع الانتقام ، وهو مرارة ساعة ،

ثم السعادة الى الأبد ، والانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى ، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن اخوته ، ويصفح الصفح الجميل ، فقال بشفته وقلبه : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، وهو حقيق بذلك كله ، لأن المقدرة تذهب الحفيظة ، ولعمري لقد جاء عفوه عنهم تزكية لانتصاره عليهم .

أرحم الراحمين

المادة ٥ — تعليقاً على قوله :« وهو أرحم الراحمين » قال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح ، وقال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر ، وقال ﷺ : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة » رواه البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني عن أبي امامة ، واشار السيوطي في الجامع الصغير الى صحته .

العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة

المادة ٦ — في العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة عالية ، والعفو عن الناس هو من أسمى العواطف البشرية ، لأن الدين — الذي هو دين الفطرة — يخير المظلوم بين الانتقام ، قصاصاً وتأديباً ، وبين الغفران كرماً وتكريماً ، ولكنه يفضل الثانية على الاولى ، فالدين يقول في مقام المدح : ﴿ والذينَ يجتَنِبُونَ كبائِرَ الإثْمِ والفواحِشِ ، وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرون ﴾ — ثم يقول : — ﴿ والذينَ إذا أصابَهم البَغْيُ هم يَنْتَصِرُون ، وجزاءُ سيِّئَةٍ سيِّئَةٌ مِثلُها، فمَنْ عفَا وأصْلَحَ فأجرُهُ على اللهِ ، إنه لا يُحِبُّ الظالمين ، ولَمَنْ انتَصَرَ بعد ظُلْمِهِ فأولئكَ ما عليهم مِنْ سَبيلٍ ، إنما السَّبيلُ على الذينَ يظْلِمُونَ

الناسَ ، وَيبْغُونَ في الأرضِ بغيْرِ الحقّ ، أولئكَ لهم عَذابٌ أليمٌ ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمورِ ﴾ (٤٢ : ٣٧ - ٤٣) ، ويقول : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحوا ، ألا تُحِبُّون أنْ يَغفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢)، ويقول : ﴿ وأَنْ تَعفُوا أقربُ للتقوى،ولا تَنْسَوا الفَضْلَ بينَكُم ﴾ (٢ : ٢٣٧) ، ويقول : ﴿ وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِروا ، فإنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٦٤ : ١٤) ، ويقول : ﴿ وَسارعوا الى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم ، وَجَنّةٍ عَرْضُها السّموات والأرض ، أُعِدّتْ للمُتّقِينَ ، الذينَ يُنفِقونَ في السّراءِ والضّرّاءِ ، والكاظِمينَ الغَيْظَ ، والعَافِينَ عَنِ النّاسِ ، واللهُ يُحبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ (٣ : ١٣٣) ، قال « سليمان » عليه السلام : « إن مَنْ يَقْدر أن يملك عنان نفسه ، لهو عندي أفضل من الذي يفتتح المدن والأمصار » ، وقال « جوبير » : « خير الانسان أن يكون حاكم قلبه من أن يحكم الشعوب » .

غفران الاساءة واجب

المادة ٧ — تعليقاً على قوله : « يغفر الله لكم » بما ان الله تعالى يغفر لناالاساءة العظيمة يجب علينا أن نغفر لاخواننا إساءتهم الينا، وإن لم نسامح إخواننا فيزلاتهم معنا ، يغضب الله علينا ، ولا يسامحنا بل يعاقبنا ، فقد قيل : « إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر الله أيضاً لكم زلاتكم » قال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا ولْيَصفَحوا، أَلا تُحِبُّون أنْ يغفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ قل للذينَ آمَنُوا يَغفِروا للذينَ لا يَرْجُونَ أيامَ اللهِ ، ليَجزِيَ قوماً بما كانوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤٥ : ١٣) ، فالله تعالى مع كثرة رحمته شديد العقاب، فالايمان الذي لا يكون مصحوباًبالمحبة والمساحة ليس بايمان كامل ، ليس هو ايمان أهل البر ، ليس هو ايمان أهل الخير والتقى ، فأبواب السماء مغلقة في وجه القساة،

مغلقة في وجه الذين يحبون الانتقام لأنفسهم ، من حيث انه انتقام فقط ، لا لعلة اخرى ، مغلقة في وجه أهل الحقد والتشديد ، مغلقة في وجه من يطلب من الله المسامحة وهو لا يسامح إخوته .

من تاب غفر الله له

المادة ٨ — تعليقاً ايضاً على قوله : « يغفر الله لكم » : حصول المغفرة لهم أمر طبيعي ، لأنهم تابوا وأنابوا واعترفوا بما اقترفوا ، واذا كان الله تعالى يغفر للكافرين إذا تابوا كما قال : ﴿ قل لِلذينَ كَفَروا إنْ يَنتَهوا يُغفَر لهم ماقد سَلَفَ ﴾ (٣٩:٨) فالمؤمن أولى بالمغفرة متى انتهى ، وقال تعالى ﴿ ولوْ أنّهم إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جاؤكَ فاستَغفَروا ، واستَغفَر لهم الرسُولُ ، لوَجَدُوا اللهَ توابا رحيماً ﴾ (٤:٦٣) ، وقال تعالى : ﴿ ومنْ يعملْ سوءاً أو يظلمْ نفسَهُ ، ثم يَستَغفِر اللهَ ، يَجِدِ اللهَ عفوراً رحيماً ﴾ (٤:١٠٩) ، فهذه الآيات الكريمة ، ومماثلها مما هو كثير ، تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى بمجرد توبة اخوة يوسف قد غفر لهم ، أي غفر لهم حقه تعالى ، ومعلوم ان يوسف — وفي ضمنه بنيامين — قد غفر لهم أيضاً حقه ، فما بقي إلا حق أبيهم ، وسيأتي له أن يسامحهم.

ما هو الجزاء الذي وقع على اخوة يوسف حتى غفر الله لهم

وهنا أتذكر أنني كنت سئلت سؤالاً صورته :

ان الجزاء أثر طبيعي للعمل ، إنْ خيراً فثواب ، وإنْ شراً فعقاب ، وإن الله بعيد عن المحاباة : ﴿ فمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ خَيراً يرَهُ ، ومنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ شَراً يرَهُ ﴾ (٩٩:٧و٨) فهل ياترى وقع الجزاء لاخوة يوسف ، حتى نالوا هذه المغفرة عند اعترافهم بالخطأ ، مع أن الأعمال التي خطئوا بها إلى

الله وإلى أبيهم وأخويهم رهيبة ورهيبة جداً ؟ هـذا ماسألني عنه نبيل وذكي من الطلبة ، فاجبته بما صورته :

إنهم بتكذيب أبيهم لهم ، إذ قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ ،وبما ضيق عليهم يوسف في سفرتهم الاولى إذ قال لهم ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ، وبما ثرّبهم أبوهم اذ قال : ﴿ هـل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ ﴾، وبما شدد النطاق عليهم إذ قال :﴿ لن ارسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ ، وبما سُرّقوا حين قيل لهم : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ، وبما كذبوا حين قيل لهم : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ﴾ وبما سُقط في أيديهم ، وكأنما صب من فوق رؤوسهم الحميم ، وخجلوا أمام الممتارين ، وأمام المصريين وأهـل البلاط ، إذ استخرجت السقاية من وعاء أحدهم ، بعدما كانوا يقاومون هذه التهمة ، أشد المقاومة ، وبما أنهم رُدُوا وخُيبوا ، ولم تنجح مساعيهم ، ولم تقبل شفاعتهم ، حين قال لهم أخوهم : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجـدنا متاعنا عنده ﴾، وبما أنهم وقعوا بذلك في اليأس والحرج ، وهم غرباء والوقت وقت جـوع ، وعيالهم في انتظارهم على أحر من الجمر ، وبما أن « رأوبين » أنبهم ، وذكرهم بما يُحرجهم مع أبيهم ، وذكرهم بسابق عملهم مع أخيهم ، فقـال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ؟ ومن قبل مافرطتم في يوسف ؟﴾ وبما أن أباهم قد عاد فكذبهم في أن بنيامين سرق ، ونسب اليهم في ذلك دسيسة ومكراً ، فقال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ مع أنهم لم يكن لهم هذه المرة دسيسة ولامكر وبما أنهم وقفوا بين يدي أخيهم ، ضارعين مستكينين و﴿قالوا : ياأيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾، وبما أنهم عوتبوا ووصفوا بالجهالة ، ولم‌يسعهم‌إلا السكوت،

ساعة أن قال لهم أخوهم : ﴿ هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟﴾ وبما لحوا من طرف خفي الاشارة من أخيهم إلى براءته منهم ، وانتسابه لبنيامين فقط ، إذ قال لهم : ﴿ أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وبما أنهم سمعوا التعريض بهم أنهم لم يكونوا من أهـــل التقوى والصبر ، إذ يقول أخوهم أمامهم : ﴿ إنه من يتق ويصبر ، فان الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ ، وبما رأوا من حرج الموقف الذي اضطرهم أن يعلنوا اختيار الله لأخيهم دونهم ، وأنهم أَثمَة خَطاة ، إذ قالوا : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ ، ونضم لذلك ما كانوا يَرزَأون به في مدة ٢١ سنة ، من عدم توجه أبيهم اليهم وحنقه عليهم ، وأضف لذلك جميعه ما كان يعتريهم كل حينٍ من توبيخ ضمائرهم لهم،ولوم أنفسهم، إياهم ، وتمرمر معيشتهم ، فبحلول هذه النوازل عليهم ، وصبها فوق رؤوسهم ، علم أخوهم يوسف عليه السلام أنهم قد استوفوا جزاءهم جزاء وفاقاً ، وانهم لم يبق عليهم مايؤخذون به ، سوى الاعتراف ، فلما اعترفوا قال لهم : ﴿ اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ هذا هو الجواب ، والله الملهم للصواب ، فان أصاب الحز ، فمن نعمة الله الوهاب ، وإلا فما أنا أول واهم من بني آدم .

المغفرة والعفو والفرق بينهما

المادة ٩ — تعليقاً ثالثاً على قوله : ﴿ يغفر الله لكم ﴾: المغفرة من الغفر ، وهو لغة الستر ،وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه — لاينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر بالمرة ، فالعفو عن الذنب ، جعله كائن لم يكن ، بأن لايبقى له أثر في النفس ، لاظاهر ولاخفي . وبناء على هذا فالعفو لغة أبلغ من المغفرة ، وانما عبر يوسف بالمغفرة دون العفو مع انه أبلغ ، لأن إخوته لايطمعون في أكثر من أن يستر الله ذنوبهم في الآخرة بعدم الحساب والعقاب ، ومع كل هذا فالفرق بين اللفظين لغوي فقط ، وأما النتيجة فهي واحدة تقريباً .

المغفرة في التلمود والانجيل

المادة ١٠ — جاء في « التلمود » أن شريعة بني إسرائيل توجب على المُساء اليه أن يغفر للمسيء لحد ثلاث مرات ، لأن الإنسان عرضة للخطأ ، وأوسع منه ماجاء في « الانجيل » هكذا : ﴿ وإن أخطا اليك أخوك ، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما ، فان سمع منك ، فقد ربحت أخاك ﴾ (مت١٨: ١٥)، وفيه انه سئل المسيح :﴿ كم مرة يخطىء اليّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل الى سبع مرات ؟ — فقال المسيح : لااقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات ﴾ (مت :١٨: ٢١و٢٢)

فينبغى للبريء المظلوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمه ، وتبيينه له خطأه ، بدل أن يشكو الى الغير ، او ينتقم منه ، او يحقد عليه ، فيبقى العداوة له في قلبه ، وينبغي ان تكون المعاتبة سراً ، لأنه إذا عاتبه امام الناس اغتاظ منه ، او استحى بأن يقر امامهم بأنه اخطأ ، فيجتهد في تبرير نفسه ويقسو بذلك قلبه ، مع انه إذا انفرد به سهل عليه ان يقنعه بالحق ، وينبغي ان يكون العتاب بلطف وحكمة ، وبروح الوداعة ، والا اتسع الخرق على الراقع ، وعُمّق الجرح بدل ان يبرأ ، وصُب الزيت على النار ، بدلاً من ان يصب عليها الماء .

العبرة بالخواتيم

المادة ١١ — اذا تأمل الانسان فى حوادث الدهر ، وجدها سلسلة متصلة الحلقات ، كل حادثة منها وُلدت من اخرى ، لولاها لم تولد ، وبدونها لم توجد ، ورآى الخير آتياً من صلب الشر ، والشر نازلاً من صلب الخير ، حتى ينتهي الأمر بأنه يُحكم بعدم وجود خير محض ، ولاشر محض ، وبأنها أمور نسبية ، وينبغي أن يضع نصب عينيه ، ان ماىراه اليوم مصيبة ، قد يضمن في الغد سعادته ، وان

مايراه سعادة ، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته ، فالأمور بخواتيمها ، والحوادث يحكم عليها لا بصدورها ، بل بأعجازها .

فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف

المادة ١٢ — تتألف حوادث الحياة من ثلاثة فصول : فصل الأمل ، وفصل الجهاد ، وفصل الفوز ، فرؤيا يوسف وأحلامه وبشرى أبيه له يمثل الفصل الأول ، وصبره في غيابة الجب وعلى استرقاقه وعبوديته وعن شهوته البدنية وفي سجنه ، يمثل الفصل الثاني ، وفوزه برقيه على أريكة الوزارة بمصر وبانتصاره على زليخا والنسوة المصريات وعلى إخوته ، وبإتيان أبيه وأخيه وسائر أهلة يمثل الفصل الثالث .

الطريقة المثلى في المسامحة

المادة ١٣ — هذه الطريقة التي جرى عليها يوسف في مسامحة إخوته هي الطريقة المثلى التي مشى عليها وأوصى بها العقلاء من الناس .

قال الشاعر :(١)

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقال غيره :

تريد مهذباً لاعيب فيه ... وهل عود يفوح بلا دخان ؟

(١) هو بشار بن برد

وقال غيره :

لابــد للكامــل من زلة تخبره أن ليس بالكامــل

وقال غيره :

فقلت لهـا ياعَزّ كل مصيبـة إذا وطنت يوماً لها النفس ذَلتِ

وقال غيره :

وماقتل الأحرار كالعفو عنهم

وقال غيره :

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرىء لا يقبل العذر مذنب

وقال غيره :

احمد بحلمك مايذكيه ذو غلط من نارغيظك واصفح إن جنى جاني
فالحلم أفضل مازدان اللبيب به والأخذ بالعفو أحلى ماجنى جاني

اسباغ النعمة على اخوة يوسف

المادة ١٤ــ رأى يوسف أن هذا اليوم هو يوم أسبِغت عليه فيه النعمة ممن فوقه ، فناسب أن ينعم هو على من هو دونه ، وأيضاً إن الخصام مع الناس ،لاسيما الأقارب ، لاينبغي أن يتمادى ويطول ، بل يجب البت فيـه ولو بخسارة ، فإن الهم الذي يقلق كثيراً ، إنمـا هو الهم الحاضر الراهن ، أما الماضي فان الظروف الجديدة تُعَفيه ،والنجاح الجديد يزيل أثره ، فلذلك رأى يوسف عليـه السلام أن يسدل الستار على ميدان المعركة الحزبية ، ولم يرد أن يبعث من القـــبر جثة عفنة ، دفنت من زمن بعيد ، ولم يقض لها بالبعث والنشور ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوزوالظفر. (مرحى)

قميص البشارة

آ (٩٣) ﴿ ... إِذْهبوا بقَميصي هـذا ، فألقُوهُ على وجْـهِ أبي يأْتِ بصيراً ، وائتُوني بأهلِـكُمْ أجمعين ! ﴾

الجلسة وتليت الاية الثالثة والتسعون ، فقام السيد الغمراوي (١) وقال :

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ١ —

تحقيق عما هو هذا (القميص) وعن كلمة (بصير)

أنا ههنا لا أحب أن أعود إلى أقوال مفسري هذه الآية الكريمة ، ولكني أحب أن أجتهد في أن أصل إلى تفسير جديد ، احب ان احدث السامعين الكرام بصراحة وامانة وصدق ، احب ان اكشف لهم عما كان يختلج في ضميري منذ القديم في التحقيق عن هذا « القميص » وعن كلمة « بصير ».

« القميص » هو كسوة رسمية

هذا القميص هو « ثوب بوص » أي كتّان ، ذو شارات مخصوصة وهو كسوة رسمية ، لا يقدر أن يلبسها كل شخص ، وهذا القميص كان مليك مصر «الريان» ألبسه يوسف يوم أقامه وكيلاً عنه ،وبيان ذلك : أن يوسف لما خرج من السجن وقف بين يدي الملك الريان وكلمه يوسف بكلام يشف عن قوة عقل وغزارة علم،

(١) نسبة الى بلدة ميت غمر في القطر المصري .

فقال الريان له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » ـ فقال يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ـ فقال الملك لشوراه : « هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله » ،أي رحمته وإلهامه وقوته ، ثم قال الملك ليوسف: « بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون رئيساً في البلاط ، تكون ثانياً في المملكة ، بمنزلة ملك ثان ، فيطيعك شعبي حتى يعمل بكل حكمة تفوه بها بأوامرك ، انظر قد جعلتك على كل أرض مصر وخزائنها وغلاتها». وخلع الملك خاتمه من يده ، وجعله في يد يوسف عليه السلام ، وكان هذا الخاتم تختم به الأوامر ، فكان يوسف بذلك كالملك ، ثم ألبسه « الريان » قميص بوص. ووضع طوق ذهب في عنقه ، ومعنى « بوص » كتّان نقي أبيض ، وكان هذا ملبوساً رسميا ، امتاز به الملوك ، وأكابر البلاط والكهنة ، ثم أركبه مركبته. الثانية ، ونادوا أمامه : « اركعوا » « اركوا » ، وأتى الملك هذا الاحتفال ، ليبين لقومه أن يوسف عليه السلام صار حاكمهم في الدرجة الثانية ، لأن الملك الريان كان في مركبة تجري به ، وتجري وراءها مركبة اخرى بيوسف ، فهذا « القميص » متى وصل لسيدنا يعقوب ، عليه السلام ، علم أن ابنه زيادة عن انه حي، قد صار من رجال البلاط بمصر ، ومتى وقف على هذا الرمز ، عرف ما هي درجة ابنه ومنزلته في البلاط الملوكي ، وبَصُر بحاله ومآله ، إذ لا بد أن يعقوب عليه. السلام يعرف أن هذا النوع الرسمي من الأقمصة خصيص بأعظم رجال الحكومة. والكهنة ؛

وما أشبه هذه الحادثة بحادثة صبيّ بدوي فارق أهله منذ سن الحداثة بلباس البداوة ، وانقطعت عنهم أخباره ، لا يعلمون أحيّ هو أو ميت ، ولا يعلمون عنه شيئاً ، ولكنهم كانوا يترجون حياته ، ثم بعد عشرات من السنين ، أرسل ساعياً

لأهله يطمئنهم بحياته وسلامته، ويذكر لهم رتبته في الحكومة ، ودرجته في البلاط الملكي ، وعلامة لذلك ، ولزيادة البشارة قوة واعتباراً ، أرسل معهم لباساً من ألبسة الحكومة الرسمية ، التي يدل طرازها ، ويشير شكلها الى أن صاحبها ترقى الى درجة كذا من درجات رجال العسكرية أو المدنية ، أو الدرجات الدينية ، هذا هو المعنى المألوف قديماً وحديثاً ، المتبادر عرفاً ، الذي يساعده نقل المؤرخين ، « انظر تك ٤١ : ٤٢) مع شرحه « السنن القويم » ، هـذا هو القميص الذي تَبَصَّر به سيدنا يعقوب حياة ولده ، وعلم به حاله ودرجته في الحكومة .

« البصير » هو العالم علماً قلبياً

إن ماسبق هو تحقيق معنى « القميص » وأما تحقيق معنى « بصير » فقد قال في المصباح : (أَبْصَرْتُهُ برؤية العين إبصاراً ، وبَصُرْتُ بالشيء بَصَراً : عَلِمْتُ فأنا بصير به ، وهو ذو بَصَر وبصيرة أي علم وخبرة) ، وقال في الأساس : (بَصر بعمله : صار عالماً به ، وهو بصير به وذو بَصَر وبَصَارة ، وهو من البُصَراء بالتجارة ، وبصَّرْتُه كذا وبَصَّرْتُه به ، علمته إياه ، ورتبتُ في بستاني مُبَصِّراً : أي ناظراً ، وهو الحافظ) ، وقال في المختار : (أَبْصَرَه : رآه ، وبَصُرَ به : عَلِمَ ، وبابه ظَرُفَ فهو بصير) ، وفي القاموس : (البَصَر محركة : حس العين ، والجمع أبصار ، ومن القلب نظره وخاطره ، ومن معاني البصير العالم) وفي لسان العرب : (البصير العالم ، قال معاوية : البصير خير من الأعمى) .

فنعلم من مجموع هذه النقول ونحوها من أمهات كتب اللغة الموثوقة أنه يقال : (أَبْصَرَ يُبْصِرُ إبصاراً فهو مُبْصِرٌ ، وهذا فيما كان برؤية العين : ويقال : بَصُرَ يَبْصُرُ بَصَراً فهو بصير ، مثل كرم يكرم كرماً فهو كريم ، وهذا فيما كان برؤية القلب ، وبعبارة أخرى : هو بمعنى العلم ، وجمع مُبصِرٍ مُبصِرون:

أي بالعين ، وجمع بَصير بُصَراء : أي بالقلب ، وتأنيث مُبْصِر (بالعين) مُبصِرة كما أن تأنيث بصيرٍ (بالقلب) بصيرة ، وأما البَصَر محركة فجمعه أبْصَار ، سواء أكان حس العين أو بالقلب ، وكما يجمع على بُصَراء يجمع على بصيرين ، وهو ما كان من قبيل العلم والمعرفة بالقلب ، وأما مُبصر فجمعه مُبْصرون وهو ما كان بالعين . وأنتم تعلمون أن « بصيراً » صفة مشبهة ، والصفة المشبهة لا تصاغ قياساً إلا من فعل ثلاثي لازم ، وشذ نذير من أنذر ، (فبصيراً) هو مشتق من بَصُر ، أي بالقلب ، لا من أبْصَر : أي بالعين ، مامن ذلك بد ، وأما قول بعض اللغويين (والبصير ضد الضرير) ففيه تساهل وبعد عن التحقيق ، وأظن أن الذي دفعهم لهذا التعبير إرادة السجع .

ولم يرد في كتاب الله تعالى استعمال لفظ (مُبصِر) إلا وهو من معنى الرؤية بالعين ، كما لم يرد فيه استعمال لفظ (بصير) إلا وهو لدى التدقيق بمعنى العلم بالقلب ومنه قوله تعالى : ﴿ قال رَبِّ ، لِمَ حَشَرْتَني أعمى ، وقد كنتُ بَصيراً ﴾ (٢٠ : ١٢٥) فاعمى أي عن حجته ، وقد كان في الدنيا بصيراً بحجته فيما يزعم إذ كان عنده شبه حجة بحسب تصوره ، فاعمى ههنا بمعنى جاهل ، وبصير بمعنى عالم وكذا لم يرد في القرآن الكريم استعمال لفظ (أبصر) إلا بمعنى رآى بعينه ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَستُبْصِرُ ويُبْصِرون بأيِّكم المَفْتُون ﴾ (٦٨ : ٥ و٦) فمعناه : فسترى يامحمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب بأيكم المفتون ؟ قاله البغوي في تفسيره ، أي سترى ويرون الأسباب المشاهدة التي يتبين منها من هو المفتون ، أو يقال عبر بالإبصار مبالغة ، إشارة إلى أن هذا الشيء الذي سيعلمونه واضح جلي جداً ، كأنه محسوس بالنظر .

وكذا لم يرد في كلامهم استعمال (بَصُرَ به) إلا بمعنى العلم بالقلب ، ومنه ماحكى عن السامري : ﴿ بَصُرْتَ بما لم يَبْصُروا به ﴾ (٢٠ : ٩٦) أي

علمت مالم يعلموا وأدركت مالم يدركوا ، هـذا هو المعنى الصحيح على التحقيق الذي ذهب اليه أبو مسلم الأصفهاني في معنى الآية ، وأما قوله تعالى : ﴿ فبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ (٢٨ : ١١) فلما كان الابصار فيه بالعين من طريق المخاتلة والتجانف والازورار كان كأنه ليس نظراً بالعين ، بل علماً بالقلب ، فلذلك عبر فيه بالفعل الثلاثي ، على أن (بَصُرْتُ بِمَا لم يُبْصِروا به) و (بَصُرتْ عَنْ جُنُبٍ) ليسا فعلين لازمين ، « بل هما متعديان بمعنى الإبصار ، ففي إغاثة اللهفان : (بَصُرَ به وأبْصَرَه ، يُعدى بالباء تارة ، وبالهمز أخرى) .

إذا علمت كل هذا علمت أن لفظ (بصير) في قوله تعالى ﴿ يأت بصيراً ﴾ يَصِرْ بَصيراً بحال ولده يوسف ، كقولك يجيء البناء محكماً ، بمعنى يصير ، ويشهد له (فارتد بصيراً) أي صار بصيراً ، ولا يجوز لغة تفسير لفظ (بصير) بمبصر ، لاختلافهما في المعنى اختلافاً واضحاً ، لأن (بصيراً) كما قلنا صفة مشبهة من بَصُر بمعنى علم ، وهو ثلاثي لازم ، وبابه كَظُرفَ ، وأما (مُبْصِر) فهو اسم فاعل من أبْصَر : بمعنى رآى بعينه ، وهو رباعي متعد وبابه كأكرم ، فبينهما في اللغة فروق متعددة ، وكما لايجوز تفسير (بصير) بِمُبْصر من حيث اللغة ، فلا يجوز أيضاً تفسيره به من حيث الشريعة ، لأن العمى لايجور على أنبياء اللهومظاهر أمره لأنه من الداآت المنفرة لطبائع الجمهور والأنبياء منزهون عن كل منفر للطبيعة ، هذا ماأراه في تفسير كلمتي « القميص » و « بصير » ولست أبالي أن أجهر برأيي مادمت أعتقد أنني على حق ، وأما من يكلفني أن أمشي على فكر غيري ، فاني اسف على عدم استطاعتي امتثال أمره ، أسفي على إهماله مداواة نفسه .

يعقوب يصير عالماً علماً قلبياً بحال ابنه يوسف

إذا تقرر هذا يكون معنى الآية الكريمة هكذا : قال يوسف لاخوتـــه :

﴿ الوَحَى الوَحَى ، والنجاءَ النجاء ﴾ قوموا يمموا شطر فلسطين ، اوغلوا في السير ، انتجعوا (قرية اربع) او « سيلون » (إذهبوا بقميصي هذا) الذي يمثل الوظيفة والزلفى من التاج ، وهو القميص الرسمي الحكومي ، قميص « البوص » ذو الشارات المخصوصة ، الذى لايلبسه الا كبراء رجال البلاط والكهنة،ولا يقدر أحد أن يلبسه سواهم ، القميص الذي البسني إياه مليك مصر « الريان » يوم ماولاني « الصدارة » العظمى والوكالة العامة عنه ، وجعلني على خزائن أرض المملكة الهكسوسية ، و « عزيزاً » بالديار المصرية - فما هو الا أن أمر يوسف بعض فتيانه أن يذهب لقصره ، ويأتي له من مشجبه بقميص اعتيادي غير رسمي ،ثم نضا عنه قميصه الرسمي ، ولبس ماأتي به اليه وسلمه يوسف لاخوته مؤقتاً ، ليراه أبوه ثم يرجعوه معهم — ثم قال لهم :

(فألقوه) أي أطرفوه وعرضوه (على وجـه أبي) المتضمن ذلك القاءه على عينيه ، حتى يراه ، فمتى رآه وعرف حقيقـة حالي ومركزي (يأت) أي يَصِرْ (بصيراً) عالماً وعارفاً بما أنا عليه في دار الحكومة المصرية ،فاهماً كل شيء بوضوح وجلاء ، واقفاً على ما كان قد خفي عليه ، مكتشفاً لما انطوى عن إدراكه وبصيراً ههنا مقابل جاهلاً — ثم قال يوسف لاخوتـه : واسرعوا الكرة (وائتوني بأهلكم) زوجاتكم واولادكم وإمائكم (اجمعين) لكي تظفروا بنعمة العيش في ظلال حكومة مصر ، وتساووا اهلها في مظاهر الحياة .

واما اخوته فسمعوا هذه المقالة منه ، فحلت على نفوسهم المعذبـة بما كان من تقاطع وتباغض برداً وسلاماً ، والتفت حولها قلوبهم ، واكبروا صدورها عمن كانوا آذوه وشردوه ، واخيراً سعوا اليه حين احتاجوه .

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ٢ —

وقام الطبيب بن الحارث وقال :

تفسير (يأت بصيراً) يجيء مبصراً بعينيه

أرى أيها السادة الأكارم انه يحسن بنا أن نفسر جملة « يأت بصيراً » «بيجيء مبصراً بعينيه » لأن الحوادث الجسام التي مرت بسيدنا يعقوب عليه السلام ، والمؤثرات النفسانية والانفعالات الروحية المفاجئة التي اصابته أدت الى فقد حس الرؤية عنده ، كما ستؤدي إلى عودة هذا الحس له عند مفاجأته بالقاءالقميص الرسمي لولده يوسف على وجهه.

والطب الحديث يؤيد هذا الرأي ، إد يوجد فيه حالة مرضية تدعى « العمى الروحي او النفسي » تحدث بتعرض الأشخاص إلى صدمة تأثرية — فرح أوحزن — مفاجئة ، وتؤدي إلى فقد الذاكرة البصرية عندهم ، كما تعود لهم هذه الذاكرة بصدمة تأثرية مفاجئة اخرى — فرح أو حزن .

وهذا ماحصل لسيدنا يعقوب عليه السلام، إذ أنه فقد ذاكرته البصرية بسبب صدمة الحزن التي فوجيء بها حينما بلغه اولاده نبأ افتراس الذئب لولده يوسف ، ثم عادت له هذه الذاكرة بسبب صدمة الفرح التي فوجيء بها حينما اتى اولاده بقميص يوسف الرسمي والقوه على وجهه .

وعلى ذلك يمكن ان نشرح جملة « يأت بصيراً » بيجيء اليّ وهو مبصر بعينيه ، سليم من كل مرض فيهما ، بريء مما كان اعتراهما من ابيضاض او فقد حس الرؤية بمجرد القاء « قميصي » على وجهه ، بسبب فرحه وسروره بوقوفه على حياتي وعلى مركزي ، إذ انه بملامسة قميصي كانما لامس شخصي — ولا بدع

في كون المحب يبرأ من مرضه بملامسة اثر محبوبه — وعليه فكلمة « بصـــير ». تـكون مقابلة لكلمة « اعمى ».

هذا مافتح به الرحمن علي ألقيته على مسامعكم الشريفة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وهنا قال رئيس المؤتمر : هذا كلام خطيبينا السيد الغمراوي والطبيب بن الحارث نتركه الان على علاته ، ومن غير تحليل له أو إبداء رأي فيه ، كما يتطلبه الحياد التام مني ، وأترك حق الحكم فيــه لمن يسمع ومن يقرأ فقط .

(قالون)

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ٣ —

وقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال .

تأويل « القميص » بالرتبة العالية

سادتي : قبل كل شيء إني احبذ ما فهمه السيد الغمراوي في كلتي « قميص » و « بصير » ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أفهم في لفظ « القميص » وحده فهماً ثانياً على وجه الاحتمال ، وتقريره هكذا :

يقولون : « من قمصك هذا القميص ؟ » أي من جعلك في هذه الدرجة والرتبة العالية ؟ وفي الحديث الصحيح خطاباً « لعثمان » رضي الله عنه « إن الله سيقمصك قميصاً » ، أي سيلبسك لباس الخلافة ، كما في القاموس وشراح الصحيح ، وقد روينا في سنن ابن ماجه : « ياعثمان ان ولاك الله هذا الأمر ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » ، وفسر شراحه هذا القميص بالخلافة ، وفي نهج البلاغة : « لقد تقمصها ابن أبي قحافة ، وهو يعلم أن محلي منها ، محــل

القطب من الرحى » ، واستشهادنا بهذا القول ، لا يعني اننا نعتقد انه صح عن علي كرم الله وجهه ، ولكنا نريد منه ان هذا النوع من الاستعمال وارد في اللغة العربية .وإذا قلنا إن علياً (رض) قاله ، قلنا : إنه قاله على وجه الاجتهاد ، والاجتهاد يحتمل الإصابه وغيرها ؛

وللمنصور من خطبة بالمدائن بعد قتل أبي مسلم : « إن من نازعنا عروة هذا القميص ، أجززناه خبيئة هذ الغمد » .

وقد كان رجل اسمه « شبْنا » وكيلاً على قصر الملك « حزقيا » في مملكة بني اسرائيل الجنوبية ، وقد كان أنذره الله تعالى بقوله بلسان النبي « أشعياء » : « أطردك من منصبك ، وأدعو عبدي « الياقيم » وأُلبِسهُ « ثوبك » وأجعل سلطانك في يده » (اش ٢٢ : ١٩ ـ ٢١) ، ومعنى « ألبسه ثوبك » أ ُقيمه على قصر الملك « حزقيا » عوضاً عنك ، فيكون لا بساً ثوب السلطة على قصر الملك .

فنتعلم من مجموع هذه النقول ان إطلاق « القميص » أو « الثوب » على المنصب الجليل اصطلاح معروف في اللغة العربية كما فيما قبلها من اللغة العبرية ؛

إذا تقرر هذا « فالقميص » ههنا هو أمر معنوي، وهو « وزارة المالية » ،في مملكة مصر ، أو هو « الوكالة المطلقة » عن مليكها ، أو هو كونه « عزيزاً بمصر » فان يوسف عليه السلام كان حائزاً على هذه المناصب كلها ؛

انتقاد تأويل « القميص » بالرتبة العالية والرد عليه

وأذكر ان طالباً من بلدي « دمياط » كان سافر للأزهر الأنور بمصر لتكميل تحصيله ، فنقل عني لبعض علماء الأزهر ، أني أذهب الى هذا الفهم الاحتمالي في كلمة « قميص » ههنا ، فكان هذا العالم أنكر هذا الاحتمال ، وأرسل الي رقياً في البريد يحتج علي فيه بتفسير المتقدمين ، وليس هذا الانكار لشيء سوى أني خالفت

فيه كلام المفسرين الذين قالوا ، في تفسير هذا « القميص » « إنه القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله اليه فان فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي » ويؤسفني انه فات هذا الفاضل ان التفسير ليس وقفاً على ناس دون آخرين ، وليس هو سلعة تباع وتشترى ، أو أن هذه السلعة ملك لقوم دون سواهم ، فلا يجوز أن تعرض في حانوت غير حانوتهم ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وان القميص الذي أنزله المفسرون من الجنة ، لم يسندوه الى حديث أو رواية صحيحة عن صحابي أو نحوه من التابعين ممن يوثق بنقله، ولعمري إن هذا «القميص» بالصورة التي ذكرها المفسرون لهو من أبعد البعيد ، ولا يصدقه الا من يصدق تمثال « الزرزور » الذي في « رومة » . هذا وأرجو أن يحمل كلامي على حسن النية ، وحب الحقيقة ومع ذلك فلست أقول إن تفسيري « القميص » بما ذكرته هو الصحيح وما ذكره المفسرون هو باطل ـ حاشا ـ فاني إنما ذكرت ما ذكرته على وجه الاحتمال مع إمكان صحة ما سواه ولو بعيداً ، وإني لا أبتغي هدم القول القديم ، قبل تأسيس الجديد وقبوله عند أولي النظر ، نعم إنني لا أهدم بيتي العتيق إلا إذا وجدت لي مسكناً جديداً صالحاً للسكنى فيه ، وعلى كل حال ، فأرجو من هذا العالم الفاضل أن لا يؤآخذني اذا رآني قد خالفت ساداتنا المفسرين في رأي رأوه ، فان الذهاب الى الحق هو فوق الأدب معهم ، وان « بروتوس » كان يقول: « إني أُحب قيصر ، ولكن رومية أحب إليّ » ، وان مذهبي في تفسير القميص يعبر عن رأي خاص يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته ، وأما قارئوه وسامعوه فلا يتحملون منه شيئاً ؛

وقبل الفراغ من هذا البحث أرجوكم أن تذكروا ماقاله أحد الأئمة وهو الأمام أحمد بن حنبل (رض) : (ثلاثه لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي) ولا يخفى عليكم قدر أحمد في العلم .

تفسير (القميص والالقاء والوجه) بأمر معنوي من باب الاستعارة وترشيحاتها

ثم أذكر إن جمعاً من طلبة الأزهر المجيد ارسلوا أيضاً الي كتاباً في البريد يقولون فيه إن تفسيري « للقميص » بالمنصب ، وهو أمر معنوي لا يتلاءم مع قوله بعد : (فألقوه على وجه أبي) فلذلك كنت أرسلت لهم الجواب بأن هذا « القميص » في عبارة سيدنا يوسف . استعارة مصرحة أصلية جارية في الأسماء ، وقوله ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات لهذه الاستعارة ، كما في: « بصق في وجهه » بمعنى استخف به ، كما قاله صاحب الأساس ، فليس هناك بصق حقيقي ، ولا وجه مبصوق فيه ، وإنما المراد الاستخفاف فحسب ، وكذلك يقال فيما نحن فيه : « ليس هناك قميص حقيقي ، ولا وجه ملقى عليه ذلك القميص وإنما المراد بجملة « فألقوه على وجه أبي » ، أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي، وأحيطوه علماً بما أنا عليه » .

وحيث أن هؤلاء الطلبة السائلين أو المستشكلين كانوا أربعة عشر شخصاً ، أتيت بأربعة عشر شاهداً ، هي نظائر لهذه الآية الكريمة لتكون هذه الشواهد على عدد السائلين واليك بيانها :

١ً — قول زهير الشهير :

لدى أسد شاكي السلاح مُقَذَّفٍ ... له لبد ، أظفاره لم تقلمِ

فقوله « مقذف » أي مرميّ باللحم ، و « له لبد » و « أظفاره لم تقلم » ترشيحات ثلاث لهذه الاستعارة ، ومعلوم أن مبنى الاستعارة على طيّ ذكر المستعار له ، ومن ثم نرى البلغاء المفلقين ، امرآء الفصاحة النابغين ، يتناسون في الاستعارة التشبيه ، ويضربون عن توهمه صفحاً ، وكأنهم يريدون بالمستعار معناه الحقيقي ، فلذلك أثبت الشاعر للرجل الشجاع التقذيف ، واللبد والأظفار التي لم تقلم ، وهي أمور لا تناسب الا المعنى الحقيقي ، وانما أثبتها للمعنى المجازي مبالغة

وتقوية للتشبيه كانه في آيتنا لمعنى« القميص »المجازي الاشارة الحسية ،والذهاب به ، والإلقاء به على الوجه ، وهي ترشيحات للتشبيه وتقوية للمعنى المجازي ، كأنه هو المعنى الحقيقي ، التي لا تستند هذه الأمور الثلاثة الا له .

وكما من الغلط الفاضح أن يقول قائل : لا يصح أن يكون « زهير » أراد من « الأسد » المعنى المجازي وهو الرجل الشجاع بدليل قوله :« مقذف ، له لبد ، أظفاره لم تقلم » ، فكذلك من الغلط الفاضح أن يقول قائل : « لا يصح أن يكون يوسف أراد بالقميص المعنى المجازي وهو المنصب في البلاط الملوكي ، بدليل قوله : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي »،فافهم هذا التحقيق ،فانه بالفهم حقيق؛

٢ — قول أبي تمّام :

فما زال يصعد طرق العلا الى النجم مرتدياً بالسَّناء[1]
ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

فحقيقة « يصعد » العلو الحسي في المكان العالي ، ولكنه استعار الصعود للعلو في المرتبة ، وبنى عليه انه صار مع النجم مرتدياً بالرفعة وأن الجهول اذا رآه هكذا ظن أن له حاجة في السماء ، وكل هذه ترشيحات للتشبيه لاتناسب الا المعنى الحقيقي ، وإنما ذكرت مع المعنى المجازي وهو الرقي المعنوي الرتبي ، تقوية الاستعارة ، وكذلك الأمر ههنا في آيتنا ؛ ذكر الإشارة الحسية والذهاب بالمشار اليه والقائه على وجه أبيه ترشيحاً للاستعارة كأن هذا « القميص » المجازي هو قميص حقيقي .

٣ — قول القائل :

هي الشمس مسكنها في السما ء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعو د ولن تستطيع اليك النزولا

(١) الرفعة .

لما أخبر عن محبوبته بأنها الشمس ، جعلها كأنها عينها ، وبنى على ذلك مسكناها في السماء . وانه لا يستطاع الصعود اليها ، وهي لاتستطيع النزول ، فهذه كلها ترشيحات للتشبيه ، انما تناسب المشبه به ، فكذلك في آيتنا الكريمة .

٤ً — قول العرب في البليد : (رأيت حماراً له أذنان خطلا وان) استعاروا الحمار للبليد ، وأثبتوا له أذنين خطلاوين ، أى مسترخيتين طويلتين ، ترشيحاً لتلك الاستعارة لأن الأذن الخطلاء من لوازم الحمار الحقيقي .

٥ً — قول الشاعر :

ولما رأيتُ « النَّسرَ » عَزَّ « ابن دايةٍ »
و « عشَّشَ » في « وَكْرَيْهِ » جاش له صدري

يعني لما رأيت شعر الشيب الأبيض غلب شعر الشباب الأسود ، حل ونزل في الرأس واللحية ، ارتاع واضطرب منه قلبي ، فالشاعر استعار لفظ « النسر » للشيب ، ولفظ « ابن داية » وهو الغراب ، للشعر الفاحم ، ورشح الاستعارة بذكر « التعشيش » وهو عمل العش وأخذه ، ثم بذكر « الوكر » وهو موضع الطائر ، الذي يأخذه ويعمله للتفريخ .

وأعلم أن الترشيح قد يكون باقياً على حقيقته ، تابعاً للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها ، وقد يكون مستعاراً من ملائم المستعار منه ، لملائم المستعار له ، كما في هذا البيت ، فانه استعير لفظ « الوكرين » من معناه الحقيقي ، للرأس واللحية ، أو الفودين ، أعني جانبي الرأس ، وأستعير لفظ « التعشيش » للحلول والنزول فيها وكذلك الأمر في الآية الكريمة ، فانه استعير فيها لفظ « الالقاء على الوجه » للانباء وإحاطة علم يعقوب عليه السلام بمنصب ولده يوسف .

٦ً — قول بعض العرب ، يبين حاله مع أمه :

إذا الشيطانُ قصَّعَ في قَفاها تَنَفَّقْناهُ بالحبلِ التؤآم

يقال (قصّع فلان اليربوع) : إذا اخرجه من قاصعائه ، أي من جحره ، ودخل هو فيه ، « وقصّع الشيطان في قفا فلان » إذا ساء خُلُقه وغضب ، كأن الشيطان دخل في قفاه وصار يُبرز منه الغضب وسوءَ الخلق ، ويقـال : ﴿تنفّق اليربوع﴾ أي خرج من نافقائه ، و« تَنَفقْتُه » أي استخرجته منها ، والحبـل التوآم : المثني المجدول على طاقين .

استعار « التقصيع » أولاً ، لغضب أمه وإثارة خلقها ، ثم ضم اليه « التَنَفُّق » مستعاراً للاجتهاد في إزالة غضبها ، واماطة مايسوء من خلقها ، ثم جعـل « الحبل التوآم » مستعاراً لسبب قوي ، يتوصل به لتلك الإزالة ،« فالحبل » هو بمعنى السبب، وهاتان الاستعارتان تابعتان للاستعارة الأولى ، ومرشحتان لهـــا باعتبار لفظها ، وعليه فمعنى البيت :

إذا دخل الشيطان في قفاها ، ليُبرز منها الغضب ، استخرجناه من نافقائـه بالحبل المثنى المحكم ، يريد إذا غضبت وساء خلقها اجتهدنا في إزالة غضبها ، وإماطة مايسوءُ من خلقها ، فهو لما استعار أولاً « التقصيع » أتبعه بما يشاكلـه ويوآخيه ، وهو « التنفق »و« الحبل التوآم » ، فهذان اللفظان ترشيحان للاستعارة يقصـــد منها تقويتها ، فلا يقول « إن التنفق والحبل التوآم لايناسبان المعنى المجازي ، فـلا يجوز المصير اليه »— الا ّ كل جاهل باساليب اللغة العربية وطرق البلغاء المفلقين ، كما ان ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجـه أبي ﴾ ترشيحات للاستعارة ، يقصد منها تقويتها ، فلا يقول أيضاً « ان الذهاب بالقميص والاشارة الحسية اليه والقاءه على الوجه ، أمور لاتناسب المعنى المجازي ، فلا يجوز المصـير لذلك المعنى المجازي » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية ، وطرق البلغاء المفلقين.

٧ — قولهم ﴿ من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً ﴾، « فالجب »استعارة مرشحة ، والحفر والوقوع والانكباب على الرأس ، ترشيحات لهذه الاستعارة.

٨ً – قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتَرَوا الضَّلالةَ بالهُدَى ، فما رَبِحَتْ تِجارَتُهم وما كانوا مُهتَدِين ﴾(١٦:٢) فمعنى اشتراء الضلاله بالهدى ، اختيارها عليه واستبدالها بـــه ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ولما استعار الاشتراء للاستبدال ، ذكر الربح والتجارة على وجه الترشيح ، كان ثمَّ مبايعة على الحقيقة .

٩ً – جاء في القرآن :﴿ قال بَصُرتُ بما لم يَبْصُرُوا به ، فَقَبَضتُ قبْضَةً من أثرِ الرسولِ ، فنَبَذْتها ﴾ (٩٦:٢٠)، فهذا « السامريّ » علم من معجزات الرسول موسى ، وفطن بما لم يفطنوا له ، من علائم صدقه ، فآمن به وأخذ جانباً من شريعته ، وشيئاً من طريقته ، ولكنه لم يلبث أن رفض تلك الطريقة ، بحسب تسويل نفسه الأمارة بالسوء ، « فالقبض » استعارة مصرحة تبعية والقبضة والأثر والنبذ ، ترشيحات لها ، لأنها من مناسبات المشبه به .

١٠ – قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخَـــذَت الأرضُ زُخرُفَها ، وازّيّنَتْ ، وظَنَّ أهلها أنهم قادِرون عليها ، أتاها أمْرُنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حَصيداً ، كأنْ لم تغْنَ بالأمس ﴾ (٢٤:١٠) ، شبه الأرض بالعِرْس ، واستعار لفظ العِرس وحذفه ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الزخرف والزينة ، وإتيان الأمر اليها ، فأخذ الزخرف والتزين وإتيان الأمر اليها ترشيحات لهذه الاستعارة المكنية .

١١ً – قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شَفا حُفرةٍ منَ النار ، فأنْقَذَكم منها ﴾ (١٠٣:٣)، شبههم وهم كافرون بمن جلسوا على حرف حفرة من حفر النار ، وشبه نفسه تعالى بتوفيقه إياهم الاسلام وتخليصهم من الكفران بمنقذ أنقذ الجالسين على حرف الحفرة ، أو استعار شفا حفرة النار – للباطل ورشحه بالانقاذ ، وكما أن الانقاذ ، لا يناسب إلا المعنى الحقيقي ، ولكن جيء به تقوية للاستعارة، فكذلك

الذهاب بالشيء والاشارة الحسية والإلقاء على الوجه في الآية الكريمة ، هي نعم أمور لاتناسب الا القميص الحقيقي ، ولكن جيء بها تقوية للاستعارة.

١٢ـ قوله تعالى : ﴿ أفَمَنْ أسَّسَ بُنيانه على تَقْوى منَ اللهِ ورِضوانٍ ، خَيْرٌ ، أم منْ أسَّسَ بُنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ ، فانهارَ به في نارِ جهنم ؟ ﴾ (٩:١١٠)، « شفا الجرف » مجاز عما ينافي التقوي من الباطل والنفاق ، والعلاقة قلة الثبات والاستمساكِ ، جعل « الجرف الهائر » مجازاً عن الباطـل ، فرشحه بلفظ « الانهيار » الذي هو للجرف ، ليصور أن المبطل كأنـه أسَّس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، أو يقال شبه بناء مسجد الضرار في كونـه سبباً ملقياً في النـار ببناء بني على حرف جرف من رمل لايثبت حتى يسقط في الجرف الهـار .

١٣ـ قوله تعالى : ﴿ قد مَكرَ الذينَ منْ قَبْلِهم ، فأتى اللهُ بُنيانهم مِن القواعدِ ، فخَرَّ عليهم السَّقْفُ منْ فوقِهم،وأتاهم العذابُ منْ حيثُ لا يَشعُرون ﴾ (١٦:٢٦) شبه المكر بصرح ، وحذفه ورمز اليه بشيء من لوازمـه ، وهو البناء على سبيل الاستعارة المكنية ، وذكر القواعد والخرور والسقف والفوقية ــ ترشيحات لهذه الاستعارة .

١٤ـ سمعت بعض العرب يقول عن رجل رشى الحاكم بعشرة دنانير ذهبية: « سقاه عشرة أقداح من الخمرة شربها ، فغاب عن صوابـه فحكم له بما أراد » ، فالأقداح استعارة تصريحية وهي مجاز عن الدنانير ، والسقي والشرب والغيبوبة ترشيحات لهذه الاستعارة ، لانها تناسب المعنى الحقيقي .

تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله : اذهبوا بقميصي هذا ... الخ

اذا تقرر هذا ، نقول ههنا في آيتنا الكريمة التي نحن بصدد شرحها : استعار

« القميص » للمنصب الذي قمِصَّهُ ، وتناسى التشبيه ، وجعل « القميص » كأنه مستعمل في معناه الحقيقي ، وبني عليه مابني على القميص الحقيقي ، وهو الثوب المحسوس الذي يذهب به ويشار اليه ويلقى على الوجه ، وبعبارة أخرى : لما استعار « القميص » للمنصب والوزارة التي له ، أتبعه بما يشاكله ويوآخيه، ومايكمل بانضمامه اليه ، تقوية للاستعارة ، وليصور للسامع أن المنصب كأنه قميص حقيقي، مبالغة في التشبيه ، وهذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تُقَفَّى باشكال لها وأخوات ، اذا تلاحقن ، لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر رونقاً ، وهو المجاز المرشح بصفة أو تفريع كلام يلائم المعنى الحقيقي ، فالتعبير بالالقاء على الوجه ، لاينافي أن « القميص » مجاز عن المأمورية ، لأنه ترشيح ، بل ليست اللغة العربية وحدها هي المصطلحة على مثل هذه العبارات المجازية المرشحة بما يناسب المعنى الحقيقي ، بل جرى على ذلك كل لغات العالم ، والناس يفهمون هذه العبارات على ماوضعت لتأديته ، لاعلى لفظها ، فمثلاً لوقال رجل عن آخر : « إنه يعبد الورد » فلا يحق لنا أن نقول : إن هذا الرجل مشرك قد عبد « الورد » مع الواحد الأحد ، الذي لايعبد سواه ، وكذا لو قال رجل : « دخلت الحمام فاذا في الخلوة عند جرن الماء أسد ذولبد واظفار لم تقلم ، وهو يزمجر بصوت كالرعد يرعب السامعين » فلا يحق لنا أن نقول : انه حقيقة هو الوحش المفترس الضاري ، اغتراراً بما اكتنف هذه الاستعارة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي ، وهكذا في الآية الكريمة لايحق لنا أن نقول : إن هذا « القميص » حقيقة هو الثوب الذي يلبس على الجسم، اغتراراً بما اكتنف هذه الكلمة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي .

وتتمة القول : إذا جاز في المثال الأول ترشيح « الأسد » المجازي بأنه مُقَذَّف وله لبد ، وله أظفار لم تقلم ، الأمور التي لاتناسب « الأسد » المجازي ، وانما تناسب الأسد الحقيقي .

واذا جاز كما في المثال الثاني ترشيح الصعود المعنوي يظن المجهول أن للممدوح حاجة في السماء ، الأمر الذي لايلائم الا الصعود الحسي في المكان.

واذا ... واذا ... الخ .. الخ .. فلِمَ لايجوز أن يقال : إن هذا « القميص » مجازي ، وقد رشح بما هو من خصائص القميص الحقيقي مبالغة في التشبيه؟

وما الفرق بين الكلمة التي هي موضوع حديثنا وبين هذه الأمثلة الأربعة عشر التي ذكرناها ؟.

اللهم لافرق ، ولاصعوبة في قبول هذا المعنى الجديد ، لولا الجمود على المعنى الذي نحا اليه المفسرون .

اذا تقرر هذا فيكون المعنى :

تفسير الآية بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها

(اذهبوا) سراعاً (بـ) خبر (قميصي هذا) وهو المنصب الكبير الذي علمتموه وتحققتموه ، حتى صار عندكم كالمحسوس الذي يشار اليه ، (فألقوه على وجه أبي) أي فأحيطوه علماً به لأن هذه الكلمة كما حققناها ترشيح للاستعارة ، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته لايقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يجري فيه التجوز أيضاً فيستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، لمعنى يلائم المشبه ، على ما ذكره علماء البيان — وقولوا له : قد عثرنا على عكاز شيخوختك ، ومستودع أسرارك وقبلة آمالك ، وطبيب أحزانك ، ومداوي بثك وهمك ، ومضمد جراحك ، قد عثرنا عليه عزيزاً بمصر ووزير مالية بها ، ووكيلاً عن مليكها الريان في البلاط فان أوقفتموه على جلية الواقع (يأت بصيراً) عالماً وعارفاً ، لأن خبر هذا القميص يشف له عن الواقع ، فتظهر له الحقيقة بيضاء ناصعة ، لا غبار عليها ، ويكشف.

له عن سريرة ولده يوسف بالتفصيل ، بعدما كان عاجزاً عن رؤيتها وعلمها إلا إجمالاً ، ومعنى جملة (يأت بصيراً) أنه يأتي ذا بصارة ومعرفة بحالي التي أنا عليها اليوم في البلاط ، أو تقول معنى (يأت بصيراً) يأت مبصراً ، بذهاب ما كان على عينيه من بياض ، فان هذا القميص ، متى بلغه خبره ، سيكون أكفأ في شفائه من كل الكحالين الحاذقين ، وأنفذ من عملية جراحية يجريها لعينيه طبيب حاذق فانه حالاً أو بالتدريج يَنْقَه ، ويُبلّ وينتعش ، وإن اتيانه اليّ ، واجتماعي به لهوا العزاء الباقي لي عن جميع ما أتى عليّ من كل الحوادث المؤلمة والضيقات الفاجعة (وائتوني) على جناح السرعة (بأهلكم أجمعين) لنعيش جميعاً في هذه البلاد تحت رضا أبينا الشيخ الجليل ، وتحت رعاية « الريان » المليك المعظم ، فها أنا انتظركم انتظار الظمآن لورود الماء ، وها هي ذي أبواب مصر مفتوحه أمامكم على المصراعين ، فادخلوا إن شئتم من باب واحد ، أو ادخلوا من أبواب متفرقة ، لا فرق في ذلكم ، فأنتم على كل حال آمنون من كل شيء ، فالبدار البدار ، فانه لا يحول بيننا وبينكم رِتاج ، وليس هناك من جبال ولا أمواج .

قوموا ائتوني باهلكم أجمعين ، فاني أريد ذلكم لخيركم فقط لا لخيري ، والا فانا مستغن عنكم بالله تعالى ، لا أسألكم دنيا ، ولا أستفتيكم عن دين ،

قلت لكم ائتوني باهلكم أجمعين ، من كل ما خولكم الله ، من عقيلات ، من بنين وبنات ، من عبدان وخادمات ، لا تتركوا وراء ظهوركم شيئاً منوطاً بكم ، ارجعوا لمصر ، وقولوا : « على فلسطين السلام » وأنا لا أقول لكم : بيت الضيق يسع ألف صديق ، لا .. بل أقول : انكم ستجدون عندي مراغماً كثيراً وسعة ، أنتم ليس لكم في فلسطين مَبْرك ناقة ، ولا مَفْحص قطاة ، سوى ما لأبي في شكيم من قطعة الحقل ، (إنظر تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٢ : ٣٣) وانى أخشى أن ينشب الجوع أظفاره بكم ،

واذا رأيت الأمن عزّ ببلدة   وخشيت منها أن يضيق المطلب
فارحل فأرض الله واسعة الفلا   طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

قلت : أسرعوا الكرة وائتوني باهلكم أجمعين ، فلنا ولهم رب اسمه الكريم ، والصلة التي بيني وبينكم ـ والحمد لله ـ لا تزال وثيقه ، لا ينال منها الدهر ، ولا تأخذ منها عاديات الأيام ، ولا يؤثر عليها شيء من تلكم الحوادث الغابرة ، أليس انكم إخوتي ؟... وهل يوجد قوة في الأرض تستطيع أن تقطع هذه الصلة ؟... كلا .. لان لحمي من لحكم ، ودمي من دمكم ، يسوءني ما يسوءكم ، ويسرني ما يسركم ، أنا لكم ، وأنتم لي ، والله للجميع ؛

ائتوني بأبي ، وائتوني بأهلكم أجمعين ، فقد قيل : «اتـَّخِذْ الناس أبا وأخا وابناً ، ثم بِرَّ أباك ، وصِلْ أخاك ، وارحم ابنك » ، فلذلك بالاولى أُريد أن أبرّ أبي ، لأنه والدي على الحقيقة ، واريد أن أصلكم ، لأنكم إخوتي على الحقيقة ، واريد أن أرحم أبناءكم ، لأنهم كابنيّ منسى وأفرايم » .

الى هنا ينتهي مرمى كلام يوسف عليه السلام .

وفي الختام أيها السادة اياكم أن تظنوا أنني بهذه الكليات التي سطرتها يدي الحقيرة ، سأغتر وأقول :

وإني وإنْ كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

حاشا لي من هذا ، ومن أقل من هذا ، فأنا الفقير تراب حقير ، أصيب وأخطيء وأسرع وأبطيء ، ولكني أقول :

هذا ما وصل اليه فهمي القاصر ، فان حاز قبولاً عند أهل العلم والنظر ، فهو من فضل الله عليّ ، إذ أصبت المخز ، بل ومن فضل الله عليهم ، إذ لم يغمطوا الحق ، وان لم يرق في أعينهم ، فليضربوا بـه عرض الحائط وليرجعوا الى ما قاله سادتنا المفسرون .

(مرحى)

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ٤ —

ثم نهض السيد عبد الحق الطومي (١) وقال :

تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الاضافية

سمعت في هذه الجلسة من بعض الاخوان الحاضرين انتقاداً سرياً على السيد الغمراوي في ذهابه الى أن « القميص » هو الكسوة الرسمية المعمولة من الكتان التي قدمت ليوسف من مليك مصر ، وهي من الألبسة الرسمية التي لا يلبسها الا الملوك وكبار أهل البلاط والكهنة، ثم انتقد كذلك على مولانا عبد الحي الدمياطي في قوله إن هـذا « القميص » هو قميص معنوي رُتَبي هو عبارة عن « وزارة المالية » في البلاط ، أو عبارة عن انه« عزيز مصر » أو وكيل مطلق عن مليكها، وقال هذا المنتقد ، كيف يجوز لنا أن نخالف مافهمه السادة المفسرون من قبلنا ؟

هذا انتقاد الأخ المحترم واني الآن ، أريـد أن أضم صوتي الى صوت السيـد الغمراوي ومولانا الدمياطي فى تفسيرهما القميص ، ومجيباً عن انتقاد من انتقـد عليهما فأقول :

غير خاف إن دلالة النصوص الاضافية تختلف باختلاف درجات فهم السامعين وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو ، أحفظ الصحابة للحديث ، وأكثرهم رواية له ، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعودوزيد بن ثابت أفقه ، بل عبدالله ابن عباس أيضاً هو أفقه منهما ومن عبد الله بن عمرو .

وان لنا على تفاوت فهم العلماء لما يسمعونه من الكلام شواهد :

منها ١ً— قد أنكر النبي ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام ،عام الحديبية

(١) نسبة الى الطموم من البلاد المصرية .

من اطلاق قوله له : ﴿ انك ستأتيه وتطوف به ﴾ ، فانه لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه .

ومنها ٢ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » — شمول لفظه لحُسن الثوب وحُسن النعل ، وأخبرهم أن الكبر بطر الحق وغمط الناس .

ومنها ٣ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله : « من أحبّ لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه » — انه كراهة الموت ، وأخبرهم أن الكراهة للكافر ، إذا احتضر وبشر بكرامة الله ، أحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه

ومنها ٤ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجزَ به ﴾ (٤:١٢٢) ان هذا الجزاء انما هو في الآخرة ، وبين ان هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن والمرض والنصب وغير ذلك من مصائبها ، وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة..

ومنها ٥ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ الذين آمنُوا ولم يَلبِسوا إيمَانهم بِظُلم ، أولئك لهم الأمنُ وهم مُهتدُون ﴾ (٦:٨٢) — انه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين انه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه ﴿ إنّ الشِركَ لظُلمٌ عظيم ﴾ (٣١:١٣)، مع ان سياق اللفظ عند اعطائه حقه من التأمل يبين ذلك ، فإن الله سبحانه لم يقل : ولم يظلموا أنفسهم ، بل قال : ﴿ ولمْ يَلبِسُوا إيمَانهم بِظُلمٍ ﴾ ولبْسُ الشيء بالشيء تغطيته به واحاطته به من جميع جهاته ولا يُغطي الإيمانَ ويحيط به ويلبسه الا الكفر .

ومنها ٦ — فهم ابن عباس من قوله تعالى : ﴿وحَمْلهُ وفِصالهُ ثلاثون شهراً﴾ (٤٦:١٥) مع قوله تعالى : ﴿ والوالداتُ يُرضِعْنَ أولادهنَّ حولَينِ كامِلَين﴾

(٢٢٣:٢) ـــان المرأة قد تلد لستة اشهر ، ولم يفهمه « عثمان » فهمّ برجم امرأة ولدت بعد ستة اشهر من زواجها ، حتى ذكره ابن عباس فأقر به .

ومنها ٧ً– لم يفهم « عمر » من قوله ﷺ : « أُمرتُ ان اقاتل الناس حتى يقولوا : « لاالـه إلا الله » ، فاذا قالوهـــا عصموا مني دماءهم واموالهم ، إلا بحقها » — لم يفهم من هذا قتال مانعي الزكاة ، حتى بـــين له الصديق ذلك ، فأقرّ بـه ..

ومنها ٨ً– ماروى ان « عمر » استعمل « قدامة » بن مظعون على « البحرين» فقدم « الجارود » على عمر فقال : « ان قدامة شرب فسكر » — فقال عمر :«من يشهد على ماتقول ؟» — قال الجارود : « ابو هريرة يشهد على مااقول » — فقــال عمر : « ياقدامة اني جالدك » — قال : « والله لوشربت كما يقولون ما كان لك ان تجـــلدني » قال عمر : « ولِمْ ؟ » — قال : لأن الله يقول :﴿ ليسَ على الذين آمنوا وَعمِلوا الصالحـــات ُجناحٌ فيما َطعِمُوا ، اذا مااتقوا وآَمنُوا وَعمِلوا الصالحـاتِ ، ثم اتقوا وآَمَنُوا ، ثم اتقوا واحسنُوا ﴾ (٥:٥٦) فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا ، شهدت معرسول الله ﷺ « بدراً » و« أُحُداً »و« الخندق »و« المشاهد » — فقـال عمر : « الا تردون عليه قوله ؟» — فقال ابن عباس : « ان هذه الآيات أُنْزِلْنَ عـــذراً للماضين ، والا فالخمر محرمة على الباقين ، لأن الله يقول : ﴿ ياأيهـا الذينَ آمَنُوا إنما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ َعمـــلِ الشيطانِ ﴾ (٥:٩٣) — قال عمر : « صدقت » ،وتوضيحه ان هـــذه الآية التي تمسك بها الجارود ، إنما وردت جواباً لسؤال بعض الصحابة الذين استشكلوا عنـد نزول هذا الحظر في الخمر والميسر — حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، ولاسيما من حضر منهم غزوتي « بدر » و« أُحُـــد »

وكان امر الخمر عندهم أهم ، ومنهم من كلم النبي ﷺ في ذلك ، وفي رواية انهم سألوا عمن ماتوا ، وعن الغائبين الذين لم تبلغهم آية القطع بالتحريم ، فنزلت هذه الآية جواباً لهم ، وقيل ان الآية نزلت فيمن كانوا يشددون على أنفسهم في الطيبات من الطعام والشراب ، لا في الخمر ، ولو يتأمل الانسان سياق الآية لفهم المراد منها على نحو ما نقول ، فانه انما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه ، وذلك انما يكون باجتناب ما حرمه من المطاعم ، فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما .

ومنها ٩ً ـ انه فهم من فهم من قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴾ (٢:١٩٥) حرمة انغماس الرجل في العدو ، حتى بين له « أبو أيوب » الأنصاري أن هذا ليس من الالقاء بيده الى التهلكة ، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وان الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد ، والاقبال على الدنيا وعمارتها .

ومنها ١٠ً ـ قال « الصديق » رضي الله عنه : أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها ؛ ﴿ ياأيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (٥:١٠٨) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » ، فاخبرهم أنهم يضعونها في غير موضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها ، كيف وهم لا يهتدون إلا إذا غيروا المنكر [1]

ومنها ١١ً ـ أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت :« ياأمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه اليك ، وهو يقوم بطاعة الله عز وجل » ـ فقال لها : جزاك الله خيراً من مثنية على زوجها » ـ فجعلت تكرر عليه القول ، وهو يكرر عليها الجواب ، وكان

(١) الطرق الحكمية

« كعب بن سؤر » حاضراً ، فقال له : « اقض ياأمير المؤمنين بينها وبين زوجها» ـ فقال « وهل فيما ذَكَرَتْ قضاء ؟» ـ قال « إنها تشكو مباعدة زوجها لهـا عن فراشها ، وتطلب حقها في ذلك » ـ فقال له عمر : « أما إذْ فهمتَ ذلك فاقض بينهما » ـ فقال كعب :« عليّ بزوجها »، فأحضر ، فقال :« إن امرأتك هـذه تشكوك » ـ قال « أقصرت في شيء من نفقتها ؟ » ـ قال : « لا » ـ فقالت المرأة شعراً :

ياأيها القاضي الحكيم رشده	آلهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله مايرقده	فلست في أمر النساء أحمده
زهّده في مضجعي تعبده	فاقض القضا يا كعب لاتردده

قال فقال زوجها :

زهدني في فرشها وفي الحُلَلْ	إني امرؤ أذهلني ماقد نزلْ
في سورة وفي السبع الطولْ	وفي كتاب الله تخويف جللْ

فقال « كعب »:

وأن خير القاضيين من عدلْ	ومن قضى بالحق جهراً وفصلْ
إن لها عليك حقاً يارجلْ	تصيبها في أربع لمن عقلْ
قضية من ربنا عزوجلْ	فأعطها ذاك ودع عنك العللْ

ثم قال : « إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن ، تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة » ـ فقال عمر : « والله ماأدري من أي أمريك أعجب ، أمن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينهما ؟. اذهب فقد وليتك قضاء البصرة » ذكر هذه الحكاية التيجاني في « تحفة العروس » نقلاً عن صاحب « الموفقيات » عن إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن معن ، ثم قال : وذكر «الرشاطي» هذا الحديث في كتابه المسمى « باقتباس الأنوار »وزاد بعد قوله « يوم وليلة »

« فلا تصل في ليلتها إلا الفريضة »، وحكى أن « كعب بن سؤر » هذا ، شهد يوم الجمل ، فلما اصطفت الناس للقتال ، أخذ مصحفاً في يده وخرج يناشد الناس في دمائهم ، فقتل على تلك الحالة .

ومنها ١٢ً ـ ماروي عن عمر ، انه كان على المنبر فقرأ ﴿ أو يأخُذَهم على تخوُّفٍ ﴾ (١٦:٤٧)، ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل « التخوف عندنا : التنقص » ثم أنشده :

تخوَّفَ الرَّحلُ منها تامِكاً قَرِداً كما تخوَّفَ عودَ النبْعةِ السَّفنُ

« التامك » العظيم السنام ،و« القرِد » الكثير القردان ، و« عود النبعة » شجر للقسي والسهام ، و« السَّفن » الحديدة التي يبرد بها خشب القوس ، وعلى ذلك فهو يقول : إن الرحلَ تنقص سنامَ الناقة ، كما تأكل الحديدةُ خشب القِسِّي .

ومنها ١٣ً ـ انه جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : تركت في المسجد رجلاً يفسر هذه الآية : ﴿ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ ﴾ (٤٤:١٠)، قال « يأتي الناسَ يوم القيامة دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام » ـ فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل الله أعلم » ، انما كان هذا ، لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسِنِّي يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

ومنها ١٤ً ـ أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة من اليهود ، التي لم ترتكب مانهيت عنه ، هل عُذبوا ونجوا ؟ حتى بين له مولاه « عكرمة » دخولهم في الناجين ، دون المعذبين ، وهذا هو الحق ، لأنه سبحانه ، قال عن الساكتين : ﴿ وإذ قالت أمةٌ منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو مُعذِّبهم عذاباً شديداً ؟ ﴾ (٧:١٦٣) فاخبر انهم أنكروا فعلهم ، وغضبوا

عليهم ، وان لم يواجهوهم بالنهي ، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم ، فان الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرض كفاية ، فلما قام به أولئك ، سقط عن الباقين ، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم ، وأيضاً فانه سبحانه إنما عذب الذين نسوا ماذُكروا به ، وعتوا عما نهوا عنه ، وهذا لا يتناول الساكتين قطعاً ، فلما بين « عكرمة » لسيده ابن عباس انهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين ، كساه برده ، وفرح به [1].

ثم تابع الخطيب « عبد الحق الطمومي » كلامه قائلاً :

وإذ وصلنا ههنا ، فاعتبرونا ـ يارعاكم الله ـ بمنزلة عكرمه ، واعتبروا أنفسكم بمنزلة ابن عباس ، فكما قبل ابن عباس تفسير عكرمة ، وفرح به وكساه برده ، فاقبلوا تفسيرنا وافرحوا به فقط ، ولا نريد منكم أن تكسونا برودكم ، بل إن شاء الله تسلم برودنا منكم . وعرضنا ودبعة عندكم . (قالون)

(اذهبوا بقميصي هذا ...) الخ

وقال الفاضل السيد يوسف المجدلي [2]

رد تفسير كلمة « بصير » بمبصر « ضد الاعمى »

اني أوافق السيد الغمراوي ومولانا عبد الحي الدمياطي على تفسيرهما «القميص» بالرتبة العالية ، و« بصير » بعالم ، ومنع أن يكون « بصير » بمعنى مُبصر بعينيه ، وأزيد ههنا كلمة وجيزة ، وهي أنه من عرّف سيدنا يوسف أن أباه صار أعمى حتى يقول « بصيراً » ويريد مبصراً ، وأما قول بعض المفسرين كالبغوي وأمثاله :

---

(١) الطرق الحكمية

(٢) نسبة الى بلدة المجدل بالقرب من غزة (فلسطين)

« لما عرفهم يوسف نفسه ، سألهم عن أبيه فقال مافعل أبي بعدي ؟ ـ قالوا : ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه ، وقال: إذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، أي يعدُ مبصراً » فيحتاج إلى برهان يثبته ، لأنه من الغيب الذي لايعلمه إلا الله تعالى ، ولايجوز التهجم على الغيب إلا ببرهان ، قال تعالى : ﴿ عالِمُ الغيْبِ فلا يُظهِرُ على غيْبِهِ أحداً إلا مَنْ ارتضى مِنْ رسولٍ ﴾ (٢٦:٧٢ و٢٧) والبغوي وأمثاله من المفسرين ، ليسوا رسلاً ، حتى يظهرهم الله على غيبه ، فيقولوا : إن يوسف سألهم عن أبيه ...الخ .

هذه كلمتي الوجيزة على معنى الآية الكريمة ، واسمحوا لي أن ألحقها بالمواد التالية :

قميص يوسف كان دثاراً

المادة ١ ـ كل مايلي الجسد من الثياب فهو « شعار » وكل ما يلي الشعار فهو « دثار » وظاهر أن القميص الذي كان يلبسه يوسف من قبيل الدثار .

اشياء فوق الطبيعة في سورة يوسف

المادة ٢ ـ إذا قرأ المؤمن هذه السورة الشريفة وقع نظره على أشياء ، هي مما فوق الطبيعة ، مامن ذلك بد:

فمنها أولاً ـ رؤيا يوسف في حلمه سجود الأحد عشر كوكباً له والشمس والقمر ، ثم وقوع مصداق تلك الرؤيا كما رآى حرفاً بحرف .

ومنها ثانياً ـ بشارة يعقوب لابنه ، بأن سيجتبيه ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه وعلى آل أبيه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق ، ثم وقوع ذلك حذو القذة بالقذة (١).

---

(١) القذة الاذن.

ومنها ثالثاً ـ تقطيع النسوة أيديهن بالسكين ، بدون أن يُحسِسْنَ بألم بل كن غائبات عن شعورهن ، كأنما خُدِّرت أيديهن تخديراً موضعياً .

ومنها رابعاً ـ حلما الفتيين في السجن ، وتأويل يوسف لهما ، فوقوع ذلك التأويل حسبما تكلم يوسف لا أكثر ولا أقل .

ومنها خامساً ـ حلما ملك مصر الريان ، فتأويلها ، فتصديق الواقع لذلك التأويل ..

ومنها سادساً ـ اعتذار سيدنا يعقوب لأولاده ، أو احتجاجه عليهم حين انتقدوا كثرة ذكراه ليوسف ، فقال لهم : « واعلم من الله مالا تعلمون » اي من حياة يوسف ، ثم ظهور صحة هذه الدعوى يوم ماجاؤوه من مصر «بالقميص» فقال لهم: « الم اقل لكم : إني اعلم من الله مالا تعلمون ؟»

ومنها سابعاً ـ وجود يعقوب رائحة ولده وقتما كان البشير حاملاً قميصه ، خارجاً من آخر حدود مصر ، داخلاً في اول حدود فلسطين ، « فالذين يقرأون هذه السورة المجيدة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم من القول بالمعجزات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لايليق بالتربية العصرية ، التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية ، وقلما يعظم في عين هذه الناشئة كتاب ينطوي على هذه العقائد ، مهما كان مقدساً ، وقصارى ما هنالك أنهم يحترمون ذلك الكتاب لكونه مقدساً ودينياً ، أو يحترمونه احتراماً تقليدياً لآبائهم وأسلافهم ، أو لاعتبارات أخرى.

ونحن نجيب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الانتقاد إلى مثل هذا المقام بأن العالم المتمدين لايزال حتى هذه الساعة منقسماً إلى فريقين ، روحي ومادي ، وإن الفريق الروحي هو أكبر جداً ، وأحصى عدداً من الفريق المادي ، بل يوجد في أوربا وأميركا واليابان عدد لايحصى من فحول علماء الطبيعة ، يعتقدون

بوجود العالم الروحي ، وآخرون يعترفون بأن مُشْكِل الروح لم ينحل بعد ، وأنه لليوم لم يكتنه أحد سر الروح واتصالها بالجسد ؛

وإذا رأينا أناساً مثل « فلاماريون » الفلكي الشهير ، و« فكتورهوغو » أكبر شعراء الفرنسيس ، وسواهما من صُيّابة [١] العلماء — يعتقـدون باستحضار الأرواح ، ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولاتحصى في أوربا مؤلفة خاصة للمباحث الروحيـة ، واثبات الحوادث التي لاتعلل إلا بوجود شيء وراء المادة — إذا تأكد لدينا هذا كله لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية ؛ويوجد اليوم قسم من الناشئة يعتقدون أن علو الدرجة في التعقل والتبحر في العلم كثيراً، يقتضيان رفض ماوراء المادة مما ورد في الدين ، ولكن نحن إذا علمنا أن رجالاً مثل «باستور» بمكان من العلم والاكتشافات الجرثومية التي لم يسبق اليها أحـد ، ورجالاً مثل « غلادسطون » في الشهرة وتوقـد الذهن ، كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين — ظهر لنا أن الالحاد التام ، ورفض الاعتقاد بما هو خارج عن المادة ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولاقيداً في التبحر في العلم »[٢] .

عظمة يوسف بتوخي المنفعة لاهله ولو بعد ما اهانوه

المادة ٣ — تعليقاً على قوله :« وائتوني باهلكم أجمعين » : علم يوسف عليه السلام أن الرجـل العظيم هو من يتوخى للناس المنفعة ، ويوطيء لهم أسباب السرور ، ولو كانوا قد أهانوه ، ولذلك طلب اليهم الإتيان بأهلهم وكان هـذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها و عند وقتها ، لأنهم كانوا في فلسطين

(١) الصيابة الخالص والصميم والسيد .
(٢) مأخوذ من تعليقات الامير شكيب ارسلان على كتابه «حاضر العالم الاسلامي ».

في ضيق عظيم ، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف ، وحنّنه عليهم ، حتى لولم يعثروا على يوسف أخيهم ،لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه ، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم ، ويأمرهم بالإتيان باهلهم أجمعين ، ولايخفى مافي هذا العمل الذي تكرم به يوسف ، من نسيان أو تناسى ما كانوا عملوا معه من بخلهم عليه بوجود شخصه بينهم ، فهل آن لنا أن نقتدي بهذا القدوة الطيبة ، ونتناسى أعمال أعدائنا معنا ، لاسيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا !.

وربما يكون سمع عن إخوته ، ورغب اليهم في رجوعهم لمصر ، لكي يعيشوا عنده عيشة طيبة ، مراعاة لوالده الشيخ الجليل ، ولأهل إخوته وسلائلهم ، كما قيل : « بعلة الزرع يسقى الضرع » وقيل:« لأجل الورد يشرب العليق »، وأيضاً فقد رآى يوسف انه لايحسن انفراده بالعيشة بمصر ، متمتعاً بالنعيم الرغد ، دون إخوته وسلائلهم ، وهذا هو مذهب العرب حيث يقول قائلهم [١]:

ولو أني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

وهذا هو تعليم الدين الاسلامي ، كما في الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، وهو أيضاً التعليم المسيحي ، كما نقل عن السيد المسيح انه قال : ﴿كل ماتريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا هكذا أنتم أيضاً﴾ (مت ٧:١٢).

لزوم استخدام المال والمنصب والجاه في منفعة ذوي الرحم

المادة ٤ - تعليقاً ثانياً على قوله « وائتوني باهلكم أجمعين »: المال والمنصب

(١) هو ابو العلاء المعري.

والجاه هو لصلاح المعاش والدنيا ، وشرف المنزلة في أعين الناس ، فيجب استخدام ذلك كله للأقارب والإخوان ، فمن كان له مال أو منصب ولا ينفع بها ذوي رحمه كان كالذي يعد فقيراً ، وإن كان موسراً ، ويحسب سُوقَة ، وإن كان ذا ولاية ، وإن أولى مايكون في المال والجاه استخدامها في سبيل صلة الرحم ، واستثمارها لمنفعة الأقارب ، فلذلك أراد يوسف أن تشاطره إخوته وأهله جميعاً في ثمار هذا المركز ، الذي أعطاه الله إياه .

أوصاف المؤمنين الاربعة تمت ليوسف

المادة ٥ــ بما جرى ليوسف وما أتاه هنا ، تمت فيه الأوصاف الأربعة المذكورة في ضمن قوله تعالى :﴿ والذينَ آمَنُوا وهاَجروا وجاَهدوا في سبيلِ اللهِ ، والذين آوَوْا وَنصَروا ، أولئكَ هم المؤمنونَ حقاً ،لهمَ مغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾(٨:٧٤) ، فيوسف هاجر من فلسطين بلاد الخوف ، لمصر بلاد الأمن، وجاهد نفسه بترفعه عن النزول على إرادة سيدته ، وآوى إخوته وأهليهم،ونصرهم على شيطانهم ، لانه غفر لهم وصفح عنهم .

وما أنسب ماوقع من يوسف بالمراتب الثلاث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ والكاظِمين الغَيْظَ ، والعافِينَ عنْ الناسِ ، واللهُ يُحِبُ المحسنِينَ ﴾ (٣:١٣٤) فهو عليه السلام كظم غيظه بقوله : « لاتثريب عليكم اليوم » ، ثم عفا عنهم بقوله « يغفر الله لكم » ، ثم أحسن اليهم بقوله : « وائتوني باهلكم أجمعين » ونظير هذا ماوقع (للمأمون) حينما كان خادم وضوئه يصب عليه ، فسقط الاناء ، فغضب المأمون ، فقال له الخادم ، « والكاظمين الغيظ » ــ فقال « كظمت غيظي » ــ قال « والعافين عن الناس » ــ فقال « عفوت عنك » ــ قال « والله يحب المحسنين » ــ فقال « اذهب فأنت حر ».

وكان « المنصور أبو عامر » ـ وهو أحد ملوك اسبانيا ، وإن شئتم قلتم: الأندلس ـ أمر بسجن فتى ، لأن عليه ثلاثة آلاف دينار للخزينة ، ثم عفا عن سجنه ، فقال الفتى:

أمـا ترى عفو أبي عامرٍ لابـد أن تتبعه منّة
كذلك الله إذا ماعفا عن عبده أدخله الجنة

فسامحه « المنصور » في ذلك المال .

حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب اهليهم لمصر

المادة ٦ـ كاني باخوة يوسف العشرة ، بعد هذه المبادلات في الحديث ، وبعدما فارقوه ، عتب بعضهم على بعض ، وتبرأ قسم منهم من القسم الآخر ، ولا بد أن يكون « رأوبين ويهوذا » من اللائمين ، كما أنه لاريب أن « شمعون » كان من الملومين ، أو رئيس الملومين ، أو هو الملوم وحده ، ولا نشك في أن «دان ونفتالى» كان لحقهما وهما أمام يوسف ، خجل عظيم مامن ذلك بد ، وسببه أنهما ابنا « بلهة » جارية أم يوسف ، وهي التي انتقل يوسف هو وشقيقه (بنيامين) لخيمتها ، بعد موت امها (راحيل) ، فتربيا عندها مع ولديها المذكورين ، ثم هل هذه الحادثة على هذا الوجه ، توقظ العاقل ، فيشح بنفسه ، ولايطوح بها في المشي وراء الغايات النفسية.

نتيجة رحلة بني اسرائيل لمصر

المادة ٧ـ كانت النتيجة من رحلة بني إسرائيل لمصر ، أنهم بعد موت يوسف عليه السلام استعبدوا في مصر ، أيام فرعونها (آحمس الأول) مؤسس الدولة الثامنة عشرة ، إلى أيام (سيتي الأول) منشيء عظمة الدولة التاسعة عشرة، إلى أيام ابنه (رعمسيس الثاني) أعظم ملوك هذه الدولة المذكورة ، ثم أخيراً

توثنوا كالمصريين ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو حركة (شمعون) الثورية ، التي كانت حين كان يوسف ابن ١٧ سنة يوم عدائه الشديد ليوسف عليه السلام، يوم مفاوضته لاخوته في قتله أو طرحه أرضاً ، يوم ما قرروا أخيراً باجماع الكلمة القاءه في جب (دوثان) فلعنة الله على تلك الساعة المشئومة ، تلك الساعة الشيطانية ، ساعة النحاسة ، التي لا يمثلها اليوم سوى ماحدث في (الحرب العالمية الأولى) ، مع النظر لسببها الأساسي ، وهو اطلاق (برنزيب) الصربي رصاصة على (الارشيدوق فرنز) وليّ عهد النمسا عام ١٩١٤م .

الارهاص والمعجزة

المادة ٨ــ إن حملنا قوله « يأت بصيراً » على معنى « يصير بصيراً » تكون الحادثة من قبيل خوارق العادة ، فان كان هذا قبل نبوة يوسف ، كان من قبيل الإرهاص ، وإن كان بعدها كان من قبيل المعجزة .

عطايا يوسف لاخوته عند ذهابهم لجلب أهلهم

المادة ٩ ــ (اعطاهم يوسف عليه السلام عجلات ، أي مركبات تجرها الحيوانات ، لأجل أبيه وأولادهم ونسائهم ، وأعطاهم زاداً للطريق ، وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب ، وأما بنيامين فاعطاه ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب ، وكانت هبة الثياب تعد في الشرق اكراماً ممتلزاً ، وأرسل لأبيه عشرة حمير حاملة من خيرات مصر ، وعشر أُتن حاملة حنطة وطعاماً ، لأبيه لأجل الطريق ، أي طريق المجيء إلى مصر) (تك ٤٥: ٢١ــ٢٣).

عودة القافلة بالبشارة

آ(٩٤) ﴿... ولَمَّا فَصَلَتْ العِيرُ ، قالَ أبوهم : إني لأجِدُ رِيحَ يوسفَ !! لولا أنْ تُفَنِّدونِ ...﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والتسعون فقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال :

صدع اخوة يوسف بأمر أخيهم ، وانصاعوا لاشارته ، وركبوا دوابهم ، ونشطوا في العَدْوِ ، وساروا سيراً حثيثاً ، لايلوون على شيء ، حتى جاوزوا الحدود المصرية ، (ولما فصلت) أي انفصلت (العير) الإبل ، وتعدّت « الفرما » وهي آخر حدود المملكة المصرية ، وهم يحملون بشرى اسناد « وزارة المالية » لعهدة أخيهم يوسف ، ونبأ ذلك « القميص » الكريم الذي قمصه الله إياه ، (قال أبوهم) يعقوب عليه السلام ، حسبما ألهمه الله تعالى ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده (إني أجد) — من الوجدان الذي كما يطلق على الحسي ، يطلق على المعنوي — أي أجد بقلبي وادرك بالهامي ، (ريح) عمكم (يوسف) — والريح هنا بمعنى القوة والمنصب والشوكة والدولة والغلبة والنصرة ، فإنها تأتي بكل هذه المعاني كما في معاجم اللغة ، قال تعالى : ﴿ولا تَنَازَعوا فتفشلوا وتَذْهبَ رِيحُكُم﴾ (٨ : ٤٧) أي قوتكم أو شوكتكم أو دولتكم الخ الخ . . ، ويقولون : «هبت ريح فلان » اذا واتاه الدهر وساعدته المقادير وتحسن حاله عن ذي قبل ، وانتصر على اعدائه وتغلب وقوي وأعطي مراده (لولا أن تفندون) أي تُعَجِّزون وتُكذبون وتُسفّهون وتجهلون وتضعفون وتُهرمون ، — والتفنيد النسبة الى الفند ، وهو الخرف وانكار العقل من الهرم ، — أي لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني .

هذا ما أقوله أيها السادة تـكميلاً وتعضيداً لما ذهبت اليه سابقاًمن أن هـــذ « القميص » هو أمر معنوي عبارة عن رتبة الوزارة والله تعالى أعلم .

(ولما فصلت العير . . الخ)

— ٢ —

وقام الشيخ نور الدين المدرس في جامعة عليكره في الهند وقال :

تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم

كان يوسف عليه السلام تكلم مع اخوته بكلامه الآنف الذكر ،فسمعوا مالم يجر في ظنهم، ولا سنح على فكرهم ، سمعوه فأميتَتْ خِيفَتهُم ، وانتعشت أرواحهم فقالوا : « نفعل مأمورين طائعين » ، ثم ركبوا دوابهم ووخزوها وأطلقوا لهـا الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً ويطوون البيداء طياً ، ساروا ووجهتهم فلسطين، يقطعون السهل والوعر ، وهم يودون أن يطيروا على أجنحـــة النسيم ، وصاروا يتفكرون في أمر يوسف ، ويتعجبون من هذا الحال الذي وصل اليـه أخوهم ، وُيرِدّدون بينهم وبين أنفسهم معنى قول الشاعر :

الجـــدّ يدني كل أمر شاسعٍ — والجدّ يفتـــح كل باب مُغلق

فاذا سمعت بأن مجدودا حوى — عوداً ، فأثمر في يديه ، فحقّق

واذا سمعت بأن محرومـــاً أتى — مـآء ليشربه ، فغاص ، فصدّق

مشت دوابهم في تلك الصحراء الرملية ، منحدرة تارة ، ومرتفعـة اخرى ، وهي تمخر عباب السراب مخراً ، حتى قاربوا آخر حدود مصر ، ولما انفصلت دوابهم من « العريش » آخر حدود المملكة المصرية ، وجاوزت حيطانه ، قال يعقوب بلسان الدهشة ، وبصوت مختنق ، ونفس أسيفة ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده: « ياحفدتي ، ياللعجب ! لعمري إنه يلوح لي أن الزمان المنتظر قداقترب ، إني لأجد

ريح عمكم يوسف العاطر ، وأن « نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل » قد حمله النسيم الى قلبي فأنعشه ، وإلى أنني فمـلأه عرفاً شذيا » — هذا ما قاله يعقوب ايها السادة ، شأن كل عاشق إذا سرت « نسمة عطرة » وَجد ريح معشوقه فيها ، وإذا ومض « البرق » ظن أنه وميض ثغره ، واذا سمع « تغريد الأطيار » تخيل أنه صوت حبيبه ، واذا لمس « ثوب قطيفة » ، تصور أنه لمس جسمه ، واذا رأى « غصناً معتدلا » خال انه قوامه ، وهكذا ... وهذا التنوع من التطورات لا يدركه إلا أهل الحب كما قال :

لايعرف الشوق إلاّ من يكابده ولا الصبابة إلاّ من يعانيها

وبعبارة اخرى : كان يخيل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، أن يوسف ملأ قلبه ، ثم فاض عنه الى جميع الكائنات التي بين يديه ، فكان يرى في « صفحة السماء » صورة يوسف ، ويسمع في « تغريد البلابل والشحارير » صوت يوسف ، ويستشرق من « لألأ الشمس » نور يوسف ، ويتراآى له من « باقة الورد والياسمين والفل » لون يوسف ، ويستروح في « النسيم العطير » رائحة يوسف ، ويرى في « بريق السماء » ثغر يوسف ، وفي « الماء الرقراق » رقة عواطف يوسف ،

لقد فصلت « العير » وحمل الصبا رائحة ابنه ، فهاج وجده وحنينه وأخذ يعانق الهواء ، ويضمه اليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين يديه .

واختم كلامي هذا بتوجيهات عديدة ربما نقدر أن نفهم بها كلام سيدنا يعقوب عليه السلام ، ونوردها فيما يلي :

تنسم يعقوب ريح يوسف عابقة من قميص الكتان

التوجيه الأول — لقد اثبت الشعراء ان للحب خصائص ، منها « تواصل الأرواح » لاسيما عند القرب ، ومنها « خفق القلوب » عند مرور الأحبة ، ومنها « تخيل صورة » المحبوب ، ومنها « تنسم ريحه » ، كلما هبت الصبا ؛ والمحب يتحسس

بما لا يتحسس به سواه ، وعليه فـلا غرابة في أن سيدنا يعقوب تنسم ريح ولده عابقة من القميص — على القول بأن القميص لباس — فللحب سيال يخترق الصرة التي فيها القميص ، كما تخترق الكهرباء والحرارة الأجسام .

وعلى هذا المذهب الذي نحا اليه الشعراء وردت عنهم منظومات كثيرة منها قول بعضهم :

أيا جبلي « نعمان » بالله خلّيا ... نسيم الصبا يخلص اليّ نسيمها
فان الصبا ريح متى ماتنسمت ... على نفس مهموم أزالت همومها

ولمعاصرنا الأديب السيد أحمد عبيد الدمشقي :

وزهرة راق منها منظر عجب ... إذا نقطت بندىً كالدر منتثر
قد فاتها الأرج الزاكي ولو علقت ... بمن أحب لفازت بالشذا العطر

ولجميل بثينة :

أيا ريح الشمال أما ترَيني ... أهيم وإنني بادي النحول
هبي لي نسمة من ريح « بثْن » ... ومنّي بالهبوب الى « جميل »

ولعلية ابنة المهدي العباسية أخت هرون الرشيد :

ومُغترب « بالمرج » يبكي بشجوه ... وقد غاب عنه المُسْعدون على الحب
إذا ماأتاه الركب من نحو أرضه ... تنشّق يستشفي برائحة الركب

وقال بعضهم :

واني لأستشفي بكل غمامة ... يهب بها من نحو أرضك ريح

وقال آخر :

ألا يانسيم الصبح مالك كلما ... تقربت منا فاح نشرك طيبا ؟
كأن سليمى نُبئت بسقامنا ... فاعطتك ريّاها ، فجئت طبيبا

وقال البحتري :

ورقّ نسيم الريح حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبّـــة نُعَّما

ومن ميمية البوصيري :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

حس يعقوب رائحة قميص يوسف بالشم

التوجيه الثاني ـــ ربما ان الله تعالى كان أرسل على الحقيقة ، رائحـة قميص يوسف عليه السلام مع نسيم الصبا ، وان الآله القدير الذي أوصل صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو على المنبر بالمدينة ـــ الى قائد جيش المسلمين «سارية» بن زُنَيم ، وقيل ابن رستم الجُلحي ، وهو في نهاوند [١] لهو قادر على أن يوصـل ريح قميص يوسف من آخر حدود مصر الى فلسطين ، وقـد قرأنا فى الصحف السيارة أنه وقف رجل وامرأة في لندن فى غرفة « مختبر » تحتوي على آلة نقـل الصورة (تليفيزيون) المدهشة التي تحمل الصورة « كما يحمـل الراديو الصوت » الى مسافة الوف الأميال ، فشوهدت صورتها في غرفة « مختبر » آخر ، في بلدة قريبة من نيويورك . فـكما نؤمن بهذه الحوادث المستندة على آلات وأعمال فنية ، يجب أن نؤمن بالحوادث التي أخبر بها خالق الفنون والآلات .

تحسس يعقوب برائحة يوسف تحسساً معنوياً

التوجيه الثالث ـــ قال الجاحظ : للعرب إقدام على الكلام ، ثقـة منهم بفهم

---

(١) وفي هذه القصة كرامتان ، احداهما ان عمر (رض) اطلع وهو عـلى منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند ، وان العدو اعد له كميناً في الجبـل ، والثانية انه ناداه « ياسارية الجبل » فأسمعه ، كذا روى هذه القصة البيهقي من المحـدثين وتناقلها كثير من المؤرخين .

المخاطب من أصحابهم عنهم ، كما جوزوا أن يقولوا : « ذُقتُ » لما ليس يطعم ، وهو قول الرجل اذا بالغ في عقوبة عبده : « ذقْ » و« كيف ذُقته ؟ » أي وجدت طعمه ، قال الله تعالى : ﴿ ذُقْ إنك أنتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ (٤٤:٤٩)، وقال تعالى ﴿ فأذاقها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخوفِ ، بما كانوا يَصنَعُون ﴾(١٦:١١٢) وقال تعالى : ﴿ فذاقوا وَبالَ أمرِهِم ﴾ (٥٩:١٥) ثم قالوا : « طعمتُ » لغير الطعام ، كما قال العَرْجيّ :

فإن شئتُ حرّمتُ النساءَ سواكم وإن شئتُ لم أطعَم نقاخاً ولا بَرْداً(١)

فنظيره ههنا قول سيدنا يعقوب : « إني لأجد ريح يوسف » حال كون كل من يوسف، وقميصه ليس له رائحة ، وإنما هو مجاز عن تحسسه بابنه تحسساً معنوياً على الوجه الذي يفهمه هو ، ويعلمه الله تعالى.

اقتباس يعقوب ريح يوسف بدون وساطة الحواس

التوجيه الرابع ــ ثبت أن الأنفس البشرية يقتبس بعضها العلمَ من الموجودات بشراً أو غير بشر ، وهذا الاقتباس يكون بدون وساطة الحواس وبدون الاستنباط العقلي ، كما شاهده بعض الأطباء الماديين ، الذين كانوا ينكرون مثل هذا ، فانه روى عن مريض كان يعالجه ذلك الطبيب في مصر القاهره انه ــ أي المريض ــ قال : « إن فلاناً ــ وذكر قريباً له في الاسكندرية ــ يريد أن يسافر الآن إلى مصر ، لأجل أن يعودني في مرضي »، ثم أن هذا المريض عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ، ثم الوقت الذي وصل فيه الى محطة مصر ، ثم لم تكن إلا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هذا القريب ، وكان ذلك الطبيب ينتظره لاستبانة المكاشفة ؟؟..

(١) فقه اللغة ، والنقاخ كغراب : الماء البارد والنوم في العافية والامن ، والبرد :النوم.

وكان من اخبار هذا المريض انه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ، ويخرج من دمه مايبلغ وزنه كذا ، فكان كما قال !!.

هذه حكاية المريض ، فلم لايجوز أن يقتبس سيدنا يعقوب عليه السلام ريح ولده يوسف ، كما اقتبس هذا المريض ريح قريبه ؟ اللهم ان هذا جائز عقـلاً ومروي نقلاً ..

وفي صحيح مسلم ، ان « أنس بن النضر » قال يوم أُحُد : « واهاً [1] لريح الجنة ، أجده دون أُحُدٍ » فقاتل فيه حتى قتل ، وقد ورد في الحديث الصحيح: « إن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائه عام » ، فكل هذا وما اليه يحمل على ماسبق.

ادراك يعقوب رائحة يوسف الهاماً بقلبه

التوجيه الخامس — تعلمون ان الادراك يكون حسياً ، أي بإحدى الحواس الخمس ، ويكون معنوياً ، أي بالقلب ، وأما الأول ، فلأن الله جعل في العـين ، قوة باصرة ، كما جعل في الأذن ، قوة سامعة ، وفي الانف قوة شامة ، وفي الجلد قوة حاسة ، وفي اللسان قوة ذائقة .

وأما الثاني ، وهو ادراك القلب ، فهو انكشاف صورة المعلوم للانسان ، بحيث تكون نسبته إلى القلب ، كنسبة المرئي إلى العين مثلاً ، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى ، كما تبصر العـين وتعمى ، قال تعالى : ﴿ فإنها لاتَعْمَى الأبْصارُ ، ولكنْ تَعْمَى القُلوبُ التي في الصدورِ ﴾ (٢٢:٤٦) ، فالقلب يرى ويسمع ويشم ويذوق ويحس ، بل هـذه القوى فيه ، أبلغ من قوى الحواس الخمس ..

والخلاصة : الادراك نوعان ، إدراك بالحس ، وإدراك بالبصيرة ، فادراك

---

(١) واها كلمة تحنن وتلهف .

الحس وقوعه على نفس المحسوس أو مثاله الخارجي ، كرؤية وجه الانسان أو رؤية مثاله في المرآة والماء والصورة الشمسية ، وأما الادراك بالبصيرة ، فوقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي ، فيكون ادراكه له بمنزلة إدراك العين مثلاً ، للصورة الخارجية ، أو الأنف مثلاً « للريح » الخارجية ، وقديقوى سلطان هذا الادراك الباطن ، بحيث يصير الحكم له ، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمدركها بحيث يستغرق فيه ، فيغلب حكم القلب على حكم الحس ، فيستولي على السمع والبصر والأنف ، بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج ، وكذلك يشم « ريحه »، وهو في النفس والذهن فقط ، لكن لغلبة الشهود ، وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب ، واستيلائه على القوى ، صار كأنه مرئي بالعين ، مسموع بالاذن ، مشموم بالأنف ، بحيث لايشك المدرك في ذلك ، ولايرتاب البتة ولا يقبل عذلا : وحقيقة الأمر أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية ، تابعة للمعتقد .

فذلك الذي أدرك بعين القلب أو سمع القلب أو « أنف » القلب ، انما هو شاهد دال على الحقيقة ، وليس نفس الحقيقة ، فان شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ، ليس هو نفس نور الذات الذي لاتقوم له السموات والأرض ، فانه لو ظهر لها ، لتدكدكت وأصابها ماأصاب الجبل ، وكذلك شاهدُ نورِ العظمة في القلب ، إنما هو نور التعظيم والاجلال ، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والاكرام ، وهكذا هنا شاهدُ « ريح » يوسف ، ليس هو نفس رائحة يوسف ، ولكنه مثاله في العطر والشذا ، وأما نفس رائحته وحقيقتها ، فهي وراء ذلك ؛

فهذه الأمور التي قد يدركها الانسان ، انما هي شواهد تقوم بقلبه ، كمايقوم بقلبه شاهد من الآخرة والجنة والنار ، وما أعد الله لأهلها ، وهذا هو الذي وجده انس بن النضر (رض) يوم أُحُد ، لما قال : « واهاً لريح الجنة ، اني أجد ريحها دون أُحُد » ومن هذا قوله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا »

— قالوا : وما رياض الجنة ؟ — قال : حِلَقُ الذكر » ، وقوله : « مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنه » ، فهو روضة لأهل العلم والايمان ، لما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة ، حتى كأنها مرئية لهم رأي العين ؛ ولكن إذا قصد المنافق هناك ، لم يكن ذلك المكان في حقه ، روضة من رياض الجنة ، ومن هذا حديث : « الجنة تحت ظلال السيوف » (انتهى ملخصاً من بعض كتب الصوفية).

وبناء على ماتقدم فلا مانع من أن المقصود من كلام يعقوب عليه السلام ، انه أدرك بقلبه إلهاماً رائحة يوسف ، ويقصد من تلك الرائحة « الأثر » من آثاره ، كما يقال : « هذا الثوب أو هذا الكتاب أو السيف من رائحة فلان » اي هو اثر من آثاره ، فكأنه يقول : إني لقد القي في روعي وصار عندي وجدان قلبي ، من طريق الالهام ادركت به اثراً من آثار ولدي يوسف ، وهو القميص المزمع ان يكون عندي قريباً ».

جواز ادراك يعقوب رائحة يوسف كما يدرك المنوم تنويماً مغناطيسياً الاشياء

التوجيه السادس — للانبياء أحوال ، يغيبون فيها عن الناس الحاضرين ، ليجدوا ماغاب عن حواسهم ، من قبيل مايحصل عند المنوم تنويماً مغناطيسياً ، وهذا النائم يرى البعيد ، كما يرى القريب ، وتسمى تلك الحالة « بالرؤيا الواضحة » ، وفيها يشعر الانسان ايضاً بالاشياء ، وان كانت عيناه مغمضتين ، بل يمكنه القراءة بأي جزء من جسمه ، فقد حدث في محاكم مصر بتاريخ ٣ كانون الاول سنة ١٩١٣ م ، انه نومت فتاة قبطية تنويماً مغناطيسياً ، فكانت تقرأ الساعة بعدتها امام القضاة ، وكانت ترى الاشياء من قفاها ، ورأت مابيد أحد المحامين ، وعيناها معصوبتان ، ويد المحامي مقبوضة . فاذا تقرر هذا ، فهذه الحالة التي كانت حصلت ليعقوب عليه السلام ، ليست بأقل من حالة المنوم تنويماً مغناطيسياً ، بل هي أقوى وأرقى بكثير ، ومن النوادر التاريخية التي لاتبعد صحتها ، ماروي ان عمر رضي

الله عنه ؛ كان يخطب بالمدينة ، فصاح في اثناء خطبته : « ياساريةَ الجبلَ ، ياسارية الجبلَ ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم » ، ثم عاد الى الخطبة ، حتى قال فيه بعض الصحابة : « إنه جُنّ » ، ولما سئل رضي الله عنه عن ذلك ، قال بانه رآى جيوش المسلمين تكاد تفتك بها الاعاجم على أبواب « نهاوند » فصاح بقائدهم ليتحصن بالجبل ، وبعد ذلك جاءت الاخبار بأن المسلمين كادوا ينهزمون ، لولا أن « سارية » القائد ، سمع مع بعضهم هاتفاً يرشدهم الى الجبل ، فدهش الناس لذلك ، وعلموا منه مقدار نفس عمر وكبر روحه ، وهذه من اعظم مناقبه ، رضي الله عنه .

شواهد على ادراك الرائحة بالالهام القلبي

التوجيه السابع — كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخ اسمه « زيد »(١) قتل في جيش اليمامة (٢) فكان عمر يقول : « ماهبت الريح إلا وجدت فيها رائحة زيد » ولهذا قال أبو العلاء المعري من قصيدة له في كتاب اللزوميات :

والقلب يَغْرَى (٣) بما تُهدِي الرياحُ له
تحملها الريحَ من زيد إلى عمرا

فما كان يفهمه العرب في كلام عمر (رض) هو الذي ينبغي أن نفهمه في هذا القول الذي صدر من سيدنا يعقوب عليه السلام ، فالقول واحد ، فيجب أن يكون المعنى واحداً .

---

(١) القول انه اخوه مصرح به في « الاغاني » وفي « منهاج السنة » خلافاً لما في ديوان ابي العلاء المعري من انه ابنه .

(٢) ارسل ابو بكر هذا الجيش في خلافته تحت قيادة خالد بن الوليد لبني حيفة في اليمامة حيث ارتدوا وآمنوا بمسيلمة .

(٣) من غري الرجل بكذا : اولع به ولزم ذكره .

ونظير هذا ما في الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ، في أخبار « عروة بن الورد » وأحاديثه الحسان ، وقد كان مشهوراً بالسرقة والاحسان . رَوَى أنه جاء ليلاً ليسرق شيئاً ، فكمن في كَسْرِ بيت رجل ، كان غائباً عن زوجته ، فأتاها عبد زوجها ، وكان أسود — بعلبة فيها لبن ، وقال لها : « اشربي » — فقالت : « لا . . أو تبدأ » ، فبدأ الأسود فشرب . و « عروة » ينظر ، ثم جاء رجلها ، ودعا بالعلبة ليشرب ، فقال حين ذهب ليكرعَ : « ريح رجل وربِّ الكعبة » ، يتهمها باتخاذ خِدن ، فقالت امرأته : « وأيّ ريح رجل تجده في انائك غير ريحك؟!» ثم صاحت فجاء قومها ، فأخبرتهم خبره وقالت : « يتهمني ويظن بي الظنون » ، فأقبلوا عليه باللوم ، حتى رجع عن قوله ، ثم أوَى الرجل إلى فراشه ، فوثب عروة الى فرس ذاك الرجل ، فذهب به ، فركب الرجل فرساً عنده اخرى ، وجعل يركض وراءه ، فلما انقطع عن البيوت ، قال له « عروة » : « أيها الرجل قف ، أنا عروة بن الورد ، وقد رأيت الليلة منك عجباً ، فأخبرني به وأرد اليك فرسك » — قال : « وما هو ؟ » — قال : « شممتَ ريح رجل في إنائك ، وقد رأيت أن الرجل حين آثَرَتْه زوجتك بالإناء ، وهو عبدك الأسود ، فقلت ريح رجل ، فلم تزل زوجتك تثنيك عن هذه حتى انثنيتَ ، فرأيتك في هذه الخصلة أكمل الناس ، ولكنك تنثني وترجع ! » فضحك الرجل وقال : « إن الذي رأيت من صرامتي وحسن فراستي ، فهو من قِبَل أعمامي ، ورأيت من ضعفي وعدم ثباتي ، فهو من قِبَل أخوالي ، وهم بطن من خزاعة ، والمرأة التي رأيت عندي ، امرأة منهم ، وأنا نازل فيهم ، وأنا منذ الآن لاحق بقومي ، وخارج عن أخوالي هؤلاء ، ومُخَلّ سبيل المرأة !!! » — فقال عروة : « خذ فرسك راشداً » — قال : « ما كنتُ لآخذه منك ، وعندي من نسله جماعة مثله ، فخذه مباركاً لك فيه ! » .

وفي الأغاني أيضاً : حدث عروة بن الزبير قال : سأل « كلابُ » بنُ أمية ابنَ الأسكر : « أي الأعمال أفضل في الاسلام ؟ » — « فقيل له : الجهاد » ، فسأل عمرَ بن الخطاب فأغزاه في جيش مع أبي موسى الأشعري ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، فلما طالت عنه غيبة « كلاب » قال :

أناديه فيعرض في آباءٍ　　فلا وأبي كلاب ما أصابا
تركتَ أباكَ مُرعَشةً يداه　　وأمك ماتسيغ لها شرابا
وإنك والتماس الأجر بعدي　　كباغي الماء يتبع السرابا

وطالت غيبة « كلاب » ، فأُهتِرَ (١) « أميةُ » وخلط جزعاً عليه ، ثم أتى عمرَ يوماً ، وهو في المسجد ، وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه ، ثم أنشأ يقول :

أعاذل قد عذلتِ بغير قدرٍ　　ولا تدرين عاذل ما ألاقي
فإما كنتِ عاذلتي فردّي　　« كلاباً » إذ توجّه للعراق
فتى الفتيان في عسرٍ ويسرٍ　　شديد الركن في يوم التلاقي
فلا وأبيكَ ما باليتَ وجدي　　ولا شغفي عليك ولا اشتياقي
وإيقادي عليكَ إذا شتونا　　وضمّكَ تحت نحري واعتناقي
فلو فلق الفؤادَ حطام وجدٍ (٢)　　لهمّ سوادُ قلبي بانفلاق
سأستعدي على الفاروق رباً　　له دفعُ الحجيج الى بُساق (٣)
وأدعو الله مجتهداً عليه　　ببطن الأخشبين (٤) الى دُفاق (٥)

---

(١) اهتر الرجل : فقد عقله من كبر او مرض او حزن .
(٢) حطام الوجد : الحزن الذي يكسر القلب .
(٣) بساق: جبل بعرفات .
(٤) الاخشبان : جبلا مكة.
(٥) دفاق : واد .

إنِ « الفاروقُ » لم يردد « كلاباً » إلى شيخان(١) هامُهُما زواقي(٢)

قال فبكى « عمر » بكاءً شديداً ، وكتب بردّ « كلاب » إلى المدينة المنورة، فلما قدم دخل إلى عمر ، فقال له : « ما بَلَغ من برّك لأبيك ؟ » ـ قال : « كنت أوثره وأكفيه أمره ، وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب لبناً ـ أغزرَ ناقةٍ في ابله واسمَنَها، فاريحها (٣) واتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها (٤) حتى تبرد، فاحتلب له فأسقيه » ، فبعث عمر إلى أميّة من جاء بـه اليه ، فأدخله يتهادى (٥) ، وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : « كيف أنت يا أبا كلاب ؟ » ـ قال : « كما تراني يا أمير المؤمنين » ـ قال : « فهل لك من حاجة ؟ » ـ قال : « نعم ، كنت أشتهي أن أرى كلاباً ، فأشمُّه شمة ، واضمّه ضمة قبل أن أموت » ـ فبكى عمر ثم قال : « ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى » ، ثم أمر « كلاباً » أن يحتلب لأبيه ناقة ، كما كان يفعل ، ويبعث اليه بلبنها ، ففعل ، فناوله عمر الإناءَ وقال : « دونك هذا يا أبا كلاب » ،فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال:« نعم والله يا أمير المؤمنين، أني لأشمُّ رائحة ولدي كلاب من هذا الاناء !!! » ، فبكى عمر وقال : « هـذا كلاب عندك حاضراً قد جئناك به » ، فوثب إلى ابنه وضمّه اليه وقبّله ، وجعل عمر يبكي ومن حضره ، وقال لـكلاب : « الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ، ثم شأنك بنفسك بعدهما » ، وأمر له بعطائه ، وصرفه مع أبيه ، فلم يزل معـه مقيماً ، حتى مات أبواه !!!

ومن هـذا القبيل قول امرأة « كعب بن الأشرف » : « إني لأسمـع

(١) شيخان : هذا على لغة من ينصب ويجر المثنى بالألف

(٢) زقى الصدى : صياح ،والهام جمع هامة ، والصدى قيل هو طائر صغير يخرج من رأس الميت (على زعمهم) .

(٣)اراح الابل : ادخلها في المراح أي الماوي

(٤)اخلاف :جمع حلف بالكسر وهو صرع الناقة

(٥)التهادي : مشي فيه ثقل وتمايل وضعف .

صوتاً ، كأنه صوت دم » ، وذلك ليلة قتله ، حينما ذهب اليه « محمد بن مَسلمة » ، فدعاه ليلاً ، فنزل كعب اليه ، فقتل .

فما يفهم العرب في سماع امرأة كعب صوت الدم من لفظ محمد بن مسلمة ، وفي شم أمية رائحة ولده كلاب من الاناء ، وفي شم زوج المرأة ريح رجل في علبة اللابن ، وفي شم سيدنا عمر رائحة أخيه زيد في كل ريح تهب من جهة اليمامة ـ مايفهمه العرب في هذا كله يجب أن نفهمه نحن في قول سيدنا يعقوب « اني لأجد ريح يوسف » ؟

انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع الريح

التوجيه السابع ـ تعلمون ان المخلوقات قسمان: أجسام كثيفة وأرواح لطيفة ، وان الارواح هي المؤثرة في الاشباح ، فاللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي كل ما يطرأ عليه ، ومن ذلك الفرح والحزن ، والرجاء واليأس ، والنمو والحركة ، والنور والظلمة ، والقبض والبسط ، والسمع والصمم ، والشم والخَشَم [1] ، والحر والبرد ، إلى غير ذلك .

خذ مثلا اليك :

١ً ـ الهواء الذي لولاه لما عاشت هذه الأحياء ، الهواء « روح » ولذلك كان من اسمائه إذا تحرك « الريح » ، وأصلها « رِوْح » بكسر الراء ، ولأجل الكسر قلبت الواو ياء .

٢ً ـ الماء الذي منه كل شيء حي ، هو مركب من روحين لطيفين ، وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ، ولكنه الى الثاني أقرب .

٣ً ـ الكهربائية ، فهي من الأرواح اللطيفة ، وناهيك بفعلها في الأشباح ،

---

(١) الخشم : بطلان حس الشم .

فهذه الموجودات اللطيفة التي تسمى أرواحا ، هي التي تحدث معظم التغيير الذي نشاهده في الكون ؟

إذا تمهد هذا نقول : إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل لسيدنا يعقوب رائحة يوسف ، مع بعض المخلوقات اللطيفة كالريح . فاخبر بذلك .

نحن نعلم أنه يصعب على كثير من الشبيبة العصريين الاعتقاد بأن رائحة قميص يوسف ، وهي من الأعراض قد انتقلت مع الهواء المتحرك من بلد إلى بلد آخر — يستصعبون هذا جموداً على العادات ، ولو كان لهم دليل عقلي على عدم ذلك ، لكانوا معذورين ، ولكن لا دليل لهم الا أن هذا غير معتاد ، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل ، فمنه ما يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ، ومنه مالا يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ؛ ونحن نقول : إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات ، قد يكون لها سبب خفيّ ، لم يقفوا عليه ، وشم سيدنا يعقوب رائحة يوسف لا ينزل عن ذلك ،وإما أن يكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقةً لنظام الأسباب ، لان الأسباب الظاهرة ليست واجبة وجوباً عقلياً مضطرداً ، وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ، ويعده مستحيلاً ، لأنه لم يعرف له سبباً ، ولعل أبناء العصور السابقة ، كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر ، الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حُدّث به عقلاء الغابرين ، لعدّوه من خرافات الدجالين .

اعتبار ريح يوسف استعارة مكنية مرشحة

التوجيه الثامن — يقولون « نطقت الحال بكذا » ، وأن هذا استعارة مكنية، بأن شبهت الحال بإنسان ذي نطق ، وحذف لفظ المشبه به وهو الانسان ،ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو النطق ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت

مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الانسان ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به وهو النطق ، قالوا : « وهذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به الا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار النطق للدلالة استعارة تصريحية تبعية » ، إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون « ريح يوسف » من هذا القبيل ، أعني استعارة مكنيه مرشحة ، وتقريرها أن يقال : شبه يوسف بالغيث ، وحذف لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الريح ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به ، وهو « الريح » ، ثم هذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار « الريح » للأَمَرَةِ والعلامة ، استعارة تصريحية أصلية ، وعليه فيكون المعنى : إني أجد — من الوجدان — علامة يوسف الشبيه بالغيث وقبل الختام نقول : من عجائب تفاوت أفهام البشر ، انه لا يزال الكثيرون ينكرون من أخبار الرسل مالم يألفوا ولا يرون المعروف منها إلا ما عرفوا ، وإذا قيل لهم فيه أو في مثله : إنه قد اكتشفه « المسيو » فلان ، أو « المستر » فلان ، أو « الهر » علان ـ قبلوه مذعنين ، وقالوا : إنه الحق المبين ، مع أن علم الكيمياء ، وعلم الكهرباء ، ونحوهما من العلوم الكونية ، قد وصلت اليوم إلى درجة ، لم يعد يستغرب معها شيء من أخبار علم الغيب ، لا سيما إذا كان المخبرون أخصائيين في هذا القبيل ، مثل الأنبياء والأولياء ؛

هذا ما فتح به الفتاح الكريم ، وفوق كل ذي علم عليم .

الاحفاد ينتقدون جدهم

آ (٩٥) ﴿ قالوا : تاللهِ إنّكَ لفِي ضلالِكَ القديم !!! ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الخامسة والتسعون ، فقام الشيخ عبد الحق الطمومي [1] وقال :

ما كاد سيدنا يعقوب يتفوه بقوله : « إني لأجد ريح يوسف » أمام أحفاده الذين كانوا حاضرين حوله ، حتى بادروه مؤنبين منتقدين بنفس كبيرة ، وصوت جهوري ، و (قالوا) له (تالله) التاء ههنا حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قول جدهم « إني لاجد ريح يوسف » ، أو من استمراره على ذكراه إياه مع طول العهد (إنك) ياجداه (لَ) مستمر حتى الآن (في ضلالك) في ذهابك عن جادة الصواب ، المعروف أنت به منذ (القديم) منذ ولادة عمنا يوسف حتى الآن ؛ بسبب إفراطك لمحبته ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه ، في حين أنه قد مضى وفات ، وصار في عالم الأموات .

حقاً إنه ليدهشنا أيها السادة هذا الانتقاد بل التأنيب ، وإنا لندهش بنوع خاص ، كلما تصورنا أنه صادر من حفدة سيدنا يعقوب ، الذين لم يكونوا أقل انتقاداً عليه من أبنائه القائلين : « إن أبانا لفي ضلال مبين » بل كانوا مثل آبائهم حذو القذة بالقذة ، لأنهم تلاميذهم ، أخذوا عنهم دروس الملاحظة والنقد ، بل لعمري لقد فاتوا في القحة والبهت أباءهم من ثلاثة وجوه .

١ً — الحلف باليمن الغموس ، وأما أباؤهم فانما طعنوا طعناً خلواً من اليمين .

٢ً — المواجهة ، فإن آباءهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا

---

(١) نسبة الى الطموم من البلاد المصرية .

في غيبته ، ولكن هؤلاء الأحفاد واجهوه به مواجهة ، وخاطبوه به خطاباً ، ولم يحفظوا منزلة الجدودة وكرامتها ، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهباً ، ولم يحتملوا أن يسمعوا منه رأيه الذي رآى ، قال الشاعر :

وقد أبرك من يرضيك ظاهره　　وقد أطاعك من يعصيك مستتراً

٣ً — تسجيلهم على جدهم بانه عاش — مع الأسف — في ضلال مستمر معه ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق — الى أن جاء فلسطين — إلى أن شُرّد منها — الى مصر — الى هذا الوقت ، أي أنه في ضلال طيلة (٣٩) سنة ، ولذلك وصفوه « بالقديم » .

عدم الرد على السفيه اوجب لامتهانه من الرد عليه

وأما جدهم ، فلما سمع ذلك من أحفاده ، كبر عليه انتقادهم ، وهب جسمه ، وتمرمر في داخله ، وتنهد تنهداً عميقاً ولم يجبهم بحلوة ولا مرة ، كما كان أجاب أولاده الصلبيين ، قائلاً : (إنما أشكو بثي وحزني الى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون) بل اغتفر لهم حديثهم وخشونتهم ، وتغاضى عن نغمتهم الجافة اليابسة ، واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالغض والاحتمال ، أو كأنه سكت ولم يجبهم ، لأنه ذكر أن اعتراضهم عليه ، وإن يكن مصيبة من المصائب ، لكن لاقيمة لمصائب الحياة ، بعد مصابه الذي كان نزل به ، بفقدان يوسف ، وتسريق بنيامين ، واحتباس رأوبين ، فلم يعلق جدهم أهمية على كلمتهم هـــذه ، بل سكت ، وفي سكوته مايغني عن الجواب ، فلعمري ان سكوته عن مجاوبتهم أوجب لامتهانهم من الرد عليهم :

قال الشاعر

قد أفلج الساكت الصموت　　فربما كلمـــة تميت
ما كل نطق له جواب　　جواب مايكره السكوت

وقال :

وأبعدُ من ناداك من لاتجيبه وأغيظ من عاداك من لاتشاكل

وقال :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلّ من العلى سكت إذاً حلماً وصفحاً عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

وقد قيل : « ما تسابّ اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الاسفل » لذا لم يجبهم جدهم على قولهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » وقال « حذيفة بن بدر » لرجل: « أيسرك أن تغلب شر الناس ؟ قال نعم ، قال لن تغلبه حتى تكون شراً منه » ، وشتم رجل حكيماً ، فقال :« أَسكُتُ فلست أدخل فى حرب ، الغالب فيها شر من المغلوب » ،

ومنه نتعلم أنه لا ينبغى لنا أن نكافىء السفيه على سفهه بمثله ، فإنا إن فعلنا ، قضينا له على أنفسنا ، وأصبحنا شركاءه في الخلة التي ننقمها منه ، فان كان أحدنا لا بد منتقماً ، فليكن مثلُه مثلَ « الأحنف بن قيس » ، إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جُعلاً على أن يُغضبه، فما زال يسبه ويشتمه ، ويُلحّ في ذلك إلحاحاً محرجاً ، والأحنف ساكت ، لا يقول شيئاً ، حتى ضاق بالرجل أمره ، فانقلب إلى قومه باكياً نادباً ، يأكل إصبعه أكلاً ، ويقول : « والله ما سكت عني إلا لهواني عليه » .

أحفاد يعقوب

وقبل الختام ، رب سائل يسأل : إذا كانت أولاده الاثنا عشر غائبين عنه : ثلاثة منهم بمصر ، وتسعة في الطريق مع العير ، فمن هم هؤلاء الناس الذين خاطبهم سيدنا يعقوب عليه السلام ؟ والجواب إنهم حفدته ، وهم أولاد أولاده ؟

فلابنه « رأوبين » أربعة أولاد ، ولابنه « شمعون » ستة أولاد ، ولابنه « لاوي » ثلاثة ، ولابنه « يهوذا » ثلاثة أيضاً،ولابنه « دان » ولد واحد ،ولابنه « نفتالي » أربعة ولابنه« جاد » سبعه ، ولابنه « أشير » أربعة،ولابنه «يساكر» أربعة بنين ، ولابنه « زبولون » ثلاثة ، ولابنه « بنيامين » ستة (تك ٤٦:٩-١٨) (والسنن القويم) .

فهؤلاء الحفدة الخمسة وأربعون ، كلهم كانوا حوالي جدهم يعقوب عليه السلام بفلسطين ؛

هذا عدا الإناث ، وربما كان الإناث أيضاً ، خصوصاً بنات « ليئة » لهن دخل كبير في الانتقاد على أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام .

البشارة

آ (٩٦) ﴿ ... فلمّا أَنْ جاءَ البَشيرُ ، أَلْقاهُ على وجهِهِ فارتَدَّ بصيراً ! قالَ : أَلمْ أَقُلْ لكم:إِني أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا تَعْلَمُونَ ؟﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والتسعون ، فقام لسان الحق الحمصي وقال :

(فلما أن جاء البشير) وهو الابن الرابع يهوذا ، حاملاً قميص أخيه يوسف الرسمي المصنوع من الكتان ، دخل خيمة أبيه يعقوب ، ثم سلم ، فقال له أبوه : ما وراءك ؟ قال : « كل خير ... بشارتي عليك ، الرائد لا يكذب أهله ، يوسف حيّ » ثم أخرج القميص و (القاه على وجهه) على وجه أبيه يعقوب وعلى عينيه ، أي عرّضه لوجهه حتى رآه (فارتد) أي صار ـ لأن ارتد تأتي في اللغة العربية

فعلاً ناقصاً بمعنى صار ، فتكون من اخوات « كان » ـ (بصيراً) عالماً بالقلب ،عارفاً بما عليه يوسف ، لأنه قبل ذلك لم يكن عالماً بما لولده من جاه ومنصب .

ويجوز ان المعنى : لما جاءالبشيرالقى القميص الكتان على وجه يعقوب وعلى عينيه ، فعوفي من شدة فرحه وسروره ، فرجع مبصراً ، هذا إذا حملنا « القميص » على اللباس الحكومي الرسمي ، فان حملناه على القميص المعنوي وهو المنصب على وجه الاستعارة ، كان قوله (ألقاه على وجهه) ترشيحاً للاستعارة ، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، ولا يقصد منه إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار لمعنى يلائم المشبه ، كأن يقال هنا : إن معنى (ألقاه على وجهه) عرفه به ، أي ألقاه على ذاته وأحاطه به علماً ، (قال) لهم أبوهم ، بصوت التقريع واللوم ، يا بني ، لم يزل فكري عالقاً بالجملة التي كنت أرسلتها لأسماعكم (ألم أقل لكم) سابقاً ، «اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؟ » ثم ألم أقل لكم : « إني لأجد ريح يوسف ؟ »ـ فمقول القول محذوف،لأنه معلوم للمخاطبين ـ وعليه فقوله:(إني أعلم من الله مالا تعلمون) كلام مبتدأ ، لم يقع عليه القول ، ويحتمل أن المعنى:ألم أقل لكم سابقاً « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » وعليه فهو هو مقول القول ، وإذا جرينا على الاحتمال الأول ، وقفنا على كلمة « لكم »،وبدأنا بقوله:إني أعلم..الخ وإذا جرينا على الاحتمال الثاني لم يجز الوقف على كلمة « لكم » ، بل يجب وصل الكلام بعضه ببعض لقوة الارتباط بين القول والمقول .

(جيد)

(فلما أن جاء البشير .. الخ)

– ٢ –

وقال الشيخ ابراهيم الأزهري[1] :

وصول البشير والقاؤه القميص على وجه يعقوب

سبق أن أولاده الصلبيين انتقدوه حين تولى عنهم وقال : « يا أسفاً على يوسف وابيضت عيناه من الحزن » فقالوا له : « تالله تفتأ تذكر يوسف » حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » فقال لهم : « إنما اشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » ، وسبق وما بالعهد من قدم — أنه قال : « إني لأجد ريح يوسف » فقامت أولاد أولاده عليه ، وانتقدوه على كلامه انتقاداً مراً ، وما هي إلا سويعات قليلة ، حتى وصلت العير ، فاستعجلوا البشير الذي يحمل قميص يوسف وهو يهوذا بالذهاب والتقدم إلى أبيهم ، لينبئه برجوعهم ويبشره بحياة يوسف ومركزه الرسمي ، وفيما يعقوب جالس في خيمته إذا بالبشير « يهوذا » قد دخل عليه وهو يصيح صياح الفرح قائلاً له : لتهنأ بحياة يوسف ، وانه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » وهذا هو لباسه الرسمي الذي يدل على نوع رتبته في البلاط الملكي المصري !

فلم تكد تموجات هذا الصوت تدرك طبلة اذن والدهم حتى انفتح صدره ، وانتعشت آماله وحيي رجاؤه ، فأطرفه بالقميص الكتاني ، وألقاه على وجهه ، فأبل من ابيضاض عينيه الناتج عن الحزن ، فارتد بصيراً ، وبرح الخفاء ، وظهر الصبح لذي عينين ، اذ تبدل مرضه بالصحة ، وضعفه بالقوة ، وحزنه بالفرح ، وبكاؤه بالضحك ، وتبلبل أفكاره بالطمأنينة ، وإنكسار قلبه بالجبران ، وأسفه بالرجاء ، فارتقى نظره الى دور السلامة كأنما في اضعاف هذا القميص جميع عقاقير

---

(١) نسبة إلى الجامع الأزهر في القاهرة (مصر) .

الصحة ، وكل قطرات الشفاء ، أو كأنما هو حلة من حلل الجنة ، من لبسها وفي من كل سوء ، ومن هذا القبيل استشفاء العشاق بما يهب عليهم من جهة أرض المحبوب ، كما قال :

وإني لاستشفي بكل غمامة تهب بها من نحو أرضك ريح

والتعبير بارتداده بصيراً تواً عقب إلقاء القميص على وجهه ، تصوير للقارىء الكريم ، لما كان في ذلك الموقف الرهيب ، من انقلاب سريع وتطور مدهش .

ومالبث يعقوب أن قال لأبنائه وأحفاده ، بلسان الفرح أو الاحتجاج،سامحكم الله ، ياأولادي وياأحفادي ، ألم أقل لكم سابقاً ولاحقاً ، اني أعلم من أسرار غيب الله مالا تعلمون ؟ وليس المخبر بالعلم كالراجم بالظنون ، فلم أكن أنطق بذلك جزافاً ، ولم أكن كالحاكي (الفونوغراف) ينقل الصوت بلا شعور ولاإرادة ، بل كنت أتكلم معكم بكلام أقصده قصداً ، وأفهم معناه جيداً ، وأشعر بمراميه، وأتأكد اقتراب وقوع مضمونه لامحالة ، لأنني لا أتكلم إلاّ عن الله تعالى ، ولكني كنت أجمل لكم القول إجمالاً ، ولم أقله لكم بالتفصيل ، لأنه ما كل ما يعلم يقال ، وأما الآن فقد زالت الرغوة ، وبدا الصريح .

(فلما أن جاء البشير ... الخ)

— ٣ —

وقال لطفي باشا النابلسي :

خصائص قميص البشارة ورده بصر يعقوب

حكي انه اجتمع في بعض الأزمنة ملوك الأقاليم ، من الصين والهند وفارس والروم ، وقالوا : « ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدوّن عنه على مدى الدهر»:

فقال ملك الصين : « أنا على مالم أقل ، أقدر مني على رد ماقلت ».



وقال ملك الهند : « عجبت لمن يتكلم بالكلمة التي إن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أو بقته »

وقال ملك فارس : « أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ، وإذا لم أتكلم بها ، ملكتها » !.

وقال ملك الروم : « ماندمت على مالم أتكلم به قط ، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً ».

إذا كان الأمر هكذا ، فكم ندم أولاد يعقوب عليه السلام وأولاد أولاده على كلامهم السابق الذي أوقعهم في الخجل ، وسجّله عليهم التاريخ في باب السباب والشتائم والوقاحة ، ولهذا قال تعالى (فلما أن جاء البشير) يحمل على يده نعمة الخالق الى المخلوق .. يحمل على يده النبأ العظيم الذي كان يعقوب يستشرف اليه منذ (٢١) سنة ، يحمل ليعقوب السرور والغبطة والفرح والجذل ، يحمل ليعقوب الحياة الجديدة ، حياة اللقاء بعد الفرقة ، حياة ثلج الصدر بعد الحرقة ، يحمل ليعقوب نبأً أن فريسة « الذئب » هو في قيد الحياة ... يحمل ليعقوب نبأً أن العبـــد المملوك أصبح مالكاً .. وأن نزيل الجب أصبح فوق العرش ... يحمل ليعقوب أن ابن البادية ، الذي كان يرعى الغنم ، قد أصبح اليوم يرعى رعيةً له هي أهل مصر . يحمل ليعقوب أن صاحب الأحـلام ، قد آن للكواكب أن تخر له سجداً ، وأخيراً يحمل ليعقوب اللباس الرسمي مع الرتبة السامية الموجهة عليه من لدن مليك الديار المصرية ، وعند ذلك ألقاه على وجه هذا الشيخ البائس ، وبما في هذا « القميص » من البـلاسم الشافية لجراح العيون ، ومن القطرات الممتازة المزيلة لغشاوتها البيضاء ، نشـط وأحس بحركة لايعبّر عنها الا بالمجرى الكهربائي ، فارتد بصيراً ، لأن صحة بصره شرعت تتراجع اليه ، وجعل نشاطـه يدب فيه دبيباً ، وابتدأت عيناه تقبلان على الشفاء ، فما مضى أقل مدة يمكن فيها عادة الشفاء

إلا وقد عوفي وشفي ، والتعقيب في كل شيء بحسبه ، كما يقال تزوج زيد فولدله ، فهذه الفاء هنا مثلها في قوله تعالي : ﴿ ثمَّ شققنا الأرضَ شقاً ، فأنبتنا فيها حبًا وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائقَ غلباً ، وفاكهةً وأبّاً ﴾ (٨٠:٢١—٣١) ، وقوله : ﴿ والذي أخرجَ المرعى ،فجعلهُ غثاءً أحوى ﴾ (٨٧:٤و٥) وقوله : ﴿ أصابها وابلٌ فآتتْ أُكُلَها ضعفين ﴾(٢:٢٦٥) ، وقوله : ﴿ فأنزَلْنا بهِ الماءَ ، فأخرجْنا بهِ منَ كلّ الثمراتِ ﴾ (٥٧:٤٣) وقوله ﴿ خلقَ منَ الماءِ بشراً ، فجعله نسباً وصهراً ﴾ (٢٥:٥٤)

تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه

وبهذا يكون الله قد صدّق قول يوسف : « يأت بصيراً » بالفعل ، فيوسف من عباد الله الذين اذا أرادوا أراد ، كما ان الله أيضاً بمجيء البشير بالقميص صدّق بالفعل قول يعقوب « إني لأجد ريح يوسف »، فيعقوب من الذين إذا وجدوا الشيء تلميحاً ، وجدوه فيما بعد صريحاً .

أثر المحبوب قد يسبب الشفاء والمعافاة . لاسيما متى كان ذلك الأثر يبشر باللقاء، كما في هذه الحادثة ، وعلى العكس ربما ان اثر المحبوب قد يسبب الغشيّ فالموت، إذا كان ينذر بعدم اللقاء .

وبعد فمن غرائب التاريخ ، ونوادر الحوادث ، ان الذين يحملون في هذه المرة « القميص » الحاضر . الذي يشير إلى حياة يوسف ، وقد نشأ منه سرور ابيهم ، هم الذين كانوا حملوا « القميص » الماضي ، الذي كان يشير إلى موت يوسف، وقد نشأ عنه حزن أبيهم!!...

واخيراً أختم كلمتي هذه بالتعليقات التالية :

العلم يقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر ارتداد بصر يعقوب بالقاء القميص عليه

١ — أتى على الانسان حين — وهو يعتقد ان الضياء الساطع في ظلام الليل لا يكون إلا من طلعة القمر ، او من لهب النار ، فاذا آنس تحت جناح الليل نوراً يتألق بمكان بعيد ، لم يرتب في انه بهرة قمر ، او شعلة نار ، فلم يشعر إلا وقد انضم الى القمر والنار عنصر من عناصر الإنارة وهي « الكهرباء » فلو لم يخترع التنوير بالكهرباء ، وكان فيما نقل من معجزات الرسل إنارة بعض الاجرام من غير ان تمسه نار ، لقال الذين في قلوبهم مرض ، إن الإنارة إنما تنشأ عن لهب النار ولا سبيل الى تحقق الأثر ، متى فقد سببه .

٢ — زعم بعض المرتابين في المعجزات أن قطع المسافة الشاسعة ، كما بين « المسجد الحرام » إلى « المسجد الأقصى » في ليلة واحدة أو بعض ليلة — أمر لا يحتمله الإمكان ، ولا يتقبله العقل ، ولكن هذا الأمر الذي كانوا يذكرونه بوصف المحال قد كشف العلم الصحيح عن إمكانه ، وأخرجه للناس في جملة الكائنات المبصَرة ، فهذه سكة الحديد التي قيل فيها :

هذا «وَبُورُ البر» أكبر حجة إن تنكر الاسراءَ « للمختار »
إن كان صنع هـذا العبد سيَّرَهُ فعلام تنكر صنعة « القهار »

بل إذا تمكن المخلوق باختراع « الطائرة » أن يجعلك تقطع المسافة القاصية في مدة وجيزة ، فماذا يكون شأن قدرة الخالق التي هي أبدع تقديراً وأحكم صنعاً ؟..

٣ — كان الفلاسفة يعتقدون أن الوزن هو من خصائص ما يوصف بالخفة والثقل من الأجسام ، وقالوا : « لا نفهم لوزن الأعراض معنى يعقل » ، وماراعهم إلا أن صنع بعض العلماء « ميزان الحرارة والبرودة » وأراهم أن وزن الأعراض

هو من قبيل الممكنات ، وأن للوزن طرقاً غير ما تعرفه الباعة في الأسواق .

٤ — لو كان النبي ﷺ قال: « إن في هذا الماء الذي تشربونه حيوانات تذهب وتجيء » ، ولم يكن قد اخترع المنظار المكبر (مكرسكوب) لأنكر ذلك كثيرون من ضعفاء الايمان ، ولكن الاكتشافات الجديدة جعلت ذلك ممكناً ، بل من الحقائق الراهنة .

إلى غير ذلك مما يفوقه ، ولا يأتي عليه الاحصاء ، فيجب علينا الايمان بأنه حينما ألقي القميص على وجه يعقوب ارتد بصيراً ، فذلك ممكن ، والله قدير على كل شيء . (مرحى)

طلب الاستغفار

ا (٩٧) ﴿ — قالوا : يا آبَانا استَغفِرْ لنا ذُنُوبَنَا ، إنَّا كُنا خاطِئينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية السابعة والتسعون ، فقام فيض الله الكرمي وقال :

(قالوا) أي ابناء يعقوب بلهجة الاعتذار والتوبة، وقد تزاحمت على وجوههم حمرة الخجل وصفرة الوجل : (يا أبانا) نعم ، قلت لنا : إنك تعلم من الله مالا نعلم، ولكنا ـ مع الأسف ـ كنا في سبات عميق ، فأنت غير كاذب ولا مُكذَّب ، ونحن الخَطَأة الأثمة ، ما من ذلك بد ، وحيث قد اعترفنا (استغفر لنا ذنوبنا ، إنّا كنا خاطئين) ، خاطئين أولاً بارتكابنا جرماً يستحق العقاب ، وخاطئين ثانياً بافترائنا حادثة ليس لها نصيب من الصحة، وخاطئين ثالثاً بقطعنا رحم أخينا ، وخاطئين

رابعاً بعقوقنا لك والحاقنابك الأذى والحسرة والفكرة ، وخاطئين خامساً بحقارتنا لأنفسنا بتلك الأعمال الشائنة ؛

وبالجملة نحن حشو الخطيئة واعضاء الجريمة ،والهيكل العظمي للحوب الكبير، فتكراراً ومراراً نقول : (استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) .

(قالوا : يا أبانا استغفر لنا .. الخ)

— ٢ —

وقام ابو الخير اللدي وقال :

ابناء يعقوب يطلبون من أبيهم ان يستغفر لهم ذنوبهم

تقدم أن أباهم قال لهم : « ألم أقل لكم إني اعلم من الله مالا تعلمون ، فما كنت تنبأت به هاهو قد حصل »، ـ قالوا : « نعم ، ذلك العتبى » ـ قال : « فاذن : الفريقين الآن قد تفاهمنا واتفقنا وارتفع الخلاف من بيننا » ـ قالوا : « يا أبانا »ـ قال : « قد سمعت » ـ قالوا « استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين إننا لا نقدر أن نصف خجلنا منك ،وخطأنا اليك وإلى الله،لما سببناه لك من البث والحزنوالحسرة والأسف ، مع البكاء والسهر والفكر ، لإبعاد ابنك عنك ، وتشريده من وطنه، نحن مدينون لك وإلى الله ، وقد خطئنا اليك وإلى السماء ، وأنت تعلم إنّا ما كنا في موطن منذ عقلنا ألا أنّا نعرف فيه أمرنا ، غير موطننا هذا ، فكأنما هجمنا عليه متسرعين ، بدون حردٍ ، ولا إعمال روية ، وبلا نظر في العواقب ، وكأنالقضاء السماوي جعلنا آلة لتنفيذ ذلك الأمر ، الذي رأينا اليوم عاقبته حميدة ، والحمد لله ، ولقد قيل : « النتيجة تبرر الواسطة » ، ومع كل هذا ، ورغماً عن كل ما نقول ، فنحن من حيث أننا لم نكن نقصد خيراً ، بل شراً،نعترف بالخطأ ، نعترف بالحوب

الكبير ، نعترف بالذنوب إلى الله وإلى أبينا وأخينا ، فلا..ولا .. وإنّا..وإنّا ..».
واليك المواد التاليه على الآية الكريمة :

الشفاعة وأنواعها وحكمها

المادة ١ — اتخذوا أباهم شفيعاً بينهم وبين ربهم ، لأن شفاعة أهل التقى لأهل التقى مشروعة مأذون فيها مرجوة الإجابة ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذٍ لا تَنْفَعُ الشفاعةُ إلاّ مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ، ورَضِيَ لهقولاً ﴾ (٢٠ : ١٠٩) ، وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ ولا يَشْفَعُون إلاّ لمن ارتَضَى ، وهم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشفِقُون ﴾ (٢١ : ٢٨) وقال تعالى : ﴿ ولا يَمْلِكُ الذين يَدْعون مِنْ دُونِهِ الشفاعَةَ ، إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحقِ ، وهم يعلَمون ﴾ (٤٣ : ٨٦) وقال تعالى : ﴿ يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً ، لا يتكلمون إلاّ مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ، وقال صواباً ﴾ (٧٨: ٣٦ و ٣٧) وقال تعالى:﴿ لا يَملكون الشفاعةَ إلاّ مَنْ اتخذَ عند الرحمنِ عَهْداً ﴾ (١٩ : ٨٨) ، فهذا موطن الشفاعة المثبتة، التي شرطها الإذن للشافع ، والرضا عن المشفوع له ؛

وأما الشفاعة المنفية ، فهي شفاعة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الآلهة الباطلة ، أو كان المشفوع لهمن أهل الشرك أو الكفر ، فهذه لا جرم هي الشفاعة التي نزل فيهاقوله تعالى:﴿ ويَعبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم، ويقولون : هؤلاءِ شُفَعاؤُنا عندَ اللهِ ، — قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعلَمُ في السموات ولا في الأرضِ ؟!! سبحانه وتعالى عما يُشركون ﴾ (١٠ : ١٨) وقوله تعالى : ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ يُبْلِسُ المُجرِمونَ ، ولم يكنْ لَهُم مِنْ شُرَكائِهِم شُفَعاءَ ، وكانوا بِشُرَكائِهِم كافرين ﴾ (٣٠ : ١٢ و ١٣) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ اتخذُوا مِنْ دون الله شُفَعاءَ ؟ قل : أَوَلَوْ كانوا لا يَملكون

شيئاً ولا يَعقِلون ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له مُلْكُ السموات والأرض ، ثم اليه تُرجَعون ﴾ (٣٩ : ٤٣ و ٤٤) وعلى ذلك تحمل باقي الآيات التي تنفي الشفاعة وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجزِي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً ، ولا يُقبَلُ منها عَدلٌ ، ولا تَنفَعُها شفاعةٌ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢:١٢٣) وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أنفِقُوا مما رزقناكم من قبل أن يأتيَ يومٌ ، لا بيعٌ فيه ، ولا خُلَّةٌ ، ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢٠ : ٢٥٤) ، فبهذا يجمع بين الآيات التي ذكرت فيها الشفاعة نفياً واثباتاً ، ويعلم أن شفاعة سيدنا يعقوب لأولاده هنا هي من قبيل الشفاعة المثبتة ، والله تعالى أعلم .

سبب طلب الاخوة الاستغفار من ابيهم ولم يطلبوه من اخيهم

المادة ٢ — هنا يتساءل المتسائلون : لماذا لم يطلبوا الاستغفار لانفسهم من أخيهم ، وإنما طلبوه من أبيهم فقط ؟

وجوابنا عنه ما يلي :

لما كان سيدنا يعقوب من جهة رجل دين ، ومن جهة أخرى أباهم ، رأوه (طبعاً) أهلاً لأن يسألوه الدعاء لهم ، وأما سيدنا يوسف فلما كان من جهةٍ أخاهم الأصغر ، ومن جهة ثانية كان في نظرهم رجلاً مدنياً ، وحاكماً ادارياً ، ووزيراً مالياً ، ولم يعلموا أيضاً أنه نبي — لم يطلبوا منه الاستغفار ، ولكن ذكروا له ما يَسُرّ الرجال المدنيين ، والحكام الاداريين ، من علو مراتبهم وتقدمهم على الأقران ، فقالوا له : « لقد آثرك الله علينا » ومع أنهم لم يروه (في نظرهم) أهلاً أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم ، فقد رأى هو شخصه أهلاً لذلك ، لأنه أعرف بنفسه منهم ، فقال : « يغفر الله لكم ، وهو أرحم الرحمين» .

مذهب السلف والطوائف الاسلامية الاخرى في النجاة والايمان

المادة ٣ — طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم ، ليكونوا من الناجين ، فان العبد لا ينجو بالايمان فقط ، ولكن به وبترك سيىء الأعمال ، وفعل صالحها ، والتوبة إلى الله تعالى ، وهذا هو مذهب « السلف » خلافاً « للمُرجئَة » — وهم طائفة يُرجئون الأعمال ، أي يؤخرونها ، فلا يقيمون للأعمال الصالحة وزناً في الخلاص ، وإن كان لها ثواب ، وإنما الخلاص بمحض الإيمان ، كما لا يقيمون وزناً للمعاصي في الهلاك ، وإن كان عليها عقاب ، وإنما الهلاك بالكفر فقط ، وعليه فهم يقولون : المؤمن يستحق الجنة بالايمان فقط ، دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر ، دون بقية المعاصي ، وكأن مصدر هذا الخلاف ، الخلاف فيما هو الايمان ، فالسلف الصالح يقولون : « الايمان هو اعتقاد وقول وعمل » وهؤلاء يقولون : « الايمان هو الكلمة والعقد ، دون الاعمال » — « والخوارج » يكفرون مرتكب الكبيرة ، لجعلهم العمل من الايمان ، فهم بعكس المرجئة و وأما « المعتزلة » فهم يقولون في مرتكب الكبيرة أنه منزلة وسطى بين المؤمن والكافر ، وانه يخلد في النار ، ولكن عذابه دون عذاب الكافر .

تعليل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع

المادة ٤ — رب سائل يسأل : لماذا قالوا : (ذنوبنا) بصيغة الجمع ، مع أنه ذنب واحد ؟ وجوابنا عن ذلك من ثلاثة وجوه :

١ً — أنهم اتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم ، لأن كل واحد من العشرة قد اقترف الذنب ، فهو نظير: ركب القوم دوابهم ، ولبسوا عمائمهم .

٢ً — لأن ذلك الذنب الواحد مربع في الحقيقة ، باعتبار أنهم تخطئوا إلى

الله ، وإلى كل من أبيهم وأخويهم ، بل وإلى اشخاصهم وضمائرهم ، وشريعتي العقل والنقل .

٣ — إن الذي اجترموه ليس هو ذنباً واحداً، بل هو ذنوب كثيرة :حسدوا أخاهم ، بغضوه من غير ما جرم ، ضللوا أباهم ضلالاً مبيناً ، تآمروا على قتل أخيهم أو طرحه أرضاً أو القائه في غيابة الجب ، وأخيراً قرروا هذه المشورة النهائية ، لعبوا على أبيهم دوراً مهماً ، نصبوا أمامه الا حبولة فاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه وقالوا له : وإنا له لناصحون ، ولكن غشوه ، وعدوا أنهم سيحفظونه ، وأخلفوا وعدهم ، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء ، ألقوه فملأ في غيابة الجب ولم يرحموه ، وبذلك قطعوا الرحم التي بينه وبينهم ، بل والرحم التي بينهم وبين أبيهم ، عقوا بذلك أباهم ، أحزنوا بذلك بنيامين ، بكوا كذباً ، قالوا أكله الذئب كذباً ، جاؤا على قميصه بالدم كذباً ، أقر بعضهم بعضاً على الكذب كذباً ، إلى غير ذلك مما يظهر للمتأملين ، فلهذا قالوا : (استغفر لنا ذنوبنا) بصيغة الجمع ، وكان أقل هذا الجمع ثمانية .

لماذا لم يستغفروا لأنفسهم بأنفسهم

المادة ٥ — طلبوا الاستغفار من أبيهم لأن ذنبهم هذا لم يكن ظلماً لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى أبيهم فيكفي فيه استغفارهم لانفسهم بأنفسهم — بل كان ظلمهم تعدى إلى ايذاء أبيهم ، من حيث أنه أب ، له وحده الحق في أن يزيد من المحبة من أولاده لاسباب جوهرية ، وحكم عالية يعرفها هو ، فكان لا بد من توبتهم وندمهم على ماصدر منهم،أن يظهروا ذلك لأبيهم ، ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه ، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم تعديهم عليه وعلى أخيهم وأخيهم ، فان

التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس ، لا تكون مقبولة ولا صحيحة ، إلا بعد استرضاء صاحب الحق .

وهناك وجه آخر في طلبهم من أبيهم الاستغفار لهم ، وهو أن مشاركة الناس بعضهم لبعض في الدعاء مسنونة ، وان من سنتة تعالى ، أن يتقبل من الجماعة ، باسرع مما يتقبل من الواحد ، فدعاء الجماعة أرجى للاجابة ، وإنْ كان كل داع موعوداً بالاستجابة ، وإنما كانت المشاركة في الدعاء ، أرجى للقبول ، لأن الداعي للناس يؤدي هـــذه العبادة بسببهم ، أي أن ذنوبهم تكون هي السبب في شعوره واحساسه بالحاجة إلى الله تعالى والخضوع له والاتحاد المرضي عنده،فكأن حاجتهم حاجته ، فإذا كان يعقوب (ع) هو الداعي والمستغفر لأولاده اولئك التائبين مع استغفارهم هم ، فذلك من اشتراك قلبه الشريف مع قلوبهم بالحاجة إلى تطهير الله لهم من دنس الذنب،وطلب النجاة من عقوبته ، وناهيك بقرب أبيهم يعقوب (ع) من ربه ، والرجاء في استجابة دعائه .

فان قلتم أين مشاركتهم لأبيهم في التوبة والاستغفار ، حتى يتم هـذا التوجيه الذي ذكرتـــه ؟ قلت طلبهم من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم مع قولهم « انا كنا خاطئين » هو توبة واستغفار ، فمعنى كلامهم : ياأبانا ، هانحن أولاء نعترف بذنوبنا وخطأنا ، ونستغفر لذلك ربنا ، فشاركنا في هذا الالتجاء والخضوع ، نعم ، نحن نعلم أن الله أقرب من حبل الوريد لعباده ، لكنا نريد من هذا أن نقر لك أولاً بخطأنا معك ومع الله ، ونريد ثانياً أن يكون طلب المغفرة لنا من الخالق ، بلسان المخلوق الذي كنا قد أخطأنا اليه ، ليكون ذلك أدعى الى مغفرة الله لنا ، فان الله أكرم من كل ماسواه .

« اصوات متزاحمة من المؤتمر »

(مرحى) (قالون) (جيد) (أحسنت) (ليعش جميع أهل الله ، لأجل خاطرك ياأستاذ)

تسويف الاستغفار

آ (٩٨) (– قال : سوفَ أستغفِرُ لكم ربّي ، إنَّه هُوَ الغفورُ الرحيمُ)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الثامنة والتسعون ، فقام ابو الفضل الطنطاوي وقال :

سمع منهم أبوهم توبتهم وطلبهم الاستغفار فـ (قال) لهم : وإن يكن هذا منكم إنما كان بعد حلول الدبرة ، وخراب البصرة ، فلا عليكم ، أما أنا فلا موجدة في قلبي نحوكم ، لأن الأيام ، تمحو الآثام ، ولأني أب ، والأب يحن بطبعه لأولاده – على مافيهم – ؛ هما يومان ياأبنائي ، وهما قميصان ، فمنذ ٢١ سنة جاءني « قميص » ينعي الي ّيوسف ، واليوم جاءني « قميص » يحمل بشرى حياته وعزّه ، نعم نعم ، منذ ٢١ سنه حُمِل اليّ « قميص » أبكاني فابيضت عيناي ، واليوم حُمِل اليّ « قميص » ردّني بصيراً ، والدنيا كلها ماضية ، والحمد لله على كل حال ، والله يغفر لي ولكم ولجميع من كان مخلوقاً من الماء والطين ، فهذا ما كان من جهة حقي ،لاسيما وغريمكم يوسف ، غفر لكم ورضي عنكم ، فأنا إذن لايصح لي أن أتقاعس عن مسامحتكم ،لئلا يقال : « رضي الخصمان وأبى القاضي » ، وأما من جهة حق الله تعالى فإيْ والله (سوف استغفر لكم ربي) أذاتَكُمْ ، فهو حقيق بالمغفرة،خليق بالرحمة (إنه هو الغفور الرحيم) وكفى ! فهو تعالى يُقيل عثرة الخاطئين ، وينهضهم من كبوتهم .

وهنا ملاحظات :

اسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده

الملاحظة الأولى — أجابهم بالتسويف والمهادة لأسباب :

١ً — ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها ، لأنه مامن شيء يفنى في الطبيعة ، وإنما الاشياء تتبدل مظاهرها .

٢ً - لحينما يذهب الى المعبد الذي كان علمّه بالحجر حينما كان مسافراً من فلسطين الى العراق الى خاله « لابان»(١) ، وكان هذا المكان على غاية اثني عشر ميلاً من « القدس » وعلى الشمال منها على جبل افرايم ، وبعبارة أوضح : هذا المكان يسمى « بيت إيل » وهو الى شرقي خط يمتد من « القدس » الى « نابلس » على بعد واحد من كلتا المدينتين ، ويسمى اليوم « بتّير ».

٣ً — لحينما يصل في طريقه لمصر الى « بئر السبع » فيدخل المعبد الذي كان بناه إبراهيم وإسحاق عليهما السلام (٢) وهناك يستغفر لهم ، لأنه لايرى أنسب وأقرب لاجابة الدعاء من أن يكون في المعبد الديني ، فكأنه رآى أن طِلْبَتهم هذه سابقة لمكانها ، ومكانها هو هذا المعبد ؛ قال أبو الطيب المتنبي :

ومِنَ الخيرِ بطءُ سَيْبِكَ عَنّي أسْرَعُ السُحبِ في المسيرِ الجهامُ

أي تأخر عطائك عني يدل على كثرة ذلك العطاء ، لأن اسرع السحائب سيراً أقلها ماءً .

٤ً — لبعدما يجتمع بيوسف ويراه قد صفح عنهم تماماً ، وحينئذ يكون العدل قد استوفى حقه ، ولم يبق الا حق الله تعالى ، فلا يكون بعدُ مانع من استغفار الله تعالى لهم .

---

(١) انظر تك ٢٨ : ١٠ـ١٩

(٢) انظر تك ٢١ : ٣٣ و٢٦ : ٢٥

٥ً ـــ أخر ذلك جرياً مع طبع الشيخوخة التي تتطلب التؤدة والتأني في سائر الأمور مطلقاً .

٦ً ـــ لحين تكون فيه الاجابة أقرب ، كما قال تعالى : ﴿ والمُسْتَغْفِرِينَ بالأسْحارِ ﴾ (٣:١٧)، لأن النفس تكون حينئذ أصفى ، والقلب أفرغ من الشواغل ، كما نقل عن بعضهم انه قال : « لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق في الأسحار ـــ ماأحببت البقاء في هذه الدار ».

٧ً ـــ شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الانسان مصراً على الذنب ، وبما أن أباهم لم يرهم في حال تدل على الاقلاع والندامة بالمرة ، بخلاف يوسف ، فانه ربما يكون قد رآهم ، بحال تدل على الاقلاع والندامة ، إذ يجوز أن يكونوا قد خشعوا وخضعوا وبكوا أمام أخيهم يوسف ، فرآى انه لامانع شرعاً من أن يطلب لهم المغفرة ، ولكنهم أمام أبيهم لم يخشعوا دلك الخشوع ولم يخضعوا ذلك الخضوع ، لأن لهم مع أبيهم حرية أكثر من حريتهم مع أخيهم « وزير المالية » و« عزيز مصر » و « وكيل الملك » فلذلك أخر أبوهم الاستغفار لهم حتى يتأكد توبتهم النصوح ، وندمهم الخالص ، لاسيما وقد سبق أنه رآى منهم الحيل ، وجرب عليهم الختل ، وأنهم يظهرون خلاف مايبطنون .

٨ً ـــ يرى بعض الناس ـــ ولعل سيدنا يعقوب منهم ـــ أن الوعد بالخير أفضل من اعطائه بغتة ، مثلاً : « منصور بن زياد » كلّم « يحيى بن خالد » في حاجة رجل ، فقال له : « عِدْهُ عني قضاءَها » ـــ فقال منصور بن زياد : « وما يدعوك الى العِدَة مع القدرة ؟» ـــ فقال :« هـــذا قول من لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجحها لم تتحدث النفس بسرورها، إن الوعد مَطْعَمٌ ، والانجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام ، كمن وجد رائحته ، وتَطَعَّمه ثم طعمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها عند المُصْطنَع حسن موقع ، ولطف محل ».

وقال بعض البلغاء : « دع الوعد يركض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ».

هل وفى يعقوب بوعده لاولاده بالاستغفار لهم

الملاحظة الثانية — سمعنا أن سيدنا يعقوب وعد أبناءه بالاستغفار ، ولكن لم يبلغنا انه استغفر لهم ربه كما وعد ، والجواب عن ذلك : اننا نتأكد يقيناً وقوع ذلك منه ، لأن وعد الحُرّ دَين ، وكما أن الله لايخلف الميعاد ، فظاهر أمره عليه الصلاة والسلام كذلك ، ولا يسعنا أن نعتقد في سيدنا يعقوب الا انه كما قال أبو الطيب المتنبي :

أمضى ارادَتَه (فسوف) له قَدٌ واستقرب الأقصى (فَثَمَّ) له هُنا

أو كما قال :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم

هجرتا يعقوب

الملاحظة الثالثة — نعلم من التاريخ أن يعقوب عليه السلام هاجر من فلسطين التي هي مسقط رأسه ووطنه الأصلي — هجرتين ، الهجرة الاولى للعراق ، وهذه كانت شخصية ، أي بشخصه فقط ، حينما كان أبوه في قيد الحياة ، وكانت «للخوف» من شر أخيه « عيسو » وهرباً من أن يقتله ، ومدة هذه الهجرة كانت ٢٠ سنة ؛ والهجرة الثانية لمصر ، وهذه كانت عمومية ، بجميع الأسرة ، وكانت — طبعاً — بعد وفاة أبويه ، « إسحاق عليه السلام ، وليئة رحمها الله » ، وهذه الهجرة كانت لدفع ونفع : أي لدفع الجوع والانتفاع بالغذاء ، وان شئتم قلتم : كانت رَهباً ورَغباً ، أي رهبة من القحط ، ورغبة في لقاء يوسف ؛

وبعبارة أخرى : كانت هذه الهجرة كمن رمى حجراً ، فأصاب صيدين ، أو

كمن هرب من النار إلى الجنة ، أو كمن خرج من البدو إلى مملكة متمدينة أكثر من كل ممالك العالم ،ومدة هذه الهجرة (١٧) سنه،ثم توفي عليه الصلاة والسلام.

هجرة الأنبياء

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر نقول : كانت هجرة نبينا ﷺ من مكة للمدينة هجرة خوف من أهل الاولى ، وأمن عند أهل الثانية ، وهجرة سيدنا ابراهيم كانت هجرة اضطهاد من أهل العراق ، وهكذا كانت هجرة المسيح عليه السلام من فلسطين إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وهجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ، وهجرتا لوط عليه السلام الاولى مع عمه سيدنا ابراهيم من العراق إلى فلسطين ، وهجرته الثانية من سدوم وعمورة إلى صوعر .

مخلفات سلالة ابراهيم في ارض الميعاد بعد جلائها عنها لمصر

الملاحظة الرابعة — قضي الامر ورحل اسرائيل باسرته جميعاً للديار المصرية فسجل التاريخ في تلك الساعة أنهقدتم جلاء سلالة ابراهيم عليه السلام عن أرض الميعاد (سورية الطبيعية) بعدما كانوا أقاموا فيها ٢١٦ سنة شمسية ، أعني من سنة (٢٥٤٤ إلى سنة ٢٨٣٨) شمسية قبل الهجرة ، ولم يتركوا فيها وراءهم مِلْكاً ، سوى تلك المقبرة ، مغارة المكفيلة (الغار الشريف) ، وهي تحتوي إذ ذاك خمسة قبور ، لابراهيم وزوجه (سارة) ، ولاسحاق وزوجه (رِبقه) ، ولامرأة يعقوب (ليئة) ، وكان لسيدنا يعقوب قطعة حقل . مِلْكاً له في شكيم[1] (نابلس) .

هذا كل ما ملكوه في تلك السنين الكثيرة، لأنهم لم يكونوا لينظروا إلى أمور الدنيا ، ولكن كان اهتمامهم بأمور الآخرة !! (مرحى)

(١) « تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٤ : ٣٢)

الفصل الخامس

السفرة الرابعة والاخيرة لمصر

يوم اللقاء

آ (٩٩) ﴿ ... فلما دَخَلوا على يُوسُفَ ، آوَى اليهِ أبَوَيْهِ ، وقالَ : ادخُلوا مِصْرَ « إنْ شآءَ اللهُ » آمـنينَ . ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية التاسعة والتسعون ، فقام رفيق الكرام الرملي وقال :

أمر يعقوب أولاده بالتهيؤ والأخذ في معدات السفر، تسرعاً وشوقاً للقيا ولده يوسف ، فلذلك تهيئوا وقاموا قاصدين مصر ، وما أن صاروا في حدودها ، حتى رأوا يوسف قد أمر بنصب الخيام عند هذه الحدود ، للقيا أبويه (ولمـاء دخلوا) أي أبواه وإخوته (على يوسف) وقد أخذ مجلسه في سرادقه جالساً على عرشه ، قام فسلم على أبويه ، سلام الابن على والديه ، ثم (آوى) أنزل وضم (اليـه) في خيمته (أبويه) أباه يعقوب وأمه المجازية « بلهة » وهي مربيته وحاضنته بعد موت أمه « راحيل » وهو ابن عشر سنين، ومن حيث كونه استقبلهم في مضرب خارج مصر ، وقد أراد الجميع النهوض والقيام بعدما أخذوا حظهم من الراحـة (قال) لهم (ادخلوا مصر) أنتم وذراريكم (إن شاء الله آمنين) على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً ، حتى ولا من ملوك مصر، آمنون من أن يلحقكم ضرر ما من جهتي بالجرم السالف ، لا سمح الله تعالى ، لأنني غفرت لـكم ؛ آمنون من كل المكاره والمخاوف قاطبة من كل أحد .

(فلما دخلوا على يوسف ... الخ)

—٢—

وقال ابو الفيض الخليلي :

سفرة يعقوب واسرته لمصر

كان اخوة يوسف اخبروا أباهم بما عليه يوسف ، ونقضوا له جملة حاله ، وما أُوتيه من سمو ورفعة ، فأمرهم أبوهم بتحضير وسائل السفر بما يمكن من السرعة لشدة اشتياقه للقاء ولده يوسف على حد قول القائل :

حديثه أو حديث عنه يطربني　　هذا إذا غابَ أو هذا إذا حضرا

كلاهما حسن عنـدي أسرُّ به　　لكن أحلاهما ماوافق النظرا

ولما هيأوا أنفسهم للرحلة من فلسطين لمصر ، ركبوا دوابهم وقد أطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً .

وداع يعقوب لفلسطين

وكأني بيعقوب لما وصل لمنتهى حدود فلسطين ومبدأ حدود القطر المصري ، وقف يودع فلسطين بما معناه .

« أنا اليوم في آخر ساعة من ساعات وجودي فيك يافلسطين ، وأول ساعة من ساعات حلولي بالديار المصرية ، فسلام لك يافلسطين المحبوبة ، سلام لك أيتها الأرض التي تشخب حجارتها لبناً وعسلاً ، سلام لك يامدفن إبراهيم وساراي وإسحاق ورفقـة . والوداع الوداع ... الوداع . »

لقاء الشيخين

وكان يوسف عليه السلام قد أرسل فرساناً وحرساً لاستقبال أبيـه الشيخ

وجلس هو في فسطاط أعد له ، جلس يتوقع مجيء أبيه ، وهو على أحر من الجمر، وأخيراً وصلت الأسرة الاسرائيلية إلى فسحة الفسطاط ، وفي طليعتها نبي الله يعقوب عليه السلام .

ولما دخل يعقوب الفسطاط ،ووقعت العين على العين ،ولمس القلب القلب ،نظر في وجه « عزيز مصر »وتفرّس فيه ، وقال مستفهماً « يوسف ؟.. — فقال له مستفهماً أيضاً : والدي ؟.. — قال نعم ؛ — قال : ابني ؟.. — قال أبي ؟.. قال : نعم .. ولعل الله بعثك من الموت بمعجزة لنجاتنا وسرورنا — قال : سأكون خادمكم أجمعين — فقال يعقوب : الحمد لله على انفراج الأزمة برؤية ولدي ، فاذا مت الآن فاني أتوسد التراب قرير العين ناعم البال » .

وكأني بحاضنته « بلهة » تبادلت معه عبارات التحية والسلام والشوق قائلة : « ولدي يوسف ؟.. قال : « أمي بلهة » ؟.. — قالت نعم ، قال : أهلا وسهلا »

ولاتسل عن يعقوب وماحل به من دواعي الفرح التي أنسته جميع عوامل الحزن ، إذ نظر نظرة عوضت عليه كل أحزانه وبلباله ؛ والمسافر عليل ، دواءه الوصول ؛ .

وهنا يحتاج القارىء إلى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة ، فانها من ساعات العمر ، إذ دخلوا على يوسف وهو على حال عظيم من الرقي والسؤدد ، والتمكن في أرض مصر،وعندئذ تمثلت له السعادة عبداً رِقّاً ، ولقد كان المشهد مشهداً بهيجاً ، وكان الجيش والناس حوالي ذلك الحفل ، زرافات ووحداناً ، وكوكبة بعد كوكبة ، ثم قدمت لهم المرطبات والمنعشات الطيبة ، واستراحوا من وعثاء السفر:

والقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالاياب المسافر

ولا تسل عن فرح يوسف بمجيء أبويه اليه ، ولاتسل عن ساعة اللقاء ما كان أحلاها ؟

ثم قال لهم يوسف : هـا قد حللتم أهلاً ، ووطأتم سهلاً ، ادخل ياوالدي « صوعن » العاصمة بل جميع الديار المصرية آمنـاً مطمئنـاً من الفراق والتهويش والتشويش ، وادخلوا يا أخوان الصفا مصر . وانتم آمنون من كل مقاومةوتكدير لأني سبق وقلت : « لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لـكم وهو أرحم الراحمين » .

واليك التعليقات التالية :

حال يعقوب عند رؤيته يوسف

أولاً — كأنك بيعقوب عليه السلام وقع بصره على ولده فبسم وبكى ، وحمد ربه واشتكى ، وقال في نفسه : « أواه من الماضي ، وشكراً لله على الحاضر » . وعندي أنه لاشيء يصور حالته هذه مثل قول ابن نباتة المصري يهنيء السلطان الأفضل ، ويعزيه بوالده المؤيد :

هناءٌ محـا ذاك العزاءَ المقدّما فما عبس المحزون حتى تبسّما
ثغور ابتسام في ثغور مدامـع شبيهان لايمتـاز ذو السبق منهما
نردُّ مجاري الدمع والبشر واضح كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى

مبدأ التاريخ العبراني

ثانيـاً ـ دخلوا على يوسف سنة ٢٣٩٣ ش . ق . هـ (أي سنة شمسية قبل الهجرة) واعتباراً من هذا الحين أصبح بنو إسرائيل جالية فلسطينية بمصر ، وهذا مبدأ تاريخ العبرانيين وكانت مدة إقامتهم بمصر (٢١٥ سنة) ثم بعده خرجوا من مصر على يد قائدهم سيدنا موسى (سنـة ٢٦٠٨ ش.ق.هـ) ثم افتتحوا بلاد « سورية » على يد قائدهم النبي يوشع بن نون عليه السلام ،ومن ذلك التاريخ اعتبروا أمة لبلاد كنعان وفلسطين ، التي هي أرض « الميعاد » حسب توراتهم .

من هي ام يوسف التي اواها اليه

ثالثاً ـ الكتاب الكريم يقول : « آوي اليه أبويه » وانه لمعلوم أن أباه هو سيدنا يعقوب ، ولكن من هي أمه هذه التي حضرت لمصر ؟ قيل هي أمه الحقيقية « راحيل » ، ولكن ورد في كتب المؤرخين تبعاً لسفر التكوين ، أن راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين ، ودفنت على طريق إفراته « بيت لحم » ، وأقام سيدنا يعقوب نصباً على قبرها ، وكان موقع قبرها معروفاً لحد أيام صموئيل وشاؤل (١صم ١٠ : ٢) وهو من الأماكن الفلسطينية ، التي يزورهـا اليهود والمسيحيون والمسلمون بدعوى التبرك به ... وقد زاره السائح « مندريل » (سنة ٢٣١٩ ق.هـ) ، واتفاق العموم على أن ذلك المقام هو قبر « راحيل » ، لاسبيل إلى الاعتراض عليه ، لأن ما ورد في التاريخ يعضده من كل وجه .

وقيل : إن أمه التي حضرت لمصر هي « ليئة » اخت « راحيل » . لأن الخالة أم ، كما أن العم أب ،وقدسمى النبي عمه « العباس » أباه ، وقال تعالى : ﴿ وإلهآبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ (٢ : ١٣٣) ، ولكن ورد في التواريخ تبعاً لسفر التكوين أن « ليئة » ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر ، ودفنت في الغار الشريف .

وقيل ان المراد من أمه التي حضرت لمصر « بلهة » جارية أمه ، ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها ، لاسيما أنه بعد وفاتها قد انتقل هو وأخوه بنيامين لخيمتها ، والمربية أو الرابّة تدعى أماً ، لقيامها مقام الأم ، كما كان « هرون الرشيد » يدعو « عُبادة » امرأة يحيى البرمكي ـ أماً له ، لأنها كانت أرضعته وهذا هو الصحيح ، وقد ورد في الحديث ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أم أيمن أمي بعد أمي» لأن « أم أيمن » كذلك حضنته وكفلته بعد وفاة أمه السيدة « آمنة » من حين أن كان عمره ست سنين ، الى أن انتقل الى بيت جده « عبد المطلب » وكان ، روحي له الفداء ، يبرها مبرة الأم ، ويكثر زيارتها ، وكان عندها كولدها ، كانترضي

الله عنها مولاة لأم رسول الله ﷺ ، ثم صارت مولاة لرسول الله بالميراث ، وهكذا كان الحال في « بلهة » ، وكانت أولاً مولاة « لراحيل » أم يوسف ، ثم صارت مولاة لولدها يوسف بالواسطة ، أي بواسطة صيرورتها مولاة لأبيه يعقوب ، ث أن راحيل وهبتها له ليفترشها .

يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف

رابعاً ـ رحل يعقوب عليه السلام من أرض الشام مع أنها أرض الميعاد ، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، حباً بولده يوسف «بجيرانها تغلوا الديار وترخص» قال بعضهم :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقال العرجى :

نبث حولاً كاملاً كله لانلتقي إلا على منهج

الحج إن حجت ، وماذا مِنَى وأهلُهُ ؟ إن هي لم تحجج

الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، والمؤجِر قبل المؤجَر ، وأخيراً قال تعالى : « ربِّ ابْنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة » (٦٦ : ١١)

كيف قابل يوسف أبويه عند دخولهما عليه وكيف عاملهما

سادساً ـ عندنا أن يوسف قابل أبويه مقابلة تتراوح بين مراعاة مركز الحاكمية ، ومراعاة الادب ، ودليلنا على الشق الأول قوله تعالى : « فلما دخلوا على يوسف » فدخولهم ـ بما فيه أبواه ـ عليه في فسطاطه يشعر بأنه لم يخرج منه لاستقبالهم ، وكذلك قوله تعالى : « آوى اليه أبويه » يشعر أنه كان عاملهم إذ ذاك معاملة رحمة ، معاملة راحم لمرحوم ، معاملة حاكم لمحكوم ، معاملة أمير لرعية ؟

ودليلنا على الشق الثاني قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش » ، يشعر أنه عامل أبويه إذ ذاك معاملة الاجلال والاكبار ، معاملة رعية لأمير ، معاملة ابن لأب ، فافهموا أسرار كتاب الله ، والسلام عليكم . (مرحى)

خطبة الوئام والسلام

آ(١٠٠) ﴿... ورفَعَ أَبَوَيْهِ على العَرشِ ، وَخَرُّوا لـه سُجَّداً ، وقال : يا أَبَتِ ، هـذا تأويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ ، قد جَعَلَها رَبّي حَقاً ، وقد أحْسَنَ بي إِذ أخرَجَني مِنْ السِجنِ ، وجاءَ بكم مِنَ البَدْوِ ، مِنْ بَعدِ أنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي ، إنّ ربّي لطيفٌ لِمَا يشاءُ ، إنه هو العليمُ الحكيمُ .﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المتممة للمئة ، فقام ابو الفتح الحلبي وقال:

(و) بعد أن دخل يوسف وابواه واخوته مصر ، وعبروا دار الحكومة ، (رفع أبويه على العرش) ليجلسا عليه معه ، ويشركهما معه في الجلوس على سرير الحكم ، سرير وكيل الملك ، وأما اخوته فقد طأطأوا رؤوسهم (وخروا له سجداً) لأنهم لم يروا أنفسهم أكبر من أن يسجدوا له ، ولم يروا يوسف وكيل الملك أصغر من أن يكون مسجوداً له ، ولأن هذا هو شكل التحية الذي كانت الرعية تؤديه للملك ، ولمن كان قريباً من منزلته كوكيله ، فهو قاعدة متبعة قديماً في مصر والصين والفرس والكلدان والهند وعند العبرانيين ، كما رواه لنا التاريخ الشرقي ، ونقله أصحاب السير والأخبار ، ثم عندئذ وقف يوسف خطيباً في أبويه واخوته (وقال : يا أبت ، هذا) الحال الذي تراه اليوم ، في هذه الجلسة التاريخية ، هو

(تأويل رؤياي من قبل) أي منذ ٢١ سنة (قد جعلها ربي حقاً) فأصبح المنام يقظة ، والحلم علماً ، والظن يقيناً والقول فعلًا ، فهذا هو « الشمس » ـ وأشار الى أبيه ـ وهذه هي « القمر » ـ وأشار الى أمه بلهة ـ وهذه هي المجرّة المؤلفة من الأحد عشر كوكباً ـ وأشار الى إخوته ـ وهذا هو الحقير المسجود له ـ وأشار الى شخصه الكريم (وقد أحسن) سبحانه وتعالى (بي) إحساناً مزدوجاً (إذ أخرجني من السجن) على الصورة التي أحب ، بريئاً ، شريفاً ، نقي الذيل، أبيض الوجه (وجاء بكم من البدو) العراء ، على الصورة التي تحبون ، وكان هذا كله (من بعد أن) وقعت تلك الحادثة العتيقة ، وهي أنه قد كان ـ مع الأسف ـ أن (نزغ الشيطان) أفسد وأغرى وأثار داعية الشر (بيني وبين إخوتي) فعاضنا الله عن ذلك ، بالصفاء والمحبة والالفة ، ولا ريب أن هذا كله بتدبير الرب (إن ربي لطيف لما يشاء) اذا أراد حصول شيء ، سهل أسبابه ، ودبر له طريقاً دقيقة ، فاذا هو حاصل ، وان كان في منتهى البعد عن المحصول (إنه هو العليم الحكيم) والعبرة بالخواتيم .

هذا هو النطق الذي قام يوسف في تلك الجلسة التاريخية ، والقاه على الحاضرين وكان يتكلم وعواطفه تتكلم معه ، وقلبه يتهلل فرحاً ، وقد وقع صوت هذا النطق على قلب يعقوب عليه السلام وقوع الماء الزلال على قلب الظمآن .

ورفع أبويه على العرش ... الخ

— ٢ —

وقام السيد فضل الله الغزي وقال :

مصداق رؤيا يوسف الثانية

ليعفني القارىء الكريم من وصف ما كان عرا سيدنا يعقوب عند تلاقيه مع

ابنه يوسف ، من الغبطة والسرور ، وما كان جد ليوسف حينذاك من الفرح والنشاط ، فذلك مالا يقع في الامكان ، ولا تناله قدرة كاتب ، ولا فصاحة خطيب ولو لم يكن يعقوب نبياً ، لو لم يكن هو ذلك الثابت الوقور الرصين ، الذي لاتزعزعه حوادث الفرح والترح ـ لما احتمل لذة سماع البشرى ، بسلامة ابنه وأنه وكيل ملك مصر ـ لما احتمل ذلك بدون أن يغمى عليه من الفرح والغبطة ـ لما احتمل لذة رؤية ولده جالساً على العرش ، دون أن يغيب عن الوجود ، من شدة سروره وحبوره ـ لما احتمل سماع الخطاب التاريخي ، دون أن يملأ تلك الجلسة بكاء ، على حد « من عظم ماقد سرني أبكاني » ، وكيف لا .. وهو لايشعر إلا وولده المحبوب قد خرج من بين أنياب « الذئب » الى عرش الوزارة بمصر ـ من الغيبة الى الحضور ـ من الموت الى الحياة ـ من رعي الاغنام الى رعي المصريين ـ من بدو فلسطين ، الى حاضر الكنانة ـ وبالجملة من لاشيء ، الى كل شيء !!!..

أقول : عند وصول يعقوب وأبنائه الى دار الحكومة المصرية ودخولهم قاعة العرش التي فيها يوسف ، رفع يوسف أبويه على العرش الذي كان قد استوى عليه ، أي على سرير الوزارة وحاكمية الديار المصرية كعزيز لمصر ووكيل عن مليكها الريان ، وقد كانت هذه الساعة عند سيدنا يعقوب هي أهنأ ساعات العمر وأسعدها ، فغفر للدهر من أجلها جميع سيئاته عنده ، بل نسي عندها انه ذاق شيئاً من طعم الحزن والألم ، وأما إخوة يوسف ، فقد خروا له سجداً ـ (هكذا قاله ابو حيان في بحره ، وكل من أرجع الضمير للاخوة والأبوين جميعاً ، فقد اعتزل الفهم الصحيح)ـ خروا له سجداً ، والخنوع والذل يتمشيان في أعضائهم ، واستسلموا بين يديه بجدهم وحديدهم ، مع أنهم فيما تقدم منذ ٢١ سنة لم يكونوا راضين بما هو أقل من ذلكم جداً ، وهو أن يكونوا في المنزلة الثانية من محبة أبيهم اليهم ، خروا له سجداً ثم جلسوا محيطين به مثل إحاطة الهالة حول القمر ، جلسوا في

صمت عميق ، جلسوا وهم مأخوذون مسلوبون بما غمرهم من الخجل والحياء ، ويا ما أعظم هذا المقام الرفيع ؛ وذكر رفعه لأبويه العرش ، وخرور إخوته للسجود أمامه ، يكفينا في تصوير مافي هذا المقام من دهشة ورهبة وجلال ، وهذا مصداق رؤيا يوسف الثانية المذكورة في القرآن المجيد ، وهي سجود الأحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، كما انه بمجيء إخوته الأحد عشر عنده ، في السفرة الثانية ، وسجودهم له حصل مصداق رؤياه الأولى ، المذكورة في سفر التكوين ، وهي ان حُزَمهم الإحدى عشرة سجدت لحُزمته ، وبهذا وهذا تم انتصاره على إخوته ، الذي هو من قبيل انتصار المحسود على حاسديه ، أو انتصار الفرد على الجماعة ، أو انتصار المشرد المطرود ، على مُشرّديه وطارديه.

وأما أبناء اخوة يوسف ، النجباء الكرام !! . فمكثوا غير بعيد ، ينظرون لعمهم جالساً على عرشه وبجانبه أبواه ، وتحفه إخوته ساجدين لعظمته ، وعندئذ اعتقدوا أن الذي يبين درجات الناس إنما هو المجالس ، واجتماع الناس بعضهم ببعض.

واذا ماخلا الجبان بأرض　　ذكر الطعن وحده والنبالا

ولا بد انهم في هذه الحالة تذكروا قولهم لجدهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » فخجلوا بينهم وبين أنفسهم ، وهنا وجد يوسف مكان القول ذا سعة ، فقام فيهم خطيباً وقال موجهاً الكلام الى أبيه : « ياأبت الشيخ الوقور المحترم ، تراني لم أذهب بالخيال بعيداً ، ولاأزيدك علماً أن هذا الحال الذي وقع أمامك ، هو مصداق رؤياي التي رأيتها سابقاً في صباي منذ ٢١ سنة ، وهومصيرهاومرجعها لا أقل ولا أكثر ، وهي الرؤيا التي علقنا عليها آمالاً جساماً ، وكنا نتفائل بها خيراً ، وكنا نقول ، ليس بكثير على الأيام أن يصبح حلمنا يقظة ، وآمالنا حقيقة راهنة ، فهاهو ذا قد جعلها ربي حقيقة واقعة ، حيث جاءت كفلق الصبح ، أصفى

من طلعة القمر ، ليس دونـــه سحاب ، فصدق بذلك فالنا ، وصحت أحلامنا وآمالنا ، فالحمد لله على آلائه ، وله الشكر على نعمائه ، وقد أحسن سبحانـه بي احساناً متصلاً بذاتي ممازجاً لنفسي ، إذ أخرجني من السجن ، سجن الظلم على الوجه الذي أحبه وتحبه، وأرضاه وترضاه، نقياً ، طاهر الذيل ، ناصع الجبين، وجاء بكم من البداوة وشظف العيش ، لمصر التاريخية العظيمة بآثارها الخالدة ، المتمدينة المتحضرة ، زهرة ممالك العالم .. جاء بكم من البدو الذي قيل فيه : « من بـــدا جفا [١] » أي من نزل البادية صار فيـه جفاء الأعراب ، لتوحشه وانفراده عن الناس ، جاء بكم من البـــدو الى الحاضرة ، ذات الأنس والاجتماع ، وضروب الأشكال وأنواع المسرات ، ثم الف بين قلوبنا من بعد أن نزغ الشيطان وأثار داعية الشر ودخل في الفساد بيني وبين اخوتي ، وقد ذاب وتلاشى هذا النزغ في الهواء ، أمام اتفاقنا ومحبتنا بعضنا لبعض ، عملاً بالوصايا السماوية ، كما قال تعـالى : ﴿ واذكروا نِعْمةَ الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً ، فألّفَ بين قلوبِكم ، فأصبَحتم بنِعْمَتِهِ إخواناً ﴾ (٣:١٠٣) ، وهذا من لطفه تعالى ، إذ انه لطيف لما يشاء ، لطيف التدبير ، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ، ينفذ فيه مشيئته ، لطيف التوصل لما يريد ، بدقة ومهارة وخفة ورشاقـــة ، يتلطف لاستخراج الأمر الذي يريده ، وقريب منه :﴿ وليتَلطّفْ ولا يُشعِرنّ بكم أحداً ﴾ (١٨:١٩) ، فمن لطفـه تعالى أن سخرني لاعالة الناس في أيام السغب والمجاعة وبنوع أخص : باعالتكم وقد بلغت اسرتكم الـ ٧٥ شخصاً ، ومن لطفه تعالى انـــه أطفأ النائرة [١] وسكن الثائرة [٢] وذهب بالعداوة بيننا ، وأبدلها بالمودة في القربى ، والرحمـة مع ذوي الرحم ، ومن لطفه انه لم يحرمني منكم ، ولم يفجعكم بي ، بل حفظنا جميعاً ، ثم زاد

---

(١) حديث شريف .

(٢) النائرة العداوة (٣) الثائرة الغضب

في لطفه بنا ، فنظمنا في سلك هذه الجلسة التاريخية ، وسيكون جامعاً بيننا في هذا القطر الواحد ، تحت سماء واحدة ، الى ماشاء الله ، فليذهب الماضي بخيره وشره ، ولنسدل عليه الستار وليأت لنا المستقبل بما نحب ، بقوة الله تعالى ، إنه هو العليم الحكيم .

هذه هي الخطبة « النُورية »[1] اللطيفة ، خطبة الوئام والسلام بينه وبين اخوته ، كانت منه في مقابلة خطبتهم « النارية »[2] التي في (ع٨—١٠)التي كانوا ألقوها وتبادلوا فيها الآراء يوم المؤآمرة على يوسف . (أحسنت)

(ورفع ابويه على العرش ...الخ)

— ٣ —

وقال السيد نعمة الله الدمشقي الميداني [3] :

بحثي في الآية الكريمة على التعليقات التالية :

(اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وبسطه فيه في جلسة السلام)

(١)—نرى يوسف عليه السلام ، قداندفع في خطابه الذي القاه بحضور أهليه جميعاً كالسيل المنهمر ، ورزق نشاطاً أيما نشاط ، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدي العزيز فوطيفار حينما قالت زليخا : (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ إلا أن يسجن أو عذاب أليم) ، فاننا رأيناه في ذلك الموقف قد اختصر القول اختصاراً ، إذ قال : (هي راودتني عن نفسي) وسكت ، فأين ذلك الانقباض والاختصار في القول ، من هذا التبسط والاندفاع فيه ؟ فهو قد أنشأ هنا خطاباً أطنب فيه أيما إطناب .

(١) نسبة الى النور (٢) نسبة الى النار
(٣) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

ولعل السر في هـذا الاطناب هو سروره وفرحـه بأبيه وذويه ، والسر في اختصاره فيما سبق ، حصره وانقباضه ، لكونه كان عبداً خادماً ، ويعجبني ههنا قول القائل :

فيّ انقباض وحشمة فاذا ... صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما قلت غـير محتشم

وأيضاً اين مقامـه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخـدوم ؟ واين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم ؟ وأين مقامه وهو يتكلم بين يدي أهليه ، من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه ؟ وأخيراً أين مقامه وهو صبي يافع ، من مقامه وهو رجل كهل ؟

(مصداق قول يوسف ومصداق قول ابيه)

(٢ّ) — يقول هنا سيدنا يوسف : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ يريد أن هذا مصداق قوله سابقاً : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً .. الخ ﴾ .

واما مصداق قول أبيه له : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. ﴾ فقد اجتباه بالنبوة والرسالة كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ مِن قبلُ بالبيّناتِ ، فما زلتمْ في شـــكّ مما جاءَكم به ، حتى إذا هلكَ ، قلتم : لنْ يَبعثَ اللهُ مِنْ بعدِه رسـولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، وأما مصداق قوله : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فقد أول حلمي الساقي والخباز ، وحلمي ملك مصر ، هذا رأي الجمهور في معنى « تأويل الأحاديث » وأما على رأي البعض ، من أن « تأويل الأحاديث » مغازي[1] مطلق الـكلام ، فقد علمه الله مصائر جميع الـكلام وأغراضه ، ومخارجه ومـداخله ، وكل ما يرمي اليه القول سواء أكان حديث منام أو حديث يقظة ، وسواء أكان كلاماً أخروياً ، أو دنيوياً ، سياسياً أو اجـــتماعياً أو اقتصادياً ، الى

---

(١) جمع معزى .

آخر فنون الكلام ، والدليل على ذلك كله أعمال يوسف الواقعة الثابتة التي قام بها في تدبير المملكة المصرية .

وأما مصداق قوله « ويتم نعمته عليك » فقد تمت بخروجه من السجن ، الى كرسي وكالة المملكة ، وأنه صار « وزير مالية مصر » و « عزيزها » وأنه كان السبب الوحيد في حياة المصريين، حتى سماه « الريان » « صفنات فعنيح » ومعناه على ما قيل « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » والمعنى على كل من هذه التفاسير ، أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وانقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة ، الى زمن القحط ، ومن اتمام نعمته عليه انه تزوج امرأة شريفة وهي « أسنات » بنت كاهن « أون » وهي قرية « بيت شمس » على ستة أميال من القاهرة ، وفي الشمال الشرقي منها ، وكان أبوها واسمه « فوطي فارع » من كبار رجال الدين المقدمين في نظر حكومة مصر ، وقد رزق منها ولدان هما « منسّى » و « أفرايمْ » وكل هذا الذي بلغه يوسف لم يكن إلا بالعناية الالـهية ، فلذلك يعد من أمثلة اتمام نعمة الله عليه ، لا سيما متى تصورنا نبوته ورسالته ومنصبه الجليل . واما مصداق قوله « وعلى آل يعقوب» فقد صار بخروجهم فيما بعد من أرض السخرة والعبودية ، ثم بدخولهم الشـــام أرض العز والحرية ، حيث استولوا عليها على يد موسى ، ثم على يد « يشوع بن نون » وقيض الله لهم قضاة يحكمونهم ، ثم آتاهم الله الملك ، وجعل في سلائلهم النبوة والكتاب ، وأنزل على موسى منهم التوراة وعلى داود الزبور ، وعلى المسيح الانجيل ، وفضلهم على عالمي زمانهم ، حيث كانوا موحدين ، وأما باقي أهل عصرهم ومواطنيهم من الامم فكانوا وثنيين .

(الاحسان يتعدى بالباء و بإلى)

(٣ً) — تعليقاً على قوله « أحسن بي » الإحسان يتعدى بالباء وبإلى ، فيقال أحسن اليه وأحسن به ، وكذلك أسـاء اليه وأساء به ، قال الشاعر : « أسيئي

بنا أو أحسني لاملومة » ، والأول أبلغ ، لأن من احسن به الله هو من يتصل به برّه ، وُحسن معاملته ، ويلتصق به مباشرة على مقربة منه ، وعدم انفصال عنه ، وأما من أحسن الله اليه ، فهو الذي يسري بره ، ولو على بعد ، أو بالواسطة ، إذ هو شيء يساق اليه سوقاً ، ونظيرماهنا قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ (٢:٨٣)

(معنى « البدو »)

(٤) — تعليقاً على كلمة « البدو » يجوز أن يكون ذلك مصدراً ، لأنه يقال : « بدا يبدو بَدْواً » إذا أقام أو نزل في البادية ، والواقع ان يعقوب وأولاده وأهله جميعاً كانوا من أهل الخيام ، من ساكني البادية غالباً ، وقد يكون ساكناً في الحاضرة مثل « قرية أربع » أو « بئر السبع » أو « سيلون » ولكن ذلك قليل ، ويقال للمقيم في البادية : « باد » كقوله تعالى : ﴿ سواءً العاكفُ فيه والبادِ ﴾ (٢٢ : ٢٥) وجمعه « بادُون » كما قال تعالى : ﴿ لو أنهم بادُونَ في الأعرابِ ﴾ (٣٣ : ٢٠) ، ويحتمل أن « البدو » هنا بمعنى البادية ، وهي خلاف الحاضرة ، والنسبة اليها بَدَويٌّ ، وهنا أتذكر قول القائل سراج الدين الورّاق مورياً :

«وبي»من «البدو» كحلاء الجفون « بَدَتْ »
في قومها كمهاة بين آساد
فلو « بدت » لحسان « الحُضر » قمن لها
على الرؤوس وقلن : الفضل « للبادي »

فقوله : « وبي من البدو » أي البادية ، وقوله « بدت » أي ظهرت . ويقال بدا من باب سما أي ظهر ، وقوله « الحُضر » جمع حاضر أي ساكن في الحاضرة ، وهو كفارس وفُرْس ، وقوله « للبادي » هو موضع التورية ، ومعناه المقيم في البادية بقرينة « البدو » ومقابلته بالحُضْر ، أو معناه الظاهر بقرينة « بدت » ، ويحتمل

ايضاً أن كلمة « البدو » اسم لموضع بالشام قرب « وادي القرى » كان به منزل « علي بن عبد الله بن عباس » وأولاده (رض) ، كما في « النهاية » .

معنى « النزغ » والرد على القول بأن اختلاف الامة رحمة

(٥َ)— النزغ دخول في أمر لإفساده ،نزغ أفسد وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري ، نَزَغَ ونَزَحَ ونَزَقَ ونَزَعَ ونَسَغَ ونَخَسَ ونَخَرَ ونَفَرَ ونَكَزَ ووَكَزَ وهَمَزَ وطَعَنَ ، الفاظ متقاربة المعنى ، وأصله اصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالابرة والمهاز والرمح ، أو ما يشبه المحدد كالاصبع. ويقال : نزع ونزغ بين الناس ؛ والمراد من نزغ الشيطان ، اثارته داعية الشر والفساد في النفس ، بداعية غضب أو شهوة ، حيوانية أو معنوية بحيث تتقحم بصاحبها الى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهاز ، لتسرع في العدو ، وغلب استعماله في الشر فقط ، وبناء عليه فنزغ الشيطان ، افساده وإغراؤه ، يحمل على التفريق بين الجماعة المؤتلفين ، وهذا هو عين الشقاوة ، وأما مايروونه من حديث « اختلاف أمتي رحمة » فقال الحافظ السخاوي : « زعم كثير من الأئمة ، أنه لا أصل له » ، وهذا القول هو الصواب ، كيف والله تعالى يقول : ﴿ ولا تكونوا كالذينَ تَفَرَّقُوا واختَلفوا ، مِنْ بعدِ ما جاءَتهم البيِّناتُ ، وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (٣ : ١٠٥) وكيف يقال : الاختلاف رحمة ؟ والله تعالى يقول: ﴿ ولا يزالونَ مُختَلِفِين إلاّ مَنْ رَحِمَ ربّك ﴾ (١١ : ١١٩)والثابت بالشرع والعقل والتجربة ، ان الاختلاف نقمة ، وبسببه تفرقت الكلمة ، وذهبت الريح والشوكة ، الى أن وصلنا الى هذه الدرجة من الضعف ، وذهب ملكنا ، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا ، تقع في قبضة الأجانب ، فلا يبالي سائر المسلمين بذلك ، فأين الوحدة والاخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟، كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف .

توجيه النزغ للشيطان

(٦) — وجّه دفة النزغ الى الشيطان ، مع أن «الكيد» إنما وقع من إخوته ، لطفاً منه وأدباً معهم ، وأيضاً فهو وجّه فكره للسبب الأول الأساسي ، وهو الشيطان ، وأما أبوهم عليه السلام فنظر لسبب الأول ، ولمن سيتأثر منه ، فقال : « فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » .

أدب يوسف في التعبير وامثلة من ادب تعابير القرآن

(٧) — يقول يوسف : «من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي» ولم يقل مثلا : من بعد أن تآمر عليّ اخوتي ، أو : من بعد أن القاني إخوتي في الجب ، أو : من بعد أن لعب الشيطان على إخوتي ، بل عبر بتلك الجملة الذهبية التي فاه بها أمام إخوته ، لأنها عبارة رقيقة مُعَزّية ، تنعش البائسين ولاتذل عزة السامعين ، ولاتجرح عواطفهم ، وهذا أدب مشروع في التعبير ، ولطيف جداً ، وفي القرآن الكريم أمثلة عديدة منه كقوله : ﴿ لاتقولوا : راعنا ، وقولوا : انظُرنا ﴾ (٢ : ١٠٤) وهو خطاب للمؤمنين إذ نهاهم الله تعالى عن أن يقولوا للنبي ﷺ كلة « راعنا » لما فيها من سوء الأدب وأمرهم بكلمة آأدب وألطف منها وفيها المعنى الذي كانوا يريدونه منها وهي « انظرنا » ، ﴿ كانا يأكلان الطعامَ ﴾ (٥ : ٧٨) والكلام هنا عن المسيح عليه السلام وأمه ، وقوله عز وجل كانا يأكلان الطعام كناية عن أنهما بحاجة الى الغذاء والى الهضم والى دفع الفضلات .. أي أنهما مفتقرين الى مايقوم بأودهما كسائر أفراد نوعهما وجنسهما ، ففي قوله : « يأكلان الطعام » من أدب اللفظ ولطف التعبير مافيه ، ﴿ فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾ (٥ : ١٠٥) فالعصف المأكول كناية عن التبن الذي تأكله الدواب ثم تروثه ، وقد عبر القرآن الكريم بذلك لما فيه من الادب والحشمة ، ﴿ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافقٍ ، يخرجُ مِنْ

بين الصُّلْبِ والترائبِ ﴾ (٨٦ : ٦ و ٧) الماء الدافق كناية عن المني،وخروجه من بين الصلب والترائب كناية عن خروجه من مجرى التناسل ، وهي من الالفاظ التي تتضمن الأدب الرفيع ، ﴿ وَثيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٧٤ : ٤) فتطهير الثياب كناية لطيفة عن نظافتها من النجاسات ، والكلام موجه الى النبي ﷺ ، ﴿ وأقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ (٧٣ : ٢٠) فاقراض الله كناية لطيفة عن أداء الزكاة الى الفقراء ، ﴿ واهْجُرْهُم هجْراً جميلا ﴾ (٧٣ : ١٠) فالهجر الجميل كناية لطيفة عن المخالفة والابتعاد ، ﴿ إنا خلَقْناهُم مِمّا يَعْلمون ﴾ (٧٠ : ٣٩) كناية لطيفة عن النطفة التي يُستحى من ذكرها .

﴿ يُذَبِّحونَ أبناءَكم ويَسْتَحْيونَ نساءَكم ﴾ (٢ : ٤٩) ، فيستحيون يطلبون حَيّ المرأة ، وهو فرجها ، فعبر بكلمة « يستحيون » لما فيها من الأدب ولطف العبارة ،(١) ﴿ أحِلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نسائِكم ... فالآنَ

معنى استحياء النساء في قوله « يستحيون نساءكم »

(١) وههنا سأل بعض اعضاء المؤتمر الرئيس ان يوضح لهم ويبسط هذا البحث ، وهو بحث « استحياء النساء » الذي جاء في الآية فقال : « يستحيون نساءكم » معناه : يطلبون « حيهن » وهو فرج الآدمية ، كما أن « الحيا » فرج الحيوان من ذوات الخف والظلف والسباع ، ويترجح هذا المعنى في الآية بأمور سبعة :

١ ـ لو كان المقصود من قوله : « يستحيون نساءكم » يستبقوهن ، لكان يستغنى عنه بالاقتصار على ذكر تذبيح الأبناء .

٢ ـ نسمع ربنا سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٢:٤٩)، ولاريب أنه أراد من البلاء مجموع الأمرين : تذبيح الأبناء ، واستحياء النساء ؛ وماهو هذا البلاء العظيم في استبقاء النساء ؟ لعمري انه نصف رحمة بأهلهن ، ورحمة كاملة بنفس هؤلاء النساء المستبقيات ، فماذاك إلا أن لاستحياء هؤلاء النساء معنى آخر به يكون استحياؤهن بلاءعظيما ، وما ذاك الا المعنى الذي ذهبنا اليه .

٣ ـ لو كان المراد من الاستحياء ، الاستبقاء ، لعبر بقوله : « يحيون » لأنه أخصر ، كما قال : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٥ : ٣٥) =

باشروهُنّ ،وابتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكم﴾ (٢:١٨٧)،في هذهالآية ثلاث لطائف : الأولىهي أن أصل «الرفث» الفحش في الكلام ، وأراد منه الوقاع، والثانية أصل « المباشرة » مماسة ظاهر البشرة أي الجلد ، والمراد منه أيضاً الوقاع ، الثالثة ،يريد

٤ ـ لو كان الغرض من الاستحياء الاستبقاء ، لعبر « بالبنات » بدل تعبيره بالنساء ،الذي يغلب استعماله في المرأة الكبيرة ، موافقة للواقع ، لأن المصريين ما كانوا يستبقون النساء الكبيرات بل البنات الصغيرات ، كما ان اليهود بمصر ما كانوا يستسهلون تمكين المصريين من بناتهم ، ولكن بنسائهم فقط ، لانهم تعلموا استسهاله من اصولهم ــ على ذمة التوراة ــ وعلى هذا فيشبه أن يكون في الآية الكريمة ، استخدام على مذهب ابن مالك ، وهو أن يطلق لفظ له معنيان ، محفوف بقرينتين ، فالسابقة تتطلب أحد المعنيين ، واللاحقة تتطلب المعنى الثاني ، فهذا اللفظ هنا هو « يستحيي » يحتمل أن يراد به : يستبقي بقرينة قوله سابقاً « يذبح » ويحتمل أن يراد منه : يطلب « حي » المرأة بالزنى ، بقرينة قوله لاحقاً : « نساءكم » .

٥ ـ الزنا هو لزيم التوثن ، كما يعرف تماما بمراجعة كتب التاريخ القديمة ، لاسيما أسفار التوراة وتاريخ الكلدان وأشور ، وغيرها من الكتب التي تحكي حوادث الامم الوثنية العتيقة، وأنه لأمر معلوم أن المصريين وثنيون ، ومثلهم الاسرائيليون بمصر في ذاك التاريخ ، فلابدأن تكون وثنية الطرفين قد أوقعتهم في شبكة الزنا ، لان الزنا والشرك اخوان ، كما هو المعروف عند جميع الوثنيين ، حتى وثنيي العرب والهند ، وحتى أهل الصين واليابان اليوم .

٦ ـ هذه القصة ذكرت في القرآن في ستة مواضع ، ولم يأت في موضع واحد منها لفظ: يحيون أو يحيي أو نحيي أو استحيوا ، فلو كان المراد الاستبقاء ، لكان عبر ــ ولو في محل واحد من هذه المحال الستة ــ بدون سين وتاء ، طلباً لتنشيط القارىء والسامع والكاتب بالتبدلات والتغييرات في اللفظ ، كما هو عادة القرآن .

٧ ـ سنة القرآن باطراد ، انه متى أراد المعنى المقابل للاماتة ، أن يعبر عنه « بأحيا » ، بدون سين وتاء ، كما أن سنته المطردة ، أن يقابل تذبيح أو تقتيل أبناء اليهود بمصر ، بمادة « الاستحياء » أي بالسين والتاء دائمًا ، فلم هذا الاختلاف المطرد ياعجباً ؟ ! اذا لم يكن لنكتة، وتلك النكتة هي مافهمناه ؟

هذا بسط القول في هذا البحث الذي ذكرناه استطرادا وجواباً لسؤال السائل ، والله اعلم . آ هـ

(رئيس المؤتمر)

بقوله﴿وابتغوا ما كتب اللهُ لكم﴾(٢:١٨٧)المواقعة في...، لا في...، لأن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من النسل، إنما يكون بالمواقعة الأولى؛ ﴿ ولكن لا تُواعِدوهُنَّ سِراً ﴾ (٢ : ٢٣٥) والسر هنا كناية لطيفة عن النكاح، ﴿ وإنْ طلَّقتُموهُنَّ مِنْ قبلِ أنْ تَمَسّوهُنَّ ﴾ (٢ : ٢٣٧) المس هنا كناية عن النكاح، وهي من ألطف وآدب الكنايات، يقول القرآن عن التابوت حين أتي به من عند الفلسطينيين لموقع بني إسرائيل ﴿ تحمله الملائكةُ ﴾ (٢:٢٤٨) وهذا التعبير آدب وألطف من عبارة «تحمله البقر» التي عبرت بها توراة اليهود، ﴿ فإنْ تولوا فإنَّ اللهَ عليمٌ بالمفسِدين ﴾ (٣:٦٣) ولم يقل فإن الله بفسادكم عليم، ﴿ فالصالحاتُ، قانِتاتٌ حافظاتٌ لِلغَيْبِ بما حَفِظَ اللهُ ﴾(٤:٣٣) فالغيب هنا هو ما يستحى من اظهاره، أي حافظات لكل ماهو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين، ومنه مايكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولاسيما حديث الرفث، فما بالك بحفظ العرض، فهذه الكناية من دقائق كنايات النزاهة، تقرأها فرائد العذارى جهراً، ويفهمن ماتومي اليه مما يكون سراً، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق، ﴿ واللذانِ يأتيانِها منكم فآذُوهُما، فإنْ تابا وأصْلَحا فأعْرِضُوا عنهما ﴾ (٤:١٥) هو كناية في غاية الحشمة عن اللواطة، بمقابلة قوله قبله ﴿ واللاّتي يأتِينَ الفاحِشة مِنْ نسائِكم .. الخ ﴾ (٤:١٤) الذي هو عبارة عن السحاق، ﴿ وكيف تأخذونَهُ، وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ ﴾ (٤:٢٠) يقال أفضى اليه بسره، وأفضى إلى امرأته باشرها، وهو كناية لطيفة عن الوقاع، أو معناه، خلص بعضكم إلى بعض ذلك الخلوص الخاص بالزوجين، واتصل بعضكم ببعض ذلك الاتصال الذى يكون في الخلوة، وهذا من حسن نزاهة القرآن في التعبير وأدبه العالي في الخطاب، ﴿ وبالوالدينِ إحساناً وبِذِي القُرْبى واليَتامى

والمساكين والجارِ ذي القُربى والجارِ الجُنُبِ ، والصاحبِ وابنِ السبيلِ ﴾ (٤:٣٥) ، فالسبيل الطريق ، وليس للطريق ابن ، فهو كناية عن « اللقيط » لأن اللقيط حيث لم يعلم له أب ينسب اليه ، نسب للطريق الذي وجد فيه ؛ ﴿ ذلكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ منكم ﴾ (٤:٢٤) العنت بحسب الأصل الشقة والفساد ، وهو هنا كناية عن الزنى ، ﴿ أوْ جاءَ أحَدُكم مِنَ الغائطِ أو لامَسْتُمُ النساءَ ﴾ (٤:٢٤) فالمجيء الإتيان والغائط هو المكان المنخفض من الأرض كالوادي والجورة ، هذا هو حقيقة الكلام ، ولكن هو كناية عن قضاء الحاجة ، وخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وعبر عنه بذلك كناية كما هي سنة القرآن في النزاهة بالكناية عما لا يحسن التصريح به ، وسبب هذه الكناية أن أهل البوادي والقرى ، بل جميع المسلمين وقت نزول الآية لم يكن لهم مراحيض ، بل كانوا يقصدون بحاجتهم الأماكن المنخفضة لأجل الستر والاستخفاء عن الأبصار ، وكذلك قوله : (أو لامستم النساء) هو كناية لطيفة عن الوقاع ، ﴿ إنَّ الذينَ يَرْمُونَ المحصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ ، لُعِنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ (٢٤:٢٣) ، فهذا « الرمي » كناية لطيفة عن القذف بالزنا ، ﴿ أتأتُونَ الذُّكرانَ مِنَ العالمين ؟ ﴾ (٣٦:١٦٥) فالإتيان كناية عن اللواطة ، ويوجد في كتاب الله تعالى من الكنايات اللطيفة ما لا يحصى ، كما ويوجد في الحديث الشريف وفي كلام الأدباء وحكاياتهم ما يشبه ذلك ، وفيما ألقيته على مسامعكم الكفاية .

عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية

(٨ً)ـــ تعليقاً على قوله « وجاء بكم مِنَ البَدْوِ » اذ اعتبر يوسف مجيء أبويه وأخوته من عيشة البداوة الى عيشة الحضارة ، ذات الأنس والحبور والحياة الاجتماعية والسرور ، إحسان به ، هذا وإن الدين لا يمنع من العناية بذلك ﴿ قل مَنْ حَرّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لِعبادِه ، والطيباتِ مِنَ الرزق ؟ قل هي

للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ، خالصةً يومَ القيامةِ ﴾ (٧:٣١) ، وإذا كان الله يقول : ﴿ هو الذي خلق لكم مافي الأرضِ جميعاً ﴾ (٢:٢٩) فهل المسلم خارج عن دائرة هؤلاء المخاطبين ؟ وإذا كان الله يمتن على عباده بالظلال والكهوف والثياب التي تستر العورة كما قال : ﴿ واللهُ جعل لكم ممّا خلق ظِلالاً ، وجعلَ لكم مِنَ الجبال أكْناناً ، وجعلَ لكم سَرابيلَ تقيكم الحرَّ ﴾ (١٦:٨١) فكم تكون منته عليهم إذا سكنوا في المدن ، وتمتعوا بما فيها من مرافق الحياة ؟ . . وإذا كان الله قدامتن على أهل البوادي بجمال الحيوانات كما قال : ﴿ ولكم فيها جمالٌ ، حين تريحونَ ، وحينَ تسرحونَ ﴾ (١٦:٦) فكم تكون منته على الناس ، بما حوته المدن من مظاهر السرور ، ومجالي شرح القلوب ؟..

نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني

(٩) — تعليقاً على قوله تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ وبذلك وأمثاله نال يعقوب شرفاً دنيوياً ، وفخراً زمنياً ، عطفاً على شرف نبوته ، وفخر رسالته ، فكان حاله مع ابنه كحال « أبي الصقر » مع « شيبان » في قول ابن الرومي يمدح أبا الصقر الشيباني وزير المعتمد العباسي :

قالوا : « أبو الصقر » من « شيبان » قلت لهم
كلا ، لعمري ، ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفاً
كما علت برسول الله « عدنان »

مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح

(حسب رأي الإنجيل) لأمه

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أدب يوسف عليه السلام مع أبويه ، إذ اعتبر

حاضنته كأم ، وأعطاها واجبات الأم الحقيقية،ورفعها مع أبيه نبي الله على العرش، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ، كلهم يقومون بواجباتهم نحو ربهم ، ثم نحو آبائهم وأمهاتهم ، وأمثلهم في هذا الأدب،سيدنا المسيح عيسى عليه السلام، خلافاًللنصارى الذين ينسبون له عدم احترامه لأمه ،واهانتها مراراً أمام الناس ، إذ مرة جاءته تطلب منه مساعدة أهل العرس في « قانا » ، فقال لها أمام الحاضرين والحاضرات : « ما لي ولك يا امرأة » (يو ٢ : ٤) فرجعت بالطبع مكسورة الخاطر ، كسيفة « البال » وا أسفاه ! ويقولون : « فلما رآى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً — أي عند الصليب — قال لأمه : يا امرأة ، هو ذا ابنك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا أمك » (يو ١٩ : ٢٦) ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من قلة الأدب — حاشا سيدنا المسيح من ذلك ، إذ ناداها بقوله : « يا امرأة » ، كأنها أجنبية منه ، وكأن القواميس ضاقت عليه ، حتى أنه لم يجد فيها سوى كلمة « يا امرأة » التي تشعر بالجفاء واليبس ، ويقولون : « فيما هو يكلم الجموع ، إذ أمه واخوته قدوقفوا خارجاً ، طالبين أن يكلموه،فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي ؟ ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات ، هو أخي واختي وأمي » (مت ١٢ : ٤٦ — ٥٠) ، فقابل أعمال المسيح عليه السلام هذه مع أمه على ما في الاناجيل بقول القرآن الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنا الإنسان بوالدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أمُّهُ وهْناً على وَهْنٍ ، وفِصالُه في عامَيْنِ : أنْ اشكُرْ لي ولوالِدَيْكَ ، إليّ المصير ، وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشرِكَ بي ما ليسَ لك به عِلْمٌ ، فلا تُطِعْهما ، وصاحِبْهما في الدنيا مَعْروفاً ، واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليّ ، ثمّ إليّ مَرجِعُكم ، فأُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون ﴾ (٣١:١٤و١٥) ، وقوله : ﴿ وقضَى ربُّك أنْ لا تعبُدوا إلاّ إيّاهُ ، وبالوالدين إحساناً — إلى قوله — فلا تَقُلْ لهما : أُفٍ ، ولا تَنْهرْهُما ، وقُل لهما قولاً

كريماً ، واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرحمةِ ، وقل ربِّ ارحَمْهُما كما ربَّياني صغيراً ﴾ (١٧ : ٢٣ و ٢٤) ، والقرآن الشريف ، قد كذب الاناجيل في هذه الدعوى أيضاً حيث نقل عن المسيح أنه قال: ﴿ وبَرّاً بوالدتي ولمْ يَجْعَلني جبّاراً شقياً ﴾ (١٩ : ٣٢) ، أي لم يكن عاقاً لها ولا قاسياً عليها ، ولا على غيرهـا ، بخلاف ما يفهم من الاناجيل ، فإن حسن معاملة يوسف مع « بلهة » مربيته ، التي لما اعتبرها كأم له ، رفعها مع ابيه على العرش — من معاملة المسيح لأمه الحقيقية ؟ على ذمة تلك الاناجيل ، ولكنا نبرأ إلى الله تعالى من مطاعنهم هذه ، ولا نعتقد إلا بما ورد في القرآن من أنه لم يكن عاقاً لها ولا عديم الاحترام ولا قاسياً ولكنه كان بارّاً بها ، ومطيعاً لها .

ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعد ما القى يوسف خطاب الوئام

(١٠ً) — نخال أنه بعدما خرّ له إخوته سجداً ، ساد السكوت في تلك الجلسة الرهيبة ، لا يبدأ أحـد بكلام ، حتى لقد يحاذر أحدهم إذا فاجأه السعال أن يتنحنح ؛

هم صامتون ، والقلوب تتناجى وتتفاهم ، وضرباتها أصوات حية ، تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح ، واستغرقوا في ذكريات الزمن الماضي وحوادثه ، فتمثلت لكل فريق حاله كما هي ؛ فأما إخوة يوسف فتذكروا حسدهم لأخيهم ، فمؤآمرتهم عليه ، وما زالت تتسلسل الأفكار في ذهنهم ، حتى الساعة التي حضروا فيها الآن جميعاً باهليهم بين يديه ،

وأما يعقوب عليه السلام فاخذ يتذكر جميع ما جرى له منذ المنام الذي قصه عليه يوسف ، إلى لقائه إياه وهو حيّ ، بل وهو « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » والحاكم على نهر النيل بالوكالة عن الملك الريان .

وأما يوسف فقد تمثلت له حاله في تلك الجلسة كما هي ، فتذكر ما مرّ به من الأهوال منذ حداثته ، حتى وصوله إلى هذه الجلسة وسجود اخوته له، فترك من هذه الذكريات مالا ينبغي ذكره ، فقام ملخصاً الباقي في هذا النطق الذي ألقاه كخطيب مفوه .

(١١ً)— سمعنا يوسف يتكلم ويخطب ويأتي بالشيء الكثير ،وأما أبوه،فلم نسمع منه حين اللقاء ، كلمة واحدة ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب قول العامري عاشق ليلى :

وإني لينسيني لقاؤكِ كلما لقيتك يوماً أن أبثكِ ما بيا

معنى السجود والخرور وحكمهما في الدين

(١٢ً)— حمل بعضهم السجود هنا على أعظم مظاهره ، وهو وضع الجبهة على التراب ، ولا بأس بهذا المعنى هنا ، بل هو من الحسن بمكان ، وقد كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس . من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير ؛

نعم . نعم، نعلم من مراجعة «أسفار العهدين ، القديم والجديد» والكتب التاريخية القديمة أن السجود للمخلوق، بدون أن يتضمن شعوراً دينياً عبادياً ، كان جائزاً في الأديان السابقة ، منذ عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد السيد المسيح، وأما السجود الذي يقصد به العبادة ، فهو عندهم غير جائز ، لأنه عمل وثني ، ولكن دين الاسلام يمنع السجود لغير الله مطلقاً ، سواء أكان عبادياً أو احترامياً ، احتياطاً وتحفظاً .

وحمل بعضهم هذا السجود على معنى آخر ، وهو التطامن والخضوع والانقياد كما هو معناه لغة ، ويكفي في الخرور أن يكونوا قد تطامنوا نحو الأرض ، كما يفعله بعض متمدني أهل اليوم ، عندما يريدون تعظيم إنسان ذي مقام عال .

ولما كان المقام يقتضى البسطة في الكلام نقول : قد يتجوز بالسجود عن

الانقياد لقدرة الله وارادته ، وله أمثلة ، أحدها قوله تعالى : ﴿ ولله يسجُدُ مَنْ في السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً، وظِلالُهم بالغُدُوّ والآصال ﴾ (١٣ : ١٦) ، يصح أن يحمل هذا كله على السجود المجازي ، وأن يحمل في حق العقلاء على السجود الحقيقي ، وفي حق الظلال على السجود المجازي ويكون فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز .

ثانيها قوله تعالى : — ﴿ ولله يَسجُدُ ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكةُ ﴾ (١٦ : ٤٩) .

ثالثها — قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ أنَّ اللهَ يسجُد له منْ في السموات ومَنْ في الأرض ، والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ مِنَ الناس ، وكثيرٌ حَقّ عليه العذابُ ﴾ (٢٢ : ١٨) ، وهذا إن حملته على السجود المجازي في الجميع صح ، لأن الكل منقادون لقدرته وارادته وان حملته على السجود الحقيقي فيمن يعقل وعلى المجازي فيما لا يعقل ، كنت جامعاً بين حقيقة شرعية ومجاز لغوي ، كما قرره « عز الدين بن عبد السلام » فههنا في هذه السورة يجوز أن يحمل السجود من اخوة يوسف على المعنى الحقيقي الشرعي ، وهو وضع الجبهة على الأرض لأنه كان جائزاً في شريعتهم ، وأن يحمل على السجود اللغوي ، وهو الانقياد والطاعة ، ولا ينافي قوله : « وخروا » ، لأن الخرور ، لا يجب أن يكون معناه دائماً النزول من علو الى سفل ، بل قد يستعمل في مطلق السقوط وقد يطلق على الاسترخاء ، كما نبه على كل ذلك في القاموس ، وقال في التاج ، يقال : خرّ ، إذا عثر بعد استقامة ، وفي التنزيل : ﴿ وخَرّ راكعاً وأنابَ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ،وفي الأساس ، يقال : « شجرة ساجدة : مائلة ، والسفينة تسجد للرياح : تطيعها وتميل بميلها ، وسجد البعير : طمأن رأسه لراكبه » فالخرور لا يقتضي السجود بوضع

الجبهة على الأرض ، بل قد يستعمل فيما قد يصل به الانسان الى حالة الركوع ، ولذلك نرى أبا حنيفة وأصحابه استشهدوا بهذه الآية في سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود ، وأما قوله : ﴿ إنَّ الذين أوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبلِهِ ، إذا يُتْلى عليهم ، يَخِرّونَ للأذقانِ سُجَّداً ، ويقولون : سُبحانَ رَبِّنا ، إن كان وعْدُ ربِّنا لَمَفْعولا ؛ ويَخِرّون للأذقانِ يبكونَ ، ويَزيدُهم خُشُوعاً ﴾ (١٧ : ١٠٧ - ١٠٩) فلا يجب فيه أن يكون السجود وضع الجبهة على الأرض ، بل يجوز أن يكون معنى السجود الخضوع والانحناء بالرأس للأذقان ، فقوله : « ويخرون للأذقان » أي يسترخون وينحنون لجهة الأذقان ، خُضَّعاً خُشَّعاً ، وتكرير يخرون للاذقان ، يفيدنا أن الخرور وقع منهم مرتين ، مرة في بدء سماع تلاوته عليهم ، قبل قولهم : « سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » ، واخرى في أثناء تلاوته عليهم بعد هذا القول ، ولكن كانوا في هذه المرة الثانية يبكون لقوة ما اعتراهم من الخشوع .

البدو وسكناهم وشهادتهم

١٣ — في الحديث الشريف : (ساكن الكفور كساكن القبور) ،وسكنى البدو تعد أنزل جداً من سكنى القرى ، بَلْهَ المدن ، حتى أنه كان في الاسلام من رجع بعد الهجرة الى موضعه من البدو ، من غير عذر ، يعدّونه كالمرتد ، فكان يحرم على المهاجر تركه هجرته ، ورجوعه للبادية ، ويعدّ ارتداد المهاجر أعرابياً من الكبائر ، ولكن كل هذا كان قبل فتح مكة ، فلما كان الفتح سقط فرض الهجرة ، وصارت السكنى في البدو جائزة ، إنما مع الكراهة ، وذلك لما فيها من البعد عن العلم والدين والنور ، في الحديث « لاتجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » ، فكرّه شهادة البدوي ، لما فيه من الجفاء في الدين ، والجهالة بأحكام

الشرع ، ولأنهم في الغالب لايضبطون الشهادة على وجهها ، واليه ذهب مالك ، والناس على خلافه . ـ احسنت احسنت ـ

حسن الختام

آ(١٠١) رَبِّ ! قد آتَيْتَني مِنَ المُلْكِ ، وَعَلَّمْتَني مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ، فاطِرَ السموات والأرضِ ، أنتَ وَليِّي في الدنيا والآخرة ، تَوَفَّني مُسْلِماً ، وألحِقْني بالصالحين ﴾

افتتحت الجلسه وتليت الآية المئةوالواحدة ، فقام السيدالفراتي وقال :

قال يوسف مخاطباً الباري عز وجل (ربِّ) كم أنا مدين لك ، حيث (قد آتيتني) حظاً (من الملك) بمصر في مملكة مليكها « الريان » (وعلمتني من تأويل الاحاديث) أحاديث المنام ، وأحاديث اليقظة ، يا (فاطر) ياخالق على غير مثال سبق (السموات والأرض) ـ والفطر هنا الاختراع والابتداء ، وبابه نصر ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : « كنت لا أدري ما فاطر السموات ؟ حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى ابتدأتها » ـ (أنت وليي) متولي أموري (في) داري (الدنياوالآخرة) أوفي أولى أحوالي وأخراها (توفني مسلماً) فللآخرة خير للعبد من الأولى (وألحقني) عند نزول الحُمام بي (بالصالحين) في الملأ الأعلى وكفى ، فلست أسألك بعد ذلك شيئاً مع علمي بدوام افتقاري اليك .

رب قد آتيتني من الملك ... الخ

— ٢ —

وقال السيد الطرابلسي :

تحدث يوسف بنعمة الله وترجيه ان تكون خاتمة حياته حسنة

نظراً لوجوب التحدث بنعمة الله تعالى ، ونظراً لكونه قد تم ليوسف كل شيء أراده ، ونظراً لقول القائل :

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالاً إذ قيل : « تم »

ونظراً لأن الإنسان مهما عاش فهو ميت — نظراً لذلك كله ، انتقل يوسف من خطابه العظيم الذي ألقاه ، إلى بيان ما أنعم الله عليه ، كما انتقل من تذكر الدنيا لتذكر الاخرة ، ومن تصور حال الحياة ، لتصور حال الموت ، فقال يخاطب ربه : يارب كم أنا مدين لك ، ومعترف لك بالجميل ؟ حيث أنا اليوم غيري بالأمس ، أنا اليوم وزير مالية ، وعزيز مصر ، ووكيل عن مليكها ، بعد أن كنت بالأمس رقيقاً ومملوكا لا شأن لي ولا منصب ، بل بعد ما كنت سجيناً ، مع أصحاب الجرائم ، ثم زد على ذلك أنك علمتني من تأويل أحاديث المنام وأحاديث اليقظة ، لا فرق فيها بين أن تكون دينية ، سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، وأن تكون أحاديث أخروية كالتي في صحف جدي إبراهيم وغيرها ، ياخالق السموات والارض على غير مثال سبق ، وأنت متولي أموري وقابض على زمام أحوالي في داري الدنيا والاخرة ، وتوفني مسلماً لاني أرى أن السعادة أضَنّ بنفسها من أن تستقر زمناً طويلاً في مكان واحد ، وأن نَفَس المرء خطاه إلى أجله ، وما أسرع زوال هذه الدنيا وزخرفها ؟ وما أوشك بهجة الجمال ، بالفناء والاضمحلال ! والحقني عندما تتوفني بالصالحين لأنتفع بالموت على الإسلام وبصلاحي ، في يوم

لا يكون مني فيه شيء من هذا الملك وهـذا العلم ، الحقني بالذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، وعلى الدنيا السلام ، توفني مسلماً لأفوز « بجواز الدخول » إلى الجنة ، وألحقني بالصالحين لأحصل على « بطاقة الجلوس » في المقصورة العليا معهم .

ونعلق على الاية المذكورة بالمواد التالية :

انواع الادعية في القرآن

المادة ١ — نقرأ في القرآن المجيد ، فنرى أدعية منوعة لأنواع كثيرة، فمنها :

١ً — ثناء فدعاء — وذلك كسورة الفاتحة ، نصفها الاول ثناء ونصفها الثاني دعاء ، وكقول سيدنا ابراهيم : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضتُ فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمعُ أنْ يغفرَ لي خطيئتي يومَ الدين ، رب هبْ لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخرين ، واجعلني من ورثةِ جنةِ النعيم ، واغفرْ لابي إنه كان من الضالين ، ولا تخزني يومَ يُبعثون ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون ، إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم ﴾ (٢٦:٧٨-٨٩)

٢ً — دعاء فثناء — واليك بعض أمثلته: دعاءسيدنا ابراهيم واسماعيل:﴿ربّنا تقبل منا، إنك أنتَ السميعُ العليمُ ، ربّنا واجعلنا مُسلمين لكَ ،ومِنْ ذريتنا أمّةً مُسلمةً لك ، وأرِنا مناسكنا ، وتُب علينا ، إنك أنتَ التوابُ الرحيم ، ربّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلّمهمُ الكتابَ والحكمة ويُزكّيهم ، إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٢ : ١٢٧ — ١٢٩) ، ودعاء الراسخين في العلم : ﴿ ربّنا ، لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هدَيْتَنَا ، وهَبْ لنا مِنْ لدنك رحمة ، إنك أنتَ الوهابُ ﴾ (٣:٨) ، ودعاء سيدنا زكريا :

﴿ رَبِّ ، هبْ لي منك ذرية طيبة ، إنك سميعُ الدعاء ﴾ (٣٨:٣) ، ودعاء المسيح عليه السلام ﴿ اللهمّ ربّنا أنزلْ علينا مائدة من السماء ، تكونُ لنا « عيداً » لأوّلنا وآخرنا ، وآيةً منك ، وأرزُقنا ، وأنتَ خيرُ الرازقين ﴾ (١١٧:٥) دعا به أيام « عيد » ميلاد « هيرودس » حين كان المسيح في الصحراء وكان معه جمع كثير جاعوا فأتي له بأرغفة وسمكتين ، فرفع نظره نحو السماء ودعا الله بالبركة وكسر الأرغفة وأمر أن يأكل هذا الجمع الكبير ، فأكلوا وزاد عنهم أثنتا عشرة قفة ، وكانت إحدى معجزاته الكبيرة (انظر مت١٤:١٥-٢١) ودعاء موسى عليه السلام ﴿ ربّ اغفرْ لي ولأخي، وأدخِلنافي رحمَتكَ وأنتَ أرحمُ الراحمين ﴾ (١٥٠:٧) ، ودعاء زكريا عليه السلام ﴿ ربّ لا تَذَرْني فَرْداً ، وأنتَ خيرُ الوارِثين ﴾ (٢١ : ٨٩) ، ودعاء المؤمنين ﴿ ربّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعلْ في قلوبِنَا غِلاّ للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوفٌ رحيم ﴾ (١٠:٥٩) .

٣ً — دعاء مختلط بالثناء — ومن أمثلته : قول المؤمنين : ﴿ سَمِعنا وأطعْنا ، غُفرانَكَ ربنا واليكَ المصيرُ . . . ربنا لا تؤآخذْنا إنْ نَسينَا أو أخطأنا ، ربنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً ، كما حَمَلْتَهُ على الذين مِنْ قبلِنا ، ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقةَ لنا به ، واْعفُ عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنتَ مولانا ، فانصُرنا على القومِ الكافرِينَ ﴾ (٢٨٥:٢و٢٨٦) ، وقول المؤمنين ﴿ ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً — سبحانك — فَقِنا عذابَ النارِ ، ربنا إنكَ مَنْ تُدخِلِ النارَ فقد أخزَيْتَهُ ، وما للظالمين من أنصارٍ ، ربنا إنّنا سمعنا مُنادِياً يُنادي للايمانِ : أنْ آمِنوا بربكم ، فآمَنّا ، ربنافاغفِرْ لنا ذُنوبَنا ، وكَفِّرْ عنّاسَيِّئاتِنا ، وتوَفّنا مع الابرارِ ، ربنا وآتِنا ماوَعدْتنا على رُسلِك ، ولا تُخزنا يومَ القيامة ، إنكَ لا تُخلفُ الميعاد ﴾ (١٩١:٣-١٩٤) .

٤ً ـ دعاء محبوك الطرفين بالثناء ـ ومن أمثلته : قول سيدنا شعيب : ﴿ وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علماً ، على الله توكلنا ، ربَّنا أفتحْ بيننا وبين قومنا بالحقِّ ، وأنتَ خيرُ الفاتحين ﴾ (٧:٨٨) وقول موسى عليه السلام ﴿ أنت وَلينا ، فاغفر لنا وارحمْنا ، وأنتَ خيرُ الغافرين ﴾ (٧:١٥٤) ، وقول سيدنا ابراهيم ﴿ رَبَّنا عليكَ توكلنا ، واليكَ أنبْنا ، واليكَ المصيرُ ، ربنا لاتجعلْنا فتنةً للذين كفرُوا ، واغفرْ لنـا ، ربَّنا إنك أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ (٦٠ : ٤ و ٥) .

٥ً ـ دعاء محشو بالثناء ـ ومن أمثلته : قول سليمان عليه السلام : ﴿ رب أوزِعْني أنْ أشكُرَ نِعمتَكَ التي أنعمْتَ عليَّ وعلى والدَيَّ ، وأنْ أعمَلَ صالحاً تَرضاهُ ، وأدخلني برحمتِكَ في عبادِكَ الصالحين ﴾ (٢٧:١٩) ومثله قول الإنسان: ﴿ رَبِّ أوزِعْني أنْ أشكُرَ نِعمتَكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ، وأنْ أعمَلَ صالحاً تَرضاه ﴾ (٤٦:١٥) .

٦ً ـ خبر في معنى الإنشاء ـ ومن مثله : قول آدم وحواء : ﴿ ربَّنا ظلمنا أنفُسَنا ، وإن لم تغفرْ لنا وترحمْنا ، لنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ (٧:٢٣) ، ومثله قول بني إسرائيل : ﴿ لئِنْ لم يرحمْنا رَبُّنا لنَكُونَنَّ من الخاسرين ﴾ (٧:١٤٨) وقول يوسف ههنا : ﴿ وإنْ لاتَصرِفْ عني كيدَهُنَّ ، أصْبُ اليهنَّ ، وأكُنْ من الجاهلين ﴾ (ع ٣٣) وقول أيوب ﴿ إني مَسَّني الضُّرُّ ، وأنتَ أرحمُ الراحمين ﴾ (٢١:٨٣) وقول ذي النون ، وهو في الظلمات : ﴿ لا إله إلا أنت ، سبحانَكَ ، إني كنتُ من الظالمين ﴾ (٢١.٨٧) .

٧ً ـ ثناء محض في ضمنه دعاء ـ واليك بعض أمثلته : ﴿ مالِكَ المُلْكِ ، تؤتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ ، وتنزعُ المُلكَ مِمَّنْ تشاء ، وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذلُّ من تشاءُ ، بِيَدِكَ الخيرُ ، إنك على كل شيءٍ قديرٌ ، تُولجُ الليلَ في النهار ،

وتُولِجُ النهارَ في الليلِ ، وتُخرِجُ الحيَّ من الميِّتِ ، وتخرجُ الميتَ من الحيِّ ، وترزُقُ من تشاء بغيرِ حساب ﴾ (٣:٢٦و ٢٧) ، ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشفَ له إلا هو ، وإنْ يَمْسَسْكَ بخيرٍ ، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ (٦:١٧) ، إنَّ صلاتي ونُسكي ومحيايَ ومماتي للهِ رب العالمين ، لاشريكَ له وبذلكَ أمرتُ ، وأنا أولُ المُسلمين ﴾ (٦:١٦٣) ﴿ ولله غيبُ السَّمواتِ والأرضِ ، واليه يُرجَعُ الامرُ كلُّهُ ، فاعبُدهُ وتوكلْ عليه ، وماربُّكَ بغافلٍ عما تعملون ﴾ (١١:١٢٣) وقول الملائكة لساراي : ﴿ رحمةُ اللهِ وبركاتُهُ عليكم أهلَ البيتِ ، إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾ (٧:٧٣) .

طفرات حياة يوسف عليه السلام

المادة ٣ — من تأمل في حياة يوسف وجدها كلها « طفرات » فمن حضن أبيه ، إلى « غيابـــة السجن » ، ومن الحرية الكاملة إلى « الرق والعبودية » ، ومن نازل « الجب » إلى عالي « القصر » ، ومن « قصر العزيز » إلى « سجن الذليل » ، ومن « متهم » بجريمة الفحشاء ، إلى « بريء » الساحة ، معترف له بالطهارة والتقديس ، ومن « السجن » إلى « بلاط الملك » ، ومن ذليل بين اخوته إلى « عزيز » فوق رؤوسهم ، ومن « طريد » إلى « مُجَمَّع » ، ومن واقف فوق « منبر الخطابة » بحضور هيئة إخوته وأبويه ، إلى « ماثل في محراب الدعاء » يدعو ربه بحسن الختام .

ايتاء الملك الشرعي وغير الشرعي

المادة ٤ — تعليقاً على قوله « رب قد آتيتني من الملك » : إنَّ الذي أتى يوسف — بحسب الظاهر — شيئاً من الملك هو « الريان بن الوليد » ولكن الفعال الحقيقي والملهم هو لله تعالى ، فلذلك نسب هذا الإيتاء له سبحانه ؛ وهناك وجـــه آخر

دقيق ، هو بالاعتبار حقيق ، وهو أن كل من صار مَلِكاً أو أوتي شيئاً من الملك ، فان لم يكن من أهل الايمان والعدل ، فهو من قبيل المغتصب ، ولا يسمى ماناله انه إيتاء من الله تعالى ، قال تعالى يخاطب ابراهيم : ﴿ إني جاعِلُكَ للناسِ إماماً ، — قال : ومِنْ ذُرِّيَّتي ، — قال : لا يَنالُ عهدي الظالمين ﴾ (٢:١٢٣) فان كانَ من أهل الايمان والعدل ، وأوتي الولاية العامة الشرعية ، كالأئمة الراشدين ، أو أوتي شيئاً من هذه الولاية ، كالذين كانوا منصوبين تحت يد هؤلاء الأئمة ، فان إيتاءه هذا ، إيتاء رباني شرعي ، ينسب لله تعالى ظاهراً وباطناً ، وكذا لولم يكن الوالي العام مؤمناً عادلاً ، ولكن الذي تعين تحته كان مؤمناً عادلاً ، كما في حادثة يوسف عليه السلام ، فإيتاؤه حظاً من الملك إيتاء شرعي آلهي ، ينسب لله تعالى ظاهراً وباطناً ، ويعتبر انه نعمة آلهية على العبد ، يجب شكره تعالى عليها ، والدليل على ذلك كله تلك المحاورة السابقة التي جرت بين الله وبين ابراهيم عليه السلام .

فهذا الحظ الذي أوتيه يوسف من الملك ، هو عطية آلهية شرعية ، مسندة لله راساً ، ثم هو لم يكن ملك قهر وقسوة ، بل كان ملك رأفة ورحمة ، ولم يكن ملك محاباة قويّ على ضعيف ، بل كان ملك مساواة ، بين سكان القصور وسكان الأكواخ ، ولم يكن ملك إماتة للشعب ، بل كان ملك حياة سعيدة للأمة المصرية ، وانقاذ لها من براثن الموت ، فلذلك كله كان يوسف عليه السلام خليقاً بأن يحمده تعالى عليه .

الرد على من يقول ان يوسف استقل بالملك

المادة ٥— تعليقاً ثانياً على قوله « رب قد آتيتني من الملك ..» : قد يزعم من لاتحقيق عنده أن يوسف عليه السلام استقل آخراً بملك مصر ، ويُنسَب ذلك

لبعض ضعاف المفسرين ، ومستمدهم في ذلك قول يوسف عليه السلام في دعائه : « رب قد آتيتني من الملك » ، ولا دليل لهم في ذلك ، لأن كل من ملك شيئاً ، ولو في خاصة نفسه ، فاستيلاؤه عليه يسمى « مُلكاً » ، « حتى البيت والفرس والخادم » ، فكيف من مَلك التصرف في مصر ؟ ولو كان في شعب واحد منها فهو ملك ، وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً ، مثل « هجر » و« عمان » و« دومة الجندل » ، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد ، وفي تلك الدولة ؟.. وقد كان في الخلافة العباسية ، تسمى ولاة الأطراف « ملوكاً » ، فلا استدلال لهم في هذه الصيغة ، وأحرى أيضاً فيما يستدلون به من قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض ﴾ ، أنه لا يكون لهم فيه مستند ، لأن التمكين يكون بغير « الملك » ، ونص القرآن إنما هو بولايته على أمور الزرع ، في جمعه وتفريقه ، كما قال : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليمٌ » ، ومساق القصة كلها ، أنه مرؤوس في تلك الدولة بقرائن الأحوال كلها ؛ لا ما يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه ، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن ، الى هذا التوهم الضعيف [١] ، وقد قال تعالى : ﴿ وإذْ قال موسى لقومِهِ : ياقوم ، اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عليكم ، إذْ جعلَ فيكم أنبياءَ ، وجَعلَكم ملوكاً ﴾ (٥:٢٢) ، خاطبهم موسى بهذا ، وهم في التيه ، فجعل كل واحد منهم « مَلِكاً » على حدة ، لأنهم ملكوا أنفسهم وحريتهم واستقلالهم ، بعدما كانوا عبيداً مسخرين ، تابعين للقبط ، فاذا لم يقتض قوله « وجعلكم ملوكاً » أن يكون كل واحد منهم « مَلِكاً » بالمعنى العرفي ، فلا جرم أن كلمة « آتيتني من الملك » لا تقتضي شيئاً من ذلك بالأولى .

الانبياء الذين آتاهم الله الملك والنبوة معاً

المادة ٦ - تعليقاً ثالثاً على قوله « رب قد آتيتني من الملك » ، وهو أن يوسف

(١) ابن خلدون .

من الانبياء الستة الذين ذكرهم الله تعالى مجموعين في قوله: ﴿وَمِنْ ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرونَ، وكــــذلك نجزي المحسنين﴾ (٦:٨٥) فهؤلاء ذكروا معاً، لمعنى جامع بينهم، وهو أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحُكمَ والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان، وكانا ملكين غنيين مُنعَّمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الاول أميراً غنياً، عظيما محسناً، وكان الثاني وزيراً عظيما، وحاكماً متصرفاً، ووكيلاً عاماً مطلقاً، ولكن كلا منهما قد ابتلي بالضراء فصبر، كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهرون، فكانا حاكمين قائدين، ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الازواج الثلاثة، ممتاز بمزية، والترتيب بين الازواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين،فداوود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهرون، والظاهر أن موسى وهرون أفضل في هـداية الدين وأعباء النبوة من ايوب ويوسف، وان هذين افضل من داود وسليمان، بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر فيالضراء، كذا أفاده بعض المعاصرين وهو من الحسن بمكان.

تعليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله «رب قد آتيتني .. الخ»

المادة ٧ـــ تعليقاً رابعاً على قوله «رب قــد آتيتني من الملك .. الخ»: ذكر نعمة الله عليه بشيئين، ماأوتي من الملك، وما عُلم من تأويـــــل الاحاديث، ولم يذكر ماهو اعلى منهما وهو النبوة، فلماذا ياترى؟

وجوابنا على ذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الاول ـــ يجوز ان يكون يوسف وقتما نطق بهذا الكلام لم يكن قـد نُبيء، وانما نبيء وارسل بعد هذا التاريخ، عند الاحتياج اليه، لاسيما بعد وفاة ابيه، والغالب ان تكون النبوات بعد سن الاربعين.

الوجه الثاني — ان « الملك » يدخل فيه النبوة ، لانه يشمل ملك الارواح وملك الاجسام ، وملك الارواح هو النبوة ، لان سلطان الانبياء على القلوب والارواح سلطان كبير ، يضاهي سلطان حكام الدنيا على الاجساد والظواهر ، بل يفوقه بكثير ، لان من كان له سلطان على الروح ، كان له شيء من السلطان على الجسد بالتبع ، وهؤلاء هم الانبياء ، واما الملوك الزمنيون ، فان سلطانهم على الجسد ، لا يستتبع السلطان على القلب ، وقد اطلق في كتب المسيحيين على المسيح ، انه « ملك اليهود » (مت ٢:٢) اي الملك الروحي.

الوجه الثالث — إن النبوة داخلة في ضمن قوله « وعلمتني من تأويل الاحاديث » لان هذا التعليم الرباني المسند لله ، لهذه الاحاديث ، التي تشمل احاديث الدين ، هو عين الوحي للانبياء.

وبعد فنرى من هذا أنه من أيام يوسف عليه السلام ، ابتدىء أن يجمع في شخص واحد ، بين الإيتاء من الملك والنبوة ، ثم برز هذا المعنى في موسى وهرون وزيره ، ثم تجلى هذا المعنى في « يوشع » بن نون ، ثم بعد مدة القضاة وهي (٢٥٠) سنة ، ابتدأت فيهم المملكة الحقيقية بكل معنى الكلمة ، فجلس منهم على كرسي الملك ٤٥ ملكاً ، في المملكتين ، الجنوبية والشمالية ، وكانت ملوك المملكة الشمالية ، من سلالة « افرايم » بن يوسف ، وملوك المملكة الجنوبية ، من سلالة « يهوذا » ، أما مدة المملكتين فنحو ٥٠٩ سنين .

الاحاديث التي علم الله يوسف تأويلها

المادة ٨ — تعليقاً على قوله « وعلمتني من تأويل الأحاديث » في الحقيقة أن ربه سبحانه وتعالى علمه من تأويل الأحاديث وعلّمه غير ذلك ، فالعلم الذي علّمه الله إياه أعم ، كما قال الله عنه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ وقال هو عن نفسه « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ، وقال الله عنه : ﴿ ما كان

ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ،نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ، ولكن يوسف ، إنما نص هنا على تأويل الأحاديث ، لأن ذلك كان السبب في إيتائه نصيباً من الملك ، فهو من قبيل ذكر العلة بعد المعلول ، هذا إذا قصرناه على تعبير المرائي المنامية،أما إذا عممنا فيه « الأحاديث » على أحاديث الدنيا، وأحاديث الدين ، وأحاديث النوم ، وأحاديث اليقظة ، وأحاديث الناس ، وأحاديث الملائكة ؛ وأحاديث السياسة ، وأحاديث الاقتصاد ، وأحاديث « تدبير المنزل » الكبير ، وهو المملكة أو الوطن الخ الخ فالأمر ظاهر .

الولي وانواع الولاية

المادة ٩ — تعليقاً على قوله « انت وليي » يأتي « الوليّ » بمعنى الناصر ، وبمعنى المحب ، وبمعنى متولي الأمر ، وبمعنى القريب ، قرباً نسبياً ، أو قرباً معنوياً : وكل هذه المعاني مناسبة ههنا ما عدا القرب النسبي ، لأن الله تعالى منزه عن القرابة النسبية ، وهذه الولاية تكون بين الله وأنبيائه .وبين الله وملائكته ، وبين الملائكة بعضهم مع بعض ، وبين الأنبياء والملائكة ، وبين الأنبياء والمؤمنين ، وبين المؤمن والمؤمن ، وبين الظالم والظالم ، وبين الكافرين والشياطين ، وبين المنافق والكافر، وكل ذلك وغيره مصرح به في كتاب الله تعالى ، واليك بيانه :

١ً — الله ولي المؤمن والطاغوت وليّ الكافر — قال تعالى : ﴿ اللهُ وَليُّ الذين آمَنوا ، يُخرِجُهم من الظُلُماتِ إلى النورِ ، والذين كَفَرُوا أولياؤهُم الطاغوتُ ، يُخرِجُونهم من النورِ إلى الظلماتِ ، أولئكَ أصحابُ النارِ ، هم فيها خالِدون ﴾ (٢ : ٢٥٧) .

٢ً — المؤمن وليّ للمؤمن — قال تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ ﴾ (٩ : ٧٢) .

٣ً — الظالم وليّ الظالم — قال تعالى : ﴿ وإنّ الظالمينَ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ ﴾ (٤٥ : ١٨) .

٤ً — الكافر وليّ الشيطان — قال تعالى : ﴿ فقاتِلوا أولياء الشيطانِ ﴾ (٤: ٧٥) وقال ﴿ فتكونَ للشيطانِ ولياً ﴾ (١٩ : ٤) .

٥ً — الشيطان وليّ الكافر — قال تعالى ﴿ إنّا جعَلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون ﴾ (٧ : ٢٦) .

٦ً — الكافر وليّ للمنافق — قال تعالى : ﴿ بَشّرْ المنافقينَ بأنّ لهم عذاباً أليماً ، الذينَ يَتّخِذُونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنين ﴾ (٤ : ١٣٧و١٣٨)

٧ً — المتقي وليّ للمسجدالحرام — قال تعالى : ﴿ ومالَهُمْ أنْ لا يُعذّبهمُ اللهُ ، وهم يَصُدّونَ عن المسجدِ الحرامِ ؟ وما كانوا أولياءَه ، إن أولياؤه إلاّ المتقون ﴾ (٨ : ٣٤)

٨ً — الملائكة أولياء للمؤمنين — قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا : ربُّنا اللهُ ، ثم استقاموا ، تَتَنَزّلُ عليهمُ الملائكةُ : أنْ لاتخافوا ولاتحزنوا ، وأبشروا بالجنةِ التي كنتم تُوعَدون ، نحن أولياؤكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ﴾ (٤١:٣١)

٩ً — الله وليّ للتقي — قال تعالى ﴿ واللهُ ولي المتقين ﴾ (٤٥ : ١٨)

١٠ً — اليهودي وليّ لليهودي والنصراني وليّ للنصراني — قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ، بعضُهُم أولياءُ بعض ﴾ (٥ : ٥٤)

١١ً — المهاجر وليّ للأنصاري وبالعكس — قال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجَروا وجاهَدوا بأموالِهِم وأنفُسِهِم في سبيلِ اللهِ ، والذين آوَوْا ونَصَروا — أولئكَ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ ﴾ (٨ : ٧٢)

١٢ً — كل مؤمن تقي هو ولي لله — قال تعالى : ﴿ ألا إنّ أولياءَ اللهِ لاخوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (١٠ : ٦٢ و ٦٣)

الى غير ذلك من الشواهد التي لاتحصى ، وكلمة « وليّ » تشعر بالقرب والمحبة والنصرة ويقابلها كلمة « عدوّ » التي تشعر بالبعد والكراهة والخذل .

درجات الولاية

والولاية درجات متفاوتة ، فولاية الله ليوسف وأمثاله من الأنبياء ، أكبر من ولاية الله لمطلق مؤمن ، كما أن ولاية الله للمؤمن الكامل ، أعظم من ولاية الله للمؤمن إيماناً ناقصاً ، ومتى كان الانسان ولياً لله ، كان عدواً للشيطان ، ومتى كان عدواً لله ، كان ولياً للشيطان ، وهكذا يقال في كل شيء بما يناسبه .

الآخرة في كتب اليهود والنصارى

المادة (١٠) ـ تعليقاً على كلمة « الآخرة » ، نقرأ في القرآن الكريم فنجده يذكر الآخرة مراراً وتكراراً ، بأسماء متعددة متنوعة ، أكثر من مائتي مرة ، ونقرأ في كتب اليهود الدينية ،التي في أيديهم اليوم ، فلا نرى فيها ذكراً للآخرة ، ولا اسماً من الأسماء المذكورة في القرآن ونحوها ولا وعداً بالآخرة ولا وعيداً ، وانما كل ما وعدوا به على العمل والتمسك بالوصايا ، هو الخير والخصب والعافية والسلطة في الأرض ، وكل ما أوعدوا به إن تركوا العمل بالكتاب ، هو سلب النعم الدنيوية عنهم ، وتسليط الأمم عليهم ، والجدب والمرض ونحو ذلك ، ولهذا كان يوجد في اليهود فرقة يقال لهم « الصَدُّوقيُّون » لايعتقدون بالآخرة ، مع إيمانهم بموسى والتوراة ، ومن الغريب أنه يوجد في الشيعة فرقة يقال لها «الخطابية» يزعمون أن الدنيا لاتفنى ، وأن الجنة هي مايصيب الناس في الدنيا من خير ، وأن النار هي مايصيبهم من شر ؛

وأما النصارى فهم كالمسلمين تصرح كتبهم بيوم « الدينونة » ، فهم يعتقدون بيوم الدين ، ولكن يقولون بالحشر الروحاني دون الجسماني .

الاسلام دين جميع الرسل

المادة (١١) — تعليقاً على كلمة « مسلماً » :

الاسلام ليس بدين جديد ، وإنما هو الدين الذي أوحاه الله لجميع رسله ، فحرّفه أتباعه ، ثم أنزل الى خاتم النبيين أخيراً ، لإحداث إصلاح ديني عام ، لسائر الملل ، شرقيها وغربيها ، ولذلك جعلت قاعدته الايمان بسائر رسل الله ، من نعرف أسماءهم ، ومن لا نعرف أسماءهم ، وبجميع كتب الله ، بأي لغة كانت ، فالمسلم ليس تابعاً لدين من ضمن الأديان المتنزلة المتعادية ، ولكن للدين الأصلي ، الجامع لسائر الأديان ، والمسلم بهذا الاعتبار ، يجد في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل ، لأنه يرى نفسه رجلاً عاماً لا خاصاً ، يرى نفسه متبعاً ديناً هو في نفسه دين الكل ، فمن كان كذلك ، فلا يتحامل على الأديان ، لأنه أمرَ بأن يؤمن بها كلها ، وأن يكون منها بالمركز الأوسط مكتفياً بما في كتابه من خلاصاتها ، ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الأوسط السلم ، وشعر أنه في مجتمع أميال الأمم ، وفي نقطة تلاقي مراميها ، واتحاد أفئدتها — في يوم من الأيام — فلا يهون على نفسه أن يميل عنه الى نقطة متطرفة ، ولو سيق اليها بقوة قاهرة :

المسلم لا يقول كما قالت اليهود : ﴿ لَيْسَتِ النصارى على شيء ﴾ (٢ : ١١٣) ولا يقول كما قالت النصارى : ﴿ لَيْسَتِ اليهودُ على شيء ﴾ ، ولكنه يقول : إن اليهود على شيء ، والنصارى على شيء ، ولكن قد امتدت أيدي التحريف والزيادة والنقصان في كتبهم .

المسلم يقول : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنوا والذينَ هادُوا والنصارى والصَّابئينَ مَنْ آمَنَ بِالله واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً ، فلهم أجرُهُم عند ربِّهِم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢ : ٦٢)

المسلم لا يعتقد أن مفاتيح الجنة في قبضة يده ، وأن مواهب الله منحصرة به ،

حتى يقول كما قالوا ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلا مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارَى ﴾ (٢ : ١١١)، بل يقول : ﴿ بَلى مَنْ أسلم وجهَهُ لله ، وهو مُحسِنٌ ، فَلَهُ أجرُهُ عِندَ رَبّه ، ولا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزَنون ﴾ (٢ : ١١٢).

الاسلام إنما جاء بالاصلاح العام ، لسائر الأديان البشرية ، لا أنه دين منعزل مثل سائر الأديان ؛ الاسلام هو مؤسسة ديانة كبيرة، وهو قديم، وهو دين الأنبياء والرسل الأقدمين، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لكم مِنَ الدِّين ماوصَّى به نوحاً ، والذي أوحينا إليكَ ، وما وصَّى به ابراهيم وموسى وعيسى: أنْ أقيموا الدِّينَ ولا تتفرَّقوا فيه ﴾ (٤٢ : ١٣) وقال تعالى : ﴿ ومَنْ يَرغَبُ عَنْ مِلَّة إبراهيمَ ، إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفسَهُ ، ولقَدْ اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرةِ لَمِنَ الصالحين ، إذ قال له رَبُّهُ : أسْلِمْ ، ـ قال : أسْلَمْتُ لرب العالمين ، ووصَّى بها ابراهيمُ بَنيه ويعقوبُ : يابنيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدينَ ، فلا تَموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمون ، أم كنتم شُهَداء إذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ ، إذ قالَ لبنيهِ : ما تعبُدونَ مِنْ بعْدي ؟ ــ قالوا : نعبُدُ إلٰهكَ وإلٰه آبائك إبراهيم واسماعيلَ واسحاقَ، إلٰهاً واحداً ، ونحنُ له مُسلمون ﴾ (٢ : ١٣٠) وقال تعالى ﴿ إنَّ الدِّينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ (٣ : ١٩)

وقال نوح عليه السلام : ﴿ وأمرتُ أنْ أكونَ مِنَ المسلمينَ ﴾ (١٠:٧٢) وقال : ﴿ وَوَصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ : يا بنيَّ إن اللهَ اصطفى لكمُ الدِّين، فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمُونَ ﴾ (٢ : ١٣٢) ، وقال موسى : ﴿ ياقوم ، إن كنتم آمنتم بالله ، فعَليهِ توكلوا إنْ كنتم مُسلمِينَ ﴾ (١٠ : ٨٤) وقال عن السحرة : ﴿ ربَّنا افرِغْ علينا صبراً وتوفَّنا مُسلمِينَ ﴾ (٧ : ١٢٥) وقال عن

بلقيس: ﴿رب ً إني ظلمتُ نفسي وأسلمت مع سليمانَ لله رب ً العالمين﴾ (٢٧: ٤٤)، وقال تعالى ﴿ يحكمُ بها النبيّونَ الذينَ أسلموا – للذينَ هادُوا ، والربّانيّونَ والأحبارُ ﴾ (٥ : ٤٧) وقال تعالى ﴿ واذ أوْحيتُ الى الحواريّينَ : أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا آمنّا واشهَدْ بأننا مُسلمونَ ﴾ (٥ : ١١٤) .

المسلم – هو المسلم لإرادة الله تعالى ، هو الذي أسلم وجهه لخالق السموات والأرض ، والاسلام ليس هو دين النبي ﷺ خاصة ، بل هو دين جميع الانبياء الذين أتوا قبله ، فكما هو دين الأمة المحمدية اليوم ، فقد كان دين اليهود والنصارى وغيرهم ، ولكن دخل على دين اليهود شيء من الديانة المدعوة « مسورا » وإنشئت قلت « التلمود » أي أقوال علماء اليهود وتفاسيرهم على التوراة ، وبهذا خرجوا عن الاسلامية التي يريدها الله تعالى ؛ كما أن للديانة النصرانية خرجت على الاسلامية المرادة لله ، بسبب التعاليم السرية، والأفكار التي أذاعها « بولس » ، والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى .

فالاسلام هو دين يهودي ، خال من التقاليد المدخيلة ، وهو دين نصراني أيضاً ، خال من تعاليم « بولس » والرؤساء ، خال من عقيـــدة « الأمانة » و « عقيدة التثليث » التي وضعت في « نيقية » . في بدء القرن الرابع ، لأجل إماتة تعاليم التوحيد التي كان يتمشى عليها « آريوس » وجماعته (١)

دعاء يوسف باماتته مسلماً

المادة (١٢) – لعل طلب يوسف في قوله : « توفني مسلماً » مبني على قاعدة أن المرء يموت غالباً على ماعاش عليه ، فاذا عاش على الاسلام والصلاح ، مات على ذلك ، بفضل الله الذي كانت تلك القاعدة من سننه في خلقه ، فيكون معنى دعاء يوسف :

---

(١) ان البحث في هذا الموضوع يتطلب طول الكلام ونتركه لفرصة اخرى .

« رب احفظ عليّ اسلامي وأدم صلاحي لآخر لحظة من حياتي » .

مبلغ ما اوتيه يوسف من الملك

المادة (١٣) — سألني أحد مبشري النصرانية الافرنج ، كيف يذكر القرآن ان يوسف أوتي الملك ؟ مع أنه لم يكن سوى مأمور على حاصلات الأرض ونواتجها الحبوبية كما نتعلمه من (ع ٥٥) ومن (تك ٤١ : ٤١) ، وكما في تاريخ ابن خلدون على خزائن الزرع في المملكة المصرية ، يجمعها ويصرف الأرزاق منها ؟ هذا كل منصبه لا أكثر ولا أقل ؟

فاجبته عن سؤاله هذا بأنه قد سُمّيَ رؤساء « أدوم » ملوكاً (تك ٣٦ : ٣١) وهكذا رؤساء « مديان » (عد ٣١ : ٨) ورؤساء « موآب » (عد ٢٣ : ٧) وحاكم المدينة الواحدة ، « كملكي صادق » ملك « ساليم » أي أورشليم (تك ١٤ : ١٨) ، وقد سُمّيَ « هيرودس » رئيس الربع ملكاً (مت ١٤ : ٩) ، وسُمّي كل فرد من الشعب المسيحي ملكاً (رؤ ١ : ٦) ، على أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لم يقل : « رب قد آتيتني الملك » ولكنا نراه قال : « رب قد آتيتني من الملك » أي أعطيتني حظاً ونصيباً من الملك ، وهذه الجملة تصدق على كل من استخدم في مملكة ولو أصغر خدمة ، وقد كان يوسف مستخدماً في البلاط الملكي على خزائن الأرض ، وهذا في ذاك العصر يشبه ماندعوه اليوم « وزارة المالية » ، وايضاً ان مليك مصر ، قال عن يوسف : « هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ، الا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ، وخلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ، ووضع طوق ذهب في عنقه و وأركبه مركبته الثانية ، ونادوا أمامه « اركعوا » وجعله على كل أرض مصر ، وقال له : أنا فرعون ! فبدونك لا يرفع

إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر » (تك ٤١ : ٣٨ - ٤٤) فمن قيل له هذا القول الفخيم وعمل معه هذا العمل العظيم ، ألا يصلح أن يقال إنه أوتي حظاً من الملك ؟

هذا خلاصة ما كنت أجبت به السائل المبشر ، فلما سمعه سكتَ مغلوباً ، وسكتُّ غالباً ، ولله الحمد والشكر دائماً ودائباً .

الاسلام والجاهلية لغة

المادة (١٤) — تعليقاً آخر على كلمة « مسلماً » : ظاهر أن الاسلام ههنا بالمعنى الشرعي الاصطلاحي ، وربما كان بالمعنى اللغوي ، وهو الانقياد والخضوع ، وأصله من السلام ، وهو المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام ، قال تعالى : ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذينَ يَمشُونَ على الأرض هَوْناً وإذا خاطَبَهُم الجاهلونَ ، قالوا سلاماً ﴾ (٢٥:٦٣) ، ولعل هذه الآية هي المفتاح الذي نصل به الى معرفة السبب في تسمية الزمن الذي قبل النبي ﷺ جاهلية ، وتسمية عهده صلوات الله عليه إسلاماً ، فالجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة والتعدي ، وربما كان منه قول يوسف لاخوته : ﴿ هل عَلِمتُم مافعَلتُم بيوسفَ وأخيه ، إذْ أنتم جاهلون ﴾ (ع ٨٩) أي فيكم روح التعدي، كما منه ﷺ لأبي ذرّ رضي الله عنه ، وقد عيّرَ رجلاً بأمّه : « إنكَ أمرُؤ فيكَ جاهلية » ، أي فيك روح السفه والتعدي ؛

ويقابل هذه المعاني هدوء النفس والتواضع والحلم ، وهذه كلها نزعة سلام ، ثم انتقلت الكلمة الى معنى آخر قريب من هذا ، وهو استعمال « أسلم » المشتق من السلام ، بمعنى خضع وانقاد ، لأن الخضوع أدعى الى السلام ، ومنه ﴿ وأنيبوا الى ربّكم وأسلِموا له ﴾ (٣٩:٥٤) ثم خصت في الاستعمال بالدين الاسلامي ،

الذي أتى به النبي ﷺ ، ومنه : ﴿ ورَضيتُ لكم الاسلامَ ديناً ﴾ (٥:٤) ﴿ ومَنْ يبتغِ غيرَ الاسلامِ ديناً فلن يُقبَلَ منه ﴾ (٣:٨٥) وبهذا البيان الذي قلناه في معنى الجاهلية ، يسقط اعتراض علماء الغرب علينا ، لأن اعتراضهم مبني على أن « الجاهلية » هي ضد العلم ، فقالوا : « إن تسمية العرب في الزمن الذي قبل النبي ﷺ بذلك ظلم وخلاف الواقع ، إذ كان فيهم علم وحكمة ، كما يعرف من مراجعة دواوين العرب وأشعارهم » ؛ ووجه الرد انا لانقول : « إنهم جاهلية من الجهل الذي هو خلاف العلم ، ولكن نقول إنه من الجهل الذي هو السفه والتعدي والغضب والأنفة » ، فليفهم ذلك . . .

حال يوسف اثناء وبعد حفلة الختام

المادة (١٥) — نلاحظ أن الحفلة التي خطب فيها يوسف خطابه القيم الذي أنهاه بالتحدث بنعمة الله وبرجاء حسن الختام ، نلاحظ أنها انتهت بسرور ما بعده سرور ، لم يَرَ يوسف قبله مثله ، ولن يرى بعده مثله ، ولم يُرَ يوسف منطلقاً في الكلام مندفعاً في الخطاب ، كمثل اليوم ، ولعل ذلك لأنه حظي بأبويه وذويه وجميع أهليه ، فاسترسل في الكلام هذا الاسترسال ، نزولا على قول القائل :

فيَّ انقباض وحشمة فاذا	صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها	وقلت ماقلت غير محتشم

وفاة يوسف ويعقوب ومدفنهما

المادة (١٦) — عاش يوسف في مصر بعد خطابه الأخير (١٧) سنة عيشاً هنيئاً ، لا تضطرب في سمائه غيمة ، ولا تمر بصفحته غبرة ، وكذلك أبواه واخوته وأهلوهم ، وذلك هو كل ما استطاع أن يختلسه من يد الدهر في غفلته ؛ ومدة حياته كلها (١١٠) سنين ، ثم قبض وحُنِّطت جثته وأدرج في تابوت وختم عليه ، ودفن

في بعض مجاري النيل ، وقد أوصى أن يحمل عند خروج بني اسرائيل من مصر، ولم تزل وصيته محفوظة عندهم إلى أن أُخذت مومياؤه مع بني اسرائيل إلى كنعان ودفنت في « شكيم » بجانب بئر يعقوب ، وقيل في قرية من أعمال نابلس يقال لها « بُلاطة » وقبره بها مشهور ، وقيل إن جثته نقلت بعد ذلك من « شكيم » إلى « حبرون » وقبرت في الغار الشريف مع أجداده الكرام .

وأما يعقوب فقد ولد صلوات الله عليه في « عين موبلع » ولما صار ابن ٥٠ سنة رحل للعراق عند خاله لابان ومكث عنده ٢٠ سنة ثم رجع قافلاً لفلسطين ،فعاش فيها أيضاً ٦٢ سنة أي إلى أن صار عمره ١٣٢ سنة ثم رحل لمصر فعاش فيها ١٧ سنة ثم توفي عن ١٤٩ سنة وأوصى بأن يدفن في فلسطين ، في الغار الشريف عند آبائه ، وقد قال عند وفاته : « الحمد لله إذ خلفت ولدي يوسف ،ينضب الماء ،ويبقى بعده النبت الكريم» ومن أغرب الصدف أن عيشة يعقوب بمصر في كفالة ابنه يوسف كانت ١٧ سنة ، كما كان يوسف قد عاش في حضن أبيه بفلسطين ١٧ سنة !!!

قال « ابن جرير » في تفسيره : « لما حضر يعقوب الموت أوصى ولده يوسف أن يدفنه عند ابراهيم واسحاق ، فلما مات ، نفخ فيه المُرّ ، وحمله إلى الشام».

نهاية اخوة يوسف

وأما إخوة يوسف فقد سكنوا بمصر بين النيل غرباً ، والشرعة شرقاً ،وذاب وجودهم في وجود يوسف ، ولم يعد لهم وجود مستقل، إذ كانوا في معيته ، وتحت نفوذه وسلطته ، فكانت إرادتهم في إرادته،وكانوا بين يدي قهره كطير مقصوص الجناح ، ونهبت تلك العنجهية والدبدبة والعظمة قبض الريح ، وماتوا جميعاً بمصر وقبروا فيها :

كأن لم يكن بين « الحجون » إلى « الصفا »
أنيس ولم يسمر « بمكة » سامر

وأما ما يزعمه بعض الجهلة من أن يهوذا وروبيل (رأوبين) مدفونان في طبرية بمسجد هناك ، أو أن روبيل مدفون على سيف بحر يافا ، وأن شمعون مدفون في دمشق في حي الشاغور ، وفلان في بلد كذا وكذا فخطأ تاريخي .

نهاية بني اسرائيل ومملكتاهم

وأما بنو اسرائيل فقد مكثوا بمصر نحو (٢١٥) سنة خلافاً لتوراة اليهود التي تقول (٤٣٠) سنة ، ونشأ عن اختلاطهم بالمصريين أنهم توثنوا مثلهم ، وصاروا من عبدة العجل « أبيس » ، وأذلهم المصريون ، وسخروهم واستخدموهم ، وذبحوا أبناءهم ، واستحيوا نساءهم ، وعملوا على انقراضهم بكل حيلة ، ولما أراد الله خروجهم من مصر إلى أرض الميعاد ، أرسل « موسى » لذلك ، فآمنوا به ، ورجعوا لدين التوحيد ، وخرجوا من مصر تحت قيادته ، ثم نظراً لتمكن التوثن منهم ، رجعوا وهم في طريقهم للشام إلى عبادة العجل ، ثم تابوا بمساعي موسى صلوات الله عليه ، وبعد أن صار لهم ملك بفلسطين ، وبعد موت « سليمان » عليه السلام ، انقسمت المملكة إلى مملكتين ، جنوبية وعاصمتها اورشليم أي بيت المقدس وهي مملكة « يهوذا » وهي مؤلفة من سبطين فقط : يهوذا وبنيامين ، ولذا يقال لها « المملكة اليهوذية » ، وشمالية وعاصمتها « شكيم » أي نابلس تقريباً ، وتشمل عشرة أسباط منهم ، ولذا كان يقال لها مملكة « اسرائيل » وهذه توثنت كلها ، كما أن الأولى كان يوجد فيها توثن ، في بعض الأزمنة ، وكل هذا التوثن والرجوع إلى الشرك ، نجم عن اختلاطهم بالمصريين ، الناجم عن رحلتهم لمصر ، بسبب وجود يوسف هناك ، الناجم عن إبعاده عن وطنه فلسطين بيد إخوته ؛ وكأنه لذلك ، والله أعلم .. ، لما كان حدث بعده من اقتتال المملكتين الجنوبية والشمالية ، بعضهم مع بعض ، أخذ الله على قدماء بني اسرائيل في كتب أنبيائهم أن لا يقتل فريق

فريقاً آخر منهم ، ولا ينفوا أحداً من وطنه بمحض اتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثاقَكم لا تَسْفِكونَ دِماءَكم، ولا تُخْرِجونَ أنْفُسَكم مِنْ دِيارِكم ﴾ (٢ : ٨٤) لأن إخراج فريق لفريق آخر منهم يعرضه لتغيير دينه وأخلاقه وعوائده كما هو معلوم من التاريخ ، أي يعرضه للقتل الروحي ، الذي هو أعظم من القتل الجسدي .

الباب الخامس

الفصل الأول

خاتمة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة

أو الاستدلال على نبوة محمد (ﷺ)

آ(١٠٢) ﴿ ذلكَ مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ ، نُوحِيهِ إليكَ ، وما كُنتَ لدَيْهِمْ إذْ أجْمَعُوا أمْرَهُم وهُمْ يَمكُرونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة واثنتان ، فقام الشيخ محمود الخليلي وقال :

لابد انكم أيها السادة تذكرون ما كان بينه لنا الأخ الامام القلقيلي في مطلع كلامه على الآية الأولى من هذه السورة . اذ ها نحن هنا اعتباراً من هذه الآية الى آخر السورة ندخل في خاتمـــة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة أو في نتيجته :

لما قص الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ﷺ نبأ اخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والاعدام قال له :

(ذلك) القصص وأمثاله يامحمد ، هو (من أنباء) من أخبار (الغيب) الغيوب السابقة (نوحيه اليك) ونعلمك به لما فيه العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ، متتبعين فيه جميع حوادث يوسف ، مع بيان أسبابها ونتائجها وحِكَمها ، نوحيه اليك ، أيها الأمي ، يا ابن الصحراء ، الذي لم يدخل مدرسة ولا دار علم ، ولم يكن يتلو من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، يا ابن الصحراء الذي هو وقومه أبعد الناس عن كل بناء علمي ، يا ابن الصحراء الذي لم يكن من قبل معدوداً من بلغاء العرب ولا من شعراء قريش ، ولا من خطبائهم ، نوحيه اليك يا ابن الصحراء الذي لم ينشأ كابراهيم في مملكة راقية بالعلوم الكلدانية ، ولم ينشأ كموسى في دار مُلْكٍ أربى على سائر ممالك العالم بالعلوم والشرائع المصرية،ولم ينشأ كعيسى في مقاطعة كفلسطين كانت راقية بالعلوم والحِكَم اليونانية ، ونظامات حُكامها الرومان، وقد تعلم وقرأ ودرس ؛ نوحيه اليك يا ابن الصحراء البعيدة عن العلم والعلماء ، الذي لم يكن مؤرخاً ولا قصاصاً وليس عنده أثارة من علم ، وبالجملة — نوحيه اليك إيها الانسان الذي كنت من قبله من الغافلين (وما كنت لديهم) لدى اخوة يوسف حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ، (إذ أجمعوا أمرهم) على القاء يوسف في غيابة الجب (وهم يمكرون) به ويبغون له الغوائل ، مع أن كلا من اجماعهم الأمر ومكرهم من الأمور التي تعمل تحت طي الخفاء ، فهذا النبأ غيب لم يحصل لك يامحمد إلا من جهة الوحي ، لأنك لم تحضر بني يعقوب حينذاك .

إنه لأمر عجاب حقاً ، رجل أمي لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ،وقد احتج بهذا على قومه ، فلم يستطع أحد منهم ممن انتصبوا

لعداوته أن يرفع في الإنكار عليه رأساً ، أو ينبس في الرد عليه بكلمة .

وندرج فيما يلي التعليقات التالية على الآية الكريمة :

الرد على دعوى الكفرة بأن الرسول قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة

التعليق الاول ـ كان قصارى الكفرة المعاندين المعاصرين لصاحب الرسالة ﷺ أن يقولوا تارة عن القرآن : إنه ﴿ أساطيرُ الأوَّلينَ ، اكْتَتَبَها ، فهي تُملَى عليه بُكرَةً وأصيلاً ﴾ (٢٥ : ٥) وتارة يقولون : ﴿ إنما يُعلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٦ : ١٠٣) كانوا يقولون ذلك ، وهم يعلمون أن محمد بن عبد الله مكث فيهم اربعين سنة ، لا يتلو من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، وأن لسان الذين يلحدون اليه أعجمي ولسان القرآن عربي مبين ، اتهموه بأن سلمان الفارسي كان يعلمه ، وهم لا يمارون في أن سلمان ما عرفه الا بعد الهجرة ، ونزول كثير من آيات القرآن ومعجزات الفرقان ، ثم اتهموه بأن رجلاً رومياً دخل في الاسلام ، فكان يعلم الرسول — وهو أعجمي اللسان — تلك الآيات الباهرة ، ولو كان الأمر على ما وضعوا ، لكان لذلك الرومي من العلم والحكمة والفضل بحيث تضرب اليه أكباد الابل ، وتجثوا بين يديه الأمم ، ويعرف اسمه في مشارق الأرض ومغاربها ، ولكنهم لم يحسنوا سبك مفترياتهم ، ولم يجيدوا صياغة ترهاتهم ، إذ عجزوا حتى عن تعيين اسم ذلك الرومي ، فاختلفوا فيه على أربعة أقوال : هل اسمه « يعيش » أو « بلعام » أو « جبر » أو « يسار » ، على أنه لم يسمع عن واحد من اولئك الأربعة شيء من مثل ما جاء به النبيّ الأميّ ، ولا عُرِف أحدهم حتى بالرواية عن رسول الله .

نتصفح تواريخ الرجال ، فلا نكاد نجد فيها مايشعر بأنه لأحد أولئك النفر رواية ، حتى لما كان يقوله الرسول من أحاديثه ، فانّى لأولئك الجاحدين الجامدين أن يزعموا أن الرسول قد تخرج على أحدهم ! ! !

يزعم اولئك المبطلون أن الرسول قد استفاد كثيراً من رحلاته الى الشام، حيث المدنية وأئمة النصرانية، والقوانين الرومانية، وما هم في تلك المزاعم الأولى بأحمق منهم في هذا الزعم الأخير، فان محمداً لم يغب عن قومه، ولا كثرت اختلافاته الى بلاد أهل الكتاب ليستمد شيئاً من علومهم، بل عاش بين قومه يرعى كغيره من الأنبياء الغنم في صغره وشبابه، وما خرج عنهم إلاّ في رحلتين الى الشام، ولم يتم أولاهما، بل رده الى مكة عمه «أبو طالب» باشارة من الراهب «بحيرا» وكان عمره إذ ذاك تسع سنين، وبلغ في ثانيتها الشام، في تجارة «لخديجة بنت خويلد» وكان في سن الخامسة والعشرين، ولم يطل في هذه الرحلة مكثه بالشام مدة يحتمل فيها أن يتعلم القليل من العلم، بَلْهَ الكثير، بل كان في سفره لا يكاد ينفك عن قومه ورفاقه، وإلاّ .. لو غاب عن قومه بضع سنين، لقالوا له: «لعلك تعلمت هذا مدة غيابك عنا»، ولم يفوهوا بمثل هذا مع أنهم كانوا يحاولون أن يلصقوا به هذه الشبهة، وهي التعلم من الناس، وأيضاً فأي حامل يحمل هذا الفقير، الذي نشأ هذا المنشأ الذي بيناه، ولم يوجد من ينبهه ويرشد فكره، لفضيلة العلم، حتى يترك ما يقتات به، وهو في تلك البلاد الأجنبية، ويترك ما به إرضاء لخديجة التي بعثته لتلك البلاد، ويجهد نفسه في البحث عن عالم ليس من أمته، ولم يكن على عقائدهم، ويرضخ له حتى يبعث في قلبه كل هذه التعليمات، ويسلم له فيما خالف معتقد آبائه وأجداده؟.

وأما حصول هذا التعلم له في بلاده فهو غير ممكن للأسباب الآتية:

أولاً — كان يُشاهَد أنه يفعل ذلك ولو مرة واحدة.

ثانياً — إن المعلم لَه، إما أنه كان من اليهود، وهذا لايمكن أن يعلمه أخبار المسيح وأمه، والاقرار لهما بالفضل والنزاهة، ولا أن يرمي اليهود بالتحريف في كتبهم، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الانكار عليهم، وإما

أنه كان من النصارى ، وهذا لا يُعلمه أن ينكر لاهوت المسيح ، ولا التثليث ولا الصلب ، ولا أن يرمي النصارى بالتحريف في كتبهم ، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الانكار عليهم .

ثالثاً — أي حامل يحمل هذا المعلم على اجهاد نفسه ، وصرف وقته في تعليم هذا « الغريب الأميّ »؟ ولِمَ لايدع الناس الى هذه الأشياء بنفسه ؟ أو اختار أحداً ممن اشتهر بشعر أو خطابة أو شيء من العلم ، أو كان له جاه أو أعوان أو مال ، أو غير ذلك مما يصلح أن يكون سبباً في تخصيصه بالتعليم ؟

رابعاً — انه من الصعب جداً أن يقدر أحد من الناس ، أن يهذب هذا « الأميّ » كل هذا التهذيب ، وأن يخرجه من عقائد آبائه وأجداده ، ويدخل في ذهنه مسائل النبوة والوحي والتنزيه والتوحيد ، ويجعله يعتقد ذلك اعتقاداً حقيقياً إلا إذا كان هذا المعلم ، مقتدراً عالماً حكيماً ، ومثل هذا لم يعرف له ذكر في بلاد العرب ، ولا فيما جاورها ، فكيف لم يشتهر بالعلم والفضل ؟ وأي مؤرخ لذلك العهد ، ذكر كلمة عن أحد مثل هذا ، متمسكا بما يوجد في القرآن ، من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والمبادىء وغيرها ؟

خامساً — لِمَ لمْ يسرّ هذا المعلم الى أحد ، بأنه يعلم محمداً ويهذبه ؟ وماالذي حمله على إخفاء هذه المسألة ، وكتمها هذا الكتمان المطلق ؟

سادساً — لِمَ لمْ يشاهد محمد يحترم أحداً قبل نبوته أكثر من غيره ، أو يلوذ به ويلازمه ، كما هو شأن التلميذ مع معلمه ؟

سابعاً — أي شيء ألزَمَه الصبر اربعين سنة ، ولم يجعله يسارع الى دعوى النبوة ، ولم يبادر الى سرد القصص التي تعلمها مرة واحدة ؟ لاجرم أن شأن الذي يريد أن يدعي شيئاً مثل هذا ، أن تظهر عليه عدة أمور تدل على ماطوى به سريرته"

ثم يتجرأ فيزداد شيئاً فشيئاً ، لا أن يسكت أربعين سنة ، ثم يندفع بدعواه مرة واحدة بعزيمة واحدة ، قوتها في الأول ، كقوتها في الآخر .

ثامناً — كيف أن هذه الفكرة لم تأخذ بلبه ومشاعره ، فتجعله مشتغلاً بها طول السنة ؟ وكيف يتناساها أحد عشر شهراً ، ويشتغل بها شهر رمضان فقط من كل سنة ، فيستعد فيه لما سيدعيه . كما يزعمه أولو الأهواء في عزلته السنوية .

إن عادة المفترين أن تأخذ مثل هذه النيات بحواسهم وعقولهم ، حتى يظهر للناس أنهم دائماً في انشغال بال ولكن النبي ما كان يشغله شيء عن شيء والالأنهك الفكر بدنه ، وصار سقيماً ، وكلت قواه العقلية ، من كثرة الحيل ، وتعداد الصعوبات ، التي كان يلاقيها ، فتضعف عن أن تدبر كل ما كان يدبره ، لولا الارشادات الآلهية والالهامات الربانية ، وكيف علم أنه لاينقضي أجله حتى يتم القرآن في آخر سنة من حياته ، ويأمن على نفسه ، فيأتي به نجوماً نجوماً؟

الرد على دعوى الكفرة بان الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة

التعليق الثاني ـ وإن كان التعلم حصل بعد ظهور النبوة نقول :

أولاً — كيف ابتدأ دعواه على جهله ؟ وأي منبه قام بفكره حتى حمله على ذلك ؟ وكيف ضمن أنه يجد من يعلمه؟

ثانياً — لم يُشاهد مرة يلجأ الى أحد الناس ليتعلم منه .

ثالثاً — لِمَ لم يقدم هذا المعلم ، ويفضله على أصحابه أو يوصي له بالخلافة ؟ ولم بقي معلمه مرؤوساً له ، ولم يكن رئيساً عليه ؟

رابعاً — لِمَ لم يوجد بين أصحابه من كان يأنف من أن يتلقى العلم منه ويخضع لأمره وينتهي بنهيه ؟ فأين كان هذا المعلم ؟ إذ لو كان موجوداً لأنف من أن يأخذ العلم عن تلميذه محمد ، ثم نحن لانعرف أحداً بينهم ممتازاً بعلم ، سوى ما أخذوه

باقرارهم جميعاً عن كتاب الله وحديث رسوله ، فان كان هـذا المعلم موجوداً في عصر النبوة ، فلم لم يشتهر بالعلم والفلسفة قبل دعوى محمد ؟ ولِمَ أخفى نفسه حتى ادعى محمد النبوة ؟ ولِمَ لمْ يظهر بين العرب ، حتى تجله وتحترمـه احترامها لمحمد ؟ وأي شيء استفاد حتى يكتم هذا كله ؟ فيالله من التعصب ، الذي يعمي ويصم!

ثم انه كان وعد أصحابه بالنصر والفتح والتمكين في الأرض والخلافة ،فوقع كل ذلك لهم ، وصدق في جميع ما أخبر به من المغيبات المستقبلة ، كخبر انتصـار الروم على الفرس .

هذا وانه لم يكن في مكة من أهل الكتاب إلا أشخاص يعـدون على أصابع اليدالواحدة ، وكانوا من أجهلهم وأحطهم مقاماً في المجتمع الانساني ، وكانوايحترفون بدنيء الحرف ، كخدمة بعض العرب ، أو الاتجار في بعض أشياء حقيرة .

الرد على دعوى البروتستانت بأن الرسول (ﷺ) كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها

التطليق الثالث ـ هب انه كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها،كما ادعاه بعض البروتستانت ، فكيف أمِنَ من الوقوع في خرافاتهم التي يجزم العقل ببطلانها كقصة « شمشون » ومايتعلق بقوته وشعره ، ونحو ذلك من الأوهـام التي كانت ولاتزال منتشرة بين النصارى واليهود الى اليوم ، وقد ذكر منها إخواننـا ستاً وثلاثين أسطورة منقولة عن « العهد العتيق » فلم تنزه كلامه عن تلك الحكايات المخزية ؟ ثم لم تنزه كلامه عن أضاليلهم في المسألة اللاهوتية ؟ كعقائدهم في المسيح والصلب والتثليث ، ومصارعة الله ليعقوب وغـــير ذلك ، أليس من المعهود ان الانسان ، يقع في بعض غلطات من ينقل عنهم ويعتمدهم ؟ فلماذا لم يقع محمـد في خطاء واحد من أخطائهم ؟

هل يعرف الأميّ الذي نشأ في وسط الجهل وفي زمن الجهل ، ما صح من المسائل وما فسد منها ؟ حتى لا يقع في كلامه الا الصحيح ، مع ان انتشار الخرافات والأقوال الفاسدة ، كان بحيث إذا كُلِّفَ فيلسوف بانتقادها واختيار صحيحها، لوقع في الوهم ، ولحكم على بعض الصحيح بأنه باطل ، وعلى كثير من الباطل بأنه صحيح ، وخصوصاً في ذلك الزمن ، وفي تلك البلاد العربية ، التي كان العلم فيها عبارة عن مجموع خرافات للعجائز ، اختلطت بشيء لايخلو من الصحة ، من بعض الوجوه ، فما بالك بمحمد الاميّ والرجل العاميّ ؟

أيتصور في هذا الرجل الذي كان يعتقد في أهل الكتاب ، أنهم غاشون ماكرون ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويفترون على الله الكذب ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : « هذا مِنْ عندِ الله » ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أيتصور منه ، وهو يعرف كل هذا عنهم . أن يثق بأقوال يسمعها من أفواه الجهلة عنهم ، ويزعم بعد ذلك أنها من عند الله ؟ مع أنه ما كان يثق بقول أعظم عالم من علمائهم ، بل كان يرميهم بأنهم لايفهمون حقائق ماعندهم من الكتاب ، وأنهم يختلقون أشياء كثيرة ، لتضليل عامتهم وغشهم ، فكيف يقول النبي الذي لاينكر أحد رجحان عقله ، على قولهم ؟ مع انه شرح للناس مكرهم وكذبهم ، وكيف لايخاف أن يكذبوا عليه ، ويغروه ويوقعوه في الخطأ ، الذي لايمكنه التخلص منه ؟

اساس تسرب الغش لأذهان مفسري القرآن وعصمة النبي ﷺ من ذلك

التعليق الرابع ـ لقد جربنا أن الاسلام لما انتشر أيام عمر (ض) ومن بعده ودخل فيه كثير من جهلة اليهود والنصارى ومن منافقيهم ، تلقى قدماء مفسري القرآن الكريم ، من فم هؤلاء الجهلة ، وهؤلاء المنافقين ، مالا يحصى من الأقاصيص الوهمية الباطلة ، فالجاهل منهم أدخل الغش ، من حيث لايشعر أنه غش ، والمنافق منهم أدخل الغش على المفسر قصداً ، وهو يشعر بأن مايقوله ليس بصحيح ،

والمفسرون قبلوا منهم ذلك الغش ، لأنهم غير معصومين ، ولكن شيئاً من هذا لم يقع مع النبي ﷺ ، بالنسبة لمن كان اجتمع بهم من اليهود والنصاري ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، فدل على أنه لم يكن يسمع منهم شيئاً أصلاً ، ولنا أن نتسامح ونقول : إنه ربما كان سمع من البعض ، ولكن تمييزه دائماً بين الحق والباطل مما يسمع ، وعدم نزوله على تصديق شيء ما ، من باطلهم — لهو دليل واضح على عصمته ، والعصمة هي من آثار النبوة .

هل يمكن للعامي الأمي ، إذا سمع خليطاً ، من قصص بني اسرائيل مثلا ، من أفواه آحاد الناس في مجالسهم ، ممزوجة بكثير من الخرافات ، كما هو شأن العامة ، أن يفهم منها حقيقة تاريخهم ، وأن يترك ما سمعه من خرافة ، ويقتصر على ما كان منه حقاً ؟ تصور حالة عامي من عامة أهل بلد كالشام مثلا ، إذا سمع أقوالاً فيها الغث والسمين ، من أفواه بعض جهلة الأوربيين ، عن تاريخهم ، فهل يمكن هذا العامي أن يأتينا بشيء عظيم صحيح من تاريخهم مثل ما أتى به القرآن بحيث لايذكر منها إلا الصحيح ، ويترك الأباطيل ؟ قل لي بأبيك هل هذا ممكن ؟ فلو كان مصدر القرآن كما يقولون — لكنا نجد كل صحيفة ممتلئة بالأوهام والخرافات ، ولكنا نستلقي على قفانا من الضحك عند سماع بضعة من كلامه في المسائل الطبيعية والتاريخية والعمرانية والأخلاقية واللاهوتية والشرائع المدنية والعبادات الدينية ، إذا حاول أن يملي علينا شيئاً مما سمع من ذلك الاوربي الجاهل .

بعض معجزات القرآن الدالة على انه وحي من الله

التعليق الخامس- ١ — نظر طبيب إفرنسي من أهل هذا العصر في ترجمة القرآن ، فرآى أن كل مايتعلق بالطب والمحافظة على الصحة ، كالطهارة والاعتدال في الطعام وعدم الاسراف ، موافق لأحدث المسائل التي استقر عليها رأي الأطباء في هذا العصر ، فقال :

« من أخبر محمداً بهذا الذي كان غائباً عن العرب ! » فرغبه ذلك في تأمله في كل القرآن فأسلم .

٢ — ونظر المستر « براون » الانكليزي وهو ربان بارجة — في ترجمة المستر « سايل » الانكليزية للقرآن ، فرآه أنه قد استقصى فيه الكلام عن البحار والرياح، فظن أن النبي ﷺ كان من أكبر ربانيّي الملاحين ، فسأل عنه،فقيل له « انه لم ير البحر قط ، وكان مع ذلك أمياً ، لم يقرأ كتاب جغرافيا ، ولم يتلق عن أحد درساً ، من دروس الأشياء ، ولم يتعلم شيئاً من دروس الطبيعة وعجائب المخلوقات — قال : فعلمت أن هذا كان بوحي من الله ، لأنه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وانما هو إخبار من الله تعالى » ، فاسلم وتعلم العربية ، رحمه الله تعالى .

٣ — فالأخبار عن قصة يوسف مع اخوته ومع امرأة العزيز والفتيين ومليك مصر هو احدى معجزات القرآن ، وهكذا باقي قصص الرسل مع أقوامهم،وهذا النوع هو من قبيل الإخبار بالغيب الماضي .

٤ — ومن جملة أنباء الغيب الماضي التي أثبتها لنا التاريخ بعد بعثة النبي ﷺ بعدة قرون — إخباره عن أهل الكتاب انهم﴿ نَسُوا حظّاً مما ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٥:١٥)، وانهم ﴿ أُوتوا نَصيباً مِنَ الكتاب ﴾ (٣:٢٢) ، ذلك أنهم كانوا أضاعوا كتابهم وفقدوه عندما أحرق البابليون هيكلهم ، وخربوا عاصمتهم ، وسبوا ما أبقى عليه السيف منهم ، ولما عادت اليهم « الحرية » في الجملة ، جمعوا ما كانوا حفظوه من التوراة ووعوه بالعمل بــه ، أو ذكروه في بعض مكتوباتهم لنحو الاستشهاد به ونسوا الباقي ، هذا هو الذي وقع ، ولم يكن يخطر على بال احد من العرب في زمن البعثة — وهم اميون — ان اليهود فقدوا كتابهم الذي هو اصل

دينهم ، ثم كتبه لهم كاتب منهم ، نشأ في السبي والأسر بين الوثنيين بعد عدة قرون ، فنقص منه وزاد فيه ، ولم تعرف المصادر التي جمع منها ما كتبه ، معرفة صحيحة ، كل هذا كان خفي على علماء المسلمين عدة قرون بعد انتشار العلم فيهم.

(٥) جعل الله تعالى الآية على صحة رسالة النبي ﷺ علمية ، حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين ، وهي إتيان رجل أُميّ عاش بين الاميين، إلى مابعد سن الكهولة ـ بكتاب فيه أعلى العلوم الآلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين ، الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه ـ ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها ، وأسلوب أشد إعجازاً .

(٦) ويوجد في القرآن إخبار عن الغيب المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿غُلِبَتْ الرومُ في أدنى الأرضِ ، وهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سنينَ لِلهِ الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، ويومئذٍ يفرَحُ المؤمنونَ بنَصْرِ اللهِ﴾(٣٠:٢-٥) وقد ظهر صدق ذلك بعد بضع سنين من نزول الآية،وكان أبو بكر الصدّيق(ض) راهن بعض المشركين على صدق الخبر ، فربح الرهان ؛

ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل كما قال : ﴿ إنّا نحن نَزّلنا الذّكرَ وإنّا له لَحافِظونَ ﴾(١٥ : ٩) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنُوا منكم وَعمِلوا الصّالحاتِ ليَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرضِ ، كما استَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبلِهم ، وَليُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهم الذي ارْتَضَى لهم ، ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بعدِ خَوفِهِمْ أمْناً ، يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بي شَيئاً ﴾ (٢٤ : ٥٥) وقد أنجز الله وعده .

الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً لذاته

التعليق السادس ــ هذه الآية (ع ١٠٢) بحث من بحوث أصول الدين ، وهو

الاستدلال على النبوة ، ولم يكد يتعرض له هنا قصداً ولذاته ، ولكن ذُكر بعد تمام القصة اليوسفية استدلالاً بهـــا على صحة النبوة ، فهو بحث ذكر بالعَرَض ، ولذلك اختصر جداً ولم يُطوّل فيه ، إذ ليس المقام مقام استدلال ، وانما هو مقام قصص وتاريخ .

هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ

التعليق السابع — غني عن البيان ان هذه السورة مكية ، واليهود والنصارى لم يسكنوا مكة ، ولو كانوا قد سكنوها ، لكان لكل منها حيّ خاص ، ولكان لكل فريق معبد خاص ، يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم ، وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة عند اليهود والنصارى ما يشير أقل إشارة إلى وجود شيء من ذلك .

نعم ربما أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون إلى مكة لأشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون إلى « خيبر » ليجلبوا منها حليّ آل « أبي الحقيق » التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها حين زفافهن وغير دلك .

كذلك كان « كعب » بن الاشرف قد جاء إلى مكة ليرثي قتلى « بدر » وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ، ويحدثنا الواقدي » أنه وجد في مكة عبد من اليهود كان اسمه « عبد الدار بن جبر » سمع سورة يوسف ، فكان لها وقع شديد في نفسه فأسلم ودخل في ذمة النبي ﷺ ، ولما بلغ الخبر مشركي مكة ، أوسعوه ضرباً ؛

نعم إن بعضاً من أفراد اليهود سكنوا الطائف ، وفي مدن أخرى من الحجاز غير مكة ، ومع ذلك كانوا قليلين ، وقـــد كان بعض أفراد النصارى من أحرار وعبيد ساكنين في مكة ومختلطين بأهلها ، ولكنهم مع ذلك قليلون جداً .

هذا كل ما قدر عليه الأجانب أن يثبتوه لكي يخيلوا للناس أن النبي ﷺ

ربما كان سمع ما يتعلق باليهود والنصارى كقصة يوسف ونحوها من بعض هؤلاء المذكورين .

تكرر المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات اخرى

التعليق الثامن إن المعنى الذي حوته هذه الآية قد تكرر في عدة آيات ، منها ما أُمِرَ النبي أن يقوله : ﴿ قُلْ : هو نَبَأٌ عظيمٌ أنتم عنه مُعْرِضونَ ، ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بالمَلأِ الأعْلى إذْ يَختَصِمُون ، إنْ يُوحَى إليّ إلاّ أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴾ (٣٨ : ٦٧ ـ ٧٠) يشير بذلك لما ذكره عقبه على الأثر من المقاولة بين المَلَك النائب عن الله تعالى وبين إبليس ، وهذان الفريقان هما المراد « بالملأ الأعلى » والمراد من كونهما ملأ أعلى ، أنهما من العالم الروحاني لا الجسماني ،

وقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿ وما كنتَ بجانب الغَرْبيّ إذْ قَضَيْنا إلى موسى الأمْر ، وما كنت مِنَ الشاهدين ، ولكِنَّا أنْشأْنا قُروناً فتطاوَلَ عليهم العُمُرُ ، وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتنا ، ولكنَّا كنا مُرسلين ، وما كنتَ بجانبِ الطورِ إذْ نادَينا ، ولكنْ رحمةً مِنْ رَبِّكَ ، لتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهم مِنْ نذيرٍ من قَبْلِكَ ، لعلّهم يَتَذَكّرون ﴾ (٢٨ : ٤٤ ـ ٤٦) ، قال ذلك بعدما قص على نبيه ﷺ قصة موسى عليهما السلام ،وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ اليك ، وما كنتَ لديهم إذْ يُلقُونَ أقلامَهم أيُّهُم يكفُلُ مريمَ ؟ وما كنتَ لديهم إذْ يَختصِمون ﴾ (٣ : ٤٤) ، وقوله تعالى بعد ما فصّل قصة نوح مع قومه : ﴿ تلك من أنباءِ الغيب نُوحيها اليك ، ما كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قَوْمُكَ من قَبْلِ هذا ﴾ (١١ : ٤٩) .

المكر الثابت والمكر المقدر بقدر العمل المرافق له

التعليق العاشر ـ قوله « وهم يمكرون » جملة حالية ، ولم يقل « ماكرين »

حتى تكون حالاً مفردة ، لأنه يوجد فرق كبير في المعنى بين هـذه الحال الجملة ، والحال المفردة ، فمعنى « وهم يمكرون » أن المكر وصف ثابت لهم في نفسه ، وقد أجمعوا أمرهم في حال تلبسهم به ، ولكنهم هم مكرة أيضاً قبل ذلك وبعـده ، ومعنى « ماكرين » ان المكر كان وصفاً لهم حال إجماعهم أمرهم فقط ، فهو تابع لإجماعهم أمرهم ، مقدر بقدره ، تقول مثلا : « جاء زيد وهو راكب » ومعناه ان الركوب وصف ثابت له في نفسه ، وقد جاء هو في حال تلبسه به ، وتقول : « جاءزيدٌ راكباً»ومعناهأنالركوب كانوصفاً له حال المجيء.فهو تابع للمجيء،مقدر بقدرهفإذا تقرر هذا المعنى ، فليهنأ اليهودالصهيونيون الذينهمذريةهؤلاء «المكرة » الموصوفين هنا بدوام المكر !!!

من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في كل مناسبة

التعليق الحادي عشر — هذه الآية والآيات التسع التي تليها، أتى بهـا بعد تمام القصة اليوسفية ، لأن عادة القرآن المجيد هكذا ، إذ بينا تراه يتكلم في التاريـخ لا يلبث أن يخرج عنه إلى موضوع « التوحيد »وأدلته ، وبينا تراه يتكلم فيالشريعة لا يعتم أن يحكي عن« التوحيد » وآياته،وبينا تراه يتكلم عن محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، إذا هو ينتقل لذكر « التوحيد » ، الأمر الذي نفهم منه ، أن بيان « التوحيد » هو أهم شيء في نظر القرآن ومنزله والمنزل عليه ، ولا ريب أن الغرض الحقيقي من رسالة النبي ﷺ ، ونزول القرآن عليه هو رفض عبادة الأوثان والثالوث ،وهجر الاعتقاد بذلك ، والحرص على الاعتقاد بالوهية واحدة ، خلافاً للعرب ، وربوبية واحدة . خلافاً للنصارى ، كما أن القرآن يحرص جـد الحرص ،على الاعتقاد بيوم الدين ، والعمل بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب، ولعمري كأنّ النبي ﷺ كان يحس أن عقيدة العرب بالأوثان،وعقيدة النصارى بالثالوث ـ كأنها إبرة تنخسه في جسمه ، وتشكه في رأس قلبه ، فلذلك ولكون

ربه كان يسارع في هواه ، اعتنى القرآن المجيد كثيراً وكثيراً جداً ، بالطعن في تلك العقائد الوثنية الزائفة .

(ذلك من أَنباء الغيب نوحيه اليك)

— ٢ —

وقال الحاج محمد الصومطري [1] :

طرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والانبياء

« هذا القرآن العربي المكتوب في المصاحف ، المقروء بالألسنة باللغة العربية ، هو كلام الله تعالى المعجز للبشر ، وانه ليس لجبريل منه إلا تبليغه عن الله ، كما أن الرسول ﷺ ليس له منه إلا تبليغه ، فجبريل تلقاه من الله بالصفة التي تليق بـه تعالى ، ولا يعلمها من خلقه إلا جبريل ، ثم محمد ﷺ تلقـاه من جبريل بالوحي الذي لا يعرف كنهه إلا محمد وأمثاله من الأنبياء الذين تلقوا مثله عن جبريل ، ثم الصحابة سمعوه من النبي ، ثم سمعه منهم التابعون ومن تبعهم إلى عصرنا، وكما يسمعه بعضنا من بعض بأصواتنا البشرية .

وقد اخترع البشر في العصر الأخير ، وسائل لأداء الـكلام وتبليغه لم يكن يعرفها ولا يعقلها أهل العصور السابقة، كالتلغراف السلـكي واللاسلـكي والراديو والتلفون وكل منها مظهر من مظاهر الـكلام النفسي ووسائل ادائه ، ويسمى كلاماً حقيقياً لا مجازياً ، وينسب كل كلام إلى من صدر عنه ، وكان مجلى كلامه النفس ، فالجملة من كلام زيد من الناس يتناقلها الناس بألسنتهم وأقلامهم وبآلات التلغراف والتلفون والراديو وكل منهم يقول « إنها كلام زيد » ،ومن يرى في القرطاس : « قفا نبك من ذكرى

(١) نسبة الى جزيرة صومطرة في البلاد الاندونيسية .

حبيب ومنزل » يقول إن هذا كلام امرىء القيس ، ومن يسمع ذلك من لسان أي انسان يقول ذلك ؛ ولم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلق على الكعبة ، ثم كتب في الدفاتر وقرأه الناس : ان لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الراسم ، وأن الذي أنشد على الناس فيه هو كلام المنشد ، وأن معناه فقط لامريء القيس ، أو ان ما تمثل من هذا النظم في امريء القيس هو شعره ، وما نقرأه في الكتب أو من حفظنا لملقته هو كلامنا ، ولا أن هذا كلامه مجازا ، وذلك كلامه حقيقة ، بل أجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه ، وانه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها الا النقل لكلام غيرهم ؛

وإذا قدر البشر على تمثيل كلامهم النفسي بعدة مظاهر لا يختلف مدلولها عن مدلول ما في أنفسهم، فالله تعالى أقدر منهم على ابلاغ كلامه النفسي لرسله من الملائكة والناس ، بما يليق باستعداد كل منهم ، فلا غرو من أن يكون لوحيه للملائكة ، صفة غير صفة وحيه للرسل من البشر ، فيما يكلمهم به بغير واسطة الملك ، وأن يكون لما يسمعه النبي من الملك صفة غير صفة ما يسمعه الملك من الرب سبحانه وتعالى ، ولكن الكلام واحد في جميع مظاهره ، لا يختلف باختلاف طرق ادائه وتبليغه ، كما نعرفه في الكلام المسموع بالآذان والمقروء في الصحف والمأخوذ من آلة التلغراف السلكي أو الهوائي ، ومثله المرسوم في الهواء أو ماتكيف به الهواء، وبهذا المثال يظهر للمتأمل أن تجلي كلام الله تعالى في الألسنة والصحف والهواء وآلات التلغراف ، وفي اللوح المحفوظ وفي انفس الملائكة والبشر — لا يخرجه عن كونه كلامه تعالى ، ولا يقتضي أن تكون صفة الكلام النفسية له تبارك وتعالى ، مشابهة لصفة الكلام في أنفس البشر أو غيرهم من خلقه تعالى ، ولا أن يكون تكليمه للملائكة ولموسى ومحمد ﷺ كتكليم بعضنا لبعض ولكن مؤداه واحد ، فالذي نقرأه أو نكتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد

ﷺ فتلقاه عند بهذه اللغة العربية ، وهذا الأسلوب المعجز ، الذي يعجز عليه الصلاة والسلام كغيره من البشر عن مثله بمقتضى ملكته العربية » .

(عن مجلة المنار)

طبيعة اكثر الناس عدم الايمان

آ (١٠٣) ﴿ وما أَكْثَرُ الناسِ « وَلَوْ حَـ بمؤمـنين ﴾ .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وثلاثة ، فقام الهمام احمد اليافي وقال :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : إنني قد أطلعتك يا محمد على انباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، (و) مع هذا (ما اكثرالناس) عموم الناس ، أو أهل مكة خاصة ، (ولو حرصت بمؤمنين) حيث تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فأنت ولو استهلكت في سبيل ايمانهم ، واستقتلت في الحصول على تصديقهم إياك ، وطار قلبك شعاعاً على ذلك ، فالا كثرية هم جهنميون لا يؤمنون برسالتك ولا بالتوحيد ، لأن في قلوبهم مرضاً :

قال الشاعر :

ومن يك ذا فمٍ مرٍ مريض يجـــد مراً به الماءَ الزلالا

وقال البوصيري رحمه الله :

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمد وينكر الفم طعم المـاء من سقم

كما أن البدن إذا مرض ، لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ والارشادات .

وفيما يلي تعليقان على الآية:

تأسي الناصحين برسول الله ﷺ عند عدم افادة ارشادهم للناس

أولاً — هذا قول الله تعالى لرسوله، وهو أعلم المرسلين وأخلص المخلصين، في ارشاده ونصحه للخلق، فاذا كان هو كذلك، فليتأس به الناصحون، الذين تصدروا للارشاد بإخلاص، ولا يحزنوا من عدم إفادة إرشادهم لكثير من الناس. وليعلموا أن عدم النفع له سببان: فساد في الواعظ يصرف الموعوظ عن سماع مايقول، وفساد في الموعوظ يجعله غير مستعد للانتفاع بما يسمع، ولو جاءه جميع المرسلين.

المؤمنون أقل من الكافرين

ثانياً — مقتضى هذه الآية أن المؤمنين أقل من الكافرين، ولذلك شواهد:

١ً — قوله تعالى: ﴿قال: أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عليَّ، لَئِنْ أخَّرْتَنِ إلى يومِ القيامةِ، لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ — إلاّ قليلاً﴾ (١٧:٦٢) أي لاستأصلنهم بالاغواء — من احتنك الجرادُ الأرضَ إذا جرد ما عليها أكلاً، وأحنكَ الشاتين: أي أكلها جميعاً —.

٢ً — قال تعالى: ﴿وما كان أكثرُهُم مؤمنينَ﴾ كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسل لهم نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يعلم من سورة الشعراء.

٣ً — قال تعالى: ﴿فلمّا أحَسَّ عيسىٰ منهمُ الكفرَ، قالَ: مَنْ أَنصاري إلى اللهِ؟ ـ قال الحواريّون: نحنُ أنصارُ اللهِ، آمنّا باللهِ واشهَدْ بأنّا مُسْلِمون﴾ (٣ : ٥٢) والحواريون كانوا اثني عشر فقط، ارتد منهم «يهوذا الاسخريوطي»

فبقي أحد عشر ؛ فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الايمان ، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية، فالمسلمون اليوم يعدون (٣٦٠) مليوناً ، ولكن عدد المسيحيين اليوم (٤٢٠) مليوناً،وعدد الوثنيين(٥٠٠)مليوناً،وهؤلاءواولئك وان كانوا مؤمنين بالله إلٰهاً ، لكن النصارى آمنوا به إلٰهاً أباً ، وبالمسيح إلٰهاً ابناً وبالروح القدس إلٰها ناطقاً بالأنبياء ، قالوا : « والكل إلٰه واحد !!!... » ، وأما الوثنيون فأشركوا في الألوهية : أي العبادة ، دون الربوبية:أي الخالقية ،فالخالق عندهم رب واحد ولكن المعبود عندهم ، هو وغيره من الوسطاء .

(مرحى)

إخلاص النبي ﷺ في دعوته

آ (١٠٤) ﴿ وما تَسأَلُهُمْ عليهِ مِنْ أَجْرٍ ، إنْ هُوَ إلاَّ ذِكرٌ للعالَمِين ﴾

استمرت الجلسة منعقدة ثم تليت الآية المئة وأربعه ، فقام برهان الحق النابلسي وقال :

(وما تسألهم) يا محمد (عليه) على ما تحدثهم به وتذكرهم (من أجر) أي من جعالة ولا أجرة ولا جزاء ، أي لا تريد منهم منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار (إن هو) هذا الذي تحدثهم به (إلاّ ذكر) عظة من الله (للعالمين) عامة ، وحثّ على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ، يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

واليكم الملحوظات التالية :

تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن

الملحوظة (١) — تكرر ذكر هذا البحث في القرآن الكريم عشر مرات :

فاولاً — قال تعالى خطاباً لخاتم النبيين : ﴿ قلْ ما سألتُكم مِنْ أجْرٍ فهو لكم ، إنْ أجْريَ إلاّ على اللهِ ، وهو على كلِّ شيءٍ شَهيد ﴾ (٣٤ : ٤٧)

ثانياً — قال تعالى خطاباً لجنابه الأعظم: ﴿ قلْ ما أسألُكم عليه منْ أجْرٍ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ ، إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالَمين ﴾ (٣٨ : ٨٦).

ثالثاً — قال تعالى خطاباً لنور العالم ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجْراً ، إنْ هو إلاّ ذِكْرَى للعالَمين ﴾ (٦ : ٩٠).

رابعاً — قال تعالى خطاباً لسيد الأنبياء : ﴿ أم تسألُهم أجراً ، فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ ؟ ﴾ (٥٢ : ٤٠).

خامساً — قال تعالى خطاباً لفخر الانسانية: ﴿ قل لاأسألُكُم عليه أجراً، إلاّ المودةَ في القُربَى ﴾ (٤٢ : ٤٣) أي لكني إنما أقصد مودتي لقرباي ،فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البديع اللطيفة ، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح ، بتقدير دخولها في صفة الذم المنفيه كقوله تعالى : ﴿ لا يَسمَعونَ فيها لَغْواً ولا تأثيماً ، إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ (٥٦ : ٢٥ و ٢٦) وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهنّ فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

ولا عيب فيه غير أن خدوده　　بهنّ احمرار من عيون المُتَيَّم

والدليل على ما جرينا عليه في معنى هذه الآية ما نقلناه لك من الآيات الأربع

المخاطب بها سيد الـكائنات ،التي تنفي عنه طلب الأجر من الناس من أساسه ،بالمرة من كل وجوهه ، وخير ما فسرته بالوارد .

سادساً — وهكذا قال نوح:﴿ وماأسألُـكُم عليه مِنْ أجْرٍ ، إنْأجْرِيَ إلاّ علىرب العالمين ﴾(٢٦ : ١٠٩).

سابعاً — وهكذا قال هود : ﴿ يا قَوم ِ لا أسألُـكم عليه أجراً ، إنْ أجْرِيَ إلاّ على الذي فطَرَنِي ، أفلا تَعقِلون ؟ ﴾ (١١ : ٥١) .

ثامناً — وهكذا قال صالح : ﴿ وما أسألَـكم عليه من أجرٍ ، إنْ أجْرِيَ إلاّ على رب العالمين ﴾ (٢٦ : ١٦٤) .

تاسعاً — وهكذا قال شعيب : ﴿ وما أسألُـكم عليه من أجرٍ ،إنْ أجرِيَ إلاّ على ربِّ العالمين ﴾ (٢٦ : ١٨٠) .

عاشراً — وهكذا قال حبيب النجار :﴿ إتَّبِعُوا مَنْ لا يَسألُـكم أجْراً، وهم مُهتَدون ﴾ (٣٦ : ٢١) يعني بذلك رسل المسيح إلى أنطاكيه .

الاخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها

الملحوظة (٢) — هذه الآية تسير إلى اخلاص النبي ﷺ في دعوته ، إذ الغاية من « الدعوة » صلاح العالم ، وانتظام شئونه على منهاج السعادة ، فاذا وجّـه الداعي قصده إلى هذا الغرض ، بدون نظر إلى منفعة مادية ، بل ولا معنوية تعود عليه ، استقام على الطريقة ، وقضى حياته في سيرة راضية ، وكان كلامه مقبولاً جداً ، وإذا انحرف عن هـذا القصد ، ولو قِيدَ أنملة ، رأيته يضطرب في حال دعوته ، ويكون كالريشة تخفق بها الرياح ، أينما تصرفت ، وقد حكي التنزيل أن شعيباً (ع) قد برّأ نفسه ورفّعها عن أن تؤمّ غرضاً من« الدعوة » سوىالاصلاح قال : ﴿ إنْ أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استَطَعْتُ ﴾ (١١ : ٨٨) ، فتشوّف

« الداعي » إلى ما في أيدي القوم ، وتطلّعه إلى أن ينال من ورآء إرشاده شيئاً من هذه الحياة ، قادح في صدقه ، وداخل بالريبة في إخلاصه .

معنى « العالمين »

الملحوظة (٣) — كلمة « العالمين » جمع عالَـم وهم الناس كما يدل عليه استعمال القرآن ، في مثل : ﴿ لِيكون للعالَـمِين نـذيراً ﴾ (٢٥ : ١) وقول لوط : ﴿ أتأتون الذُّكرانَ مِنَ العالَـمِين ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦٥) أي النـاس ، فهو على هذا مشتق من العالم ، ولذلك جُمع جَمع مذكر سالم .

الفصل الثاني

تقريع الغافلين عن التفكر في آيات الله

آ (١٠٥) ﴿ وكأَيِّن مِنْ آيةٍ في السموات والأرضِ ، يَمُرُّونَ عليها ، وهم عنها مُعْرِضونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وخمسة فقام نعمة الله الجنيني [1] وقال :

يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات ، من كواكب زاهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات وغير متجاورات، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان وبنات ، وثمرات متشابهه ومختلفات ، في الطعوم

(١) نسبة الى جنين من بلاد فلسطين .

والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، فقال تعالى : (وكأيِّن) وكم (من آية) علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والأرض) مروا و (يمرون) وسيمرون (عليها) ويرون فيها العجب العاجب (وهم) أي الناس (عنها معرضون) مع أن الحقيقة بنت الفكرة والنظر بريد الصواب ، ولكن التفكير والتدبر عند هؤلاء ضائع، وهم انما يعيشون في الدنيا كالأنعام ، يأكلون ويشربون ولا يتفكرون ، مع أن هذه الآيات كثيرة، يُحصَى النمل ولا تُحصَى ، وتُستقصَى الحركات والسكنات ولا تُستقصَى ، قال أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر ... الى آثار ماصنع المليكُ
غصون من زبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال أبو العلاء المعري :

كل يسبح فافهم التقديس في ... صوت الغراب وفي صياح الجد جد(١)
أما المجاوز فارعة وتوقه ... واستعف ربك من جوار الملحد
ليس الذي جحد المليك وقد بدت ... آياته ، بأخ لمن لم يجحدِ

وكأي من آية ...

— ٢ —

وقام الشيخ المحقق اليماني وقال :

اسمحوا لي أيها السادة باسماعكم بضعة مواد على هذه الآية العظيمة :

تقريع الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية
الدالة على توحيد الإله

المادة (١) — قوله : « وكأي من آية . الخ » ـ أي لم يكن كل أمرهم أنهم

(١) الجد جد طوير قفاز يشبه الجراد ويقال له صرار الليل .

لم يستدلوا بما ذكر في (آ ١٠٢) من دليل النبوة، بل يعطف على هذا ويزاد عليه أنهم أضافوا الى عدم الاهتداء بدليل النبوة ، عدم الاهتداء بالآيات الكونية التي تهديهم وترشدهم الى توحيد الإله في الالوهية ، كما وحدوه في الربوبية ، أي فهم مع هذا الاعراض عن النظر في دليل النبوة ، معرضون عن الكثير من الآيات الكونية ، الدالة على أن الرب الواحد ، هو الحقيق بالألوهية وحده ، وأنه لايجوز أن يدعى غيره ، ولا أن يعبد سواه ، لأن الربوبية والألوهية متلازمتان ، فالآيات الدالة على أن الرب واحد ، دالة أيضاً على أنه هو الإله وحده ، ولولا اعراضهم عن النظر في ذلك ، والتأمل فيه عناداً من رؤسائهم ، وجموداً على التقليد من دهمائهم ، المانع من النظر والاستدلال ، لظهر لهم ظهوراً لايحتمل المراء ، ولايقبل الجدال ـ وأصل « الاعراض » التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه ـ .

تقريع اهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل ابصارهم وبصائرهم عما في الوجود من آيات

المادة (٢) ـــ هذه الآية الكريمة ، نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة ، كما أنها للناس عامـة ، وهي تقريع لمن عطلوا أبصارهم عن ادراك صحائف الوجود ، وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة ، وكم جاء في القرآن الكريم أقوال من هـذا القبيل كما في قوله تعالى : ﴿ لهم قلوبٌ لا يَفْقَهون بهـا ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصِرُون بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمَعون بها ، أُلئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ ، أُلَئِكَ هم الغافلون ﴾ (٦ : ١٧٨) .

النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله

المادة (٢) ـــ آيات الله التي في السموات والأرض كثيرة جداً ، فمنهـا نوع عتيق ، ومنها نوع جديد، فمن آيات الأرض من النوع العتيق أن النمل يرى الانسان

قاصده ، أو ماشياً قريباً منه ، ولا يترك عمله الذي هو فيه ، ولا يجفل ولا ينثني لذعر ، ولا يخاف من غدر،مع ان الانسان بالنسبة للنمل كالجبل ، ولو اننا تصورنا جبلاً يمشي على الأرض ، ويكاد يصادم الانسان ، لهلع إذا رآه ، ومات قبل أن يقرب منه ، فما ذاك إلا لان الله تعالى أودع في قلب النمل من الشجاعة والثبات على العمل ما لم يودعه في قلب الانسان ، وإن ذلك من أعظم آيات الله في أرضه ،

ومن آيات الأرض ، ثبوتها إذ لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض وذلك في قوله تعالى : ﴿ وألْقَى في الأرضِ رواسِيَ أنْ تَمِيدَ بكم ﴾ (١٦ : ١٥)،

ومنها ان كل شيء حي فهو من الماء،حتى الجماد فإن له حياة قائمة بماء «التبلور» وذلك في قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍ ﴾ (٢١ : ٣٠) .

ومنها ما كشفه علماء النبات من تلاقح النبات ، وأنه أزواج : أي ذكر وانثى والله تعالى يقول : ﴿ فأخْرَجْنا به أزْواجاً مِنْ نباتٍ شَتَّى ﴾ (٢٠ : ٥٣) ويقول : ﴿ ومِنْ كُلِ الثَمَراتِ جَعَلَ فيها زَوجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١٣ : ٣) ويقول: ﴿ ومَنْ كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوجَيْنِ لعلكم تَذَكَّرون ﴾ (٥١:٤٩)، ويقول : ﴿ سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها مما تُنْبِتُ الأرضُ ، ومن أنفُسِهِم ، ومما لا يَعْلَمون ﴾ (٣٦ : ٣٦) .

ومنها كون الرياح تلقح النبات ، بنقل أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات بعضها إلى بعضٍ فتثمر بالتلقيح ، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿ وأرسَلْنا الرياحَ لواقِحَ ﴾ (١٥ : ٢٢) ، ولما علم الافرنج بهذا قال بعض المطلعين على القرآن من المستشرقين وهو المستر « اجنيري » الانكليزي الذي كان معلم العربية في جامعة اكسفورد بانكلترة : « إن أصحاب الإبل ـ يعني العرب ـ قد عرفوا ان الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً » (نقل ذلك السيد محمد بيرم الخامس في مقدمة « صفوة الاعتبار ») .

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح ، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك إلا من القرآن الكريم .

ومن آيات الله تعالى عظمة « الشمس » وكوكب « الشعرى » بالنسبة إلى الأرض ، فان هذه الأرض إذا نحن قدرناها تقديراً نسبياً بحجم الحمصة ، تكون مساحة « الشمس » بالنسبة اليها كمساحة مائدة مستديرة ،طول قطرها ذراع فرنسية؟

ومساحة سطح كوكب « الشعرى » الذي قال الله فيه :﴿ وأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ (٥٣ : ٤٩) تبلغ مئه ذراع فرنسية ؟ بالقياس إلى تلك الحمصة .

ومن آيات الله تعالى ، أن جميع هذا العالم الشمسي يدور في الثانية الواحدة بسرعة عشرين الف ذراع فرنسية ، مجتازاً فضاء الله الذي لا نهاية له ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ والشمسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ (٣٦ : ٣٨) . فتأمل هذا التنكير في قوله : « لمستقر » فهو يشعرك أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية إلى نهاية محتومة ،فما الشمس بمؤلهة إذا كان لها استقرار ،بل هي محدثة فانية،ثم قوله « لها » هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية ، لأن المستقر غير مطلق ، بل هو « لها » .

ومن آيات الله تعالى « المجرّة » وهي سطح هائل في غاية العظم ، وهي محيطة بالسماء ، وتسبح فيها الوف من العوالم .

ومن آيات الله تعالى أن يمدد درجات الليل والنهار . واصباً ودائماً ، ثلاثمئة وستون ، كما ذكر ذلك علماء الميقات ، وقد أشير لذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) ، فان عدد « رفيع » بحساب الجُمَّل هو ما ذكر ؛

وهل سمعت « بحمام الزاجل » ؟ خذ حمامة من مُطيّرها ، واحملها إلى آخر حدود اقليم ما واطلقها ، فترجع إلى مُطيّرها، فما هي هذه الحاسة التي تدفع الحمامة إلى بيتها من مسافة الوف الاميال ؟ ليست حاسة السمع ولا النظر ، ولا شيء من الحواس الخمس ، هي حاسة لا نعرفها ، لأنها ليست فينا .

ومن آيات الله الباهرة، أن ما تأخذه الأرض مطراً وثلجاً تردّه بخاراً ، وذلك بحسب الاحصاء الأخير ١٦ مليون طن في الثانية وبيانه مذكور بالتفصيل في الكتب المختصة .

ومنها الطير كما قال تعالى : ﴿ أوَ لم يَرَوا إلى الطيرِ فوقَهم صافاتٍ ويَقبِضنَ ؟ ما يُمسِكُهُنَّ إلاّ الرحمنُ ، إنّه بكلّ شيءٍ بصيرٌ ﴾ (١٩:٦٧) فمن آيات توحيده وعجائب قدرته مايرونه في كل وقت وآن من تحليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستعلائها في طبقات الجو ، مع أنها أجسام ضخمة ، كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض ، ولكنه تعالى بباهر قدرته وعجيب صنعه وحكمته ، خالف في أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى ، لائقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعلي في الهواء من دون أن تسقط ، فمن فعل هذا ياترى ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟

حقاً إنه ما أمسكها إلا الرحمن الذي رحم هذه الحيوانات ، فيسّر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان ماحفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها ، ولا بدع ، فهو تعالى بكل شيء بصير ، يعطي كل شيء من خَلْقه القُوَى والسُنَن اللازمة له ، والمتوقف عليها ابقاؤه ، وقد اتفق العلماء على أن السبب في استمرار الطيور طائرة ، يرجع إلى تقعّر أجنحتها وتحدّبها ، وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في

طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكي أجنحة الطيور وأوضاعها ، ولعمري إن طيران الإنسان ، لهو من الآيات الحديثة العجيبة أيضاً كطيران الطير ، ولو كان الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى مسألة « الطيران » في جوّ السماء . لذكره القرآن الكريم ، لأهل ذاك العصر ، ولكن قبل اختراعه كيف يذكره لهم ، وهم لا يعرفونه ؟ وكيف يحيلهم على مجهول لهم قد ينكرونه ؟ ولعمر الحق إنه لا فرق بين طيران الطير ، وطيران الإنسان ، في أن كلاً منهما أثر من آثار قدرة الله وعجيب صنعه في خلقه ، « طار الطائر » بقوى ونواميس مودعة في تركيب جسمه ، وهي من الله ، و « طار الإنسان » بقوى عقله وعلمه وملاحظته وصبره وثباته وشجاعته ، ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه هي من صنع طيارته ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلهنا ، وإنما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمنا بالله وما أنزل الينا من عند الله !!!...(١)

ومن آياتنا نحن أهل اليوم ــ النظارات المقربة ، التي هي عبارة عن عدسيات بللورية ، ضمن انبوب طويل ، بها نرى النجوم البعيدة عنا مليارات من الأميال كأنها قريبة منا جداً .

ومنها ان قليلاً من المياه الغالية في مرجل ، تستطيع جر قطار ضخم ، بقوة لا يستطيعها جواد ولا مئة جواد .

ومنها أن مواد كيماوية في وعاء يمتد منه شريط نحاسي، وهو ما يسمى « تلغرافاً » يجعلنا نتخاطب مع أقاصي الأرض إلى أقاصيها كأننا واقفون بعضنا إزاء بعض ،

---

(١) الكلام لمعاصرنا الاخ الشيخ عبد القادر المغربي .

ومن آيات الله تعالى، طريقة التصوير الضوئي «فوتوغراف» بامساك الظل، وهي مذكورة في آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ الى رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظِّلَّ ؟ ولو شاء لجعَلَهُ ساكِناً .. ، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلا ..﴾ (٢٥ : ٤٥) فتأمل قوله ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ فان هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر كائن لامحالة .

ومن آيات الله تعالى ، ما اكتشفه العلماء من أن مادة الكون هي « الأثير »، والله تعالى يقول في بدء الخليقة : ﴿ ثم استوى الى السماءِ وهي دُخانٌ ﴾ (٤١ : ١١).

ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي ، والله تعالى يقول في السموات والأرض : ﴿ كانتا رتْقاً ، فَفَتَقْناهما ﴾ (٢١:٣٠).

ومنها المذياع « الراديو » الذي ينقل الصوت والغنة الى مئات الأميال .

ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون

المادة (٣) ــ هذه الآية الكريمة تنعي على الناس أنهم لا يستعملون ما عندهم من العلم والمعرفة التي وهبهم الله تعالى ، فلهذه الآية وأشباهها أثر كبير في الحياة العقلية وإثارة العقل الى النظر لما في العالم من الظواهر، قال تعالى : ﴿ أو لم يَنْظُرُوا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ ، وما خَلَقَ اللهُ من شيءٍ ﴾ (٧ : ١٨٤) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرْ الإنسانُ مِمّ خُلِقَ ؟ ﴾ (٨٦ : ٥) وقال :﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ الى طعامِهِ ، أنّا صَبَبْنا الماءَ صبّاً ، ثم شَقَقْنا الأرضَ شقّاً ، فأنبَتْنا فيها حَبّاً ، وعِنَباً وقَضْباً وزَيْتُوناً وَنخْلاً ، وحَدائِقَ غُلْباً ، وفاكهةً وأبّاً ، مَتاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٨٠:٢٤ــ٣٢) ، وقال تعالى: نّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ

الذين يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقعوداً وعلى جنُوبِهم ، ويتَفكرون في خَلْقِ السموات والأرضِ : رَبَّنا ماخلقتَ هـذا باطِلاً ، سبحانَكَ ﴾ (٣:١٩١) وقال تعالى : ﴿ ومِنْ آياتهِ خَلْقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسِنَتِكم وألوانِكمْ ﴾ (٣٠:٢٢) إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا الضرب من الآيات بعث العقلَ على النظر في الكون ، وكان له أثر في نمو الحياة العقلية .

فالله تعالى لايريد أن يكون الناس منقادين في عقائدهم ، والاعتراف بوجود الصانع ووحدانيته انقياداً أعمى ، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكر في آيات الكون ، قال : ﴿ أفلَمْ يَسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلونَ بها ، أو آذانٌ يَسمَعونَ بها ﴾ (٢٢:٤٦)

العقل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى وكل من لم يستعمل عقله ، فكأنما رفض نعمة هذا المنعم ، ولنضرب لكم مثلاً : إذا أعطانا صديق هدية ولم نستعملها ونستفد منها ، بل رميناها ، فاننا نهين صديقنا بهذه المعاملة ، فالصديق رمز عن الله تعالى ، والهدية هي العقل ، وطرحنا لهديته ظاهر بعدم استعمال عقولنا ، والاعتقاد بأمور تنافي العقل ، دليل عدم تحكيم عقولنا فيما نعتقد ، وعدم استعمال عقولنا فيما يجب أن نعرف ونعتقد ، إهانة كبرى نصنعها مع من قدم لنا هذه الهدية ، إذا كان باستطاعتنا إهانته ، ولكن لانستطيع أن نهينه تعالى جل وعلا .

التوحيد في الربوبية والاشراك في الالوهية

آ (١٠٦) ﴿ وما يؤمنُ أكثرُهُم بالله الا وهُم مُشركون ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وستة ، فقام الشيخ مأمون من علماء القنفذة (١) وقال :

قال تعالى مخاطباً سيدالرسل (ومايؤمن أكثرهم) أي أكثرالناس أو أكثر

(١) القنفذة من بلاد الجزيرة العربية

أهل مكة ، في إقرارهم بالله وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض ، (إلاّ وهم مشركون) مع عبادة الله عبادة الوثن — لأن أكثر العرب من أهل مكة كانوا يؤمنون بالله ويعترفون به رباً خالقاً ، لكنهم مع الأسف كانوا يشركون في عبادة الوثن ، فهم موحدون في الربوبية ، مشركون في الألوهية ، تعرف منهم وتنكر .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ١ —

ثم تابع الشيخ مأمون كلامه قائلاً :

متى يعبر القرآن بلفظ « الأكثر » و « الكثير »

لقد عبر القرآن « بالأكثر » في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم ﴾ لأنه كان يوجد في أهل مكة من يؤمن بالله ، وليس فيه شيء من الشرك ، وذلك « كأمية بن ابي الصلت » و « ورقة بن نوفل » و « قس بن ساعدة » وغيرهم من الحنفاء ، وأيضاً فالمعروف من طبيعة البشر من أهل كل دين أنهم على ثلاثة أقسام : قسم يميلون الى الغلو والتشدد في الدين ، وآخرون معتدلون ، وقسم ثالث متساهلون يميلون الى الفسوق والعصيان ؛ والقرآن لم يحكم على أمة بمثل : ضلال ، فسق ، هدى ، إيمان ، بنص عام يستغرق جميع الأفراد ، بل تارة يعبر «بالكثير» ، وتارة يعبر « بالأكثر» كما هنا ، واذا أطلق أداة العموم يستثني ، كما قال في بني اسرائيل : ﴿ ثمّ تولّيتُم إلاّ قليلاً منكم وأنتم مُعرِضُون ﴾ (٢ : ٨٣) ، وقوله فيهم : ﴿ فلا تؤمِنون إلا قليلاً ﴾ (٤ : ٤٥) ، أو يحكم على البعض ابتداء كما في قوله : ﴿ ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إنْ تأمَنْهُ بقنطارٍ ، يُؤَدّهِ إليك ، ومنهم مَنْ إنْ تأمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ ﴾ (٣ : ٧٥) ، وقال تعالى فيهم : ﴿ ومن قوم موسى أمـــةٌ يَهدونَ بالحقّ وبهِ يَعدِلون ﴾ (٧ : ١٥٩) ، وقال فيهـم وفي النصارى: ﴿ منهم أمّةٌ مُقتَصِدَةٌ ، وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعمَلون ﴾ (٥: ٦٦) ، فقد أثبت لبعضهم

عدم التولي ، ثم أثبت للبعض الإيمان ، ثم للبعض الأمانة ، ثم للبعض الهداية بالحق والعدل ، ثم للبعض الاقتصاد — أي الاعتدال في الدين — وقال تعالى : ﴿لكِنِ الراسِخون في العلمِ منهموالمؤمِنون ، يُؤمِنونبما أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٤:١٦١) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الإيمان المخلصين الذين يتحرون الحق ، هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم ، فالقرآن يعلمنا أنه مامن أهل دينإلا وفيهم الغث والسمين ، فيهم الفاسق والمتشددوالمعتدل؛ ولكن المفسّر المتشيع لأمته ، الذي لم يختبر غيرها ، ولم يكن عارفاً بطبائع الملل ، وحقائق الاجتماع البشري ، لايكاد يتصور أن الإيمان والاخلاص والتقوى توجد عند غير أهل ملته ، فهو يطبق الآيات على اختباره واعتقاده .

القرآن يبين ما عليه الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال

وجملة القول إن القرآن يبين حقائق ماعليه الأمم ، في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم ، وان الدقة التي نراها في تحرّيه الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ولا غيره مما يسمى بالأسفار المقدسة، فاذا جمعنا ماحكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر والبدع عليهم ، في عصر ظهور الاسلام ، لما انتشر الاسلام ذلك الانتشار السريع .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ٢ —

كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الالوهية:

وقام السيد الحضرمي من علماء حضرموت وقال :

سبق لأخي الشيخ مأمون أن قال في مقدمة الكلام على تفسير مجمل الآية أنه

المراد بكلمة « أكثرهم » أكثر الناس أو أكثر أهل مكة ، على أني أرى أنها تصدق على كثير من مسلمي أهل اليوم المعدودين من الموحدين « اسماً »و«جغرافياً» أو بحسب « هوياتهم » و « سجل نفوسهم » فترى الكثير منهم يسجدون لبعض الأولياء أو لأضرحة الأنبياء ، يرجون الله ويرجون بعض الأنبياء أو الأولياء ! ! يقدمون نذورهم لله ولسواه ! ! يحلفون بالله وبغيره، يدعون الله وسواه !!وكثيراً مانسمعهم يهجرون الله مقتصرين على ماعداه !!

فيقولون : الله ياسيد ، الله يابدوى ، الله والسيد البدوي ، الله ياامام ، الله والامام عليّ ، الله ياسيد عبد السلام ، الله والنبي ، الله يانبيّ ، الله ياحسين ، في حفظ الله والسيد ، في حفظ الله والنبي ، هذا نذر لله وللنبي ، لله عليّ نذر ولك ياسيدي عبد السلام إن صار كذاوكذا ، هذا نذر لله وللسيد البدوي ، أُقسم بالله وبسيدنا الحسين ،بالله العظيم وبالامام علي، وحياة السيدة زينب ، وحياء اللهوالنبي، وحياة الباز والله .

وأما الذين يهجرون الله مقتصرين على ماسواه فيقولوم :

يا سيد ، يا بدوي ،يا إمام ، يا سيدي عبد السلام،يا نبي ، يا باز ، هذا الخروف للسيد البدوي ، وهذا الجدى لسيدي الدسوقي ، وهذا العجل لسيدي عبدالسلام، وهذا الكبش للسيدة زينب .. والخ، ولك يا سيدي يا بدوي عليّ خروف إن شفي ولدي ، ولك يا ستي نفيسة خروف إن رجع ولدي بالسلامة ؛ ثم يقولون : وحياة سيدنا هاشم ، وحياة سيدنا الحسين ، وحق الامام عليّ ، وحياة السيد البدوي ، وحياة عبد القادر الجيلاني،وحياة الباز ، إلى آخر ما هو أكثر من الجهلاء المتعالمين وأزيد من أهل الحشو والجمود في الدين .

وعلى ذلك ترى أكثر الناس اليوم لا يذكرون الله إلا ذكراً مصحوباً بالوثنية والالحادويحرصون على سوآل الأنبياء والأولياء وأشباه الأولياء،والاستعانة بشفعائهم حرص البخيل على درهمه ولو زائفاً ، والجبان على دمه ولو فاسداً .

كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على اكثرية المسلمين

هذا وان في القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على المسلمين ، ولكن (مع الاسف) وجد فينا من حشويي العلماء من طمس هذه الحقيقة ، وجعل كل ما ينكره القرآن هو منزل على غير المسلم ، وأما المسلم فلا يصيبه منه أدنى غبار ، ولا أصغر شرار ، ولو كان المسلم متلبساً بكل ما أنكره كتاب الله ، كما بالعكس جعل كل ما يحمده القرآن خاصاً بالمسلم ، ولو كان غير متلبس بشيء من تلك المحامد ، فكأن القرآن مجموعة قصائد شتى ، فما كان فيه من قبيل المدح ، فما كأنه إلا قصائد مدائح نظمت لتقريظ من حاز لقب « مسلم » سواء كانت أعماله حسنة أو قبيحة ، وما كان فيه من قبيل الطعن ، فما كأنه إلا قصائد ذم دبجت لهجو جماعة اسمهم « غير المسلمين » سواء كانت أعمالهم صالحة أو طالحة . وبهذا حصل تنفير قارئي القرآن غير المسلمين من الاسلام ، كما حصل للمسلم غرور وخدعة ، ووقعت الحيلولة بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . (لافض فوك)

(إلا وهم مشركون ...)

— ١ —

وقال العلامة المغربي [١] :

أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال

الشرك ثلاثة أنواع : (١) الشرك في الربوبية (٢) الشرك في الألوهية وهو الشرك الأعظم (٣) النفاق أو الرياء وهو الشرك الأصغر

---

(١) نسبة الى بلاد المغرب العربي

(١) أما الشرك في الربوبية فهو أن يعتقد أن مع الله رباً آخر يشاركه في الخلق والرزق وتدبير الكون ، وهذا النوع ليس مقصوداً في الآية ، بل هو قليل جداً في عرب مكة وفي مشركي العرب قبل الاسلام وفي أيام خاتم النبيين ، لأنهم كانوا مؤمنين بوجود الصانع ، وبأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ولكنهم كانوا مشركين باتخاذ الشفعاء والتقرب إلى الوسائط من المقربين وتسويتهم برب العالمين ، في التعظيم والتوجه بالدعاء والالتجاء .

(٢) والشرك في الألوهية ، ويقال له الشرك الأعظم ، فهو أن يقدم فرداً من أفراد العبادة لغير الله ، وذلك كالسجود والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والسوآل والنذر ، وما إلى ذلك مما لا ينبغي شرعاً تقديمه لغير الله ، وعلى هذا النوع تحمل الآية الكريمة التي نحن بصددها ، ولهذا النوع مظاهر في كلام العرب، فكان يظهر منهم في التلبية ، إذ جاء في الصحيحين ان المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وفي صحيح مسلم انهم إذا قالوا :[« لبيك لا شريك لك ». قال رسول الله ﷺ: « قَدْ ، قَدْ » أي حَسْبُ حَسْبُ ، لا تزيدوا على هذا] .

وكان يظهر منهم في الدعاء حين يدعون في الرخآء بعد ما كانوا وقت البلاء موحدين ، قال تعالى : ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعُوا اللهَ مُخلِصين له الدِّينَ، فلما نجَّاهم إلى البرِّ إذا هُمْ يُشرِكون ﴾ (٢٩ : ٦٥) .

واليوم يظهر من جهلة المسلمين في الدعاء مطلقاً ،في حيني البلآء والرخاء ،فتراهم وهم في البر لا يخشون شيئاً ، يقولون : يا محمد،يا سيد يا بدوي ، يا خضر أباالعباس، يا سروجي ، يا عبد القادر الكيلاني ، يا إمام عليّ ، كما تراهم وقد جاءتهم ريح عاصف : ﴿ وجاءَهُم الموْجُ مِنْ كلِ مكانٍ وظَنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعُوا اللهَ مُخلِصينَ له الدينَ:لَئِنْ انجَيْتَنَا من هذه لَنَكونَنَّ مِنَ الشاكرين،

فلما أنجاهم إذا هم يَبغُون في الأرض بغير الحقّ ﴾ (١٠ : ٢٢) وبهذا تعلم ان مشركي هذه الأيام ، شر مكاناً من مشركي الأيام القديمة ، فالمشركون القدماء كانوا إذا تضايقوا في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، ولكن مشركي اليوم لا يدعون الله في هذا الحال مخلصين له الدين ، بل نسمعهم يقولون : يا سيد يا بدوي ، وآخر يصرخ : يا نبي الله ، وقوم ينادون : يا عبد السلام الاسمر ، وآخرون : ياحسين ، وغيرهم : يا دسوقي .. الخ الخ مما لا يحصى ولا يستقصى كل قوم لهم من يصرخون له ويلجأون اليه ؛

وقد يظهر الشرك الأكبر في بعض الاعمال الوثنية ، فإن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت : « دخل عبد الله فجلس إلى جانبي فرآى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ ـ قالت قلت خيط رُقِيَ لي فيه ـ فأخذه فقطعه ، ثم قال : إنّ آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرُقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد ، وفي لفظ لهما « الطيرة شرك » [١] .

(٣) وأما النوع الثالث من الشرك ، وهو النفاق أو الرياء ، ويقال له الشرك الأصغر ، وهو حين يعمل الانسان رياء الناس، فهو مشرك بعمله ذلك ، قال تعالى: ﴿ إنّ المنافقينَ يُخادِعونَ اللهَ ، وهو خادِعُهم ، واذا قاموا إلى الصلاةِ ، قاموا كُسالى ، يُراؤُنَ الناسَ ، ولا يَذكرونَ اللهَ إلاّ قليلاً ﴾ (٤ : ١٤١) ، وفي الحديث : ﴿ يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه ﴾ رواه مسلم ، وروى أحمد : « إنّ أخوف ما أخاف عليكم ، الشرك الأصغر ، ـ قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ ـ قال : الرياء » .

(١) الرقى جمع رقية ، وهي العوذة مع النفث .
والتمائم جمع تميمة ، وهي الخرزة تنظم في الخيط ويربط في العنق .
والتولة كهمزة وعتبة خرز ايضاً يعلق على المرأة لكي يحبها زوجها .
والطيرة كعنبة وكسيرة ما يتشاءم به من الفأل الرديء .

(إلاّ وهم مشركون)

— ٢ —

وبعد أن انتهى العلامة المغربي من بيان أنواع الشرك أضاف قائلاً ليسمح لي السادة الأفاضل أن اعلق على قوله تعالى (إلاّ وهم مشركون) بالتعليقات التالية :

الفرق بين الجاحد لوجود الله وبين المشرك

(١) — يوجد فرق كبير بين الجاحد النافي لوجود الاله، كالطبيعي والمادي والدهري ، وبين المشرك ؛ لأن الأول نافٍ للاله بتة ؛ وأما الثاني فهو مثبت ، يعتقد أن الله موجود وأنه هو الخالق ، يشرك معه غيره في العبادة فقط والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السموات والأرضَ ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرْ ؟ لَيَقُولُنَّ الله ، فأَنَّى يُؤفَكُونَ ؟.. ولَئِنْ سأَلْتَهُمْ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعدَ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قلْ الحمدُ للهِ ، بل أكثَرُهم لا يعقِلونَ ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣). وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سألتهمْ : من خلقَهُم ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فأنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ (٤٣ : ٨٧) وقوله جل شأنه : « قلْ مَنْ يَرْزُقكُم مِنَ السماءِ والأرضِ ؟ أمْ مَنْ يملكُ السَّمْعَ والأبصارَ ؟ ومن يخرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ ، ويخرجُ الميتَ مِنَ الحي ؟ ومَنْ يُدَبِرُ الأمرَ ؟ فسيقولونَ اللهُ ؛ فقل أفلا ؛ تعقِلونَ ﴾ (١٠ : ٣١) وما الى ذلك من الآيات الكثيرة التي تنطق بأن وثنيي العرب في الحجـــاز ما كانوا مشركين شيئاً في الربوبية ، ولكن كانوا مشركين في الألوهية ، فكانوا يسجدون لغير الله ، ويرجون ويخافون ويسألون ويدعون أوثانهم ، ويستغيثون بآلهتهم ، ويحلفون بها وينذرون لها ، ويتكلون عليها ، وكل ذلك عبادة لغير الله ، فاذاً قد اتخذوا الهم إلهاً غير الله ، وهم مأمورون أن يشهدوا : (أن لا إله « أي لا معبود بحق » إلا الله).

تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية

(٢)ـ قوله تعالى :«إلا ّوهم مشركون» يعني بهم أهل مكة إذ كانوا يقدمون لأصنامهم النذور ، ويحلفون بها ، ويسجدون ويركعون أمامها ويدعونها ، الى غير ذلك من أنواع العبادات ، وكان هذا مع ايمانهم بالله ، أي بوجوده ووحدته في الربوبية وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، القائم بتدبير هذا العالم، وهذاالنوع من الشرك قد نشأ في أمتنا ، فبنينا للاولياء الهياكل والاضرحة في مساجدنا ، ودعوناها مع التعظيم والتذلل ، وسجدنا وركعنا لها ، ونقول اننا لم نقصد بذلك العبادة ، يعني اننا لا نسمي هذه الاعمال عبادة ، بل ننتحل لهااسما آخر . فنقول انها «استشفاع» وهذه جناية على اللغة ، تضم الى الجناية على الدين .

الاصل في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق

(٣) ـ الأصل في النصارى هو التوحيد ، فما كانوا ليؤمنوا إلا ّ بالله وحده ، كما قال المسيح عليه السلام:« وهذه هي الحياةُ الابديةُ ، أنْ يعرفوك أنتَ الإلـه الحقيقي وحدك ، ويسوعَ المسيح الذي أرسلته » (يو ١٧ : ٣٠) ولكن الشرك طرأ لهم في الربع الاول من الجيل الرابع ، فصاروا يعتقدون بالله أباً إلـهاً قديماً، وبالمسيح ابناً متولداً من الآب ، وهو إلـه قديم من إلـه قديم ، ويؤمنون بالروح القدس ، إلـهاً متولداً من الآب والابن ، ومجموع الثلاثـة إلـه واحد ، هـذا هو ثالوثهم الأقدس ، وهذا ما رتبوه أيام الملك قسطنطين الوثني ، وخلـفه من ملوك الرومان ، وهو طور جديد لم يعرفه المسيح وحواريوه عليهم السلام ، وتشكيل لدينهم بشكل من أشكال وثنيتهم السابقة،مؤلف من تقاليد وثني الهندوس والصين والمصريين والأوربيين القدماء ، كما بين ذلك علماء اوربا الأحرار .

هـذا وإن من المعلوم أن الله تعالى أرسل قبل المسيح عيسى رسلاً بشرائـع

مخصوصة ، تخص من بينهم موسى ، لوجود بقية من اتباعه ، ولاعتراف المسيح عيسى بناموسه ، وإقراره بشريعته ، وانه جاء مكملاً لها فقط ، ولو سألنا قومه اليهود عن أصل شريعتهم ، وعن اعتقادهم في الله ، المبني على دعوة موسى ، لأجابوا بالتوحيد المطلق ، المجرد عن التثليث والأقانيم ، أخذاً من كتبهم ، فههنا نقول : هل هذه هي دعوة موسى؟ وانها كانت للتوحيد المطلق ، أو أن قومه غيروها بعدما كانت بالتثليث ؟ لا شك أنهم سيقولون بالأول،أي إن دعوة موسى كانت للتوحيد، وعليه نقول: هل كان موسى يجهل ما يجب اعتقاده في مولاه،الذي أرسله واصطفاه؟ أو كان يكذب على قومه ، فيدعوهم إلى أن الله واحد فقط ، وهو يعلم انه ثلاثة في في واحد ، أو واحد في ثلاثة أقانيم ، أو كان يستعمل التورية في أساس الرسالة ، إذ معرفة الله أصل كل دين ، وأساس كل رسالة وشريعة سماوية ؟؟ سيقولون إنه كان يعلم أنه واحد في ثلاثة (أي يعلم التثليث) ولكن لم يؤمر بتبليغه ، لأن الشرائع تأتي على قدر العقول ، فنقول لهم : إن المعهود في تاريخ البشر ، هو ميلهم إلى الوثنية والتعدد ، وهؤلاء قدماء المصريين والأشوريين والكلدانيين واليونان والهنود ـ كان تعدد الآلهة ، معروفاً بينهم وآخذاً حده ، فلو أتى موسى قومه ، ودعاهم على قدر العقول ، لكان الأليق به أن يدعوهم إلى التثليث ، ويقلل تعدد الآلهة نوعاً ما ، خصوصاً وقد كان ظهوره ، في مدة مجد المصريين ، وتعدد الآلهة عندهم أشهر من أن يذكر . فهذا قول لا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إن قضية التثليث غير معقولة، فيجب الايمان بها اتباعاً للوحي، نقول: فلم لم يدع اليها موسى والانبياء ، ما دام لا يشترط فيها العقل ولا الاستعداد ؟

الاعتقاد بقدرة الاولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله

(٤)ـ يدعي البعض أو يعتقد ان الاولياء والصالحين في قبورهم يضرون وينفعون ، ويحيون ويميتون ويعطون ويمنعون ، وانه يتوسل الى الله تعالى بذواتهم

ويدعى تعالى بواسطتهم ، لا وحده ، وهو شرك محض . إذ لا نافع ولا ضار الا الله ، وانه لا يتوسل اليه تعالى إلا بما شرعه لعباده في كتابه ، وعلى لسان رسوله من الفرائض والسنن ، وانه لاسبب لقضاء الحاجات ، وجلب المانع ودفع الضار إلا ماهدى الله الناس اليه من سننه المطردة في خلقه ، كما انه لا فاعل الا الله ،ولا يدعى معه أحد سواه ، وان التوسل بالاولياء والصالحين ، انما يصح بمعنى الاهتداء بهديهم المبين ، ولله أن يكرم من عباده من شاء، ولكن لا يصح ان تكون الكرامات والخوارق ، كصنعة من الصناعات ، في أيدي الأولياء ، والحق انه ليس لهم من الامر شيء ، وانه لايكلف مؤمن ان يعتقد بولي مخصوص ، ولا بكرامة لولي معين مطلقاً ،ولكن على المؤمن أن يعتقد بانه يوجد أولياء وتوجد لهم كرامات ..

ويقولون بأن للاولياء « ديواناً » يجتمع فيه الاحياء والميتون منهم ، فما أقروا عليه ، فهو الذي يقع في الكون ـ فنقول: اذا كان اولياء المسلمين وانصار الدين ،هم المتصرفون في الاكوان ، لايجري فيها الا مايجرونه ، ولا يستقر الا مايقررونه فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين ؟ وما بال الاسلام يخذل الآن ، باتفاق الاحياء منهم والاموات ؟؟؟

فضل الله على عباده واقسامه

(٥)ـ« يعتقد البعض أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة ، التي منها السر والمدد ، ويقولون كما أن الغني يعطي الفقير شيئاً من رزقه المادي ، فلا مانع أن يمده بشيء من رزقه المعنوي » ، غير أن الحقيقة هي أن فضل الله على عباده قسمان : قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه ، وقسم ليس في استطاعة البشر بذله أو البذل منه ، كالايمان والمعارف الوجدانية، ومنها مايسميه الصوفية « بالأسرار » فانهم قالوا : انها أمور ذوقية ، لايعرفها إلا من ذاقها . فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب .

تحريم سؤال الاولياء ذوي الاضرحة شيئاً مادياً او معنوياً

(٦)ـ هذا ولا يصح أن نسأل الاولياء أصحاب الاضرحة شيئاً ما ، لاماديا ولا معنويا ؟ إذ كيف نسألهم ماقطعه الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها ، ومالا يبذل من ذلك بحسب الاسباب والسنن الإلهية ، وما يبذل ؟ فيطلبون منهم المال. وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى ، والانتقام من الاعداء ؟ وكيف يجوز أن ندعو ممن كان بالأمس في نعشه ، والمصلون واقفون يدعون له ، يشهدون له بالاسلام ، ويقولون : « اللهم ان كان مسيئاً ، فتجاوز عنه ولفه برحمتك رضاك ، حتى تبعثه آمناً برحمتك ياأرحم الراحمين » . فكل مسلم من أبي بكر الصديق الى اليوم ، يدعى له يوم يموت ويصلى عليه بهذا الدعاء ونحوه فهل يعقل أن يدعى للميت بالامس يوم موته ، ولكنه متى قبر تدعوه النـــاس أو يدعوه من دعا له قبل ساعة ؟ !

هذا ولم يرد في كتاب الله تعالى ، ولافي سنة رسوله ﷺ ولا نقل عن ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة ، ولا نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفيين مايدعيه بعض المشايخ من أنسيدي فلانامن الصالحين .وسيدي فلاناً من الاولياء ، هم أصحاب سر ومدد ، و ن تلامذتهم في حياتهم ، وأتباعهم بعد مماتهم ، يتوسلون بهم الى الله تعالى ، ويطلبون منهم المدد والسر ، كما نرى ذلك في كتبهم ، ولم يكلفنا الله باتباعهم بل باتباع كتابه وسنة نبيه ، وهدى أصحاب نبيه ، الذين أخذوا الدين عنه مباشرة ، وكانوا به خير العاملين ، وبسيرة السلف الصالح لأنهم أعلم الناس بها .

وأما كلام الصوفية المتأخرين ، فقد صرحوا بأنهرموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها ، الذين سلكوا هذه الطريقة الى نهايتهـــا ، وهم صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضلّ . وقد قال الشعراني في بعض كتبه :« أنهسأل شيخه الخواص:

لماذا يطلب من الناس تأويل كلام الأنبياء إذا خالف ظاهر الشرع ، ولم يطلب منهم تأويل كلام الأولياء ؟ فأجابه : لأن الأنبياء معصومون ، فيجب حمل كلامهم على الصحة دائماً والأولياء ليسوا بمعصومين ، فيجوز أن يكونوا فيما خالفوا فيه مخطئين » .

التوسل بجاه الانبياء والاولياء

(٧)ـ لسائل أن يسأل : ألا يجوز أن نضيف كلمة «جاه» الى الانبياء والأولياء عند التوسل بهم ؟ والجاه هو القدر والمنزلة ، وكل واحد من الأنبياء ، له قدر ومنزلة عند ربه ، قال تعالى في موسى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ (٣٣ : ٦٩). وقال في عيسى : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴾. (٣ : ٤٥) وقال تعالى :(واتخذ الله ابراهيم خليلاً) (٤ : ١٢٤) وغني عن البيان ان من اصطفاه الله للخلة، لا بد أن يكون وجيهاً في نظره ، وإلا لم يكن فيه أهلية للخلة ؟

فنقول في جوابه : المفهوم العرفي للفظ (الجاه هو السلطة ، وان شئت قلت : نفوذ الكلمة ، يقال : فلان اغتصب مال فلان بجاهه ، ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجـــاه لدى الامير او الوزير مثلا ، فزعم زاعم ان لفلان جاهاً عند الله بهذا المعنى اشراك جلي "لا خفي" ، وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي ، وهو المنزلة والقدر ، والتوسل بلفظ الجاه ، مبتدع بعد القرون الثلاثة من الهجرة ، وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول والسلف الصالح ، وأما ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٣٣ : ٦٩) فليس معناه ، انه وجيه عليه ، وانما معناه انه وجيه عنده ، وفرق كبير بين قولك (فلان وجيه علي وفلان وجيه عندي ، فالوجاهة الاولى معناها السلطة والنفوذ ، والوجاهة الثانية معناها انه في حكم الله ذو قدر ومنزلة .

الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره

وقد يحتج البعض على جواز التوسل بمارواه الترمذي بسنده الى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : (إن رجلا ضرير البصر ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعُ الله ان يعافيني — فقال : إنْ شِئْتَ دعوتُ ، وان شِئْتَ صَبَرْتَ ، فهو خير لك — قال : فادعه ، — فأمره أن يتوضأفيحسن الوضوء، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك واتوجه اليك ، بنبيك محمد ، نبي الرحمة ؛ إني توجهت بك الى ربي ، ليقضي لي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه فيّ » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب) ، فنقول أولا : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو مارواه واحد ، والمسألة داخلة في باب العقائد ، لا في باب الأعمال، ذلك ان الأمر فيها ، يرجع الى سؤال صورته : هل يجوز أن نعتقد أن واحداً سوى الله ، يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجاتنا ، أولا يجوز ؟ والكتاب صريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم في قوله تعالى : ﴿ ويَعبدونَ من دون الله مالا يَضُرُّهم ولا يَنفَعُهم ، ويقولون هؤلاء شُفَعاؤنا عندَ الله ﴾ (١٠ : ١٨) ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة: ﴿ واياكَ نَستَعينُ ﴾ (١ : ٤) ، فلا استعانة إلا به ، وقد صرّح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من الله نفعاً ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساساً الرسالة المحمدية ، ونحن لا يمكننا أن نتخذ حديثاً من أحاديث الآحاد ، دليلا على العقيدة ، مهما قوى سنده ، فان المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد الا الظن ، ﴿ إنَّ الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ (١٠ : ٣٦) وفي الختام نذكر قوله تعالى : ﴿ واذا سألَكَ عِبادي عَنّي ، فإني قريبٌ ، أجيبُ دعوةَ الداع إذا دَعان ﴾ (٢ : ١٨٦) وقال الشيخ محي الدين بن العربي ، شيخ الصوفية في صحيفة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته ، عندالكلام

على هذه الآية : « ان الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل لله الحجة البالغة ، فلا يتوسل اليه بغيره ، فان التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وقد أخبرنا الله انه قريب وخبره صدق » .

واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى

(٩) — ان واجب الوجود — وهو الله تعالى — واحد ، وهذا هو توحيد الربوبية ، وكذا مستحق العبادة — وهو الله سبحانه — واحد ، وهـذا هو توحيد الألوهية ؛

فالمستحق للعبادة هو واجب الوجود ، وواجب الوجود هو المستحق للعبادة، وهو الله تعالى ، ولا تصدق العبارتان الا عليه تعالى ، وإن اختلفا في المفهوم ؛ هذا هو مقتضى الشرع والعقل والمنطق والانصاف ، ولكن مشركي العرب المعاصرين لخاتم الانبياء وقبله أيضاً . لم يعقلوا ولم ينصفوا ، فهم مع قولهم بأن واجب الوجود واحد ، قد اعتقدوا غلطاً تعدد المستحق للعبادة ؛

أو نقول قد صرفوا كثيراً من أنواع العبادة لغير الله ، ومثل ذلك مثـل شعب لايعرفون لهم الا ملكا واحداً ، هو الذى يرتب لهم المعاشات، وهو الذي يوليهم الولايات ، وهو الذي يغدق عليهم بالخيرات ، وهو الذي يمنع عنهم الغارات، الى غير ذلك ، ونظام هذا الملك أن يكون له الخضوع والركوع ، له الاكبار الملوكي والاجلال السلطاني ، له الذل والخنوع ، ولا يطلب شيء من غيره ؛ هذه ونحوهـا هي شارات هذا الملك وخصائصه التي أراد أن ينفرد بها عما سواه ، فاذا صرف الشعب شيئاً من هذه الاشياء لغير مليكه ، فقد خانه وأشرك معه غيره من الوزراء في مزاياه وخصائصه ، ولو اعتقد بأنه ليس له سلطان سوى المليك،

فلا يمنع عنه تسميته — الكلام عائد للشعب — أنه أشرك مع مليكه سواه ، ولا يمنـع عنه العقاب .

ماهو المراد بمثقال حبة من خردل من الايمان في حديث البخاري

(١٠) – جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: « أخرِجُوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان »، فيخرجون منها، قد اسودّوا – الحديث »، فهل المؤمنون ايمان ربوبية، المشركون شرك ألوهية – يشملهم هذا الخروج، لأنه يصدق عليهم أن في قلوبهم مثقال حبة من خردل من ايمان؟ والجواب عن ذلك: يراد بمثقال حبة الخردل من الايمان في حديث البخاري المثقال للايمان الخالص، الذي لا يشوبه مثقال خردلة من شرك، جمعاً بينه وبين قوله تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفرُ أنْ يُشْرَكَ به، ويَغْفرُ ما دونَ ذلك لمَنْ يَشاءُ ﴾ (٤:٤٧و١١٧) وقوله تعالى: ﴿ وقال المسيحُ: يابني اسرائيلَ اعبدوا اللهَ ربي وربّكم، إنَّه مَنْ يُشرِكْ باللهِ، فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ، ومأواهُ النارُ، وما للظالمِينَ مِنْ أنصار ﴾ (٥:٧٥)، وقال تعالى في سياق محاجة ابراهيم لقومه في التوحيد والشرك ﴿ الذين آمنوا ولم يُلبِسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمْنُ، وهم مُهتَدونَ ﴾ (٦:٨٢) وقد فسر النبي ﷺ – الظلم هنا – بالشرك، وهو نكرة في سياق النفي، يفيد أن الأمن من العذاب المقيم، الذي أعده الله للمشركين، خاص بمن آمنوا إيماناً لا يشوبه شيء ما من الشرك، وإن كان مثقال حبة من خردل، وحينئذ فلا مندوحة من حمل حديث البخاري المسئول عنه – على مايتفق مع هذه الآيات، هـذا هو المراد من الحديث، وإن لم يكن هذا هو المراد من الحديث، كان معارضاً لما ذكرنا من الآيات، ولا يمكن ترجيحه عليها، أو إرجاعها اليه، والقولَ بأن مثقال حبة من خردل من إيمان مشوب بالشرك، ينجي صاحبه من النار بعد دخولها، ويجعله من أهل الجنة، لم يقل به أحد من المسلمين، بل أجمعوا على أن الشرك بالله، لا يغفر منه شيء، ولا

شك أنه يصدق على مشركي العرب في زمن البعثة ، أنه كان في قلوبهم إيمان كحبة الخردل أو أعظم ، كما هو مقتضى آيتنا اليوسفية وماشابهها من الايات القرآنية ، فلو كان الإيمان بوجود الله ، مع اتخاذ شركاء له منجياً ، لـكان مشركوا العرب في الجاهلية - ناجين حتماً ، ولا قائل به من أهل الإسلام .

المعطل المنكر لوجود الله تعالى شر من المشرك

(١١) — المعطل المنكر لوجود الله تعالى ، لايسمى مشركاً ، ولكنه شر من المشرك ، فاذا كان الله لايغفر لمن يؤمن به بأنه الخالق الرازق ، إذا توجه لغيره ودعاه من دونه ، ولو ليقرب به إلى الله زلفى ، فهل يغفر لمن جحده مطلقاً ؟

حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الالوهية

(١٢) — من تلوث من مسلمين اليوم بشيء من شرك الألوهية ، ولا يسمي نفسه مشركاً ولا فعله شركاً ، ولـكنه يسمي نفسه متوسلاً متشفعاً متقرباً ، كما أنه يسمي فعله ، توسلاً وتشفعاً وتقرباً ، وهو مسكين جاهل لم يقصد الشرك ، فاهماً أنه شرك ، ولـكنه وقع فيه بجهله ، لأنه لا يعتقد أن ما يفعله شرك ، وهـذا يجب أن يُعَلَّمَ ، حتى تقوم عليه الحجة .

شرك النصارى في الربوبية والالوهية

(١٣) — النصارى لايقولون بتعدد واجب الوجود صريحاً ، ولكن لهم فيه فلسفة لاتعقل ، وهي التوحيد مع التثليث ، ومع ذلك فهم مشركون في الربوبية ، من جرآء قبولهم التشريع من رؤسائهم ، فيحلون لهم ويحرمون ، وكل النصارى لذلك يقبلون ؛ وأما شركهم في الألوهية ، فهو أيضاً واقع ، ماله من دافع ، لأنهم يعبدون المسيح عيسى ، وليس أقنوم الابن فقط الحالّ في جسد المسيح ، بل

يعبدون أيضاً جسد المسيح ، أعني إنهم يعبدون المسيح كله ، الحاوي للاهوت والناسوت — على رأيهم — ، فهم مشركون في الألوهية قطعاً وليس من هذه الجهة فقط ، بل هم أيضاً مشركون في الألوهية ، من جهة أنهم يقدمون أنواعاً من العبادات ، كالسجود والركوع والنذور والأصوام — للسيدة مريم عليها السلام.

الطوائف المنسلخة عن الاسلام بسبب شركها بالله او بالتشريع

(١٤) — يوجد في مشركي المسلمين اليوم ، من أشركوا بالله بعض آل بيت نبيه بالعبادة والدعاء ونحوهما ، ومنهم من أشركوا بالتشريع أيضاً ، كأصناف الباطنية وآخرهم البابية والأزلية والبهائية ، ومن هؤلاء من أنسلخ من اسم الإسلام كما انسلخ من معناه ، ومنهم من حافظ على انتحال اسمه ، مع لقب مذهب أو طريقة أو طائفة ، ولو على سبيل التقية .

المشرك من يدعو الاصنام او من يدعو الصالحين

(١٥) — إن بعض المشركين ، بل الغالب من أفرادهم اليوم ، يزعم أن جميع الايات التي جاء فيها تقبيح الشرك وتوبيخ المشركين ، هي خاصة بالأصنام بمعنى الجماد ، مع أننا لو تتبعنا هذه الايات ، التي جاءت في شأن الشرك والمشركين ، لوجدناها مصرحة بأن المشركين فريقان : فريق يدعو الأصنام المجعولة تماثيل لعباد الله الصالحين ، وفريق يدعو الصالحين غير ناظر إلى التماثيل ، فمما جاء في تسفية أحلام الفريق الأول قوله تعالى : ﴿ أتعبُدون ماتَنْحِتُون ؟ ﴾ (٩٥:٣٧) وقوله : ﴿ ماهذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفونَ ؟ ﴾ (٥٢:٢١) ، ومما جاء في التشنيع على الفريق الثاني قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أضَلُّ مِمَّنْ يدعو مِنْ دُونِ اللهِ — مَنْ لا يَستَجيبُ له إلى يوم القيامةِ ؟ وهم عن دُعائهم غافلون ، وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً ، وكانوا بعبادَتِهم كافرين ﴾ (٤٦:٥و٦) وقوله:

﴿ قل ادعوا الذين زَعمتُم مِنْ دونه ِ، فلا يملكون كَشْفَ الضُرّ عنكم ، ولا تحويلاً ، أولئك الذين يدعونَ ، يَبْتَغُونَ إلى رَبهم الوسيلةَ أيهم أقربُ ، ويَرجُونَ رحمَتَه ويخافون عذابَه ﴾ (٥٧و٥٦:١٧) وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِنْ دون اللهِ آلِهةً ، ليكونوا لهم عِزاً ، كلاّ ، سَيَكفُرون بعبادَتِهم ويكونون عليهم ضِداً ﴾ (٨٣و٨٢:١٩) وقوله تعالى : ﴿ والذين يَدعونَ مِن دونِ اللهِ ، لا يَخْلُقُون شيئاً ، وهم يُخلقونَ ، أمواتٌ غيرُ أحياءٍ ، وما يَشعُرونَ أيّانَ يُبعَثون ؟ ﴾ (٢١و٢٠:١٦) فهل يعقل بأن الأصنام بمعنى الجماد تتصف بهذه الصفات ، التي وصف بها المدعون في هذه الايات ، التي جاءت بشأن الفريق الثاني ؟ لاريب أنه لايعقل أن يتصف الجماد بالغفلة أو بضدها ، أو يتصف بالعداوة وضدها ، أو بالكفر وضده ، ولا يتأتى أن تبتغي الجماداتُ الوسيلة إلى ربها ، وأن ترجو رحمته ، وتخاف عذابه ، ولا يمكن أن تكون الأصنام بمعنى الجماد ، ضداً على المشركين يوم القيامة ، ولا يتصور أن يوصف الجماد بموت أو حياة ، أو شعور ببعث ، فمن عنده أدنى مسكة من عقل ، يدرك أن جميع هذه الصفات ، لاتنطبق على الأصنام بمعنى الجماد ، بل لا تنطبق إلا على المقربين من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين .

(مرحى مرحى)

انذار المشركين بالله

آ (١٠٧) ﴿ . . . أفأمِنُوا أنْ تأتِيَهُمْ غاشِيَةٌ منعذابِ اللهِ ، أو تأتِيَهُمْ الساعةُ بَغْتَةً ، وهم لا يَشعُرونَ

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئةوسبعة ، فقام الامام القلقيلي وقال:

قتل الانسان ما أكفره (أفأمنوا) أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله (أن تأتيهم غاشية) أي نقمة أو وقيعة أو عقوبة تغشاهم بحيث تغمرهم وتجللهم ،

فيكونون حشوها (من عذاب الله) وعقابه في الدنيا (أو تأتيهم الساعة بغتة) أي هلاكهم الذي يعقبه خلاص الموحدين من شرهم ، (وهم لايشعرون) باتيانها فوق رؤوسهم ، فهل هم آمنون من ذلك ؟ حال كونهم تحت وقوع شيء منه في القريب العاجل ، فما عليهم إلا أن ينتظروا المعركة المقبلة ، ويعدوا لها العدة ، إن جوزوا لأنفسهم مقاومة سوط النقمه الالهية .

(أفأمنوا ان تأتيهم غاشية . . . الخ)

— ١ —

وتابع الامام القلقيلي كلامه قائلاً :

الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها

إن الساعة في قوله ﴿ أو تأتيهم الساعة ﴾ هي فيما نختاره ساعة « بدر » ، فان صناديد قريش وزعماء المشركين ، قد هلكوا جميعاً في وقعة بدر وغيرها ، ثم هلك باقي المشركين عن آخرهم ، أو نقول إن غزوه بدر هي من أشراط تلك الساعة ، وإنما ساعتهم هي ذلهم واضمحلالهم وهلاكهم التام ، وفناؤهم العام ، بحيث لايبقى منهم ديار ، ولا نافخ نار ، قال تعالى في سورة الأنعام المكية : ﴿ قل أرأيتَكُمْ إنْ أتاكم عذابُ اللهِ ، أوأتتْكم الساعةُ ، أغيرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كنتم صادقينَ ؟ بل إياهُ تَدْعُونَ ، فَيَكشِفُ ماتدعونَ اليه إنْ شاء ، وتَنسَوْنَ ما تُشرِكون ﴾ (٦:٤٠و٤١) .

قال شيخنا الغواص : هذه « الساعة » هي ساعتهم الصغرى ، التي تحققت في غزوة بدر ونحوها ، ولا يجوز أن يراد بها الساعة الكبرى ، لأن الساعة الكبرى لاتكشف لا عن المشركين ولا عن غيرهم ، ولا يشاء الله كشفها ، لأنها أمر حتم لا بد منه ، وقال تعالى في سورة الحج المكية : ﴿ ولا يزالُ الذينَ كَفَروا في

مِرْيةٍ منه ، حتى تأتيَهُم الساعةُ بغتهً ، أو يأتِيهم عذابُ يومٍ عقيم ، المُلْكُ يومئذٍ لله ، يَحكُم بينهم ، فالذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ في جناتِ النعيمِ ، والذين كفَروا وكذَّبوا بآياتِنا فأولئك لهم عذابٌ مُهين ﴾ (٢٢ : ٥٥-٥٧) قال شيخنا العارف بالله ، لايزال أهل مكة الكافرون في شك من أمر الرسول الى أن تجيء ساعة انحطاطهم وهلاكهم في غزوة بدر ، وتعاظم أمر المسلمين وتعالي شأنهم ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم بافتتاح المسلمين مكة وانتصار أهل الإيمان عليهم ومن ذلك اليوم يكون الملك لمظهر أمر الله ومنبع سلطانه وهو سيد الخليقة (ص) ولخلفائه من بعده ، وقد حكم النبي وخلفاءه بين الناس ، فالمؤمن العامل في نعيم ورفاه ، والكافرون من أهل مكة ويهود يثرب في ذل وهوان ، وقال تعالى في سورة الزخرف المكية: ﴿ وإنه لَعِلْمٌ للساعةِ ،فلا تَمْتَرُنَّ بها،واتبعونِ ،هذا صِراط مُستَقيمٌ ﴾ (٤٣ : ٦١) قال شيخنا ولى الله : المسيح هو علامة على ساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ونقلها الى بنى اسماعيل ، ولذلك كان قال لهم : ﴿ لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه ﴾ (مت ٢١ : ٤٣ و ٤٤) ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا تَمْتَرُنَّ بها، واتبعونِ ،هذا صراطمستقيم﴾ (٤٣ : ٦١) .

ويجوز أن يكون المسيح « علماً للساعة » ساعة هلاك ودمار وسقوط وانحفاض اليهود ، بسبب كفرهم به ، وايذائهم له ، وساعة ارتفاع ورقي النصارى ، بسبب ايمانهم وتصديقهم له ، أي ساعة مجازاة كل منهم على عمله مجازاة دنيوية ، وترى متى ومرقس ولوقا ، بعد أن نقلوا ماوصفه المسيح من أهوال الساعة وقيامتها ، قالوا نقلا عن المسيح : (الحق أقول لكم لايمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله) (مت ٢٤ : ٣٤ مر ١٣ : ٣٠ لو ٢١ : ٣٢) .

وفي الحديث: ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾ وأشار الى إصبعيه السبابة والوسطى،

أي متقاربين متلاصقين كهاتين الاصبعين: أي أن ظهوره (ص) علامة على قرب ساعة هلاك وسقوط من كفر به، وارتفاع ورقي من آمن به في الدنيا، وفي البخاري: «اذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة - قيل: وما إضاعتها يارسول الله ؟ - قال: اذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة»، وفي البخاري أيضاً «إن من اشراط الساعة أن تلد الأمة ربتها أو ربها، وأن ترى الحفاة الرعاة يتطاولون في البنيان، وأن يكثر شرب الخمر والزنا» وكل ذلك وقع فعلاً، فهذه الأشراط هي أشراط للساعة الصغرى وهذه الساعة هي لناس وعلى ناس، فلناس ساعة علو وارتقاء ومنعة، وعلى ناس ساعة انقراض واضمحلال، وعلى الأول ساعة ضعف وفتور.

ومن أمثلة استعمال لفظ الساعة في معنى الساعة الصغرى، مافي الحديث الذي ذكره صاحب الأساس: «إذا رأيت مكة بُعِجَتْ كظائمَ وساوى بناؤها رؤوس الجبال، فاعلم أن الساعة قد أظلت [1]».

(أفامنوا ان تأتيهم غاشية .. الخ)

— ٢ —

وقال الفاضل البيساني [2]:

الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الاخروية

أضم صوتي الى صوت أخي الإمام القلقيلي حفظه الله وأقول:

(١) ليس أن لفظ «الساعة» متى أطلق ينصرف للساعة الكبرى دائماً، بل قد يكون مرادا منه «الساعة» الصغرى، والحكم في ذلك القرائن، والقرينة هنا على أن «الساعة» هي الساعة الصغرى قرنها بغاشية من عذاب الله وانتظامها

١ ـ بعجت: حفرت فيها آبار كثيرة، وكظائم جمع كظيمة وهي بئر بجنب بئر بينهما مجرى في بطن الارض.

٢ ـ نسبة إلى بيسان من بلاد فلسطين.

في سلك واحد ، فكما ان هذه الغاشية هي في الدنيا ، فكذلك هذه « الساعة » تحصل لهم في الدنيا ، فآيتنا هذه في أنها تحتوي على مواعيد دنيوية هي نظير ماقال تعالى في سورة الاعراض المكية : ﴿ أفأمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيهُم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمِنَ أهلُ القُرى أنْ يأتيهم بأسُنا ضُحى ،وهم يلعبون ؟أفأمِنوا مكْرَ اللهِ ؟ فلا يأمنُ مكْرَ اللهِ إلاّ القومُ الخاسرون ﴾ (٧ : ٩٦ -٩٨) وقال تعالى ، في سورة النحل المكية : ﴿ أفأمِنَ الذينَ مكروا السيئـــآتِ أنْ يَخسِفَ اللهُ بهم الأرضَ ؟ أو يأتيَهم العذابُ مِنْ حيثُ لايَشعُرون ؟ ﴾ (١٦ : ٤٥) ، وقال في سورة الإسراء المكية : ﴿ أفأمِنتُم أنْ يخسِفَ بكم جانبَ البَرّ ؟ أو يُرسِلَ عليكم حاصِباً ؟ ثم لاتجدوا لكم وكيلاً ﴾ (١٧ : ٦٨)وقال في سورة الملك المكية : ﴿ أأمِنتُم منْ في السماءِ أنْ يخسِفَ بكم الأرضَ ، فإذا هي تَمورُ ؟ أمْ أمِنْتُم منْ في السماءِ أنْ يُرسِلَ عليكم حاصِباً ؟ فستعلمون كيفَ نَذيرِ ﴾ (٦٧ : ١٦ و ١٧) .

الحشر الدنيوي

٢ ـ وكما أن لفظ « الساعة » يرد لمعنى يحدث في الدنيـــا وهو الانقلابات والاضطرابات التي تحصل مفيدة لقوم ضارة بآخرين ، فكذلك لفظ « الحشر » يأتي لمعنى يحدث في الدنيـــا ، ويأتي للحشر الأخروي ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فحشرَ فنادى ، فقال أنا ربُكم الأعلى ﴾ (٧٩ : ٢٣ و ٢٤) فهذا الحشر كان باسم فرعون الخروج « منفثا » لعبيده القبط ، فهو حشر دنيوى . ومثله قوله تعالى: ﴿ وحُشر لسليمانَ جنودُه ﴾ (٢٧ : ١٧) ، وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ هو الذي أخرج الذينَ كفروا من أهل الكتابِ من ديارهم لأول الحشرِ ﴾ (٥٩ : ٢) ومعنى أول الحشر ، ان هذا اول حشرهم من المدينة الى الشام ،وآخر حشرهم إجلاء « عمر » إياهم من خيبر الى الشام، واللام في قوله« لأول » هي

اللام في قولك : جئته لوقت كذا ، وكتبت لعام كذا ، ولشهر كذا ، فهي التي تصحب التاريخ ، وقال تعالى : ﴿ والطيرَ محشورةً ﴾ (٣٨ : ١٩) فحشر الطير لداود وحشر بني النضير في الشام ، وحشر الجنود لسليمان وحشر القبط لمنفتا ، كل ذلك حشر دنيوي .

النشر والحساب الدنيويان

(٣) ـ وكذلك لفظ « النشر » يأتي لمعنى دنيوي كما في سورة الفرقان : ﴿ وهو الذى جَعَلَ لكم الليلَ لِباساً ، والنومَ سُباتاً ، وجَعَلَ النهارَ نُشوراً ﴾ (٢٥ : ٤٧) أي جعل النوم موتاً ، والنهار عيشة وحياة بعد الموت .

وكذلك « الحساب » يكون في الدنيا ويكون في الآخرة ، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ وإنْ ما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نَعِدُهم ، أو نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا ﴾ لا عليك ﴿ الحسابُ ﴾ (١٣ : ٤٢) وقال تعالى في سورة الأنبياء المكية : ﴿ اقتَرَبَ للناسِ حسابُهم ، وهم في غَفْلةٍ مُعرِضُونَ ، ما يأتيهم مِنْ ذِكْرٍ من ربهم مُحدَثٍ إلا استمَعُوهُ وهم يلعبون لاهِيَةً قلوبُهم ﴾ (٢١ : ١ ــ ٣) ، فالناس هنا هم مشركوا اهل مكة كما قال ابن عباس وهو اصطلاح القرآن يعبر « بالناس » عن أهل مكة المشركين وبأهل الكتاب عن اليهود والنصارى ، وبالمؤمنين عن اتباع النبي المسلمين ، وكما هو صريح نفس هذه الايات التي إنما ذكرت أحوال المشركين وأقوالهم خاصة ، فان الذين غفلوا عن حسابهم ، ثم لما نبهوا أعرضوا ، وأتاهم الذكر فاستمعوه وهم يلعبون ، ذاهلين عنه وقالوا ما قالوا ــ إنما هم المشركون من اهل مكة لأن السورة مكية ، فهذا « الحساب » الذي اقترب إنما هو حسابهم فقط ، لا دخل لغيرهم فيه ، وهو حساب خاص ، يتجلى في مجازاتهم واهلاكهم في الدنيا ، في مثل غزوة بدر وفتوح مكة وغيرها .

الحساب العام الاخروي

(٤) ـ واما « الحساب العام » في يوم القيامة الذي يعم المؤمنين وأهل الكتاب وجميع العالمين ، فهو المذكور في مثل قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ (١٥ : ١٢) ، فما في سورة الأنبياء يفيد أنه قرب جداً وقت محاسبة ومجازاة واهلاك هؤلاء المشركين في حالي غفلتهم ثم إعراضهم عن الذكر ، وفي حال أنهم لا يستمعونه إلا وهم يلعبون ، ذاهلين عنه ، أي أن عذابهم وهلاكهم سيكون في الدنيا وهم متلبسون بهذه الأحوال ، ويساعد هذا الفهم قوله تعالى على الاثر : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون ؟ ! ﴾ (٢١ : ٦) أى أنهم لا يؤمنون كما لم تؤمن القرى التي أهلكناها قبلهم ، أي فحينئذ لا بد من إهلاكهم مثلهم في الدنيا لعدم إيمانهم ، كما كنا أهلكنا تلك القرى لعدم إيمانهم أيضاً .

الصراط والعذاب والعقاب والاجر والثواب الدنيويات

(٥) ـ وكذلك « الصراط » يطلق على الصراط الدنيوي بمعنى الطريق، وقد ذكر بهذا المعنى في القرآن اكثر من ٤٥ مرة ، ويطلق على الصراط الأخروي ، وليس له ذكر في القرآن ، ولكنه مذكور في الأحاديث ، وكذلك « الميزان » يطلق على الميزان الدنيوي كما في قوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ (٦ : ١٥٢) وقد ذكر هذا في القرآن تسع مرات ، ويطلق على الميزان الأخروي وقد أشير له في مثل قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ (٧ : ٧) .

وكذلك « العذاب والعقاب » وضده « الأجر والثواب » يكونان في الدنيا والاخرة ، كما يعلم من كثير آيات الكتاب الكريم .

الميعاد الدنيوي

(٦)—وكذلك لفظ « الميعاد » يأتي لمعنى في الدنيا ولمعنى سيحدث في الاخرة ومن مُثُل الأول ما في قوله تعالى : ﴿ وإذْ يقولُ المنافقونَ والذينَ في قلوبِهم مَرَضٌ :ماوَعدَنا اللهُ ورسولُهُ إلا غُروراً ﴾(٣٣ ١٢)قال«معتب بن قشير» حين رأى الأحزاب : « يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرَقاً، ماهذا الا وعدغرور» فهذا وعددنيوي ،ومثله مافي قوله تعالى:﴿ولمارأى المؤمنونَ الأحزاب،قالوا:هذا ما وَعدَنا اللهُ ورسولهُ ﴾ (٣٣ : ٢٢) وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ فإمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ، فإنّا منْهم مُنتَقِمُون ﴾ — في الآخرة —﴿ أو نُرِيَنّكَ الذي وَعَدْناهم ﴾ — من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر — ﴿ فإنا عليهم مُقتَدِرون ﴾ (٤٣ : ٤١ و ٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ فرَدَدْناهُ الى اُمِّهِ كيْ تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلمَون ﴾ (٢٨ : ١٣) ، فوعد الله هنا هو قوله : ﴿ إنّا رادّوهُ اليكِ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى : ﴿ وَعدَاللهِ ، لا يُخلِفُ اللهُ وعَدهُ ، ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يَعْلمون ﴾ (٣٠ : ٦) يشير لوعد الله أن يغلب الرومُ الفرسَ في بضع سنين وقد وقع سنة ٦٢٥ ميلادية .

وقال الملائكة في أهل سدوم وعمورة وإهلاكهم :

﴿ إنَّ موعِدَهُم الصُبحُ ﴾ (١١ : ٨١) ، وقال تعالى في شأن المؤمنين مع المشركين في غزوة بدر : ﴿ وَلوْ تواعَدْتم لاختَلفْتُم في الميعادِ ﴾ (٨ : ٤٢) وقال تعالى : ﴿ ولا يَزالُ الذين كفروا تُصيبُهم بما صَنعوا قارِعةٌ ، أوْ تَحِلُّ قريباً من دارِهم ، حتى يأتِيَ وَعدُ الله ، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ ﴾ (١٣ : ٣١) ، وعد الله هنا فتح مكة ، وكان الله قد وعد النبي بذلك وقال تعالى:

﴿ ويقولون متى هـذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين – قل : لـكم ميعادُ يومٍ ، لا تستأخِرون عنه ساعةً ولا تستَقـْدِمون ﴾ (٣٤ : ٢٩ و ٣٠) ، فهذا الميعاد دنيوي وقع في غزوة بدر ، ولفظ اليوم يراد منه السنة ، كما وقع كثيراً بهذا المعنى في العهد العتيق والعهد الجديد ، وغزوة بدر كانت في نهاية السنة الأولى من الهجرة الشريفة ، وبهذا المعنى وعلى هذا التفسير انطبق الجواب على السؤال ، فهم سألوا عن وقت الوعد وتحديده ، فأجيبوا بأن تحقيق هذا الوعد يكون بعد يوم من الهجرة .

البعث الدنيوي

(٧)ـ وكذلك لفظ « البعث » قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قول صموئيل ﴿ إنَّ اللهَ قد بَعَثَ لـكم طالوتَ مَلِكا ﴾ (٢ : ٢٤٧) وقوله تعالى : ﴿ بعَثْنا عليـكم عِباداً لنا أُولِي بأسٍ شديد ﴾ (١٧ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وبعَثْنا منهم اثْـنَيْ عشَرَ نَقيباً ﴾ (٥ : ١٣) .

الآخرة والجزاء الدنيويان

(٨)ـ وكذلك لفظ « الآخرة » قد يجيء مستعملاً في معنى دنيوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ الآخرة : لِيَسُوْوا وجوهَكُم .. الخ ﴾ (١٧ : ٧) أي المرة الآخرة ، وقولهم : ﴿ ما سَمِعنا بهـذا في المِلَّةِ الآخِرةِ ﴾ (٣٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ فأخَـذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخرةِ والأُولى ﴾ (٧٩ : ٢٥) أي كلمتيه ، فالآخرة هي ﴿ أنا رَبُّـكم الأعلى ﴾ (٧٩: ٣٤ ، والأولى هي ﴿ ما عَلِمْتُ لـكم مِنْ إلهٍ غيري ﴾ (٢٨ : ٣٨) .

وكذلك لفظ « الجزاء » قد يأتي لمعنى دنيوي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأَعْرَضُوا فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ ، وبَدّلناهم بِجَنّتَيْهم جَنّتَينِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ مِنْ سِدْرٍ قليلٍ ، ذلك جَزَيناهم بما كَفَروا ، وهل

نُجازي إلاّ الكَفُور ؟[1] (٣٤:١٦و١٧) وقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرّمْنا كلَّ ذي ظُفرٍ ، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شُحُومَها ، إلاّ ما حَمَلتْ ظهورُهما أو الحوايا أو ما اختَلَطَ بعظمٍ ، ذلك جزَيْناهم بِبَغْيِهِم ، وإنا لصادقون ﴾ (٦:١٤٦) وقولها تعالى : ﴿ إلاّ آلَ لوطٍ نَجّيْناهم بسَحَرٍ ، نِعمةً من عندِنا ، كذلك نَجزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ (٥٤:٣٤و٣٥) .

الحياة بعد الموت في الدنيا

(٩) — وكذلك لفظ « الحياة » بعد الموت ، قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين خرَجوا مِنْ دِيارِهم وهم ألوفٌ ، حذَرَ الموتِ ، فقال لهم اللهُ : موتوا ، ثم أحياهم ؟ ﴾ (٢:٢٤٣) قوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لا من قلة ، فقد كانوا الوفاً ، أي كثيرين وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن ، فأماتهم الله بامكان العدو منهم ، فالأمر أمر التكوين ، أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا موتاً معنوياً ، بما أتوه من سبب الموت المادي الطبيعي ، وهو تمكين المحارب من أقفائهم بالفرار ، ففتك بهم وقتل أكثرهم ، ثم أحياهم حياة معنوية ، بأن أعاد اليهم استقلالهم ، حيث قد جمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم ، فعادت لهم وحدتهم القوية ، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل الفرقة والعبودية ، إلى عز اجتماع الكلمة والاستقلال كذا قاله الاستاذ الامام وكما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استَجيبُوا للهِ والرسولِ إذا دعاكم لما يُحْيِيكم ﴾ (٨:٢٤) وقوله : ﴿ أوَ مَنْ كان مَيْتاً فأحْيَيْناهُ وجعلنا له نوراً يمشِي به في الناس كمَنْ مَثلهُ في الظُلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ؟ ﴾ (٦:١٢٢) .

(مرحى)

---

(١) الاكل : الثمر ، الخمط والاثل والسدر شجر .

الفصل الثالث

الدعوة الى الايمان بالدليل

آ(١٠٨) ﴿قُلْ : هذه سَبِيلي : أدْعُو الى اللهِ علىَ بصِيرةٍ ، أنا وَمنْ اتَّبعَنَي ، وسُبحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وثمانية ، فقام المدقق اللدي وقال :

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمد ﷺ : أخبر الناس يامحمد و (قل)لهم: (هذه) السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد هي (سبيلي) أي طريقي ومسلكي وسنتي ونهجي (أدعو) الناس (إلى) دين (الله) وسأدعو وسوف أدعو ولا أزال أدعو إلى شهادة أن لا آله إلا الله ، وحده لاشريك له ، هـذه سبيلي التي أحيا فيها وأموت عليها ، أدعوهم دائماً حتى يدفع الحق الباطل ، أدعوهم حال كوني (على بصيرة) ودليلٍ قاطعٍ ، وحجة واضحة غـير عمياء (أنا ومن اتبعني) ــ فكل من اتبعه كذلك يدعو إلى مادعا اليه الرسول ، على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ــ (وسبحان الله) أي وأنزه الله عن الشركاء وأجله وأعظمه وأقدّسُه عن أن يكون له شريك أو نظير أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه : ﴿سُبحانَهُ وتعالى عما يقولون عُلواً كبيراً ، تُسَبّحُ له السمواتُ السّبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنّ ، وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يُسَبّحُ بحَمْدِهِ ،ولكنْ لا تفقَهونَ تَسْبيحَهُمْ ، إنه كانَ حليماً غفوراً﴾ (١٧:٤٣و٤٤) ، (وما أنا مِنَ المشركين) لاشرك ربوبية ولا شريك ألوهية .

(قل هذه سبيلي ، أدعو . . . الخ)

— ١ —

وتابع المدقق اللذي قوله بسرد المواد التالية على الآية :

التقليد في الدين باطل

المادة (١) — البصيرة الحجة الواضحة والعقيدة ، ومنه : ﴿ بل الانسانُ على نفسِهِ بَصيرةٌ ﴾ (٧٥:١٤) أي هو حجة وشاهد ؛ يقال جوارحه بصيرة عليه : أي شاهدة ؛ ومنه (اجعلني بصيراً عليهم) أي شاهداً ؛ فالنبي والقرآن دائماً يستدل على قدرة الله تعالى وارادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لفسدتا ﴾ (٢١:٢٢) وغير ذلك مما لا يحصى ، حتى أنه ليستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات ، والافضاء إلى المنافع ؛ فالتقليد في الدين باطل ، لأنه ينافي أصل العلم باليقين ، فان المقلد في الدين هو من يعتمد في دينه على قول من يثق به من أهله وقومه أو معلمه ، وليس على علم وبصيرة فيه .

النبي والمؤمنون كانوا على بصيرة من الدعوة للايمان

المادة (٢) — نعلم من قوله ﴿ أدعو إلى اللهِ على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ أن النبي ﷺ ومثله المؤمنون ، جميعهم كانوا على بصيرة ، فليس عندهم شيء من الشك ، بل هم من أهل العلم ، ومن هذا نعلم أن الأمر بالسوآل في قوله تعالى في سورة النحل المكية : ﴿ وما أرسَلنا مِنْ قَبْلِكَ إلاّ رجالاً نوحي اليهم ، فاسألوا أهلَ الذِكْرِ إنْ كنتم لا تعلمونَ بالبَيِّناتِ والزُّبرِ ﴾ (١٦:٤٣و٤٤) إنما هو للكفار من وثنيي العرب ، الذين قالوا ﴿ هل هذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكم ؟ ﴾ فكان جواب الله اليهم بهذه الآية ، فالمخاطبون هنا بتوجيه

السوآل لغيرهم مخصوصون ، وهم جهلة العرب الوثنيين ، والشيء المسئول عنه هنا مخصوص ، وهو أن الرسل الذين جاءوا قبل محمد ﷺ ماذا كانوا ؟ هل رجالاً أو ملائكة ؟

وكذلك الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فإنْ كنتَ في شَكٍ مِمَّا أنْزَلنا اليك فاسألْ الذينَ يقرَؤُن الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لقد جاءَكَ الحقُ من رَبِّكَ ، فلا تكوَنَنّ من المُمْترينَ ، ولا تكوَنَنَّ مِنَ الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، فتكونَ مِنَ الخاسِرينَ ﴾ (١٠:٩٤و٩٥) فهذا الخطاب إنما هو للشاك في صدق هذا الكتاب الذي أنزل لأجله ولأجل هدايته ، وأما النبي ﷺ فلم يكن شاكاً أبداً كما قال : ﴿ أفَغيرَ اللهِ أبْتَغِي حكماً ، وهو الذي أنزلَ اليكم الكتابَ مُفصَّلاً ؟ ﴾ (٦:١١٤) وقال : ﴿ إني على بيِّنَةٍ مِنْ رَبّي ﴾ (٦:٥٧) وقال : ﴿ إنْ اتَّبِعُ إلاّ مايُوحى إليّ إني أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾ (١٠:١٥) ، فتوجيه الخطاب إذاً في آيتي « فاسألوا . . . »الخ و« فإن كنت . . . الخ »هو لغير العالم وللشاك في صدق القرآن المجيد الذي أنزله الله لهدايته: أي إن كنت أيها الانسان تشك فيما أنزلناه اليك بواسطة نبينا « فاسأل الذينَ يقراؤنَ الكتابَ مِن قَبلِك » أي المحققينَ منهم هل يكن مذكوراً في كتبهم مجيء نبي وكتاب يجب الايمان بهما ؟ حقاً « لقد جاءك » أيها الانسان مطلقاً بواسطة نبيك : « الحقّ مِن ربّكَ ، فلا تكوَنَنّ مِنَ المُمترينَ ، ولا تكوَنَنّ مِنَ الذينَ كذّبوا بآياتِ اللهِ ، فتكونَ » أيها الانسان « مِنَ الخاسِرِينَ » .

وكون التنزيل يقصد به الناس أيضاً موضح في آيات كثيرة كما في آية: ﴿ وهو الذي أنْزَلَ اليكم الكتابَ مُفَصَّلاً ﴾ (٦:١١٤) وآية : ﴿ وأنزلنا اليكَ الذِكْرَ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ اليهم ﴾ (١٦:٤٤) وآية : ﴿ اتَّبِعُوا ما أنزِلَ اليكم مِن ربكم ﴾ (٧:٢) وآية : ﴿ ياأيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ من

ربكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مُبيناً ﴾ (٤:١٧٣) وآية : ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذِكرُكم ﴾ (٢١:١٠) إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، ويظهر جلياً صدق هذا المعنى الذي نذهب اليه من قوله تعالى بعد آيات من قوله : « فإن كنتَ في شكّ . . » الخ ﴿ قل يا أيها الناسُ إن كنتم في شكٍ من دِيني ، فلا أعبُدُ الذينَ تعبُدونَ من دونِ اللهِ ، ولكن أعبُدُ اللهَ الذين يَتَوفاكم ، وأُمِرتُ أن أكونَ من المؤمنين ﴾ (١٠:١٠٤) كذا أفاده بعض المصريين من العلماء .

دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية

المادة (٣) — قام النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى عبادة الحق ، وقرّر ان للعالم إلها واحداً بريئاً من كل ماينسبون اليه من كل مالا يليق به ، أثبت ذلك بالحجج البينات ، وأمر الناس باستعمال الفكر والعقل في كل شيء ، ونهى عن التقليد ، وحض على النظر في الموجودات .

دعاهم بالحجج العقلية ، لتوحيده تعالى ، وإلى دين « العدالة » بين الغنيّ والفقير ثم « المساواة » في الحقوق المدنية والقضائية والسياسية والدينية ، ثم « الأخوة » بين المالك والمملوك .

تلك الأمور التي لم يهتد اليها الناس في « الغرب » إلا بعد أن وصل اليهم شعاع من نور الاسلام في « الشرق » ، فأرجع البصر إلى تاريخ أوربا قبل الاصلاح الديني بـ « لوثر » وقبل الاصلاح السياسي « بالثورة » الفرنسية ، لتعرف ما كانوا عليه ، نعم إن النبي صلوات الله عليه وسلامه أتى بجميع الأخلاق الفاضلة المعتدلة ، والعبادات الصالحة والمعاملات الكاملة ، والمباديء السليمة ، والسياسة القويمة ، وغيرها مما كان السبب في إصلاح أمر الانسان ، وتحريره من العبودية ، وإنقاذ العقل من الأسر ، ورده إلى مملكته ، ليحكم فيها بالقسط ، فنهض « الشرق » نهضة

سريعة عالية ، لم يعهد لها مثيل في التاريخ ، ثم امتدت إلى « الغرب » .

اكثر دعاة اهل اليوم هم على غير بصيرة

المادة (٤) — النبي عليه الصلاة والسلام، كان يدعو الى الله على بصيرة وهكذا خلفاءه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون وسائر العلماء الصالحين ، ولكن من المؤسف ، أن أكثر دعاة أهل اليوم ،هم على غير بصيرة ، لأنهم مزجوا الدخائل بعقائد الدين ، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية، وعلّموا الجهال تعاليم خادعة ، لبّست الغيّ بالرشاد ، كما علموهم التأويلات الباطلة ، التي شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر « توحيداً » ، وإنكار الأسباب « إيمانا » وترك الأعمال المفيدة « توكلا » ، ومعرفة الحقائق « كفراً وإلحاداً » وإيذاء المخالف في المذهب « ديناً » والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات « صلاحا » . واختبال العقل وسفاهة الرأي « ولاية وعرفاناً » والذلة والمهانة « تواضعاً » ، والخنوع وقبول الضيم « رضى وتسليما » ، والتقليد الأعمى لكل متقدم « علما وايقاناً » .

دعوة النبي ﷺ وبعثته كانتا عامتين

المادة (٥) — مفعول « أدعو » محذوف إيداناً بالعموم، أي أدعو كل الناس حملاً على الآيات الأخرى ، الدالة على عموم بعثته ﷺ ، كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلا ّ كافة للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾ (٣٤ : ٢٨) وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ (٢١ : ١٠٧) ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي بَعثَ في الأمّيّينَ رَسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويُزَكيهم ، ويعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ، وآخرينَ منهم لما ّ يلحَقوا بهم ، وهو العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٦٢: ٢)، فقوله وآخرين الخ:معناه يعلّم آخرين

غير العرب ، من جميع الأمم الأخرى ، فإنهم صاروا من العرب ، لأن بـــلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، وقد اختلطوا بالعرب بالزواج وغيره ، حتى صاروا منهم في كل شيء ، ولذلك قال : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهـم) أي لم يتجنسوا بالجنسية العربيـة الآن ، ولم يلحقوا بهم بعد ولكنهم سيلتحقون بهم فيما بعد في كل شيء « ﴿ إنَّ هذه أمتكم أمةً واحدةً ﴾ (٢١ : ٩٢) والمقصود إن بعثـة النبي العظيم عامـة ، وأما سائر النبيين ، فـكانت رسالتهم خاصة ، بقوم دون آخرين ، ومنهم المسيـح عيسى ، ولا يلتفت الي دعوى المسيحيين ، من أن المسيـح مرسـل لعموم الخلق ، فإن لانجمل في أيديهم ينطق بلسان المسيـح بقوله : ﴿ لم أرسَل إلا الى خراف بيت إسرائيل الضالة ﴾ (مت ١٥ : ٢٤) ، وهو حصر صحيح ، ولا ينافيه قول انجيل مرقس : (واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها) « مر ١٦ : ١٥ » لأن اللام في «للخليقة» لا يصح أن تكون للاستغراق ، لأنه يدخل فيها حينئذ الحيوان الأعجم والنبات والجماد،فيتعين أن تكون للعهد ، ولا معهود إلا خراف إسرائيل الضالة ، وبهذا يرتفع التناقض ويلتئم كلام الإنجيل مع قول القرآن الكريم: ﴿ورسولاالى بني إسرائيل﴾ (٣ : ٤٩)

الدعوة والدعاء والادعاء والدعوى

المادة (٦) ــ كلمة « أدعو » من الدعوة وهي الطلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قد أجيبَت دَعوَتـُكُما ﴾ (١٠ : ٨٩) ، وقوله : ﴿ له دعوةُ الحق ، والذينَ يدعونَ مِن دونِـه لا َيستجيبونَ لهم بشيء ، إلا كباسِطِ كفـَّيه إلى الماءِ ، لِيَبْلُغَ فاهُ ، وما هـو ببالِغِه . وما دعاءُ الـكافرينَ الا َّفي ضلالٍ ﴾ (١٣ : ١٥) ، وقوله : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ ، إذا أنتم تخرُجون (٣٠ : ٢٥) ، وقوله : ﴿ رَبنا أخرنا إلى أجـلٍ قريبٍ نجب دَعوتَكَ ونتبع الرُسلَ ﴾ (١٤ : ٤٤) وقول نوح : « اني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم

دُعائي إلا فراراً » (٧١ : ٥ و ٦) فكل ذلك بمعنى الطلب ، سواء أكان طلباً من العبد الى الله ، وهو مانسميه دعاء كما في الاية الأولى ، أو طلب الانسان من الأوثان ، بمعنى دعائهم أيضاً ، وهو مافي الاية الثانية ، أو طلب الله أن يَخْرجَ الميتُ من قبره ، وهو مافي الاية الثالثة ، أو الطلب من الانسان أن يؤمن ، كما في الايتين الرابعة والخامسة .

وأما « الإدعاء » مثل أدعى عليه كذا ، بمعنى زعم أنه له ، سواء أكان حقاً أم باطلا ، فمصدره أو الاسم منه « الدعوى » وذلك كما في ﴿ فما كان دَعواهم إذ جاءَهم بأسنا ، إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ﴾(٧ : ٤) ، أي ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ، إلا اعترافهم ببطلانه .

وقد يطلق لفظ « الدعوى » على « الدعوة » بمعنى الدعاء ، كما في : ﴿ قالوا : ياويلنا ، إنا كنا ظالمين ، فما زالت تِلك دَعواهم .. الخ ﴾ (٢١ : ١٥) فتلك إشارة إلى « ياوَيْلنا » ، فهي دعوى ، بمعنى الدعوة ، وكما في ﴿ دَعواهم فيها سبحانك اللهمَ وبحمدِكَ .. الخ ﴾ (١٠ : ١٠) ، فدعواهم هنا : دعاؤهم ، لأن « اللهم » نداء لله ، ففيه أيضاً إطلاق الدعوى على الدعوة .

الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة

المادة (٧) – قوله : ﴿ أدعو الله على بصيرة ﴾ أي بحجة واضحة غير عمياء . لأن الرجل التَّبْتَ ، لا يتكلم إلا بثبتٍ ، قال: ﴿ادعُ الى سبيلِ رَبكَ بالحكمةِ والموعِظةِ الحَسنةِ ، وجادِلهم بالتي هي أحسنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) فالدين إنما يَقوم بالحجَة ، لا بالسيفِ والقوة ، كما قال : ﴿ لا إكراهَ في الدينِ ، قد تَبيَّن الرشدِ منَ الغي ﴾ (٢ : ٢٥٦) وقال : ﴿ لكم دينُكم وليَ دِينِ ﴾ (١٠٩ : ٦) وكذلك نوح عليه السلام قال : ﴿ ياقومِ ، أرأيتم إن كُنتُ على بيِّنَة من

ربي ، وآتاني رحمة من عنده، فَعُمِّيَتْ عليكم، أنُلزِمُكُموها وأنتم لها كارِهون (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى عن لسان نبيه الكريم : ﴿ قد جاءكم بصائرُ من ربِّكم ، فمن أبصرَ فلِنفسِه ، ومَن عَمِيَ فعليها ، وما أنا عليكم بِحفيظٍ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال : ﴿ فذَكِّر ، إنما أنتَ مُذَكِّرٌ ، لستَ عليهم بمصيْطِرٍ ﴾ (٨٨ : ٢١ و ٢٢) الى غير ذلك من الايات الكريمة ، التي تفيد أن الإسلام إنما قام بالدعوة ، لا بالسيف والقوة .

وأما حديث : (أمِرتُ أن أقاتِل الناسَ، حتى يقولوا: لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم ، وأموالهم ، إلاّ بحقها) ، فانما ورد في مشركي العرب، الذين لم تقبل منهم الجزية بعد الإذن بقتالهم ، وما أذِنَ للمسلمين بقتالهم إلاّ بعد أن آذووا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وقعدوا لهم كل مرصد، ووقفوا في سبيل الدعوة ، فلم يكن الإذن إلا للدفاع عن الحق وحماية الدعوة ، والغرض من الحديث ، بيان أن قول « لا إله إلا الله » ، كاف في حقن الدماء ، وان لم يكن القائل لها من المشركين معتقداً ، لأن الأمر في ذلك يبنى على الظاهر، ولأن القصد من الاكتفاء بالاسلام ظاهراً ، أن لا يؤذوا المسلمين ، ولا يقفوا عقبة في طريق انتشار الدين ، لأن القصد أن تكون الجزيرة « ممملاً » لأنوار كهرباء الاسلام ، تمتد منها أسلاكه الى كل المعمورة ، ولا يناسب أن يكون في الجزيرة من يحول دون امتداد هذه الأنوار الى باقي الجهات ، ومما يؤيد قولنا : إن الحديث خاص بالمشركين ، وان كان لفظه عاماً ، رواية النسائي له بلفظ (أمِرتُ أن أقاتلَ المشركين) ، ولأن « الناس » بحسب اصطلاح القرآن ، يقصد بها غالباً أهل الشرك ، وقد علمت أن المراد بيان غاية القتال ، لا مشروعيته ، وأن سببه الدفاع وتأمين الدعوة ، ومنع الفتنة ، لا إكراه على الدين المنفي بنص القرآن العظيم .

الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم — وبيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه)

(المادة ٨) — الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم ، إذا كفوا أذاهم عن المسلمين ، وإنما نتعرض لهم إذا تعرضوا لنا بالأذى ، لأن كل إنسان ، حر فيما يعتنق من الأديان ، وأما حديث « من بدّل دينه فاقتلوه » فسببه أنه كان المرتد من مشركي العرب ، يعود بعد ردته ، الى محاربة المسلمين وايذائهم ، وهو مطلع على عوراتهم وقلة عَددهم وعُددهم ، ويعرف مواطن ضعفهم ، فمشروعية قتله ، أظهر من مشروعية قتال جميع المشركين ، المحادين للاسلام ، وكان بعض اليهود ، ينفر الناس من الاسلام ، باظهار الدخول فيه ، ثم باظهار الارتداد عنه ، ليقبل قوله بالطعن فيه كما ورد : ﴿ وقالت طائفةٌ مِنْ أهلِ الكتابِ : آمِنُوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمَنوا وَجْهَ النهار ، واكفُروا آخِرَهُ ، لعلهم يَرجِعون ﴾(٣:٧٢) فاذا هدد أمثال هؤلاء بقتل من يؤمن ثم يرتد ، فانهم يرجعون عن كيدهم هذا ، فالظاهر أن الأمر بقتل المرتد ، كان لمنع شر المشركين من العرب ، وكيد الماكرين من اليهود ، فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر ، وهي التي تسمى في عرف أهل عصرنا ، سياسة عرفية عسكرية .

منع النبي ﷺ بعض المسلمين من اكراه اولادهم المتهودين على الاسلام

(المادة ٩)— إن خير دليل على أن الاجراء الآنف الذكر لم يكن لاضطهاد الناس في دينهم ، هو أن بعض المسلمين أرادوا أن يكرهوا أولادهم المتهودين — على الاسلام — فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك بوحي من الله ، وكان ذلك عند جلاء بني النضير ، والاسلام في أوج قوته ، وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿لا إكراهَ في الدينِ ، قد تَبَيَّنَ الرُشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ (٢:٢٥٦) ، لأن سبب نزول هذه الآية ما روى أبو داود والنسائي وابن حيان وابن جرير عن ابن عباس قال : كانت

المرأة تكون مقلاة — أي لا يعيش لها ولد — فتجعل على نفسها ؛ إن عاش لها أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : ﴿لا نَدَعُ أبناءَنا﴾، فأنزل الله : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ، يقال له « الحصين » كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي صلوات الله عليه وسلامه : ألا استكرههما ، فانهماقدأبيا إلا النصرانية ؟ ﴾ — فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير ، « انه حاول إكراههما ، فاختصموا الى النبي ﷺ ، فقال يارسول الله ، أيدخل بعضي النار وأنا انظر ؟ » ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية — تهويد أولادهم ،ليعيشوا، وأن المسلمين بعد الاسلام ، أرادوا إكراه من لهم من الأولاد الذين تدينوا بدين أهل الكتاب — على الاسلام — فنزلت الآية ، وكانت فصل مابينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي صلوات الله عليه وسلامه ، قال عندما أنزلت : (قد خير اللهُ أصحابكم ، فان اختاروكم ، فهم منكم ، وان اختاروهم ، فهم منهم) .

هذا هو حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه — وفيهم من يظن أنهم من أوليائه — أنه قام بالسيف والقهر ، وكان يُعرَض على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه ، حكم السيف فيه حكمه ، هكذا قال أعداء الدين، ومنهم البروتستانت وبعض الجهلة من أتباع الدين ، ومنهم من له عمامة بيضاء على رأسه .

وهنا نسأل فنقول : هل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان السيد الأعظم ، يصلي مستخفياً ، وكان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من التعذيب ، ولا يجدون رادعاً من المسلمين يردعهم ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون إن ذلك الاكراه وقع في المدينة ، وأكثر

أهلها أسلم طوعاً قبل أن يهاجر النبي اليها ، وقد أعز الله الاسلام بأهلها الأنصار وهذه الآية نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فان غزوة بني النضير ، كانت في شهر ربيع الاول من السنة الرابعة ، نقض بنو النضير عهد النبي فكادوا له ، وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلن يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه باكراه اولادهم المتهودين — على الاسلام — وَمَنْعِهِم من الخروج مع اليهود ، فذلك هو أول يوم ، خطر فيه على بال بعض المسلمين، الاكراهُ على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه : ﴿ لا اكراه في الدين ﴾ (كذا حرره بعض المعاصرين).

مرتبتا الدعوة الى التوحيد

المادة (١٠) — قوله :﴿ ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، أي ندعو الكافر الى التوحيد ، والمسلم الموحد الى فعل الخير وترك الشر ، فللدعوة مرتبتان:

المرتبة الاولى — هي دعوة هذه الأمةِ سائرَ الأمم الى التوحيد والاسلام ، وان يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وهذا مطلوب منا بحكم جعْلِنا أمةً وسطا وشهداء على الناس ، وبحكم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وبحكم قوله في وصف المؤمنين :﴿الذينَ إنْ مَكناهُم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ ، وأمروا بالمعروفِ ،ونَهوا عن المنكر﴾ (٢٢:٤١) ، فالواجب دعوة الناس الى الاسلام أولاً ، فان أجابوا، فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

والمرتبة الثانية — هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ولهذه المرتبة صورتان ، الصورة الاولى ،

الدعوة العامة الكلية ، وانما يقوم بها خواص الامة ، العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه ، وهم المشار اليهم بقوله تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم ، إذا رجعوا اليهم، لعلهم يحذرون ﴾ (٩:١٢٣) ، والصورة الثانية ، الدعوة الخاصة الجزئية ، وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فيه العالم والجاهل، وهو ما يكون بين المتعارفين ، من الدلالة على الخير ، والحث عليه عند عروضه ، والنهي عن الشر، والتحذير منه ، وكل ذلك من التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدر .

جاء في الحديث « المؤمن مرآة المؤمن » رواه الطبراني في الأوسط ، والضياء من حديث أنس ، ورواه البخاري في الادب المفرد ، وأبو داود عن أبي هريرة بزيادة ﴿ والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه ﴾ ، وفي الحديث : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لهم » ، وفي الحديث : « من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال ﷺ : « إذا رأى الناس المنكر ، فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » رواه ابن ابي شيبة واحمد والترمذي وصححه .

الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل

المادة (١١) — قوله : ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ﴾ يعني انه يدعو الى توحيد الله الذي أثبته العقل بالدليل ، ولكنه لم يعرف كنهه ، وليس يدعو الى ما ينفيه العقل ، ويجزم بعدم إمكان تحققه ، كأن يدعو الناس أن يؤمنوا بأن بعض الأنبياء إله كامل ، وإنسان كامل ، وأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، لأن

هذا الدعاء ، ليس على شيء من البصيرة ، يدعو الى توحيد الله الذي أثبته النص والنقل في التوراة والزبور والأنجيل والقرآن المجيد ، وليس يدعو الى ما هو خالد عن البصيرة ، مما لم يثبت نقلاً صريحاً ، كالقول بثلاثة أقانيم ، فان هذا إنما هو شيء ناتـج عن اجتهاد مجتهدي النصاري في المجمـع النيقاوي سنة ٣٢٥ ب. م ولا يجوز الاجتهاد مع وجود النص .

علينا أن نتأسى برسول الله في الدعوة اليوم

المادة (١٢) ــ قولـــــه : ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ : ولذلك فنحن أتباعه اليوم ندعو الناس الي الله بفهم كلامه والتأسي برسوله مـع البصيرة . أي الدليل والبرهان، ندعو المسلمين الى الأهتداء بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، كل بقدر استطاعته ، لكن طالب الاهتداء إذا كان من العامة ، أمكنه أن يسأل العلماء عما يجهل عند الحاجة اليه ، لا عن رأيهم وفهمهم لكلام المقلدين فقط ، بل عن حكم الله ورسوله في الحـادثة ، ولا يلزمه أن يبحث عن الدليل عندما يريد أن يعمل عملا ؛ لأن الله يقول : ﴿ لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلاّ ما أتاها ﴾ (٦٥ : ٧) ، ويقول : ﴿ لِأُنْذِرَكُم به ومَنْ بَلَغَ ﴾ (٦ : ١٩) .

الفصل الرابع

قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الانبياء

آ(١٠٩) وما أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رِجالاً ، نُوحي اليهم ، مِنْ أهلِ القُرى ، أَفَلَمْ يسيروا في الارضِ ، فينظُروا كيفَ كان عاقِبَةُ الذينَ مِنْ قَبلِهِمْ ؟ ولدارُ الآخرةِ خَيْرٌ للذينَ اتَّقَوا ، أَفلا تعقِلون ؟!)

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وتسعة فقام الفقيه الدمشقي وقال: كان قوم نوح يقولون : ﴿ ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلكم ، يُريدُ أنْ يَتفضَّلَ عليكم ، ولو شاءَ اللهُ لأنزلَ ملائكةً ، ما سَمِعنا بهذا في آبائنا الأوّلينَ ﴾ (٢٣: ٢٤) ، وكذلك عاد وثمود : ﴿ إذْ جاءتهم الرسُلُ مِن بين أيْديهِم ومن خَلفِهم : أنْ لا تعبُدوا إلا اللهَ — قالوا : لو شاءَ رَبُّنا لأَنزلَ ملائِكةً ، فإنا بما أرسِلتم به كافرون ﴾(٤١ : ١٤) ، وكذلك أهل مكة طلبوا أن يرسل اليهم مَلَك ، كما قال تعالى في سورة الأسراء المكية : ﴿ وما مَنعَ الناسَ أنْ يُؤمِنوا إذْ جاءَهم الهُدى إلا ان قالوا : أبعثَ اللهُ بَشَراً رسولاً ؟ ! — قلْ : لو كانَ في الأرض ملائكة يَمشُونَ مطمئِنّينَ ، لنَزَّلنا عليهم مِنَ السماءِ مَلَكاً رسولاً ﴾(١٧: ٩٤ و ٩٥) ، وكذلك نفر من اليهود : ﴿ وما قدَرُوا اللهَ حَقَّ قدرِه ، إذ قالوا : ماأنزل اللهُ على بَشَرٍ من شيءٍ ﴾ (٦ : ٩١).

هذا ولما قال أهل مكة ما قالوه كغيرهم ، قال تعالى لنبيه ﷺ (وما

أرسلنا من قبلك) يامحمد (إلا رجالاً) لا ملائكة (نوحي اليهم من أهل القرى) وهي المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم « بالعواصم » — وهذا من قبيل قياس الحاضر من الماضي — (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين لك يامحمد (فينظروا كيف كان عاقبة) آخر أمر (الذين من قبلهم) يعني الأمم المكذبة ، فيعتبروا ، فانهم متى وقفوا على ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال تعالى (ولدار الاخرة خير للذين اتقوا) الذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه (أفلا تعقلون ؟) أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة في الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير .

(أَفلم يسيروا في الأرض ... الخ)

— ١ —

وتابع الفقيه الدمشقي كلامه معلقاً على الآية بما يلي :

تطبيق القول على الواقع

التعليق الأول — سبق أن الله تعالى بما قص عليهم من سيرة يوسف واخوته — علمهم بالقول ، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به ، نبههم إلى النظر في الامور الواقعة فقال : ﴿ أفَلَمْ يسيروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبلِهِمْ ﴾ وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿ فَسيروا في الأرضِ فانظُروا كيف كان عاقبةُ المُكَذِّبينَ ﴾ (٣ : ١٣٧) أي أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت في الأمم الماضية ، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل ، وكان ذلك يجري بأسباب مضطردة ،وعلى طرائق مستقيمة،يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ، وأن من ينحرف

عنه يخذل ، فليسيروا في الأرض ، وليَستَقْرُوا ما حلّ بالأمم ، ليحصل لهم بذلك العلم الصحيح التفصيلي، لأن السير في الأرض،والبحث عن أحوال الماضين، وتعرّف ما حلّ بهم ، هو الذي يوصل إلى معرفة سنن الله في خلقه ، والاعتبار بها كما ينبغي ، نعم إن النظر في التاريخ ، وسماع قصص الماضين ، يعطى الانسان من المعرفة . ما يهديه إلى تلك السنن ،ويفيده عظة واعتباراً ، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه .

الحث على السياحة المفيدة والاحسان الى السائح

التعليق الثاني — لأجل الترغيب في السير في الأرض للنظر في أحوال الأمم، ولأجل الاعانة على السياحة ، لرؤية الآثار وسماع الأخبار ، أمر الله بالاحسان الى السائح في قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ، واليتامى والمساكين ، والجارِ ذي القُربى ، والجارِ الجُنُبِ ، والصاحِبِ بالجَنْبِ ، وابنِ السبيلِ ﴾ (٤ : ٣٥) فابن السبيل ـ في قول ـ هو السائح الرحالة ، في غرض صحيح غير محرّم ، سواء أكان دينياً أو اجتماعياً أو سياسياً،أو علمياً أو اقتصادياً ، ففي هذه الآية بل الآيات تنبيه إلى أصل عظيم من أعظم أصول العلم التي تُستفاد من السياحة،واختبارأحوال الأمم وعواقبها ، وهذا العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة ، هو المعبر عنه في هذا العصر « بعلم الاجتماع » .

أهل القرى وأهل البوادي والأعراب

التعليق الثالث — قلنا المقصود من القرى في قوله « من أهل القرى » المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم بالعواصم ، وإنما كان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة ، لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا ، فالرسل تبعث من أهل المدن والأمصار ، لأنهم أعقل من أهل البوادي ، وأرق طباعاً وألطف

عريكة ، واعلم وأحلم من أهل العمود ، بخلاف أهل البوادي ، الذين هم من أجفى الناس طبعاً وأخلاقاً، أما أهل الريف والسواد فإنهم أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي » ، وقد وردت في أهل البوادي آيات كثيرة ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً ، وأجدرُ ألاّ يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ ، واللهُ عليمٌ حكيم ، ومِنَ الأعرابِ مَنْ يتَّخذُ ما يُنفِقُ مَغْرَماً ويَتَرَبَّصُ بكم الدوائرَ ، عليهم دائرةُ السَّوْءِ ﴾ (٩٨:٩). واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ قالتِ الأعرابُ آمنّا ـ قُلْ : لم تُؤمنوا ، ولكنْ قولوا : أسْلَمْنا ، ولمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبِكم ﴾ (٤٩ : ١٤) . واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وجاء المُعَذِّرُون مِنَ الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم ، وقَعَدَ الذين كَذَبوا اللهَ ورسولَهُ ، سيُصيبُ الذين كفَروا منهم عذابٌ أليمٌ ﴾ (٩١:٩) — المُعَذِّر من عَذَّر في الأمر إذا قصّر فيه وتوانى ولم يجدّ ، وحقيقته ان يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له — قرن هؤلاء المعذرين بالمنافقين ، ووعد كلاًّ بالعذاب الأليم ، وقال تعالى : ﴿ سيقول لك المُخَلَّفونَ مِنَ الأعراب : شَغَلتنا أموالنا وأهْلونا ، فاستغفِر لنا، يقولونَ بألسِنتهم ما ليس في قُلوبِهم — قلْ : فَمَنْ يملِكُ لكم مِنَ اللهِ شيئاً ؟ إن أرادَ بكم ضَرّاً أو أرادَ بكم نَفْعاً ، بل كانَ اللهُ بما تعملون خبيراً ، بل ظَنَنْتُم أن لن يَنقلبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم ، وظَنَنْتُم ظَنَّ السَّوْء ، وكنتم قوماً بُوراً ﴾ (٤٨:١٠و١١) .

الاستدلال بالقياس الاستقرائي على صحة الدعوة

التعلق الرابع — تقدم أنه قال : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ،

أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ ، فهذه دعوى صورتها: أنهم إن لم يؤمنوا صارفيهم هكذا وهنا استدل على صحة هذه الدعوى بالقياس الاستقرائي ، ومعلوم أن القياس الاستقرائي أعلى مرتبة من جميع القياسات التي تثبت بها حقائق الأشياء ، فإذا ثبت لدينا شيء بواسطته ، لايسعنا إنكاره ، وإذا أنعمنا النظر نرى أن علم أ كثر أشياء هذا العالم ، وعلم حوادث الدهور الغابرة والأزمنة الماضية — إنما حصل لدينا بواسطة الاستقراء ؛ خذ اليك مثلاً : نحن نقول الآن : إن الإنسان منذ خلق يأكل بفمه ، وينظر بعينيه ، ويسمع باذنيه ، ويشم بأنفه ، ويتكلم بلسانه ، فإذا ادعينا خلاف هذا نكون قد نفضنا أيدينا من النتائج القطعية الثابتة لدينا من الاستقراء .

الانبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي

التعليق الخامس — قوله : « إلا رجالاً نوحي اليهم » ، يراد بهذا الحصر الرد على مزاعم ثلاث :

فأولاً — الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبية ، كما هو مذهب اليهود والنصارى ، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين ، وهذا الرد وإن يكن صحيحاً ، لكنه غير مراد هنا .

وثانياً — الرد على مشركي العرب ، إذ قالوا : ﴿ لولا أُنزِلَ عليه مَلكٌ ؟ ﴾ (٦:٨) ، ﴿ أو جاءَ معهُ مَلكٌ ﴾ (١١:١٢) ، ﴿ لن نُؤمِنَ لك حتى ... تأتي باللهِ والملائكة قبيلاً ﴾ (١٧:٩٢) وهذا قد يكون مراداً هنا .

وثالثاً — الرد على من يقولون إن الأنبياءهم سياسيون محنكون ، استفادوا من حنكتهم وحسن سياستهم تأييد سلطتهم وتصحيح دعواهم النبوة ، وهذا مايعتقده ويزعمه في نبينا بعض مشركي العرب ، كما يعتقده اليوم أهل أوربا ، أي

أنهم يعتقدون أن النبي القرشي ، قام بما قام به ، بحنكته وسياسته ، لا بتأييد الله تعالى له بوحيه وعنايته به ، ومثل الافرنج في هذا الرأي ، كل من لا يدين بدين الإسلام من علماء نصارى الشرق ، فدعوى أن نجاح النبي ﷺ كان بسياسته وحنكته أي بتجاريه ، هي أكبر شبهتهم على الإسلام ، حتى أنهم لولاها لكانوا مسلمين ، ومن هؤلاء الدكتور « شميل » اللبناني الشهير ، إذ يقول من أبيات يمدح بها النبي ﷺ : « رجل الحجا رجل السياسة والدّها » ومنهم البرنس « كايتاني » الإيطالي ، فإنه ألف كتاباً في تاريخ الإسلام ، ذكر فيه آن مزية النبي (ص) هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك ، وهو يعتبر أن ماتم على يديه ، إنما كان بالدهاء والسياسة وسمو الأفكار وعلو الأخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال ، « كبسمارك » و « نابليون الأول » وإن ماادعاه من النبوة ، وماجاء به القرآن ، لا تأثير لهما في نفسها ، وإنما التأثير له هو بنفسه وبها ، لأنه استخدمها في تأثير سياسته .

هذا ملخص ما كان يعتقده بعض مشركي العرب ، ثم صار أهالي أوربا يعتقدونه ويقررونه ويشرحونه ببسط ، فالله تعالى يرد عليهم ، بهذه الآية وأمثالها فيقول : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ ،أي ما كان الرسل إلا رجالاً عاديين ، إنما امتازوا عن باقي الرجال وتأيدوا بالوحي السماوي .

نعم الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا بد أن يكون الرسل من دوي الفصاحة وقوة الحجة والعارضة ، ومن أهل الفطانة والذكاء ، ولكن مجرد هذا لا يعلوبهم عن أمثالهم من الرجال الفصحاء الفطناء الأذكياء ، أقوياء الحجة شديدي العارضة وانما الذي بهم عن الرجال ، ويميزهم عنهم ، هو الوحي والتأييد الالهي السماوي ، فهذه هى الخاصة التي تعلو بهم إلى الثريا ، ويمتازون بها عن كل من عداهم ، من فصحاء وأذكياء كل الرجال .

وعليه فيكون معنى الاية حينئذ وما أرسلنا من قبلك رجالاً، يكون جل أو كل اعتمادهم ونجاحهم، على أخلاقهم ومزاياهم الشخصية، أو على حسن سياستهم وحنكتهم ودهائهم، .. كلا .. وإن هذا وحده لا يفيد، ولكن إنما أرسلنا رجالاً جل اعتمادهم أوكله على الوحي، الذي نسدد به خطاهم، وبه نرشدهم ونثقفهم ونؤدبهم، وبه ننصرهم ونعضدهم ونؤيدهم، فالخاصة التي يمتازون بها عن باقي الرجال العقلاء الفطناء، ويعلون بها على الفصحاء والبلغاء، ويتشرفون بها فوق كل السياسيين والمحنكين والحكماء، هي الوحي، كالقرآن مثلاً، فالقرآن هو السبب في نجاح النبي المختار، وفي هداية المسلمين.

تطمين محمد ﷺ بالنصر

آ(١١٠) ﴿... حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية المئة وعشرة، فقام الاستاذ الخوارزمي (١) وقال:

«حتى» هذه متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام «فكأنه قيل: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم (حتى إذا) حمي الوطيس، وقامت الحرب على ساق و (استيأس الرسل) وقنطوا من نصرهم العاجل في الدنيا، فهماً منهم أنهم سوف ينصرون في الاخرة (وظنوا أنهم قد كذبوا) — فيه قراءتان، فان قريء بالتخفيف على البناء للمجهول فمعناه: ظنوا أنهم كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم

(١) نسبة الى بلدة خوارزم في تركستان.

بأنهم ينصرون ، أو ظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم ، وهذا نظير قوله : ﴿ أم حسبتم أنْ تدخلوا الجنة ولما يأتِكم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم : مَسَّتْهُم البأساءُ والضّراءُ وزُلزلوا ، حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه : متى نصرُ اللهِ ؟ ألا إنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ ﴾ (٢:٢١٤) .

وإن قُرِيء بالتشديد على البناء للمجهول أيضاً فمعناه : ظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذّبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر — وعند ذلك (جاءهم) أي الرسل (نصرنا) فجأة ، من غير احتساب (فنجي من نشاء) عند نزول العذاب ، وهم المؤمنون المطيعون ، لأنهم الذين يستأهلون نجاتهم (ولا يرد بأسنا) عذابنا في تلك المعركة (عن القوم المجرمين) مهما أعدوا لها العدة ، بل يحيط بهم من كل جانب .

(حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا .. الخ)

وقال الشيخ عبد الرحمن رياض الحيدر آبادي : عندي على هذه الاية التحقيقان التاليان :

الله سبحانه وتعالى يطمن محمدا ﷺ بأنه ناصره في دعوته

التحقيق الاول — لقد كان النبي ﷺ يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه ، والحق يسطع نوره ، وهم يعمون عنه ، حتى قال الله له : ﴿ فلعلّك تارِكٌ بعضَ ما يُوحى اليك وضائِقٌ بهِ صدرُكَ ، أنْ يقولوا : لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ أو جاء معه ملَكٌ ، إنما أنتَ نذيرٌ ، واللهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ ﴾ (١١ :١٢) وقال له : ﴿ قد نعلمُ إنّهُ ليَحزُنُكَ الذى يقولونَ ، فإنهم لا يُكذبونَكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يجحدُونَ ، ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قبلِكَ ، فَصَبروا على ما كُذّبوا وأوذوا ، حتى آتاهم نَصرُنا ، ولا مُبَدّلَ لكلماتِ الله

ولقد جاءكَ منْ نبأ المرسَلينَ ، وإنْ كانَ كَبُرَ عليك إعراضُهم ، فإنْ إستَطَعْتَ أنْ تبتغي نَفقاً في الأرضِ ، أو سُلماً في السماءِ ، فتأتيهمْ بآيةٍ ... ولو شاءَ اللهُ لجمَعَهُمْ على الهدى، فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلينَ ﴾(٦ : ٣٣-٣٥) وقال تعالى : ﴿ إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ، ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً ، فسبِّح بحمْدِ ربِّكَ واستغفِرْهُ إنه كانَ تواباً ﴾(١١٠:١-٣) وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ، مايدل على النبي ﷺ كان يضجر ويقلق من استبطاء نصر الله للحق ، الذي بعث به نبيه ، بل فيه شيء من السهو عن وعدالله بتأييد دينه ، وليس ذلك من النقص الذى يعاب به الأنبياء ، فان كل مخلوق لا يعلم من غيب الله مايعلم الله ، لا بد أن يمسه هذا الضجر ، ويصيبه هذا القلق ، وتأخذه الشدة بهذا النسيان ، حتى يكون الكمال لله وحده ، ولكن الله جل شأنه يعده على أقرب المقربين اليه ، كما قالوا : (حسنات الأبرار سيئآت المقربين) .

تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها

التحقيق الثاني — الأظهر المنطبق على قواعدالعقائد ،أن المرادباستيآس الرسل يأسهم من ايمان قومهم ، وفى قوله تعالى (كُذبوا) بضم الكاف، قراءتان سبعيتان احداهما بتشدبد ذال (كذبوا) ولا إشكال فيها ، غير ان الظن فيها بمعنى اليقين لانه قد يستعمل في الفصيح بهذا المعنى وبمعنى الوهم ، وبمعنى حديث النفس ، والقرائن هي التي تعين المعنى المراد ، والقراءة الثانية بتخفيف ذال (كذبوا) ، وفي تطبيق القواعد عليها وجهان : أحدهما ان الضمير في (ظنوا) لأقوام الرسل: أي ظن الأقوام انهم كذبوا فيما أوعدوا به من وقوع العذاب عليهم ، وثانيها ان الضمير للرسل ، و (كذبوا) ههنا ، معناه : كذبتهم أنفسهم فيما تمنوا وأملوا في قومهم ، أي خابت آمالهم فيهم ، من كذبته نفسه . اذا منته الأماني وخيلت اليه من الآمال مالا يكاديكون ، قال في الاساس: (وكَذَبَ نفسه ،وكَذَبَتْهُ نفسه.

اذا حدثته بالاماني البعيدة والامور التي لا يبلغها وسعه ومقدرته)، والمعنى حتى اذا يئس الرسل من ايمان قومهم وظنوا : أي يقنوا أن امانيهم في ايمانهم وآمالهم في قبولهم الدعوة ضائعة ، جاءهم نصرنا، وورد أن عائشة (رض) كانت تنكر قراءة التخفيف ، كما في صحيح البخاري من طريق عروة بن الزبير ، وقد علمت أن العلماء خرّجوا هذه القراءة على معني مستقيم والله تعالى أعلم .

هذه كلمتي القيتها على أسماعكم الشريفة ، وما اشبهني بمن قيل فيه :

فانك واستبضاعك الشعر نحونا　　كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا

فانني أيها السادة أجنبي عن لغتكم ، وأنتم الأصل والأهل .

(مرحى مرحى ولا فض فوك).

الفصل الخامس والاخير

العبرة من قصص الرسل مع اقوامهم

آ (١١١) (لقد كانَ في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الألباب ، ما كانَ حديثاً يُفْترى ، ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يَدَيْهِ ،وتَفصيلَ كلِّ شيءٍ ، وهُدَىً ورَحْمةً لقومٍ يُؤمِنُون)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة واحدى عشرة ، وهي الآية الاخيرة في السورة ، فقام الفهامة الشيخ احمد من علماء « عليكرة » في الهند وقال:

يقول الله تعالى : بذاتي حلفت (لقد كان في قصصهم) أي في خبر المرسلين مع قومهم وذويهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ، وكيف نصرنا

المظلومين على الظالمين (عبرة لأولي الألباب) وعظة لذوي العقول، فانتاريخ الرسل حافل بالمواعظ والذكريات (ما كان) القرآن المجيد (حديثاً يفترى) يكذب ويختلق من دون الله (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب السماوية ، كصحف ابراهيم والتوراة والانجيل والزبور ، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ، ويشير لما وقع فيها من نقصان ، ويحكم عليها بالتقرير لأكثرها ، والنسخ لبعضها (وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والأخبار عن الأمور الجلية ، وعن الغيوب المستقبلة ، المجملة والتفصيلية ، والأخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان (هدى ورحمة) وبياناً ونعمة (لقوم يؤمنون) تهتدي قلوبهم من الغي الى الرشاد ومن الضلال الى السداد .

(لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب)

—١—

وقال السيد نور الدين من علماء سنغافورة (١) ههنا موادجميلة المسالك على هذه الفقرة من الآية الكريمة جمعناها من هنا وهناك وهنالك واليك بيانها:

محمد ﷺ مؤسس امة وامبراطورية وديانة

المادة (١) — قال « بوسورت سميث » في كتابه « حياة محمد » «من حسن الحظ في التاريخ دون غيره أن « محمداً » أسس في وقت واحد ، ثلاثة أشياء من عظائم الأمور ، وجليل الأعمال ، فانه مؤسس لأمة ، وامبراطورية ، وديانة ، مع أنه أمي»

(١) نسبة الى بلدة سنغافورة في شبه جزيرة مالاقا جنوب الهند الصينية

وما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب ، ومع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد » وقال الدكتور « موريس » الفرنسي « إن القرآن أفضل كتاب أخرجته يد العناية الأزلية لبني البشر ».

الغاية من قصص القرآن

المادة (٢) — قص علينا القرآن أحسن القصص ، ليكون عبرة وذكرى وشفاء للقلوب من أمراض الجهالة ، وارشاداً لتقويم شؤون البشر ،وتهذيب نفوسهم، واصلاح معاشهم ومعادهم ، وليس الغرض من تلك الأقاصيص ، سرد تواريخ الماضين ، وذكر شؤونهم وأطوارهم ، ولكنها للعظة والاعتبار ، ولهذا لا يبالى فيها بالتكرار ، ولا يستهجن معها الاطناب بعد الايجاز ، أو الايجاز بعدالأطناب، ولا أن تسرد غير مُراعى فيها تعاقب الوقائع ، ولاترتيب الحوادث ، فالقرآن يذكر القصة في مواطنها ، بأساليب متغايرة ، أو صور متقاربة . ولكل منهامغزى لايؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه ، والى هذا يشير قوله تعالى هنا : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكُلاً نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُسُلِ ما نُثَبِّتُ به فوآدَك وجاءَك في هذهالحقُ،وموعظةٌ وذِكرى للمؤمنين ﴾ (١١: ١٢٠) .

هذا ولم تتكرر قصة يوسف لأنها قصة محزنة مؤسفة ، ولأن فيها من ذكر ما يتعلق بالعرض والناموس مالا يتفق مع التكرار .

الغاية من ذكر الأنبياء وقصصهم في القرآن

المادة (٣) — ورد قوله تعالى بعد ذكر ثمانية عشر نبياً : ﴿ أولئك الذين هدىَ اللهُ ، فبهُداهمْ اقتَدِهْ ﴾ (٦: ٩١) فالغرض من ذكر الأنبياء وحوادثهم القدوة بهم في التبليغ واقامة الحجة والصبر على التكذيب مثلاً ، والصبر على إيذاء

أهل العناد ، والأقارب والأباعد ، واعطاء كل حال حقها ، من مكارم الأخلاق ، وأحاسن الأعمال ، والفائدة موجودة دائماً في كل قصص ، حتى في قصص يوسف مع امرأة العزيز وسيرة عشقها له ، ومراودتها إياه ، ثم في سيرة عشق النسوة المصريات لجماله ، فان ذلك كله قد اقترن بما يدفع الانسان عن التدهور في مثل هذه الوهدات التي تنزل بالنساء الى الحضيض الأسفل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورَحمةٌ للمؤمنينَ — الى أن قال — ولا يزيدُ الظالمينَ إلا خساراً ﴾ (١٧ : ٨٢) وقال تعالى : ﴿ واذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ ، فمنهم مَنْ يقولُ: أيُّكم زادَته هذه إيماناً ؟ فأما الذينَ آمنوا فزادَتهمْ إيماناً وهمْ يستبشِرونَ وأمّا الذين في قلوبِهم مَرَضٌ فزادَتهم رِجساً الى رِجسِهم ، وماتوا وهم كافرون ﴾ (٩ : ١٢٥و ١٢٦) فكل أحد يرغب في سماع هذه القصة ، لتحريك المحبة المذمومة ، أو يرغب عن سماعها ، دفعاً لهذه المحبة ، فهو مذموم ، وانما الممدوح من يحب سماع تلك السيرة لما حوته من العبر والذكر ، وما يستفاد من عواقب العشق السيئة ، وكذا كل من أحب أن يسمع هذه السورة لتعلم ضروب الحيل ، فهو مذموم ، ولكن الممدوح من يتدبر بعض هذه الحيل بما اشتملت عليه من النتائج السيئة ، والبعض الآخر بما شمله من العواقب الحسنة ، وهكذا كل من لذّ له أن يسمع ما انطوت عليه من الحسد والعقوق وقطع الرحم والختل والكذب والقساوة وخلف الوعد فهو مذموم ، وانما المشكور من قرأ ذلك وعلم ما فيه من نتائجه السيئة وعواقبه المكروهة ، ثم التوبة منه الى الله والى الناس الممكور بهم .

وليس ماذكر خاصاً بسورة يوسف ؛ فقد ذكر الله تعالى في غير هذه السورة أحوال الكفار والفجار واللوطية والفراعنة والظلمة ، ثم الشرك بأنواعه ، والكفر بأسبابه ، وسائر ضروب الفسق ، والحسد وقطع الرحم والعقوق والكذب والاحتيال ونقض العهود وخلف الوعود ، الى غير ذلك مما فيه ذكر معاصي الله.

والصد عن سبيله ، فهذ الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والكفريات وأنواع الفسوق، وكله مذكور في كتاب الله تعالى، ولكن ذكره محفوف بالنهي والترهيب وبيان سوء المغبة ، وقبح السمعة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات

المادة (٤) — القرآن ليس بتاريخ ، كما هو الشأن في سفر التكوين ، وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل والملوك والأيام وعزرا والخ والخ فإن هذه الأقاصيص ، هي تاريخ محض جاف خال عن العبرة .

القرآن لا ينشر إلا التقوى والفضيلة بين الناس ، ولذلك نص نصاً صريحاً ببراءة الأنبياء الكرام ، الذين رماهم « أهل الكتاب » بالكبائر . راجع القرآن وقوله :﴿ وما كَفرَ سُليمانُ . ولكن الشياطينَ كفروا ﴾ (٢ : ١٠٢) وهو رد على توراة اليهود التي تنسب لسليمان — حاشاه — عبادة غير الله .

راجع القرآن وقوله : ﴿ قالوا : ما أخلَفْنا مَوْعِدَكَ بملْكِنا ، ولكنّا حُمِّلْنَا أوْزاراً منْ زينةِ القومِ فقَذَفْناها فكذلك ألقى السامِرىّ ، فأخرَج لهم عِجلا جسداً له خوارٌ ـ فقالوا : « هذا إلهكم وإله موسى فنسيَ » أفلا يرونَ أنْ لا يرجعُ اليهم قَولا ، ولا يملِكُ لهم ضَراً ولا نَفْعاً؟ ولقد قال لهم هرونُ منْ قبلُ : « ياقومِ إنما فُتِنتُم به وإنّ رَبّكُمُ الرحمنُ ، فاتبعوني وأطيعوا أمري » .. ـ قالوا : لَنْ نَبْرحَ عليه عاكِفينَ حتى يَرجعَ الينا موسى » ... قال : ياهرونُ ما مَنَعَكَ إذْ رأيْتَهُم ضلّوا ألاّ تتّبِعَنِ ؟ أفعَصَيْتَ أمري ؟ .. ـ قال : « يا ابنَ أمّ لا تأخذ بِلحيتي ولا برأسي ، إني خشيتُ أنْ تقول : « فرّقتَ بين بني اسرائيل ، ولم ترقُب قولي » ـ قال : « فما خطبُكَ ياسامريّ ؟» ـ قال : « بَصُرتُ بما لم يَبصُروا به ، فقَبَضْتُ قَبضَةً مِنْ أثرِ الرسول ، فنَبَذْتها ، وكذلك سَولتْ لي نفسي » ـ قال : « فاذهبْ

فإن لك في الحياة أن تقول: «لا مساس»[1] وإن لك موعداً لن تخلفه، وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً» (٢٠ : ٨٧ - ٩٧) فهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين يقولون إن هرون هو الذي صنع لهم العجل الذهبي (خر ٣٢ : ١ - ٦).

القرآن لم يذكر من تاريخ الأنبياء ونحوهم الا ما فيه عبرة، وما به تغذية النفوس بالصلاح والاستقامة وتحصين الاخلاق والآداب — بسياج الفضيلة، ولكن كتب اليهود والنصارى تقول مافيه افساد للأخلاق وتعليم للرذيلة، اقرأ ماجاء في (تك ٩ : ٢٠ — ٢٧) عن ترجمة حياة نوح، وما جاء في (تك ٢٧ : ٢٥) عن سكر الانبياء، وماجاء في (خر ٢٩ : ٤٠) و (لا ٢٣ : ١٣) عن إيجاب تقريب الخمرة للرب، وما جاء في (٢ صم ٦ : ١٩) عن سقي داود الخمرة لمن أصعد تابوت الرب إلى مدينة داود وما جاء في (يو ٢ : ٧ — ١٠) عن تحويل المسيح الماء خمراً وتقديمها للضيوف وما جاء في (مت ٢٦ : ٢٧) عن شرب المسيح الخمرة وأمره تلاميذه أن يشربوا منها، وما جاء في (تك ١٩ : ٣٠ — ٢٨) عما فعله لوط مع ابنتيه،

(١) المراد من قوله « لا مساس » أنه كان في شريعة موسى عليه السلام ان الذي يرتكب خطيئة كبيرة، يعد كأن به داء معديا، فينفصل عن سائر الشعب، خارج المحلة، باعتبار أنه نجس. وكان عندهم يجب عليه أن يعلن مرضه ذلك، بثيابه واشارته وكلماته، وذلك بأن تشق ثيابه، ويكشف رأسه، ويغطي شاربيه، ويطرد من المحلة أو المدينة الى الخارج، ويلزم أن يصرخ متى رأى أحداً مقترباً اليه، فيقول: لامساس لامساس، أو يقول: نجس نجس، ويبقى على هذا الحال الي أن يتاب عليه، فيرجع ويختلط بالناس، وتختلط الناس به، ويعاشرهم ويعاشرونه، وهذا قريب من « الهجر » المشروع في الاسلام، لمرتكبي الكبائر، كما في قصة « كعب بن مالك » و « زرارة بن الربيع » و « هلال بن أمية » المشار اليهم في قوله تعالى : [وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، ان الله هو التواب الرحيم] (٩ ١٩) اهـ.

فأي عبرة في سرد ذلك للقارئين ؟ وما هو منفعته للسامعين ؟ بل ماهي الحكمة وما هي العبرة في ذكر جريمة لوط — حاشاه من ذلك — التي أتت في كتبهم كأنها أمر عادي ، وكأن لوطاً لم يرتكب منكراً ، حتى لم يذكر أن الله وبخه أو عاقبه على ذلك ، أو أنه تاب من ذنبه ، بل العجيب أن الكتاب المقدس ، سماه باراً تقياً (٢ بط ٢ : ٧ — ٩) ، فأي عبارة أتى بها الكاتب لبيان شناعة هذا العمل الفظيع ، واستقباحه له ، أو وجوب التوبة منه ؟ وقد قالوا إن الحكمة في ذكر هذه القصة وأمثالها هي إظهار درجة قبح شرب الخمر ، وبيان ماتؤدي اليه ! ! ! ونحن نقول إنما افتجر اليهودهذه القصص تبريراً لشرورهم الكثيرة ، وعصيانهم لله مرات عديدة ، واعتذاراً بها عن جرائمهم وآثامهم المتكررة المستمرةإلى اليوم .

القرآن لايذكر من تاريخ داود ، إلا مافيه عظة وعبرة لأولي الألباب ، ولكن سيرة داود عند اليهود والنصارى ، معروفة مشهورة ، وقساوته وظلمه ، لامثيل لهما — حاشاه — ، اقرأ ما جاء في (٢ صم ١٢ : ٣١) و (١أي ٢٠:٣) عن نشره أسرى بني عمون بالمناشير ونوارج الحديد والفؤوس ، وما جاء في (١مل١٥ : ٥) عن تعريضه أوريا الحثي وزناه بزوجته ، وماجاءفي (١صم٢١:٢) من كذبه وتعليمه الكذب ، وما جاء في (١ صم ١٨ : ٢٥ و ٢٧) من قتله ٢٠٠ من الفلسطينيين ليتزوج ابنة شاول ، وما جاء في (١ مل ٢ : ٨ و ٩) من وصيته لابنه سليمان وهو محتضر بقتل رجل ، وما جاءفي (٢ صم ١٣ : ١— ١٤) من حزنه على ابنه «أمنون» حينماقتل،مع أنه فسق باخته بعد أن خدعها خدعة دنيئة ، وما جاء في (٢ صم ١٤ : ٢٤ و ٢٨) من أن داود حقد على ابنه أبشالوم الذي قتل أخاه « أمنون » انتقاماً لاختها ؟ وداود هذا ، هو الرجل الذي نصت كتبهم على أنه كان باراً ، وان جميع أعماله مرضية عند الله تعالى ، وكلها مستقيمة ، في عيني الرب ، وطبق وصاياه ، (١ مل ١٥ : ٥) .

قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والاخلاق

المادة (٥) — لانرى قصه من قصص القرآن ، إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية ، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، وإرشاد ونصح ، وتبصرة وتذكرة ، ونرى القرآن يعرض عن كثير من الوقائع التاريخية التي لالزوم لها ، ولامعول عليها ، وبالأولى تراه يعرض عما ذكرته توراة اليهود ، التي بين أيديهم ، من الحوادث المخجلة الشائنة ، التي نوهنا بالشيء الكثير عنها .

لافائدة من درس التاريخ ان عدل به عن العبرة

المادة (٦) — درس التاريخ أن عدل به عن العبرة ، كان شغلا بلا فائدة ، وضياع وقت وحياة بلا ثمرة ، و « العبرة » مشتق من عبور البحر ، فينقل قاريء التاريخ حال غيره على نفسه ، ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق الراهنة المنوطة بشخصه ، أو بأسرته أو بأمته ووطنه ، وبدينه ودنياه ، وهو ما أريد به من قصص القرآن التاريخية ، قال تعالى : ﴿ ماترى في خَلْقِ الرحمنِ مِنْ تفاوتٍ ﴾ (٦٧ : ٣) وقال : ﴿ كذلك قال الذين مِن قبلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تشابَهَتْ قلوبُهم ﴾ (٢ : ١١٨) ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ فليس تحتَ الشمسِ منْ جديدٍ ﴾ (جا ١ : ٩) ، ويقول العلماء : « التاريخ يعيد نفسه » ، وقد غفل الناس عن تلك العبرة ، جهالة بالقصد ، ورمياً للفحوى ، ورضى بالقشور ، وابتعاداً عن أسرار البلاغة : جاء الخطاب بلسان العرب ، وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها ، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها ، أو المعاني دون مغزاها ، وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ، ذكر له قصصاً تشبه حاله ، فيردعه عن غيه ، فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام ، وتثير في القلب حمية

وإقداماً ، أو خيفة وإحجاماً أو صلاحاً واستقامة ، فيزول المراء ، ويرتفع الغطاء فان المثل في مغزاه ، كالسهم في مرماه .

قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة

المادة (٧) — إن جمال قصة يوسف ، سائق لما به السعادة ، وهو حفظ الأخلاق ودوام الثقة بالله تعالى ، وانتظار الفرج منه ، فإذا قرأ القاريء ، أن يوسف كان عفيفاً ، حين راودته زليخا لكي يخالطها ، تشوق القاريء الذكي التقي أن يكون كيوسف ، عفة وأمانة ، وكذلك يقلده في العفو ممن ظلمه ، وسماح من تعدى عليه ، بل في نفعه وتشريفه ، ويقول في نفسه : إن هذه الأخلاق اليوسفية ، كانت عاقبتها النبوة والملك ، فهكذا من قلده في أخلاقه ، تكون عاقبته الولاية والرفعة .

ليس المقصود من قصة يوسف ، أن نلوم إخوة يوسف على حسدهم له ، ولكن المقصود أن نلوم أنفسنا عندما يحصل منا حسد لاخوتنا ، وليس الغرض أن تتكدر منهم حينما احتالوا على أبيهم وغدروا بأخيهم ، ولكن الغرض أن نتكدر من أنفسنا عندما نجري الحيل على بعضنا ، ويغدر بعضنا ببعض ، وليس المطلوب أن نعترض على اخوة يوسف وقتما نراهم قد قطعوا الرحم ، وقذفوا بأخيهم في غيابة الجب ، وإنما المطلوب أن نعترض على أنفسنا وقتما تحصل منا أعمال شاذة وحشية كهذه مع ذوي رحمنا وأقاربنا .

كما أنه ليس بالاخبار بلقيا يعقوب لولده يوسف ولمّ شمله به ، واجتماع الأسرة الاسرائيلية جميعاً ، في صعيد واحد ، مطمئنين مسرورين ، وإنما المراد أن نفرح بلم شملنا نحن المسلمين ، وجمع كلمتنا واتحادنا واجتماعنا جميعاً ، تحت راية واحدة ، وتحت إمام واحد .

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

المادة (٨)ـــ لقد كان في قصص يعقوب وأولاده عبرة،فليعتبر بذلك هؤلاء الناس ، الذين اقتصروا على معرفة الفروع الفقهية ، وظنوا أن الحلال والحرام ، كافيان في الإسلام ، وكم تركوا العظة بآيات كثيرة ، بحجة أنها نزلت في الكفار أو المنافقين ، فلا لزوم للتأمل فيها والاتعاظ بمراميها .

ليقيسوا حالهم على حالهم، وليقيس كل من كان اليوم من ذرية النبي ﷺ أو غيره من الصحابة ، كأبي بكر أو عمر (رض) ـــ نفسه على أولاد يعقوب ، ويعلم أن كل من كان من السلالة المحمدية أو البكرية أو العمرية مثلاً ، فهو بين شيئين ؛ إن كان من الصالحين المتقين ، كان على قدم يوسف عليه السلام ، وإن كان من المذنبين ، احتاج للتوبة وكان على قدم اخوة يوسف رحمهم الله تعالى ، فيوسف واخوته كلهم من سلالة بيت نبوة ؛ لكن يوسف إنما انتفع باستقامته وتقواه ، كما أن اخوته إنما انتفعوا بتوبتهم إلى الله ، وهكذا كل من كان اليوم من سلالة الحسين أو الحسن أو أبي بكر أو عمر (رض) أو نحو ذلك ، لاينفعهم عند الله العمل الصالح والتقوى ، والسيرة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ وقلْ اعملُوا ، فَسَيرى اللهُ عملَكم ورسُوله والمؤمنونَ ، وستُردُّون إلى عالم الغيْبِ والشهادة فيُنَبِئُكم بما كنتم تعملونَ ﴾ (٩:١٠٦) وقل : ﴿ ياأيها الناسُ ، إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى ، وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ ، لِتَعارفوا ، إنَّ أكرَمَكم عندَ اللهِ أتْقاكم ﴾ (٤٩:١٣) ، وقدقال تعالى : ﴿ أم حَسِبَ الذين اجترَحُوا السيِّئاتِ أن نجعَلهم كالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، سواءً محْياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون ! ﴾ (٤٥ : ٢٠) ، وهذا استفهام إنكاري ، يقتضي الانكار على من يحسب ذلك ويظنه ، وإنما يُنكر على من حسب وظن الخطأ صواباً ، والباطل صحيحاً .

فعلم أن التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، مما يعلم بطلانه ، وأن ذلك من أظلم الشيء الذي ينزه الله عنه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أم نجعلُ الذينَ آمنوا وَعمِلوا الصالحاتِ ، كالمُفسدينَ في الأرضِ؟ أم نجعلُ المتّقينَ كالفُجارِ ﴾ (٣٨:٢٨) وقوله تعالى : ﴿ أفَنَجعَلُ المسلمينَ كالمجرمينَ ، مالَكم ؟ كيف تحكمُون ؟ ﴾ (٦٨ : ٣٥) وبالاجمال ، فالتسوية بين الأبرار والفجار ، والمحسنين والظالمين ، وأهل الطاعة وأهل المعصية — حكم باطل يجب تنزيه الله عنه ، فإنه ينافي عدله وحكمته ، وهو سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفين ، فهو يسوي بين المتماثلين كقوله تعالى : ﴿ أكُفّاركم خيرٌ مِن أولئِكم ؟ أم لكم بَراءَةٌ في الزُّبر ؟ ﴾ (٥٤ : ٤٣) وقوله : ﴿ كَدَأبِ آلِ فِرعونَ والذينَ من قبْلِهِم ﴾ (٣:١١) ، فالشريف الهاشمي التقي النقي الصالح ، هو كيوسف ، والشريف الهاشمي الذي خرج عن الحد ، ثم تاب وأناب إلى الله وحسنت حاله ، هو كأخوة يوسف .

(الله أكبر الله أكبر)

(ما كان حديثاً يفترى)

— ١ —

وتابع السيد نور الدين السنغافوري كلامه فقال :

ليس القرآن مخترعاً ولا مفتري وليس فيه خرافات وأساطير

المراد من قوله ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ : أن قصص القرآن ، ليس مخترعاً ولا مفترى بدليل وجود أمثاله بين الناس قبل نزوله ، فهو وأن اختلف قليلاً في بعض التفصاصيل أو الجزئيات — عما يرويه الناس ، إلا أنه موافق في الجملة والجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون ، ان النبي اخترعه بعقله ، بل اسألوا عنه.

أهل الكتاب ، تجدوا أنه معروف بينهم ، ومروي في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند أهل الكتاب من قبل ، لا يضعف حجته ، كما يتوهم « المبشرون » بل هو من أعظم مايصدقه ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه ، يستدل بذلك على كونه من عند الله ، لأن النبي لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يستنتجنّ القارىء من هذه الآية ، أن قصص القرآن ، يجب أن لايختلف عن قصص التوراة والانجيل في شيء ما . . كلا . . إذ لو كان هذا الاستنتاج صحيحاً ، لما قال تعالى: ﴿ إنّ هـذا القرآن يَقُصُّ على بني اسرائيلَ أكثر الذي هم فيه يختَلفون ﴾ (٢٧:٧٦) ، فقصصه قـد يختلف عما عندهم ، فيبين لهم حقه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، وبين مخالفته لهـا في بعض الجزئيات ، كما قلنا .

ويقال أيضاً « ما كان حديثاً يفترى » من قبيل الخرافات والأساطير التي في أسفار الغير ، ولكنه كان بالعكس هادماً لتلك الخرافات والأساطير ، التي خلقتها تلك العصور اليهودية ، والعصور الستة قبله ، وكان مصدقاً لمـا تقدمه من الكتب خلا مازيد فيها أو حذف منها ، أو فسد بسبب الترجمة السيئة ، وكذلك خلا الكتب « الأبو كريفية » — أي التي ليست قانونيـة — الموجودة في الترجمـة السبعينية ، التي قبلتها الكنيسة البابوية بين الكتب الملهمة .

(ولكن تصديق الذي بين يديه)

— ١ —

وقال المدقق اللدي :

ليسمح لي السادة أن أعلق على هذه الفقرة من الآية الكريمة بالتعليقات التالية:

القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد

أولاً — القرآن مصدق لما قبله في تقرير التوحيد الخاص واتقاء الشرك ،

صغيرة وكبيرة ، واثبات النبوات والرسالات ، وما يغذي ذلك الإيمان ويقويه ، ومن ترك الفواحش والمنكرات ، وعمل الصالحات .

القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين

ثانياً — القرآن مصدق لأصول الدين وأركانه ، التي هي المقصد من ارسال جميع الرسل ، لايختلفون فيها ، وإنما يختلفون في طرق حمل الناس عليها ، وهدايتهم بها ، وترقيتهم في معارجها ، بحسب سنة الله في ارتقاء البشر بالتدريج ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، خذ اليك مثلاً على ذلك : المقصد من جميع الحكومات هو العدل ، وإنما تختلف الدول في القوانين المقررة له ، باختلاف أحوال الأمم ، فليس من العقل ولا الصواب أن تنكر الأمة تغيير حاكم جديد ، ما كان عليه من قبله ، إذا كان يوافقه في جعله مُقَرِّراً للعدل ، مقيماً لميزانه بين الناس ، كما كان أو أكمل ، وهو في هذه الحال يسمي مصدقاً لما بين يديه لا مكذباً ولا مخالفاً ، فالقرآن قرر نبوة ابراهيم وموسى وداود وعيسى ونحوهم ، وصدقهم فيما جاءوا به عن الله تعالى ، ووبخ الأقوام المدعين اتباعهم ، على إضاعتهم لبعض ماجاءوا به ، وتحريفهم للبعض ، وزيادتهم في بعض المواضع ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى أن أكثرهم هدموا الأساس الأعظم للدين ، وهو التوحيد ، وثلثوا واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، فتصديق القرآن لما بين يديه ، لاينافي مانعاه عليهم من الاضافة والنسيان والتحريف والتأويل المغلط .

القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد

ثالثاً — القرآن مصدق للكتب السالفة في التوحيد ، وروح العبادة وتزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات ، وتهذب الأخلاق ، وفي الكليات الخمس ، وهي

« حفظ الدين » بعدم الردة والكفر ، و « حفظ النفس » بعدم الانتحار وقتل الناس ، و « وحفظ المال » بعدم السرقة والربا والغش والخيانة ، و « حفظ النسب » بالتباعد عن الزنا ، و « حفظ العقل » بان لايتعاطى مسكراً ولا مخدراً ، هذه هي الكليات الخمس، التي هي مشروعة في كل دين ، وموصى عليها في كل كتاب .

القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الاصليين

رابعاً - القرآن مصدق لدين اليهود ودين النصارى الأصليين ، فان ديننا هو عين دينهم ، مع مزيد بيان ، واصلاح يقتضيه ترقي البشر ، ومع إزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين ، وماهي من الدين في شيء .

القرآن مصدق للكتب السماوية الاصلية

خامساً — القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ، ولكن وجد في هذه السورة ، في القصة اليوسفية ، ماهو مغاير للقصة في سفر التكوين الموجود عند اليهود والنصارى ، مابين زيادة في السيرة عما هو في سفر التكوين ، ونقصان في السيرة عما هو في السفر المذكور ، ولا يهولكم ذلك ، فالقرآن نزل مهيمناً على كتب اليهود والنصارى ،ومصححاً لها ، فما حكاه القرآن كان صحيحاً ، وما نفاه كان ليس بصحيح ، وما سكت عنه كان غير مهم ، لأن التوراة دخلها مادخلها من التحريف والزيادة والنقصان ، وأما قوله تعالى : ﴿ وكيف يحَكِّمُونَكَ وعندَهم التوراةُ فيها حُكمُ اللهِ ؟ ﴾ (٥:٤٦) ونحو ذلك مما يحتج به دعاة النصرانية ، على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود ، هي ما أنزله الله تعالى على موسى ، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف - فهو احتجاج ضعيف ، لأنه لايجوز للانسان أن يأخذ من القرآن مايوافق هواه ، ويرد مايخالفه جدلاً ، فالمؤمن

يؤمن بالكتاب كله ، والكتاب يبين لنا أن عندهم التوراة ، وأن فيها حكمَ الله ، في القضية التي تحاكموا فيها الى النبي ﷺ ، وهي قضية رجم الزاني المحصن ، وقد صدق الله تعالى ، وهو أصدق الصادقين ، ولكنه يبين لنا مع ذلك في نفس الكتاب أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه (٤ : ٤٥) ، وأن اليهود نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٤) ، وكذا النصارى نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٥) ، وأن اليهود إنما اوتوا نصيباً من الكتاب (٣ : ٢٣) ، إذ أضاعوا منه نصيباً آخر ، وقد صدق الله أيضاً في ذلك كله ، فقوله : ﴿ وعندهم التوراة ﴾ (٥ : ٤٦) لا يجب أن يعنى التوراة الصحيحة ، بل يجوز أن يراد بها التوراة ولو محرفة أو مزيدة أو ناقصة ، فكل ذلك يصدق عليه أنه توراة ، ولا تنس ههنا قوله تعالى: ﴿ إنّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بني اسرائيلَ أكثر الذي هم فيه مُختَلِفُون ﴾ (٢٧ : ٧٦)

شواهد من التوراة الحالية على ان فيها زيادة

هذا ولما خرجت امة القرآن بالقرآن من الأمية ، وعرفوا تاريخ اهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ، ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك ، كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله ، إذ ظهر لهم أن اليهود كانوا فقدوا التوراة التي كتبها موسى ، ثم لم يجدوها ، وانما كتب لهم بعض علمائهم ما حُفظ منها ممزوجاً بما ليس منها ، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك، فان فيها ما نصه : (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها ، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا ، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ، ليكون هناك شاهداً عليكم ، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة ، هو ذا وأنا بعدُ حيّ معكم اليوم ، قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحري بعد موتي ؟ اجمعوا اليّ شيوخ أسباطكم وعرفاءكم ، لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات ، وأُشهد عليهم السماء والأرض، لأني عارف أنكم بعدموتي تفسدون ، وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم ، ويصيبكم الشر في آخر الايام ،

لأنكم تعملون الشر أمام الرب ، حتى تغيظوه بأعمال أيديكم ـ فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيدالي تمامه) (تث ٣١ : ٢٤ ـ ٣٠) وههنا ذكر النشيد في (تث ٣٢) .

ثم قال الكاتب يسفر التثنية : (فأتى موسى ونطق بجميع كلمات هذا النشيد في مسامع الشعب ، هو ويشوع بن نون ، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع بني اسرائيل بهذه الكلمات ، قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات ، التي أنا أشهد عليكم بها اليوم ، لكي توصوا بها أولادكم ،ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم ، بل هي حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التي أنتم عابرون الأردن اليها لتمتلكوها) (تث ٣٢: ٤٤ ٤٧) ، فلا شك ان هذا الخبر أي كتابة موسى للتوراة زائد على التوراة ليس منها .

وثانياً ـــ خبر موت موسى ، وكونه لم يقم في اسرائيل نبي مثله بعد ، أي إلى وقت الكتابة ، فقد ورد في سفر التثنية (وصعد موسى عن عربات موآب الى جبل نبو ، الى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالي ، وأرض أفرايم ومنسى ، وجميع أرض يهوذا إلي البحر الغربي ، والجنوب والدائرة بقعة اريحا مدينة النخل إلى صوغر ، وقال له الرب : هذه هي الأرض التي اقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلاً : انسلك اعطيها قد أريتك اياها بعينيك ، ولكنك إلى هناك لا تعبر ، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، ودفن في الجوآء في أرض موآب ، مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ، وكان موسى بن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته،فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات موآب ، ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى ، ويشوع بن نون كان قد

امتلأ روح حكمة ، إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو اسرائيل ، وعملوا كما أوصى الرب موسى، ولم يقم بعدُ نبيّ في اسرائيل مثل موسى»(تث ٣٤ : ١ - ١٠) فهذا الخبر عن موت موسى معدود عندهم من التوراة ، وما هو في الحقيقة من التوراة المنزلة على موسى ، التي كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل هذا الخبر كتب كغيره بعده ، وقد ظهر تأويل علم موسى في بني اسرائيل ، فانهم فسدوا وازاغوا بعده كما قال ، وأضاعوا التوراة التي كتبها ، ثم كتبوا غيرها ، ولا ندري عن أي شيء أخذوا ما كتبوه ، على أنه فقد أيضاً . وقد قالوا : (إن « حلقيا » الكاهن وجد سفر شريعة الرب وسلمه إلى « شافان » الكاتب، فجاء به شافان إلى الملك » (٢ أي ٣٤ : ١٤ - ١٦) ، قال صاحب دائرة المعارف العربية: « إنهم ادعوا أن هذا السفر الذي وجده حلقيا هو الذي كتبه موسى ، ولا دليل لهم على ذلك » على أنهم أضاعوه أيضاً ، ثم إن « عزرا » الكاهن الذي (هيأ قلبه لطلب شريعة الرب » والعمل بها ، وليعلم اسرائيل فريضة وقضاء) (عز ٧: ١٠) قد كتب لهم الشريعة بأمر « أرتحشستا » ملك فارس ، الذي أذن لبني اسرائيل بالعودة إلى اورشليم.

التوراة الحالية كتبت بعد السبي

وعلى ذلك فجميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي، كما كتب غيرها من أسفار العهد العتيق ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية فيها، وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقد توراة موسى ، مع أنها هي أصل دين النصارى وأساسه ؛ وقد قال صاحب كتاب « خلاصة الأدلة السنية ، على صدق أصول الديانة المسيحية » ما نصه :« والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما ب « بختنصر » الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث كان جارياً بين اليهود

هو أن الكتب المقدسة فقدت، وأن « عزرا » الكاتب ، الذي كان نبياً، جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة ، وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية » انتهى بحروفه .

الرد على القول بأن « عزرا » الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية

ولقد نعلم أنهم يجيبون من يسأل : من أين جمع « عزرا » الكاتب تلك الكتب، بعد فقدها ، وإنما يُجمَعُ الموجود؟ وعلى أي شيء اعتمد في اصلاح غلطها ؟ فيجيبونه قائلين : « إنه كتب ما كتب بالالهام ، فكان صواباً » !!

ولكننا نقول : هذا الالهام مما لا سبيل إلى إقامة البرهان عليه ، ولا هو مما يحتاج فيه إلى جمع ما في أيدي الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، ولو كتب «عزرا» بالالهام الصحيح ، لكتب شريعة موسى مجردة من الأخبار التاريخية، الزائدة على التوراة، ومنها ذكر كتابة موسى لها ، وأنه أمر بوضعها في جانب التابوت ، ومنها ذكر موته ودفنه وعدم مجيء مثله ؟

وقد بين بعض علماء أوربا أن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة واحد فقط ، وليس من غرضنا الآن أن نطيل في ذلك ، وإنما نقول : إن الذي بين يدي القرآن ، الذي أتى القرآن مصدقاً له — هو ما أوحاه الله إلى موسى ليبلغه قومه بالقول والكتابة ، وأما سفر التكوين الذي عند القوم المشتمل على قصة يوسف ، فهو سفر تاريخ مشتمل على ما هو صحيح وغير صحيح.

(الله اكبر)

« وتفصيل كل شيء .. »

— ١ —

وقال الشريف المكي :

القرآن يذكر كل شيء مهم من امور الدين

يقول القرآن الكريم : وتفصيل كل شيء ، أي كل شيء يحتاج اليه في الدين، لانه القانون الذي تستند اليه السنة والاجماع والقياس ، بعد أدلة العقل ، وهذا نظير ما قال عن موسى عليه السلام : ﴿ وكتبنا له في الألواح مِنْ كُلِّ شيءٍ مَوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِكُلِّ شيءٍ ﴾ (٧ : ١٤٤) مع أن الألواح إنما هي ثلاثة أو اثنان ، جرياً على قول اليهود وعلى قول من قال : « أقل الجمع اثنان » ، وكانت من حجر ، وهل لا تسع إلاّ بعض الشيء ، ولكن المقصود من كلمة « وتفصيلاً لكل شيء » مهم يحتاج اليه في الدين ، وذلك الكلمات العشر وما اليها ، فالدين هو نقطة كثرها الناس ،

والشيء بالشيء يذكر ، فقد كان سألني بعض مبشري البروتستانت : كيف تقولون إن القرآن كان « تفصيل كل شيء » كما في آخر آية من سورة يوسف ، وكيف يقول القرآن إن ألواح موسى مكتوب فيها من كل شيء ، وفيها التفصيل لكل شيء ، مع أن تلك الألواح الحجرية الثلاثة على قولكم أو الاثنان على قولنا لا تسع كل شيء ، لا جملة ولا تفصيلاً ؟

فاجبته بقولي : المقصود كل شيء مهم يحتاج اليه في الدين ، ثم ماذا تقول فيما هو في آخر انجيل يوحنا « وأشياء أخر كثيرة ، صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة ، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » (يو ٢١ : ٢٥) ثم ماذا تقول فيما ينقل عن موسى أنه قال لبني اسرائيل : « وهو ذا أنتم اليوم كنجوم

السماء في الكثرة » (تث ١ : ١٠) ، وماذا تقول في قول سفر القضاة : « وكان المديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالين في الوادي ، كالجراد في الكثرة ، وجمالهم لا عدد لها ، كالرمل الذي على شاطيء البحر في الكثرة » (قض ٧ : ١٢) ، وماذا تقول فيما ينقل عن المسيح : « وأنتِ يا كفرنا حوم المرتفعة إلى السماء » (مت ١١ : ٢٣) ، وماذا تقول فيما هو في سفر يوحنا « هو ذا العالم قد ذهب وراءه » أي وراء المسيح (يو ١٢ : ١٩) ، ومما يقرب من قول يوحنا هنا قول جامعة سليمان : « لعمل كتب كثيرة لا نهاية » (جا ١٢ : ١٢) فما قاله مفسروكم في مثل هذه الأقوال نقوله في آيات القرآن الكريم ، مع انك سمعت الجواب عن آيات القرآن الكريم ، ولله الحجة البالغة .

(احسنت)

(وهدىً ورحمةً ، لقوم يؤمنون)

— ١ —

وقال الشيخ القبرصي [1] :

القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة

القرآن في نفسه هدى ورحمة ، وشفاء وموعظة ، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل ، وإن لم يستعمله ، فهو دواء له بالقوة ، وكذلك الهدي ، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به ، وبالقوة لمن لم يهتد به ، والهدى في الأصل مصدر هَدَى يَهْدِي هُدَىً ، فمن لم يعمل بعلمه ، لم يكن مهتدياً ، كما في الأثر : (من ازداد علماً ولم يزدد هدى . لم يزدد من الله تعالى إلا بعداً) ، ولكن سمى هدى ، لأن من شأنه

(١) نسبة الى جزيرة قبرص الواقعة في البحر الابيض المتوسط غربي شاطيء البلاد السورية.

أن يهدي ، وههنا ثلاثة أشياء ؛ فاعل وقابل وآلة ، فالفاعل الهادي هو الله تعالى، والقابل هو قلب العبد ، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل ، فالله سبحانه يهدي خلقه هدي ، كما يقال دلهم دلالة ، وأرشدهم إرشاداً ، وبين لهم بياناً ، والمقصود أن المحل القابل هو قلب العبد المتقى المنيب إلى ربه ، الخائف منه ، الذي يبتغي رضاه ، ويهرب من سخطه ، فاذا هداة الله بكتابه ، وصل أثر فعله الي محل قابل ، فيتأثر به ، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظه بالوجود والفعل والقبول ، وإذا لم يكن المحل قابلاً ، وصل اليه الهدى فلم يؤثر فيه ، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فانه لا يؤثر فيه شيئاً ، بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده ، كما قال تعالى في حق الآية التي كان نزلها : ﴿ فأماالذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يَسْتبْشِرونَ ، وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهِم ﴾ (٩ : ١٢٥و١٢٦) وقال : ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ماهو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يَزِيدُ الظالمينَ إلاّ خَساراً ﴾ (١٧:٨٢) ، فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ، ولعدم آلة الهدى تارة ، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلاّ عند اجتماع هذه الثلاثة ، وقد قال سبحانه : ﴿ ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خَيْراً لأسْمَعَهم ، ولو أسْمَعَهم لتَوَلّوْا وهم مُعْرِضون ﴾ (٨ : ٢٣) فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء ، وهو إسماع قلوبهم ، وإفهامها ماينفعها ، لعدم قبول المحل ، فإنه لاخير فيه ، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه ، والميل اليه والطلب له ، والحرص عليه ، والفرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك ، فوصل الهدى اليها ووقع عليها ، كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية ، التي لاتمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فلا هي قابلة للماء ولا للبنات ، فالماء في نفسه رحمة وحياة ، ولكن ليس فيها قبول له ، ثم أكد هذا المني في

حقهم بقوله: ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (٨:٢٣) أي أنهم مع عدم قبولهم وقلة فهمهم ، فيهم آفة أخرى ، وهي الكبر والأعراض وفساد القصد ، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به ، فالهـدي في حق هؤلاء ، هدى بيان وإقامة حجة ، لا هدى توفيق وارشاد ، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، وأما المؤمنون فاتصل الهـدى في حقهم بالرحمة ، فصار القرآن لهم هـدى ورحمة ، ولأولئك هدى بلا رحمة .

(وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

— ٢ —

وقال السيد الدمشقي :

القرآن هدى ورحمة لمن يتفهمه

يقول الله تعالى إن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لأنهم هم الذين يفهمونه فيعملون به فينتفعون ، وأما من لا يفهم كتاب اللهِ ، فنفسه « حمارية » كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُوا التوراة ، ثم لم يَحمِلوها ، كمَثَلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً ﴾ (٦٢:٥) ، وكذلك الذين يولون مدبرين عن درس كلام الله القرآن ، هم في نظر الله تعالى حمير ، كما قال تعالى : ﴿ فما لَهُمْ عن التّذْكرِ مُعرِضِينَ ؟ كأنهم « حُمُرٌ » مُستَنْفِرَةٌ ، فَرّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٧٤ : ٤٩ — ٥١) ، وأما من يفقه الكتب السماوية كالقرآن مثلا ، ولكنه لا يعمل حسبما يعلم ، فهو عالم السوء ونفسه « كلبية » ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿ واتْلُ عليهم نبأَ الذي آتيناهُ آياتِنَا فانسَلَخَ منها ، فأتبَعَهُ الشيطانُ فكان الغاوين ، ولو شِئْنا لرفعناهُ بها ، ولكنه أخلَدَ الى الأرض ، واتبعَ هواهُ ، فمَثَلُهُ كمثلِ الكلبِ : إن تحمِلْ عليه يلهثْ ، أو تتْرُكهُ يلهثْ ﴾ (٧ : ١٧٤ و ١٧٥) .

الهدى هو الدعوة والدلالة والبيان

والهدى يكون بمعنى الدعوة والدلالة والبيان ، سواء وصَّلَ أم لم يوصل ، وهـذا يشترك فيه المؤمن والـكافر ، كقوله تعالى ﴿ وأمّا ثمودُ فهَدَيْناهُم فاستَحَبّوا العمى على الهدى ﴾ (١٧:٤١) ، ويـكونُ بمعنى جعل الإنسان مُهتَدياً ، أي بمعنى الدلالة الموصلة، وهذا يختص بالمؤمنين ، وهو المطلوب في قوله: ﴿ اهْدِنا الصِراطَ المُستَقيمَ ﴾ (١ : ٥) وبقوله في وصف الـكتاب : ﴿ هُدى لِلمُتَّقِينَ ﴾ (٢:٢) ثم قوله : ﴿ أُولئكَ على هُدًى مِنْ ربهمْ ﴾ (٢:٥) وقوله هنا في الآية : ﴿ وهدىً ورحمةً لِقومٍ يؤمنونَ ﴾ ، وقد شرع الله لنا ، أن نسأله ذلك في كل صلاة ؛ وهو أفضل الدعاء ، وأفرضه وأجمعه لـكل خير ، وكل أحـد محتاج الى الدعاء به ، فلهذا أوجبه الله تعالى على العبد ، في كل صلاة . (الله أكبر)

انتهى الجزء الثاني

وهنا وقف كاتب سر المؤتمر واختتم جلسات المؤتمر باسم السيد رئيس المؤتمر ثم القى كلمة تناسب المقام ، شاكراً فيها المحاضرين الأكارم على مابذلوه من مشقة وجهد في سبيل كتاب الله العظيم ، واعداً إياهم بدعوتهم إلى عقد مؤتمرات تفسيرية لسور أخرى من القرآن الكريم ، ثم انفض عقد اجتماعهم وهم يهنئون بعضهم بعضاً على حسن الختام [١] .

(١) غير اننا نذكر بملء الأسف والأسى ان المنية قد عاجلت السيد كاتب السر ، اذ تغمده الله برحمته ورضوانه في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى لسنة ١٣٥٥ هـ الموافق لليوم السادس والعشرين من شهر تموز (يوليو) لسنة ١٩٣٦ م .

(ابن المؤلف)

فهرس الجزء الثاني من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

٨٣١ يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم .

آ(٤١) ﴿ ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب ، فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ ٨٣٢ يوسف يعبر رؤيا الفتيين بصراحة ٨٣٣ اصغاء الفتيين الى وعظ يوسف ٨٣٤ استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة ، الحجر الأول في بناء مجد يوسف ، حال الفتيين حين سماعهما تعبير رؤيهما ٨٣٥ النواة والشجرة والثمرة ، تسمية الملك رباً عند المصريين ، لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة ٨٣٦ تحقق وقوع تعبير رؤيا الفتيين ٨٣٧ خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى ، من عادة قدماء المصريين حلق شعر رؤوسهم ولحاهم ٨٣٨ الصلب عرفاً هو الاماتة على الصليب ، معنى الصلب في القرآن .

٨٣٩ استشفاع يوسف بالناجي من الفتيين .

آ(٤٢) ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما : اذكرني عند ربك،فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين ﴾ ٨٤١ نسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك وأسبابه ٨٤٣ مدة بقاء يوسف في السجن ، التوسل وأنواعه والجائز منها شرعاً ٨٤٤ الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر ، التوكل ٨٤٥ تحقق رجاء يوسف من الشرابي ٨٤٦ الاستعانة بالاسباب في قضاء الحاجة ٨٤٧ هل قام الشرابي بما طلبه منه يوسف فور خروجه من السجن ٨٤٨ أسباب عدم اخبار يوسف أباه بسجنه ٨٥٠ فصول مأساة يوسف (ع) ، على من يريد انتقاد أحد أن يتمهل حتى تستوفي البينة نصابها ٨٥١ تعليل تعبيره بكلمة « ظن » في الآية ، اطلاق لفظ « الرب» .

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع:

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الاخوة بأن بنيامين بريء من السرقة ، ثبات الاخوة على كره يوسف ١١١٢ اختصار الاخوة الطعن بيوسف ١١١٣ أوجه احتمال قوله «فأسرها»... «مثال لحلم يوسف .

١١١٥ استعطاف الاخوة :

آ(٧٨) ﴿ ... قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ ١١١٦ استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه ١١١٧ أي الاخوة قام بالاستعطاف ، طلب الاخوة ترك الجاني وأخذ البريء .

١١١٨ يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على أخذ سارق الصواع .

آ(٧٩) ﴿ قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون ﴾ ١١١٩ رفض يوسف ترك بنيامين أو أخذ غيره من الاخوة ١١٢٠ يوسف بين عاملي فرح وكدر ١١٢١ لا محاباة في أحكام الشرع ، لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به اخوته ١١٢٢ تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن ، ظاهر قوله « إنا إذاً لظالمون » وباطنه ١١٢٣ التورية في قوله « متاعنا » ١١٢٤ برقيتا شفرة من يوسف لأبيه .

١١٢٤ اليأس والمفاوضة والمناجاة .

آ(٨٠) ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ..؟ قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الارض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين ﴾

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤلف فيها رأي أو فهم خاص في الجزء الثاني

الصحيفة والموضوع :

جدول الأخطاء المطبعية وتصويبها في هذا الجزء (الثاني)

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٤٣	١٣	ولو	لو
٧٤٦	٤	الفرصة	الفرجة
٧٥٢	٨	والعقل	والفعل
٧٥٣	٢٣	العظيمة	العظمية
٧٥٥	١٤	لشركهم	بشركهم
٧٥٥	١٥	قض ٦ : ٦٥	قضُ ٦ : ٢٥
٧٥٥	٢٣	حيدون	صيدون
٧٥٦	١٥	تراقيم	ترافيم
٧٥٦	٢٤	ونبوا	وبنوا
٧٦١	٤	وملحاؤهم	وصلحاؤهم
٧٦٣	١٥	أذربجيان	أذربيجان
٧٦٤	١٥	الغَيبْ	الغيبِ
٧٦٨	٧	(٢ : ٢٧٦)	(٢ : ١٧٦)
٧٧٥	١١	وعشية	وعشيهْ
٧٧٥	١٣	نِعمَتي	نعْمتِيَ
٧٨٤	١٧	عليها كثيرة	عليها في مواضع كثيرة
٧٨٥	٧	تلبيـونَ	تُلبِسونَ
٧٨٥	٩	مُصِدقاً	مُصَدقاً
٧٨٥	١٥	يا أيها آمَنوا	يا أيها الذين آمَنوا
٧٨٨	٤	حبان	حيان
٧٩١	١٧	منه ، أو ما شاءوا	منه ، أو منشقان منه ، أو ما شاءوا

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٩٢	١٤	أخرجناه	أخرجاه
٧٩٤	١٩	مثرات	مترات
٧٩٤	٢٠	متراث	مترات
٧٩٨	١٥	اوزمية	اورمية
٧٩٨	١٧	الاقسوسيّ	الافسوسيّ
٧٩٩	١٢	الفراعنة في التوثن	الفراعنة وثنيين على طريقة الفراعنة في التوثن
٨٠٠	٢	بقوله عز وجل	كما في قوله عز وجل
٨٠٠	٤	ولا يَتّخذُ	ولا يتّخذَ
٨٠٠	٢١	الأدبية	الادبية
٨٠١	٢	أدبية	أدبية
٨٠٢	١٢	أصحابُ	أصحابَ
٨٠٣	٢	شركاءٌ	شركاءُ
٨٠٦	٥	وإنّ كان	وإنْ كان
٨٠٦	١٤	فهم	منهم
٨٠٨	١	القامة	القيامة
٨٠٨	٣	بيبن	بيّن
٨٠٨	٥	(أع ٢٠ : ٢٢	(أع ٢ : ٢٢
٨٠٨	١٦	وتطيعوني	وتطيعوني » آه
٨١١	٤	إن الحكمُ	إنْ الحكمُ

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨١٧	٨	ودائماً	دائماً
٨١٧	١٢	بُنيانَهُمْ	بِنيَّاتِهِم
٨١٨	٧	من قبل	من قبيل
٨٢١	٢٠	يسمعانه	يسمعان
٨٢٢	١٦	أداء	داء
٨٢٣	٨	وتقَصّى	وتفصّى
٨٢٣	١٤	الكري	الكردي
٨٢٤	١٧	السؤآل	والسوآل
٨٢٤	٢٠	كما	وكما
٨٢٥	٤	نَشركَ	نُشركَ
٨٢٦	١٥	أدن	أدنان
٨٢٩	١١	لَيَضِلّونَ	لِيُضِلّونَ
٨٣١	١١	« بنو »	« نبو »
٨٣٢	٤	بصراحة	بالحزم والصراحة
٨٣٢	١٥	« مجللث »	« مجلث » أو «ملحب»
٨٣٤	٦	شعر	شعرا
٨٣٧	١٠	« فانون »	« قانون »
٨٤٥	٢٠	يوسب	يوسف
٨٤٧	١٨	والجوانح	والجوائح
٨٤٨	١٦	يبحلون	يبخلون
٨٤٨	٢١	خبار	إخبار

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٥١	١٩	الصدي	الصدى
٨٥٢	٢١	الله خالقٌ	الله خالقُ
٨٥٣	١٢	أنَ	أنّ
٨٥٣	١٣	إنَ	إنّ
٨٥٤	٤	يوم القيمةَ	يوم القيمةِ
٨٥٤	٢٢	سيُغلَبون	سَيَغْلِبُون
٨٥٥	٥	« امية بن خلف »	« أُبَي بن خلف»
٨٥٥	٧	« اُمية بن خلف »	« أُبَي بن خَلف»
٨٥٥	٨	فزوده	فزده
٨٥٥	٩	وزادوه	وزاده
٨٥٦	٦	رُؤُيايَ	رُؤْيايَ
٨٥٧	١٥	ورقيمة	ورقيقة
٨٥٧	٢٠	نائية	نابتة
٨٦٤	٤	من عبرت	من عبرّتُ
٨٦٥	٥	هو جمع	قلت هو جمع
٨٦٩	٢٢	(يستقاد من رؤياه)	(كما يستفاد من رؤياه)
٨٧٠	١٨	أمّةِ	أمّةٍ
٨٨٠	١٦	أنت وَزَوْجك	أنت وَروَجك
٨٨٣	٧	الرؤية	الرؤيا
٨٨٥	٢	لشأن	بشأن
٨٨٩	١٥	قد مُتسم	قدّ متسم

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٩٠	٢٠	الحمم	الِحمام
٨٩٢	٧	قضى يوسف	قفّى يوسف
٨٩٤	١٩	هذه المرة بقول « الشرابي »	هذه المرة أيضاً كحظه في سابقتها، أو لعله اكتفى في هذه المرة بقول « الشرابي »
٩٠٢	١٩	باتهامه	باتهامها
٩٣٩	٤	وأزلقه	وأزلفه
٩٤١	١٤	أو نفصه	أو نقصه
٩٦٤	١١	لحريم	لحزيم
٩٦٥	٧	وطمع	وطمع
٧٦٨	١٢	خزائن	خزائن الملكة
٩٧٩	٨	بصبيان	تصبيان
٩٩٠	١٤	بيوثيل	بتوثيل
٩٩١	٦	اخوةٌ	اخوة
٩٩٣	٨	للمثارين	للممتارين
٩٩٧	١٠	فعنيع	فعنيح
٩٩٩	١٥	وقالَ	قالَ
١٠٠١	٧	للقرآن	للقراء
١٠٠٢	١٧	وقام	وقال
١٠٠٧	٨	على	من
١٠٢٢	٢١	جعلوا	اجعلوا
١٠٢٣	٧	المتمدنية	المتمدينة

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٠٢٤	٩	(فلما رجعوا	(فلما رجعوا)
١٠٢٨	١٨	صمن	ضمن
١٠٤٥	٦	الغَوَر	الفـَرَر
١٠٥٦	١٣	أمَرَهم	أمَرُهم
١٠٥٦	١٤	لا حاجةً	إلاّ حاجةً
١٠٥٦	١٥	عليم	عِلْمٍ
١٠٥٦	١٥	كثر	أكثرَ
١٠٦٤	٤	مؤذِنٌ	مؤذّنٌ
١٠٧١	١٨	قبول بنيامين	قبول بنيامين التسريقْ
١٠٧٢	١	التسويق	التسريق
١٠٨١	٢٣	وادى الفضا	وادى الغضا
١٠٨٠	١	يرددون	يردون
١٠٨٨	٨	كـُلِ	كُلّ
١٠٨٩	١٩	يوحي	بوحي
١٠٩١	١	كيد تكويني راجع	كيداً تكوينياً راجعاً
١٠٩٥	١٢	مارق	سارق
١١٢٣	١٣	العّلات	العلاّت
١١٣٥	١٣	« العيرة »	« العير »
١١٤٢	٢٢	فأقِيا	فأتِيا
١١٥٣	١١	دون تترك	دون أن تترك
١١٧٠	٣	واسرق	واسترق

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١١٧٠	١٣	وَلِيُمخِّصَ	وَلِيُمَحِّصَ
١١٧٩	١٣	ربّكم	ربُّكم
١١٨٠	١٦	يُعْلِمونَ	يُعَلِّمونَ
١١٨٦	١٨	العبرانين	العبرانيين
١١٨٨	١٢	المتمدنية	المتمدينة
١٢٠٦	٨	« الابان »	« لابان »
١٢١٣	١٧	من أذكره	من أن أذكره
١٢١٥	٦	تَرجمون	تُرَجمون
١٢١٩	٣	(٥ : ٦٩)	(٥ : ٦٦)
١٢٢٠	٦	ياالخجلة	يا للخجالة
١٢٣٣	١٣	دَبُر	دَبْرَ
١٢٥٠	١٣	بَصر بعمله	بَصُرَ بعمله
١٢٥٤	١٥	لولده يوسف	لدلوه يوسف ثم فقده له
١٢٥٤	١٩	من ابيضاض أو فقد حسن الرؤية	من فقد الذاكرة البصرية فقدا روحياً نفسانياً
١٢٥٧	٥	فاص	ناس
١٢٦٢	١٦	لوارمه	لوازمه
١٢٦٦	٨	لهوا	لهو
١٢٦٧	٢١	المخزّ	المحزّ
١٢٧٢	٨	رشده آلهي	أرشدهُ النُّهى
١٢٨٢	١٣	(إني أجد)	(إني لأجد)

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٢٩٢	١٨	ورأيت من	وما رأيت من
١٣٣٢	٢٣	جمع معزى	جمع مغزى
١٣٣٩	١٣	الكتابة	الكناية
١٣٦٧	١	ومملكتاهم	ومملكتيهم
١٣٦٧	٥	ومملكتاهم	ومملكتيهم
١٣٧٧	١٢	فالأخبار	فالإخبار
١٣٨٢	٢	الجيد	المجيد
١٣٨٤	٢	عند	عنه
١٣٨٨	١٥	تسير	تشير
١٣٩٠	١٤	فارعة	فارعه
١٣٩٢	١	على	من
١٣٩٥	٢٠	تلعرافاً	تلغرافاً
١٣٩٩	٨	غيرهما	غيرها
١٤٠٥	١٢	في النصارى	في دين النصارى
١٣٠٧	٤	لحاجات	الحاجات
١٤٠٧	٤	المانع	النافع
١٤٠٩	٨	الأنباء	الأنبياء
١٤٠٩	١٥	بخاه	بجاهه
١٤١١	٥	واحذ	واحد
١٤١٢	١٢	يُشرِكْ	يُشْرِكْ

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٤١٢	١٨	وحيننذ	وحينئذ
١٤١٣	١١	مسلمين	مسلمي
١٤١٤	١٧	تسفية	تسفيه
١٤١٥	٢٢	عقوية	عقوبة
١٤١٩	٤	الاعراض	الاعراف
١٤٢٠	٣	مخشورة	محشورةً
١٤٢٠	١٢	ذالك	ذلك
١٤٢١	١٧	وأفوا	وأوْفُوا
١٤٢٣	٣	تستاخرن	تستأخرونَ
١٤٢٤	٥	وقولها	وقوله
١٤٢٤	٩	حَذَرُ	حَذَرَ
١٤٢٤	١٧	والعودية	والعبودية
١٤٢٧	١٦	هل يكن	هل لم يكن
١٤٢٨	٦	اللهَ الذين	اللهَ الذي
١٤٢٩	١٦	إيدانا	إيذانا
١٤٣٠	٩	فانّ لا نجمل في	فإن الانجيل الذي في
١٤٣١	١٣	فهوى	فهو
١٤٣٤	١٠	أولادهم	أولادهن
١٤٣٩	٤	من الماضي	على الماضي
١٤٣٩	٥	(فينلدروا كيف	(فينظروا كيف
١٤٤٣	١٢	به القرآن	به من القرآن

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٤٤٣	١٢	استخدمها	استخدمها
١٤٤٣	٢١	عن الرجال	عن كل الرجال
١٤٤٧	٣	يقنو	أيقنوا
١٤٥١	٢	فهذ الباب	فهذا الباب
١٤٥٩	٢	صغيرة و كبيرة	صغيره و كبيره
١٤٦٢	١٤	عن عربات	من عربات
١٤٦٣	٧	التوواة	التوراة
١٤٦٧	٢٠	القرح	الفرح
١٤٦٧	٢٢	للبنات	للنبات
١٤٦٨	١٥	التذكر	التّذْكِرَةِ
١٤٦٨	١٩	فكان الغاوين	فكان من الغاوين
١٤٧١	١٨	والوهية	والالوهية

وقد يوجد اخطاء اخرى لا تخفى على القارىء اللبيب

انتهى